

مهرجان القراءة للجميع

المصريات

مكتبة  
الأسرة  
2000

# النيل حياة نهر

إميل لودفيغ

ترجمة: عادل زعيتر



الهيئة المصرية العامة للكتاب



اهداءات ٢٠٠٣

أسرة المرحوم الأستاذ/محمد سعيد البميوي

الإسكندرية







النيل - حياة نهر







# النيل - حياة نهر

إميل لودفيج

ت : عادل زعيتر





## مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٠

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(المصريات)

النيل

حياة نهر

إميل لودفيج ت : عادل زميتير

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة التنمية الريفية

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ : هيئة الكتاب

الغلاف

والإشراف الفني:

القنان : محمود الهندي

المشرف العام :

د . سمير سرحان

## على سبيل التقديم

---

وتمضى قافلة «مكتبة الأسرة» طموحة منتصرة كل عام،  
وها هي تصدر بصفة مستمرة طول العام برعاية كريمة من  
السيدة سوزان مبارك تحمل دائماً كل ما يثرى الفكر  
والوجدان... عام جديد ودورة جديدة واستمرار لإصدار  
روائع أعمال المعرفة الإنسانية العربية والعالمية فى تسع  
سلاسل فكرية وعلمية وإبداعية ودينية ومكتبة خاصة  
بالشباب. تطبع فى ملايين النسخ التى يتلقفها شبابنا  
صباح كل يوم.. ومشروع جيل تقوده السيدة العظيمة  
سوزان مبارك التى تعمل ليل نهار من أجل مصر الأجل  
والأروع والأعظم.

**د. سمير سرحان**

---





إلى الغالودفينغ الإفريقية  
( المؤلف )





## مقدمة المترجم

قلتُ للكاتب الألمانيّ الكبير إميل لودفيغ غيرَ كتابٍ في تراجم الرجال ، وللناطقة العربيّ هذا كتابُ « النيل » وكتابُ « البحر المتوسط » ترجمَ فيهما للنهر والبحر كما ترجم للعطاء ، فأكسبهما من الحياة ما يُخيّل إلى القارئ معه أن الجماد من بنى الإنسان ، و« النيل » هو الذى أعرضه الآن على القراء .

بدا النيلُ للودفيغ إنساناً قصصاً نبأ مغامراته ومخاطراته ، وأبصر النيلَ فى شبابه مرّداً لمؤثرات البيئة التى أوجدته ، فلما صار كهلاً أخذ يكافح تطاولَ العالم الخارجى بسجّيته ، ولما دخل دور المَشَيْب ظهر أثرُ الإنسان فيه .

وقضى لودفيغ ستّ سنين فى جمع موادّ هذا السّفر الجليل ، الذى هو يدعُ فى بابه ، ووضعه ، ولا يُعدُّ هذا السّفر ، إذن ، من الكتب التى ينشرها كُتّابُ يُنفِقون أساييعَ فى مصر فنشتمل على خطأ غير قليل .

وينطوى الكتاب على أدب وتاريخ واجتماع وجغرافية ، مع غبوضٍ والتباسٍ فى الفكر والتعبير ، شأنُ لودفيغ فى جميع كتبه ، فبدلنا جهداً كبيراً فى تذليل ذلك لشوكة اللغة العربية مع حَرْفِيَّةِ النقل ، وجعل أسلوب الترجمة مساوياً للأسلوب الأصيل جُهدَ للمستطيع .

والكتابُ ، مع ذلك ، ليس للتسلية ، ولا للترويح والتخيلة ، فلم يُكتب باللغة الدارجة ولا على نمط الروايات السياره ، وهو يتطلب ، لفهمه والإحاطة بمعانيه ومناحيه ، صبراً ودقةً وإتمامَ نظر .

ومن يطالع على كتب لودفيغ ومن إليه من أساطين الأدب في الغرب يرُغّه ما بين الأدبيين ، العربي والغربي ، من بونٍ واسع في الوقت الحاضر ، مع ما كان من غنى لغة الأدب العربي في الزمن الغابر ، ولا بُدَّ ، لذلك ، من تطعيم لغتنا الراهنة مقداراً فقداً بما تحتويه معاجنا من كلماتٍ غير نائية ، فلعلها تصير مألوفاً ، وهذا ما سِرت عليه بعضُ السّير في كثيرٍ من الأسفار التي ترجمتها ، ولكن مع تفسير هذه الكلمات في هامش الصفحات سهيلاً للمطالعة .

وفي الكتاب كلماتٌ قليلةٌ عربناها لما رأينا من عدم وجود ما يقابلها في كتب لغتنا ، كما أننا اجتنبنا تكرار النسبة في الكلمات المَعْرَبَة خلافاً لما اعتمده كتابنا فنهنّا إلى ذلك كله في مواضعه .

نقلتُ كتاب «النيل» إلى العربية معتمداً على ترجمته إلى الفرنسية والإنكليزية ، راجياً أن أكون قد قدّمتُ إلى إخواني أبناء النيل هذه الهدية الصغيرة لأعرب لهم عن مودتي بها ، ووادي النيل هو البلد الكريم الذي أحببته كثيراً .

عادل زعيتر

( نابلس )

## مُقدِّمة المؤلف

كُتِبَتْ وترجِّمتُ ، وكلما كُتِبَتْ سيرة رجل وترجِّمت عنه <sup>(١)</sup> تَمَثَّلَ لى مجرى  
نهر ومصيره ، ولم يَبْدُ لى وجودُ نصيب بشرى لنهر وصورة إنسان له غير مرة واحدة ،  
فلما أبصرتُ سدَّ أسوان العظيم للمرة الأولى فى نهاية سنة ١٩٢٤ كان للمعنى الرمزيُّ  
الذى قرَّضه على من السلطان الكبير ما ظننتنى معه هنالك ، فى ذلك المحل الفاصل  
من المجرى ، مدركا لحياة النيل من منبعه إلى مصِّبه ، وترى للطبيعة فى ذلك المكان  
قوةً أولية سيطر الإنسان عليها بذكائه فخول الصحراء إلى أرض خصيبة مُحَقَّقًا  
ما حاوله الدهريُّ <sup>(٢)</sup> فاوست <sup>(٣)</sup> وعدَّه أرفع عملٍ للرجل ، وما لاح لعينى  
فى أسوان من ذكرى لخاتمة فاوست هذه أوحى إلى برغبة فى كتابة قصة النيل كما  
أكتبُ قصة العطاء .

ولكننى قبل أن أقصَّ نبأ مغامراته وأبْدِ عميق مخاطراته أرى سبَّغ غوره توكيدا  
لبصرى أو تقويما لنظرى ، وقد عرفت أجزاء إفريقيا الأخرى منذ زمن ، وإفريقية  
مما أحبتُ ، وإفريقية مما جَلَب السعادة إلى ، وفى المنطقة الاستوائية وفى منبع النيل  
كنت قبل الحرب العظمى ، وعلى أن أدرس النيل عن كَشْبٍ ليظهر لى أنه أبهرُ  
الأنهار طرًّا .

والنيلُ أكثرُ الأنهار طولاً ، وليس النيلُ أغزرُ الأنهار ماءً ، وفى هذا سرُّ  
حياته وحياة ما يُبَلِّغه من بِقاع ، والنيلُ يجوب صحارى وفلواتٍ ، ولا ينال النيلُ

---

(١) ترجم عنه : أوضح أمره — (٢) الدهرى : بالضم ، هو الذى أتى عليه الدهر ومال  
عمره ، وهى نسبة إلى الدهر، شاذة — (٣) فاوست : بطل رواية لفوته عرفت بهذا الاسم .



روافد ولا غَيْثًا فِي شَطْر<sup>(١)</sup> من مجراه ، ولا يَنْقُصُ النيل بذلك ، ويوجدُ أخصبَ الأرضين في نهاية أمره مع ذلك ، وعلى ما يُبَدِّدُهُ النيل من أدقِّ قَوَاهِ في فَنَائِهِ على ذلك الوجه يُبَصِّرُهُ مَهُولًا فِي مَصَبِّهِ ، وعلى ما يَدُلُّ عَلَيْهِ طَوْلُهُ من سدس محيط الأرض تراه أبسط الأنهار شكلًا ، فهو يجري من الجنوب إلى الشمال تَوًّا مُحْدِثًا عَظْفَةً واحدة فقط ، وهو لم ينحرف غيرَ أربعمئة كيلومتر من طوله البالغ ستة آلاف كيلومتر ، ويقع مَصَبُّهُ ومنبعه على درجة واحدة من الطول تقريبًا .

ويشتمل حوض النيل على أعظم بحيرة في نصف الكرة الأرضية الشرق وعلى أعلى جبال قَارْتُو وأكبر مدنها ، ويُقَمَّرُ ضفافَ النيل أكثرُ طيور النصف الشمالي من الكرة الأرضية وجميع ما في الفِرْدَوْس من حيوانٍ ونبات يَتَرَجَّع بين نواحي الألب وغياض البلاد الحارة وغيَراس البطائح والتُدران ، وزرع الشهُوب والقيافي وأغنى ما في الدنيا من الأطيان ، ويُطْعِمُ وادي النيل مئاتِ العروق وَيَقُوتُ أَناسٌ من الجبال والمناطق ومن العرب والنصارى ومن أَكَلَةَ لحوم البشر ومن ذوى الطول والقصر ، وما بين الناس من اصطرايح في سبيل الثراء والسلطان وفي سبيل العادات والإيمان وفي سبيل هيمنة اللون يُمكن تَتَبُّعُهُ هنا لمدَّة ستة آلاف سنة خَلَّتْ ، أى لمدَّة أطول مما في أىِّ مكان لتاريخ البشر .

ولكن أعجَبَ ما وجدتُ في تلك الظواهر التى تتجلى فيها قدرة الطبيعة وعمل مخلوقاتِها وجهودِ الناس والزراعة والنبات والحيوان والأُمُّ وتاريخُها هو أنها ما كانت لتُوجد لولا النهر ، أو كانت تُوجد على خلاف ما هى عليه بغير النهر .

بَدَأَ النيلُ لى كائناً حَيًّا يَقُودُهُ قَدَرٌ مرهوب نحو استعباد محتوم بعد ظهور نضير ،

(١) شطر القىء : نصفه .

ولاح النيلُ إلى كهؤلاء الرجال فأردتُ أن أستنبط من طبيعته تسلسلَ حوادث حياته المُقدَّرَ فأبنتُ كيف أن الوليد ، وهو يتفكَّت من الغابة البكر ، ينمو مصارعاً ثم تنقُر هِمَّتُه ويكاد ينفذ ثم يخرج ظافراً ، وكيف أن أخاه القصىَّ القحام يهرع إليه ليزلّقا معاً من خلال الصحراء ويصاولا الصخر ، والنيلُ في تمام رُجولته يقاتل الإنسان فيقهره ويروّض ويوجب سعادة الآدميين ، ولكن النيلَ قبلَ ختام جريته يسبب من المآسى أكثر مما في شبابه الوحيش .

ويكون تأثير البيئات في النيل شديداً في البُداء شدةً تأثر الصبا والفتاء بالطبيعة والمحيط ، فإذا مضى حينٌ عمِلَت مكالفته الإنسانَ عملها فيه وساقته ، ويجاوز النيلُ دورَ البساطة الأولى في السكون إلى دورِ النور المُقدِّد في التمدن الحديث فيُنصِر مبدأ قاهره الأكبر في خطر ، ويتبعه طمعُ الناس في المال فيقذِف نفسه في البحر ليُجدد يمشي خالد .

وفي الغالب تجدُ وثائقَ حياة كلِّ نهر في المُلَوَّقات العلمية أو في كتب السياحة حيث يسافر الكاتب مع القارىء ، ويتضمن الوجهُ الوصفُ الجديد الذى هدفتُ إليه طرازاً آخرَ في جمع الوقائع ، قد أمسكتُ النهرَ في مراكز مجراه الحيوية الخمسة كما صنعتُ في تراجمي السابقة : أمسكتُ به في بحيرة ألبرت (مرتين) وفي بحيرة نووفى الخُرطوم وفي أسوان وفي القاهرة ، وقد نوّيت وصفَ حياة ، لا كتابةً دليل ، فلا أسيحُ مع القارىء على النهر ، ولا أقصُ مغامراتي بل أقصُ مغامرات النيل ، والنيلُ سائحاً هو الذى يفتن مصيره أفئدتنا أجمعين .

ومن العبث أن يُبحث في هذا السّفر عن جغرافيةٍ كاملةٍ لبقاع النيل الأربع

أو عن تاريخ جامع لها ، أو عن معلّمة<sup>(١)</sup> للشعوب والحيوان والنبات ، وتُبصر في هذا السّفرُ بُدأً تُقَصِّرُ بلا انقطاع اجتنباً لِمَوْقِ النهر عن جَرِيهِ ، وتُبصر في هذا السّفرِ إعراضاً عن حياةٍ كاشفى منبع النيل الروائية مع احتمال بيانها ذات يوم على انفراد .

وقد اقتطع وصف مجرى النيل من منبعه إلى مَصَبِّه بفصولٍ تاريخيةٍ تُشغِلُ ربع النصفِ الأول من هذا الكتاب ونصفَ الشّطر الثاني منه ، وسببُ هذا التفاوت في التوزيع هو عدم وجود تاريخ للنيل الأعلى تقريباً وفرةُ معارفنا عن النيل الأدنى . وكما رأيتُ فيولاً وأسوداً على ضفاف النيل الأعلى ، ورجالاً وحمريراً على ضفاف النيل الأدنى ، تردُّ للشربُ مساءً أبصرتُ موكباً متصلاً لأشباح أولئك الذين عاشوا وسيطروا وألّموا هنالك ، وأبصرتُ تنازع الأديان والعروق في صحارى السودان وسهوبه ، وفي مصر التي هي مصدرُ الإنسانية في الغرب .

وفي هذا الكتاب ، كما في سِيرى الأخرى ، لم أَلْ جُهْداً في كَتْمِ المصادر التي رَجَعْتُ إليها تحقيقاً لانطباعاتي وإمعاناً فيها ، وذلك لمدى إظهار الذى أَرَى في رَمَزٍ وإظهار الرّمز في حادث منظور أهم من جمع التواريخ والأسماء التي يُمكن كل واحد أن يَجِدَها في المراجع الخاصة ، وفي هذا السّفر ، كما في سواه ، لم أَدخِرْ ومناً في تلوين ما يُعَبِّرُ للتخصّص عنه بالأرقام والجداول ، وفي هذا السّفر لم أرغب في وصف ما يُحدّث عنه في الغالب ، بل عَمِلْتُ على وصف ما يَقِفُ الأبصارُ ثم على تسميته ، وفي الدرجة القصوى من الفصل الثالث فقط ، أى في طَوْرِ الأسداد الجازم

(١) المعلّمة : من معلم الشيء ، وهو موضعه الذى يظن فيه وجوده كظنة ، ويقابلها كلمة Encyclopédie



من تلك الحياة ، اضطُرت إلى ذكر أرقام قليلة ذكرًا مضبوطًا معتذرًا إلى القارىء ، وهذا إلى أننى حَوَلْتُ كسور الأرقام إلى أصفارٍ عند الضرورة ، لِمَا فى ال « ٩٦٤ كيلومترين بحيرة نُو وألخرطوم » مَثَلًا من وَقْفٍ للنظر أقلّ من ال « ١٠٠٠ كيلومتر بينهما » ، وكذلك لم تُسَوِّ كتابةُ الأسماء الإفریقیة فى اللغات الأوربية تمامًا . ولم تُوضَعَ الطبيعةُ والتاریخ فى النصف الثانى من هذا الكتاب على المستوى الذى اتفق لهما فى النصف الأول منه ، ولا غَرَوَ ، فالنهر فى فُتَاتِهِ ، كالإنسان فى شبابه ، يُرَدِّدُ مُؤَثِّرَاتِ البِئْثَةِ التى أوجدته ، على حين ترى النهر فى كهولته يكافح تطاول العالم الخارجى بِسَجِيَّتِهِ ، وللإقليم والبلد تأثيرٌ عظيم فى رِيعَانِ الشَّبَابِ ، ثم يبدو تأثيرُ الإنسان ، وتقضى الضرورة بتحويل الخِطَّةِ أَكْثَرَ من قَبْلِ عند تناول نهر يَجُوبُ فى شبابه من البِقَاعِ مَا لَا تَرَى لَهُ تَارِيحًا وَيَجْرِى فى مَشِيبِهِ من أقدم بلاد الدنيا تَمَدُّنًا ، وتُبْصِرُ لمصرَ ستة آلاف سنة تاريخًا ولا تكاد تجد لأوغندة والسودان من التاريخ قرنًا ، وهكذا تُخَصِّصُ ثلاثة أرباع النصف الأول من الكتاب للطبيعة وتُخَصِّصُ ربعا منه للتاريخ مع أن نصيب الطبيعة هو نصف الشطر الثانى منه ، وذلك لِمَا بين أسوان والدلتا من اختلافٍ قليل فى المنظر والنبات والحیوان .

ومع ذلك تُعَالِجُ الأقسام التاريخية من نصف الكتاب الخِلاصَ بِمِصْرَ فى كلماتٍ جوامعٍ ما لم تعارض موضوع الجميع ، والأوصافُ تحتلُ مكانَ الأفكار كما فى تراجمى السابقة ، والأحوال الاجتماعية فى هذه الأوصاف تُفَضِّلُ الحروبَ صَدَارَةً ، ومشاعرُ الناس فيها تُفَوِّقُ شأنهم أهميةً ، وهكذا يُعْطَفُ فى النصف السودانى عند الوصف على مشاعر الزنجى أو القليل أكثر مما على الإنسان الأبيض ، وهكذا يحاول إبرازُ التاريخ فى مصرَ من حيث مقامُ الفلاح الذى عاش أوثقَ عِشْرَةٍ للنيل

في كل زمن من عشرة ذوى الحكم ، لا كما نَظَرُ إليه الملوكُ والفراعة والسلطين ، وذلك لأن مصرَ هي بلدُ الدنيا الوحيدُ الذى يَقْضَى كلُّ ساكنٍ حياته فيه تَبَعاً للنهر في أى وقت كان ، وذلك لأن الأسرَ المالكَةَ تأتى وتستغلُّ النهر وتزول ، ولكن النهر ، ولكن أبا البلد هذا ، هو الذى يظلُّ باقياً ، وكان للنيل ، كان لِمَوْلَدِ الماء والحَبِّ هذا ، من الشأن منذ ستين قرناً ماله في دور الأسداد والقطن الحاضر ، ولم نال جُهداً في وصف الأديان والمعابد والمساجد مُظهِرين تأثيرَها في الفلاحين ، ومن الفلاحين يتألف شعبُ النيل الأدنى .

ومما يَلَاخِظُ على الخصوص سكوتى عن مواكب الصيد الأكبر التى لم أشارك فيها وامتناعى عن كلِّ حِوَارٍ إثنوغرافى ، ويرْزِطُ العلماء الذين بَحَثُوا عن الشعوب التى استقرَّت بوادى النيل بروقٍ متباينة مُنَاوَبَةً ، وأجِدُ في هذا ما يزيدنى حَذَرًا من جميع النظريات العِرقية ، وأرى أن ما يَحُومُ حَوْلَ الحاميين والساميين من جَدَلٍ علمى كاشفٍ في كلِّ خمس سنين لـ « مراكز جديدة للحضارة » أقلُّ وَفَقًا لنظرى من منظر بدوىٍ على ضِفَّةِ المطيرة أُعْجِبُ من خلال أعطافه الرائمة بتوالد خمسة عروقٍ أو ستة عروق ، وذلك إلى أن مما يَسْتَحَبُّ إهماله دراسة مثل هذا التوالد في كتابٍ يقوم موضوعه على أمرٍ نهرٍ ولو كُنَّا نَبْلُغُ بتلك الدِّراسة طائفةً من الحقائق .

ومن ناحيةٍ أخرى أرى الشعوب المختلفة ألوانًا ذات أهمية في زمن مُتَدُّ فيه لتمثيل دورٍ جديدٍ في حياة النوع البشرى ، والنيلُ قد أثَّرَ في جميع هذه الأمور ، وجميعُ هذه الأمور قد أثَّرت في النيل ، ويقوم على الوحيدِ على إظهار الرمز الأكبر الذى يُسْتَخْلَصُ مما يحفُّ بالنيل من قَدَرٍ .

وقد قُمتُ برحلاتٍ ثلاثٍ متوالية بين سنة ١٩٣٠ وسنة ١٩٣٤ فأُتيح لي بها أن أدُرُسَ جميعَ النيل الأبيض بأوغندة والسودان وأن أدُرُسَ النيل الأزرق في سقَرٍ بالقسم الغربي من الحبشة حيث بُلغتُ منابه وأن أدُرُسَ في السودان مجراه الأدنى ، وقد اكتفيتُ مُضطراً برسم مجراه الأوسط بين بحيرة طانة وحدود السودان وفق ما رواه من الأنباء ثلاثة سياحٍ أو أربعة سياحٍ رأوا أجزاءً من هذه البقعة التي لم يَقَعْ رِياؤها تقريباً ، وقد استطعتُ بفضل ما حَبَّتنِي به حكوماتُ بلاد النيل الثلاث من عنايةٍ ووسيلةٍ أن أُنفع كما أَوْدُ بالخط الحديدي والطائرة والباخرة والشراع والبغل والحمار ، وقد وَصَعَ الملكُ فؤادُ باخرةً تحت تصرفنا ، وسَهَّلتِ الحكومة الإنكليزية رِحلتنا بشقِّ الوسائل ، وأَرْقَعَتْنَا الحبشة بحرسٍ عسكريٍّ من قلابات .

وقد تمَّ القسم الخاصُّ بالحبشة قبل بدء النزاع في إفريقية الشرقية .  
ومن بين مالا يُحصى عدداً من المؤلفات الخاصة بمصر انتفعتُ في النصف الثاني من هذا الكتاب بـ « تاريخ الأمة المصرية » على الخصوص ، بهذا الكتاب الرائع الواقع في أربعة أجزاء والنسبُ لِشَرِّ بِإشراف غِبْرِيال هانوتو فأهدى الملكُ فؤادُ نسخةً منه إليّ ، وما انتفعتُ به كتابُ مِس . و . س . بلا كَمَن المُنتفع عن فلاحي مصر العليا ، وما انتفعتُ به مُذْكَرةُ الأمير عمر طوسون المصري عن تاريخ النيل .

وأُعرب عن شكري للذي الفضل الذين أعانوني بالتصريح حين قراءة النسخة الخطية ، وهم مدير حديقة الحيوانات بألخروطوم للميجر باركر فيا هو خاصُّ بالحيوان ، والمركيز جَنْفِيل فارينولا بفارامبيستا ( تَوْسْكَانَة ) فيا هو خاصُّ بالحبشة ، والدكتور كَسْ

## النيل

مايرهُوف بالقاهرة فيما هو خاصٌ بالعرب والتاريخ الطبيعيّ ، وسكرتيرُ حكومة السودان السابق وحاكمُ تنفانيقة سير هارولد مكمايسكيل فيما هو خاصٌ بالسودان ، ومفتشُ الرّيّ العام في المملكة المصرية مستر توتهم فيما هو خاصٌ بمسائل مياه النيل ، والأستاذُ بلندن مستر ج . أ . يهودا فيما هو خاصٌ بالفراعنة واليهود ، فهؤلاء الأفاضل المتخصصون صانوني من طائفة من الأغاليط مع عدم مشاطرة تامة لأفكارى . وما بقى من الخطأ في هذه الزبلة الجامعة فأتركه ، مع ذلك ، لمن يَبْحَث عنه من ذوى الاختصاص .

ومُعْظَمُ صُورِ الكتابِ الفوتوغرافيةِ هو من تصويرِ لِهِنْرِتْ ولَنْدِرُوكْ بالقاهرة ، والصُورُ الفوتوغرافية الأخرى هى من تصويرِ قوة الطيران الملكى البريطانى بلندن وقراقاشيان وإخوانه بالخرطوم ومن دليلِ السودان بلندن .

لُودْفِيغ

موشيا سنة ١٩٣٦

## الجزء الأول الجرية والمغامرة

« انظروا إلى الساجنة<sup>(١)</sup> تروها ناضرة  
 سروراً كبصر الكواكب ! وهناك فوق  
 البواسق<sup>(٢)</sup> وبين الصفوات<sup>(٣)</sup> ذوات  
 الأدغال<sup>(٤)</sup> رَضَعَتْ في صِفْرِها ملائكة الخير ،  
 فلما شَدَنْتَ<sup>(٥)</sup> واشتدَّت اندلقت من  
 السحاب . . . فكانت كاللدليل المجيل<sup>(٦)</sup>  
 حين قَطَرَتْ وراءها ينابيع الإخاء »  
 ( غوته )

---

(١) الساجنة : مسيل الماء من الجبل - (٢) البواسق : جمع الباسقة ، وهي السحابة  
 البيضاء الصافية اللون - (٣) الصفوات : جمع الصفاة ، وهي الحجر الصلد الضخم .  
 (٤) الأدغال : جمع الدغل ، وهو الشجر الكثير للثف - (٥) من شدن الظبي ، إذا  
 قوى واستغنى عن أمه - (٦) المجيل : السريع .





هَذَرٌ يُبَشِّرُ بَنَهْرَ ، وَحَوْلَ صَخِرٍ جَزِيرَةٌ حَجِيرَةٌ <sup>(١)</sup> تُبَصِّرُ شَرِيطًا جَبَّارًا  
صَخَّابًا أَزْرَقَ سَمَويًا أَزْهَرَ بَهِيًّا يُبَلِّغُ نَفْسَهُ مِنْ عِلٍّ فِي مَسْقَطٍ مُضَاعَفٍ فَيُؤَدِّي إِلَى  
دُرْدُورٍ <sup>(٢)</sup> يَنْشَاهُ زَبَدٌ ضَارِبٌ إِلَى خُضْرَةٍ كَاللَّيْلِ يَلُوحُ اللَّبَنُ فَيُدْفَعُ هَذَا الزَّبَدُ إِلَى  
مَا يَنْتَظَرُهُ مِنْ مَصِيرٍ مَجْهُولٍ ، فَبَيْنَ هَذَا الضَّجِيجِ يُؤَلِّدُ النِّيلُ

وَبِالْقُرْبِ مِنْ هَذَا الْمَسْقَطِ الْمَاطِلِ فِي شُرَيْمٍ <sup>(٣)</sup> هَادِيٌ بَعْضُ الْمَدْوَى يُفَغِّرُ فَمٌ  
خَفِيفٌ وَرَدِيٌّ بَيْنَ أَذْيَنَ حَمْرَوينِ وَرَدِيَّتَيْنِ ، فَهَذَا الْبَقَرُ الْبَحْرِيُّ حِينَ يَثْأَبُ ، وَهَذَا  
الْجَامُوسُ النَّهْرِيُّ حِينَ يُزْنَمُ <sup>(٤)</sup> مَتَرَاخِيًا ، وَيَرْفَعُ رَأْسَهُ وَيَتَنَفَّسُ صَاحِبًا مَعَ خَوَارٍ <sup>(٥)</sup> ،  
يَقْدِفُ مِنْ مَنَخْرِهِ الْمَاءَ صُغْدًا ، وَهَنَالِكَ فِي الْأَسْفَلِ حَيْثُ يَسْكُنُ الْمَاءُ تَبَصَّرَ تَنَانِينٌ  
بِرُؤُوسِ خُضْرٍ مَمْدُودَةٍ عَلَى صَخْرَةٍ يَسْتَرَاهَا زَبَدٌ رُقْشًا <sup>(٦)</sup> ذَوَاتِ عَيُونٍ ذَهَبِيَّةٍ  
وَبَطُونٍ صُفْرٍ مُنَمَّةٍ لِنَظَرِهَا الْأَسْطُورِيَّ ، وَيَنْجِمُ عَلَى ظَهْرِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا ، حَتَّى  
بَيْنَ نَابِيٍّ أَحَدِهَا ، طَائِرٌ لِنُومِهَا مَفْتُوحَةٌ الْقَمَرُ ، وَذَلِكَ هُوَ التَّنِينُ الَّذِي ذَكَرَ فِي  
سِفَرِ أَيُّوبَ ، وَذَلِكَ هُوَ التَّمَسَّاحُ ، وَذَلِكَ هُوَ الْحَيَوَانُ الْغَرِيبُ الْمُحْتَمَلُ بِقَاوُؤِهِ مِنْ  
الزَّمَنِ الَّذِي كَانَ الْخُنْشَارُ <sup>(٧)</sup> وَالْدَّالْبُوثُ <sup>(٨)</sup> يُقَطِّانُ فِيهِ وَجْهَ الْأَرْضِ وَكَانَتْ  
الرَّحَافَاتُ فِيهِ سَادَةً الدُّنْيَا .

(١) الحجيرة : الكثيرة الحجارة (٢) — الدردور : موضع في البحر يجيش مائده .

(٣) الشريم : العرم الصغير ، والعرم هو الخليج — (٤) زنم : قنع .

(٥) الخوار : صوت البقر — (٦) الرقش : جمع الرقشاء ، وهي مؤنث الأرقش ، أي

المنقط بسواد — (٧) الخنشار : نبات — (٨) الدلبوث : نبات يعرف بذهب القرس .

وفوق هؤلاء النيران الذين يَرْجِعُ أمرهم إلى ما قبل الطوفان مُحَلَّقٌ ذوات  
الأجنحة وتحوم وتهتز وتضطاد ، وهنا يَتَجَمَعُ كثيرٌ من طيور أوربة ، وهنا يجتمع  
جميعُ الطيور التي تجوب إفريقيا الشمالية ، وما تحدّثه الطيور من ضوضاء قِيَفَرٍ<sup>(١)</sup>  
خريّر الماء ، ففي الجزيرة المدغلة<sup>(٢)</sup> المائلة عن سمت المساقط والتي لم تطأها قدمُ  
إنسانٍ ، وإن شئت قل في منبع النيل ، تقعُ جنةُ تلك الطيور .  
ولدى أدنى دوىٍ تتحول تلك الرِّقَاعُ البيضُ المُلسُّ كالحرير ، والتي تتلألأ  
كزهر البرتقال بين أوراقه المدهامة<sup>(٣)</sup> ، إلى بلاشين<sup>(٤)</sup> بيضٍ تطير فوق السَّلاَلات  
مُثَلِّية الأرجل إلى وراء ، ويبدو هذا الطائر الآخر ، الذي هو أبيض الطيور مع  
منقاره الملمعيّ الغريب الذي يُسْتَقى منه اسمه<sup>(٥)</sup> ، صغيراً بجانب طيرٍ آخرٍ ضخمٍ  
رماديٍّ يأخذ في الطيران مثقالاً منحنيّ الجذع منعطف الثقب ، ومن بين ذلك  
البعاق<sup>(٦)</sup> يُسَمَّعُ حَيفٌ بفتةً ، قد غطس طيرٌ كبيرٌ بالغُ السَّوَادُ في الماء ، غطس  
القاقُ المشهور بشره لعدة دقائق حتى يظهر من بعيدٍ حاملاً سَمَكَةً بمنقاره مصفّفاً  
بجناحيه كطيور البحر ، وهناك طيرٌ أسودٌ أبيضٌ ينظر إلى ذلك المنظر بعين  
السُّخْط ، فيتقدم مُزَنّاً منخفض الرأس ، ثم يرى إثبات عزته الصادقة فيبسط  
بُؤْدَةً ما في جناحيه الأصفرى الخطوط من انحناء منسجمٍ ويطير رشيقاً ، فهذا هو  
طيرُ النيل المقدس : إيبس<sup>(٧)</sup> .

(١) غفر المي : ستره — (٢) أدغلت الأرض : كثرت دغلها ، أى شجرها اللثف .  
(٣) المدهامة ، الدهاء ، وفي القرآن « ومن دونها جنتان . . . مدهامتان » أى خضراوان  
تضربان إلى السواد من شدة الخضرة والري — (٤) البلاشين : جم البليشون ، وهو الطائر  
المعروف بملك الحزين — (٥) أبو ملقة Spoonbill — (٦) البعاق : الصراخ .  
(٧) Ibis ، وهو الطير الذى يعرف في بلاد النوبة بأبي خنجر .

وترى الكراكي<sup>(١)</sup> واقفة على الضفاف شاحخة صامتة منيعة كالأمراء الذين ورد ذكرهم في الأفاصيص العربية ، وترى كركيًّا أغبر نبيل النظر يحمل عنقه الدقيق بروعة رأساً ذا ثقل ويجمع في طاقة ريش ذنبه الأدكن<sup>(٢)</sup> وينشر من فوزه جناحيه الوسيعين ويحوم فوق الماء رويداً ، وأجل من ذلك كركي آخر ذو ريش ضارب إلى زرقة ممتد إلى ذنبه وذو ريش ضارب إلى صفرة ممتد على رأسه كريش الطاووس ، ولهذا الكركي المتوج مشية تيم على الزهو والهبوط كالصوّر التي رمها فان ديك<sup>(٣)</sup> لأبناء الملوك ، وبجانب هذا الأمير من الخلف مع قليل بُعْدٍ مناسب تبصر أبا سعن<sup>(٤)</sup> الطائر المضحك البشيع كما في الأساطير والأبيض الأسود مع سكون ظاهر خادع ومع وقار مزوج بحذر وجفوة ومكر وجشع ، فهذا الطائر يشترك في كل عمل نافع فيصيد كل شيء يقدر عليه فأرة كان أو عنكبوتاً .

وبين كبار الطير تلك تبصر ألوفاً من صغار الطير تحلق فوق منبع النيل صادحة مُغرّدة مُصَفّرة ، وتبصر التّمار<sup>(٥)</sup> الفبروزية<sup>(٦)</sup> مع ريش نارنجي يبدو وردياً تارةً مغريباً<sup>(٧)</sup> تارةً أخرى ويتحول مترجحاً بين ألوان قوس قزح ويلعب في الماء والضياء ، وتبصر هذه التّمار في وسط السّائي الزاهي الذي يعبث بين القانود<sup>(٨)</sup>

(١) الكراكي : جمع الكركي ، وهو طائر كبير أغبر اللون طويل المنق والرجلين أهدب الذنب قليل اللحم يأوى إلى الماء أحياناً — (٢) الأدكن : المائل لونه إلى سواد .

(٣) فان ديك : رسام مشهور ولد في أنفوس وتوفي بالقرب من لندن (١٥٩٩ — ١٦٤١)

(٤) أبوسعن (Marabout) : طائفة من الطيور طويلة الأرجل قريبة من اللقلق تعيش في إفريقية والمهند — (٥) التمار : جمع التمرة ، طائر جيل أسفر من الصغور يمتص الزهر والثر .

(٦) الفبروزية : ما كان لونها بلون الفبروز ، وهو حجر كريم أزرق — (٧) المغري :

نسبة إلى المغرة ، وهي الطين الأحمر يصطبغ به — (٨) القانود : (Kingfisher; Martin pêcheur) :

عصفور صغير ذو ريش زاهر سامع يعيش على ضفاف مجارى المياه ويصيد صغار السمك .

## أين منبع النيل ؟

الزاهر الزُرْقَة وفوقه ، وفي العيص<sup>(١)</sup> يُقرَّدُ عندليبُ الشرق ، البلبلُ ، متوارياً ، على حين يهوى قريباً من مأواه الخفيُّ سُنُونُو الشمال مع صوتٍ خفيف ، شأنُ حين شراء الألمان إلى الجنوب وإلى هَزَارِ<sup>(٢)</sup> الشرق ، وتَسْجَعُ القُمرُ<sup>(٣)</sup> الوردية الرَّمادية سَجْعاً رزيناً ، ويرتفع صفيحُ الزَّرَازيرِ السُّمْرِ الخُضر ، المختلفة الألوان عند الانعكاس كمين الهر<sup>(٤)</sup> ، من بين أصوات الطيور الكبيرة ، ويُبَلِّلُ الخَطَّاف صدره الأغبَر برشاش النهر ، وتُفَرِّدُ الدُّعْرَة<sup>(٥)</sup> ، وهي طائرٌ نيليٌّ كإيس ، محرَّكةً ذنبها ، فبانسجام الألوان وتوافق الأصوات تُحيط هذه الطيورُ بالجزيرة المنيعَة بين السَّلَّالَات كأنها تحشى الإنسان أكثر من خشيتها بقر النهر والتمساح وكِبَار الطير .

وأين نحن ؟

تَقَعُ مساقط رِيُون ، وهي منبع النيل ، وهي ما يسميه أهلُ تلك البُقعة بالحجارة ، في شمال خط الاستواء رأساً ، ويبلغ عرضها ثلاثمئة متر ، وتندلق بين صخرٍ بِكْرٍ ، وتُخَفُّ هذه الصخور شجيراتٌ وأزهارٌ برية نابتةٌ على هَضْبَةٍ جرداء بعد إتلاف البيض للغاب محوراً للقاتل من الذباب .

وفي أقصى شمال بحيرة فيكتورية ، وبالقرب من جنجا ، ينمُّ هديرٌ هائلٌ على هذا المنظر العظيم ، وخلف الصخور الغُبر التي هي ضربٌ من الأسداد الطبيعية وبجانب الخليج تمتد البحيرة ذَاتُ الجزائر والجزيرات ، ومن هنالك يسيرُ النهرُ ، ومن هنالك ينطلق رسول قَلْب إفريقيا حاملاً البشائر العجيبة إلى بحر بعيد .

(١) العيص : الشجر الكبير اللثف — (٢) الهزار : البلبل والعندليب (٣) القمر : جمع القمرى ، وهو ضرب من الحمام حسن الصوت — (٤) عين الهر : حجر كريم كثير الألوان (٥) الدعرة : طائر صغير يكثر تحريك ذنبه وتلفت كأنه مدعور .

وما كان أحدٌ ليعْرِفَ مآتاه ، وما بذله الإنسانُ من جهودٍ في ألوف السنين بحثاً عن منبعه فقد ذهب أدراج الرياح ، والناسُ كانوا يعتقدون أن هذا النهر المُحَيَّرُ مَدِينٌ في قُوَّتِهِ إلى أطواد<sup>(١)</sup> وأنه كالأنهار الأخرى وليدُ سيول ، ومنذ سبعين عاماً فقط يُرى بعد كشفٍ أن جَرَى النِيلِ يبدأ بِشَلَالٍ عَظِيمٍ ، والنيلُ ، وهو ابنُ لأعظم بحيرة في إفريقيا ، وهو يُزِيدُ وَيُزَجِرُ ، يُبْدِي سُلْطَانَهُ مِنْ يَوْمِ حَيَاتِهِ الْأَوَّلِ .

وقليلٌ من هذا العُباب<sup>(٢)</sup> الْأَوَّلِيِّ ما بَصَلَ إلى الغاية ، ولا تُسْفِرُ الرِّيحُ وَالشَّمْسُ والصخر والحَيوان والنبت عن غير وَقف تلك الأمواج أو تحويلها إلى بخار ، وليس ما يَبْلُغُ البحرَ المتوسط بعد شهورٍ طويلة صادراً عن ذلك الينبوع ، فلنيل ثلاثة ينابيع وعِدَّة روافد في البَدَاة ، وهذا إلى الملايين من ذَرَّات الماء التي تَتبع النهر في مجراه من ذلك الشَّلَالِ الذي يُولَدُ منه إلى أن يختلط بِمِلْحِ البحر .

وفي الأعلى ، وبالقرب من المنبع ، يَنْشُرُ صَبَابُ الْقَجَرِ سِتْرَهُ فوق البَحِيرَةِ ، ولا أحدٌ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنْجِىَ أَيْنَ يَنْتَهَى ، فَإِذَا طَلَعَ النَّهَارُ ظَهَرَتْ جَزَائِرُ وَجُزَيْرَاتُ وَخُلُجَانٌ صَغِيرَةٌ عَمِيقَةٌ تُوْغَلُ في الأرض ، وظهرت كُثْبَانٌ على مَدَى البصر ، وظهرت سلاسلُ تلالٍ تُكْشَفُ في الزُّرْقَةِ البعيدة ، وَتَسْطَعُ على الصُّفَاءِ المرتفعة مَرَاعٍ ، وهى أراضٍ خصبيةٌ شِعْرِيَّةٌ ، تَحْدُهَا أَدْوَاخٌ<sup>(٣)</sup> منفردة فاصلةٌ بين الظلِّ والنور .

وما كانت العين لتمتدُّ إلى الصُّفَّةِ البعيدة ، ولولم تَزَحِّمْ كثرةُ الخُلُجِ والجُزُرِ

(١) الأطواد : جمع الطود ، وهو الجبل العظيم — (٢) العباب : اللوح — (٣) الأدواخ : جمع الدوحة ، وهى الشجرة العظيمة المتسعة .

أبصارنا هنالك ، وذلك لأن تلك البحيرة بحرٌ أوسع من سويسرة مساحةً ، ولها قوانينها ونظمها ومخاطرها ، وهى حوهرٌ فردٌ فى وَسَط تلك القارة المُفْتَتنة ، وهى مرآةٌ كبيرة لشمس إفريقيا ، وهى حدُّ لبلدٍ رعائى : لأوغندا ، وتقع أوغندا على ارتفاع ١١٠٠ متر ، وتقاس بالجنة . ويسودها صيفٌ خالدٌ عاطل من حرٍّ قاتل فى النهار ومن ضبابٍ خائفٍ فى الليل ، وتُنعم العاصفة عليها بالنسيم بعد الظهر وبالريح فى المساء ، وتُعدُّ أوغندا بلدًا مَخْصَبًا جُغْرَافِيًّا<sup>(١)</sup> يتوازن الغيث والشمس فيه دومًا . وعلى تلالها وفوق جبالها وراء الإطار الذى يحيط بالبحيرة يتوارى أواخر عمالة ما قبل التاريخ ، ويان ذلك أنك إذا ما سرت من ضفاف هذه البحيرة ذات الزُرْقَةِ الحريرية وجدت البلد يرتفع إلى أرضيةٍ ويصعد فى الشمال الغربى نحو براكينٍ وذرى من الغرانيت ونحو ينابيعٍ لروافدٍ تُصبُّ كلها فى النهر الأكبر وإلى قِم جبال القمر الثلجية ، ومن هذه الجبال يتألف سورٌ لحديقة أناسٍ من ذوى الحظِّ يَبْذُرُونَ قليلًا وَيَحْصُدُونَ كثيرًا .

والحقُّ أن ضفاف البحيرة هى حديقةٌ من عمل الطبيعة ويد الإنسان المُسَمِّرة بفعل الشمس ، وفى كلِّ جهةٍ من تلك الحديقة ينتصب من السَّنَط الأكبر عِظَمٌ<sup>(٢)</sup> أخضرٌ كالمهايط<sup>(٣)</sup> المبسوطة فيمرُّ النورُ من بين أغصانه الدقيقة ناشراً ظلاً لطيفاً على المروج ، وينقسم أصله العريضُ الأغبر الناعم الجافُ الأعقدُ عند مستوى الأرض إلى عِدَّة فروعٍ مُكسَّوةٍ فى أعلاه بأوراقٍ ذات تقاطيعٍ رقيقةٍ وعناقيدٍ خُبَازِيَّةٍ طويلة ، وإليك قُبَّة شجر التين النابت فوق جُذُورِ جِسامٍ بارزة من الأرض

(١) المخراق : الخنية — (٢) العظم : نبت يصنع به — (٣) المهايط : جمع المهبطة ،

وهى المروقة بالبراشوت Parachute .



لم يجرؤ أحد على قهر منبه

والفني بحشبه وظله ، وإليك الجُمَيْرَ المَلِكِيَّ القائمَ بجانبه والحائزَ لمثل صفاته ،  
ويميل الزهرُ الأحمرُ الزاهي النحيفُ نحو البُحَيْرَةِ على حين تَغْرِزُ ثُرَيَّا شجر  
المَرْجَانِ أصابعها القُرْمِزِيَّةَ الساطعة في الهواء .  
يقوم فوق المنحدرات المَخْضَرَّةَ على طول البُحَيْرَةِ جميعُ ما ذُكِرَ ساكناً  
وحيداً تقريباً ، وذلك رَمْزاً إلى منظر خيال .

## ٢

لم يَجْرُؤْ أحدٌ بعد على قَهْرِ منبع النيل ولا على الإنشاء والتنظيم فوق ضفافه مع  
أن عِدَّةَ خِطَطٍ وُضِعَتْ حول ذلك الجزء الإفريقي من قِبَل مهندسين كثيرين ،  
ومع ذلك نصَّب جِسْرٌ حديديٌّ أَسْمَرٌ على النهر في أوائل حياته ، أى بالقرب من  
مجره التحتاني ، فيَصِلُ به قِطَارٌ بين بحيرة فيكتورية والمحيط الهندي ، أو يَصِلُ  
به قِطَارٌ بين البحر الصغير والبحر الكبير ، وما كان النيل ليحتل جِسْراً آخرَ  
إلا بعد ثلاثة آلاف كيلومتر من مجراه التحتاني وعلى طَرَف الصحراء ، وما كان  
لإنسان في جميع هذه المسافة بين بلاد شعوب أن يَعْبُرَ النيلَ بلا زَوْرٍ (عدا  
جسراً طبيعياً) ، وقد حاول ذلك كثيرٌ من الحيوان والإنسان فكان الهلاك نصيبهم ،  
والنهرُ بلا جِسْرِ في مَسِيرٍ لا نهاية له دلٌّ على أنه حاجزٌ بين حيوان وحيوان .  
والنهرُ القِصِيُّ لا يأخذ حِذْرَهُ من مِعْبَرٍ<sup>(١)</sup> ، والنهرُ القِصِيُّ في رَكَلٍ طويل من  
المساقط والدوافع يُطْلِقُ المِئَانَ لصولته الطُفْلِيَّةِ فائراً مدحوراً مزبداً سعيداً بالحياة ،  
والمَسْقَطُ الثاني الذي هو مَسْقَطُ أَوْرِين عريض كالأول ، ولكنه أعمق منه مرتين

(١) للمعبر : ما يعبر به النهر كالقنطرة .

## الأيكة البكر

وأَقَرُّ وَأَقَمُّ ، وهو يُعَجِّلُ سِلْسِلَةَ الدوافع ، وإذا ما نُظِرَ إلى الأمر كما تُوَدُّ الطبيعة ، لا كما تصنع الحضارة ، سُمِّيت هذه الدوافعُ بالشَّلَالِ الأول والثاني ، وينحرف النيلُ المُرغِي وغيرُ الصالح لِلإِلاحة نحو الشمال من غير أن ينقطع نَفْسُهُ ، وقد توارت المراعى والمروج ، وقد مُنِعَت سُكْنَى تلك البُقعة بسبب مرض النوم ، ويظلُّ النهرُ والغابةُ وحدهما كما صنعتها يَدُ الخالق ، ويبقىان نتيحة نَبْتِ القرون وقَرَضِها ، والنيلُ في ذلك المسير ، وفي ذلك الحين وحده ، يلامس الأيكة<sup>(١)</sup> البكرَ .

وتفصل النهر من الغابة وتتركه يلهو بألغابه أسوار حَيَّة من النبات المُتَحَرِّشِ المشتبك وتُخَفِّي عنه اصطراع الحيوانات الكبيرة ومصائبها ، كما يُسَعَى في إبعاد منظر أليم عن الصبي ، وما يقع خلف تلك الأسوار فيَرَجِع إلى زمن كانت الأرض فيه أشدَّ فَناءً والحياة فيه أكثرَ وَفراً وأعظمَ مُنمواً ، وفي ذلك التَّبَت ، حيث تَفْزَعُ الأفراد أخفى مما في بِقاع الشمال القُرْع ، تلتقي الحياةُ والمات التقاءً وثيقاً ، وهناك تكون البهائمُ والنواصي التي لم تَمَسَّهَا يَدُ إنسانٍ على أتمِّ التحامٍ ، وعلى نور هذا السَّعَرِ<sup>(٢)</sup> الأخضر الذي تتجلى الغابة البكرُ به تتعلّق جذورُ الدَّوْحِ بسالف موتاها على حين تهيم ذُرَاهَا على ذلك الاشتباك الكثيف كأعظم الرجال المُزَلُّ فتؤلف مع غيرها شِرْكةَ رؤوسٍ مُشْمِسة ، وما تنتجه الرؤوسُ فيسْقُط على الأرض ، يَسْقُط على مَنْتَعِ الخِصْبِ الجديد في مِنطَقَةِ الحياة التي لا تَقْنَى والتي لا أحدَ فيها يَمْنَحِي ثمار هذه الأشجار ، والتي ترى الطبيعة بها في بُحَارٍ حارٍ ولَوْدٍ من الحبِّ طليقةً من كلِّ مأرب . وفي غُضُونِ القرون ما قَتِيَ تراب الغابة البكرَ يرتفع مدبولاً<sup>(٣)</sup> إسْفَنَجِيًّا . نَدِيًّا

(١) الأيكة : الغابة — (٢) السفر : الوقت الذي هو بعيد غياب الشمس .

(٣) دبل الأرض : أصلحها بالذبال ، وهو السجاد .



١. — چار في السهب



فَتَنْبُتُ الْجُدُورُ وَالسُّوقُ فِي غُصُونِ الْأَشْجَارِ الَّتِي تُوشِكُ أَنْ تَهَارَ مَعَ أَنَّهَا لَا تَزَالُ حَيَّةً ، وَيَنْمُو صَائِلًا نَبَاتٌ جَدِيدٌ يَحْيِي عَلَى أَصُولٍ عَادَتْ إِلَى التُّرَابِ أَوْ عَلَى أَصُولٍ حَيَّةٍ فَيَتَغَذَّى بِهَا ، وَلَا يَنْفُذُ عَدُوًّا غَابَ الشَّمَالُ ، الْجَلِيدُ وَالْبَرْدُ ، وَالْأَخْرِيْقُ<sup>(١)</sup> الْجِبَالِ الْمَجَاوِرَةِ الْمُسْتَوْرَةِ بِالتَّلْجِ ، تِلْكَ الْأَسْوَارُ الَّتِي أَقَامَتْهَا الْغَابَةُ بِنَفْسِهَا ، وَبِالْعَكْسِ تَجِدُ هُنَاكَ الشَّيْءَ الْكَثِيرَ مِنْ حَامِيَةِ النَّبَاتِ : الْحَرَارَةُ وَالرُّطُوبَةُ ، وَالْعَدُوُّ الْوَحِيدُ الَّذِي يَجْرُو عَلَى دُخُولِ تِلْكَ الْمَحَالِّ الَّتِي هِيَ أَمْنٌ مِنْ سِوَاهَا هُوَ الْحَيَوَانُ الَّذِي يَرْجِعُ إِلَى مَا قَبْلَ الطُّوفَانِ وَالَّذِي ظَلَّ بَاقِيًا مِنْ خِلَالِ الْإِنْحِلَالِ الشَّامِلِ ، فَالْقَلِيلُ وَحْدَهُ هُوَ مِنَ الْقُوَّةِ مَا يَسْتَطِيعُ بِأَعْضَانِهِ الْقَوِيَّةِ أَنْ يَدُوسَ مَعَهُ مَا يُعَامِرُهُ أَوْ يَسْحَقَ مَعَهُ مَا يُعَوِّقُهُ ، وَمَا كَانَ الْإِنْسَانُ لِيَطَأَ أَرْضَ الْغَابَةِ الْبِكْرَ لَوْلَا خُطُواتُ الْقَلِيلِ ، وَالْقَلِيلُ هُوَ الَّذِي رَسَمَ سَبِيلَ الْأَسْوَدِ الَّتِي لَا يَزَالُ الْأَبْيَضُ يَتْبَعُهَا فِي طُرُقِهِ .

وَإِذَا أَنَّ الْغَابَةَ الْبِكْرَ هِيَ اشْتَبَاكُ مُسْتَمَرٍّ مِنَ الْأَسْفَلِ وَمِنْ الْأَعْلَى حَيْثُ يَحَاوِلُ الْخَيْشَارُ<sup>(٢)</sup> وَالْكَلَالُ الْأَكْبَرُ أَنْ يَلْحَقَا بِالنَّبَاتِ الْمَعْرُشِ الْمُهَابِطِ فَإِنَّ السُّورَ الَّذِي لَا يُنْفَذُ مِنْهُ يَتَأَلَّفُ مِنْ مِثْلٍ ضَعِيفٍ مَعَ الزَّمَنِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَقِفَ رَنْيَنَ هَذَا الْعَالَمِ صَوْتُ الْفَأْسِ حِينَ خَبَطَهَا الشَّجَرُ .

وَكَثَافَةُ الْأَيْكَةِ تُسْفِرُ عَنْ سُكُوتِهَا ، وَأَصْوَاتُ الطُّيُورِ وَحْدَهَا هِيَ الَّتِي تَنْبُتُ عَلَى عَمَقِهَا ، هِيَ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى جِزْءٍ مِنْ بُعْدِ عَوْرَتِهَا ، وَمَا هُوَ وَاقِعٌ مِنْ ضِحْكِ<sup>(٣)</sup> الْقَرْدَةِ وَطِينِ الْحَشْرَاتِ وَخَفِيفِ الدَّوْحِ الَّتِي يَعُورُهَا الْمَوَاءُ وَتَقْبِي الضَّفَادِعُ فِي الْبَرْدِ<sup>(٤)</sup> ،

(١) الخريق : الريح الباردة الهابطة — (٢) الخنثار : نبات عديم الأزهار ، ويعرف بالسرخس أيضاً — (٣) ضحك القرد : صوت — (٤) البردى : نبات كالقصب كان قدماء المصريين يستخدمون قشوره للكتابة .

وصغير الشَّحْرُورِ وحَسِيرِ الْوِرْلَانِ<sup>(١)</sup> وكَشِيشِ الثَّعْبَانِ ونعيقِ الْغِرْبَانِ فقد صَعَفَ كضياء الغابة ، وقد بدا حاداً مفاجئاً كصوت الأولاد في الكنيسة عند القيام بالشعائر ما دام ظلامُ الأتجة وعلوها يثيران فينا ذكرى الكنائس .

وفوق الأرض وفي أصول التَّينِ العظيمة وبين سُوْقِ السَّحْلَبِيَّاتِ تَكَوَّنَتْ كَوَاتٌ عميقةٌ يُمكنُ الإنسانُ أن يأوئَ إليها ، وهي تشابه كَوَاتِ أركان الكنائس ، ومن القلأء وفي أغصانها المستورة بالأزهار تَجَمُّعُ الْبَوَايِنِ<sup>(٢)</sup> ساكنةٌ كالتماثيل السود مُتَبَرِّمَةٌ من وَثَبَاتِ الرِّبَايِيحِ<sup>(٣)</sup> التي تَلْعَقُ أذنانها البيضَ وخطوطُ ظهورِها عندما تَفْرِزُ من مُعْرَشٍ إلى آخر ، وتَدِبُ الحياةَ ديباً خفياً في تلك الأشجار الخادمة الخائفة المظلمة بفعل الحيوانات التي تؤثر فينا بخطاها وأصواتها أقل من تأثير الأزهار بألوانها ، ومن خلال اشتباك المَرَشَّاتِ يُبَصِّرُ جلدُ حيةٍ لامعٌ ، ولا يكون لصوت طيرٍ معنى إلا حين يُرى ظلُّ عابرٍ لصقرٍ أبيضٍ وحين يصيحُ بعض البَيْغَاوَاتِ على التُّوبَابِ<sup>(٤)</sup> الذي هو شجرٌ ضخمٌ ذو قاعدةٍ جلدية متجمدة ، وتتلشى هذه الأصواتُ بسرعة في سكون الأُنْكَةِ الْبِكْرِ الْمُبِيرِ .

وإليك نداء شجرة الرِّجَانِ الْمُحْرِقِ ، وإليك هذه الشجرة التي تَحْكِي أغصانها فروعَ شجر التين فتَمَسُّ الشمسَ ، وإليك هذه الدَّوْحَةُ التي تتدلى من الرأس كأنها ضربٌ من فولٍ مارد ، وإليك السَّنَطُ الْمُخْمَلِيَّ ، الذي تَسْطَعُ من بين أوراقه أزهارٌ ورديةٌ مُخَرَّةٌ كبيرةٌ كيدِ الإنسان ، وإليك العَسَقُ<sup>(٥)</sup> السماوية التي

(١) الورلان : جمع الورل ، وهو دابة على خلفة الضب أعظم منه طويل الذنب دفيقه .

(٢) البواين : جمع البابون ، وهو الفرد الإفريقي الذي هو أبيض القردة منظرأ وأحطها عقلا .

(٣) الرباييح : جمع الرباح يضم الراء وهو الفرد الذكر — (٤) البواب : من أعظم نباتات البلاد الحارة ، وهو قليل الارتفاع ، ولكن دائرة ساقه تزيد على عشرين متراً .

(٥) العسق : جمع المشقة ، وهي نبات يلتوى على الشجرة ويلزمها .



تسترسل كالليل أ كالليل من أغصان الجُمَيْرِ إلى اللَّمَّاعِ مع أزهارٍ حُرْمٍ متزاحمة كشافة.

وفى بقاعٍ من الغاب لا شجرَ فيها وعلى ضِفافِ غُدرانٍ تكاد تُسْتَرُّ بأوراقٍ  
فَتَنْفُذُ إليها شمسُ البلادِ الحارة تَكُونُ الأزهارُ أَقْلُ أَخْذاً بمجامع القلوب وإن وُجِدَ  
هنالك عشرة أمثالها ، وذلك لأن الحيوان هو السيد على طرف الماء هنالك حيث  
تبصر القانُودَ الفيروزي واقفاً على اللَّبْلَابِ <sup>(١)</sup> القِرْمِزِيَّ الملتفَّ حول الحِصَّاسَةِ <sup>(٢)</sup>  
منحنياً فوق الماء مترقباً سمكاً يُنْسِكُهُ ، ويهتزُّ وَكُرُّ التَّنَوُّطِ <sup>(٣)</sup> في أقصى سَعُوفِ النخل  
فتفتل بذلك من جشع القروء وطمع الأفاعي ، وهنالك ، حيث يَمِيلُ الخِنْشَارُ  
لِلدَّرِّ <sup>(٤)</sup> إلى الماء ، ترفرفُ فراشُ سَمَنْجُونِيَّةٍ <sup>(٥)</sup> ذواتُ عيون أَرْجوانية ،  
وهنالك ضَبَّانُ زُرْقٍ ذواتُ نَقْطِ نارٍ نَجْمَةٍ تَدْفِي بين البَطِيحَةِ <sup>(٦)</sup> والغدير .

ويُبْدِي النَّسَافُ <sup>(٧)</sup> حركاتٍ غريبةً ويُخْرِجُ أصواتاً صَحْلًا <sup>(٨)</sup> كما لو كان كلُّ  
جَرَسٍ <sup>(٩)</sup> نتيجة ألمٍ صميم ، ويُصَفِّرُ شُخْرُورُ جَهِيرٍ على شجرةٍ قريبةٍ كما لو كان  
يفازل ، كما لو كان متفَنِّناً مولداً بجانب مَقْلَدٍ أَرَفَلٍ <sup>(١٠)</sup> ، ويفوق الزَّمَارُ كلا الطيرين ،  
ويَخْرِقُ مِرْزَمَارُهُ المَغْرِي المُنِمُّ أَوْرَاقَ الشجرِ كما لو كان يَعِيشُ من الهواء والماء ،  
وذلك مع تَحْدِيدٍ للغة البرية وسُخْرٍ من ضرورة النَقْرِ <sup>(١١)</sup> ومن عِبءٍ ما يحيط به ،  
وذلك إلى أن يقف تغريده نيققُ العَفَقَقُ <sup>(١٢)</sup> .

(١) اللبالب : نبات يتعلق على الشجر ورفقه كورق اللوياء — (٢) الحِصَّاسَةُ : نباتة إذا  
لستها اطلق ورقها وتعرف بالمستحية — (٣) التنوط : طائر يعلق قشوراً من قشور الشجر  
ويشش في أطرافها لتتغطفه من الحيات والناس والذر — (٤) الدر : القاسد .

(٥) السمنجوني : ما كان بلون السماء — (٦) البطيحة : مسيل واسع فيه رمل ودقاق  
الحصى — (٧) النساف : طيره متفرك كبير عليه ما يشبه القرن — (٨) الصوت الأصحل :  
الأبج الحشن — (٩) الجرس : الصوت — (١٠) الأرفل : من لا يحسن عمله — (١١) هر  
الطائر الحب قرأ : لفظه من هنا وهنا — (١٢) العفقق : طائر على شكل الفراخ ، أو هو الفراخ .

وعلى مَدَى من تلك القَرَقَرَة والمَقَارَعَة تعيش الحيواناتُ الكِبرى في الغابة وتصيد وتزاوج وتقاتل ، وهي تَظْهَرُ على ضِفافِ دِوَالِغِ النيلِ القَتَّى مساءً فَتَجَرَّعُ وتَكْرَعُ من مائه القَرَاتِ<sup>(١)</sup> ، والزَّيْجِيُّ في ذلك الحين يتوارى ، والزَّيْجِيُّ في النهار يصطاد ويفتسل في خُلُجِّ سَاكِنٍ ، فإذا دنا الليلُ تركَ المكانَ لسادة الغابة الصابِتين عن وَجَلٍ .

### ٣

يَهْدَأُ النيلُ الشابُّ على مَسَافَةِ ستين كيلومتراً من مجراه بعد منبعه ، وَيَتَعَرَّفُ النيلُ الشابُّ بيطائه ، وَيَنْزِلُ مَتْنِي مترين المساقط والدوافع ، وَيُحِيطُ بِضَمِّ جَزِيرَاتٍ كثيرة الغابات ، وَيُبْصِرُ أَنَاماً عَرَاةً أَنشَأُوا أَكْوَاحاً لَصِيدِ السَّمَكِ وتَحْفِيفِهِ وتَدْخِينِهِ .

والنيلُ عندما يغادر الدوافعَ وَيَتَسَّعُ وَيَسْلُكُ سَبِيلَ الحِكْمَةِ يباغته الناسُ وَيُرْهِبُونَهُ بِأَمْرِ جَدِيدٍ عَلَيْهِ لَا رَيْبَ ، وَيَبَيِّنُ ذَلِكَ أَنَّ زَوَارِقَ وبواخرَ صغيرةً تنتظره فيرى لِزَاماً أَنَّ يَحْتَمِلُ اسْتِواءَ أَنَاسٍ على ظَهِرِهِ ، وَيَبْدَأُ النيلُ وَضَعَ ذَلِكَ الْوِزْرَ<sup>(٢)</sup> عنه بشدة ، وَتُعِينُهُ حِجَارَةُ قَرَارِهِ وصُخُورُ قَاعِهِ على ذَلِكَ ، ثُمَّ يُدْعِنُ لِمَا كَانَ مِنْ إِنْشَاءِ الْإِنْسَانِ لِلْبَاكِرِ سَفُنًا ذاتَ حَيَارِيمٍ<sup>(٣)</sup> مُسَطَّحَةٍ . فيظلُّ النيلُ صَالِحاً لِلْمِلَاحَةِ مَتْنِي كيلومتر ، وبالقرب من المكان الذي يَفْدُو بِهِ ذَلِكَ الْأَمْرُ ظَاهِرَةً النيلُ ، وَمِنْ دُجَّةِ الْعَرْضِ الشَّمَالِيَةِ الْأُولَى ، يُلَوِّحُ الْخَطُّ الْحَدِيدِيُّ مَتَوَجِّهاً إِلَى

(١) القرات : العنب - (٢) الوزر : الحمل الثقيل - (٣) الحيازيم : جمع الحيزوم ، وهو وسط الصدر .

الجَنُوبَ الشرقى نحو كِنْتِيَا والبحر بما لا يكاد يُمسُّ به النيل ، ولا يدنو الخطُّ الحديديُّ الثانى من هذا النهر إلا فى الدرجة الثالثة عشرة الشمالية ، أى بعد ألفى كيلومتر ، فهذا هو طول البقاع التى تعترض دون إنشاء خطوط حديدية .

ولا يكاد النيل يحتل باخرةً حتى يُعاني مغامرةً جديدة ، وذلك أن ضفاف مجراه تتوارى فيتنسج مقداراً مقداراً ، وأين الغابة التى تفرّض عليه حدوداً ثابتة ؟ كان عرضه ستمئة مترٍ منذ هُنيئة ، فلم يلبث أن انبسط على كيلومترات ويُفيضُ ماؤه ، ويصبح ناقص الصورة ، ويهبطُ فى ضربٍ من الإشتنج فيخشى ضياعه ، ويتقدم ، وكلما تقدم تملّى وأضحى عمقه ثلاثة أمتار أو أقل من ذلك عند طرف المستنقع ، وهذا إلى ما يظهر من ستره بالخضر والزهر ، ويبدو كل شئٍ حوله ساكناً دائماً ، ويلوح إقدامه مُعطلاً وسروره زائلاً ، وماذا حدث إذن ؟

ترانا فى بحيرة كِيُوغا ، وهى مساحة واسعة من الماء الوَحِل مع أربعة فروع كبيرة ، وهى مستنقعٌ يحفُّ البرديُّ من حوله ، ويحتابه النيلُ فى مئة كيلومتر فيعاني نباته ، وتتأصل جذورُ النيلوفر<sup>(١)</sup> بسهولة فى تلك المياه الدنيا ، ويكسوها هذا النباتُ العجيب الأزرق السماوى مع تجاويف ذهبية يعلوها زهرٌ آخرٌ أحياناً ، فكان ذلك يساطٌ حقيقىٌّ مُصَوَّرٌ تملّى يتوارى التهر تحتة تقريباً .

وتُحاذِرُ الروافدُ الأولى أن تُفضى إلى هذا الإشتنج لما يسفر ذلك عن امتصاصه لها ، وفى أقصى طرف البحيرة الغربى ، حيث يتركها النيلُ ، ينضمُّ إليه أخوه الصغير نهرُ كافو خاتماً حياته الصغيرة هنالك ، ويتجه النيلُ إلى الشمال بعد أن

(١) النيلوفر : ضرب من النبات ينبت فى المياه الراكدة له أصل كالجزر وساق أمانس يطول بحسب عمق الماء ، فإذا ساوى سطح الماء أورق وأزهر .

يصير نهراً مرةً أخرى ، ولكن مع محافظته على جَرِيَّةٍ بحيرية ، ولكن مع ظهوره  
مُتَاقِلًا متوَانيًا مُسْتَعْدِرًا<sup>(١)</sup> مُتَحَيِّلًا .

وفي تلك المرحلة من الجرى يمكن قياسُ نظام النيل بما لبعض السجايَا من تعييرِ  
دَوْرِيٍّ ، والنيلُ يُفَيِّرُ ثم يُغَيِّرُ جَرِيَّةَ وَلَوْنَهُ مَنَاقِبَةً وعلى غير انتظامٍ في أُلُوفٍ من  
الفراسخ وطويلٍ من الشهور ، فطوراً تراه هائجاً عَبُوساً وطوراً تراه سائباً تَعِيّاً ،  
ومن المتعذر أن يُعْرَفَ أَىُّ الأَمْرَيْنِ يُؤَثِّرُ في الآخر ويطبَّعه بطابعه : أنيلُ أم البلدِ  
المحيط به ؟ وإنما الذي يقال الآن هو أنه يَدْلِفُ<sup>(٢)</sup> نحو الشمال مع انحدارٍ غير محسوس  
على وَزْنٍ بحيرة كيوتا .

وينعطف النيلُ بَشْتَةً ، ويترك ذلك الاتجاهَ الشماليَّ للمرة الأولى ، ويسير نحو  
الغرب ويتحول تحولاً تاماً ، وما يلاقيه من أرضٍ صخرية فيشُدُّ عَزِمَتَهُ فيَقْلِبُ  
السفن ، وينقلب إلى سيلٍ منيعٍ كما في صِنَاه وَيَضِيقُ مجراه وَيَعْمُقُ مسيله ، وهل  
هذه مغامرةٌ جديدة ؟

يَظْهَرُ فَلَقُ إِفْرِيقِيٍّ فجأةً مع طَرَفٍ مُتَلَفِّفٍ ، فالبقعة تصير صخرية ، وتتجمع  
كُتْلُ الصَّوَانِ وتكون عَقِيقُ<sup>(٣)</sup> ، ولم يجاوز النيلُ حتى الآن غيرَ دَوَافِعَ واسعةٍ  
جداً ، ويَهَيِّطُ النيلُ الذي ضُفِطَ في عَرَضِ ستِة أمتار للمرة الأولى من ارتفاع  
أربعين متراً ، ويؤدِّي مَصَبُّ البحر الاستوائِيَّ الداخليُّ إلى هذا المَسْقَطِ الذي  
يتدهور به النهر في بضعِ ثوانٍ مع إِرْزَامٍ<sup>(٤)</sup> رعدٍ وهَبَاءٍ<sup>(٥)</sup> ماءٍ وزَبَدٍ .

(١) استعذر المكان : سارت فيه غدران — (٢) دلف : مضى كالقيد وقارب الخطوط في  
مشيه — (٣) العقيق : الوادي وكل مسيل ماء شقه السيل قديماً فوسعه — (٤) إرزم الرعد :  
اشتد صوته — (٥) الهباء : الغبار

وَيُوجِدُ النِّيلُ سَحَابَهُ بِمَسَاقِطِ مُرَشَّسِنِ تِلْكَ الَّتِي هِيَ أُنْمٌ مَا فِي جَرِيهِ ،  
وَيَعْرِضُ لِلنِّيلِ أُمْرٌ هَائِلٌ ، فَهُوَ يَهْبِطُ مِنْ مِنتَقَةِ إِفْرِيقِيَّةٍ إِلَى أُخْرَى ، وَتُحَوِّلُهُ  
مَغَامَرَةُ الشَّبَابِ هَذِهِ الَّتِي هِيَ وَلَعْتُ جَامِحٍ تَحْوِيلًا تَامًا ، وَهَنَا لَا يَلْهُو بِقَرْمَاءِ  
وَلَا تَمْسَاحٍ ، حَتَّى إِنْ الطَّيْرُ قَلِيلٌ هُنَا ، حَتَّى إِنْ السَّمَكُ لَا يَحَاوِلُ الْعُودَ إِلَى مَآتَاهُ  
هُنَا ، وَلَكِنَّكَ تَرَى جِسْرًا خَالِدًا يَصِلُ الْمَاءَ بِالسَّمَاءِ ، وَلَكِنَّكَ تَرَى قَوْسَ قُزَحٍ ،  
وَيَنْعَكِسُ النُّورُ فِي كُلِّ مَكَانٍ عَلَى الْأُلُوفِ مِنْ مَهَاً<sup>(١)</sup> الطَّلَقِ<sup>(٢)</sup> الَّتِي هِيَ أُسَاسُ  
بَرَقٍ لِهَذَا الْمَنْظَرِ الْمُؤَثِّرِ .

وعلى مسافة فرسخٍ من هنالك لا يزال الزَّبَدُ فَوْقَ الْمَوْجِ الهَائِجِ مُشَاهِدًا لِمَا يَعْانِيهِ  
النِّيلُ مِنْ رَجٍّ ، ثُمَّ يَتَجَهَّى النِّيلُ مِنْ بَيْنِ شُجَيْرَاتٍ مَشْوَرَةٍ فِي الشَّهْبِ<sup>(٣)</sup> ، إِلَى وَادٍ  
يَتَسَّعُ بِسُرْعَةٍ ، وَيَجِدُ النِّيلُ نَفْسَهُ لِلْمَرَّةِ الْأُولَى تَجَاهَ ظَاهِرَةٍ عَجِيبَةٍ تَرْجِعُ إِلَى مَا قَبْلَ  
التَّارِيخِ ، فَالْقَلِيلُ يَدْنُو مِنَ النِّيلِ نَحْوَ الْمَسَاءِ .

هُوَ ضَعِيفٌ ، هُوَ آخِرُ مَنْ سَيَظُرُ فِي تِلْكَ الْأَرْضِ عَلَى جَمِيعِ الْخُلُوقَاتِ الْأُخْرَى ،  
هُوَ الْأَقْوَى الَّذِي لَا يَقْدِرُ عَلَى مَقَاوِمَتِهِ حَيَوَانٌ وَلَا شَجَرٌ ، هُوَ الَّذِي لَا يَبَالِي بِشَكِّ  
شَوْكَةٍ<sup>(٤)</sup> أَوْ لَسَعِ ثُعْبَانٍ ، هُوَ شَاعِرٌ كَالْعِظَاءِ بِقُدْرَتِهِ الَّتِي لَا يَحْتَاجُ إِلَى مَنْ  
يَخْشَاهَا ، هُوَ لَيْسَ فُحُورًا وَلَا ضَارِيًا ، هُوَ أَكْرَمُ الْحَيَوَانَاتِ وَأَذْكَاهَا طَرًّا ، هُوَ  
حَلِيمٌ طَيِّبُ الْمَزَاجِ مَعَ شِدَّةٍ انْتِقَامٍ عِنْدَ مَا يَدْفَعُ عَنْ صِغَارِهِ تَجَاهَ هَجَمَاتِ الْإِنْسَانِ  
الْفَادِرَةِ ، هُوَ مُجَهَّزٌ بِأَصْفَرِ الْعَيُونِ فِي أَكْبَرِ الْوُجُوهِ وَأَبْدَقِ صِمَاحٍ<sup>(٥)</sup> تَحْتَ أَعْظَمِ

(١) المِهَا : جَمْعُ الْمِهَاءِ ، وَهِيَ الْبُلُورَةُ — (٢) الطَّلَقُ : حَجَرٌ شَفَافٌ يَتَشَقَّى إِذَا دُقَّ .

(٣) السَّهْبُ : الْبَعِيدُ الْمَسْتَوِى مِنَ الْأَرْضِ — (٤) شَكَّتِ الثَّوَكَةُ رِجْلَهُ : دَخَلَتْ فِيهَا .

(٥) الصِّمَاحُ : خَرْقُ الْأَذْنِ الْبَاطِنِ لِلْمَاضِي إِلَى الرَّأْسِ .

لُغْدٍ<sup>(١)</sup> ، هو ذو عُضْوٍ نصفه أنفٌ ونصفه ذراعٌ وذو عالجٍ يستطيع أن يُتَلِفَ به كلُّ شيءٍ ، هو لا يُخَرَّبُ غيرَ الضروريِّ مع ذلك ، هو قلما يُزْهَبُ أو يصطاد الحيواناتِ الأخرى ، هو لا يأكل منها ، هو يفتدى بالعُشْبَ الفَضُّ وبشر الشجر وبالتمر كفيلان الأفاصيص ، هو إذا ما وُطِئَ الأرضَ بقوامه الهائلة كان دَوَسُهُ من الخِفَّةِ كدَوَسِ الجائل ، والحقُّ أن هذا الحيوان الذي يَرْجِعُ إلى ما قبل الطوفان بعيدٌ من الثَّقَلِ والتوحش ، والحقُّ أنك تبصر الهدوء في نظره وسيره .

وفي سالف الأدوار كان القيل معروفاً في جميع الأرض ، وليس في العالم مكانٌ وُجِدَ فيه من العالج مثلاً وُجِدَ في مِنطَقَةِ مضيقِ بَرْنِغ<sup>(٢)</sup> ووُجِدَ القيل في رومة وإرنندة وإسبانية الشمالية وسييرية ، وما عُنِيَ عليه في هذه البلدان من عظامه التي يعي عظامُ القيل الإفريقيِّ فيكني لإنبات سابق اتصالٍ بين القارتين ، وكان القيل يعيش في أوربة في الأرمنة التاريخية أيضاً ، فقد رأى سائحٌ فينسيقيُّ فيولاً بجوار جبل طارق ، ويدلُّ رسمُ فَيْلَةٍ هَنْبِيَالٍ في النقود على صُمُخٍ ضَخْمَةٍ وظهورٍ منحدرٍ لا تَرَى لها نظيراً في أفيال الهند .

وتَخْرُجُ من الغابة جماعةٌ من الفَيْلَةِ ، ولا يكاد يُشْعَرُ بقطعقةٍ لها لشدة حَذَرِها ، والبَلاشِينُ وحدها هي التي تَسِمُ عليها حيناً تحوم فوقها ، وذلك لأن البلاشين تغدَّى بالحشرات التي تعيش على جلودها كما يعيش اللغوِيُون من الشعراء ، وتَحْدَرُ القُيُولُ الإنسانَ ، والإنسانُ يَنْصِبُ لها أشراكاً في الغالب ، وتَقِفُ القُيُولُ وتَتَرَقَّبُ ولا يَسْمَعُ سوى تصفيقٍ لآذانها ، وتَحَرَّزُ القُيُولُ لوجودِ صغيرٍ بينها ،

(١) اللغد : منتهى شجعة الأذن من أسفلها .

(٢) برنغ : مضيق بين آسية وأمريكا الشمالية ، ويفصل بين المحيط الهادئ والمحيط الهمالى .

وهي تتوارى صامته إذا لم تُبصر، وهي على عكس الإنسان تجبهُ العدو إذا ما كُشِفَ أمرُها، والآن نخرج الأفيال من الأدغال ويبدو ثلثا أجسامها ويبلغ الكلا الطويل مستوى ركبها، ويَجْمَلُ الصغير نفسه تحت أمه وبين قائمتيها الأماميتين حيث اللواين<sup>(١)</sup>، ويلقي الصغير خرطومَه إلى الخلف ليَرَضِعَ بفيه، وتدخل القيول الأخرى في الماء بعد أن تَسَحَقَ كُلُّ شَيْءٍ في خَلِيجٍ، لا عن حِدَّةٍ، بل عن ضخامة، وتزخر<sup>(٢)</sup> بينخريها في النيل وتنصح<sup>(٣)</sup> ظهرها بخروطومها وتشرَب وتأكل الكلا العالى في المَرَج، ولا يُرى لها مَضْغٌ، فهي لا تَقْرَأُ مَأً عَظِيماً كما يفعل بقر الماء، وإنما يتوارى كلُّ شَيْءٍ في هَوَّةٍ لا قَمَرٍ لها كما يُلُوح.

وعند ما تأخذ الفيلة في الأوب من النهر تبدو سوداً في سُهْبٍ أصفر، غير أن أنيابها تَلْعَقُ بِيضاً في الذكور والإناث منها على السواء، ويقود الذكرُ جَمْعَهَا، ويأخذ مالك الحزين مكانه من ظهره كالحي الذي الأبيض الذي يَقُودُ كِبَارَ المجرمين وشيوخ الأشرار وفق ما جاء في الأساطير، ويرجع الفيل الضخم إلى الغابة مُرَوَّحاً مَبْلَلاً سعيداً مائداً<sup>(٤)</sup>، والفيل في طريقه يَمَسُّ بخروطومه شجرة سنط ليرى هل تستحق أن تُقَشَّرَ، والفيل في طريقه يلتفت ليطمنن إلى أن زوجة وولده يَتَّبِعَانِهِ، وهكذا يقود الفيل من ضفاف النيل إلى ظلال الأيكة البكر المذهامة حيث يسيطر بمقل إنسان بصير فيرتب ويذكر طليقاً طلاقة موجود عال قوياً أكثر من كل شيء بادياً آخر ملك حقيق للطبيعة.

وهناك حيث يتسع النهر بالتدرج ترى وطن بقر الماء والتمساح، وفي مساقط

(١) اللواين : الضروع — (٢) زخر بينخريه : هنج — (٣) نصح : رش .

(٤) المائد : المتخفر .



مُرْسِيْنٌ بِمَجْرَى النهرِ التَّحْتَانِيَّ تبصرُ الألوْفَ من هذه الحيوانات ، وتلك المياه التي تُبْدِي نَفْسَهَا للشمس والتي هي حَمَامٌ جَبَّارَةٌ تُعْجِي هذه الموجوداتِ المائِيَّةَ من كلِّ خَطَرٍ .

والحقُّ أن النيلَ للمرة الأولى يُلاقى بِبحيرةٍ كبيرةٍ بلاشواطئٍ كَبِيرةٍ فيكتورية التي يتركها خلفه من غير أن يراها ، والنيلُ ، وراء الشَّهْبِ الأصْفَرِ المُقَطَّعِ كدَلَّتَا ينتهي إلى طرف بحيرة ألبرت الشَّامِلِ الأَقْصَى ، والنيلُ يُجُوبُ هذه البحيرة ، وهنا ، وعلى بعد ٥٠٠ كيلو متر من منبعه ، يَعْدِلُ النيلُ عن التَّسْمِي بنيل فيكتورية إلى التَّسْمِي بنيل ألبرت لِما عُرِّزَ به من منبعٍ قوِيٍّ آخَرٍ ، وتوجد مئات التماسيح على جُزُرٍ مستوية وعلى أنوفٍ تتقدم كألْسنة جِزائِرٍ فَرِيز<sup>(١)</sup> ، وتَلْبُ أسماكُ فُضِيَّةٌ من خِلال أمواج خُلْجانٍ مُلوَّنةٍ بألوان قوس قُزَحٍ على حين يظهر ماء البحيرة أزرق في مكانٍ آخَرٍ ، وعلى الشواطئ حيث يتناوب الغابُ والشَّهْبُ تَعْبَثُ جِماعَةٌ رائِعةٌ من الأوعال ، وتقترب الطَّيَّاء من النيل الذي يَسْمَى كلُّ حيوان

ولكن النيل لا يَضْمَحِلُّ في ماء هذه البحيرة الصافي كما حدث له في إسْفَنْجِ كِيُوغا ، وسببُ ذلك أن جُرْأَفًا<sup>(٢)</sup> عَنيفًا يَجْرُهُ وَتُحَطُّ طريقُهُ ، وفي الغرب البعيد تنصب ظلالٌ بنفسجيةٌ لُجبالٍ شامخة ، وهناك يَجْرِي نَهرٌ كَبِيرٌ آخَرُ ، يَجْرِي نَهرُ الكونغو متجهًا إلى الغرب ، ولن يرى النيلُ هذا النهر ، والنيلُ يُجْرُهُ بِجِراحٍ إلى الشَّمال ، ولَنَرَ ما الذي يُعْدِي ذلك النبعَ الثاني الذي هو حوضُ بحيرة ألبرت العظيم ، وذلك قبل أن تَقْنِيَّ أثرَ النيل .

(١) فَرِيز : قطعة من أوربة الثرية واقعة على بحر العمال بين هولندا وألمانيا .

(٢) الجِراف : السيل الذي يذهب بكل شيء .

تَنَمُّ عَقَفَاتُ الْأَنْهَارِ عَلَى سَابِقِ وجودها ، ومما هو موضعُ شكٍّ مُدَّةُ الحوادث وخصائصها ، ولكن أمرها يُحْزَرُ كما لدى الإنسان . من خلال دُجَى<sup>(١)</sup> الذِّكْرِيَّاتِ مع تَعَذُّرِ إثباتها وإنكارها ، وارْجِعِ البَصَرَ إِلَى أوْغُنْدَةِ مع ذلك تُبْصِرُ أَنْ حَلَّ مَا قَبْلَ التَّارِيخِ فِيهَا أَيْسَرُ مِنْ حَلِّ التَّارِيخِ نَفْسِهِ مَا دَامَ لِعَالَمٍ مَا قَبْلَ التَّارِيخِ قَدَمٌ فِي الْعَالَمِ التَّارِيخِيِّ هُنَاكَ وما حدث لِلْإِنْسَانِ قَدْ دُفِنَ فِي هُوَّةِ الْأَزْمَانِ . وَالْإِنْسَانُ كَانَ يَجْهَلُ الْكِتَابَةَ إِلَى زَمَنِ حَدِيثِ وَكَانَ عَاطِلًا مِنَ الْمُنْعِنَاتِ تَقْرِيْبًا مَعَ أَنَّ مَا قَبْلَ التَّارِيخِ قَدْ تَحَتَّ أَطْلَالُهُ وَدَلَالَتُهُ عَلَى الْجِبَالِ ، فَيُمْكِنُ تَحْمِينُ مَاذَا كَانَ عَلَيْهِ يَجْرَى النَّيْلُ الْأَصْلَى .

وإِفْرِيقِيَّةٌ هِيَ قَارَةُ مَهَادٍ<sup>(٢)</sup> وَمَقَاوِزٍ<sup>(٣)</sup> ، وَهِيَ الْقَارَةُ الْوَحِيدَةُ الَّتِي يُمَكِّنُ إِطْلَاقُ هَذَا الْأِسْمِ عَلَيْهَا مَعَ اسْتِثْنَاءِ هَضْبَةِ الْبَحِيرَاتِ الْكُبْرَى ، وَمِمَّا حَدَّثَ عِنْدَ انْفِتَاقِ وَجْهِ الْقَارَةِ أَنَّ ظَهَرَ فَرْجَةٍ تَمْتَدُّ مِنْ رُوْدَيْسِيَّةٍ إِلَى وَادِي الْأَرْدُنِّ مُشْتَمِلَةً عَلَى الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ ، وَقَدْ انْفَجَرَتْ النَّارُ مِنْ جَوْفِ الْأَرْضِ وَأَلْقَتْ كُتَلًا عَظِيمَةً وَجَمَلَتْ مِنْهَا جِبَالًا وَاسِعَةً الْقُوَاهَاتِ ، وَفَتَحَتْ عَلَى سَفْحِ هَذِهِ الْبَرَائِكِينَ ذَلِكَ الْوَادِي الَّذِي تَكُونَتْ فِيهِ الْبَحِيرَاتُ وَجَرَتْ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ، وَقَدْ انْقَسَمَتِ الْفَرْجَةُ إِلَى ذِرَاعَيْنِ فِي جَنْوَبِ حَوْضِ النَّيْلِ ، فَاتَّجَهَتِ النَّارُ الشَّرْقِيَّةُ إِلَى كَيْفِيَّةٍ وَكَوَّنتِ كَلِمَتَيْنِجَارُو

(١) الدجى : جمع الدجبة ، وهى الظلمة مع غيم — (٢) المهاد : الأرض المنخفضة .

(٣) المقاووز : جمع المقازة وهى القفلة .

وَكُونَتْ الذَّرَاعُ الْغَرِبِيَّةُ ثَلَاثَ بَحِيرَاتٍ وَاقِعَةً فِي غَرْبِ بَحِيرَةِ فَيْكْتُورِيَّةٍ ، وَتُمَثِّلُ هَذِهِ الْبَحِيرَةُ انْخِفَاضَ الْمَهْضَبَةِ بَيْنَ التَّرَاعِيْنِ .

وَمِمَّا يَكُنْ مِنْ رَيْبٍ فِي مَعَارِفِنَا فَإِنْ مِمَّا تَلَوَّحَ صَحْتُهُ تَكُونُ الْبَحِيرَاتِ السَّبْعُ بِإِفْرِيقِيَّةِ الْوَسْطَى فِي تَارِيخِ حَدِيثٍ نَسِيئًا ، وَتَمَدَّدَ سَهْلٌ وَاسِعٌ فِي مَكَانِ بَحِيرَةِ فَيْكْتُورِيَّةِ الْخَاضِرَةِ ، وَحَدَّ<sup>(١)</sup> رَافِدُ هَذِهِ الْبَحِيرَةِ لَهَا ، وَمِنْ الْمَحْتَمَلِ أَنْ وَجِدَتْ طُبُوعٌ<sup>(٢)</sup> وَاسِعَةً مُؤَخَّرًا فَزَادَتْ بِوَابِلٍ<sup>(٣)</sup> مُتَّصِلٍ وَشَقَّتْ طَرِيقًا لَهَا مِنْ بَيْنِ التَّلَالِ الْمَجَاوِرَةِ ، وَالْمَاءُ يُعَمَّقُ وَيُوسِّعُ الْخَرَقَ وَيُعَدُّ سَبِيلَهُ إِلَى السَّهْلِ ، وَالذَّوَالِغُ وَالْمَسَاقِطُ آيَةُ هَذَا التَّطَوُّرِ .

فَوْقَ الْبَرَاكِينِ الْكُبْرَى وَفُوهَاتِهَا الصَّغْرَى الَّتِي نَدِينُ لَهَا بِالْحَمِّ الْمُجْمَعَةِ وَالْيَنَابِيعِ الْحَارَةِ وَالْمِرْزَاتِ الْأَرْضِيَّةِ نَرَى انْتِصَابَ شَاهِدٍ ، نَرَى صَخُورًا أَوَّلِيَّةً ، نَرَى مَلِكَ الْجِبَالِ رُونَزُورِي السُّطْحَى بِالتَّلْجِ وَالْأَعْلَى مِنَ الْجِبَالِ الْأَبْيَضِ<sup>(٤)</sup> ، فَهَذَا الطَّوْدُ هُوَ قَوَادِ إِفْرِيقِيَّةٍ ، وَمِنْهُ يَجْرِي الْمَاءُ إِلَى الْغَرْبِ وَإِلَى الشَّرْقِ مُعْدِيًا أَعْظَمَ أَنْهَارِ الْقَارَةِ : النِّيلَ وَالْكُونْفُو .

وَلَيْسَ جَبَلُ رُونَزُورِي نَفْسُهُ خَطَّ تَقْسِيمِ الْمِيَاهِ ، وَيَعُودُ هَذَا الشَّأْنُ إِلَى سِلْسَلَةٍ مِنَ الْبَرَاكِينِ تَبْلُغُ مِنَ الْعُلُوِّ ٤,٥٠٠ مِترًا ، وَتَقَعُ فِي الدَّرَجَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الْعَرْضِ الْجَنُوبِيِّ مِنْ خَطِّ الْإِسْتَوَاءِ ، وَتُعْرَفُ بِسِلْسَلَةِ مُتَغَيِّرِي وَالَّتِي هِيَ خَطُّ تَقْسِيمِ الْمِيَاهِ الصَّحِيحِ كَمَا يُلَوِّحُ ، وَقَدْ تَغَيَّرَ هَذَا الْخَطُّ فِي أَثْنَاءِ تَنَاسُخِ الْأَنْهَارِ ، حَتَّى إِنْ أَمْرُهُ الْيَوْمَ يَبْدُو مُلْتَبِسًا خَفِيًّا فَلَا يَنْفَكُ عِلْمَاءُ الْجُغْرَافِيَّةِ وَعِلْمَاءُ الْمِيَاهِ يُجَدِّدُونَ قِيَاسَهُ بِلا انْقِطَاعٍ ، وَبِالْأَسْمَاءِ وَحَدَّهَا يَدُلُّ عَلَيْهِ ، وَفِي النِّيلِ تَرْتَبِطُ الْبَحِيرَاتُ الْأَرْبَعُ الْكُبْرَى الْمَسَاءَةُ

(١) خَدُّ الْأَرْضِ : شَقَا (٢) الطُّبُوعُ : جَمْعُ الطَّبْعِ ، وَهُوَ مَنِيخُ الْمَاءِ ، أَيْ جَمْعُ الْمَاءِ وَمَدْخَلُهُ فِي الْأَرْضِ — (٣) الْوَابِلُ : الْمَطَرُ الشَّدِيدُ — (٤) أَعْلَى جِبَالِ الْأَلْبِ ، وَيَبْلُغُ ارْتِفَاعُهُ ٤٨١٠ مِترًا .



۲ - مناطق ریون



باسماء ملوك من الإنكليز بالقرعة الفارقة في إفريقية ، وفي الكونغو ترتبط البحيرتان الحاملتان لاسمين إفريقيين هما : كيثو وتنغانيقا ، وتجيد بين هذه الحدود منابع ذينك النهرين العظيمين اللذين يُحْيِيَان قارةً تثير العجبَ بِمَنْرِها<sup>(١)</sup> .

وإذا كان النيل ينال جميع مائه من بحيراتٍ فما هو مصدر ماء هذه البحيرات ، وإذا كان يأتيها من الأنهار ماء أقل مما يأتيها من المطر فما هو مصدر هذا المطر ؟ لا تزال هذه الأسئلة موضعَ جدال واختلاف .

والآن يُتَمَدَّد أن مصدر أمطار حوض النيل هو جَنُوب المحيط الأطلنطي ، وبطلُّ التبخر<sup>(٢)</sup> والتكاثف ، الناشئان عما بين البحر والأرض من تَوَرُّرٍ ، متوازنين إجمالاً لا تفصيلاً ، وهنالك صراعٌ بين التبخر وتكوُّن الأنهر وجريها نحو البحر ، ولعمق الصَّخْنِ شأنٌ في هذه الدورة التي تشتمل على ثلث أمطار الأرض ، ولا يزيدُ عمق بحيرة فيكتورية على تسعين متراً ، وبتَبَخُّرٍ من هذه البحيرة أكثر مما تأخذ ، فيعُدُّ مهندسو النيل هذا النقصَ المستمرَّ من المسائل الخطيرة ، والحقُّ أن لبحيرة فيكتورية شكلاً خاصاً لها به جَوُّها ونظامُ ريحها ، وتقوم عواملُ إقليمها الأساسية على تناوب الريح البرية والرياح البحرية ، وعلى كثرة الزوايح وعلى ارتفاع حرارة الماء إلى ٢٦ درجة ، وعلى عدم وجود أشهر جفاف ، وعلى ما يُصَاب به ذلك السطح العظيم من تبخُّر .

ولا عملَ لسواعدها<sup>(٣)</sup> في ذلك ، ومن السواعد ما يأتيها من ثلاث جهات مع ذلك ، ولكن ليس لها سوى مَنَفَذٍ واحد ، سوى منبع النيل في شمالها بالقرب من

(١) من خثر اللين إذا نمخ واشتد — (٢) التبخر : جاءت هذه الكلمة في المعاجم بمعنى التدخُّن بالبخور ، وقد توسعنا في دلالة هذه الكلمة فاستعملناها بمعنى تصاعد البخار (Evaporation) (٣) السواعد : مجارى الماء إلى النهر أو إلى البحر ، ومفردها ساعدة .

جِنجَا ، وفي الشمال الشرقى تنزل سيولٌ بانحدار قوىٍ من الغون ، البركان المنزوى البالغ ارتفاعه أربعة آلاف متر ، فتأتيها هذه السيولُ بماءٍ غزير ، ومن سواعدها الخمس عشرة تَرى واحدةً مهمةً ، فكان يُطلق عليها اسمُ النيل ، وسببُ هذا هو أن من منطق الجغرافيين أن يذهب إلى أن أهمَّ ساعدةٍ لبحيرة هي النهر الذي يخرج منها ، وأن يرى ذلك في أمر البحيرات الكبرى فضلاً عن أمر صغرى البحيرات التي يمكن قياس جريانها ورؤيته من بعيد أيضاً ، وإذا كان هذا الرافد الغربى هو النيل وجب أن يجد أقربَ مخرجٍ له على مسافة ٢٥٠ كيلومتر ، والبرهان الوحيد الذي يُذكر تأييداً لهذا الافتراض هو أن السكان الأصليين يُسمونه « أم نهر جنجا » .

ورافدٌ ببحيرة فيكتورية ذلك ، ويدعى كاجيرا ، هو نهرٌ كبير ، هو نهرٌ عظيم حتى عند عدم حملهِ لاسم النيل ، ويبلغ طوله سبعائة كيلومتر ، ويستنزف مياه مُعظم الهضبة الواقعة غرب تلك البحيرة ، وتعذر الملاحاة في منافذه الثلاثة بفير الزوارق لِتحول هذه المنافذ بحسب علوِّ النبات الذي تجي به من الجبال ، وتُبصر ، بعد مسافةٍ صالحةٍ للملاحاة كثيرةٍ العرض في بعض الأحيان ، من القُلوع<sup>(١)</sup> والمرتاج<sup>(٢)</sup> ما يضايقه في مجراه الفوقاني على حين يستمرُّه البردي ويجمعه منقعا<sup>(٣)</sup> ، وهو إذا ما اقترب من منبعه رُئى أنه سَيلٌ جبلىٌّ صائل .

كانت سبعُ مدُن تتنازع شرفَ كونها مسطّطاً لرأس أوميرس ، وتزعم ثلاثة منابعٍ كونها مهداً للنيل ، ولكلٍّ من هذه المنابع اسمٌ غريب ، وقد وجد بعد قياساتٍ كثيرة أن الجدول الذي يحمل اسمَ روفوفو هو مصدر الرافد كاجيرا ، وهو

(١) القُلوع : جمع القلع . وهو الثقب — (٢) للراج : جمع الرّج ، وهو المضيق .

(٣) المنقع : المكان يستقيم فيه الماء .

يجرى في أرض بلجيّة<sup>(١)</sup> من ارتفاع ألفي مترٍ على الجانب الشرقى من الفلق<sup>(٢)</sup> بين تنغانيقا وبحيرة إدوارد، وفي الأيكة الكثيفة البكر، ومن المباح لكم عند الرغبة أن تُكرّموا منبع النيل الأول في ذلك الجدول: روفوفو.

٥

تُعانيق سلسلة روفوفو في حوضٍ واسعٍ ذلك البلد الرائع الواقع حول البحيرات الغربية، وكان القدماء يسمون تلك السلسلة جبال القمر، وإذا لم يستطع الزوج أن يُفسّروا وجود الثلج على ذراها كانوا يزعمون أنها اجتذبت إليها نور ذلك الكوكب، والحق أن سلسلة روفوفو لم تُصوّر من عنصري أرضي كما يظهر، وهي التي تناطح سماء المساء الذهبي بعزلتها مرتفعة خمسة آلاف متر في منطقة خط الاستواء حيث توارى النبات واختفى الصوّان وحيث يبدو جليد قممها وجمد قبابها، وهي منزوية كنياسوف يكفيه شعوره بقدر نفسه فقاومت زمناً طويلاً فضول الناس وحجّبت رؤوسها عدة شهور عن ثلاثة من أعظم الرواد فأخذوا يسكنون فيما يؤكده الزوج، وكثير أولئك السباح الذين اتخذوا الخريطة دليلاً لهم في البحث عنها فلم يروها قط، وهي أغنى جبال إفريقيا، وهي لتكاثف المطر على صخرها، تنزل ألوف الجداول منها فتتحول إلى أنهار وتجتمع في بحيرات وتؤلف نصف النيل الآخر في نهاية الأمر، ويمكن جبال القمر أن تدعى ملكة ذلك البلد، غير أنها والدة له.

(١) Beige, Belgian — (٢) الفلق: الشق.



ويتألف من هذه السلسلة البالغ طولها مئة كيلومتر ثلاثة مدارج متعاقبة ،  
والشهب أولها ، والشهب ، وارتفاعه ألف متر ، أهمها .

والشهب ساطع ، والشهب أرض مفتوحة متموجة مجزأة إلى مروج واسعة مع  
أنواع كثيرة من شجر السنط ، ومن السنط ما هو بلا أوراق وما هو شائك وما هو  
أبيض ضارب إلى خضرة ، ومنه ما هو أبيض ذو أوراق خضراء لامعة بين الشوك ،  
ومنه ما هو أسود كثير الورق أسمر الفروع ، ومنه ما هو ذو ساق براقة ضاربة  
إلى حمرة ، ومنه ما هو كبير المناقيد ترديني<sup>(١)</sup> الزهر أزرقه ، ويقوم اليثوع<sup>(٢)</sup>  
بينه قائماً قائماً مستقيماً مصمتاً<sup>(٣)</sup> ، ويلوح كل شيء في اليثوع خاصاً بما قبل الطوفان  
كالقيل ، فهو عَصْلِي<sup>(٤)</sup> أزغب ، وهو يثير في النفس صورة أَسْرَةٍ يرأسها زهر  
ضخم أصفر ووردي<sup>(٥)</sup> ، وتزهر السطحييات العالية والترجسيات القانية<sup>(٦)</sup> على  
الأرض اليابسة ، وتوحي ألوف الأزهار فوق ضخم الشوك وعلى مستوى الأرض  
برسم طاقة ذات غبار أحمر ، وتجري الأنهار هناك حيث العشب يلتمع مذهاماً  
وحيث تتجمع الطيور في البردي وفي الأقسام الكثيفة من الغاب ، ويبلغ ارتفاع  
ذلك الكلا أربعة أمتار مع سوقٍ تستفظ غلظ الخيزران ومع أوراق تنمى بنحو قديم ،  
ويسمى ذلك الكلا على طول النيل عُشْب القيل ، والخلنج<sup>(٧)</sup> الأحمر الشائك  
الطويل هو الذي يفوق علواً .

وتدنو الوعول من أنهار ذلك السهب غير خائفة تقريباً ، وترفع الغزلان المغر<sup>(٨)</sup>

(١) التردين : نبات طيب الرائحة — (٢) اليثوع : نبات له لبن — (٣) المصمت :  
الذي لا فرجة فيه — (٤) العَصْلِي : القوي العظيم — (٥) القانية : الشديدة الحرارة .

(٦) الخنج : شجر كالطرء — (٧) النر : جمع الغراء ، وهي مؤنث الأمهر ، أي ما كان  
لونه أحر غير ناصع .

الشَّعْرُ<sup>(١)</sup> قرومها الظرفية وتشمُّ الهواء بمنّاخها على حين يَصِلُ الرِّتُّ<sup>(٢)</sup> مُتَّئِداً خافضَ الرأس بين الخوف والشجاعة، وتجاوز الوعولُ شالكَ العوسج قافِزةً، والبُقعةُ الأخضره التي تَمُّ على الماء هي التي تجتذب جميع هذه الحيوانات، وفيما يَحْمُومُ أبو سَعْنُ<sup>(٣)</sup> فوق أرجال<sup>(٤)</sup> الجراد كالجوارح<sup>(٥)</sup> يطير الحَصَّارِي<sup>(٦)</sup> فوق غُدِيرِ البرْدِيّ مذعوراً من صفير العقاب.

وفي منطقة رُوْزِرُوْرى الثانية، التي هي بُقعةُ المضايق والأودية والتي تَكْثُرُ فيها المساقط، يحيط بالجبالِ نَطاقٌ يُرَى من بعيد، وهناك تُبْصِرُ غاباتٍ تَكْشُوها الأشنة<sup>(٧)</sup> بأَسْرِها، وهناك يسيطر شجرُ من طائفة الصَّنَوْبَرِ والسَّرو، ويعلو الخيزُرَان وترتفع اللَوِيلِيَّةُ<sup>(٨)</sup> مُحَدِّقَةً مُفْتَحَةً العيون بادية شَمْعَةً زهرٍ كالمرح مع عناقيد متدلية منها، وتنتصب تلك النباتاتُ الكبيرة في غابةِ المطر الخالدة كالمِسَلَّات في المقابر المهجورة.

ويُزْهِرُ بالقرب منها شجرُ الخَلَنْجِ الأحمر الوردى والضارب إلى زُرْقَةٍ، ويستمر هذا الشجر طَحْلُبٌ أخضر يرتقَى<sup>(٩)</sup> أَرْجُوَانِيٌّ متصلٌ بلحية غائمة نازلة من ساقه، ويتجمع بين هذا الشجر أجداده الموتى تحت كَفَنِ من الطَحْلُبِ الأبيض، وَيَبْنُ في كلِّ مكانٍ خَيْزُرَانٌ شَبِيهُ مكسور بفعل الريح والمطر، والحقُّ أن ذلك هو بلد البحيرات وفوهاتِ البراكين.

(١) الشعر: جمع الشعراء، وهي مؤنث الأشعر، أي الكثير الشعر الطويل.

(٢) الرت: الخنزير البري، جمعه رمتة - (٣) أبو سعن: طائر - (٤) أرجال: جمع رجل، وهو جماعة الجراد - (٥) الجوارح: جمع الجارحة، وهي ذات الصيد من السباع والطير والكلاب - (٦) الحصارى: جمع الحصري، وهو عصفور أصفر اللون ضارب إلى الخضرة - (٧) الأشنة: شئ نباتي يتكون على الشجر والصخور - (٨) اللويلية: نسبة إلى النبات القرسى حوليل.

وهي كثيرة ، وهي تنظر إلى السماء بعينها السوداء غائصة بين حواجز وِعرة حافظت على شكلها الابتدائي ، وَيَقْطَعُ الصبْتِ العميقَ هَذَرُ التِيَامِ (١) الرزين ، وتُخْفِي وجودَ الإنسان أشجارُ التَوَزِ في بقاعٍ محروثةٍ من الغابة مع أكواخٍ قليلة ، وهناك من المرتفع (٢) البلقع (٣) ما يكون له في النفس أثرُ الحديقة المتروكة لولم تَدْ كَرُمْنَا ذواتُ القوائم الأربع بالخطر الداهم من قَوْرِها ، ومما رُئِيَ هنالك ، وعلى علوِّ ١٨٠٠ متر ، فيقولُ وجواميسُ ، ومما شُهِدَ هنالك أَسودُ تتعقب رِنْتَةً على ارتفاع ٢٤٠٠ متر ، ومما نُفِظَ على ما هو أعلى من ذلك هنالك وُغُولٌ وِرَبَايِيحُ (٤) وقرودةٌ وهررةٌ وحشيةٌ وأرانبٌ صخريةٌ وثَّابَةٌ ، وأثمارٌ تفامر حتى مِنطَقَةِ الثلوج ، ومن بين الطيور تجِدُ الثَّمَرَةَ (٥) ذاتَ الالتماع الضارب إلى خُصْرَةٍ معدنية تصعد إلى آخر الأشجار باحثَةً عن العسل .

والمِنَظَةُ الثالثة هي أضيق المناطق ، وهي مستورةٌ تقريباً ، وعلى الدوام ، ينطأ من الأمطار والغيوم التي تتحول إلى ثلج ، وهي سلسلةٌ من الدُّرَى الثلجية بالغلة خمسين كيلومتراً ومشابهةٌ لِمَا في القَفَقَاس ، وبها يَلْمَعُ آخرُ شهود العصر الجليدي من خلال القرون .

وفي سفح تلك الجبال ، وفي غرب بحيرة فيكتورية ، وفي حَوْضِ كاجيرا ، حيثُ يترجح ارتفاعُ البلد بين ١١٠٠ متر و ٣٠٠٠ متر ، يُصار إلى الطرف الشرقي من تلك الحُصْرَةِ الكبيرة التي تنخفض إلى ١٤٠٠ متر دفعةً واحدة ، وَيَبْلُغُ الانحدار من الوَهْرِ والوَعْرِ ما يمتنع معه قطعُه على الحيوانات الوحشية عدا الفيل والجاموس .

(١) هذر التيام هدرأ : قرق وكرر صوته في خنجرتة ، والتيام هو الحمام البري  
(٢) المرتع : المرعى - (٣) البلقع : القفر - (٤) الربايح : جمع الرياح ، وهو القرد الذكر - (٥) الثمرة : طائر أصفر من العصفور .

وَتَجْمَعُ تِلْكَ الْحَفْرَةُ الَّتِي قَعَرَهَا الْبَرَاكِينُ الْفَعَالَةُ مِيَاهَهَا مِنْ سُلْسِلَةِ الْبَحِيرَاتِ ،  
وَتَصِلُ الْمِيَاهُ إِلَى تِلْكَ الْحَفْرَةِ بِجَرَى دَلُوقٍ ، وَتَقِفُ الْمِيَاهُ هُنَاكَ وَتَكْسَلُ ثُمَّ  
تَسْقُطُ طَرِيقًا لَهَا بَعُثْفٌ .

ونحو الشمال ، وإلى النيل وحده ، تَجْرِي بِحِيرَةُ إِدْوَارد ، الَّتِي تَنَالُ رَوَافِدَ مِنْ  
الْجَنُوبِ وَالشَّامِ وَيَذْهَبُ جَمِيعُ مَا يَنْزِلُ مِنْ سُلْسِلَةِ رُؤُوزُورِي إِلَى النِّيلِ مَارًا مِنْ  
بَحِيرَةِ جُورْجِ وَبَحِيرَةِ أَلْبَرْتِ ، وَيَتَوَجَّهُ جَمِيعُ مَا يَرِدُ أَوْغَنْدَةَ مِنْ سِيُولٍ وَأَنْهَارِ  
وَبَحِيرَاتٍ إِلَى مَنْبَعِي النِّيلِ ، حَتَّى إِنْ مَا يَوَدُّ أَنْ يَتَقَلَّتْ مِنْهُ لَا يَقَاومُهُ ، وَمِنْ ذَلِكَ  
أَنْ نَهْرَ كَافُو الَّذِي يُبَارِي النِّيلَ الْفَتَى سُرْعَةً فِي بَدْءِ الْأَمْرِ يَتَرَدَّدُ بَيْنَ التَّجَاهَيْنِ ،  
فَإِذَا مَا ذَهَبَ نَحْوَ بَحِيرَةِ كِيُوغَا التَّجَا إِلَى نِيلِ فَيْكْتُورِيَّةِ ، وَإِذَا مَا جَرَى نَحْوَ  
الْغَرْبِ انْتَهَى إِلَى نِيلِ أَلْبَرْتِ ، وَفِي كِلْتَا الْحَالَيْنِ تَرْتَبِطُ حَيَاتُهُ الْوَضِيعَةُ فِي مَصِيرِ  
رَفِيقِهِ الْمَرْهُوبِ .

## ٦

يَلْتَقِي نِظَامَا مَنَابِعِ النِّيلِ ، وَيَجْتَمِعُ كُلُّ شَيْءٍ فِي الزَّاوِيَةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْ بَحِيرَةِ أَلْبَرْتِ  
لِتَقْوِيَةِ تَدْفِيقِ النِّهْرِ الشَّابِّ الَّذِي يُجْهَلُ طَوْلُهُ حَتَّى الْآنَ ، وَقَدْ قَامَتِ الْأَنْهَارُ بِدَوَرَاتِ  
طَوِيلَةٍ وَجَابَتْ <sup>(١)</sup> أَضْوَاجًا <sup>(٢)</sup> غَيْرَ قَلِيلَةٍ ، مَا دَامَتِ الْمَسَافَةُ بَرًّا قَصِيرَةً مِنْ مَنَبْعِ النِّهْرِ  
إِلَى مَصْبِهِ فِي أَوْغَنْدَةَ ، وَهِيَ ٢٥٠ كِيلُومِتَرٍ فِي بِلَادِ ذِي وَادٍ مُجَوَّفٍ عَلَى طَرِيقِ  
صَالِحٍ يُقَطَّعُ بِسُرْعَةٍ ، وَبَيْنَ الْبَحِيرَتَيْنِ يَتَجَّهُ نِيلُ فَيْكْتُورِيَّةِ مِنَ الْجَنُوبِ الشَّرْقِيِّ

(١) جَابَ الْبِلَادُ : قَطَعَهَا — (٢) الْأَضْوَاجُ : جَمْعُ الضَّوْجِ ، وَهُوَ مُنْتَطِفِ الْوَادِي .

إلى الشمال الغربى، وتَجْرِى فى جِهَةٍ واحدة سواعدُ البين الثلاثُ المهمةُ التى تَلَاقِيه بعد مسافة وفى فتراتٍ طويلة ، وذلك كالأولاد الذين يُقَلِّدون خطأ أبيهم الأولى من دون أن يستطيعوا مسابقة أحوار مصيره الكثيرة فيما بعد .

وبحيرة ألبرت التى هى أصغرُ من بحيرة فيكتورية ، وأكبرُ ثمانى مراتٍ من بحيرة كونستانس<sup>(١)</sup> ، مستودعٌ للأنهار القصيرة والطويلة التى تصدُر عن ثلوج جبال القمر وأمطارها ، وهى تُغذِّى النيل وتَمَلأ الحفرة بين الدرجة الأولى والدرجة الثانية من العرض الشمالى ، وتمتدُّ الجبال على جانبيها ، وتعدُّ حدًّا للحيوانات باتساعها وطولها فيَجْزُرُ معظمُ أنواعِ الجراد عن مجاورتها ، حتى إن الزوج يُسَوِّنها بلغتهم الزاهية « لوتانزيقا » ، أى « الضياء الذى يقتل الجراد » .

وقال أحد ملوك الزوج لبعض السباح : « يُمكن رُوحَ البحيرة أن تُثيرَ الرياحَ الهائلةَ عليكم وتَقْلِبَ جميعَ زوارقكم » ، وألقى الزوج فيها دَجَاجًا وخرزًا بمحضرة الملك تسكينًا لها ، ويَحْيِىُّ الخطرَ بكلِّ شئٍ ما كان هناك مرقاً واحداً فقط وما دام يُسَافِرُ فى قواربٍ صغيرةٍ أو على أرماث<sup>(٢)</sup> غريبة مصنوعة من سوق البردى وما دامت الزواجر والأعاصير تهبُّ بفتة ، وبالعكس تُنمُّ رُوحُ البحيرة على سكان شواطئها بمقاديرٍ كبيرةٍ من الأسماك التى تَدْفَعُها العواصف إلى الشاطئ فتُؤْخِذُ بجبال طويلةٍ أو فى سِلَالٍ ، ويُذَكِّرُ فى كلِّ حديثٍ يقع بينكم وبينهم خبرٌ عن سمكٍ نهريٍّ عظيمٍ وُجِدَ هناك من قِبَلِ أجدادهم ، ونباٌ أكبرُ من ذلك عن الملح .

وماء بحيرة فيكتورية ، هذا البحرَ الداخلى ، عَذْبٌ ، وماء بحيرة ألبرت مِلْحٌ ،

(١) تقع بحيرة كونستانس بين سويسرة والنمسة وبافارية وورتمبرغ وبادن . وتتألف من مياه الرين

(٢) الرمث : الطوف ، وهو قطع خشب تشد ويركب عليها فى الماء أو تحمل عليها الأهال .

وَمِلْحُ هَذِهِ الْبَحِيرَةِ رِزْقُ الْمَعْظَمِ زَوْجِ تِلْكَ الثَّبَقَةِ ، وَلَا تَصِلُ أَيْدِيهِمْ إِلَى الْكَلَالِ الطَّوِيلِ الَّذِي يَحْبُبُكَونَ بِهِ بِيوتِهِمْ ، فَيُضْطَرُّونَ إِلَى ابْتِياعِهِ مِنْ بَيْدِ ذَلِكَ الْمِلْحِ الَّذِي يَسْتَعْمَلُهُ فِي أَغْذِيَتِهِ نِصْفُ أَوْغَنْدَةٍ كَمَا تَسْتَعْمَلُهُ الْقَبَائِلُ الْآخَرَى وَدَاخِلُ الْكُونُفُو الْبَلُخِيَّةِ حَيْثُ يُفْتَقَرُ إِلَيْهِ ، وَيَرْسُبُ ذَلِكَ الْمِلْحُ فِي الْبَحِيرَةِ فَلَا يَحْتَوِي النَّيْلُ عِنْدَ خُرُوجِهِ عَلَى شَيْءٍ مِنْهُ تَقْرِيْبًا ، وَلِهَذَا الظَّاهِرَةُ شَأْنُهَا فِي أُلُوفِ الْكِيلُومِتْرَاتِ مِنَ الْمَجْرَى التَّحْتَانِيِّ ، وَلِهَذَا الظَّاهِرَةُ خَطَرُهَا حَتَّى لِمَصْرَ ، وَهَكَذَا يُشْعَرُ فِي الْمَشِيبِ ، عَنْ قَدَرٍ ، بِنَتَائِجِ مَغَامِرَاتِ الشَّبَابِ ، وَهَكَذَا تُبْصِرُ الْمِلْحَ الْعَمِيمَ عَامِلَ حَيَاةٍ فِي الْجِبَالِ الَّتِي تَحْمِلُ الْحَوَاجِزَ الْوَعِرَةَ دُونَ زِرَاعَةِ الْحُوبِ فِيهَا ، وَلَكِنْ الرِّجَالُ لَا يُبْذَوْنَ حَرًّا كَمَا فِي جَمْعِهِ ، وَالنِّسَاءُ هُنَّ اللَّائِي يَفْعَلْنَ كُلَّ شَيْءٍ .

وَذَلِكَ قَدْرٌ سَاحِرٌ ، وَفِي أَقْصَى شِمَالِ الْبَحِيرَةِ الشَّرْقِ ، وَفِي الْمَضَائِقِ الْعَمِيقَةِ ، وَبَيْنَ الصَّخُورِ وَكَسْرِ الْحِجَارَةِ الَّتِي يُحْسُ الرِّجْلُ الْأَبْيَضُ حَرَارَتَهَا مِنْ خِلَالِ تَغْلٍ حَدَاثِهِ ، تَنْبُثُ أَجْمَرَةٌ كَبْرِيْقِيَّةٌ مُخْرِقَةٌ خَائِفَةٌ وَتَنْبِجِسُ مِنْ تِلْكَ التَّجَاوِيفِ مِيَاهٌ حَارَّةٌ مَالِحَةٌ إِلَى الْغَايَةِ رَاقِقَةٌ ، وَفِي ذَلِكَ الْجَوِّ تَشَاهِدُ نِسَاءً عَارِيَاتٍ غُرْبًا تَامًا يَرْفَعْنَ جُدْرًا صَغِيرَةً مِنْ طِينٍ ، وَمِنْ بَيْنِ هَذِهِ الْجُدُرِ وَفِي قَنَوَاتٍ ضَيْقَةٍ يَوْجَعُنَ الطِّينَ لِلْمَالِحِ ، وَبَيْنَ هَذِهِ الْجُدُرِ الَّتِي تَوَحِي بِمَنْظَرِ قَرْيَةٍ خَرِبَةٍ وَالَّتِي تَقْصِلُ بَعْضَ مُخْتَلَفِ الْمَنَافِعِ عَنْ بَعْضٍ يَجْلِسُ النِّسَاءُ وَالْأَوْلَادُ التَّرْفُصَاءُ وَيَجْرُفُونَ الطِّينَ الَّذِي يَرْسُبُ مِنَ الْمَاءِ يَقْطَعُ مِنْ حَدِيدٍ ، وَيَلْتَقِطُونَهُ أَوْ يُعْطَرُونَهُ بِحَسَبِ الْحَالِ فِي جَوَابِ<sup>(١)</sup> مِنْ صِلَاصِلِ<sup>(٢)</sup> ، وَالْحِذْقُ كُلُّ الْحِذْقِ فِي تَرْجِ التُّرَابِ وَالْمَاءِ مَرْجَاً مُنَاسِبًا ، وَإِذَا مَا بَرَدَ الْمَطَرُ التُّرَابَ ذَهَبَ الْمِلْحُ ، وَالْمَطَرُ أَشَدُّ مَا يَخْشَوْنَهُ كَمَا أَنَّ الْقَيْثَ أَكْثَرُ مَا يَرْجُوهُ

(١) الجوابي : جمع الجابية وهي الحوض — (٢) الصلصال : الطين اليابس الذي يصوت من يسه .

إخوانهم ، ولتلك المادة التي يستخرجونها من الماء قيمةً كالتى تكون لِمَا يناله غيرهم في مياهٍ أخرى بالرَّخصِ <sup>(١)</sup> ، والواقعُ أن المِلح هو ذَهبُهم .

ويَحْزِمُ الرجالُ تلكَ السِّلعةَ الرَّماديةَ المُرَّةَ في أوراقٍ من شجرِ النَّوزِ وَيَضْمُونَهَا في غُلْفٍ طويَلةٍ ضيقةٍ مصنوعةٍ من سيقانِ الخَيْزُرَانِ وَيَحْمِلُونَهَا على ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهَا زَوَارِقُ نِيلِيَّةٌ مُصَغَّرَةٌ ، ثُمَّ يَسِيرُونَ أَيَّامًا بِأَشْرَها عُرَاةً مع حَصِيرٍ للنومِ وَقَرْيَعٍ <sup>(٢)</sup> مملوءِ ماءٍ حتَّى يَنْتَهَوْا إلى الأسواقِ الَّتِي يَزِنُ المِلحَ فيها إِخوانُ لَهم وَيُعْطُونَهُمْ عِوَضًا مِنْهَا ذَخَائِرَهُمْ مِنَ التِّرْدِيِّ وَالْحَبُوبِ وَالْخَرْزِ وَالرَّمَّاحِ وَالْجُلُودِ ، وَغَايَةُ القَوْلِ أَنَّهُمْ يُقَايِضُونَ المِلحَ الَّذِي يَحْكُمُهُ نَسَاؤُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ على أرضٍ بِلادِهِمْ بَيْنَ الأَنْجَرَةِ الْخَالِطَةِ بِمَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ فِي سَكَنِهِمْ وَلِبَاسِهِمْ وَغِذَائِهِمْ وَزِينَتِهِمْ وَصِيدِهِمْ ، وَهَكَذَا يَقُومُ بِذَلِكَ الْعَمَلِ الطَّرِيفُ الَّذِي يَلُوحُ أَنَّهُ عَرِيقٌ فِي الْقِدَمِ أَناسٌ لَمْ يَسْمَعُوا شَيْئًا عَنْ اسْتِفْلالِ اللِّناجِمِ ، وَذَلِكَ فِي بُقْعَةٍ لَمْ تَطَأْهَا قَدَمُ إِنْسَانٍ أَيْضًا مِنْذُمَثَّةِ سَنَةٍ .

وَيَمِيشُ شَعْبٌ بِالْقَرَبِ مِنْ هُنَاكَ ، وَهُوَ شَعْبٌ أَطْرَفٌ وَأَقْدَمُ مِنْ ذَلِكَ ، وَهُوَ شَعْبٌ وَحِيدٌ فِي أَصْلِهِ وَقِصْرَ قَامَتِهِ ، وَيَسْكُنُ هَؤُلَاءِ الْأَقْزَامُ أَحَدَ سَفُوحِ جِبَالِ الْقَمَرِ ، وَالْآنَ تَرَانَا أَمَامَ هَذَا الشَّعْبِ الْإِفْرِيقِيِّ الَّذِي ظَلَّ حَيْثُ هُوَ مِنْذُ أَقْدَمِ الْأَزْمَانِ ، وَيَزُورِي أَرْسَطُو مَوْكِدًا أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ مِنَ الْأَسَاطِيرِ ، وَيَزُورِي أَرْسَطُو أَنَّ أَقْزَامًا يَسْكُنُونَ كَهُوفًا هُنَاكَ ، وَلَيْسَ فِي رِوَايَةِ أَرْسَطُو مِنَ الْأَسْطُورِيِّ سِوَى مَا عَرِزَ إِلَى أَوْلَئِكَ الْقَوْمِ مِنْ حِيَاةِ أَفْرَاسٍ صَغِيرَةٍ ، وَيَلُوحُ أَنَّ الْأَقْزَامَ هَاجَرُوا إِلَى الشُّهُوبِ الْمُرْتَقِعَةِ مِنْ إِفْرِيقِيَةِ الْجَنُوبِيَّةِ فِي غُصُونِ الْقُرُونِ ، فَلَمَّا أَخَذَ الزَّوْجُ يَفْلَحُونَ لِلْمَرْوَجِ دُحْرَ أَوْلَئِكَ إِلَى الْأَجَامِ عَنْ ضَعْفٍ ، وَهَنًا لِكَوْنِهِمْ عَلَى التَّجَمُّعِ فِي غَايَةِ الْكُؤُوتِ الْبِكْرِ

(١) رَحَضَ الثَّوبُ : غَسَلَهُ — (٢) الْقَرْيَعُ : نَوْعٌ مِنَ الْيَعْلَنِ .

٢ - صاع في النيل







مُوسِّعِينَ رُقْعَةً أَرْضِيهِمْ إِلَى أَنْ انْتَصَبَ لَهُمْ زَوْجُ الْبَانْتُو الَّذِينَ هُمْ قَوْمٌ طَوَالِ  
فَرْدُهُمْ مُجَدِّدًا ، وهكذا ترى الأقزام يُدْعَوْنَ بِالْبَاكُوْا عَلَى الْعُوم ، وهكذا ترى  
الأقزام وهم قومٌ عُنْدٌ ولكن مع حَذَرٍ وَزَرُوبُونَ ولكن مع مناعة ، يُعْمَرُونَ  
أَكْثَرَ مِنَ الْعُرُقِ السَّيْطَرَةِ الَّتِي لَا يَخْتَلِطُونَ بِهَا إِلَّا نَادِرًا ، وللأقزام  
تَعْيِينَ لَسَجِيَّتِهِمْ بِأَجْسَامِهِمْ وَمَصِيرِهِمْ ، وهم من كُلِّ نَاحِيَةٍ بِشَابِهُونَ الْغِيلَانَ  
وَالْعَفَارِيثَ الَّذِينَ وَرَدَ ذِكْرُهُمْ فِي أَقْصَايِ الشَّامِ وَالَّذِينَ خَرَجُوا أَيْضًا مِنْ  
أَصْلَابِ أَقْزَامٍ وَجَدُوا فِي الْحَقِيقَةِ قُمْثًا فِي أَوْرَةِ عَلَى عِظَامٍ لَمْ تَرْجِعْ فِي الْقَدَمِ  
إِلَى الْعَصْرِ الْحَجَرِيِّ .

وليس أولئك الأقزام من الملاح ، ولكن ليس فيهم ما يُشِيرُ الشَّخْرِيَّةُ ، و يبلغ  
طول أجسامهم الشَّعْرُ <sup>(١)</sup> الْكَسَنَائِيَّةُ اللَّوْنُ أَوْ الضَّارِبَةُ إِلَى صُفْرِ  
مِثْرًا وَ ٣٠ سَنْتِمِترًا ، ولم يَطُونُ بِأَجْرَةٍ <sup>(٢)</sup> وَسُرُرُهُ كَالْأَزْرَارِ وَوَجْهُهُ مُتَهَارِمَةٌ كَامِدَةٌ  
فَاهِمَةٌ يَحِيطُ بِهَا شَعْرٌ كَثِيفٌ ، وَلِلرِّجَالِ مِنْهُمْ لِحَى طَوِيلَةٌ ، وَلَمْ يَعْنُ لَوَزِيَّةٌ وَأَفْوَاهُ  
كَبِيرَةٌ ذَاتُ شِفَاهٍ رَقِيقَةٍ ، وَيَتَصَفَّوْنَ بِالصَّمْتِ وَالتَّرْصُدِ وَبِمَا لَيْسَ خَاصًّا بِالزَّوْجِ مِنْ  
عَدَمِ الثَّرْوَةِ وَعَدَمِ الْفَضُولِ ، وَمَا يُمَيِّزُهُمْ مِنَ الْعُرُقِ الْمَجَاوِرَةِ مَا فِي وَضْعِهِمْ مِنْ ذِكَاةٍ  
وَحَيَاءٍ يُذَكِّرُ بِمَا عِنْدَ الْقِرَدَةِ الْكَبِيرَةِ ، وَمِنْ إِذَا مَا أَبْصَرُوا فِي السُّوقِ عُرَاةً يَحْتَرِزُونَ  
مِنَ السُّودِ وَالْبَيْضِ عَلَى السَّوَاءِ ، وَأَبْصَرْتُ نَسَاؤَهُمْ لَا بَسَاتٍ ثِيَابًا طَلِيفَةً مِنْ قَشْرِ  
الشَّجَرِ مَعَ أَقْدَامٍ وَجَنَافٍ وَهَمَجِيَّةٍ ، وَجِدْتُ فِيهِمْ صِفَاتُ الْعَفَارِيثِ ، وَهُمْ أَلْبَاءُ مُدَا جُونِ  
وَقِسَاةُ نَصْرَاءٍ وَعَاطِفِيونَ عِطَاشٍ إِلَى الْإِنْتِقَامِ وَحَاقِدُونَ شَاكِرُونَ ، وَالشَّيْبُ وَحَدَمُ

(١) الشعر : جمع الثمراء ، وهي السكتية الشعر — (٢) الباجر من البطون :

ما انخفض منها .

هم الذين يَحْمِلُونَ مِنْهُمْ سِمَاتِ الْأَلَمِ ، وَالشَّيْبُ هُم الَّذِينَ يَعْرِفُونَ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ كَانَ بَاطِلًا .

ولا يكادون يتحولون في مصارعهم شعوباً تَنْظُرُ إِلَيْهِمْ مِنْ عُلَى وَتَرْدَرِيهِمْ كَمَا يَرْدَرِي الرَّجُلُ الْفِطْرَى مَنْ هُوَ أَصْفَرُ مِنْهُ ، وَلَا سِيَّاهُ فِي سَوَاءِ تِلْكَ الْمِنْطَقَةِ الْكَثِيرَةِ السَّكَّانِ ، وَكَانَ كُلُّ إِنْسَانٍ حَوْلَهُ يَتَمَتَّدُ عَلَى الْمَاشِيَةِ وَالْجُوبِ فِي مَعَاشِهِ ، وَكَانَ الصَّيْدُ عِيدًا كَالْحَرْبِ ، وَهُمْ لِقَصَرِهِمْ ، نَتِيجَةُ الْمَلَامَةِ يَبْتَائِهِمْ مَعَ الْقُرُونِ ، اضْطَرُّوا إِلَى الْإِعْتَصَامِ بِالْعَابَةِ الْبِكْرِ فَفَدَّوْا عَفَارِيْتَ بَيْنَ الْحَيَوَانَاتِ الْإِبْتِدَائِيَّةِ وَصَارُوا مِنَ الصَّائِدِينَ ، وَهُمْ قَدْ عَاشُوا بِدَوِيِّينَ فِي زِرَابٍ<sup>(١)</sup> صَغِيرَةٍ مَحْبُوكَةٍ بِسُرْعَةٍ وَفِي مَخَابِئٍ يَتَمَدَّرُ الْعُثُورُ عَلَيْهَا ، فَيَتَجَنَّبُهَا الْبَانْتَوِيُّ الرَّئِجِيُّ الْخِرَافِيُّ عَلَى أَنَّهَا مَأْوَى الْأَقْرَامِ ، وَيَحَافِظُ الْأَقْرَامُ عَلَى نَارٍ لَا يَعْرِفُونَ إِقَادَهَا ، وَيَجْهَلُ إِخْوَانُهُمْ مِنْ أَهْلِ جَبَلِ الْإِلْفُونِ وَجُودَ النَّارِ . وَيَشْوِي الْأَقْرَامُ اللَّحْمَ وَالطَّلَحَ<sup>(٢)</sup> ، وَيُتَقَنُّونَ صُنْعَ الْأَبَارِيقِ وَالسَّلَالِ ، وَبِأَكْلُونِ أَكْثَرِ مَا تَأْكُلُ الشُّعُوبُ الْآخَرَى ، وَلَكِنْ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ الَّتِي يَذْبَحُونَهَا وَمِنْ الْخَنَازِيرِ الْبَرِيَّةِ وَالْفِرْزَلَانِ وَالْقِرْثَانِ وَالْجِرَادِ وَالسَّمَكِ وَالْأَفَاعِي ، وَهُمْ ، لِنَلِكِ ، يَبْرُدُونَ ثَنَائِهِمْ<sup>(٣)</sup> وَأُنْيَابَهُمْ الْعُلِيَا فَيَذَرُّونَهَا<sup>(٤)</sup> .

ويعيش أولئك الأقزام في أكوأخهم الصغيرة عيشاً بسيطاً غريباً ، وَيَنْدُرُّ أَنْ يَشَاطِرَهُمْ أكوأخهم آخَرُونَ ، وَالْأَقْرَامُ يَدْخُلُونَهَا زَحْفًا مِنْ ثُقُوبِ كَحْرُوقِ الْقِرْثَانِ ، وَنِسَاءُ الْأَقْرَامِ ، دَوْمًا ، عَارِيَّاتٌ عَاطِلَاتٌ مِنَ الْحُلِيِّ وَالْقَلَائِدِ وَالْوَشْمِ ، وَلَيْسَ لِسَى الْأَقْرَامِ أَىُّ مَعْتَقَدٍ كَانَ كَعُظْمِ جِيرَانِهِمْ ، وَلَيْسَ عِنْدَهُمْ رُؤْسَاءُ ، وَلَا حَسَنُ الصَّائِدِينَ

(١) الزرَاب : جمع الزريبة ، وهى غنجا الصياد — (٢) الطلح : الموز .

(٣) الثنايا : أسنان مقدم الفم تفتان من فوق وتفتان من أسفل .

(٤) ذريته : جيله حاداً .

منهم بضعة امتيازات في بعض الأحيان ، وهم لا يَرْضُونَ بشيء قد يُوجِدُ شركةً أَوْحَالاً ، وكلُّ واحدٍ منهم يعيش منفرداً مع بعض نِسوة ، وتراهم يَحْمِلُونَ عَطفاً مرموقاً نحو أولادهم ، ولا يضع النساء أولادهنَّ في الأكواخ ، بل في الغابة وحدهن ، وهُنَّ يَقَطَعْنَ الحَبْلَ السُّرِّيَّ بأسنانهنَّ كما تَصْنَعُ الحيوانات .

وإذ ليس عند الأقزام مثْلُ ما عند جيرانهم من دواجنٍ وَخَصَرٍ وَزِرَاعَةٍ فإنهم لا يجتمعون إليهم إلّا في عيدٍ أو بعدَ صيدٍ كبيرٍ ، والأقزامُ أَمْرَجُ من زواجِ تلك البُقعة وأَكْثَرُ وَلَعاً بالموسيقى ، وهم يُنْتَوْنَ فِرَقاً وأفراداً ، وهم يَضْحَكُونَ ويأتَوْنَ بالأقاصيص ، وهم يشربون قليلاً ويتخذون أوضاعاً لا غبارَ عليها ، والتبغُ والسعوطُ كلاهما مَذَارُ شَفِيعِهِم الوحيدُ .

وهم ، كأقزام الشمال ، سُراقٌ شاكرون ، فإذا ما جَنَّ<sup>(١)</sup> الليل وَخَرَجُوا لَسْرِقَةٍ اللَّوْزِ ، واللَّوْزُ طعامُهُم المُفَصَّلُ الذي لا يَحْوِزُونَهُ في الغابة ، وَضَبُّوا في الغالب قطعةً من صيدهم<sup>(٢)</sup> تحت الشجرة السلوبة ، ومما يَحْدُثُ أحياناً أن يُعَوِّضُوا الرجلَ المروقَ ماله بأغربَ من ذلك ، وذلك بأن يَدْخُلُوا حفلةً في أثناء رُقَادِهِ فيَطْلُبُونَهُ من الكلالِ الرديءِ ، أو أن يَنْصَبُوا مِصِيداً قد يقع فيه حيوانٌ فيأخذهُ ، أو أن يَطْرُدُوا القُرودَ من بين أشجار مَوْزِهِ ، ومما يَحْدُثُ أيضاً أن يَخْطَفَ هؤلاء النَّوْرُ الخُبثاءَ من شَاهِ القِرْدَةِ زِينِجاً صبيّاً وأن يَضَعُوا أحَدَ صِغارِهِم بدلاً منه لأمه الزَّيْنَجِيَّةَ العَوَاءَةَ .

والفيلُ هو محلُّ مَتْلِهِم وَهَدَفُ طَمَعِهِم ، والفيلُ ، الذي هو أَضخمُ الحيوانات ، هو ضحية أناسٍ صِغارٍ يستفيدون من قِصْرِ قاماتهم فيصطادونه مشتركين ، وينسابُ أحْدُهُم

(١) جن الليل : أعظم - (٢) الصيد : ما يصاد .

تحت القيل مُسلّحاً بحِرَابٍ حادّةٍ ، والقيلُ هو من شدّةِ صَغَفِ البصر ما يَعَجِزُ معه عن رؤيته وإصابته بِمُخْرَطومه ، ويُقَلَّبُ القيلُ بذلك المهجوم الغادر ، ويرابط الأقرامُ حَوْلَه حتى يُبْلِغَهُمَ تماماً ، ويتضمون بـماجه في ابتياع ما يحتاجون إليه ، ويُبِيدُونَ مَكْرَ الأقرامِ في صَيْدِ السمك كذلك ، فهم يَسُدُّونَ الجداولَ وَيُنْشِثُونَ قَنَوَاتٍ صغيرةً يَجْرِي للماء إليها فَيَمْسِكُونَ السمكَ المكافحَ بأيديهم .

وهكذا صار أولئك الصائدون الصغار مقاتلين وأقياناً<sup>(١)</sup> كباراً ، ويحتقرهم إخوانهم الكبارُ ، وَيَسْخَرُونَ من هؤلاء « الرجال ذوى اللّحى الطويلة » ، وهم يُضْطَرُّونَ ، مع ذلك ، إلى الاشتراء منهم مزاريقَ مُطَرَفَةٍ<sup>(٢)</sup> في الغابِ وأَسِنَّةَ حِرَابٍ وَأَسُورَةَ من حديد لنسائهم ، وتستخدمهم القبائلُ المسيطرة في محاربة أعدائها ، وإذا ما أضعى هؤلاء الأقرامُ مشاورين لرئيسٍ تَغْلِبَ شُكْرُهُم على غدرهم ، وارتبطوا بعطفٍ ثابت ، خاصٍّ بالشعوب المضطّهدة منذ زمنٍ طويل ، فيمن يُحَسِّنُ معاملتهم لاستغلالهم .

ومن هم هؤلاء الباتُّو الذين هم على خلافٍ دائمٍ مع الأقرام ؟ ومن هم سادةُ تلك البلاد ؟

## ٧

أَوْغَنَدَةَ بلدٌ أغنى من جميع البلدان المجاورة وأوفرُ حَظًّا منها ، وذلك لِما تتمتع به من جَوٍّ سَخِيٍّ تنمو به ثَمَرَاتُ الأرض من تلقاء نفسها ، وَلِما أَنْعمَ القَدَرُ

(١) الأقيان : جمع القين ، وهو الحداد — (٢) طرق الحديد : مدده ورقعه .

عليها به من إبعاد البيض حتى سنة ١٨٦٠ ، وتمضى ألافُ السنين ويعيش فيها بضعةُ آلافٍ من السود هنالك جاهلين شَهَوَاتِ الشرق والشَّمال ، ويدخلُها سبيك<sup>(١)</sup> ويكون أولَ مَنْ يتكلم عن شعبه فردومِيّ يَحْسَبُ نفسه سعيداً ، واليوم لو سئِلَ أوغنديٌّ على شواطئ بحيرة فيكتورية لأجاب أنه يأتي من بلاد « يفتبس القمرُ فيه قُواء الجديدة ونوره الجميل الأبيض من ذُرَى جبال الثلج » ، وهو يمدُّ يده نحو منبع النيل في بعض الأحيان فيقول إنه من البلد الذي يَلِدُ فيه النهرُ الأكبر ، ولكنه إذا ما سئل عن مَيزِ الزمن أبصر أن السنة ستُة أشهرٍ لغلتَيْن ينالها ، وصَرَحَ بأن الشهر الأول من السنة هو شهرُ البَذْرِ وأن الأشهرَ الخمسةَ التالية هي أشهرُ الأكل ، وكان لدى أولئك القوم قبل أن يُكشَفَ أمرهم كلُّ ما يحتاجون إليه من مَوَز وجوب وبقول وأسماء وضأن ، وهم لم يَهْتِكْ منهم أناسٌ كثيرون في القرون الأخيرة إلا نتيجةً لِمَا اشتعل بين العروق من حروب طويلة .

وَيُعْتَقَدُ أن ذلك العرق مزيجٌ من البانتو ومن قبائل نيلية وحامية ، ونحن ، لأنه ليس لدينا وثائق مكتوبة ، نرى أن اختلاط العروق مصدرُ سعادتها وأن غرورها مصدرُ سقوطها .

والبانتو ، وهم عِرْقُ زِنجِيّ مَسِيطِرٌ ، زُرَاعٌ ، مستديرو الرؤوس ، ضُلُعٌ<sup>(٢)</sup> صحيحو البنية ، مُتَمَرِّضُونَ لَامْعُو الجلود حسِنُو التكوين ، والباهايا ، وهم قومٌ من الرعاة انفصلوا عن أولئك بفعل ما كان بين البدوين والفلاحين من صَرَاع ، أجملُ من

(١) سبيك ( جون هانينغ ) : رحلة إنكليزي ارتلد وسط إفريقيا فاكتشف بحيرة فيكتورية ( ١٨٢٧ - ١٨٦٤ ) - ( ٢ ) الضلع : جمع الضلع وهو الشدبد الأضلاع .

من أين عرفوا المغرب

أولئك وأسطعُ لونا مع أنوف. مستقيمة وشَفَام رقيقة ومنظرٍ من أبوم من البيض وأُهمهم من الخِلَاسِيَّات<sup>(١)</sup> .

وفي زمنٍ مجهولٍ أتى الباهيما فالحين من الشرق ، ومن الحبشة على ما يحتمل ، فاستقروا حَوْلَ بحيرة كِيُونَا وبحيرة فيكتورية ، ثم قَهَرُوا في تاريخٍ متأخرٍ من قَبْلِ البانتو الذين يفوقونهم مع ازدهارهم للبانتو بسبب امتيازهم منهم جَسَنًا وحَذَقًا ، وعلى ما كان من وَضَعِ فريقٍ من كَبَارِ علماء وصف الإنسان علامة استفهامٍ بجانب النتائج التي انتهوا إليها من أبدان كلا العرقين وعثمتيهما ترى في تلك الهجرة الباكرة إيضاحاً وحيداً لعادات أولئك الزوج المنزولين عن سواهم .

ويعتاريج لا تُصَدِّقُ وَصَلَ ، كما يظهر ، لقاط<sup>(٢)</sup> من حضارة دِلْتَا النيل إلى تلك العشائر البعيدة ، وذلك كشعاعٍ عبقريٍّ يُنِيرُ أناساً لم يَسْمَعُوا عن وجوده قطً ، ولم يَحْدُثْ في زمنٍ أن أوصل المصريون نهر النيل إلى أوغندة ، ومع ذلك من أين أتى هذا الثَّوَرُ المستقيمُ الظهر والعظيمُ القرنين الذي يسير بين زواج خط الاستواء كما عُرِضَ في صُورِ الجُدُرِ المصرية القديمة ؟ ومن أين عَرَفَ ملوكُ الزنوج ذلك المَعْرِفَ<sup>(٣)</sup> وذلك البوق المصنوع من قَرْنِ الوَعْلِ اللذين كان الفراعنة يُحَدِّثُونَ بهما ؟ لا ريب في أن حضارة مصر كانت من القوة ما تَوَثَّرَ معه في القبائل الحامية العربية بطريق الصومال والحبشة حيث تُبَصِّرُ آثارها باقيةً ، وقد سارت تلك القبائل إلى الأرض الخصبة جَوْلَ منابع النيل تبعاً لموجاتٍ من الحروب والمجاعات ،

(١) الخلاسي : الولد من أبوين أسود وأبيض — (٢) القاط : النيل الذي يخطئه الحاصد فيلقطه الناس — (٣) للمغرب : آلة الطرب كالطنبور والود والقيثارة .

## الأبيض الأول

فَنَفَذَتِ الحَضَارَةُ بِذَلِكَ فِي الزَّوْجِ الَّذِينَ كَانُوا يَجْهَلُونَهَا كَمَا كَانُوا يَجْهَلُونَ الْإِنْسَانَ الْأَبْيَضَ .  
وَلَيْسَ ذَلِكَ الشَّعْبُ الَّذِي اكْتَشَفَهُ أَوْرِيُونُ فِي سَنَةِ ١٨٦٠ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ مَدِينًا  
بِحَضَارَتِهِ لِتَاجِرَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةِ تِجَارٍ مِنَ الْعَرَبِ أَتَوْا مِنْ زَنْجِبَارٍ قَبْلَ ذَلِكَ بِيَضْعِ سَنِينَ  
لِيَسْتَرَوْا عَيْدًا مِنْ مَلِكِ الزَّوْجِ ، وَلَمْ يَكُنِ الْأَبْيَضُ الْأَوَّلُ الَّذِي وَصَلَ إِلَى الْبَحِيرَةِ  
الْكُبْرَى ، فَوَجَدَ ذَلِكَ الشَّعْبَ ، مُرْسَلًا أَوْ رَائِدًا ، بِلِجَنْدِي زَنْجِبَارِي فَأَرَّ مِنْ دَائِنِيهِ ،  
وَيُؤَلِّغُ الْمَلِكُ الزَّيْنَبِيُّ بِهِ لِبَاسًا أَذْمَهُ <sup>(١)</sup> وَجَمَالَ شَعْرَهُ وَحَسَنَ لِحْيَتَهُ ، وَمَا انْفَكَّ ذَلِكَ  
الزَنْجِبَارِيُّ يَعْيشُ بِجَانِبِ الْمَلِكِ حَتَّى سَنَةِ ١٨٥٧ بَيْنَ نِسَائِهِ الثَّلَاثِمِئَةِ ، وَيَكْشِفُ ذَلِكَ  
الْمَدِينُ ، ذَلِكَ الْجَنْدِيُّ ، لِلْمَلَائِينَ مِنْ سُكَّانِ إِفْرِيقِيَةِ الْوَسْطَى حَيَاةَ الْبَيْضِ عَلَى  
حِينَ تَرَى بَعْضَ الْأَدَوَاتِ وَالْمَادَاتِ قَدْ أَتَتْهُمُ إِلَيْهِمْ مِنْذُ أَلُوفِ السَّنِينَ مِنْ أَمْدَنِ  
بِلَادِ الْبَحْرِ الْمَتَوَسِّطِ الَّذِي كَانُوا يَجْهَلُونَ حَتَّى اسْمِهِ ، وَيَتَّبِعُ بَعْضُ شُيُوخِ الْعَرَبِ  
وَتِجَارِهِمْ بَطْلَ الْحَضَارَةِ الْغَرِيبِ ذَلِكَ .

وَلَمْ يَكُنِ التَّلَكُّ ، مَعَ ذَلِكَ ، أَوَّلَ مَنْ بَهَتْ فِي أَوْغُنْدِهِ ، فَقَدْ اسْتَعْوَذَ الْبَزَعُ  
وَالْوَلَةُ وَالضُّيُوقُ مَعًا عَلَى الْبَاهِيَا ، الَّذِينَ أَسْفَرُوا مَتَزَاجِمَهُمُ بِالْبَانْتُو عَنْ أَسْوَدَاهُمْ مَقْدَارًا  
فَقْدَارًا ، نَتِيجَةً لَوْصُولِ أُولَئِكَ الْعَرَبِ ، وَمَا ذَكَرَهُ الْبَاهِيَا مُوَكَدِّينَ أَنَّهُمْ مِنْ عِرْقِي  
أُولَئِكَ وَأَن أَسْجَادَهُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْ حَقْدَتِهِمْ بِيَاضًا بِدَرَجَاتٍ وَأَن شُعُورَهُمْ كَانَتْ  
طَوِيلَةً ، وَيَحْتَشِي الْبَاهِيَا أَن يَعْصِي حُضُورُ أُولَئِكَ الْغُرَبَاءِ حُضُورَ أَسْجَادِهِمْ لِاغْتِصَابِ  
أَرْضِهِمُ الْمَحْبُوبَةِ مِنْهُمْ .

وَيَصِلُ الرُّؤَادُ الْأَوَّلُونَ ، أَيْ الْإِنْكَلِيرُ ، عَلَى أَثَرِ الْعَرَبِ فَيَجِدُونُ أَنْفُسَهُمْ تَحْتَ  
قَوْمٍ لَمْ يَرَوْا رَجُلًا أَبْيَضَ قَبْلَ عَشْرِ سَنِينَ ، وَمَاذَا كَانَتْ حَالُ هَؤُلَاءِ الْوَحُوشِ ؟

(١) الْأَدَمُ : الْجِلْدُ .



وَجَدَ الْإِنْكَلِيزُ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ يَمِيشُونَ فِي أَكْوَاحٍ مُسْتَدِيرَةٍ مُصْنُوعَةٍ مِنْ سُوقِ الْكَلَأِ الطَّوِيلِ ، أَوْ مِنْ لَيْفِ شَجَرِ التَّوَزِ الْمُجْدُولِ بَدَلًا فَنِيًّا ، وَذَاتِ سُقُوفٍ عَلَى شَكْلِ الْقِيَابِ أَوْ ذَاتِ أَطْنَافٍ<sup>(١)</sup> ، وَوَجَدُوا رِجَالًا وَنِسَاءً يَلْبَسُونَ جُلُودًا أَوْ قِشْرًا وَيَدُوسُونَ وَقْتُ الصَّبَاحِ طِينَ الْجُدْرِ حِفْظًا لِمَسَاكِنِهِمْ مِنَ الْمَطَرَةِ الْيَوْمِيَّةِ ، وَوَجَدُوا فِي الْبِقَاعِ الْمُسْتَغْدِرَةِ<sup>(٢)</sup> أَسْدَادًا أُنْشِئَتْ مِنْ جُدُوعِ<sup>(٣)</sup> النَّخْلِ ، وَطُرُقًا مُحَاطَةً بِالْقُوَيْسَةِ<sup>(٤)</sup> تَصِلُ بَيْنَ الْقُرَى فِي ذَلِكَ الْبَلَدِ الْكَثِيرِ السَّكَّانِ ، وَوَجَدُوا الْمَلِكَ قَدْ جَعَلَ الْقَتْلَ جَزَاءً مَنْ يَقْصِدُ الشُّوقَ عَارِيًّا ، فَلَا يَخْلَعُ الرِّجَالُ جُلُودَ الْخِوَانَاتِ عَنْهُمْ إِلَّا فِي الزَّوَارِقِ أَوْ فِي الْحَرْبِ ، وَوَجَدُوا النِّسَاءَ يَقْنَنَ بِكُلِّ عَمَلٍ فَيَنْبِذْنَ وَيَحْصِدْنَ وَيَجْلِسْنَ الْقُرَفَصَاءَ فَيَسْتَحِقْنَ الْحَبَّ بَيْنَ رَحْوَيْنِ<sup>(٥)</sup> ، وَيَطْبُخْنَ عَلَى الْبُخَارِ فِي قُدُورٍ مِنْ فَخَّارٍ مُصْنُوعَةٍ بِأَيْدِيهِنَّ ، وَذَلِكَ مَعَ لَفِّ اللَّحْمِ وَالسَّمَكِ فِي وَرَقِ الْمَوْزِ ، وَيَحْبُكْنَ خِصَافًا<sup>(٦)</sup> اللَّبْنِ الضَّارِبِ إِلَى حُمْرَةٍ وَالَّذِي يَنْبُتُ شَجَرُهُ فِي أَطْرَافِ الْقَرْيَةِ وَيَعْرِفْنَ تَجْفِيفَ الْجُلُودِ تَحْتَ الشَّمْسِ وَشَدَّهَا عَلَى إِطَارٍ وَدَغَكَهَا بِالزَّيْتِ وَتَنْظِيفَهَا حَكًّا بِالْحِجَارَةِ وَصَنَعَ نِقَالٍ مِنْ جِلْدِ الْجَامُوسِ ، وَوَجَدُوا أَوْلَئِكَ الْوَحُوشَ قَدْ بَلَّفُوا دَرَجَةً مِنَ التَّمَدُّنِ مَا يَفْسِلُونَ مَعَهُ أَيْدِيَهُمْ قَبْلَ الطَّعَامِ وَبَعْدَهُ وَقَبْلَ شُرْبِ الْقَهْوَةِ .

وَوَجَدُوهُمْ يَزْرَعُونَ ثَلَاثِينَ نَوْعًا مِنَ الْمَوْزِ ، أَيْ مِنْ هَبَةِ اللَّهِ هَذِهِ الَّتِي يُمْكِنُهُمْ أَنْ يَكْتَفُوا بِهَا وَحْدَهَا ، وَوَجَدُوهُمْ يَصْنَعُونَ مِنَ الْمَوْزِ سَلَاتِقَ<sup>(٧)</sup> عَلَى الْبَخَارِ ثُمَّ يُخَيِّضُونَ<sup>(٨)</sup> هَذِهِ السَّلَاتِقَ مَعَ بَعْضِ الْمَطُورِ فَيَالُونَ بِذَلِكَ خَمْرًا وَضَرْبًا مِنَ الْحَمَةِ

(١) الطنْف : إفرز الحائط وما أشرف خارجاً عن البناء — (٢) استغدر المكان : صارت فيه غدران ، أى قطع من الماء يتركها السيل — (٣) الجذوع : جمع المنجوع : وهو ساق النخلة — (٤) القويسة : نبات — (٥) الرحوان : نبت الرحي ، وهو الطاحون ..  
(٦) الخصاف : جمع الحصفه ، وهي القفة تعمل من خوص النخل أى ورقه — (٧) السلاتق : جمع السليقة ، وهو ما يسلق (٨) أخذه : جملة يخ ، أى تظهر حموضته .

ذاتِ العذوبة ، ووجودهم ينتفعون بالشعوف<sup>(١)</sup> في سُقُوفهم وقُرُشهم وتغطية اللبن في قُدُورهم ، وَيَتَّخِذُونَ جُدُوع النخل في صُنع الزرائب ويحصلون منها مَرَاديس<sup>(٢)</sup> للأرض أو ركائز لجذب الزوارق إلى الشاطئ ، ويستعملون لبنها كالإسفنج ويحوّلون ليفها إلى جبال وقلائس ، ويعُدُّون هذه الشجرة شجرة الحياة الحقيقية فتمنّهم جميع ما هو ضروري<sup>٣</sup> بعد استثناء اللحم والحديد .

ووجدوا الرجال ، عند عدم استعدادهم للحرب ، يصنعون سُصوصاً<sup>(٤)</sup> وخبوطاً لها من ليف القُر<sup>(٥)</sup> ، ووجودهم يخفرون حفاثر عميقة صيداً لليل على أن يجهزوا عليه برماحهم ، ويُمكنون الجلموس بأشراك من أغصان شائكة ، يأخذون الأوعال بجبال والآساد والأعمار بفخوخ من سوق شجرية ثقيلة ، وينطلقون إلى الصيد بالملثات ، وأبصروهم مخترعين حتى سلاح كان يُظن أنه من أساطير البارون مونسهاوزن<sup>(٦)</sup> لو لم يصفه أعظم الخبراء في أمور أوغندة ، ومن ذلك أنهم كانوا يُمكنون أفاعي سائمة في الأبنكة البكر ويسرّونها في شجرة فوق أثر طريدة فتثور تلك الأفاعي الماء وتهجم على الثير أو الحيوان الوحش الذي يمرّ وتقتله نفعا للزنجي للتواري في الجوار ، ومن ذلك أنهم كانوا يحبكون سلالاً من شُرط القشر ويُعلّقونها في رهوس دوح يلاحظون عليها تحلاً ، فترى هذه النحل من السعادة اتخذ تلك السلال ملجأً تودعه عليها ، وهناك يُدخنها السود ويستولون

(١) الشعوف : جمع السقف وهو جريد النخل — (٢) المراديس : جمع للرديس ، وهو آلة الرديس ، أي تسوية الأرض — (٣) البصوص : جمع الشص ، وهو حديدة عتقاء بصادها السمك وتسمى الصنارة — (٤) القُر : نبات ثمر وهو الصبر أو شبيهه — (٥) البارون مونشهاوزن ( كراك ) : ضابط ألماني ولد ومات في هانوفر ، ويرف بتبجيحه الذي صار مثلاً ( ١٧٢٠ - ١٧٩٧ ) .

على السِّل وعلى الموم<sup>(١)</sup> الذى يصنعون منه أنواعاً من الشمع .  
 ووجدوا أن الرجل يمكنه نكاح ما طاب له من النساء ، والنساء كنَّ ثلاثة أمثال  
 الرجال ، والنساء لا يزكنَ أكثر من الرجال ، وذلك لأنهم كانوا يقتلون بعد النصر  
 جميع القتيلان ويسبون جميع النساء ولا سياً من هنَّ من حسان الباهيما ، ولذلك  
 كان النساء فى أوغندة أرخص ، دوماً ، مما فى أى مكان آخر ، فكانت الواحدة  
 منهن تساوى ثلاثة نيزان ، ثم أصبحت الواحدة منهن تساوى ست إبر أو  
 حذاء واحد .

وكانوا قليلي الولد ، فإذا ما وضعت المرأة للرجل ولداً آخر حَقَّ له أن يُطبلَ أمام  
 بابه مدة شهرين داعياً بذلك أصدقاءه إلى الشرب معه ، وكانوا من مشاعر اللقي  
 والنوق كما يقول جوستن عنهم : « إن جميع الباهيما أماجد مولدا » ، وكان  
 الباهيما يرسلون مرطبات إلى السائح الذى يمرُّ ويدعونه يستريح تحت الخيمة  
 قبل أن يزوروه ، وهم لا يزالون يستعملون صيفاً غريبة فى أثناء الحديث كقول  
 بعضهم لبعض : « أشكرُك ترويحك لنفسك ، أشكرُك إعجابك ببيتى ،  
 أشكرُك ضربك وللى » .

تلك هى مشاعر وأعمال شعب لم يؤثّر فيه اعتقاد معين أو مذهب خلقى ، تلك  
 هى الحال التى كانت عليها حوالى سنة ١٨٦٠ حضارة أولئك القوم الذين زعيم توحشهم .  
 والملك هو الذى كان حامياً لهم ، والملك هو الذى كان له حق الحياة والموت عليهم ،  
 والملك كان محاطاً بمحاشية الكبار ولنحيين<sup>(٢)</sup> مؤلفة من وزير وساق وعازف  
 وزمار وحاجب وحامل غليون<sup>(٣)</sup> وتجلاد وطاير وصانع جمعة ، وكان لأحد أولئك

(١) الموم : الشمع الخام — (٢) أسرة ملوك فرنسا الثانية (٧٥١ — ٩٨٧) — (٣) Pipe .

الملوك أكثر من سبعة ولد ، وكان لديه ، عدا زواجه ، مئات من البغايا اللاتي أرسلَ منهن نحو ألفٍ وتسميته إلى السوقِ لبيعهن ، فكان له بذلك أسلوبٌ طريفٌ لجباية الأموال بمنح رعاياه ملاذً حسيةً ، وكان الملك صاحبَ الأفيان والقطعان فيقطع « كوتاتيه » الإقطاع كما كان ملوك الغرب في القرون الوسطى يشرونهم بتمييزهم من سوام على حساب الفلاحين مع إثارة تحاسدهم ، وكان الملك على الثروة من هزم الدولة ، وكان الفلاح قاعدهً له مع عطلٍ من الأرزاق كما في عهد قياصرة رومسية ، وكان الملك يفرض ضريبةً على البقر فيجمل « الكوتات » مسؤولين عن كل واحدٍ منها ، وكان هؤلاء « الكوتات » ، عند ظهور أسدٍ ، مُلزَمين بتنظيم موكبٍ صيدٍ إنقاذاً لها كما أنهم مُلزَمون بالقتال عندما يُنفِرُ جاريٌ على البلد .

وكان متيزا الذي هو آخر ذوى السلطان من أولئك الملوك ( ١٨٤٠ - ١٨٨٤ ) يتصف بجميع صفات نظرانه من البيض في أوربة مع حكمةٍ أكثر مما لدى الكثير منهم ، ومما حدث أن استقبل الغرباء الأولين في بهو قصره البالغ طوله ثلاثين متراً على صوت الصنوج<sup>(١)</sup> محاطاً بالأعلام وبحملة الرماح مظهرًا عزة العاهل الأكبر . ويظهر ذلك الملكُ مدبراً بنسيج من حرير الهند قاعداً ماذا ساقه أمامه كلوك الغرب في الرسوم القديمة ، ويميل أولئك الرجال الذين بدؤوا له من الآلهة بلطفٍ ومن غير فضولٍ فأجارهم بدلاً من أسرهم أو قتلهم ، ومن أين تعلم أن الكرامة والكياسة من صفات السيد الحقيقي ؟ وكان البهو من لقاطر سوقي النبات ، ولكنه من الاتساع كما حدى الردهاء في رومة ، وكان الملك يأكل محاطاً بالنساء والتدماء ،

(١) الصنوج : جمع الصنج ، وهي صفيحة مدورة من النحاس الأصفر تضرب الأخرى مثلها للطرب .

وكان الوزير وحده واقفاً عند الباب إبعاداً لقَيْن السوء من الأطباق المُعْطَاة ،  
والوزير وحده أكلُ الفِضَال ، والملكُ إذا تكلم آتذُّيه صاح الثَّدْماء بعد كلِّ جَلَّةٍ  
قائلين « نِيَانُزِي - جه » أى « حَجداً ! حسناً ! » وليس سوى هذا ما يقال حول  
موائد البلاط فى أوربة .

ومن ذا الذى عَلمَ مُتِيزَا أن على الملك أن يَنْسُجَ حَوْلَ أبيه أسطورةً من  
الخيال قبل كلِّ شئ ؟ ومن قول مُتِيزَا : « مَرِضٌ والذى فى مَشْيِيهِ فكان يَذْجَحُ  
فى كلِّ يوم مئةَ غلامٍ تسكيناً للأرواح الشريرة ، فلما استردَّ صحته وخرَجَ كما فى الماضى  
راكباً مَتَنَ وزيره الأول وَقَعَ مَيِّتاً ، وقد خِيطَ ضمن جِلْدِهِ بقرّة فُتِرِكَ يَوْمَ فوق  
بحيرةٍ مدةَ ثلاثة أيام ، إلى أن دَبَّتْ عليه ثلاثُ دُرَيْدَانٍ ، وهنالك جِئَ به إلى  
البيت حيث تَحَوَّلَ إلى أُسْدٍ ، وأما جَدِّى فقد كان من القوة ما كان . يمكن عيشه  
مُحَلِّداً لو لم يَفِرَّ من هذه الدنيا كساحرٍ بعد أن عَمَّرَ فاسحاً فى المجال لابنه الذى  
طال انتظاره . »

— ومن كان جدّ آلك ؟

قال الملك مُتِيزَا : « إننى الابنُ الثامنَ عَشَرَ من السُّلَالَةِ ، وكان مؤسسُ  
يتى صياداً مشهوراً جاء من مكانٍ بعيد ، وكان من البأس والجمال ما عَشِقْتَهُ الملكة  
من فَوْرَهَا فَسَمَّتْ زوجها وجعلته ملكاً وأباً للملك التالى . »

ورَوَى الرُّوَادُ ثلاثَ قِصَصٍ طريفةٍ عن مُتِيزَا ، ومنها أنه وَدَّ مَرُورَ غَنِيمَةٍ  
له من بَلَدٍ مُقَادٍ فَأرسل إلى الملك الزَّيْنَحَى مئةَ مِعْوَلٍ ومئةَ نَبْلةٍ ، وأرسل  
إليه قوله : « إذا كنت تريد السِّلْمَ فَخُذْ هذه الماعولَ لحرث الحقول ،  
وإذا كنت تريد الحرب فَخُذْ هذه النِّبَالَ فسوف تحتاج إليها » ، ويأخذ الملك

الماعول ويُلقَّبُ بالملك ذى الماعول المثة .

ويستقبل مُتَيَزَا إنكليزيا ، ويمتنر له هذا الإنكليزيُّ عن كون الهدايا التى أحضرها له قد جَرَقَتْها اليباه ، فاسمع جوابَ مُتَيَزَا : « أَجَلْ ، إن الأنهار الكبيرة تبتلع الأنهار الصغيرة ، ولكننى لا أَفَكِّرُ فى أمرٍ آخر بعد أن رأيتك » .

ويوضح ستانلى<sup>(١)</sup> مُتَيَزَا حركاتِ اللِّصَمِّ وَعَضَلَاتِ الأصابع على ألواح تشريحية فيصْرُخُ مُتَيَزَا قائلًا : « أَجَلْ ، إن هذا الأمر عجيبٌ ، ولا أستطيع صنع مثله ، ولا ينبغي لى أن أَتْلِفَ شيئًا لا أَقْدِرُ على فعله » ولم يُعَمِّمِ مُتَيَزَا أن صَلَمَ<sup>(٢)</sup> أحدَ رعاياه لأنه لم يَرْفَعْهُ !

ومن الغريب أن يَعْبُدَ أهلُ أَوْغَنْدَةَ الإلهَ النيلَ مع أنهم لا يَفِرِّفون غيرَ طفولته الوحشية ، وهم يجهلون مآثره ومصيره بعد ألفِ فرسخٍ من بلدٍ .

ومن النفوس الشريرة من هم فى جُزَيْرَاتِ البحيرات ، فما حَدَّثَ أن الملكَ أرادَ سفرَ رَحَالَةٍ أمريكىٍّ آمنًا فأمرَ بقطع رؤوس سبعة سَحَرَةٍ رُئِيَ أنهم غفاريثُ البحيرة .

ويتوجَّهُ مُتَيَزَا إلى منبع النهر ابتهاجًا بِمَهْرَجَانِ النيلِ الأكبر ، وتقدِّمه فرقته الموسيقية الكبرى مع مزاميرها المصنوعة من القصب وأبواقها المصنوعة من قرون الوعول وقيثاراتها المصنوعة من الخشب وجلدِ الحيوان وأوتار المَصْران ، وفيها يرقص ألوف الناس على صوت هذه الموسيقى يُجَاوِزُ الملكُ البحيرةَ مختلفًا فوق

(١) ستانلى : رحلة إنكليزى ارتاد إفريقيا الوسطى ( ١٨٤١ — ١٩٠٤ ) .

(٢) سلحه : قطع أذنه .

السفينة مستصحبا نساءً كثيراً، وخرأ، وذلك بعد أمر المُجَدِّفِينَ<sup>(١)</sup> بأن يَحْفِضُوا رؤوسهم لكيلا يروا النساء، وذلك هو نُبُهُ ملكٍ أَوْغَنَدَةُ مُتِيزَا، ويشابه قبره لَحَدَّ بطلٍ لإحاطته بالحِراب والرَّماح والسَّهام.

وهكذا تُبَصِّرُ شعباً فِطْرِيّاً موهوباً يُثَبِّتُ بِنِدادته وبِماله من نظامٍ حكومى. فِرْدَوْسىُّ ارتقاءه إلى طَوْرِ من الحضارة لا يكاد يكون فى الأساس أدنى من الذى بَلَغَهُ الْبَيْضُ بعد تطوُّرٍ صَعْبٍ، وما يمانيه البِيضُ من صِرَاعٍ أَلْمِيٍّ بسبب الدين فيَمِزُّ عِنا عِنا دُهم فى ميدانه، وذلك عند نظرنا إلى زَوجِ أُميين عاطلين من كِهَانٍ يؤمنون بِكَائِنِ الْهَيْ خَلَقَ الْعَالَمَ، وَلِبَكْنَ مَعَ دِرَايَةِ يُفَضُّونَ بِهَا كُلَّ طَقْسٍ دِينِيٍّ، وما كان جوابهم عن سؤال الرُّوَادِ الْأَوَّلِينَ إِلَّا قَوْلُهُمْ: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ مِنَ الْعُلُوِّ مَا لَا يَبَالِي مَعَهُ بِأَعْمَالِ الْإِنْسَانِ».

وَيَدُلُّ ذَلِكَ الْإِيْمَانُ الْمَكْنُونُ<sup>(٢)</sup> عِنْدَ شَعْبِ فِطْرِيٍّ فى مَنَزِلٍ عَنِ الْأَجَانِبِ، وَصَاحِبِ لِنِظَامٍ وَأَدَبٍ لَا جِدَالَ فِيْهَا، عَلَى تَكْذِيبِ<sup>(٣)</sup> أَدْيَانِ الْأُمَمِ الْمُسْتَعْبَرَةِ الْعَظِيمَةِ، الَّتِي تُدْعَى بِالسَّيْطَرَةِ، فى إثارة حَسِّ النِّظَامِ وَشُعُورِ الْجَمَاعَةِ، وَإِذَا كَانَتْ الْهَمْجِيَّةُ تَدْفَعُ إِلَى الْحَرْبِ فَإِنَّ الْكَسَلَ لَا يُوجِبُ الْقِسْوَةَ، وَلَا مِرَاءً فى أَنْ أَوْلَتْكَ النَّاسَ يَعيشُونَ عَيشَ الْجَنَّةِ وَأَنَّهُمْ لَمْ يَرْتَقُوا إِلَى غَيْرِ الدَّرَجَةِ الْأُولَى مِنَ الْحَضَارَةِ، وَلَكِنْ مَعَ بَقَائِهِمْ أَسَدَمَ مَا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لَوْ عَرَفُوا عَجَائِبَ الْبَيْضِ الَّتِي لَا تُنَالُ بِلا عَمَلٍ، وَمِنَ السُّودِ أَنْاسٌ حَصَصُوا مِنْذُ قُرُونٍ لِتَأْثِيرِ الْحَضَارَةِ الْأُورُوبِيَّةِ وَأَدْيَانِهَا فَظَلُّوا فى حَالٍ مِنَ الْحَيَوَانِيَّةِ. وَمَا هِيَ الْمَنَافِعُ الَّتِي نَالَهَا شُعُوبُ أَوْغَنَدَةِ السَّعِيدَةِ مِنْ وَصُولِ الْبَيْضِ الْمَتَأَخِّرِ إِلَى مَنَاجِئِ النَّيْلِ؟

(١) المَجْدَف: من يدفع القارب بالمجذاف — (٢) المَكْنُون: الصَّوْن — (٣) التَّكْذِيبُ: قُلَّةُ الْخَيْرِ.

تقوم منازلُ جميلةُ الألوان على شاطئِ بحيرة فيكتورية الشَّمالِ كالتى جاءت  
 فى صورِ يُوْفيس دُوشافان<sup>(١)</sup>، وذلك فى حديقة عميقة مُخَضرة لا يَعْرِف الجفافُ  
 إليها سبيلاً، وذلك تحت ظلالِ أشجار الجُمُيز و بين بساتين مزهرة على النوام ،  
 ومن بين تلك المنازل وعلى طُرُقِ حُرر مُعبَّدة يحيط بها سَنط ذو عناقيد صفراءُ  
 تُبَصِّرُ سياراتٍ تنحدر نحو الخليج ، وتُبَصِّرُ نَجيين يسويان الأرضَ راكبين عَرَبَةَ  
 مُقرَّنة بقرّة فيها ، وتُبَصِّرُ بحجراً<sup>(٢)</sup> الكلاّ القصير وهو يُقطِّق ، وتبصر لهذا الحِجْرُ  
 مِقْبَضاً ذا انمكاس فضيٍّ فى يد قائده السراء اللامعة ، وهكذا يعيش سادة الدنيا  
 فى عَنَتَبَةِ التى هى وَشَنغَتُن الصغرى فى أوغَندَة كما أن كَمبالاً الواقعة فى شِمالها  
 القريب تُعدُّ نيويورك أوغندَة لحركتها التجارية ، وتنصب على سبعة تلال كنائسُ  
 بعدد المذاهب النصرانية تقريباً، وتحفظُ الخُودُ رؤوسَ الإخوان البيض الأَلاجي<sup>(٣)</sup>  
 ورؤوسَ الراهبات اللاتى يضعنها على عصائب هاماتهن ، واللاتى لا يدَعْنَ واحدةً  
 من نَقَين<sup>(٤)</sup> فى بيوتهن ، وهناك تَهبطُ طائرةُ بيضاء آتية من لندن فى كلِّ أسبوعٍ  
 لتذهب إلى الكاب ، ويَهْتَف لها الإنكليز بحماسة ، ولا يكاد مكان البلاد  
 الأصليون يلتفتون إليها .

ولا يُقيمُ الزَّراعُ بشواطئ البحيرة وحدها ، بل تَجِدُهم فى مكانٍ بعيدٍ جداً ،

---

(١) يوفيس دوشافان : رسام فرسلى ( ١٨٧٤ - ١٨٩٨ ) — ( ٢ ) الحز : آلة  
 الحز ، من جز المشب إذا قطعه — ( ٣ ) الألاجى : جمع الألمى وهو الطويل اللحية .  
 ( ٤ ) النق : جمع النقة ، وهو ثوب كالإزار يشد كما تشد السراويل .



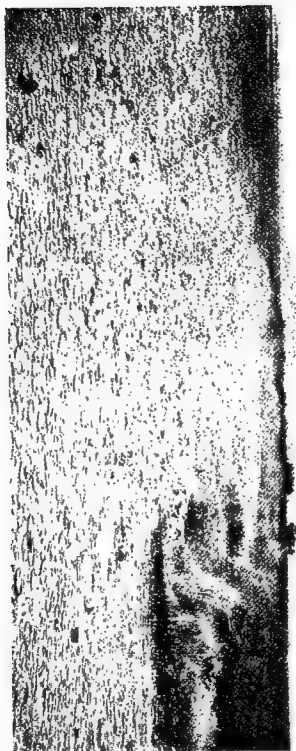
في سواد الغابة البكر ، في فوزبورتال ، بيوتا استعمارية جميلة ، ويُنبت في حدائقهم ، كما في ديفونشاير<sup>(١)</sup> ، الشك<sup>(٢)</sup> والبنفسج والزجس والزعران ، وهناك ، في جنوب بحيرة ألبرت ، وعلى حدود الكونغو ، وحيث مُلتقى الطرق الكبرى ، تتلاقى السيارات والقاحون وسكان البلاد الأصليون بالسوق في أيام معينة .

ويصل الأوغنديون مدثرين بنسج زاهية الألوان وفق الزى الإغريقي حاملين على رؤوسهم قرعاً ذات أعناق أنيقة أو أوعية خزفية على الطراز الكيريتي ، وبفل كثير من النساء ساكنات كالتماثيل مضمورات الشهور أو مزرقاتها<sup>(٣)</sup> كقصيرات الرومان مثيرات فينا ذكريات القرون الغابرة ، وبالقرب منهن يتسكى رعاة غراة على عصيهم متخذين وضع الأجداد من الرعيان منذ ألوف السنين ، ويمد أقوام غراة ذراعهم الشعر نحو صرر من الملح فيعرض عليهم أخذها مقايضة مع ترذد .

والهندي الصامت الساحر النظر يسيطر عليهم كلهم في أكواخ مصنوعة من نسيج القنب حيث يفرض للبيع ذخائر أوروبية ، ويمد الزنجي إليه نقوداً إنكليزية كتبها في مزارع البيض بمشقة ، ويقدم إليه بدلاً منها مصاييح يتزول وأباريق شاي ومظال وطنائير<sup>(٤)</sup> ودبايس شابكة وأطر قديمة ، ولكن الإنكليزي يعلو الهندي ، والإنكليزي هو الأمر المسيطر ، وهو يلبس ثياب الاستعمار البيض ويركب سيارته ، وهو لا يزال يبدو نصف إله ، وإلى متى ؟

(١) ديفونشاير : إحدى المناطق بإنكلترا — (٢) الشك (Fraise, strawberry) : التوت الفرنجي ، والكلمة من أصل تركي — (٣) زرفن شمرة : جملة كالزرافين ، وهي الحلق الصغيرة ، واحداها زرفين — (٤) الطنائير : جمع الطنبور ، وهي آلة الطرب العروفة باليزق .

۴ - کربلا و النبیور





وتمضي ثلاثون سنة على اكتشاف الإنكليزي الأول لأوغندة في سنة ١٨٩٠ ،  
 ويبدأ الإنكليز حوالي سنة ١٨٩٠ باستغلالها رُوَيْدًا رُوَيْدًا ، ويسير كل شيء في  
 البداية سيراً حسناً ، ثم يثور الزوج على المبشرين ، ولم لا يؤذن لهم بأكثر من  
 امرأة واحدة بدلاً من ست ؟ ذلك تديروا حسن الفقراء الذين لا يستطيعون أن يشرؤا  
 بما لديهم من الوسائل أكثر من واحدة ، وهل في ذلك ما ينافي الأدب ؟ هم  
 يجهلون أن الرجل في أوربة لا يحق له أن يتزوج أكثر من امرأة واحدة ، ولكنه  
 ينال زوج جاره بلا جزاء ، على حين يُمكن الزنيجي هنا أن ينكح عدة أزواج ،  
 ولكن من غير أن يأخذ زوج الجار بلا عقاب ، والزواج عرفوا فقط أن القوم أرادوا  
 تحريم عادة يقوم نظامهم الاجتماعي عليها ، ومن ثم كان عصيانهم وقتالم ،  
 ويأسف الملك مُتيزاً في آخر عمره على أنه ترك المبشرين يدخلون بلاده ، وينشأ  
 أسفه عن تنازع الإخوان الفرنسيين الكاثوليك ومرسلي الإنكليز ، ويتغير الشعب من  
 بعض الشروط التي فرضتها الحكومة الإنكليزية على ابن مُتيزا في معاهدة  
 سنة ١٨٩٠ ، وتشعل الحرب ويُقهر الملك ويُنفى ، ويشايه ابنه بمظاهر الملك  
 أجداده مشابهة نسر أسير لرفقائه الطلقاء ، والسكون يسود البلد منذ سنة ١٩٠٥ .  
 ولم يحتفظ الإنكليز بذلك القطر الفاخر بلا قتال حقيق إلا باحترامهم للأسماء  
 والأشكال على قدر الإمكان ، وترَكهم للرؤساء قضاء سطحيًا وشعوراً بالاشتراك في  
 الحكومة ، والإنكليز مع ذلك ، قد ضَمِنُوا لأنفسهم حقَّ الرفض في تعيين أحقر  
 رجال الشرطة كما كان الإمبراطور الروماني المقدس يعترض على تعيين الأساقفة في  
 القرون الوسطى ، والإنكليز ، فضلاً عن ذلك ، يُوزِرُونَ سِرّاً ، كوزارة الملك  
 مُتيزا رجاله في كفاحهم ، جهود مرسليهم الذين حُطِرَ عليهم كلُّ عنفٍ في حُلِّ

الآخرين على انتحال دينهم ، والذين يُعَلِّمُونَ السُّودَ قواعدَ الصحة ويُنشِثُونَ المدارس ، وما تَدْرِّعُ به الإنكليز من رَشْدٍ وعِنادٍ قد عاد عليهم منه أجرٌ كبير ، والإنكليزُ يَقْبِضُونَ بذلك على ناصية بلادٍ مُتَمِّمَةٍ لخطوطهم الجوية والتجارية ، والإنكليزُ في الحرب العالمية (الأولى) قد جَعَمُوا مِثْلَ ألفِ مقاتلٍ زنجيٍّ حاربوا بهم جيرانهم ألمانَ إفريقية الشرقية ، والإنكليزُ قد وَجَدُوا سَوْقًا جَدِيدَةً لِسَلَمِهِمْ ، والإنكليزُ يَبِيعُونَ تسمينَ في المئة من أُمَّ محاصيل أُوغَنْدَةَ بمليونٍ جنيهٍ في الإمبراطورية البريطانية ، وقد بلغت الزيادةُ في ميزانية ذلك البلد السنوية مليونَ جنيهٍ منذ بضع سنين .

وهنا يُسألُ : هل استَرَثُوا ملايينَ الزوجِ الثلاثة ؟ كَلَّا ، وإليك قائمةٌ ما رَبحَهُ الزوجُ من اكتشافِ بلادهم والاستيلاءِ عليه :

يتعلم السَّواحِلِيُّ (١) والإنكليزية وإحدى الحِرَفِ مِثْلَ ألفِ ولدٍ ، أى ما يَدُلُّ عدد الجنود الذين قَدَّمَهُم الزوجُ في أثناء الحرب ، وَيَفْدُو الكثير منهم سائِقِينَ ، وَيُنْقِذُ الطَّيِّبُ الأَيْضُ كثيرًا من الفَتَيانِ والصَّبَّيَّانِ مِنَ الْمَنُونِ (٢) ، وَنَحْيًا مِيسَاحَاتٍ واسعة من الآجام ، وَيَمْنَعُ دُخُولَهَا ، وَيَسْلُكُ ذُبَابَ تَسَى (٣) سَبِيلَ الزَّوَالِ فيزولُ معه مرضُ النومِ وَيَقِلُّ الموتُ ، وإذا أراد الزَّنجِيُّ تركَ القرية التي هِيَ مَسْقِطُ رأسه طَلَبًا لِلرِّزْقِ حملته باخرةُ الأَيْبُضِ بأجرةٍ زهيدة إلى الطرف الآخر من بحيرة كِيُونْغَا ثم عاد الزَّنجِيُّ مع قَلِيلٍ مالٍ ، وَيَنْدُرُ أَنْ تَسْتُولِيَ جَمَاعَاتُ الْفُيُولِ عَلَى الْحَقُولِ

(١) السواحلية : اسم للغة أهل زنجبار وما يجاورها من تلك الديار — (٢) النون : الموت — (٣) تسي تسي : ذباب من ذوات الجناحين ، ولا يوجد إلا في إفريقية ، وكلا الذكر والأنثى يسطو على الإنسان والحيوان نهاراً فقط ويمتص الدم بشره .

فَتَا كُلَّ غِلَاظَ فِي سَاعَةٍ أَوْ سَاعَتَيْنِ ، وَتُنْظَمُ الْحُكُومَةُ أُمُورَ صَيْدِهَا وَتَقْصِرُ عِدْدهَا وَتَرْقُبُهَا وَتَكْفَحُ غَرْوَهَا .

وَتُصَفَّى حَيَاةُ الزَّوْجِ وَعِلْمُهُمْ ، فَتُصْنَعُ أَكْوَاخُهُمْ مِنَ الصَّلْصَالِ بَدَلًا مِنَ الْإِيفِ ، وَتَعْرِضُ فُرُشُهُمْ ، وَتَنُمُو الْقَوَاكِ كَمَا فِي كُلِّ وَقْتٍ ، وَلَكِنَّ السُّودَ فِيمَا مَضَى كَانُوا يَكْسِرُونَ قِطْعَةً مِنْ قِصْبِ الْكَرِّ فِي أَثْنَاءِ مَرُورِهِمْ وَيَبْزُمُونَ<sup>(١)</sup> عَلَيْهَا وَيَمْشُونَ عُصَارَتَهَا وَيَرْمُونَهَا ، وَالْيَوْمَ يَقَطِّعُ السُّودُ قِصْبَ الْكَرِّ فِي الْحَقُولِ الْمَرْزُوعَةِ بِاتِّظَامٍ وَيَأْتُونَ بِهِ إِلَى مَطْطُورَاتٍ صَغِيرَةٍ تَحْتَ سَقْفِ مَعْمَلِ الْكَرِّ الْمَصْنُوعِ مِنَ الْحَدِيدِ الْمُصْحَحِ الْمَتَوَجِّجِ ، وَيُنْشِئُ لَهُمْ صَاحِبُ هَذَا الْمَعْمَلِ حُجَيْرَاتٍ قَرِيبَةً مِنْهُ إِغْرَاءَ لَهُمْ عَلَى الْقَوْدِ فِي الْغَدِّ أَوْ بَعْدَ الْغَدِّ ، وَكَانَ السُّودُ يَدْخُلُونَ تَبْعًا بَرِّيًّا فِيمَا سَلَفَ ، وَالْآنَ يَزْرَعُونَهُ وَفَقَّ الْأَصُولُ ، فَيَسْتَرُونَ بِشَمْنِهِ سَفَائِرَ أَوْرِيَّةٍ تَسَحَّرُ الْأَفْتَدَةَ ، وَكَانَ السُّودُ يَجْمَعُونَ الْبَنِّ الْبَرِّيَّ الْأَحْمَرَ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ لِيُحَصِّصُوهُ وَيَشْرَبُوا حُلُولَهُ بَعْدَ تَقْعِهِ ، وَالْآنَ يَجْلِسُونَ الْقَرْفُصَاءَ تَحْتَ شَجَرِهِ الصَّغِيرِ الْمَفْرُوسِ عَلَى أَسْطَرٍ لِيَجْنِيَهُ فِي سِلَالٍ ثُمَّ وَضَعَهُ فِي أَكْيَاسٍ تَحْمِلُهَا عَرَبَاتٌ تُنْقَلُ بَعْدَ الْوَزْنِ .

وَكَانَ أَجْدَادُهُمْ يَسْقُونَ سَوْقَ الشَّجَرِ ذِي الزَّهْرِ الْإِكْلِيلِيِّ الْأَخْضَرَ نَبِيلًا لِعُصَارَةٍ لَزِجَةٍ ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ كَانُوا كَالْهُنُودِ الْحُمْرِ الَّذِينَ أَبْصَرَهُمْ كَرِيستُوفُ كُولْنِبِسُ يَلْعَبُونَ بِكَرَاتٍ كَبِيرَةٍ سُودٍ نَطَاطَةٍ قَقْصَى مِنْهَا الْمَعْجَبُ ، فَتَقَطُّ الْأَوْغْنْدِيُّونَ زَرْعَهُ فِي الْوَقْتِ الْحَاضِرِ عَلَى صُفُوفٍ كَمَا تَقْلَمُوا تَقْرِيصَهُ<sup>(٢)</sup> بِمِبَاضِعٍ<sup>(٣)</sup> مَسْنُونَةٍ جَيِّدًا وَعَلَى مُعْتَمِقٍ مُقَرَّرٍ وَاتِّجَاهٍ مُحْدُودٍ فِي سَاعَةٍ مُعَيَّنَةٍ ، وَذَلِكَ عَلَى أَنْ يَزْجِعُوا وَقْتَ الْفَجْرِ

(١) بَزَمَ عَلَيْهِ : عَضَهُ بِمَقْدَمِ أَسْنَانِهِ — (٢) فَرَضَهُ : حَزَزَهُ — (٣) الْمِبَاضِعُ : جَمْعُ الْمِبْضَعِ ، وَهُوَ آلَةٌ يُسْقَى بِهَا الْجِلْدُ وَمَا شَاكَلَهُ .

حاملين دلاء صغيرة ، أى حينما تَسِيلُ العُصَارَةُ بغزارة ، ويشاهد السُّودُ في المصنع المجاور سرعة تجميد هذا اللَّبَنِ الذى يُقَطَّعُ عَصَائِبَ أو صَفَائِحَ ثم ضَغَطَهُ ، فَيُعْجَبُونَ بروح البيض اللَّبْدَعَةِ وبكلِّ شَيْءٍ جديد يجدونه فى بلادهم القديم .

وإذا كان السُّودُ يَنْتَفِعُونَ منذ زمن طويل بالحديد الخالص فى صنع سِهَامِهِمْ فإنهم اليوم يَنْشُدُونَ فَيَجِدُونَ مَعْدِنًا أَحْسَنَ من ذلك ، يَجِدُونَ مَعْدِنًا يَلْمَعُ على نور الشمس ، وَيَطْهَرُ الْبَيْضُ ، الذين يأمرُونَهُم بالبحث عن الذهب فى الجبل ، راغبين فى الزيادة منه مقداراً فقديراً ، وَيُلْقَى الْبَيْضُ ، أيضاً ، عَيْنَ طَمَعٍ على شجيرة خضراء ، ذاتِ كَمَرٍ على شكل الكُيِّبِ ، أَحْضَرُوهَا من مكانٍ قَصِيٍّ فَكَثُرَتْ بالملايين ، وقد هَيَأَ الْبَيْضُ لِلسُّودِ أَرْضِيَّ تَتَرَجَّحُ بَيْنَ فدانٍ وخمسة أَفْدَنَةٍ وأعطاهم بُذُورًا حَبَّانًا غَيْرَ مُطَالِبٍ بِإِيَّامٍ بِسُوءِ حُسْنِ النِّيَاةِ بالنبات مُجْزِلًا لَهُمُ الثَّمَنَ عندما تَأْتِي عَرَبَةُ النَقْلِ لِأَخْذِ الْحَصُولِ ، والنَّيْلُ بِشَاهِدِ الْقَطَنِ على ضِفَافِهِ لِلْمَرَّةِ الْأُولَى ثم يشاهده فوق الشُّفَنِ ، والنَّيْلُ قَدْ جَهِلَ الْقَطَنَ فى قُرُونٍ ، وهذه هى فَاتِحَةُ مُحْتَمَةٍ يُجْهَلُ الْآنَ نَفْعُهَا أَوْ ضَرُّهَا .

وقد حَوَّلَ ذَلِكَ الْإِنْتِاجُ الْمَقِيدَ الْبَيْضَ نِصْفَ مِلْيُونٍ مِنَ السُّودِ إِلَى عَمَالٍ ، أَى ثُمْنِ سُكَّانِ الْبِلَادِ الْأَصْلِيِّينَ الَّذِينَ يَقْطُنُ بِالْمَدَنِ مِنْهُمْ تَسْعُونَ فِي الْمَتَّةِ ، وَمِنْ رَشَدِ الْحُكُومَةِ مَنَعُ السُّخْرَةِ ، وَبَعَثَ مُعْظَمُ السُّودِ لِحَسَابِ أَنْفُسِهِمْ ، غَيْرَ أَنْ مَشَارِيعَ الْبَيْضِ جَعَلَتْ مِنَ الرَّجُلِ الْقَطْرِىِّ عَامِلًا يَكْسِبُ اثْنَيْ عَشَرَ شِلْنًا فى الشَّهْرِ ، وَالصَّنَاعَ وَالسُّوَّاقُ وَحَدَمَ هُمُ الَّذِينَ يَنَالُ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ أَرْبَعِينَ شِلْنًا فى الشَّهْرِ ، وَيُكَلِّفُ بُوشِلٌ <sup>(١)</sup> الْمَوْزَ أَرْبَعِينَ سِلْتًا <sup>(٢)</sup> ، وَيُكَلِّفُ بُوشِلُ الْقَوْلِ وَبُوشِلُ الْبَطَاطَا الْخُلُوءَ

(١) البوشل : مكيال إنكليزى للحبوب يعدل ٣٥,٢٤ لترًا — (٢) يعدل السنث فى شرق إفريقيا جزءاً واحداً من مئة جزء من الشلن ، وهو خلاف السنث الأمريكى الذى يعدل مليون .

عشرين سنناً فيبقى للعامل أربعة شلنات في آخر الشهر إذا ما عملت المرأة قليلاً ،  
ومما يتعذر على العامل أن يكسب أكثر من ذلك ما دام المطاطُ خاصاً بالأبيض وما دام  
مُعظم البنِّ وقصب السكر خاصاً بالهندي ، وما دام ربح القطن يقل مقداراً ففقداراً ،  
وإذا أراد العامل إرسال ولده إلى مدرسة عالية ابتلع ذلك جميع مكسبه تقريباً ،  
ومع ذلك إذا عمل للعامل نساء كثير أمكنه أن يقوم ببعض الأشرية ، وذلك كان  
يذهب إلى شارع القرية فيجد زنجياً جالساً أمام آلة خياطته فيأخذ له هذا الخياط  
قياس قيص أو سروال ، ثم يجلس القرفصاء على درجة منتظراً إياها ، وكان  
يشترى قلنسوة أو فانوس جيب ، وكان يشرب قدحاً من راح الويسكي  
متغفلاً الشرطي .

ولكنه يقتطف القطن في ساعات ثمان تحت وهج الشمس ، ولكن زوجة  
تظل ساعات عشرًا بجانب محلجها<sup>(١)</sup> وهي تبلع النفع<sup>(٢)</sup> فلا يكون هناك وقت  
للصيد الذي دخل في ذمة الماضي ، وإذا أراد العامل أن ينام مخموراً متأخراً نبة  
أو عقيب ، ومما لا ريب فيه أنه خرب ، ولكن أين الدور الذي كان يبذر فيه  
شهرًا ويفتني فيه من الغلة خمسة أشهر؟ والآن يُبصر العالم حافلاً بأشياء كثيرة ،  
والآن يُبصر أنه ينحط إذا ما اقتصر على قطع قطف موزٍ وقت الصباح ،  
ويزول غفول آياته الذي كان لا يقطع غير الحرب ، ويذكر القس النصراني له  
وجود آلهة ، وكان جدّه يقول له إن الآلهة وجدت في كل وقت كالقهوة ، ولكن  
كل أمر أحسن ترتيباً في الوقت الحاضر ، وبناته ، بالمكس ، يصنعن كل  
ما يردن ، ويحظرن بيعهن لنافاة هذا للأدب ، ولا يعدن رضاعة غضة مريثة

(١) المحلج : آلة لحلج القطن أي تدفه تخلص الحب منه — (٢) النفع : النبار .



يجب رُقوبها ، وتحتشد الأسرة في كوخ واحد لقرض الأبيض ضرائب على الأكوخ بدلاً من ضريبة الرؤوس القديمة ، ولا يعرف أحد من هو ضميمه .

والأبيض قد أيقظ الأسود ، وصواباً ما صنع ، ومن المحتمل أن يكون قد أفاق بأسرع مما كان يُنتظر ، ويمثل حفيد الراعي الذي لم يدّر ما الكتاب ولا الخط ، دَوَّر هوراسيو<sup>(١)</sup> في عرض مدرسي بكتيلاً فتصق له الإنكليزيات في القاعة ، وما الذي يمتعه من مطالعة الصحف ؟ هو قد تعلمّ المواقع من دروس الجغرافية فيمكنه أن يدلّ عليها ، هو يفكر في أمرها فيوضح لأبيه الجالس أمام كوخه مساء سبب ما يساور البيض من صجر منذ زمن ، وسبب نفق الغرس وقلة الأجر ، وسبب ما يصيب البن من القن على الأرض ، وسبب عود شجر المطاط إلى نوع برّي ، وسبب التفاف النبات المعرّش حول القن<sup>(٢)</sup> ، وسبب طغيان الغاب منذ بضع سنين على الأراضي التي استولت آجامها<sup>(٣)</sup> منذ ثلاثين عاماً وبدئها بالرجوع إلى سابق عهدها ، وهلمّ جرّاً .

ذلك ما يفصله الزنجي الشاب لأبيه الشاب ، والشاب الزنجي هذا قد تسلّم من مكتب البريد كتباً وقرأ صحفاً فعمل تضاعف صادرات أوغندة في عشر سنين وتناقص ثمن ما يُصدّر إلى نصف ما كان عليه ، وهل صجر البيض من ذلك ؟ وما قرأه أيضاً أن العامل الأبيض يكسب أربعين جنياً في كل شهر ، وأن زميله الأسود الذي يقوم بعمل مماثل تقريباً لا ينال غير أربعين شلنًا ، والأبيض هو سيد العالم ، واحتياجات الأبيض أكثر من احتياجات الأسود لا ريب ، ولكن هل

(١) هوراسيو : من أبطال أساطير الرومان - (٢) القن : نبات مر ، وهو الصبر أوشبهه - (٣) الآجام : جمع الأجرة ، وهي الشجر الكثير اللثف .

لديه منها ما يزيد على مائتي الأسود عشرين ضعفاً ؟ وكيف لا يشتر كاتب البريد الأسود بقدره حينما يتخذ منه الأبيض واقفاً في تحزنه فلا يروق الأسود نسيجه فيعرض عنه فيجذب الأبيض إليه نسيجا آخر راجياً أن يقدم على ابتياعه ؟ وهذا الأبيض هو الذي يألف من الجلوس مع الأسود حول مائدة واحدة أو أن يلعب معه لعبة كرة القدم .

وقد يأتي يوم على كاتب البريد ذلك مجرب فيه عن كسب مسدساً علمه أخوه الشرطي كيفية استعماله ، ويمكن ذلك الكاتب أن يحسب وجود النفي الأبيض في هذا البلد الواسع مبعضين بين ثلاثة ملايين ونصف مليون من الزوج الذين يعرفون كيف يصطادون الفيل والنمر والذين كان آباؤهم أهل قتال ، ومن المحتمل أن يضع شعب فطري له مثل تلك الحيوية ومثل تلك الحضارة الطبيعية التي هي على شيء من النمو ، يده ذات يوم على الزراعة التي أدخلها البيض إليه وأن يسترد أولاده كالأيكة اليكر تلك .

## ٩

في منبع النيل والقرب من المساقط يوجد عمود من صوان رمادي يحيل لوحاً مكتوباً عليه : وجد سيبك منبع النيل هذا في سنة ١٨٦٢ ، وإلى ذلك اللوح تؤدّي طريق طويلة من خلال غابة التاريخ اليكر .

وما أكثر الأمم التي جدت في ريادة هذا النهر ! ومن الرواد الخمسة كان سيبك وغرانت<sup>(١)</sup> وبيكر<sup>(٢)</sup> وستانلي من الإنكليز وكان أمين<sup>(٣)</sup> من اليهود ،

(١) غرانت : سائح من أصل اسكتلندي ( ١٨٢٧ - ١٨٩٢ ) - (٢) بيدر : ( ١٨٢١ - ١٨٩٣ ) - (٣) أمين : هو محمد أمين باشا الذي كان يهودياً ألمانيا ثم أسلم ، وأصل اسمه إدوارد هفتيز ( ١٨٤٠ - ١٨٩٢ ) .

ومن بين أولئك الذين تَقَدَّم على يدهم تخطيط النيل أشاد اختصاصي<sup>(١)</sup> بذكر ستين اسماً من أربع عشرة أمة ، وما أعظم ما بذله هؤلاء من نشاطٍ وما احتملوه من ألمٍ وما قَصَّروه من أعوامٍ حيازةً خارقةً للعادة وما لاقوه من قسٍّ وُصُولاً إلى قليل سعادة ! ومع ذلك تَرَى في جميع من خاضوا غمار ذلك الكفاح حنيناً إلى تلك المخاطر والأوصاب<sup>(٢)</sup> وإلى الإياب إلى إفريقيا على الأقل ، ويلوح وجودُ قُدرةٍ ساحرة في هذه القارة ، ويظهر وجودُ قوةٍ مِغْنَطِيَّةٍ خَفِيَّةٍ تجذب ذوى الإخضال<sup>(٣)</sup> من الرجال ، وليس جميعُ من قَصَدُوا إفريقيا من الكارهين لأوربة ، ولا تَحِيدُ أحداً رَجَعَ إلى أوربة من الكارهين لإفريقية ، ومُعْظَمُ هؤلاء قد فُتِنَ بالحرية الفردية التي لم يكن لِيَجِدَهَا في أيِّ بلدٍ غربيٍّ ، ومن هؤلاء عددٌ غيرُ قليلٍ سَحَرَتْهُ الحرية الجنسية التي لا تُذَكَّرُ إلا نادراً .

والفرقُ كبيرٌ بين الأجيال التي جَمَلَتْ من أولئك الرجال رُؤَادَ النيل ، وبين أخلاقهم والعوامل التي دفعتهم ، وبين أهدافهم والمجد الذي نالوه ، ويتماثلون آلاماً وجهوداً ، وكانت هذه الآلامُ التي عانَوْها والجهودُ التي بذَلوها في انفرادهم أكثرَ صعوبةً وأشدَّ قُوَّةً في زمنٍ لا برق ولا لاسلكيٍّ فيه مما يماينه ويتبذله رائدٌ في أيامنا ، وما لدى أولئك الذين كانوا أقلَّ نجاحاً من مِثْلِ إلى الكفاح ورغبة في المغامرة فيَعْدِلُ ما لدى أولئك الخمسة العِظَام ، وإذا ما هَجَرَ رجلٌ أُسْرَتَهُ وبلده ومهنته وثروته ابتغاءاً لارتياحٍ مجاهلٍ إفريقيا والبحث عن منابعٍ نهرٍ مجهولةٍ فإنَّ كلَّ شيءٍ فيه يسترعى التفاتنا ، وإن دواعيهِ والغايةَ التي يسعى وراءها وسرَّهُ وجهرَهُ

(١) الأوصاب : جمع الوصب ، وهو الصب .

(٢) أخضال الشيء : يله .



• — چیل دوتوری



### يخطئون الهدف

ومزاجه وإدراكه للحياة ووضعه تجاه البيض والشود وتجاه المبشرين والشرقيين وتقاريره التي يكتبها فيما بعد أمورٌ تتم على أخلاقه بما يرغب على ما يريد إنشاءه ، وحبُّ السياحة هو الذي حفَّزَ هذا ، وحبُّ الاطلاع هو الذي حفَّزَ ذلك ، وآخرون قد دفعوا عن طموح واستياء ورغبة في مشاهدة ما هو مجهول من نبات وحيوان ، وبعضهم قد حرك عن كرهٍ للناس لا يسكنه سوى الاتصال بالشود ، وذلك لأنهم قد بدؤا جميعا مدافعين عن الزوج خلا ستانلي الذي كان وحده يفضل مجتمع البيض على مجتمع الشود .

وهل يُعجب من فقد أولئك الرجال لشعور القياس في أثناء تلك الرِّبَّادات الطويلة المثيرة حينما يقدون منفردين بلا رقيب ولا اتصال بمسرات أمثالهم وآلامهم فلا يبالون بغير هدف خفي في ناحية من الغابة البكر؟ والعجيب هو محافظتهم على ذلك الشعور ، وهم إذ كانوا مضطرين إلى مدح أنفسهم دوماً فإنك ترى أحسنهم هم الذين يضيِّقون ذرعاً عند ما يكتبون ولو لم يبالوا في بيان مغامراتهم ، ولم يكن الكتاب الموهوبون منهم هم الذين يدبج يراعهم خيرَ اليوميات ، وبطل متهم إنكليزي مثل سبيك قدأ في البساطة التي يُعبرُ بها عن مشاعر يحوُّها الآخرون إلى بطولة .

هم يخطئون الهدف ، ويشوه أعمالهم ضرب من الخنزوانية<sup>(١)</sup> ، وما أشدَّ المرارة التي تمارجهم عند ما يجادلهم بعد الموت علماء في القرعة حول النتائج التي انتهوا إليها ! وهم قد عاشوا سنوات بين الوحوش والحيوانات ، وهم قد احتملوا خرافاتٍ أحرر رئيس قبيلة ، وهم قد استهزئ بهم لتعريض أنفسهم لبؤس كثير

(١) الخنزوانية : جنون الظلمة .

في سبيل اكتشاف منبعٍ ومَجْرَى نهرٍ وشكلِ بحيرةٍ ، وهم إذا ما عادوا صَدِمُوا بمثل ذلك الجود ، وقد وجد سبيكُ نفسه أمام أساتذة بَيَّنُّوا له استحالة كون منابع النيل حيث وَجَدَهَا ، وأُثِّقَتْ جميعاتُ المناهضة ، أَجَلٌ ، كَرَّمَتْه صحيفةُ اليَاش ، ولكن الحكومة لم تُنْعِم عليه بمقامٍ ، أو مالٍ ، أو بما كان يتطلع إليه من لَقَبٍ ، وكل ما أُذِنَ له فيه هو توسيعُ شِعَارِ أُسْرَتِهِ بأن يضيف إليه بَقَرًا ماءً وتَمْساحًا ، وهذا وحده هو ما كوفي به مكتشفُ منبع النيل !

ويُكْرَهُ هو أكثرُ رُؤَادِ النيلِ حُظُوَّةً من قِبَلِ الطبيعة والطالع ، وهو الوحيدُ الذي كانت له بِنْيَةُ عِلاقٍ استطاع بها أن يُطَبِّقَ جميعَ المتاعب ، وهو ما انفكَّ يَذْهَبُ إلى الصيد في إنكلترة حتى بعد مجاوزته السبعين من عمره ، ويلزَمُ بطلُ مكافئة الاسترقاق الكبيرُ هذا جانبَ الصمت مع ذلك عند ما عاد النَخَّاسون الذين كان يطاردونهم إلى سابقِ سِيرَتِهِم بعد انصرافه .

وما أَشَدَّ خيبةَ أملِ ستانلي الذي حَقَّقَ أعظمَ الفتوح ! وهو لَمَّا وَجَدَ لِيْفِينْغْسْتَن<sup>(١)</sup> عُدَّةً دَجَّالًا ، وَشَكَّ في صحة الرسائل التي أتى بها ، ولما عدا اكتشافُ الكُونْفُو أمرًا لا مِرَاءَ فيه بُكَّتْ هذا الصَّحَافِيُّ الكبيرُ على قسوته خفضًا لمجده فقط ، ولم يكن لدى ستانلي الذي هو أكثرُ الجميع طُمُوحًا صفاء سبيك حتى تكون له راحةٌ بالٍ في شعوره بما ثَرَّ ، وقد مات خائبًا غاضبًا ، وقد أبصر أولئك الرُّؤَادُ ما تَمَّ من تصحيحِ دائمٍ لخرائطهم على يد سياحِ آخرين ، وما فَتِنَتْ خريطةُ البحيرات و منابع النيل تتحول بين سنة ١٨٥٠ وسنة ١٨٧٧ ، وكانت هذه

(١) ليفينغستن : مبشر وسائح إنكليزي ارتاد إفريقيا الوسطى وإفريقية الجنوبية (١٨١٣ - ١٨٧٣) .

الخريطة تُرى بعض تلك الأماكن بعيداً من بعض ، ثم صارت أصغر مما كانت عليه فتدانت كما يقعُ بالمِرْقَب<sup>(١)</sup> الذي يُقَوِّمُ رويداً رويداً .

وَأين صِيتُ أولئك الرجال في الوقت الحاضر ؟ يَعْرِفُ كُلُّ بَلَدٍ اسمَ أبنائه الذين أنجزوا الكثير ، ولا شيء غير ذلك تقريباً ، وكلُّ خلودٍ حقيقٍ يُمكنُ الرائدَ أن يناله هو أن يُذَكَّرَ اسمه في الخرائط ، وهم لم ينالوا ذلك في غير زوايا صغيرة مستورة ، لا بحروفٍ من نار على المسابع والبحيرات والأنهار ، ومن الرُّوَادِ من وُدُّوا حَمَّانَ أنفسهم من النسيان على مقياسٍ ضيقٍ فأطلقوا أسماءهم المَلْتَنَّةَ<sup>(٢)</sup> على أنواعٍ جديدة من الحيوان والنبات ، وما كان لأكابر الرُّوَادِ أن يصنعوا مثل ذلك ، فقد اختاروا لذلك أسماء الملوك والملكات وأسماء رؤساء الجمعيات الجغرافية التي أرسلتهم إلى الخارج ، وبدا ستانلي وحده ساذجاً مختلاً قَسَمَى الكُونُفُو حينما اكتشفه نهر لِيْفِينْغْسْتَنْ كما سَمَّى جبال القمر بسلسلة غُورْدُونِ يَنْت فلم يَلْبَثَ الاسمان أن تواريا .

وأطلق الشَّهْمُ دوك أبرُوزى<sup>(٣)</sup> ، الذي كان أولَ من تَسَلَّقَ دُرّاً تلك السلسلة ، على هذه الدُّرّاً أسماء الرُّوَادِ الثلاثة العِظَامَ الذين اكتشفوا منابع النيل ، ولكنك لا ترى هذه الأسماء على الخرائط العامة ، ولكن أحداً لا يَعْرِفُهم لذلك ، وتَحْمِلُ مدينةُ الكُونُفُو اسمَ ستانلي ، وتَحْمِلُ خَلِيجُ في بحيرة فيكتورية اسمَ سِيك ، ولا شيء يُذَكِّرُ باسمِ غرانت أو اسمِ سِيكِر ، وتَمَّحَى بالتدريج ذكرى الملوك الذين تَحْمِلُ البحيرات أسماءهم ، فإذا ما تَحَدَّثَ الطَّلَايِنَةُ عن بحيرة أَلْبِرْتُو قصدوا بهذا

(١) Telescope — (٢) Latinized, Latinisé — (٣) دوك أبروزى : أمير إيطاليا ولد

في مدريد سنة ١٨٧٣ .



الاسم كارتلو ألبرتو اليموني<sup>(١)</sup> ، وذلك لأنك إذا استثنت إنكلترة وجدت الجمهور يجهل ألبرت جهلاً تاماً .

ألم يقيم أولئك الرؤاد العظماء بمغامراتهم في سبيل الجمهور والبشرية بأسرها ؟ وإذا عدوت العلماء لم تترأحداً يحد معنى لتسمية منبع النيل ومسقطيه الكبيرين باسم الوزير ربيون والأستاذين أوين ومرشيسن .

ويجب أن تقرأ يوميات هؤلاء الرجال لتمثل مآلاقوه ، ومقابلته بالحوادث الخفيفة التي تقع في مبارياتنا من خلال الغابة البكر والشهوب حيث يعدد عدم إصابة الهدف ونوبة الحصى مسألة حياة وموت ، وإذا جستم هذه العوارض تجسماً لا حد له تجلّت لك جهود أولئك وآلامهم ، وما أدراك ماذا كان البحث عن منابع نهر في ذلك المرض ؟ أنظن أنه كان مقروناً ، كما يقع اليوم ، بالمال والسلاح والزاد والمدايا وأدوات القياس تدبثنا لطريق ورسماً لها بعد دراسة جميع الكتب الخاصة درساً عميقاً ؟

كان ذلك يتطلّب في كل صباح جمع الرائد لرجاله ، وتوزيمه الأثقال بين مئة من الحمالة والحيوانات وتأكدّه من أمر جميع السيور<sup>(٢)</sup> وسهره على جلب الماء ودلالته على الطريق ، وتحريكه الزنجي الذي يخيفه أقل الأشياء وإغراءه على السير أو إكراهه عليه ، وكان على الرائد أن يظهر رئيساً لمئة رجل بسيط يقوم إطاعته على نظرة الأبيض وحركته ، وألاً يبدؤ تبعاً مع الحرارة أو الزوبة أو أذى الحشرات ، وأن يُعنى بالمرضى ، وأن يذفن المواتي ، وأن يحتفظ بالقيادة ولو مرض ،

(١) ييمون : من أقسام إيطاليا الشمالية — (٢) السيور : جمع السير ، وهو قدة من الجلد مستطيلة .

وَأَنْ يُنَمِّكَ الْفَارِّينَ مِنَ الْحَمَلَةِ وَبِجَارِيَتِهِمْ ، وَأَنْ يَفَاوِضَ الرُّؤَسَاءَ الْخُبَيَّاءَ مِنْ أَجْلِ  
الْذُّخْنِ<sup>(١)</sup> وَيُلَطِّفَ طَمَعَهُمْ ، وَكَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَرْضَى بِالْأَسْرِ وَأَنْ يَعْرِفَ كَيْفَ  
يُخَلِّصُ نَفْسَهُ وَأَنْ يَكْفَحَ النِّهْرَ الزَّاخِرَ ظُهُراً وَأَنْ يَصَارِعَ الْأُتْمَارَ فِي الْمُعْكَرِ مَسَاءً ،  
وَكَانَ عَلَى الرَّائِدِ عِنْدَ عُبُورِهِ النِّهْرَ وَإِضَاعَتِهِ صِنَادِيقَ الرِّصَاصِ الَّتِي تَتَوَقَّفُ عَلَيْهَا  
حَيَاتُهُ أَنْ يَبْعَثَ مِنَ الرِّسْلِ مَنْ يَبْحَثُونَ لَهُ عَنْ أَيْضَى انْتَهَى إِلَيْهِ صَبِيَّتُهُ ، فَلَمَلَهُ  
يُنَجِّدُهُ ، وَكَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَعِيشَ سِنَوَاتٍ بِلَا نِسَاءٍ أَوْ أَنْ يَقْتَصِرَ عَلَى زُرِّيَّاتٍ وَأَنْ  
يُظَلَّ مَحْرُوماً كُلَّ نَبَأٍ عَنْ وَطَنِهِ .

تلك هى أحوال أولئك الرجال الذين كان عليهم أن يكافحوا الإنسان والحيوان  
والعناصرَ دَوَّماً ، أولئك الرجال الذين هُوجِمُوا وَعُدُّوا مِنَ الْأَلَمَةِ فِي الْوَقْتِ نَفْسَهُ ،  
أولئك الرجال الذين جَابُوا فِي شُهُورٍ وَسِنَوَاتٍ غَاباً وَهُوَباً لَمْ يَدْخُلْهَا أَحَدٌ قَبْلَهُمْ  
فَكَانَ عَلَيْهِمْ أَنْ يُبْصِرُوا كُلَّ شَيْءٍ وَأَنْ يَتَذَكَّرُوا كُلَّ شَيْءٍ بِاسْتِمْرَارٍ ، فَالْمُنَازَعَاتُ  
وَالْأَلَامُ وَسَعَادَةُ الْبِلَادِ الْمُتَوَحِّشَةِ وَخِيبةُ الْأَمَلِ فِي الْعُودَةِ إِلَى الْوَطَنِ أُمُورٌ اتَّضَاهَا  
ذَلِكَ النِّهْرُ الْمَجِيبُ الَّذِي تَحَمَّلَ بِحَيَاتِهِمْ فِي سَبِيلِ اكْتِشَافِهِ .

## ١٠

يهيمن نجم الصباح ذو الثَّوَرِ اللطيف على مِرَافِقِ بَحِيرَةِ الْبَرِّتِ الضَّارِبَةِ إِلَى صَفْرَةٍ  
حَيْثُ تَصِيقُ فَتَتَحَوَّلُ إِلَى النِّيلِ ، وَتَكُونُ الْأَنْهَارُ الَّتِي تَجْرِي مِنْ بَحِيرَةٍ إِلَى أُخْرَى  
أَكْثَرَ إِمْتَاعاً فِي أَثْنَاءِ انْقِبَاضِهَا مِمَّا فِي أَثْنَاءِ اتِّسَاعِهَا الزَّاهِي الَّذِي يُفْشِي عَيُونَ  
الْجُمْهُورِ ، وَتَيْلُفِيكَتُورِيَّةَ ، وَيَأْتِي مِنَ الْمَسَاقِطِ الْكُبْرَى ، لَا يَجُوبُ غَيْرَ طَرَفِي

• (١) الذُّخْنُ : نبات جبه صغير أبيض وهو غير الجالوريش الذى هو نبات يشبه جبه الأرز .

قصير من بحيرة أَليرت ، وهو يجزُّ بكل ما فى الشباب من قوةٍ مياهًا غزيرة ،  
فيتضاعف نشاطه فيُسرع متوجهاً إلى الشمال .

والنيلُ فى ظلِّ السَّحَرِ<sup>(١)</sup> الذى يَسِيقُ الفجرَ يلوح ساكنًا ، وعلى أمواج النيل  
الزيتية الساكنة تنعكس سُدُوفُ<sup>(٢)</sup> سَيْفِهِ<sup>(٣)</sup> ، وفى الشرق وباتجاه المساقط تُبْصِرُ  
جداراً وردياً لطيفاً ينتصب عند الأفق ، وتُبْصِرُ بعض السُّحُبِ الخفيفة الذهبية  
تَصْعَدُ فى السماء الخضراء الزرقاء ، ويُسْعَرُ بصمتٍ وبانتظارٍ رابٍ<sup>(٤)</sup> وبارتجاجٍ  
تلك الساعة الصباحية كما يُسْعَرُ به عند وصول رجلٍ عظيم ، وذلك حين يُرى  
فى الغرب نحو الكونقو وميضُ رَمَادِيٍّ دُرِّيٍّ سائرٍ للسماء حتى سَمَتِ الرأسِ<sup>(٥)</sup>  
وإن الأمر لسكذلك إذ يرتفع فى بضع ثوان وبسرعة الضياء الاستوائى ونحو الشرق  
لَهَبٌ ضاربٌ إلى حُمْرة ، ويتحول إلى لونٍ أَرْجَوَانٍ من فَوْزِهِ فيظهر جدول نارٍ  
خَلْفَ خطوطٍ سَنَظٍ متوترة .

ويضع النور حدًا للصمت ، وفى الشرق تَصَوَّتْ بضعُ إَوْرَاتٍ وتطيرُ من كَثِيبٍ  
إلى طرف البحيرة ، وتَقْلُ البَلَّاشِينُ البَيْضُ ساكنةٌ على الشَّوَرَى<sup>(٦)</sup> ، ويبدأ  
بَلْشُونٌ أَمْرُ قُضَى الليل على ساقٍ واحدة بالانتقال هنالك ، وَيَنْطِفِ عُنْقُهُ  
وَيَقْدَمُ مِنْقَارَهُ الحادَّ وَيَنْشُرُ جَنَاحَيْهِ وَيَطِيرُ على مستوى الماء ، ولا يلبث كلُّ  
شئٍ أن يتحرك ، وَهَزُّ بعضِ الرؤوس السودِ قرونها المَكْوَرَةَ جانبيًا على حين  
تَسْتَبِرُ الأفقَ عينٌ مُتَحَرِّرةٌ وترتجُّ خُصْلُ شَعْرِ إلى الخلف ، فتلك هى جماعةُ

(١) السحر : ما قبل اصداع الفجر — (٢) السدوف : جمع السدف ، وهو الظلمة .

(٣) السيف : ساحل الوادى ، وقيل كل ساحل سيف — (٤) الرابى : من أخذه الربو ،

وهو علة تحدث فى الجوف فتجعل النفس صعباً — (٥) سمت الرأس : فى علم الهيئة نقطة من الفلك

شعئ إليها الخط الخارج من مركز الكرة الأرضية على استقامة قائمة الرجل .

(٦) الشورى : شجرة تنبت فى النياض .

جواميس ذات جباه عريضة مُحَمَلِيَّة مُتَوَعَّدَة .

وبالقرب من هنالك ، وفي ظرف الغاب تُبَصِّرُ الكَرْكَدَنَ ، وهو ثالث  
عفاريت الأيسكة البكر ، نصف مستور بأطول الأعشاب ، تُبَصِّرُهُ يَتَمَدُّ مُتَمَدِّدًا  
عن النهر ، هور مَادِيٌّ لَامِعٌ ، هو يَعْدِلُ القيل الصغير ضخمةً ، هو أَشَدُّ من القيل  
وبقر الماء توحشاً ، هو ذو حركاتٍ بطيئة ، وله قرنيه المنحنيين إلى الوراء ، والمحيطين  
بفمه ضربٌ من التاج الخفيف كتيجان الغيلان لكَوَايِسِ صَبَانًا ، والكَرْكَدَنُ  
ذَكَى نَشِيطٌ مَعَ مَا نِيَمُ عَلَيْهِ مَظْهَرُهُ كَالْقِيلِ مِنْ بِلَادَةٍ وَقَلَّةٍ حِلَقَةٍ ، والكَرْكَدَنُ  
يلوح أنه من عالمٍ بَانَدِيٍّ بِرَأْسِهِ شَبَهُ النَحْرِفِ <sup>(١)</sup> وَبَأَذَنَيْهِ الْعَظِيمَتَيْنِ كَأَذْنِي الْخِنْزِيرِ  
وَبِمَنْخَرَيْهِ الْوَاسِعَيْنِ وَبِالْحَدَبَةِ الَّتِي عَلَى رَقَبَتِهِ الضَّخْمَةِ وَبِقَوَائِمِهِ الْخَادِرَةِ <sup>(٢)</sup> وَبَيْنِيهِ  
الْقَصِيرَتِي الْبَصَرِ وَاللَتَيْنِ هُمَا أَصْفَرُ مِنْ عَيْنِي الْقِيلِ ، وَالْكَرْكَدَنُ إِذَا مَا انْصَرَفَ  
مُكَرَّحًا <sup>(٣)</sup> عَلَى مَهْلٍ تَحْتَ أَوْرَاقِ السَّنَطِ النَّصَّةِ لَاحَ ظِلٌّ جَهْنِيٌّ يُحِيطُ بِرُوحِ  
غَضَّةٍ نَحِيلَةٍ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ هَذَا الْوَحْشَ لَا يَفْتَنُ بِغَيْرِ الْأَشْيَاءِ اللَّطِيفَةِ ، بِغَيْرِ الْأَغْصَانِ  
وَالْكَلَأِ وَقَشْرِ الشَّجَرِ .

وَكَلَّمَا ارْتَفَعَتِ الشَّمْسُ عَادَ سِمَاطُ الْمَاءِ غَيْرَ مَا كُنِيَ ، وَالنَّيْلُ فِي حَالٍ بِمِجْرَةٍ فِي  
حَالٍ نَهْرٍ كَبِيرٍ جَدِيدٍ يَغَادِرُ ذَلِكَ الْمَنْبَعَ الثَّانِي ، وَالنَّيْلُ شَاعِرًا بِقُوَّتِهِ يُجَاوِزُ أَكْثِيَّةَ  
كَبِيرَةٍ تَحَاوِلُ وَقْفَهُ فَيُظْهِرُ كَالرَّجُلِ الَّذِي يَجْلُو سِلَاحَهُ اسْتِعْدَادًا لِقِتَالِ جَدِيدٍ ،  
وَالنَّيْلُ فِي الْغَرْبِ يُبَصِّرُ آجَلًا وَاسِعَةً فِي أَرْضِي الْكُونُفُو ، وَالنَّيْلُ فِي الشَّرْقِ يُبَصِّرُ  
سُهوبًا صُفْرًا ذَاتَ سَنَطٍ مَغْرُوسٍ فِيهَا ، وَلَا يَنْشَبُ مَجْرَى النَّيْلِ أَنْ يَتَوَطَّدَ فَيَشْتَدَّ

(١) شبه النحر : شكل رباعي له ضلعان متوازيان — (٢) الخادرة : الغلظة .

(٣) كَرَح : عدا عدو القصير يقرمط ويسرع .

## نيل ألبرت

بعد خمسة عشر كيلومتراً في مجرى عريض هادئ سائراً حراً .

والآن يَحْمِلُ النيل اسماً ثانياً ، أى يَحْمِلُ في مسافة مئتي كيلومتر اسم نيل ألبرت لدى كثير من الناس ، أى يَحْمِلُ اسماً يلائم مجراه الهادئ الصالح للملاحة من خلال بلد له منظرُ الحديقة ، والنيْلُ حتى عند مهاجرة البطائح إياه من الجانبين يحافظ على حرية سيره ، وتُضجِي ضِفَتاه متاثلتين شيئاً فشيئاً ، وَيَسْتُرهما قصبُ السَّهْبِ ، وفي البعد تُحَرِّى سُطُورُ خُضْرَتِهِمْ على سواعد غارقة في عُذْرَانٍ عاطلةٍ من مَصَابٍ ، وإذا كان النيل يَضِيقُ أحياناً فإنه لا يَصِلُ أبداً .

ومن يَنْظُرُ إلى الزَّرْعِ على طول النهر يَظُنُّ نَفْسَهُ حول التَّنْمِسِ ، والنهر ضاربٌ إلى زُرْقَةٍ مع أشعة خضري وجُزَيَّرَاتٍ وخُلْجانٍ ، والنهر حين يَتَسَّعُ يَتَحَوَّلُ إلى بحيرات صغيرة يُحِيطُ بها القَصَبُ مع زاويةٍ من غابةٍ ظليلة وراءها حيث يَكُونُ شكلُ الأُنَيْسِ<sup>(١)</sup> والقائِوند والجَمِيزُ غير غريب ، والمادى ، وهم رجال يَجْثُونَ إلى شاطئِ الماء ، قومٌ عُرَاةٌ ، ولَمُعَلَمٌ هؤلاء حقٌّ في ذلك لا تصاف أجسامهم بجمالٍ كلاسِيٍّ<sup>(٢)</sup> كأجسام قَتِيائِهِمْ ، ول هؤلاء القَتِيائِ زِيٌّ عَجِيبٌ ، فلا وَزَرَاتٍ<sup>(٣)</sup> لهنَّ ، وهنَّ يَرِيطُنَ طاقةَ أوراقٍ رطبية من الوراء ويُجَدِّدْنَها كلَّ يوم قَهْتَرُ نَظِيفَةٍ كَرِيشٍ نَعَامَةٍ ، والقَتِيائُ إذا ما أَتَوْا إلى الضَّفَّةِ مَعَهُنَّ وَضَعُوا عَنْهُنَّ رِمَاحَهُمْ وجُلُودَ الحيوان التي يَحْمِلُونَهَا على ظهورهم وأبعدوا الأعشاب المائية جانباً وبلَّوا الجبين والتم بحركة دينية ودخلوا الماء واغتسلوا من غير ضوضاء كالبيض في الحَسَامِ ، واتخذوا وَضْعاً كَهَنُوتِيّاً ، ثم خَرَجُوا واسترجعوا جلودهم ورمَاحهم وانصرفوا .

(١) الأُنَيْس : طائر مائى يشبه صوته صوت البقر — (٢) Classique .

(٣) الوزرة : كساء صغير .

### بحر الجبل

وَتَذْنُونُوهُ مَعَ جِرَارٍ ، وَتَغْضِي أَحْرَمَ مَع سَمَكٍ ، وَيَزْكُرُ زَيْجِي تَامُ الْعُرَى  
رُحْمَهُ فِي زورقه المَقَرَّ من ساقِ شجرة ، ويستند راعٍ إلى شجرة تَيْنٍ صامتا ،  
ولكنَّ ماشيته ليست من ذوات القرون الطويلة كما في أوغَنْدَة ، وما يُرَى من  
أكواخٍ فأكثرُ هُزْأً ، وما يُبْصَرُ من شجرٍ مَوَزٍ فأشدُّ تَقَرُّقاً ، وفي الشَّمال  
حيث تَقَرُّبُ الغاب من النهر ، وحيث يرتفع التراب بلطفٍ نحو الغرب باتجاه الخطِّ  
القاسم لمياه الكُونْفُو تُبْصِرُ بحجى الوعول لتتروى من النيل ، وتُبْصِرُ قِطَاعَ  
السُّكُونْفُو السُّمُرِ تَمْدُو على طول الصُّفَاف .

وَيَضِيقُ الوادى بفتةً ، وَيَبْدُو الصَّوَّان الذى هو أكبرُ عَدْوٍ لحياة الأنهار  
الواسعة الطيبة مُجَدِّداً ، وتتوارى السُّفُنُ وَيَتَقَبَّضُ النيل الرِّصْنُ بفعل الصخور فى  
مَضِيقٍ يَبْلُغُ عَرْضُهُ سَبْعِينَ مِترًا ، وينحنى النيلُ حِجَاةً من اتجاهه الشرقى إلى الشَّمال  
نحو تسعين درجةً بفعل الصخور أيضاً ، وَيَنْقُضُ النيلُ نحو سلسلةٍ من الدوافع  
وَيَتَحَوَّلُ إلى سَيْلٍ كما فى طُفُولته ، ويأتيه سيلٌ آخرٌ من الشرق فَيَعْرِزُهُ وَيُثِيرُهُ ،  
وتعلو ضِفَّتاه عمقاً كجرى نهرٍ جَبَلِيٍّ ، وهو يَحْمِلُ هذا الاسم ، أى بحرَ الجبل ،  
بعد نَمُوله ، وهو يَظَلُّ صاحباً لهذا الاسم مسافةً تزيد على سبعة كيلومتر ، وهو  
يبقى كذلك حتى الدرجة التاسعة من العرض ، والنيلُ يُضْغَطُ من جديد فى مساقطِ  
ذاتِ عرض عشرين مِترًا ، فلا يكونُ له أكثرُ من ١٥٠ متر فى الشَّلَالَتِ التالية ،  
والنيلُ فى عُرْزَتِهِ الصَّائِلَةِ المؤثرة يَظْهَرُ كأنه رجلٌ يقاتِلُ نفسه فَيَنْزِلُ إلى السهل  
نهرًا مُعَرِّبِداً .

وقام فى نِمُوله جسرٌ طَبِيعِيٌّ إعلاماً بذلك التحول ، وذلك الجسرُ ، الذى  
لا ترى مثله فى مكانٍ آخر على ما يحتل ، مصنوعٌ من النباتات المائية ، وهو من

الإحكام ما يستطيع معه فيل أن يَمُرَّ عليه من إحدى الصَّغْتَيْنِ إلى الأُخْرَى ، وقد بلغت جذوره من التأصل ما عادَ به من تلقاء نفسه إلى ما كان عليه بعد أن خَرَّبه فيضان .

وتلك الامتداداتُ الجبلية التي يَأْتِي النيلُ منها هي آخرُ الجبال التي يَرَاهَا ، وبذلك ينتهي شبابه الهائجُ الطائشُ ، ويبدأ العقلُ والاتزانُ والسهلُ بتعيين سَيْرِهِ ، وينتصب في رِجَافٍ ، في المكانِ الذي يصبح النيلُ فيه صالحاً للمِلاحة ، تَلُ غُرُوطِيٌّ مُنْعَزِلٌ صَعْبٌ وَعَرٌّ كَهَرَمٌ تذكّاراً للجبلِ ورمزاً إلى أَفُولِ فَتَاءٍ ، ويُفسَّرُ سكان البلاد الأصليون بأسلوبهم الزاهي أمرَ الزلازل التي تَهْزُهُ فيقولون إنه كان على الجرى التحاتى فَحَمَلَتْهُ الرِّيحُ إلى محله الراهن فَهَرَبَتِ البهائمُ ودُفِنَ الآدميون ، ويتحرك هؤلاء الناسُ بين حين وحين رَغْبَةً في الخروجِ وَبُحْثًا عن القِطَاعِ .

والسودانُ يبدأ هنا ، وما يَبْدُو هنالك ، في سَفْحِ ذلك المَهرَمِ ، من بقايا جُرْزٍ<sup>(١)</sup> الزَّيْدِ فيَذْكُرُ بدرجة هيجان النيل في جريانه حتى هذا الحين ، ويَحْمِلُ النيلُ غُرْبَانًا<sup>(٢)</sup> من الجبال فيضعه الآن على الصَّفَافِ وَيَرْفَعُ ذلك مستواه ، ولكن مع احتمال الخطر وقت المَطَرِ ومع احتمال حدوثِ طُوفانٍ وتَرَكُّ غُدرانٍ ، والحقُّ أن ذكرى الماضي العاصفِ تشتدُّ على النيلِ الحاضر .

ويصبح النيلُ صالحاً للمِلاحة من رِجَافٍ وجُوبًا ، ويَطْلُ النيلُ كذلك بين الدرجتين ٥ و ١٨ من العرضِ ، أى نحو ألفي كيلومتر ، ويتطلب ذلك رَبَابِيَّةً ماهرين ، وقليلٌ ما هم ، وعلى الرِّبَابِيَّةِ أن يَتَّبِعُوا الأضْوَاجَ<sup>(٣)</sup> من بين البطائحِ

(١) الجرْز : جمع الجرْزة ، وهي الحزمة — (٢) النرين : الطين يحمله السيل فيبقى على وجه الأرض رطباً أو يابساً — (٣) الأضْوَاج : جمع الضُوج ، وهو منطلق النهر .

والضحاخ<sup>(١)</sup> والجُرَيْرَات والكُثْبَان ، وأن يُوجَّهوا الزوارق المربوطة بالباخرة من كل ناحية وثلاثاً من سُفُن الأوساق<sup>(٢)</sup> التي تقدمها أو التي تَجْرُها ، أى أسطولاً صغيراً يبدو ضرباً من الأطواف<sup>(٣)</sup> العِظَام ، وبعض أهل دُنْقَلَة أو بعض نُوبِي الشَّمال من أهل أُسوان هم الذين يَقْدِرُونَ على ذلك ليلَ نهار .

وَيُمْكِنُ المَوْجَ الذِي وَثَبَ صباحاً من مساقطِ عَطْفَةٍ نِمُولِهِ المفاجئةِ أن يَمُرَّ مساءً أمامَ هَرَمِ رِجَافِ الأول ، وهناك يشاهدُ الشمسَ القُبُوسَ بِدُخَانِ الشَّهْبِ المحترقِ متوارياً وراءَ الشَّحْبِ البنفسجيةِ لِيُظْهَرَ تحتها نارٌ نَجِيّاً ، ويتناوبُ السماءُ والماءُ نُورٌ وكُدْرَةٌ<sup>(٤)</sup> يَنْظُرُ إِلَيْهَا مُصَوَّرٌ بُنْدُقِيٌّ بَيْنَ الحسدِ ، وَيَتَحَوَّلُ اللونُ بعد أن يكونَ أزرقَ ورديّاً مُشوباً بالأسودِ إلى أخضرَ واضحٍ قَصْدِيٍّ فَإِلَى بَجْبَلِيٍّ<sup>(٥)</sup> نَمُ إلى أسودَ مُخْبِلِيٍّ ، ويحيطُ بالشمسِ حَلَقٌ من دُخَانٍ أسودَ كما يحيطُ بِرُحْلِ وتُنْتَهِي آخَرَ شُعَاعٍ لامعٍ لها ، وتُساوِيُ الموجَ ، كما في الفجرِ ، فتطيرُ عَبْرَ قُرُصِهَا عَصَائِبُ من البَطِّ البريِّ ، وتحومُ حولَ النهرِ الهاديِّ بِلَاشِينَ بِيضُ مَادَّةٍ قَوَائِمِهَا وراءَها ، ويأخذُ الإِبِيسُ في الطيرانِ غامساً رأسه في السماءِ ذاتِ الأشِعَّةِ الضُّفْرِ الزَّعْفَرَانِيَةِ التي تَكْتَسِبُ ظِلًّا ضارباً إلى زُرْقَةٍ رويداً رويداً ، وَيَرْجِعُ الإِوْرُ إلى وُكْرِهِ صالِحاً تحت شُفْرَةِ السماءِ ، وَيَبْدُو نَجْمَ السماءِ الأولُ معَ النَّبَسِ<sup>(٦)</sup> .

(١) الضحاخ : جميع الضحاح : وهو الماء البير أو القريب القمر — (٢) الأوساق : الأَحْال ، وهي جمع وسق — (٣) الأطواف : جميع الطوف ، وهو قرب ينفتح فيها وينسد بعضها إلى بعض أو قطع خشب تشد كذلك فتصير كهنية سطح فيركب عليها في الماء أو تحمل عليها الأقال — (٤) الكدرة : من الألوان ما كان غير صاف ومائل إلى السواد والنبرة .  
(٥) البجلة : شجيرة ذات أزهار بيض وحر — (٦) النبس : غلام الليل من أوله



ويرتفع النسيم قليلاً ، وَيَتَمَوَّجُ كلاً الرِّعَاءِ القصيرُ أَكْثَرَ من قبل ، وَتَنِيْقُ الضفادع نقيقاً موزوناً ، وَيَحْوَرُّ بقرُ الماء في الظلام أحياناً ، وَيَبْرُزُ بَدَنُهُ الغريبُ من النهر لخلول وقت القوت ، وأخيراً يُرْخِي الليلُ سُدُولَهُ وَتَمُّ الْعَتَمَةِ وَتَصْدُرُ الأوعال عن المناهل وَيَصِلُ الأسد بلا زئيرٍ وَيَشْرَبُ من ماء النيل ضارباً الهواءَ بذنبه الطويل .

## ١١

يَعُودُ النهارُ ، والنهارُ إذا ما عاد جَرَّ النهرُ إلى الصَّرَاعِ الذي بُدِيَ في الليل بين الأرض والماء ، ويدخل النيلُ مِنطَقةَ المناقع التي تُعَيِّنُ مصيره وَتُقَرِّرُ مصيرَ البلد بأشهره ، ويكاد النيل يكون من الدرجة الخامسة إلى الدرجة العاشرة شمالاً شَرْيَافاً أساسياً لَعْدِيرٍ أَكْثَرَ من أن يكون نهراً .

وما كان لأحدٍ أن يَنْجَبَ لو اضْطُرَّ النيل إلى إتمام جَرِّهِ حول الدرجة العاشرة من العرض الشَّمَالِيّ ، ولكن النيل لم يكن مجاوزاً سوى ثُلث مجراه حين مغادرته الغدْرُ<sup>(١)</sup> ، وما فَتِيَ يكون كاملَ القَتَاءِ ، وتلك هي أعظمُ مغامرةٍ له في مكافئته الناصر ، وللناسُ مؤخراً ، والناسُ في قوة مَشْيِبِ النيل ، سيستفيدون منه ، وإذا كان السَّدُّ وليدَ النبات هنا فإن الناس سيصنعونه من الحجارة .

والريح ضَلَعٌ في هذا الصَّرَاعِ بين الماء والأرض ، ولا تكون الريح حليفةً لها أبداً ، والريحُ تُخَرِّضُهما ، وهي تُغْرِى العَدَاوَةَ بينهما ، وتَصْعُبُ معرفةَ النادى حتى في هذه الحال ،

(١) الغدر : جمع الغدير وقد مر معناه .

وهل تَسَهِّلُ الأَصْوَاجُ التحولَ إلى بطائح ؟ وهل تُكَرِّهُ الأحوالُ النهرَ إلى التَّجَمُّعِ أَكْثَرَ من قبل ؟ والذي لا رَيْبَ فيه هو أن النيلَ يَتَرَكُ ضِفَتَهُ الشَّرْقِيَّةَ بضغْطٍ من الرياح الموسمية وَيَضِيقُ من قُوْرِهِ في سلسلَةٍ منحنية من الأَقْطَاعِ<sup>(١)</sup> ، وَيُرْوِلُ كُلُّ انحدارٍ من الناحيتين ولا يَجِدُ الروافدُ لها منفذاً فتتألف منها أحواضٌ وبحيراتٌ ، ويتحول النظام النهرى الذى وَجِدَ حتى الآن إلى عالمٍ مائى غيرٍ ملتحمٍ ، غيرٍ جارٍ تقريباً ، متروكٍ إلى الريح مُتَوَارٍ في قَنَوَاتٍ لا يُحْصِيها عَدَدٌ .

وكما أن القوضى تنتشر وتشتدُّ بنفسها إذا وَجَدَتْ دِعمَةً لها ترى اصطرَاعَ الماء والأرض يستقرُّ بِالْجُزُرِ الجديدة التى هى مَرَقُ ترابٍ ، وإذا غاب نهرٌ ، كان يقضى حياةً منتظمة بين ضِفَتَيْهِ ، فى قُفْيٍ لا تُحْصَى كان أمرُهُ كَأَمْرِ بَحْرِ يُلْغَى كُلُّ ما يُنظَّمُ صلاتُهُ بالأرض من قوانينٍ ، والناقعُ يُوجَدُ فى رَحَى من العُشْبِ والقَصَبِ وتُكُونُ هذه النباتاتُ سَرْدًا<sup>(٢)</sup> يزيد زيادةً لا حدَّ لها فيَقْدُو مع الأيام والأعوام مُتَمَصِّيًا ، وهذا هو أمر النيل الأعلى منذ قرونٍ ، والأَيْكَةُ الْيَكْرُ البارزةُ من الماء تبدو حاجزًا مانعًا لكلِّ قاربٍ مثلما تَقِفُ هذه الأَيْكَةُ أَى فارسٍ ، ولم يَعدْ أَحَدٌ ما هَلَكَ من الرجال والحيوان فى مكافحة البطائح .

ولا ريب فى أن مصدر هذه البللة هو انبساطُ النهر الأَصْلَى الذى لا ضِفَافَ له وانبساطُ رافديه العظيمين : بحر الفزال وبحر الزَّرَافِ ، ويستر الماء جميعَ هذا البلدِ فى مُعْظَمِ أيام السنة على مِسَاحَةٍ نحو ستين ألفَ كيلومترٍ مُرَبَّعٍ ، وذلك فى مُتَلَسِّ متساوى الأضلاع تَقَعُ مُنْغَلَةٌ فى جَنُوبِهِ ومَلَاكَالُ ومُتَلَقَى الجُورِ وبحر الفزال

(١) أى على شكل الآلة التى توضع على فم الإناء فتنصب فيه السوائل ، وهى التى تعرف بالقمع ، وتجمع على أقاع — (٢) السرد : اسم جامع للفروع وسائر الملقى .

في شماله ، وما في الخرائط من عدم صحة فيدلُّ دلالةً كبيرة على فوضى العناصر في تلك البقعة التي تزيد مساحتها على مساحة سويسرة مرة واحدة ونصف مرة ، ولا ينفكُّ الجغرافيون يبدلون من سنة إلى أخرى خطوطهم بين الدرجتين الخامسة والسادسة من العرض الشمالي ، أي بين لادو وبور ، ويشاغل هؤلاء الجغرافيون اتجاه مجرى النهر المتحولة باستمرار عن وجود مصبٍ ثانٍ لبحر العرب ، أو عن كونه بحر الحمر الذي يُشكُّ فيه كثيراً ، أو عن كون بعض الجزائر ثابتة أو متحركة ، وهنا الجدلُّ حول أنهارٍ وجزرٍ على طول المئات من الكيلومترات ، وبعض القنوات يُفتح أحياناً وبعضها يُسدُّ بالنبات أحياناً ، وبعضها يغيب تماماً وينتهي إلى إحدى سواعد النيل ، ومن المسافات العظيمة ما يتعذر قطعه ، والآن لا يمكن بغير الطائفة التقاط صورة لقناة كبيرة تتغير في عشر سنين .

وإذا هَجَمَ الفيضان على التراب الرخو وفصلَ منه قطعاً حاولت هذه القطع أن تستقر بمكانٍ آخرَ وكلفت الماء وَرَدَّته عند انهيار الشفير<sup>(١)</sup> مثلاً ، وإذا لاقَت تلك القطعُ تراباً صلباً<sup>(٢)</sup> لا يحفره الماء تَكَوَّنَ غديرٌ من الأعلى ومن الأسفل كما في الغابة البكر ، ويتجمع الطُحْلُبُ<sup>(٣)</sup> في بعض الحفر ، وتستازم رطوبته تكوين طُحْلُبٍ آخرَ فتمتزج به أعشابٌ نابتةٌ في وسط هذه البرك ، ويفوص هذا النبات المتكاثف بالتدريج في الأرض ويُنبِثُها فتطرُدُ الماء وتوارى البركة .

وتسُدُّ تلك الكتلُ النباتيةُ المائمة ، وتلك الحواجزُ أو الأسدادُ ، كما يسميها العرب ، المضغوطة بقوة الجريان والجرورة حتى المرات الضيقة ، حتى المنعطفات ،

(١) الشفير : ناحية الرادى من أعلاه — (٢) الصلب : اليابس .

(٣) الطحلب : الخضرة تعلو الماء المزمن .

يجرى النهر وتحمّله على الانحناء والانعطاف غير مرة بقنواتٍ جانبيةٍ قليلةٍ العمق وتقفُ الجرى الأصليّ ، ثم يُحيطُ الطينُ بالجنود التي تأخذ في النمو والتكاثر نحو كل جهة ، والآل أين النهر ؟ والآل أين النيل ؟

والنيلُ كالرجل المسحور ، موجودٌ هنا وهناك في آن واحدٍ ، ويتشعبُ إليه البحيرات الكبيرة في بلاد جبال القمر وينشئت في قنواتٍ ملتوية وفي خلجان وبحيرات وبركٍ وأحواض ، ويتبلغ من العرض خمسة وعشرين كيلومتراً ويتكشش أخذوده فلا يزيد على ستة أمتار ، ومن مجارى الماء المستورة بالشبب المشتبك تتألف مساربُ بالغة من اللين ما لا يتحرّز منه الحيوان ، والحيوان كلما كان ثقيلاً اغترز بسرعة ، وتسفر دقة أخفاف الأوعال وأبقار الماء عن هلاكها ، وعلى ما يتصف به الفيل من حذر بالغ يضل أحياناً فيزل ، والنمل وحده هو الذى يجتنب الخطر لارتفاع قراياه<sup>(١)</sup> ثلاث أقدام فيحفظه ذلك من ارتفاع المياه ، والزنبح يرد الطريدة إلى هذه البقاع كما يجتذبها الصائد الشمالى إلى الناقع .

وتذكرنا أخلاط النباتات هذه ، وتذكرنا أنواع البسطة المتلبدة هذه ، بحقول الخث<sup>(٢)</sup> الخرافية التي حكى عنها كريستوف كولنبس ، أو بجليد الشمال الذى يتفتت ويتكسر ويتجمع عند حواجز الأنهار حتى تذيبه شمس الربيع ، وفي بعض الأحيان تكفي هنا هبةٌ ريحٍ لفك كل شيء ، وما أكثر ما هلك قطعاً على مثل هذه القطع ، حتى إن بقر الماء يهلك أحياناً جوعاً فوق هذه الجزر النباتية الخادعة .

ذلك هو عملُ الرّيح الثورية التي لا تسكن والتي تؤقد بلا انقطاع نار الحرب

(١) الفرايا : جمع الغرية ، وهى مجتمع تراب النمل — (٢) الخث : نبات الماء .

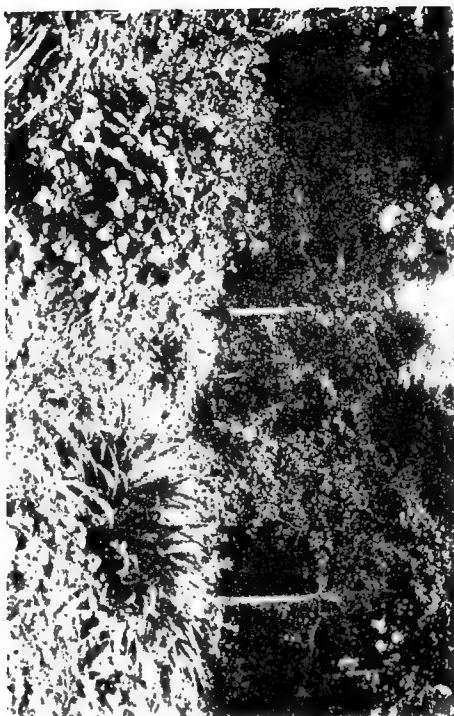
## لاموت تلك الكتل النباتية

بين الأرض والماء ، والريح هي من القوة ما تقذف معه في مجرى النهر الأصلي ، وذلك في ليلة واحدة ، كُتِلَ أحد الأحواض العشبية ، فإذا حلت الليلة التالية هبَّت الريحُ الأخرى ، التي هي أختُ عدوِّ تلك الريح ، من الجهة المعاكسة ومزقت كلَّ شيءٍ إرباً إرباً واستردَّ النيلُ حرَّيته ، وإذا صَفَطَ النيلُ عائمَ الجُزُرِ وأراد استقرارها دفعها الريحُ إلى الخلف ، وتزيدهُ سرعةُ النيل في الجبال عشرة أمثاله في بعض الأحيان ، ومن ثمَّ تنشأ فيضاناتُ النيل وروافده ، وأمس كان بحرُها ، واليوم تُبصرُ مَرَجاً هنا ، ومن المحتمل أن تجد في الغد بحراً من جديد هنا .

ولا تموت كُتِلُ النبات تلك ، وهذا الحاضر هو مصدرُ حياةٍ جديدة للنهر ، وعند ما يكثر البرد في مكان ما من الأعلى ومن الأسفل ، وعند ما تقف الحماة<sup>(١)</sup> والصوالة<sup>(٢)</sup> ، المنحلتان المتجمعتان بين الجذور ، كلَّ جريان فتقضي عاصفة على هذا الحاضر فجأة ، تُجرُّ الأنقاضُ بنفسٍ إلى الحاضر التالي وتُوقِّيه ، وبما لا يحصى عددُ الأسماك والتمايح وأبقار الماء التي أخذت وخُفَّت في هذه الأشرار الواسعة ، ولدى النبات كما لدى الإنسان تحدثُ بليَّةٌ بفعل القوضى فتفسد الطبقاتُ العميقة على حين تظهر الطبقات العليا وتسير كما تريد ، وقد تبلغ هذه الكتلُ العشبية من الارتفاع خمسة أمتار في بعض المرات ، ولهذا الصراع المضني ضدَّ هذه الألوف من صغار الأعداء نتائجُ خصيبةٌ مع ذلك ، فالنهرُ يثير الأرض فتسقط أجزاؤها اليابسة دوماً وتُسَرُّ مُجَدِّداً ، وما يَتمُّ لمجرى النهر من تبديل هنا ، في النيل النهرى ، وهو الذي لا يتفق للأنهار الأخرى إلا في قرونٍ ، فيقع بسرعة ومن غير انقطاع .

(١) الحماة : الطين — (٢) الصوالة : ما أخرج من المنطة ونحوها في التصويل ، كناية نواحي البيدر .

٦ - غابة اسيرانية





وكسرت قُوى الإنسان تجاه العناصر مدة ألفى سنة ، ويبدو الأعداء ، الريحُ والماء والترابُ ، متفقين سرّاً على إقصاء الإنسان ، ووَقَّعت تلك الحواجزُ النباتيةُ جميعَ الفِرَواتِ التي جُرِّدَت منذ عهد نيرُون ، وَحوَّلَ النيلُ الذي لا يُفْهَرُ مجراه في تالى القرون طليقاً كما نَظَّمْ حوصه على مُرادِه .

ولكن الأبيضَ في زمنِ أمين باشا هيمنَ على النيل ، فقد وُقِّعَ النمسوى مارنُو لاختراق ذلك السدِّ في ستة أشهرٍ وبمئةِ عاملٍ ، وهذا بعدَ الأمطارِ التي عَمَرَتِ الخُرطومَ وَخَرَّبَتِ مصرَ في سنة ١٨٧٨ ، وهذا بعد أن قطعت الأَسَدَادُ النباتيةُ ذلك الاتصالَ مدةَ سنتين ، ولم يَأْتِ الإنكليز على آخرِ السدِّ الأصليِّ إلا في سنة ١٩٠٠ ، وكان لا بُدَّ من تعاون المِدْفِيعِيْنَ وبواخرِ البشرين ومن اتحادِ القوةِ والدين الذى هو طليعتها لجمالِ النيلِ صالحاً للملاحة وللاتِّصار على عالمِ الطينِ والنباتِ هذا .

ويُنَحِّثُ للمهندس الذى يَسِيرُ نحو منبعِ النيلِ بعد الخُرطومِ عن مكانِ النهرِ وعن ضيفاهِ قبل كلِّ شىءٍ ، وذلك خَشْيَةً خَلَطِ الجُزْرِ والشَّعِيرِ ، ويُريدُ المهندسُ حَرْقَ كَلالِ الجُزَيَّراتِ ، وَيَعِثُّ له إِسْكانُ دَوَّارِ الرِّيحِ وإحاطةِ الخطرِ بسفينتهِ ، ويرى اتِّخَاذَ خِطَّةِ المهجومِ بَقَرَزِ الأوتادِ فى الأعشابِ وربطها بِالْحِجَالِ ووَصْلِها بالسفينةِ المتجهةِ نحو منبعِ النيلِ ، وتسيرُ الآلةُ رويداً رويداً ، وتُسْرِعُ الآلةُ مقداراً فمقداراً ، ثم تتقدمُ بجميعِ قوتها ، وتقومُ بنصفِ دَوَّرَةٍ مقلعةً قِطْعاً من السدِّ كما كانت تتلعقُ الأسنانُ فيما مضى ، ويَظْهَرُ النباتُ أقوى من الأوتادِ أحياناً ولو أُمْسَكها ثمانيةُ رجالٍ ، وهنا تَتَجَلَّى المَهارةُ فى معرفةِ شَدِّ الحِجَالِ وإرخائها .

وإذا كان الجريانُ الماكسُ غيرَ كافٍ وكانت الجُزُرُ قديمةً مستمصةً



## يَأْتِي اللَّيْلُ بِالْأَخْطَارِ

أو كانت المناقعُ عميقةً فَسَمَّهَا الهندسُ إلى مُرَبَّعاتٍ وَجَزَّ العشبَ بِسُيُوفٍ قَصِيرَةٍ وَقَطَعَ الجذورَ، ويدخلُ مئةُ زِنْجِيِّ في الماءِ حتى الصدورَ، وَيَرْتَشَحُونَ عَرَقًا وَطِينًا، ويهاجون النباتَ بالسكاكين من الأعلى وبالمعاول من الأسفل، ولكن السيلَ إذا ما اشتدَّ تَعَلَّقُوا بِأَقْوَى سَوْقِ اللَّبَرْدِيِّ وَرَبَطُوا الْقُلُوسَ<sup>(١)</sup> بها، وهناك تَقْتَلَعُ السفينةُ تلكَ المُرَبَّعاتِ نصفَ المفصولة، وذلك على حين يَحُلُّ الرجالُ أوتادهم بسرعة وَيَصْعَدُونَ المركبَ وَيَرْتَمُونَ على ظهره منهوكين .

ويَأْتِي اللَّيْلُ بِالْأَخْطَارِ، وفيما يَفْرَقُ كلُّ في بحر من الراحة إذ ينفصل مُرَبَّعٌ مُرْتَمِحٌ ضِدَّ التَّيَّارِ فَتَسُوقُهُ الرِّيحُ نحو الباخرة ويَحْضُرُ الحِصْنَ بذلك، ومما يَحْدُثُ أحيانًا أن يَشْعُرَ النِيلُ بِقُوَّتِهِ بَقْتَةً فَيَقْلَعُ قِطْعًا صَغِيرَةً من الجُزْرِ وَيَصْدِمُ بها الباخرة وَيَطْرَحُها على الزوارق وراءه وَتُكْسَرُ المراسي وَتُقَصِّمُ السلاسل وتَفْجُحُ العِجَالُ وَيُحَاطُ بِسُكَّانِ<sup>(٢)</sup> السفينة في بلدٍ لا تُوْجَدُ فيه قطعة غِيارٍ، وتلتقي في مراتٍ أُخَرَ بعضُ الحواجز فتتألف منها كُتْلَةٌ كما في السياسة، والإنكليزُ قد طَهَرُوا ثمانية كيلومتراتٍ في ثلاثة أشهر بخمسٍ بواخرَ وثمانئة أسير نُوبِيٍّ مع عدم فَحْمٍ وعدم اتصالاتٍ وبين قبائلٍ هاجِمةٍ وعلى الرغم من الأخطار والتبعُوض والحُمى .

واليوم أيضاً لا يمكن البصرُ بأهواء النهر في أثناء ذلك السَّيْرِ الطويل من غير صِلَةٍ بِضِفَافِهِ، ومنذ بضع سنواتٍ مَضَتْ فَصَلَ فيضانٌ مفاجئٌ مقاديرَ كثيرةٍ من النباتات ذواتِ الجذورِ القصيرة من أهوارٍ<sup>(٣)</sup> فدَقَمَهَا إلى أضواجٍ فحاصرَ النِيلُ بالقرب من شامبِه مِدَّةَ ثلاثةِ أسابيعٍ وعلى طول ثمانية كيلو متراتٍ، وماذا وَجَبَ

(١) القلوس : جمع القلس، وهو جبل للسفينة ضخم — (٢) سكان السفينة : دفتها .

(٣) الأهوار : جمع المور، وهو البحيرة تجري إليها مياه غياض وأجسام تنفس .

ان يُعْمَل؟ حُفِرَتْ قَنَاةٌ طَوَّلَهَا مِثْلُ كِيلُو مِثْرَ لَوْ صُلِّ النِيلُ بِبَحْرِ الزَّرَافِ وَتَقْلِيلِ  
ضَيَاعِ الْمَاءِ فِي الْمَنَاقِعِ ، وَبَلَغَ النَّبَاتُ مِنَ التَّفْرِيحِ مَا لَمْ يَبْقَ مَعَهُ غَيْرُ مَجْرَى عَرْضِهِ  
ثَمَانِيَةَ أَمْتَارٍ صَالِحٍ لِلْمِلَاحَةِ ، وَأَمَّا الْقَنَوَاتُ الْآخَرَى فَقَدْ تَحَوَّلَتْ إِلَى بَطَاحٍ فِي أَقْلِ  
مِنْ عَشْرِينَ سَنَةً .

وَلَمْ تَقُمْتْ غَابَاتٌ صَغِيرَةٌ مَقَامَ بَعْضِ الشَّجَرَاتِ الْمُنْعَزَلَةِ بَعْدَ جَفَافٍ عَامٍ وَاحِدٍ؟  
إِنْ بُذُورُ الْكَلَأِ فِي الْأَرْضِ الْمُجَفَّفَةِ ، وَلَكِنْ مَعَ بَقَاءِ هَذِهِ الْأَرْضِ مُغَطَّاءَةً بِأَهْوَارٍ  
أَوْ مَاءٍ جَارٍ عَلَى الْعُمُومِ ، تَمَّتْ وَبَلَغَ النَّبَاتُ مِنَ الْعِظَمِ بِسُرْعَةٍ مَا جَاوَزَتْ مَعَهُ  
فِي أَهْوَالِ الْقِيْضَانِ مَسْتَوَى الْمَاءِ فِدَاوَمَتْ عَلَى التَّنَفُّسِ وَالْحَيَاةِ ، وَهَكَذَا تَعَارِضُ  
الْمِلَاحَةِ فِي كُلِّ سَنَةٍ أَسْرَارُ نَمُو النَّبَاتِ ، بَيِّدَ أَنْ قُوَّةَ النِّهَرِ الْحَيَوِيَّةِ الَّتِي لَا تَقْفَى  
تَنْتَصِرُ عَلَى الْأَوْفِ مِنْ أَعْدَائِهَا الصَّغَارِ كَمَا تَغْلِبُ عَلَى أخطَارِ الْمَنَاقِعِ ، وَإِذَا كَانَ النِّيلُ  
لَا يُغْلَبُ ، وَإِذَا كَانَ النِّيلُ يُجِدُّ سَلَامَتَهُ فِي الصَّحْرَاءِ ، فَإِنَّهُ يَتْرُكُ مَعَ ذَلِكَ مَاءً غَزِيرًا  
فِي هَذِهِ الْإِسْفَنْجَةِ قِيَمِينَ هَذَا الضِّيَاعُ مُسْتَقْبَلُهُ وَمُسْتَقْبَلُ مِصْرَ فِي الْوَقْتِ نَفْسُهُ .

## ١٢

مِنْطَقَةُ الضَّحَاضِحِ النَّبِيلَةِ مُنْعَزَلَةٌ ، وَلَا يَذْنُو الْإِنْسَانُ مِنَ النِّهَرِ إِلَّا فِي أَمَا كُنْ  
نَادِرَةٍ حَيْثُ تَكُونُ الضُّفَّةُ جَافَةً تَمَامًا ، وَهَذِهِ الْمِيَاهُ الْجَارِيَةُ الرَّابِدَةُ لَا تَزُجُّ بَعْضَ  
جَمَاعَاتِ الْحَيَوَانِ وَبَعْضَ أَنْوَاعِ الْجِيَوَانِ فِي عَادَاتِهَا ، وَتَسْتَمِرُّ هَذِهِ الْجَمَاعَاتُ وَالْأَنْوَاعُ  
عَلَى التَّعِيشِ فِي تِلْكَ الْمِيَاهِ ، فَتَجِدُ الْأَمْسَاكُ وَالطُّيُورُ وَالزَّحَّافَاتُ مَكَانَهَا فِيهَا .  
وَتَرَى فِي الْقِسْمِ الْجَنُوبِيِّ الْمَتَدِّ إِلَى شَاطِئِهِ مِسَاحَاتٍ وَاسِعَةً مِنَ الْأَرْضِ الثَّابِتَةِ

مسكونة نسبياً ، والنيل ، مع جزيه القوى بعض القوة ، يظل ضمن مجراه الكثير العرض حتى حين الفيض ، والنيل يُبصره بعد ذلك مرصعاً بجزائر رحيبة ومنخفضة ، ويتحول البلد المجاور إلى سهب ، ويدنو النخل نادراً على كجمل فيشار إليه في الخرائط المفصلة ثلاث<sup>(١)</sup> ، ويؤلف النيل بمجوار بور من ناحية الغرب أضواجا في وادٍ يرتجج عرضه بين خمسة كيلومترات وعشرة كيلومترات ، ويستند المجرى والوادي ، وفي الغرب يعتمد بعض التلال عن بعض ، وتصبح الجزر أوسع مما كانت عليه ، ويكون ظل السنط والدوم<sup>(٢)</sup> ورأس الجبيز المغيال<sup>(٣)</sup> آية الأمكنة الجافة ، وتلعب البقع الصفرة على أكواخ الزنوج بالقرب من الضفاف طورا وفي داخل البلد طورا آخر ، وتساق القطاع إلى الماء ، ويصطاد الزنجي سمكا ويحطف بالخطاف ويلقى تحت الشمس لحم بقر الماء المذبوح .

وفي المجرى التحتاني من بور تسيطر الغدُر والعزلة التامة حتى بحيرة نو ، حتى الكيلومتر ٥٠٠ من الشمال ، وليس الأثر واضحاً ولو نظرت إليه من على ، ومن الطائرة يرى وجهه متموج أحمر أجري<sup>(٤)</sup> محاط بطين أبيض مخطط بأذرع جانبية وبيحيرات وغدُر ضاربة إلى خضرة ، يرى بحر يثيره القصب والبردي إثارة خفيفة ، وفي الغرب ، وعلى بعد عشرة كيلومترات من النيل ، حيث تنخفض الغدران أكثر مما في الشرق ، يفصل ضرب من السنام<sup>(٥)</sup> هذه المناقع عن مناطق بحر النزل الآتية من خط المياه القاسم بين حوض النيل وحوض الكونغو ، ويؤول هذا الخط الجوهري لنصف القارة إلى منحدَر متين من الملو.

(١) ثلاث : ثلاثة ثلاثة ، وهو غير منصرف ، ويسوى فيه المذكر والمؤنث — (٢) الدوم : شجر يشبه النخل — (٣) المغيال : الشجرة الملتهة الأنثان الوارفة الظلال .  
(٤) الأجرى : نسبة إلى الأجر ، وهو القرميد — (٥) السنام : حدة في ظهر البعير .

وتلك الأرض النَّقْطِيَّةُ السَّمَدَةُ بِرَمَادٍ حَرَاتٍ الشَّهْبِ السَّوِيَّةِ وَالنَّثَارَاتِ  
الفحمية هي بلدُ الكَلَاءِ .

والصدارة للبردى ، وقد أنعم ليْفُهُ على الفراعنة بالخلود ، وَتَمُرُّ سِتُّ آلَافِ  
سنة ولا يزال البردى يقاوم كقاومة صخور الفرائيت التي نَقَشُوا عليها مَا تَرْمِ  
ومساوئهم ، وكان يُسَمَّعُ حَيْفُ سُوْقِ تلك الشَّجِيرَاتِ التي يَمُرُّ من ظِلِّهَا فِرَاعَةُ  
مصرَ فيا يَحْدِفُهُ العبيدُ من قواريهم الحربية ، وكان عبيدُ آخرون يَقْطَعُونَ لُبَّ  
ذلك النبات في عصائب يُشَبِّكُونَهَا وَيَشْدُونَهَا وَيَصْقَلُونَهَا ليجعلوا منها أوراقاً لِيَفِيَّةِ ،  
ومن العبيد جماعةٌ عَالِيَةٌ تُسَجِّلُ في تلك اللفائف مجدَّ الفراعنة ، ومن العبيد طبقة  
رابعة تَنْقُلُ تلك اللفائف إلى بيوت الأموات التي أسفر فُضُولُ البيض عن نَبْشِهَا ،  
ثم حَلَّهَا بمقريتهم في نهاية الأمر ، وهذا النباتُ مَنَحَ ، إِذْنُ ، أَوَّلَى الأوراقِ  
الصابرة التي أراد أقوىاء هذا العالم أن يَطْمُنُوا بها إلى جَاهِ أُبْدَى بعد تَسَيُّبٍ من  
الْمَلَأْذِ اليومية .

وَيَبْلُغُ ارتفاع البردى سِتَّةَ أمتار ، وَيُؤَلَّفُ البردى غاباتٍ صَغِيرَةً مُدْهَمَّةً  
يُوجِبُ تَمَوُّجُهَا الدائم منظرًا لطيفًا منسجِمًا ، وعندما تَخْرُجُ الأَشْطَاءُ<sup>(١)</sup> الْخَضِرُ اللَّامِعَةُ  
على طرف الماء وتحت قديم النبات متصلةً بهذا النبات في ظلِّ الغابة البكر وقت  
الشَّفَقِ غيرَ مُظْهِرَةٍ رُؤُوسِهَا على شكل سنابلٍ بَعْدُ يُشْمَرُ بِرُؤُوسِهَا نباتية تَخْرُجُ  
من تلك الكُتْلِ التي تَرْتَجُّ وَتُدَوِّي وتُصَوِّت دَوْمًا عند أَصْفَرِ هَبَّةِ رِيحٍ .  
وَإِذَا قَيْسَ بِالْبَرْدَى كَلًّا الْفِيلُ ذُو السُّوقِ الْكَبِيرَةِ كَالْخَيْرَانِ وَجِدَ عَاطِلًا  
من الرُّوْعَةِ رَجُولِيًّا مَثِيرًا نَاصِبًا أَوْرَاقَهُ الْمُدْرَبَةَ<sup>(٢)</sup> وَأَزْهَارَهُ السَّمَرَ كَالْمُتَحَدِّثِ .

(١) الأَشْطَاءُ : جمع الشَّطَاءِ ، وهو ما خرج حول أصول الشجر - (٢) المدربة : الحافة .

وَيَكْسُو الْأَرْضَ بَيْنَ مَكَانٍ وَمَكَانٍ قَرُوبًا أَخْضَرُ مُنِيرٌ ذُو شُعُورٍ طَوِيلَةٍ وَظُرُوفٍ مَعْقُوفَةٍ غَيْرِ قَصِيرَةٍ ، وَهُوَ الَّذِي وَرَدَ ذِكْرُهُ فِي التَّوْرَةِ بِاسْمِ أُمِّ الشُّوفِ ، وَهُوَ الَّذِي يَسْمِيهِ الزَّنُوجُ أُمَّ الْقَطَنِ ، وَيَنْمُو هَذَا النَّبَاتُ فِي الْمَاءِ الَّذِي يَكُونُ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْعُمُقِ حَيْثُ تَكُونُ الْأَرْضُ مُسْتَوِيَةً .

وَيُسَيِّطِرُ عَلَى جَمِيعِ مَا ذَكَرَ نَبَاتٌ مَائِيٌّ رَابِعٌ ، وَيُظْهَرُ هَذَا النَّبَاتُ شَجَرًا صَغِيرًا أَكْثَرَ مِنْ ظُهُورِهِ كَلًّا ، وَيَتَأَلَّفُ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَاتِ غَيْضَاتٌ حَقِيقَةٌ سَرِيعَةُ النَّمُوِّ تَسْبِقُ فَيْضَانَ النَّيْلِ سَرْعَةً ، تَجَاوِزُ مُسْتَوَاهُ مِتَّةَ أَمْتَارٍ ، تَبْرُزُ فِي كُلِّ وَقْتٍ فَوْقَ أَعْلَى الْمِيَاءِ ، وَلِهَذَا النَّبَاتُ يُخَنُّ عَصْدُ الْإِنْسَانِ ، وَهُوَ يَسْتَدْقُ كُلَّمَا زَادَ ارْتِفَاعًا ، وَهُوَ ذُو خَشَبٍ مُتَنَجِّيٍّ وَلَبٍّ لِينِيٍّ ، وَهُوَ ذُو أَشْوَالٍ خَفِيفَةِ الْإِنْحِنَاءِ وَأَوْرَاقٍ مُبْمَثَّرَةٍ كَمَا فِي الْمُسْتَحْيَةِ (١) ، وَتُحِيطُ بِهِ الْمُرَشَّاتُ ذَاتُ الْأَزْهَارِ الزُّرْقِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، وَهَذَا هُوَ الْعَنْبِجُ الَّذِي يُدْنِشِيهِ الرَّيْحِيُّ مِنْهُ طَوْفَهُ الْبَالِغَ مِنَ الْخِفَةِ مَا يَسْتَطِيعُ الرَّجُلُ الْوَاحِدُ مَعَهُ أَنْ يَحْمِلَهُ عَلَى كَتِفِهِ وَالْبَالِغَ مِنَ الْقُوَّةِ مَا يَحْتَمِلُ مَعَهُ خَمْسَةَ رِجَالٍ .

وَأَضِيفُوا إِلَى ذَلِكَ عَالَمَ نَبَاتَاتِ الضَّخْخِ الْعَامَّةِ أَوْ الثَّابِتَةِ ، وَالْمَصْقُولَةِ أَوْ الْمُرْكُضَةِ ، وَالْمَتَّصِلَةِ بِبَعْضِهَا بِبَعْضٍ بِالنَّيْلُوفَرِ الْأَزْرَقِ وَبِالْبَجَلَةِ وَلَقْمَةِ الْقَاضِي الصَّفْرَاءِ وَحَتَّى الْعَالَمَ الشَّمْعِيُّ الشَّكْلِ وَالْأَشْنَةَ الْمَائِيَّةَ فَتَحُولُ بِهَا الْأَحْوَاضُ إِلَى مَرْوِجٍ وَالْأَنْهَارُ إِلَى مُرْطٍ مُحَطَّطَةٍ بِنُجُومٍ .

وَفِي هَذَا الْمَنْظَرِ الْمُسْتَوِيِّ اسْتَوَاءٌ تَمَطُّيًا يَسْتَوْفِقُكُمْ صَوْتُ الْمَصَافِيرِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْحَيَوَانَاتِ أَقَلِّ مِنَ حَقِيفِ الْكَلَّا وَقَضِيضِهِ ، وَفِي مَدْخَلِ الْمَنَاقِعِ بِالْجَرَى التَّحْتَانِيِّ

(١) المستحية : نباتة إذا لمستها الطبق ورقها .

من مَنَقَلَا تُبْصِرُ جَزِيرَةً يَسْكُنُهَا زَوْجَانِ مِنَ الْأَفْيَالِ مِنْذُ خَمْسِ عَشْرَةِ سَنَةٍ لَيْسَا مِنَ الشَّجَاعَةِ مَا يُغْبِرَانِ مَعَهُ النَّهْرُ فِي هَذَا الْمَسْكَنِ عَلَى ضَيْقِهِ ، وَلَذَيْنِكَ الزَّوْجَيْنِ صَغِيرَانِ ، وَقَدْ أَتَهُمَا وَدَاسَا كُلُّ شَيْءٍ ، وَهَما يَشَاهِدَانِ الْبَوَاحِرَ الَّتِي كَثُرَتْ مِنْ هُنَاكَ مَرَّةً وَاحِدَةً فِي كُلِّ أَسْبُوعٍ ، فَكَأَنَّهُمَا أُسِيرَانِ مَتَطَوَّعَانِ فِي حَدِيقَةِ حَيَوَانَاتٍ فَرِيدَةٍ فِي الدُّنْيَا .

وَكُلَّمَا أَوْغَلَّتْ فِي الْمَجْرَى التَّحْتَانِيَّ لَمْ تَرَ فِي مِثْلِهَا الضَّحَاحَ غَيْرَ أَنْوَاعٍ قَلِيلَةٍ مِنَ الْخُلُوقَاتِ ، وَلَكِنْ مَعَ طِبَائِعٍ غَرِيبَةٍ .

فَهُنَاكَ النَّمْلُ الْأَبْيَضُ الَّذِي تُسَوِّغُ أَعْمَالَهُ تَلْقِيئَهُ بِالْمَقْدَّرِ كَمَا فِي اللَّاتِينِيَّةِ ، فَهُوَ يَقْرِضُ كُلَّ مَا يَجِدُ ، وَهُوَ يُكَدِّرُهُ قَبْلَ أَنْ يَمْسَهُ كَمَا يَصْنَعُ بَعْضُ مُحْتَرِفِي السِّيَاسَةِ ، وَهُوَ يُغَيِّرُ دِهَالِيزَ تَحْتِ مَا يُوَدُّ هَلَاكَهُ نَفْعًا لَهُ أَوْ يَسْتُرُهُ بِالتُّرَابِ ، وَالرَّزْمُ فَرِيستُهُ فَضْلًا عَنِ الشَّجَرِ وَالسَّلَالِ وَالصَّنَادِيقِ ، وَتُحْفَظُ بَقَايَاهُ فِي تِلَالٍ يَبْلُغُ ارْتِفَاعُهَا أَرْبَعَةَ أَمْتَارٍ أحيانًا فَلَا تُنْسَفُ إِلَّا بِالْمُتَفَجِّراتِ ، وَلَا يُغْنَى عَلَى هَذَا النِّظَامِ إِلَّا بِقَتْلِ مَلِكِيَّتِهِ ، فَإِذَا مَاتَتْ تَفْرَقَ شَمْلُ تِلْكَ الْأَرْضِ <sup>(١)</sup> تَفَرُّقًا تَامًا

وَمَعَ ذَلِكَ تَرَى لِتِلْكَ الْحَيَوَانَاتِ عَدُوًّا أَقْلَ مِنْهَا ذَكَاءً وَأَعْظَمَ مِنْهَا مَكْرًا ، وَالْعَدُوُّ هُمُ الزَّوْجُ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الْوِلَائِمَ أَكْلًا لَهَا ، وَالزَّوْجُ يَعْرِفُونَ أَنَّ الْأَرْضَ تَخْرُجُ مِنْ قَرَايَاهَا عِنْدَ الْمَطَرِ ، فَيُطَبِّئُونَ بِلُطْفٍ فَوْقَ التَّلِّ ، فَتُظَنُّ هَذِهِ الْحَشَرَاتُ سُمَاعَهَا نَزُولَ الْمَطَرِ وَتَخْرُجُ وَيَلْتَقِطُونَ الْأَلُوفَ مِنْهَا ، وَيَنْتَهِي الْأَمَلُ فِي حَالِهِ إِلَى قَدْرِ أَمْرَةٍ زَيْجِيَّةٍ تَتَذَوَّقُ الْحَسَاءَ .

وَيَعِيشُ دَيْبِبُ الْحَوْتِ فِي الثُّقُوبِ عَلَى ضِفَافِ النَّهْرِ ، وَهُوَ إِذَا مَا حَقَرَ لَهُ مِمْرًا

(١) الأرض : جمع الأرضة ، وهي دويبة تأكل الحشب على الخصوص .

## التمساح

في الطين انقضَّ على الإنسان والحيوان وفَحَّ<sup>(١)</sup> كالثعبان ، ولا يَعْرِفُ العلماء ولا الزوجُ هل هذا من الأسماك أو من الحشرات ، وعلى أنوف الأرض الجافَّة تُبْصِرُ الضَّبَّانَ الضَّخْمَةَ تَدْفِي تَحْتَ الشَّمْسِ وتبصر الأفاعي تُلْقِي الرُّعْبَ في الإنسان والقِرْدَ ، وإن كانت ضحاياها أقلَّ عدداً من ضحايا التماسيح التي يبارك البلدُ لها .

والتمساحُ ، كمضوي في نادرٍ محافظ ، يَقْضِي مُعْظَمَ حَيَاتِهِ نَاعِسا في الحَرِّ على شَفِيرٍ نَاقِيٍّ ، ويكون التمساح جباناً في البرِّ مرهوباً في الماء مستعداً في كل حين للزُّلُوجِ<sup>(٢)</sup> فيه ، وتفتح التماسيح فَمَكَيْهَا ، ويظلُّ رأسُها الحادُّ دقائقَ طويلةً مستنداً إلى الأرض ، وتَبْدُو عَيْنُهَا نصفَ مستورةٍ بأجفانها الثقيلة ، ويستلقي بعضها بجانب بعض كما لو كانت جلاييدَ .

وإذا ما ابتعد التمساح عن شاطئ النيل مصادفةً وطُورِدَ اتجه إلى النيل على خطِّ مستقيمٍ بأسرع من تَطَارُقِ<sup>(٣)</sup> الإبل وتَهَيَّأ للدِّفَاعِ ، والتمساحُ أشدُّ حَذَرًا من الحشرات الأخرى لأنه أدقُّ سمعاً منها ، وفي هذا سرُّ طول عمره على ما يَحْتَمَلُ ، ومن فَضْلِ الخالق عليه امتدادُ أَجَلِهِ ونُموُّه بما يتفق له من الزمن على مَهَلٍ لا يتصوره خيال ، فبينما يَبْلُغُ الإنسانُ ثلاثةَ أضعافِ قَامَتِهِ قَطْعَ بَعْدِ ولادته يكون طول التمساح عند ميلاده ثلاثين سنتيمتراً ثم يَبْلُغُ ثلاثةَ أمتارٍ طَوَلاً ، وَيَتَحَدَّثُ الزَّيْجِيُّ ، حتى الكلبُ ، على التمساح أشدَّ الحقد ، ولا عَجَبَ ، فالتمساحُ عَدُوُّ جَمِيعِ الحيوانات وجميع الناس ، والتمساحُ يصطاد وَيَذْبَحُ الجمال والحير ، والبلاشين أيضاً ، وغيلانُ ما قبل

(١) لَحَت الحية : صانت من فيها — (٢) الزلوج : الزلق .

(٣) تطارقت الإبل : تبع بعضها بعضاً .

۷ - راسی بحر البطل







الطوفان الثلاثة وحدها هي التي لا تخاف التماسح ، ولكنها لا تؤذيه لأنها تأكل الأعشاب ، والتماسح لما لا يشعر به من النّخز والنّش<sup>(١)</sup> ، ومن الجفّر ، تجده لا يُجرح ولا يفتنى .

وأبو مركوب طيرٌ نفورٌ أيضاً ، وهو أكثر الطيور غرابةً ، وهو يسكن تلك المستنقعات ويسكن منابع النيل ، وهو رماديّ فضيّ مع انعكاساتٍ خضراء وبيضاء ، وهو ينصب رأسه ذا المنقار الزائد على الحدّ فوق عنقه العطوف ويقف على رجل واحدة لجميع طيور الغدران ، ولهذا الطائر الكتيب الشّمس ، للغزل دوماً ، حركات مفاجئة ، ويلوى هذا الطائر رأسه ٣٦٠ درجة وينشر جناحيه الثقيلين ويفتح ذلك الجيبّ الواسع كقذّة في النّق فيصلح له منقاراً ، ويألف في كل وقت حياةً للنّافع المتعوفة التي تُنغشها نفحات الريح .

وفي أثناء هذا الصّمت تبصر اهتزازاً ، تبصر تشنجاً مستمراً ، وتلك هي أصواتٌ مخنوقةٌ توحى برائحة البلد ، ويهيمن على طنين المَوام التي هي سيّدة تلك البقعة ، وعلى خفيف المشب ، صهل<sup>(٢)</sup> باشق كبير فوق البرديّ أو غفقة صغر ، ومن هذه الغابة ذات السوق الخضر يتصاعد نافذاً مرهقاً ما ينبعث من الجذور والأسماك الفاسدة

وتهبّ ريح الجنوب مساءً وتنتشر حرائقُ الشّهب حتى السّد وتبهر الأفق ، وتنبّيب الشمسُ الحمراء الكدرة تحت السماء الوزينة<sup>(٣)</sup> ، وتتحرك الطيور المائية وترتادُ المستنقعات ، ويهبط القاوند والقاق ، وتنبّ أسماكٌ كبيرة فضية خارج

(١) نهشته الحية : تناولته فيها لتؤثر فيه ولا يجرحه — (٢) صهل صوته : بع وخشن .

(٣) لوزينة : الرزينة .

سَمَاطُ الْبَحِيرَةِ الْأَرْجَوَانِيَّةُ ، وَطَيْرُ جَمَاعَاتِ الْإِوزِ نَحْوَ الشَّمَالِ ، وَيَتَضَحَّ حُورُ بَقَرِ الْمَاءِ ، وَيَسْتَعِدُّ بَقَرُ الْمَاءِ هَذَا لِلْبَحْثِ عَنْ مَرْعَاهِ فِي الْأَرْضَيْنِ ، وَتَرَى عَشْرَاتِ الْأَوْفِ مِنَ الدُّودِ اللَّامِةِ تُضِيءُ أَيْكَةَ الْبَرْدِيِّ .

وعلى نور الشفق البنفسجي ، وفي الغدير ، يتساقق الليل والصفادعُ رويداً رويداً ، ويتحول خفيف أوراق البردي المتجمدة إلى جرسٍ <sup>(١)</sup> سرسري يصفو عليه إيقاع <sup>(٢)</sup> هَوَامِّ الليل ويذكرُ بصوت الجرنِّ ، وينبذو البعوض ضباباً كثيفاً على آخر ضياءٍ لأولِّ الليل المرسل سدوله <sup>(٣)</sup> ضاربٍ إلى صغرة ، وتمرُّ الوطواط ، وترى الخطاطيف المتأخرة وهي تترقق بقلبي باحثة عن مأوى لها في الليل ، وتظلُّ البلاشينُ ساكنةً على ضفة النهر الوعيرة ، وأين تنام الجوارح <sup>(٤)</sup> ؟ أفتنجم على الأشجار اليابسة في المستنقع الواسع ؟ أفيجب أن تعود إلى الجبال البعيدة ؟  
والآن تنعكس أشعةُ الهلال على ماء النهر الهادي ، وتجرى النجوم هنالك في الأعلى وفوق البردي للتحرك وفوق لمبِ الشهب الإفريقي الأنغر .

### ١٣

صَفُّ أَوْلَثِكَ النَّاسِ كَالطَّيْبِ ، وَيَكَيْفُ أَوْلَثِكَ النَّاسُ أَنْفُسَهُمْ مِنْذُ قُرُونٍ وَفَقْ مَقْتَضِيَاتِ الْهَيْطِ كَطَّيْبِ الْغَدِيرِ ، وَأَوْلَثِكَ النَّاسُ كَالْقَالِقِ <sup>(٥)</sup> صِفَارِ الرُّؤُوسِ نَحَافُ

(١) الجرس : الصوت أو خفيه — (٢) أوقع المني : بي ألحان الفناء على موقعها وميزاتها .

(٣) السدول : جمع السدل وهو الستر — (٤) الجوارح من الطير هي المقترسة كالباز .

(٥) القالِق : جمع القلق ، وهو طائر طويل العنق والرجلين ، وهو يأكل الحيات ، ويكنى

بأبي حنيج .

من هو الزنجي ؟

الأعضاء طويلاً الأخاذ فيَطْلُون عِدَّةَ ساعاتٍ وُقُوفاً في البطائح منفردين واضعين لخدّاً على ركة الفخذ الأخرى .

ومن هو الزنجي ؟ أَوْ يُمْكِنُ أَنْ يُسْأَلَ : من هو الرجل الأبيض ؟ تَحِيدُ لِأَخْلَاقِ الشعوب والعروق الشُّود من الأشكال والأنواع كما لجلودهم التي تترجح ألوانها بين القطراني ولَوْنُ القهوة مع اللبن ، ويلوح ، مع ذلك ، أنه يُمْكِنُ أَنْ يُعَيَّنَ الفارقُ بين السُّودِّ والبِيضِ على ضِفاف النيل ، والزَّنجِيُّ الوثنيُّ في النيل الأعلى هو الذي يَصْلُحُ لهذا البحث ، والزَّنجِيُّ الوثنيُّ على ما كان من اتصاله بالسِّيَّاحِ والقائمين من البِيضِ حَافِظاً على توحشٍ لم يحافظ عليه ، بالتَّقَرُّبِ من خطِّ الاستواء ، زِنْجِيٌّ أُوغَنْدَةُ المتمدنُ منذ قرون ، ويوجد حول النيل وروافده ، وبين الدرجة الثانية والدرجة الثانية عشرة من التَّرض ، وفي بلدٍ تزيد مساحته على مساحة فرنسا ، شَعْبٌ مؤلفٌ من ملايين كثيرةٍ احتفظ ببعض الخطوط الأساسية التي لم تَقْدِرْ على تحوُّلها المِلاحة ولا الإدارة ولا التبشير ولا النَّخَاسَةُ أيضاً ، وتوجد هذه الخطوط بفعل الزمن في العالم بأسره ، ولدى جميع زُمَرِ الإنسان المتماثلة لونا ، كما تُوجَدُ حروفُ ورسومٌ منقوشةٌ في أصل كلِّ حضارة .

وتَرُدُّ القبائل التي تعالج أمرها إلى أرومة زُوج السودان النيلية ، أى إلى العرق الخِلَاسِيَّ<sup>(١)</sup> ، وتلك القبائل هي اللُّوري والمَادِي والباري بين الدرجتين الثانية والسادسة ، أى بين بحيرة أَلْبِرْت وأولِ المناقع ، والدَّنْكَا والنُّوير والشُّلُك في مجرى النهر التحتانيِّ وَحَوْلَ الدرجة الثانية عشرة ونحو كُوسِيَّيْ وَيَكْشِفُ لنا جميع أولئك الوثنيين ، الذين هم أخلاطٌ أملاطٌ<sup>(٢)</sup> مُتَحَلِّلُونَ بِسْطَاءٍ مع

(١) الخلاسي : الولد من أيوين أبيض وأسود - (٢) أخلاط أملاط : مختلطو النسب .

قليل تأملٍ وكثيرِ انفعالٍ ، عما في الطبيعة الإنسانية من نواحٍ صالحة ونواحٍ طالحة ،  
وتلك هي غابةُ الروحِ البِكرِ التي لم يَشْقُها ولم يَفْرِقْها<sup>(١)</sup> حديدُ الحضارة في غضون  
القرون ، وفي هذه الغابة البِكرِ الخالصة تنموُ المشاعرُ الفطرية تحت الشمس والغيث ،  
وبين السماء والشهب والنهر ، وضمن حرارةٍ شديدة كالتى يتطلبها النبات ،  
فتعاون وتنزاع مثله ، وتبدؤُ الفرائز البشرية أعظمَ وضوحاً ، وتظهر الأصواتُ  
أكثرَ حياةً وبروراً مما لدى البيض الذين اتفق لها عندهم صقلٌ غيرُ قليل ، وذلك  
هو الرجل الفِرْدَوْسىُّ المندفعُ الخليلُ المتصلِّبُ السائرُ عن رغبةٍ ساذجة وعن أثرَةٍ  
والشاعرُ بقدرته ، والذي لا يَرُدُّ جماعه غيرُ خَشْيَةِ الأرواح ورئيس القبيلة ، وهذا  
إلى ما لا تَقْصُهُ أساطيرُ البيض من عطفٍ وكرمٍ يُوحِيان إليه بمحبة القريب .

قال العارفُ بأحوال أهل النيل أحسنَ من سواء يَبْكِرُ : « أَجَلٌ ، إن الزَّنجيَّ  
غيرُ صالح ، ولكنه ليس من الشَّوء ما يكون به الأبيض في أحوالٍ مماثلة ، أَجَلٌ ،  
إن الشَّهَوَاتِ لِلطَّبيعة البشرية هي التي تُوَجِّهه ، ولكنه عاطلٌ من عيوبنا  
التي لا تُطاق ، أَجَلٌ ، إن القوى يَسْلُبُ الضعيفَ والقبائلَ تقتل ، ولكن أترى  
الأمرَ غيرَ هذا في أوربة ؟ أَجَلٌ ، يستمبد بعضهم بعضاً ، ولكن منذ كم عدلنا  
وعدَلُ الأمريكيون عن امتلاك العبيد ؟ أَجَلٌ ، إن الزوج ناكرو الجليل مثلنا  
في أوربة وإن الزوج عَدَرَةٌ كَذَبَةٌ ، ولكن أترى الفضيلة سائدةٌ لأوربة ؟  
أَجَلٌ ، إنهم أكفأونا بدناً ، ولكن لم لا تَرْفَعهم إلى مستوانا ذِهْنًا ؟ ولدى  
الزَّنجيِّ الصغير ما ليس عند أولادنا من سرعة الفهم ، ثم يغدو رعنٌ بليداً ، شأنُ  
الْقِلْوِ<sup>(٢)</sup> الذي لا يُرْوَضُ »

(١) عرق الأرض : أخرج منها الماء — (٢) القلو : الجحش والهر فطما أو بلغا السنة .

وكما أن الرجل لا يَخْسَرُ طَهْرَهُ بالحقيقة ، عن عرفانٍ بالجنس الآخر ، بل عن علم  
بالمال ، يُسْفِرُ حُبُّ الرِّيحِ والبخل عن حِرْمانِ الرَّجْبِيِّ الغنى بساطته ، والأسودُ  
ولوعُ اللَّعِبِ منذ أيام الصبا قِيلَعِبَ بالحَضْبَاءِ<sup>(١)</sup> على الرمل ، ثم يبدو ولوعاً بما شِئَتْ  
وكُوْنُهُ وحرِيته ، ولكن مع بقاء مَرَحِهِ ، والرجلُ ، قوياً كان أو غنياً ، لا يَلْعَبُ  
بالْحَصَى ولا يَرْقُصُ ولا يَصْعُقُ قرونَ الفُغَارِيتِ على رأسه ، وهو وحيدٌ حَذِرٌ حيث  
مُحِبٌّ لِلانْتِقَامِ ، وهو حريصٌ يخافُ الْقَتْلَةَ كَالطَّاغِيَةِ الأَيْضِ ، غير أنه لا يُعْطَى  
الْقَسَاوَسَةَ ، ولا الْأَسَاتِنَةَ الَّذِينَ يُكَلِّفُونَ بِإثباتِ أهدافِهِ القومية ، شيئاً ، ورئيسُ  
القبيلة هو كَالطَّاغِيَةِ في الغالب ، فلا يزيد عن العبدِ نَقَافَةً ، وهو على العموم لا يمتاز  
من هذا بغير فنٍ الكلام .

وكلُّ واحدٍ يَوَدُّ أن يكون رئيساً لمثل الأسباب التي تُسَاوِرُ البَيْضَ ، فإلى  
الرئيس تُقَدَّمُ الْجِيعَةُ كما يريد ، وإليه يُقَدَّمُ بعد الصِّيدِ أَطْيَبُ قِطْعَةٍ من الصَّدْرِ  
وجِلْدُ ثَمَرٍ ، ونابُ فِيلٍ على الخصوص ، وهو إذا ما ارتحل أُخِلَّ له كَوْخٌ أَيْنَا حَلٍّ ،  
وتبدو بَلِيَّةُ الْغَنَى حتى في هذه المرحلة التي هي أدنى دَرَكَاتِ نَزَاعِ الطَّبَقَاتِ ،  
وَالْغَنَى أَيْ الْمَلِكُ ، عاجزٌ عن التمتع بِكُلِّ مَا يَمْلِكُ ، وهو لا يَنْفَكُ يُبْذِلُ جُهْدَهُ  
في خَدْعِ الْمَوْتِ بتوريثِ سُلْطَانِهِ ، وهو إذا كان كثيرَ الأرواحِ عن طَمَعٍ حَمَلًا  
لِلْعَمَلِ وَفَقَّ فَانْدَنَتْهُ وَعَن جَهْلٍ لِمَذْهَبِ مَلْتُوسٍ<sup>(٢)</sup> ، وهو إذا كان ذا وَلَدٍ كثيرٍ ،  
تراه يُوَدِّي إلى قتلِ الْأَخِ لِأَخِيهِ بَيْنَ وَرَثَتِهِ ، وَالْأُسْرُ تَنْدَاحُ وَالْقَبَائِلُ تُنْقَاتِلُ وَصُولًا  
إلى مرورِ بضعِ مِثَالِثِ مِنَ الْأَنْعَامِ<sup>(٣)</sup> من قَرِيبَةٍ إلى أُخْرَى ، وَمَا وَرَدَ في تَارِيخِ

(١) الحَضْبَاءُ : الحِصَا — (٢) مَلْتُوس : اقتصادي إنكليزي اشتهر بنظريته عن السكان

(٣) الْأَنْعَام : جمع النَمِ ، ويطلق على الإبل والبقر والغنم .

### أكلة لحوم البشر

النَّيَّامَ نِيَامَ الَّذِينَ هُمْ مِنْ أَكْلَةِ لَحْمِ الْبَشَرِ ذِكْرُ رَئِيسٍ قَتَلَ الْفَنبَارِي سِتَّةَ إِخْوَةٍ لَهُ وَذِكْرُ رَئِيسٍ آخَرَ كَانَ لَهُ مِنَ الْخَفْدَةِ وَاحِدٌ وَعِشْرُونَ بَعْدَ الثَّلَاثَةِ .

وَوَجَدَ أَبْنَاءَ أُولَئِكَ الْمُلُوكِ وَخَدَتُهُمْ ، وَصَانُو الْمَطَرِ أَيْضًا ، صِبْغَةً هَذَنَةً لِكِي يُتَخَلَّصَ مِنْهُمْ ، وَهِيَ أَنَّ الْمَلِكَ إِذَا مَا أُصِيبَ بِضُدَاعٍ أَوْ مَغْصِيٍّ أَعْلَنُوا أَنَّهُ مِنْ مُسْمُومٍ لِلْقَامِ مَا لَا يَنْبَغِي أَنْ يَمْرُضَ مَعَهُ وَقَتْلَهُ ، وَإِذَا مَا دَافَعَ الْمَلِكُ عَنْ حَيَاتِهِ وَحَاوَلَ أَبْنَاءَ وَخَدَتَهُ لَهُ أَنْ يَحْمُوهُ عَرَضَ هَؤُلَاءِ أَنْفُسَهُمْ لِلذَّبْحِ ، وَزَنُوجُ النِّيلِ أَقْلَوُا<sup>(١)</sup> رَمَزًا صَالِحًا لِلسَّلْمِ ، وَهُوَ أَنْ يَخْدِشَ كُلُّ مِنَ الْأَمِيرِينَ ذِرَاعَهُ وَأَنْ يَمْتَصَّ كُلُّ مِنْهُمَا دَمَ الْآخَرِ كَمَا كَانَ الْأَلْمَانُ يَصْنَعُونَ .

وَفِي مِثْلِ هَذِهِ الْفَوْضَى الَّتِي يُلَطِّفُهَا الرَّقُّ وَحَدَهُ تَرَى عَيْشَ الرَّاعِي أَهْلًا مِنْ عَيْشِ الْفَلَاحِ الَّذِي لَا يَدْرِي هَلْ يَحْصُدُ مَا يَبْذُرُ ، وَهَكَذَا تُبْصِرُ مَنَاحِي الْبُدُويِّينَ الشَّيْوَعِيَّةَ تَسْتَحْذُو عَلَى قَوْمِ مَزَارَعِينَ أَيْضًا ، وَيُمَدُّ أُولَئِكَ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ عَيْدًا لَا مَالَ لَهُمْ وَلَا حَقَّوْقَ ، وَهُمْ يُمَثِّلُونَ دَوْرًا كَجَمَاعَةٍ ، مَعَ ذَلِكَ ، لِكَوْنِ الرَّاعِي وَالصَّيْدِ أُمُورًا خَاصَّةً بِالْجَمِيعِ ، وَمَتَى ذَهَبَ أَهْلُ الْقَرْيَةِ لِلْبَحْثِ عَنْ أَرْضٍ يَكْرِ فِيهَا وَرَاءَ الشَّهْبِ تَأَلَّفَ صَرْبٌ مِنَ الْقِطَاعِ تَحْتَ سُلْطَانِ الْمَلِكِ وَخَارِجًا عَنْهُ كَمَا فِي عَهْدِ قِيَاصِرَةِ رُوسِيَّةِ .

وَأَكْلَةُ لَحْمِ الْبَشَرِ هُمُ الْأَكْثَرُ تَمَدُّنًا ، وَهَذَا الْأَمْرُ الَّذِي يُثِيرُ الْهَوَاجِسَ فِينَا هُوَ مِنْ تَحْقِيقِ الرُّؤَاذِ فِي الْكُونُفُو وَلَدَى الْقَرَايِبِ ، وَلِلنَّيَّامِ نِيَّامٌ فِي الْجَنُوبِ الْغَرْبِيِّ مِنْ بَحْرِ الْغَزَالِ وَجِهَةٌ مُدَوَّرَةٌ وَعِيُونٌَ كَبِيرَةٌ مُتَبَاعِدَةٌ وَأَهْدَابٌ مُتَكَاثِفَةٌ وَأَنْوْفٌ مُسْتَقِيمَةٌ وَأَفْوَاهٌ صَغِيرَةٌ وَشِفَاهٌ غَلِيظَةٌ ، وَهَؤُلَاءِ السُّودُ الَّذِينَ يَدُدُّهُمْ جِيرَانُهُمْ مِنَ الشَّهْبَاءِ هُمْ مِنَ الصَّيَادِينَ الَّذِينَ لَا يَمْسُونُ أَيْ حَيَوَانٍ أَهْلِيٍّ كَانَ ، وَهُمْ يَرْغَبُونَ فِي لَحْمِ الْحَيَوَانَاتِ

(١) أَقْلَوُا : وَجَعُوا .

البرية فيشوي كل واحد منهم حصته على ناره الخاصة كخير يريد أن يشبع ،  
ويحسب هؤلاء خيرَ حَالٍ تلك المُنطقة ، ويصوّرون بالمُقرّة<sup>(١)</sup> أزهاراً ونجوماً على  
أجسامهم ويجدّدون هذا الذّهان مرّة في كل يومين ، ولم نظام من أقدم النظم ،  
وتراهم كثيرى الاكتراث لأوربة ، ويتصفون بوقارٍ طبيعى وبصدقِ العلاقة  
ويشتهرون بالقرى ، والملك يستقبل الغريب في بيت أبيه المتوفى ويضع على قدميه  
حرّمة راح كتحية من الميت ويدعوه إلى مائدته ولا يذبحه أبداً ، والنّيام نيام  
يسكرمون الأمّ الولودَ ويعتزمون الموتى ، ويفرضون عقوباتٍ شديدة على  
السارقين ويقطعون بَنان<sup>(٢)</sup> الزوجة الزانية ، وثلاثاً من سلاميات<sup>(٣)</sup> مَنْ يُفوى  
بكرًا ، وطبائعُ أكلة لحم البشر أولئك دقيقة ، فلا يُدركون السبب في أنه لا يحمق  
لم أن يأكلوا رجلاً حَكَم عليه عرافٌ بالموت أو عدواً مقهوراً ، كما أنهم لا يُدركون  
السبب في أنه لا ينبى لهم أن يُقدّموا إلى ضيفهم رجلاً بشريةً مسلوقةً مع  
توابل وفطائر .

وقال القِرغوم لرائد إنكليزى ، والقِرغوم أكلة لحوم البشر في إفريقية  
الغربية : « النافع في كل موضع ، هوفينا وفيك ، هو الروحُ الخفية التى تنتقل  
بعد الموت إلى حيوانٍ لنا ، لا إلى إنسان ، نحن لا نذبح بقرة ، ولكننا إذا ما أكلنا  
إنساناً لم يكن هنالك ما نخشاه من أكل نانفينا الخاص » .

ولم نلوم أناساً ذلك مدى ذوقهم وكرامتهم على قسوتهم ؟ أظلم يكن أكل  
عدوٍ أكثرَ ملامةً للطبيعة من أكل دجاج أو خنزيرٍ مُدّة سنوات ؟ ألا

(١) المقرّة : الطين الأحمر يصنع به — (٢) البنان : أطراف الأصابع .

(٣) السلاميات : عظام الأصابع ، وهى جمع سلامى .



تَبْقَى حَيَّةٌ تِلْكَ الْمَنَاطِرُ فِي أَخِيلَةٍ هَؤُلَاءِ النَّصَارَى الْحَاقِدِينَ الَّذِينَ تَحُولُ الْعَادَاتُ  
الْحَاضِرَةَ وَحَدَّهَا دُونَ اقْتِرَاسِهِمْ مَنْ يُؤَدِّي تَعْذِيرَهُمْ إِلَى تَمَتُّعِهِمْ بِأَعْظَمِ اللِّذَاتِ فِي  
الزَّمَنِ الرَّاهِنِ ؟

## ١٤

لَمْ تَكُنْ عَادَاتُ زَوْجِ النِّيلِ تَتَغَيَّرُ مَعَ الْإِتِّصَالِ بِالْبَيْضِ وَالْأَحْبَاشِ ، وَتِلْكَ  
الْعَادَاتُ تَنْفُذُ فِي غَايَةِ الْمَشَاعِرِ الْبَشَرِيَّةِ الْبِكْرَ ، وَمِنْ غَيْرِ اسْتِعْمَالٍ لَتَنَاقُضِهَا بِاسْمِ  
الْأَخْلَاقِ نَرَى هَذَا التَّنَاقُضَ هُوَ مَنْ تَعَذَّرَ التَّفْسِيرُ كَالْتَنَاقُضِ فِي أَخْلَاقِ  
الْإِنْسَانِ الْأَبْيَضِ .

وَهُمْ إِذَا مَا عَزَوْا إِلَى عَجُوزٍ تَصَرَّفَا سَيِّئًا تَزَعُّوا الْمَرَّارَةَ <sup>(١)</sup> مِنْهَا عَنْ  
جَهْلٍ عَادِينَ إِيَّاهَا مَقَرًّا لِلشَّعْرِ كَمَا كَانَ يَصْنَعُ أَغَارِقَةُ الْعَصْرِ الْأَوَمِيرِيِّ الْبَعِيدِينَ مِنْ  
أُولَئِكَ أُلُوفِ الْفَرَاسِخِ وَالسَّنِينِ ، وَلَا يَذْبَحُ أُولَئِكَ النَّاسُ أَنْفُسَهُمْ مُقَدَّسِينَ لَهَا مَعَ  
ذَلِكَ ، وَإِذَا هَلَكَتْ بَقَرَةٌ لَدَى الدُّنْكَافُطِيخَتْ اجْتَعَدَ صَاحِبُهَا وَلَمْ يَشْرِكْ فِي الطَّعَامِ  
مِنْهَا ، وَإِذَا تَمَّ لَهُمْ نَصْرُ أَفْرَطُوا فِي الْأَكْلِ وَانْهَمَكُوا فِي الشُّكْرِ وَلَكِنْ مَعَ الْعَنَاءِ  
بِالْأَسِيرِ ، وَمِنْ الرِّجَالِ كَثِيرٌ يَتْرَكُونَ لِنِسَائِهِمْ كُلَّ حَرِيَّةٍ فِي عَالَمِ الْفَرَامِ ، لَا فِي حَقْلِ  
الْعَمَلِ ، وَهُمْ لَا يَضْرِبُونَهُنَّ إِلَّا عِنْدَ رَدَاءَةِ الطَّحْنِ ، لَا بِسَبَبِ عَشَاقَتِهِنَّ ، وَلَا بِحَقِّ الرَّجُلِ  
مِنَ الْبُؤْسِ أَنْ يَتَزَوَّجَ أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثِ نِسْوَةٍ ، وَهُوَ إِذَا مَا تَزَوَّجَهُنَّ ظَلَّ وَفِيَّاهُنَّ ،  
وَإِذَا وَضَعَتْ بِنْتٌ وَلَدًا لِلْمَادِي وَجَبَّ عَلَيْهِ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا ، وَالْمَرَأَةُ مِنَ الْبَانْجُورُو

(١) الْمَرَّارَةُ : هِيَ الْحَوْصَلَةُ الصَّفْرَاءُ ، وَهِيَ شَبَّ كَيْسٍ لَازِقَةٍ بِالْكَبْدِ تَكُونُ فِيهَا مَادَّةُ صَفْرَاءِ .

هى ، بالعكس ، تشتري مَنْ يَزْنِي بها بِجُرَّةٍ جَعَةٍ ، ومن الزوج قبائلُ تَحْكُمُ على الغاوى بِغرامةٍ تَعْدِلُ قِيَمَةَ الْمَرْأَةِ ، وهذه هى عادةُ لا يُوَصِّى الْبَيْضُ بها كثيراً ، وهنا تُبْصِرُ السُّودَ أَعْلَى ذَوْقًا من الْبَيْضِ ، فبينما ترى نساءَ الوجهاء من الْبَيْضِ فى أَوْرَبَةِ يَفْعَلْنَ مَا يُرِيدُنَ تُبْصِرُ الزَّوْجَ ، حَتَّى ذَوَاتِ الْأَخْلَاقِ الْهَيْئَةِ من قِبَائِلِهِمْ ، لا يَنْظُرُونَ بِعَيْنِ التَّسَامُحِ إِلَى مَنْ يَكُنُّ غَيْرَ وَفِيَّاتٍ من أَزْوَاجِ الرُّؤَسَاءِ وَذَوَى الْجَاهِ مِنْهُمْ .

وَيَحْمِلُ الشَّلْكُ بَعْدَ وَضْعِ الْوَلَدِ الْأَوَّلِ نِسَاءَهُمْ عَلَى بَيَانِ أَسْمَاءِ مَنْ كَانُوا يَعَاشِرُونَهُنَّ ، فَيُلْزَمُ كُلُّ عَاشِقٍ بِتَقْدِيمِ بَقَرَةٍ إِلَى الزَّوْجِ تَكْفِيرًا عَنْ خَطَايَاهُ وَحَلًّا جَدِيدًا لِلشَّرَفِ الْجَنَسِيِّ ، وَإِذَا كَانَ لِلْمَرْأَةِ عِدَّةٌ عَشَاقٍ وَكَانَتْ جَرِيئَةً أَخَذَتْ قَبْضَةً مِنَ التَّرَابِ وَنَثَرَتْهَا فِي الْهَوَاءِ وَقَالَتْ صَارِخَةً : « هَذَا هُوَ عِدَدُ مَنْ كَانَ مِنْهُمْ » ، وَهَنَالِكَ يَشْتُمُ الزَّوْجُ أَهْلًا مَعَاقِبًا عَلَى سُوءِ تَرْبِيَّتِهَا لَهَا .

ومن الزوج قبائلٌ قَلِيلَةٌ تَقْتُلُ الْعَجَائِزَ لَمَذَّهْنٍ مِنَ السَّوَاجِرِ ، وَمِنْهُمْ قِبَائِلُ تُبَجِّلُهُنَّ ، وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ يُقَامُ احْتِفَالٌ فِي آخِرِ الصَّيْدِ الْأَكْبَرِ فَرَقْصُ أُمِّ الصَّائِدِ الظَّافِرِ وَحَدَّاهَا عَارِيَّةً بَيْنَ الْجُمْهُورِ فَيَهْتَفِ الْجُمْهُورُ قَائِلًا : « انظُرُوا إِلَى الْجِسْمِ الَّذِي حَمَلَ الصَّيَّادَ الْأَعْظَمَ » ، وَمِنْ الزَّوْجِ قِبَائِلُ تَضَعُ أَحَدَ الْأَوْلَادِ عَلَى الْمِنضَاجِ <sup>(١)</sup> وَتَبْدَأُ بِشَيْءٍ ، فَيَتَوَقَّفُ إِيقَادُهُمْ نَارَ الْحَرْبِ عَلَى حَيَاةِ هَذَا الْوَلَدِ أَوْ مَوْتِهِ ، وَمَعَ ذَلِكَ يُحِبُّ هَؤُلَاءِ النَّاسُ أَوْلَادَهُمْ وَيَجْعَلُونَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ مُهْرًا <sup>(٢)</sup> لَهُمْ ، وَمِنْ هُوَ الْأَوْرَبِيُّ الَّذِي يَحْمِلُ وَلَدَهُ الْفَتَى عَلَى كَتِفِهِ سِتَّ عَشْرَةَ سَاعَةً كَمَا شَاهَدَهُ سَامِعٌ لَدَى الدُّنْكَاءِ ؟ وَإِذَا حَدَّثَ أَيَّامَ الْجَدْبِ أَنَّ صَانِعَ الْمَطَرِ ، وَهُوَ شَبِيهُ رَئِيسِ الْقَبِيلَةِ وَشَبِيهُ سَاحِرٍ ، لَمْ يَرْفَعْ مُسْتَوَى مَاءِ النَّيْلِ ذُبْحًا لِمَا سَبَقَ مِنْ اخْتِخَارِهِ بِسُلْطَانِهِ عَلَى الْعَنَاصِرِ ، وَنَيْلِهِ

(١) المنضاج : السفود ، وهو حديدة يشوى عليها اللحم — (٢) المهود : جمع المهد .

حِصَّةٌ كَبِيرَةٌ مِنَ الْفِلَالِ وَالْفَرَاجِجِ ، وَهَمْ ، بِالْعَكْسِ ، إِذَا مَا اجْتَرَمُوا رَجُلًا أَيْضًا كَيْكِرَ رَمَوْا فِي النَّيْلِ مَا وَهَبَهُ لَهُمْ مِنْ خَرَزٍ تَسْكِينًا لِبَقْرِ الْمَاءِ الَّذِي يُمْكِنُهُ أَنْ يَقْلِبَ قَارِيَهُ ، وَأَحَبَّ إِخْوَانَهُمْ مِنْ أَهْلِ تَنْغَانِيَقَا لِيْفِيْنْفَسْتَنْ فَجَعَفُوا جُثَّتَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ وَمَلَحُّوْهَا وَحَمَلُوهَا تِسْعَةَ أَشْهُرٍ مَجَاوِزِينَ بِقَاعًا غَامِرَةً<sup>(١)</sup> مُعْتَقِدِينَ وَجُوبَ جَلْبِهَا إِلَى السَّاحِلِ وَتَسْلِيمِهَا إِلَى الْبَيْضِ .

وَلَمْ يُحَدِّثْهُمْ لِيْفِيْنْفَسْتَنْ عَنِ النَّقْدِ قَطُّ ، بَلْ كَانَ يُحَدِّثُهُمْ ، قَطْعًا ، عَنِ الْأَبِ الْقَادِرِ الَّذِي يَجْعَلُ جَمِيعَ النَّاسِ إِخْوَانًا ، وَقَدْ أَرَامَ سَاعَتَهُ وَبَوَصَلَتَهُ بَدَلًا مِنْ أَنْ يُعَلِّمَهُمْ أَسَاطِيرَ غَرِيبَةً ، وَمِنْ قَوْلِهِ : « لَا يُؤَثِّرُ فِي السُّودِ بِالْبِنَادِقِ وَالْآلَاتِ الْبَخَارِيَّةِ ، بَلْ يُؤَثِّرُ فِيهِمْ بَدْوَامُ اللَّطْفِ وَالْإِحْسَانِ ، وَيُؤَثِّرُ بِذَلِكَ فِي بَعْضِهِمْ وَحَدَهُ مَعَ ذَلِكَ » ، وَمِنَ النَّادِرِ أَنْ كَانَ يَجَازِيهِمْ ، وَمَا كَانَ يُوحِي إِلَيْهِمْ بِاحْتِيَاجَاتٍ جَدِيدَةٍ ، وَمِنْ نَتَائِجِ تَحْيِيئِهِ نَفْسَهُ إِلَيْهِمْ جَعَلَهُمْ نَصَارَى ، وَلَمْ تَكُنْ رِسَالَتُهُ الَّتِي أَمْلَاهَا فَوَاضَهُ عَلَيْهِ ضَارَّةٌ كَرِسَالَةِ أَنْاسِ كَثِيرِينَ مُتَعَطِّشِينَ إِلَى الذَّهَبِ وَالسُّلْطَانِ عَنْ غَيْرِ شُعُورٍ أَحْيَانًا ، وَلَمْ أَجْمَعْ جَمِيعَ الْعَارِفِينَ بِالسُّودِ عَلَى الْارْتِيَابِ مِنَ الْمُبْشِرِينَ ؟ وَأُولَئِكَ أَنْاسٌ يَجْهَلُونَ الْكُتُبَ وَالشُّوْرَ ، وَلَا يَكَادُونَ يَحْوِزُونَ بَضْعَةً أَفْكَارٍ دِينِيَّةٍ انْتَقَلَتْ إِلَيْهِمْ مِنْ آبَائِهِمْ ، وَعَلَى أُولَئِكَ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْبَيْضِ رَفْعًا لِمَنْ الْقَطَنَ وَلِسُنْدَاتِ مَصَانِعِ الْقَطَنِ ، وَكَانَ لِيْفِيْنْفَسْتَنْ خَالِيًا مِنَ التَّعَصُّبِ وَرُوحِ التَّجَارَةِ فَكَانَ يِعَامِلُ الزَّوْجَ كَمَا يِعَامِلُ الْأَوْلَادَ ، وَكَانَ لِيْفِيْنْفَسْتَنْ يَسْتَنْدُ إِلَى الْخُرَافَةِ بَدَلًا مِنْ مَكَائِفِهَا لِمَا أَبْصَرَهُ مِنْ كَوْنِهَا مُصْدَرِ سُرُورِهِمْ كَمَا فِي كُلِّ مَكَانٍ .

وَهَلْ تَجِدُ عَالِمًا أَيْضًا اكْتَشَفَ عَنِ الْقَرْدِ أَكْثَرَ مَا اكْتَشَفَتْهُ الْقِبَائِلُ الْجَنُوبِيَّةُ

(١) القامر : الأرض الخراب .

من أهل النيل الأعلى الذين يَحْكُمُونَ بقتل كلِّ إنسان يَقْتُلُ الشَّيْبَنَزِيَّ<sup>(١)</sup> لسابق انتسابه إلى الجنس البشري؟ ومن الزوج قبائلُ تحترم الأفاعى فتكتفى بطردها من الأكواخ من غير أن تُقدِّم على قتلها، ومن الزوج قبائلُ كثيرةٌ لا تقتل الحيوان الحامى لها ولو كان أسداً أو نمرًا.

ويعتقد البارى أن كثيرًا من الأموات يَتَحَوَّلُ إلى أنمار، ومن الزوج أناسٌ لا يُطلقون النار على بعض الضباع ليلًا معتقدين أنها تكتسب شكلًا بشريًا في النهار، وتلك القبائل، كمُعظم الوحوش، تَحْتَشَى الأرواح الشريرة التى توجب المرض والموت والعاصفة والجذب، ولكنها لا تعرف الأرواح الطيبة، وليس لتلك القبائل أصنامٌ كما فى إفريقية الغربية، ولكنهم يَنْجِتُونَ أحيانًا آلهةً يَتَبَّعُ لِمَن من خشب، وهم يَسْمُونُ السعادة والشقاء لُومًا وإن شئت فقل القَدَر الذى يَمْزَى إلى سبب خارجي. فيقولون «لُومًا أمرضه»، أو يقولون عن الصائد عند عودته صَفَرٌ اليد: «لم يكن له لُومًا».

ويحتاج الممجي، الذى هو عُرْصَةٌ للعناصر والمرض أكثر منا، إلى ساحر يَمْزُو إليه كلُّ قدرة ويرْجِعُ إليه فى كلِّ حال، وصانعُ المطر هو طاغيةٌ مُدَبِّرٌ أو مُرْهَبٌ لرئيس القبيلة كما يشاء، وهو يَهْدِّدُهُ بالجوع والجذب والحرب نَيْلًا لَجَعْلِهِ أَجَزَلَ من قَبْل، وهو يَرْقِصُ الجُمُهور، وَيُقَدِّمُ إليه جِعةً، وهو يَرَأْسُ العُرُوضِ الرسمية حيث يَنْضَحُ بالدم بعضَ الحجارة السحرية، وهو يَقْتِنُ ببيانه، وهو قد يقول الصدق فى حَضرة صانعى المطر الآخرين، ومما قاله أحدُ هؤلاء لِيَكْر: «ولا يَمْنُ لى أن أصنع مطرًا قبل أن يُعطونى حُبوبًا ومَمَرًا ودجاجًا، وهم قد هَدَّدُونى بالقتل،

(١) الشَّيْبَنَزِيَّ: قرد إفريقى هو أعلى الفردة وأقربها شبها للانسان.

والآن ، لن نَنْزِلَ قَطْرَةً مَاءٍ عَلَى أُوبُو ، وسَأَجُفِّ حَصَادِمَ وسَأَسْلُطُ الوَبَاءَ عَلَى قِطَاعِهِمْ ، وهكذا يُبَاكِي السَّاحِرُ الزَّنَجِيَّ بِقُدْرَةِ لَا يُؤْمِنُ بِهَا ، ولكنك نَجِدُ بَيْنَ السُّودِ أَنَاكَ يُمَجِّدُونَهُ وَلَوْ تَخَلَّصُوا مِنْهُ كَمَا تَجِدُ شُعوباً بِيضاً يَشَاهِبُونَهُمْ ، فإذا حدثَ أَنَّ الْمَادِي حَرَقُوا صَانِعَ مَطَرِهِمْ جَمَعُوا مَا يَسِيلُ مِنْ شَحْنِهِ لِيَكُونَ عِلَاجاً لِحَرْوُهِمْ .  
والحقُّ أَنَّنَا لَا نَزَالُ قَرِيبِينَ مِنْ عَالَمِ الْمَشَاعِرِ لَدَى هَؤُلَاءِ الْوَحُوشِ ، وَلَكِنَّ الزَّنَجِيَّ إِذَا لَقِيَ أَيْبَضَ عَشَى<sup>(١)</sup> كَمَا لَوْ دَخَلَ رَمَاقاً بَاهِرَ الْأَنْوَارِ ، مَعَ أَنَّ إِفْرِيقِيَّةَ تَبْدُو لِلْبَيْضِ شَمْساً تَجْتَذِبُ مَنْ يَقِيمُ مِنْهُمْ بِهَا زَمَناً طَوِيلاً أَكْثَرَ مِنْ تَقَطُّشِهِمْ إِلَى السَّيْطَرَةِ ، وَإِفْرِيقِيَّةُ لِلْبَيْضِ جَنَّةٌ يُلْقَى جَوْهَا الْمُنْعَشُ سُلُوءَاناً فِي نَفْسِهِمْ ، أَجَلٌ ، إِنْ مَتَاعِبَ إِفْرِيقِيَّةَ وَأَمْرَاضَهَا تُقْصِّرُ أَجَالَهَا ، وَلَكِنْ مُؤَالَفَةُ قُوَاهَا الطَّبِيعِيَّةِ تُقَوِّى أَرْوَاحَهُمْ ، حَتَّى إِنْ اعْتَزَلَ الْعَالَمُ وَالشَّاعِرُ ، الْعَارِئَتَيْنِ بِالمَسَائِلِ الْخَالِدَةِ ، لِمُضَوَّاءِ الْعَالَمِ الْأُورُبِّيِّ وَالْعَالَمِ الْأَمْرِيكِيِّ وَحَقَائِقِهِمَا أَقْلُ سَهْوَةً مِنْ اعْتَزَالِ الرَّائِدِ أَوْ الصَّائِدِ أَوْ الْفَارَسِ فِي إِفْرِيقِيَّةِ الْإِسْتَوَاتِيَّةِ ، وَلَا يَأْتِي النُّفُوزُ الْمُطَهَّرُ مِنَ الْخَطَرِ الْيَوْمِيِّ وَمِنْ مَكَاخِيفِ الْعُنَاصِرِ فَقَطْ ، بَلْ يَأْتِي أَيْضاً مِنْ عَيُونِ الزَّنَجِيَّ وَمِنْ وَضُوحِ أَوْضَاعِهِ الَّتِي تَتِمُّ عَلَى مَا يَدُورُ فِي خَلْدِهِ ، وَمِنْ فُضُولِهِ الطُّفُولِيِّ وَمِنْ وَقَارِهِ وَوَقِيمَتِهِ وَلَا شُعُورِيَّتِهِ .

وَشُبَّةُ السُّودِ بِالْأَوْلَادِ ، وَالشُّودُ عَلَى شَوَاطِيءِ النَّيْلِ أَوْلَادٌ فَرَحَى مَرَحَى تُسْفِرُ سَدَاجَتَهُمُ الْكَلْبِيَّةَ عَنْ قَسْوَةٍ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ ، نَعَمْ ، يُمَكِّنُ الزَّنَجِيَّ أَنْ يَقْتُلَ خَصْمَهُ فِي سَوْرَةِ غَضَبٍ ، وَلَكِنَّهُ يَجْهَلُ الْخُبْثَ وَكُلَّ شَيْءٍ يَسُودُ حَيَاةَ الْبَيْضِ ، وَلَا يَحْفَظُهُ الْمَقْدُ وَالْحَرَصُ وَالْحَسَدُ وَحُبُّ الذَّهَبِ إِلَى الْإِجْرَامِ ، وَرُؤْسَاءُ الْقَبَائِلِ وَحَدَمُهُمُ الَّذِينَ تُسَاوِرُهُمْ هَذِهِ الْمَشَاعِرُ ، فَهَمُ كَبَعْضِ رُؤْسَاءِ الْبَيْضِ يُثِيرُونَ فِي نَفُوسِ

(١) عَشَى : سَاءَ بَصَرُهُ .

رَعَايَاهُمْ رُوحَ الانتقام والحقد ضدَّ القبائل الأخرى فيدفعونهم إلى الحرب والموت .  
 وكان الأبيض لا يَجْلِبُ غير الخَرَزِ إلى الأسود في مقابل عاجه الذي يَسْلُبُهُ  
 إياه ، والأبيض قد نَزَعَ منه عمله اليدوي لِمَا أدت إليه العجائب التي أُطْلِعَ عليها  
 من تقليل غريزة التقليد فيه ، ولم يَبْذُلْ كبيرَ جُهدٍ في شَحْذِ نَفْسِهِ ما دام  
 الأبيض يُعْطِيهِ سَكِينًا رَافِعًا في مقابل قطعةٍ من المَطَّاط ؟ وعاملُ المصريون مَنْ بلغوهم  
 من زنج النيل الأعلى كما عاملت الكنيسةُ عامةَ الناس ، فلم يُعْلَمُوا حتى استعمالِ  
 إطارِ الفَخَّارِ ، وغابت صِنَاعَةُ مَطْلٍ<sup>(١)</sup> النَّصَالِ وهاجرت إلى النافع البعيدة المنفعة ،  
 ولا يُوَحِّيُ البِيضُ إلى الزَّنجِيِّ بَتَذَوُّقِ العملِ إلَّا بِإِشْرَاكِهِ في مَلَاذٍ غيرِ معروفةٍ  
 عنده واجتذابه بِذلك إلى مُعَرِّياتِ الحضارة ، والأبيض ، لَكِي يَكْسِبَ مَالًا ، يحتاج  
 إلى عملٍ يدويٍّ رخيصٍ ، فتراه يُخْرِجُ الزَّنجِيَّ من جَنَّةِ البِطَالَةِ .

وَسَهَّلَ الرِّقُّ الذي يعانیه فريقٌ من الناس ذلك العملَ ، والعملُ لا يقوم  
 به النساءُ وحدهنَّ ، بل يقوم به أيضًا أَسْرَى الحرب ومن أُمَّ بِهَمِّ الْفَقْرِ ، ولا تَجِدُ  
 بين السود فروقًا مُوْغِرَةً لِقُتْدَانِ المَلَاذِّ الغالية والثياب الفاخرة والبيوت والأغذية  
 الأنيقة تقريبًا ولمَّا لا يَبْدُو به أحدٌ أَكْثَرُ مما هو عليه خلافًا للبِيضِ ، وعلى  
 الأبيض يتوقف الرِّيحُ والخُسرانُ ، والزَّنجِيُّ ، لِحِرْمَانِهِ حقَّ الكَسَلِ ، ينال آلاتِ  
 الخِطَاطةِ والمصاييحَ وَرَحِيقَ الوِسْكِ مَقَابِضَةً ، وهذه هي خاتمةُ حياته النباتية  
 ونهايةُ سلامَةِ طَوِيلَتِهِ ، وهو يُفِيقُ وَيَسْعَى لِيَسْتَقِلَّ وَيَبْتَنِي وَجْهًا آخَرَ من الحرية ،  
 أَى حُرِيَّةٍ ظَاهِرَةٍ كَالَّتِي تَتَمَتَّعُ بِهَا الأُمَمُ المُتَمَدِّنَةُ ، ومن التَبَثِّ في الساعة الحاضرة أن  
 تَجْلُ دولَةُ أوروبية من الزَّنجِيِّ عَبْدًا ، والزَّنجِيُّ يَغْدُو عَبْدًا للحضارة من تلقاء نفسه .

(١) مطال الحديد : ضربه ومدّه ليطول ، سبكه ومدّه صحيفة .

مَنْ يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَامِهِمْ يَعْرِفُ هَلْ هُمْ مِنَ الرِّعَاةِ أَوْ مِنَ الْفَلَاحِينَ ، وَالْأَبْيَضُ  
بِجَانِبِ الْفَتَى الشَّلَكِيِّ يَبْدُو ثَقِيلاً بَلِيداً عَلَى الدَّوَامِ ، وَارْجِعِ الْبَصَرَ إِلَى الشَّلَكِيِّ  
تَجِدْهُ يُدْكَرُكَ بِثَمَالٍ بِأَخُوسٍ <sup>(١)</sup> الْبُرُونِزِيِّ بِجَمَالِهِ وَإِغْوَانِهِ كَمَا رَأَيْتُ لِأَغْرِيقِيٍّ  
وَمَدَّةَ سَاقِيهِ الدَّقِيقَتَيْنِ الطَّوِيلَتَيْنِ وَسُكُونَهُ وَزَهْوَهُ وَعُزْبَهُ وَوَضْعَهُ جِلْدَ حَيَوَانٍ عَلَى  
كَتِفَيْهِ وَجَلَالَ يَدَيْهِ وَشَعُورَهُ بِحُسْنِهِ ، وَتَقَلُّ الْعُرُوقَ الْجَمِيلَةَ فِي إِفْرِيقِيَّةِ الْوَسْطَى كَامِلَةً  
الْعُرَى كُرْعِيَانِ أَوْغَنْدَةَ ، عَلَى حِينِ تَرَى الزَّرَّاعَ الصَّغَارَ وَالرَّبَّاعَةَ <sup>(٢)</sup> لَا بَسِينَ ثِيَاباً  
وَلَوْ كَانُوا مِنَ الْفُقَرَاءِ .

وما عند الرِّعَاةِ ، الَّذِينَ لَمْ رِفْعَةً شَأْنٍ بِصَبْرِهِمْ وَخُلُوءٍ بِالْهَمِّ ، مِنْ ظَرْفٍ طَبِيعِيٍّ  
فَقَدْ زَادَ بَرُورِي الْقَبَائِلِ النَّيْلِيَّةِ وَبُضُوءِهِمُ الَّذِي يَتَعَقَّبُونَ بِهِ حَرَكَاتِ الْبَيْضِ ، وَهُمْ  
لَا يُشَوِّهُونَ أَنْفُسَهُمْ بِقَضِيبِ الْقَمِّ وَلَا بِمَخْلَقِ الْأَنْفِ ، وَلَا تَجِدُ فِيهِمْ حَتَّى وَشَمَ <sup>(٣)</sup>  
عَشِيرَتِهِمْ ، وَلِخِيَالِهِمُ الطُّفُولِيُّ غَنًى فِي كَوْنِ شَعْرِهِمْ عَلَى شَكْلِ الْمِفْرَةِ <sup>(٤)</sup> ، وَلَا بَدَّ مِنْ  
انْقِضَاءِ أَشْهُرٍ عَلَى اللَّاتُوكِيِّ ، وَاللَّاتُوكُ هُمْ أَجْمَلُ عِرْقٍ عَلَى شَوَاطِئِ النَّيْلِ عَلَى  
مَا يَحْتَمِلُ ، حَتَّى يَصْنَعَ مِغْفَراً طَبِيعِيّاً مِنْ شَعْرِهِ الْجَمْدِ وَمِنْ الْخَيْطِ وَالْقَشْرِ مَعَ إِسْمَاكَ  
مِخْدَتِهِ الضَّخْمَةِ الدُّنْيَا بِصَفَائِحٍ مِنْ نَحَاسٍ وَإِدْمَاجٍ صَدْفٍ وَرِيَشٍ نَعَامٍ فِيهِ ، وَهُوَ  
يُورِي أَسْنَانَهُ الْجَمِيلَةَ عِنْدَ مَا يَتَأَمَّلُهَا أَجْنَبِيٌّ مَبْهُوتاً .

(١) أَخُوسٌ : إِلَهُ الْحَرِّ عِنْدَ الرُّومَانِ ، وَهُوَ يُقَابِلُ دِيُونِيزُوسَ لَدَى الْآغَارَةِ .

(٢) الرِّعَاةُ : الْوَسِيطُ الْقَامَةُ — (٣) وَشَمُ الْيَدِ : غَرَزَهَا بِالْإِبْرَةِ ثُمَّ ذَرَعَهَا عَلَيْهَا التَّلِيجَ فَصَارَ  
فِيهَا رَسُومٌ وَخُطُوطٌ — (٤) الْمِفْرَةُ : زَرْدٌ يَلْبِسُهُ الْمَخَارِبُ تَحْتَ الْقُلُوسَةِ .

وانظروا إلى رئيس العشيرة الذى يُدخِّنُ تَجْدُوهُ مُتَّخِذاً وضِعاً خاصاً ، فهو يَصْعُقُ  
مرزقه الأيمن على مُتَّكَأٍ وَيَقْعُدُ الأُرْبَعَاءَ<sup>(١)</sup> ، وهو يَمْسِكُ قَصَبَةً غَلِيظَةً بيده اليسرى  
وَيَتَنَفَّسُ طويلاً ثم يَسْلُمُ الغُلِيَّونَ إلى العبد عن خِيَلَاءٍ وَيَرُدُّ الدُّخَانَ إلى أَسْنَانِهِ  
رويداً رويداً فى نهاية الأمر .

وما لنا بالملوك حاجةٌ ، ولنا بالزُعَاة مَظْهَرٌ لا يوجَدُ فى غير إفريقية ، ويُبَصِّرُ من  
الدُّنْكَا فِتْيَاناً عُرَاءَةً ظُرَافَا كَالْأَوْعَالِ التى يَلْبَسُونَ جُلُودَهَا مُعَلَّقةً على أكتافهم ،  
غِيداً<sup>(٢)</sup> كالْفُهُودِ التى يقتلونها ، غيرَ مُبْدِينَ هُنَاكَ حَرَآكَ قَرِيباً ، وَيَقْدِمُ الأصغرُ  
إلى الأكبر سِفَارَةً لا يَعْرِفُ مَاتَاهَا ، وَيَمُدُّ الآخر يَدَهُ إلى هذا الشُّبِّ السَّحْرِىِّ  
المُسْتَعْيِ كثيراً بسهولة مَرَهَلَةٍ كَالتى تُرَى فى صُورِ القَرَاعَةِ النَّقُوشَةِ على الجُدُرِ ،  
وَيُبَصِّرُ فى الخَلْفِ آخَرَ لَابِساً جِلْدًا مَدْبُوعًا بِلَوْنٍ أَحْمَرَ ، كما لو كان مُدُنِّراً بِرِدَاءِ  
إِغْرِيقٍ ، مُتَوَكِّئًا على عَصَا طَوَّلَهَا ثَلَاثَةُ أَمْتَارٍ مُنْتَظَرًا صَامِتًا ، وَيُوجِى وَضْعُهُ هَؤُلَاءِ  
الثَّلَاثَةَ بوضْعٍ جَمَعَ من النُّبَلَاءِ الذين لا يَرْفَعُونَ أَيْدِيَهُم للعمل ، بل للصيد إذا ما  
هُدِّدُوا أَوْ جَاعُوا مُوجَّهِينَ ضَرْبَةً رُجُولِيَّةً .

وهم إذ كانوا لا يَعْرِفُونَ الحَيَاءَ يُبْدُونَ أَبْدَانَهُمْ دَوْمًا وَيُبَاهُونَ بِذَلِكَ كما يُبَاهَى  
الأَيْبُضُ بِبَيَاضِهِ ، بَيِّدَ أَنَّهُمْ لَا يَهْدِفُونَ أَبَدًا إلى أن يكونوا أَقْلَ سَوَادًا ، وَيَتَرَجَّحُ  
لَوْنُهُمْ بَيْنَ سَوَادِ القَطْرَانِ وَصُمْرَةِ الحَدِيدِ ، وترى منهم من هم بِلَوْنِ الشُّكْلَاةِ  
والْقَهْوَةِ وَتَبِيعِ الهَوَانَةِ<sup>(٣)</sup> وَمَنْ هم صَفْرُ الجُلُودِ ، ومن القِبَائِلِ عِدَّةٌ قَلِيلٌ يَدَّهِنُ بِالرَّمَادِ  
أَوْ بِالْقَهْوَةِ فَلَا يُحْسِنُ الدَّهْنَ ، وهم يَمِيلُونَ إلى الجُلُوحِ المُسْتَطِيلَةِ فَيَضْطَمُّ مَلُوكُهُمْ  
رُؤُوسَ أَوْلَادِهِمْ وَيَحِيطُونَهَا بِالعَصَابِ وَصُولاً إلى هذه الغَايَةِ ، ومن الأُمُورِ الكَرِيهَةِ

(١) قعد الأربعاء : نبي قديمه تحت تغذيه غالفها لها — (٢) التيد : جمع الأغيد ، وهو

الناعم الثقي — (٣) Havana .



وَسَأْتُهُمْ<sup>(١)</sup> ، أَى سِمَاتُ عَشِيرَتِهِمْ أَوْ غَلَامَاتُ شِجَاعَتِهِمْ الَّتِي تُذَكَّرُ بِأَنْدَابِ<sup>(٢)</sup> طَلَّابِ الْأَلْمَانِ ، وَتَفَاخُرِ النِّسَاءِ بِأَنَّهُنَّ حُطَّطْنَ بِحَدِيدٍ حَامٍ لِيَكُونَ ذَلِكَ آيَةً عَلَى لَوَاعِجِ الْحُبِّ ، وَلَا يَحْمِلُ الزَّوْجُ قَلَانْدَ مِنْ غَيْرِ أَسْنَانٍ مَا ذَبَّحُوهُ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ ، وَهُمْ يَسْتَحَرُّونَ مِنَ الْبَيْضِ الَّذِينَ يَبْشُرُونَ مِنْهُمْ هَذِهِ الْقَلَانْدَ أَوْ قَوَارِي<sup>(٣)</sup> رَمَاحٍ .

وَمَنْ يَفُوقُونَ الْبَيْضَ بِسَالَةٍ وَوَقَارًا وَمَهَارَةً فِي الصَّيْدِ أَيْضًا ، وَمَنْ قَلِمَا يَسْتَعْمَلُونَ الْأَسْلَحَةَ النَّارِيَّةَ ، وَعَلَيْهِمْ ، إِذَنْ ، أَنْ يَكَاغُوا كَفَاحَ حَيَاةٍ وَمَوْتَ ضِدِّ الْأَسَدِ وَالنَّيِّرِ وَضِدِّ الْحَيَوَانَاتِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي هِيَ مِنْ حَيَوَانَاتِ مَا قَبْلَ الطُّوفَانِ ، وَهَنَالِكَ لَا يَزَالُ الصَّيْدُ ، الَّذِي خَفَضَ الْإِبْيَضُ مَنْزِلَتَهُ بِجَعْلِهِ رِيَاضَةً بِلَا خَطَرٍ ، كَمَا كَانَ فِي أَزْمَنَةِ مَا قَبْلَ التَّارِيخِ ، وَمَنْ يَحْفِرُونَ قُفُورًا يَقَعُ فِيهَا الْكَرَّ كَدَنٌ ، وَمَنْ لَكِي يُضْمُوهُ يَرَوْنَ مَهَاجَتَهُ مِنَ الْأَعْلَى بِالرَّمْحِ أَوْ مِنَ الْقُرْبِ بِالسَّيْفِ ، وَالنَّارُ وَالضُّوْءُ مَا يُبْعِدُ بَقَرِ الْمَاءِ ، فَيَجِبُ لَصَيْدِهِ أَنْ يُرْمَى بِالْكَالِيلِ وَالنَّبَالِ ، وَمَنْ يَخَافُونَ التَّمَسَّحَ وَيَمْتَقِنُونَهُ أَكْثَرُ مِنْ مَقْتَنِهِمُ الضُّوَارِي لِمَا يُوْجِبُهُ مِنْ جَذْبِ الْحَيَوَانَاتِ وَالْأَدْمِيْنَ إِلَى النَّهْرِ ، وَمَنْ يَتَغَلَّبُونَ عَلَيْهِ بِالْخَطَاطِيْفِ<sup>(٤)</sup> وَبِمَجْمُوعَةٍ مِنَ الْخُيُوطِ كَمَا فِي مَصَرٍ قَدِيمًا ، وَمِنْ الزُّورَقِ ، عَلَى الصُّومِ ، بِصِيْبِهِ الصَّائِدِ بِضَرْبَةٍ مُمَيَّتَةٍ ، أَى بِضَرْبَةٍ سَهْمٍ فِي ظَهْرِهِ تُمَدُّ دَلِيلًا عَلَى شِجَاعَةٍ لَا تَقَاوَمُ ، وَمَنْ بَعْدَ الْقَنْصِ يَتَهَافَتُونَ عَلَى الْعَدُوِّ الْمَيِّتِ تَهَافَتَ الْوَحُوشِ ، وَيُقَطِّعُونَ هَذَا الصَّيْدَ<sup>(٥)</sup> إِرْبَا بِإِرْبَا بِأَسْنَانِهِمْ كَأَنَّهُمْ يَنْتَقِمُونَ مِنْهُ لِلْمَرَّةِ الْأَخِيرَةِ .

(١) الوشام : جمع الوشم — (٢) الأنداب : جمع الندبة ، وهى أثر الجرح الباقى على الجلد  
(٣) القوارى : جمع القارية ، وهى أسفل الرمح أو أعلاه — (٤) الخطاطيف : جمع الخطاف ، وهو حديدية يختلف بها — (٥) الصيد : ما يصاد .

ولا يُبدى مُعظم هذه القبائل كبيرَ حماسةٍ في اصطياد الفيل ، وما يحدث أحياناً أن يُوقدوا غاباتٍ بأجمعها فتحترق إناثُ الفيل وصغارُها ، وإذ أن الفيل لا يهاجم الإنسان أبداً ، وإذ أن الأرضى المزروعة في هذا الترض قليلةٌ فلا يستطيع أن يعيشَ هنا كما يفعل في أوغندة ، فإنه لا يُقتل عن حقد ، ولا عن انتقام ، بل عن طمعٍ رئيسٍ في العاج لإرضاء لحجى النفاس من المتمدنين .

ولا مناصَ لهم من الاستعداد المستمرِّ لمكافحة الضواري ، ومن ثمَّ كان إبدائهم ما عندهم من براعةٍ في صنع السلاح ، فاخترعوا سهاماً مُسنَّنةً لأقواسهم البالغة من القلوة متراً ونصفَ متر ، ولديهم رماحٌ مُدَرَّبةٌ ، وهم ينتفعون بلبَن نوعٍ من التينوع<sup>(١)</sup> في سَمِّ نبالهم .

والمرأة لدى جميع القبائل هي دُونَ الرجلِ جمالاً وقواماً وذكاءً ، والمرأة عند هؤلاء السود ليست غيرَ آلةٍ للعمل من دون دَلال ، ولا يبالي كَلا الجنسين بالهندام أو بالأناقة ، ومع ذلك لا تَحبُّ سوى نساءٍ يُشوَّهن شِفاهن بمَخاصير<sup>(٢)</sup> أو عِصاص<sup>(٣)</sup> ، ومع ذلك لا يَسُوغُ للأورية التي تَنزِعُ أهدابها وحاجبتيها أن تهزأ بما تَرَيَّين به أختها الزَّنجية من الوشم ومن زَرَافين<sup>(٤)</sup> الحديد ، والحبُّ هناك أكثرُ ملاءمةً للأخلاق مما عند البيض ، وذلك لأن الفتاة تختار الرجلَ لأنه يَروِّقها ، لا لأنه غنيٌّ ، واللورى يَدْعُون الفتاة وحدها في خيمةٍ مع القى الذى تَرغب فيه بعد أن يصبح كُدياها بمقدارٍ يُجْع كُفها ، فإذا أضحت الفتاة حاملاً حَمِل القى على ابتياعها ، والفتاة عند البارى لا تَعْرِفُ زوجها إلا يوم الزواج ، والأُم تدخل

(١) التينوع : كل نبات له لبن — (٢) المخامر : جمع المخمرة وهي شيء كالسوط .

(٣) الغاس والغاس : جمع القيسة ، وهي ضفيرة الشعر — (٤) الزرافين : من الخلق الصغيرة ، واحدها زرافين .

الكوخ في أثناء مأدبة العُرس وتُسأل الرجل عن سروره بالمرأة فيُبْلَغ ذلك بصُراخٍ  
يُنْمِ على الارتياح .

وحِشْمَةُ نساء السودِ أُنْصِي من حِشْمَةِ نساء البيض اللاتي لا تَمْتَنِعَنَّ السِّنُّ من  
كُشْفِ أعناقهن ، والقَمِيَّاتِ وحَدَنِّ هُنَّ اللَّائِي يَظْهَرْنَ عَارِيَاتٍ على ضِفافِ  
النَّيلِ الأعلى وعند مُعْظَمِ القَبَائِلِ ، وتَلْبَسُ المرأةُ البَارِيَّةُ وَزَرَءَ بعد أن تَضَعُ ولَدَها  
الأول ، وهناك نِسْوَةٌ أُخْرَى يَضَعْنَ خَلْفَهُنَّ ذَنْبًا من خَرَزٍ أو طَاقَةٍ من أَوْرَاقِ  
غَضَّةٍ تُغَيِّرُ كُلَّ يَوْمٍ ، والعَرَبُ يَدْعُونَ نساء الجُورِ بالمَذْنِبَاتِ لوضْعِهنَّ على  
سُرْرِهِنَّ ذَنْبًا من أَهْدَابِ الجِلْدِ الناعمة ، وإذا كانت المرأة عَاقِرًا أُمَكْنَ طَلاَقُها  
واستردادُ حُرِّها ، ويَحِقُّ للمرأة في كثير من القَبَائِلِ أن تترك بَعْلَها عند وجود  
معايبَ كَبِيرَةٍ فِيهِ .

وإِذْ تُمَثِّلُ المرأةُ رَأْسَ مالٍ تَتَجَلَّى فَوَائِدُهُ في عَمَلٍ يُمَكِّنُ بَيْعَ ثَمَرَاتِهِ فَإِنَّهَا تَعْدِلُ  
لدى الزَّيْجِيِّ عَلَى ضِفافِ النَّيلِ سَنَدًا تِجَارِيًّا عند الأَبْيَضِ تَقْرِيْبًا ، وإِذَا مَا زَوَّجَ  
الرجُلُ عَشْرَ بَنَاتٍ وَلِدْنَ مِنْ امْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ نَالَ مِثْلَ بَقَرَةٍ يَحْفَظُهَا أَوْلَادُهُ الْآخَرُونَ ،  
ولِذَا يُرَحِّبُ البَارِي بِالْبَنَتِ أَكْثَرَ مِمَّا بِالابْنِ ، والبَارِي يَطْهَرُونَ<sup>(١)</sup> من التَّوْأَمِ  
فَيَمُدُّونَهَا ذَرِيْعَةً لِلطَّلَاقِ .

يَقْطُنُ الْمَرَادُ<sup>(١)</sup> فِي الْمَنَاقِعِ ، وَهَمْ لَا يَنْبَعِدُونَ مِنَ الْأَقْزَامِ أَكْثَرَ مِنْ بَعْدِ نِيُورْتِكْ  
 مِنْ وَشَنْغَتُنْ أَوْ بُغْدِ زُورِيخْ مِنْ مِيلَانْ ، وَهَمْ يَظْهَرُونَ عَلَى ضِفَةِ النَّيْلِ الْيَسْرَى  
 بِالْقَرَبِ مِنْ بَحْرِ الْفَزَالِ ، وَيَنْزِلُونَ عَلَى الضِّفَةِ الْيُمْنَى حَتَّى الدَّرَجَةِ الثَّانِيَةِ عَشْرَةَ ،  
 وَلَكِنْ الْمُسْتَنْقَعُ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي يَجْعَلُ لَوْجُوهُمْ مَعْنَى ، وَكَمَا أَنَّ أَقْزَامَ رُوْزُورِي  
 قَعَرُوا بِمَيْشِهِمْ تَحْتَ دَوَّحِ الْأَيْكَةِ الْبِكْرِ مِنْذُ مِائَاتِ السَّنِينَ أَصْبَحَ الدُّنْكَاءُ الَّذِينَ هُمْ  
 سُكَّانُ تِلْكَ الْبِلَادِ الْأَوَّلُونَ أَطْوَلَ رِجَالِ الْأَرْضِ بِعَيْشِهِمْ كَالْفَالِقِ فِي الضَّحَاظِ وَعَلَى  
 رُؤُوسِ الْعُدْرَانِ ، وَبَيْنَمَا تَرَى أَوْلَئِكَ لَا يَزِيدُونَ طُولًا عَلَى مِثْرٍ وَثَلَاثِينَ سَنْتِيْمَةً  
 يَبْلُغُ الدُّنْكَاءُ مِنَ الطُّوْلِ مِثْرَيْنِ ، وَيُقَدَّرُ مُعَدَّلُ الطُّوْلِ لِلتُّوسَطِ لَدَى الدُّنْكَاءِ بِمِثْرٍ  
 وَتَسْعِينَ سَنْتِيْمَةً ، وَإِذَا نَظَرْتَ إِلَى هَذِهِ الْقَامَةِ مَعَ اسْتَوَاءِ أَرْجُلِهِمْ وَامْتِدَادِ أَعْقَابِهِمْ<sup>(٢)</sup>  
 وَأَعْنَاقِهِمْ أَبْصَرْتَ دَرَجَةً تَمَازِلُ أَحْوَالَ الْمَيْشِ وَتَقَارِبُهَا فِي الْإِنْسَانِ وَالْحَيَوَانِ ، وَقَدْ  
 يُرَى الْبَحْثُ هُنَا عَنْ مَصْدَرِ الْأَسْطُورَةِ الْأَوْمِيْرِيَّةِ حَوْلَ اصْطِرَاعِ الطُّوَالِ وَالْأَقْزَامِ .  
 وَيُظَلُّ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ سَاعَاتٍ بِأَمْرِهَا وَاقِفًا عَلَى إِحْدَى سَاقِيهِ اللَّتَيْنِ  
 لَا سَحَاةَ<sup>(٣)</sup> فِيْهَا ، وَذَلِكَ مَعَ وَضْعِ السَّاقِ الْأُخْرَى فَوْقَ رُكْبَةِ تِلْكَ السَّاقِ  
 وَعَقْدِهَا بِهَا ، وَذَلِكَ مَعَ اسْتِنَادِ إِلَى مِئْسَاةٍ<sup>(٤)</sup> ، وَمَعَ عَطْلٍ مِنْ شَرَكٍ وَشَبَكٍ ،  
 وَمَعَ بُغْدٍ مِنْ مَوَاشِيهِمْ .

(١) المراد : جميع المارد ، وهو الطويل المرتفع — (٢) الأعقاب : جمع العقب وهو مؤنر القدم — (٣) السحاة : عضلة الساق ، وهي تعرف لدى العامة بالبلطة — (٤) المئساة : العصا الضليعة التي تكون نزع الراعي .

وهم أيقاظٌ غيرُ رُقودٍ ، وهم يَرَقُبُونَ ماذا يَقَعُ بلا حركةٍ ولا بُنيةٍ ولا فِكْرةٍ ولا رَغْبَةٍ ولا كِبِيرٍ عاطفِيٍّ في الظاهر ، وهم يَرَوْنَ فوق ذلك السَّياط المائيَّ الواسع من فراسخٍ بعيدَةٍ ، فيبدو تضادٌّ دائمٌ بينهم وبين الأقرام الذين يعيشون كالنمل على مُنَحْدَرَاتِ البراكين حَذَرِينَ خافِينَ فاعِلِينَ مترقِبِينَ ، وفيما هم يشابهون البلاشين بُنْحُولِهِمْ واستواءَ ظهورهم ودقةَ قاماتهم واستطالةَ جماجمهم وانحناءَ أُنُوفِهِمْ ورِقَّةَ شِفَاهِهِمْ ولُطْفَ مفاصلِهِمْ يُدَكِّرُنَا الأقرامُ بالمتناجذ<sup>(١)</sup> .

ونحافَتُهُمْ سببُ ظهورهم أكثرَ طُولاً ، وهي تُنَاسِبُ كسلَهُم الذي لا يَعْدِلُهُ كسلُ شُعْبٍ آخر ، وهم لكسلِهِمْ يُفَضِّلُونَ تناولَ حَسَاءٍ من كَلَأٍ على إقْصَابِ أَنْفُسِهِمْ بصيد السمك ، حتى إن التَّوْبِرَ الذين هم أَشَدُّهُمْ كَسَلًا لَا يَدْفِنُونَ موتَهُمْ ، ويحاولُ البِيضُ مكافحةَ هذه السَّجِيَّةِ باسمِ الأخلاقِ ظاهراً ، وعن احتياجٍ إلى علمِهِم باطناً ، راجين أن يَحْمِلَهُم الذُّبابُ الذي يَهْلِكُ قِطَاعَهُمْ على تعاطي الزَّرَاعَةِ ، والحقُّ أن الأَرْضَ الخصييةَ هنالك هي من الاتساعِ الكبيرِ ما يمكنُ تحويلِها إلى أَرْضٍ صالحةٍ لِلْفِلاحةِ « لو انتهى الزَّيْجِيُّ إلى تقديرِ قيمةِ العملِ » ، ولكن الحاجةَ إلى الذَّرَاعِ تَقِلُّ في العالمِ بِأَجْمَعِهِ ، ولكن الدُّنْكَا يكونون من أصحابِ الحَفْظِ إذا ما فروا من تلك التصاريِفِ واستمروا على عيشِهِم الفردوسِيِّ الذي نَفَرَ مِنْهُ إِخْوَانُهُمْ حديثاً بعد أُلُوفِ السنين .

وأكثرُ الدُّنْكَا من الرُّعَاةِ ومن الذين يُعْتَنُونَ بتربيةِ المواشِي ، فَتَجِدُ لأَقْرَمِ أربعِ بَقَرَاتٍ وَتَجِدُ لأَغْنَامِ ألفَ بَقَرَةٍ . ومن القِطَاعِ ما يشتملُ الواحدُ منها على ثلاثةِ آلافٍ من النَّمَمِ<sup>(٢)</sup> ، والبقرُ يَقْدَسُ لَهُ ، والبقرُ يُعْبَدُ ، وهذا أَفْضَلُ من عبادةِ

(١) المتناجذ : جمع خلد من غير لفظه ، وهو نوع من القواضم يعيش تحت الأرض ، وهو ليس له عَيْنَانِ وَلَا أُذُنَانِ — (٢) النمم : البقر والنم وما إليهما .

البيض للعجل الذهبي<sup>(١)</sup> ، ويوصل الحيوان الذي يتقدم القطيع بدعاء في الصباح ، وتلك بقرات جميلة سمر<sup>(٢)</sup> نيرة قصيرة القرون ذات حذب كبير ، وهي تُزَيْن بالأزهار أيام الأعياد ، وهي تُرَشُّ بالماء وقت الحلب حفظاً لها من الذباب . وهي تُحَفَظُ ليلاً بين سياجات شائكة أو بين يتوعاتٍ حماية لها من الأسود ، وينام الرجل بجانب قرانه<sup>(٣)</sup> المفضل الذي يقصده بقاريته<sup>(٤)</sup> مرة واحدة في كل شهر ، وقد استغل النخاسون هذه العاطفة نحو الحيوان الذي يقايش بالناس ، وإذا بحث عن جميع الحفلات وجميع الحروب في ذلك البلد وجدت مريعة الحيوانات سبباً لها ، والسرقة تملأ أفاصيص الدنكا وأساطيرهم ، والدنكا يؤمنون بالبقر للقدس الذي يحفظه غول النيل والذي يرعى ليلاً مقروناً بأوتادٍ عندما يستتر الضباب ضفاف النهر .

وإذا كان المومس جافاً وارثم<sup>(٥)</sup> ما على الشهب نُقِلَت الماشية من ضفة النيل اليمنى إلى ضفته اليسرى ، ويظل النساء والأولاد في هذه الناحية من النهر في أكوأخهم الخفيفة ، ويُسَبِّرُ الرجال نهر النيل في سوق مُجَوِّفَةٍ من الشجر جارٍ وراءهم عجلاً<sup>(٦)</sup> مربوطة بحبال ، وما يصدر عن هذه العجال من خوارٍ هولٍ فيحملُ أمانيها على اتباعها ساجدة فتلتحق الثيران هذه الأمات ، ويُنْقَلُ الضأن في زوارق ، فترافق الكلاب القطيع عائمة مع ماقى هذا من خطر ، ويتم انتقال كل أسرة في يومين ، وفي تلك الأثناء يقف الساحر على شفير<sup>(٧)</sup> الوادى مُعَرِّماً<sup>(٨)</sup> على التماسيح التي لا تقوئها غنيمة مع ذلك .

(١) الفراء : حمار الوحش — (٢) القارية : أعلى الرمح — (٣) ارثم ما على السهب : اكتسبه (٤) العجال : جمع العجل (٥) شفير الوادى : ناحيته من أعلاه — (٦) عزم الساحر : قرأ العزائم ، والعزائم : جمع العزعة ، أى الرقية .

والدُّنْكَا بضمةٌ مُحْتِمَاتٍ مجاورةٍ لإخوانهم النَّيَّامِ نِيَّامٌ عَلَى ضِفَافِ بَحْرِ الْغُرَالِ ،  
وهكذا تُبَصِّرُ كَلَّامًا مِنَ النَّبَاتِينَ وَأَسْكَالَةَ لَحْمِ الْبَشَرِ يَرْقُبُ الْآخَرَ وَيَحْتَقِرُهُ ، وذلك  
لأنَّ أَحَدَ الْفَرِيقَيْنِ لَا يَفْتَنِي مِنَ الدُّخْنِ وَاللَّبَنِ وَحَدَّاهُمَا كَمَا أَنَّ الْفَرِيقَ الْآخَرَ  
لَا يَفْتَنِي بِلَحْمِ الْإِنْسَانِ فَقَطْ ، فَمَا تَحْمِلُونَ مِنْ حَقْدٍ عَلَى رَجُلٍ نَصَفَ خَصْمٍ لَكُمْ  
فَأَكْثَرُ مِنْ حَقْدِكُمْ عَلَى رَجُلٍ يَخَاصِمُكُمْ أَشَدَّ الْخِصَامِ ، وَيَهْزَأُ أَحَدُ الْقَبِيلَيْنِ<sup>(١)</sup>  
بِـ « الْبَطْلَيْنِ » ، وَيَهْزَأُ الْقَبِيلُ الْآخَرُ بِـ « الرِّجَالِ الْقَصَبِ » ، وَذَلِكَ لِلنِّسَاءِ الَّتِي  
يَحْمِلُهَا الدُّنْكَا فِي كُلِّ وَقْتٍ تَقْرِيكًا ، وَإِذَا مَا وَاجَهَ رَجَالُ هَذَا الْعِرْقِ ، الَّذِي  
هُوَ أَسْوَدُ عُرُوقٍ لِإِفْرِيقِيَّةِ الْوَسْطَى مَعَ شَرَارِيهِمْ<sup>(٢)</sup> الْكِرِيهَةِ الْحُمْرِ وَمَغَافِرِهِمْ وَرِيشِ  
قَلَانْسِهِمْ<sup>(٣)</sup> وَأَسْنَانِهِمُ الْمُشْدَبَةَ بِالْمِنْشَارِ ، أَسْكَالَةَ لَحُومِ الْبَشَرِ الَّذِينَ هُمْ أَكْثَرُ تَعْدًا  
مِنْهُمْ غَدًا رَأَيْنَا فِي الْقِيَمِ الْخُلُقِيَّةِ مِنَ الْمَضْحَكَاتِ .

وَإِذَا كَانَ أَسْكَالَةَ لَحُومِ الْبَشَرِ يَزْدُرُونَ الدُّنْكَا الَّذِينَ هُمْ وَحُوشٌ يَفْبُدُونَ الْبِهَائِمَ  
وَيَكْرَهُونَ الصَّيْدَ وَيَجْهَلُونَ آدَابَ السُّلُوكِ فَإِنَّ الدُّنْكَا مِنْ نَاحِيَتِهِمْ يَزْدُرُونَ الْجُورَ  
الَّذِينَ يُجْهَزُّونَهُمْ بِالْحَدِيدِ ، وَالْجُورُ يَتَّبِعُونَ النَّيْلَ وَمِنَاقِعَ النَّيْلِ الْمُتَقَلِّبَةَ وَمَنَاجِمَ  
الْحَدِيدِ فَيَتَعَبَّرُونَ ذَلِكَ النَّهْرَ فِي الرَّيْبِ وَيَقْمُرُونَ الْبِقَاعَ الْفَامِرَةَ ، وَالْجُورُ يَرْكُونُ  
فَحْمَ الْغَابِ وَالْمَعْدِنِ الْخَلَامَ الْمُحَطَّمِ فِي مَوَاقِدَ ابْتِدَائِيَّةٍ ، وَلَيْ هُوَ لَاءَ الْحَدَّادِينَ  
سَنْدَانٌ<sup>(٤)</sup> مِنْ حَجَرٍ وَمِدْقٌ حَدِيدِيٌّ مَرِيعٌ الزَّوَايَا عَاطِلٌ مِنْ مِقْبَضٍ وَقِطْعَةٍ خَشْيِيَّةٍ  
مَشْقُوقَةٍ عَلَى شَكْلِ الْكَلَابَةِ<sup>(٥)</sup> فَيَطْرُقُونَ بِهِ هَذِهِ الْأَلَاتِ حَدِيدًا مَتِينًا ، وَتَصْنَعُ

(١) الْقَبِيلُ : الْجَمَاعَةُ مِنَ الثَّلَاثَةِ فِصَاعِدَا — (٢) الشَّرَارِيْبُ : جَمْعُ الشَّرَابَةِ ، وَهِيَ عِنْدَ الْمَوْلَدِينَ ضِمَّةٌ  
مِنْ خِيُوطٍ يَطْلُقُ طَرَفُهَا الْوَاحِدَ بِالطَّرِبُوشِ وَغَيْرِهِ وَيَطْلُقُ الْآخَرَ — (٣) الْقَلَانِسُ : جَمْعُ قَلَنْسُوَةٍ ، وَهِيَ  
نَوْعٌ مِنَ الْمَلَابِسِ الرَّأْسِ ، وَهِيَ عَلَى هَيْئَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ — (٤) السَّنْدَانُ : آتَةٌ يَطْرُقُ عَلَيْهَا الْحَدِيدُ  
وَالْكَلِمَةُ مِنَ الْفَخْلِ — (٥) الْكَلَابَةُ أَوْ الْكَلْبَانِ : آتَةٌ مِنَ الْحَدِيدِ يَأْخُذُ بِهَا الْحَدَّادُ الْحَدِيدَ  
الْمُحْمَى .

نساوهم قراطيل<sup>(١)</sup> وسيلالاً كما يصنعن قرعاً وقلا<sup>(٢)</sup> ، ويوقض<sup>(٣)</sup> مخيم أولئك النور<sup>(٤)</sup> المرأة في الغاب إذا ما جمعوا من الحديد ما يكفي لصنع نصال<sup>(٥)</sup> ونبال<sup>(٦)</sup> وخلاخل<sup>(٧)</sup> وأسورة<sup>(٨)</sup> للدسكا .

وهكذا ترى قبائل السود حول النيل يحاولون رفع قيمتهم بتحاسد<sup>(٩)</sup>هم وازدراء بعضهم بعضاً كالأوربيين .

## ١٧

وفي أقصى شمال المناقع ، ونحو الدرجة العاشرة من العرض ، يمتد<sup>(١٠)</sup> هوز<sup>(١١)</sup> واسع<sup>(١٢)</sup> مماثل للأهوار الأخرى ، ولكن من غير أن تبصر غايته ، وذلك الهوز هو بحيرة نو<sup>(١٣)</sup> التي هي نقطة انطلاق جديدة للنيل ، والنيل<sup>(١٤)</sup> بذلك يبلغ الحد الغربي من مجراه في الدرجة الثلاثين من الطول الشرقي<sup>(١٥)</sup> التي تبلغ مرة أخرى بالشلال الثالث ، وبالتقرب من هذه البحيرة وإلى هذه البحيرة نفسها تنتهي الروافد الثلاثة التي تسين نظام مياه النيل ، ويرى مسير النهر في هذه البحيرة التي يحدث فيها عطفة مبالغته نحو الشرق حيث يداوم على اتجاهه ١٢٠ كيلومتر إلى أن يبلغ ملاكال فينسلك<sup>(١٦)</sup> سبيله الطبيعي<sup>(١٧)</sup> من الجنوب إلى الشمال ، وهكذا يلوح أنه يشتد<sup>(١٨)</sup> على مجراه العادي<sup>(١٩)</sup> شيئاً للسواعد الثلاث التي تهب<sup>(٢٠)</sup> له حياة جديدة .

(١) القراطيل : جمع القراطيل ، وهو السلة من قضبان أو قصب ، والعامية تطلقه على كل سلة .

(٢) القلا : جمع القلة ، وهي الجرة العظيمة ، والكوز الصغير — (٣) الهوز : البحيرة تجري إليها مياه غياض وأبام تفسح .



وَيَتَغَيَّرُ النَّظَرُ رَوِيداً رَوِيداً بِتَغْيِيرِ انْجَاحِ النَّيْلِ وَسَجِيَّتِهِ ، وَالْآنَ تَفْدُو الضَّفَافُ أَكْثَرَ وَضُوحاً وَأَعْظَمَ عَرَضاً عَنْ يَنْسٍ ، وَيَصِلُ النُّهْرُ إِلَى اتِّسَاعِ مِثَّةٍ مِثَّةٍ أَوْ يَزِيدُ ، وَيَكُونُ النَّهْرُ أَقْلُ أَزْدِحَاماً بِالْبَرْدِيِّ وَيَتَسَّعُ شَجَرُ السَّنَطِ مَطَالاً ، وَتَتَجَمُّعُ الْأَكْوَاخُ الصُّفْرَى الْمَدُورَةُ عَلَى شَكْلِ قَرْيَةٍ ، وَتَشْرَبُ الْمَاشِيَةُ الرَّمَادِيَّةُ اللَّوْنِ مِنَ النَّهْرِ وَتَحَافِظُ عَلَيْهَا كَلَابٌ صَغِيرَةٌ ، وَيُدْخُنُ الدَّنَكَا جَامِذِينَ بِالْقَرَبِ مِنَ النَّارِ وَيَنْظُرُونَ إِلَى نَسَائِهِمُ اللَّائِي يَسِرْنَ فِي الْوَحْلِ حَتَّى الرُّكْبِ وَيَمْلَأْنَ جِرَارَهُنَّ الزُّرْقَ مِنْ مَاءٍ ضَارِبٍ إِلَى صُفْرَةٍ ، ثُمَّ يَحْمِلُنَّ هَذِهِ الْجَرَّةَ<sup>(١)</sup> عَلَى رُؤُوسِهِنَّ بِجَهْدٍ وَيَرْجِعْنَ إِلَى الْقَرْيَةِ فَارِهَاتٍ<sup>(٢)</sup> ، وَإِذَا مَا وَقَفَ الدَّنَكِيُّ عَلَى سَاقٍ وَاحِدَةٍ مَنفَرِداً ظَهَرَ كَالطَّيُورِ الْخَوَاضَةِ الَّتِي يَقِفُ بَعْضُهَا بِجَانِبِ بَعْضٍ فَوْقَ مُسْتَنْقَعٍ .

ذَلِكَ هُوَ مَنْظَرُ الْمَكَانِ الْوَاقِعِ فِي غَرْبِ بَحِيرَةِ نُو الْأَقْصَى حَيْثُ يَلْتَقِي بَحْرُ الْغَزَالِ وَبَحْرُ الْجَبَلِ ، وَعَلَى مَا يُعَدُّ بِهِ بَحْرُ الْغَزَالِ مِنْ رَوَافِدِ النَّيْلِ تَرَاهُ عِمَاقاً ، فَيَمْتَدُّ حَوْضُهُ عَلَى الدَّرَجَةِ الْعَاشِرَةِ مِنَ الْمَرَضِ وَالدرَجَةِ التَّاسِعَةِ مِنَ الطُّولِ وَفِيهَا وَرَاءَ صَخْنِ الْبَحِيرَاتِ الْأَسْتَوَائِيَّةِ الَّتِي يُؤَلِّدُ النَّيْلُ مِنْهَا ، وَكَمَا فِي تَارِيخِ الْبَشَرِ يَتَوَرَّدُ النَّهْرُ أحياناً ضِدَّ الْمَبْدَأِ الْقَائِلِ إِنْ دَافَعَ الْإِيمَانُ<sup>(٣)</sup> أَقْوَى مِنَ الَّذِي تُؤَدِّي إِلَيْهِ ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ الْأَقْوَى غَيْرَ رَافِدٍ فَإِنَّ الَّذِي تَكُونُ حَيَوِيَّتُهُ أَعْظَمَ مِنْ سِوَاهُ هُوَ الَّذِي يَنْظَلُّ مَنْصُوراً ، وَيَعَانِي بَحْرُ الْغَزَالِ مَصِيراً مُؤْتَرّاً ، وَيَكَايِدُ بَحْرُ الْغَزَالِ مَغَامَرَةَ مَسْرَحِيَّةٍ قَبْلَ أَنْ يَدْنُو مِنَ النَّيْلِ ، وَبَحْرُ الْغَزَالِ أَكْثَرُ مَاءً وَأَشَدُّ كِفَاحاً مِنْ كُلِّ نَهْرٍ فِي أَوْرَبَةٍ ، وَيَحْتِجُ بَحْرُ الْغَزَالِ بِسِوَاعِهِ الْخَاصَّةِ وَحْدَهَا حَيَاةَ نَهْرٍ كَبِيرٍ ، وَيُصِصِرُ بَحْرُ الْغَزَالِ عِنْدَ انْصِبَابِهَا

(١) الجر : جمع الجرة — (٢) القاره : النشيط الخفيف — (٣) الإتاوة :

الخراج .

فيه سباسب<sup>(١)</sup> ذات أدواح<sup>(٢)</sup> ثم يُبصر الأيكة الكثيفة البكر حتى الخطأ  
الفاصل بين مياه الكونفو، ثم يُبصر في مجراه الأدنى اصطراع الماء والأرض كما هو  
أمر النيل .

والآن ظهر أمر الأقوى ، وعند ما يختر بحر الغزال مجراه واتجاهه وسجيته  
وتربكه الأسداد النباتية وجزر الكلا والشعب والجداول يضحى غرضة لفوضى  
المنافع ويضيع سلطانه ، فيترك هنالك ضمى ما يترك النيل ، وبحر الغزال بعد أن  
يقعدو عاطلاً من الضفاف ويدخل دوراً كبيراً من الانحلال لم يبق له غير  
مضيض فيلاقيه هذا المضيض الذى قاوم مثل تلك الميخنة ويقبله مترقفاً  
وينتفع به .

ولبحر الزراف الذى ينصب في النيل بشرق بحيرة نو وعلى ذلك العرض مغارة  
أيضاً ، وهو يخرج من منافع واقعة « فى مكان ما من مجرى أواى التحتانى » كما  
يقول الجغرافيون وكما يحدثون عن لقيط يجدونه ، وتوحي أضواجه فى بلد الأهوار  
بالافتراض القائل إنه تكون فى منافع زائلة ، وتوحي شياكه ضفافه المؤلفة من  
جذور متراكمة قديمة ، وإن شئت قل شعبه الممتدة إلى كل ناحية كشعب الرية<sup>(٣)</sup> ،  
وذلك عند النظر إليها من الطائرة ، بفكرة عن مرض كريد يقضم لحم  
ذلك البلد .

والسوبات أكثر الثلاثة وقفا للنظر ، وهو يصب في النيل حيث يسترد النيل  
مجره إلى الشمال قريباً من بحر الزراف التحتانى ، والسوبات هو الرافد الأول الذى

(١) الساسب : جمع السب وهو الأرض البعيدة المستوية — (٢) الأدواح : جمع الدوحة ،  
وهى الشجرة العظيمة للضمة — (٣) الرية : ضرب من حيوانات البحر الرخوة .

يَحْمِلُ إِلَى النِيلِ غَرِيْنَ الْحَبْشَةِ الَّذِي يَتَجَلَّى بِهِ شَأْنُهُ الْقَادِمُ ، وَيُمَثِّلُ السُّوْبَاطُ حَوْضًا عَظِيمًا ، وَهُوَ لَا يَتَنَاوَلُ مِنْ هَضْبَةِ الْبَحِيرَاتِ الْكَبِيرَةِ غَيْرَ جِزءٍ مِنْ مِيَاهِهِ ، وَهُوَ يَتَلَقَّى بَقِيَّةَ مِيَاهِهِ مِنْ جِبَالِ الْحَبْشَةِ الْعَالِيَةِ الَّتِي تَبْلُغُ ذُرَاهَا الْجَنُوبِيَّةُ الْغَرِبِيَّةُ مِنَ الرَّوْعَةِ الشَّيْءَ الْكَثِيرَ عَلَى رَوَايَةِ الْعَارِفِينَ بِهَا ، وَيَسِيرُ السُّوْبَاطُ عَلَى غِرَارِ أَنْهَارِ الْحَبْشَةِ الْأُخْرَى الْمُتَوَجِّهَةِ إِلَى النِيلِ فَيَقُومُ بِجَوْلَةٍ طَوِيلَةٍ فِي الْجِبَالِ فَلَا يَجْرَى فِي السُّهُولِ غَيْرَ زَمَنِ قَلِيلٍ لِلْمَلَاَقَةِ الْأَنْهَارِ الْآتِيَةِ مِنَ الْبَحِيرَاتِ الْكَبِيرَةِ ، وَيَسْقُ السُّوْبَاطُ طَرِيقًا لِنَفْسِهِ بِحَزْمٍ فِي جَرِيهِ الصَّائِلِ ، وَيَتَغَلَّبُ السُّوْبَاطُ عَلَى مُغَرِّبَاتِ حَيَاتِهِ الْمُقْبِلَةِ بِقُوَّةِ شَبَابِهِ الرَّاهِنِ .

وَعَلَى مَا يَتَّفِقُ لِلْسُّوْبَاطِ مِنْ ابْتِمَادٍ عَنْ أخطَارِ الْمُنَاقِعِ أَكْثَرُ مَا يَتَّفِقُ لِبَحْرِ الْغَزَالِ تَرَاهُ يَتَرَكُ هُنَاكَ كَثِيرًا مِنْ مِيَاهِهِ ، وَبِمَا أَنَّ ضِفَافَهُ أَكْثَرُ ارْتِفَاعًا مِنْ جَوَارِهَا لَا تَجْزُرُ<sup>(١)</sup> مِيَاهُ الْفَيْصَانِ إِلَى السُّوْبَاطِ بَعْدَ مَوْسَمِ الْأَمْطَارِ بَلْ تَقْلُ رَاقِدَةً مَدَى الْعَامِ مَا لَمْ يُجْرِهَا الزَّنُوجُ نِيْلًا لِلْسَمَكِ وَيُمَثِّلُ السُّوْبَاطُ ، مَعَ ذَلِكَ ، ١٤ فِي الْمِثَّةِ مِنْ مِيَاهِ النِيلِ فِي الْخُرُطُومِ .

وَفِي مَلَاكَالِ ، وَبَعْدَ تِلْكَ الْمُلْتَقِيَّاتِ الثَّلَاثَةِ ، وَحِينَ يَنْحَرِفُ النَّهْرُ نَحْوَ الشَّمَالِ ، يَحْمِلُ هَذَا النَّهْرُ اسْمَهُ الرَّابِعَ ، وَكَانَ هَذَا النَّهْرُ قَدْ دُعِيَ نَيْلَ فَيْكْتُورِيَّةٍ وَنَيْلَ أَلْبِرْتِ بَعْدَ اجْتِمَاعِهِمَا بِبَحْرِ الْجِبَلِ ، وَتُبْصِرُ النَيْلَ الْأَبْيَضَ بَعْدَ الْآنِ ، وَسَيَجْرِي هَذَا النَّهْرُ مُسْتَقِيمًا نَحْوَ الشَّمَالِ بِلَا رَوَافِدٍ ، وَذَلِكَ إِلَى أَنْ يُبْسِطَ اسْمُهُ أَغْرَبُ التَّقَايِ مُرَّةً أُخْرَى .

(١) جِزْرُ الْمَاءِ : انْحَسَر ، وَهُوَ رُجُوعُهُ إِلَى الْوَرَاءِ .

قُطِعَتِ الْمُنْطَقَةُ الْأَسْتَوِيَّةُ ، وَانْقَضَتْ مَغَامِرُ الشَّبَابِ ، وَيسيرُ نَهْرُ مِزْنٍ  
كَهْلًا إِلَى مَصِيرِهِ .

وَلدى النهر فيما بعد من الوقت ما يَذْكُرُ فِيهِ مَبَاغِتَاتِهِ مِنْ بَحِيرَاتٍ وَمَسَاقِطَ  
وَدَوَافِعَ وَمَخَاطِرَ مِنْ كُلِّ نَوْعٍ فِي الْمَنَاقِعِ وَكِفَاحٍ ضِدَّ الْأَهْوَارِ ، هُوَ لَيْسَ عَمِيقًا ،  
هُوَ يَبْلُغُ مِنَ الْعُمُقِ خَمْسَةَ أَمْثَارٍ عَلَى الْعُمُومِ ، وَمَتَرَيْنِ فِي بَعْضِ الْمَرَّاتِ ، فَتَنْشَبُ  
حَتَّى الْبَوَاخِرُ الْمُسْتَوِيَّةُ الْقَعْرِ فِي الرَّمْلِ أحيانًا ، وَهُوَ فِي الْغَالِبِ يَكُونُ عَرِيضًا  
كَأَحْدَى الْبَحِيرَاتِ ، وَهُوَ بِالْمَحْدَارِ مِائَتَيْنِ فِي الْكِيلُو مِترِ الْوَاحِدِ يَبْدُو مَا كُنَّا  
غَيْرَ جَارٍ مِرَارًا ، وَيَبْتَدِئُ السَّهْلُ الْوَاسِعُ الَّذِي يَتَحَرَّكُ فِيهِ النَّيْلُ بِلا خَطَرٍ وَلَا مَانِعٍ  
١٢٠٠ كِيلُو مِترٍ بَيْنَ سَفْحِ هَضْبَةِ الْبَحِيرَاتِ وَالْخُرُطُومِ فَيَحْدُهُ مِنَ الشَّرْقِ مُنْحَدَرَاتُ  
جِبَالِ الْحَبَشَةِ وَمِنْ الْغَرْبِ جِبَالُ نُوبَةِ وَتِلَالُ كُرْدُفَانِ ، وَمَا فِي ضِفْتَيْ النَهْرِ  
مِنْ تَمْوُجَاتٍ أَرْضِيَّةٍ خَفِيفَةٍ فَيَحُولُ دُونَ الْقَيْصَانِ وَيَمْتَنِعُ مِنْ نَشْوِ الْفُئْرَانِ  
وَيَكْفِي لَضَبِطِ النَهْرِ فِي مَجْرَاهُ وَجَعْلِهِ صَالِحًا لِلْمَلَاخَةِ ، وَهَذِهِ هِيَ النُّقْطَةُ الَّتِي أَتَيْتُ  
إِلَيْهَا مَعْرِفَةً بَعْضِ شُعُوبِ الْأُمِّ الْقَدِيمَةِ عَنِ النَّيْلِ .

وَالضَّمْعُ الَّذِي يُقَيَّدُ جَمِيعَ ذَلِكَ هُوَ الشَّهْبُ الَّذِي هُوَ لِلنَّيْلِ نَذِيرُ الصَّحْرَاءِ ، وَآيَةُ  
الْبُقْعَةِ تَتَجَلَّى فِي السَّنْطِ ذِي الْأَلْوَانِ ، فِي السَّنْطِ الْأَخْضَرِ وَالْقِصِيِّ وَالزَّمْلِيِّ الْأَصْفَرِ  
وَالضَّارِبِ إِلَى الْبَنْسَجِيِّ ، وَتَرَى أَمَامَهُ نِطَاقًا مِنَ الْحَصَائِدِ الذَّهَبِيَّةِ ، وَتَرَى بِالْتَرَبِ  
مِنْ الضَّفَافِ حَرَفًا مِنَ الْعُشْبِ الْأَخْضَرِ الْأَسْوَدِ وَقَلِيلًا مِنَ الْبَرْدِيِّ وَكَثِيرًا مِنْ

## السهب

أُمُّ الصُّوف ، وَتَرَى أَمَامَ هَذَا الْحَرْفِ وَعِنْدَ الْمَاءِ وَبَيْنَ مَكَانٍ وَمَكَانٍ صَفًّا مِنْ  
الطينِ الْأَسْوَدِ ، وَمِمَّا تَرَاهُ فِي شَهْرِ مَارَسٍ عَلَى الْخُصُوصِ ظُهُورُ الشَّهْبِ مُنَوَّدًا ،  
وَالسَّنْطُ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي يَبْدُو مُنْفَصِلًا عَنِ السَّهْلِ الْمُحْتَرَقِ ، وَمِنْ عَادَةِ الْقَبَائِلِ الْمُنْتَشِرَةِ  
عَلَى الصُّفْتَيْنِ حَرْقُ الشَّهْبِ ، وَهَذَا مَعَ اسْتِثْنَاءِ الْقَبَائِلِ الَّتِي تَتَمَتَّعُ عِنْدَ خَطِّ الْإِسْتِواءِ  
بِوَابِلِ يَوْمِيٍّ ، وَمَعَ مَا فِي هَذِهِ الْعَادَةِ مِنْ خَطَرٍ عَلَى شَجَرِ الشَّهْبِ تَجْدُّهَا مُتَأَصِّلَةً  
وَهِيَ تُفَسِّرُ بَعْجَزَ الْمَوَاتِي عَنْ قَطْمِ أَطْرَافِ الشَّهْبِ اللَّذِيذَةِ إِذَا مَا ارْتَفَعَ كَثِيرًا  
وَزَادَ كَثَافَةً .

وَلَيْسَ لِلشَّهْبِ سِوَى ضَرْبٍ مِنَ النَّاسِ الشَّتْوِيِّ ، فَلَمَّا يَفْعُرُهُ وَقْتُ ارْتِفَاعِ الْمِيَاهِ  
عَلَى عَرْضِ خَمْسَةِ كِيلُومِتْرَاتٍ ، وَيَقِلُّ الْمَطَرُ فِي أَثْنَاءِ السَّنَةِ حَتَّى كُوسْتِي ، وَكَلَّا نَزَلَ  
إِلَى الشَّامِ تَوَجَّعَ الشَّهْبُ مِنَ الْحَرِّ ، وَيَفْرُ الْحَيَوَانُ وَيَزْخَلُ<sup>(١)</sup> حَذُّ الصَّيْدِ .  
وَتَنْتَشِرُ عَلَى طُولِ النِّهْرِ مَرْتَفَعَاتٌ صَغِيرَةٌ ، وَيَبْلُغُ السَّهْلُ مِنَ الْإِسْتِواءِ مَعَ ذَلِكَ  
مَا يَكْفِي مَعَهُ ارْتِفَاعُ مَتْرَيْنِ لَتَعْيِينِ مَقَرِّهِ لِلْإِدَارَةِ ، وَلَا يَزِيدُ مِيلُ النِّيلِ عَلَى اثْنَيْ عَشَرَ  
مِثْرًا فِي ثَمَانِيَةِ مِثْرَاتٍ مِنَ الْكِيلُومِتْرَاتِ .

وَتَبْدُو أَشْجَارُ جَدِيدَةٍ حَوْلَ الرُّنْكَ أَيْ حَوَالَى الدَّرَجَةِ الثَّانِيَةِ عَشْرَةَ مِنْ  
الْعَرْضِ الشَّامِلِيٍّ ، وَإِذَا كُرُ مِنْ شَجَرِ الشَّهْبِ الْبَابُوبِ ، النَّبَاتِ الشَّخِينِ الْقِشْرِ ،  
وَيَزِيدُ عَرْضُهُ عَلَى عُلوِّهِ ، وَهُوَ بَيْنَ النَّبَاتِ تَجْوِيفًا كَالْخَطِيبِ الشَّعْبِيِّ بَيْنَ الدَّهْمَاءِ  
تَأْثِيرًا ، وَيُنْتَمِعُ بِقِشْرِ ثَمَرِهِ الضَّارِبِ إِلَى خُصْرَةٍ فِي إِعْدَادِ شَرَابٍ تَافِهِ .

وَفِي هَذِهِ الْبُقْعَةِ ، وَفِي مُسْتَقْبَلِ جَرِيَةِ النِّهْرِ حَوْلَ ثَوْنَةٍ ، تُبْصِرُ أُلُوفَ الْأَكْوَاخِ  
مُتَرَاصَةً فِي صَفٍّ ، وَهَذِهِ هِيَ مَسَاكِنُ الشُّلُوكِ الَّذِينَ دُحِرُوا مِنْذُ نَحْوِ مِائَتَيْ عَامٍ إِلَى

(١) زحل : تحول عن مكانه .

الشَّمال ، إلى منافع بحر الغزال ، ثم أسفر قَيْضُ السَّكان في تلك المِنطقة الضيقة الخصبية عن هِجرة قاموا بها حتى بحيرة أَلِيرت في الجَنُوبِ منتشرين تحت كل اسم ، وهكذا أَتَيْ رُعاة النيل البدويون هنا وهناك بين الجفاف والقيضان في صِراعٍ أبدى بين النهر والأطيان .

وَبَدَأَ كَرْنَا ذلك العِرْقُ الأصيلُ بما في القبور الفرعونية من المثال المصريُّ مع الأنفِ الأَقْصى للفصل عن الجِيبِ بأخدودٍ أعمقَ من أخاديد جميع الزوج الآخرين ومع الأسنان الجليظة والأرجل الصغيرة والحركات البطيئة كاللِّدْنِكا ، ولكن أولئك القومُ يَشُوهُون أنفسهم بَدَهْنُ أبدانهم وشعورهم بالسَّناج<sup>(١)</sup> حتى يصيروا سُمرًا سُمرًا ككلابهم السلوقية ، وهم من المَهْرة في صُنْعِ أَوْعِيَتِهِمْ وَأَكْوَاخِهِمْ ، وهم ينتفعون بالسَّنَط ، الذي يشتمل السودان منه على أحدَ عشرَ نوعًا كما يَرَوِي ، انتفاع إخوانهم من سكان خطِّ الاستواء بالطلح ، ومن السَّنَطِ يَصْنَعُونَ زوارقَ ودواليبَ وَوَقُودًا وَدِباغًا وَصَمغًا وَعَلَقًا .

وللمرة الأولى تَرَى الجَمَلَ ، الذي هو حيوانُ الشَّهْبِ والصحراء ، يأتي لِيَشْرَبَ على ضفاف النيل ، وتَرَى رجلًا معه يَدْنُو من النهر فيهين عليه بأحسن مما يمكن أن يفعله أكثر الزوج تفكيرًا ، وتَقُومُ الأَكْوَاخُ السُّكَّنةُ مقامَ الأَكْوَاخِ المستديرة ، ولم تَلَبَثِ البيوتُ المُكَلَّسةُ أن تنعكس على النيل ، ويخفى الرجال المرأة المطليئون ، وتَغْسِلُ نساءُ لابساتٍ ثيابًا مُلَوَّنةً ملابسهن في ماء النيل ، وَتُحِبُّ العذراء شاطئَ النهر راكبةً حمارًا مُحَجَّبةً بِخِمَارٍ<sup>(٢)</sup> أزرق ، وتُبْصِرُ إبراهيمَ ويعقوبَ بجانبها ، وتَسْلَعُ خيمةً بيضاء تحت وَهَجِ الشمس ويَخْرُجُ منها رجلٌ ،

(١) السناج : أثر دخان السراج في الحائط مثلا — (٢) الخمار : ما تغطي به المرأة رأسها .

لا يزيد لونه رَوْثًا عن لونٍ آخرٍ من لا قيناهم من الزوج ، ولكن مع لبسِه برؤسًا ، وتشاهد بجانبه غلامًا يسوق حصانًا أدهم ذا سنانك يبيض .

وتتوارى إفريقية الحقيقية ، أو إفريقية الوحشية ، مع انتهاء فتاء النيل ، ويلوح فجأة بلاد العرب في الأفق ، وتظهر نوبية مع كثير زيفان ، وتبدو ظافرة بوجودها الأثني فيما تقدم من الحضارات وما تأخر ، ويبرز بقر الماء من خلال الأمواج ، ولكن على قلة ، وهناك حيث يستقى الحمار والقرس والجمل من النهر ، وحيث تنتشر الأشربة<sup>(١)</sup> المثلثة تتقدم روح آسية المجاورة إلى النيل .

ويزيد النيل عرضًا مقداراً فهداراً ، وتلمع الأشربة البيض فوقه شيئاً فشيئاً ، وتكدس البراميل والصناديق في المَحَطَّات ، وتنتظر الباهرة ألوف أكياس القطن ، وتُخْرِجُ عَوَامَةً لَمَاعَةً بقهر النهر ، ويظهر جسر من قوره بعد عطفة خفيفة ، ويظهر قطار فوق الجسر ، وهذا هو أول جسر ، وهذا هو أول قطار ، وهما يقبران النهر منذ منبعه الذي يبعد ثلاثة آلاف كيلومتر من الجنوب في خط الاستواء ، وهناك منازل من ألواح حديد مُعَصَّنة ومُغَفَّ من حجر وصفارات الشرطة وطققة المجل ورائحة الزيت وعرق العامل وحركة تذكركنا بمرافق البحر المتوسط ، وهناك ، في كوستي ، يُنبِئُ كل شيء بإمبراطورية استعمارية جديدة ، وذلك مع مشاهدتنا عمود المِثْدَنَةِ الأولى الأهيف الرائع بدلاً من برج جرس الكنيسة .

وهنا ، وفي كوستي وبعد كوستي ، يقع فردوس جديد للطيور .  
وهنا ، في منتصف مجرى النهر ، تَرى الجنة الثانية للطيور ، وأما الجنة الأولى

(١) الأشربة : جمع الصراع .

ففي منبعه، وأما الجنة الثالثة ففي مَصَّبِهِ، وهنا يختلط الغرباء من الطيور بأهل البلاد من الطيور أكثر مما في أية جهة أخرى، وذلك لما تجده الطيور المهاجرة من الشمال من مسكنٍ شتويٍّ كبير بين الخرطوم وكوستي، وترى فوق الأرض والماء ما لا يُحصى من ذوات الرِّيش الأسود والأبيض، وتَسْتَرُ ذَوَاتُ الأجنحة الساكنة على مَدَى البصر الضَّفافَ الخُضَرَ والأَجْرَفَ<sup>(١)</sup> الصُّفْرَ وَصُفْرَى الجُزُرِ وصغيرَ الخُلُجِ<sup>(٢)</sup> ونخاوضَ النهر ومعابره، وتَمَلُّ الأَذَانَ والعيون بما يَصْدُرُ عنها من أصوات الاستغاثة وحفيف الأجنحة، ويَحْوِلُ صِغارُ الطير عن كِبَارِهِ الأَسْمَاعِ والأبصار كما تُحَوِّلُهُمُ الفِرَقَةُ الكثيرة الأفراد بآلاتها ذوات الأوتار عن صوت الصُّفْرِ<sup>(٣)</sup>.

ولا يَفِدُ أولئك الضيوف جِيعاً فأرَّين من الشمال، ولو كان نزوحهم عن برد وجوع لوجدوا الدَّفَّ والطعام فيما هو أدنى من هنا، وما كانوا لينادروا المكان الحارَّ الذي يعيشون فيه، ولم يَظَلُّ السُّنُونُ المِصْرِيُّ، الذي يَبْنِي وَكْرَهُ في يناير، حيث هو على حين يَطِيرُ السُّنُونُ الشَّامِيُّ بعيداً وبعيداً حتى خطَّ الاستواء؟ ومن البَطِّ بمِصْرَ الدنيا أنواعٌ تهاجر حتى بحيرة فيكتورية، حتى خطَّ الاستواء، بالغة في طَيْرَانِها ما يَعْدِلُ سُدُسَ استدارة الكُرَةِ الأرضية، ومن البَجَجِ<sup>(٤)</sup> أنواعٌ، كالصُّفْرِ<sup>(٥)</sup> تَرَكُّضُ من الشمال، وفي جميع الطريق، على أرجلها ما لم يُكْرِهها البحر على الطيران، وما الذي يَدْفَعُها إلى ترك غلبِ الزَّيْتِ<sup>(٦)</sup> والصَّنَوْبَرِ قاصدةً

(١) الأَجْرَفُ : جمع الجرف، وهو الجانب الذي أسكله للماء من حاشية النهر — (٢) الخليج : جمع الخليج — (٣) الصُّفْرُ : النحاس الأصفر — (٤) البَجَجُ : طائر عريض المنقار طويله، له حوصلة عظيمة تحت منقاره، واحده بججة — (٥) الصُّفْرُ : طائر كاللوى يضرب به للتل في الجبلين — (٦) الزيت : شجر كانوا يسلون منه الريح.



شجرَ السَّنط والطلّح ؟ وما هو السبب في هجرة الجميع وعدم رَحْمِهِ <sup>(١)</sup> ؟ إن الراحة مع الطعام هدَفُ أولئك ، وإن الحُبَّ مع الزواج خاصٌّ بالشَّمال ، ويرى أولئك ، مع ذلك ، أن إخوانهم من طيور البلاد الأصليين يَقتَرنون ويَحْتَضِنون ويُطْعَمون صفارهم .

وتُثيرُ زيارة هؤلاء الأقاربِ الأبعدِ حَذراً كبيراً لدى الطيور التي تأتي إليها ألوفاً مؤلفةً كما تُثيرُ زوارُ الآدميين فيما بينهم ، ولا يَحْتَطِلُ الصَّرَدُ <sup>(٢)</sup> المرتشِ ريشُ رأسِهِ ، والسَّيْلُ الساطعُ ريشَهُ كالحُلِيِّ ، والشُّحُرُورُ الذهبيُّ ، والخَطَافُ الليليُّ ، بطيور البلاد ، ولا تُهاجِمُ طيورُ البلاد تلكَ الطيورَ ، ولكن مع ابتعادها عن هؤلاء الدُّخلاء من أبناء عمها ، ومن المحتمل أن يَدَّهَشَ الشاهمين من صِفَرِ أخيه الصَّقرِ الثَّوبِيُّ ذى العُنُقِ الأحمر ، واسْمَعْ ما هو أعظمُ من ذلك ، فإني البلد من لَقَلَقَ ونَوَّرِس <sup>(٣)</sup> وسُنُونُو فيُخَلِّي مكانَهُ مع الحَذَرِ لإخوانه الآتين من أوروپة ذاهباً إلى الجَنُوبِ ، حتى إن ذا العُرْفِ مِنَ الكَرَاكِيَّ لا يُسَرُّ وقت انخريف برود الكَرَاكِيَّ الرَّمَادِيَةِ اللون التي تأكل من الحبوب ما لا تَسْمَعُهُ أُذُنٌ بِحُجَّةِ نَسْلِ الريش ، حتى إن الفلاح يُفَضِّلُ عليها البارَّ الذي يسير سيراً معقولاً فيفتدى بالجراد .

وهكذا تعيش هذه المليارات من الطيور ، التي هي شعوبٌ حَقِيقَةٌ للقمامات والقَوَات ، بلا كفاح على مجرى النيل الأوسط وعلى مَسَافَةِ ضيقة ضيقاً نَسِيئاً ، وتلك هي حالُ فِرْدَوْسية لدى الحيوان ، ولدى الزَّنْحِيِّ جَزِيئاً ، مفقودةٌ لدى الإنسان الأبيض ، ويَذْهَبُ عن بال أنبياء حرب البطولة الذين يَدْعُونَ طَوْعاً إلى التنازع في

(١) رخت الدجاجة البيض : حضنته — (٢) الصرد : طائر ضخم الرأس أبيض البطن أخضر الظهر يصطاد صفار الطير — (٣) النورس : طائر مائي في حجم الحمام أو أكبر يلو في الجو ثم يزرع قشقه في الماء ، ولا يأكل غير السمك ، ويدعى أيضاً زمج الماء .



۸ — البردی



سبيل البقاء ضمن الطبيعة أن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يحارب جنسه الخاص على مقياس واسع ، وهناك يمكنهم أن يروا ما يسود تلك الأمم الحلية والغازية من اتفاق ومن بقاء اغتذاء بعضها بجانب بعض

والبجع مُسَلٍّ ، فهو يصطاد ويأكل ويهضم مشتركاً ، والناظر يُظن أنه يرى سوراً أحمر أصفر من حجارة مدقوقة دقاً غريباً ، وهذه هي أصول يجمع شبه نائم شبه جامد ملتوي العنق ، ثم يتجلى لك بها حال أساتذة شيب بدن<sup>(١)</sup> يأخذون في الرحيل متايلين ، فطوراً يبدون فلاسفة صامتين ، وطوراً يبدون مجادلين صاخبين ، ويرفع البجع أكفّه الكبيرة التي لها لون اللحم فيقترب من مكان يكون عمق الماء فيه قليلاً ليدخر كتائب من السمك في حوصلته العظيمة تحت منقاره ، شأن الأولاد الذين يجمعون ثوتاً في جيوبهم فيأتون به إلى بيوتهم .

وينتصب الطوال<sup>(٢)</sup> على أرجل وقوراً في وسط النهر على رمل الجُريرات الذهبية أو على كلا الصفاف ، وإنه كذلك إذ يتحرك تبعاً لإشارة لم تشعر بها ، وهناك تحدث صجة فيرتفع كسحاب ذا صوت لطيف ، فتتألف خطوط مائلة ميلاً خفيفاً وتغيب داخل الأرض ، ويتسلل خفية فوق رؤوس السنط وفوق ذرا القصب اليابسة ويمود كما ذهب ويدور على محالة المفصلة ويهبط ، والآن يظهر منتصباً على أرجله مجدداً ساكناً كماثيل من برونز .

وتصل الكراكي الرمادية من الشمال ذات رؤوس صغيرة متعاظمة ومناقير قوية فمالة ، ويستتر ريش أسمر لامع حذبة ظهرها للنسجمة ليصل إلى ذنب أشد اغبراراً ، وتنزل بانتران وتكتنفها أجنحتها الواسعة ، وتظهر التالق بجانب

(١) البدن : جمع البادن - (٢) الطوال : طير مفرط الطول .

الكَرَاكِيَّ حَضَرَيْنِ صَفَارًا سُودًا وَبَيْضًا ، وَهِيَ جَلِيلَةٌ فِي طَيَّارِنَهَا وَإِنْ لَمْ تَكُنْ  
بَاهِرَةً الْجَمَالَ ، وَيَبْدُو أَبُو مِلْعَقَةٍ مِنْهُمْ كَأَنَّهَا بِالقَرَبِ مِنَ الْمَاءِ قَعِبَتْ بَيْنَهُ زَمَارُ الرَّمْلِ  
وَالْمَطْوَقُ عَنْ مَرَحٍ ، وَيَطِيرُ أَسْرَابًا فَوْقَ النِّهْرِ مَعَ انْحِرَافٍ عَجِيبٍ لَا يُعَدُّ لَهُ أَبَدًا ،  
وَيَقَالُ إِنَّهُ يَأْتِي مِنَ بَرْوَسِيَّةٍ ، وَتَرَى عَلَى حِجَارَةٍ أَمَامَ الْكُشْبَانِ ذُرَّةً رَائِمَةً  
تَشْرَبُ عَلَى جَرَعَاتٍ صَغِيرَةٍ فَيَنْسَبِحُ أَمَامَهَا إِوْرُ النِّيلِ ثَقِيلًا غَيْرَ ظَرِيفٍ كَالْمُرِّيَّاتِ  
الشَّائِبَاتِ اللَّائِي يَتَقَدَّمْنَ الطَّالِبَاتِ مِنَ الْقَتِيَّاتِ .

وَيَسْتَمِرُّ الْإِيسُ الْمَقْدِسُ عَلَى الدَّوْرِ فَوْقَ النِّهْرِ نَاشِرًا جَنَاحَيْهِ نَشْرًا ظَرِيفًا مَادًّا  
عُنُقَهُ مَضُوبًا مِنْقَارَهُ الْأَحْجَنَ<sup>(١)</sup> إِلَى السَّمَاءِ ، وَتُبْصِرُ لِجَدَاجِ الْمَاءِ وَلِلْبَطِّ مِنْ كُلِّ  
لَوْنٍ وَنَوْعٍ غَضَابِيٍّ بَيْنَ الْأَسَلِ<sup>(٢)</sup> عَلَى الصُّفَافِ ، وَتَسْبَحُ هَذِهِ الطُّيُورُ هَادِئَةً بَيْنَ  
ذَوِي الْوِجَاهَةِ مِنْ أَسْرَتِهَا ، وَيَطِيرُ الْخَطَّافُ الَّذِي لَا يَكِلُ فَوْقَ الْمَاءِ وَالْحَقُولُ طُولَ  
النَّهَارِ مَرْتَفَعًا بِسَهُولَةٍ فِي السَّمَاءِ الزَّرْقَاءِ الْقَيْمُوزِيَّةِ حَيْثُ الْبَاشِقُ يَرْتَقِبُ سَاكِنًا إِلَى  
أَنْ يَنْقَضَ كَالْقَضِيبِ عَلَى فَرِيستِهِ ، وَتَمُرُّ صَقُورُ صَفَارٍ كَالسَّهَامِ الْفِضِّيَّةِ فَوْقَ  
طَائِفَاتِ السَّنَطِ عَلَى حِينٍ تَصْعَدُ قَرَقَرَةَ الْقَمَرِ الْبَرِّيَّةِ مِنْ بَيْنِ الْغِيَاضِ الَّتِي تَحِيطُ بِهَا .  
وَيُكْرَدِحُ<sup>(٣)</sup> الشَّنَقَابُ وَالنَّبَّاحُ ، وَهِيَ ذَوَا صَوْتٍ مُسَلٍّ ، عَلَى الْأَكْثَبَةِ الضِّيْقَةِ  
حَيْثُ لَا مَكَانَ لِكِبَارِ الطَّيْرِ ، وَيَخْرُجُ الْمُدْهُدُ مِنْ دَعَلٍ<sup>(٤)</sup> وَيَقِفُ عَلَى  
الْأَرْضِ وَيَنْسُطُ عُرْفَهُ الدَّقِيقَ وَيَنْشُرُ ذَنَبَهُ وَيَعْرِضُ هَيْفَهُ ، ثُمَّ يَطِيرُ لِبَضْعِ ثَوَانٍ  
وَقَفًا لِلنَّظَرِ فِي مَكَانٍ آخَرَ .

(١) الْأَحْجَنُ : الْأَعْوَجُ — (٢) الْأَسَلُ : نَبَاتٌ دَقِيقُ الْأَغْصَانِ طَوِيلُهُمَا — (٣) كَرْدَحُ :  
عَدَا عَدُو الْقَصِيرِ — (٤) دَعَلٌ : الْعَجَرُ الْكَثِيرُ لِلْمَلَفِ .

يظهر الإله الجديد من بين الأقواس القريية ويدنؤ من النيل والعا بد في طريقه إلى الشرق وقبل عبوره النهر يزكع على العشب الأخضر لابساً ثوباً أبيض وعِماتةً بيضاء ، ثم يفصل رجله في النيل ، قبيدو وحيداً أمام هذا المنظر الصحراويّ الأصفر والأزرق الذي يميز بوضوح في الهواء الشفاف الصافي ، وتُحيم زمر من الناس على ضفة النهر العالية . وبين الكُشبان والتلال ترعى الوُسمة<sup>(١)</sup> الخضراء قطاع من المَرز الأبيض والأسود بقيادة بضعة رعاةٍ لابسين جلايب بيضاء ، وفي النهر تستقي مئاة الإبل من الماء حتى الركب ، وتنتظر توبتها جمال أخرى بحراسة رُعيان رُكبان خافضة رؤوسها غير متعجلة حائرة على النمط الشرقى ، وتشرب بجانبها أفراس حرسها من ذلك الماء الأصفر ، والماء هو هو على الدوام ، وضيوفه هم الذين تغيروا ، والخليل والإبل هما آية مجرى النيل الأوسط ، وهنا يلوح كل شيء مطمئناً هادئ البال ، وفي النهر ترتفع الجزر المستورة بنبات كثيفة كالإهات ساكنة فتزيد ما توحى به الحياة الواسعة المترتبة الشرعية .

ولا يزال الماء يجرّف أكداساً من البردى ، وتبدؤ أكداس البردى هذه كجزر عائمة وكآخر شهود على اعتراك المنافع وكأسارى حرب كبيرة يعودون إلى عالم تسوده سلم فلا يستطيعون أن يجدوا لأنفسهم نافذة يلائمونه بها ، ولا تقدر تلك الأكداس على معرفة نهر مضطهد كانت عالمة به ، أو على تبين نهر يسير الآن جليلاً بين حقول الذرة القريية من أهرام الحب للركوم والتي يفصل الماء

(١) الوسمة : ورق النيل ، أو نبات يختضب بورقه ، ويقال هو العظم .

يلوح كل شيء سعيًا

الصابى بين تَلَمَّها<sup>(١)</sup> الأخضر والشَّهْبِ ذى الرمل الأصفر .

ويَظْهَرُ كلُّ شيءٍ من شَجَرٍ ودارٍ وإنسانٍ وحيوانٍ منفصلاً بَعْضُهُ عن بعضٍ في الثَّوَرِ الباهر ، وَيَظْهَرُ كلُّ شيءٍ بِذلك رَمَزاً أو فِكْرةً أو صورةً عن جميع الأشجار والمنازل وعن جميع العُباد والإبل في عالم الضياء والرمل ذلك ، وهنا يسير كلُّ شيءٍ على رِسلِهِ<sup>(٢)</sup> ، والسفنُ الشراعية وحدها هى التى تُسرِعُ بفعل الرياح ، ولا مناصَ للرجل المدير لَدَقْها من أن يكونَ شديداً اليقظة اجتناباً للضاحض الكثيرة المتقلِّبة فى النيل ، والشاطئُ أَقلُّ حرارةً مما يُنتَظر ، فن خواسٌ انحدار الماء على شكل سَحاظٍ أن يُرَطَّب ريحٌ بلاد العرب المُحرِّقة .

وفى حياة الأحلام هذه ، وفى رواية الناس والطيور هذه ، يَلُوح كلُّ شيءٍ سعيًا خلا خالقَ هذه الحياة ، خلا النيلَ ، والنيلُ مغمومٌ ، والنيلُ يَشْرُ بأن قوةَ تَقِيهِ ، والنيلُ لا يَعْرِفُ أيةَ قدرةٍ خفيةٍ تقاتله ، وكلما امتدت مياه النيل صَيِّفاً قَدَسَ له أهله ، فإذا حَلَّ فصلُ الخريف وتقلَّص النيل أتى أولئك السكان حيويتهم وحصدوا ما زرعوه بعد ثلاثة أشهر ، ويَجْهَلُ النهر ذلك ، وكلُّ ما يَعْرِفه هو أن نظامَ جِريته يَقْضِ عليه بأن يداوم على النزول ، وهو ، مع ضَعْفِ انحداره ، يحاول أن يَتَغَلَّبَ على القوة التى تقاومه ، بيدَ أنه يَنْسَعُ بنسبةٍ تقدمه ، فيتَحَوَّلُ البلدُ إلى بحرٍ صغير ، لا إلى غدير ، وتنصب على بُدٍ جُدُرٌ وأبراجٌ أعلى وأوسعُ من جميع ملاقاه حتى الآن ، وهو يَدُنُّ من مدينَةٍ ، وهو ينطلق ليرى أموراً أخرى .

وتَزِيدُ المقاومةُ ، وَيَنْقُصُ ضَغْطُهُ الخاصُّ مقداراً فقذاراً وتَغْطُمُ الأبراجُ

(١) التلم : ما يشقه محراث الفلاح من الأرض — (٢) سار على رسله : متى على مهله .

والصُّرُوح<sup>(١)</sup> ، وَيَزِيدُ عدد الرجال والجمال والأحمال والزُّبُن ، وَيَسْمُرُ النيل بهديرٍ لا ينفكُ يَكْبُرُ ، وهذا هو أَشدُّ من كلِّ ما سَمِعَهُ ، وهذا هو صوت نهر يساويه .

ويجاوز النيلَ جِسْرٌ ذو سبعة أعمدة مضاعفة مَفْرُوزة في مجراه فتَهْتَزُّ هزًّا خفيفًا إذا ما طُفِطِقَتْ عَرَبَاتُ القِطَارِ فوقه ، ولا تزال تُرَى أمواجٌ قليلة ، ثم يَهْجُمُ على النيل من ناحية اليمين نهرٌ يَمْدِلُهُ عَرْضًا ويفوقه صَوْلَةً ، وذلك النهر الهمجى القائم الباسل المَزِيدُ هو الذى كان يَقِفُ جَرِيَهُ منذ زمن !

وينطلق النهر الغريب من تحت جسرٍ طويل عالٍ كالنيل له ، وَيَصْفُطُ النيلَ الأبيضَ العريضَ فى مَضِيْقٍ ضَيِّقٍ على ضِفْتِهِ الغرية وَيَنْقَعُ على جزيرة دائمة الخضرة ذاتِ حَفِيفٍ ، ثم يَقْذِفُ الآخرَ أمامَ لسانها القاني<sup>(٢)</sup> بأمواجه الهائلة ، وما كانت مياهُ أحدهما لَتَمَرَّجَ<sup>(٣)</sup> فى مياه الآخر بعد ، فالجَرَى السريع القائم يَهَيِّمُ على النيل حينًا من الزمن ، وما كان ذلك رافدًا عاديًا ينتهى أمره فى مَصْبِهِ ، بل هو قَرْنٌ<sup>(٤)</sup> يعامل النيلَ معاملةَ النظير للنظير عن زَهْوٍ وغريزة لى يحبب العالمَ معه جَوًّا مشتركًا ، وهو يأتى بِذِكْرِيَّاتِ جبالٍ شابهة التى لا يزال خافيًا والذى سيفقدو مُوَلَّدًا للحياة عما قليل .

وهكذا يلتقى النيلُ الأبيضُ والنيلُ الأرزقُ تحت تَخِيلِ الغُرُطوم ، وهكذا يُوجِدَانِ بِمَناقِمِهِمَا الأُخْرَى مَكَانًا من أروعِ بَقاعِ الدنيا ، وَيُسْتَفِرُّ اتحادُ مقاديرهما عن وجودٍ مصيرٍ مصر .

(١) الصُّرُوح : جمع الصرح ، وهو البناء العالى — (٢) القاني : نبة إلى الغابة .

(٣) مَرَجَه : خلطه — (٤) القرن : النظير .





## الجزء الثاني أوحش الأجوين

« بَيْدَ أَنْ الْوَادِيَّ الْوَارِقَ<sup>(١)</sup> لَا يَقْنَهُ ، بَلْ  
يَقْذِفُ السَّهْلَ بِمَجْرَاهِ الْمُلْتَوِي ، وَتَضُمُّ الْجَدَاوِلُ  
أُمُوجَهَا إِلَى أُمُوجِهِ ، وَيَعْتَرِ بِفَلَاحِ<sup>(٢)</sup> الْفِضِّيَّةِ  
فَيَدْخُلُ السَّهْلَ ، وَيَعْتَرِ السَّهْلُ بِهِ وَنُحْيِيهِ أَنْهَارَ  
الرَّيْفِ وَجَدَاوِلُ الْجِبَالِ فَرِحَةً وَتَهْتِفُ قَائِلَةً :  
أَخِي ! أَخِي ! خُذْ إِخْوَتَكَ مَعَكَ وَأَتِ بِهِمْ جَمِيعًا  
أَبَاكَ السَّائِبَ : الْحَبِيطَ الْخَالِدَ »  
« غَوْتَهُ »

---

(١) الوارق : الكثير الورق الأخضر الحسن — (٢) الفلاك : جمع الفلك ، وهو من النهر  
موجه المستدير المتردد .





٩ — دهاب إلى الصيد



الرياحُ سَبَبُهُ ! ومن أين يأتي المطر لولا وجودُ الرياح الموسمية ولولا وُصولُها في الوقت المناسب وفي الاتجاه المُرْتَقِب ؟ والنيلُ الأزرق وليدُ المطر والجبل ، وما مَصْدَرُ معجزة هذا النيل الثاني إلا تنازعُ العناصر والبراكين وما عليها من سحب مزدحم ، ولولا جبالُ الحَبَشَةِ الشَواهِقُ ، ولولم تكن هذه الشَواهِقُ براكينَ تنحطِمُ عليها الرياح وتصبُّ عليها سيولُ الماء ، ما تَكُونُ هذا النهر مُنْسَابًا كالحية نحو السهل ، آخذًا من الحواجز الصخرية أجزاء معدنيةً تؤدي إلى إحياء الصحراء بعد ألف ميل . وتتحوّل تلك الأجزاء إلى غِرْيَيْنِ ، والغِرْيَيْنِ إلى واحةٍ ، ومصرُ ، حين تَبْنِي من الجَدْبِ البعيد التَدْيَ في المكان والبعيد الأمدِ في الزمان ، تراها مَدِينَةً في كِيانها للبراكين والسَّحْبِ والأمطار والرياح ، وإذ أن عمل العناصر ذلك بتجدد بانتظام في غضون القرون وتحت أعين الناس في كلِّ عامٍ فقد أسفر تناسقُ التَدْيِ والجَزَرِ هذا عن معرفة الشهور ومنازل القمر للمرة الأولى وعن أول دراسةٍ للشمس والسيّارات وعن أول تنظيمٍ وأول حَقٍّ ، والفلاحُ ، كما في كلِّ بلدٍ آخر ، يَرْتَقِبُ المطر ، وكان رجال الصحراء أولئك ينتظرون واقفين في مجرى النهر وُرُودَ القِيضَانِ الحَبِيثِ الذي لولاه لَهَمَكُوا ، ولا يزالون يصنعون ذلك حتى الزمنِ الراهن .

ومن أين تأتي تلك الرياح ؟ يجب أن تتصادم هي ورياحٌ أخرى ، وأن تُدْعِنَ لها جَلْبًا للمطر ، والمقاومةُ وحدها هي التي تَجْعَلُها ملائمةً ، وفي الشتاء تأتي رياح الشمال الشرقي الموسمية بالمطر من آسية إلى البحر الأحمر ما دامت الريحُ الشمالية تهبُّ ،

ولكن مع جفافها تقريباً حين بلوغها الهضاب العالية في الحبشة ، وفي الربيع ، حينما تهبُّ الرياح الجنوبية الغربية من جنوب الأطلنطيّ وفوق إفريقيا ، تُضيف إلى ندوة البحر جميع رطوبة الغابة البكر في خط الاستواء ، وهكذا تجوب السودان مثقلة حتى تلتطم الجبال التي تنتصب أمامها وتفرغ ما يحمله البخار من ماء منقول في ألوف الكيلومترات عند مس تلك الجذور الوعرة ، ويقول الفلاح الحبشي إن المطر يأتي عند ما تهبُّ الرياح من تلقاء الصحراء ، ومثل هذا ما يقوله مهندسو دلتا النيل الذين يستندون في حساباتهم إلى تلك الرياح .

وهكذا تؤدي رياح إفريقيا إلى وجود النهر الإفريقي في المكان الذي ينم فيه على القرب بالإحصاب ، ولا تتخلّى هذه الرياح في غير الخريف عن موضعها لأخواتها القدوات ، أي لرياح الشمال الجافة المرسلة من الهند ، وتؤثر كل من الرياح والجبال في الأخرى ، ويوجب ارتفاع هذه الجبال ووعورها امتداد فصل الأمطار وإن ساعدت الرياح على شكل ذرأ الجبال الغريب ، ويقلب المطر المواسم رأساً على عقب حين ينظمها ، أي إنه يتفق للهضاب الوسطى العالية ، التي يتراجج ارتفاعها بين ألفي متر وثلاثة آلاف متر ، شتاءً كثر<sup>(١)</sup> من غير أن يكون بارداً أبداً ، وذلك لعدم ميل أشعة الشمس كثيراً في الدرجة الثانية عشرة من العرض ، ولأن المطر يلطّف حرارة الصيف من ناحية أخرى فتوازن أحوال الجو التي لا يزيد اختلافها على سبع درجات في السنة .

ويفرح الفلاح المصري بنتائج ذلك المطر في شهر أكتوبر ، ويفرح بها الفلاح الحبشي قبل ذلك بقليل وقت ، ويكتسب ذلك المطر شكلاً هائلاً للحبشي مع

ذلك ، فُتْسِفِرُ الأعاصير التي يَكْثُرُ وقوعها هنالك بأشدَّ مما في أيِّ مكانٍ آخر ، ويُتْسِفِرُ المطر الجارف والبرَد اللذان يأتیان ويتواريان بفتة ككلِّ شيء في ذلك البلد العجيب ، عن هلاكٍ كثير من الإنسان والحيوان والمساكن ، وتَقْتُلُ الصواعق مئاتٍ من الآدميين في كلِّ عام ، وَبَلَغَ ما نَار من العواصف في سنة واحدة أَرْبَعَمئة ، وَلَمَّا يَمُضِ زمنٌ طويل على أمر النجاشي بإقامة الصَّلوات العامة بسبب كثرة الأشخاص الذين قَصَّت عليهم الصواعق .

وَيَصِلُ المطر في الوقت المعين دَوَّماً ، وتَسْبِقُ المطرَ هَمَّراتٌ <sup>(١)</sup> خفيفة ، وَيَبْلُغُ المطرُ أَقصى قُوَّتِهِ في وَسَطِ شهر يونيه كما تدلُّ عليه سجلات المصريين منذ أُلُوف السنين ، ولكن مع كبير اختلافٍ بين مقادير ما يَنْزِلُ منه في كلِّ سنة .

والجبالُ ، وهي عنصر التذكير في هذا الاقتران ، تَقِفُ رواسخُ ، ومن المحتمل أنها لم تتغير في ملايين السنين القليلة الأخيرة ، والبحرُ والغابةُ البكرُ ، وهما عنصرا التأنيث في هذا الاقتران ، وهما أَقلُّ ما يَعْرِفُ عنه الإنسان في السكرة الأرضية ، يُحْمَلَانِ الرياحَ كثيرَ رطوبةٍ أو قليلَ نُدُوقةٍ ، وما أَكْثَرَ الشعوبِ المصريةَ ، وما أَكْثَرَ أجيالِ المصريين ، التي دَرَسَتْ هذه المسئلة الحيوية من غير أن يمكن البَصْرُ بمقدار ارتفاع الفيضان في العام القادم ، وكان أحد الفيضانات ضعفي ما للآخر في أربع سنوات متوالية ، أى بين سنة ١٩٠٤ وسنة ١٩٠٨ .

والنيلُ الفائض في مَسَيطِ رأسه ليس مُنْقَذاً كالنيل الفائض في مصرَ ، والنيلُ والمطرُ في الحبشةِ إلهان هائجان ، ويَخْرُجُ من مِنطَقة بحيرة طانة ، حيث ينال النيلُ منبعاً له ، رافدان مُهمَّان من روافده كما يَخْرُجُ منها عددٌ من سواعده الصغيرة ،

(١) الحمرة : الذبقة من المطر .



والعطبرة وحدها هي التي تجري نحو الشمال ، وتظلُّ جميع المجارى النهرية تلك جافةً بعض الجفاف في فصل الشتاء ، وتكون الروافد رملية في الغالب ، وتكون العطبرة مرْمَلَةً على الدوام ، وتُفَرِّضُ البدَاوةَ على شعوب ذلك البلد إِذَنْ ، وتُضَيِّقُ هذه الشعوبُ أشهرَ الجفافِ التسعة بالقرب من الأمكنة المشتملة على ماءٍ قليلٍ والتي يُمكنُ الإنسانَ والحيوانَ أن يعيشا فيها ، وتكثرُ إحاطةُ الآجامِ بالأنهار والضفاف المغمورة الدنيا ، ويجري النيل الأزرق والعطبرة في مضائق عميقة ، وهما لا يفيضان تقريباً ، وهما ينفصلان عن الشهب أو الصحراء بطرائد<sup>(١)</sup> ضيقة ، ويَنبُتُ السَّنَطُ على شفير<sup>(٢)</sup> الجداول الأقلِّ مياهًا كما تَنبُتُ النَّخْلُ ، وما تحت الأرض من مياه في إفريقية فُذِينَ في الغالب للأنهار بوجوده ، وتُمَدُّ هذه المياه كثيراً من الآبار .

ويُفَضِّلُ أهلُ البدو من العرب أن يَنْصِبُوا خيامهم في المدَوَاتِ<sup>(٣)</sup> المرتفعة ، ولا سيما القرية من المجارى حيث تكون الينابيع أكثرَ مما في الصحراء التي يأتون منها ، وهم يَحْمِلُونَ مع نساءهم وأولادهم وجمالهم ومَعَزِهِمْ ، وهم يَتَقَتِفُونَ ثَمَرَ الدَّوْمِ<sup>(٤)</sup> ويستخرجون منه طَحِينًا عَليكَاً يَخْلِطُونَهُ بِاللَّبَنِ ويصنعون منه أقراصاً ، وهم يَخْتَبِطُونَ سُوفَ<sup>(٥)</sup> السَّنَطِ فيكون لأنعامهم بها طعامٌ زَبَقٌ على حين يكتفى الجمل بالفروع الشائكة اليابسة ، وهم يَرْتُقُونَ ، أخيراً ، خِيَامَهُم المصنوعة من أوراق النَّخْلِ ، وهم يَنْفَعَمُونَ بليف النَّخْلِ في صُنْعِ حُصَرِهِمْ وجمالهم ، ولهم بِيَرَكُ الماءِ

(١) الطرائد : جمع الطريدة ، وهي شقة مستطيلة من الحرير أو الأرض أو سواها .

(٢) الشفير : من الوادى ناحيته من أعلاه (٣) المدوات : جمع المدوة ، وهي شاطئ

الوادى وجانبه — (٤) الدوم : شجر يشبه النخل — (٥) السوف : جمع السنف ، وهو قعر النبات .

الموجودة هنالك عنصرٌ أساسيٌّ في حياتهم .

والتماسيحُ في هذه المغايط <sup>(١)</sup> تنسى الجفاف ، فتقفى الشتاء نائمةً ، وتشرب الألوْف من القمرِ والقطأ ، غير خائفةٍ ، من الجدوال التي تنام التماسيحُ فيها ، حتى إن الغزالان التي هي أكثر الحيوانات نُفوراً تردُّ قبل طلوع الشمس وقبل غروبها بساعةٍ واحدة ذلك المورِد الهزيل الذي يتركه النيلُ وراءه .

والأخفار <sup>(٢)</sup> مصدر الأخطار لما تجتذبه من الضواري فضلاً عن الإنسان والواشي ، والعربيُّ يُصدِر <sup>(٣)</sup> أنعامه عن الأخفار وقت الفسق <sup>(٤)</sup> مُخْلِياً السكانَ للأسود والأمار ، والقرودُوح <sup>(٥)</sup> وحده ، وهو الذي يجب أن يكون أكثر حذراً من سواه ، هو الذي يكون من الغفلة أحياناً ما يُنسيكه به الإنسان ، وذلك أنه يسكو ببقايا جعةِ الذرة التي تُترك هنالك ، فيفدو غير قادرٍ على الفرار ، ولكن أليس هذا الرباح <sup>(٦)</sup> من شباه البشر ؟

وفيا تكون السماء زرقاء صافية إذ يُسمع من بعيدٍ قصيفُ رعدٍ ، فيدوى من كل ناحية صوتٌ قائل : « البحر ! » ، وهنالك ينطلق ألوْف الرجال والنساء المُخيمين في الوادي حاملين خيامهم ومتاعهم لائذين بالفرار .

وأولئك الأعرابُ الكسالى الجبريون ، وإن كانوا يحسبون الزمن تبعاً للقمر والنجوم ، يباغتون في كل عامٍ بالحدار النهر من الجبل الشاهق في وسط شهر يونيه ، وفي بضع دقائق يتحول الهدير إلى زئير يُعدُّ إشارةً مرجوةً مرهوبةً ، وفي مصر ، وعلى بُعد ألوْف الكيلومترات من الجرى التحتاني ، يطلع المهندس برقياً ، وبين

(١) المغايط : جمع النيطس ، وهو مجتمع الماء في الأرض — (٢) الأخفار : جمع الخفر ، وهو البئر الموسعة — (٣) أصدره عن الماء : أرجحه عنه — (٤) الفسق : ظلمة أول الليل .  
(٥) القرودوح : الفرد الضخم — (٦) الرباح : الفرد الذكور ، ويجمع على ربايح .

ساعة وساعة ، على تَقَدُّم الفيضان وارتفاع الماء وعلى ما يحتويه من غِرِّين ، وذلك مع عدم وجود راكبٍ جميلٍ مَهْرِيٍّ<sup>(١)</sup> يُخْبِرُ ساكني الوادي أولئك عما يقع بعد دقيقة ، وهزيم الرعد وحده هو الذي يُذنبهم بذلك .

والبحرُ ناثراً ! والبحرُ سُورٌ سائرٌ يَبْلُغُ من الاتساع خَمْسَمِئَةَ متر ، والبحرُ يدرج أمواجاً مُمَرَّاً وَيَجْتَفِ<sup>(٢)</sup> أشجاراً وَيَجْزِفُ خَيْرَ رَأَانَا وَيَجْلِبُ غِرِّيْنَا .

وإذا ما وَّصَلَ النهرُ بفتةٍ بُعِثَتِ الحياة على الصَّافِ من قُورِها ، والغيثُ هنالك ، وَتَنْمُو البَرَاعِمُ<sup>(٣)</sup> وتنبسط الأوراق ، وَيُوَدِّي فَتَاءَ النيلِ إلى ظهور بلدٍ مُخَضَّرٍ كان يلوح هلاك كل شيءٍ عَطَشًا فيه ، ولم تَكْذُبْضعة أيام تَمُضِي على الوقت الذي كانت الطيور تَبْلُ في حُلُوقِها في مناطقٍ فقيرةٍ حتى صِرَتْ تُبْصِرُ الإوزَ البرِّيَّ رَتَعًا<sup>(٤)</sup> وَيَلْعَبُ ويتزاج وَيَبْنِي أوكارَه هنا ، وجميعُ الحيوانات تَشْرَبُ وَتَمْشِي في الطينِ وَتُفَوِّجُ<sup>(٥)</sup> عن نفسها ، وَيَصْغُرُ التمساح وَيَقْنُ أَنْ كَابُوسًا كان جائعًا عليه .

وترى في الهِضَابِ العليا أُلُوفَ الناسِ يفادرون منازلهم وَيَقْصِدُونَ الجبالَ فِرَارًا من ذلك الطوفان ، وَيَقِفُ كُلُّ جَوْلَانٍ في موسم الأمطار ، ولا يستطيع أحدٌ جَوِّبَ السيول والأَنْهَارِ ، حتى إن الفقير الذي يذهب إلى القرية المجاورة يكون لديه مِعْطَفٌ من البَرْدِيِّ يَلْبَأُ إليه كما يَلْبَأُ إلى خيمةٍ عند حدوث طوفانٍ جديد ، وَيَتَعَذَّرُ عبورُ الأودِيَةِ ، وَتَسْكُونُ الخِيُولُ العارية من الشُرُوجِ في الأكواخ بجانب أصحابها الذين ينتظرون صابرين ، فَرِحِينَ أحيانًا ، نهايةَ المطرِ عارفينَ عدمَ دوامه زمانًا طويلًا .

(١) Méhariste ، الجمل المهرى هو المنسوب إلى مهرة بن حيدان من عرب اليمن ، وقالوا إنه كان لا يعدل به شيء في سرعة جريانه — (٢) جطفه : جرفه — (٣) البراعم : جمع البرعم : وهو زهر النبات قبل أن يفتتح — (٤) رتج في المكان : أقام وتتم وأكل فيه وشرب ما شاء في خصب وسعة ورغد — (٥) فوج عن نفسه : برد .

والأعرابُ وحدهم لا يستطيعون أن يَتَرَيَّعُوا ، فإذا ما عادت إلى البطحاء خَضَرَتْهَا تَحَوَّلَتْ إلى غَدِيرٍ وارتفع سحابٌ من الهَوَامُّ وَغَدَتِ الْقِطَاعُ في خَطَرٍ ، والجلُّ الذي هو أوفى رفيقٍ للإنسان يَتَعَثَّرُ أيضاً ، وذلك عندما لا ينتظر سائقه أن تَجُفَّفَ شمسُ الصباح وجهَ الأرض بعضَ الشيء ، وتَرَى الإنسانَ والحيوانَ يُولِّيَانِ وجوهَهما شَطْرَ الْبِقَاعِ العاليةِ ، والنيلُ يُسِيرُ أَهْلَ الْبَدْوِ ، ويَهْطِلُ جميعَ مطرِ العام في ثلاثة أشهر تقريباً وَتُسْفِرُ عن الْقِيصَانِ .

ويأخذُ الناسُ في النزول بعد أن يَبْدَأَ الْمَاءُ بِالانْخِفَاضِ ، ويُمَدُّ سبتمبر شهرَ بركةٍ ، ففيه تُبْصِرُ جميعَ البلدِ مُخْضَرًا ، وتصبح الحبوب التي بُدِرَتْ بِالْعُودِ في ترابٍ ناعم ذي غرين صالحةٍ لِلْحَصَادِ في بضعة أسابيع .

وفي حَوْضِ النيلِ الأزرق ذى الانحدارات القوية تَتَعَذَّرُ الْقِيصَانَاتُ القوية المشابهة لقيصانات النيل الأبيض ، فقد نَحَتَ الْمَطَرُ أَخَادِيدَ عميقةً في الصخور البركانية ، ومن هذه الخنادق الضيقة تجرى سيولٌ نحو الغرب ، نحو النيل ، وتجرى داخل الهَضْبَةِ العليا مَتَمَزِّقًا بِأَسْرِهِ ، والنهرُ ، في مجراه التَجَنُّافِيَّ ، وحينما يَبْلُغُ الْحِجَارَةَ الرملية ، يَشُقُّ هذه الحِجَارَةَ شَقًّا خَفِيفًا ويلقى الصخورَ الْأَبْكَارَ ، وهناك ، حيث خَدَّ<sup>(١)</sup> مجراه عمودياً في الْأَرْضِ البركانية كما خَدَّهُ على الهَضْبَةِ ، يَفْصِلُ جَوَامِدَ فيخلطها بتراب صالح للنبات في أثناء جَرَيَانِهِ ، وهكذا يتألف الْفَرَيْنُ من مجموعةٍ مُنَحَلَّةٍ الْأَجْزَاءِ من الْفِلْسَبَارِ<sup>(٢)</sup> وَالْمِيْكَكَ<sup>(٣)</sup> والرَّخَامِ الْمَلُونِ والترابِ الْكَلْسِيُّ والحديدى متجولةً بين عامٍ وعامٍ مختلفةً في النيلِ الْأَزْرَقِ عما في الْقَطْرَةِ ،

(١) خد الأرض : شقها — (٢) الفلِسْبَار : نوع من الصوان المتبلر — (٣) الميكا : معدن

شفاف ينشظى إذا دق .

وهذا ما يجعلنا غترض وجود أنواع كثيرة من الرواسب والمتحولات في قوة النهر .

والإنسان له عمل في تلك الفيضانات أيضاً ، وما لا ريب فيه أن ماء قليلاً وغيريناً ضئيلاً كانا ينزلان من الجبل في أزمنة ما قبل التاريخ حينما كان البلد بأجمعه مستوراً بالغاب ، وما يرجح أن كان النيل الأزرق لا يصب في النيل الأبيض في الدور الذي كان يمتد فيه خليج من البحر المتوسط صحراء مصر ، وما لا يراء فيه أن حرّق الإنسان ، قديماً ، سهباً وغاباً لينال لقطاعه كلاً غصاً ، والإنسان ، إذن ، قد أباد آجماً كما في الوقت الحاضر فجعل الحقل منطقة حرّة للأمطار والأنهار التي تأتي بالتراب الصالح للنبات ، والآن تنتصب الجلاميد السود الجرد نحو السماء ، ومن هذه الجنادل <sup>(١)</sup> يفصل الهواء والماء ملايين الأجزاء التي يتألف الفريش السنوي السخي منها .

وهكذا جعلت الأحوال الفريدة من الحبشة « سف إفريقيا الشرقية » الذي يبلغ من الطول ما يمدّ معه السهل المرتفع ١٨٠٠ متر من الأراضي المنخفضة ، وقولكن <sup>(٢)</sup> هو فاعل ذلك ، ولا يشتمل بلد على براكين هامة مثل اشتال الحبشة ، وتبدي بقايا الأزمنة الأولى هذه للسماء أشكالها الغربية والطريقة دوماً ، واليوم لا تزال المخروطات الرمادية والحجارة البركانية والينابيع الحارة والأنجزة الكبرى شاهدة على ارتفاعات الأرض ، ويمكن الحبشة في ملايين السنين القادمة أن تمنّ بالمواد الأولية التي يجبرها النيل ويحطها فتتحول إلى تراب جديد .

(١) الجنادل : جمع الجندل ، وهو الصخر العظيم — (٢) فولكن : إله النار والمعدن لدى الرومان ، وهو ابن لجويتر وجونون وزوج لفينوس .

ورِيَّاحُ الْحَبَشَةِ وَأَمْطَارُهَا وَجِبَالُهَا تُحَدِّثُ تِلْكَ الْوَاحَةَ الْعَجِيبَةَ فِي الشَّالِ الْبَعِيدِ  
بِفَضْلِ رَسُولِهَا النَّيْلِ ، تُعَدِّثُ « مِصْرَ » .

## ٢

يَخْرُجُ النَّيْلُ الْأَزْرَقُ مِنْ بَحِيرَةٍ كَأَخِيهِ الرَّزِينِ ، وَلَكِنْ مِنَ الْمُحَقَّقِ أَنَّهُ يَنْصَبُ  
فِي تِلْكَ الْبَحِيرَةِ كَنْهَرٍ قَصِيرٍ وَيَجَاوِزُهَا ، وَأَنَّهُ يَحْقُقُ لِلْأَبَّاءِ الْأَصْفَرِ أَنْ يُكَيِّ  
ب « أُمُّ النَّيْلِ الْأَزْرَقِ » ، وَمَنْبَعُ الْأَبَّاءِ فِي جِبَالٍ عَالِيَةٍ ، وَهَذَا هُوَ أَوَّلُ تَوَافُقِ  
أَصْوَاتٍ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ .

وَيَقَعُ ذَلِكَ الْمَنْبَعُ فِي جَنْوبِ بَحِيرَةِ طَانَةِ بَوَادِي غَيْشٍ عَلَى ارْتِفَاعِ ٢٧٠٠ مِترَ ،  
أَيُّ عَلَى مَا هُوَ أَعْلَى مِنْ مُعْظَمِ أَنْهَارِ أَوْرَبِيَّةِ ، وَتَقَطَّعُ تَسْوِيَّاتُ بَرَكَانِيَّةٍ نِصْفُ مُسْتَوْرَةٍ  
بِتَرَابٍ أَحْمَرَ غَابَةِ زَاهِيَةٍ مِنَ الْأَرْزِ وَالْقَرْعَرِ<sup>(١)</sup> وَالتِّينِ وَالتِّتْوَعِ ، وَلَيْسَ لِلْخَلْنَجِ هُنَا  
نَمَارٌ كَأَيِّ خَطِّ الْأَسْتَوَاءِ ، وَلَكِنَّهُ ذَوَا زَهَارٍ وَافِرَةٍ ، وَبِجَانِبِهِ يَنْشُرُ شَجَرُ الْبَلْسَمِ  
الْأَيْضُ وَالْوَرْدِيُّ أَغْصَانَهُ الْحُمْرَ ، وَتُوجِبُ أَزْهَارُ الْكَرْبُؤُبَيْسِ<sup>(٢)</sup> الذَّهَبِيَّةُ  
وَأَزْهَارُ الْأَقْنَسَا<sup>(٣)</sup> الْأَرْجَوَانِيَّةَ فَرَحًا فِي هَذِهِ الْغَابَةِ الْخَضِرَاءِ .

وَالْغَابَةُ تُنَشِّطُ الطَّيْرَ أَيْضًا ، وَيَقَطَّعُ صَوْتُ الشَّيْبِ<sup>(٤)</sup> سَكُونَ اللَّيْلِ وَيُخْرِجُ  
الْخُلُودِيَّ<sup>(٥)</sup> صَوْتَهُ الْبُوقِيَّ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ ، وَيُجَرِّبُ الزَّمَارُ<sup>(٦)</sup> مِزْمَارَهُ ،  
ثُمَّ يَأْتِي دَوْرُ الزَّرَازِيرِ فَتَصَوَّتْ حِينَ يُفَرِّدُ الْخَطَّافُ صَبَاحًا ، وَتَصْنِجُ الصَّرَاصِيرُ

(١) المرعر : شجر يشبه السرو لا ساق له — Coréopsis (٢) — Acanthus (٣)

(٤) الشب : طائر يشبه مخطوط وهو واسع النجم مقلطع الرأس والمغار (٥) Helmet-bird

Flute-bird (٦)

كذلك ، بيد أن صَخَبَ الْفَرْغَرِ<sup>(١)</sup> والبُنبَاوَات لا يُعَمُّ أن يَصْفُو على هذه الأُلْحَان الرقيقة .

وفوق المَحدَارِ متوتِر ، وفي وَسَطِ غَدِيرٍ ، يحيط سياجٌ من الْخَيْرَانِ بِمَنْفَذٍ تزيد استدارته زيادةً قليلةً على متر مربع ، ويجزى بهلوى ، ومن بُرٍ ذاتِ عُنُقٍ متوسط ، ماء صافٍ باردٌ خالٍ من حَبَبٍ<sup>(٢)</sup> إلى خَنْدَقٍ ضَيِّقٍ ويتوارى وراء الأَيْكَةِ نحوَ الشرق ، وهذا هو منبعُ النيلِ الأزرق ، ويوضح أصله البركانيُّ هذا الوضعُ الغريب ، ولتَقَابِلُ صِفَرَه وسكونه ورَوَقَه بِالْمَسْقَطِ القاصفِ كَالرَّعْدِ والذي يَلِدُ به النيلُ الأبيضُ لِنُبْصَرِ درَجَةِ اللَّغْوِ في الْحُكْمِ عند أولِ نظَرَةٍ على مَصارِ الموجودات ، فالنَّبعُ الصاحبُ ينالُ صِفَةَ الاتِّزَانِ والوَاقَرِ ، والجَدُولُ الصغيرُ النَّزِيرُ<sup>(٣)</sup> يكون له من المغامرات ما يَقْضِي الْعَالَمَ منه الْعَجَبَ .

ويجري النيلُ الأبيضُ ألفَ ميلٍ قبلَ أن يُجَدَّ كما حدى عجائب الدنيا ، وعكسُ هذا أمرُ النيلِ الأزرقِ الذى يُعْبَدُ صَبِيًّا في المهد كمبى ، وهنا لاح نجمٌ لأحد ملوك الشرق البعيد ، ويُخبره هذا النجمُ بمولدِ إنسانٍ قوِّىٍّ في الجبالِ هنالك يُحمِلُ سُلْطَانَ الرَّبِّ وعِزَّتَه من بين الصحراءِ حتى شواطئ البحر :

والنصارى والوثنيون يُصَلُّون في ذلك المكان ، والأَكْرَانُ ذاتُ السُّقُوفِ الْبَقْصِيَّةِ<sup>(٤)</sup> الفائضة الواقعة بالقرب من هذا النبع ومن منبعين أقلَّ منه أهمية هي كنائسُ حَبَشِيَّةٍ رَسْمِيَّةٍ ، والرجلُ اللَّحْيَانُ<sup>(٥)</sup> الأُمِّيُّ المتصبُّ أُمَامَهَا هو كَاهِنُهَا . والوثنيون الذين يعيشون بجانب النصارى هنا لا يدخلون النهر إلا حَفَاةً .

(١) الفرغر : نوع من الدجاج البرى — (٢) الحب : التفافيع التى تلو الماء أو الحر .  
(٣) التزير : القليل الناقص — (٤) نبة إلى القصب ، وهو الصلب من سوق النبات التى هى أنابيب صلبة تنقف بها البوت — (٥) اللحيان : الطويل اللحية .

والوثنيون هَدَّوْا أَحَدَ السَّيَّاحِ بِالْقَتْلِ لِأَنَّهُ أَرَادَ غَسْلَ رَدَائِهِ فِيهِ ، وَفِي كُلِّ عَالَمٍ ،  
وبعد أَحَدَ عَشَرَ يَوْمًا مِنْ أَيَّامِ طُلُوعِ الشَّمْسِ (١) وَغُرُوبِهَا مَعَ الشَّمْسِ ، يَجْتَمِعُ  
رِجَالُ الْقَبِيلَةِ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ الْمُقَدَّسِ ، وَيُصَحِّي الْكَاهِنُ بِعِجَلَةٍ سَوْدَاءَ ، وَيُلْفُ  
رَأْسَهَا فِي جِلْدِهَا وَيُقَطِّسُ فِي الْمَنِيْعِ ، وَيَفْسِلُ الشَّيْبُ اللَّحْمَ بِلَمَاءِ الْعَجِيبِ الَّذِي  
يَجْلُبُونَهُ بِبَاطِنِ أَيْدِيهِمْ ، ثُمَّ يُقَطِّعُونَهُ أَجْزَاءَ بَعْدَ الْقُرْبَى وَيُوَزَّعُونَ الْقِطْعَ الَّتِي  
يَأْكُلُونَهَا نَيْثَةً شَارِبِينَ مِنْ مَاءِ النَّيْلِ ، ثُمَّ يُكَلِّسُونَ عِظَامَهَا ، ثُمَّ يَقُومُونَ فِي كَهْفٍ  
وَاقِعٍ تَحْتَ الْمَنِيْعِ بِقُدَّاسٍ وَفَقْ طُقُوسٍ غَيْرِ مَعْرُوفَةٍ ، وَيُقَدِّسُ هَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنُونَ لِلنَّيْلِ  
الَّذِي هُوَ « نُوْرُ الْعَالَمِ وَعَيْنُهُ » ، وَيَدْعُوْنَ بِإِلَهِ السَّلَامِ ، وَذَلِكَ لِمَا يُفْسِسُونَ عَلَيْهِ  
فِي الْمَجْلِسِ مِنَ الْمَحَبَّةِ وَالْوِثَامِ ، فَإِذَا قُضِيَ ذَلِكَ تَقَاتَلُوا بَعْدَ قَلِيلٍ كَمَا يَقَعُ بَيْنَ  
الْبَيْضِ الْمُتَحَالِفِينَ .

وَيَنْفَضُّ الْأَبَّاءُ الْأَصْفَرُ بِدَوَافِعَ كَثِيرَةٍ نَحْوَ الْغُرْبِ ثُمَّ نَحْوَ الشَّمَالِ ، وَلَمَّا  
يُقَيِّدُ مَجْرَاءَ تَمَامًا ، وَلَمْ يَكُنِ النَّيْلُ الْأَزْرَقُ ، مِنْ السَّاعَةِ الْأُولَى ، أَحْسَنَ حَرَسًا  
مِنْ أَمِيرٍ أَوْ مَلِكٍ قَادِمٍ ، وَهُوَ يَقُومُ غَيْرَ مُرَاقِبٍ بِمَجَوْلَاتٍ طَوِيلَةٍ مِنْ خِلَالِ بَقَاعٍ  
غَيْرِ مَعْلُومَةٍ تَقْرِيْبًا لَوْقُوفِ الْمَطَرِ ، الَّتِي فِيهِ سِرٌّ شَأْنُهَا ، حِيَالٌ رِيَادِيهَا ، وَذَلِكَ  
كَالْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ يَمْتَرِلُونَ النَّاسَ فِي الْغَالِبِ قَبْلَ دَوْرِ حَيَاتِهِمْ الْحَاسِمِ .

وَتَلْحَقُ بِالنَّهْرِ الصَّائِلِ جَنَادِلُ بَرَكَائِيَّةٍ ذَاتُ طَبَقَاتٍ أَقْصِيَّةٍ مَعَ أَثَرِ نَشَاطٍ جَدِيدٍ  
فَيَكُونُ لَهَا مَنَظَرٌ جِبَالٍ ذَاتِ غَابَاتٍ تَقْطَعُهَا رَوَافِدُ صَغِيرَةٍ كَثِيرَةٍ ، وَيَبْلُغُ عَرْضُ  
ذَلِكَ النَّهْرِ سِتِينَ مِثْرًا فَوْقَ هَضْبَةٍ خَرَّبَهَا السَّيْلُ ، وَتَظْهَرُ بِحِيرَةٌ كَبِيرَةٌ فِي نَهَايَةِ الْأَمْرِ ،

(١) الشَّمْسُ : السُّكُوكِبُ الَّتِي يَطْلُعُ فِي الْجُورَاءِ . وَطُلُوعُهُ فِي شِدَّةِ الْحَرِّ ( بَيْنَ ٢٢ يُولْيَةِ  
و ٢٣ أَوْغُسْطُسِ ) .



وَيَصِلُ الْأَبَّاءُ إِلَى شاطئِ بَحِيرَةِ طَانَةِ الْجَنُوبِيِّ الْعَرَبِيِّ حَيْثُ لَا يَلْبَثُ زَمْنًا طَوِيلًا .  
وَتَقَعُ هَذِهِ الْبَحِيرَةُ الضَّارِبَةُ إِلَى خُضْرَةٍ ، وَالتِّي لَهَا شَكْلُ الْقَلْبِ ، عَلَى ارْتِفَاعِ  
١٨٠٠ مِترَ كَبَحِيرَاتِ إِنْغَادِينَ <sup>(١)</sup> ، وَتُحِيطُ بِهَا بَضْعَةُ جِبَالٍ صَغِيرَةٍ ، وَسَهْلٌ مُسْتَوٍ  
بِالسَّنْطِ عَلَى الْخُصُوصِ ، وَالنَّخْلُ مَعَ أَكْوَاحٍ هَزِيلَةٍ مِنْ حَصِيرٍ ، وَيَبْدُو أَكْبَرُ  
هَذِهِ الْأَكْوَاحِ فِي كُلِّ قَرْيَةٍ تَحْتَ شَجَرِ الْعَرَعَرِ ، وَهُوَ خَاصٌّ بِالْأَمِيرِ (الرَّاسِ) ،  
أَوْ يُسْتَعْمَلُ كَنِيسَةً .

وَتَقْرُبُ بَحِيرَةُ طَانَةِ مِنْ بَحِيرَةِ أَلْبِرْتِ اتِّسَاعًا ، وَمِنْ الْمُحْتَمَلِ أَنْ كَانَتْ ضِعْفَهَا  
ضَخَامَةً ، وَبَيَانُ ذَلِكَ أَنَّ الْمَطْرَفَ الْحَمَّ <sup>(٢)</sup> فَجَرَقَتِ الْجُدَاوِلُ أَجْزَاءَهَا مِنْذُ أَقْدَمِ  
العُصُورِ وَوَضَعَتْهَا عَلَى شَوَاطِئِ بَحِيرَةِ طَانَةِ وَضِيْقَتِ نِطَاقَهَا وَتَبِمُ الْحَمِّ وَالنَّسْفِ <sup>(٣)</sup>  
عَلَى أَصْلِ الشَّوَاطِئِ الْبَرَكَائِيَّ ، وَمِنْهَا يَتَأَلَفُ الْغَرِيْنُ الْأَوَّلُ الَّذِي يَأْتِي بِهِ النَّيْلُ ،  
وَتَصُبُّ أَنْهَارُهُ وَجُدَاوِلُهُ ثَلَاثُونَ مِيَاهًا فِي تِلْكَ الْبَحِيرَةِ ، وَجَمِيعُهَا أَصْفَرُ مِنَ الْأَبَّاءِ ،  
وَإِذْ كَانَ الْأَبَّاءُ الْوَحِيدَ الَّذِي يَخْلُصُ مِنْ بَحِيرَةِ طَانَةِ كَانَتْ هَذِهِ الْبَحِيرَةُ مَنبَعًا  
مَهْمًا لِلنَّيْلِ ، وَبَرَاهَا مَهْدَسُو النَّيْلِ أَمَّ مِنَ الْأَبَّاءِ الْأَصْفَرِ الَّذِي لَا يُسْفِرُ تَوَارِيهِ عَنْ  
ضَيَّاعِ كَثِيرٍ مِيَاهٍ مِنْهَا ، وَلِذَا عُدَّ النَّبْعُ جِغْرَافِيًّا أَكْثَرَ مِنْ عَدِّهِ إِيدْرُوغَرَافِيًّا <sup>(٤)</sup> .  
وَلَا يَصِلُ التَّمَسَّاحُ إِلَى الْبَحِيرَةِ ، وَلَكِنْ أَهْلُ الْبِلَادِ إِذَا مَا سَافَرُوا عَلَى الْبَحِيرَةِ فِي  
قَوَارِبِهِمُ الْمَصْنُوعَةِ مِنَ الْبَرْدِيِّ وَالْقَصَبِ حَقَّ لَهُمْ أَنْ يَخَافُوا بَقَرِ الْمَاءِ الْكَثِيرِ ، وَيَبْلُغُ  
صَيْدُ هَذَا الْبَقَرِ الْمُفْرَى مِنَ الْإِغْلَالِ مَا يَنْفُسُ مَعَهُ الصَّائِدُ سِمَةً عَشِيرَتَهُ عَلَى كُلِّابِهِ ،  
وَإِذَا حَدَثَ أَنْ قَذَفَ جَرِيَانُ الْمَاءِ الْقَنِيصَةَ إِلَى مَكَانٍ بَعِيدٍ مِنَ الشَّاطِئِ كَانَتْ مِنْ

(١) إِنْغَادِينَ : وَادٍ فِي سُوَيْسَةَ يَشْتَمِلُ عَلَى تِلْكَ الْبَحِيرَاتِ — (٢) Laves ، وَهِيَ الْحِجَارَةُ  
الْبَرَكَانِيَّةُ السَّائِلَةُ — (٣) النَّسْفُ : الْحِجَارَةُ السُّودَ ذَاتَ الْخَارِبِ ، وَاحِدُهَا نَفْةٌ .  
(٤) الْإِيدْرُوغَرَايَا : عِلْمُ الْمِيَاهِ الْبَطْحِيَّةِ وَوَصْفُهَا .

حقوق أول من أصمها ، وهكذا كان أبطال أوميرس<sup>(١)</sup> يتعمقون الخنزر البرى الكليدوني<sup>(٢)</sup> ، ومن شأن سمة كيمات بحيرة طانة أن كانت تؤدي إلى عذم شجبار أأالنته<sup>(٣)</sup> .

وفي المكان الذى يحبب الأبلى فيه البحيرة متوجهاً إلى الجنوب توجهاً منظوراً ، ومن غير أن تختلط مياههما ( وهذا هو جرى اثني عشر كيلومتراً ، وهذا الجريان من القصر ما يعدل جرية النيل الأبيض في أقصى بحيرة ألبرت ) بالقرب من شبه جزيرة جرجس ، في خليج واسع عميق ، يبدأ النيل الأزرق جريانه الحقيقي ، وفي الحقول تبصر أشجار بئ ذات ثمار حمر وشبه برية ، والحبشة هي موطن هذه الأشجار ، ومنها هاجرت إلى بلاد العرب ، وفي الحقول ، وبالقرب من شجر البئ ، تبصر بهاراً أحمر ، وتبصر بزدياً على مساحات واسعة حتى في الأرض الجافة منها ، ويستمر المنحدرات الوعرة زهر أصفر على شكل النجوم ، وهو ضرب من شوك الشيطان الذى ينشأ في الثياب والجلد فيسبب للسائح آلاماً لا تحتمل ، ويكسو الجزر الصخرية صدف وسراطين ، وتبنى البلاشين<sup>(٤)</sup> والشفانين<sup>(٥)</sup> أو كنها<sup>(٥)</sup> هناك ، ويكون ماء النهر البالغ من العرض مئة متر صافياً عند خروجه من البحيرة متدحرجاً من غير انحدار كبير .

ويدل جريان النيل الأزرق على الوجه الذى يتبلغ النهر فيه مصيره ، كالإنسان ، مقتحماً مجاوزاً جميع الحواجز مذكراً مكان نهايته وزمان غايته وفق الشئ المفروضة

(١) أوميرس : شاعر اليونان المشهور ، وهو صانع الإلياذة والأوديسة ، وقد تنازعت سبع مدن شرف انتسابه إليها — (٢) الكليدوني : نسبة إلى كليدونية ، وهي اسكتلندية . (٣) أأالنته : أمير أسطوري من أمراء اليونان — (٤) الشفانين : جمع الشفنين ، نوع من الحمام البرى ، ويعرف باليلام أيضاً — (٥) الأوكن : جمع الوكن ، وهو عش الطائر .

عليه ، ومع ما في الخرائط الطبيعية ، التي يَبْدُو الجبلُ لنا بها سببُ كلِّ التواء ، من وضوحٍ كيف تُنْكَرُ القُوَى السَّحَرِيَّةُ التي تَجْرُ نَهراً إلى نهرٍ آخَرَ على الرغم من كلِّ مقاومة تَنْشَأُ عن السَّلَالَاتِ والصَّخْرَاوَاتِ وَالْمُنْعَطَقَاتِ الْمُسْتَبْرَةِ الْمُسْتَفْرَبَةِ ؟ ولو أَمْكَنْتْ دِرَاسَةُ حَيَاةِ رَجُلٍ بِأَسْرَها على خَرِيطَةٍ أَوْ الْبَصَرُ بها من طَائِفَةٍ لِهَرْتَنَا السُّنَنُ التي تَهْمِينُ عليها ، ولا شئ ، يُثَبِّتُ الْقَدَرَ أَحْسَنَ من وقائع هذه الحَيَاة الظَّاهِرَةِ ، وَالرَّجُلُ الْمَلْحَدُ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي يَرُدُّ إِلَى الطَّبِيعَةِ مَدَارَ ارْتِيَابِهِ الْعَقْلِيِّ .

وَفِي الْبَدْءَةِ يَبْدُو الْأَبَّاءُ الْأَكْبَرُ مُبْتَعِداً ابْتِعَاداً تَامّاً عَنْ اتِّجَاهِ الْأَبَّاءِ الْأَصْغَرِ ، وَهُوَ يَجْرِي نَحْوَ الْجَنُوبِ الشَّرْقِيِّ وَصَوَلاً إِلَى الشَّامِلِ الْغَرْبِيِّ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْجِبَالَ الَّتِي وَلَدَتْ فِيهَا تَسَدَّ طَرِيقَهُ ، وَيَدُورُ الْأَبَّاءُ الْأَكْبَرُ بِانْحِنَاءٍ مُنْجَمٍ حَوْلَ جِبَالِ عُوجِمٍ مُنْعَطَقاً مَرَّتَيْنِ لِيَصِلَ إِلَى النَّيْلِ الْأَبْيَضِ الَّذِي كَانَ أَقْرَبَ إِلَيْهِ فِي مَنبَعِهِ ، وَتَجْرِي عَلَيْهِ سُنَّةُ الْأَقْوَى مِنْ حِينَ دَخُولِهِ فِي السُّودَانِ ، فَعِ أَنْكَ لَا تَرَى جِبَالاً تَقِفُهُ تُبْصِرُهُ لَا يَسْلُكُ أَقْصَرَ السَّبِيلِ ، بَلْ يَتَّجِهْ إِلَى الشَّامِلِ الْغَرْبِيِّ مِثْلَ اتِّجَاهِ النَّيْلِ الْأَبْيَضِ فِي شَبَابِهِ وَمِثْلَ اتِّجَاهِ جَمِيعِ رَوَافِدِهِ الشَّرْقِيَّةِ .

وَالْحَرَكَةُ الْأُولَى لِلنَّيْلِ الْأَزْرَقِ ، عِنْدَ خُرُوجِهِ مِنْ بَحِيرَةِ طَانَةِ ، تَكْشِفُ عَنْ عِبْقَرِيَّةٍ فِي سَجِيَّتِهِ ، تَكْشِفُ عَنْ عُنْفٍ مَمْزُوجٍ بِسَخَاةٍ ، فَهُوَ يُجَوِّفُ لِنَفْسِهِ مَرّاً عَمِيقاً فِي الصَّخْرِ ، وَتَبْلُغُ أَمْوَاجُهُ الْفَائِرَةُ مِنْ سُرْعَةِ الْإِنْدِفَاعِ مَا تَهْبِطُ مَعَهُ ١٣٠٠ مِترَ فِي ثَمَانِينَ كِيلُومِترًا ، وَيَحْمِلُ عِنَصَرَ عَمَلِهِ الْقَبْلَ ، يَحْمِلُ الْغَرِيْنَ مُتَبَدِّلاً حَيَوِيَّتَهُ وَإِتِّجَاهَهُ مِنْ أَوَّلِ الْأَمْرِ . وَتَكُونُ الصَّخُورُ عَارِيَةً قَبْلَ الْمَطَرِ وَلِئْسَ التَّقَاءُ الْجَلَامِيدِ وَالْمَاءُ عِنْدَ السَّلَالِ الْأَوَّلِ ، وَحِينَ يَزِلْجُ<sup>(١)</sup> التَّوْجُ وَيَدْخُلُ النَّهْرُ فِي مَجْرَاهُ تَظْهَرُ الصَّخُورُ مُسْتَوْرَةً بِالْخُثِّ<sup>(٢)</sup> ،

(١) زِلْجٌ : انحدار — (٢) الخث : غطاء السيل أو الطلح إذا قدم عهدُه وجف .

أى بُشَاءً<sup>(١)</sup> أَحْوَى<sup>(٢)</sup> ، أو بنبات مائى ذى سُوقٍ مُتَشَرِّةٍ وجذورٍ جَوِّيَّةٍ تَحِفُّ أزهارها الخضر والوردية من الأسفل بالتدرج وتظلُّ هكذا حتى نزولِ أمطار العام القادم ، وتُصَادُ الأسماكُ الصغيرة باليد على طول تلك الصخور ، وتظلُّ هذه الأسماك جماعاتٍ مُتَرَاصَّةً خاتمةً من الأسماك الكبيرة التى تترصدها من الأسفل فتلتهم جميعَ ما تَجَرَّحه الحجارة منها .

وفى ذلك الصَّعْقُ<sup>(٣)</sup> البائرِ وغير البعيد من البحيرة يَقُومُ جِسْرٌ حَجَرِيٌّ قَدِيمٌ ذو أقواسٍ كثيرة ، وبهذا الجِسْرِ يَكْتَسِبُ المظهرُ منظرَ قَشْرِ رَوَائِيٍّ وَيُذَكِّرُ بِالْحَضَارَةِ الأوربية الأولى التى يَجْهَلُهَا النِّيلان فى شَبَابهما مع استثناء هذه النقطة ، وهذه الحضارة من فُورِها تَغِيبُ هنالك مرةً أخرى مع ذلك ، ويجب أن يُيَمِّمَ النِّيلُ جَوْلته فى هذا البلد الغَرِيبِ وأن يَلْتَقِ بالسَّهْلِ حتى يُبْلِّغَ جِسراً مرةً أخرى ، حتى يَلْقَى جِسراً عَصِرياً كَرِيهَ النَّظَرِ جِداً ، والبرتغاليون هم الذين أُنشِأوا الجِسْرَ الأول من حجارة بركانية فى القرن السادس عشر ، وهذا الجِسْرُ منحرفٌ ، والنهرُ يَمُرُّ من تحت القَوْسِ الأوسط حتى يتسعَ حالاً .

ويضيقُ المجرى على بعد خمسين كيلومتراً من بحيرة طانة ، وَيَحْمِلُ النِّيلُ الأزرق على المغامرة بتجربةٍ مَسْقُطَةٍ كَبِيرَةٍ كَالنِّيلِ الأبيض فى أقصى الجَنُوبِ ، وهذه المغامرةُ هى الوحيدة فى حياة كلِّ من النِّيلَيْنِ ، وَيُطْلِقُ أَهْلُ البِلادِ الأصليون اسمَ تَبْزِيَّاتٍ « النار الزائرة<sup>(٤)</sup> » على هذا المسقط كما تُسَمَّى مساقطُ فيكتورية فى روديسية بـ « العُثَّانِ<sup>(٥)</sup> الطَّنَّانِ » ، وللسافة الضيقة التى تَتَكسَّرُ فيها الأمواجُ المُزِيدَةُ

(١) القاء : ما يلو السيل من الزبد ويبس النبات — (٢) الأحوى : الأسود اليابس .

(٣) الصَّعْقُ : الناحية — (٤) الزائرة : من زأر الأسد إذا صات من صدره .

(٥) العُثَّان : الدخان .

منظرٌ ثَقْبٍ عميق، والناسُ يساءلون عن الكيفية التي يُمكن كمّيةُ الماءِ العظيمةُ أنْ تسببَ من البحيرةِ والمطر أنْ تَمُرَّ منه، وما يُقصُّ هناك أن رجلاً في أثناء قتالٍ استطاع أن يثب من إحدى الضفتين إلى الأخرى وأن يذبح عدوّه وأن يَرْجِعَ واثباً.

والنيلُ، إذَنْ، سجينٌ الآن في عقيق<sup>(١)</sup> ضيقٍ منحوتٍ في حجارة بركانيةٍ ومُحدقٍ ببجبال شاهقة، والنيلُ منيعٌ في ثمانية كيلومتر تقريباً، ويبلغُ عمقُ الوَهادِ<sup>(٢)</sup> ١٥٠٠ متر، والمعيقُ مهجورٌ، ويتعدّد الناس عن المعيق ويتعدّدون، أيضاً، عن المرتفعات المجاورة حيث تَرُصِّدُهم الحُمى وتَرْقُبُ قِطَاعَهُم، وحيث جَوُّ تلك الأَجَسَةِ ودُخَانُ الكَلأِ المحترقِ خافقان فتنشأ الحُمى عنهما، وتكون الحياةُ أسهلَ والتنفسُ أيسرَ في ارتفاعٍ يترجّع بين ثلاثة آلاف متر وأربعة آلاف متر، وقد أضع الرُّؤُودُ القليلون الذين حاولوا النزول إلى المعيق مُعْظَمَ سَمَالِهِمْ بفعل الحُمى فاكْتَفَوْا بزيارةٍ قصيرةٍ له أو بالإشارة إليه على خرائطهم بخطوطٍ مُنْقَطَةٍ.

والحيوانُ وحده هو السعيد في ذلك الجزء الجنوبي من النيل الأزرق، ولا تهْدَدُ الكلاليبُ ولا المزاريقُ ولا البُنْدُقُ<sup>(٣)</sup> أياً بقرٍ ماءٍ أو تمساحٍ في مجراه كما أنها لا تهْدَدُ الأسدَ والنَّمرَ على ضِفافه، فهناك جَنَّةُ هذه الحيوانات، وتعيش الضواري هناك أخلطاً أملاًماً<sup>(٤)</sup> بعيدةً من محاولات الإنسان أكثر مما في أيِّ مكانٍ آخرٍ بأفريقية غير مباليةٍ بالحرارة التي لا تَنْزِلُ حتى في الليل إلى ما هو أقلُّ من الدرجة الأربعين نائلةً في الغابة البكر ما لا يَنْفَدُ من الحيوان والنبات الكثير.

(١) المعيق: الوادي وكل سيل ماء شقه النيل قديماً فوسمه — (٢) الوهاد: جمع الوهدة، وهي الهوة في الأرض أو الأرض المنخفضة — (٣) البندق: كل ما يرمى به من رصاص كروى وسواه — (٤) خلط ملط: مختلط.



١٠ - حنا



والنيلُ في الدرجة العاشرة من العَرَضِ الشَّامِلِ يكون منيعاً في قَجْوَتِهِ<sup>(١)</sup> على ذلك الوجه فَيَرْتَمُ قَوْساً واسعاً من الشرق إلى الغرب ، فلا يُبْصِرُ في هذا الجزء من جريانه وجهاً بشرياً ولا يَشْقُ سطْحَه مِجْدَافٌ ولا تَنْزِعُ صَيَّارَةٌ سَمَكاً منه ولا يَجْرُو إنسانٌ على السَّباحة في مائه .

### ٣

هنالك ، في المَدْوَةِ ، تَسْقِي الحيوانَ مِائَتُ الجداول والأنهارِ قبل أن تَصِيعَ في المجارى العميقة التي تأتى بها إلى النيل ، وفي ذلك الصَّغْعُ المُرْتَقِ يَحْسِبُ البرِّذَوْنُ<sup>(٢)</sup> عن الإنسانِ خِدْمَه ، فيُضْطَرُّ الرائدُ إلى الهبوط والصعود ١٢٠٠ متر لدراسة تجرَّي أحد الأنهار الأسفل ، ويكون النيلُ في الغالب غائباً عن الأبصار من علٍ ، ويلوحُ غورُهُ في فُطور<sup>(٣)</sup> ، ويُحَسَّبُ وجودُ مجرَّي له تحت الأرض ، فإذا ما ظهر ثانية لم يَبْدُ مَوْسَعاً حتى في فصل الأمطار ، وما تَجَلَّبه إليه الروافدُ غيرُ المهمة فيفْقِدُهُ بالأبحرة والمساقط والقِصَاض<sup>(٤)</sup> .

والفرَّيْنُ هو الذي يَزِيدُ ، وبما أن مُعْظَمَ روافد النيل تجيء إليه من داخل الجبال التي يُحِيطُ بها يُودَّى ما تَرَدُّ به عليه من اللوَادِ المَدِينَةِ إلى جبل مائه شديد الامحمرار بعد خروجه من بحيرة طانة كثير الصفاء ، ولا يَدُلُّ تسمية العرب إياه بالبحر الأزرق على كونه نهراً أزرق فقط ، بل يَدُلُّ على أنه أغبرٌ ، وعلى أنه أسودُ أيضاً ، وَيَنْخَفِضُ

(١) الفجوة : الفرجة بين شيئين — (٢) البرذون : ضرب من الدواب دون الخيل وأقدر من الخمر — (٣) الفطور : جمع الفطر ، وهو الثقب — (٤) القِصَاض : ما صغر أو تفتت من الحصى .



ماؤه في الموسم الجفاف فلا يتقل أكثر من اثنين في المئة من المواد فيبدو في الغالب أزرق صافياً تحت سماء خالية من الشحب ، فإذا ما حل فصل ارتفاع مائه حلّ ١٧ في المئة من الغرين وظهر أثمر قائماً ويُعزّز هذا اللون بما يجلبه من مليارات النمل الأبيض ، ومن الإنكليز رواد ذهبوا حديثاً إلى النظرية الطريفة القائلة إن هذا النمل الأبيض هو الذي يقضم التراب فيجبر معه ، وإنه هو العامل الحقيقي في وجود غرين النيل .

وفي الهضبة العليا العامرة بالناس تضحّم جميع المواد المعدنية البركانية بفيض من النباتات الاستوائية ، وعن تلك الهضبة قال بلونديل الذي هو من البيض القليلين الذين زاروها : « إنها أجل بلد رأيت » ، والحق أن الجفاف في جنوب الحبشة أقل ضرراً مما في الشمال حيث يتعذر في شهر فبراير وضع إنسان جثة عذو في صغر صائر كذلك ، والمطر في شمال الألبا يوجد غابة ذات ألوان فتانة .

والأحمر والأصفر هنالك يهزان الأبصار ، فتهبط طاقات القسم<sup>(١)</sup> الأرجوانية من شجر الخيزران الجسيم على استدارة عشرين متراً ، ويتشعب التوتوع كالشماعد<sup>(٢)</sup> وتنموج خصل كثيفة لألوف الأزهار الصبر البارزة من العلق المعروف بالأيريقم ، ويتدلّي الياسمين البري الأزرق الشاحب من الأثل<sup>(٣)</sup> ، وتستر مساقط من القويسة<sup>(٤)</sup> الزرقاء الحية وتخلق أحياناً ما يعيش تحتها ، ويسطع البيلسان<sup>(٥)</sup> بين الخضّر ، وتكسو ذوات الفلقتين غابات بأسرها ، وينحني

(١) النم : شجر له ثمرة حمراء يشبه بها البان المحضوب — (٢) الصاعد : جمع السمندان ، وهو النارة يركز عليها السراج وكلية دان فارسية — (٣) الأثل : شجر يشبه الطراء إلا أنه أعظم منها ، وهدبه مثل هديها — (٤) القويسة : نبات — (٥) البيلسان : شجر له زهر أبيض صغير يهتة النافيد يستخرج منه دهن عطو الرائحة .

الشيخ<sup>(١)</sup> «الطيرى ظهراً و بطناً فيؤلف أنفاقاً»<sup>(٢)</sup> أرجوانية تبُلُغ من غنى الأزهار ما «قد تُدْفَنُ فيها قافلة» .

والزنجي في قُرى الجبل العالى يَزْرَع الدرة والبر<sup>(٣)</sup> بلا عَناء ، وله كلّ العون بالتراب والمطر ، والقطن أقلّ من ذلك نجاحاً ، ولا يُفْلِحُ شجرُ البُنِّ إلا في حالِ برّيةٍ كالكرمّة فيما مضى ، ولم تَنْلُ يدُ التفسير شيئاً من المحراث الذى يُستعملُ بلا رويةٍ ، كالحنازير البرّية ، منذ عهد المحراث الذى صنعه آدمُ بعد إبعاده من الجنّة .

وتعيش تلك القبائل الحبشية المتأخرة كثيراً عيشاً ابتدائياً كزنوج النيل الأبيض الأعلى ، ولكنك تجدُ عندهم حيواناً أهلياً يعاملونه معاملة الضيوف من الأمراء ، وهل هو ساحرٌ أو حكيمٌ أو أبيضُ هذا الذى كان عند ذبحِ سنورِ الزّبادِ<sup>(٤)</sup> أولَ من كَشَفَ الرائحةَ الزّكية التى تَسْطَعُ من إحدى عُذده ؟ إن المحتمل أن اذْهَبَتْ بها إحدى سراري النجاشي الثلاثة إغواءً لسيدها ، ومهما يكن الأمرُ فإن جميع الشُّرفاء وذو ذات يومٍ حياةَ سنورِ الزّبادِ ، فحملوا عبيداً لم على البحث عنه ، فوجده هؤلاء على أبعد شواطئ النيل جنوباً ، وميسكه السود يجباله<sup>(٥)</sup> ويؤتسونه في أكوأخهم ويُعدّونه بالبَيْض وقتَ الظهر وبحساء اللبن وقتَ المساء ، ويوقدون النار شتاءً لكيلا يبرُد ، ثم يَفْشِطُونَ بِعِلْمَةٍ خَيْرُ رَآنٍ ضَرْباً من الرغوة في عُذّة منه لها رائحة المسك ويَحْفَظُونَهُ في قرونِ البقر ، ويبيعونه من التاجر الذى يأتى

(١) الشيخ : نبات أنواعه كثيرة كله طيب الرائحة — (٢) الأنفاق : جمع التفق ، وهو سرب في الأرض له مخرج في مكان مهود — (٣) البر : القمح — (٤) الزباد : مادة عطرية تتخذ من دابة كالسنور هي أكبر منه قليلاً وقال لها سنور الزباد والنور هو الهر ويجمع على سنابير .  
(٥) الجبال : المصيبة .

من المِصر<sup>(١)</sup> في معابل تيابٍ وقِصْبَانٍ مِلْحٍ أو قودٍ فضية ، وهكذا ترى سُوداً لا يَعْرِفُونَ سوى الجوع والصيد والحُبُّ في جبال الحَبْشَةِ المَوْحِشَةِ يفتنون بفضل نقائسِ بِلَاطٍ بعيديٍّ وَيَزِيدُونَ قِطَاعَهُمْ وحقولهم من غير أن يكونوا في نهاية الأمر أكثرَ سعادةً من إخوانهم الذين لا يَفْشِطُونَ غُدَدَ سَنَانِيرِ الرِّبَادِ .

ومن الحيوان ما هو أقلُّ أنساً ، ومن ذلك القِرْدُوحُ<sup>(٢)</sup> ذو النُؤَابَةِ الرَّمَادِيَةِ الذي يَتَّخِذُ في كَبَرِهِ سَيْرَ الْأَفَاقِ المُنْبِذِ المتوحش ، والقِرْدُوحُ يَفْزُو الحقولَ ، وإذا ما مَنَعَ فلم يَدْخُلْهَا إلا بعد الحَصَادِ استعدَّ كالآدميين وَوَضَعَ من الْأَرْضَادِ ما يَخْشِي به صِغَارَهُ تَجَاهَ الْأَنْمَارِ ، وَالْأَنْمَارُ تَخَافُهُ فلا تَدْخُلُ القرية إلا بعد انصرافه .

والفَيْوُلُ هنا ، كما في كلِّ مكان ، تَسِيرُ بِحَذَرٍ كبير ، والفَيْوُلُ تَعْرِفُ متى يَصْعُقُ السُّودُ في قَرَامٍ بُرَّتْهم على ظُهورِ جِمالهم ، والفَيْوُلُ وَأَثْبَهُمْ في ذلك الحين فَتَصْعُقُ الْجِمالُ أَثْقَالَهَا وَتَنَالُ الفَيْوُلُ ما تريد ، وتقول القِصَّةُ إن أحد الملوك أراد ذات يوم إخضاعَ زَوجِ ذلك الصَّيْغِ ، وَيَجِدُهُ هؤلاء الزَوجِ من الخُبْثِ وَالْهَوْلِ كَنَهَابِ غَلَايَتِهِم البغيض ذلك فَيَصِيحُونَ عند وصوله بقولهم : « يان هوى ! أنت فيل ! » ، ويسأل الملك عن معنى ذلك ، وَيُذَكِّرُ الدُّعَابَةَ كَشَرَفِيٍّ وَيَصْعُقُ حُداً للغزو وَيَعِدُّ بِإِنصافِ كُلِّ مَنْ يَدْعُوهُ على هذا الوجه ، ومن ذلك الحين يَزَكِّعُ كُلُّ سَائِلٍ مُلْحِفٍ أُمَامَهُ وهو يقول : « يان هوى » ، واليوم تجيء هذه الكلمة بمعنى « أيها الملك ! يا صاحب الجلالة ! » ، وهكذا يَخْمِلُ نَجَاشِي الحَبْشَةِ العاديُّ اسمَ أقوى وأنبه حيوانٍ في السَّكُونِ .

(١) المِصر : المدينة — (٢) القِرْدُوح : الفرد الضخم .

وفي الشتاء يعود القيل إلى بقاع الجنوب المهجورة مُتَسَلِّقاً مُنْحَذَارَاتٍ تَتَحَدَى  
الإنسانَ ، وتجذبُه غابات الخيزُرَانِ حَوْلَ مَصَبِّ نهر دِيدَسَا في النيل الأزرق  
من الناحية اليسرى ، وهناك تُرْمَى مطروحةً على الأرض مئاتُ من الشجر الكبير  
الذى يُحِبُّ القيلُ النهيم ثِمَارَه السَّريَّة الصغيرة ، والقيلُ يَهْرُ الأشجار  
بِخُرْطُومِه ويُجَنِّدُهَا عندَ عدمِ فائدةِ المَرْزِ ويجمع تلك الثَّمَارَ الشَّكْرِيَّةَ واحدةً بعد  
الأخرى باعتبارها .

وفي أقصى عُقْدَةِ النهر يُمَهِّدُ البلدُ رُويْدَا رُويْدَا ، وَيَغْدُو المَصِيقُ أَشَدَّ أَلَمًا ،  
ويبدو مجرى النهر أكثرَ ظهوراً ، فَإِذَا قُطِعَتْ أُمُيَالٌ قَلِيلَةٌ لَاحَ سَهْلُ الفَنْجِ وَلاحت  
تلالٍ متفرقةٌ في سُهْبِ السودان ، ويشهد النيل ، قبل مغادرته الحَبَشَةِ ، منظرًا  
غريباً يُوحِي بِمَصِيرِ هذا البلد .

وفي مَصَبِّ دِيدَسَا وغيره من روافد النيل ، وبالقرب من حدود السودان ،  
يُجْلِسُ القُرُفَصَاءُ بَضْعُ مِثَالٍ مِنَ الزَّوْجِ عُرَاةً فِي السَّعِيرِ الَّذِي يَفِرُّونَ مِنْ حُمَايَتِهِ  
عَادَةً ، وَيَخْرُجُ أَنَاسٌ آخَرُونَ مِنَ الغَابَةِ مَسْكِينَ بِضَرْبٍ مِنْ صَوَلْجَانِ الكُرَّةِ  
وَصَحْفَةٍ مُسَطَّحَةٍ مِنَ الخشبِ وحاملين في أعناقهم قَرَعَةً صَغِيرَةً مَرْبُوطَةً بِسَخْلٍ <sup>(١)</sup> ،  
وهم يَنْتَحِنُونَ فِي المَاءِ الأَدْنَى وَيَتَحَتَّونَ بَيْنَ الحِجَارَةِ وَيَرْمُونَ مُعْظَمَ الحَصَى ، وَلَكِنْ  
مَا يَصْنَعُونَهُ فِي صحافهم يَسْتَطِيعُ تَحْتَ الشَّمْسِ ، وَإِذَا مَا مَرَّ النَّهَارُ صَبُّوا فِي القَرَعَةِ  
مَا وَجَدُوهُ وَحَلَّوهُ إِلَى رَقِيبٍ يَزِنُهُ بِمِيزَانٍ أَوْ رِبِيٍّ صَغِيرٍ .

وَيُقَرَّضُ الحَجَرُ النَّارِيُّ الأَعْلَى قَرَضًا عَمِيقًا ، وَتُظْهَرُ طَبَقَةُ بِلَوْرِيَّةٍ وَتَنْتَشِ  
حَصْبَاءُ اللَّزْوِ <sup>(٢)</sup> وَشَطَايَاهُ بِقَاعًا بِأَسْرَها وَيُكْتَشَفُ الذهبُ فِي ذَلِكَ مِنْذُ القَدِيمِ .

(١) السحل : الجبل الذي تفل فخلا واحداً - (٢) المرو : الصوان البلورى .

ويقوم نصيب ذلك البلد على البحث عن الذهب والعبيد ، وفي غير مكان .  
خَلَطَ إِلَهُ النار التي تحت الأرض عنصرَ الذهب بالمواد التي كان يُحرَّكها باليد ،  
وبما أن هذا للمدين يُعرف بسهولة في الأنهار بحث ملوك البلد عنه منذ أقدم  
المصور ، حتى إنه ظن أن بلد الذهب أوفير<sup>(١)</sup> هو هنا ، ومما يروى أنه يستخرج  
منه ثمانون ألف جنيه في كل عام ، ولكن هل من عادة الملوك المطلعين بيان  
الرقم الصحيح لثقلهم ؟ والنجاشي يأخذ نصف ذلك رسمياً ضريبة .

ويُجمع ذلك في قوادم<sup>(٢)</sup> ، ويُصنع منه خواتم ويُباع ، وماذا يُنالك مقابلة ؟  
يؤخذ سلاح وآلات . ومن يستفيد من ذلك ؟ إن الزوج الذين يفسلون ذهب  
النجاشي قاعدين الترفعاء في الماء عشر ساعات يومياً هم من القلاء أو من العبيد ،  
فلا يُعطون ملجأ ولا نقداً ولا قلائد ولا بقرأ ! والذهب قد ذهب من هنا إلى  
أديس أبابا حيث يحول سائل ستور الزباد القُدسي إلى عطر ، وفي ردهة  
مُعطاة يسطّر يفتح الذهب في جيد سيدة ذات لحاظ بتقيد شهوة أو تُتبدل  
به سيارة إنكليزية أنيقة يركبها متفتحا راس مزينة أصاصه بالخواتم توافي  
إلى اللطام مشتاق إلى الانتقام ، كما هي الحال منذ ثلاثة آلاف سنة .

(١) أوفير : بلدي الشرق ، وقد يكون اليمن ، وقد يكون إفريقيا ، فكان الملك سليمان يرسل  
من يبحث له عن الذهب فيه — (٢) القوادم : الريشات التي في مقدم الجناح ، وهي كبار الريش ،  
والخفافى متاراه ، وهي تحت القوادم .

في ذلك الدور تَزَيَّنَ أجملُ مَلَكَاتِ إثيوبية وأشهرُهن بالذهب والحجارة  
الكرمية لتزور أورشليم ( القدس ) وتَتَعَرَّفَ بالأمير الذي يَمْلِكُ هنالك فيَعِدُّهَا  
جاءلاً وصينياً ، ومن الحقُّ أن كانت ملكةَ البلد الذي سَحَلَ بعد زمنٍ اسمُ المين ،  
ومن أورشليم جاء تُجَّارٌ إلى المين لِيَشْرُوا منها حجارةَ بناءٍ رائعةً بأى ثمن كان  
وليأتوا بها إلى مولايم الذي كان يُقيم هيكلًا عظيمًا تمجيداً لإلهه يَهُوَه .

وكان ذلك الملك ينطق بما لا يُحصى من الأحاديث والأمثال وأناشيد الحب ،  
ولم يَعْرِفْ أحدٌ أى الأمرين كان يَتَغَلَّبُ عليه : الحِكمةُ أم حبُّ النساء .

إِذَنْ ، ذهبت مَلِكَةُ سَبَأَ إلى الملكِ سَليانَ ، وسَحَرَ كلُّ منهما بِمِثْلِ إلى  
الآخر ، وكان عندها مثلُ ذكائه فامتنت عن الإِلاف<sup>(١)</sup> في بدء الأمر ولم تُقِمْ  
بقصره ، ولما تَمَلَّقَهَا سَليانَ خاطبته بالحِكمة ، فاضطُرَّ طَوْعاً أو كَرْهاً إلى نِقاشها  
في الفلسفة ليلاً بأجمعها لما كان عليه من الثَّبل ، وَتَحِينُ ساعةَ الرحيل وتَعُدُّ  
القافلة مُثَقَلَةً بالهدايا التي تَسِمُ على بذخِ الملك اليهوديِّ ذلك ، وتُبْصِرُ الملكةُ نَزَقَ  
الملك الذي كان غَيباً مع حكته فَسَكَنَتْ وسأوته بأن أَجَلَتْ سفرَها إلى الغد ،  
وتَقْدِمُ فتُتَلِّغُ سَليانَ أنها تقضى تلك الليلةَ الأخيرة في قصره إذا أقسم ألا يَسْهَى ،  
وتقابل ذلك بتعهدها ألا تأخذ شيئاً مما هو خاصٌّ بها ، ويدرك سَليانُ بحكته معنى  
كلماتها المضاعف ، ولكن سَليانَ يَعُودُ بطاهيه ويأمره بأن يُعَلِّلَ طعامَ الوداع  
بالتوابل والأفاويه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

(١) الإِلاف : المباشرة .

وهناك رأت للملكة أن مُصَيِّفَهَا أدرك أمرَهَا ، فلما اختلفَا كانت الأفاوية والحمر من شدة التأثير فيها ما اكتفت معه بقولها :

« أَحِلَّكَ من عهدك أيها الملك إذا ما أَسَقَيْتَنِي . »

وَيُرَوَّى الملكُ الفَنِيجُ غُلَّتْهَا بَشَى الأَوْضَاعِ ، وَيُؤَخَّرُ السَّعَرُ ، وَلَا يَرِيدُ الملكُ أن يَدَعَهَا تَرْحَلُ ، وتَلُوحُ موافقتها على ذلك ، وَلَمَّا سَحَلَتْ مِنْهُ وَشَمَرَ جَمِيعُ البَلَّاطِ بِذلك مع الوقت عَزَمَتْ على الذهابِ ، وَيَظْهَرُ أن قريجة سليمان انطلقت مع نشيد الأناشيد أيضاً ، وَتَضَعُ في الطريق ولداً فتسميه مِئْلِيكَ بنَ حَكِيم ، وكان هذا باهرَ الجمال .

ويصبح الغلامُ مَلِكاً ، فيَزُورُ أباه في أورشليم وَيَقْبَلُ بِقبولٍ حَسَنٍ ، وَيَبْغُو مُقْلًا بهدايا من أسباط بني إسرائيل الاثني عشرَ ، وَيُضَحِّبُ مَقَاتِلَةً وَكَهَنَةً لتعليم الأحباش دين اليهود ، ولم يَكُنْ مِئْلِيكَ يتوارى حتى أبصر سليمان مذهبوراً اختفاء تابوت العهد أو الألواح النحاسية التي نَقَشَ موسى عليها وصايا الرب فكانت أقدس ما لدى اليهود ، وَيُوكِّدُ مِئْلِيكَ فيما بعد أن كُفَّاه سَرَقَها من غير أن يَعْلَمَ ذلك مُتَّبِعاً في نصر يَحْدُثُهُ ما يَفْعَلُهُ الملوك في مثل هذه الأحوال ، ومهما يكن الأمر فقد تَذَرَعَ سليمانُ بالحكمة فأمر الحَبَرَ الأكبر بأن يَلْزِمَ جانب الصمت ، وَتَقَبَّ القافلة بنفسه على غير جدوى ، فقد حَفِظَتِ الملائكةُ اللصوصَ كدأهم في ذلك الزمن ، فجازر اللصوصُ البحرَ الأحمرَ بِأَثاقٍ وَبَلَّغُوا القصرَ الملكيَّ ، وَيُوقُّ سليمانُ لصُنْعِ مثل تلك الألواح مستعيناً بعاملٍ ماهر فلا يَعْرِفُ عِزْرِي أَنَّهُ يَعْبُدُ تابوتَ عهدٍ كاذب .

وأحاط العربُ والرَّبَّانِيُّونَ ملكةَ سَبَأٍ بِأساطيرهم ، وجعلوا منها بَلَقِيسَ



١١ — من الشلاك





أَوْ عَرَّافَةً تَحْمِلُ الْأَلْفَازَ وَتَعْرِفُ حَتَّى خَشَبَ الصَّلِيبِ الْحَقِيقِ ، وَتَسْمُكُ الْأَحْبَاشُ  
بِأَحْدُوثِهِمْ ، وَيُصَوِّرُونَهَا عَلَى جُذُرِ كَنَائِسِهِمْ ، وَتُنَسِّخُ هَذِهِ الصُّوْرَ فِي بَارِيسَ  
وَلَنْدُنَ رَسُومًا شَعْبِيَّةً وَتُوزَعُ بَيْنَ أَهْلِ ذَلِكَ الْبَلَدِ ، وَيُرَى فِيهَا كُلُّ مِنَ الْعَاشِقِينَ  
عَلَى فَرَّاشِهِ الْخَاصِّ ، ثُمَّ يَظْهَرَانِ عَلَى سَرِيرٍ عَرِيضٍ ذِي مَنْظَرٍ عَصْرِيٍّ ، وَمَعَ ذَلِكَ  
يَبْدُو نَشِيدُ الْأَنَاشِيدِ لِلْأَحْبَاشِ مِنْ فَرْطِ الْغَامَةِ مَا لَا يُطَبِّقُونَهُ مَعَهُ عَلَى مَلِكَتِهِمْ ،  
وَالْأَحْبَاشُ يَقُولُونَ مُوَكِّدِينَ إِنَّ سَلِيمَانَ وَضَعَ نَشِيدَ الْأَنَاشِيدِ هَذَا فِي حِضْنِ ابْنَةِ  
أَحَدِ الْقَرَاعَةِ فَيَحَاوِلُونَ ، عَبَثًا ، حَظَرَ قَرَأَتِهِ عَلَى الْفَتَيَاتِ وَعَلَى الْكَهَنَةِ الَّذِينَ يَقْرءُونَهُ  
مَجْتَمِعِينَ ، وَهَكَذَا تَرَى الْغَرَامَ يُنْفِرُ عَنْ إِبْجَادِ أُسْرَةٍ مَلَكَتْ سِتَّةَ عَشَرَ قَرْنًا ، أَيْ  
مَا بَيْنَ سَنَةِ ٨٠٠ قَبْلَ الْمِيلَادِ وَسَنَةِ ٨٠٠ بَعْدَ الْمِيلَادِ ، أَيْ مَدَّةً طَوِيلَةً لَمْ يَتَّفِقْ مِثْلُهَا  
لَأَيَّةِ أُسْرَةٍ مَالِكَةٍ ظَهَرَتْ عَلَى شَوَاطِئِ الْبَحْرِ الْمُتَوَسِّطِ . وَلَا نَعْجَبُ ، إِذَنْ ،  
مِنْ ظُهُورِ أَمِيرٍ مَا كَرِهَ يُرِيدُ فِي أَيَّامِنَا إِقَامَةَ عَرْشِهِ لَهُ فِي ذَلِكَ الْبَلَدِ فَيُعَلِّنُ انْتِسَابَهُ إِلَى  
تِلْكَ الْأُسْرَةِ لِلْمَالِكَةِ مِنْ آلِ سَلِيمَانَ مُتَحَلًّا بِاسْمِ مِينَلِيك .

وَلَا يُنْفَسِرُ جَمِيعُ مَا وَقَعَ مِنْ ذَلِكَ الْحِينِ فِي ذَلِكَ الْقِسْمِ مِنْ إِفْرِيقِيَّةٍ بَغِيرِ احْتِلَاطِ  
الْعُرُوقِ وَالْحَضَارَاتِ الَّتِي كَانَتْ تَتَّصِلُ بِالْحَبَشَةِ بِطَرِيقِ الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ وَالصَّحْرَاءِ النَّوْبِيَّةِ ،  
وَيَعْرِفُ الْأَحْبَاشُ ذَلِكَ فَيَسْكُتُونَ بِلَدِّهِم بِالْحَبَشَةِ ، أَيْ بِالْخَلِيطِ ، وَهَذَا مَا يُمْكِنُ إِطْلَاقُهُ  
عَلَى جَمِيعِ شُعُوبِ أَوْرَبَةِ .

وَكَانَتْ الْأُمَمُ الْقَاتِمَةُ وَالْأُمَمُ التَّاجِرَةُ تَتَجَذَّبُ بِلَا انْقِطَاعٍ إِلَى الْبَلَدِ الَّذِي يَشْتَمِلُ  
عَلَى الذَّهَبِ وَالْعَاجِ وَالرَّقِيقِ ، وَأَيُّ الْمَرْقُوقَيْنِ دَحَرَ الْآخَرُ ؟ وَمَا هُوَ مَدَى دَحْرِ  
الشُّعُوبِ الْحَامِيَّةِ لِلشُّعُوبِ السَّانِيَّةِ نَحْوَ الْجَنُوبِ ؟ ذَلِكَ مَا لَا يُعْرَفُ مَعْرِفَةً تَامَةً  
وَلَا يَقْدُو حَدٌّ جَدَلِ الْأَسَانِدَةِ ، وَيُظْهَرُ أَنَّ الْإِثْيُوبِيِّينَ لَمْ يَأْتُوا بِغَيْرِ غَزْوٍ وَاحِدٍ

لحاضرة أجنبية ، وذلك قد حوَّلى سنة ٧٣٠ قبل الميلاد حين فتحوا مصر وأنوا بمقدار من الآلهة والعدادات المصرية ، وبالناصر اليهودية والعربية اختلط الأغارقة الذين أطلقوا اسم إثيوبية الراهن على ذلك البلد وعلى المناطق المجاورة ، وكانت أكنُوم ، التي أسفر الحفر الحديث في شمال الحبشة عن إبراز أطلالها للأعين ، مسيطرة على بلاد العرب ، ونحن لكي نضع حداً لارتباك الحضارات هذا نقول إن أحد أولئك الملوك اليهود العرب تسمى بابن الأريس<sup>(١)</sup> ، وكان ابنُ آلهة اليونان هذا أول من تعمَّد تكفيراً عن السيئات ، وهكذا ليس ابنُ الأريس هذا خواتم الأسطورة الثلاثة قبل أن توجد ، وكان الأحياش نصارى قبل مُعظم البيض زمن طويل ، وما كان من تتمتع هذه القبائل بقرية نصرانية بالغة من القدم خمسة عشر قرناً فيمكننا أن نسأل معه : هل يفوق أدب هؤلاء النصارى أدب جيرانهم من الوثنيين أو المسلمين ؟

وترتفع هذه النصرانية الجديدة التي هوجمت من جهتين في عام مولد محمد ، وبيان ذلك أن نصارى الحبشة كانوا قد توعَّدوا مكة فردُّوا على أعقابهم في ذلك العام ، وهم لم يلبثوا أن أكرهوا على الجلاء عن جنوب بلاد العرب بفعل الجُدري ، وهذا الأمر من الأمثلة النادرة التي يكون بها لإحدى الجوائح<sup>(٢)</sup> نتائج سياسية في تاريخ العالم . في تلك الأمكنة يبدأ الصراع بين الديانتين ، ويختلط بهذا النغم اليوناني العربي النصراني صوت اليهود الذين تسرَّبت معتقداتهم في الحبشة مرة ثانية منذ القرن السادس ، وذلك لما يروى من انتقال أغارقة الحبشة

(١) Ares ، ولعل الاسم عرف من الحارث أو الرايش - (٢) الجوائح : جمع الجائحة ، وهي البلية والهلكة والناحية الظلمة .

للـيهودية بتأثير بدوين جَلَبُوا عاداتهم إلى بدوين آخرين ، لا بتأثير البعثات التبشيرية ، وفيما يدْعُو هؤلاء أنفسهم بالفلأشا ( أى المفهوم خطأ ) يَتَقَوَّى اليهود . ويتخذ مجرى الحوادث سيراً سُخْرِيّاً ثابتاً أمره فى القرن التاسع ، فى ذلك الحين طَرَدَتْ أُميرةٌ يهوديةٌ من الحَبْشَة آلَ الْمَلِكِ الذين ينتسبون إلى سليمان ، وانتحلت النصرانية ، وَتَحْكَمُ هذه الأُميرة فى شمال البلاد حاملةً اسمَ الْمَلِكَةِ يَهُودِيَّتْ ، وكان لا بُدَّ من مرورِ أربعةِ قرونٍ حتى يدَّعى أُميرٌ من أُمراءِ الْجَنُوبِ بأنه من سلالة سليمان ومِنْلِيكٍ قَيْتَصِر على ذُرِّيَّةِ يَهُودِيَّتْ ، ويستتر تحت شتائم هذا الملك اللاسامية تَعَطُّشُهُ إلى السلطان وحسدهُ كما لو كان قد ظَهر بعد سبعةِ قرون .

وَيَتَلَقَّبُ هؤلاء الملوكُ النصارى بالقَمَامِص<sup>(١)</sup> ، ولا يَبْدُونُ أصلحَ من الملوك اليهود ، فَيَدُلُّ مِنْظَارُ تاريخهم فى القرون القليلة القادمة على صُورٍ ومنَاطِرٍ مُذْهِلَةٍ ، وذلك لِما يُرى من تقطيعِ مَلِكاتٍ مغلوباتٍ إِرْباً إِرْباً ورَمْيِ هذه القطعِ إلى السُّكَلابِ واحتفالِ الرهبانِ بقتلنَّ فى مَوَكِبِ عامٍ ، ولِما يُرى من قساوسةٍ أَطْهَارٍ يولمون بالخريرِ وِرخاءِ العيشِ فَيُرَجَّبُونَ رؤساءَ وثنيين وَيَقْصُفُونَ<sup>(٢)</sup> معهم ثم يَحْمِلُونَ عبيدَهم على ذُبُحهم ، وأولئك من النصارى المؤمنين الذين يباهون بانتسابهم إلى أقدم المذاهب .

(١) القمامص : جمع القمص ، والكلمة ترجمة Archiprêtre , Archiprêtre — (٢) قصف : أنام فى أكل وشرب ولهو وأكثر من ذلك .

رُئي في بدء الأمر أن الحَبَشَةَ هي القِرَدَوْنِس في الأرض ، وَعَدَّ يَوْسُفُ<sup>(١)</sup> النيلَ أحدَ النهرين التورائين ، وفي الحَبَشَةِ بحث الناس عن الذهب والعبيد منذ إخراج آدم وحواء من الجنة وتوجيه الذهب والسلطان للرجال في أعمالهم ، وللحَبَشَةِ مَنَمَةٌ بجبالها ومطرها ، مع أن مغازى الفاتحين في سُهوب السودان أسفرت عن قَهْرِ الأُمَمِ المالكة المحلية في قرون كثيرة ، وقاومت الحَبَشَةُ جميع الغارات كما قاومت سويسرة ، لأن المطرف فيها يَكُنْسُ الطرق والجبوش ، وإذا عَدَوَتْ مكانًا واحدًا بدأ لك الجبلُ قائمًا حتى البحر الأحمر الذي تَسِيرُ منه تجارةُ العالم في كلِّ زمن ، وهكذا ، لا ترى من الدول التي ازدهرت في إفريقية ، بين الدرجة العاشرة والدرجة الخامسة عشرة من العرض الشمالي ، غيرَ دولةٍ واحدة ظلت باقيةً ، غيرَ بلادِ النيل الأزرق الذي هو حِصْنٌ طَبِيعِيٌّ .

وكان قدماء المصريين ، كَتَجَّارِ اليوم ، يَذْهَبُونَ إلى هنالك طَلَبًا لِلْبَّانِ والعاج والذهب والرقيق ، حتى إنه يُفْتَرُ في مصرَ على طاجِ إِيثُوتِيٍّ من عاج ما قبل التاريخ ، وأدخل أولئك التُّجَّارُ ثلاثة أديانٍ وأربع حضاراتٍ أو خمسَ حضاراتٍ وجلبُوا معهم أنوارهم واضطربهم إلى تلك الأودية الضيقة الوعرة ، ولكن الجنادل والجبال : الأنهار والأمطار كانت تحالف الإنسان على دَفْعِ الأجنبي إذا ما أراد الاستيلاء على البلد ، ولكن هذه العناصر تُفَرِّقُ تلك الدولة إلى أجزاء كثيرة لا يستطيع أيُّ

(١) يوسف : مؤرخ يهودي ( ٣٧ - ٩٥ ) .

أُمِيرُ أَنْ يَسْطِرَ عَلَيْهَا كُلَّهَا ، تُرَقِّقُهَا إِلَى أَجْزَاءٍ تَتَقَابَلُ دَوْنَهَا فَتَحْفَرُ كُلُّ إِنْسَانٍ إِلَى أَنْ يَكُونَ مَحَارِبًا ، وَكَأَنَّ الْأَجْنَبِيَّ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى فَتْحِ ذَلِكَ الْبَلَدِ لَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِهِ أَنْ يَهْتِمْنَ عَلَيْهِ ، وَهَذَا الْحِصْنُ الطَّبِيعِيُّ الَّذِي يَصْغُبُ قَهْرُهُ وَالَّذِي يَسُودُهُ الشَّقَاقُ هُوَ عُتْبَةُ الْقَارَةِ ، فَتَقَطَّعَ فِيهِ دَوْلُ الْبَيْضِ الَّتِي تَمْلِكُ الْبِلَادَ الْمُجَاوِرَةَ لِاشْتِمَالِهِ عَلَى مَنَبْعِ النَّهْرِ الْحَافِلِ بِالْأَسْرَارِ ، وَسُئِلَ فِي مَطْلَبٍ آخَرَ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ أَنَّ هَذَا الْبَلَدَ لَيْسَ مِنَ الثَّانِ مَا نَعَزُّوهُ إِلَيْهِ الْقِصَّةَ .

وَبَعْدَ أَلُوفٍ مِنَ السِّنِينَ تُتَبَيَّنُ الْآثَارُ عِدَّةَ الْفَاتِحِينَ الْأَجَانِبِ الَّذِينَ طُرِدُوا مِنْ بِلَادِ الْحَبْشَةِ ، وَمَا انْتَهَى إِلَيْنَا مَا ذُكِرَ عَلَى الْبَرْذِيٍّ مِنْ غَزَوَاتِ الْمَصْرِيِّينَ وَتَحْلَاثِهِمْ فِي الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ ، وَمَا انْتَهَى إِلَيْنَا مَا أُخْصِيَ عَلَى الْحِجَارَةِ النُّحُوتِ مِنْ مَعَاهِدَاتِ مَلِكَةِ سَبْتَا ، وَمَا انْتَهَى إِلَيْنَا مِسَلَّاتُ الْإِثْيُوبِيِّينَ الَّتِي نُصِبَتْ قَبْلَ الْمِيلَادِ بِأَلْفِ سَنَةٍ يَعْرِفَانِ لَمْ يُدْرِكْ أَمْرُهُ ، وَمَا انْتَهَى إِلَيْنَا رَوَايَاتُ هِيرُودُوتُسَ عَنْ كُنُوزِ ذَلِكَ الْبَلَدِ ، وَكَانَ أَبْلَاطَةُ الرُّومَانِ يَحْمِلُونَ عَلَى صَيْدِ صِغَارِ الْأَفْيَالِ هُنَاكَ لِيَتَلَهَّى بِهَا الشَّعْبُ ، وَكَانَ قِيَاصَرُهُ يَرْتَفِعُ بِأَخْذُونَ الذَّهَبِ مِنْ هُنَاكَ فِي مَقَابِلِ أَدَوَاتٍ لَا قِيَمَةَ لَهَا .

وَتَرَى مِنْذُ الْقَدِيمِ سِلْسَلَةً مُتَّصِلَةً مِنَ الْأُمَمِ الْبَيْضِ قَدْ انْقَضَتْ عَلَى هَذِهِ الْبِقَاعِ الْعَاطِلَةِ مِنَ الطَّرِيقِ وَالبَعِيدَةِ الْمَنَالِ ، وَلَا تَرَى وَاحِدَةً مِنْ هَذِهِ الْأُمَمِ ظَلَّتْ هُنَاكَ ، وَإِنَّمَا مَلَكَ الْبِلَادَ أَمْرَاهُ مِنْ أَهْلِهَا بِلَا انْقِطَاعٍ تَقْرِيًّا ، وَذَلِكَ مِنْ عَهْدِ ابْنِ سُلَيْمَانَ حَتَّى الزَّمَنِ الْحَاضِرِ .

وَأَخِيرًا لَمْ تَسْتَطِعِ الشُّعُوبُ الْبَحْرِيَّةُ الْكُبْرَى غَيْرَ الْإِنْجَارِ هُنَاكَ ، وَالْبَنْدُقيُّونَ <sup>(١)</sup>

طَرَدُوا العربَ من شواطئ البحر الأحمر ، وحَمَلُوهم على ثقل الذهب والعاج من الحبشة فوق الإبل من خلال البادية ، ولم تترك أكبر دولة بحرية في ذلك الزمن غير أثر ، غير ألواح رديئة لأفاقٍ اتحل هنا وَضَعَ تَيْسِيَانُ<sup>(١)</sup> لجيئه من البُنْدُقيّة ، ولا يزال الطراز الإيطاليُّ في ألواحهم الدينية الغليظة يَقِفُ نَظَرُ السَّيَّاح .

وَيَشْعُرُ نَجَاشِي الحبشة وبطركها بِخَطَرِ الكُفْرَةِ فيَذْكُرُ نصرانيته فيستصرخُ البابا ، ويكتفى البابا بإرسال كتابٍ باللغة اللاتينية إليه لم يَقْدِرْ أَحَدٌ في الحبشة على قراءته ، وبنجح هؤلاء الزوج الأتقياء كنيسةً في رومة لم تنفك تُسَمَّى سان ستيفانو دى موري منذ ثمانية قرون ، وَيَعْرِفُ حُجَّاجٌ من الأقباش في القدس بعد مدة أن مَلِكَ البرتغال هو أقوى ملوك النصرانية ، فلما أتى بلأطه وَفَدَّ حَبَشِيٌّ بِهَيِّىٍّ ولى هؤلاء الزوج ، الذين لم يعتد نصرانيتهم ، ظهره ، فهذا هو الجبل السائد حول الأقباش بعد منحهم كنيسيتهم في رومة بثلاثئة سنة .

وَوَقَعَ بعد قرنٍ فقط تعاقبُ الإخوان في يَسُوعَ المسيحِ ووَعْدُ القوى بمساعدة الضعيف ، وكان البرتغاليون قد عَلِمُوا أن ذلك القطر الافتراضى ذو أرضٍ ثلثها من ترابٍ وثلثها من ذهب فضلاً عن احتوائه عبيداً وعاجاً كما يُرَاد ، وعلى ما وَجَدَهُ الملك من مبالغية في ذلك ظَنَّ أن العكس هو الصحيح فأَمَّلَ ، على ما يَحْتَمِلُ ، أن يكون ثلثُ الأرض من ذهبٍ وثلثها من تراب ، والمغامرة تُسَكِّفُ البرتغاليين ثمناً غالياً في بدء الأمر ، فلما خَفُوا لنَصْرِ مَلِكِ البحر الأحمر على العرب الآتين من مصر والسادة لنصف الحبشة الذى أكرهوه على الإسلام غَلِبَ ابنُ فاسكودوغاما ، غَلِبَ هذا الفارسُ الذى هو من أنبل فرسانهم ، وعُدَّ بِوَقَطْعِ قاهره رأسه بيده

(١) تيسيان : رسام إيطالي مشهور ( ١٤٧٧ - ١٥٢٦ ) .

وَحُصِيَ جَمِيعُ أَسَارَى النِّصَارَى ، وَحَدَّثَ هَذَا سَنَةَ ١٥٤١ ، وَكَانَ لَا بُدَّ مِنْ مَرُورِ قُرُونٍ قَبْلَ أَنْ يَنْقُصَ أَحَدُ مُلُوكِ النِّصَارَى وَفَوْقَ سُنَّةِ الثَّأْرِ ، وَيَنْتَصِرَ الْبِرْتَقَالِيُونَ بَعْدَ عَامَيْنِ وَيُعِيدُونَ الْمَلِكَ الْحَبَشِيَّ إِلَى عَرْشِهِ ، وَكَيْفَ يُبْدِي الْمَلِكُ كَلُودِيُوسُ شُكْرَانَهُ الْآنَ ؟

عَزَمَ عَلَى اتِّحَالِ الْمَذْهَبِ الْكَاتُولِيكِيِّ الرُّومَانِيَّ فَأَثَارَ بِذَلِكَ مَنَازَعَاتٍ جَدِيدَةً ، وَاسْتَقَرَّ الْبِرْتَقَالِيُونَ بِالْبَلَدِ مَعَ عُلَمَاءَ وَتِجَارٍ ، وَكَانَ مِنْ عَادَةِ الْمُلُوكِ السَّابِقِينَ أَلَّا يَدْعُوا السُّفَرَاءَ يَهُودُونَ وَأَنْ يَغْمُرُوهُمْ بِضُرُوبِ الثَّرَاءِ وَالنِّسَاءِ لِمَا يُبْدُونَهُ مِنْ حَسَنِ النُّصْحِ وَأَنْ يُبْقِيَهُمْ أَسْرَى يُمَثِّلُ هَذِهِ الْمُغْرِيَّاتُ ، وَفِي هَذِهِ الْمَرْقَةِ أَقَامَ الْبِرْتَقَالِيُونَ فِي شِمَالِ بَحِيرَةِ طَانَةِ مَدِينَةِ غَنْدَارَ وَحَصَّنَهَا مَعَ أَبْرَاجٍ مُدَوَّرَةٍ ضَخْمَةٍ وَأَسْوَارٍ مُهِمَّةٍ كَأَسْوَارِ طَلَيْطَلَةَ ، أَيْ أَنْشَأُوا الْأَثَرَ الْوَحِيدَ الَّذِي تَرَكَ الْأُورِيُونَ خَارِجَ أَدِيسِ أَبِييَا بَيْنَ الْأَكُوَاخِ الرَّثْمِيَّةِ فِي تِلْكَ الْمَمْلَكَةِ .

وَكَأَنَّهُ قَدَّرَ عَلَى ذَلِكَ الْبَلَدِ الْجَبَلِيِّ أَنْ يُفَكَّ بِالْمَنَازَعَاتِ الدِّينِيَّةِ الَّتِي تَقْضُمُهُ كَمَا يُفَكُّ بِالْمَطَرِ وَالنِّيلِ ، وَمِنَ الْيَسُوعِيِّينَ الرُّومَانِيِّينَ أَنْاسُ أُرْسَلَهُمُ الْبَابَا لَمْ يَأْلُوا جُهْدًا فِي تَوْطِيدِ سُلْطَانِهِمْ هُنَاكَ ، وَفِي عَتَبَةِ الْعَالَمِ النِّصْرَانِيِّ وَبَيْنَ شِبَاهِ الزَّوْجِ تُبْصِرُ الصَّرَاعَ حَوْلَ تَعَالِيمِ يَسُوعَ قَدْ ثَارَ حِينَ ثَارَ فِي أَوْرَبَةِ وَبِمَثَلِ الْحُمَيَّا الَّتِي هَاجَ فِيهَا لَدَى الْأُورِيِّينَ ، وَلَمَّا عَادَ الْمَسْلُومُونَ لَا يَهْدُدُونَ النِّصَارَى عَزَمَ النِّصَارَى عَلَى التَّنَازُحِ ، وَلَمْ يَتَقَاتَلْ رُؤَسَاءُ الْقَبَائِلِ الْعَرَبِيَّةِ الْيَهُودِيَّةِ أَوْلَتْكَ مَعَ أَنْ مَعَابِدَهُمْ كَانَتْ مِنْ أَكُوَاخٍ وَكَانَتْ طُقُوسُهُمْ قَائِمَةً عَلَى الطَّبْلِ وَالنِّدَاءِ ؟

السَّيْحُ مَسُوحٌ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ ، وَلَكِنَّهُ لَا يَحْتَاجُ إِلَى ذَلِكَ ! وَكَانَ الْخُصُومُ يَضْرِبُخُونُ قَاتِلِينَ : هَذَا ضَلَالٌ ! وَإِنَّمَا يَجْمَعُ هَذَا الْمَسْحُ بَيْنَ طَبِيعَتِهِ ، وَآخَرُونَ



يصيحون قائلين : هذا أعظم بُهتان ! ولا يَتِمُّ فِدَاءُ البشر على يد المُخَلَّص إلا بالروح القدس ، وفي الحين بعد الحين تَتَفَقُّ هذه المذاهب الثلاثة على القول بأعلى صوت : اقْتُلُوا اليهود ! وذلك على أن تعود إلى سابق انقسامها .

وفي سنة ١٦٣٠ ، حينما كان غوستاف أدولف وفلنشتاين وتيلى يحوكون النصرارى بمدافعهم ، كان قواسم الأقباط والكاثوليك بالجبسة يُسلحون رعاياهم بالسيوف والرماح نصراً لمثل ذلك المذهب .

وخرت المملكة في أثناء اصطراع المذاهب ذلك كما حدث في ألمانيا وقتئذ ، فمن الجنوب أتى الفلانيون الذين هم مزيج من الزوج والحامين والعرب واستولوا على البلاد ، وتَنَقَّلَ الماسمة بلا انقطاع في أثناء القين وتصير الملوك ، وصار نجاشى غُندار لا يتمتع بغير سلطان صوري ، وكان كل أمير يسيطر بالقوة أكثر مما بالعقل ، وتَحِلُّ سنة ١٨٥٠ فيَضَعُ مغامرٌ حداً لتلك الفوضى التي دامت قرنين ، فقد تَلَقَّبَ كاساً الذي كان رئيساً لمصائب ، كأبطال أوميرس وكالطُفَاة المعاصرين ، بـ « نيجوس نيجيتى »<sup>(١)</sup> ، وحلَّ في الوقت نفسه اسم تيودور .

وكان هذا القميصُ النصراني في بدء أمره يبييع الكُتُو<sup>(٢)</sup> الذي يَصْلُحُ علاجاً للتَّيْنِيا<sup>(٣)</sup> ، ثم أصبح رئيساً لجماعة من قاطعي الطرق ، ولم يَمُضِ عليه زمنٌ حتى ارتقى إلى العرش كنيابليون الذي صار إمبراطوراً بعد أن كان ملازماً ، ويُذَكِّرُنَا هذا الملكُ بكثيرٍ من أولياء الأمور في زماننا أيضاً ، فهو قد أضعاف أترانه لَمَّا وَصَلَ إلى أوج المالى وبدأ وحشاً ضارياً قاتلاً لكل من يمارسه ، ولكن مع سَحْلِهِ البترك

(١) ملك الملوك — (٢) الكسو : المشيمة المهبية — (٣) التينا : الدودة العيربية .

وهي جنس من الديدان المريضة الطفيلية .

بالقوة على مَنَحِهِ الْبَرَكَهَ ، وَيُسَمِّرُ مَوْتَ زَوْجِهِ الثَّانِيَةِ عَنْ أَكْثَابِهِ كَثِيرًا ، وَيَتَزَوَّجُ ثَالِثَةً تَتَجَلَّى صِفَتُهَا الْبَارِزَةُ بِأَنَّهَا بِنْتُ لَأَمِيرٍ قَوِيٍّ ، وَهُوَ يَرَى الْعِوَضَ فِي نَتْمَتِهِ بِأَمْرَةٍ غَالَاوِيَّةٍ جَمِيلَةٍ ، وَكِلْتَاهُمَا تَرافقه فِي الْحَرْبِ ، فَتُنْصَبُ لِكُلِّ مِنْهُمَا خِيَمَةٌ عَلَى مَسَافَةٍ مَنَسَاوِيَةٍ مِنْ خِيَمَتِهِ الْمَلَكِيَةِ الْقِرْمَازِيَّةِ ، وَهُوَ إِذَا مَا سَارَ جَمَلَ إِحْدَاهُمَا فِي الطَّرِيقِ بِعِيدَةٍ مِنَ الْآخَرَى نِصْفَ مِيلٍ .

وَالْإِنْكِلِيزُ وَحْدَهُمُ هُمُ الَّذِينَ كَانَ تِيُودُورُ يُدَيِّنُهُمْ مِنْهُ ، لِاعْتِمَادِهِ عَلَى عَوْنِهِمْ ضِدَّ الْمَصْرِيِّينَ ، وَقَدْ بَلَغَ مِنَ الصَّدَاقَةِ لَاثْنَيْنِ مِنْهُمْ مَا انْتَقَمَ مَعَهُ لِقَتْلِهِمَا فِي إِحْدَى مَعَارِكِهِ بِقَطْعِ رُؤُوسِ ثَلَاثٍ مِنَ الْأَسْرَى ، وَهُوَ ، بَعْدَ هَلَاكِ الصَّائِدِ الْإِيرْلَنْدِيِّ وَالْقَنْصَلِ الْاسْكُوتِلَنْدِيِّ عَلَى ذَلِكَ الْوَجْهِ ، لَمْ يَرْكُفُوا لَهُ غَيْرَ شَخْصٍ وَاحِدٍ ، غَيْرَ الْمَلِكَةِ فَيْكْتُورِيَةِ الَّتِي غَدَتْ أَيْمًا مِنْذُ وَقْتٍ قَصِيرٍ ، وَهُوَ قَدْ أَبْصَرَ أَنَّ سُلْطَانَهَا عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الشُّعُوبِ السُّودِ يَزِيدُ لَا رَيْبَ إِذَا مَا تَزَوَّجَتْ « مَلِكَ الْمُلُوكِ » بِإِفْرِيْقِيَّةٍ ، فِي سَنَةِ ١٨٦٢ ، وَبَلَاوِاسْطَةٍ ، عَرَضَ عَلَيْهَا الزَّوْاجَ بِهِ .

وَحَدَّثَ مَا لَا يُصَدِّقُ ، حَدَّثَ أَنَّ ظُلَّ كِتَابَهُ مِنْ غَيْرِ جَوَابٍ ، وَيُؤْغِرُ هَذَا الْاسْتِخْفَافُ صَدْرَ أَقْوَى الْمُلُوكِ قَيِّقُفُ الْوَزِيرِ الْإِنْكِلِيزِيِّ كَمِيَرُونُ وَيُقَرِّئُهُ بِالْأَغْلَالِ مَعَ أَحَدِ الْجَرْمَانِيِّينَ ، وَتُنْظَمُ إِحْدَى الدُّوَلِ السُّلْطَنِيَّةِ لِلرَّابِعَةِ الْأُولَى ، أَيْ فِي سَنَةِ ١٨٦٨ ، حَمَلَةً تَأْدِيبِيَّةً ضِدَّ الْحَبَشَةِ ، وَيُؤْغَلُ الْإِنْكِلِيزُ فِي الْبِلَادِ وَيُحَاصِرُونَ « مَلِكَ الْمُلُوكِ » فِي قَصْرِهِ الْحَصِينِ ، وَيَطْلُبُونَ إِطْلَاقَ الْأَسِيرِ ، وَيَذْكُرُ الْمَغَامِرُ تِيُودُورُ نَشَأَتَهُ الْأُولَى الْبَاسِلَةَ وَيَقْتُلُ نَفْسَهُ ، وَيُنَالُ بِعَمَلِهِ هَذَا احْتِرَامَ الْأَعْقَابِ وَتَقْدِيرَهُمُ لِلشَّمَنِ الْغَالِي الَّذِي أَدَّاهُ .

جَعَلَتِ الجبالُ من الحَبَشِيِّ محارِبًا ، وكان المطرُ يَقْطَعُ كُلَّ حربٍ منذ  
ألفِ السنين ، ولا تُؤْتِي البَقْصَاءُ أَكْثَلَهَا إِلَّا بَيْنَ أَسْوَطِ وِمْباو ، وَلَدُنْكَ  
العَصْرَيْنِ لم يُقَلِّبْ هؤلاءِ القومُ الذين هم من شَبَاهِ المَسَاحِ نَجَاهِ أَسَالِيبِ  
الحروبِ الحديثة ، بل انتصروا في سنة ١٨٧٠ وسنة ١٨٩٠ على شَمِينِ ذَوِي  
أَسْلِحَةٍ جَدِيدَةٍ وَطَرَدُوهُمَا مِنْ بِلَادِهِمْ : انتصروا على المصريين ثلاثَ مراتٍ ، ثم  
غَلَبُوا إِيْطَالِيَةَ ، وفي سنة ١٨٨٥ كانتِ مِصْرُ تَعَالَجُ فِتْنَةَ المَهْدِيِّ الَّذِي كَانَ السُّودَانِ  
قَبْضَتَهُ وَالَّذِي كَانَ يَهْدِدُ الحَبَشَةَ ، وَتَحَدَّثَ إِيْطَالِيَّةٌ نَفْسُهَا بِأَنَّهَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَظْهَرَ حَامِيَةً  
لهذا البلدِ ظَافِرَةً فِي السَّاعَةِ الْآخِرَةِ بِحِصَّتِهَا مِنَ العَلَوِيِّ السُّودَانِ الْكَبِيرِ ، وَيَلُوحُ  
أَنْ مَصِيرَ الحَبَشَةِ أَمْرٌ مَفْرُوعٌ مِنْهُ ، وَمَا كَانَ أَحَدٌ لِيَعْتَقدَ بقاءَ كِيَانِهَا .

وَيُقْتَلُ آخَرُ نَجَاشِيٍّ عَلَى الحُدُودِ فِي أَثْنَاءِ محَارِبَتِهِ المَهْدِيِّ ، وَيُنَادِي أَحَدُ أَتْبَاعِهِ  
الأَقْرَبِيَاءِ بِنَفْسِهِ نَجَاشِيًّا ، وَيَرَى هَذَا النَجَاشِيَّ الجَدِيدُ فِي ذَلِكَ الحِينِ الَّذِي اسْتَفْجَلَ  
فِيهِ أَمْرُ أَنْصَارِ المَهْدِيِّ أَنْ يُقْطِعَ الطَّلَائِنَةَ مِنْطَقَةً مِنَ الأَرَاضِ وَأَنْ يَرْضَى بِحَايَتِهِمْ  
صُورَةً ، وَيَعْلَمُ ذَلِكَ النَجَاشِيُّ المِتَارُ مِنَ البَيْضِ أَنَّ عَلَى وَليِّ الأَمْرِ أَنْ يُثَبِّتَ صَفَاءَ  
أَصْلِهِ ، فَيَقْسَمُ بِمِثْلِكَ الثَّانِي ، مُدَّعِيًا أَنَّهُ مِنْ ذُرِّيَةِ مِثْلِكَ الأولِ الَّذِي وَرِثَ  
حِكْمَةَ سُلَيْمَانَ وَجَمَالَ مَلِكَةِ سَبَّأٍ مِنْذُ ثَلَاثَةِ آلَافِ سَنَةٍ .

وَكَانَ مِثْلِكَ الثَّانِي مَا كَرَأَ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يَكُونَ حَكِيمًا ، وَلَمْ يَكُ جَبِيلًا ،  
وَلَكِنْكَ تَحِيدُ فِي سَيْرِهِ مَا يَحْكِي صُورَةَ الأَسَدِ ، وَلَا تُبْصِرُ سِمَةَ السَّامِيَّةِ وَلَا

الحامية لدى هذا الملك ذى الشقرة التى هى آية آدمي الشمال ، ولو أُخفيت شفته الشفلى الغليظة فى صورهِ لبدأ عُصُلياً<sup>(١)</sup> اشكندنياً يا ذا عينين عسليتين ، وكان أقل قنوة وأكثر صواباً وأشدّ قروية من نظرائه الأمراء الآخرين ، وكان رزينا مع دُعابة ، وكان ذا طِباعٍ تختلف اختلافاً كلياً عن طِباع أسلافه ، وعُدَّت يده وخطه ضرباً من الجمال ضمن النطاق الذى يُحكم به فى أمر الخط الأحرى . وهو إذ كان ابناً لأُمير قوى لم يدخر وسعاً فى توطيد سلطانه بأية وسيلة كانت ، ولما قبض على زمام الأمور فى الخامسة والأربعين من سِنه سالم منافسه فزوجه ابنته ، ورَكَن إلى رجال الدين مع عدم اغترار بهم ، وبما أن النجاشى هو التصرف فى أموال رعاياه كلها وفق شيوعية معكوسة فإنه أباح للأمرأتهب ما يؤدون كما فى الماضى ، وما بدأ به من تغيير قليل فقد أملاه العقل عليه أكثر من أن يُمليه عليه البيض الذين لم يقتبس منهم سوى نظام الجيش ، وما كان ليرضى بالسجون ، فقد قال : « لا أريد أن يُغذى المجرمون ويُحرَّسوا على حساب أهل الصَّلاح والفضل ، ولا ينبغي أن يُروا ، بل يجب أن يُنسوا بسرعة » ، والجُلْدُ جزاء أخف الذنوب ، والجُدْعُ والصِّلْمُ<sup>(٢)</sup> ، أو الخصى ، جزاء الإجرام ، لِمَا فى فرضِ هذه العقوبات من عارٍ وعِبرة ، وكان فى كلِّ أحدٍ يُقرى<sup>(٣)</sup> فى عاصمته الجديدة أديس أبيبا « الزهرة الجديدة » ما بين ثلاثة آلاف رجل وأربعة آلاف رجل فيُعطون ، ويُعطى الجنودُ منهم على الخصوص ، عشرة آلاف رَغيف وأربعة آلاف ليرة من البَتِّع<sup>(٤)</sup> ومئتي قَوْر .

(١) الصلي : القوى الشديد العظيم من الرجال - (٢) سلم الأذن : قطعها من أسلمها .

(٣) قرى الضيف : أضافه - (٤) البت : نبيذ العسل .

ولا شيء، يؤثر فيه مثل الأعمال الصناعية الفنية، شأن البرابرة ومُعظم البيض، ولكنه ينظر إلى تلك الأعمال براءة الولد أو الجندي، وبما حدث أن عُرض عليه نموذج جسر فأنكر متانته وأبد إنكاره بكسره هذا النموذج بجُمع كفه، ويُعرض عليه نموذج ثان أكثر مقاومة فيرضى به لجزءه عن رضخه<sup>(١)</sup>، وتضرب النقود الذهبية الأولى المشتعلة على صورته فيمسح آلة الضرب بالذهن، ويصر القطع الأولى في منديله ويأتي بها إلى زوجه، ويعتمد على منظاره أكثر من اعتماده على جواسيسه، فلما طُلب إليه أن يأخذ جذره من مؤامرة صيد في بُرجه ورقب بمنظاره الطُرق والميادين ثم نزل مطمئناً، ويوضح له ذات يوم بدمي<sup>(٢)</sup> تأثير الألفام المتفجرة بفعل الكهرباء فيطير طائرته<sup>(٣)</sup> قائلاً: «أذلك هو الأسلوب الذي تريدون الحرب به؟ وما نفع الشجاعة الشخصية إذا كان أحد الأبطال يستطيع أن يُبيد ألاف الناس من بعيد بضغطة إصبع؟»، وهكذا ترى محارباً إفريقياً باسلاً يُبَيِّن فساد نظرية البيض حول البطولة.

ومن المحتمل أن كان أحسم عمل في حياته نتيجة غلط، وهو عندما عاهد إيطاليا خطأً تقدير قوة هذه الدولة في ذلك الحين جاهلاً، تقريباً، أمر منافساتها من الدول العظمى التي هي أوفر منها حظاً بإفريقية، ومن الممكن أنه كان ينتفع بإيطالية زيادة في سلامته وكسباً للوقت في تسكحه، ومهما يكن الأمر فقد أعلن حرية في معاملته الدول الأوربية الأخرى لنص المعاهدة على أن من حقه أن ينتفع بإيطالية كوسيط بينه وبين الأمم الأخرى، ويتمسك الطلائية بأنه ألزم نفسه باتخاذ

(١) رضخه: كسره - (٢) الدمى: جمع الدمية، وهي الصنم - (٣) طار طائرته: غضب أو أسرع وخف.

إيطالية واسطة اتصالٍ ، وبأن كلمة « الحق » شئٌ عقيمٌ يحاول به منليكُ أن يُفَات من المعاهدة ، وكان جيشُه مستعداً ، وكان خَطَرُ المهدي زائلاً ، وكان مَعْقِلُه الطبيعيُّ مع جباله ومَطَرِه من التمنّة كما في دَوْرِ ظهور البراكين ، ويحاولُ مبارزةَ إيطاليا إذَنْ ، وينالُ نصراً حاسماً عزيزاً إذَنْ ، وتمدُّ هذه مقابلةٌ للهزيمة التي وَقَعَتْ منذ ثلاثة قرون ونصف قرن ، والقصةُ القديمة تقول إن نجاشي الحبشة النصرانيّ كان قد أمرَ بِخَفْضِ كثيرٍ من أسْراءِ النصارى

ولكن تلك الإهانة لم تُحَرِّكْ ساكنِ وزاراتِ أوربة ، وقد قيلَ إن الوزيرَ الذي يفكر في مصير جنوده لا يَشْهَرُ حرباً أبداً ، وقد أوجبَ عدمُ وجودِ مثل هذا الخيالِ هلاكَ الملايين من المؤمنين بالتَمَثُّلِ الأعلى الذي يُلوِّحُ لهم به والذي يَرَوْنَ أن من مقتضياتِ الواجب والشرف أن يُصَحَّيَ بالحياة في سبيله .

وفي سنة ١٨٩٦ ، وبعد معركة عدوى ، يَكْتَتِبُ أذكي الأوربيين فلا يَعْرِفُونَ أين كانوا ، فقد هُزِمَتْ دولةٌ أوربية عظيمةٌ من قِبَلِ قبيلةٍ لَوْنُهَا كلون القهوة مع اللَّبَن ، وهل كان ذلك نذيرَ ارتقاءِ الشعوبِ السودِ وعِضَيانِ الزنوج ؟ وهل كان من الواضح أن الطبيعة تَحْمِي الحُبْشَةَ تِجَاهَ كُلِّ غَزْوٍ وكَيِّاتِهَا لروسية ؟ وهل نَجَا مَنبِعُ النيل من أوربة إلى الأبد مع أن مستقبلَ بلديْنِ كبيرَيْنِ يتوقف على امتلاكه ؟ لا يزال رجالُ المهدي يُمَسِّكون السودانَ وإن ضَمُّوا ، ويُمكن « مِفْتَاحُ النيل » الأُسْطُورِيُّ ، الذي يَتَحَدَّثُ عنه جميعُ العالم من غير أن يُعْرِفُ أمرُه ، أن يُعَيِّنَ السيادةَ هنالك وفي مصر ، ويُوَثِّرُ بَطْلُ عدوى في زملائه البيضِ لما كان من عدمِ مطالبته إيطاليا ، حين إمضاء المعاهدة ، بغير الاعتراف بسلطانهِ ، كما طلبَ بِسَارِكُ من النمسة بعد معركة سادُوَه .

وَيُضْحِي مِّنْلِيكُ ، الذي هو أقوى إفريقي في عصرنا ، ضحية امرأة أُرَاجَة<sup>(١)</sup> اسمها طِيطُو « رَهَج »<sup>(٢)</sup> شعاع الشمس » ، وكان الأمير مِّنْلِيك زوجاً الخامس ، وكانت ظريفة هيفاء وكان يُرَغَّب فيها لبياض بَشَرِها ، وهي لا تَمُتُ بصلوة إلى الأمِّ السمينة التي نُشِرَت صورة لها في أوربة ، وكان اقترانهما عتيماً ، وهو لعطله من وارثٍ لعرشه عَيْنَ ابنِ ابنته ولياً للعهد ، وتودُّ طِيطُو أن يكون أخوها نجاشياً حِرْصاً على حفظها قِسْطاً من السلطة ، وتَلَجُّ إلى وسيلة شائعة بين أشراف الحبشة ، تلجأ إلى السَّمِّ ، ولم يُنْفِرِ السَّمُّ عن مَوْتِ مِّنْلِيك وإن ناهز<sup>(٣)</sup> السنة الخامسة والستين من عُمره ، ولكنه يُصَابُ بِفَشٍّ ذَهَبِيٍّ وشللٍ بَدَنِيٍّ ، ويُدْرِكُ في فَتَرَاتٍ صَحْوَهُ ماذا وقع وَيُعَيَّنُ ولياً عهده مرةً ثانية ..

وتلقَى دسائسُ البَلَاطِ رِداءً من الكآبة على أواخر أيام مِّنْلِيك ، ويُتَوَفَّى مِّنْلِيك سنة ١٩١٣ في السبعين من سِنِيهِ ، مُوَحِّداً الحبشة بعد فوضى دامت أكثر من قرنٍ ، جاعلاً جسماً واحداً من سبع ممالك ومستعمرات واسعة .

## ٧

رجلان يسيران في مَرَجَجٍ<sup>(٤)</sup> على طول نهرٍ نصفٍ جافٍ ، وكلا الرجلين على سَفَرٍ ، والذي يتقدم الاثنان هو الرسولُ بطرس المشابهُ للذي يَبْدُو على فُسَيْفِساءٍ رَافِئَةٍ<sup>(٥)</sup> ، فهو ذورأسٍ أسمرٍ يُحِيطُ به شَعْرٌ طويلٌ وَلِحْيَةٌ قصيرةٌ سوداءُ ، وهو

(١) الأراج : التي يغري الناس بعضهم على بعض — (٢) الرهج : ما أثير من الفبار .

(٣) ناهز : قارب — (٤) المَرَجَج : الطريق الضيقة — (٥) رافئة : مدينة إيطالية .

ذو عَمْرَةٍ<sup>(١)</sup> لا شَكَلَ لها ولا لَوْن ، وهو أَسْوَدُ العَيْنَيْنِ حَامِلٌ يَدَهُ سِيفًا مُجَرَّدًا ذَا مِقْبَضٍ عَلَى صُورَةِ الصَّليبِ كَأَنَّهُ مِنْ جُنُودِ الحُرُوبِ الصَّليبية ، وَيَدُو خَلْفَهُ عَبْدٌ جَافٍ ذُو رِدَاءٍ رَمَادِيٍّ وَاسِعٍ عَارِي السَّاقَيْنِ حَامِئُ الرُّأْسِ حَامِلٌ حُلًّا ثَقِيلًا عَلَى ظَهْرِهِ خَافِضُ الرُّأْسِ خَفْضًا يَحُولُ دُونَ تَبَيُّنِ مَلاحِمِهِ ، وَهَكَذَا يَسِيحُ الحَبَشِيُّ العَبِيدُ مِنْ عَاصِمَةِ بِلَدِهِ عَلَى جِبَالِهِ ، رَاكِبًا ظَهْرَ بَقْلٍ أَجْيَانًا مَاشِيًا غَالِبًا ، وَذَلِكَ فِي سَنَةِ ١٩٣٠ كَمَا لَوْ كَانَ فِي سَنَةِ ١١٣٠ .

وَيَتَعَدَّرُ فِي دَاخِلِ البِلَادِ تَمييزُ مُخْتَلَفِ الأمثلةِ البَشَرِيَّةِ ، فَبَيْنَا تَرَى العِرْقَ العَرَبِيَّ غَالِبًا فِي السَّاحِلِ يَتَدَوُّ العِرْقُ الزَّنْجِيُّ غَالِبًا فِي الجَنُوبِ ، وَلِذَا يَكُونُ الجَنَسُ الحَامِيُّ الْأَصْلِيُّ قَدْ تَغَيَّرَ تَغْيِيرًا تَامًّا بِاخْتِلَاطِ العُرُوقِ ، وَمَا نَشَأُ عَنْ هَذَا الِامْتِزَاجِ مِنْ شَعْبٍ فَيَرْجِعُ اسْوَدَادُهُ إِلَى فِعْلِ الشَّمْسِ وَإِلَى مَا فِيهِ مِنْ دَمٍ زَنْجِيٍّ ، وَلَيْسَ إِلَّا ضَرْبًا مِنَ الرَّمُوزِ أَنَّ تَكُونُ تِلْكَ القَبَائِلُ ذَاتَ أَغَاظِرٍ صَفْرِ بَيَضٍ وَمُتَلَحِّمَاتٍ<sup>(٢)</sup> صَفْرِ ، وَمِنْ صِفَاتِهَا الَّتِي لَا تَجِدُ لَهَا تَفْسِيرًا هُوَ أَنَّهَا عُسْرٌ<sup>(٣)</sup> بِأَسْرَها تَقْرِيْبًا ، فَهِيَ تَحْمِلُ أَسْلِحَتَهَا وَأَلَانِيَهَا بِالْيَدِ الْيَسْرَى ، وَهِيَ لَا تَسْتَعْمِلُ الْيَدَ الْيُمْنَى إِلَّا فِي حَالِ نَعْدِهَا شَاذَةً مُقَدَّسَةً كَعَدِّ النُّقُودِ وَالتَّزْوِلِ مِنْ ظُهُورِ الحَيْثِلِ .

وَلِلْأَشْرَافِ مِثْيَةِ الرُّسُلِ ، وَإِلَيْكَ الْقَدِيسِ مَرْقُصِ اللِّابِسِ حُلَّةً بَيَاضًا ذَاتَ كُمَيْنِ وَاللِّابِسِ سِرْوَالًا ضَيِّقًا ، وَلَهُ طَوْرٌ زَنْطِيٌّ حِينَ جَلُوسِهِ عَلَى كُرْسِيِّهِ الْمُنُوجِ وَعَسَلٍ عَبْدٍ لِقَدَمَيْهِ .

وآخَرُونَ يَسْتَقْبَلُونَ الضُّيُوفَ فِي أَكْوَاحِهِمِ المَصْنُوعَةِ مِنْ صَلْصَالٍ ، وَهَمْ ،

(١) العَمْرَةُ : كُلُّ شَيْءٍ يَجْمَلُ عَلَى الرُّأْسِ مِنْ تَاجٍ وَعِمَامَةٍ وَغَيْرِهَا — (٢) Conjunctiva .

(٣) العُسْرُ : جَمْعُ السَّرَافِ ، وَهِيَ الَّتِي تَعْمَلُ بِشَايِهَا .



بأوضاعهم وملاصحتهم ولونتهم البرونزي وسنّاء ثيابهم الكثيرة الوشّاء<sup>(١)</sup>، يُذكرُ وتنا  
زَمَرٍ تَنْتَوِرِيَتْ<sup>(٢)</sup> ، وإذا أضفت ذلك إلى عيونهم السّود وصمتهم الناطق  
والأسلحة التي يَحْمِلُونَهَا دَوماً أبصرت فيهم منظرَ الأنبياء المثيرَ للحنّان ويَلْبَسُ  
الرّاساتُ، الذين هم أقوى أولئك، معاطف ذات قَبَاتٍ<sup>(٣)</sup> ضيقة مع حواشٍ بيضٍ  
فَيَسَابِهون بذلك أعيانَ تَيْسَان لو كانت شفاهُهم رقيقةً ، وتَرَى في الظّل وراءهم  
نُزْماً مُحَدَّباً وسيفاً قصيراً ورُحماً ساطعاً ، وتَنِمُّ قُدُودُهم ولونُهم على حُسنِ صحة  
أبدانهم في الغالب ، وَيُطِيلُونَ الإقامة بالجلال في الهواء الطّليق .

والْحِشْمَةُ سَمَةٌ نساء الطبقة العليا ، وَيَتَذَرُّ أَنْ تَرَاهُنَّ في الطُّرُق ، وإذا ما  
أبصرتِهِنَّ في البيت ، والبيت وحده هو الذي يَحِقُّ لهنَّ أَنْ يَجْتَمِعْنَ فيه بالرجال ،  
بَهَرَتِكَ عيونُهنَّ اللّوزِيَّةُ والعنايةُ العظيمة التي يَبْدُلْنَهَا في زينة رؤوسهنَّ والوقتُ  
الكبير الذي يَقْضِيْنَهُ في هذا السبيل ، وهُنَّ ، لِمَا يَشْدُذُنَ بعضُ ضفائِرنِهنَّ الصغيرةِ  
المجدولةِ جدلاً فنياً يعضُّ ، يَظْهَرُنَ قصيراتِ الشُّعُورِ بعضُ التَّصَرُّعِ على حين تَبْدُو  
شعورُ الرجال طويلاً بعضُ الطُّول ، وَيَبْلُغُ النساءُ من الزَّهْوِ بعلمهن هذا ما يَصْنَعُنَ  
معه رؤوسهنَّ على قطعة خشبٍ في أثناء نومِهنَّ وُصُولاً إلى دوام أثره ، والزَّهْمُ<sup>(٤)</sup>  
هو الدَّهَانُ الذي يستعمله كلا الجنسين .

وهنَّ كالباربيات المتبررات يَنْزَعْنَ حواجِبَهُنَّ ، وَيُحْطِطْنَ أقواساً مُسَمَّراً بدلاً  
منها ، وَيَذْهَبْنَ الْأَجْفَانِ بِصَبَاغٍ أَسْوَدَ ، وَيَذْهَبْنَ الْأَيْدَى والأرجلَ بِصَبَاغٍ  
أَسْمَرَ وَأَحْمَرَ .

(١) الوشّاء : جمع الوشي ، وهو نقش التّوب — (٢) تنتوريتو : رسام إيطالي

(٣) Cou (٣) — (٤) الزَّهْمُ : الطيب المرووف بالزباد .

والْحَبْشَةُ دَوْلَةُ كَهَّانٍ بِلَا تَدَبُّنٍ حَقِيقٍ ، وَكُلُّ شَيْءٍ هُنَاكَ خَائِرٌ<sup>(١)</sup> فِي شَعَائِرَ كَثِيرَةٍ عَاطِلَةٍ مِنَ التَّصَوُّفِ خَلِيقَةٍ بِالْقُرُونِ الْوَسْطَى غَاطِرَةٍ فِي الْخُرَافَاتِ فَاسِدَةٍ بِالتَّجَارَاتِ ، وَيَرَى الرَّؤَادُ أَنَّ خَطَّ الْأَدَبِ الْخُلُقِيِّ هُنَاكَ يَصْدُرُ مِنَ النَّصْرَانِيِّ إِلَى الْمَسْلَمِ فَإِلَى الْيَهُودِيِّ فَالْوُثْنِيِّ .

وَيَجُوبُ الْبِلَادَ مَنَاقِبُ وَأَلُوفٌ مِنَ الْقَاسَوَةِ وَالرَّهْبَانِ ، وَيُعْرِفُونَ بِلِحَاقِ الطَّوِيلَةِ السُّودَ أَوِ الرَّمَادِيَّةَ وَشَلَاتِهِمُ الْبَيْضَ فَوْقَ رُؤُوسِهِمْ وَأَحْذِيَّتِهِمُ النَّاتِنَةَ الْطَّرْفَ وَبَصْلَانِهِمُ الْفَهْيِيَّةَ أَوِ التَّعَدُّنِيَّةَ الْمُتَدَلِّيَّةَ عَلَى صُدُورِهِمْ ، وَطَبَقَةُ الْكَهَنُوتِ الْعَالِيَا مُؤَلَّفَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ ، وَهُمْ كَمُعْظَمِ الْأَقْبَاطِ عَارِفُونَ بَعْضَ الْمَعْرِفَةِ بِالدُّنْيَا ، وَلَكِنَّهُمْ يَظُنُّونَ فِي بُرْجِهِمُ الْمَاجِيَّ وَيُهْدِدُونَ بِالْقَتْلِ كُلِّ مَنْ يَوَدُّ تَرْجِمَةَ التَّوْرَةِ مِنَ الْإِثْيُوبِيَّةِ الْقَدِيمَةِ إِلَى الْأَنْجَرِيَّةِ الْحَدِيثَةِ ، وَهُمْ إِذْ يَلْجَأُونَ إِلَى الْحَرَمِ وَمَا إِلَيْهِ مِنَ الْوَسَائِلِ ، غَدَاؤُ الْأَمْحَابِ أَمْلَاقٍ وَاسِعَةٍ يُؤَجِّرُونَهَا أَوْ يَسْتَفِلُّونَهَا بِوَاسِطَةِ الْعَمِيدِ ، وَهُمْ كَأَسَاقَةِ الْقُرُونِ الْوَسْطَى ، يَعِيشُونَ بِمَا لَمْ مِنْ نَفَوزٍ فِي الْأَمْرَاءِ ، وَيَحْمِلُ الْبَطْرِكُ لِقَبِّ « بَابَا الْأَقْبَاطِ وَالْأَحْبَاشِ » وَهُوَ يُنْتَخَبُ مِنْ قَبْلِ الْجَمْعِ الرُّوحِيِّ الْقَبْلِيِّ فِي الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ ، وَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ دَوَّامًا عِلْمَانِيًّا مِنَ الطَّبَقَةِ الدُّنْيَا ، وَهُوَ كُلَّمَا زُرَّ كَيَّ ظَهَرَ مُخْتَارًا مِنَ الرَّبِّ ، وَهُوَ يُعْنَى بِتَرِيَّتِهِ وَيُكْرَسُ بِاحْتِفَالٍ وَيُرْسَلُ إِلَى الْحَبْشَةِ فَلَا يَحِثُّ لَهُ أَنْ يَفَادِرَهَا بَعْدَئِذٍ ، وَأَطِيبُ مِنْ ذَلِكَ حَيَاةُ سَجِينِ الْفَاتِيكَانِ ..

وَلَا يَصْنُبُ عَلَى جَمَاعَةِ الْقَسَّاسِينَ أَنْ تُخْفِيَ حِكْمَتَهَا عَنِ الشَّعْبِ ، وَهِيَ الَّتِي لَمْ تَعْلَمْ شَيْئًا ، وَهِيَ الَّتِي لَا يَعْرِفُ أَكْثَرُهَا حَقِيقَةَ الْقِرَاءَةِ ، وَإِنْ الشَّابُّ الَّذِي يَكُونُ مِنَ الْفَقْرِ مَا لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَعِيشَ مَعَهُ وَجِيهًا إِقْطَاعِيًّا وَالَّذِي يَكُونُ مِنَ الْكَسَلِ

(١) الْخَائِرُ : الْخَيْرُ الْمُسْتَد .

مالا يتعلم معه استعمال السلاح ينال ، عن قرابة أو بوسائل أخرى ، خطوةً لدى قسيسٍ عالٍ فيصَلِّبُ<sup>(١)</sup> له هذا القسيس ثلاث مراتٍ وينفخُ عليه فيصبحُ قسيساً مُصَنِّفاً كأمرءِ الألمان الذين كانوا يقدُّون من قواد الجيش فيصير بذلك في حِمَى من جدِّان بقية أيامه ، ولا مناص من إطعامه لما يتمتع به من حق منح البركة وغفران الذنوب ، والناس يُزدرونه مع ذلك ، والناس يُخشونه مع ذلك ، ويحقُّ للقسيسين التزوُّج وسين أن يتزوجوا مرةً واحدةً ، فإذا ما آمَ<sup>(٢)</sup> أحدُهم من زوجته لم يَحِقَّ له أن يَنكِحَ امرأةً أخرى ، ويمِيشُ الرهبانُ والراهبات في فقرٍ وبطالةٍ وعُبورٍ سبيلٍ فاقدٍ كلِّ كرامةٍ ، ومن هؤلاء أمراءُ مخلوعون وأغنياءُ محرومون ومجرمون سياسيون باحثون عن ملجأٍ لهم في دَيْرٍ وأناسٌ أفزعهم ضروبُ الوعيد ، وشغلُ جَحْفَلٍ هؤلاء الرهبان للتسولين الوحيدُ هو أن يجادلوا على مدى البصرِ مُبَشِّرِي الأجناب حول طبعيِّ يسوع ليعيِّنَ أمرُ تعييده مرَّتين أو ثلاث مراتٍ .

ويقوم القسُّ بالقُدَّاس في أكواخ الجبل العالي مُزَمَّلاً<sup>(٣)</sup> عادةً بجلبدي ضانٍ<sup>(٤)</sup> لخصره<sup>(٥)</sup> حاملاً يديه الفليفلتين صليباً وسُبْحَةً ورديَّةً ، ولا ينبغي له ولا لأحدٍ من المؤمنين الحاضرين أن يَمَسَّ امرأةً بعد هَزِيعٍ<sup>(٦)</sup> من الليل ولمدة أربع وعشرين ساعةً ، ولكن صُراخَ الذكور والإناث وما يمازج دَرَدَابَ الطُّبُولِ وصوتَ الدُّفُوفِ من نَهْبَقِ الحير وخُوارِ البقرِ أمورٌ تُثِيرُ في النفس منظرَ القَرَبْدَاتِ ، ولو قِيسَتِ القوى بعدد الأعياد الدينية ما وجدنا أمةً أتقى من أقباط الحبشة ،

(١) صلب الصرائي : عمل إشارة الصليب باليد على قسه — (٢) أم الرجل من زوجته : نفدما — (٣) المزمل : التلطف — (٤) الضان : مفرد الضأن وهو خلاف المزم من الغنم — (٥) خصر الرجل : آذاه البرد في أطرافه — (٦) الهزيع من الليل : الطائفة منه أو نحو ثلثه أو ربعه .

ولا عَجَبَ ، فأعيادهم تعدلُ ثلثي أيام السنة ، وتعدُّ أيامُ الأربعاء والجمعة أيامَ صَوْمٍ ، وإذا ما فُكِّرَ فيما يَسُودُ الناسَ هنالك من كَسَلٍ شاملٍ سُئِلَ عنِ العلَّةِ والمعلولِ .

وهكذا يعيشُ مُعْظَمُ الأَحْباشِ في عَسَى<sup>(١)</sup> ذهنيٍّ ، ولا يُعرَفُ عددُهم معرفةً تامَّةً ، ويَزْعَمُ ثلاثة ، أو أربعة ، ملايين من الملايين العشرة أنهم من « الخُلَصِ » وأنهم من نَسْلِ النصارى الأولين ، ومستوأم دونَ ما عليه زَنُوجُ بحيرة فيكتورية الذين لا يَدْرُونَ ما الدينُ ولا الإيمانُ ، وليس عندهم حتى براءة الدِّنْكَا العجيبة النابتة تحت الشمس ، وما يَبْدُونَ من اعتقادٍ كاذبٍ بالرَّبِّ فيُنْعِمُ عليهم بالغروبِ ويَحْرِمُهم نعمةِ الحرية .

والمسلمون أكثرُ عملاً ، وَيَبْلُغُ عددُهم بضِعَ مئاتٍ من الألوف ، ويعيشُ أكثرُهم في ولاية هَرَرَ الشماليَّةِ ، ولا يساوي ما يحوكونه من نُسُجٍ كبيرٍ شيءٍ ، وهم أهلُ كَدٍّ ، وهم ، وإن كانوا لا يُحْسِنُونَ إِدراكَ تعاليم دينهم الصحيحة ، يراعونها على كلِّ حالٍ ، ويُسَمَّى بقرُ الماء عندهم « خِنْزِيرُ النهر » فلا يأكلونه لتحريم لحم الخِنْزِيرِ عليهم ، ويستعملون مع الفتيات طريقةً خاصةً اخترعوها ، أو انتقلت إليهم لوجودها في الجرى الأوسط من النيل الأبيض ، وهذه الطريقة أشدُّ فعلاً من نِطاقِ الطُّهْرِ لدى الصليبيين ، فهم يَلْفَقُونَهُنَّ<sup>(٢)</sup> بِسَبَائِبِ<sup>(٣)</sup> الخليل ليَكُنَّ أبكاراً يومَ الزواج ، ومن الأزواج من هم غيَّارٌ فيلجأون إلى هذه الوسيلة مع زوجاتهم إذا سافروا ، وهي أرخصُ من حراستهنَّ بالخِصيانِ لِما يُكَلِّفُهُ الخِصيانُ من أَجْرِ عالٍ .

(١) العَسَى : ظلمة أول الليل — (٢) لفق الثوب : ضم شقة منه إلى أخرى فغاطلها .

(٣) السبائب : جمع السبب أو السبية ، وهي من الفرس شعر الذنب والنامية والعرف .

## اليهود

وليست لدينا معرفة تاريخية ثابتة عن اليهود، عن الفلّاشا، هنالك، وبلغ عدد هؤلاء نحو خمسين ألفاً، أى تعدّل نسبتهم بين السكان واحداً من مئتين تقريباً، وهل جاءوا الحبشة حينما دخلها دينهم قبل الميلاد بألف سنة أو بعد الميلاد؟

وقد انجذب العرب مبكرين إلى التوحيد اليهودي الذي كان وحيداً في ذلك الحين فاعتنقه أمراؤهم، والآن لا يعرف هؤلاء اليهود العِزَّة ولا يؤمنون بمسيّا (المسيح) ولا يزاولون أية تجارة كانت، وهم من الناحية الجُمُانية يشابهون الأحباش الآخرين، فلهم أنف إفريقى وفم إفريقى، مع أنك ترى اليهودى في الناحية الأخرى من البحر الأحمر، وعلى درجة العرض نفسها، يختلف عن العربى اختلافاً تاماً، ويمتاز اليهود من أهل البلاد الآخرين بما يَعرِف لهم به النصارى والمسلمون من ذوقٍ وحُلُقٍ، ويرى رائد ألماني: «أنهم أضعُ سكان ذلك البلد». ويُقيمون بجوار العاصمة وحول بحيرة طانة، ويظهرون أهرَ صنّاع الحبشة وأحسنَ حدّاديتها وبنّائيتها وصيّديّتها وخرّافيتها وصانفيها، وقد يملكون أطياناً، ولكنهم ليسوا من الأغنياء، وهم لا يؤجِّرون خدماً ولا يُقرضون نقوداً، وتكاد صلواتهم<sup>(١)</sup> تُشابه بيع<sup>(٢)</sup> النصارى، ولكنهم يكتمون طقوسهم الدينية ورموزهم وكتبهم المقدسة التي هى بالأممَجَرَّة، ويحافظون على سنن الأكل وقواعد النظافة ويتوصَّأون إذا ما مَسُوا من ليس يهودياً ولا يعرفون غير قليل من التوراة كالتنصارى.

وعلى ما هو واقع من نقص عدد اليهود كثيراً لا تزال عاداتهم ذات نفوذ كبير

(١) صلوات اليهود: كنائسهم ومساكنهم، ومفردها صلاة، وأصلها بالعبرية صلواتا.

(٢) البيع: كنائس النصارى، ومفردها بيعة، وهى كل مصبد للنصارى.

في الطقوس النصرانية كما في الماضي ، فمَّا اقتبسهُ النصارى منهم خِتانُ الجُنْسَيْنِ ،  
وتقدّيسُ السُّبُوتِ مع الآحاد ، واتخاذُ خَلْقِ العالمِ مَبْدَأً للتَّارِيخِ ، ورَفْصُ  
القُسُوسِ حَوْلَ قُدْسِ الأَقْداسِ ، وشِدُّ الكِنائِسِ الهِمَّةِ على طرازِ هَيْكَلِ  
سليمان ، وتفضيلُ القَهْدِ القديمِ ، واعتقادُ القَوْدِ إلى أُورَشَلِيمِ (القدس) ، وتَحِيَّةُ  
« لَيْكُنِ السَّبْتُ مَعَكَ ! » .

والفَلَاءُ الوثنيون ، الذين يُقالُ إنهم هاجروا إلى البلاد في القرنِ الرابعِ عَشَرَ  
نتيجةً لعدمِ المراعى في مِنطَقَةِ جَبَلِ إلْعُونِ ، كثيرون بين الأَرِقَاءِ والشُرَفَاءِ ،  
ويعُدُّونَ أحسنَ جنودِ البلدِ ، وهم سَيِّفَةٌ<sup>(١)</sup> وَنَبَّالَةٌ<sup>(٢)</sup> ماهرون ، وهم فرسانٌ  
ممتازون ، وهم لا يستعملونَ الأسلحةَ النَّارِيَّةَ مع ذلك ، ولا ينفكُّ الأُمراءُ يَنْفَعُونَ  
بهم في حروبهم الطاحنة كمرزقية ، ويُقالُ إنهم يمتازون من النصارى بأعمالهم  
ونشاطهم وقناعتهم ، ولكنهم كالنصارى قَسْوَةً وَتَعَطُّشًا إلى الانتقامِ ، ومن المحتل  
أن تكونَ عادةُ المِثْلَةِ<sup>(٣)</sup> بالِدَوِّ وَخَصِيهِ وَحَمَلِ قَضِيهِ على الزَّئَارِ<sup>(٤)</sup> كغنيمةٍ أو  
تعليقه على باب القتل من مبتكراتهم ، وإذا عاشت زوجةٌ للغلوب مع الغالب من  
غيرِ مراعاةٍ لهذه العادة طَعَنَتْ فيها النساءُ الأُخَرُ ، وَيُرْوَى أَنَّ الفَلَاءَ يُقَدِّمُونَ  
قرايينَ بشريةً إلى أمّتهم ، وأن هؤلاء الضحايا يُمَيَّنُونَ بالقرعة وقت المجاعة ، والقَلَاءُ  
يخافونَ النيلَ ( الأزرق ) فيَصْحَوْنَ عند مَنبَعِهِ بِمَجُولٍ وَبَقَرٍ ، والفَلَاءُ يُعْبُدُونَ  
الشمسَ والنَّارَ والأشجارَ والحجارةَ الثلاثةَ الكُبْرَى التي سَقَطَتْ من السماء بالقرب  
من النيل الأزرق ، يَبْدُو أَنَّ عاداتهم تختلف بين قريةٍ وقريةٍ ، وهم حينَ تظهر

(١) السِيفَةُ : جمع السِيفِ ، وهو صاحبُ السِيفِ والمُقاتِلُ به — (٢) النَّبَّالَةُ : جمع النَّبَالِ ، وهو  
صاحبُ النَّبْلِ والرَّاي به — (٣) المِثْلَةُ : من مثل بالدمو إذا جده وظهرت آثارُ ضلعه عليه تكيلا .  
(٤) الزَّئَارُ : ما يشد على الوسط .

بينهم هنالك بقايا من التمدن المصرى القديم مع الكاهن الملك والثور المقدس  
يبدو لأعيننا منظر شامل لحضارات لا يستطيع أن يحققها غير النيل فى جميع  
العالم الغربى .

## ٨

ضيق الرتائج<sup>(١)</sup> ، وظاهرة الأمطار ، واتساع البلد الذى هو أكبر من فرنسا  
وإيطالية مجتمعين ، وتعدد مراقبته فى مجموعته ، ومشكلة حكومة فى قطر يابى  
المركية وعاطل من أى شعور بالتضامن الاجتماعى كما فى سويسرة . والغزوات  
التي تمرقل الصناعة ، وجمهور القساوسة الذين يخشون العمل ، واستبداد السلطة  
المركية التي يحمل عليها الأفراد دوماً ، كلها عوامل تؤدي إلى الفوضى ولولم يكن  
فى الأساس عيب ، ولا يرضى إصلاح اجتماعى بواسطة المبدأ ، وقد حلت المفصلة  
الاجتماعية بأبسط الطرق ، ولولم يكن القوم نصارى ما اغترض على الحل ، وليس  
الخلافا بين السلطان والإيمان أعظم مما عند شعوب أوربة ، وإنما هو أكثر  
منه وضوحاً .

والنجاحى الشديد النصرية هو أول من يتجلى فيه ذلك الخلاف ، فنذ ثلاثين  
سنة مضت كانت له خمسة سريّة ، وكان من هؤلاء السراى عشرون يُقمن  
بجوار قصره المباشر ، ( وهذا ما يصعب تحقيقه الآن ) ، وتجد أصل هذه العادة فى  
المبدأ الغريب السائد لجميع تلك القبائل ، وهو أن على الملك أن يكون له أكبر عدد

(١) النتائج : جمع الرتاجة ، وهى الطريق الضيقة .

يمكن من الأولاد ، وفي بلاد العرب القديمة ، حيث تفتقر الحظوة بالنزلة ، كانت حظية السلطان تُفمر بالهدايا كما في رواية ألف ليلة وليلة ، واليوم يُعد النجاشي مثل هذا الأمر من شدة القبول ما يجب معه على كل سرية أن تأتي بجهاز جميل ؛ أن تأتي بالبقر والخيل والعبيد والقراء ، وما يُضيفه القعد إلى ذلك أحياناً إحضار اثني عشر هراً لإيادة القِتران ، وهذا إلى وجوب اعتناق السرية للنصرانية ، والسرية إذا وضعت ابناً غير شرعي كانت أوفر حظاً من الإمبراطورة التي يُسجن أبناؤها على العموم عند تغيير ولي الأمر ، والقرآن يُنظم هذا الوضع بأحسن من ذلك ، وأكثر من ذلك ملازمة للفقرة وضع الزنجي الوثني الذي يُعد المرأة أداة للعمل فلا يُفرق حتى بين الولد الشرعي والولد غير الشرعي الذي

كان اختراع البيض لعدم شرعيته أعظم الأمور مخالفة للأخلاق !

وتُوجج النجاشي الجديد سنة ١٩٣٠ ، ويلوح أنه عصري أكثر مما يود أن يبدو به ، ولكنه يُسيطر كأحد الخلفاء ، والخط الحديدي الوحيد في بلده هو الذي يصل الساحل بالعاصمة التي لا تحتوى غير هاتفي واحد ، وبالقرب من بحيرة طانة ترى أعمدة مقلوبة لخط برقي خرب ، وبأكل النجاشي على أطباق من ذهب ، غير أن أكثر مساكن مدنه الثلاث من القش<sup>(١)</sup> ، وهو قد دعا مجلسين ليقوم عملهما الوحيد على الموافقة بهز الرؤوس ، وهو مع ذلك قد كان من النباهة ما زوّج معه أحد أمرائه بقرية للملك قطن ياباني في سنة ١٩٣٢ حين منحت اليابان امتيازات عظيمة .

وإذا ما أقام النجاشي مهرجاناً تزويجاً لحرسه فصلته هو وحاشيته ستائر

(١) القش : صغار الحطب الذي تقسم به النار .



مَسْرُحِيَّةٌ كَبِيرَةٌ مِنَ الرُّوَاقِ الَّتِي يُعَيَّدُ فِيهَا أَلْفَا جَنْدِيَّةٍ ، وَتَرَى بِجَانِبِ مِنَ السُّتَارِ  
مَنْظَرًا مِنْ مَنَاظِرِ الْقُرُونِ الْوَسْطَى ، تَرَى ضَبَاطَ الْقَصْرِ جُيُشًا ، وَتَرَى مَلَكًا  
يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ وَيَسْمَعُ لُغْنٍ وَيُهْنِمُنْ ، وَتَرَى فِي الْجَانِبِ الْآخَرِ جُمْهُورًا جَالِسًا  
الْقُرُفُصَاءَ حَوْلَ مَوَائِدَ مَنْخَفِضَةٍ صَاحِبًا مُصَفَّقًا لِنَسْجِمِ هُوَ وَجُورَةٌ مُؤَلِّفَةٌ مِنْ دُفُوفٍ  
وَطُبُولٍ ، وَبَيْنَ الصُّنُوفِ تُبَصِّرُ مِثَالِ الْعِيْدِ يُخَضِّرُونَ ضَانَا كَامِلَةً وَأَرْبَاعَ بَقَرٍ  
فَيُمْكِنُ كُلَّ مَدْعُوٍّ أَنْ يَقْطَعَ حِصَّتَهُ بِسَكِينِهِ ، ثُمَّ يُؤَقَى بِطُسُوتٍ <sup>(١)</sup> مَمْلُوءَةٍ مَاءً  
وَبِمَنَاشِفَ لِفَسْلِ الْإَيْدَى الْقَذِرَةِ بَعْدَ الْمَأْدِيَةِ ، ثُمَّ يُجْلَبُ شَرَابُ الْعَسَلِ فِي بَرَامِيلَ  
وَالْحِمَّةِ فِي دِنَانٍ <sup>(٢)</sup> فَيَمْلَأُ عِيْدَ آخَرُونَ أَكْوَابًا وَقُرُونًا لِلشُّرْبِ ، وَرُفَعِ السُّتَارُ  
فِي آخِرِ الْأَمْرِ فَيَجْزُرُ الْخُصُورُ لِلنَّجَاشِي سَاجِدِينَ ، وَهَكَذَا تُشَدُّ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ مَشَاعِرُ  
ثَلَاثِينَ أَلْفًا مِنَ الرِّعَايَا الْأَوْفِيَاءِ .

وَرِئِيسُ التَّشْرِيفَاتِ أَكْثَرُ رِجَالِ الْحَبَشَةِ هُمَا ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْأُلُوفَ مِنْ كِبَارِ  
الْمُوظَفِينَ هُمْ فِي دَوْرِ الْإِنْتَظَارِ بِحُكْمِ الْقَامِ وَالْوِسَامِ ، وَإِلَى أَيْ مَدَى يَكُونُ صَدْرُ  
النَّجَاشِي مُجَرَّدًا ، وَمَا هُوَ الْقَدَارُ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يَكُونَ بِهِ بَدَنُ الْأَعْيَانِ كَاسِيًا ؟  
وَمَا هُوَ عَدَدُ الدَّفَافِينَ <sup>(٣)</sup> وَالطَّبَّالِينَ الَّذِينَ يَجُوزُ أَنْ يَتَقَدَّمُوا أَحَدَ الْمُوظَفِينَ  
فِي الطَّرِيقِ ، أَيْ إِلَى أَيْ مَدَى يَحِقُّ لِمُوسِيقَاهُ أَنْ تَكُونَ صَاحِبَةً ، وَإِلَى أَيْ دَرَجَةٍ  
يَجِبُ أَنْ تَكُونَ مُوسِيقَى الْمُوظَفِ التَّائِعِ أَقْلٌ ضَجِيجًا ؟ وَمَنْ ذَا الَّذِي يَحِقُّ لَهُ أَنْ  
يَلْبَسَ سِرْوَالًا كَسِرْوَالِ النَّجَاشِي أَوْ مِمَّاثِلًا لَسِرَاوِيلِ الْوُزَرَاءِ ؟ وَمَنْ ذَا الَّذِي  
يَكُونُ عَلَى مِقْبَضِ سَيْفِهِ شَيْءٌ لَوْحٍ مَعْدِنِيٍّ ؟ وَمَنْ هُمْ أَصْحَابُ الْإِمْتِيَازَاتِ الَّذِينَ

(١) الطُّسُوتُ : جَمْعُ الطُّسْتِ ، وَهُوَ إِنَاءٌ مِنْ نَحَاسٍ لِسَلِّ الْإَيْدَى — (٢) الدِّنَانُ : جَمْعُ  
الدَّنِّ ، وَهُوَ الرَّاقُودُ الطَّيْمُ لَا يَقْدِرُ إِلَّا أَنْ يَجُفِرَ لَهُ — (٣) الدَّفَافُ : الضَّارِبُ بِالْأَفِ .

يستطيعون أن ينتحلوا بعض الألوان لمعانيهم ومظاهرهم ؟ هذه المسائل التى تشغل بال الأشراف فى طول البلاد وعرضها ، وهى مصدر كل سلطان ، وبفضل علامات الشرف هذه يُتمتع بملأ الحياة .

وتُبصر على ذروة الهرم الجبشى إمبراطوراً واحداً ، وتُبصر ألوف الصيد دونه ، والواقع أن الحجارة فى الهرم يُثقل بعضها على بعض ، فعلى الرء أن يسعى ليكون فوق غيره إذن ، على أن النجاشى إذا ما أراد أن يكون عادلاً لم يسطع أن يرى كل شيء ، فالجبال أعلى من هرمه ، ولم يحدث حتى الآن أن بحث رجل أبيض بحثاً عميقاً عن لُصوصية الإقطاعيين فى المدن والقرى والراعى وضيف الأودية العليا ، وعن الأساليب الجديرة بالقرون الوسطى فيعيش بها الأمراء والشرقاء والقساوسة على حساب مروضيهم ، وليس الضباط والموظفين شهرىات أولاً يقبضون غير رواتب هزيلة فتجدهم ينهبون الشعب مع ازدهارهم إياه كازدراء الشعب لفقراء الضباط والقسوس ، ومما يروى أن راساً أمراً وهو يُحتضر قائلاً : « ادفنونى مع ترك ذراعى لى خارج القراب حتى أستطيع أن أجيء ضرائب » .

ومن ذا الذى يشعر بحافز نفسه إلى العمل فى هذه الدولة التى لا يكون غير الموظفين أصحاب مال فيها ؟ وكل شيء هالك خاص بالنجاشى ، والنجاشى لا يقطع المقرئين أرضاً إلا لكى يجمعوا ضرائب عالية ، ومثل هذه الضرائب لا تُجى فى بلد سئى الزراعة كذلك البلد إلا بالإغضاء عن اللصاص<sup>(١)</sup> والنخاسة ، ولا تجدد غنياً يشتغل هنالك ، وتجار المسلمين وحدهم ، وهم أوسع حيلة من النصارى ، ينالون بعض الربح من السلع التى يُصدرها النجاشى كالعاج والبُن والشمع والجلود ، أى

(١) اللصاص : الصوصية .

ما تعدل قيمته ثلاثين مليونَ دولار<sup>(١)</sup> دَعَ عنك حسابَ الذهب .

وليست النقودُ الذهبية هي التي يَمُرُّها الجميع ويَرْضَى بها ، وإنما هي الدولاراتُ  
القِضية الكُبْرَى المشتلَّة على صورةِ عاهلةٍ بيّدة يَجْهَلُها الناس في الحبْسة جهلاً  
تاماً ، فما حَدَثَ منذ قرنٍ ونصفِ قرنٍ أن أدخلَ مَسْويرون من تُجَّار الشرق  
الأدنى تاليرَ ماري تيريز ، فلم يقطعَ ضَرْبُ هذه النقود منذ ذلك الحين لهذا  
السبب ، وَيُسْتَحَبُّ أن تُلَوِّثَ النقودُ قبل أن يُتَدَاوَلَ بها لرفضِ القِطْعِ اللامعة  
من قِبل سكان البلاد الأصليين ، وعند يكرأن سببَ خُطوة هذه النقود هو  
وُضوحُ قوِشها البارزة .

وليس لنصارى الحبْسة ، بعد اتصالِ قرونٍ بالحضارة ، حتى أخلاقُ الأوغنديين  
الوثنيين وأوضاعهم قَبْلَ وصولِ البيض الأولين ، فالشَّعْبُ يُمَزِّقُ اللحمَ التيء  
بالأسنان ، وهم لا يختلفون عن الأتار في ذلك إلا بتقطيعهم اللحمَ بسكاكينهم بين  
أسنانهم ، والأغنياء منهم ، ويلبسون قلائدَ كثيرةً من ذهب وريشٍ ، لا يُفَكِّرُونَ  
إلا نادراً في تعليم أولادهم شيئاً غيرَ القراءة والكتابة ، وقليلاً من تاريخِ بلدِهم  
وجغرافيته في بعض الأحيان ، ومعارفَ ضئيلةٌ عما يعيشُ فيه من حيوانٍ ونبات ،  
ولا تَمُرُّ هنا شيئاً من مهارةِ زواجٍ إفريقية الغريبة ، وتَقْتَصِرُ الموسيقى على الأوراد  
الكنْسية المِملَّة وعلى صَوْتِ الدُّفُوفِ ودَرْدَابِ الطبول ، ولا تُعْمَرُ رقصاً قومياً ،  
ولا تَعْرِفُ الدُّمَى التي هي أَلْعُوبَةُ جميع القبائل الرِّبْجِيَّة ، وتُلْعَبُ لُعبةُ الدَّاما  
وضربُ من لُعبةِ الكُرَّة والصَّوْلَجان .

(١) كان دولار ماري تيريز يعدل في سنة ١٩٣٤ ثلاثة وثلاثين دولاراً أمريكياً .

وكيف يُدَاوِمُ شعبُ بُرْزِيلِ في كلِّ سنةٍ أُلُوفَ الْحَجَّاجِينَ إِلَى الْقُدْسِ عَلَى السَّكَنِ مَعَ الْأَنْعَامِ فِي أَكْوَاخِ مَصْنُوعَةٍ مِنْ سُوقِ الشَّجَرِ وَمِنَ الْعُوسَجِ<sup>(١)</sup> وَالْعُشْبِ وَالتَّبَعْرِ، أَى يَأْتِي أَمْرًا لَا يُطِيقُهُ مُعْظَمُ الزَّوْجِ؟ وَفِي كُلِّ يَوْمٍ، وَبِالْإِسْلَاسِكِيِّ، تَتَّصِلُ الْعَاصِمَةُ بِأُورْبَةِ، وَيَصِلُ الْعَاصِمَةُ بِالْبَحْرِ خَطَّ حَدِيدِيٍّ، وَلَا تَرَى، مَعَ ذَلِكَ، طَرِيقًا صَالِحًا لِمُرُورِ الْقَرَبَاتِ، وَيَطْفَحُ الْبَلَدُ بِالْحَدِيدِ وَالرُّخَامِ، وَلَا يَسْتَطِيعُ ابْنُ الْبَلَدِ أَنْ يُجْتَنِدَلَ شَجَرَةً مَعَ ذَلِكَ، وَابْنُ الْبَلَدِ يَحْرُثُهَا بِالْقَرَبِ مِنَ الْأَرْضِ إِسْقَاطًا لَهَا مَعَ ذَلِكَ، وَلَا تَقُلْ إِنَّ الْقَوْمَ هُنَاكَ لَا يَزَالُونَ يَعِيشُونَ فِي الْقُرُونِ الْوَسْطَى، فَقَدْ دَخَلَتْ الْحَضَارَةُ وَالنَّصْرَانِيَّةُ فِي الْحَبْشَةِ قَبْلَ دُخُولِهَا فِي فَرَنْسَةِ بَزْمَنِ طَوِيلٍ، وَمِنْذَ نَحْوِ ثَمَانِينَ سَنَةً، أَى أَيَّامَ الْحَلَّةِ الْإِنْكِلِيزِيَّةِ فِي سَنَةِ ١٨٦٢، اخْتَرَعَ الْأَحْبَاشُ عَذَابًا جَدِيدًا قَائِمًا عَلَى شِدَّةِ الْأَسَارَى بِالْوَتَاقِ<sup>(٢)</sup> وَقَتْلِهِمْ بِإِدْخَالِ مَسَامِيرَ طَوِيلَةٍ إِلَى صُدُورِهِمْ، وَلَا رَيْبَ فِي أَنَّ جِبِلَّتَهُمْ مَصْدَرُ هَذِهِ الْوَحْشِيَّةِ، وَأَنَّ الطَّرِيقَ وَالرَّيْجَ وَالْجَبَلَ وَالسَّيْلَ مَصْدَرُ هَذِهِ الْجَبِيلَةِ.

وَمِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنْ يَظَلَّ عَاطِلًا مِنَ الْحَرِائَةِ وَالنَّقَافَةِ ذَلِكَ الْبَلَدُ ذُو الْجِبَالِ الْمُوحِشَةِ وَالَّذِي تَتَحَوَّلُ طَرَفُهُ فِي كُلِّ صَيْفٍ إِلَى أَنْهَارٍ وَالَّذِي يَسِيطِرُ عَلَيْهِ أَشْرَافُ مُتَحَارِبُونَ يَحَافِظُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِجِيُوشٍ مِنَ الْعَيْدِ، وَلَا يَطْمَئِنُّ الْفَلَاحُ إِلَى الْغَدِّ وَلَا يَقْرِفُ مَصِيرَ أَرْضِهِ فَيُشِيرُ طَرَفًا مِنَ الْخَلْفِ مُتَرَاخِيًا وَيَلْجَأُ إِلَى أَحَدِ الْمَخَابِيءِ الَّتِي تَكْتُمُ فِي

(١) الْعُوسَجُ: مِنَ شَجَرِ التَّوَكِّ — (٢) الْوَتَاقُ: مَا يَشْدُ بِهِ مِنْ قِيدِ وَجَلٍ وَنَحْوِهَا.

البراكين الهامدة ، وتَنُمُو البسالة والقسوة هنالك تحت ظِلِّ نصرانيةٍ مُشدَّبة تشذيباً غليظاً .

وما يُبَصِّرُهُ مِنْ نُذُوبٍ <sup>(١)</sup> سَكَنِي <sup>(٢)</sup> كثيرة في الأولاد قَسِمٌ على الأسلوب الذي يُلَقِّنُونَ به الشجاعة ، والبطل هو الذي يُمَسِّك في يده عَصَافَةً <sup>(٣)</sup> ملتهبة أو خشبة مشتعلة في أطول زمن ممكن ، وإن التَّينِيَا <sup>(٤)</sup> ، التي جعل الإفراط في أكل اللحم التي والقذارة منها مَرَضاً قومياً ، هي من كثرة الشُّيُوع ما يَعدُّ بعض القبائل عدم وجودها معه أمراً مُخْزِياً ، أَجَلْ ، إن الزُّنْجِيَّ يخشى المرض ، ولكنه لا يسير على غرار كثير من القبائل الحبشية فيَحْرِقُ بيتاً يشتمل على مُصَابِين بالجَدْرِي ويَمْنَعُ هؤلاء الرَمَضَى من الفرار بقوة الجَرَاب ، أَجَلْ ، إن الزُّنْجِيَّ يَمَلُقُ رأس عدوِّه المَقهور في ميدان عام ، ولكن الحبشيَّ يَحْمِلُ على زُنَّارِهِ قُضِيبَ عدوِّه القَتول كَحِزَام الفَشَكِ <sup>(٥)</sup> وكآية على الخِصَاء الذي هو من خواص ذلك البلد ، أَجَلْ ، إن النصرانيَّ الأَيْضَ يَذبح بقرأً أيضاً ، ولكنه لا يوجِّهه في بدء الأمر شَطْرَ القُدُس <sup>(٦)</sup> صارخاً : « باسم الآب والابن والروح القدس ! » ، أَجَلْ ، إن الزُّنْجِيَّ يأكل اللحم النيء ، ولكن المسَّايي يحتكرون أَفْطَحَ المَادَاتِ الحَبَشِيَّة ، فهم إذا ما أَوَلَمُوا <sup>(٧)</sup> أَتَوَا بِثَوْرٍ إلى الرَّدْهَةِ وقَطَعُوهُ حياً من غير مَسِّ شرايينه لكي يموت بنزيفٍ بطيء على أعين الضيوف وهو يَحْجُرُ <sup>(٨)</sup> ، ولا تزال هذه المادَّة قَائِمَةً منذ قرون وإن أُتْكِرَ أمرُها ، وهي لم تَزَلْ ، وقد وَكَّدَ الرُّوَادُ المعاصرون خبرها كما وَكَّدَهُ

(١) الندوب : جمع التذبة ، وهي أثر الجرح الباقي على الجلد — (٢) الكي : إحراق الجلد بحديدة ونحوها — (٣) العصاف : ما سقط من السبل كالتين — (٤) التينيا : هي جنس من الديدان العريضة الطفيلية ، وتعرف بالودودة العريضة والودودة المترضة — (٥) Cartridge . (٦) شطر القدس : نحو القدس — (٧) أولم : عمل الولية — (٨) خار البقر : صاح .

الرؤود السابقون ، وأى الرجلين أكثر ضراوة : آ لرجل الذى بأ كل لم إنسان  
مبتدأ الذى يعصو<sup>(١)</sup> حيواناً حياً ؟

ومن شأن الخرافات ، التى يستتر الخوف تحتها لدى القساة ، أن تزيد اضطراب  
المشاعر ، ومن ذلك أن الحبشى يتلف ليلاً فى نسايج خشية اللامة<sup>(٢)</sup> ،  
فالزوجان المزمّلان على هذه الصورة يشابهان الأجسام المخطئة .

والغلاظ حركات جميلة أحياناً ، والغلاظ يقومون بأوضاع فنية نموذجاً  
من أعمال أتونها منافية للأدب وإعادة لنظام قوضوا دعائمه ، وإذا ما التقى رجلان  
راكبان نفلين ترجلاً قبل أن يسلم أحدهما على الآخر ، ورقفاً من الصدر طرف  
نوع من الحلة يتخذونه ثوباً ، وهما كلاهما تجمداً كان ذلك دليل احترام عميق .

والنكاح سر مقدس يستطيع كل واحد أن يأخذ به ما طاب له من النساء ،  
ويكون جميع أولاد الرجل شرعيين خلافاً لأولاد النجاشى ، وتنال كل زوجة  
ما تدعيه من نفقة ، وعلى ما يقضى هناك من حياة جديرة بالقرون الوسطى ترى  
الناس يتمتعون بنظام عسرى تام الجدة ، وهو الزواج التجربى مع الشعار :  
« لنُبصر هل نحمل أولاداً » ، وترتبط البنات بأبرهن فى الزواج الأول بين السنة  
الحادية عشرة والسنة الثالثة عشرة ، ثم يصبحن حُرّات فى الاختيار ، وإذا لم يتحد  
البتُ الفنية زوجاً اتخذت لها خيلاً عاشقاً فتدفع إليه جعلاً وتعامله مثل خادم ،  
وهو يُدعى « فُونبِيَتَا » أى « طاهياً » ، ويُلزم بأن يعيش فى الجوار وأن يظل وقفاً  
لها مع احتفاظها بحريتها !

(١) عضا الحيوان : جزأه — (٢) اللامة : العين التى تصيب بسوء ، وكل ما يخاف من  
نزع وشر ، ويقال : « أعينه من كل هامة ولامة » .

ولا يَحِقُّ للمُخاطَب أن يَزُورَ خَطيبتَه ، فإذا فعل ذلك وَجَبَ عليها أن تَغِيْرَ مذعورةً عند وصوله مع أن من حقوقها أن تستقبل شاباً آخرين أفراداً ، ويَحْمِلُ الأَحْباشُ القُبْلَةَ ، وإنما يَدُلُّكون مَقابِلَةَ مَيَّامِنْ أَنْوْضِهِم بالسَّبَّابَاتِ<sup>(١)</sup> ، وهم يشترُونَ أزواجَهُم كالزَّوْج ، وهم كالْبَيْضِ يُؤْمَلُونَ وَيَقْصُصُونَ<sup>(٢)</sup> يومَ الزَّوْج ، حتى إنه يَدْعَى إلى المَادَبَةِ « تَلْقَامُ<sup>(٣)</sup> » يتلَعُ خَمْسًا وَعَشْرِينَ لَبَّةً مِنَ الْجَمْعَةِ ويلتَمِهم من الطَّعامِ مثْلَ هذا المقدارِ وتشابه هذه الجَمْعَةُ شَرابَ العسل ، وهى لا تُشْرَفُ ، كما فى المَانِيَةِ ، بأَسْمَاءِ المُلُوكِ والنَّسْرِ والأَسَدِ ، وهى تُسَمَّى شَرابَ الفَلَا ، أى « شَرابَ العَيْدِ » .  
والْقَسُّ يُمَثِّلُ دوراً مُهماً عند الولادة وإن كان غَيْرَ ذى قِيَمَةٍ فى حَفَلَةِ الزَّوْج ، وَيَحْتَنِبُ الرِّجَالُ الآخَرُونَ بَيْنَ النِّسَاءِ خَوْفاً مِنَ التَّدْنُسِ ، وهم يَفْرِثُونَ تحتِ وَاِبلٍ من سَجَرٍ صَدائِقِ الأُمِّ الفَتَاةِ ، وليس للزَّوْجِ غَيْرُ حَقٍّ رَكْزِ حَرَبَتِهِ فى وَسْطِ البابِ ليَكُونَ الوليدُ شِجَاعاً ، وينشأ عن اعْتِمَادِ دَنَسِ الزَّوْجَةِ ، وهو اعْتِمَادٌ غَرِيبٌ لدى النصارى ، مَنَعُها من صُنْعِ خُبْزِ الذَّيْبَةِ ، والزَّوْجَاتُ يَخَاطِبْنَ أزواجَهُنَّ بِصِيفَةٍ الجَمْعِ المُخاطَبِ ، والأزواجُ يَخاطِبُونَ زَوجاتَهُنَّ بِصِيفَةِ المُفْرَدِ المُخاطَبِ ، وَيَسْهَلُ حَلُّ النِّكَاحِ كما يَسْهَلُ عَقْدُهُ ، وَيُمْكِنُ الزَّوْجُ أن يَبِيعَ زَوجَتَهُ نَيْلاً للمالِ ، والزَّوْجَةُ تَصْنَعُ ما تَرى انتقاماً لِنَفْسِها .

(١) السَّابَةُ : الأصَحُّ التى بين الإيهام والوسطى — (٢) قَصَف : أَقام فى أَكل وشرب وهو وأَكْثَرُ من ذلك — (٣) التَّلْقَامُ : العَطِيمُ القَم .

وَنُوحٌ هُوَ مُصَدِّرُ الْخَطَا ، وَلَا رَيْبَ فِي أَنَّهُ كَانَ نَشَوَانٌ حِينَ لَعَنَ ابْنَهُ حَامًا وَحَكَّمَ عَلَيْهِ بِأَن يَخْدُمَ إِخْوَتَهُ ، فَصَارَ جَمِيعُ تِجَارِ الرِّقِيقِ يَسْتَشْهَدُونَ بِهِ ، وَلَمْ يَعْرِفْ مَاذَا كَانَ يَفْعَلُ ، فَمَا كَانَ حَامٌ شَرًّا مِنْ سَامٍ ، وَلَمْ يَقُلْ مَا أَنَاهِ اللَّاحَامِيُّونَ مِنْ ظُلْمِهِ عَمَّا أَنَاهِ اللَّاسَامِيُّونَ ، وَمَهَا يَكُن الْأَمْرُ ، وَعَلَى مَا كَانَ مِنْ اضْطِهَادِ الْيَهُودِ ، فَإِنْ وَرِطَةُ الْيَهُودِ دُونَ وَرِطَةِ حَفَدَةِ حَامٍ الَّذِينَ قَضَوْا حَيَاتَهُمْ مُوثِقِينَ بِالْقَيْدِ ، أَوْعَدُوا سِلْعًا وَظَلُّوا عَيْدًا حَتَّى السَّاعَةِ الْخَاضِرَةِ ، وَالْحَقُّ أَنَّ الْمَضْطَهَدَ يُمْكِنُ أَنْ يَصَارِعَ وَيَنْتَصِرَ ، وَأَنْ قِيَمَتِهِ الشَّخْصِيَّةَ تَزِيدُ بِمَقْلُومَتِهِ ، وَهُوَ إِذَا مَا قُهِرَ وَذُعِرَ صَبَرَ وَوَجَدَ فِي الْإِنْتِقَامِ الْقَادِمِ سَبَبَ سُرُورٍ لَهُ ، وَالْعَبْدُ مَعَ ضِيَاعِ الْحَرِيَةِ يَخْتَسِرُ أَمَلَ الْإِنْتِقَامِ ، وَإِذَا مَا جَرَّ الْقَيْدُ جِيلًا بَعْدَ جِيلٍ ذَبَلَتْ لِلشَّاعِرِ كَذُبُولِ الْأَعْضَاءِ الْمَعْطَلَةِ وَزَالَتْ فِي نِهَايَةِ الْأَمْرِ ، وَيُلَوِّحُ أَنْ نَظْرَةَ الْأَسَدِ الَّتِي وَلَدَتْ فِي الْأَسْرِ تَنِي عَلَى أَنَّهُ يَفْعَلُ فَضْلَ الْقِضْبَانِ لَهُ عَنِ الْحَرِيَةِ فِي غَايَةِ آبَائِهِ ، وَعَادَ الْعَبْدُ لَا يَدِافِعُ .

وَفِي ذَلِكَ تَفْسِيرٌ لِلسَّرِّ فِي وَجُودِ عَيْدٍ مِنْذُ سَبْعَةِ آلَافِ سَنَةٍ فِي قَلِيَّةِ عَصِيَانِهِمْ ، وَتَارِيخُ الْعَيْدِ أَطْوَلُ مِنْ تَارِيخِ الطَّوَائِفِ الْأُخْرَى وَمِنْ تَارِيخِ السَّكَنَةِ ، وَكَانَ لِأَكْبَرِ مُحَيِّي الْإِنْسَانِيَةِ عَيْدٌ ، وَكَانَ لِلْحَكِيمِ سُولُونُ<sup>(١)</sup> وَلِلْعَادِلِ لِيكُورُغُ<sup>(٢)</sup> عَيْدٌ ، وَكَانَ قِصْرُ يَسِيطَرُ عَلَى إِمْبَرَاطُورِيَّةِ ثَلَاثَاهَا عَيْدٌ ، وَمَا كَانَ السَّلْمُونَ أَحْسَنَ سَيَرًا ،

(١) سُولُونُ : مُشْتَرَقٌ أَثِينِيٌّ ، وَأَحَدُ حُكَمَاءِ الْيُونَانِ السَّبْعَةِ ( ٦٤٠ — ٥٥٨ ق.م ) .

(٢) لِيكُورُغُ : مُشْتَرَقٌ إِسْبَارُلَةُ ، وَقَدْ عَاشَ فِي الْقَرْنِ الثَّامِسِ قَبْلَ الْمِلَادِ .



ولكنهم كانوا أقوى دليلاً ، وكان محمدٌ ، كجُوسْتِنْيَان<sup>(١)</sup> ، الذى عاش قُبَيْل ظهوره ، شاعراً بما بين مذهبه وبين الرِّقِّ من تناقض ، وهو لم يُبْدِ من الإقدام ما يَدُلُّ به رُكْنُ الدولة ذلك مع ذلك مكتفياً بأمره بالرِّقِّ بالرقيق ، وهو قد أخضع الكافرين من غير إكراهٍ على اعتناق الدين ، واليوم يتمتع المسلمُ في بلاد الرِّقِّ عن حَلِّ الزَّنجيِّ على الإسلامِ لِمَا يُوْدَى إليه إسلامُه من اعتاقه ، ولا مكانَ هنا لتَصْنَعِ الحَنَانِ ، ولا أَحَدٌ يَزْعُمُ تساوى الناس ، اللهُ أَكْبَرُ ، ودَعَا نبيع الكافرين في دار الحرب إِذَنْ ! ولم يَقْمَلِ الخَلْفُ بما أمر به صاحبُ الشريعة من رِفْقٍ بالموالى .

والرِّقُّ في عهد أشدِّ ملوك إسبانية كَثَلَكَةً دام حتى القرن السادس عشرَ فذلَّ ما اذْثَرَّ به من رِذَالٍ رثاؤ على درجة ابتعاد دين عيسى عن مذهب صاحبه أَكْثَرَ من ابتعاد دينِ محمدٍ عن مذهب صاحبه ، وَلَمَّا بدأ البرتغاليون ، قبلَ كَرِيسْتُوف كُولُونْبُسْ ، بتجارة الرِّقِّ فى الشاطئ الإفريقى الغربى كان لم يَلُونِ جلود ضحاياهم راحةً ضميرٍ ، وَلَمَّا أخذوا يَتَصَيَّدُونَ الناسَ وَيَزْرُبُونَهُم بِالْأُلُوفِ فوق سُفُنِهِمْ وينقلونهم إلى أمريكا الجنُوبية اقتطافاً لثمراتِ البلاد الحارة واستخراجاً للذهب أوجبوا بذلك غَرْزاً ومصنعاً جاوز بنتائجه جميعَ ما تقدَّمه من المغازى ، وتخلَّوْا إفريقية ، ويَصِلُ الذهب من أمريكا وَيُفْرَى الزُّرَّاعُ وَيَفْنَى الزَّوْجُ .

وكما باع المسلمون النصارى يَبِيعُ النصارى الوثنيين فى العصر الحاضر ، وقد صرَّحَ أحدُ آبَاءِ الكنيسة العظامِ بأن الرِّقِّ عملٌ صالحٌ ، وذلك لأنه يُتَبَّعُ لهؤلاء

(١) جوستينيان : من قياصرة الروم ، وهو صاحب المدونة المعروفة باسمه ، وقد دام عهده من سنة ٥٢٧ إلى سنة ٥٦٥ .

١٢ --- بقعة ذات ساق





الكافرين من الحظ غير المنتظر ما يَقْنَصُونَ به ، ومن البايوت من قالوا مؤكدين إن الرقّ نتيجة حتمية للخطيئة الأصلية فكان موضع حذم ، ثم جاء دور الإنكليز فأنضوا معاهدات لإمداد أمريكا بالسيّد ، وإذا كان الأحباب<sup>(١)</sup> الأولون من الإنكليز فإن شرف إيقاظ الضمير البشري يَرْجِع إلى الولايات المتحدة ، ثم ، هزّ كلاركسن<sup>(٢)</sup> شعور الإنكليز ، ولكن الرأسماليين من النصارى استعانوا في القرن التاسع عشر بزملائهم من المسلمين في تجارة الرقيق ، وما انفكت كتب الجغرافية المدرسية ، حوالى سنة ١٩٠٠ ، تعدّ الحاج وريش النعام والمطاط والرقيق مُنتجات لبعض الدول الزنجية ، والواقع أن كل من لا يحيل سيقاً أو قلنسوة راهب في الحبشة يُحسب عبداً .

وكانت الحبشة منذ القرن الثامن محاطة بمسلمين يستعبدون أسارى النصارى ، وهل يوجد ما يُوجب الشكوى من النصارى لسلوكهم هذا النجذ بعد أن أتاها السلطان ؟ كان يجب أن يكونوا أرقى من إخوانهم البيض بأوربة لثلا يفعلوا ذلك ، وقد دام هذا أكثر من ألف عام ، ومما رواه مبشرون حوالى سنة ١٨٥٠ مشاهدتهم نخاسين من نصارى البرتغال هدموا قرى بأسرها وذبحوا ١٥٠ زنجي ليفتموا ٥٢ امرأة ، وكانت الفتاة الغلاوية المليحة تساوى ثمناً يترجح بين ٢٥ و ٠ تاليراً في أسواق الشمال .

وحاول بعضُ النظرين طويل زمن أن يدافعوا عن النخاسة ، ومما كانوا يُثبِتونه خلُقُ العهد الجديد من أى حظير لها ، وكونُ مبدأ مساواة الناس أمام

(١) Quakers ، وتعني هذه الكلمة بمعنى المهترين — (٢) كلاركسن : فيلسوف إنكليزي

دعا إلى إلغاء الرق بحماسة (١٧٦٠ — ١٨٤٦) .

الرَّبِّ ليس غيرَ « تلطيفٍ » للنصِّ ، وما كانت الثورةُ الفرنسيةُ التي حاولتُ تطبيقَ هذا المبدأ في التحلُّل السياسيِّ ، ولا جهودُ الأصحاب ، لتستطيع أن تقضيَ على النخاسة ، وكان لا بُدَّ ، بلوغ ذلك ، من سيادة النظام الآليِّ الذي يؤدِّي إلى بطالةٍ كثيرٍ من الناس ونقصٍ قيمة العبيد في بعض الأصناف على الأقلِّ ، ويُستقرَّ نقصُ ثَمَانِ العبيدِ عن نقصٍ في السُّخْط ، ويُمجِّدُ الرأسماليون البيضُ ، ويتَّصفون بالحدَرِ دَوْبًا ، فرَقًا بين الرِّقِّ والاتجار بالزَّوج ، فيحكمون على الأول مع الاستنكار ( لخلوِّه من الرِّج ) ويدأبون على مزاولة الثاني ، وكيف يمكن الأحباش ، الذين يُجهِّزُهم إخوانُهم في المسيح بفنِّ الحضارة ، أن ينالوا هذه النِّعم من غير بيعٍ عاجٍ وأناسٍ ؟ أجل ، إن صيد الناس نقصَ إذا قيسَ بما كان عليه في القرن السادس عشر ، ولكنه لم يُبطلْ تمامًا ، والحلُّ الحاضر من القيمة ما لمبدأ التَّسَّاح الذي يُبرِّئُ له ، ومن شأنِ إلغاء السلاح أن يؤدِّي إلى نظامٍ أمورٍ جديد ، وعن العبيد قال سيديك : « إنهم مسحورون ، فهم عاطلون من الشعور بقوتهم عطَّلَ الحيواناتِ الأهلية » .

ومن براهين البيض من النصارى أن الإعتاق القوَّريَّ يؤدِّي إلى نفسِ أناسٍ غيرِ أهلٍ للحرية وارتباكهم بحسِّ مسؤوليةٍ جهلوا في كلِّ زمن ، ولا مراء في أن من الشَّاهد رجوعُ حيواناتٍ إلى أقاصها بعد أن سُرِّحت ، ولكن صغارها التي وُلدت حرةً لم تفعلْ مثلَ هذا قطُّ ، ولا يصلحُ رفقُ بعض النخاسين ، الذي يذكُرُه المدافعون عن الرِّقِّ ، أن يكون دليلًا مقبولاً أكثر من تمجيدِ مُروءة الطغاة ، وبما يُبرِّى وجودُ عبيدٍ يُعاملون بأحسن مما يسامَلُ به الخدمُ لِمَا لا يُعبَّرُ عنه الخدمُ بشين ، وبما يُبرِّى وجودُ قبائلٍ كثيرةٍ في الحبشة تمُدُّ من

الجور ببيع عبد أقام بينها زمناً طويلاً ، ولكن مثل هذا العبد يكون مهدداً بالبيع على الدوام .

ويرى مع التوكيد أن المسلمين أكرم من النصارى في ذلك ، ومن يكن له ولد من أمة يلزم بتحريرها مع أن قساوسة النصارى لا يفتشون عبيدهم ، وبما أن القرآن يحرم الزواج بأكثر من أربع نسوة فإن من النادر أن يتزوج المسلم أمة كانت سرية لديه ، والشرعية تكلاً<sup>(١)</sup> العبد في بعض الأحيان ، فالعبد يحزر إذا ما قفا سيده عينه ، وهذه مبادلة جهنمية أدعى إلى الفرع من حق القتل !

وما هو مصير العبد بعد أن يحزر ؟ هو يعد نفسه ، من فوره ، مساوياً لأي شخص كان ، وهو يدعو السود الآخرين بالوحوش ، وهو إذا ما اكتسب أوسرقة ، مالا اشترى عبيداً ، وامتنع عن كل عمل وتعاطى النخاسة مفضلاً إياها على غيرها ، وإذا أن خوف الرب ، لا السبب الأدبي ، هو الذى أوجب تحريره فإنه يودى إلى أمور لا أخلاقية ، وذلك لأن أعمال الإنسان تكون ذات رد فعل في نتائجها ، فالعتيق الفاجر الكسلان المنتفخ يحاول كتم ماضيه ويفسد مستقبله ، وهذا العتيق إذا ما أفلس عاد إلى مولاه القديم ورع أمامه ، وتعدل الجنابة القديمة في إبقاء الرجل عبداً بسبب مولاه جنابة حرمانه كل حق بسبب عقيدته ، والرثية وحدها ، لا المذرة ولا المغفرة ، هى التى تزيلها .

(١) كلاًه : حفظه وحرسه .

كان يُجُوبُ أوربة كـردِناـلُ، حوآلى سنة ١٨٨٠ ، فَبَنَطِقُ بمواعظَ نارِيةٍ ضدَّ الرِّقِّ ، وِيتبارى سادةُ الدُّنيا فى تنظيمِ الولايمِ وفى إلقاءِ اُلْخَطَبِ ، ولكنهم لم يُعَيِّرُوا شيئاً تقريباً ، ولم يُلغِ الرِّقُّ فى روسية وفى الولايات المتحدة إلا منذ عشرين عاماً قبل ذلك التاريخ ، ويستفحل الأمرُ ، وَيَتَرَيَّبُ العالمُ النصرانى من إمكان وجودِ عبيدٍ من النصرارى فى الحبشة ، وكان القمُصُ النجاشى يُوَحِّثاً قد حاول منعَ النُّخاسة ، وقد كَلَّمَ أحدُ الشَّيَاحِ الفرنسيين مِنْلِيكَ عن الشُّخْطِ الذى أثاره الكردِناـلُ لافيچيرى ضدَّ النُّخاسة ، ويُفَكِّرُ النجاشى فى الأمر ثلاثةَ أيام ، ويصدرُ مرسوماً ضدَّ النُّخاسين المسلمين ، ويأمرُ بِتسريحِ كلِّ أسيرٍ حربٍ فى سبع سنين ، ثم يُذيعُ خبرَ تحريرِ بضعةِ آلافٍ من الآدميين ، ويشتركُ رسمياً فى عَهْدٍ مكافئةِ الرِّقِّ ببروكسل الذى يَنْصُ فى مئةِ قَرَّةٍ على أمورٍ حاول بعضُ الموقَّعين أن يتخلَّصَ منها .

وَيَمُضِ عامٌ على ذلك المرسومِ الأول الذى أصدره مِنْلِيكَ فيُبيحُ هذا النجاشى لجنوده أن يقتنوا عبيداً ، ولَمَّا أيقنَ أمرَ تقديمِ أرقاءِ إلى بعض الضباطِ الأخْلِيَاءِ رَضِيَ بآن يَهْدَى إليه عبيدٌ مثلهم أيضاً ، وكان محتاجاً إلى تُجَارٍ من المسلمين لبيعِ الذهبِ والماحِ فأغْمَضَ عينيه ، وَبُئِصِرَ دوامَ « منافاةِ الأدبِ » فى دولته فيؤدُّ أن يستفيد منها ، ويطالب بتاليرين عن كلِّ عبدٍ يُباع ، فَيُعِيدُ الانسجامَ إلى عَالِهِ بهذه العبقرية .

ومع ذلك يكون عَمَلُ جمعية الأمم شافياً إذا ما أُلْقَتْ حِلَقاً وأوجدت فيه شُرْطَةً أدبيةً فوق المروق والعقائد ، وما الذى ظَفِرَتْ به جمعية الأمم ؟

حَلَّ اليومُ التاسعُ من شهر نوفمبر سنة ١٩١٨ فرُقِع العلم الأبيض فوق مبادئ القتال فى العالم ، وَتَخَشَّى بنتُ مَنِيْلِك الإمبراطورةُ حدوثَ انقلابٍ عامٍ فتَذِيْعُ مرسوماً تحظرُ النُّخاسةَ فيه فلم يُعْمَلْ بهذا المرسوم كما أنه لم يُعْمَلْ بالمراسم السابقة ، وَيَسْخَرُ الأشرافُ فى أوديتهم العليا من تحریمِهم بِقِلُّ به دخلهم وَيَجِدُ تِجَارُ خَشْبِ الأبنوس طُرْقاً ملتويةً كما يجِدُ المهرَّبون فى جميع البلدان الجبلية .

وإذا كان الرِّقُّ مباحاً فإن النُّخاسةَ محظورةٌ ، وإذ كانت بلادُ العرب هدفَ النُّخاسةِ وجب على السُّلْعة أن تُجَاوِزَ البحرَ الأحمر ، والبحرُ الأحمرُ مما تَمَحَرُّ فيه سَفُنُ البَيْضِ وقَطْعُ مهمَّةٍ من الأساطيل الأوربية ، ومن الممكن ، إذن ، أن يُؤْخَذَ النُّخاسون مُتَلَبِّسِينَ بالجريمة وأن تراقبَ المرافئُ الثلاثةُ التى يقومون فيها بمهمتهم ، وكان النصرُ قد تَمَّ لِلنَّكُولِن فى صِرَاعٍ أصعبَ من ذلك ، ولم يَصْنَعْ البَيْضُ شيئاً .

وفى غُضُونِ ذلك تَعَلَّمَ الإمبراطورةُ من رُسُلِها أو من بعض السُّبَّاح أنه يَجِبُ على من يَوَدُّ أن يكون من العالمِ المتمدن أن يصبحَ صاحبَ مَقْعَدٍ فى جَنيف ، وَتَكَثَّرَتْ للمصالحِ التِّجَارِيَةِ أكثرُ مما للحضارة والدين ، وتَطَلَّبَ رسمياً قبولُها فى جمعية الأمم ، وتَصَرَّحَ فى طلبها بأن النُّخاسةَ مُحَرَّمَةٌ فى الحَبَشَةِ وأن الرِّقَّ يزول بالتدرج فيها «مع استثناء حال الحرب» ، وهذا الاستثناء مما يَجْدُثُ فى كلِّ حين . وَيَبْحَثُ الدَّبْلُيُوثون عن « الصِّغَةِ » التى تنتسب بها الحَبَشَةُ إلى جمعية الأمم بدلاً من إقصائها عنها إلى أن يُلغى الرِّقُّ فيها ، ولم يَنفَكْ الخِبراءُ فى ثمانى سنوات ،



أى فيما بين سنة ١٩٢٣ وسنة ١٩٣١ ، يبحثون عن تلك « الصيغة » فى الاجتماعات واللقاءات والمشاورات وللتناقشات وألخطب والمحاضر والإنطارات والولائم ، وهم يُفجّبون بوجهة النظر الحبيشة القائلة : « حيث يوجد الرّق لا يكون الأرقاء نَعَسَاء ولا يُعَامَلُونَ بسوء » .

وترى لجنة التحقيق « أن ذوى البأس من الرؤساء يمكنهم أن يحولوا دون إلغاء الرّق وأن يُحرّجوا الحكومة الحبيشة بذلك » ، وأن التحرير قد يؤدى إلى « نتائج جالبة للنواب » ، وما كان غير هذا قول وزراء القيصر ، وقول ممثلى دول الجنوب للولايات المتحدة ، وقول ذوى الأملاك الكبيرة ، وقول أنصار سيكس التسليح فى الوقت الحاضر .

وتُحذّر اللجنة بلهجة ذات بهرج من المصاعب التى يؤدى إليها ذلك فى الحبيشة من الوجهة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والمالية ، « وفى غضون ذلك يُتمنى من الدول . . . » .

ولم يكن لدى خبراء جمعية الأمم من الشجاعة ما ينشرون معه جميع التقرير الذى قدّمه وكيلهم اللورد لونغارد والنزى جاء مُصدّقاً لما أبداه الزوّاد والسيّاح من ملاحظات قائلة إن مراسيم النجاشى التى يُنبطل بها الرّق لم تكن غير جبر على ورق ، وقد ألقى تقرير سنة ١٩٢٥ مسؤولية ما وقع من بيع جديد لألوف السبيد على كاهل الكهنوت ، وصرّح راس قوى لسانح : « نُفضل الموت على المدول عن عبيدا » ، ووّرّد فى تقرير قدّم إلى الحكومة الفرنسية أن تجارة الرقيق فى أديس أبابا تتم على رأى من السفراء الأوربيين ، ويُضيف التقرير إلى ذلك من دون سُخرية أن نخاسين سُتفقا ، ويذكّر كاتبان إنكليزيان مؤخرًا

أن الوضع زاد سوءاً بالفتن الأهلية بعد موت منليك ، ويُقدّر أن عدد العبيد هنالك بخمسة ملايين . ونمضي عشر سنين فيرى أحدُ هذين الكاتبين أن مديريات تحولت إلى خراب يبكب<sup>(١)</sup> بعد ازدهار لبيع أهلها ، وأنه أقام بأديس أبيبا فأخذ النجاشي في أثناء إقامته بها هدية مؤلفة « من ١٤٠ قتي وفتاة ترَجَّحُ أعمارهم بين ست سنوات وأربع عشرة سنة ، ومن نساء كثير يرَضِغْنَ لطفلاً » . والسنون نمضي ، ولا يبدي بلدُ حراكا ، ونيوزيلندة وحدها ، وهي قطر صغير ، هي التي تحاول إقازد الشرف بما تُصدره من احتجاجات شديدة ، ويحملُ نصف الشعب على اتخاذ وضع عيد مصر الفرعونية ، فيركع أو يسجد إذا ما أُعطِيَ شيئاً ويشرب بياطين اليد (لحظر استعمال الطائسات عليه) ، وهو يُشدُّ بالوثاق إذا حاول الفرار ، وفي السفر يقدّم سليل سليمان ، أي مسيح الرب ، عيداً حاملون مشاعل ، أو يستمع إلى جوقة من الخُصيان ، وتكتب لجنة جمعية الأمم تقارير ، وتري أن على الإكليروس أن يوجِدوا جواً ملائماً وأن على رجال الدين أن يكونوا أول من يُحرّرون عبيدهم ، وتبحث تلك اللجنة عن حق السفن الحربية في تفتيش السفن المشنبة فيها ، وتُنكر حقها في الجواب مع إعرابها عن رجائها الحار في درَس هذه المسئلة العويصة .

وتثبت هذه الأساليب للحكومة الحبشية حاصل ما يُبديه البيضُ النصاري من نشاط في الأمر ، وتتلقي الحكومة الحبشية في إصدار مراسم تنص على مجازاة كل من يبيع عبداً أو يهبه بثمن ما يُجازى به تاجر الرقيق ، ولا أحد يعاقب النخاس ، ويُقدّم مفوض حبسي إلى جمعية الأمم بمجنيف وثيقة تشتمل

(١) الياب : الخراب .

على تحرير ٢٩٨ من العيد في أثناء السنة ، وأما ملايين العيد الخمسة فقد ظلوا أرقاء !

وتوارت أسواق العيد مع ذلك ، وعاد لا يدفع نقدٌ منا لهم ، وإنما يُشرون ينادق وقذائف ، ويُنتفع في الخارج بما يوجّه من اعتراضٍ تقليديٍّ فيقال : إنهم التفكير في مستقبل هؤلاء الناس هو الذي يحول دون تحريرهم ، وإن الحركة الزراعية تنفّ في جميع البلد كما وقع في كوتّا وهائتي ، وإن الجماعة تهم كما وقع في أرترية عندما حرّرت إيطاليا فيها موالى مصريين ، ولا أحد يُبصر أنه لا بُدّ من وجود نهاية للجماعة ، مع إن الرقّ يهلك أجيالاً في قرون ، ولا أحد يعترف بأن النجاشي لا يدفع رواتب إلى موظفيه ولا إلى جنوده ، وأن ضرائبه تُجبي عبيداً لرخص هذه الوسيلة إذا ما حُلّ العيد على التناسل الكافي ، ولا أحد يذكّر أن الشريف يصطاد ويحارب لأنه لم يتعلم شيئاً آخر ، أسمر كان هذا الشريف أو أبيض أو أصفر .

وفوق البحر الأحمر التي تشقّ عبابه سفنٌ جميلةٌ في كل يوم ، ومن درجة عرضِ جُدّة المخرقة ، وحين يُريح النسيم الليلي على سطح المراكب حسناً من متاعب النهار ، تُبصر قُلوعاً<sup>(١)</sup> بيضاً تجري على الموج ، ويتتبعها ضباطٌ بمنظارهم ، ويتبسمون على ما يحتمل ، ثم يحولون أبصارهم لما لا يجدون في ذلك ما يعنيهم ، ومما حدث ذات مرة أن تتبعت سفينةٌ حربيةٌ إنكليزية زورقاً من ذلك الطراز ، ويقذف الرُّبّانُ جميع العيد من فوق المركب ، ويحمّل الإنكليز على إنقاذهم بذلك ، ويفرّ بهذه الحيلة ويسأل بعد حين قائلاً : « لم يبلغ الأجنبي من حُبِّ

(١) القلوع : جمع القلع ، وهو شراع السفينة .

١٣ — غزلان في السهـب





العبيد ما يُنْقِذُونَ معه نحو اثني عشرَ منهم تاركين شِرَاعاً كثيراً على الجبل  
يَهْرُبُ على هذا الوجه ؟ » .

وتلقى قواربُ أخرى مراسيها بالقرب من جُزَيْرَاتٍ صخرية في البحر الأحمر ،  
وتسَلَّم حبلها إلى قاربٍ آخرَ ينقله إلى الحجاز ، ولا يوجدُ للنَّخَاسَةِ سَوْقٌ في جُدَّة ،  
ومثلُ هذه السَّوْقِ موجودٌ في مَكَّةَ حيثُ يُوقَى بمئاتٍ من العبيد على أنهم من  
الحُجَّاجِ ، وتَقَلَّمُ جمعيةُ الأمِّ ذلك وتُنظِّمُ تقاريرُ فرنسيةٌ رائِعةٌ في سنة ١٩٣٠  
مُوكِّدة خبرَ ذلك ، وتُطَلِّعُ جميعُ السلطات على حقيقة ذلك ، ويعرِفُ جميع  
القناصل في الساحل أسماءَ النَّخَّاسِينَ ، وهؤلاء لا يأخذون من المشتري زيادةً على  
ثَمَنِ المبيع ، ولكنك ترى في كلِّ مكانٍ سمسرةً كثيرية السَّخَاءِ يَدْفَعُونَ  
نحو ١٢٠ جنيه ثمنًا للغلام الجليل البالغ من العمر اثني عشرة سنة أو البنت البالغة  
من العمر أربع عشرة سنة ويَدْفَعُونَ المرأة العُتْبَلِيَّة التي قد تعودُ جميلةً بعد الوضْعِ  
أرخصَ من ذلك لاتباعِ الولد المُشْتَرَى من غير زيادةٍ في الثمن .

وكانت أسواقُ النَّخَاسَةِ علَنِيَّةً في أديس أبيبا حتى سنة ١٩١٣ ، والآن تقومُ  
للمستودعاتُ مقامها في هَرَرَ على الخصوص ، وهذه المستودعاتُ تابعةٌ للنجاشي  
رأساً ، وهناك قُرَى بأسرها تعيش بالنقود التي تُدْفَعُ ثمنًا لسكوتهَا ، ولها أفانينُ  
من العملات مع رؤساء القوافل ، ولا يبدو الخطر إلا بين الاختلاف ومجازرة  
الصحراء ، ويُتَّخَذُ جميعُ المنازل مخايء مع حِجَابٍ <sup>(١)</sup> ينام فيها الأُسْرَى وتُظَلُّ مستورةً  
حتى يُسَارَ إلى البحر ، وفي الساعة الحاضرة ، كما في الماضي ، تَرَى الطُّرُق الصحراوية  
مرصعةً بِجُثَثِ أناسٍ هَلَكُوا عن ضَنَى ونَصَبٍ ، ويُروى أن نصف الأُسْرَى

(١) الحجاب : جمع الجب ، وهو الحفرة .

يموتون مقدماً بسبب الخِصاء الذى يَتَمُّ بقذارة ومن غير طيبٍ .

وما وُجِّه من مغازٍ إلى الغرب والجنُوب ، أى نحو كينِيَّة والسودان ، فقد نَبَّهت السلطاتُ الإنكليزية إليه من غير أن تَقْدِر على منعه فى كلِّ وقت ، ويَحِدُّ الأحباشُ هذه الغزواتِ أمراً طبعياً ، وعند الأحباش أن هذه الغزواتِ تنطوى على معنى التمويض عن فرارِ عبيدهم إلى ما وراء الحدود ما دام الإنكليزُ والطلانية لا يُيسِدونهم إليهم ، ويُحسِنون مَوظفو الإنكليز فى القَصَارِف ، البعيدة من الحدود ١٣٠ كيلومتراً ، قبولَ هؤلاء الفارين ، ويَحِدُّون لهم عملاً ولتساعدهم أزواجاً .

يَبْدُ أن أصحاب العبيد يَرَوْنَ الضرَّ قد مَسَّهم ، فيُرْسِلُون من يطالب برُدِّ بضاعتهم إليهم ، وإليك نصُّ أحد الكتب التى يخاطبون بها الموظفَ البريطانىَّ فى الحدود : « نَسأل الله أن يُأْهِمَكَ العدل ! إن الحكومة هى حاميةُ الفقراء وحارسةُ أموالهم ، وقد فرَّ جميع العبيد فى مِنطقتنا إلى القَصَارِف ، فأدَّى ذلك إلى خراب بيوتنا نحن الساكنين الذين لا يَقْدِرُونَ على العمل بلا عبيد ، وإليك أبعث ابنى لتساعده فى الموضوع ، وإنى لك من الشاكرين ألف مرة » (١) .

(١) تجيد فى تلك الصفحات التى كتبت قبل الحرب الإيطالية الحبشية إيضاحاً لسر هزيمة الحبشة ، ولدينا منظر نادر لحرب تنهى لخير المغلوب بعد النظر إلى فوائد الغالب المشكوك فيها ، ولا ينبغي أن تخطأ أهداف الغالب بنتائج النصر ، والواقع أن إيطاليا لم توقد نار تلك الحرب لتحرير العبيد ، ولكن هؤلاء العبيد غدوا أحراراً ، ونجت البلاد من عامل أسفر جنبه وفراره فى أخرج الساعات عن عطف أوربة التى لم يكن أهلها فى أى زمان كان ، والمصريون كانوا قد استقبلوا الإسكندر كقنذ مع أنه دخل بلادهم غاصحاً ، وتضى مئة سنة فيزدرى خلفاءه فى جميع البلد ، ولم تبد الشعوب التى حررت شاكراً قط ، وهذه ظاهرة يتقم لها القدر من الذين يحقون تحت قناب من الأخلاق طمعهم فى السلطان والتوسع ، ومن المحتمل أن تهدد إفريقيا المستقلة أوربة بعد مئة سنة ، وما تعتمد أنه لن يرفع فى ذلك الحين علم أوربي فوق تلك القارة .

بَلَغَ النيل الأزرق سهل السودان ، وَيَتَّجِهْ إِلَى الشَّامِلِ الْغَرْبِيِّ ، يَتَّجِهْ إِلَى هَذَفٍ غَيْرِ مَعْرُوفٍ ، وَتَنْتَهِي مَغَامِرَاتُ الْعَقِيقِ ، وَلَا تَحْمِيهِ الصَّخُورُ وَالْغَابَاتُ ، وَيَجْزِي مِنْ خِلَالِ الشَّهْبِ الْخَانِقِ وَيَهْدَأُ ، وَلَا يَزَالُ مِنَ الْفَتَاءِ مَا يَحْتَمِلُ مَعَهُ الشُّفْنُ ، وَيَكُونُ فِي الرُّصَيْرِصَ ، أَيْ عَلَى ٦٥٠ كِيلُومِتْرٍ مِنَ الْمُلْتَمَى ، مِنْ شِدَّةِ الْعُمُقِ وَالْإِتْسَاعِ مَا تَزِيدُ بِهِ مَقَاوِمُهُ ، وَقَلْوُهُ بَاخِرَةٌ بِيضَاءَ ، وَيَحْمِلُ النِّيلُ الْغَمُورُ الْجَمُوحَ حِمْلًا ، وَمَعَ ذَلِكَ تَرَاهُ ، بِمَجْرَاهِ السَّرِيعِ وَلَوْنِهِ الدَّاجِنِ وَمَا يَجْرُ مِنْ غَرِيْبٍ ، يَتَنَازَلُ مِنْ أَخِيهِ السَّاكِنِ مَعَ تَمَازُلٍ فِي الظَّهْرِ .

وَتَحِفُّ حَدِيقَةٌ مِنْ حَوْلِ مَجْرَاهُ ، وَلَمْ تَصُدِّدْهُ يَدُ الْإِنْكَازِ الْمُبْدَعَةِ تَقْرِيْبًا ، وَتَسْمُ طَرِيقَ السِّيَارَاتِ فَوْقَ الضَّفَةِ الْيَسْرَى عَلَى بَلَدٍ جَدِيدٍ ، وَيَمُرُّ النِّيلُ أَمَامَ سِنْفَا الَّتِي تَشَابَهَ الْقَلْعَةُ وَالَّتِي يَدُلُّ الْمَذْفَانُ أَمَامَهَا عَلَى مَا حَدَثَ هُنَاكَ مِنْ زَمَنِ غَيْرِ طَوِيلٍ ، وَتَتَقَابَلُ الْقُرَى مُسْتَدِيرَةً مُسَوَّرَةً شِبْهَ مُتَوَارِيَةٍ بَيْنَ خُضْرَةِ الضَّفَافِ ، وَفِي وَسْطِ حَقُولِ الدَّرَّةِ ، وَتَسُودُ السَّلْمُ هُنَا ، أَوْ يَسُودُ السَّكُونُ عَلَى الْأَقْلَ هُنَا ، وَتُؤَمِّنُ الْحَيَاةَ بِظَاهِرَةٍ جَدِيدَةٍ فِي مَجْرَى النِّهْرِ التَّحْتَانِيَّ .

وَالْآنَ يَسَانِي النِّيلُ الْأَزْرَقُ مِثْلَ مَا عَانَاهُ النِّيلُ الْأَبْيَضُ فِي الْمَجْرَى الْفَوْقَانِيَّ\* بِالْخُرْطُومِ ، فَهُوَ يَلْتَمِثُ وَيَقِفُ وَيَشْعُرُ بِأَنَّهُ يَتَمَطَّى لِمَوْقٍ حَاجِزٍ غَيْرِ مَنْظُورٍ جَزِيَّةٍ ، وَهُوَ يَصْدِمُ بِنَقْصَةِ سُورٍ حَاجِزٍ يَبْلُغُ ارْتِفَاعُهُ ثَلَاثِينَ مِتْرًا وَيَبْلُغُ عَرْضُهُ ثَلَاثَةَ كِيلُومِتْرَاتٍ تَقْرِيْبًا ، وَتَقِفُهُ أَيْدٍ خَفِيَّةٌ لِأَسْبَابٍ مَجْهُولَةٍ ، وَيَمُرُّ مُزِيدًا مِنْ أَبْوَابِ



حجرية تُفَتِّحُ له وتُفَلِّقُ دونه مناوبة ، ويسطر عليه سدٌ سِنَارٌ ويُنظَّمُ مجراه ،  
ويألفها من تجربة مريضة ١ وَيَفْذُو الحِصَانُ السَّيُّ طليقاً ، ولا يُعَيِّمُ أن يَشْعُرُ بجبلٍ  
حول عُنُقِهِ ، ثم يأتي مَرُوضٌ فيُكْرِهُهُ على التَّيَرِ بحركاتٍ مقيدة في أوقاتٍ معينة ،  
وتكون المفاجأة من العِظَمِ ما يَقَعُ معه السفينة ، وليس للسدِّ تَرْعٌ ، وتنتظر باخرة  
في الناحية الأخرى .

وينضمُّ إلى النيل من الناحية اليمنى رافدان من قُورْها وعلى مسافةٍ قصيرةٍ بينهما .  
والرَّهْدُ والدُّنْدِرُ أَخَوَانُ حَقِيقَتَيَانِ مَدَى الحياة ، وَيَقَعُ منبعُ كُلٍِّ منها على  
الهُضْبَةِ الشَّامِلَةِ الغربية من بحيرة طانة ، وتَفْذِيهِمَا جداولٌ تُعْذُّ قِسمًا من شَبَكَةِ  
لسيول كثيرة ، ويتوجَّهَانِ إلى الشمال الغربي في بدء الأمر ، ثم يَبْدُوَانِ موازيَيْنِ  
للنيل الأزرق ، وينساويَانِ طولاً وَحَجْماً تقريباً ، وتجرى بجري الرَّهْدِ أكثرُ انخفاضاً  
مع ذلك ، وهو يَجُوبُ أرضاً أَوْقَرَ غَرْبِيّاً ، وهو على ما يبدو من ضَيْقِهِ يَزِيدُ على  
الدُّنْدِرِ ، الذي هو أَعْرَضُ منه وأطولُ ، احتواءً للغُرَيْنِ ، وكلا الرافدين يلاقى النيل  
في الصيف على حين تُبْصِرُ رافداً ثالثاً واقعاً في شمال ذلك يقاسمُ المَظْبَرَةَ  
مَصِيرَهُ أحياناً .

وسنُبعُ المَظْبَرَةِ واقعٌ في مِنطَقَةِ بحيرة طانة وبالقرب من ذِيئِكَ الرافدين ، والمَظْبَرَةُ  
في البَدْءِ سِيلٌ جَبَلِيٌّ شَفَافٌ فَوَارٌ صَوَالٌ ، ثم تُغَيَّرُ الروافدُ الثلاثة التي تنضمُّ إليه  
جَبَلِيَّتُهُ وتَجِيهُهُ بمقدارٍ كبيرٍ من الغُرَيْنِ يَقَرُّ مَصِيرُهُ ، وأطولُ هذه الروافد يأتيه من  
المنبع البركانيِّ الحارِّ الواقع شرق بحيرة طانة ، ويأتيه الرافدان الآخران من أخاديد  
القرب العميقة الجبلية التي يَنَالُ بها اسمُ المَظْبَرَةِ العربيِّ الذي يَعْنِي « الأسود » !  
ورافدُ النيلِ هَذَا رافدُ النيلِ الآخَرَيْنِ مما يُلْقِي في نفوس أهل البدو حَيْرَةً فَاجِعة .

### الطبرة

وَيَحِفُّ نَهْرُ الطَّبْرَةِ فِي شَهْرِ بَيَازٍ ، وَيَصْبِحُ بِأَسَا ، وَتَبْتَلُهُ الصَّحْرَاءُ ، وَلَا يُمْرَى عَلَى مَسَافَةِ ثَمَانِينَ كِيلُومِتْرًا مِنْ مَصَّبِهِ غَيْرُ مَجْرَى مِنَ الْحَقَى وَالْوَحْلِ ، يَبْدَأُ أَنَّ الطَّبْرَةَ فِي أَشْهُرِ نَشَاطِهِ وَصُولِهِ الثَّلَاثَةِ يَكُونُ أَنْفَعُ مِنَ الْأَنْهَارِ الْأُخْرَى فِي عَامٍ ، وَهُوَ يَلَاقِي النَّيْلَ فِي الْمَجْرَى التَّحْتَانِيٍّ عَلَى بُعْدِ ثَلَاثِمِائَةِ كِيلُومِتْرٍ مِنَ التَّقَاءِ النَّيْلِ الْأَبْيَضِ وَالنَّيْلِ الْأَزْرَقِ .

وَيَسِيكُونُ لِكُلِّ النَّيْلَيْنِ أَكْثَرُ مِنْ مَقَامَرَةٍ سَلَفًا ، وَيَسْهَلُ عَلَى النَّيْلِ الْأَزْرَقِ احْتِمَالُ كِرَاهَةِ السَّدِّ ، وَهُوَ يُشْعِرُ بِأَنْ قَسَمًا مِنْ مِيَاهِهِ يَجْرَى فِي قَنَوَاتٍ غَيْرِ مَعْرُوفَةٍ ، وَهُوَ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ يَسْتَرِدَّ عَرْضَهُ وَمُحَمِّقَهُ فَيَجْرَى مَسْرِعًا هَادِنًا بَيْنَ ضِفَتَيْنِ ثَابِتَتَيْنِ ، وَهُوَ ، مَعَ ضَعْفِ انْحِدَارِهِ فِي ذَلِكَ الشَّهْبِ ، لَا يَكُونُ لَهُ مَا لِلنَّيْلِ الْأَبْيَضِ مِنْ سِتْرِ مِكْسَالٍ ، وَهُوَ مِنْ بَعْدِ السَّدِّ يُبْصَرُ وَيَسْمَعُ عَنْ شِمَالِهِ الْقِطَارَ الْحَدِيدِيَّ الَّذِي يَنْقُلُ الْقَطَنَ .

وَهُوَ يَرَى بَعْدَ ذَلِكَ أَبْرَاجَ الْخُرُطُومِ الَّتِي تُحْجِبُ بِهَا أَخُوهُ ، وَهُوَ يَضَاقِقُ وَيَسْتَوْقِفُ بَدَلًا مِنْ أَنْ يُضَاقِقَ وَيُسْتَوْقِفَ ، وَتَكُونُ الْقِطَاعُ فِي الْمِرَاحَى ، فِي الْحِدَائِقِ الْوَاسِعَةِ ، لَيْلَ نَهَارَ ، وَتَنْذِرُ أَسْدَادًا خَشِيئَةً خَفِيفَةً بَاتِنَاهَا بِلَدِ الْبُدُويِّينَ ، وَتَبْزُرُ فِي الشَّهْبِ بَعْضُ الْبُيُوتِ الْمَصْنُوعَةِ مِنَ الْأَجْرِ لِتَكُونَ طَلَانَعُ الْبَصْرِ الَّتِي يُبْصَرُ بِالقَرَبِ مِنْهَا شَجَرٌ حَدِيثٌ تَحْفَظُهُ مِنَ التَّمَزُّلِ الْوَاحِ وَصَفَاحُ ، وَتُحَدِّدُ أَوْتَادُ بَيْضٍ بِقَاعًا لِكُرَّةِ الْقَدَمِ ، وَتَشَاهِدُ عَرَائِشُ مَصْنُوعَةٌ مِنْ جُذُوعِ<sup>(١)</sup> تَخْلِي عَلَى شَكْلِ أَعْمَدَةٍ ، وَكُلُّ شَيْءٍ يُحْيِرُ الْبُدُويَّ الَّذِي يَدْنُو لِلْمَرَّةِ الْأُولَى مِنْ عَاصِمَةِ كَالْنَيْلِ الْأَزْرَقِ الَّذِي يَمُرُّ مِنْ غَايَاتِهِ فِي الشَّهْبِ .

(١) الجذوع : جمع الجذع ، وهو ساق النخلة .

وهو سَيَجِدُ نفسه أمام جسرٍ ذى أعمدةٍ متينة وأقواسٍ عريضة تمرُّ عليه القَطَرُ<sup>(١)</sup> الذاهبةُ إلى الخرطوم ، المدينة الرائعة في سَوَاءٍ<sup>(٢)</sup> الصحراء ، المدينة الخضراء ذات البيوت البيض والقصور التي تسيطر النخلُ الفريدة عليها فيبدي على رؤوس هذه النخلِ وَكَرَّه الأُنُوقِ<sup>(٣)</sup> .

وبعد الجسر ينتصبُ قصرٌ منيعٌ على الضفة اليسرى فتنبصر على أجنحته مدافع وجنوداً ذوى بَرَاتٍ مختلفة الألوان كما لو كانوا حَرَسَ شرفٍ لأميرٍ إقطاعيٍّ كبير ، وتزرى زوارق أنيقة وخيولاً أصيلة مقرونة بمرَبَاتٍ جميلة تنتظر أمام الباب ، وهناك ، وبعد مسافة قصيرة ، يُفْتَحُ رِجَالُ<sup>(٤)</sup> فَيَتَدَفَّقُ منه بضع مئات من الشبان السمر لا بسين بَرَاتٍ بيضاء وذهبين إلى الرصيف المستور بالنخيل ليتلَّهوا ، وهذا هو قصرُ الحاكم الإنكليزي ، وهذه هي الكلية التي يَتَخَرَّجُ فيها ثلاثئة نُوَّيِّ ، وسِرٌّ ميلًا يَبْدُ لك الحُسْرُ الثاني العظيم ويظهر لك تحته النيلُ الأبيض الواسع الرزين المَهَيَّبُ . أَوْ يَشْعُرُ النيلُ الأزرق الطائشُ الساذج في ذلك الحين بأنه ليس إلا جزءاً من كلٍّ ؟ أَوْ يَفْتَقِدُ أن النهر المتناقل الشاحب الذي يلاقيه هو رافدٌ يجب عليه أن يَقْبَلَهُ طَوْعاً أَوْ كَرْهاً ؟

ذاتك أخوان يتعاقبان من غير تنافس ، ولا يحدُّ أحدهما أفضل من الآخر أوتابعا له ، ويضاعفُ عناقهما قوةَ النهر ، والنهرُ ، كما يَلُوح ، يَجْمَعُ جميعَ هِمَّتِهِ ليلدو جديراً بمصيره في أثناء النصف الثاني من حياته .

ولن ترى غيرَ نيلٍ واحدٍ بعد الآن ، وهذا النيلُ سيكافح الإنسان .

(١) القطر : جمع القطار — (٢) السواء : الوسط — (٣) الأنوق : الغاب ، و « هو أعز من بين الأنوق » مثل يضرب لئلا سبيل إليه — (٤) الرجاج : الباب العظيم .

## الجزء الثالث

### مكافحة الإنسان

« يَفْتَرُسْنَا الرمل الغليل <sup>(١)</sup> في البادية  
الجديدة ، والشمسُ في السماء تَمْتَصُّ دَمَنَا ،  
وَيَقْنُتُلْ كِبَاطِرُ سَاكِنِ ، يَا أَيُّهَا الْأَخُ ،  
خُذْ إِخْوَتَكَ مِنَ السَّهْلِ ، خُذْ إِخْوَتَكَ مِنَ  
الْجَبَلِ ، وَجِيءْ بِهِمْ إِلَى أَيْتِكَ .  
( غوته )

---

(١) التليل : المصشان عطشا شديداً .



طائرةٌ تُحلقُ فوق رَاكِبِ قَلُوصٍ<sup>(١)</sup> عَصُوفٍ<sup>(٢)</sup>، ذلك هو طابِعُ بريدِ السودان ، ولو سار ذلك الراكِبُ عن شمال النيل منحرفاً قليلاً إلى غرب بحيرة نُوْ لأمكنه أن يَنطَلعَ عشرين درجةَ عرضٍ ، أى ألفي كيلومتر على خطٍ مستقيم ، وأن يَصِلَ إلى القاهرة من غير أن يلاقيَ مجرى ماء ، وهو إذا ما انطلق من الصَّفةِ اليمنى ، من مَصَبِّ العُظْبَةِ ، بَلَّغَ مَصَبَّ النيل بعد جَوْبِ اثنتي عشرة درجةً من العرض من غير أن يَمِدَّ نَهراً أو مطراً ، وتمتدُّ تلك البُقعةُ العاطلة من الماء حتى شاطئ إفريقيا الغربى اثنتى عشرة درجةً من العرض ونحو خمسين درجةً من الطول ، وهذه هى الصحراء ، وهى الصحراء نفسها فى شرق النيل مع اختلاف الاسم .

ومع ذلك ، وفى ذلك المكان حيث لا يمتزجُ النهرُ جِلْ ، يتركُ النهرُ اتجاهه نحو الشمال وينطفئ ، وهذه المنطقةُ هى الوحيدة فى حياته ، وفيما يَبيدُ التِطَارُ والطائرةُ والجَلَمالُ على قَمُودِهِ<sup>(٣)</sup> يميناً إذ يَقِفُ النهرُ عائقٌ فَيَرْسُمُ S فى رمل الصحراء الأَمْر<sup>(٤)</sup> .

ولو تَفِدَ ماؤه ، ولوماتَ ظمأً ، ما قَفَى أحدٌ من ذلك العَجَب ، وَلَيَجُبُ فارسٌ سهلاً خالياً من النبات ، بالقاً من الاتساع نصفَ مساحةِ أوربة ، وَلَيَكُنْ

(١) القلوص : الناقة الطويلة القوائم — (٢) العصف : السرج البير .

(٣) القصود : الناقة الطويلة القوائم كالقلوص — (٤) الأمر : ما كان على لون للفرس ، وهى

لون ليس ناصع الحمرة أو شقرة بكثرة .

ذلك الفارسُ عاطلاً من أخٍ أو صديق يأتيه بماء ، ولْيَحْرَضْ ذلك الفارسُ يوماً بعد يومٍ لسميرٍ لا يَنْفُثُ حرَّه إلا ليلاً ، ولْيَقِفْ ذلك الفارسُ حاجزاً من صَوَانٍ بقتةً ، ولْيَقْضَ عليه لهذا السبب بأن يَقْطَعَ دَوْرَةَ مِثَالِ الكيلومترات مع ضرورةِ إيسرعه لبلوغ بلده أو لبلوغ البحر أو المرافئ ، أفلا تَهْلِكُ نَافِثَةُ إعْيَاءٍ قبل الوصول إلى هَذَفِ الرُّحْلَةِ ؟

والنيلُ ، مع ذلك ، يَجْرِي منذ أُلُوف السنين إلى البحر نفسه ماراً من الصحراء المحرقة عاطلاً من مطرٍ أو صديقٍ أو رفيقٍ فَيَجِدُ بأمواجه ما يَنْعِشُهُ ، وَيَقِفُ النيلُ حاجزاً من الصَوَانِ فيدورُ حَوْلَهُ ويستردُّ بهذا التماسٍ قواه ونشاطه ويَحْتَمِلُ سفناً فيكافحها ويكافحُ الإنسانَ الذي يُريدُ إمساكَه ، وَيُوقِّقُ في ذلك ، ولا يَخْشَرُ النهرُ بأسَه ولا يَنْشَفُ ، وَيَشْقُ لِنَفْسِهِ طريقاً من بين رمالٍ لا حدَّ لها كما قَهَرَ المناقعُ ، ويقاومُ الجَفَافَ كما قاومَ الأهوارُ<sup>(١)</sup> ، وَيَصِلُ إلى البلدِ الذي أوجده والذي ما فتئَ يَرْوِيهِ منذ الأزل ، يَصِلُ إلى الدلتا ، إلى الموانئ ، إلى البحر ، إلى مهد جميع الأنهار ، وياله من نهر !

وليس الذي يكافحه النيلُ هَضْبَةٌ أو جِبَلٌ ، بل بلدٌ أَكْثَبُ يَتَخَلَّلُ السهلُ الرملِيُّ فيه تلالٌ حجريةٌ مُحْرِقَةٌ وخروقٌ مَدَوْرَةٌ وأهرامٌ وجنادلُ ذاتُ زوايا مُضَرَّسَةٌ وأحوافٌ مُفْتَتَةٌ وَقِيَابٌ مُفَرَّضَةٌ وما إلى ذلك من الأمور التي تَمُّ على الريح ، أي على موجتها الغَضُوبِ ، وكما أن عنصرَ التذكيرِ المعجيبِ يَخْتَلِطُ بعنصرِ التأنيثِ في السجيا التَمْوجَةِ تتضَبُّ تِلَالُ صَوَانٍ بين مِسَاحَاتٍ واسعةٍ من الزمالِ التَمْوجَةِ ، فبعد أن يَسِيحَ الجَلُّ حَتَّى الرُّكْبِ في تلك الرمالِ التَمْوجَةِ يكادُ يَفْقِدُ

(١) الأهوار : جمع المور ، وهو البحيرة تجري إليها مياه غياض وآجام فتسع .

رجله على تلك الزوايا الوعرة، وتشبه الصحراء بالبحر في الغالب، ولا بد من الرقبة ليكون هذا المنصر المتحرك مشابهاً للصحراء الميتة، وفي أعماق البحر يقوم عالم مخفي من النبات والحيوان لا تنفذ إليه غير عين الغواص، والحركة والتحول وفوضى الأشكال آية كل شيء فيه، أي ما يعاكس تلك البادية، وذلك لأن الجلود يعود إلى تلك الأراضي الميتة إذا ما كفت الريح عن كفتها.

والوهي هو الأمر الوحيد المشترك بين البحر والصحراء، وبينهما وبين حقل الجليد، والإنسان، وهو الذي تعود الشمور بالحياة حوله، يدعرج تجاه العناصر، فلا يبالى بكون البحر والصحراء وحقل الجليد أشياء تعيش حقاً، ومن شأن البساطة التي تقوم مقام التنوع، والتنوع مما يزعج الجمهور، أن تفصل سكان هذه البقاع الثلاث عن العناصر الصامتة وأن تجعل بنض هذه العناصر مشابهاً لبعض، وأن تعد الجميع ساكناً خاشعاً.

وهل هي صامتة؟ يسع ابن الجبل صيئ البربوع<sup>(١)</sup> حتى ذرى أعلى المرتفعات، وتزدح حقول الجليد والبحار والقفار صدى الجوارح التي تحوم حول سمكة في الماء ونداء الرمة<sup>(٢)</sup> في الرمل، ومن المحتمل أن كانت غاية هذا الصوت هي الدلالة على حياة تلك الأشياء، ويهيم على العناصر الثلاثة هزير الرياح<sup>(٣)</sup> أو صوت العواصف، فتشمر<sup>(٤)</sup> منه جلود أكثر الناس إقلاماً.

ويا للتنوع في الصحراء تقوم في سواء الأتايه<sup>(٥)</sup> الصخرية جبال من الصوان والرخام السماقي يبلغ ارتفاعها أثنى متر، ويقال إنها تكونت في شرق النيل حين

(١) صيئ البربوع: صوته، والبربوع: نوع من القوافض يشبه القار صير الدين طويل الرجلين وله ذنب طويل — (٢) الرمة: ما يل من الضام — (٣) هزير الرياح: دويها. — (٤) تشمر: ترتعد — (٥) الأتايه: جمع التيه، وهو القفر يضل فيه.



هبوط وهذه<sup>(١)</sup> إفريقية الغربية الكبرى ، وَيَقْبُ الصَّخْرَ السَّودَ صَخْرٌ نَبْرَةٌ من الرُّخَامِ الذي إِذَا مَا قُصِلَتْ عَنْهُ قِطْعَةٌ بِالْمِدَقِّ وَجِدَتْ يَبْضَاءَ كَرُخَامٍ كَارَارًا<sup>(٢)</sup> أو ذات عروقٍ حُمْرٍ وَسُودٍ ، وفي غرب النيل ، حتى صحراء ليبيا ، تَظْهَرُ أوديةٌ صخريةٌ طويلة متفرقة أو أوديةٌ وأنهارٌ متحجرة عن لَعْنَةٍ بِمد أن كانت هذه الأودية والأنهار الموهوبة روافدًا نافذةً إلى النيل على الراجع ، والضياء هنا يتغير تَغْيَرُ الأشكال وإن لم يَنْخُلْهُ<sup>(٣)</sup> غَمَامٌ ، وفي أيام الصَّبَابِ تُنِيرُ شمسٌ زرقاء شاحبةً بَحْرًا بِلَوْنِ الزعفران<sup>(٤)</sup> ، وهناك يشبُّه الأعرابُ الشمسَ بالقمر في أغانيهم ، وهذه الظاهرة هي طليعة الزوبعة في الغالب .

وَيُقِيمُ نورُ النهار الذي يُفْشِي الأبصارَ ، وَيَعْقِبُهُ وَيَبْضُ ضاربٌ إلى صَفَرَةٍ ، وتَلُوحُ أطوادُ<sup>(٥)</sup> مُتَمَرِّكٍ كَسَلَةٍ يَمْكُنُ لَسْئُهَا ، ولا تَشْرُ بِهَبَّةٍ رِيحٍ ، وَيَصْفَتُك صَوْتٌ أو « ظلامٌ كثيفٌ » كما جاء في التوراة ، ويدنو أصحابُ مِنْمٍ يَصْحَبُهُ هَزِيمٌ<sup>(٦)</sup> بَيْدٌ ، وَتَهْبُ عاصفةٌ محرقة متوعدةٌ صاحبةٌ قاذفةٌ برمالٍ وحجارة ، وَيُسْتَلْقَى على الأرض لَمَّا تَوَجَّه من خبطٍ وقيل للإنسان والحيوان ، وَتَقْلُبُ الخِيَامَ وتُقَطِّعُ الحال من غير أن ينتبه أحدٌ إلى ذلك ، والجميعُ يرتجف فرَقًا من هذا الإعصار الذي يَسُودُ وَيَقْمَرُ كلَّ شيءٍ ، ولو أنهم إلهُ الريح نظره في هذا المنظر لأبصر ، لا رَيْبَ ، أن أولئك النَّفَرِ من الناس يَضْرَعُونَ إليه ساجدين ، والعالمُ ، وإن كان يُفَسِّرُ في مكتبته الهادي بأكسفورد ، تلك الأعاصيرَ الجَنَوِيَّةِ الغربية بأنها صادرةٌ عن التقاء الشَّحْبِ الباردة وحرارة الصحراء الشديدة ، يَذْهَبُ

(١) الوهمة : الهوة في الأرض — (٢) كارارا : ولاية إيطالية معروفة برخامها الأبيض .

(٣) نخل القين : اختاره وصفاء — (٤) الزعفران : نبات أصفر الزهر له أصل كالبلبل .

(٥) الأطواد : جمع الطود ، وهو الجبل العظيم — (٦) الهزم : صوت الرعد .

عند الوجَل ، كالعرب ، إلى أنها من حَمَلِ الحَيْنِ أو الأرواح الشريرة التي تُثِيرُ أعمدة الرمل .

وتزول الزَّوْبَةُ ، في الغالب ، بسرعة كالتي تهبُّ بها ، وفيها ينهض الإنسان والحيوان سالمين حائرين إذ يُبْصِران بجانبها طيراً ميتاً على ما يحتمل ، أو يبصران قُبْرَةً من قنابر الصحراء التَّجَأَتْ إلى رَفْرِفِ<sup>(١)</sup> خيمة مَفْوْضَةٍ فَعَادَتْ إلى الطيران مُعَرَّدةً ، ولا شيء أكثر تأثيراً في النفس من تلحين القنبرة البعيدة من كلِّ واحة ، والتي لا يَفْهَمُ الشيء الذي تعيش به سوى الله ، والتي تشابه النُّورَس<sup>(٢)</sup> المرافق للسفينة مع ابتعادٍ عن البرِّ أياماً طويلة .

والماء في الصحراء أمرٌ وهميٌّ كالهواء ، والآبارُ تهبُّ الحياة للصحراء مع عدم بَصَرِها ومع عدم انتظامها ، والآبارُ في الصحراء تَبْدُو بِنْتَةً كالنجم اللذينة فتُحَدِّثُ فيها بُعْماً خُصْراً ومراحلَ صغيرة ، أَجَلٌ ، هنالك طُرُقٌ قديمةٌ تسير عليها القوافل بين بئرٍ وبئر ، بَيِّدَ أن الآبارَ تَظْهَرُ اتفاقاً كالجاري البحرية الواقعة تحت الأرض وكُفْلُوع<sup>(٣)</sup> حقول الجليل فتنتقل مثلها بين مكانٍ ومكان وفي الحين بعد الحين ، وَيَنْبُعُ الماءُ المُنْقَذُ للحياة في قَمَرٍ وادٍ عميق ، ولا يلبث كلُّ شيءٍ أن يَنْخَسِرَ حوله ، وتَظْهَرُ بعضُ أشجار السَّنَطِ الشائكة وبعضُ النخيل اليابسة كأنها هَبَّةٌ من الآلهة ، وَيَطْرَحُ كلُّ من الإنسان والحيوان نفسه لتَذَوُّقِ هذا التَّرْيَاقِ<sup>(٤)</sup> الذي يَنْجُو به من الشمس المُحْرِقَةِ ، وهَلُمُّ إلى البحر !

(١) الرفرف : خرقه تهاط في أسفل السراقد والقصاط ، أي ذيله — (٢) النورس : طائر مائي في حجم الحمام أو أكبر يملو في الجو ثم يزج نفسه في الماء ، ولا يأكل غير السمك ، ويدعى أيضاً « زنج الماء » — (٣) القلوع : جمع القلع ، وهو الشق في القدم وغيرها .  
(٤) الترياق : دواء يدفع السموم .

وما يَحْدُثُ أحياناً أن يكون الجسمُ والروحُ قد سُفِعَا<sup>(١)</sup> منذ أيام بَرِيج خفيفةٍ  
محروقةٍ فتعْجُجُ عَمْدُ الحَيَامِ وَيُفْلَجُ<sup>(٢)</sup> عَاجُ مَقَابِضِ السَّكَاكِينِ ، وَتُقْلَعُ<sup>(٣)</sup> مَلَفَاتُ  
الورقِ ، وَيُلصَقُ الرَّدَاءُ بِالْغَطَاءِ ، وَيَخْرُجُ مِنَ الْقَمِيصِ شَرَرٌ إِذَا مَا كُشِفَ كَمَا  
يَخْرُجُ مِنَ الشَّعْرِ إِذَا مَا مُسِطَ ، وَتَلَوَحُ طَائِفَةٌ مِنْ شَجَرِ السَّنَطِ لِتَنْفِيبِ أَخِيرٍ أُخْبِرَةٍ  
بوجود ما ، وَتُبْلَغُ ، وَهَاهُ ، وَهَاهُ ، لَا تَجِدُ هُنَاكَ وَاحِدًا<sup>(٤)</sup> ، وَلَا تَجِدُ هُنَاكَ يَنْبُوعًا  
يَنْفِيعُ<sup>(٥)</sup> غَلَّةَ السَّافِرِينَ لِلنَّهْوَكِينَ ، وَتُخْفَرُ بَرٌّ عَلَى عَجَلٍ كَشَفًا لِسِاطٍ مَاءٍ تَحْتَ  
الأَرْضِ يَمُنُّ بِالحَيَاةِ عَلَى النَّبَاتِ ، وَفِيَا تَرَى الْمَازِقَ<sup>(٦)</sup> تَجْتَنَسُ<sup>(٧)</sup> الْمَاءَ فِي التَّرَابِ  
إِذْ تَسْمَعُ صَرِيحًا<sup>(٨)</sup> فِي الشَّجَرَةِ الْمُتَقَشِّرَةِ نَتِيجَةً لِانْفِصَالِ الصَّنْعِ عَنِ الْأَنْغْصَانِ .

وكيف يُحْفَظُ ذَلِكَ الْمَاءُ ؟ لَقَدْ اخْتَرَعَ الْأَعْرَابِيُّ ، لِيَعِيشَ ، أَوْعِيَةً تَرَايَةِ ذَاتِ  
مِنَافَذٍ يَعُدُّهَا آثَمَ مِنْ جَمِيعِ التَّرَامِيسِ<sup>(٩)</sup> ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمَاءَ الْفَارِ يَصِيرُ فِيهَا بَارِدًا  
نَهَارًا ، وَيَصِيرُ صَافِيًا لَيْلًا ، وَمَا يُفْزِعُ الْبَدْوِيَّ وَالسَّامِعَ الْأَبْيَضَ انْسِدَادُ مَسَامِ تِلْكَ  
الْأَنِيَةِ ، وَقَدْ يَحْفَظُ كَيْتُونًا فِي عُلبَةٍ صَنَمِيحٍ حَفْظًا لَهُ مِنَ الْجَفَافِ فَيَقْسِمُهُ أَرْبَاعًا  
عَلَى أَنْ يَمُصَّ فِي كُلِّ نِصْفِ سَاعَةٍ رُبْعًا ، وَقَدْ تُبْلَغُ أَوَّلُ وَاحِدَةٍ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ ،  
وَيَقَعُ قَعُودٌ<sup>(١٠)</sup> ، وَيَذُلُّ غَثِيْقُ الْعِقْبَانِ<sup>(١١)</sup> عَلَى أَنَّهُ لَنْ يَبْقَى مِنْهُ غَيْرُ الْمَيْكَلِ الْعَقْلِيِّ .  
وَعِظَامُ الْإِبِلِ ، كَالصَّوَى<sup>(١٢)</sup> ، دَلِيلٌ عَلَى التَّرَبِّ الصَّحْرَاوِيِّ ، وَتُبْصِرُ فِي كُلِّ

(١) سَفَتَ رِيحُ السُّوْمِ وَجْهَهُ : لَقَعَتْهُ فَفُتِرَ لَوْنُ بَصَرِهِ — (٢) فُلَجَ الْعَيْءُ : شَقَّهُ .  
(٣) فُلَجَ الْعَيْءُ : شَقَّهُ — (٤) الْوَاحِ أَوْ الْوَاحَةُ : مَقَرُّ الْوَاحَاتِ ، وَهِيَ أَرْضٌ خَصِيَّةٌ  
فِي صَحَارٍ رَمْلِيَّةٍ كَأَنَّهَا مَعْرُوفٌ — (٥) أَهَمُّ فُلْتِهِ : أَرَوَى عَطَشَهُ الشَّدِيدَ — (٦) الْمَازِقُ :  
جَمْعُ الْمَزِقِ ، وَهُوَ الْآلَةُ مِنَ الْحَدِيدِ وَنَحْوُهُ مِمَّا يَخْفَرُ بِهِ — (٧) اجْتَنَسَ الْعَيْءُ : طَلَبَهُ بِالْحَرَمِ  
وَالِاسْتِقْمَاءِ — (٨) مِنْ صَرَفِ الْبَابِ صَرِيحًا إِذَا صَوْتٌ عِنْدَ فَتْحِهِ أَوْ إِغْلَاقِهِ — (٩) التَّرَامِيسُ :  
جَمْعُ التَّرَمِيسِ (Thermos bottle) وَهُوَ زُجَاجَةٌ تَحْفَظُ حَرَارَةَ مَا يَوْضَعُ فِيهَا سَاخِنًا أَوْ بَارِدًا .  
(١٠) الْقَعُودُ مِنَ الْإِبِلِ مَا يَقْتَعِدُهُ الرَّاعِي فِي كُلِّ حَاجَةٍ — (١١) غَثِيْقُ الْعِقْبَانِ : صَوْتُهَا ،  
وَالْعِقْبَانُ جَمْعُ الْعَقَابِ وَهُوَ الطَّائِرُ الْمُرُوفُ — (١٢) الصَّوَى : جَمْعُ الصَّوَةِ ، وَهِيَ حَجَرٌ يَكُونُ  
دَلِيلًا فِي الطَّرِيقِ .

ميل ، في الغالب ، ستة ، أو ثمانية ، هيا كل عَظْمِيَّةٌ مُتَبَيِّضَةٌ مُتَنَطِّفَةٌ بفعل الشمس  
والشُّور كأنها أُعِدَّت لتكون نماذج في مُتَخَف ، وتَرَى الشكل على الأرض مع ذلك ،  
وتَرَى هيكلَ جَمَلٍ كاملٍ مع ذلك ، وستُحَرِّق تلك المظامُ بالشمس ، وستختلط  
بالرمل ، وستَمُ دَوْرَةُ الكائن الحي : من هَبَاءٍ <sup>(١)</sup> إلى هَبَاءٍ .

وتَهْبُ رِيحُ القرون فوق ذلك ، ويمُحُور مِلُّ العصور آثارَ جميع الناس ، آثارَ  
وَلَاةِ القراعنة وفاتحي الإنكليز ، وآثارَ عُباد الشمس والمؤمنين بِبَيْتِي شواطئ  
البحر المتوسط ، وآثارَ سلسلةٍ متصلةٍ من الآدميين الذين ماتوا ظَمًا فَايَضَّتْ  
عظامهم تحت زُرْقَةٍ قاسيةٍ لهذه السماء ذات الابتسامة الكليية ، وبلَّيت بالريح  
وتحوَّلت إلى غُبَارٍ بقوة الشمس واختلطت برمل يرتقالي اللون يَمُرُّ عليه الآن سليلُ  
أبناء الصحراء أولئك راكبًا جملَه سائلاً في نفسه : هل يصلُ إلى الحدِّ ، إلى  
الشَّهْب والنهر ؟

وهنا ، ما أكثر ما ابتُهِّل إلى الآلهة في أثناء الزَّوْبَةِ ! وفيما كان السكانُ  
القطريون يَجُوبُونَ تلك الصحراء ليأتوا بِنْيَاءً عن الشَّهْب أو لِيَسُوقُوا قطعاً حتى النيلِ  
جاهلين فاتحي الأجناب والهمهم كانوا يَعْبُدُونَ النجوم لاهتدلتهم في الطريق بسَيْرِها ،  
ولا أحد يَعْرِفُ عددَ من غَلَبَهُ النَّماسُ منهم على قَعُودِهِ فضلًا لم يَفْدُ غيرَ عظامٍ  
تَذَرُو الرِّيحَ رَمَمًا <sup>(٢)</sup> مع رَمَرِ حيوانه ، وحينما أوْغَلَ الفاتحون المُبَشِّرُونَ بعقائدَ  
جديدةٍ في الشَّهْب ، آتَيْن من البحر الأحمر فاعتنق أهل البدو دينَ اليونان ثم

(١) الهباء : التبار ، ودقائق التراب ساطعة ومشتورة على وجه الأرض .

(٢) ذرت الرِّيح رَمَمًا : أطارتها وفرقتها ، والرَّم جمع الرمة ، وهي ما بقي من

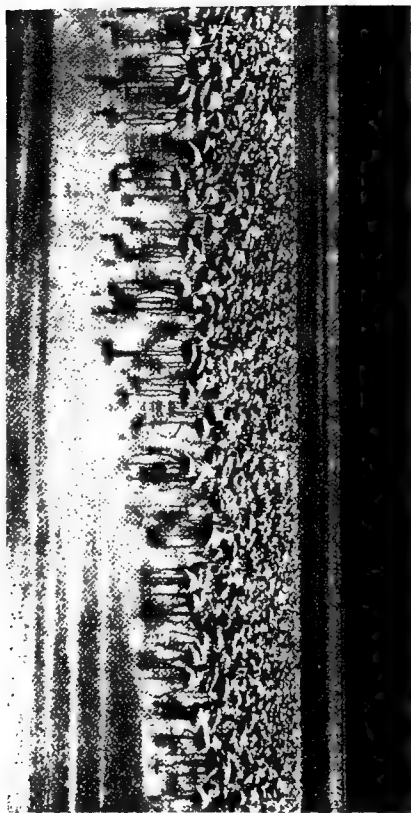
المظام .

النصرانية ثم الإسلام في جمع غريب، صَرَعُوا إلى هِرَ كُول<sup>(١)</sup> وِبان<sup>(٢)</sup> وإيزيس<sup>(٣)</sup> ويسوع ومِرْ كُور<sup>(٤)</sup> وآريس<sup>(٥)</sup>، ولكنهم من عُبَادِ النجوم في قَرَارَةِ أنفسهم حتى الزمنِ الراهن ، وَيَزُوى مُؤَلَّفُو العرب قصةً غريبةً ، يَزُوُّونَ أن أبناء الصحراء والشَّهْبَ يُؤْمِنُونَ بِإِلَهِ بَاقٍ وَإِلَهِ ثَانٍ فَإِنَّ لَاسْمَ لَهُ .

وكان عبيدُ القراعنة يبعثون عن الذهب بين تلال تلك الصحراء فتَقْضِي عواصفُ الرمل عليهم وعلى الأمراء الإقطاعيين والقواد والجنود ، وَيَصِيرُونَ طُغْمَةً لِلْعَبْكَانِ ، وَلَكِنَّكَ لَا تَرَى مِنْ جَمِيعٍ مَنْ لَعَنُوا طَمَعَ وَلَّى الأَمْرَ فِي السُّلْطَانِ وَتَعَطَّشَهُ إِلَيْهِ فِي آخِرِ سَاعَةٍ مِنْ حَيَاتِهِمْ سِوَى اسْمِ ابْنِ الْمَلِكِ أَوْ اسْمِ وَجِيهِ كُتِبَ لَهُ الْبَقَاءُ بِنَفْسِهِ عَلَى جِدَارِ مَعْبَدٍ فِي طَبِيعَةِ ، وَمِنْ الْأَغَارِقَةِ أَنَسُ تَزَكُّوا إِلَى هُنَا بِأَمْرِ قَمْبِيز<sup>(٦)</sup> ، وَلَمْ يُغَاثُوا ، وَكُلُّ مَا يُعْرِفُ عَنْهُمْ هُوَ أَنَّ أَحَدًا مِنْهُمْ لَمْ يَمُدُّ قَطُّ ، وَقَدْ أزال الرَّمْلُ وَالشَّمْسُ كُلَّ أَثَرٍ لِهَذِهِ الْحَمَلَةِ الرَّائِعَةِ ، وَلَمْ يَفُضْ أَثَرٌ لِلتَّخْلِيدِ قِصَّتِهَا فَيُسْتَفْرَغَ عَنْ تَحْوِيلِهَا إِلَى قَصِيدَةِ أَبْطَالٍ ، وَتَقْدُودِ عَظَامِهَا رُقَاتًا<sup>(٧)</sup> وَأَعْفَارًا ، وَتَمَجِّحِ أَسْمَاؤُهُمْ مَعَهُمْ ، وَهَذَا هُوَ جَبَرُوتُ الصَّحْرَاءِ .

(١) هر كول : أشهر الأبطال الذين ورد ذكرهم في أساطير اليونان — (٢) بان : إله اللواشى ويمثل الطبيعة المجسدة كما جاء في أساطير اليونان — (٣) إيزيس : إلهة الطب والزواج وزراعة القمح إلخ لدى قدماء المصريين — (٤) مركور : إله البيان والتجارة والصوص كما جاء في أساطير اليونان — (٥) آرس : إله الحرب كما جاء في أساطير اليونان — (٦) قمبيز : هو ملك فارس وابن كورش وخليفته ، وقد فتح مصر فأمن في الظلم والقسوة ، وقد دام سُلْطَانُهُ مِنْ سَنَةِ ٥٢٩ إِلَى سَنَةِ ٥٢٢ قَبْلَ الْمِيلَادِ — (٧) الرُقَات : الحطام ، وكل ما تكسر ويلى .

כף-י





تُخَفَّفُ جَمِيعُ الأشْكَالِ فِي الشَّهْبِ ، وَيَتَدَّرُ انْتِصَابُ السَّوَّانِ وَالْقُنَّ (١) ،  
وَتَطْلُفُ الخُطُوطُ والأَلْوَانُ ، وَتَلْكَ هِيَ مَمْلَكَةُ السَّنَطِ ، وَهَذَا الشَّجَرُ الشَّاكُّ ، حِينَ  
يَمُرُّ الثَّوْرُ مِنْ خِلَالِ فُرُوعِهِ الْمُجَرَّدَةِ مِنَ الْوَرَقِ ، يُنِمْ عَلَى ذَلِكَ السَّهْلِ الْمُخْرِقِ  
الْمُسْتَوْرِ بِسُوقِ الزَّرْعِ الْمُقْطُوعِ مَنْظَرًا خَيَالِيًّا لَا يَمُنُّ بِمِثْلِهِ غَيْرُ الصَّبِيرِ الْجَافِّ ، وَفِي  
هَذِهِ الْبُقْعَةِ الَّتِي تَفْصِلُ ، بَلَمَعَانَهَا وَأَسْمَاءِ مُخْتَلِفَةٍ ، مِثْلُهَا الصَّحْرَاءُ الْعَاطِلَةُ مِنَ  
الْمَطَرِ عَنْ مِثْلُهَا الْأَمْطَارِ الْإِسْتَوَائِيَّةِ ، وَعَنِ السَّلَالِ الرَّابِعِ حَتَّى أَوَّلِ الْمَنَاقِعِ ، وَعَنِ  
دُنُقُلَةٍ مَعَ الْإِتِّجَاهِ نَحْوَ أَعَالَى النَّيْلِ حَتَّى مَلَاكَالِ ، تُبْصِرُ الْبَدْوَى بِسَفَيْتِ الْمَطَرِ  
الَّذِي يُمْكِنُهُ ، كَشَمْسِ الصَّحْرَاءِ ، أَنْ يُهْلِكَهُ هُوَ وَقِطَاعُهُ عِنْدَ مَا يَأْتِي جَارِقًا ،  
وَلَكِنْ الْمَطَرُ يُتِمُّ فِي يَوْمَيْنِ مَعْجَزَةَ الْعُشْبِ الَّذِي يُقَيِّتُ مَوَاشِيَهُ ، وَلَكِنْ الْمَطَرُ  
يَنْقَطِعُ بَعْدَ أَنْ يَنْهَمِرَ بِبَضْعِ سَاعَاتٍ ، أَى بِسُرْعَةٍ كَالَّتِي ظَهَرَ بِهَا ، وَالْعُشْبُ ، وَهُوَ  
الَّذِي يَحْنُقُ النَّيْلَ فِي الْمَنَاقِعِ تَقْرِيبًا ، يُحْمِسِنُ إِلَى الْإِنْسَانِ وَالْحَيَوَانِ عَلَى ضِيقِي هَذَا  
النَّهْرِ ، وَإِذَا مَا نَزَلَ الْغَيْثُ بِبَضْعِ سَاعَاتٍ تَقْتَحُ أَورَاقُ رِيشَةٍ صَغِيرَةٍ عَلَى شَجَرِ  
السَّنَطِ ، وَتَنْتَظَرُهَا الْجَمَالُ ، وَيُنْقَذُ كُلُّ شَيْءٍ ، وَتَسْتَرِدُّ أَوْفُ الْفُصُونِ قُوَّهَا فِي  
أَسْبُوعٍ ، وَتَسْمَنُ أَسْنِينَةُ الْإِبِلِ ، وَيَتَحَوَّلُ الشَّهْبُ الْأَصْفَرُ إِلَى سُهْبٍ أَخْضَرٍ .  
بَيِّدَ أَنَّهُ لَا يَعْتَمُّ أَنْ يَدَافِعَ ، فَالْكَلاُ النَّاضِجُ يَنْخُسُ وَيَبْضَعُ (٢) ، وَيُمَزَّقُ الثِّيَابُ

(١) القن : جمع القن ، وهو الأرض الحرة السواء كأن حجارها عمرة .

(٢) بضع الشيء : قطعه ، شقه باليد .



والجلود ويُذمى كل مسافر ، وإذا ما سَمِنَتِ القِطَاعُ في الجِوَارِ انتظر الرائد الأجنبي من البدوى أن يوقِد النارَ في الشَّهْبِ وأن يُبَيِّدَ ما كان قد طَلَبَهُ من الماءِ بحرارة ، وذلك هو تناوبُ اصطرَاعِ العناصرِ العنيفِ في تلك البقاع التي قام الإقراط فيها مقام التوازن بين الشمس والمطر ، كما هو الأمرُ لدى ذَوَى الخَبَلِ الذين يَقْنُونُ في وَجْدٍ من السَّراءِ والضَّراءِ .

وفي موسم الأمطار ، تَنْبُتُ النَّرَّةُ وَيَخْضَرُّ شجر الدَّومِ ولا يلبث أن يُؤْتِيَ أَكْلَهُ ، وَيَهْزُمُ الأعْرَابُ حَبَّهُ بِالْمَدَقِّ وَيَصْنَعُونَ منه نوعاً من الدقيق إذا أُثْلِفَت الشمس زرعهم ، وَيَقَعُ ذلك في مَنَاطِئِ من المناطق المتوسطة بين الشَّهْبِ والصَّحراءِ .

والآن يُمَثِّلُ دَوْحُ البَوَابِ دوراً مهماً لم يُتَوَقَّعْ عند الخَلْقَةِ ، ويتحول هذا الشجر العظيم ، أو هذا القُطْرُ<sup>(١)</sup> المائل ، الإِسْتَفْجِيُّ المُقْبَّبُ إلى رَمِيلٍ بعد موسم الأمطار ، وذلك بأن تُسَقَطُ أغصانهُ الشَّغْلَى وَيُجَوَّفَ وَسَطُ ساقه فيحتوى عشرين متراً مُكَمَّباً من الماء في قُطْرٍ بالغ خمسة عشر متراً ، وتندوم حياة البَوَابِ مع بقاء جوانب رقيقة له ، ومن العلماء مَنْ يقولون مُوَكَدِّينَ إنه يَبْلُغُ من الصُّرْخَسَةِ آلاف سنة ، وعلماء النبات أجراً من المؤرخين في تقدير ذلك .

والجَمَلُ هو من الأشباح التي تجتمع حَوْلَ السَّنْطِ ، ولا أحد يدرك كيف يكتفى هذا الحيوان الضخم بتلك الأشواك وتلك الأوراق ، هو قنوعٌ ، ولكنه غير متواضع ، هو صبورٌ ، ولكنه شَرِيْرٌ جبان ، هو غيٌّ مُنَاوِيٌّ ، هو هائلٌ حين التَّشْشِيرِ<sup>(٢)</sup> ، هو لا يَتَغَطَّى على غير صِغَارِهِ كما يلوح ، والجملُ يُخَدِّمُ الإنسان ، ولكنه لا يَعْرِفُهُ

(١) القطر : نوع من الكدأ ، وقد شبه البواب به لتمامها في الصورة فقط — (٢) عسرت الناقة : سارت عسراء ، وهي التي مضى لحملها عشرة أشهر أو ثمانية أشهر ، وشذ إطلاق جمل على الأنثى فقيل « شربت لبن جمل » .

ولا يُحْيِيهِ ، وما له من منظرٍ غريبٍ غيرٍ ظريفٍ فيجمل له مكاناً منفرداً بين الحيوانات الأخرى ، فيظهر أنه استمار رَقَبَتِهِ من الزَّرَافَةِ ورأسه من الخِنْزِيرِ وذنبه من البقر ، وسِنَانُهُ وحده هو سِمَتُهُ الخاصةُ ، ولم يدخل الجملُ مصرَ إلا في عهد الرومان مع أن مصرَ عَرَفَتِ الضَّانَ والعَزَّ والبقرَ والخليل منذ ألوف السنين .

ولا حيوانَ له في النفس من الأثر المَرُوحِ المحزن كما للجمل ، والجمل يَتَرَكُ لِيُحْتَلَّ بعد كثيرٍ من الهدير والضرب ، وهو يَتَنَبَّئُ قَائِمَتِهِ الخلفيتين ثلاثاً كما لو كانتا لُفْبَةً آليَةً ، وهو إذا سار صَعِبَ امْتِطَاؤُهُ لانفراده في الذَّمْلِ<sup>(١)</sup> بين ذوات الثُدَى ، وهو إذا ما عَصَفَ<sup>(٢)</sup> براكبه هَزَّ هَزّاً شديداً لَرَفْعِهِ الخَلْفِيَّةَ قبل قَائِمَتِهِ الأماميةِ . برُبْعٍ ثانية ، وَيَحْتَمِلُ الظُّلْمُونَ<sup>(٣)</sup> القوى سَبْعَةَ قَنَاطِيرَ ، ويسير البعيرُ المَصُوفُ ١٥٠ كيلومتر في أربع وعشرين ساعة ، ولا يُزَكَّنُ إلى الجَمَلِ كما يُزَكَّنُ إلى الفرس الأصيل ، فهو يَزْغُو<sup>(٤)</sup> بَفْتَةٍ وَيَقُورُ ويحاول أن يَعْصَّ حتى صاحبه ، وهو يَتَخَشَّى عَوَاءَ الضَّبْعِ من بعيد ، وهو عند المَسْوَلِ يَخْرُجُ مِنْ فِيهِ ضَرْبٌ من الحَبَبِ<sup>(٥)</sup> كالذي يَخْرُجُ مِنْ فَمِ الحُتَّاصِرِ لدى قدماء المصورين .

والجملُ مَقْضَى عليه بأن يقوم بِمَحَرَفَةِ الحِمَالِ مَدَى حياته ، فيكون على كاهله ، حتى في أسعد أوقاته ، عَرُوسٌ وزَخَافٌ ثَقِيلَةٌ من سُيُورٍ<sup>(٦)</sup> سُمرٍ وصَدَفٍ وجلاجلٍ<sup>(٧)</sup> ، ومن المحتمل أن يكون أحد تلك الهياكل العظمية النظيفية ، التي

(١) ذمل البعير : سار سيرا لينا — (٢) عصفت الرجل : أسرع ، وعصفت الناقة براكبيها : أسرعت السير به كأنها الريح ، والعصوف من التوق السريعة — (٣) الظلمون : البعير يحمل عليه .  
(٤) رغا البعير : صوت وضع — (٥) الحب : القنايع التي تملأ الماء أو الحر .  
(٦) السيور : جمع السير ، وهو قدة مستطيلة من الجلد — (٧) الجلاجل : الأجراس الصغيرة .

تَظْهَرُ بِيضًا فِي الصَّحْرَاءِ ذَاتِ الرِّمَالِ ، لَبْعِيرٍ مَرَّ مِنْ شَوَارِعِ الْخُرُطُومِ ذَاتَ مَرَّةٍ إِلَى عُرْسِ أَمِيرَةٍ مَزِينًا بِأَبْهَى جِهَازٍ .

وَالنَّعْمَةُ أَسْرَعُ مِنَ الْبَعِيرِ ، وَتَنِيْمُ عَلَى صِلَةٍ نَسَبٍ بِهِ ، وَذَلِكَ بِسَاقِيهَا الطَّوِيلَتَيْنِ وَسُوءِ سَيْرِهَا وَرَعْنِ<sup>(١)</sup> ظَاهِرِهَا ، وَتَذْكُرُنَا النَّعْمَةُ بَعْنُفَهَا الدَّقِيقِ وَمَنْظَرِ رَأْسِهَا الْأَخْبَلِ بِالْخِيَالِ الْمُخْتَلِ الَّذِي يَنْفِرُ مِنَ الْعَالَمِ إِذَا مَا عَارَضَ أَحْلَامَهُ .

وَكَانَتْ النَّعْمَةُ نَظِيرَ ، وَيَرَى الزَّوْجُ أَنَّ النَّعْمَةَ وَاعَدَتِ الْحَبَّارَى<sup>(٢)</sup> بِالسَّبَّاحَةِ فِي النَّيْلِ فَتَسَيَّتْ أَنْ تُصَيِّفَ إِلَى وَعْدِهَا بِالْحَضُورِ كَلِمَةً « إِنْ شَاءَ اللَّهُ » ، فَعَاقَبَهَا اللَّهُ فِي الْغَدِ عَلَى زَهْوِهَا بِأَنْ شَيَّطَ<sup>(٣)</sup> جَنَاحَيْهَا فَخَرَّتْ صَرِيعةً مِثْلَ إِيكَارٍ<sup>(٤)</sup> وَصَارَتْ لَا تَعْبِيرُ بَعْدَ ذَلِكَ .

وَلَكِنْ اللَّهُ لَمْ يَحْفَظِ النَّعْمَةَ مِنْ أَهْلِ الْبَدْوِ ، الَّذِينَ يَتَتَّبِعُونَهَا فِرْسَانًا اثْنَيْنِ اثْنَيْنِ مَنَاوِبَةً مَعَ إِتْبَاعِهِمْ جَمَالًا حَامِلَةً مَاءً ، وَتَهِنِ النَّعْمَةُ إِعْيَاءً ، وَيُهَيِّلُ كُنُهَا بِضَرَبَاتِ عِصِيٍّ وَيَنْحَرُونَهَا ، لَا حُبًّا لِلْحِمَا مَا اشْتَمَلُ أَقْلُ غَزَالٍ يَسْهَلُ صَيْدُهُ عَلَى لَحْمٍ أَكْثَرَ مِنْهَا ، بَلْ طَمَعًا فِي رِيشِهَا الْأَبْيَضِ الَّذِي يَتَرَجَّحُ عُدْدُهُ بَيْنَ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ رِيشةً وَأَرْبَعَ عَشْرَةَ رِيشةً وَالَّذِي يَتَّخِذُهُ نِسَاءُ بَاشَوَاتِ الْبَيْضِ مَرَاحَ لَهْنٍ ، وَهَذَا الرَّيْشُ أَجْلُ عَلَى النَّعَامِ فِي الْأَشْرَعِ مَعَ ذَلِكَ ، وَهُوَ تَكْجَمَالُ بَعْضِ الطُّيُورِ الْمُفْرَدَةِ وَبَعْضِ الشَّعْرَاءِ ، وَيَجْتَنِبُ الصَّائِدُ تَلَوِيثَ ذَلِكَ الرَّيْشِ بِالْدَّمِ ، وَالصَّائِدُ ، لَكِي يَتِيْمَ لَهُ ذَلِكَ ، يَفْرِزُ مِنْ قَوْرِهِ أَحَدًا أَظْلَافَ رِجْلَيْ النَّعْمَةِ الطَّوِيلَتَيْنِ فِي الْجَرَحِ

(١) الرعن: الموج والطنش — (٢) الحبارى: طائر أكبر من الدجاج الأهلى وأطول عنقا منه، يضرب به المثل في البلاء فيقال: «أبله من الحبارى»، قيل لها ذلك لأنها إذا غبرت عنها ذهلت عنه وحضت يضر غيرها — (٣) شيط جناحه: عرضه للأن حتى يمترق ما عليه من الشعر .  
(٤) إيكار: رجل أسطوري يوناني يضرب بفروره للتل .

دَرءُ الأَحماءِ هذه الحِلْيَةُ بفِكْرَةِ الموتِ ، كما تُدْرَأُ فِكْرَةُ الموتِ في الأَناشيدِ الوطنِيَّةِ الحُرِيَّةِ ، وهكذا تُبْصِرُ أَسْرَعَ حَيَواناتِ العَالَمِ عَدُوًّا يُصْرَعُ في الرَمْلِ لَتَيْسٍ<sup>(١)</sup> إحدَى النِّسَاءِ في سَانِ مُورِيَتَزْ<sup>(٢)</sup> حَامِلَةً مِرْزُوحَةً ، وهكذا تَسْتَقُطُّ نَعَامَةٌ في سَبِيلِ بَوَزَةٍ .

وَأَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ عَدَمُ فَائِدَةِ صَيْدِ الزَّرَافَةِ لَمَدَمِ ضَرْبِهَا ، وَهِيَ إِذَا صِيدَتْ لَا تَمُدُّ غَنِيَةً ، وَالزَّرَافَةُ أَهْجُ مِنْ جَمِيعِ مَا فِي الْغَابَةِ ، وَالزَّرَافَةُ حَيَوانٌ لَا عَدُوَّ لَهُ ، وَتَسَاوَى سَمْعُهَا وَشَمُّهَا وَبَصَرُهَا حَذَّةً وَتَجَاوَزُ كُلَّ مَوْجُودٍ حَتَّى ، وَتَجَاوِزُ الْقِيلَ ، عَدَّةَ أَقْدَامِ طَوَلًا ، وَتَمْدُو الزَّرَافِيُّ جَاعَةً كَمَا لَوْ كَانَتْ فِي فِرْدُوسٍ ، وَتَقْطِعُ الزَّرَافِيُّ أَوْرَاقَ الْأَشْجَارِ الطَوِيلَةِ وَفُرُوعَهَا الطَّرِيقَةَ وَتَتَرَصَّدُ دَوَمًا ، وَلَكِنْ مِنْ غَيْرِ جُبْنٍ ، وَمَعَ اعْتِدَالِ دِمِّهَا كَالطَّوَالِ الَّذِينَ يُشْرِفُونَ عَلَى الْآخَرِينَ .

وَإِذَا مَا شَبِكَ عُنُقَا زَرَافَتَيْنِ ، وَذَلِكَ أَحَدُهُمَا بِالْآخَرِ ، بَدَتْ لِلنَّاظِرِ لُغْبَةً حَيَّةً عَظِيمَةً ، وَإِذَا رَفَعَتِ الزَّرَافِيُّ رُؤُوسَهَا بَدَتْ آيَةٌ فِي الرُّوْعَةِ ، وَإِذَا خَفَضَتْ الزَّرَافِيُّ رُؤُوسَهَا بَدَتْ مُتَحَذِّقَةً كَأَسَانَدَةِ الْفَلَسَفَةِ ، وَإِذَا بُصِرَ الزَّرَافِيُّ مِنْ عُلَى فَإِنَّهَا تَسْدِيدُهُ حُبٌّ لِلْإِطْلَاقِ فَتَوَدُّ أَنْ تَرَى مَاذَا يَحْدُثُ فَتُلْقِي نَفْسَهَا إِلَى التَّهْلُكَةِ بِذَلِكَ ، وَتَسِيرُ الزَّرَافِيُّ سِيرًا أَخْرَقَ مُتَثَلِّبًا مِنْ الرُّهْوِ<sup>(٣)</sup> ، وَالزَّرَافِيُّ دُونَ النِّعَامِ سُرْعَةً ، وَلَا شَبَّةَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ بَقِيَةِ حَيَوانِ الشَّهْبِ عَدُوًّا ، وَيَبْلُغُ ارْتِفَاعُهُ قَائِمَتَيْهَا الْأَمَامِيَّتَيْنِ مَتْرَيْنِ فِي الْعَالِبِ ، فَيُمْكِنُ الرَّجُلَ ، غَيْرَ الدَّنْكَاوِيِّ ، أَنْ يَمُرَّ مِنْ تَحْتِ زَوْرِهَا<sup>(٤)</sup> مِنْ دُونَ أَنْ يَخْتَضِرَ رَأْسَهُ .

(١) مَاسِ الرَّجُلِ : مَتْنِي وَهُوَ يَتَابِلُ وَيَنْخَرُ — (٢) سَانِ مُورِيَتَزْ : مَدِينَةٌ صَغِيرَةٌ مِنْ مَدَنِ سُوَيْسَرَةِ — (٣) رَهَا يَرْهَو رَهَوًا : نَارَ سَيَا سَهْلًا — (٤) الزَّوْرُ : أَعْلَى وَسَطِ الصَّدْرِ أَوْ مَلْتَقَى عِظَامِ الصَّدْرِ .

وكيف يَشْرَب من النيل حيوانٌ يَبْلُغ ارتفاعه ستة أمتار؟ لا تُوقِّق الزرافةُ لذلك إلا بمباعدتها ما بين قانتَينِ الأماميتين مباحدةً شديدةً مع النواء ، ولذا تَقْضِلُ الزرافةُ لَمَقَ أوراقِ الشجرِ المُبَلَّلَةِ في موسمِ الأمطار ، ولا تَبْأَلِي الزرافةُ بِالرَّجُلِ الأبيض إلا قليلاً ، ولكن الزرافةُ سَحِرَتْ بظَاهِرِهِ من أطوار الحضارة ، فقد ظَهَرَ منذ بضع سنين حيوانٌ جديدٌ في الشَّهْبِ له أربع قوائمَ مدورة ، وهو أسرع من جميع الحيوانات ، وهو أسرع من الزرافة ، وإليك الزرافةُ تَعْدُو بجانب السيارة وتسايقها ، ولا تَحْبَجُ إذا ما لاح النصر بجانب سائق السيارة بعد نصف ساعة . والوعولُ ، لا تلك الحيواناتُ الثلاثة ، هي التي تُنْعِشُ الشَّهْبَ قبل كلِّ شيء ، وفي الشَّهْبِ تَمَثَّلُ أَلْوَفُ الوعولِ طليقةً غيرَ خائفةٍ على أعينِ الفارس ، وهي تَبْدُو كَأَلْوَفٍ تُقَاطِرُ صغيرةٍ في شُهْبٍ لا نهايةَ له .

وهي إذا ما سَحِرَتْ باقترابِ أسدٍ من مسافةٍ بعيدةٍ أبصرَ الفارسُ فِرَارَها هائجةً عن غريزةٍ أو بقيادةٍ زعيمٍ فيُحْتَلِإُ إليه أنه يَرَى صفوفَ خيولٍ هاربة ، وتَلْبُ الوعولُ فوق العشبِ اليابس أو المحترق بين النِّعَامِ والزَّرَافِي الرَّاكضَةِ باحثةً عن ملجأٍ غيرِ معروفٍ احتماءٍ من عَدُوٍّ غيرِ منظور ، وللوعولِ أنواعٌ كثيرةٌ وقرونٌ متنوعة ، ومن أنواعها الوعولُ السُّرُّ والبَيْضُ والمُخَطَّطَةُ والمُنْقَطَةُ ، ويمكنُ مُتَفَنِّناً أن يَرُسِّمَهَا في يومٍ تَحِلُّ فَيُبْرِزُ مِنْهَا أَيْلَ أَدَمَ والغزالَ العَوَامَ وطَبَقَ القصبِ ونَيْسَ الغابِ وأصنافاً من الفِرْلَانِ تَقْفِرُ بقوائمها الرائمة رشيقةً بادئةً المروقِ نَحْتَ جلدِها ، فيَجِدُ شِراءَ العربِ بها مَعِينَ مجازٍ واستعارَةٍ لا يَنْصُبُ فيَغْتَرَفُونَ منه في التَّفَنِّي بِهَيْفِ المشوقةِ وَلِينِ مَلَسِهَا .

وما في الشَّهْبِ من طيورٍ صغيرةٍ فأقلُّ كثيراً مما في مِنطَقَةِ الأمطار ، ولكن

السُّنْب يشتمل على الهدُّد الذي يعيش دوماً في جماعة ، فيهدُّد<sup>(١)</sup> مع جيرانه بلا انقطاع ، ويُعدُّ الهدُّد وحيد الزوج وبصِيح ويتَّوَح إذا صيدت أنثاه ، وذكرُ المهدد هي الأكثرُ قرَّةً<sup>(٢)</sup> ، ويتَّلهي الرئيسُ الطائر<sup>(٣)</sup> كما نودُّ ، ولكنه اخترع نظاماً خاصاً لأنثاه ولصغارها ، فهو يُسوِّر وكره بطنه مُبَلِّل ولا بدُّع منه غير ثُغرة صغيرة يأتي إلى الأفراخ بالطعام منها حتى تقدر على الطيران ، وإذا حضره الموت قبل سواه وجدَّ الغزاة في موت أنثاه معه كأُميرٍ هنديٍّ ، وبين الطيور الكبيرة نذكر البارَّ ذا العنق الأحمر المحب للنخيل والذي يبلغ من شدة الجرأة وسرعة الطيران ما يتلغفه إخوانه من يزان الشمال ، ويقعُ النسرُ القُنْبَرانيُّ على عُصْنِ السُّنْب المجرد فينشُرُ قُنْبَرَتَه ويجمِّعها غير مرة في عدَّة ساعات .

ولكن شُرطيَّ الهواء الأعظم ، ولكن السيطر الأكبر : هو الأتوق الذي هو ربحٌ من العُقبان ، هو النسر ذو الأجنحة الواسعة أثقلية الذي يحمل رقص الموت في الصحراء والشَّهْب ، هو الرِّخْم<sup>(٤)</sup> الذي يُقْبِلُ مباعداً بين ساقيه مائل الرأس إلى الأمام حادَّ البصر مع خُبث ، وما كان علمه الصحة ليخترعوا وسائل أحسن مما عنده لنزع العفن وما يؤدي إليه من الفاز القاتل في ذلك الإقليم ، ودليلُ العُقابِ بأصرته ، لا سامته ، والعُقابُ ، لِمَا له من أجنحة قوية يستطيع أن يَجُوب بها مسافات كبيرة ، لا يَفُوتُه جَلٌّ مطروح أو غزالٌ هالكٌ ، وهذا لا تَسْمُ رائحةٌ جيئةً أبداً ، والعُقبان تَصِلُ في الحال ، والعُقبان تردُّ بسرعة كالورثة ، والعُقبان تَبَحُّ بمناقيرها

(١) مهدد المهدد : ردد صوته — (٢) قرقر المهدد : ردد صوته .

(٣) Rhinoceros-bird, L'oiseau Rhinocéros ، والرئيس هو الكركدن .

(٤) الرِّخْم : طائر من الجوارح الكبيرة الجثة الوحشية الطباع .

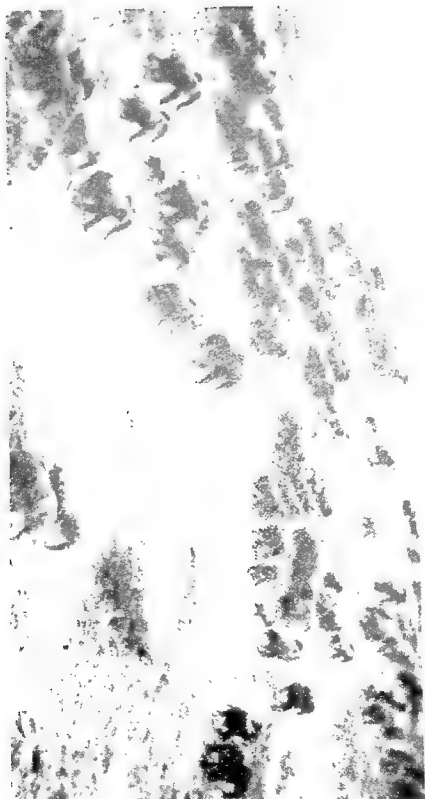
العُنف<sup>(١)</sup> في الجَيْفِ وتقتل وتتنازع القطع ، ولا تكاد تَمُضِي خمسُ دقائقَ حتى لا يبقى من الكلبِ المَفْزورِ<sup>(٢)</sup> أثرٌ ، وعكسُ ذلك ما يقع في المتاحف حيث تتبعث من النُسرِ رائحةٌ كريهةٌ عِدَّةَ سنواتٍ مع حُشوه بالثَبْنِ وتطهيره ، ومما يحدثُ ، على الرغم من هذا ، أن يأكل أَرْقَاهُ أَبَاقٌ<sup>(٣)</sup> من لحم العقاب عن سَقَبٍ<sup>(٤)</sup> .

وفي المساء ، وفوق السهل ، وفوق النهر ، نُصَاءُ قُبَّةُ السماء بنور لطيف ، وفي القرب تبصرُ خَطًّا أَصْفَرًا قَاعَ الآون ، ثم تُبْصِرُ شريطاً ضيقاً لُصَابٍ ضارب إلى خُضْرَةٍ ، وفي الأعلى يكون كلُّ شَيْءٍ بنفسجياً فلا يَلْبَثُ أن يتحول إلى لِيلِكِيٍّ<sup>(٥)</sup> ثم يتحول في سَنَتِ الرأسِ<sup>(٦)</sup> إلى زُرْقَةٍ الحَمَامِ ، وفي الشرق يظهر كَعَمَانٌ ضاربٌ إلى مُحْمَرَةٍ ممزوجٌ بلونٍ أَزْرَقٍ بَرَّاقٍ وبلونٍ بنفسجيٍّ رَمَادِيٍّ وبلونٍ ورديٍّ زَاهٍ ، ويتحول جميعُ ذلك إلى لونٍ أَزْرَقٍ فُؤَادِيٍّ في دقيقة واحدة قَلِيلٌ هذا اللونُ آكَامٌ<sup>(٧)</sup> رملٍ ذاتِ لونٍ صَدِّيٍّ ، وفي الشرق يكون الثور بارداً والوردُ رَمَادِيًّا .

وفي القرب ، وبين الحين والحين ، يكتسب طَرَفُ الأُفُقِ لوناً أَصْفَرًا كَبْرِيئاً كريهاً ، فيصير النبلُ ، الذي يَحُلِقُ فوقه طيرٌ أَسْوَدُ ، أَصْفَرًا اللون ، وذلك مع عَبَثٍ ظلالٍ وَأَنْوَارٍ وأمواج ضاربة إلى زُرْقَةٍ ، ويتحول وَسَطُ طرفِ الأفقِ الأوسطِ إلى لونٍ بَرْتَقَالِيٍّ يَطْلِي الشَّرْقَ بالشَّهَبِ<sup>(٨)</sup> وَيُكَدِّرُهُ ، ويتسع في المكان الذي تغيب فيه الشمس مثلُ خَطِيحٍ وَيَعْمُقُ ويمتدُّ على أمواج زعفرانية نحاسية ، ثم يُرْخِي الليلُ الذي

(١) العنف : جمع الأعنف وهو المروج — (٢) فزره : شقه وفسخه — (٣) الأباقي : جمع الأبق ، من أبق العبد إذا هرب من سيده — (٤) السقب : الجوع — (٥) قَلْبَدِيٌّ : وهو ما كان بين اللونين الأزرق والوردي — (٦) سمت الرأس : في علم الهيئة نقطة من الفلك ينتمي إليها الخط الخارج من مركز الكرة الأرضية على استقامة قائمة الرجل — (٧) الآكام : جمع الأكمة وهي التل — (٨) الشهب : يياض يتخلله سواد .

١٠ — حافة من الأبال







يَصْعَدُ مِنَ الشَّرْقِ سُدُولَهُ عَلَى تِلْكَ الْمِنْطَقَةِ النِّحَاسِيَّةِ وَيَسْتَوِلَى عَلَى السَّمَاءِ ، وَنَصِيرِ  
الْأَنْوَانُ فِي خَيْرِ كَان .

وَيَزِيدُ خَرِيرَ النِّهَرِ ، وَيَسِيرُ النِّيلَ فِي اللَّيْلِ إِلَى الشَّمَالِ .

### ٣

البدوى وحده سيد الصحراء وسيد الشهب ، وذلك لأنه يعيش من مواشيه ،  
ولأنه مُكْرَهُ على جلبها من مَرَعَى إِلَى مَرَعَى وَفَقَ هَوَى جَوْ النِّيلِ وَهَوَى المَطَرِ ،  
وَيَتَمَدُّ أَمَامَ الْبَدَوِيِّ مَمَالِكُ ، وَلَيْسَ الْبَدَوِيُّ مُلْكَ أَحَدٍ ، وَإِذَا لَمْ يَرَ الْبَدَوِيُّ  
فَتَحَهَا اضْطُرَّ ، دَوْمًا ، إِلَى الْبَحْثِ عَنْ غَيْرِهَا قَبْلَ أَنْ يَعُودَ إِلَى التِّي كَانَ  
يَسْقَاهَا سَابِقًا .

وهو يُوكِّدُ تَقَالِيدَ الْفَلَاحِينَ الْقَدِيمَةَ الَّذِينَ يُرِيحُونَ الْحَقْلَ بِهَا بَعْدَ الْحَصَادِ ،  
وهناك دورُ انْتِقَالٍ بَيْنَ الْبَدَاوَةِ وَالْحَضَارَةِ ، وَعَرَبُ جَنْوبِ مَرْوَى مِمَّنْ شَبَّاهُ  
الْأَعْرَابِ الَّذِينَ يَتَسَكَّمُونَ<sup>(١)</sup> مَعَ قِطَاعِهِمْ ، وَلَكِنْ مَعَ بَذْرِ جَوْبِهِمْ ، وَهُمْ يَزْكَلُونَ  
بَعْدَ الْبَذْرِ تَارِكِينَ حِفْظَ حَقُولِهِمْ لِلَّهِ ، ثُمَّ يَزْجِعُونَ لِحَصْنِهَا ، ثُمَّ يَطْلَحُونَ الْحَبَّ  
وَيَأْكُلُونَ الْخُبْزَ وَيَزْكَلُونَ مَرَّةً أُخْرَى ، وَالذَّرَّةُ كَالْجِمَالِ لَا تَحْتَاجُ إِلَى عِنَايَةٍ ،  
وَالذَّرَّةُ تُعْطَى خَمْسَمِئَةٍ ضِعْفٍ مَا يُبَذَّرُ مِنْهَا ، وَالذَّرَّةُ تُسْتَرُ نِصْفَ مَا يُزْرَعُ  
مِنْ أَرْضِ السُّودَانِ ، وَتَتْرَكَ قِبَائِلُ أُخْرَى بَعْضَ الْأَسْرِ الْمُخْتَارَةِ فِي الْوَاحَاتِ  
لِزَّرَاعَةِ الْحَبُوبِ ، وَنَصِيرِ هَذِهِ الْأَسْرِ حَضَرِيَّةً ، فَإِذَا مَرَّتْ بَضْعَةُ أَجْيَالٍ انْخَسَفَتْ  
وَتَعَامَلَتِ التِّجَارَةُ .

(١) تَسَكَّمُ : مَعَى عَلَى غَيْرِ هِدَايَةٍ .

والبدويُّ مَلِكٌ في كلِّ مكانٍ ، وليس الفلاحُ غَيْرَ أَجِيرٍ ولو كان أغنى من الملك ،  
وَلَيْسَ كُنَّ الفلاحُ شاطئَ النيل ، أو لَيْسَ كُنَّ واحِدَةً قد تَبَلَّغَ من الاتساع ما يَعْدِلُ  
ولاياتٍ في بعض الأحيان ، ليرى أن عاصفةً واحدةً تكفي لإتلاف عمله ، وهو  
يُوجِّهُ بصره إلى الأرض مغموماً ، وهو يُؤَلِّفُ زُمَرًا للدفاع عن النفس تجاه  
الصَّواري والعناصر ، وهو ، مع ذلك ، لا يخافُ أمراً يخوفه من البدويِّ الضارب  
خيمته على حدود السَّهْبِ والذي يَعُدُّ الواحةً طليعةً مُمدَّةً للحِصَارِ والانتهاج ،  
والفلاحُ يَحْذَرُ البدويَّ حَذَرَ المدنيِّ من الأفاق ، ويستحوذ على الفلاح احتياجٌ  
إلى أَمْنٍ غيرِ موجود ، ويَرْكَنُ إلى قوانينٍ مذبذبةٍ ، ويظلُّ عُرْصَةً لِمَا للنيل  
والطر من أهواءٍ لا يقدِرُ أحدٌ على البَصْرِ بها وَيَفْقِدُ رَوْعته .

وبعضُ البدويين من الحِسانِ ، وللبدويين من الملامح ما هو مشتركٌ بين  
جميع القبائل على الرغم من تَفَرُّقها في السهل العاقل من الأنهار والنتلال ، وقد  
أسفر توالدُ أولئك الإثيوبيين والعرب الذين جاوزوا البحر الأحمر منذ أربعمئة  
سنةٍ عن جل أولئك الأعراب أعرقَ سَجِيَّةٍ ، وهناك الإبلُ والبقرُ والضأنُ  
( ويبلغ عددها سبعة ملايين في السودان ) ، وهناك الحَيَّامُ والأكوخ والنساء  
والوِلْدَانُ والآبار ، وهناك تَبِيَّةٌ وَقَلْبٌ في ساطتِ العملِ وشيخٌ زعيمٌ ، وهناك  
قِتَالٌ يَفْصِلُ الخصومات في الحال ، وهناك عدمُ أَمْنٍ وإيمانٍ وخُرَافَةٍ ،  
وهناك أرضٌ بلا حدودٍ وحريةٍ لا نهايةَ لها ، وهناك حياةٌ قال عنها غوته في  
« طَلَّاسِيم »<sup>(١)</sup> العرب :

(١) الطلاسيم : جميع الطلسم ، وهو مخلوطٌ أو كتابةٌ يستعملها الساحر ويَزعمُ أنه يدفع بها كلَّ  
مؤذٍ ، والكلمة من الدخيل .

« الربُّ هو المشرق ، الربُّ هو المغرب ! والأَرْضُونَ في الشمال والجَنُوب ساكنةٌ سكُونُ سَلَمٍ بين يديه . . . دَعُونِي أَعِيشُ كما أَهْوَى فوق سَرَجِي ! الزَّمُوا أكوأخكم ، الزَّمُوا خِيَاكم ، وأما أنا فساذهب بعيداً مسروراً مع النجوم التي هي فوق عَمَرَتِي ! » .

أفلا يدنو الإنسان من الله بتلك الحياة التي دامت ألوف السنين ؟ أفلا يندو الإنسانُ بذلك أكثرَ جِلالاً ؟

وترى بدوىَّ الشَّهْبِ واقفاً بجانب جَمَلِه طويلاً نحيفاً بادئَ العظام لا يأكل عن جوعٍ حتى الشَّعْبِ ، هو أسمرٌ مع أشياء تُلَطَّفُ نَضْرَةَ بَشَرَتِه ومع مفاصلٍ دقيقةٍ إلى الغاية ، هو ذو لِحْيَةٍ قصيرةٍ تُحِيطُ بِوَجْهِه بَيْضَى ، هو ذو أذنين كبيرتين لاصِقتين كأذني الوَعْلِ ، هو ذو أنفٍ يرتبط بقَنَاهُ<sup>(١)</sup> في عروقِ الشمالِ الكرِيعَةِ ، هو ذو جبينٍ مُنْفَضٍّ<sup>(٢)</sup> ناني. فوق عينيه الفأترتين كمين الصياد، وهو ذو قِمٍّ صغير كَتُومٍ محترز ، هو ذو شفتين قويتين مع عدم برُوزٍ ، أى ذو مجموعةٍ تَنِمُّ على الشجاعة والرزانة والكرامة ، وعلى سَجِيَّةٍ فطرية لرجل أَلْقَى حبلَه على غاربه فعدا تحت رحمة أهواء القَدَرِ على الدوام . وَيَقْضِي البدوىَّ جميعَ حياته كما يَقْضِي الأيْبُسُ دَوْرَ شبابه ، وطَبَعَتَه الشمسُ والنجوم بطايعهما ، وكان هِيرودُوتُسُ<sup>(٣)</sup> يقول : « له هيئةُ الملقوح » ، وهو شخصٌ يُوحى بَدَنُهُ على اعتماده على نفسه ، وهو شخصٌ له من حِدَّةِ البصر ما هو أقوى مما لدى الأوربيِّ ثلاثَ مراتٍ فيدلُّ على قوة نفسه ،

(١) قى الأقب يقى قنا : ارتفع وسط قصبته وضاق متخراها فهو أنقى .

(٢) منفض : مجعد — (٣) هيرودوتس : مؤرخ يوناني عرف بأبي التاريخ

(حوال ٤٨٤ ق.م — ٤٧٥ ق.م)

وهو رجل كان أجداده يختارون أجملهم ملكاً لهم ، فإذا ما عطلَ عملُ عضوه له ضَمَّتْ بَطَاتُهُ بِمِثْلِهِ ، واسترأبون<sup>(١)</sup> هو الذي رَوَى لنا هذه العادات ، ولا يزال كثيرٌ منها باقياً حتى الآن .

وظلَّ القتالُ في ذلك الإقليم ، وبين تلك القبائل ، ضرورةً ، ومن ثمَّ بقيَ رائماً ، ويقعُ القتالُ مواجهةً ، ولا يزال الصِّراعُ والمَقْوُ والذبحُ أموراً مكتوبةً في اللُّوحِ المحفوظ ، والكرَمُ فضيلةٌ كالانتقام . ومن الإصابة أن استطاع هؤلاء الوثنيون أن يمتنعوا الإسلام ، وما انفكت النصرانيةُ تكون غريبةً عنهم ، وما فتنوا يحافظون على كثيرٍ من عادات أهل البدو الذين ورَدَ ذكرُهم في التوراة كالتأثر واحترام المِثِيب ونثرِ القُبار وقتَ الخطر وشقَّ الثياب ، وترى حُجَّاجاً بين هؤلاء البدويين ، ومن زوج غرب إفريقية أناسٌ يجوبون جميعَ القارة ليروا مكةَ ويمسكون في الطريق ليعيشوا ، ويُقيمون ، أحياناً ، أعواماً بأسرها بين النيل الأزرق والنيل الأبيض فيؤلّفون أسراً ولا يلبثون قبرَ النبيِّ إلا بعد عشرين سنةً من مغادرتهم بلادهم عن إيمانٍ عميقٍ لم يروِ مثله تاريخُ أيةِ فرقةٍ دينيةٍ في الغرب .

ولكنك لا تجدُ مثلَ هذا المزاجِ النفسِ لدى بدويِّ البلاد الأصليين ، وهؤلاء لا يدرون ما القرآنُ ولا سورُ القرآن ، وهؤلاء لا يعرفون من مكةَ غيرَ قبَلتها التي يوجّهون سَجَادَتَهُمْ نحوها قبل الصلاة واضعين إياها على الرمل .

ويدعُ البدويُّ للنساء من الحرية أكثرَ مما تسمَح به الديانات والعادات المحيطةُ به ، ويُدرك البدويُّ معنى الغرام ، وتنشأ عن عدم حَجْبِ النساء في دوائر الحريم مكاييدٌ ومنازعاتٌ ، ومنذ مئة سنةٍ خَلَّتْ اكتشف رائدٌ إنكليزيٌّ بين

(١) عالم جغرافي من علماء اليونان (حوالي ٥٨ ق . م — حوالي ٢١ ب . م) .

سِنَارَ وَكَرْدَفَانَ قَبِيلَةَ بَلَغَ سُلْطَانُ التَّسَاءِ فِيهَا مِنَ الْقُوَّةِ مَا يَطْلُبُنَ مَعَهُ يَوْمَ زَوَاجِنَ عَهْدًا خَطِيئًا يَكُونُ لَهَا بِهِ حَرِيَّةٌ مُطْلَقَةٌ يَوْمًا وَاحِدًا فِي كُلِّ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ، وَالْيَوْمَ لَا يَزَالُ يُوجَدُ فِي تِلْكَ الْبُقْعَةِ سَوَاجِرُ يُصَيِّنُ الرِّجَالَ بِالْعَجَزِ فَلَا يَعِدُنَ إِلَيْهِمْ سَابِقَ رُجُوتِهِمْ إِلَّا لِمَصْلَحَتِهِمْ .

وَيُوكِّدُ أَمْرُهُ هَذِهِ الْحَرِيَّةَ فِي التَّغَامِ بِالْوَجْهِ الَّذِي يَحْصُرُهُ بِهِ أَوْلَئِكَ الْبُدُويُونَ مِيرَاثَهُمْ فِي الْإِنَاثِ ، وَعَنِ الْبَشَارِيِّينَ الَّذِينَ هُمْ أَجْمَلُ الْبُدُويِينَ يَقُولُ كَاتِبٌ عَرَبِيٌّ : «لَا يُطْمَأَنُّ إِلَى أَنْ الزَّوْجَ هُوَ الْأَبُ ، بَلْ يُطْمَأَنُّ إِلَى الْأُمِّ» ، وَهِيَ يَرَوْنَ أَنَّ الْبُنُوَّةَ بِالْبَنَاتِ أَوْ الْأَخْتِ أَصَحُّ فَيَحْرِمُونَ أَبْنَاءَهُمْ الْإِرْثَ فِي سَبِيلِ أَبْنَاءِ بَنَاتِهِمْ أَوْ أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِمْ عَادِينَ إِلَّا بِمِثْلِ وَرَثَةِ لَا جِدَالٍ فِيهِمْ مِنْ نَاحِيَةِ الدَّمِّ ، وَالْأُمُومَةُ هِيَ الَّتِي كَانَتْ تُعَيِّنُ الْحَقَّ فِي وِرَاثَةِ الْعَرْشِ لَدَى مُلُوكِ آلِ سِنَارَ إِلَى حِينِ انْقِرَاضِ هَؤُلَاءِ الْآلِ مِنْذُمَةِ سَنَةِ .

وَالْبُدُويُّ يُطَهِّرُ أَرْضِيَّتَهُ مَرَّةً فِي كُلِّ عَامٍ ، وَهُوَ يَقْلَمُ غُصْنًا عَلَى شَكْلِ الشَّوْكِ أَوْ الْقَرْنِ مِنْ «شَجَرِ الْوَقْدِ» ذِي السُّنُوفِ<sup>(١)</sup> ، وَيُحَدِّثُ ثَقْبًا فِي غُصْنٍ آخَرَ وَيُدْخُلُ إِلَيْهِ ذَلِكَ الْغُصْنَ الْمُشَدَّبَ حَتَّى يَتَكَوَّنَ ضَرْبٌ مِنَ الْغُبَارِ الَّذِي يُدَخِّنُ وَيَحْتَرِقُ فَيَسْتَعْمَلُهُ فِي إِشْعَالِ الشُّبِّ الْيَابِسِ بِاتِّجَاهِ الرِّيحِ ، وَالنَّارُ تَعْمُ الشَّهْبُ فِي نِصْفِ سَاعَةٍ فَتَنْفِرُ الطُّيَّانُ ، وَلَا يُفَكِّرُ النَّبْرِيُّ فِي رِيَّتِهِ ، وَلَا يُفَكِّرُ النَّبْرِيُّ فِي غَيْرِ إِنْقَازِ حَيَاتِهِ ، وَتَبْحَثُ الْأَفَاعِي عَنْ مَلْجَأٍ ، وَتَقْدُو الْحَشَرَاتُ الَّتِي تَحَاوِلُ الْإِعْتَصَامَ بِشَجَرَاتٍ طُفْمَةٍ لِلْوَرُورِ<sup>(٢)</sup> وَيَتَصَيَّدُ الْبَازُ مَا يَصِلُ إِلَيْهِ مِنَ الطَّيْرِ ، وَكُلُّ شَيْءٍ يَهْرُبُ مِنَ الشَّهْبِ أَرْسَالًا<sup>(٣)</sup> .

وَالْبُدُويُّ وَحْدَهُ يَنْظُرُ إِلَى الْحَرِيقِ بَيْنَ الرِّضَا ، فَقَدْ تَطَهَّرَ مَرَّجُهُ .

(١) السُّنُوفُ : جَمْعُ السَّنْفِ ، وَهُوَ الْعُودُ الْمَجْرَدُ مِنَ الْوَرَقِ — (٢) الْوَرُورُ : طَائِرٌ قَصِيرُ الرَّجْلَيْنِ طَوِيلُ النِّقَارِ أَسْوَدُهُ فِي قَعِّ رَأْسِهِ حَمْرَةٌ وَتَحْتَ عُنُقِهِ طَوِيقٌ يَحْمِلُ لَوْنَهُ إِلَى الصَّفَرِ وَسَائِرُهُ أَخْضَرُ إِلَى الزَّرْقَةِ وَفِي وَسْطِ ذَنْبِهِ رِيْشَتَانِ طَوِيلَتَانِ — (٣) الْأَرْسَالُ : جَمْعُ الرِّسْلِ ، وَهُوَ الْجَمَاعَةُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ .

إذا لم نَتَقَيِدْ بَحْرَفِيَّةً مَثَلِ نَطَقَ بِهِ عَالَمُ عَرَبِيٍّ قَدِيمٌ أَمْكَنَّا أَنْ نَذْهَبَ مَعَهُ إِلَى أَنْ  
النَّيْلِ يَجْرِي أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ مِنَ الصَّحْرَاءِ (الغَابِ الْبَكْرُ وَالْجِبَالُ وَالنَّاقِعُ) وَيَجْرِي شَهْرَيْنِ  
مِنْ بِلَدِ الزَّوْجِ وَشَهْرًا وَاحِدًا مِنْ دَارِ الْإِسْلَامِ .

وَالْمَثَلُ الْعَرَبِيُّ يَقُولُ : « تَحِيَّكَ الرَّحْمَنُ حِينَمَا صَنَعَ السُّودَانَ » ، وَنَسْأَلُ فِي أَنْفُسِنَا  
عَنْ قِسْمِ السُّودَانِ الَّذِي تَحِيَّكَ مِنْ أَجْلِهِ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ السُّودَانَ عَالَمٌ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ  
يَشْتَمِلُ عَلَى نَوَاحٍ كَثِيرَةٍ وَأُخْرَى زَاهِرَةٍ ، وَالسُّودَانُ يَمْتَدُّ مِنَ الْغَابَةِ الْإِسْتَوَاتِيَّةِ  
إِلَى الصَّحْرَاءِ وَمِنْ خِلَالِ إِفْرِيقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ ، وَالسُّودَانُ يُعَدُّلُ فَرَسَةً خَمْسَ  
مَرَّاتٍ مِسَاحَةً ، وَيَشْتَمِلُ عَلَى سِتَّةِ مِلْيَيْنٍ مِنَ الْآدَمِيِّينَ ، وَلِلنَّيْلِ وَالْمَطَرِ فِي  
السُّودَانِ طَائِعٌ مُخْتَلَفٌ أَشَدَّ الْإِخْتِلَافِ ، وَفِي الْجَنُوبِ يَرْتَفِعُ السُّودَانُ أَلْفَ مِترَ ،  
ثُمَّ يَهْبِطُ رَوِيدًا رَوِيدًا لِيَقْدُودَ بِلَدَ تَلَالٍ وَسَهْلٍ خِلَا مِئْطَقَةِ دَارْفُورِ الْبِرْكَانِيَّةِ ،  
وَتَحْفُ الْجِبَالُ حَوْلَ السُّودَانِ مِنَ الْجَنُوبِ وَالشَّرْقِ وَجِزءٌ مِنَ الْغَرْبِ ، وَيَرْتَفِعُ  
السُّودَانُ نَحْوَ الشَّرْقِ ، أَيْ نَحْوَ الْحَبَشَةِ ، وَيَخْفَضُ لِحَكْمِ الْأَمْطَارِ فِي أَدْوَارٍ مُخْتَلِفَةٍ عَلَى  
حَسَبِ الارتفاعِ ، وَلِنَا لَا تَجِدُ فِي السُّودَانِ أَيْةَ مُطَابَقَةٍ فِي الْحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ وَالْإِنْسَانِ .  
وَيَنْزِلُ مِنَ الْمَاءِ مِترٌ فِي مِئْطَقَةِ النَّاقِعِ سَنَوِيًّا ، وَيَنْزِلُ مِنَ الْمَاءِ مِترٌ وَنِصْفُ مِترٍ  
فِي الْخُرُطُومِ سَنَوِيًّا ، وَلَا يَنْزِلُ مَاءٌ فِيمَا بَيْنَ الدَّرَجَةِ الثَّامِنَةِ عَشْرَةَ مِنَ الْعَرْضِ  
الشَّمَالِيِّ وَالْقَاهِرَةِ ، أَيْ بَعْدَ بَرِّبَرٍ تَقْرِيبًا ، وَفِي جَنُوبِ دَائِرَةِ السَّرَطَانِ ، وَعَلَى عَرْضِ  
الْخُرُطُومِ ، حَيْثُ سَمَتْ الشَّمْسُ يَقِفُ الرِّيحُ الْمَوْسِمِيَّةُ وَحَيْثُ الْمَوَاءُ الصَّاعِدُ

يُرَدُّ الأحرّ ، يَنزِلُ المطرُ بين يونية وأغسطس لِتَقْدُمَ ذلك السَّمت وتأخّره إلى أقصى حدٍّ في تلك الأثناء .

وتلك هي أمطارُ صيفٍ خفيفةٍ تُنبِتُ الكلاً والطَّرَفَاءَ والعُلَيْقَ والسَّنَطَ ، وفي الجنوب ، أى على مسافةٍ كثيرةٍ البُعد من دائرة السَّرطان ، يكون للأمطار موسمان غير منفصلٍ أحدهما عن الآخر انفصلاً يَبِينُ ، ويكون الجفافُ تاماً بين مايو وأغسطس ، وفي شهر سبتمبر يُجفّفُ الشمسُ ما في الأرض من بَلَلٍ فيُجَحِّلُ إلى الإنسان أنه في سَحَامٍ تركية .

ولست بلادُ النوبة غيرَ جزء من السودان يمتدُّ من الخرطوم إلى أسوان تقريباً ، وتمتدُّ نوبية العليا التابعة للسودان حتى وادى حلفا ، والدولُ الأوربية هي التي عَيَّنت الحدَّ الغربيَّ لاشتغال الصحراء على جميع القارة من هذه الجهة ، وتَسْتَرِ الرياحُ والرمال ما غُرِزَ من الأوتاد على مَسَافَةٍ طويلةٍ فصلاً للأُملاك الإنكليزية عن الأُملاك الفرنسية في عالم الصحراء الواحد .

وكان المصريون يُطلقونهم والنوارة على البُقعة الواقعة فوق وادى حلفا اسمَ كُوش ، وكان الرومان يُطلقون عليها اسمَ إثيوبية ، واليوم لا تُعرَف من نواحيها غير كُرْدُفان التي تُصدِرُ الذهبَ والمطاطَ منذ زمن طويل ، والعالم يعرف أيضاً أن شمال السودان ظلَّ نصرايياً قروناً كثيرة . فأسلمَ في القرن الرابع عشر ، وأن الساميين والحاميين المُطعمين بدمٍ زنجيٍّ يَقطنون في الشمال وأن الزوج المُطعمين بدمٍ حامِيٍّ يَقطنون في الجنوب ، وحافظت بلادُ النوبة ، وهي المنطقة التي تُسمّى بها قسم السودان الواقع في شمال الخرطوم ، على عاداتها أحسن من محافظة مصر التي كَمَرها الأجانبُ ، ولم تَنفُذْ حضارة الشمال فيها إلّا في أقدم



الأزمان وفي العصر الحاضر، وعانت بلادُ النوبة في تلك الفترة سلطانَ العرب الذين أتوا من الشمال ومن البحر الأحمر والذين اكتشفوا زنجبار قبل الأوربيين بعدة قرون .

وعين النيل تطور تلك البقعة التاريخية لأنه غير صالح للملاحة صلاحاً دائماً، وينقطع عمل حضارة البحر المتوسط في أسوان عند الشلال الأول ، وقد حاولت جميع السلطات المتمدنة أن تتجاوز المساطم المؤقتة وجوهاً شطراً منابع النيل في قوارب على طول ضفافه ، وذلك بقوة الحراب وضرب السياط وبين أنين أبناء البلاد الذين عيدهم القاتح من عهد الفراعنة إلى عهد محمد علي .

ولم يستطع أحدٌ قبل مئة سنة أن يؤخذ هذا البلد الكبير ، وهذا التوحيد من صنع غصننا ، ويمكن أن يُقضى عليه قبل أن يُوطد أمره ويُحقق تحقيقاً تاماً ، ولم يبقَ غير آثارٍ وضعية مما صنعه رجال القرون القديمة في النيل الأوسط ، وقد قامت ممالك في داخل البلاد حيث فسحت الغاب للشهب مجالاً ، وحيث لا يستطيع الملوك أن يرقبوا الشهب أكثر مما تستطيعه الزرافة ، فيشترك الملوك والزراف في كلامهما في الشهب إذن .

ومن هؤلاء الملوك من ملك ما بين النيل الأبيض والنيل الأزرق ، ومنهم من ملك دارفور على النيل الأبيض ، فكان كلٌ منهم لا يعرف من أمر الآخرين إلا قليلاً ، وكانوا يختلفون ديناً ولغةً فلا يربط بعضهم ببعض غير نهر يتعدى عبوره ، ويُقيم الفونج مملكة في عصر سرقانتس<sup>(١)</sup> وليونارد دفينس<sup>(٢)</sup> فيحتفظون بقسم من نوبة

(١) سرقانتس : كاتب إسباني مشهور (١٥٤٧ - ١٦١٦) - (٢) ليونارد دفينس : من أشهر متفني البلاينة (١٤٥٣ - ١٥١٩) .

## أصل الخرطوم

العليا ثلاثة قرون ، ويذكرهم التاريخ لما كان من اشتغال بلأطهم على علماء من بغداد وبلاد العرب ، ومن المحتمل أن تتناول الأسطورة أمر ذلك الملك العربي الظريف الذي شاد ثلاثاً وثلاثين غرفة لسنوته الثلاث والثلاثين والذي جلب إلى قصره مقداراً كبيراً من الحبة و ٣٦٥ من العز ثم انزوى فيه مستريحاً سنة كاملة على ألا يدخل عليه وزيره سوى مرة واحدة في كل يوم ، والحق أن هذا الملك ، الذي عاش في القرن الثامن عشر فكان لا يقوم بشؤون الحكم غير نصف ساعة من أربع وعشرين ساعة ، جعل شعبه أسعد حالاً من أسلافه الفاتحين ، وأسقط هؤلاء الملوك حوالي سنة ١٨٠٠ ، ولم يبق وارثهم إلا صقو النسب إلا سنة ١٩١٦ ، وتميش ذرارهم في سيفا الواقعة على النيل الأزرق بأ كواخ حسنة الترتيب تحت نخيل ، وهؤلاء الذين هم بقايا سلالة الملوك أقوياء يُقدّمون الهوة إليكم بوقار .

ويصبح نخيل بسيط عاصمة السودان منذ قرن ، ويعرف أمير مصرى فاتح أهمية هذا المكان الذي يلتقي النيلان عنده فيسميه الخرطوم بسبب شكل الجزيرة الموجودة هناك ، وتقع الخرطوم على الخط الذي يصل منبع النيل بمصبه وبين النيل الأبيض ومصب النيل الأزرق فتعد مركز النهر ، ويقف مكانها نظراً حتى عند عدم قيامها عليه ، وتمتد الخرطوم من ضفة النيل الخصبة إلى حدود الشهب ، وهي تصل الحدائق الاستوائية برمل الصحراء وفق خيال النهر الذي أبدعها ، وبها تلتقي جميع الطرق التي تجتمع في ذلك الرمز بين البحرين المحيطين ، وكان ألوف الحجاج والتجار ، قبل إنشاء الجسرين زمن طويل ، يعبرون هنا ضارعين راجين محاولين الإفلات من التعب والالتجاء إلى الصحراء القريبة ، ولونهض جميع أشباح العيد ، ولو يمت من سيقوا من كرفان إلى البحر الأحمر قهلكوا في بلاد العرب

المنفعة لَدَامَ عَرَضَهُمْ أَسَابِيعَ كَثِيرَةً ، وَلَوْ كُدُّسَ الذَّهَبُ الَّذِي رَبَّحَهُ تَخَاسُومُ لِقَامٍ مِنْهُ جَبَلٌ يَسُدُّ النَّيْلَ فَيُؤَدِّي إِلَى إِغْرَاقِ الْبِلَادِ وَإِبْطَالِ الرِّقِّ ، وَلَكِنْ مَعَ مَوْتِ مَصَرَ عَطَشًا .

وَفِي الْمَسْكَنِ الَّذِي يَتَعَانَقُ فِيهِ النَّيْلَانِ عِنَاقَ الْأَخْوَيْنِ ، وَبَيْنَ شُعْبَتَيْ النَّيْلِ الْأَزْرَقِ ، تَقُومُ جَزِيرَةٌ خَصِيصَةٌ وَارِفَةٌ<sup>(١)</sup> الْفُلُّ ذَاتَ تَحْيِيلٍ ، فَتَنْبُتُ فِيهَا الْخَضِرُ وَالْفَوَاكِهَ ، وَهَنَالِكَ تَدُورُ النَّاعُورَةُ<sup>(٢)</sup> بِالْقَرَبِ مِنَ الْحِشْرِ حَتَّى فِي أَيَّامِنَا ، وَهَنَالِكَ تَرَى الْخَطُوطَ الْحَدِيدِيَّةَ وَالزَّوَارِقَ الْبَخَارِيَّةَ وَالطَّائِرَاتِ الَّتِي هِيَ آيَاتُ عَصْرِنَا .

وَجَزِيرَةٌ تُتَوَقَّى الْقَرْيَةُ مِنَ الْخُرُطُومِ هِيَ أَوَّلُ أَرْضٍ وَاقِعَةٍ عَلَى النَّيْلِ الْأَبْيَضِ يُخَصِّصُهَا غَرْبُ النَّيْلِ الْأَزْرَقِ ، وَتَسْقِي مِثَالَ النَّوَاعِيرِ نَخْلًا بِاسْقَاتٍ<sup>(٣)</sup> وَأَشْجَارَ بَوَابٍ عَظِيمَاتٍ أَيَّامًا وَأَعْوَامًا وَقُرُونًا فَتَنْتَصِبُ هَذِهِ النَّبَاتَاتُ فِي حَدَائِقَ رَافِعَةٍ لِحُكَّامٍ وَمُوظِفِينَ عَالِينَ يَمْتَلِئُونَ بِإِنْكَلَتَرَةٍ فِي قُصُورِهِمْ وَبُيُوتِهِمُ الْحَجَرِيَّةِ الْمُشْتَمَلَةِ عَلَى وَسَائِلِ إِزَاحَةٍ ، وَهَنَالِكَ مَرَاقٍ مُحْكَمَةٌ الدَّرَجَاتِ تَهْبِطُ مِنْ أَوْلَئِكَ الْكِبَارِ إِلَى الْيُونَانِيِّينَ وَالسُّورِيِّينَ فَإِلَى السُّودَانِيِّينَ لَا يَبْدُو عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْبِلَادِ مُطْلَقًا .

وَفِي الْمَسْكَنِ الَّذِي تَنْتَهِي فِيهِ تِلْكَ الْبَسَاتِينُ ، وَبِالْقَرَبِ مِنْ مُلْتَقَى النَّيْلَيْنِ وَمِنْ الْجَبْرِ الثَّانِي تَجِدُ أَطْرَفَ حَدَائِقِ حَيَوَانَاتِ الدُّنْيَا الْمُنَمَّعَةِ بِذُوقِ كَبِيرٍ فَلَا تَحْتَوِي غَيْرَ حَيَوَانَاتٍ مِنَ السُّودَانِ ، وَتَجُولُ الْفَزْلَانُ هَنَالِكَ هَادِئَةً غَيْرَ خَائِفَةٍ وَتُبْدِي ظَرْفًا وَدَلَالًا أَمَامَ الْأَسَدِ الَّتِي يَنْظُرُ مِنْ وَرَاءِ قَضْبَانِهِ مَغْمُومًا إِلَى حَيَوَانَاتِ الصَّيْدِ الْأُسِيرَةِ هَذِهِ ، وَيُرَى بِجَانِبِهَا أَبُو مَرْكُوبٍ الْمُضْحَكُ بِمَشْيِهِ ، وَتَمِيسُ الْكِرَاكِيُّ وَتَغْتَسِلُ

(١) وَرَفَ الْفُلُّ : أَمَدٌ وَائِعٌ — (٢) النَّاعُورَةُ : آتَةٌ لِرَفْعِ الْمَاءِ قَرَامَهَا دَوْلَابُ كَبِيرٍ وَقَوَادِيسُ مَرَكِبَةٌ عَلَى خَائِمَةٍ وَتَجْمَعُ عَلَى نَوَاعِيرٍ — (٣) بَقْتُ النَخْلَةِ : ارْتَهَتْ أَغْصَانُهَا وَطَالَتْ فِيهِ بَاسِقَةٌ .

البلاشين، ويحبوب جمل عصفوف فوق العشب، ويقترق منه الوردى بقر ماء صغير خلف حاجز خفيف، كما لو كان جميع ذلك صورا غير ضارة عن الذى يطوف طليقا خارج سياج الحديقة، وكما لو كان ذلك عرضا جليلا بدلا من حرب.

وعندما يصل مدير الحديقة المحب للإنسان والحيوان والتخصص في أمور هؤلاء الأحياء يهرع إليه الجميع من كل جهة، فينطحه الغزال نطحا خفيفا في ظهره لما يقلمه من امتلاء جيوبه بالطعام، ويتترس<sup>(١)</sup> الفهد يقضبان قصه كالمز، والمرء، إذا ما أنعم النظر في إفريقية المصغرة مع حيواناتها اللوثة أو المحطرة<sup>(٢)</sup>، سأل في نفسه عن ملايين الأهالي السبعة الذين يدربون فينتقلون من دور الحياة الفطرية إلى عمال يشتغلون في حقول القطن مياومة<sup>(٣)</sup> ويعمل منهم معلمين وموظفي مصارف من غير أن يقول إنهم لا يزالون يعدلون حيوانات تلك الحديقة همجية.

وعلى الضفة اليسرى من النيل الأبيض تقوم مدينة أم درمان الأهلية التي هي أكبر من مدينة الخرطوم البريطانية ثلاث مرات، وتبنى أم درمان منذ خمسين سنة على سيف<sup>(٤)</sup> خال، فتبدو قلعة بيضاء مواجهة لمدينة الخرطوم ذات الأجر الأحمر، وهي مهدمة الأسوار الآن، ولكن جمهور السودانهافت، عوصا عن ذلك، على هذه المدينة التي هي من أكبر مدن إفريقيا، وهل يظل السود طوعا مع أنهم كانوا منذ نحو ثلاثين سنة يشغلون القصر القوطي القائم على الضفة الأخرى؟ وفي تلك الواحة الزاخرة بالسكان تشرق الشمس بما لا تأتي مثله في سوى حقول الجليد، والثور يغمر طرقا وشوارع تخرج بجمهور من الصناع وأرباب الحرف

(١) تمرس بالعلم: احتك به — (٢) حظر الحيوان: حبسه في الحظيرة، والتشديد للبالغة — (٣) يامومه: عامله بالأيام — (٤) السيف: الساحل.

كالمُتَجِدِّين الذين يَحِيطُونَ وسائدَ من جِلْدٍ مُخْتَلَفِ الألوان ، ويُدْخِلُونَ مساميرَ لامعةً إلى الشُّرُج ، وكالحُدادِين الذين يَكْبِسُونَ على مَرَايِبِ<sup>(١)</sup> بين أصابعهم السلاوِخَ ، وكالصُّوَاغ الذين يُحِيطُونَ بِالْفِضَّةِ أَكْوَاعاً دَقِيقَةً رَافِعِينَ مِيزَاناً يَزِنُونَ الرُّيَّاتِ<sup>(٢)</sup> به ، وَتَتِمُّ تِجَارَةُ الخِيلِ وَالْإِبِلِ وَالْخَمِيرِ فِي دَاخِلِ الْمَدِينَةِ وَتُبَاعُ الزَّوَارِقُ وَالشُّرُوعُ<sup>(٣)</sup> عَلَى ضِفَّةِ<sup>(٤)</sup> النهر ، وَيَتَسَابَقُ الْإِنْسَانُ وَالْحَيَوَانُ فِي الضَّرَاخِ ، وَتُبْصِرُ عَاطِمٌ وَطَرَايِشَ ، وَذَوَاتِبَ أَعْرَابٍ مَعْتَنَى بِهَا فُرُوسَ تِجَارٍ مِنَ الْمَصْرِيِّينَ مُحَلَّقَةً ، وَتُبْصِرُ سَمَاماً مُسْتَوِراً بِذُبَابٍ كَالَّذِي يُرَى عَلَى اللَّحْمِ فِي أَسْوَاقِ الضَّانِ الْمَشَابِهَةِ لِلشَّامِ الضَّخْمِ ، وَتُبْصِرُ أَوْلَاداً وَقَسَاناً<sup>(٥)</sup> وَأَنَاساً يَصِيحُونَ وَآخَرِينَ يَنْتَحِبُونَ ، وَتُبْصِرُ بَائِئِي بُسْطٍ وَأَصْحَابَ مُوَاخِرٍ<sup>(٦)</sup> ، وَتُبْصِرُ شَبِوْخاً وَمُسْعُوذِينَ وَمَوْظِلِينَ وَمَسَاقِينَ وَمُسْكَارِينَ<sup>(٧)</sup> ، وَتُبْصِرُ زَنْجاً شَدِيدِي الشُّثْرَةِ مَعَ رِدَشٍ كَثِيرِ الْأَلْوَانِ ، وَتُبْصِرُ سُورِيَّيْنِ زَيْتِيَّيْنِ اللَّوْنِ وَيُونَانِيَّيْنِ هَيْفَا لَابِسِيْنِ ثِيَاباً اسْتِمَارِيَّةً ، وَتُبْصِرُ كُرْدُفَانِيَّيْنِ طَوَالاً مُرْتَدِينَ لِبَاساً أَحْمَرَ حَرِيرِيّاً ، وَتُبْصِرُ فَرْساً مَرْبُوعِيْنِ حَامِلِيْنِ فِرَاءٍ لِلْبَيْعِ ، وَتُبْصِرُ خِلَاسِيَّيْنِ<sup>(٨)</sup> ذَوِي شُعُورٍ مُجَعَّدَةٍ وَحَوَاجِبَ حُمْرٍ وَأَنْوْفٍ قُنُوقَا لَوْ كَانُوا مِنْ سُلَالَةِ أَمِيرِ إِسْكَندَرِيٍّ قَبْلَ أَلْفِ سَنَةٍ أَوْ مِنْ أَبْنَاءِ شَرِيفِ إِنْكَلِيرِيٍّ مُعَاصِرٍ ، وَيَزْدَحُمُ جَمِيعُ هَذَا الْجَمْعِ فِي شَوَارِعِ ضَيْقَةٍ بَيْضٍ بَيْنَ صَخَبٍ مُصَمٍّ وَرَوَاحٍ خَيْثَةٍ نَتْنَةٍ ، وَلَا بُدَّ لِسَائِقِ التَّرَامِ مِنْ أَنْ يَكُونَ ذَا أَعْصَابٍ حَدِيدِيَّةٍ حَتَّى يَسْتَطِيعَ أَنْ يَقُودَ ، وَهُوَ يَدُقُّ الْجَرَسَ ، وَمِنْ غَيْرِ حَادِثٍ ، مَرَكَبَتَهُ الْمُثْقَلَةَ بِالرَّكَّابِ دَاخِلاً وَخَارِجاً .

(١) المرازب : جمع المُرْزَبَةِ ، وهى العصية من حديد — (٢) الرية : قد معروف .  
(٣) الشرع : جمع الصَّراع ، وهو معروف — (٤) ذواتب : جمع ذَوَابَةِ ، وهى شعر فى مقدم الرأس — (٥) قسان : جمع القيس — (٦) المواخير : جمع الماخور ، وهو بيت الرية والدعارة — (٧) المسكارى : مكرى الدواب — (٨) الخلاسى : الولد من أبوين أبيض وأسود .

## البليار

وهناك ، حيث تُلقى الشمس أشعتها على الأمواج من سماءٍ غير ذات سَحَاب ، ترى شائبا يسير بُبْطاءٍ على الرصيف مُتَوَكِّثًا على عصاٍ ومعتمداً على صبيٍ عارٍ ، وهو يَسْمَعُ إخوانه ، وهو يَشْعُرُ بهم ، غير أن الله نَزَعَ منه البصرَ ، حرَّمه النورَ ، الذى هو أروعُ ما فى إفريقيا .

## ٥

فى قهوةٍ صغيرةٍ بباريسَ ، بين خَدَمٍ لابسين سُرًا بيضا ، وبين رجالٍ ونساءٍ جالسين أمام قَبَبٍ <sup>(١)</sup> جَمَّةٍ يحاولين أن يتخاطبوا على الرغم من حالكٍ <sup>(٢)</sup> صاحبٍ . يَقِفُ رَجُلَانِ ذَوَا قَنَانٍ <sup>(٣)</sup> على نُورٍ مِصْبَاحٍ أخضرٍ مُعَلَّقٍ وَيَلْعَبَانِ لُغْبَةَ البليار وَيَتَلَوَّيَانِ كثيرا مَدًّا لَدَيْلِهِمَا الطويل على البساط الأخضر الناعم ، ولا غَرْو ، فهما اثنان من أبناء الطبقة الوسطى جَمْعًا ، أو نَضْدًا ، نماذجٌ فى النهار بأُسْرِهِ فَيَدُقَّانِ الآن صامتين كُرَّةَ بيضاء نحو عِصَابَةِ النَضْدَةِ <sup>(٤)</sup> المَطْلِيَةِ بالمِطَاط لِكى تَمَسَّ كَرَتَيْنِ أُخْرَيَيْنِ وَفَوْقَ بعض القواعد ، وفى العالم ، فى تلك الساعة ، فى القهَوَاتِ والأُنْدِيَاتِ <sup>(٥)</sup> ، يَلْعَبُ بضعةُ أَلْفٍ من الناس المسالِمين للماهرين تلك اللُغْبَةَ ، وعلى ما كان من اختراع البليار فى إيطاليا منذ أربعة قرون تَرى لُغْبَتَهُ وَفَقًّا على أَقْلِيَةٍ ، وذلك لِما يَتَقَضِيهِ لُغْبَةُ الذَّرَاعِ والرأس هذه من دِقَّةٍ كثيرةٍ على جُمُهورٍ يَلْعَبُ لُغْبَةَ الصَّوُلْجَانِ بذراعه وَيَلْعَبُ لُغْبَةَ الورق برأسه

(١) القَبَب : القُدح الضخم البسيط — (٢) الحَاكِي : الفونوغراف — (٣) القَنَان : كم القميس — (٤) النَضْدَةُ : شئٌ له أربع قوائم وهو المعروف بالطاولة — (٥) الأُنْدِيَات : جمع لُحْمِ النَادَى .

## العاج

ولصنع هذه الكُرَات الثلاث التي يدحرجها ذاك الرجلان على البساط الأخضر يُصْحَى بأقوى حيوانات الدنيا الذي هو آخرُ جبابرة العالم الابتدائي ، ومن عاجيه يُعْمَل ثمانى كُرَاتٍ أو عشرُ كُرَاتٍ ، أى ما يُجَهِّز ثلاثة بليارات أو ستة رجالٍ ذوى أكامٍ قيصٍ تحت مصباحٍ أخضر ، وأما الأدوات الأخرى التي تُصنع من هذا العاج ( وقد كان الرومان يعملون منه أسناناً صناعية ) ، وذلك من أمشاطٍ ومراوحٍ وقطعٍ شطرنجٍ ومساطرٍ وأصابعٍ يكانٍ ومقابضٍ مظالٍ وما إلى ذلك ، فليست سوى نُقَاةِ مصنوعاتٍ ، فليست سوى أدواتٍ زينةٍ ولعبٍ يسهل استبدال غيرها بها ، وما كان يوجد للكُرَاتِ مادةٌ لها ما للعاج من صلاحيةٍ على حين كان يمكن صنع الأدوات الأخرى من القرون أو الخشب الثمين ، والنساء حتى القرن الثامن عشر كنَّ يَصْرِينَ بأيديهن البيض على أصابعٍ سودٍ ، فلما صَحِلْنَ على استعمال أصابعٍ بيضٍ خضعن لأمرٍ صالحٍ اقتضته الموسيقى ، فالأصابعُ العاجيةُ فى البيان أفضلُ من غيرها .

وكان صائدو الفيل على ضفاف النيل يجهلون ذلك جهلَ الفيل له ، وكل ما كانوا يُبَصِّرُونَهُ هو أن العرب والترك يجلبون على جملهم وفى قواربهم أشياءً جميلةً من كل نوعٍ فلا يطلُبون غيرَ عاجِ الفيل بدلاً منها ، ولا يَعْرِفُ الزوج حتى الساعة الحاضرة ما هو السبب فى كون البيض يُفَضَّلُ العاج على جلد بقر الماء الذى يصلح لصنع السيّاط والشُرُوج ، أو على قرون البكونغوى التي يسهل نحتها ، أو على عُصَاةِ بعض النباتات التي تُسَمُّ بها السِّهَامُ ، أجل ، إن الأبيض يأخذ من الزوج هذه المواد أيضاً ، ولكنه لا يكتثر لسوى العاج ، ومما يروى أن رئيساً دنكاًوياً كان أبوه قد اطلّع على ذلك الهوس فطمّرَ عاجاً احتياطياً فى ضِفةِ النيل فصار ابنه هذا ينال

ما يؤد من ثمن لتلك عادة نفسه سيد الدنيا .

وكان الرّجعى لا يصطاد الفيل إلا نادراً ، وكان لا يصطاده إلا إذا خرب حقله ، لا من أجل لحمه ما دام بقر الماء أسهل منالاً ، وأما العاج فكان يتصدع سريعاً ولا يستعمل إلا أوتاداً لشدة البقر ، والفيل ، مع ذلك ، هو على خلاف الأسد والنمر والتمساح ، فلا يهاجم الإنسان ولا الحيوان فيكنفى في بعض الأحيان بطرده من الزرع بالصراخ والنباح ، وتقول الأفاصيص الرّجعية إن الفيل ذكى في الغالب وإنه ليس شريراً .

وظلّ العاج ، زمناً طويلاً ، لا يتخذ للزينة إلا من قبل بعض الملوك ، ووقع الرجل الأبيض بالعاج هو الذى جعل الفيل موضوع تجارة مهمة ، وذلك منذ قرون في شمال الخرطوم ، أى منذ وصول « التركى » ، وذلك منذ مئة سنة في النيل الأعلى ، وما كان يعرض على الزوج من خرز وبنادق عوضاً من العاج فقد أدى إلى الإقبال على صيد الفيل ، ويضحى الفيل « عدواً تقليدياً » فيوجه جميع الناس أسلحتهم إليه .

ولا يستطيع الإنسان أن يذئ من أقوى الحيوانات وأذكاها إلا بالحيلة والمهول ، والإنسان ينصب أشراكه بجانب الماء ، ويستترها بثلط<sup>(١)</sup> الأفيال ويجهز على هذا الحيوان الماثل من السلاح بالحرايب ، ويحيط ألوف الرجال بالسهب ويحرقونه ويتقدمون ويصيقون الدائرة إلى أن يضطرب الفيل الذى أعماه اللهب ، ويطارده الفيل مئات الناس ويحملونه على الفرار إلى حيث يرمى به بنالهم زنوج مستخفون في أشجار ، وتمزق هذه النبال بدنه حتى يهلك في نهاية الأمر ، والبقرة

(١) الثلط : رجع الفيل ، أى روثه .



وحدّهم ، و يقيمون بالمنطقة الواقعة في جنوب الخرطوم ، هم الذين يحاربونه يُنْزِل ، ومن هؤلاء الثوبيين يَحْرُج اثنان مسلحان برمحين من اَنْلِيزُرَان المتين وَيَعْدُوَان فارسين نحو جماعة القيُول وَيَعْرِلان عنها أَحْسَنَهَا عَاجًا وَيُثِيرُهُ أَحَدُهُمَا رَاكِبًا حِصَانَهُ وَيَلْبُ الأَخرُ إلى الأرض وَيَطْلُعُ بطنَ الفيل برمح طَفَنَةٍ نَجْلَاء وَيَرْجِع رَاكِضًا تَارِكًا لرفيقه إِيَّامَ الصَّرَاع بِالْعَوْدَةِ إلى مثل تلك الوسيلة .

وإذا مَا خَرَّ الفيلُ البطلُ صَريماً خَرَجَ الرجال من مكانهم ودَوَّتْ أصواتُ السرور في السَّهْبِ ابْتِهَاجًا باغْتِنَامِ عَاجِنَيْنِ رَاغِبَيْنِ أَيْضَيْنِ ثَقِيلَيْنِ ، وستندرج تسعُ كُرَاتٍ على بُعْدِ أَلُوفِ الأَمِيَالِ من هُنَاكَ ، وفوق بُسْطٍ خُضِرٍ وَأُمَامِ سِتَّةِ رِجَالِ ذَوِي قُنَانٍ<sup>(١)</sup> .

وَيَصْعُبُ ذَنْجُ الفيل ، وَجَبَتْ الطَّيْعَةُ هَذِهِ الطَّرْفَةَ الرَّائِعَةَ بِوَسَائِلِ الْوَقَايَةِ فِي تِلْكَ الْقَارَةِ عَلَى الْخُصُوصِ ، فَانْظُرْ إِلَى دِمَاجِ الْقَبِيلِ الْإِفْرِيقِيِّ تَجِدُهُ قَدْ بَلَغَ مِنْ الْمَنَعَةِ بُلُوْحَ عَظْمِيٍّ وَقَامَ فَوْقَ جَنُودِهِ الضَّرْسِيَّةِ الْعَلِيَا مَا تَرْتَلِقُ مَعَهُ الْقَذِيفَةُ عِنْدَ رَفْعِ رَأْسِهِ ، أَيْ عِنْدَ مَا يَأْخُذُ هَذَا الْوَضْعَ الطَّيْعِيَّ حِينَ اسْتَفْزَاظِهِ وَمُوَاجَهَةِ الْعَدُوِّ ، وَتَسْتَفْرِ الْقَذَائِفُ الَّتِي تُطْلَقُ مُجَابَنَةً فِي الْعِظَامِ وَالْمَضَارِيفِ<sup>(٢)</sup> الثَّخِينَةِ حَيْثُ تُوْجَدُ جُذُورُ الْعَاجِ الَّتِي تَرْمِخُ نَحْوَ مِترٍ عَمَقًا حِفْظًا لِاتِّزَانِ الرَّأْسِ وَقِيَامًا بِالْجُهْدِ وَقْتَ اتِّخَاذِ الْعَاجِ عَتَلَةً<sup>(٣)</sup> وَقِتْلَاعِهِ شَجَرَةً .

وَالْقَبِيلُ الْإِفْرِيقِيُّ أَسْمَى مِنْ أَخِيهِ الْهِنْدِيِّ ، وَيُسَاعِدُ ظَهْرُهُ الْأَزُورُ<sup>(٤)</sup> وَأُذُنَاهُ الْعَظِيمَتَانِ ، اللَّتَانِ تَسْتُرَانِ عُنُقَهُ عِنْدَ خَفْضِهِمَا وَتُوجِبَانِ دُغْرًا عِنْدَ نَصْبِهِمَا ، وَجَبِينُهُ

(١) القنان : كم القيس — (٢) المضاريف : جمع الضروف ، وهو كل عظم رخص .  
(٣) العتلة : العصا الضخمة من حديد يهدم بها الحائط — (٤) الأزور : الأعوج

المُحَدَّب وَقِصْفُهُ<sup>(١)</sup> النافرُ على زيادة قوة الدفع فيه ، ويزيد ارتفاعُ الذكر من القيلة على ثلاثة أمتار ، وتعدّلُ قامَةُ الأُنثى منها قامَةُ القيل المندى ، وعالجُ القيل الإفريقيُّ أقوى من عاج القيل المندى بدرجاتٍ ، والقيل الإفريقيُّ قليلُ قرطمةٍ للأعشاب وكثيرُ رَمٍ<sup>(٢)</sup> للورق ، وفي السودان تَجَثُّ الأفيالُ أشجاراً يَبْلُغُ ارتفاعها ثلاثين متراً ، وذلك بأن يُدْخِلُ بعضها عاجه ككتلٍ وبأن يجتذب بعضها الآخرُ أغصانَ الأشجار بانحراطيم ، ولذا لا تُقَتِّلُ القبول الإفريقية مواجعةً لسلحها ذلك ، ولأنها أشدُّ بأساً في السَّهْبِ الطليق من القبول المندية في غابات سيلان ، ويُمكن تدويرُها مع ذلك بإطلاق العياراتِ النارية الثقيلة عليها إطلاقاً مستمراً .

والقيلُ الإفريقيُّ أَجْمَلُ من القيل المندى شكلاً ، ويبدو هذا الجمال كما في التماثيل المصرية ، ويتألفُ من رأس القيل السودانيَّ وخُرطومِه وأذنيه كلٌّ كاملٌ لا ترى نظيره في القيل المندى ، ولا تَجِدُ مثلَ رَشَاقَةِ هذا الحيوان الذي هو أثقلُ جميع الحيوانات وزناً ، ويميلُ هذا القيلُ إلى الجَوْلِ عن هِياجٍ وقلةٍ صبرٍ ، فَيَهْزُ قِوَامَه الضَّخْمَةَ وَيَسِيرُ كالرجل الذي يَتَيْبُ على سواء مع بقائه سيداً أعصابه ، ويُجْمَلُ القولُ كونُ القيلِ عنوانَ الخِفَّةِ والِقِئَةِ كالولد .

والآن تَرَى القيلَ ميتاً مطروحاً فوق السَّهْبِ ، والآن تراه محاطاً بمئاتٍ من السود يترصدون لحقه وعاجه ، ويدُلُّ تَكَرُّشُ جلده على تاريخ السَّهْبِ والسَّبَسْبِ<sup>(٣)</sup> وعلى تاريخ الزواج والحشرات ، وهو مثلُ خريطةٍ جِغرافيةٍ مشتملةٍ على أَمَا كُنْ مُلْسٍ سالمةٍ كما لو كانت على نفسِ رجلٍ شائب .

(١) القصف : الضم الذي فوق الدماغ — (٢) رمه : تناوله فيه وأكله .

(٣) السبب : الأرض البعيدة المستوية .

وأخيراً يُنزعُ السِّلْبَانُ<sup>(١)</sup> الأبيضان الاحْتَبَانُ<sup>(٢)</sup> من فيه ، ولكنهما غيرُ متاثِلين ، وفي الغالب تجددُ أحدُ العاجين أكثر استعمالاً من الآخر كيد الإنسان البني ، ومما يرمى أحياناً وجودُ كسْرِ في العاج نتيجةً لإصابة حَرْبَةٍ أو قذيفةٍ أسفرت عن إحداث ضَرْبٍ من المقرَنَصات<sup>(٣)</sup> ، والعاجُ لِمَا يَقَعُ من نُموّه ، في أكثر من قرنٍ ، حَلَقَاتٍ من الداخل إلى الخارج كما في الشجر ، لا تُبصر فيه طبقاتٍ ، ولا لَوْنًا ، على وَبَرَةٍ واحدة ، ويدور النَقْدُ والتحليل حَوْلَ القيل القليل كما يدور حَوْلَ رَجُلٍ عظيم بعد هلاكه ، وإن كان القيل منذ هُتِبَتْ قائماً قياماً منسجماً ، وإن كان القيلُ قبل ذلك مجموعةً حَيَّةً .

وعلى أثير ذلك ، وفي الحال ، يَقْطَعُ الزوج قوائمَ القيل الأربع ، فالرئيسُ يطالبُ بها كما يطالبُ بالعاج خَشْيَةً الخِدَاعِ .

وَجَمَعَ كثيرٌ من ملوك الزوج في النيل الأعلى كنوزاً حَقِيقَةً من عاج القيل كما جَمَعَ أسلافهم كنوزاً من الذهب ، واليوم تجددُ ثمانين في المئة من العاج من هذا النوع القديم ، وقد قلَّ طلبُ العاج لِمَا حدث من صُنْعِ كَرَاتٍ من موادَّ تركيبيةٍ بَلَفَتْ من الإتيان ما لا يَبْدُهَا معه متانةٌ سوى الكَرَاتِ المصنوعة من عاج إفريقية الغربية القاسي لحافظت على قيمتها ، وقد نُظِّمَتْ تجارة العاج ، كما نُظِّمَتْ تجارةُ الألماس والرايُوم ، منذ اكتشاف أماكنٍ جماعاتِ القيل الكبيرة في النيل الأعلى بالطائرة ، ومنذ ادِّخَارِ الإنكليز مقاديرَ عظيمةٍ من العاج وفرَضِهِم ضريبةَ خمسين جنيهاً عن كلِّ فيلٍ يُقْتَل ، ومنذ صارت الأسواق العالمية تَرْقُبُ ثمنَ العاج .

(١) السلب : ما يؤخذ قهراً — (٢) الأجن : الأعوج — (٣) المقرنصات (Stalactites) : المتدليات .

وفي سوقِ أفرس<sup>(١)</sup> يُصَنَّفُ العاجُ على حسب لونه ومتانته وكثافته وحجمته وَيُبَيِّضُ العاجُ الذي تُصنع منه أصابعُ البَيَّانِ لندرة الأبيضِ الناصعِ في الطبيعة ، وَبَزَنُ عاجان ٤٥٠ رطلٍ إنكليزيٍّ فيقدَّمان إلى الملكِ جورجِ هديةً عُرِسَ فلا يَدْرِي ماذا يَصْنَعُ بهما ، وتُصنع الكُرَاتُ من العاجِ ، وتُلَقَى نُفَايَاتُهُ في وعاءٍ ، وتُحوَّلُ هذه النُفَايَاتُ إلى أُسُورَةٍ ومقابضِ وأدواتٍ مُرَصَّعةٍ ومساحيقٍ جَلَاءٍ وهَلَامٍ<sup>(٢)</sup> صالحٍ للطعام .

وتُضَيَّرُ إفريقية في الوقتِ الحاضرِ عاجاً ثمنه مليون جنيه ، وليس ملكُ النيلِ الأعلى الرنجميُّ الذي يملكُ ألفَ عاجٍ أحسنَ وضْعاً من مديرِ أحدِ المصانعِ بلندنِ الذي لم يرَ النيلَ قطُّ والذي يُريكم ، وهو جالسٌ على كرسِيٍّ ، وبمالديه من قوائمٍ ، أنه يملكُ في مخزَّنه ثلاثين ألفَ كُرَّةٍ بليارٍ مُنَوَّعةٍ ، وقد أَهْلَكَ ثلاثةُ آلافِ فيلٍ لتَيْلِ ذلك ، وكلُّ فيلٍ من هذه القُيُولِ أَجَلٌ وأقوى من المديرِ ذلك !

## ٦

يَتَحَوَّلُ صيدُ الفيلِ إلى صَيْدِ الإنسانِ ، وما كان تاريخُ النيلِ الحديثِ ونشوءه السودانِ ، كما عَيَّنَتْهُما تجارةُ الرقيقِ ، لَيَبْدُوا بمجاهلها المعروفة لولا اختراعُ البليارِ ، ومن الآدميين أوفٌ كانوا يَقْضُونَ حياةَ فردوسيةٍ فَنَدُّوا أَسَارَى ، أو خَصِياناً ، لدى أناسٍ آخرين ، وذلك لأنَّ رجلين من أبناء الطبقة الوسطى ذَوَى قُتْنانٍ كافا يحتاجان إلى ثلاثِ كُرَاتٍ على بساطٍ أخضرٍ .

(١) أفرس : مرثاً بلجيري مشهور — (٢) الهلام : مادة غروية .

وفى بدء الأمر يَمُنُّ لتاجرٍ عبرىٍّ أن يقايض بلؤلؤ زجاجيٍّ ، ويُفَتِّنَ السودانيَّ فَيُعْطِيهِ عاجَ فيلٍ في مقابل خمسة لآلئ كبيرة ، وهل كان هذا غشاً ؟ وهل كانت الآلئ التي تساوى عشرة دوانقٍ أقلَّ جالاً من الآلئ الحقيقية التي كانت تساوى مئة جنيه ؟ أفلم تكن قيمة كُرَّةِ البليارد أمراً خيالياً ما صار تقليدها في الحال ممكناً كما قُلِّدَتِ الدُرَرُ ؟ وهل رَوْعَةُ الأملس أم نُدْرَتُهُ هي التي تُقَرِّرُ قيمته ؟ تُجِدُّ من الحجاره العاديه اللطيفه ما هو أكثرُ تأثيراً في النفوس من الأملس ، ومما يلاحظ ما يكون للدُرَر من قيمهٍ تابعهٍ للهوى عند ما تقوم سيداتُ لابساتٍ قلانده من لآلئ ملونهٍ بمحركاتٍ موزونهٍ كالرقصات الزنجيه .

إِذَنْ ، لم يكن الزنجيُّ أنحوكاً ، وإنما كان مُخْتَبِراً ، وقد بهرَّه التماح الحجاره والبزوز<sup>(١)</sup> الكثيره الألوان التي كان يَسْتَحِرُّ بها عربىٌّ مَكَّارٌ فيطلب الزيادة ، وتنتبه فيه روحُ المفاضه ، ويكون هذا آية طرده من الجنه ، ويقابل بين كنزه ودُرَرٍ جارِه ، ويظلُّ ساعتٍ أمام صناديق التاجر ، ويُقَلِّب بين أصابعه هذا السبيح ، أو ذلك السبيح ، الرائع الذي يُقدِّم على سِرِّقته لو كان التاجرُ أعزلَ من السلاح ، ولا مناصَ له من اشتراؤه ، ولكن بأى شيء ؟ عاد غير ذى عاجٍ ، ويجب أن يَمُضِيَ وقتٌ كبيرٌ حتى يُنْظَمَ مَوْكَبٌ صيدٍ جديد لينال أربعة أنياب اوستة أنياب من الأفيال ، والوسمُ كان موسمَ أمطارٍ ، ومياهُ النيل كانت مرتفعه ، وسواعدُ النيل كانت تَمُوقُ الصيدَ ، وماذا يستطيع أن يُقدِّم إلى هذا الباشا الكبير وهو رئيسُ قبيلةٍ زنجيهٍ قديرٍ لا يَمْلِكُ غيرَ أنعامٍ وعبيد ؟ وهل يُضارب التاجرُ على بضعة عبيد ؟ ويؤمى التاجرُ برأسه ، وهذا ما كان

(١) البزوز : جمع البز ، وهو الثياب من الكتان أو القطن .

ينتظره ، أفلم يُسَلِّمْ أجداده ، في قرنٍ ، سُودَ الحَبَشَةِ إلى العرب المِطْلَاشِ إلى العبيد على الدوام وبضنوا ؟ وتلك الفكرة رائعةٌ إِذَنْ ، وفي ذلك البلد الذي لا يَعْرِفُ حقاً ولا رَقَابَةً يُمَكِّنُ التاجرَ المسلَّحَ بينادقه أن ينال في مقابل لآلئِهِ وُبرُوزِهِ أرباحاً من الرقيق لا توجبُ ارتفاعاً في أسعار العاج .

وكانت الفكرةُ جديدةً لدى رئيس القبيلة ، وكان يُفَتَّصِرُ حتى ذلك الحين على اغتصاب الناس ، ولا سيما النساء ، من القبائل المغلوبة حرباً لاستخدامهم في أعمال الحقول ، وكان ذلك ثمناً للنصر ، بيد أن تجارة الرقيق التي كانت تُزَاوِلُ في سواحل غرب إفريقيا مما لم تُعرَفْه شواطئُ النيل ، ويُقْبَلُ عليها في هذه الشواطئ بعدئذٍ ، ولا تُنْكَرُضُ ، وينتشر هذا الجورُ بمثل السرعة التي يَمُّ بها حريقُ في الشهب ، ورئيسٌ آخرٌ كان محتاجاً إلى ثلاثين امرأة للقيام بأمر الزراعة وإلى ثلاثين راعياً ، ولكنه كان لا يريد الحربَ عن خَوْفٍ ، أو عن بِلَادَةٍ ، أو عن شَيْئَةٍ ، ويُبَصِرُ بضعَ مئاتٍ من الأدميين مَزْرُوعِينَ في حظيرة صديقه العربي قَيْعْرِضَ عليه عاجُ فيلٍ في مقابل ثلاثة عبيد .

والمعاوضةُ في القرن التاسع عشرَ ، وبوجوهها المتقلبة التي يُحِبُّها الشرقيُّ ، حَوَّلَتْ تاجرَ العاجِ إلى تاجرٍ رقيقٍ ثم إلى صائِدٍ رقيقٍ لِيَتَوَدَّ تاجرَ عاجٍ ، وهكذا وَقَعَ سِباقٌ بين صيد الإنسان وصيد الفيل في النيل الأعلى ، وكان يقيم بالخرطوم تجارٌ من العرب ، فعقد هؤلاء التجارُ معاهداتٍ مع رؤساء القبائل مستفيدين من تنافسهم وصاروا يشترون أناساً من رعائهم سالكين مثل السبيل التي سلكتها إنكلازة في سواء ألمانيا في القرن الثامن عشرَ ، ويألها من مكناتٍ تَصُدِّرُ عن نفوسٍ مُبْدِعَةٍ لا ضميرَ لها ! وَوَجَدَ أَحَدُ هؤلاء طريقَ بحر الغزال المارَّةِ من المناقع فاكشف هنالك

قوماً مجهولين فقبض عليهم وباعهم حائراً شرفاً رائدٍ وشرفاً ممثلاً للحضارة !  
وغدا شرق إفريقيا « دار الرق » أيضاً ، ولولا الطمع في الما ج ما أقدم تاجرٌ على  
السير حتى الدرجة الثالثة من العرض الشمالي وما اقتحم مخاطر النيل وعائى  
أهوال الزوج .

ومما كان يحدث أحياناً أن يُقنص أفاقٌ ، أو شاردٌ . نسميه علياً ، أحدَ  
متموِّلى الخرطوم ، بأن يُقرضه مئة جنيه على أن يدفع ضيفها عاجاً بعد ستة  
أشهر ، ويُقرى على هذا نفرأ من المُستبهِ فيهم ، ويشترى زوارق وبنادق وقذائف  
وبضع مباتٍ أرطالٍ من لؤلؤ فينسيه الزجاجى ، ويدفع إلى كل واحدٍ من  
أولئك رواتبَ خمسة أشهرٍ مُقدِّماً ( ١٥ تاليراً ) ، ويعدُّهم بضعف ما دفع عند  
العود من الفزو ، ويناوهم ورقة لتقيد حساباتهم ، ويردُّون الورقة إليه لأنه الوحيدُ  
الذى يعرف الكتابة ، ويسار في شهر ديسمبر إلى جهة منابع النيل حيث يقيم  
الشك والدنكا ، ويرتبط على برابطة الصداقة في أحد الرؤساء ويهدى إليه بضع  
بنادق ، وينطلق هذا الرئيس إلى محاربة جيرانه وأعدائه ، ويهاجم على رجاله  
قرية في تلك الأثناء ويحرقها ويقتل بعض أهلها الزوج ويقطع أيديهم أخذاً  
لأسورتهم ، ويقتاد الناس والأولاد واللواشى ويعود إلى صديقه الأسود الجديد  
فيقدِّم إليه فتاة حسنة مع شيء من المواشى .

وتساور الملك الزنجي رغبة في أخذ كثير من القطاع ، ويخرج عاجه من  
الأرض ويأتى به إلى ذلك الغريب الذى يعدُّه من الباشوات أو من الآلهة تقريباً ،  
ويأخذ الخفرة نصيبهم من الغنائم ، حتى من العيد ، وتقام سوقٌ ، ويشترى  
كل واحدٍ أقصى ما يمكنه منها ، ويُفدُّ على كل شيء حتى يُنزله من أجور

رجاله ، ثم يُعيد العبيدَ المؤتمنين بالأغلال إلى نسلهم البائساتِ أو إلى آبائهم في مقابل أنيابٍ فيلٍ جميلة .

ويُختم ذلك باحتصام الرئيس وحليفه وينهبه على<sup>٢</sup> ويقتله ويقود نساءه وأولاده عبيداً ، وتملاً للقواربُ ويُستعدُّ للرحيل ، ويتخلف بعضُ الرجالِ إدامةً للنهب وإعداداً لغنميةٍ أخرى في العام القادم ، وبالقرب من الخرطوم تُنزلُ هذه السلعةُ البشرية وتوزعُ بين الباعة خشيّةً إطلاع السلطات على مقدار الثروة التي جمعها على<sup>٣</sup> ، ويُنقلُ العبيد بطريق الصحراء والبحر الأحمر إلى بلاد العرب ، ويساقُ بعض العبيد إلى القاهرة ، ويوضعُ حولَ عنق كلِّ واحدٍ منهم ملقَطٌ ذو مقبضٍ طويلٍ لاسمٍ لنزاعه المبسوطة ، فإذا ما أرخى ذراعَه اختنق ، ويأتي على<sup>٤</sup> دأته بالعاج الموعود ، ويبلغُ ما يبيحُ به من العاج في العام الجيد عشرة آلاف كيلو غرام ، أى ما تساوى قيمته في الخرطوم أربعة آلاف جنيه إنكليزى<sup>٥</sup> ، ويدفعُ إلى رجاله عبيداً فلا يكلفونه شيئاً لهذا السبب ، ويبلغُ نصيبُ رئيس القزوة بضعَ مئاتٍ من العبيد يُباع كلُّ واحدٍ منهم بخمسة جنيهات أو ستة جنيهات ، وهكذا يفتنى على<sup>٦</sup> بمحصولٍ ثانوىٍ ككثيرٍ من تجار البيض

وهكذا صار النخاسون أصحابَ سلطةٍ سياسية ففدت في الجنوب أقوى من سلطة الحكومة لتحالفهم مع بعض الأمراء ضدها في الغالب ، وكانت بعضُ الرواتب تُدفعُ إلى الموظفين المصريين عبيداً ، وكان كبارُ الموظفين وصغارهم ، وكان باشا الخرطوم ، وكان هؤلاء جميعهم ، يضاربون كما في مصفق نيويورك عند ارتفاع الأسعار ، ومما يُروى مع التوكيد أنه بيعَ ما بين أربعين ألفاً وستين ألفاً من الآدميين في كلِّ سنةٍ مما بين سنة ١٨٤٠ وسنة ١٨٦٠ ، ولا يُعرف عددُ الموتى



الكثير في تلك السنين ، وأصبحت التجارة التي بدأت بالعاج في النيل الأعلى أمراً ضرورياً للدولة ، وأسفرت في نهاية الأمر عن أزمة سياسية وعن أقول السيادة المصرية .

## ٧

مثّل ذات يوم فرنسي<sup>(١)</sup> ، مثّل الرحالة كايو ، أمام والى مصر مع هدية غريبة ، وذلك أنه جلب إليه من السودان كيساً مشتملاً على بذور قطن وثماره ، وأثار لديه فكرة تجربة زراعة القطن في دلتا مصر ، ولم يقرأ محمد على كتاب يليني<sup>(٢)</sup> لأنه جندى من أصل ألبانى ، وقد سمع محمد على عن القطن المصرى لا ريب ، وإذ كان محمد على فاتحاً ، لا أميراً وراثياً ، كان لديه من الذكاء ما يدرك معه أهمية هذه الإشارات التي سنتكلم عنها في مكان آخر ، وفي سنة ١٨٢٠ جاء تقريرُ الرائد ميمّا لتقارير الضباط والموظفين ، ويعلم الباشا من كايو أموراً طريفة جامعة بين الحقيقة والخيال كما في جميع الأفاصيل الشرقية ، يعلم الباشا منه وجود ذهب في السودان وأن القراعة كانوا ينالونه منه وأنه يعج بالعاج والأفيال وأن كُرْدفان بلدُ اللبان ، وأن الألباس الذي يُحدث عنه منذ أقدم الأزمان يوجد حوالى الدرجة الثانية عشرة من العرض لما يوجد منه في الأمكنة الإفريقية الأخرى الواقعة حول هذه الدرجة ، وما جلبه كايو زجاجة ماء من ملتقى النيلين ، وكان كايو عالماً بحسب في آن واحد فأيقظ روح الإقدام في محمد على على

(١) يليني : عالم طبيعى من علماء الرومان ، وقد هلك عند فوران بركان فيزوف سنة ٧٩ .

هذا الوجه ، ويا للمجد الذي يناله وليُّ أمر يكشف منبع النيل ! وستخذُ خصومةُ أورة ضدَّ فاتح مصر إذا ما صار نصيراً للعلم .

ومن المحتمل قليلاً أن يكون محمد على قد أَسَرَ إلى كايو بما يُضِرُّ من أفكار سياسية ، أَجَلٌ ، كان يَعُدُّ الذهب والألماس معدنين مفيدين ، ولكنه كان يرى أن الأفضل منهما أن ينقذ القاهرة من المالك الذين كانوا قد ثاروا عليه وأن يُلغى كتابه الألبانية والتركية وأن يجتذب إلى مصر تجارة البحر الأحمر ، وأن يجتمع جنوداً على الخصوص ، ومن أحلام جميع الطغاة أن يجمعوا جنوداً كثيرين ، ولو بلغ جنودهم من كثرة العدَد ما يصبحون معه عاطلين من العمل ! والجنود عبيدٌ حرُّروا لتُفرض عليهم عبوديةٌ جديدةٌ ، ولم يدفع التوبيين ضرائب منذ سنين كثيرة ، وأرهقهم الجبابةُ عُسراً ، ووُجدَ هذا سبباً لجباية ضريبة مُنتجة ، سبباً لجمع جنود ، وإذا كان القطن يَنْبُت من تلقاء نفسه فلم لا تُزرعُ منه مقاديرٌ كبيرةٌ هنالك ويُنتفع به في مصر ؟ وإلى هذا يضاف الذهب والعاج ومجدُ اكتشاف منابع النيل !

ولا يبدأ تاريخُ السودان إلا بالحمَلات التي وجهها إليه محمد على بين سنة ١٨٢٠ وسنة ١٨٤٠ ، وقد دَفَعَ هذا الرجلُ الممتاز ثمنَ إقدامه غالياً ، فقد أخضع ابنه البالغ من العمر اثنتين وعشرين سنة قبائلَ السود حتى الدرجة الحادية عشرة من العَرَض فوقَ في شَرْكٍ ، وذلك أنه طَلَبَ في شِنْدِي ، الواقعة على النيل في شمال الخرطوم ، من الملك نمر ألف بقرّة وألف أمة فتاة وألفاً من الإبل والضأن والمز وألف رجلٍ بعيرٍ من الجُوب وألف رجلٍ بعيرٍ من التَّين ، وينحى الملك ويقول : « إن حسابكم هو من البساطة ما يُوجب العَجَب ، ويظهر أن ألف هو الرقم الذي تَقْرِفونه » ، ولما مُجِّع كلُّ شيءٍ وكُدِّسَ التَّين حَوْلَ المُسْكِر دعا الملكُ الفزاةَ إلى وليمةٍ ،

ويتوارى الملك في ختامها ويحرق الثبن ، ويهلك الفاتح الفتي هو وضباطه بين  
اللهب ، ويقب ذلك انتقام هائل فقد أحرقت شيندى وذبح ألف امرأة وولد  
على ضفاف النيل ، ويوقى الملك نمر وحده للفرار إلى الصحراء .

وأعانت تلك الحملات على اكتشافات مع ما تخللها من فظائع ، كأن ترسل إلى  
القاهرة أذان الأسارى ، وكأن يعد ملك في سينار كبد الإنسان مع الجمعة طعمته  
المفضل ، وكانت الخرطوم تقام ، وكانت تسير قوارب خفيفة إلى الدنكا الذين لم  
يصل إليهم أحد من قبل ، ويذهب محمد على إلى السودان بنفسه ، ويخلد نفسه هناك  
بابتكاره أسلوباً جديداً في جباية الضرائب ، وذلك بتعليقه بشجرة في كل قرية كيساً  
محتوياً بعمر امرأة بأن تدفع كل قرية تاليرات بعدد ما في الكيس من بعرات .  
وأخيراً تسود السلم فيما يمكن أن يرقب من نواحي البلد ، وتتمتع هذه النواحي  
بسكون المقابر ، ويسير اللصوص على أثر الرؤاد في الجنوب كما يقع في كل زمان ، كما  
يقع حتى الآن ، ويبدأ ارتياد تلك البقاع بلا حرس ، ويتجه خلف العلماء تجار من  
ذوى الجشع نحو منبع النيل ، ويوغل المبشرون في الشهب ويضطرون إلى الرجوع .  
وتعدو إفريقية لدى البابا « وكالة » ، ولدى قنصل سردينية « قاعدة » ،  
ويلاقى التجار والأشرار المصريون رهباناً نموسيين ، ويحاول هؤلاء أن يكسبوا  
الزنجى ليسوع ، ويحاول أولئك أن ينالوا عاجاً ، وتخفى دول في أورة ما تضمر  
من مقاصد وراء رسالة نبي ، وتعتمد دول أخرى على رسالة نبي تسويقاً لاصطياد  
العبيد ، وفي تلك الجاهل يُشير جميع ذلك حقد النوبى على النصرانى ويُثير عطف  
النصرانى على الزنجى .

وتنمى ثلاثون سنة أو أربعون سنة فيقاوم تجار الرقيق في قصورهم إسماعيل باشا

## صموئيل بيكر

الذى هو حفيدُ محمد علي ، ولأيدَ قُصُون من الضرائب إلا بالمقدار الذى يناسب كتابتهم الشخصية ، وعلى ما كان يساور إسماعيل باشا من أطيَب الثَّيَّات تَقْصُرُ يده بسبب أعدائه وديونه ويكون أولَ مصرى يطلب من أجنبي أن يُسرَّع إلى مساعدته فى السودان ، وَيَقْضُ هذا الحاكم على الأمر بالنواجذ كما هم وكنصرانى وكينكليزى ، ونواجذُ هذا الأجنبي كانت غايةً فى اللئامة .

وكان صموئيل بيكر فى الأربعين من عُمره حينما حَزَرَ نشاطه إلى قَصْد إفريقيا ، وكان بيكرُ هذا ، حتى ذلك الحين ، صائداً عنيداً فى سيلان وجوآباً وثاباً فى العالم ، وكان هذا ممازجاً لئمه ، ولا تَحِبُّ ، فقد كان منذ صباه يُفْهِرُ مَنَ أَيْه ذاتِ القُلُوع<sup>(١)</sup> تغادر جايكا مع شَحْنٍ<sup>(٢)</sup> من السُّكَّر قاصدةً إنكلترة ، وهو صَرَبٌ من البالغة ذو رَثَيْن وعَيْنَيْن وَعَصَلَاتٍ تقاوم كلَّ ابتلاء ، وسيلانُ كانت أولَ ما ذهب إليه لصيد النمر ، وهو عندما تَشَرَّ قصة ذلك لم يَشْكُ أحدٌ فى حجة ما عثره القرية من الخيال ، ويبدو هنالك نصفَ عارٍ ، وَيَبْدُو حاملاً رجماً ، فيُلْقَى فى النفس انطباعَ الرجل الفطرى ، وَيُدْرِكُ أمرَ احتياجه إلى « مدفعية بنادق » .

وليسَت القسوة من سَحِيَّتِهِ ، فكانت الحيواناتُ والأولادُ أشدَّ ما يُحِبُّ وَيَفْهِمُ ، وقد رَبَّى عبداً صغيراً ودَبَّ اليأسُ فى نفسه عندما قَدَّ ثلاثة من أولاده فى ثلاثة أعوام ، وكان غَضُوباً مع سرعة رِضا ، وكان متجبراً مع كرمٍ وقرى ، وكان مستقلاً بفضل ما وَرَثَهُ من ثروة ، وكان يَطْلُعُ حمةً فيلوح أنه خَلَقَ للغامرات ، والحربُ هى التى كان يحتاج إليها .

(١) القلوع : جمع القلع ، وهو شرع السفينة — (٢) الشحن : جمع الشحنة ، وهو ما تَحْمِلُهُ به السفينة ، أى تَمْلَأُ بِهِ .

وَيَصِلُ إِلَى مِيدَانِ الْقَرِيمِ الْحَرْبِيِّ مُتَأَخِّرًا ، وَيَجِدُ ، بَعْدَ مَوْتِ زَوْجِهِ الْأَوَّلِ هُنَاكَ ، شَرِيكَةَ حَيَاتِهِ الَّتِي تَصْلُحُ لَهُ ، يَجِدُ حَسَنَاءَ مَجَرِيَّةً يَصْطَادُ الدَّبَّيَّةَ مَعَهَا فِي آسِيَةِ الصُّغْرَى ، وَيَسْتَحُودُ السَّأَمَ عَلَيْهِ بِسُرْعَةٍ ، وَكَانَ صَيَادُو الْإِنْكِلِيزِ وَمَغَارِمُهُمْ فِي ذَلِكَ الدَّوْرِ ، أَيْ حَوَالَى سَنَةِ ١٨٦١ ، لَا يَحْمِلُونَ بَغِيرَ النَّيْلِ حَيْثُ الْقُبُولُ وَالْأَسْوَدُ الَّتِي تَخْتَلِفُ عَمَّا فِي سِيلَانِ ، وَحَيْثُ لَا حَذَّ لَأَرْضِي الصَّيْدِ ، وَكَانَ يُوجَدُ فِي ذَلِكَ الْحَيْنِ أَمْرٌ يَقِيمُ الْعَالَمَ الْغَرْبِيَّ وَيُقْعِدُهُ ، كَانَ يُوجَدُ عَمَلٌ يُتَطَلَبُ إِنْجَازًا ، كَانَ يُوجَدُ جِهَادٌ يُتَطَلَبُ جَمِيعُ الْجُهُودِ ، كَانَ يَوْجَدُ كِفَاحٌ ضِدَّ الرِّقِّ ، فَالْحُرِّيَّةُ وَالْإِنْسَانِيَّةُ وَالْمَجْدُ أُمُورٌ كَانَتْ هُنَاكَ .

وَيَبْذُلُ يَبْكُرُ جُهُودَ بُطُولَةٍ وَيَجَاهِدُ يَبْكُرُ وَيَمَانِي ضُرُوبَ الْحِرْمَانِ مَدَّةَ ثَلَاثِ سِنِينَ ، وَتَرَافَقَهُ زَوْجُهُ فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ عَلَى الدَّوَامِ ، وَيَكْتَشِفُ مَنَاجِزَ النَّيْلِ الثَّانِي ، يَكْتَشِفُ بِحِيرَةَ الْأَبْرَتِ ، وَيَعْلَمُ خَيْرُ مَجْدٍ صَائِدِ الْأَسَادِ صَمُوثِيلَ أَرْجَاءَ جَمِيعِ إِفْرِيْقِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ .

وَيَعْتُودُ عَمْبُ الزَّوْجِ الشَّهِيرُ ذَلِكَ مَوْظِعًا كَبِيرًا بَعْدَ خَمْسَةِ أَعْوَامٍ ، وَيَكُونُ عُرْضَةً لِلْحَقْدِ وَسُوءِ الظَّنِّ ، وَلِمَاذَا يَأْتِي لِيُكَدِّرَ صَفْوَةَ تِجَارِ الرِّقِّ ؟ وَمَنْ ذَا الَّذِي أَذِنَ لِهَذَا النَّصْرَانِيَّ فِي التَّعَرُّضِ لَتَعَالِيمِ الْقُرْآنِ الَّتِي يَبِيعُ الْمُسْلِمُ تَحْتَ سِتَارِهَا وَثَنِي الزَّوْجِ ؟ وَمَا هِيَ عِلَاقَةُ حَرْبِ النَّصَارَى الْأُمْرِيكِيِّينَ بِـ « مَسْلَى إِفْرِيْقِيَّةِ » الَّذِينَ كَانُوا يَبِيعُونَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ عِيْدِهِمْ بِخَمْسَةِ جَنِيهَاتٍ ؟ وَالْحَرْبُ الطَّوِيلَةُ بَيْنَ الشِّمَالِ وَالجَنُوبِ بِأَمْرِيْكَةِ كَانَتْ تُنْشِئُ مَعَ ذَلِكَ ضَرُورَةَ نِظَامِ الرِّقِّ وَرِضَا الرَّبِّ عَنْهُ ، وَمَاذَا كَانَ فِي النَّيْلِ الْأَعْلَى مَعْنَى الْبِرَّةِ الرَّسْمِيَّةِ الزَّاهِيَةِ الَّتِي أَنْتُمْ التَّخْدِيدُ بِهَا عَلَى يَبْكُرٍ فِي الْقَاهِرَةِ ؟ وَمَنْ الْمُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ يَبْكُرُ قَدْ وَضَعَ فِي نَفْسِهِ هَذِهِ الْأَسْئَلَةَ فِي أَقْتَمِ الْأَوْقَاتِ ،

ويأتى صائدُ الآساد والأفيال لَدَبِجُ الأَفْنَى العظيمة التي تُهْلِكُ مِنْطَقَةَ النيل الأعلى تلك ، يأتى للقضاء على تجارة الرقيق ، لا على الرِّقِّ ، ويَهْزَأُ بِبَيْكِرٍ بِتَبَجُّحِ جميعات مكالفة الرِّقِّ في إنكثارة ، ويُوَجِّهُ إليها سهام اللوم بقوله إن على أعضائها أن يَمْنُوا في بدء الأمر بالآلام إخوانهم في مناجم الفحم .

وكان يبيكر يحبُّ الزوج ولا يُحْسِنُ الظنَّ بالعرب ، شأنُ جميع مَنْ خَلَقُوهُ ، ولكنه كان لا يحبُّ العبدَ كحبِّ تُولَسْتَوِي<sup>(١)</sup> له ولكنه كان لا يريد تحريره كما كان لِنَكُولِن<sup>(٢)</sup> يريد ، وإنما الذي كان يودُّه هو مكالفة النخاسة ، وكان للعبد في بلده نصيبُ المال الآخرين ، فإذا ما نُقِلَ إلى مكانٍ آخر لم يكن غيرَ سِلْعَةٍ ، غيرَ ثَمَرَةٍ ذاتِ منظرٍ سارٍ أحياناً ، ذاتِ عَيْبٍ خفيٍّ حقيقةً ، غيرَ أداةٍ تسلييةٍ وسُخْرِيَةٍ في دوائر الحرِّم ، ويرى يبيكر أن يُنْظَرَ إلى كرامة الإنسان أكثر مما إلى سعادته ، ويكره يبيكر بيع الإنسان للإنسان ، ويُبْصِرُ يبيكر في القاهرة باشواتٍ سِمْكَانٍ يَتَنَزَّهُونَ في عَرَبَاتٍ يَحِفُّ من حَوْلِهَا سُوءُاسٌ لا يَسُونَ سِتْرًا مُوشَّاةً بالذهب فيُخِيلُ إلى الناظر أنه يشاهد ما ينتقل به إلى دور ألف ليلة وليلة ، وما سَمِعَهُ هنالك ضجيجُ وشاةٍ ما كرين مصانعين يُرُونَ سَيْدَمَ آثَارَ إخوانهم الأَبَاقِ<sup>(٣)</sup> عارفين إياهم من شكل أباهمهم ومن رائجتهم ، وما اطلع عليه يبيكر بعينه صبيانٌ من الزوج مُسْتَلْقُونَ على الرمل مُخْصِيُونَ بِمِصْصَعٍ مع صَبْرٍ رَصَاصٍ على الجروح قطعاً لتزفيها ، وكان بعض الأديار القبطية يعتمد في دَخْلِهِ ، قبل كلِّ شَيْءٍ ، على صنْعِ خِصْيَانٍ ، والخِصْءِ ،

(١) تُولَسْتَوِي : كاتب روائي وأديب روسي مشهور ( ١٨٢٤ - ١٩١٠ ) .

(٢) لِنَكُولِن : أحد رؤساء جمهورية الولايات المتحدة الأمريكية المشهورين ( ١٨٠٩ - ١٨٦٥ ) .

(٣) الأَبَاقِ : جميع الأبق ، وهو العبد المملوك .

وقد يؤدى إلى هلاك الخصى ، هو من اختراع المسلمين والنصارى ، والخصاء مما كان الزوج الوثنيون يجهلونه .

وأثبت بيكر ، الذى كان صائداً فساداً رائداً ، أنه رجلٌ حكومى ، فقد جعل ولايةً من المنطقة التى كان قد رادها منذ عشر سنوات ، بيد أنه كان وحيداً ، وكان النوبيون والمصريون الذين هم تحت إمرته يخذعونه ، ومما ثبت عند أن أعلى موظفيه كانوا متواطئين هم والنحاسون الذين كانوا يبدون ذوى سلطان لا يقهر .

ومن أولئك من كانوا ذوى عبقرية ، فقد ظهر من النوبيين مغامر اسمه الزير ، وكان الزير هذا جاهلاً فقيراً فصار صاحب مقامٍ عن فساد ورشوة ، فأقام دار نخاسة فى النيل الأعلى وجمع كتائب المحافظة عليها وأنشأ نوعاً من القلاع مع عيشه فى أكوخ ذات بسطٍ وأدوات فضية ، ويحرس مدخل القلعة أسدً مقيداً للتأثير فى زائريه ، وما كان ليخشى حكومة القاهرة الضعيفة ولا حاكم الخرطوم الإنكليزى ، وإنما كان يخاف الشكك المقاتلين الذين يهاجمونه دوماً كما كان يخاف السد الذى يمكنه أن يسد النيل ويقطع طرقه ، وكان يستطيع أن يعلن نفسه ملكاً ، وقد صنع ابنه ذلك فتسنى سليمان ، ونادى بنفسه ملكاً لبحر الغزال وبور ومكاكا ، وكان تاجر الرقيق بالجملة هذا معاهداً سيراً لباشوات القاهرة وموظفى الخرطوم ، وكلٌ يكره الإنكليزى الذى جاء ليضع عراقيل فى الدواليب <sup>(١)</sup> .

وكانت الضغائن تسود جميع ذلك البلد ، فكان الزنجي يتفقت العربى الذى هو

(١) الدواليب : جمع دولاب ، وهو كل آلة تدور على محور ، والكلمة مولدة ، وقد استعملها الحريرى فى قوله : « وهذا يا أولى الألباب معيار الآداب ، وأنشد ملغزاً فى الدولاب » .

عَيْنٌ عَلَيْهِ فَيَأْخُذُهُ غَضَبًا وَيَذِيعُهُ ، وكان العربيُّ يَمُتُ التركيَّ ويقول لا يَنْبُتُ الكَلأُ حَيْثُ يَمُرُّ التركيُّ ، وكان التركيُّ الذِي يَوَدُّ أَنْ تُنْجِيَ إِلَيْهِ تَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ يَمُتُ الأوربيَّ لِمَا يُبْصِرُهُ مِنْ مَطَامِعِ الأوربيِّ الَّتِي سَحَلَتْ الخديو على فَتْحِ أبوابِ بلده له تَأْدِيَةٌ لَدَيُونِهِ النَّاشِئَةُ عَنْ تَبْذِيرِهِ ، وكان الوثنِيُّ يَمُتُ المسلمَ الذِي أَباحَ النَّبِيُّ لَهُ اسْتِعْبَادَ الكَافِرِينَ ، وكان المسلمُ يَمُتُ النصرانيَّ الذِي حَظَرَ عَلَيْهِ نَبِيُّهُ تَعَدُّ الزَّوْجَاتِ ، وكانت هَذِهِ الْبُغْضَاءُ الْعَامَّةُ تَنْتَدِرُ مِنَ الأسُودِ إِلَى الأسْمَرِ ، وَمِنَ الأسْمَرِ إِلَى الزِّيْتِيِّ وَإِلَى الأَبْيَضِ ، وَلَا عَكْسَ ، وكان الأَبْيَضُ يَشْعُرُ بِعَاطِفَةٍ نَحْوِ السُّودِ ، وَهُوَ فِي ذَلِكَ كَالرَّجُلِ الذِي يُفَضِّلُ الأَوْلَادَ عَلَى أَنْصَافِ الْعُلَمَاءِ .

وكان يَكْرَهُ وَحِيدًا فَوْقَ هَذَا الْبِرْكَانِ كدُعَاةِ السَّلَامِ فِي أَيَّامِنَا ، وَأَفْنَى هُنَاكَ أَرْبَعُ سِنَوَاتٍ مِنْ حَيَاتِهِ وَعَادَ إِلَى بَلَدِهِ صَاحِبًا عَادًّا مِنَ الْمَعْجَزَاتِ عَوْدَتِهِ مِنْ رِحْلَتِهِ صَحِيحًا سَلَامًا .

وَتَمَضَى عَشْرُ سِنِينَ ، وَتَحْتَفِلُ « جَمِيعَةُ مَكَاظِفِ الرِّقِّ الأَجْنِبِيَّةِ » فِي لَنْدُنَ بِمِيدِهَا الذَّهَبِيِّ ، وَيُدْعَى بِكُرِّ إِلَى أَنْ يَكُونَ ضَيْفَ الشَّرَفِ ، وَيَرْفِضُ ذَلِكَ بِمَا يَنْدُرُ صَدُورُهُ عَنْهُ مِنْ غِلْظَةٍ فَيَقُولُ فِي جَوَابِهِ : « لَا أَجِدُ مَا يُسَوِّغُ الْإِحْتِفَالَ بِهَذَا الْعِيدِ الْخَمْسِيْنِيِّ فِي إِسْكَالَةِ مَعَ مَزِيَجٍ بِمَقُوتٍ بَنِيضٍ مِنَ الرِّثَاءِ وَالذَّنَاءِ » .

وَقَوْلُ جَرِيٍّ فَرِيدٌ فِي بَابِهِ كَهَذَا مِمَّا يَجْمَلُ ، فِي الْعَالِمِ ، لِلرَّجُلِ الشَّرِيفِ مَكَانًا فِي التَّارِيخِ أَكْثَرَ دَوَامًا مِنْ جَمِيعِ أَعْمَالِهِ .

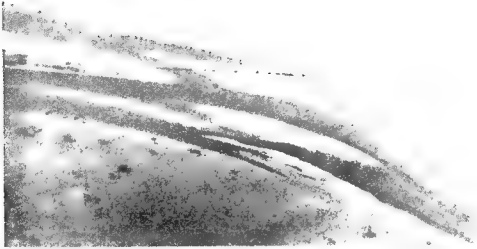


كان خَلْفَهُ على خِلَافِهِ تماماً ، فبعد الصائد الضخم الشديد اللَّحْيَانِ ، وبعد  
 المحاربِ المسلَّحِ اللابسِ مَوْقاً<sup>(١)</sup> ، يُعَيِّنُ الخديو حاكماً للسودان رجلاً صغيراً نحيفاً  
 ماهراً أشقرَ الشعرِ أشيبَ الشاربِ دائمَ الحركة غيرَ مُقَيَّدٍ بِرِزَّةٍ ولا بِعِمْرَةٍ ، وكان  
 بهاء لونه وصفاءه يَتَحَدَّى شمسَ الصحراء ، وكان محافظاً على بساطة ، على رشاقة ،  
 صبيانيةٍ تقريباً ، وعلى غَضَارَةٍ<sup>(٢)</sup> رجل رياضيٍّ ، وما كان جميعُ ذلك لِنِعْمٍ عليه  
 بسلطانٍ كبير بين أولئك الشود والشمر لولا عيناه الزرقاوان الفولاذيتان النَّفَّاذَتان  
 في الرجال كالنبال ، وعنه قال صديق له : « إنه ذو بَصَرٍ يُبْهِرُ العَجَبَ بنوره ،  
 وإن لم يمتدَّ إلى بعيدٍ في جميع الأوقات » .

ذلك هو أمرُ الجنرال غوردون الذي يُشْعِلُهُ لَمْبٌ باطنِيٌّ مع عَطَلِهِ مما كان يتصف به  
 يكر من بأسٍ وبصرٍ صَرَخَ بهما التَّيُولَ واكتشف بهما البحيراتِ ووَفَّقَ بهما  
 لمخادعةٍ إفريقيةٍ ، التي خَسِرَ غوردون فيها حياته ، صحيحاً سالماً .

وفي الغالب يُحَاوِلُ رفعُ فضائل رجلٍ خُتِمَتْ حياته بفاجعةٍ إلى أعلى مرتبةٍ ،  
 وأفضلُ من ذلك أن يُسْتَعانَ بهذا الموت في إيضاحِ مزاجه ، والحقُّ أن غوردون  
 ذَهَبَ نَحِيَّةَ خَلْفِهِ ، فالذي كان يُمَسِّكُهُ وَيَشُدُّهُ مع تردده ، والذي كان يَمُنُّ عليه  
 بذلك الحزْمُ الذي يُقَرَأُ في نظره ، هو اعتماده الروائيُّ على الله ، وهو في هذا يشابه  
 كرومويلَ مع قلعةٍ كآبةٍ ، وإذا كان اتصال الرواد الآخرين الدائم بالمسلمين

(١) الموق : خف غليظ يلبس فوق خف أرق منه — (٢) الغضارة : السمة والحصب .



١٦ — النقاء النيل الأبيض والنيل الأزرق



والرثنين لم يؤدَّ إلى تثبيت إيمانهم النصرانيَّ فإنَّ إيمان غوردون لم يتزعزع قطَّ ،  
فغوردون ، مع ليفينغستون ، هو الإنكليزيُّ الإفريقيُّ الوحيدُ الراسخُ الإيمان .  
وكان غوردون يستلهم النبيَّ إشفياءً إذا أراد أن يتقدم أو يقف ، وإذا لم يجدْ  
في دَارْفُورَ ماءً أشار إلى نصِّ في سفر الملوك الثاني ، فيلوح أنه ظلَّ يتلو التوراةَ  
في كلِّ صباحٍ أو مساءً من كلِّ يومٍ مرةً مدةً عشر سنين أو عشرين سنة ، وما كان  
فيه من كرمٍ صادرٍ عن إيمانه قيدقعه إلى إطلاق خضمِّ غدارٍ كسليمان ، وما كان  
يُورِّعُ به ماله من سخاءٍ فيكفي وحده لتبديد شهرة الاسكتلنديين بالبخل ، وحدثَ  
ذات يومٍ أن نفدَ عنده ما يمكن أن يساعد به مريضاً من حاشيته فباع الوسامَ  
الذهبيَّ الذي كان عاهلُ الصين قد أنعم به عليه .

وقائدُ هذا مزاجه كان لا بدَّ من تقلبه تقلباً خطراً ، فطوراً يبْدُو راحماً وطوراً  
يبْدُو قاصماً ، فقد أعرب عن تحنُّنه على أعدائه الذين خَرُّوا صرعى ، وذلك في  
كتابٍ أرسله إلى أخته التي ما انفكَّ يرسلها في أثناء نصف حياته ، وهو ، إذ كان  
يَتَّقُ بسهولة ، كان يَتَّقُو في معاينة من يخادعه ، وهو لم يتأخَّر عن إعدام من يرتشى  
من موظفيه ، وهو قد جعل زنجياً نجيةً <sup>(١)</sup> فداحنه <sup>(٢)</sup> هذا النجى ، وإذا ما وجبَ  
عليه في المارك وحين المخاطر أن يُقرَّر أمرًا حَظَرَ دخولَ أحدٍ عليه في خيسه يوماً  
بأجمعه ليرْجِعَ إلى التوراة ويُقلِّبَ الموضوعَ في قلبه ويسألَ في نفسه : « ما هو  
الخلْقُ ؟ ما هي حرية العبد ؟ ما هو الصَّيت ؟ » ، وما كان من تفكيره في الصيت  
ملياً ومن إنعامه النظرَ في المجد إنعاماً عاطفياً ، مثيراً للسخرية لا ريب ، فيكفي  
وحده لجعله جدًّا بآ .

(١) النجى : من تساره — (٢) داحنه : داهنه وخاتله :

وكان هذا الاسكتلندى الجبلى الواضع فى تورانه شريطاً أزرق أخضر أصفر رمزاً إلى قومه ، ضابطاً مهندساً ، ولكن التقوى كانت تُقرأ على سياه منذ صباه ، فكانت له هيئة القديس ميشيل حين استناده إلى إيمانه وسيفه ، حتى إذا ظهر مسيحٌ جديدٌ فى الصين عَيْنَ الكولونيل غوردون جنرالاً وفَوْضَ إليه أن يقاتله ، ويُوفَّق فى ذلك ، ويُقال مع التوكيد ، مؤخراً ، إنه أُنقذ الصين ، وكان ، بين بعثاته إلى الأستانة والقدس ، يعود إلى إنكلترة فى كلِّ مرة ويُبشِّرُ حصناً ، ثم يستأنف سفره إلى الخارج ويَزْهَدُ فى النساء ظاهراً على الأقلِّ من غيرِ مَسْحِ قَدَيسٍ ، ولو كان أطولَ مما هو عليه قليلاً لأَوْحَى رَوْثَه الوردى الحسن ومُحْيَاهُ<sup>(١)</sup> المُشْرِقَ المتناسق وعيناه الرائعتان بمثال الاسكتلندى الجميل ، وقد كان فى الأربعين من عمره حينما وَصَلَ إلى السودان .

وَمَنْ يَكْ ذا نفسٍ نَفِيَّةٍ يَبْذُ أَكْثَرَ تسامحاً تجاه المجرمين من رجل الدنيا الذى لا يَفْقَهُ سببَ الجرم أبداً ، وفى سنة ١٨٧٤ يرسل إسماعيلُ غوردونَ حاكماً للنيل الأعلى ويُفَوِّضُ إليه فَتَحَه من أَجْلِ مصر ، فيكثرُ لفتح هذه المنطقة أَكْثَرَ مما لمكالفة الرِّقِّ ، ويُفَضِّلُ أَنْ يَكْسِبَ قلوبَ الزنوج أَكْثَرَ من مقاتلة العرب ، وما كان مِنْ عبوره النيل سابجاً بالقرب من دوافر جُوبَا غيرَ وَجَلٍ من التماسيح ومن إمساكه بندقيته عالياً قد نال به احترامَ الزنوج ، وقد انتشرت على طول النهر قِصَّةُ الأبيض السابج حاملاً بندقيته بيده اليسرى .

وبَعْضَى عامان فيصبح غوردونُ حاكماً لجميع السودان ويُبْشِرُ من الحَقْدِ مثلاً أثارَ يسكر ، وكان ملكَ الزنوج الزَّيْيرِ من القُوَّةِ ما يستطيع معه أن يَطْرُدَ ملوكَ

(١) الحيا : الوجه .

دارفور الذين ظَلَّ الملك في آلم خمسئة سنة ، ولكنه ، ككثير من الأفاقين ، لم يَعْرِفْ أن يقاوم رغائب الخديو فانجذب إلى القاهرة حيث مُنِعَ من العود ، ولما أراد غوردون دعوة سليمان بن الزبير ، الذي كان دون أبيه قيمةً ، إلى سلوك سبيل العقل لم يدعُه إلى محكمته ولا إلى ضيافته ، ولم يُوجِّهْ إليه كتابٌ قويَّةٌ مع مدافع ضَخْمَةٍ ، وإنما استفتح التوراة وسار نصرانياً ، لا حاكماً ، ويغامر في الصحراء مع متي فارس ، ويحُثُّ بعيره ، ويقطَعُ كلَّ يوم ، وبين مرحلة ومرحلة ، مئة كيلومتر ، حتى يَبْزُرَ وحده أمام عدوه ، ويدخلُ مُحَيَّمَ الأشرار والزوج رويداً رويداً متوكلاً على الربِّ وعلى زَرَدَه <sup>(١)</sup> المذهب ، وهل كان من الممكن أن يَعْرِفَ أناسٌ من التَمَجِّجِ وضعه ؟ هم لم يَمْشَوْه بسوء ، ووَعَدَ سليمانُ بمعاينة المذنبين ، ولما أدرك الحرسُ غوردون دُعُوا إلى وليمة ، وخُيِّلَ إلى غوردون أن الحقَّ ومقامه العالي انتصرا على الرذيلة ، وما كاد غوردون ينصرف حتى عاد كلُّ شيءٍ إلى ما كان عليه ، وهناك أرسل الإيطاليُّ الباسلَ جِسِّيَّ مع جيشٍ حقيقته ، لا مع زَرَدٍ مُذْهَبٍ ، فقلَّبَ جِسِّيَّ سليمانَ وقتله ، وهناك حرَّرَ الزوج الذين لم يُعْتَمُوا أن عَتَوْا <sup>(٢)</sup> ، وطَرَدَ العربَ الذين مُنُوا <sup>(٣)</sup> بالبطالة ومُلِثُوا غِيظاً وانتشروا في جميع المنطقتة ، وكان التحولُ مفاجئاً إلى النهاية ، وتلاشى النخاسون وتلاشت النخاسة من غير إنغاءٍ للسبب ، وقد نشأ عن مقاصد أولئك الرجال الرائعة : أن جميع من يَقْبِضُ في السودان على المال والسلطان ضدَّ الحكومة المصرية التي أحالت سلطتها إلى هؤلاء الأوربيين .

(١) الزرد : النوع المزروعة يتداخل بعضها في بعض — (٢) عتا : استكبر وجاوز الحد .

(٣) منى به : أسهب به .

ويفادر غوردون السودان مغاضباً كما صنع ييكر منذ سبع سنين ، ويضع مواهبه وخدمته تحت تصرف إنكلترة ، ويترك غوردون البلاد بعد إصلاحات عشر سنين على السنة البريطانية ، وما حدث من مكافأة العرب النوبيين في سيل السود فقد ضاعف القوضى بدلاً من تنظيم البلاد وإمتاعها بالسلم ، والسودانيون ، مع السنين ، يمتنون بالتدريج حكومة خلقت للوك المحليين لستمع بأطياب النعم عند مصب النيل هنالك بفضل مظالم الباشوات ، وكان الأغنياء يتفقون على الإفلات من الضرائب وعلى الإبراء بتجارة العاج والرقيق ، وكان الفقراء لا يعرفون شيئاً غير كونه هؤلاء الكلاب النصارى يطالبون الخديو المديون بإبطال النخاسة ، وكان ما في سبب تحريرهم من دنس يكفي لاحترازم ، وقد حظرت الحكومة المصرية على التجار بيع الشمع ، وريش النعام ، وجلد بقر الماء ، والبنباوات ، والعاج على الخصوص ، محتكرة هذه الأشياء .

وكان جنود الخديو ، إذا ما بلغوا واحة ، يسكرون فيها على حساب البدوى أن يؤدّى ما عليه ، فإذا رفق ذلك ربط بنخلة أو جرد إلى مجرى جاف حتى تآنى زوجه بالي أو أنعام ، وعلى هذه الأساليب كانت تقوم أجرة الجندى الذى لا يدفع إليه راتب فى سنوات وجعل رئيس القبيلة الذى يطالب بأكثر مما يطلب الجندى منه ، وكان شياه الأعراب يتركون غلايتهم ويفرون مع أنعامهم إلى سهب منيع ، وكان الفلاح المكلف بضريبة عن حقله وعن كل واحد من أفراد أسرته يدع أرضه بوراً ويتوجه نحو منابع النيل الأبيض ويقطع طرقاتاً أو يبيع رقيقاً ، ويؤخذ من كل شيء خرج ، يؤخذ من الناعورة التى هى مصدر الحياة فى شواطئ النيل ، ومن النخلة ولو غطت من الثمر ، ومن ختان الأولاد ، ويؤاد إلى الخرطوم باشا

عابدٌ للذهب كان غوردون قد عزَّله وكان يسير على غرار أسلافه ، ويُنصب هذا الباشا مدفعاً ويسميه قاضياً ، فكان كلُّ من يعاشره يُقاد إلى هذا القاضى ويُربط أمام فوهته ويُمزَّق لإرباباً بذيذةٍ تَطْلُق منه .

وحوالَى سنة ١٨٨٠ ، وفى أثناء ذلك الاستعداد العام بالسودان ، كانت جميع الأحوال حَيَالِي لِتَلَدِ حزباً قومياً اجتماعياً ، وكان لا بُدَّ من خطيبٍ شعبيٍّ يَحْدُ كلمة السرِّ حتى تَلْبِعه ملايينُ الآدميين مع عَمَى كَمَى بصيرةِ البيض .

## ٩

كان محمد أحمد فقيراً فى صباه ، وكان قد أُذِلَّ فى صِغَرِهِ ، وكان له ، ككثيرٍ من حديثى النعمة ، حَظُّ الجُبُوطِ بَدْءَ أمره لِمَا اشْتَدَّتْ به عَزِيزَتُهُ وما اكتسبه به من عنادٍ ، وكان ابنَ فقيرٍ نُويِّ صانعٍ لقواربٍ من خشبِ النخل بين السَّلَالَاتِ فى دُنْقَلَه ، ويلازم شيخاً فلم يستظهر سوى أسماءِ النِّبْيِ التسعِ والتسمينِ ، ويتعلم الكتابةَ والقراءة بعد حينٍ فَيُبِيعُ ، ليعيشَ ، قِطْعَ ورقٍ مشتملةً على طَلاسمَ ضِدِّ السَّحَرِ والمرضِ ، وَيُلُومُ ، ذاتَ يومٍ ، معلمه لخالفته حكماً دينياً وَيَقْضِبُ عليه معلمه ويعاقبه بوضعِ مِلْقَطٍ حَوْلَ عُنُقِهِ لاسيَ لنِراعهِ المبسوطة ، وَيَطْلُبُ محمدٌ العفوَ صاغراً ، ويفدو خادماً لدى مديرِ مدرسةٍ لتعليم القرآنِ عدوٌّ أزرَقَ لذلك للمعلم .

وَيُقْبَلُ هذا الآبِقُ بقبولٍ حَسَنٍ فى المُعَسَّكَرِ للقبالِ ، وَيُبْصِرُ انصافه ثلاثةَ أُمُوزٍ نافعةٍ فيه: يُبْصِرُ أن اسمه محمدٌ ، وأنه جليلُ العينين ناعمُ الشعر ، وأنه أفرقُ الثَّنَايا وذو خالٍ على خَدِّهِ الأيمنِ ، وَيُدْرِكُ أن قومَه السَّاخِطِينَ اليائسين محتاجون إلى زعيمٍ ، وَيُقَسِّرُ ، وهو اللِّسَنُ ، فى قدرته على تمثيلِ هذا الدورِ ، ولكنَّ كان يجب



عليه أن يَبْدُو ناسكاً ولياً في بدء الأمر ، أو أن يَعِيش منزوياً مع مشاهدة الجميع إياه ، وأين يَقْضَى حياةَ ولى ناسك مع توجيهِ الأنظار إليه ؟

ويذكرُ أن أحدَ أعمامه كان يَصْنَعُ زوارقَ في جزيرةٍ كبيرةٍ واقعةٍ في مجرى النهرِ القوقازيِّ من الخروطوم ، أى في مكانٍ مركزيٍّ رائعٍ مناسبٍ لناسكٍ مرئيٍّ من كلِّ ناحية ، وكانت جميعُ الزوارقِ تمتدُّ على شواطئِ هذه الجزيرة ، وكان كثيرٌ من الزوارقِ يَقِفُ هنالك للإصلاح ، وكان حُجَّاجُ مكةَ الآتون من الغربِ وتجارُ الرقيقِ الآتون من الجنوبِ يَمُرُّونَ أمامها ، ويستقرُّ محمدٌ هنالك مثلَ ولىٍّ إِذَنْ ، وذلك مع تقديمه زوجيته كفاستلين عنده ، وذلك مع اقتصره في طعامه على الخَضِرِ والثَّمرِ ، وكان يتلو القرآنَ وَيُغَنِّي بِشعره الجليل الطويل ، وكان يَتَطَيَّبُ بالعنبرِ الثمين فيُشِيرُ برأئحته الزكية حُبَّ الاطلاعِ لدى الجميع ولا سيما النساء ، ويَمُرُّ بضع سنين فيُعَرَفُ ولى جزيرةً أباً في كلِّ مكان ، ويأتى الأولادُ لمشاهدة خاله الجليل وتقبيل ثوبه الأبيض كالثلج ، وتأتيه النساء بالمال ، وَيَطْلُبُ الجنودُ والفلاحون طلاسَ منه ، يَطْلُبُها الجنودُ للوقاية من مزاريقِ عِبَادِ الأصنام ، ويطلبُها الفلاحون لِحِفْظِ مواشيهم من الأوبئة ، وكان محمدٌ يُدْعَى بالزاهد لتوزيعه على الفقراء جميعَ ما يأتيه من الهبات ، وذلك عن جهلٍ بأن فقراء الجزيرة هم الذين يُمَوِّنُونَهُ ، وإذا حدث اتفاقاً أن جاوز النيلَ وَتَنَزَّهَ على ضِفْته هازجاً<sup>(١)</sup> أو منشداً حاملاً طاساً يدهُ سُمِّيَ « الأَبُ الأَفْلَج »<sup>(٢)</sup> ، وَحَيَّاه الجميع .

وكان محمدٌ يَنْتَظِرُ حَيَّ يومه مع صَبَرٍ شَرَفٍ يكون به دِلْعُياً أَمَرٌ من العربيِّ

(١) مزج اللغى في غنائه : ترنم وطرب في غنائه أو قراءته — (٢) الأفلج : من تباعد ما بين أَسْناثه .

العصبي ، وذلك مع ملاحظته صامتاً ذلك الهيجان التزايد الذي يصفه له اللاأخون الآتون من جميع جهات السودان للرَّسُو في جزيرته ، وأخيراً يُنبئُ مردييه بقرب ظهور المهدي المنتظر ، أي المسيح الذي أخبر به القرآن ، والواقع هو أنه منذ قرون ، وفي كل مرة يتمخض الإسلام عن ثورة ، يُخبرُ رجلٌ بظهور المهدي ، بظهور مُرْسَلِ النبي الذي يُتِمُّ عمله ويقوم مقامه ، ويُبَلِّغُ محمدٌ أمرَ ظهور المهدي ، وجميعُ الناس يقولون مُرَدِّدين : « سَيَظْهَرُ المهدي ، ومن يكون المهدي ؟ » .

ولم يخامر السلطات شَكٌّ في الخططوم ، وحظَرَ الحاكمُ على بواخره أخذَ حطبٍ من جزيرة أبا ، وسَحَلَهَا على التمهّل عندها داعيةً للسافرين إلى الصلاة بصَفَّارَاتٍ بخارية ، ويردُّ موظفٌ قبطيٌّ عالٍ إلى الجزيرة ذات يوم ، ويُقدِّمُ الوليَّ الجليلُ إليه شراباً ، وتَقْطُلُ الجرة المشتملة عليه مملوءةً ، ويقصُّ القبطيُّ على الباشا نبأ هذه الكرامة فيُدْهَشُ الباشا .

ويُصِرُّ محمدٌ رَعْنٌ<sup>(١)</sup> أولياء الأمور ، وتخاصمَ زعماء الأحزاب ، وزيادة فاقة الشعب ، ويرى أن عليه أن يؤمنَ بنفسه حتى يؤمنَ الناس به ، ويعزِّمُ على إعلان مَهْدِيَّتِهِ ، ويأبى بمُرِيدِهِ إلى تحت النخيل في جزيرته ويقصُّ خبرَ رؤياه في الليلة الماضية ، يقصُّ عليهم أنه رأى كتيبةً نيرةً من الملائكة والأولياء والصالحين تُحِيطُ به وأنه رأى النبي محمدًا نَزَلَ إليه لابسًا بُرْدَتَهُ الخضراء وقال : « هذا هو المهدي ، فمن لم يُصَدِّقْ بمَهْدِيَّتِهِ قد كَفَرَ بالله ورسوله » ، ويركعُ التلاميذُ أمامَ وَلِيِّهِمْ صامتين مرتجفين ، ويقول المهديُّ لهم : « اعلَمُوا يا أصحابي أني المهديُّ المنتظر ! » ، ثم يدَّعي أنه من ذرية محمدٍ وأنه سُمِّيَ باسمه لتلك السبب ، وأن الله جعل من

(١) الرعن : الحماقة

السَّمة التي على وجهه آيةٌ على كونه صَفيّه ، أَجَلٌ ، كان المئاتُ من الناس مستعدين للإيمان به ، ولكنه كان محتاجاً إلى مليونٍ حتى يَقُودَ حزبه إلى النصر ، وفي ذلك الحين يَتَرُكُ وضعَ الوليِّ وَيُرْسِلُ أُمَحاءَه إلى أنحاء البلاد ليعلموا ظهوره المُعْجَز :

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، الحمد لله الوليُّ الكريم ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله مع التسليم ، وبعد فَمِنَ العبد المقتدر إلى الله محمد المهديِّ بن عبد الله إلى أَحِبَّائِي فِي اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ وَبِكُتَابِهِ . . . ثُمَّ تَفَضَّلَ اللَّهُ عَلَيَّ بِالْخُلَافَةِ الْكُبْرَى ، وَأَخْبَرَنِي سَيِّدُ الْوُجُودِ (ص) بِأَنِّي الْمَهْدِيُّ الْمُنْتَظَرُ وَخَلَفَنِي بِالْجُلُوسِ عَلَى كُرْسِيِّهِ بِحَضْرَةِ الْخُلَفَاءِ وَالْأَقْطَابِ ، وَأَيَّدَنِي اللَّهُ بِالْمَلَائِكَةِ وَالْأَوْلِيَاءِ . . . ثُمَّ أَخْبَرَنِي سَيِّدُ الْوُجُودِ (ص) بِأَنَّهُ جَعَلَ لَكَ عَلَى الْمَهْدِيَّةِ عَلَامَةً ، وَهِيَ الْخَالُ عَلَى خَدِّي الْأَيْمَنِ ، وَكَذَلِكَ جَعَلَ لِي عَلَامَةً أُخْرَى : تَخْرُجُ رَايَةٌ مِنْ نُورٍ ، وَتَكُونُ مَعِيَ فِي حَالَةِ الْحَرْبِ يَحْمِلُهَا عِزْرَائِيلُ فَيُثَبِّتُ اللَّهُ بِهَا أَصْحَابِي وَيُنْزِلُ الْعِصْبَ فِي قُلُوبِ أَعْدَائِي فَلَا يَلْقَانِي أَحَدٌ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَّا خَذَلَهُ اللَّهُ . . . ثُمَّ قَالَ لِي النَّبِيُّ (ص) : إِنَّكَ مَخْلُوقٌ مِنْ نُورٍ عَنَانِ قَلْبِي ، فَمَنْ لَهُ سَعَادَةٌ صَدَّقَ بِأَنِّي الْمَهْدِيُّ الْمُنْتَظَرُ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ جَعَلَ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ يُجِبُّونَ الْجَاهَ النِّفَاقَ فَلَا يُصَدِّقُونَ حِرْصًا عَلَى جَاهِهِمْ . . . وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ » .

وهكذا لم يتبدع المهديُّ رِسالَتَه الرَّبَّانِيَّةَ قَطُّ ، بَلْ تَوَعَّدَ بِاسْمِ اللَّهِ جَمِيعَ مَنْ هَمَّ فِي شَيْءٍ مِنْ أَمْرِهِ أَوْ يَنْتَقِدُونَهُ ، وَكَانَتْ سِيَاسَتُهُ تَسْتَنْدِ بِإِلَى عَقِيدَتِهِ مَا دَامَ الْقُرْآنُ دَسْتُورًا مَدِينًا أَيْضًا وَمَا دَامَ الشِّيُوخُ مَفْسِرِينَ لِلشَّرِيعَةِ وَحَمَاهُ هَذِهِ الشَّرِيعَةُ الْجَدِيدَةُ مَعًا ، وَكَانَ لِهَذَا الزَّعِيمِ الْجَدِيدِ بِالْقُرْآنِ ، الَّذِي هُوَ أَيْسَرُ لِأَوَّلَى الْأَمْرِ الْمُطْلَقِينَ مِنَ التَّوَرَةِ ،



١٧ — ظاء في الصحراء



ما تَرَعَبَ فيه من حُكْمٍ ، وفي القرآن : « وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقَاتِلُونَكُمْ ...  
وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ ... »

وَيَتَدَخَلُ الحاكم المِصرِيُّ الجبانُ الذي خَلَفَ غوردونَ بعد الأوان ، فيرسل  
مراقبه إلى الجزيرة لِيَدْعُوَ المهديَّ إلى الخرطوم ، فاسمع تحاورهما :

— أنا المهديُّ ، ويجب على الباشا أن يؤمن بي !

— وكيف تُثَبِّت ذلك ؟

— لما يَحِلُّ وقت ذلك .

— سيُؤَنَّى بمجنودٍ لمقاتلك .

— سيتعلمهم النبل .

وترُسلُ باخرةٌ مع ثلاثمئة رجلٍ ومدفعٍ لحاربتِه ، وإنها لترسوُ أمام الجزيرة إذ يتنازع  
الضباط الثلاثة قيادةَ الكتائب ، ولا تَعْرِفُ الكتائبُ تلك الأرضَ فتسير قبل طلوع  
الشمس على غير هدى ، ويُبَاغِتُهُم مريدو المهديِّ ، ولا يَجِدُ المدفَعُ باروداً ولا قنابلَ  
على الضفَّة ، ثم يُطْلِقُ النارَ في الهواء إلى أن كُسِرَتِ الحملة وعاد رجالُها إلى الباخرة  
بعد أن هَلَكَ نصفُهُم ، ويتحدَّثُ الناسُ في السودان عن انتصار المهديِّ العجيب .  
والآن ينطلقُ الزعيمُ لِيَجْمَعَ في جميع الأوساط أكثرَ ما يُمكن من الأنصار ،  
وهو يُبَشِّرُ الفقراءَ بالشيوعية ، وهو يقولُ بإلغاء الإتاوات والقضاء على كبار الملاك ،  
وهو يُشَدُّ بفضائل الفلاح ، وهذا ما أدَّى إلى اتهاب بعض الأغنياء وقتلِهِم ، وهو  
في الوقت نفسه يجتذبُ أربابَ رؤوس الأموال ببراہين دينيةٍ ويُصْرِّحُ بأن الترك  
والألبان ، أي الجبَّاة والحُكَّام ، غيرُ أهلٍ لِيُعَدُّوا مسلمين وأن إطاعتَهُم غيرُ  
واجبة ، ويخاطِبُ هذا « الزعيمُ » مشاعرَ القوم الوطنية والاجتماعية على هذا الوجه

فَيَجْتَمِعُ تحت رايته طبقات متعادية ومنافع متناقضة ، وَيَصْحَكُ أغنياء النوبة منه ويسرون معه لِمَا يَلُوح من حمايته أموالهم ضدَّ القوضى ، وَيَتَّقُ الصعاليكُ بكلامه الشيوعيِّ القُحْم ، وَيُسْرِ العُربُ بإمكان عودتهم إلى تجارة العبيد الذين لم يَلْبَثُوا أَنْ تَبَرَّمُوا من حُلِّ محرميهم الأوربيين إياهم على العمل والذين اعتقدوا خَلَاصَ أعدائهم الزُرَق ، البَقَّارة ، من البيض ، وهكذا كان جميع هؤلاء الناس يَرَجُونَ إنقاذهم من وَضعهم الموجب للنوط .

ويحتاج المهديُّ إلى عِلْمٍ بعد الآن ، وهو شَبُه المَهْجِي الذي يُدْرِكُ قيمةَ العِلْمِ عند شباه الهَمْج ، وَتَحْفِقُ أعلامه الخُضْرُ والخُمْرُ أمامه في أسفاره بين النيل الأبيض والأزرق أو في دارفور ، وَيَزِيدُ أتباعه بين يومٍ ويومٍ لَوَعْدِهِ إياهم بما يَوَدُّون ، يَبْدُو أَنَّهُ كان محتاجاً إلى كيلين ، يَضْرِبُ أحدهما بالسيف وَيَدْعُو الآخرُ إليه الناس ، وهو ، مع قيامه بالدعوة رأساً ، وهو ، مع عبادة ألوف الناس إياه ، كان محتاجاً إلى رئيسٍ يُدِيرُ أمرَ الدعوة ، وإذ أن المِهْنَ في السودان لم تَدْخُلْ مِمْنِ دوائر من الاختصاص حتى ذلك الحين فإن أعرايياً ذا أنفٍ كبيرٍ وذا آثارٍ من الجُدَرِيِّ فيه صار عاملَ دِعايته ورئيسَ حريته ، واسمُ هذا الأعرايِّ عبدُ الله ( التعاشي ) ، وكان أكبرَ من المهديِّ سنّاً ، وكان في سنة ١٨٨١ في الثالثة والثلاثين من عمره ، وكان من البَقَّارة التي هي أشدُّ قبائل النوبة بأساً ، وما حَدَّثَ من قَبْلِ في السنين العَشْرِ الأخيرة فآدى إلى استئصاله هو وعشيرته ، وَيَسْقُ طريقه ويبدو مستعداً لكل شيء ، وَيَهَبُ نفسه لهذا الوليِّ الجديد ، ويقوم الحُسام مقامَ الكلام ، وَيُدَوِّي طبلُ الدراويش الكبيرُ في طول السودان وعرضه ، ويكون آية انتقالٍ طبيعيٍّ بين السيف والإعلان .

وهناك يجب أن يُفنى بالمظاهر والبرّات التي هي أداة كل حركة شعبية لدى  
 الهمّج من البيض والسود على السواء ، ويُطلق اسمُ الدراويش على اسم الجيش  
 الذي أوجده المهديُّ بسرعة ، ويلبّس الدراويش « الحُجَبَة » ، وهي قميصٌ أبيضٌ  
 مُزَيَّنٌ يَقَطَعُ من نُسُجٍ بُقْعٍ ، ويؤدي الدراويش يمينَ مبايعة المهديِّ بِشَبْكِ  
 الأيدي ، ويرافق خليفة المهديِّ ، عبدُ الله ، زعيمه في كلِّ مكان ، ويتقدمه علمٌ  
 أسودٌ ويصلي بصوتٍ عالٍ ، ولا يبالي بغير أمرٍ واحد ، بغير محاربة « الترك »  
 الذين أذلّوا قبيلته والذين نشأ عن دفعه ضرائبَ إليهم تَزْعُ قِطَاعَهُ منه ، ومع ذلك  
 تدعو الطبولُ مختلفَ العناشير ، خارجَ الأكوام ، فتتضخمُ الكتاباتُ المقدسة بذلك ،  
 وتكاد تُقطعُ حناجرُ الدراويش بفعلِ القذوِّ والصُّراخ ، ويصابون بضربٍ من  
 الهذيان عند رفع أصواتهم بذكر أسماء الله .

وهذا الزعيمُ القوميُّ ، وهذا القاتلُ بالعودة إلى العادات القديمة البسيطة ، وهذا  
 المهديُّ ، كان يَسْجُنُ جميعَ من لا يؤمنون به ويصادر أموالَ جميعِ من لا يُمدُّونه  
 بالمال ، وكان يَنْصِبُ المشانق على حين تَشَدُّ مئاتُ السِّياطِ المصنوعة من جلد  
 وحيد القرن<sup>(١)</sup> إيمانَ الناسِ برسالته ، وكان الوليُّ مع ذلك ، وكان اللثامُ من  
 الوُعَاظِ يُذيعون أنه الإمامُ الثاني عشرُ الذي أخبر به القرآن ( ١ ) والذي ينتظره  
 الإسلام منذ اثني عشرَ قرناً لِيَتَفَيَّ الإيمانَ ويَحْمِلَ الناسَ على مذهبه ، ويُبلِّغَ الجهادَ ،  
 وتَجِدُ النساءَ على تَبَضٍّ دَجَاجَةٍ رموزاً ، فيُعلنُ الدراويش أنها الحروفُ العربية  
 الأولى لاسمِ الزعيمِ الأكبر ، وكان المهديُّ يَمَعْلُ لإثارة زائريه بابتسامه ودموعه ،  
 وبما ذكره غوردون في يومياته أن المهديَّ كان يَصْعُقُ قُلُوبَهُمْ تحت أظافره كما اكتشف

(١) وحيد القرن : الكركدن .



ذلك أحد اليونان ، فما كان عليه إلا أن يُمرَّ يده على عينيه حتى يبكي متى أراد . وكان المهديُّ يجعل الأسطورة ملائمةً له عند عدم انطباقها عليه ، أجلٌ ، إنه كان غير مؤثّرٍ في القبرات فلم يحفَّ عند ظهوره ولم يدلَّ على الذهب في مجراه ، غير أنه أبصر في إحدى الرؤى تحولَ جبل ماسَّه من سلسلة درن<sup>(١)</sup> ، الذي كان يجب أن يخرج منه المهديُّ الجديد ، إلى جبل قدير بالسودان ، وينهب محمدٌ إلى الجبل غير الحقيقيِّ محاطاً بجمع عظيم ، أى يرافقه جيشٌ مع نساءٍ وأولاد ، ويُفسِّكر هذا الجمعُ في الشفوح ويوقدُ النساءُ والأولاد نار الحية بأصواتهم بدلاً من أن يكونوا سببَ إزطاج ، ويهبُ المهديُّ عبَّاده أجلَ بناتهم ليكون أزواجاً له ، وتُنصبُ خيامهن حولَ خيمته في الجبل ، ويداوم على تمثيل دور الوليِّ مع ذلك !

وبعضُ مواعظ المهديِّ في الجبل شَفْهُىٌ ، وبعضها خطيٌّ ، ويُذيع المهديُّ هذه المواعظ في بلاغاتٍ لاحقة تُنقلُ بقنوات<sup>(٢)</sup> الجنود ، ويُصرُّ المهديُّ على أصله ، ويؤكد أن خالَ خدَّه هو منبعُ قوته الأدبية ، ويذكر أن جميع العلام أصبحت واضحةً ، ويستبدل كلمة محمد أحدَ بكلمة محمد في جملة : « لا إله إلا الله ، محمدٌ رسول الله » الألفية ، ويحتمل أنه أولُ خطيبٍ عصرى أدرك أن الأكنوبة إذا ما كرَّرت باستمرار اكتسبت مسحةً من الحقيقة .

ويُعين أربعة خلفاء كالنبيِّ فيما مضى ، ويضعُ تحت إمرة كلِّ واحدٍ منهم زعماءُ مساعدين ، ويتتبع نظاماً معقداً من الأعلام المختلفة الألوان ويجمع الخليفةُ عبدُ الله جيشاً عظيماً من جميع السودان في أثناء هذه الاحتفالات والخطب ورفق الرايات .

(١) جبال درن ( Atlas ) : واقعة في المغرب الأقصى — (٢) القنوات : جمع القناة ، وهي الرمح أو عوده .

وَصَحَّ الإنكليز في القاهرة حدًّا للهَرَجِ والمَرَجِ وَفَقَّ مصلحتهم ، وَضَرَبَ الإنكليزُ الإسكندريةَ بالمَدافعِ في أثناءِ فتنَةٍ وأعلنوا ضرورةَ إعادةِ الأَمْنِ إلى نِصابِهِ وقبضوا على زمامِ السلطةِ ، ولاحَ ، بعدَ هذا النجاحِ ، استعدادُهُم للمغادرةِ السودانَ ، ومع ذلكَ ، وعلى الرغمِ مما حُدِّرَ به الكولونيلُ الإنكليزِيُّ هيكسٌ من قِبَلِ حكومتهِ ، وعلى الرغمِ من معارضةِ مُعْظَمِ الضباطِ المصريينِ ، نَظَّمَ هذا الكولونيلُ الذي كانَ مستخدماً لدى مصرَ جيشاً لمقاتلةِ المهديِّ وإِيقاظِ السودانِ .

وَيُعَدُّ هيكسٌ للهزيمةِ منذُ البَدْءِ لَجَهْلِهِ لَفَةَ البلادِ ، ولاتخاذِهِ أدِلَّةً من الأعرابِ يُضَلُّونَهُ ، ولاستعمالِهِ من الأسلحةِ العصريةِ ما لا يَنْفَعُ في حربِ العِصَابَاتِ وفي الصحراءِ ، وَيَبْدُو عَامِلانِ متناقضانِ في المعركةِ الحاسمةِ ، فمن جِهَةٍ ترى المصريينِ مُجَهَّزِينَ بأسلحةٍ حديثةٍ ، ولكن من غيرِ أن يَعْرِفُوا كيف يَنْتَعُونَ بِهَا في كُلِّ حينٍ ، ومن جِهَةٍ أُخْرَى ترى جيشاً يَجُولُ في مقدمتهِ رؤساءُ لابسونِ دُرُوعاً وَزُرُوداً وَحَلَقاً لوقايةِ الدَّرْعَانِ والسِّيْقَانِ كما لو كانوا من الصليبيينِ ، وَتَرَى سودانيينِ صَاحِبِينَ راقصينَ يَتَّبِعُونَهُ هَارِيزِينَ مزاريقَهُم ، وَتَرَى زُنُوجاً عُرَاءَ رَامِينَ أَقْوَامَهُم في الهواءِ ، ويسيرُ ضابطُ إنكليزِيٍّ لا بَسَ بِذِلَّةٍ صَفراءَ نَظْفِيَّةٍ وَقَابِضٌ عَلَى مُسَدَّسٍ حديثِ نَحْوِ أميرِ نوبِيٍّ لا بَسَ بِعِمامَةٍ من حريرٍ وَبُرُتُاسٍ مُخْتَلَفِ الألوانِ ، وَمُزَهِزٍ سِيفَةٍ الأَحَدِ الكبيرِ وَهَامِزٍ<sup>(١)</sup> حِصَانَهُ العربيِّ ، ويكونُ هذا النوبِيُّ غالباً في كُلِّ مرةٍ .

(١) هز القرس : نخسه بالهماز ليمسو .

وَيُقْفَى عَلَى الْجِيْشِ الْمِصْرِيَّ فِي الْمَسَاءِ ، وَيَكُونُ الْكُولُونِيلُ هِيْكَسُ مِنْ آخِرِ مَنْ يَخْرُونَ ، وَيُوثَقُ بِرُؤُوسِ ضَبَاطِ الْإِنْكَبِزِ الْمَقْطُوعَةِ كَقِفَائِمَ ، وَلَمْ يُفَلِّتْ مِنَ الذَّبْحِ غَيْرُ ثَلَاثِمِثَةِ رَجُلٍ عَلَى مَا يُرْوَى .

وَالْمُهْدِيُّ بَعْدَ النَّصْرِ يَصْبِحُ الْبَطْلَ الْحَبِيبَ ، وَالْمُهْدِيُّ بَعْدَ النَّصْرِ يَصْبِحُ سَيِّدَ السُّودَانِ كُلِّهِ تَقْرِيْبًا ، وَالْمُهْدِيُّ يَغْبُرُ النَّيْلَ وَيَدْخُلُ الْأَبْيَضَ ، وَيَتَقَدَّمُهُ دُرُوشٌ حَامِلٌ عَلَى حَرْبَتِهِ رَأْسَ الْكُولُونِيلِ هِيْكَسِ الْمُتَحَجَّرِ ، وَأَخِيرًا ، وَبَعْدَ أُسَابِيْعَ ، يُنْزَلُ الدُرُوشُ هَذَا الرَّأْسَ لِكَيْ يُقْبَلَ التَّرَابُ أَمَامَ حِصْنِ الْمَغَامِرِ الْمَاكِرِ ، وَكَانَ السَّيْفُ الَّذِي يُحْمَلُ أَمَامَ الْمُهْدِيِّ خَاصًّا بِسُلْطَانِ دَارْفُورَ ، وَكَانَ يَشْتَمِلُ عَلَى كِتَابَةِ لَمْ يَسْطِيعَ أَحَدٌ حَلَّهَا ، وَهِيَ : « الْإِمْبَرَاطُورُ الرُّومَانِيُّ شَارْلُ الْخَامِسِ » ، وَمِنْ الْمُحْتَمَلِ أَنَّ كَانَ السَّيْفُ لِصَلِيبِيٍّ مُتَمَوِّقٍ حَارِبٍ قُرْصَانِ الْجَزَائِرِ ، فَوَقَعَ السَّيْفُ بَعْدَ مَوْتِهِ بَيْنَ يَدَيْ قِبَائِلٍ مَتَوَحِّشَةٍ ، فَانْقَلَبَ مِنْ يَدٍ إِلَى يَدٍ حَتَّى انْتَهَى إِلَى الصَّحْرَاءِ السُّودَانِيَّةِ ، وَهَكَذَا يَصِيرُ سِلَاحُ إِمْبَرَاطُورٍ نَصْرَانِيٍّ مَتَدِينٍ آيَةً لِنَصْرِ الْمُسْلِمِ النَّوْبِيِّ .

وَأَضْحَى الْمُهْدِيُّ يُؤْمِنُ بِرِسَالَتِهِ بَعْدَ تِلْكَ الْاِتِّصَارَاتِ ، وَيَعْبُدُهُ الْجَمْعُ ، فَيَقْفِدُ رَشْدَهُ وَيَتَقَلُّ فَيَزِيدُ عِدَدَ نِسَائِهِ مَقْدَارًا فَقْدَارًا ، وَيَلْبَسُ ثَوْبًا حَرِيرِيًّا أَصْفَرَ وَعِمَامَةً خَضْرَاءَ وَفَتَوْرَهُ نَوْبَاتُ رَحْمَةٍ وَجَوْرَ ، وَيَسْتَوَلِي عَلَيْهِ جُنُودُ الْعِظَمَةِ فَيَعَاقِبُ رَجُلًا جَلَّ اللَّهُ فَوْقَهُ ، وَيَقُولُ إِنَّ الرِّجْلَ ، وَإِنْ كَانَ صَادِقًا فَيَا أَبَدَاءَ ، فَقَلَّ ذَلِكَ مَهْجَمًا ، وَيَفْدُو خَلِيفَتَهُ رَئِيسَ الْمَجْلِسِ فَيَشْفُلُ بِاللَّهِ ، عَلَى الْخُصُوصِ ، بِأَجْزَاءِ النَّسَاجِ الَّتِي تَخَاطَ عَلَى يَزْبَتِهِ الرَّسْمِيَّةِ ، وَيَتَقَدَّمُ هَذَا الْخَلِيفَةُ ، إِذَا مَا خَرَجَ ، رَجُلٌ فِي صُورٍ <sup>(١)</sup> مِنْ عِلَاجٍ ، وَيَذْهَبُ أَحَدُ الرَّجُلَيْنِ ضَحِيَّةَ الْمَلَقِ الْعَلِيْمِ ، وَيَذْهَبُ الْآخَرُ

(١) الصور : الْقَرْنُ يَنْفُخُ فِيهِ ، الْبُوقُ .

### أمر فظيع !

خبيّة عُنْفُه ، وكان المهديّ صوّلاً ماهراً عند تطلّعه إلى السُلْطة فاستفاد من ضنك شعبه وحنينه إلى وطنه ، وهو قد خرّج بذلك من الفقر والذلّ اللذين نشأ فيها ومَلَكَ بأسلوب استبداديّ جَمْعاً سِحْرَ بوعوده ، وما كان من خُفوق علمه ومن هُتاف جمهورٍ عن هَوَسٍ ومن ركوع هذا الجمهور أمامه قد أوجب إيمانه بأن رسالته إلهية ، ويَقْدِرُ آثرانه الباطنيّ بذلك ، وَيَقْضِي وقته في المظاهر والاحتفالات لذلك ، وتُساوِرُه أهوالاً جامحة فيَنطَلِقُ بأحكام قتلٍ وتراكم خطبَه ، ومِيتَه الله عما قَبِل .

وبَحِلُّ شهر نوفمبر سنة ١٨٨٣ ، وكان غلادسْتُن وسباركُ والملِكَةُ فيكتورِيَّة وولِيهِمُ الأوْلُ وكَرِيْسِي<sup>(١)</sup> والملِكُ هُنِيرْت<sup>(٢)</sup> وفَرَنْسُوا جُوزِيْف وليُونُ الثالث عشر<sup>(٣)</sup> ، يسيطرون على أوروبة ، ويكثرُ الجميع ، ماعدا الروس ، لتقسيم إفريقية التي كان جزء منها موزعاً قَبْل ذلك ، وكان انهيارُ مصرَ ، كدولةٍ حُرِيَّة ومالية ، نذيرٌ انقضاءٍ على إفريقية الشرقية ، وإذا عدت الحَبْشَة التي هي حصْنٌ طبيعيٌّ وجدت القارةَ بأسرها مُفْتَحَةً الأبواب لدول البيض وطُغْمَةً لها ، ولْيُذْهَبَ إلى هنالك ، ومِيقَتُصُّ من العرب والزنج سرياً .

ويَحْدُثُ أمرٌ فظيعٌ لم تَسْمَعْ بِمِثْلِهِ أَدُنْ ، يَحْدُثُ قَهْرُ ضباطٍ من الإنكليز ، وقَهْرُ فُرَقٍ مصريَّةٍ أَلْفَها هؤلاء الضباط ، مع ضَرْبِ أعناقٍ وإهانةٍ بعد الموت ، من قِبَلِ أخطائٍ من الأعراب والفلاحين والنوبيين والزنج ، وتحاول إنكلترة ، على غير جَدْوَى ، اجتنابَ مسؤوليةٍ يَفْرِضُها ماتَمُّ لها من سلطانٍ على مصرَ ، ومصرُ قد أُخْرِجَتْ من النيل الأوسط والنيل الأعلى اللذين استقرت بهما مدة ستين سنة ،

(١) كريسبي : من أقطاب السياسة الإيطالية (١٨١٩ — ١٩٠١) .

(٢) هنبرت : من ملوك إيطاليا ، وقد جلس على العرش سنة ١٨٧٨ (١٨٤٤ — ١٩٠٠) .

(٣) ليون الثالث عشر : أحد البابوات ، وقد انتخب باباً سنة ١٨٧٨ (١٨١٠ — ١٩٠٣) .

ولم يُصَبِّ الهمجُ أوربة النصرانية بمثل ذلك الخِزْيِ منذ قرون ، ويُكره سلاطينُ  
وُلِيتُنْ ، وأحدهما تَمْسُوى والآخرُ إنكليزى<sup>(١)</sup> ، وهما حاكمان لِنَطَقَتَيْنِ سودانيتين ،  
وهما باشوان بفضل الخديو ، على التسليم وعلى الركوع أمام المهديِّ للمبايعة وعلى  
الارتداد عن دينهما وعلى الجهاد ضدَّ النصارى الكِلاب ، والآن يَدُوْ هذان  
الرجلان ، اللذان هما من أبناء الطبقة الوسطى بِفِيْنَةِ ولندن ، العبدَيْنِ : عبد القادر وعبد الله ،  
والآن يسيران حافيين من جهتي الجواد المَطْمَ<sup>(٢)</sup> المَسْرَج<sup>(٣)</sup> الذي يَجُوبُ المهديُّ  
به الطُرُقَ والشُّهُوبَ ، أفلم تكن هذه آيةٌ تُدْعَى بها الشعوب والقبائل المَلُوْنة الأخرى  
إلى تحطيم الأغلال التي يُقَيِّدُها السادة البيض بها ؟

ولم تُفَكِّرْ أوربة في الانتقام مع ذلك ، فمددُ الأسارى من الأوربيين قليلٌ ،  
والأسارى من الأوربيين نَكِرَاتٌ ، والحوادثُ عن الأسارى الأوربيين غيرُ  
واضحةٍ ، ولو نظَرْتَ إلى الأمر من وجهة المصريين ، الذين يدير شؤونهم باريغ  
( اللورد كرومر ) منذ عام ، لوجدتَ الصحراء بين كتابهم وبين الثائرين ، وماذا  
كان أمرُ أولئك الجنود الذين غلبوا ؟ كان سلاحهم سيئاً سوء شوقهم وقوتهم  
الأدبية ، وكان أحرارُ الإنكليز يَرَوْنَ تضيقَ فِطَاقِ الاستعمار فيؤيدون غلادِستون  
الشائب الذي كان لا يبالي بإفريقية ، ويُقرِّر تركُ السودان واستردادُ حامية  
الخرطوم ، وكان القيام بهذا العمل يستلزم وجودَ ضابطٍ عارفٍ بالبلد متصِفٍ  
بنصيبٍ من الحكمة يستطيع به أن يحارب متقهراً غيرَ ساعٍ إلى مجْدٍ ، ولا يُنْتَظَرُ  
إنكارُ الذات هذ من صياد الأسلاب يكر ، ويُبْحَثُ عن هوأخبِلُ منه ، ويُفْتَرِ  
على غوردون .

(١) الجواد المَطْمَ : الجواد التام الحسن — (٢) أسرج القرس : شد عليه السرج .

ولكن غوردون ، كهتليت<sup>(١)</sup> ، لا يكون مجنوناً إلا إذا هبت الريح من الشمال والشمال الغربي ، وما كان يعرف ماذا يعمل في الساعة الحرجة ، وما كان يعرف هل يعمل بما يؤمر به ، وهو لذلك يصلح لحكومة متنافرة ورأى عامر متردد ، وما كان الجلاء عن السودان ليلوح في برنامج غوردون ، وغوردون كان قد صرح ذات حين بـ « أن السودان امرأة باتت عن بعلها المصري ، فإذا أرادت أن تتزوجه ثانية فدعها تفعل ذلك ، ثم يمكن أن يكون لنا شأن معها هناك » .

وكان قد أسدل على غوردون ستار النسيان منذ عودته من الخرطوم ، أي منذ خمسة أعوام ، وغوردون قضى هذه المدة في الصين والهند والكاپ وجزيرة موريس ، وغوردون قضى من هذه المدة عاماً في الأرض المقدسة ( فلسطين ) إنماء لقوته الأدبية ، وغوردون زار بلد اسكتلندة مرات كثيرة في أثناء ذلك ، وغوردون نال بذلك تجارب باطنية ، لا تجارب ظاهرية ، كما تشهد بذلك رسائله ، وغوردون أوشك أن يعود إلى إفريقية ليخدم الملك ليوبولد البلجي في الكونغو التي أبدى ستانلي نشاطاً غصاً في ارتيادها ، لا ليعخدم إنكلترة .

ويُدعى غوردون من بروكسل إلى لندن ، ويُقلىع عن خطته في الذهاب إلى الكونغو ، ويُقبل وكالة الأمة في أثناء مقابلة ، ولم يكن غوردون من القائلين بالجلاء ، ومن قول غوردون : « يعني وجود المهدي في الخرطوم رجوعاً إلى الحمجية وتهديداً لمصر » ، ويُعين غوردون ، مع ذلك ، من قبل وزراء يرتابون منه ، ويُذعن للورد كرومر مع اعتقاده أن حاكم الخرطوم السابق ذلك لا يوافق على الجلاء

(١) هملت : أمير غوتلندة الذي عرف أمره من أسطورة فرى أنه عاش في القرن الخامس ، وقد بلغ غاية الجنون في الانتقام لأبيه غنلاد شكسير اسمه .

عنها ، وَيَبْدُو الرَّأْيُ الْعَامُّ ، السَّيْطَرُ عَلَى الْكَثَرَةِ ، بِجَانِبِ غُورْدُونَ ، وَيَطْلُقُ الشَّائِبُ غُلَادِيسْتَن وَجْهَهُ فِي الظَّلِّ ، وَيُمَيِّزُ الْأَمْرَ بَرَقِيًّا بَعْدَ إِصْرَارِ ثَلَاثَةِ وَزَرَاءَ عَلَى ذَلِكَ الْأَمْرِ الْمَهْمِّ ، وَتَكْلَأُ الْأُمَةُ غُورْدُونَ بِرَغَابَتِهَا كَمَا لَوْ كَانَ ذَاهِبًا لَفَتَحَ بَلَدَهُ ، لَا لِلجَلَاءِ عَنْ قُطْرٍ .

وماذا كانت حالُ الرجلِ النفسيةُ حينما قَبِلَ تلكَ الرسالة ؟ هِيَ جَلُّ الْبَيْضِ والموظفين في الخرطوم آمِنين ، واستردادُ الكتائب ، وتركُ شبهِ حكومةٍ في هذه المدينة ، وكونه آخرَ من ينادر السودان من البيض ، والرجلُ جَهَرَ بغير ذلك قبل تعيينه بيضعة أيام ، والرجلُ يُجُوبُ الصحراءَ أعزلَ وحيداً لِيَبْلُغَ بلداً لا يكون له فيه سوى بضعِ كتائبٍ مرابطةٍ في الخرطوم ، والرجلُ إذا ما جاوزَ الشَّلَالَاتِ أَمَكْنَ العدوُّ أَنْ يُحِيطَ بِهِ فِي تِلْكَ الْمَدِينَةِ وَأَنْ يَقْطَعَ صِلَاتَهُ بِالشَّامِ وَبِالعالمِ للمتمدن ، والرجلُ ، قَدْ أَبْصَرَ ذَلِكَ عِنْدَمَا كَانَ ضَابِطاً لَا رَيْبَ ، والرجلُ ، سياسياً ، كَانَ يَعْرِفُ الْبَلَدَ وَلَا يَجْهَلُ قُوَّةَ جُمْهُورِ خُرَّصَ عَلَى التَّعَصُّبِ وَلَا دَرَجَةَ بُغْضِهِ لِلنَّصَارَى وَلِكُلِّ مُرْتَلٍ مِنْ مِصْرَ .

ولكن غوردون صليبيٌّ يعتمد على سيفه وعلى توراته ، ولكن غوردون فيلسوفٌ بوريتانيٌّ<sup>(١)</sup> يعتمد على ذكائه وعلى وجدانه ، أَجَلْ ، كَانَ غُورْدُونَ مُتَسَاعِماً إِلَى الْغَايَةِ فَكَانَ يَرْضَى بِأَنْ يُعْبَدَ الرَّبُّ عَلَى مِثْلِ وَجْهِهِ ، غَيْرَ أَنَّ الْمَجْدَ كَانَ يَهْزُهُ فِي جَمِيعِ حَيَاتِهِ فَيَرُدُّ جَمَاحَ رُوحِ الْمَجْدِ فِي نَفْسِهِ لِمَا يَنْطَوِي عَلَيْهِ الْمَجْدُ مِنْ دَسِّ دُنْيَوِيٍّ ، وَيُدْأَرِي رُوحَ الْوَاجِبِ فِي نَفْسِهِ كَكَثِيرٍ مِنَ النَّصَارَى السَّابِقِينَ ، وَكَانَ فِي الْخَمْسِينَ مِنْ عُمْرِهِ ، وَكَانَتْ حَيَاتُهُ حَافِلَةً بِالْمُفَاخِرَةِ فِي أَتْحَاءِ الْعَالَمِ ، وَكَانَ ذَا سَنْدٍ

(١) البوريتانية : شعبة من شيخ البروتستان الإنكليز .

قليل في الوزارة فلا يتصرف في غير وسائل ناقصة ، وكان كرومر في القاهرة محدود الثقة به ، وكان غلادستن يتحرّز منه ، غير أن رئيس أركان الحرب والمهندس والحاكم العارف بالصحراء والنيل غوردون كان كأسلافه ذا حنين إلى إفريقية وإلى عمله وإلى جنوده وزنوجه وإلى المآثر ، وإلى الموت على ما يحتمل .

ولم يبقَ شيء مما شاده هو ويكر في الخرطوم بعد غياب خمس سنين ، وما أشد ما يجب أن يكون عليه من شجاعة لكيلا يُفقد أمر الحكومة فلا يُفوّض الثعسكّر بأسرع ما يمكن ، وتشتمل برقياته المطوّلة إلى الحكومة على قرارات مطوّلة ، ولكنك لا تجد فيها اختلافًا حول رأيه الأساسي القائل إنه لا ينبغي أن تغادر البلاد ولا الخرطوم ، وكيف يُحصل على الجلاء ستون ألف شخص وجندى وموظف وامرأة بغير وسائل للنقل ؟ وهل يجوز ترك هؤلاء هنالك بعد أن استقبلوه كالنبيّ إيليا الذي ذكر في التوراة ؟ ولا يمكن من الناحية العملية ، ولا الناحية الأدبية ، تنفيذ الأمر الصادر ، ويسير غوردون مثل ضابط إذن ، فيخصّص الخرطوم ويتم عمل قناة طولها خمسة كيلومترات كان سلفه قد أراد بها أن يصل النيل الأزرق بالنيل الأبيض فيقطع بها خرطوم النيل ويقطد جزيرة ، ويقم الحصون في الجزر وينتفع بشفير<sup>(١)</sup> النهر ليقسّر الهجوم على هذه المدينة ، ويدرب كتابه ويشد عزائمها بخبراً يياها بورود جيش إغاثة ، لا يعتقد ، هو نفسه ، حقيقة أمره .

ويمحي غوردون البريتاني أمام غوردون الضابط ، كما كان كرومر ويل ، فلا يأمر بأن يحطّم أمام قصره ما كان يستعمله الباشوات الذين حلّ محلهم من الأغلال والسياط ، ويلبني حطّر اقتناء الرقيق قاصداً بذلك نزع سلاح ممالى

(١) شفير النهر : ناحية من أعلاه .



المهدي ، ويريد جلبَ ملكِ العبيد الزبير من القاهرة التي حُجِرَ فيها فيَجْعَلَ السلطةَ بذلك قَبْضَةَ السُّودَانِيَّ القادر وحده على مقاومة المهدي ، وهذه هي فكرةُ قُطْبٍ سياسي ، وهذه فكرةٌ تُجْتَنَّبُ في لندن لِمَا كَانَ مِنْ صُرَاحِ جَمِيعَةِ مَكَاخِفَةِ الرِّقِّ لِلوَلَفَةِ مِنْ سَادَةٍ لَمْ يَمِشُوا بَيْنَ وَحُوشٍ قَطُّ فَكَانُوا يَنْظُرُونَ إِلَى الْأَمْرِ مِنَ النَّاحِيَةِ الْخَلْقِيَّةِ بَدَلًا مِنْ أَنْ يَفَكِّرُوا فِي الْأَمْرِ لِيًّا ، وَمِنْ الْغَرَابَةِ بِمَكَانٍ أَنْ يَطْلُبَ ، عَلَى غَيْرِ جَدْوَى ، مُحَرَّرُ الْعَبِيدِ غُورْدُونُ مَلِكَ الْعَبِيدِ لِإِقْنَادِهِ ، شَأْنُ غُوسْتَايفِ أَدُولْفِ<sup>(١)</sup> الَّذِي أَسَاءَ إِلَى تَسَامُحِ كَنِيسَتِهِ الْخَاصَّةِ فِي أَوَاخِرِ عَمْرِهِ .

وَمَاذَا يُفَعَّلُ ؟ أَيْدَاعُ بِلَاغٍ يَعُودُ بِهِ الْبَلَدُ إِلَى مُلُوكِهِ السَّابِقِينَ ؟ لَقَدْ فَاتَ الْوَقْتُ ، أَمْ يَزُورُ الْمَهْدِيُّ لَابَسًا دَرْعًا مُذْهَبَةً كَمَا صَنَعَ لَدَى مَلِكِ الْعَبِيدِ مِنْذُ بَضْعِ سَنِينَ ؟ يُوضَعُ هَذَا التَّدْيِيرُ الْأَخْرَقُ فِي الْمِيزَانِ فَيُلَوَّحُ جَعْلُ صَاحِبِهِ عَبْدًا ثَالِثًا يَهْدُو بِجَانِبِ حِصَانِ الْمَهْدِيِّ ، وَيَبْدَأُ غُورْدُونُ بِمَرَضِ سُلْطَنَةِ كَرْدُفَانِ عَلَى الْمَهْدِيِّ ، وَيَعْرِفُ خَطِيبُ الشَّعْبِ هَذَا كَيْفَ يَقَابِلُ مِثْلَ هَذِهِ الْأُمُورِ بِحَذَرٍ ، فَيَقُولُ فِي رَفْضِهِ هَذَا الْعَرَضَ إِنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَفْرِضَ عَلَيْهِ السُّلْطَانُ ، وَيَذْكُرُ مُحَمَّدُ الْمَهْدِيُّ لِلْإِسْكُوتْلَنْدِيِّ الْيُورِيَانِيَّ مَاذَا قَالَ سُلَيْمَانُ لِمَلِكَةِ سَبَا : « أَتُمِدُّونِي بِمَالٍ ، فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ ، بَلْ أَنْتُمْ يَهْدِيْتُمْ تَفَرُّحُونَ ، ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا ، وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ » ، وَيَحَاوِلُ الْمَهْدِيُّ أَنْ يَسْتَشْهَدَ أَيْضًا بِعِيسَى الَّذِي عُدَّ فِي التَّرَاثُفِ نَبِيًّا عَظِيمًا ، وَيُصَرِّحُ غُورْدُونُ الْمُطْمَئِنُّ إِلَى تَوَارِثِهِ بِعَدَمِ صَحَّةِ ذَلِكَ .

(١) غُوسْتَايفِ أَدُولْفِ : هُوَ مُلْكُ اسْرُوجِ الْهَابِيَةِ غُوسْتَايفِ الثَّانِي الَّذِي جَلَسَ عَلَى الْعَرْشِ سَنَةَ

١٦٦١ (١٥٩٤-١٦٣٢) .

وَيُضِيفُ الْمَهْدَى إِلَى جَوَابِهِ هَدِيَّةً مِنْهُ مُؤَلَّفَةً مِنْ جُبَّةٍ درويشٍ وِرْدَاءٍ وَسِرِّوَالٍ  
وِعِمَامَةٍ وَطَاقِيَةٍ وَحِزَامٍ وَسُبُخَةٍ مَعَ قَوْلِهِ : « هَذِهِ كِسْوَةُ الزَّهَّادِ وَأَهْلِ السَّعَادَةِ  
الْكُبْرَى الَّذِينَ لَا يَبَالُونَ بِمَا فَاتَ مِنَ الْمُشْتَهَاتِ طَلِبَاءَ لِمَالَى الدَّرَجَاتِ ... فَإِنْ  
أَنْبَتَ إِلَى اللَّهِ وَطَلَبَتْ مَا عِنْدَهُ لَا يَصُغُبُ عَلَيْكَ أَنْ تَلْبَسَ ذَلِكَ وَتَتَوَجَّهَ لِلدَّائِمِ  
حَقْلُكَ ... » ، وَكَانَ لَدَيْ هَذَا الزَّاهِدِ الَّذِي يَكْتُبُ ذَلِكَ دَائِرَةً حَرِيمٍ تَحْتَوِي أَكْثَرَ  
مِنْ مِثْلِ امْرَأَةٍ !

وَيَتَبَسَّمُ غُورْدُونَ وَيُسَجِّلُ فِي يَوْمِيَّتِهِ قَوْلَهُ : « يَلُوحُ لِي أَنَّ الْمُسْلِمَ يَخَافُ اللَّهَ كَمَا  
يَخَافُهُ ، وَالْمُسْلِمُ ، بَعْدَ إِخْلَاصِهِ ، نَصْرَانِيٌّ مِثْلُنَا ، وَكُنَّا عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْوِثْقَةِ أ » ، هَذِهِ  
هِيَ حَالُ فِيلَسُوفٍ مُتَسَامِحٍ فِي حَيَاتِهِ الْخَاصَّةِ ، غَيْرَ أَنَّ هَذَا الْحَاكِمَ يَتَلَوُّ كِتَابَ  
الْمَهْدَى عَلَى مَنْ بَقِيَ مِنْ وَجْهِ الْخَرْطُومِ فِي اجْتِمَاعِهِ رَسْمِيٍّ وَيَطْرَحُ جُبَّةَ الزَّاهِدِ  
الْمُرْسَلَةَ إِلَيْهِ وَيَدُوسُهَا بِمِجْدَانَتِهِ الْعَسْكَرِيَّةِ .

وَيَتَأَهَّبُ كُلُّ مَنْ الْعَدُوِّينَ بَعْدَ تِلْكَ الْمَفَاوِضَةِ ، وَتَشْعُرُ قِبَائِلُ شِمَالِ الْخَرْطُومِ أَنَّ  
غُورْدُونَ يَهْدِدُهَا مِنَ الْجَنُوبِ وَأَنَّ الْكِتَابَ الْمُعْلَنَ عَنْهَا تَهْدِدُهَا مِنَ الشِّمَالِ  
فَتَتَحَازَرُ إِلَى الْمَهْدَى نَهَائِيًّا ، وَارْجِعِ الْبَصَرَ إِلَى ذَلِكَ الْإِنْكِلَبِيِّ تَجِدُهُ مَعَ بَعْضِ  
الْكِتَابِ قَدْ فُصِّلَ عَنْ بَقِيَةِ الْعَالَمِ مِنْ قَبْلِ خَمْسِينَ أَلْفِ درويشٍ ، وَالْبَرْقُ وَحْدَهُ  
هُوَ الَّذِي ظَلَّ بَاقِيًا ، وَيُوعَدُّ بِالْمَدَدِ بَرْقِيًّا فِي نَهَايَةِ الْأَمْرِ ، وَهَلْ يَصِلُ إِلَيْهِ الْمَدَدُ فِي  
الْوَقْتُ الْمُنَاسِبِ ؟ وَالْحُكُومَةُ الْمِصْرِيَّةُ عَاجِزَةٌ ، وَالْحُكُومَةُ الْإِنْكِلِيزِيَّةُ حَائِزَةٌ ، وَمِنْ  
الْمُحْتَمَلِ أَنَّ كَانَ غِلَادِسْتَنْ يَضَعْنَ عَلَى ذَلِكَ الرَّجُلِ الَّذِي أَدَّى تَمَرْدَهُ إِلَى الْحَمْلَةِ الْعَسْكَرِيَّةِ  
الْحَاضِرَةِ كَمَا يَضَعْنَ عَلَى زَمَلَانِهِ لِإِرْسَالِهِمْ غُورْدُونَ رَاجِعِينَ أَلَّا يُنْفِذَ الْأَوَامِرَ الصَّادِرَةَ  
إِلَيْهِ ، وَفِيمَا كَانَ غِلَادِسْتَنْ يُؤَخَّرُ إِرْسَالَ الْمَدَدِ حَمَلًا لِعُورْدُونَ عَلَى مُقَادَرَةِ الْخَرْطُومِ

كان غوردونُ عازماً على البقاء فيها إبقاءً للسودان ومصرَ قبضةً إنسكثرةً ، ونُشْنُ حَمَلَةٍ صحافيةٍ في أغسطس سنة ١٨٨٤ قُتِسِفِرَ عن فوز الوزراء القائلين بالتدخل ، بَيْدَ أن الكتائب التي كانت تستطيع إنقاذَ الموقف في شهر ما يو لم تذهب إلا بعد ثلاثة أشهر .

وَبَصِرَ غوردونُ ما يُعَدُّ من نَكْبَةٍ ، وبَيَذَرُ الحقيقةَ سافرةً في برقياتهِ إلى اللورد كرومر ، ويدَعِ الحوادثُ تُسَيِّرُهُ فيما بعد ، ويُقَرِّرُ بنفسه ما هو ضروريٌّ من الأمور ، وقد يسير نحو خطِّ الاستواء « وأدْعُكُمْ عُرْضَةً لِمَا لَا يَمَحِى بِتَرْكِ حَامِيَةِ الخرطوم » ، ويقول في يومئذ : « نحن قومُ أُسُوياء <sup>(١)</sup> » غير أن الدُّبْلَمِيَّاتِ منا ما كرون عاطلون من الشرف المهنيُّ » .

وَيَحْكُمُ العاقلُ في أمر التمعصب بإنصافٍ أعظم مما يَحْكُمُ به التمعصبُ في أمر العاقل ، فيزدرد <sup>(٢)</sup> اللورد كرومر الإهانةَ ويمتدح غوردونَ بعد حينٍ لخلوهِ من نفاقِ القوم .

وَيَتَّفِقُ النيلُ وغلادستن على عدم خلاص غوردون ، وبما حَدَثَ أن أرسل غوردونُ كُتَيْبَةً نحو دُفْلَةٍ وأن كُسِرَتِ الباخرة الحاملةُ لها في شَلَالٍ وأن ذَبَحَ الدراويشُ غُرَفَاها ، ويَحِلُّ فصلُ الخريف فيتنازع النُّبِيُّ الأَسْوَدُ والمُؤْمِنُ الأَبْيَضُ ، وَيَزِيدُ ما يَجْمَعُهُ الخليفةُ حَوْلَ الخرطوم مقداراً فقداً ، ويحاول الحاكمُ أن يُحوِّلَ هذه المدينة إلى حصنٍ فيَحْفَرُ خنادقَ وَيُسَيِّطُ فوقها خَيْشاً <sup>(٣)</sup> ، وَيُصْنَعُ خُبْزٌ من الجُمَارِ <sup>(٤)</sup> والصَّمْغِ وتوزَعُ الجَرَايَاتُ بين الأهالي ، وتُضْرَبُ النقود ، وَيَشُدُّ

(١) الأُسُوياء : جمع السوي ، وهو المستوى الخلق الذي لا عيب فيه ولا داء — (٢) ازدرد اللقمة : بلها وأسرع — (٣) الجيش : نسيج خشن من الكتان — (٤) الجار : شحم النخل .

غوردون عزائم ألف الآدميين الذين صاروا يُبصرون تضيق نطاق الحصار ويرون ما يحيق بهم من الدمار إذا ما وصل الإنكليز متأخرين .

ويقسم المهدي بصفة النيل الأبيض الأخرى في أم درمان التي استولى عليها في ديسمبر ، فإذا خرج من دائرة حريمه ، التي أخذ يطيل المكث بها ، وصعد في سطح بيته العربي الأبيض أمكنه أن يبصر وراء النيلين سطح القصر القوي الذي يسكنه عدوّه ، وهو إذا ما استعمل المنظار استطاع أن يتبين شبح غوردون لقضائه ساعاتٍ على سطح قصره الذي هو أعلى نقطة في الخرطوم ، وإن شئت قل استطاع أن يعرف تريستان<sup>(١)</sup> الجديد مترباً سفينة الخلاص من الشمال ، ومن المحتمل أن كان غير منتظر شيئاً ، ومن المحتمل أن كانت توابه نبوة الشهداء الذين لا يكادون يرغبون في الإنقاذ ، ويُقطع خط البرق ويُمنع من كل اتصال بالعالم وينقاد لتردده النفس ويُنشئ يوميته ، ويرسم فيها صوراً هزلية للورد كرومر وللوزراء ، ويُعجب بمهارة خصمه مع خلوي من القرض أفلاطوني كثير على قائدٍ ومع محافظة على نشاطه مفكراً في حال جميع من وثقوا به .

حتى النيل يخس<sup>(٢)</sup> بالمهد في نهاية الأمر ، فقد هبط مستواه أكثر مما في فصول الشتاء الماضية ، وبنهار ما بناه غوردون من متاريس<sup>(٣)</sup> وأسوار ، ويكون متسع واسع بينها وبين النهر ، فلا يكون للمحصورين وقاية به إلا عند عدم جفافه ، وتزيد الجماعة وتكتظ الشوارعُ بجثث الناس والجمال ، وتحوم العقبان فوق الخرطوم ولا يصل إليها صفيح باخرة ، ويريد غوردون أن يرى المحصورين أن قائدهم

(١) تريستان : رجل أسطوري في القرون الوسطى .

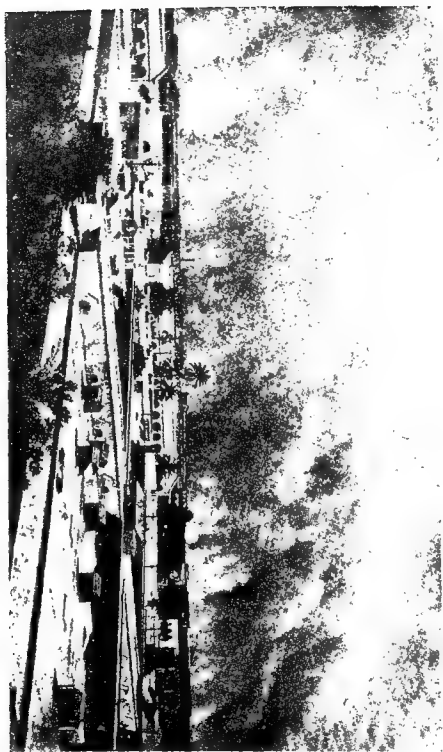
(٢) خاس بالمهد : نكت وغدر ، وخاس بالوعد : أخلف .

(٣) المتاريس : جمع المتراس ، وهو ما يستتر به من العدو كالحائط .

لا يخاف قتابل المهدى فَيُنِيرُ نوافذَ قصره ، وتَبِيضُ جميعُ خُصَلِ غوردون الشُّعْرَ في الأسابيع الأخيرة من حياته ويَكْتَسِبُ قبل خاتمته بأسبوعين إلى أخته قوله : « قد يكون هذا آخرَ كُتْبِي إِلَيْكَ ، فقد عَوَّقَ المَدَدُ كثيراً ، واللهُ هو المُسَيِّرُ ، وَلَيْكُنْ ما يُريدُ ، أُجِدُّنِي سعيدياً تماماً . . . وأُحْمَدُ اللهَ على أني لم أَدَّخِرْ وُسْعاً في القيام بالواجب » .

ويَتَدَوُّ الجيشُ الصغيرُ الآتي من الشمال سبيَّ الحظِّ على النهر ، ويَتَرَدَّدُ عِدَّةَ أيام ، ويُطْلِقُ الدراويش ، العارفون بدوافع النهر والتَّوَارُونِ في الأَيْشِكَةِ ، ناراً على البواخر فيُكْرِهُونَ مَلَّاحِيهَا على الوقوف في كلِّ ساعة ، وَيَتَخَذُ هؤلاء المَلَّاحُونَ خَشَبَ النواعيرِ وَقُوداً لِقُدُورِ بواخرهم ، ثم يسير ذلك الجيشُ إلى الخرطوم من عَقْدَةِ النهر في الجَنُوبِ قاطعاً الصحراء ، وَيُبْصِرُ الخليفةُ سَيْرَ ذلك الجيشِ بضعةَ أيامٍ قِثَامُراً بالهجوم على المِصْرِ المحصور منذ ثلاثمئة يوم ، ويرى غوردون في الصباح ، ومن سَطَحِ قصره ، زَحَفَ جيشِ الدراويش نحوَ الخرطوم .

وكان غوردون قد قرَّرَ قتلَ نفسه في مثل تلك الحال ، وتَحَوَّلَ وسواسُهُ الدينيَّةُ دون ذلك ، ويَوَدُّ أن يموت شهيداً ، وَيَبْذُوهَادئاً هدوءاً تاماً ، وَيَذْكُرُ مَوْتَهُ مقامه ويلبَسُ بذلته الرسمية البيضاء ويتقلد سيفه ومُسَدَّسَهُ وَيَنْزِلُ من الدرج حين اقتحام العدوَّ بابَ قصره ، وَيَتَرَدَّدُ جمعُ الدراويشِ بضعَ ثوانٍ عن خَوْفٍ ، ثم يَصْرُخُ أحدهم قائلاً : « اقتلوا عدوَّ الله ! » ، وَيُرْمِي بومح ، وَيَنْظُرُ إلى ذلك شرراً ، ويذكر شهوداً دُعُوا إلى مجلس القضاء فيما بعد أنه شَقَّ لنفسه طريقاً قابضاً على سيفه متوجهاً إلى الباب حيث خرَّ صريعاً بطعناتِ سيوفٍ وخناجرٍ ، ويُوْتِي



١٨ — زوبية رمل فوق الخرطوم



برأسه إلى المهدي ثم يوضع على رأس يزواق أمام منزله ويُرجم ، وكان هذا فاتحة مذهبة عظيمة في الخرطوم .

وفي القديع المهدي النيلين على باخرة غوردون ، وينهب لمشاهدة جثة عدوه المقطوع الرأس ، وتطرح الطرق بجثث آخر البيض والمصريين ، وتعذب النساء حلاً لمن على إظهار مخابي تقودهن ، ويرقص العبيد على سادتهم المختصرين ، وترش الكلاب مع أصحابها بالكحول وتُحرق ، ويقوم بضروب القبايحُ جهور هذاء<sup>(١)</sup> سير<sup>(٢)</sup> ينقم لنفسه من استعباد نصف قرن ، ويكون المهدي أول من يختار من يروقه من البنات والبنين الأسارى ، ثم يأتي دور الخليفة ، ويأمر الخليفة بحمل مغطس غوردون ومرآته إلى بيته في ضفة النيل الأخرى بأمر دُرمان ، وتحوّل الخرطوم إلى رماد .

ويعصى يومان على سقوط الخرطوم ، فتأتي كتائب اسكتلندية حاملة شعائر عشيرة غوردون ، وتبلغ جزيرة توبي ، فتستقبل برصاص البنادق ، وتكر على المدوّ وتصاب بالخبينة في الساقط ، ويهلك معظمها ، ويأتي من نجواً نبلاً ذلك إلى المعسكر في مجرى النهر التحتاني ، ويبدون صفراً الوجوه كالرسول في ختام مأساة يونانية .

ويستمن المهدي ويريم<sup>(٣)</sup> في السنوات الأخيرة فلا يعيش غير أربعة أشهر بعد النصر ، وكان منزل هذا الزاهد محاطاً بسلسلة من بيوت النساء حيث يكثر الذهب والتاليرات ، وكانت تجتمع له أكداً عظيمة احتياطية من الذرة كما لو كان يخشى القحط ، وكنّت ترى بجانب ذلك كومة عجيبة من الأدوات الأوربية ، أي كدساً

(١) الهذاء : الكثير الهذيان — (٢) السر : المجنون — (٣) يرم : يتفخ .



من المصاييح والعكبات والطابع ومن فانوسٍ سحرىٍ عُذٌّ من أجهزة السحر لدى التصارى .

فُتِحَ السودان ، وماذا يَصْنَعُ المهديُّ به ؟ لقد أرسلَ رُسُلًا إلى البلدان الأجنبية طالباً الإيمانَ به ، أَجَلٌ ، كانَ يَعْطُ الناسَ بنفسه في الحين بعد الحين كما في الماضى ، ولكنه تركَ الحكومةَ للخليفة فصار لا يُفَكِّرُ في غير الأكل والعناية بأمانة الحسناء التى ذُبِحَ زوجها وأبوها في الخرطوم تاركاً الدراويشَ وشبابَ الأنصار ينتازعون المناصبَ والأموال .

ويداوم المهديُّ في خارج منزله على لبسِ ثيابٍ من كَتَّان ، فإذا ما كان في بيته ارتدى ملابسَ من نَسَاجٍ ثَمِينَةٍ ، وهو إذا ما استلقى على وسائدٍ من سُندُسٍ <sup>(١)</sup> وإِسْتَبْرَقٍ <sup>(٢)</sup> أراحه نساؤه القاماتُ وراءَه بريشِ النعام ، ومَسَدَتُهُ <sup>(٣)</sup> نساءُ أُخَرَ ، ويلبسُ أَقْرَبُهُنَّ وَفَوْقًا منه ثياباً أُخَرَ من ثياب غيرهن ، وَيُبَاعُ الماءُ الذى يَفْتَسَلُ به والترابُ الذى يَطْلُوهُ من المؤمنين ، وَيَمْرُضُ ستة أيام ، ويموت مسموماً من قِبَلِ أُمِينَةٍ أَوْضَحِيَةٍ سَمَّاهُ .

وكان غوردون مخلصاً بأسلاً شريفاً صَنِيداً لا عَيْبَ فيه ولا يَرْهَبُ الرَّدَى غرّاً صريعاً وجيداً بطلمناتٍ جَمْعٍ من القَتَلَةِ ، وقد تَعَقَّبَهُ الخطيبُ الشعبى عن كَتَبٍ مُتَوَرِّمًا متنفخاً محاطاً بنساءٍ وأكياسٍ من ذَهَبٍ ، فظلَّ أَحَدُهُما مَلْعُونًا وَتَوَجَّ الآخرُ بِأَكْلِيلٍ أُسْطُورَى .

(١) السندس : رقيق الديباج ورفيعه ، والديباج ما كان سداه ولحمته حريراً .

(٢) الإِسْتَبْرَق : الديباج الثخين النسيج — (٣) مسده : أمر يده عليه شديداً ، والكلمة عامية ولا هم كلمة « ذلك » مقامها .

كان النيلُ قبضةَ قبائلٍ من الهَمَجِ وَدَّتْ لو تَسُدُّه ، وماذا يكون مصيرُ مصرَ لو وَقَعَ ذلك ؟ حتى إن النيلَ لو داومَ على جريانه ، حتى إن غَرِيْنَ النيلَ الأزرقَ لو داومَ على إخصاب الوادى ، ما حال ذلك ، ذاتَ يومٍ ، دون نزول تلك القبائل ، كأجدادِها منذ أَلْفَيَّ سنةٍ أو ثلاثةِ آلافِ سنةٍ ، إلى مصرَ للاستيلاء عليها ومراقبةِ ساحل البحر الأحمر وقطعِ طريقِ الهند على السفُنِ البريطانية ، وهل يَتَعَذَّرُ ذلك بعد الذى حَدَّثَ ؟

وَتُبْصِرُ أوروبةً مذعورةً كَوْنَ خِطَّتْها فى تقسيم إفريقيا أمراً يُمارَى<sup>(١)</sup> فيه ، ويكون للمستعمرين من الإنكليز ، بعد الآن ، بَطْلٌ تدعوم ذكراه إلى الجهاد والانتقام ، وَيَفْدُو غوردونُ رمزَ السلطان السيامى الذى يَحْتَمِلُ أن يكون قد حَلَمَ به فى ساعات انفراده على سطح قصره ، وإذا حدث أن أمةً لم تَقُمْ بالواجب نحو رجلٍ هَلَكَ فى سبيلها فإنها عَمِلَتِ الشئ الكثير من أَجْلِ ذكراه وفاءً لِمَا عليها تَجَاهه ، وقد حَفَزَت هذه العوامل كُلُّها إنكلترة إلى كِفاحٍ لم تُحِدهُ بعد هلاك الكولونيل هيكس .

وَيُنْتَظَرُ ثلاثَ عشرةَ سنةً مع ذلك ، ويسيطر الخليفةُ على السودان فيما بين سنة ١٨٨٥ وسنة ١٨٩٨ أو يحاولُ فَرَضَ سلطانه عليه إرهاباً ، ويبدأ الخليفةُ بقتل جميع من يضايقه من أقرباء المهدي ، ثم يَهْدِدُ مصرَ العليا فى الشمال والزوج فى

(١) مارى : جادل وتنازع .

الجنوب ودارفور في الغرب والجنبة في الشرق ، وينال نصراً أو يعانى كسراً في كل الجهات متآوبة ، وتنقص دول البيض المجاورة ، إنكلترة وفرنسة وبلجيكة ، بلاد السودان من أطرافها بلا قتال .

وتنمضى إحدى عشرة سنة بعد موت غوردون فيكون الحادث من الأثر ما يدفع إنكلترة إلى اتخاذ قرار ، قد أسفر سحق الطلاينة من قبل النجاشي منليك في عدوى ، في شهر مايو سنة ١٨٩٦ ، عن حمل الأحرار على إدراكهم ضرورة تدخل بريطانيا العظمى أو جلائها عن مستعمراتها ، والحق أن الدولتين الكبيرتين ، إنكلترة وإيطاليا ، غلبتا من قبل أناس ملوئين تابعين لبلدين بشرق إفريقيا متحاربين في ذلك الحين مع احتمال تحالفهما بين حين وحين ، وبحل وقت السير فقرر لندن أن تتدخل في السودان بعد معركة عدوى بأحد عشر يوماً .

وكان ذلك خلا عاماً ، وكان تقسيم إفريقيا قد تم تقريباً ، والأمة التي تحتل السودان تدعم إمبراطوريتها الاستعمارية اقتصادياً وعسكرياً وتسيطر ، بوجه خاص ، على الطريق الصالحة لفرنسة من الغرب وإنكلترة من الجنوب ، ولم تعد بريطانيا العظمى وسيلة لإطلاع مصر على ما يساورها بعد احتلالها قاصدة البقاء فيها لا ريب ، وأمكن بريطانيا العظمى أن تستند لبلوغ ذلك إلى ثلاث ظواهر متساوية بطولتها وهي : أن تنقذ ذلك القطر من القوضى وأن تحمي مصر وأن تنتقم لغوردون مع مننها توسع فرنسة أو ألمانيا من الغرب والجنوب ، وكان من الرأي السائد منذ بضع سنين أن يشك في فطنة الإنكليز ، وأن يمتدح حظهم أو المصادفات التي ساعدتهم ، وأما في الحال الراهنة فيجب أن يعترف لهم باتساع الدارك في سياستهم .

والنيل مصدر الحياة لمصر ، والنيل يقطع السودان ، حتى في الوقت الحاضر

يقول إنكليزى\* من أصحاب المناصب العالية إنه لا يحقُّ لإنكلترة أن تَجُرَّ إلى مصرَ خطرَ استيلاءِ أمةٍ ثالثة على النيل الأعلى فيكشف النقاب بذلك عن رغبة دولة فى الضمِّ لا تزال تروم النصرَ فى الحروب الاستعمارية ، وهكذا يذهب البريطانىُّ إلى الحرب ليُنقِذَ مصرَ ويقتنَ بها ويتمتعَ بما لها وجمالها ككثير من أبطال الأساطير . وتنتفع إنكلترة بتجارِها السابقة ، وتقتضى هذه الحملةُ رجالاً ومالاً أقلَّ مما اقتضته الحملة الأولى ، وتُكَلَّفُ بالنصر ، وتُقدِّمُ مصرُ المالَ والرجالَ لما زُيِّعَ من خطريِّ على سلامتها ، ولم يُنفَقِ الإنكليز غيرَ ١٠٠٠ و ٣٠٠ و ١٠ جنيه ، أى أقلَّ مما بذَّروه فى مقاتلة المهديِّ بمشر مرات .

أجلَّ ، يبدؤوا الانتصار أخصَّ من الانكسار على العموم ، غير أن الآلهة جعلت العرقَ وجهادَ اليوم أمام تاج النصر ، والصحراء بلا ماء تقريباً هى التى تمتدُّ من حدود مصرَ إلى الخرطوم ، أى بين الدرجة الثانية والعشرين والدرجة السادسة عشرة من العرض الشمالى ، وإذا اعتُمِدَ على النيل ودوافعه وانعطافه كان الملاكُ كما وقع لهيكس وغوردون ، والنيلُ هدَفُ الحملة ، والنيلُ أداةُ الفتح أيضاً ، والنيلُ لا يصلُحُ طريقاً للسير إلى الأمام ، ولا بُدَّ من خطِّ حديدى يقطع الصحراء ، ولا جبالَ ولا نهرَ هنالك ، ولا احتياجَ إلى صنْعِ أنفاقٍ أو إنشاءِ جُسُورٍ كثيرةٍ لذلك ، وهذا إلى أن انلُحَّ الحديدى دليلُ نشاطٍ أكثرَ من أن يكون آيةُ فتى ، فيُدِيرُهُ ضَبَّاطٌ ، والجوُّ ، لا الأرضُ ، هو العدوُّ الذى يجب أن يُفَهَرَ ، ويدخُلَ هذا ضمنَ إرادة الجنود الذين قرَّروا بذلك العمل .

وكان عمرُ القائدِ فى الصحراء يناهز الأربعين ، وكان رَصِينَ الوجه ، وكان أهيفَ طويلاً كثيرَ الشعر أسمرَ بفعل الشمس صحيحَ البنية مريناً إلى الغاية عند

ركوبه حصاناً على الخصوص ، وما كان حوله مزججاً إذا ما علم أنه نتيجة قَلَجٍ في العضل الأعلى لئنه اليسرى ، وما كان من وضعه القاتر ونفوره من الناس وصمته للتعجب فلا يجمعه نحل عطف ، وما كان من طراز مصافحته فيؤجى بأنه رجل لا يؤد أن يقع من الناس موقع الرضا ، وإنما يريد أن يؤثر فيهم .

وقفى شبابه منزويًا ، ورُبِّي في منزله تربية خاصة غير مستعين بمدرسة ولا ناد ، وما كان من اجتماع هذا الضابط القتي بزملائه ، ولو قليلاً ، فقد ألهم طموحه ، وكان نفوره ينطوى على إخلاص مطلق لمهنته وعلى شعور بالواجب كما عند الموظف البروسى ، وسواء عليه أوضع خرائط في قبرس أم وضع رسوم جسور في فلسطين لم يعيش غير وحيد عاداً أقل لؤم إهانة شاكياً رؤساءه إلى لندن في الحال ، وكان لا يؤجى بعطف إلى الرجال ولا إلى النساء ، وكان يفضل أن يخاف على أن يحب ، وقليل من الأصدقاء من كان يدافع عنه ، فإذا فعلوا ذلك فبحماسة وهوى ، وهو قد جرب جندياً وفارساً في إفريقية ، وفي غير معركة ، فحسر ذقنه على سواحل البحر الأحمر تقريباً ، ويمضى زمن وينال هذا المستبد مناصب عالية ويعاب على غفلته فيصنع في أثناء خدمه ما يؤيدها فيشتد غطرسة ويرتاح إلى زيادة خصومه ، وكان لا يضمنى إلى أحد ، وكان لا يمانى نفوذ أحد ولا يُنفذ غير ما عزم عليه فينتهى إلى نتائج رائمة .

ذلك هو الرجل الذى أنشأ الخط الحديدى من خلال الصحراء وهزم الدراويش وفتح السودان في سيل بلاده ، وكان كتشنر قد شاهد ضرب الإسكندرية بالقنابل في أثناء إجازة ، وصار كتشنر رئيساً لأركان حرب الجيش المصرى الجديد ، وصنع كتشنر ما استطاع لينظم حملة تنقذ غوردون ، ولو حُكم في أمر كتشنر بعد النظر

إلى ما حَقَّقَ لَوْجِدَ أَنَّهُ الوحيد الذي كان قادراً على ذلك ، ومن المحتمل أن لازمه هذا الرأي حينما كان راكباً ظهر الجبل منفرداً متتبِعاً إنشاء الخط الحديدي مفكراً في صُرُوفِ القَدَرِ الذي اختاره ليثَارَ بذلك الذي لم يُوقَّعْ لإنقاذه .

وأفكارٌ من ذلك الطراز مما كان يُسِيرُهُ في الغالب ، لأن كُنْشَرَ كان جَبَرِيّاً ، وما أدت إليه إقامته بالشرق وصلاته بالمسلمين أن تَمَكَّنَ منه هذا الاعتقاد بالمقدار الذي يلائم طموحه ، ومن العرب ، الذين كان يتكلم بلغتهم على قَدَرِ الإمكان ، اقتبس ما يناسبه ، اقتبس الإيمان بالقدر ورفض كلِّ قِشَاشٍ مع رجاله وتَذَوَّقَ الفنَّ الشرقيَّ ، وكان جامعاً للآثار فيأتي من الأسواق إلى قصره جالِباً لها محترزاً ، ويُعَدُّ هذا التلذُّذُ ، وتَعَدُّ الحديقة الروائية الحسنة التنسيق في جزيرة نيلية أمام أسوان ، مَظْهَرِيٌّ هوهِ الوحيدين اللذين يُبَيِّعُهُمَا ما يحترق في قلبه من طُمُوح ، وكان يُوقِّيْهِ إليه بالبريد فيطرح كلَّ شَيْءٍ جانِباً ويقرأ تقريرَ بُسْتَانِيَّةٍ في بدء الأمر ، وكان يُفَضِّلُ أن يتنزه تحت عُرْشِ الورد على أن يكون وحده على الدوام .

وفي سنة ١٩١٦ قَتَلَ كُنْشَرَ بِلْغَمِ الْمَانِيَّ حينما كان ذاهباً إلى روسية لِيَصُونِ الائتلافَ مِنَ التَّصَدُّعِ .

وفيما كانت الخطوطُ الحديدية تُنْمَدُ في الصحراء كان الخبراء في لندن يُصَرِّحُونَ بأن مشروعها مخالفٌ للصواب ، وفيما كان كُنْشَرَ يَرْمُمُ خِطَّتَهُ مع ضابط في خيمته بالقرب من وادي حَلْتَا كانت الكتائبُ المصرية ، والكتائبُ السودانية على الخصوص ، تُدَرَّبُ تدريجاً نظامياً ، وكان يَعْرِفُ سهولةَ انحلال عزيمة الشرق عند أقلِّ جُحُوشٍ ، وكان يَعْلَمُ درجةَ ضرورةِ الهدوء والنَّادِ وقوةِ المقاومة للقيام بذلك العمل ، وكانت كتيبةُ الخطوط الحديدية مؤلفةً من ثمانية رجل ، أى من أخلَّاطِ

جميع شعوب شمال إفريقية الشرق ، أى من الفلاحين وأشرى الدراويش والدُّنكا والشُّلك ، وكان لا بدَّ من تعليمهم وَضْعَ العوارض وربطَ الخطوط وتسميرها ، وفيما كانت الكيلومترات الأولى من الخطوط الحديدية تُوغَلِ مستقيمةً في الصحراء كان فتيانٌ من الزوج يَجْلِسُون تحت النخل ويتعلمون الأبجدية المورسِيَّة<sup>(١)</sup> ويتخصصون في أمور البرق .

ويَبْدُو الخطُ الحديدى غيرَ مؤدِّ إلى شيء في البداية ، ثم يتجلى ككلٍّ أمرٍ يُحَقِّقُ وفقَ خطةٍ أُحْسِنَ حسابُها ، وتُمدُّ الخطوط الأولى فينقلَ عليها قُوَّةُ ثلاثة آلاف رجل ، ومقدارُ متزايدٍ من القِضبان الحديدية والعوارض ، ومن الماء على الخصوص ، ويُفْتَتَرُ إلى الوقت والنقد ، ويجب أن يَتِمَّ العملُ قبل الشتاء ، ولم يُوجد ما فيه الوِقاية من هجومٍ يَشْتَبُه أعراب الخليفة فيبيدون به هذه العِصَابَة المعادية التي ليس لديها من الماء ما يكفي لأكثر من شرب ثلاثة أيام ، ومما حدث ذات مرة أنهم قَوَّضُوا الخطَّ للنتهى عند الشلال الثالث والنِّى أنشأه إسماعيل باشا سنة ١٨٨٤ .

وَيُوجِبُهُ كَنتشنر مُفَرَّرَةٌ من وادى حلفا إلى مجرى النيل الفوقانى حفظاً لذلك الجزء من النهر على حين يُفدُّ في السَّير إلى أبى سَحد بأقصى مُنْعَطَفِ النهر في البُصُوب الشرقى ، ومسافة ذلك خمسة كيلومتر ، وذلك الجزء هو أصعبُ ما في الخطَّ وأقفره ، ويتقدمُ عمالُ الصحراء أولئك من بين الرمال والجنادل ، خالين من خرائطٍ ومن خطوطٍ بَرَقٍ ومن لاسلكيٍّ ، غيرَ مهتدين بسوى البوصلة والفِرْجار والنجوم ، ويتساءلُ عمالُ الصحراء أولئك ، دَوَّماً ، عن إمكان ملاقاتهم العدوَّ أمامهم ،

(١) نسبة إلى الرسام والمالم الفيديوى الأمريكى مورس الذى ولد سنة ١٧٩١ ومات سنة ١٨٧٢ .



١٩ - سفر من خلال السهوب





وَيَتَّبِعُ المهندسين في كلِّ عشرة كيلومترات إلى الأمام ألف وخمسة شخص  
يُمَهِّدُونَ الأرضَ وألف شخص آخر يضمنون الخطوط الحديدية ، وفي كلِّ أربعة  
أيام تَتَقَدَّمُ طليعةُ فِئَةٍ عسْكَرِيَّةٍ عشرة كيلومترات مع ما يَحْمِلُهُ القِطَارُ الأول من  
غِمْ لِيْفِرْ بُول وماء وادى حَلْفَا ، وذلك كَأَمْ عَطُوفٍ تَأْتِي أَوْلَادَهَا بِفَدَاءٍ في أثناء  
نَزْهَةِ ، ويُتَدُّ في اليوم الواحد نحو خمس كيلومترات من الخطوط الحديدية .

وَيَرْقُبُ جَوَاسِيسُ الدِراوِشِ ما يَقَعُ ، وَيُخْبِرُونَ الخَطُومَ أَنَّ التَّنِينَ  
الْقَوْلَاضِيَّ النَّافِثَ لَلْهَبِ يَقْتَرِبُ مَقْدَاراً مُقَدَّرَافاً ، وَالْآنَ يَدْعُوهُ الدِراوِشُ بِالْبَاخِرَةِ  
عَلَى الدِوَالِيبِ ، وَهَلْ يُخَرَّبُونَهُ مِنْ جِهَةِ النَّيْلِ ؟ وَتَتَوَّرُّ عَاصِفَةٌ مُسَاعِدَتُهُمْ فَتَدْمُرُ عَشْرِينَ  
كِلِوْمِتْراً مِنْ الخَطُوطِ الْحَدِيدِيَّةِ فِي نِصْفِ سَاعَةٍ ، وَيَتَقَدَّمُ الرِّجَالُ الْبَيْضُ مَعَ ذَلِكَ ،  
وَيَبْدُو الرِّجَالُ الْبَيْضُ أَنْسَاءً لَا يُقْبَلُونَ مَعَ ذَلِكَ ، فَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ عَلَى السُّنَنِ فَيَجَاوِزُ  
الشَّلَالَاتِ ، وَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ فَوْقَ الْأَيْتِي<sup>(١)</sup> فَيَجُوبُ الصَّحْرَاءَ وَيَسْبِقُ الْخَطَّ  
الْحَدِيدِيَّ ، وَمَاذَا يَحْدِثُ لَوْ هَزَمَتْ كِتَابُ الْخَلِيفَةِ فِي أَبِي حَمْدٍ تِلْكَ الْكِتَابُ الْمَوْلِيَّةُ  
وَجَهَّاهَا قَبْلَ النَّيْلِ الْأَعْلَى ؟ وَمَاذَا يُصْبِحُ التَّنِينَ الْقَوْلَاضِيُّ إِذَا ذَاكَ ؟ يَبْدُو أَنَّ الْإِنْكِلِيزَ  
يَسْتَوْلُونَ عَلَى أَبِي حَمْدٍ ، وَتَلْحَقُ بِهِمْ طُلَافِعُ الصَّحْرَاءِ وَمُجَمِّمُهُمْ كَالْقَمَلَةِ الَّذِينَ يَسِيرُونَ  
مِنْ طَرَفٍ نَفَقٍ فَيَلْتَقُونَ فِي نَقْطَةٍ مُعَيَّنَةٍ مُقَدَّمًا ، اللَّهُ أَكْبَرُ ! هَا هُوَ ذَا النَّيْلِ ، هَا هُوَ  
ذَا الْمَاءِ ، وَيُمْكِنُ بَعْدَ الْآنَ أَنْ يُخَفَّ إِلَى مُسَاعَدَةِ بُنَاةِ الْخَطِّ الْحَدِيدِيِّ وَإِعْدَادِ  
الْأَرْضِ فِي الْجَبُوبِ حَتَّى مَصَبِّ الْعُطْبَرَةِ .

وَيَمُتِّعِي الْخَرِيفَ وَالشِّتَاءَ ، وَيَكُونُ كَتَشَنَرُ فِي بَرَبَرٍ فِي شَهْرِ مَارِسَ ، وَيُعَدُّ  
سَاحِرًا لِمَا يُلْقِيهِ خَطُّهُ الْحَدِيدِيُّ مِنَ الرُّغَبِ أَكْثَرًا مِمَّا يُلْقِيهِ جُزُودُهُ ، وَيَنْطَوِي

(١) الْأَيْتِي : جَمْعُ النَّاقَةِ .

سلطانُ التَّيْنِ الفولاذيُّ الحافلُ بالأسرار وحركاته التي لا تُدرِكها الأفهام على قَدَرٍ لا يَتَرَفُّ الرِّحَةَ ، ويَحْمِلُ سودانيُّو بَرَبَرٍ مَرَضَامٍ إلى القاطرة لِيَمْسُوهَا ، وبالأَمْسِ كان لَمَسُ تَوْبِ الخليفةِ يَكْفِي الشِّفاءَ . واليوم يتوجهون إلى التَّيْنِ الذي سَيُفْنِي الخليفةَ .

ويُدْخِرُج نهرُ العطيرة غُرَيْنَ جبالِ الحَبَشَةِ ومياها ، يَدَّ أَنَّهُ يجب أن يُنْصَبَ الجِسرُ عليه بسرعة ، وَتُتَبَّهُ الشركةُ الأمريكية ، وقد فُوضَ إليها أمرُ إنشائه ، في اثنين وأربعين يوماً ، وَيَبْلُغُ طَوْلُهُ ٣٤٠ متر ، وَتَمُرُّ عليه إنْكَلترة لَتَفْتَحَ ملتقى النيلين ، وذلك بفضل ميكانيين <sup>(١)</sup> من الأمريكيين وعمالٍ من الإفريقيين .

وفي صباح اليوم الثاني من شهر ديسمبر سنة ١٨٩٨ ينقضُ الجيشُ المؤلف من ثمانية آلاف إنكليزيٍّ وثمانية عشر ألفَ مصريٍّ بأسلحتهم الحديثة على جيش الدراويش الضَّخْمِ في أمِّ دُرْمان الواقعة على الصَّفَّةِ اليسرى من النيل الأبيض ، وكانت هذه آخرَ معركةٍ روائيةٍ في القِصَّةِ لَمَّا تَحَلَّلَها من حِمَلاتِ فرسانٍ والتحامٍ بالسلاح الأبيض . واصطراعٌ كُتِبَ الفُوزُ فيه للبسالة الشخصية والبُطُولَةِ ، ولمشاهدٍ تُدَكِّرُنَا بألواحِ المعارك ، وتُشابهُ تلكَ المُلحمةَ معاركَ فردريك الأكبر التي وَقَعَتْ منذ مئةٍ وخمسين سنةً أكثرَ من مشابهتها معاركَ الحرب العظمى التي اشتعلت بعد ستِّ عشرة سنةٍ فوصفها تشرشل بقله الرائع .

وبذلك يكون قد انتَقِمَ للجنرال غوردون ، والأمرُ هو أن جميع الشعوب وجميع العروق تُدْعَى في كلِّ زمنٍ إلى التكفير ، وهذا التكفيرُ أَقْلُ نَتِيجَةُ لِنَصْرِ البيض واستقرارهم بالسودان مما أصاب الخليفةَ به البلادُ من خرابٍ وضيقٍ على الرِّغم من

وعوده الطمّانة ، وقد تمّ ميزان المهديّة في عشرين سنةً على مليونين من السودانيين بدلاً من ثمانية ملايين ، وما هي العلةُ في هلاك تلك الملايين الستة ؟ وهل حركَ الأملُ والرّهُو نفوسهم ؟ وهل رَفَعَ الأملُ والرّهُو قيمةَ حياتهم ؟ وهل كانت حياةُ أولئك الملايين الستة بالغةَ القِصرِ بالغةَ التوترِ فنَزَعَهَا المثلُ الأعلى الجديد منهم ؟ وهل للجُهور رِبحٌ من تلك المنازعات ؟ وَيَثِقُ مغامرٌ بنفسه أكثر مما يَجِبُ مئةَ مرةً ، ويساعده بضعةُ آلافٍ ويساعدون بذلك أنفُسهم ، ويُخَيِّبُ الآخرون بضروبِ الخِبيّةِ وَيَقْدُونَ من الضحايا ، وما ينتزعه الخارجُ من تكفيرٍ فلا يفيد مَنْ أَصْلَهُم الطاغيةُ ، وذلك لأنهم لم ينفكوا يُصْرَعُونَ في المارك التي لا تَفْعُ منها لهم ، ولا لوطنهم .

ولم تكن البنادق السريعةُ الطلقاتِ ، ولا المدافعُ الحديثةُ التي نُقِلَتْ على خطوط الصحراء الحديديّةِ إلى قَلْبِ إفريقية ، ولا النظامُ والشجاعةُ وتجربةُ القائد الإنكليزيِّ ، وحدها عواملُ النصر ، وقد مضى خمسةُ عشرَ عاماً ، فقد انطَفَأَتِ نارُ الإيمانِ الذي انتشر بين السودانيين كالحريقِ في الشَّهْبِ ، وقد حاول في السنوات التي أتت فيما بعد مهديّان صغيران أو ثلاثة مهديين صِغاراً أَنْ يُلْهِبُوا ذلك الإيمانَ مرةً ثانية فلم يُوقِّعُوا ، ومن سعادة من ظَلَمُوا أَنْ قُضِيَ على الطغيان كما في جميع الأحيان ، وانحاز كثيرٌ من القبائل إلى الإنكليز طَوْعاً وعن سرورٍ ، واختفى الخليفة عاماً في البقاع النائية ، ثم يحاصره الإنكليزُ ، وينتظر العدو ، ويَجْلِسُ على سِجادةٍ كبيرةٍ محاطاً بمريديه مبصراً حَكَمَ القَدْرَ كسَلْمٍ صالح ، ولا يقاوم ، ولا يطلب العفو ، وَيُقْتَلُ رزينا بالرصاص هو وأتباعه بالقرب من تلك الجزيرة النيلية التي ظهر المهديُّ منها .

وَيُخَرَّبُ كَتَشَنَرُ قَبْرِ الْمَهْدِيِّ ، وَيَأْمُرُ بقلبه رأساً على عَقَبٍ ، لِكَيْ لَا يَصْبِحَ حُلٌّ  
حِجْرٌ ، وَتُخَرَّقَ عِظَامُهُ وَيُلْقَى رَمَادُهَا فِي النَّيْلِ وَيَقْبُرُ كَتَشَنَرُ وَجُنُودُهُ النَّيْلَ  
الْأَبْيَضَ وَالنَّيْلَ الْأَزْرَقَ بَعْدَ النِّصْرِ وَيَدْخُلُونَ الْخَرْطُومَ كَمَا صَنَعَ الْمَهْدِيُّ مِنْذُ  
خَمْسَةِ عَشَرَ عَامًا ، وَيَتَوَجَّهُونَ إِلَى أَقْصَا الْقَصْرِ ، وَيَرْفَعُ عَلَمَانِ بَدَلًا مِنْ عِلْمِهِ  
وَاحِدٌ فَوْقَ الْكِتَابِ الَّتِي صُفِّتْ عَلَى شَكْلِ مَرْبَعٍ ، يُرْفَعُ الْعِلْمُ الْإِنْكَلِيزِيُّ وَالْعِلْمُ  
الْمِصْرِيُّ ، وَيُنْشَدُ النِّشِيدَانِ الْوَطَنِيَانِ ثُمَّ نَشِيدُ غُورْدُونِ الْمُفْضَلُ : « أَقِيمْ مَعِيَ » ،  
وَيُرْوَى أَنَّ كَتَشَنَرَ الثَّابِتَ الْجَنَانِ لَمْ يَسْطِيعْ أَنْ يَكْتُمَ وَجْدَهُ عِنْدَئِذٍ عَنْ حَنَانٍ .

## ١٢

بَيْنَمَا كَانَتْ دَوْلَةٌ مِنَ الْبَيْضِ تُمَثِّلُ دَوْرَ الْمُنْتَقِمِ فَتَسْتَوْلِي عَلَى بِلَادِ الشُّوَدِ كَانَتْ تَسِيرُ  
عَلَى الدَّرْبِ دَوْلَةٌ أُخْرَى مُنَافِسَةٌ لَهَا مُحَاوِلَةٌ الْوُصُولَ قَبْلَهَا ، وَتَبْدَأُ مُسَابَقَةً يَقْصُرُ  
عَنِهَا الْخِيَالُ .

وَلَمْ تَقْتَضِ فَرَنْسَةُ مِنْذُ عَشْرِينَ عَامًا تَعْسَى فِي إِقَامَةِ إِمْبَرَاطُورِيَّةٍ اسْتِعْمَارِيَّةٍ إِفْرِيقِيَّةٍ  
بِتَأْيِيدٍ مِنْ بَسْمَارِكِ الَّذِي كَانَ يَرِيدُ أَنْ يُنْثِسِبَهَا سِيدَانِ<sup>(١)</sup> ، وَتُصَادِمِ فَرَنْسَةَ مِنْزَاعِمِ  
إِنْكَلْتَرَةَ عَلَى الْخُصُوصِ ، حَتَّى فِي مِصْرَ مَا انْفَكَّتْ فَرَنْسَةُ مِنْذُ عَهْدِ نَآپِلْيُونِ الْأَوَّلِ  
تَكُونُ ذَاتَ تَأْثِيرٍ عَظِيمٍ ، وَتَذْخَرُهَا إِنْكَلْتَرَةُ هُنَاكَ ، وَمَا زَادَ الْوَضْعَ تَوَرًّا  
مَا كَانَ مِنَ الْقَضَايَا الْمُعْقَدَةِ حَوْلَ تَوْظِيفِ الْأَمْوَالِ الْآتِيَةِ مِنَ التَّرْوِضِ ، وَلَمَّا  
أَصْبَحَتْ السُّودَانُ أَرْضًا مُبَاحَةً ، عَلَى حَسَبِ تَعْبِيرِ رِجَالِ السِّيَاسَةِ ، وَدَّتْ فَرَنْسَةُ

(١) سِيدَانِ : مِنْ بِلَادِ فَرَنْسَةِ ، وَهِيَ الْمَكَانُ الَّذِي مَنِيَتْ فِيهِ فَرَنْسَةُ ، فِي سَنَةِ ١٨٧٠ ، بِهَزِيمَةٍ  
عَظِيمَةٍ . أَسْفَرَتْ عَنْ أَسْرِ نَآپِلْيُونِ الثَّالِثِ عَلَى رَأْسِ جَيْشٍ مُؤَلَّفٍ مِنْ مِائَةِ أَلْفٍ مُقَاتِلٍ .

لو تكونُ لها نقطة ارتكازٍ على النيل ، فأرسلت من ممتلكاتها في الكونغو رُؤَاداً إلى أعلى بحر الغزال ، وتَصَرَّحَ لندن في سنة ١٨٩٥ بأن ذلك عملٌ غيرٌ وِدْيٍ ، فلم تَسْطِعْ فرسة أن تنازع في الأمر لما كانت تعانيه من أزمةٍ حادة ، وتَقْرِضُ فرسة أن تُسَهِّمَ في حملةٍ كَثُفَر في نهاية الأمر قَرَرْدُ منافستها عَرْضَها ، ومن كان من الفرنسيين يَحْلُمُ في اقتسام العالم فَيُثَابَبَ بَنَمَ مما وقع مِن تَأَخُّرٍ ، وفي ذلك الحين تَلُوَحُ لبعض الرجال خِطَّةٌ خيالية :

ولتَنَمَّ بهجومٍ نحو النيل ! يسير الإنكليزُ من الشمال نحو النيل الأوسط ، وتُتَسَيَّرُ الفرنسيون من الغرب نحو النيل الأعلى ، وكلما اقتربت فرسة من منبع النيل الحافل بالأسرار زادت قوةً ، وإذا ما صارت فرسة سيدةَ النيل الأبيض في الدرجة الثانية عشرةَ من العرض الشمالي أزعجت إنكلترة وحرمت مصرَ ، على ما يحتمل ، ما تحتاج إليه من الماء بما يُبْقَى من الأسداد ، وذلك لعدم كفاية ما يأتي به النيل الأزرق في الدرجة الخامسة عشرةَ من العرض الشمالي ، وهكذا تنطوى القبائلُ للتوحشة واللباقعُ المنيعُ والسُهوبُ والصَّحَارَى والبحيرات على مُغْضِلَةٍ عاليةٍ تحتاج إلى فِصْلٍ .

وتحاول فرسة أن تغامر ، ومع ذلك خَصِرَتْ فرسة السَّابِقَ قبل أن تسير ، وذلك لأن الغالب لا يكون أولَ من يَصِلُ وأولَ من يَرْفَعُ علمه ، وإنما الغالبُ هو من يَصِلُ في أحوال ملائمةٍ مع رجالٍ كثيرٍ ويكون من القوة ما يستطيع به أن يَبْقَى ، وهل يَقْدِرُ الفرنسيون على إنشاء خط حديديٍّ من الكونغو إلى النيل ؟ وإذا عَدَوَتْ رائدين أو ثلاثة رُؤَادٍ لم تَحِدْ أحداً قد عَبَرَ حَوْضَ بحر الغزال ، وما كانت تُعْرِفُ حتى القبائلُ التي يُسَارُّ مِنْ بَيْنِهَا .

وضابطاً ، مع شِرْذِمَةٍ من الزوج ، ومع عَطَلٍ من المدافع ، هو كلُّ ما أرسلته  
فرنسة من خلال الغابة الخضراء ومن بين أوحش البلاد لبلوغ النيل ، ولبلوغ أقرب  
مكانٍ من منبع النيل ، بما يمكن من السرعة ، وفي تلك الأثناء تنطلق إنكلترة من  
قاعدة أمينة وتُنشئ خطاً حديدياً لنقل جيشها وجيش مصرَ ضدَّ العدوِّ ، ومن  
المحتمل أن كان هذا العدوُّ سيِّدَ ما حَوْلَ فاشودة في الجنوب الأقصى .

ومن كان الكولونيل مَرْشَان ؟ كان مَرْشَان كما وصفه وزيرُه « رَخْصاً <sup>(١)</sup>  
كالمقول <sup>(٢)</sup> » وذا عيون كالتَّيْل ، وهو إذا ما تكلم نَطَقَ بإحكام ، ويبدو كلُّ شيء  
فيه ، من أخصَصٍ <sup>(٣)</sup> قلمه إلى قَمَّةِ رأسه ، مشحوناً بالكبرياء ، وكان في بدء أمره  
كاتباً عند وكيلٍ للدعاوى ، فلم يَنْبُتْ ، فانتسب إلى فيلِقِ المَشَاةِ الاستعماريِّ  
بإفريقية ، وصار ضابطاً ، وكان في الثالثة والثلاثين من سِنِّه حيناً أراد أن يقضى على  
القصة القائلة إن سوء الحظ يُبْلِمُ بفرنسة على النيل في كلِّ وقت ، ويغامر بفزوه  
السريع ضدَّ إنكلترة مع ٢٣ من البيض و ٥٠٠ من السَّنْغَالِيين ، وذلك من غير أن  
يكون مؤيِّداً تأييداً تاماً من بلده الذي لم يُعِدَّ سوى « بضعة ارتيادٍ » مُدَارِيّاً عند  
الجبوط نَزَقَ تَرْكِيَّة التي عاد لا يُشعر بسلطانها في الدرجة العاشرة من العرض  
الشماليِّ ، ويظهرُ مَرْشَانُ مثلاً فرسان القرون الوسطى حين قيامه بمغامرته ضارباً  
بصروف القدرِ عُرْضَ الحائط ، ولا يحجب ، قد حاول أن يأتي بمثل ما كان بريان  
ذوئوا غلير قد قام به على ضفاف نهر السَّيْن منذ ألف سنة .

ويسير خليفة أبطالِ قداماءِ الثورمان ، مَرْشَانُ ، من لوانفو متوجهاً إلى  
الشرق ويُوغِلُ في الغابة البكر من وادي الكُونفُو ، ويصير لِرَآمًا عليه أن يقاتل

(١) الرخص : اللين — (٢) القول : فصل طويل — (٣) أخص القدم : باطنها .

الضواري وأن يقاتل أكلة لحوم البشر الذين كانوا يفترون صياديه وحمايه ، وكان يعرف أن الإنكليز يتسلحون ويُنشئون خطمهم الحديدي ويتقدمون في النيل الأوسط ، ولكن أين كانوا ؟ وهل كانت الصحراء وعواصف الرمل تتخطف رجالهم كما كانت الأسود والوحوش تتخطف رجاله ؟ وهل كان جيش الدراويش يقفهم في الشمال بعون الله فيدع الطريق حرة للفرنسيين في الجنوب ؟ جهل مرشان ذلك. أساميع وأشهرأ ثم أتاه نبأ مسوّه ، وكان يؤذ أن يصل قبل أن يقضي الإنكليز على الدراويش ، وكان خوفه من السلم الأسمر الهمجى والعدو للحضارة أقل من خوفه من الإنكليزي النصراني الأبيض التمدن ، لتتمتع الإنكليزي بمصر ولما عند الإنكليزي من مدافع ونفوذ .

وتطول الطريق على القارس الفرنسي ، وتطول وتطول ، وتقدو مياه بحر الفزال في هذه السنة من الانخفاض ما يتأخر معه السير ستة أشهر ، ويلوح كل شيء إلباً<sup>(١)</sup> على مرشان المحارب ، ومع ذلك يتقدم مرشان غير قانط ، ومع ذلك يمشي مرشان وكتيبته التي تنقص مقداراً فقداً ، وفي نهاية الأمر ، وفي يولييه سنة ١٨٩٨ يبلغ مرشان غاية أحلامه ، يبلغ النهر ، ويرفع باحتفال العلم الثالث الألوان فوق فاشودة التي هي ملتقى الطرقت ، وسار مرشان ثلاث سنين ، فأين المنافس الذي يحقق علمه فوق علمه ؟ لا شيء غير شائعات تجسم في إفريقية كل شيء ونفيم<sup>(٢)</sup> عند كل شيء كالسراب ، وكان الفرنسيون ، الذين أنحوا في الدرجة العاشرة من العرض الشمالي ، يجهلون نيل الإنكليز أول نصر على الدراويش

(١) الإلب : القوم يجتمعون على عداوة إنسان ومنه « قد أصبح الناس علينا إلباً » .

(٢) أغم : صار ذا غمام .



### وجود أبيض في فاشودة

يَبْرَبَر في الدرجة الثامنة عشرة من العرض الشمالى، وما كان الإنكليزُ يَعْلَمُونَ وجودَ أبيضٍ خَصِمَ لهم وللشود على شاطئ النهر نفسه وعلى بُعْدِ ألف كيلو متر من الجنوب .

وكان الدراويش من الضَّعْف في تلك البُقعة ما فَرُّوا معه أمام مَرَّشان الذى كان بلا عِتَادٍ تقريباً ، وَنَشِئَ مَرَّشانُ حِصْنًا صَغِيرًا على ضِفَةِ النهر ، وَبَعْدَ مَعَاهِدَةٍ حَامِيَةٍ مع رئيس الشُّلُك وَبِزَّرَعِ بَعْضِ الْخَصَرِ ، غير أنه كان يُعَوِّزُهُ ما يتوقف عليه كلُّ أمرٍ من مَدَدٍ وَعُدَدٍ واتصالٍ بوطنه فيحاول أن يكون ذا علاقة بالكُونُفُو والحَبَشَةِ فلا يُوقَى ، ويظلُّ وحيداً ، هو هنالك ، هو على النيل مع أواخر ضباطه البيض ومعه بعض بنادق ، وَتَقِفُ الرِّيحُ في أشهر الصيف فيبدو العلمُ مَعْلَقًا بعموده في حالٍ يُرْتَى لها .

وَيَدُومُ مَدَّةَ الْخَطِّ الْحَدِيدِيِّ الْإِنْكِلِيزِيِّ في تلك الأثناء بلا هَوَادَةٍ ، وَيَدُحَرُ العدوُّ أمامه حتى فاشودة على ما يَحْتَمَلُ ، ولم يَعْرِفْ أَحَدٌ ما ذا كان يَقَعُ في ذلك البلد الذى هو طُعْمَةُ الْقَوْصَى ، والنيلُ وحده هو القادرُ على وَصْلِ مَرَّشان بِكَتَشَنَر ، وما زال للسلعون يَقْضِلُونَ بين المتنافسين ، وما كان الإنكليزُ يُحْشِي شَيْئًا ، وما كان الإنكليزُ يُحْشِي سَيْرَ ٢٣ فرنسيًا و ٥٠٠ سِنِغَالِيٍّ ، منذ ثلاثِ سنين ، ولو ظَلُّوا كُلُّهُمْ أَحْيَاءَ ، ولو حَلُّوا بِضِفَةِ النيل ، فهؤلاء ليسوا مرهوبين . وَتَمَرُّ خَمْسَةُ أَيَّامٍ على مَاتَمَ في أُمِّ دُرْمَان من نصرٍ حاسمٍ ، وَتَمَرُّ أَرْبَعَةُ أَيَّامٍ على احتلال الخرطوم فتأتى باخرةٌ بأول نَبَأٍ من الجنوب ، تأتى بنبأ وجودِ أبيضٍ في فاشودة عَقَدَ مَعَاهِدَةً مع الشُّلُك ، وكان يمكن كِتَشَنَرُ أن يستريح بضعة أيام بعد عناء عامين ، ولكنه لم يتمالك أن أدرك ما هنالك ، فقام بنصف جَوْلَةٍ في

الباخرة ، فلما انقضت ثلاثة أيام تَوَجَّه نحو منبع النيل ليزور ذلك الفرنسيَّ النَّعْسَ ،  
ويَجْلِبَ معه كتابَ سودانيةٍ ومئةَ اسكتلنديةٍ وبضعَ سفنٍ ذاتِ مدافعٍ حتى  
يُدْرِكَ مُضِيْفُهُ مَغْرَى زيارته .

وبعد تسعة أيامٍ تَرَسَّو السفن الإنكليزية في فاشودة حيث يَتَمَوَّجُ علمٌ كبيرٌ  
مثلثُ الألوان ، ومن الفصول الروائية ، حقاً ، أن يلتقي ضابطان من البيض متباثلان  
هيئةً مع اختلافهما شِعْراً ، منتسبان إلى أمتين جارتين مع تسالهما على بعد ألوف  
الأميال من هنالك ، مُقَوَّضٌ إلى كلٍّ منهما خَلْعُ الآخر ، ويستحقُّ إقدامَ كَتَشَنَرِ  
كلٍّ إعجاب ، ويتَّجِهَ العطفُ العامُّ في ذلك الحين إلى مَرَّشَانِ العاطلِ من الرجال  
ومن السَّنَدِ ومن توجيهِ باريسَ له ( على خلافِ كَتَشَنَرِ الذي يُوجِّهُ برقيّاً في  
الخرطوم ) والذي يُقَدِّمُ إلى الغالب بالأمس غيرَ مُجَهِّزٍ بسوى مسدسٍ لا ينبغي له  
أن يستعمله وبسوى علمٍ لا يَحْفَظُ الريح فيه .

ويتحدث الفأحان في كوخ مَرَّشَانِ ، وذلك بأن هُنَا الإنكليزيُّ الفرنسيُّ بإيصاله  
مغامرته إلى هدفٍ حسن ، وذلك بأن هُنَا الفرنسيُّ الإنكليزيُّ بالنصر الكبير الذي  
عَلِمَ خبره من الزوج ، ولا أحدٌ يَعْرِفُ مقدارَ الصمت الذي عَقَبَ تينك التهنيتين ،  
وإنما عَلِمَ فقط أن مَرَّشَانِ صَرَّحَ قائلاً : « أَقامتني حكومتى وكيلاً عنها في احتلال  
بحر النزال حتى ملتقاه ببحر الجبل ، أى باحتلال أراضى الشُّلُك الواقعة على  
شمال النيل » .

ويجيب كَتَشَنَرُ عن ذلك قائلاً : « لدىَّ تفويضٌ بالآ أوافق على وجود سلطانٍ  
لدولةٍ من البيض في وادى النيل » ، ويُسَلِّمُ إلى مَرَّشَانِ مذكرةً رسميةً ، ثم يَنْهَضُ  
لِمَا يَجِدُ من وجوب رَفْعِ عِلْمِهِ بجانب العلم الفرنسيِّ ، وهنا يتجلى الرجلُ الماجدُ ،

فقد أدرك مشاعرَ زميله ، ولم يُكرِّهه على إنزال علمه لما قد يؤدي إليه ذلك من نتائج هائلة ، بل ذهب إلى بُعدِ خمسة متر ورَفَعَ العلم التركي ! ثم تَوَجَّهَ مَسِيرَةً يومٍ نحو منبع النيل وأنشأ مركزاً على الشواطئ ، وعاد ، وترك في فاشودة حرساً سودانياً وأربعة مدافع وبلغَ مرَّشان بأدبٍ لا غبار عليه أن « البلدة » خاضعٌ للحكم الثنائي الإنكليزي المصري وأنه مَنَعَ كلَّ نقلٍ للعتاد الحربي على النيل .

ويظلُّ الضابطان واقفين متواجهين .

مرشان : « لا أَتَلَقَّى أُمراً من غير حكومتى » .

كنشتر : « وإذا ما اضطرتُّ ... » .

ولم يَكْذُ كنشتر يَلْفِظُ بذلك حتى قال مرشان :

« إِذَنْ سَأَمُوتُ هُنَا » .

ويقع كلُّ شيءٍ وَفْقَ شعائر الشرف العسكري ، ويُقدَّمُ كنشتر تقريره عن هذا اللقاء ، وتُحْمَلُ المهزأة الإفريقية في أوروپة على حسب العادة القديمة ، ويصبح الرجلان ألعبتين بين أيدي السياسيين والضاربين ، وتنهمك باريس ولندن في هذا الأمر ، ويلوح شَبَعُ الحرب ، وضعفُ فرنسا في ذلك الحين ، لا حِكْمَةَ إنكلترة ، هو الذي حال دون نشوبها ، وفي الصُّحُفِ يَتَجَلَّى الجَسَمُ ، وفي الصُّحُفِ تُطْلَقُ الأحقادُ من عِقالها في أثناء مفاوضات الزارتين ، ويدوم ذلك ستة أسابيع ، وتُحْمَلُ باريس على الخضوع ، ويُشَادُّ بذكر مرَّشان رسولاً للحضارة ، ويُفْتَمَرُ بأكاليل الغار سِتْراً للجلالة عن فاشودة وصرفاً للأذهان عما مُنِيتَ به فرنسا من حُبوط .

ويقول كنشتر مَوْكِّدًا بعد أمة<sup>(١)</sup> إن انتصاره في أم دُرْمان هو الذي أنقذ مرشان ،

(١) الأمة : الحين .

فلولا هذا النصرُ لقتله الدراويش ، ومهما يكن من أمرٍ قد تمَّ للحكومة الإنكليزية نصرُ سلى على الحكومة الفرنسية ، وقد أيقنت الحكومة الفرنسية أنها لا تقدر على شىء من غير إنكلترة فعزمت على السير معها فيما بعد ، ويتحول مرشان إلى رائد بعد أن تخلى عنه رؤساؤه فيرفض إطاعة الأمر بالذهاب ، ويُعلن احتياجه إلى القنات والقوت ، ويضعُ كمنشور ما يحتاج إليه تحت تصرفه ، ويعرض عليه باخرته ، ويرغب مرشان عن السفر على باخرة خصمه البخت<sup>(١)</sup> ثم عن السفر في القطار الجديد وعن تشييعه بضروب من التكريم الرثائي ، وعن العود إلى فرنسة بجرأ بعد ذلك ، وبذلك يكون مرشان رائداً آخر للنيل رافضاً أن يُمان ، وذلك في مكان غير بعيد من المكان الذى رَفَضَ فيه أمين باشا ، منذ عشرين عاماً ، أن يُنفذه ستانلى ، ويعزم مرشان على شق طريق له من الحبشة ، وهكذا يجوب إفريقيا من جانب إلى جانب ، وهكذا يبدؤ مرشان مثل دون كيشوت على الرغم منه ، وهكذا يظهر العالم مهزأً لهذا الشخص المنجوع ، وهكذا رأى رجله ، رفع العلم المثلث الألوان على النيل فاضطرب إلى طيه بعد انتظار خمسة أشهر على غير جدوى ، أن يُنفذ الشرف كمنظائره فى القرون الوسطى ، وهو إذا لم يُنفذ شرف فرنسة الذى أبصره معرضاً لخطر فاضح قد أُنقذ شرف نفسه ، أى شرف رجل كان من أبناء الطبقة الوسطى وكان جندياً عادياً فصار قائداً ، أى شرف الفاتح الشقى جان باپتيست مرشان دوتواسه . وتحالف فرنسة وإنكلترة بعد ست سنوات من تاريخ عودته ، وكنتيجة غير مباشرة لغزوته ، ويحارب فى أثناء الحرب العظمى بجانب الإنكليز ، ثم يكون شاهداً بعدئذ على ما بين البلدين من فتور ، ويموت فى سنة ١٩٣٤ ، ويرى قبل

(١) البخت : المخطوط .

موته إمبراطورية فرنسا الاستعمارية الكبرى في غرب إفريقيا من غير أن يكون النيل جزءاً منها .

### ١٣

كان العلم الذي رفعه كتشرفوق فاشودة أحمر اللون ، كان العلم التركي ، والآن يَتَحَقِّقُ العلمُ الأخضر الجليل ، العلمُ المصريُّ ، فوق جميع السفن واللباني العامة بجانب العلم الإنكليزيُّ ، ويدوم الحكم الثنائيُّ منذ ربع قرن ، ويمكنه أن يدوم زمناً طويلاً على الرغم من اعتراض أضعف الفريقين .

وَيُعَيِّنُ النيلُ مصيرَ السودان مرةً أخرى ، وقد كان الإشراف على النيل في سبيل مصر وتنظيم مجراه الأعلى ذرائع وعوامل تتمسك بها إنكلترة القابضة على زمام مصر ، فيما مضى ، قبضاً مطلقاً تقريباً ، وقد حالت إنكلترة دون إفلاس هذا البلد لِيُتَمَسَّكَ إلى الأبد ، وهل تترك إنكلترة لغيرها مجرى النهر الأوسط وملتقى النيلين بعد أن مَلَكَتْ منبعه وفُوهته ؟ أَوْ تتركهما للسودانيين ، لهؤلاء الهَمَجُ ، الذين كانوا تابعين للمهدى ؟ أَوْ تتركهما للمصريين الذين كان للسودان بهم خرابٌ مدة خمس وستين سنة ؟ أَوْ تتركهما للفرنسيين ؟ إذا وُجِدَ من الناس من يمكنهم أن يُزَعِّجُوا مصرَ بالنيل من جهة السودان فالإنكليزُ وحدهم هم أولئك الناس .

وكانت مصرُ من الضَّعْفِ ما لا تستطيع معه أن تستردَّ السودان وتُدِيرَهُ ، وكانت مصرُ تُفَضِّلُ ، لذلك ، أن تدَّعِ مكانها للإنكليز على أن تدَّعِهِ للسودانيين

والفرنسيين ، وكان لبريطانية المظلي من المصالح البالغة الأهمية ما تدافع به عن مصر الدنيا فلا تُقدِّم على تقويض دعائها حين الاختلاف ، ولو اقتصر الإنكليز ، بعد انتصارهم في أمّ دُرْمان ، على رفع علمهم وحده ما استطاع المصريون أن يَحُولُوا دون ذلك ، غير أنه كان لمصر من الحلفاء المكتومين ما تَعَتَّدُ إنكلترة بماله وفؤده في القاهرة ، وقد اجْتَنَبَ احتِرابُ إنكلترة وفرسة الذي لاح شَبْحُهُ أيام فاشودة ، لآعن ضَعْفٍ في فرسة فقط ، بل عن عَزْمِ إنكلترة ، أيضاً ، على رفع العلم التركيّ رمزاً كما فعل كُتَشَنر فوق زاوية مُحَصَّنَةٍ في الدرجة العاشرة من العرض الشماليّ ، وقد استفاد المصريون ، كشرقيين حقيقيين ، من تنازع الدول الغربية ، فإذا كان سواه إدارتهم قد أوجب ضَيَاك السودان فإنهم صاروا شركاء في سيادة ذلك البلد الذي أُعيد فتحه بمالهم وجنودهم مع قُوَادٍ من الإنكليز ، والذي حَفِظَ بفضل النفوذ الإنكليزيّ .

واللورد كرومر هو الذي عَنَّ له أمرُ العلمين ، واللورد كرومر هو القائل : « لا يؤدي أقول هذا الحكم الثنائيّ إلى سَكَبِ عِبْرَةٍ من قِبَلِ مُخْتَرِعِهِ إذا ما اسْتُبْدِلَ به حكمٌ أُمتنُّ منه » ، وإذا كان هذا النظام قد ظلّ قائماً بما يثير حَيرَةَ الجميع فلتوزيع الحقوق بين الفريقين توزيعاً غير متساوٍ ، ويمكن أن يقال إن هذا قرآنٌ شرقيٌّ يُقدِّم به الزوجُ مالها وتَضَعُ أولادها من غير أن تنال في مقابل ذلك غير حقِّ الحياة ، أى ماء النيل ، وهي مع ذلك زوجٌ شرعيةٌ تَمُرُّ في الأحوال العظيمة تحت أقواس النصر راکبةً حصاناً بجانب بقملها مضورةً بالحِلْيِ مُحَجَّبةٌ تماماً ، والسودانُ هو أول بلدٍ وُضِعَ تحت الانتداب في التاريخ ، وكان هذا قبل استعمال هذه الكلمة من قِبَلِ مؤتمر باريس في سنة ١٩١٩ حين أُفْسِدَ معناها .

وإن الحاكم العام ، وإن جميع أكابر الموظفين ، في السودان الإنكليزيّ المصريّ هم من الإنكليز ، ولو حَدَثَ أن رَفَضَ الملكُ بالقاهرة تعيينَ حاكمٍ تُوصي به الحكومة الإنكليزية لَوَجَدَ جميع الإمبراطورية البريطانية ضِدّه ، ولهذا الحاكم ، الذي لا يَقْدِرُ الملك على عزله ، مثلُ ما كان للمهديّ من الحقوق ، وذلك لما لا يزال القانون العرَفيّ العسكريّ معمولاً به في السودان ، والحاكم هو الذي يُقرّر جميع المسائل المهمة ، وهو الذي يَقْضِي فيها طاعيةً ، وكانت مصرُ هي التي تُقدّم الجنودَ ، ولا تزال مصرُ تقوم بقسطٍ كبير من نفقات الاحتلال ( ٧٥٠.٠٠٠ جنيه ) .

ولمصرَ فائدةٌ من وراء ذلك مع ذلك ، ولو خَسِرَت مصرُ النيلَ الأوسطَ حرباً تجاه إنكلترة لوجدت في الأدب التاريخيّ ما يُسَوِّغُ تفكيرها في الانتقام ، والواقعُ أن مصرَ عادت ، بتدخلٍ من إنكلترة ، إلى امتلاكِ بلدٍ بالاشتراك كانت قد أضاعته عن سوءِ إدارةٍ لسكانه النوبيين الأصليين .

ويُشعرُ المصريون بأنهم أرقى من أولئك السكان كما تُشعرُ به أية دولة من دول البيض المنتدبة على الزوج ، وتظهر طبقات المصريين العليا ، وهي غيرُ طبقة الفلاحين ، من قِلّة العدد كالأشراف وكأبناء الطبقة الوسطى الراقية في المهدي القيصريّ الروسيّ ، وهي تمدُّ نفسها وارثةً لحضارةٍ بلغت من القدم خمسة آلاف سنة ، وهي لا تُشعرُ بغير ازديادٍ للسودانيين الذين هم من أكلة لحوم البشر ، والذين يَصْلُحون للعناية بالغيل وللطهي وليكونوا خدماً في قصور القاهرة ، وكان الخدمُ السودانيون حتى سنة ١٩٠٠ أبناءً لعبيد اتَّخِذُوا قَتَاصِينَ في الغارات كالبازي الصيد ، ويعود أولئك الخدمُ إلى بلادهم بعد غيابٍ بضع سنين جالين معهم قَدّاً ومزاعمَ وزهو أنصافٍ الجُهال .

وأثار انتحال المصريين لوضع السيد المتعالى حقد جيل السودان الحاضر عليهم ، وليس المصرى سيداً ينشأه خدمته ، والسودانى يُنمّقت الباشا الذى كان المهدي قد طرده ، والسودانى يُنمّقت التركى الذى عاد على أكتاف مرّدة من البيض والذى يَمسح أحذيته ويفسّل سيارته فى القاهرة بضعة آلاف من الفتيان ، وما هى فائدته من هؤلاء السادة المحليين أو الأجانب ؟ أليس من رأى أن يُقاس السودانى بالفلاح على ضفة النهر حين يدير ثورهُ ناعورةً ويطلحن نساؤه الثرة بأيديهنّ القوية وينمّل<sup>(١)</sup> أولاده فى النخل قطعاً لليسار<sup>(٢)</sup> ، والفلاح ، كالسودانى يجهل الحكمة القديمة للكتابة على ألياف البردى ، والفلاح لا ينفك الخطّ الهيروغلىفى فى الوقت الحاضر كما لا يفكّه السودانى الذى يُعلّم القراءة .

وثرانا مرة أخرى تجاه تلك الدورة الأدبية التى تبدأ من قدرة الأبيض على حرية الأسود لتعود إلى عجز الأبيض ، ولم يتم حكم إنكلترة على الجلد بسياطٍ مصنوعة من جلد وحيد القرن ، ولم تأت إنكلترة بقوانين ولا بتدابير عقيمة ، وتستند إنكلترة منذ البداية إلى مساعدة القبائل باحترامها عاداتها ، وترك إنكلترة لسكان البلاد الأصليين درجة القضاء الأولى فتجد ٥٥ فى المئة من الوظائف الدنيا بيد السودانين ، وتجد ٢٣ فى المئة من الوظائف الدنيا بيد المصريين ، ويوجد فى الوقت الحاضر من أهل البلاد ١٢٠٠ مكّاس<sup>(٣)</sup> وبريدٍ ومعلمٍ وجابٍ و ٣٠٠٠ موظف من القضاء والطبّاعين والمهندسين والمعدّ ومستخدمى الخطوط الحديدية والأطباء الناشئين فى السودان من الألقباء إلى ما هم عليه ، ويتخّنون دليلاً على جهد إنكلترة فى التمدين ،

(١) تمّل فى الشجر : معد --- (٢) اليسار : جنج البسر ، وهو الثور إذا لون ولم ينضج .

(٣) المكّاس : هو ما يرف اليوم بموظف الجرك .



ويزيد عددهم بسرعة ، وهم ، وإن لم يكونوا ذوى خَطَرٍ في الساعة الراهنة ، يُعدُّون طلائعَ قومٍ تُحوِّلُهُم التَّربيةُ إلى منافسين لسادتهم .

ومن شأن ذلك التطور أن يُعيِّن مصيرَ مصر والسودان في نهاية القرن العشرين ، ولم يَجْلُب الفاتح المصريُّ في القرن التاسعَ عشرَ شيئاً إلى السودانيِّ ، ولذا لا يُوجي المصريُّ إلى السودانيِّ بأقلِّ احترام ، وكان لأهل شمال ذلك القطر الكبير ماله من اعتقادٍ يَصِلُ المؤمنَ بالله وبالقدر وبأدب الدولة أحسنَ مما يَصِلُ الإيمانُ النصرانيُّ الأبيضُ به ، وإليك كيف يُعبِّر عن مشاعر السودانيين نحو البيض هروُلد مَكْمَايْنِكِل الذى هو من أعل الناس بالسودانيين : « هؤلاء البيض الأفذاذ نِيَّاتٌ طيبة لا زيب ، ولكنهم ذوو تصور هزيل حوْل الدين ، وَيَسِمُ كثيرٌ من عاداتهم على نقصٍ في النوق السليم » .

وكان هذا الشعب المَباعُ المَبَدَّد قد ثار بطَفَرَةٍ من النَّفَرَةِ لخدعه زعمائُه وداسوه بأقدامهم ، ثم استولت عليه كُتَّاب من البيض فانتقل بفتة من الظُّلُمات إلى نُور الغرب ، وكان السودانيون في أوائل هذا القرن ، ومنذ مدةٍ أَقلَّ من خمسين سنة ، يُنْقَلون في أورة زُمَرًا زُمَرًا مع أَسْرِمٍ من حديقة حيواناتٍ إلى حديقة حيوانات فيزُربون كضواري قُطْرَم عَرَضًا لرِقصِ بلادهم وللصيد في ديارهم ترويحاً للبيض ، واليوم ترى حفيدَهم جالساً أمام مُجَهَّرٍ في مَعْمَد المباحث بالخرطوم ليدقق في جرائم النبل ! أَجَلْ ، ليس الاثنا عشرَ ألفَ سودانيٍّ الذين يَعْرِفون القراءة غيرَ جزء صغير من سودانيين بَلَغَ عددهم حديثاً ستةَ ملايين ، يد أن معرفة هذه الأقلية تنتشر بأسرع مما في القرون الوسطى ، في زمن الرهبان الذين كان قليلٌ منهم أعلى من معاصريهم ، وَلِمَ يُمانون سلطان الفلاحين الذين يُبْطِثون في

التطور مثلهم ؟ أو تجدد في القاهرة مدرسة لأبناء الفلاحين فيها من وسائل التسلية ما في كلية غوردون القائمة على ضفاف النيل والقريبة من قصر الحاكم فيخرج منها وقت الظهر خمسة طلاب لابس جلباباً أبيض فيتزدهون اثنين اثنين زاهين في حدائق الخرطوم كفرسان برسيغال<sup>(١)</sup> ؟ وأنشأ البيض مدارس بلغت من العدد ألفاً وخمسمئة لثلاثين ألف طالب ، ومن هذه المدارس كليات يتدرب فيها ضباط وموظفو برید وأطباء ، ويزيد عدد المصريين بسرعة ، وسيكون جميع الوادى الأدنى مزروعاً حوالى سنة ١٩٥٠ فلا يكتفى لإطعام سكانه ، وسيستقر ذلك عن هجرة ما يفيض من الفلاحين نحو مجرى النيل الأعلى طلباً لأراضٍ جيدة في السودان الذى يُعدُّ هرباً<sup>(٢)</sup> تابعاً لهم ، وكان الفلاحون قد ساروا على هذا الدرب بعد طرد ملوك إثيوبية فيما مضى .

ويضاف جميع ذلك إلى الشعور القومى الذى يقتبسه أصحاب الجلود الملونة من البيض فيدلُّ على تحولاتٍ عنيفة تُقنَى إنكلترة بتعديلها ، ومن قول اللورد كوغارد الذى هو آخر إفريقي عظيم : « يمكننا أن نرى الزوج في جيلين أو ثلاثة أجيال حقيقة أمرنا ، ثم يدعوننا إلى الرحيل ، وسنضطرُّ إلى ترك البلاد لأصحابها مع جعلهم يشعرون بأننا في الحقل التجارى أصدقاء أكثر ألفة من البيض الآخرين » ، ويذهب المريشال ليوتى إلى ما هو أبعد من ذلك فيقول : « الطيب هو ذريعة الاستعمار الوحيدة » ، وهذا هو رأى اثنين من رؤود دور الفتح .

وسهلت جهود إنكلترة في السودان بفتوح العلم الحديث ، وزادت بعد محاربة

(١) برسيغال : اسم رواية موسيقية لفاغر مؤلفة من ثلاثة فصول (١٨٨٢) ، وهي آخر ما وضع هذا الملحن الفهم — (٢) الهوى : بيت كبير يجمع فيه القمع وغيره .

المهدي<sup>١</sup> أهمية الخط الحديدي<sup>٢</sup> ، الذي يقطع مُعْطَف النيل فيختصر مسافة ٣٥٠ كيلومتر، فيُنْقَلِكُم هذا الخط من القاهرة إلى الخرطوم في مئة ساعة، وتنقلكم الطائرة بين هذين المَصرين في أربع عشرة ساعة، وينقلكم الخط الحديدي<sup>٣</sup> بين القطر والبحر الأحمر في سبع وعشرين ساعة، ويَصْدُرُ في كل سنة من بور سودان، حيث أُعيد بناء المرفأ القديم غير الصالح، ثلاثة ملايين طن<sup>٤</sup> تبلغ قيمتها خمسة ملايين جنيه، وهذا هو طريق البحر الأحمر اللّوْدِي إلى داخل إفريقيا والذي يُبْحَث عنه منذ القديم، وتسير في كل أسبوع سفن نحو النيل الأعلى، وخُفِرَت آبار<sup>٥</sup> على طول طريق القوافل، وأنشئت مُستودعات<sup>٦</sup> لزيوت الطائرات، ونُوْزِعَ حبوب<sup>٧</sup> في سنى المجاعات، ويُنتِج الصنغ العربي<sup>٨</sup> بمقادير أكبر مما في الماضي فيوجب ذلك ابتياع كثير من الحُلُويات، ويُنال الملح بما يَحْدُث على ساحل البحر الأحمر من تَبَحُّر، ويكون صديق الإنسان الطيب<sup>٩</sup> مستعداً، ويُحْمَى الناس من الرق<sup>١٠</sup> الذي لم يَبْقَ له أثر في غير حدود الحبشة لِمَا هي عليه من طول يتعذّر معه رَاقِبَتُهَا، وليس جميع ذلك من فضائل عصرنا، ولكنه من عمل الحكومة القائمة في السودان، ويظهر مِصْدَاق هذا عند مقابلة السودان بالمستعمرات الأخرى، حتى الزيفان<sup>(١)</sup> تنتفع بالحضارة الإنكليزية، ففي الخرطوم تَجْمَعُ الزيفان صِمْ<sup>(٢)</sup> زُجاجات المياه المعدنية اللامعة وتحتفظها وتُقلِّبُها فتألف من ذلك مناظر على الأرضة المَبْلُطة.

ونُفِظَ قسم<sup>٣</sup> مهم من السودان من قِبَل الضباط فجاء هذا دليلاً على وجود رجال

(١). الزيفان: جمع الزاغ، وهو غراب صغير ريش ظهره وبطنه أبيض — (٢) الصم: جمع الصمة، وهي سداد الفارورة ونحوها.

بين الضباط قادرين على القيام بأعمالٍ غيرِ صُنْعِ الموت ، ومن نتائج الحرب العظمى أن اغتني السودان بما قَبِضَهُ من ثمنِ لُؤْلُؤِ العظيمة ، وقد نشأ عن انهيار تركية ونصيبِ مَلِكٍ في القاهرة تَمَيزٌ مركِزُ الإنكليز في السودان ، وما كان من القِتَنِ التي أوجبها تلاميذُ غوردون القدماء قد أزعج إنكلترة بضعة أيام ، وما كان من عصيان كتائب السود الخاضعة لضباطٍ من السودان قد حمل الإنكليز على التفكير فيما ينطوى عليه التطور السريع من مخاطر ، وكيف الخلاصُ من المصريين الذين حَرَّضُوا على تلك القِتَنِ والذين يَحْدُمُونَ في الجيش منذ قيام الحكم العُثماني ؟ لم يَكْفِ قَتْلُ مُرْسَلٍ لِإِجْلَالِهِ لَنَيْلِ ذَلِكَ .

قَتَلَ تَقَرُّ من دُعَاةِ الوطنية بمصرَ حاكم السودان العام في شهر نوفمبر سنة ١٩٢٤ ، وفي أثناء إقامته بالقاهرة ، ولم تنتظر بريطانيا العظمى في هذه المرة ثلاث عشرة سنة كما فعلت بعد قتل غوردون ، بل نالت مبتغاها في إخراج جميع الكتائب المصرية من السودان في ثلاثة أيام ، وبإِندَارٍ ، وفضلاً عن التوضيحات وغيرها من العقوبات ، وبُدْعَر القَوَمِيُّونَ من المصريين لَوَضْعِ النِيلِ على أساسِ التَّكْمَرِ الأبيض رمزاً للسياسة ، ويرتعد المعتدلون من المصريين تجاه وعيد صاحب السلطان في النيل الأعلى .

وهكذا يَزُولُ آخِرُ أثرِ لِسَادَةِ مصر على السودان بخروج كتائبها منه ، وصار العلمُ الأخضرُ لا يَحْفَظُ بجانب العلمِ الإنكليزيِّ إلا على سطح قصر الحاكم في الخرطوم وعلى مؤخرة البواخر التي تَمَخَّرُ في النيل .

يحافظ النيل على منظره الابتدائي إلى ما بعد الخرطوم ، وما تراه من أنصاب<sup>(١)</sup> مرَّقة مفروزة في الشاطئ فيدلُّ وحده على أن الإنسان يَرْتَقِبُ النيل ، وما تراه من قُرَى تُنْعِشُ ضِفْتَيْهِ فلا يَتِمُّ على غير الأمس واليوم ، وتُبَصِّرُ على ضِفاف القسم الثاني من النيل أعمدة ومعابد وجنادل مُشَدَّبةً وأهراماً أقامها الإنسان لتكون شاهدة على ماكره منذ خمسة آلاف سنة في واحدة كثيرة الضيق بالغة من الطول ألني كيلومتر ، وليس للغرائب الخالد ، ولا للحجر الرمل القَصِفُ أن يَحْشَى المطر ولا البرد ، فلا تزال تلك الأعمدة باقية كما لو كان الإنسان الذي يقاتل الإنسان غير صانع لها ، ولا يلوح شيء يجاوز صَوَارِي<sup>(٢)</sup> الجَوَارِي<sup>(٣)</sup> الجميلة في المكان الذي يفادر فيه النيلان المزدوجان ازدواجاً أخوياً أولَ مِصْرٍ أقيم على ضِفافه ، أى في الخرطوم ، وانظر إلى قِباب المدينة الأهلية القائمة على النيل الأبيض والتي يَبْدُو تلاشيها في الصحراء تَجْدُها من الانخفاض كأبراج الإنكليز على النيل الأزرق ، ولا شيء يُدَكِّرُ هناك بِسُدُوفِ<sup>(٤)</sup> مَدُنِ الأوربية القديمة على ضِفاف التايغس والسَّيْن والدانوب ومُوسْقُوهُ ، ولنهر المزدوج في ذلك المكان من الجلال ما يَحْدُرُ معه أن يسيطر على عاصمة كبيرة في ضفافه الأربع .

(١) الأنصاب : جمع النصب ، وهو القى للنبوب — (٢) الصواري : جمع الصارى ، وهو عمود يركز في وسط السفينة — (٣) الجواري : جمع الجارية ، وهي السفينة — (٤) السدوف : جمع السدف ، وهو الشخص يرى من بعيد ، والشخص هو سواد الإنسان وغيره تراه من بعد .

وتقع جزيرة تُوقِيْ أمام ضِفَةِ النيل الأزرق اليمنى ثم أمام ضِفَةِ النيلين التّحدين ،  
وهي ذاتُ شواطئٍ منحدرة ، وهي تجتذبكم بجملها ، وقد غَمَرها الغَرَيْنُ بالثّقَى ،  
ولا تُجِدُ في مكانٍ ما لنخلها من الرّوْعَة ، ويمتاز نخلها باسمراره على الشّهب الأصفر ،  
وبُنالٍ من دَوّحٍ جُمَيَّرِها ما يُرْغَبُ فيه من الطّراوَة ، والجزيرة ذاتُ غابٍ وظلالٍ ،  
والجزيرة مثيرةٌ للخيال ، والجزيرةُ تنتهى في مجرى النهر التّحتانيُّ برأسٍ نستره  
أُسجةٌ حقيقيّة .

وتُظهِرُ بالقرب من تلك الجزيرة جُزَيَّرَاتٌ في ملتقى النيلين ، وتتوارى هذه  
الجُزَيَّرَاتُ تحت الأمواج وقت الفيضان ، ثم تُكُونُ مرةً أخرى على بعض  
السّافة برواسبٍ من الحَصَا والرمل ، ويبدأ نخاصم أهل الشاطئ :  
أحمدُ صارخاً : كانت هذه جزيرة .

محمدٌ زاعقاً : كلاً ، هذه هي الجزيرة التي حَرَّثَها في الشتاء الماضي .  
ويَصْغُبُ الأمرُ على القاضى ، فالعالمُ مغمورةٌ بالنهر .

وتنقلُ الإنسانَ والحيوانَ من ضِفَةِ إلى أخرى قواربٌ مُثَقَلَةٌ ، ويُذَكِّرُكم  
الآدميون ، عند مرورهم مُكَدَّسِينَ تحت شُرْعٍ كبيرة لابسين جلابيبهم البيض ،  
بَرُمَرٍ سِتِيكْسٍ<sup>(١)</sup> وبخاطرة الأزمنة القريبة حين كانت الريح تدفع إلى النار تلك  
الزوارق المشحونة بالمبيد ، وتصلح تلك المراكب الكبيرة ، التي تُوحى بين الخرطوم  
ومصبِّ النهر ، لعبور النيل أكثر مما للطواف فيه ، وهي ابتدائيةٌ إلى الغاية مع  
مَوْقِدٍ من طين في المقدّمة ودَفَقَةٍ عالية يديرها رجلٌ عارفٌ بالرياح والصخور ،  
وتَحُولُ المجاديفُ لِلْجَهْرَةِ برَقَاصاتٍ دون ذهاب الزوارق نحو الصخور ولا يُنْسِكُها

(١) ستيكس : نهر في جهنم له سبع دورات كما جاء في الأساطير .

سوى أناسٍ من الخبراء ، وإذا ما نفخت الريحُ الأشرعةَ الثلاثةَ الشكلَ والمُعَلَّقةَ في صاريينِ منحنيينِ حُيِّلَ إلى الفارسِ الذي لا يُبْصِرُ النهرَ أنها طيورٌ عظيمةٌ تسير مُتَّيِّدَةً على أرضِ الصحراءِ .

ويَدْحَرُ النيلُ الأزرقُ الصائلُ النيلَ الأبيضَ نحوَ الضَّفةِ الغربيةِ ، ولكن لا زمنٌ طويل ، وذلك لأن أخاه الأكبرَ لا يَلْبَثُ أن يَتَفَوَّقَ عليه ، فيَرْجِعُ إليه سابقٌ اتساعه ، ولا يَقْوَهُ النيلُ الأزرقُ إلا حينَ الفيضانِ الأعظمِ الذي يَنْجُمُ عن أمطارِ الحَبَشَةِ ، ويعود احترابُ العناصرِ هذا على صِغارٍ من الموجوداتِ بالريحِ ، ومن ذلك أن سمكَ النيلِ الأزرقِ يَجْفُلُ من انتفاخِ التَّيَّارِ فيهاجرُ إلى حوضٍ هادئٍ على الضَّفةِ غيرِ عالمٍ أن يَجْمَعَ<sup>(١)</sup> النيلَ الأبيضَ ينتظره هنالك ليصطاده ، وهكذا يصطُرِعُ تابعو المتنافسينِ العظيمينِ بعدَ تصالحهما .

والنهرُ في الخرطومِ من المنظرِ ما يُسَوِّغُ جَدَّهَ الأسطوريَّ ، والنهرُ هنا كما في القاهرةِ سَيَرُ مَلِكٌ ، والنهرُ نالَ ذلك بعدَ مغامراتٍ فتانَةٍ ، والنهرُ يظلُّ على ذلك بعدَ أن يَجْزِيَ أسابيعَ في الصحراءِ ، وفي هذا سرُّ حياته .

ومع ذلك ترى النيلَ يقاتلُ نفسه في دَوَّامِهِ<sup>(٢)</sup> حينَ يبدأ بمصارعةِ الصحراءِ كأعظمِ الرجالِ الذين يَضُنُّونَ في مكائحتهم العالمَ وفي مجاهدةِ أنفسهم ، ويبدأ دورُ الشلالاتِ ، والشلالاتُ ، كللتاقعٍ سابقاً ، قد جعلتها الطبيعةُ كالأعداءِ لاختبارِ شجاعته وقدرته وإظهارِ سجاياه في الأمورِ الكبيرة .

وفي مجرى النهرِ التحتانيِّ بعدَ الخرطومِ يُعَدُّ جوبِ السهبِ حتى ملقى المطربةِ

(١) البجع : طائرٌ عريضُ المنقارِ له حوصلةٌ عظيمةٌ تحت منقاره ، واحدهُ بجعة - (٢) الدوامُ: جمعُ الدوامةِ ، وهي لبةٌ من خشبٍ يلفُ الصبيُّ عليها خيطاً ثم يَنْقُضُهُ بِسُرْعَةٍ فتدومُ ، أى تدورُ على الأرضِ ، وهناتخيءُ بمعنى الدردور ، وهو موضعٌ في البحرِ يحش ماؤه فيخافُ فيه الفرقُ .

وَدَاعًا لِلطَّيْبَةِ قَبْلَ دُخُولِ الصَّحْرَاءِ الَّتِي تَرِافِقُهُ حَتَّى الْبَحْرَ تَقْرِيبًا ، وَلَا يَزَالُ الْأَبْنُوسُ<sup>(١)</sup> وَالْكَالِي<sup>(٢)</sup> يَنْبُتَانِ هُنَاكَ ، وَيَبْلُغُ الْعِظْلَمُ<sup>(٣)</sup> مِنَ الْكَثَّةِ مَا كَانَ مَعَهُ مَعْمَلٌ لِاسْتِفْلَالِهِ هُنَاكَ ، وَيَبْلُغُ السَّنَطُ مِنَ الْقُوَّةِ مَا أَنْشَأَ التَّرْكُ مَعَهُ دُورًا لِصِنْعِ السَّفِينِ هُنَاكَ ، وَهُنَاكَ يَنْمُو شَجَرٌ آخَرُهُ خَشْبٌ كَالْقَلْبَيْنِ وَتُصِيبُ عُصَارَتُهُ عَيْنَ الْحَطَّابِ بِالْعَمَى فَيَجْتَنِبُهُ جَمِيعُ الْحَيَوَانَاتِ خِلا الْمَرْءِ الَّذِي يَقْضِمُهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُصَابَ بِأَذًى ، وَيَسْتُطِ السَّنَطُ جَنْوَرَهُ فَيَلَامُ بِذَلِكَ مَدَّ النِّهَرِ وَجَزَرَهُ ، وَيَكُونُ مَاءُ النَّيْلِ مِنَ الْبُرُودَةِ فِي تِلْكَ الْمِنْطَقَةِ مَا لَا يَكْفِي مَعَهُ قَرُ<sup>(٤)</sup> اللَّيَالِي لِتَفْسِيرِهِ .

وَإِذَا سِيرْتَ مِنَ الْخُرُطُومِ مَرَحِلَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثَ مَرَاكِحَ ، أَى سَافَةً تَسْمَعُ كِيلُومِتْرًا مِنْ مَجْرَى النِّهَرِ التَّحْتَانِيَّ ، وَجَدْتَ عَرْضَ النَّيْلِ لَا يَزِيدُ عَلَى خَمْسَةِ وَسَبْعِينَ مِتْرًا ، وَأَبْصَرْتَ عُمُودَيْنِ مِنَ الْحَجَرِ الْبَرَكَانِيِّ<sup>(٥)</sup> لِلدَّلَالَةِ عَلَى مَدْخَلِ مَضِيقٍ ، وَهَذَا هُوَ بَدْءُ الشَّلَالِ ، وَيُسَمِّيهِ الْجُغْرَافِيُونَ بِالشَّلَالِ السَّادِسِ ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ عَدُّوا الشَّلَالَاتِ بِأَدْنَى مِنْ مِصْرَ مَتَوَجِّهِينَ مَعَ الْحَضَارَةِ إِلَى مَجْرَى النِّهَرِ الْفُوقَانِيِّ ، وَأَرَانَا مَضْطَرِينَ إِلَى مَجَارَاتِهِمْ مَعَ أَنَّ النِّهَرَ يُوصَفُ كَمَا تُوصَفُ حَيَاةُ الْإِنْسَانِ فَلَا يُبْدَأُ مِنْ خَاتِمَتِهَا ، وَيُخْصَى الْعَرَبُ ٣١ شَلَالًا ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ يَعُدُّونَ كَثِيرًا مِنَ الْمَسَاقِطِ مِنَ الشَّلَالَاتِ ، وَالْعَرَبُ قَدْ دَعَوْا الشَّلَالَاتِ بِأَسْمَاءٍ خَيَالِيَّةٍ بَدَلًا مِنْ تَعِينِهَا بِأَرْقَامٍ ، فَقَالُوا : عُنُقُ الْجَمَلِ وَالرَّجُلَانِ وَبَيْتُ الْعَبْدِ وَالْمَقْفُورِ وَاللَّوْحِلُ وَالْحَارِكُ<sup>(٦)</sup> ، وَتَبْدَأُ عُرْوَةُ النَّيْلِ الْكَبْرَى ، وَهِيَ الْوَحِيدَةُ فِي مَجْرَاهِ الطَّوِيلِ مِنَ الْجَنُوبِ إِلَى الشِّمَالِ ، عِنْدَ الشَّلَالِ السَّادِسِ ، وَتَنْتَهِي بِالشَّلَالِ الْأَوَّلِ تَمَامًا ، وَيَقَعُ الشَّلَالُ السَّادِسُ ، أَى خَانِقُ سَبْلُوقَةِ ،

(١) الْأَبْنُوسُ : شَجَرٌ عَظِيمٌ صَلْبُ الْعُودِ أَسْوَدُهُ — (٢) Aca ou — (٣) الْعِظْلَمُ : نَبْتٌ يَصْنَعُ بِهِ — (٤) الْقَرُ : الْبُرْدُ — (٥) لَمْ نَجِدْ بَعْدَ الْبَحْثِ فِيهَا أَتَى إِلَيْنَا مِنَ الْكُتُبِ أَصْلًا لَهُذِهِ الْأَسْمَاءُ ، وَلَمْ يَذْكُرِ الْمُؤَلِّفُ مَصْدَرَهَا تَقْرِيبًا .



## اللال تأخذ بخناق النيل

في الدرجة السادسة عشرة من العرض الشمالى، ويقع اللال الأول في الدرجة الرابعة والعشرين من العرض الشمالى، أى عند أسوان، ويقع كلا الشالين على درجة واحدة من الطول .

وفي الصحراء، حيث لا شئ يقف النهر، تسد طريقه غرانيت وجنادل ترجع إلى ما قبل الطوفان فنقض عليه عطفة ١٢٠٠ كيلومتر، ولكن مكافئة الصخر هذه ترد إلى النيل من النشاط والحيوية ما يحول دون جفافه بين سهلين من الرمل، والنيل يبتلى ب ٣١ شلالاً ثم يخرج منها ظفراً كما خرج من المناقع .

وجميع اللال التي تأخذ بخناق النيل في أثناء ذلك السير وتقف الملاحه هي من الصوان والصخر البلورية ومن صفائح من صلصال<sup>(١)</sup>، أى من صخور ابتدائية، ولو استطاع الإنسان أن ينشئ قنوات على طول المناقع لوجب عليه أن ينفق المليارات حتى يتغلب على الغرانيت، ولن تكون الطريق الصالحة للملاحه هذه غير قوس دائرية يكون خط كتشتر الحديدى وتراً لها، وللنيل ثلاثة فروع صالحة للملاحه، فأما الفرع الأول فيبلغ من الطول ٢٥٠ كيلومتر في القسم الأعلى من النيل، وأما الفرع الثانى فيبلغ من الطول ١٨٠٠ كيلو متر ويقع بين رجاف واخرطوم، وأما الفرع الثالث فيبلغ من الطول ١٣٠٠ كيلو متر ويقع بين وادى حلقا والمصب، وإذا عدت النيل الأزرق الصالح للملاحه في ستمئة كيلومتر منه لم تجد النهر الملاق نافعاً لسيّر السفن في نصف مجراه وإن كانت السفن تمخر على مساوف<sup>(٢)</sup> قصيرة بين شلالاته، ولأنهار إفريقية الأربعة الكبرى مثل

(١) الصلصال : الطين اليابس الذى يصل من يسه أى يصوت .

(٢) المساوف : جمع المسافة .

ذلك النصب ، وما فى هذه القارة من هضابٍ فيمتنع من وجود شرايين كبيرة للتجارة العالمية فيها كما فى القارات الأخرى .

وتبدو ظاهرة المثة جزيرة فى هذا المكان ، وعلى مسافة ألفى كيلومتر من هرم رجاف ، وسنرى هذه الظاهرة فى جميع الشلالات .

ويكون النيل على ثمانية عشر كيلومتراً ، وبين مساقط صغيرة وكبيرة ، علماً من الجزر المستورة بالخضر والبُلَّة بالطراء والزبد ، والبادية مثل جنة صغيرة مقابلة لصخر صلي<sup>(١)</sup> وسهب جاف أصفر ، وظلل هذه الجزائر بالسنت ذى الفروع الطويلة وأشجار الجميز الجميلة وأشجار الدوم<sup>(٢)</sup> التى تلتقى عليها للمقرشات كما فى الأيكة البكر ، ولها بالخضر الدائم بين الماء المارب تمويض من عزتها ومن حياة الخيال التى لا يكدر صفوه حيوان ولا إنسان إلا نادراً ، وهكذا تبصر تحت ظل حديقة رائعة نسوة من ذوات السعادة يدعن سياح الحياة الخالدين يمرّون من غير أن يحسّدنهم . وعندما تدخر الصخر النيل نحو الشرق ، وتقرض عليه مرفقها ، لا تمين مجراه فقط ، بل تقرر بانحدارها ، أيضاً ، مصير الأراضى الممتدة على طول الضفاف ، وتكفى هذه الأراضى الضيقة الخصيبة المنطاة بالغرين ، والتى لا يزيد طول الواحدة منها على خمسة أمتار فى بعض الأحيان ، لتموين قرية قائمة أكوأخها الطينية على الصخر ، وذلك مع العناية بأصغر قطعة أرض لزراعة الحبوب وغرس النخيل .

وتقع شندى على ضفة النيل الشرقية ، ولشندى مقدار غير قليل من الأراضى الصالحة للزراعة ، ثم يؤغل النهر فى الصحراء بعد أن يقابل آخر رسول من الشرق وذلك كلك يقابل آخر ساع قبل ذهابه إلى معركة كبيرة ، فهر العظيرة ينضم إلى

(١) الصلح : الأملس الذى لا ينبت شيئاً — (٢) الدوم : شجر يشبه النخل .

النيل في مجراه التحتاني بعد ثلاثئة كيلومتر من الخرطوم ، و يَصِلُ هذا الرافدُ الأخيرُ من البراكين الحَبَشِيَّةِ التي يَخْرُجُ النيل الأزرق منها .

ولا يَعْلَمُ السَّاحِلُ الذي يَمُرُّ في شهر يونيه من قنطرة العظيرة الكبرى ، وهي الجِسْرُ الرابع بعد منبع النيل ، إغفاقَ كَنَشَرِ مِبَالِغٍ كَثِيرَةٍ لِإِدْخَالِ أَرْكَانِ أَقْوَاسِهَا السَّتِّ عَمِيقَةً إِلَى الصَّخَرِ ، وذلك لَأَن مَجْرَى النهر الفَاغَرِ فَاه جافٌ ، وإذا ما عاد في شهر يوليه هَدَرَ سَيْلٌ عَرَضُهُ خَمْسُمِئَةِ مِترٍ بِالْعَمِّ مِنَ الْعَنْفِ حَوْلَ تِلْكَ الْأَرْكَانِ مَا تَلَطَّمُ أَمْوَاجُهُ الْوَحِلَّةُ مَعَهُ ضِفَّةَ النَّيْلِ الْغَرِيبَةِ ، أَيْ تَصْدِمُ مَا بَعْدَ مَصِّبِهِ عَلَى مَسَافَةٍ غَيْرِ قَصِيرَةٍ ، وهذا هو سبب تسمية العرب إياه بـ « النهر الأسود » ، ويَخْرُجُ نَهْرُ الْعُظِيرَةِ فِي جَرِيَّتِهِ الْغُصُوبِ لِلشَّابَهَةِ لِجَرِيَّةِ النَّيْلِ الْأَزْرَقِ ، وَنَهْرُ الْعُظِيرَةِ يَتَغَدَّى بِمَا يَتَنَدَّى بِهِ النَّيْلِ الْأَزْرَقُ مِنَ الْأَمْطَارِ ، خَيْرُ زُرْنَاكَ وَسُوقًا وَأَصُولًا وَجُلُودًا وَبِقَرًا وَفِيُولًا مُمَزَّقَةً وَعَالِمًا غَافِلًا مِنَ الْحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ فَاجَاءَ وَحَمَلَهُ وَقَتْلَهُ كَمَا تَجَرَّفُ الْعَاصِفَةُ الثَّوْرِيَّةُ أَبْنَاءَ الطَّبَقَةِ الْوَسْطَى النَّعْسِ .

ذلك هو آخرُ رافدٍ للنيل ، وتلك هي الصحراء ، ويظلُّ النهر وحيداً ، ومع سابق مياهه حتى النهاية .

ولو ادى النيل في أثناء الجُرْمَى من تلك العُرُوة الكبرى ثلاثة ألوان ، فالصحراء شديدةُ الصُّفْرِ في الناحيتين إلى ما لا حَدَّ لَهُ ، والأراضي المزروعة شديدةُ الخضرة ، ويكون عَرَضُ هذه الأراضي نحو ميلٍ أحياناً ، وتكون هذه الأراضي ضيقةً غالباً ، ولا تكاد تَبْلُغُ مِنَ الْعُمُقِ مِثْلَهُ قَدَمٍ عَمُومًا ، وفي الوسط يَبْرُزُ غَرَانِيتٌ مُبَلَّلٌ رَمَادِيٌّ لَامِعٌ ، وَتَبْرُزُ جَزَازَاتٌ وَصَخُورٌ مِنَ الْمَاءِ الْفَائِرِ وَتُحْدِثُ مَسَاقِطَ ،

وَيُعَدُّ الانتقالُ للفاجئ<sup>(١)</sup> من الرمل الأصفر إلى الشفير<sup>(٢)</sup> الأخضر، ويُعَدُّ خِصْبُ أَصْغَرِ أَرْضٍ، ويُعَدُّ عَدَمُ وجودِ مِنْطَقَةٍ نِصْفِ صحراوية، أموراً شاهدةً على افتقارِ حقولِ يَمِنُ الله عليها بمطرٍ قليلٍ في بعضِ الأحيان وعلى عملِ الإنسانِ الذي أبدعَ حديقَةً على الرغمِ من الباديةِ بَمَتَّحِهِ<sup>(٣)</sup> ماءً من النهرِ في مجراه الحجريِّ.

والساقيةُ، أو الناعورة، هي الجَنِيَّةُ التي يُعَدُّ جميعُ ما تقدمَ مديناً لها، وستقومُ بمثلِ ذلكِ العملِ في مَصَرٍ عندَ ما يَبْلُغُ الفيضانُ السريعُ نهايته، وتُرافِقُ النهرَ أَلُوفُ الدواليبِ ذواتِ الصَّريفِ<sup>(٤)</sup> والقَصِيفِ<sup>(٥)</sup>، وتُدِيرُ أَلُوفُ الثيرانِ في عشرِ ساعاتٍ من كلِّ يومٍ دواليبَ مُنْتَصِبَةٍ باحثةً عن الماء، ويَحْتُ كُلُّ زوجينِ من الثيرانِ رجلٌ أو صبيٌّ يَدُورُ معها، وأولئك الثيرانُ وأولئك الصبيانُ هم حَفَدَةُ ثيرانٍ وأناسٍ يَمْتَحُونُ، منذ أَلُوفِ السنين، ماءَ النيلِ في المكانِ بعينه وبالدواليبِ والقواديسِ<sup>(٥)</sup> بينها.

وما النخلُ الذي يُتَّخَذَ خَشْبُها في صنعِ النواويرِ تحت وَهَجِ الشمسِ إلا صادرةً عن النخلِ التي غرسها المصريون والرومان والوثنيون والمسلمون والنصارى في تلكِ الضَّفافِ المستوية، والتي شَدَّبُوها على نمطٍ واحدٍ وَجَهَّزُوها بِجبالٍ وأَسنانٍ تَهْلِلُ لدورةِ الماءِ وللخِصْبِ حتى حدودِ الصحراءِ، والدولابُ يُقَنَّى بلحنته المَطْرِدِ النعمِ على مسافةِ أَلُوفِ الأميالِ، والدولابُ القديمُ الأعَدُ<sup>(٦)</sup> الأقصفُ يُحوَّلُ طرفُ الصحراءِ إلى نهرٍ من

(١) الشفير: من الوادئ ناضجه من أعلاه — (٢) منح الماء: نزعه — (٣) صرف: صوت عند فتحه وإغلاقه — (٤) القصيف: هدر البعير — (٥) القواديس: جمع القادوس، وهو إزاء يخرج به الماء من السواق — (٦) الأعقد: ما كان به عقد.

النخل تغطي كل شئ.

زُرْد، وذلك كالإله فُولِكَن<sup>(١)</sup> الذى هو أبشع الآلهة فكان يصنع حُلَّةً من الزُرْد بين الذَّمَّى<sup>(٢)</sup> والعُثَان<sup>(٣)</sup>.

وعلى الجُرْفِ<sup>(٤)</sup>، وفوق النهر، تُحَرِّكُ جِبَالٌ غليظةٌ دُولَاباً عمودياً حاملاً نحو عشرين من الجِرَار الطويلة المصنوعة من طين لازب<sup>(٥)</sup> أحر، وهذا الدُولَابُ يدُورُ حَوْلَ جِذْعِ<sup>(٦)</sup> نخلةٍ مُدَمَّجَةٍ تلميحاً أفقياً فى مركزه، وفى الأسفل تَمُطِّسُ كلُّ جَرَّةٍ فى الماء وتمتلئ، فإذا ما صَعِدَت ثانية انخرقت عن عموديتها وصَبَّت الماء فى ساقِ شجرةٍ مُجَوَّفَةٍ تَجَلُّبُهُ إلى خَنْدَقٍ صغير، ويندمج جِذْعُ النخل الأفقى، على ارتفاع بضعة أمتار، فى دُولَابٍ كثيفٍ ثانٍ يُديرُهُ الثَّوْرَانِ حَوْلَ مِخْوَرٍ عمودى، ويجلس الصبُّ السائقُ لهما على لَوْحٍ صغير خلفهما، وهو فى كلِّ دورة يَخْفَى رأسُهُ مرتين تحت نخلةٍ ثالثة اتَّخَذَتْ زَافِرَةً<sup>(٧)</sup>، وهو فى مراتٍ أُخَرَ يسير وراء الثَّيْرَانِ مُنَمِّسِكَا الرِّسْنَ غيرَ مضطربٍ إلى الانحناء كثيراً كما فى تلك الحال.

وعندما يتحرك الدُولَابُ المُحَرِّكُ يدُورُ جِذْعُ النخلة العمودى فى مركزٍ خشبىٍّ موضوعٍ فى الأسفل فيؤدَّى ذلك إلى الصَّرِيف الذى يُسَمَّع على طول النيل فى بلاد النوبة ومصر، ولا يَتَقَدَّرُ الفقيرُ على رَكْزِ مَدَارٍ فى الأرضِ لِمَا ليس لديه من جَيْتَرٍ<sup>(٨)</sup> ومسامير، فترى كلَّ شئٍ مُشَدَّباً فى الخَشَبِ، والنخلُ تُمَطِّي كلَّ شئٍ، تُمَطِّي جُدُوعَهَا وشُرَطَهَا<sup>(٩)</sup> وأوراقها الجُفَافَةَ التى تَتْبَعُ الفلاحَ حَرَّ الشمس،

(١) فولكن : إله النار والمدن عند الرومان كما جاء فى الأساطير — (٢) الذى : الرائحة الكريهة — (٣) العُثَان : الدخان والغبار — (٤) الجُرْف : الجانب الذى أكله الماء من حاشية النهر — (٥) الطين اللازب : هو الطين المترج المتماسك الذى يترسب بفضه بعضاً — (٦) جذع النخلة : ساقها — (٧) زافرة البناء : ما يدعم به — (٨) الجير : الجس .  
(٩) الصرط : جمع الصريط ، وهو الحور المتدل ، والحفوس هو ورق النخل .

والدولابُ وحده هو الذى يُصنع من خشب السَّنط في الغالب ، ويسير الفلاحُ على سُنَّة أجداده فلا يبتاع غيرَ الجِرار ، وإذا ما كُسِرَت جِرَّةُ استبدل الفلاحُ بها ، في الوقت الحاضر ، إنَّه من صفيح الزيت أو عُلْبَةٍ كبيرةٍ من عُلَبِ المحفوظات <sup>(١)</sup> الفارغة .

والعُلْبُ اللامعة بنور الشمس هي كلُّ ما بُدِّل في الساقية منذ عهد الفراعنة ، وتَدوِّرُ الساقية المَصَوَّرَةُ على جُدُرِ قبور الفراعنة كما تَدوِّرُ اليوم ، وإذا ما حُرِّكَتْ كلُّ واحدةٍ من الساقيتين أو السواقي الثلاث أو الأربع بزوجين من الثيران بَلَغَ ماء النيل في بضع دقائق مِنطَقَةً مرتفعةً عنه عشرين متراً جافَّةً مُجَرَّدةً منتظرةً سَعَى الإنسان لئَسْتَرَّ بالحَصَرِ .

تلك هي الآلةُ السحريةُ القديمة التي تقوم مقام المطر في الأشهر الثمانية التي لا يأتى النهر في أنثائها بماء جبال الحبشة الذي يفيض على الأراضى الممتدة حوله ، وَيَفْقِدُ المحراثُ فائدته فيُجهل أمرُه في مساوِفَ واسعةٍ في بلاد النوبة ، وفي مصرَ بعدئذ ، حيث يَصِلُ الماء وصولاً طبيعياً أو مصنوعاً فيُنْعِمُ بالمحاصيل قسراً ، وحيث تقوم ثلاثة أشهر ، أو بضعةُ أسابيع في بعض الأحيان ، مقامَ دَوَرَيْنَا من الخريف إلى الربيع ، ويُحْدِثُ الفلاحُ حَقْراً بطرف حديدية ، أو بَمَقْبِ قَدَمِ أحياناً ، وَيَزِمِي فيها بعضَ الحبوب ، ولا يَعْرِفُ الفلاحُ سَمَاداً غيرَ الكَلَّا الفاسد الذي يَقلِّعه ، وينبُت الحبُّ بسرعةٍ وَتَبْلُغُ السُّوقُ ارتفاعَ خمسة أمتار في بعض الأحيان ، وَتُعْطِي الأنواعُ الجيدةُ عرائسَ ذاتِ حُصْلٍ كبيرةٍ وَحَبٍّ أبيضَ ذى غلافٍ دقيق ، وَتُعْطِي هذه الذَّرَّةُ عن البرِّ والشَّعِيرِ ، وَيَزْرَعُ ابن الشاطئ فضلاً عن ذلك

ثامراً<sup>(١)</sup> وفولاً وعدساً وقرعاً وشمأماً وتَبَغاً وفُقُلاً أحمر وخزوعاً، وَيَنْضَجُ أحلى مافى  
جميع وادى النيل من الرُّطْبِ حَوْلَ بَرْبَرٍ ودُقْلَةٍ، وتَتَّخِذُ طريقةً طريقةً لتأبير<sup>(٢)</sup>  
النخل، وذلك أن النخل، لقلة ما بينها من فحاحيل<sup>(٣)</sup>، يوزَّعُ بينها اللقَّاح<sup>(٤)</sup>  
كما فى نظام الأمومة، فإذا حلَّ فصل الربيع تَمَلَّ<sup>(٥)</sup> الأولاد فى النخل وجنَّوا  
عساليها<sup>(٦)</sup> المزهرة ورمَّوا الكُشَّ<sup>(٧)</sup> على أُنثاها وسَقَوْها بماء الناعورة، وإذا  
هَبَّت ريح السُّومِ سَحَدُوا الله، فالمثلُّ العربى يقول: «يَنْمُو بِلحُ الله وِرْجُلُه فى  
الماء ورأسُه فى نارِ السماء».

واليك أناساً سُمرّاً طَوَّالاً رِخافاً، كُلُّهم من عَصَبٍ وَعَصَلٍ، كُلُّهم من غير شعير  
بفعل رمل الصحراء وحرَّها، إليك البرابرة الذين يقيمون بأطراف عُرْوَةِ النيل منذ  
ألوف السنين، وقد كانوا بدويين فيما مضى، ولا يزال أبنائهم جنسهم من أهل البدو،  
وَيَحْلِقُونَ شعورهم ولِحَامَ مَلْطًا، ولم جِيَاءَ راجعةً، وهم قُفَمٌ<sup>(٨)</sup> الأنوف، خُوص<sup>(٩)</sup>  
العيون كما تَبْدُو تحت حواجبهم الكثيرة الشَّعر، وتَظْهَرُ الحياة على سيماهم من بصرهم،  
ويبدون نشاطهم وودادهم من أول اختلاطهم بهم، ويتَّخِذُهم أغنياء المصريين فى القاهرة  
خَدَمًا وسُجَاعًا وطُهَّاءَ وخُوزِيَّينَ<sup>(١٠)</sup> لِمَا عُرِفَ من إخلاصهم لسادتهم، ويُعَدُّون  
أكثرَ أهل إفريقيا الشرقية قِرَى، ويفتنون بالذُّرَّةِ والجُبْنَةِ وحُقَّةِ من التَّمَرِ،  
وينامون فى الغالب على صُنْدُوقٍ قديم من غير أن يزول أنسهم، ويَذْبَحون شاةً

(١) الثامر: اللوياء (٢) أبر النخل تأبيراً: لقصها — (٣) الفحاحيل: جمع الفحل والفحلا، وهو ذكر النخل — (٤) اللقَّاح: فتحة اللام ما تلتصق به النخلة — (٥) تَمَلَّ فى الشجر: سمد: (٦) الصاليج: جمع الصالوج، وهو مالان من قضبان الشجر — (٧) الكش: ما تلتصق به النخل — (٨) القم: جمع الأقم، وهو ذو القم، أى الميل فى الأنف — (٩) الخوص: جمع الأخوص، وهو من غارت عينه فى رأسه — (١٠) الخوذى: المسحت الخيل أو الدواب على السبر، ويستعملونها الآن لسائق المركبة، وتسميه العامة بالكلمة التركية «المربجى».

تكريماً لضيئهم ، ويمحئون له عن كَبَنٍ سائغٍ وَبِنٍ حَسَنٍ من مسافة بعيدة ،  
وَيَحْرُسُونَهُ وقت نَوْمِهِ أو يَقْضُونَ عليه أَقاصيصَ قَدِيمَةً تحت السماء ذات الكواكب ،  
وفي لغتهم من البقايا ما يَنْبِئُ على أنهم كانوا نصارى قبل أن يصيروا مسلمين ،  
ولا يزالون يُسَمُّونَ يَوْمَ الأحد يومَ الرَّبِّ .

وعاصمتُهُم ، بَرْبَرُ ، بَقْعَةٌ خضراءُ في الصحراء الصفراء ، وهي واقعةٌ على مجرى  
النهر التحتانيُّ بعد مَصَبِّ المطيرة ، وهي ، وإن لم تكن مهمةً في الوقت الحاضر ،  
كانت أكبرَ مدينةٍ على النيل الأعلى منذ ثمانين سنة ، وكانت السفن الشراعية  
تَقْصِدُها ، وكانت منذ القديم سوقاً للعاج والذهب ، وللنخاسة على الخصوص ،  
وما فيها من حدائقٍ ظَلِيلَةٍ لَشِيبِ الموظفين والتجار قَدِينٌ ، بالحقيقة ، لمرق  
الإنسان والحيوان .

وللنيل صَوْتٌ في تلك المنطقة ، والنيلُ في مِنطَقَةِ الشلالات تلك ، والنيلُ في  
ذلك المُنْعَطَفِ الذي يجاوز أربع درجاتٍ من العرض ، يَهْدِرُ وَيَرْمَجِرُ وَيُرْعِدُ وَيُرْبِدُ ،  
ولا مِرَاءَ في أن يَقَرَّ الصَّوَانُ تلك ، ولا مِرَاءَ في أن حواجزَ الفرائيت تلك ، كانت  
تُوَلِّفُ بحيراتٍ كبيرةً قبل أن يَشُقَّ النيلُ لنفسه طريقاً ، وهي لكي تتواري وَجَبَ  
انقضاءُ ألوف السنين في اصطراعِ الماء والصخر ، ولم تنفك الصخورُ تُدْرَسُ<sup>(١)</sup>  
وتُدَّاسُ<sup>(٢)</sup> بالمَوْجِ الظافر غير تاركةٍ للموج غير ذراتٍ وحَصِيَّاتٍ نتيحةً لمضوعها ،  
ويتَقَصُّ النهر بين مئاتِ الجنادل والجُزَيْرَاتِ ومن خلال الدوافع ، التي تَبْلُغُ من  
الطول عِدَّةَ كيلومتراتٍ ، مُضَوِّضَةً<sup>(٣)</sup> ضوضاءَ زَعَمَ كاتب رومانيٌّ أن أهل الشواطئ  
كانوا يهاجرون بسببه خوفاً من أن يصبحوا صُماً ، ومهما يكن من أمرٍ فإن ما يُخْرِجُهُ

(١) درس الشيء : جله باليا — (٢) دلس السيف : مقله — (٣) ضاًضاً القوم في الحرب  
وضوضاًوا : صوتوا .



البرابرة من أصوات هائلة في الوقت الحاضر يُعدُّ دليلاً على أن الضرورة تُقوِّى أى عضو كان ، وذلك لبلوغ أصواتهم من ضفة إلى أخرى مع هدير الموج ، على حين لا يكاد الرجل الأبيض يُسمع صوته لمسافةٍ عشر خطوات .

ولأذُننا أن تقضى العجب في تلك الضفاف الرائعة ، فالسائح الذى يسير بين كثيئين راكباً بعيراً دانياً من النهر من غير أن يرى رأس نخلةٍ أو يرى جارية سفينةٍ يُفتن أيضاً بسماعه من بعيدٍ خريرَ المياه كما كان يُفتن أغارقة عصر هيرودوتس بمثل ذلك عند مشاهدتهم البحر ، والسائح الذى يمشى على الضفة وقت الفيضان يسمع اختلاط هدير الأمواج باصطكاك الحصا عند زحولها<sup>(١)</sup> عن الشاطئ بقوة المد .

وتحاول جُزرُ سبع جزيرات كثيرة عند الشلال الخامس ، وبعد سبعين كيلومتراً من بربر على مجرى النهر التحتانى ، أن تسدَّ مجرى النهر في عشرة كيلومترات على غير جدوى ، ثم تتغلب الصخور على الماء حول الدرجة العشرين من العرض الشمالى وبعد الخرطوم بأربعة كيلومترات الخط الحديدى ، وتكرِّهه على الصراع متقهراً ، ويحمل السباط البركانى التخين ، الذى يجوب الصحراء من الشرق إلى الغرب ، نهر النيل على الرجوع إلى وراء المرة الوحيدة في حياته ، وعلى الجريان نحو الجنوب لبضع مئات من الكيلومترات كالعائد إلى متبعه ، وهو إذا كان على بُعد من خصمه الفرائسى استأنف جريته إلى الشمال من قوره ، أى سلك السبيل المُعدَّة له ، وذلك كالرجل الذى يغير وجهته ليرجع إليها بقوى منطوية .

ويقع مرفق أبى حمد والخرطوم وأسوان على خط عمودى واحد تقريباً ،

(١) زحل عن مكانه زحولا : زال وتبعد وتحي .





وَتَبَدُّوْا فِي هَذَا الْمُنْعَطَفِ إِحْدَى جُرُرِ النَّيْلِ الْكَبِيرَةِ ، الْبَالِغَةِ مِنَ الطُّوْلِ عَشْرِينَ مَيْلًا وَمِنَ الْعَرْضِ ثَلَاثَةَ أَمْيَالٍ ، شَاهِدَةً عَلَى اصْطِرَاعِ الْعُنَاصِرِ ذَلِكَ ، عَلَى حِينِ يَصْبِيقُ النَّهْرُ بَيْنَ ضِفَتَيْهِ الصَّوَانَتَيْنِ وَيَتَسَّعُ مُتَنَاقِبًا بَيْنَ مَتْنِي مَتْرَ وَأُنْفَى مَتْرَ ، وَكَانَ الْقَدَمَاءُ يَبْحَثُونَ عَنِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ فِي جُرُرِهِ ، وَيَتَكَلَّمُ دِيودُورُسُ عَنْ وَجُودِ نَحَاسٍ وَحِجَارَةٍ ثَمِينَةٍ بِجَانِبَيْهَا ، وَهَذِهِ إِمَّا أَنْ تَكُونَ قَدْ سُرِقَتْ مِنْ هُنَاكَ ، وَإِمَّا أَلَّا تَكُونَ قَدْ وَجِدْتَ هُنَاكَ .

وَلَا يَنْقَطِعُ قُطَاعُ الطَّرِيقِ عَنْ تِلْكَ الْمِنْطَقَةِ ، لِأَنَّ النَّيْلَ هُوَ السَّبِيلُ الْوَحِيدَ بَيْنَ الصَّحْرَاوَيْنِ ، وَإِذَا مَا لَاحَ لَنَا قَصْرٌ قَدِيمٌ أَسْوَدُ بَرَّاقٌ قَائِمٌ عَلَى شَاهِقٍ فَوْقَ الشَّاطِئِ ، وَأَبْصَرْنَا النَّهْرَ يُؤَلِّفُ دَوَافِعَ جَدِيدَةً لِيَصْبِيقَ بَيْنَ حَاجِزَيْنِ أُدْجِنَيْنِ فِيمَا بَعْدَ وَرَأَيْنَا كَوْخًا هَزِيلًا يَسْتَنْدُ إِلَى جَنْدَلٍ وَوَجَدْنَا فِيهِ زَوْجَيْنِ وَأَوْلَادَهُمَا يَتَكَيَّسَانِ عَيْشَهُمَا مِنْ قِطْعَةٍ صَغِيرَةٍ إِلَى الْغَايَةِ وَأَقَمَهُ عَلَى الصُّفَّةِ تَمَثَّلَتْ لَنَا ذِكْرِيَاتُ الْقُرُونِ الْوَسْطَى ، تَمَثَّلْ لَنَا الْفَارْسُ الْقَاطِعُ لِلْسَّبِيلِ وَالتَّاجِرُ الْأَسِيرُ وَالْفَلَاحُ الْمُسْتَعْطَى ، وَالْفُقَرَاءُ هُمُ السَّعْدَاءُ كَمَا جَاءَ فِي الْأَسَاطِيرِ ، وَلَا عَجَبَ ، فَقَلَّاحُوا تِلْكَ الْمِنْطَقَةَ يَقُولُونَ لِلشَّبَّاحِ إِنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَ الْأَمْرَاضَ .

وَالشَّلَالُ الرَّابِعُ أَعْنَفُ مِنَ الشَّلَالِ الْخَامِسِ ، فَلَيْسَ الْغَرَانِيتُ وَالْبَزَلْتُ وَحْدَهُمَا هُمَا الَّذَانِ يَعُوقَانِ النَّهْرَ ، بَلْ يَعُوقُهُ الرُّخَامُ السَّمَاقِيُّ وَالصَّوْكَانُ أَيْضًا ، وَيَقْرِضُ النَّهْرُ فِي سِتَّةِ كِيلُومَتَرَاتٍ طَرِيقَهُ مِنْ تَلٍّ أَسْوَدَ مُنْمَهٍ فَيُظْهِرُ مُحْصُورًا كَثِيرًا مُوَحِّشًا ، وَهَذَا هُوَ أَصْعَبُ قِسْمٍ مِنَ النَّيْلِ الْأَوْسَطِ ، وَأَكْثَرُ أَهْلِ الْبِلَادِ خَيْرَةً هُمُ الَّذِينَ يَجَاوِزُونَهُ ، وَيَتَعَاوَنُ الرِّقَاءُ عَلَى جَبِّ الْقَوَارِبِ الصَّاعِدَةِ فِي الشَّلَالَاتِ صِدَّ النَّيَّارِ ، وَذَلِكَ بَأَن يُقَرَّنَ كُلُّ دُولَابٍ بِجَبَلٍ حَتَّى الدُولَابِ التَّالِي ، وَجَمِيعُ النُّوْبِيِّينَ

سُبَّاحَ ماهرون ، فإذا أراد أحدهم أن ينزل إلى النهر فَتَخَّ في قِرْبَتِهِ ، أو جَلَسَ على رَمَتْ<sup>(١)</sup> مُدْرَب<sup>(٢)</sup> مصنوع من سُوْقِ الثَّرَةِ مَرْوَدًا بِخِزَرٍ وَتَمْرٍ في قِشْرٍ كَتَمَامٍ فيقضى أيامًا بأُسْرَها عَامًا سائرًا على النيل مُدْبِرًا لِلأَمْرِ يديه الماهرة .

وقد يُقْتَل رَجُلًا ، أو قد يُخْطَف كما كان يصنعه باريس<sup>(٣)</sup> الأسود الشهير الذي كان يُغْوِي حسانَ بلاد النوبة فيأتي بهنَّ إلى « كَعْبِ » العبد<sup>(٤)</sup> الذي لا يزال أَقْضَاهُ بادية على الشاطئ ، والعبدُ رقيقٌ بسيطٌ أَضَلَّ زَوْجَ سَيِّدِهِ فجاء بها إلى الصحراء الحَجَرِيَّة حيث شاد لها قصرًا منيعًا ، ولم يَجِدْ هذا النوبيُّ شاعرًا مثلَ أُوَمرِس يُشِيدُ بذكره فلم يَكْتَبِ الخلودَ لِمَلِكٍ يَمِينُهُ هِيلَانَةُ السوداء تلك ، غير أن أسطورتَهما تجرى بِتَوَادَّةٍ على شِفَاهِ الزَّوْجِ بين هدير النيل .

ويَظْهَرُ النهرُ مُوحِشًا بين تلك الصخور والجزُر كما في منبعه ، وهناك يستأنف الكفاحُ بقر الماء والتمساحُ ، أي سيدُ النيل ولِصُّهُ ، وهناك يَرْقُبَانُ السابح ، وعند ما يَصْرَعُ التمساحُ ، نصفُ المطمور في الرمل ، رجلاً بذَنْبِهِ لَأَعْبَهُ كَالْهَرَمُ مَرْعَبًا إِخْوَانَهُ ، وليس لدى هؤلاء ما لدى الثَّلَكِ من مهارةٍ ووسائلٍ دَفَاعٍ في مثل تلك الحال ، وهم يَزْعُمُونَ أن التمساحَ يُفَضِّلُ الأبيضَ على الزَّيْجِيِّ تَفْضِيلًا يَزْهَدُ الأوربيُّ فيه مختارًا ، ويمجدل كثيرٌ من الرُّوَادِ في تَتَبُّعِ التمساحِ للإنسان على الشاطئ ، ويؤكد النوبيُّ عكسَ ذلكَ فيَنْصَحُ الضَّحِيَّةَ بِالرَّكُضِ دَوَائِرَ دَوَائِرَ لِإِقْذَارِ نَفْسِهِ .

ولبقر الماء ما للنيل من طبايع ، فإذا داس في النيل إنسانًا أو حيوانًا بين حين

(١) الرمث : خشب يضم بعضه إلى بعض ويركب في البحر — (٢) مدرب : حاد .

(٣) باريس : من أبطال أساطير اليونان أغوى زوجة ميلاس : هيلانة — (٤) الكعب :

الجسم الذي له ستة سطوح مربعة متساوية ، ويأتي هنا بمعنى البيت .

وحين تَرَكَه وشأنه ، وإذا قَلَبَ زورقاً فلأن الزورق صغير ولأن الربَّ خَلَقَهُ كبيراً ، وهو لا يَجُرُّ إنساناً ولا حيواناً إلى الماء أبداً ، وهو في السَّباحة كالقيل في الأرض ، وهو بطيء الحركة دَيْثُ الخُلُقِ طَيِّبُ المَراجِ بين قُرَّانِهِ ، وهو في الغالب أقلُّ ضوضاءً ودوراناً من باخرة نيلية صغيرة تَشْفَلُ مثله حَيَّرَ طُنَيْنِ من الماء ، وهو ذولون زيتوني سِنْجَابِي<sup>(١)</sup> ، وهو من الجمود ما يُعَدُّ معه جُلُوداً بارزاً من الماء لولم تَمِ شاماته الوردية الجميلة وعينه وأذناه وَخَطْمُهُ<sup>(٢)</sup> على أنه حيوانٌ ، ولولم يَفْقَرْ فاه بفتة عارضاً أسناناً مائلة بالية كاشفاً على لسانه المريض قَصْفَ التَّيلُوفَرِ<sup>(٣)</sup> الذي تَغْنَى الشعراء بلفظه .

وليس لبقر الماء عينان غائرتان كعيني القيل ، بل تبلغ عيناه من الكِبَرِ ما يُحَيِّلُ إلى الناظر معه أنها موضوعتان على وجهه ، ولبقر الماء بهما مع أذنيه الصغيرتين من قوة الشهور ما يُحَسُّ به حضور أعدائه ، وهو إذ كان لا يَمُشِي أحداً من هؤلاء تراه كثير الهدوء فيما خلا وقت السَّفاد<sup>(٤)</sup> ، وإذا كَثُرَت النباتات المائية لم يَخْرُجْ من الماء في الليل ، وهو يَقْصِدُ الشاطئ مساءً اجتِباعاً<sup>(٥)</sup> للكلأ ، وإذا سُمِعَ حَوَارُهُ أَتَدَّ ظَنٌّ أنه خارج من مفارقة فتولى الأدبارُ لقدرته على سَخَقِ ثَوْرِ عند مروره ، وهو يُنْجِثُ في الحقل الذي يَحْبُوهُ إذ ذاك حُفراً أعمق مما يُجَدِّثُهُ بِحَرَثٍ حَدِيدِيٍّ\* .

ثم يعود إلى النهر الذي هو موطنه .

(١) السنجابي : نسبة إلى الحيوان المعروف بالسنجاب ذي اللون الأزرق الرمادي — (٢) الخطم من الدابة : مقدم أنفها وفها — (٣) التيلوفر : ضرب من النبات ينبت في المياه الراكدة له أصل كالجزر وساق أملس يطول بحسب عمق الماء فإذا ساوى سطح الماء أورق وأزهر — (٤) سافد الذكر أثناء سفاده : جامعا — (٥) اجتبع القوم الكلأ : ذهبوا لطلبه في أماكنه .

جانب النيلُ في مجراه الطويل جبالا ومناقع وصحارى فلم يصادف على ضفتيه أثرًا  
للماضى ، ولو كان عموداً مكسوراً

وتُبصر من فورك حقلًا من الأهرام في مجرى النيل التحتانى بعد الشلال الرابع ،  
تُبصر أكثر من أربعين جدًا<sup>(١)</sup> لأناس من ذوى السلطان ، وتُبصر في أقصى  
جنوب منعطف النيل ثمانية أجداثٍ أو تسعة أجداثٍ على سفح تلٍّ ومن مسافة  
بعيدة ، أى فى صنم أبى دُوم ، فإذا اتجه النهر إلى الشمال مجددًا تعاقبت الأعمدة  
والمباني والأهرام مع فواصل طويلة حتى الشلال الثانى ، وإلى أى دورٍ من ظلمات  
التاريخ تُعيدنا تلك الآثار ؟ ومن هو الفاتح الذى نقش على الغرائيت وبالخط  
الهيروغلىفى ، أسماء قبائل الزوج الوحشية وكتبها على أوراق البردي لتُنقل إلى  
الأعقاب ؟ ذلك الفاتح هم المصريون الذين جاءوا عن طمع فى الذهب والعبيد ،  
والذين هم أقدم العروق على النيل وفى العالم الغربى .

والنيل هو الذى عارضهم بشلالته ، والنيلُ الحافلُ بالأسرار ، وهو كالتفسير  
الذى يمتنع المؤمنون من رؤية وجه الله ، هو الذى يلوح أنه حال دون مدِّ الأجانب  
عيونهم إلى عزلة المياه التى تمنّ عليهم بالحياة ، وهل كان المصريون يتوجّهون إلى  
مجرى النيل الأعلى على زوارقهم ، وهل كانوا يصنعون زوارق بين الشلالات ؟  
لا ماء فى الصحراء ، وكثير ماء فى النيل حين الفيضان ، فما كان يمكن الأجانب

(١) الجدث : القبر .

أن يسيروا إلى مجراه الأعلى لهذا السبب ، وزمرّ قليلةً فقط هي التي كانت تجرّو على التقدم عند إغضاء الأهالي الأصليين عن ذلك ، ويكون الهلاك نصيبها إذا ناصبوها الدّاءة ، وتدلّ الأفاصيصُ الأثنية على أولئك المخامرين الذين دفعهم فصولهم فردّهم فزعّهم .

ويسير رمسيس الكبير متوجّهاً إلى مجرى النهر الأعلى في نهاية الأمر ، ويُقيم رمسيس هذا مستعمراتٍ على ضِفْتَيْهِ ، وَيَشِيدُ معابدَ ومُدُنًا على ضِفْتَيْهِ ، وَيُسْكِنُ فلاحين وصُنّاعاً هنالك ، وَيُخَلِّدُ مآثره بإقامة مبانٍ وتمائيلٍ في بلاد النوبة ، وَرَسَمَتِ الملكة حاتشيشْت على جُدُرِها زَوْجاً جالِبِينَ لها مواشِيَ وزرائفَ وجلودَ أسودٍ وحلَقَ ذهبٍ مع اتخاذهم أوضاعَ المغلوبين ، وَتَرْجِعُ هذه الآثارُ إلى أربعة آلاف سنة قبل الميلاد ، ومما حَدَّثَ قبل المسيح بألْفِي سنة أن أوغل القراعة حتى النيلِ الأزرق ذاتَ مَرَّةٍ ، ومما لا ريب فيه أن امتدَّ سلطانهم بين سنة ١٩٠٠ وسنة ١١٠٠ قبل الميلاد إلى الشلال الرابع وأن أخذوا من بلاد النوبة عبيداً وذهباً . ومع ذلك كان النيل ينجي من أبنائه من لم يَفْتِنَهُ الأجنبيُّ ، ومع ذلك كان النيلُ يُحَطِّمُ سَفْنَ الغزاة فيهِ هؤلاء الأبناء إلى قتلهم ، ومع ذلك كانت سَيَاطُ الرِّفَاءِ تَقْلُو هؤلاء الأبناء في الغالب فيُكْرَهُونَ على حَقْرِ دِهالِيزٍ في التلالِ وَتَتَبَعُ عُرُوقِ الذهبِ فيها وفكُّ الصخور بإحاثها وإسقاطها بمآولٍ من حديد ، وفيما يُحْمَلُ الشبابُ على الجَبِيّ عُرَاةً وعلى جَمْعِ القِطْعِ التي تَسْقُطُ على ضَوْءِ الشَّرِجِ<sup>(١)</sup> المترجرج ، والجَبِيّ<sup>(٢)</sup> بها إلى نُورِ النهار ، يَسْتَحِفُّ الشَّيْبُ والنساء يَرَحَى حتى

(١) الشرج : جمع السراج ، وهو إلقاء يحمل فيه زيت أو نحوه فيمعد في قنينة ويحتمل إلى مواد مشتتة في طرفها عند ما تمسه النار فيستضاء به — (٢) حبا الولد يحبو حبوا : زحف على يديه وبطنه .



تصبح فِدْرًا<sup>(١)</sup> بحجم العدس فتُطْرَح بعد الفيضان على طول زَوْرقٍ ضيقٍ طويل ، ثم تُفْسَل على ألواحٍ حجرية مُتَحَنِّية<sup>(٢)</sup> حتى لا يبقى منها غيرُ شُدُورٍ<sup>(٣)</sup> لأمعة قليلة ، ثم يَصْهَرُ الأجنبيُّ هذا التَّبَرُ في بَوَاتِقٍ<sup>(٤)</sup> من طينٍ مع رصاصٍ وملحٍ مدة خمسة أيام حتى يصنعَ منها حلقًا وألواحًا .

وهكذا أضعفت قبائلُ النوبة أجسادَ أولادها ، وثارَت وقُهرَت فما قَبِيَ أبناؤها يكونون عبيدًا .

أَجَلٌ ، يُدْرِكُ النوبيون معنى تَزْرَعُ الفُرَاةُ الأجانب ريشَ النِّعْمةِ النوبية الأبيض ، وسلخهم جلودَ الأنمار لأخذها على ظهور الجبال ، وذبحهم الأفيال لنيل عاجها ، وحملهم أبناء الصحراء الأقوياء على النزول إلى النهر معهم وإلباسهم بزاتٍ مختلفة الألوان وجعلهم شُرطًا<sup>(٥)</sup> على مفارق الطرق ، ولكن النوبيين لا يُدْرِكُونَ معنى اهتمام سادة البلاد بتلك الأقراص المعدنية الصُّفْرَ الهزيلة التي تُصْحَى في سبيلها بألوفٍ العيد ، وذلك بأن هَلَكَ نصفهم في الصحراء أو في النهر ، وبأن أُعِدَّ نصفهم الآخر لتقليب البواتق أو لرقابة المَعْدِنِينَ تحت السَّيَاط ، وقد جَهِلَ هؤلاء النوبيون إنشاء فرعونَ في أثناء حياته ضريحه أو قَبْرَهُ المُشْتَمِلَ على ثلاثين ألفَ رطلٍ من ذهب بلادهم .

وكان رَمْسِيْس في القرن الثالث عشر يفاخر بأنه الملكُ الذي « يُسْتَخْرَجُ الذهبُ باسمه من الجبال » ، فَبَلَغَ من تنظيم مَنَاجِمِهِ ما يُمكن معه أن يُنْتَفَعَ بها في أيامنا ، وكان حِذْقُ أولئك القراعة يَمْدِلُ طمعهم ، وظلَّ ذهب النوبة هـ طويلَ زمنٍ ،

(١) القدر : جمع القدرة ، وهي القطعة — (٢) متحنية : معوجة — (٣) الشدور : جمع الشذرة ، وهي قطعة من الذهب تُلْقَى من معدنه — (٤) البواتق : جمع البوطة ، وهي الوعاء الذي يذوب فيه الصائغ المصنوع — (٥) الشرط : جمع الشرطى .

عنصرًا رئيسًا من عناصر سلطانهم ، والنوبةُ تعني « أرض الذهب » ، ومع ذلك كانوا لا يجهلون ما في الذهب من لعنة ، فقد أنبأهم كهنتهم بأن كتابةً في مصر الدنيا تقول : « إن الذهب هو جسم الآلهة ، وهو غيرُ خاصٍ بكم » .

وتَحَقَّقَتْ تلك اللعنة ذات يوم ، ولم يحدث أن خَرَجَ النوبيون من الحياة القِرْدُوسِيَّةِ التي يَنْعَمُونَ بها فساروا نحو مجرى النهر التحتاني<sup>١</sup> ، والآن يستحوذ عليهم الغضب والقُصُولُ والهَلَعُ وحبُّ الانتقام ، فقد عَلِمَ أحدُ ملوكهم ، يانكي ، ما بين ملوك مصر من شِقَاقٍ فَجَّعَ جيشًا ، وجاوز الحدود بزوارقه وثيرانه ، وقهر أعداءه ، ودخل طيبة ومَنَفِيسَ في سنة ٧٥٠ قبل الميلاد ، وصار سيدَ جميع مصر هو وذريته من بعده ، وقد أتى هؤلاء الفاتحون الوحوش النَّشَاطُ من كُوشِ الفتيحة ، فقبضوا بِغِلْظَةٍ على زمام المصريين ، وَبَدَّوْا للمصريين البالغي التهذيب كَالِهَيَاطِلَةِ<sup>(١)</sup> ، وتدلُّ الكتابات على عدم اكتراث ذلك الملك المُتَخَلِّقُ بمثل أخلاق البروسيين للحِسانِ في قصر هليوبوليس ، وعلى تَذَرُّهُ من نَقْصِ عِلْفِ خيله ، وذهب أحد أولئك الملوك إلى فلسطين نصرًا للملك حَزَقِيَّا على أعدائه الآشوريين ، ولا نَعْرِفُ نَدَى تأثير المعابد والقصور والفلكيين والملاحين وأمورٍ نافعةٍ أخرى في هؤلاء الهَمَجِ الذين غَزَوْا الحضارة واستقرَّ لهم السلطان عن إرهابٍ ، ومهما تكن الحالُ فقد طُرِدُوا في نهاية الأمر ، ولكن مع تَزَوُّدِهِم بِمعارف كانوا يُمَدُّونَهَا صَرْبًا من الأساطير .

وقامت دولةٌ قبل تلك الفتوح وبعدها ممتدةٌ من الشلالات إلى مكانٍ بعيدٍ من شرق بلاد النوبة ، وكانت مملكةٌ مَرَوِيٌّ هذه واقعةٌ في أقصى الجنوب من عُروَةِ

(١) الهَيَاطِلَةُ ( Les Huns ) : قوم من الوحوش كانوا يسكنون شواطئ بحر قزوين ففسروا أوربة بقيادة أنيلا في أواسط القرن الخامس .

النيل الكبرى ، وكانت عاصمتها نَبَاتَة ، وكانت مستعمرةُ الفراعنة هذه قد دَعَتْ إلى السلطان كهأنًا مصريين بَلَفُوا هنالك مهاجرين أو أسارى أو علماء فيلوح أنهم أَوْحَوْا إلى ملوك الشود بمغازى الانتقام ، فلما عاد الفاتحون إلى بلادهم حاولوا أن يَدْخِلُوا إليها فنَّ البناءِ المصرىِّ وعاداتِ المصريين وقوانينهم ، ولما أراد الملكِ بِبَنَاتِكِي أن يَحْلِدَ مفاخره على غِرَارِ الفراعنة أو على سُنَّةِ الطغاةِ المعاصرين نَفَتْ نفسه في كتابات أحد المعابد العظيمة بالكلمة : « جالب السلام إلى البلدين وملك الشمال والجنوب وابن الشمس وصاحب التيجان » ، وَصُورَ الإلهُ آمون وهو يُقَدِّمُ إلى ذلك الملك سيفاً قصيراً ، وَصُورَ ذلك الملكُ في وَضْعٍ يَصْرِخُ به بضعة نفرٍ من أعدائه .

وظَلَّتْ تلك الملكةُ الواقعة بين الشلالِ الثالثِ والشلالِ الخامس حليفةً مدةَ خمسة قرونٍ بَطْنِيَّةٍ ولِلْإلهِ الدولة ، آمون ، ذى السيطرة على الحكومة ، وما انفكَّ ملوكُ نَبَاتَة يُلقِبُونَ أنفسهم بـ « ملوكِ البلدين » إلى ما بعد قرنين من سيطرتهم القصيرة على الدلتا ، وكذلك الفراعنة كانوا يُبَاهَوْنَ بأنهم سادةُ بلاد النوبة مع أنهم أضاعوا كلَّ سلطانٍ لهم هنالك منذ زمنٍ طويل ، وذلك ضَرْبٌ من عنادِ المستبدين الذين لَا يَتَنَزَّلُونَ عن ولاياتٍ يَحْسَرُونَهَا ، ولكن ملوك ذلك الزمن كانوا يقومون بِمَحَلَّاتٍ على رأس جيوشهم ، وقد طَعَنَ ثُوْتْمُوزِيسُ الأولُ ملكُ النوبة يده بالقرب من الشلالِ الثالثِ .

وغابت هالةُ الملوكِ تلك في القرونِ القادمة ، وصار الحكمُ قَبْضَةَ الكهنة وأُشْدِلَ بَسْتَارُ النسيان على العاداتِ المصرية ، واستُبدِلَتْ لغةٌ شُعْبِيَّةٌ ، تحلَّتْ وحدها في الوقتِ الحاضر ، باللغة المهيروغليفية التي لم تكن في غير الكتابة الرسمية ، ويأتى دَوْرُ





الملك قبيز الأسطوري ، ولا أحد يعرف كيف وقع ذلك ، ويُشيدُ كُتَّابُ من الأغارقة بذكر ذلك البلد العجيب بحماسةٍ كبيرة فلا يضعُ أحدٌ ما يقولون على محكِّ النقد ، ويرتدُّ الملوك المحليون حتى الشلالِ الرابع لِيَتَعَذَّرَ قهرهم ، وذلك لِمَا لصحتهم الجديدة مَرَوَى من حمايةٍ بالنيل ومن عدم جعلهم عُرْضَةً لَأَيِّ اعتداء كان ، ويروى استرأبون أن الملوك هنالك كانوا يُنْتَخَبُونَ من أجل الناس وأكثرهم مهارةً وأعظمهم بسالةً ، ثم خلف هؤلاء الأجداد القساة خلفُ ضِعَافٍ فَخَضَعَ هؤلاء الأقبابُ لَكُهَّانٍ كانوا يقولون إن الآلهة هي التي تُمَلِّي عليهم أوامرهم الغادرة ، وكانوا من السلطان ما يَفْرِضُونَ الاتحارَ معه على الملوك ، ووُجِدَ من هؤلاء الملوك واحدٌ فقط لم يُمكنْ الكهنة من نفسه قاتلاً الكاهن الأكبر .

وكانت الأمُّ الملكة تقوم في أثناء صِغَرِ الملوك بشؤون السلطة وصيةً على العرش مع إشراف الكهنة ، وكانت تحتفظ بالسلطة لنفسها زمناً طويلاً ، وقد فَتَحَتْ إحدى هؤلاء الملكات جزءاً من مصر العليا ووصلت إلى أسوان وبلات<sup>(١)</sup> ، غير أن شعباً جديداً مرهوباً كان يستولى على البلاد ، غير أن الرومان أرسلوا جيشاً للانتقام بسبب إهانةٍ وُجِّهَتْ إلى إمبراطورهم الذي كَبِهَتْ تلك الملكة تماثيله فأوغل هذا الجيشُ في البلاد فَبَلَغَ الشلالَ الثاني ، ويمضي ألفا سنة فلا يقوم بمثل ذلك العمل أحدٌ سوى جيش للعرب .

وهكذا يتناوب الحقدُ وحظُّ السلاحِ وضروبُ الانتقامِ ذينك البلدين الواقعيين

---

(١) بلات (Philoe) : جزيرة واقعة في جنوب أسوان على الشلال الأول ، فيها معبد لبطليموس الثاني اسمه عند العامة «قصر أنس الوجود» ، وهي غير جزيرة أسوان التي كان فيها سوق الحاج الوارد من الأقطار السودانية ، ولذلك سماها اليونان «جزيرة الفيل» (Eléphantine)

على ضفاف النيل ، وذلك حتى سنة ٣٠٠ بعد الميلاد حين غادر الإمبراطورُ  
ديوكليسيان بلادَ النوبة .

## ١٦

تَرَى الأرضَ الضيقةَ الممتدةَ على طولِ النهرِ حينَ اتَّجَاهَهُ إلى الشمالِ مستورةً  
بالنخلِ ، وتَرَى واحاتٍ كثيرةً على طولِ الطريقِ الممتدةِ بينِ الشلالِ الرابعِ والشلالِ  
الثالثِ والبالغةِ ثلاثمئةَ كيلومتر .

ويكونُ الطيرُ حيثُ يكونُ الحَبُّ ، ويقفُ الأولادُ ، لاصطيادِ الطيورِ مع  
وجودِ الحرِّ ، على أتلامٍ<sup>(١)</sup> معروفةٍ ويُحَرِّكُونَ أغصانًا في النهارِ كلَّهُ ، على حينِ  
تَضَرُّفِ النواخيرِ التي لا تُعْرِفُ التَّصَبَّ وتدورُ الثيرانُ الكبيرةُ ، التي يَتَدَلَّى جِلْدُ  
عُنُقِهَا كَنَزَرٍ ، مدةَ عشرِ ساعاتٍ تحتَ وَهَجِ الشمسِ إصعاداً للماءِ ، ولا تَنَلَمُ  
فِيمَ تُسَكَّرُ ، ومن طبيعةِ الإنسانِ أنْ يُقْنِعَ نَفْسَهُ بأنْ عَبْدَهُ ، إنساناً كانَ أو  
حيواناً ، راضٍ بنصيبه ، ومما يُخَيِّلُ إلينا أنْ حُصِّنَ دُنْقَلَةُ البَيْضِ المعروفةُ منذَ القديمِ  
تَقْضِي حَيَاةً طَيِّبَةً ، ومن المحتملِ أنْ تَحْتَدِ في أَثْنَاءِ عَدْوِهَا شَيْبُهُ الوحشيُّ ما تراه من  
البهائمِ يَدُورُ ذَوْرَاناً دائماً بِحُطَا هادئةٍ رزينةٍ .

وَتُكَدِّسُ آثارُ ألوفِ السنينِ في هذا القسمِ منِ الْمُتَعَطِّفِ الذي تسيرُ القوافلُ  
من ناحيته الجنووية إلى الجنوب .

وَتَضَجُّعُ قطعةٍ منِ الصَّوَّانِ على الأرضِ بالقربِ منِ دُنْقَلَةٍ ، وتُتْرَكُ هذه القطعةُ

(١) الأتلام : جمع التلم ، وهو ما تشقه سكة الفلاح من الأرض .

هنالك منذ خراب بيت من طين ، وكانت تتألف منها إحدى زوايا هذا البيت الذي كان جنوداً من الاسكتلنديين ينزلون فيه أيام حملة كوشيد الأخيرة ، وبملا ريب فيه أن كانت تلك القطعة دعاماً لناغورة لا تاريخ لها ، وكان البنّاءون قد تزعموا ذلك الحجر من قبر عربي ، وكان ذلك الحجر قد حال ، هكذا ، دون غارات العقبان على جثمان عبدٍ دفنه ابنه التقى سيراً منذ بضع عشرات من السنوات ، وكان هذا الابن قد فصل الحجر ليلاً عن أحد الحصون التي أقامها المماليك لمقاومة محمد علي ، وكان هؤلاء المماليك قد حلقوا الحجر من زاوية مسجدٍ شاده صلاح الدين في القرن الثاني عشر حينما أمر بقتل جميع الأساقفة بعد دورٍ طويلٍ من السلام .

وكانت النصرانية في وادي النيل الأوسط ذلك مسيطرة على كثير من الأمكن مدةً تزيد على ستة قرون ، فمن الممكن أن كانت تلك القطعة حجرَ زاوية لكنيسةٍ شادها الملك سلحون الدنقلى تكريماً للقديسين ، وكان الصليبيون المدركون في ذلك الزمن يربطون حصنهم الجميلة بحلقة ثابتة في الحجر عند ما يدخلون تلك الكنيسة قبل اقتحام مخاطر الصحراء ضارعين إلى العذراء أن تحميهم ، وذلك على أن يفك هؤلاء الفرسان جيادهم من حلقة الحجر وأن يهيمزوا بلطف خواصرها مع إمسالك رؤسها<sup>(١)</sup> بمقدّم أحذيتهم فقط ، ولا يزال أثر الحلقة منظروراً حتى اليوم ، وارجع البصر إلى ما هو أقدم من ذلك تجد الحجر جزءاً من رواقٍ معبدٍ يتحور الذي تقوم أعمدته الحجرية الرملية الحمر ، حتى الآن ، على مدخل غايبة النخل فتعدّ شاهدة على عملٍ إغريقيّ أتى متأخراً ، والذي يحتمل أن يكون قد كُرس<sup>(٢)</sup>

(١) الركب : جمع الركاب — (٢) كرس البناء : أسسه ، وكرس الأسقف اليمّة والأواني وغيرها خصصها لخدمة الله ، وهذه نصرانية دنيّة .



للاله مارس الذى يدعوا اسمه الرومانى فى مملكة تروى إلى الحيرة ، ثم إن العبد  
الذين عملوا فى ذلك البناء كانوا قد انتزعوا الحجر من قاعدة تمثال صمم مرعون  
نجمل اسمه مكسكى على شاطئ دُنْقَلَة منذ مئات السنين .

وكل شىء زال ، فقصى أمر الحضارات والديانات والفائحين والمغلوبين الذين  
عبدوا النور والقوة بأسماء وسمات مختلفة ، حتى أولئك الذين كانوا يستقدون أن  
القوة فى الرحة ، وهم قد أرادوا تمجيد الحياة بالحُصُون والمساجد والمعابد والحاميات ،  
وهم قد تواروا ونُسوا ، وهم قد ذوى مجدهم ، وصوّان النيل وحده هو الباقي ،  
هو الأبدى ، وهو قد احتمل الضغط وإزميل<sup>(١)</sup> النقاش وتقبّ الزرفين<sup>(٢)</sup>  
والناعورة والقبر وألوف السنين ، وهو ضائع على شاطئ النهر ، والنهر يمسّه مساً  
خفيفاً دائماً من غير أن يُفنيه .

والغرائب فى مجرى النهر الفوقانى من دُنْقَلَة يقاوم الموج من جديد ، وتقسّم  
النهر جزيرة أرغو التى هى أطول جزر النيل والبالغ طولها ٣٥ كيلومتراً ، ويتبع  
هذه الجزيرة بضع جزيرات وكثّل صخرية يضيق بها النيل ويُرغى ويُزِيد فى  
فى سبع دوافع .

والنيل يُغيّر منظّره فى الشلال الثالث ، وعلى بعد ١١٠٠ كيلومتر من الخرطوم ،  
ووسط المروّة الكبرى ، فيقلّ الشعور بالشهب ، ويكون مجرى النهر أقلّ عرضاً ،  
ويغدو بقر الماء نادراً ، وتتم على الحضارة عصابات لصوص أحسن تنظيمًا ، وكل  
شىء يشجّع هذه العصابات الراكب رجالها خيلاً أو جمالاً على مهاجمة المسافرين ،  
وتقرض تلال على النهر مُنْعَطَقاً مفاجئاً من الشرق إلى الغرب ، وتدفق سلسلة

(١) الإزميل : آلة من حديد ينقر بها الحجر — (٢) الزرفين : الحلقة .

جبال مرتفعة بعض الارتفاع فيَنزِل عليها ماء السماء في الشتاء أحياناً ، ويجرى النهر من جديد في مضائق ومسایل من رُخامٍ أحمر وأخضر ، ويبلغ النهر في بعض المرات من الضيق ما يستطيع معه نوبى ماهر أن يرمى حجرًا من ضفة إلى أخرى ، أى على مسافة ثمانين مترًا ، وتحول مُنَعَرَجَات كثيرة وصغور ضاغطة ودوامات غير قليلة دون كل ملاحه في ذلك الوادى الذى يدعوه العرب بلسانهم التصورى المرن « حياة الحجر » .

وأهل تلك المنطقة أقل مهارة في الملاحه من إخوانهم في الجنوب ، فتفرق في الغالب أرماتهم المصنوعة من أربعة سوقٍ من النخيل المُحْدَبَة قليلاً من الخارج إلى الداخل والسببة الإدارة بمجاديف مفلوجة من أعلاها ، وأما في السباحة فلا تجد أبيض يجيدها مثلهم ، والأسود يرتبط مطرده<sup>(١)</sup> على رأسه ربطاً أقيماً ويعبر النهر سباحاً ، وعلى الأسود أن يجاوز الماء ليصل من أوعر ناحية في الضفة إلى حقله الضيق ويبتدر فيه حفنة من الحبوب أو اللوبياء ، وذلك على أن يعود إليه ليحصد ما زرع ويحلبه إلى كوخه سباحاً حاملاً إياه على رأسه ، وإذا عدوت المحيط المتجدد لم تجد مكاناً يفسر كسب العيش فيه كما في ذلك البلد .

ومن يملك في تلك البقعة كوخاً وبقرتين وأربعة من الماعز يتكلم عن واحة ، وتعد الناعورة دليلاً على الفنى ، وتعد النخلة دليلاً على نعمة الله ، وتلوح مآثر الدول الكبرى الفائرة بين علام العيش الراهن المزيلة ، ومع ذلك لم تكن الأعمدة الهائلة التى نصبها أمثوفيس وثوتموزيس وسيزوستريس للإشادة بمجدهم في وسط

(١) المطرد : الرمح القصير .

سُوقٍ ولا على طريقٍ تجاريةٍ زاخرة ، وقد سَحَلَتْ خُزْنُوانِيَّةٌ<sup>(١)</sup> القراعنة ألوف الصيد على تمجيدهم بين الصخور السود والصحراء الصفراء المغراء وفي سميرٍ منهم وقَفَرٍ لا ينطوى على رِعَائِيَّةٍ شِعْرية منذ ذلك الزمن ، ولو كان لأولئك الملوك غُنْيَةٌ عن إعجاب جمهورٍ من الحُضُور ، ولو كان أولئك الملوك يَفْلَحُونَ أن مآثرهم المنقوشة على الحجر مما لا يراه غيرُ بضع مئاتٍ من الرعاة العُراة ومن الفلاحين الذين جَفَّقَتْهم الشمس ، لاعتقدوا أنهم أُنْدَادُ الآلهة بما شادوه وبما فَكَّرُوا فيه لألوف السنين ، ومهما يكن الأمر فإننا نعلم من أحد تلك الآثار أن مستوى النيل الاعتيادي كان في عهد أَمِنُوفِيسَ الثالثِ أعلى مما هو عليه في الوقت الحاضر بِنَائية أمتار ، وسببُ هذا الفرق هو علُ الماء في ثلاثة آلاف سنة .

ومع ذلك نُقِشتْ كتابةٌ وَجَبَ تفسيرُها للسكان المحليين جيلاً بعد جيل ، فبالقرب من وادي حلقا ، وفي نهاية الشلالات ، وحيث يصبح النيلُ صالحاً للملاحة ، أَمَرَ أحدُ القراعنة بأن تُنْقَشَ على عمودٍ من الغرانيت الكلمة : « يُحْظَرُ على الزوج بعد هذا الموضع أن يسيروا مع النيل على سفينة » .

وفي الزمن الذي وُضِعَ فيه ذلك الانذارُ المتوعَّد كان حَدُّ مصرَ الجنوبيَّةِ هنالك ، بالقرب من الشلال الثاني ، وعلى مَسَافَةٍ ١٥٠٠ كيلومترٍ من مجرى النهر التحتانيِّ بعد الخرطوم ، ولا يزال حَدُّ مصرَ الجنوبيِّ في ذلك المكان ، وهذا الشلالُ الثاني مؤثِّرٌ في النفس أكثرَ من سواه ، وهذا الشلالُ بركانيٌّ مُجَرَّدٌ من النبات ، ولهذا الشلالُ منظرٌ للمهالك ، وإذا ما دَنَا الإنسانُ منه خِيلَ إليه أنه أمام جفليٍّ من بقر الماء المتعجِّز البارز اللامع على نور الشمس ، وذلك لتدوير الماء كلَّ

(١) الخنزوانية : جنون الظلة .

شيء ، وما يحدث حول الصخور من دَوْرَانٍ مائٍ خفيف فيَمَوِيّ الوهم .  
وتُرى من فوق جَنْدَلُ أَبِي صِير ، وعلى ضِفَةِ النهر اليسرى ، حجارةٌ أَكْثَرُ  
من الماء ، ويُرى في الشتاء ثلاثُة وخمسون جزيرةً ، وَيَبْقَى من هذه الجزُر حين  
الفيضان أَكْثَرُ من مئة جزيرة ، والناسُ يَسْكُنُون حَسِينَ جزيرةً منها على الأقل ،  
وهي تشتمل على أَكْوَاحٍ من طينٍ لازِبٍ وعلى أَشجارٍ سَنَطٍ قوية قاومت كثيراً  
من الفيضانات ، وتَبْدُو أَتْلَامُ حقولِ القولِ والعدسِ مُرَبَّعاتٍ متروكةٌ لأولادٍ في  
زاوية من حديقة ، ويذهب الأهالي إلى الحقول مرتين في كلِّ عام راكبين زرافاتٍ  
سِراعِيَّةً أو قواربَ ذواتِ مجاديف ، وذلك للبَذْرِ والحصاد .

وتمتدُّ مدينة وادي حَلْفا الصغيرةُ على ضِفَةِ النيل اليمنى ، وذلك مع وجوه أبليةٍ  
بيضاء وكثافةٍ سكانٍ ونخلٍ ، ويسطر عليها نَلٌّ فوق الضِفَةِ اليسرى يُدَكَّرُ  
بِكُثْبَانٍ شاطيء البحر العالية ، وما تُبَصِّرُه من نزول الذَهَبِيَّاتِ مع النهر ومن بدءِ  
الخطِّ الحديديِّ ومن تَلَبُّثٍ في اللإحاة فأَمُورٌ تَهَبُّ الحياةَ إلى مصر ، ويَحْقِيقُ علمُ  
مصرَ الأخضرُ وحده غوراً بعد الآن .

ويُتِمُّ النيلُ مغامرته الثالثة مسروراً ، ويجاوز النيلُ مِنطَقةَ الشلالات سعيّاً ،  
هو يسير مُتَّيِّداً عريضاً جليلاً أَكْثَرُ مما في الخرطوم ، هو يَدْخُلُ مصر .

## ١٧

وليست مصرُ هنالك بَعْدُ ، وتمتدُّ المِنطَقة الواقعةُ بين وادي حَلْفا وأَسْوانَ ،  
والمسافةُ نوية الدنيا ، ٣٥٠ كيلومتر على طول النيل ، وهي شديدةُ الانعطاف نحو

الشرق ، وهى من أقدم أجزاء مصرَ وأشدّها وَحْشَةً ، وقلما تَجِدُ فيها أراضىَ مَرْزُوعَةً يَزِيدُ عرضُها على مئة متر ، وتكاد الصحراء تَمَسُّ نهر النيل فى الغالب .

وَتَمَثِّلُ حياةَ الفلاح للمصرى هنا حياةَ أخيه فى الشلالات ، وكلاهما نوبى ، وكلاهما تابعٌ للساقية والفيضان ، ولا أثرَ هنا لِمَا يَتَّخَذُ فى بناء البيوت الحجرية والحشيشية من غرائب ونخيل ، والبيوت تُصَنِّعُ من طين النيل فيما بعد ، ومن هنا كان الرَّمْجُ (١) للمصرى الذى فَرَضَتْ مادَةُ النيل الطينيةُ شكله فجعلته كأبراج الرمل التى يَصْنَعُها الصبيان على الساحل .

وكانت نوية الدنيا فى القرون القديمة مِنطَقَةً يَمُرُّ منها المصريون إلى السودان لجلب العبد والذهب فَطَلَّت الطريقَ المحككة الوحيدة المؤدية إليه فى قرون كثيرة ، وَتَحَرَّكَ الحِصَارَاتُ المتعاقبة آثاراً غريبةً هنالك ، وإليك صِيفَةُ النيل اليسرى بالقرب من وادى حلفا ، وإليك بقايا قلعة أُقيمت فى القرون الوسطى بالقرب من معبدٍ منحوتٍ فى الصخر حيث تُبَصِّرُ نقوشاً مصريةً قديمةً بارزةً رُسمَتْ عليها صُورُ قَدِيْسَى النصرى ، وحيث تُبَصِّرُ رأسَ الإله خُنوم السكبشى يَنْظُرُ إلى القديس إبياخوس ، وحيث تُبَصِّرُ الإلهة أنوكيت يُرْضِعُ أحدَ القراعنة ، وحيث تُبَصِّرُ العبدراء قَصَمُ الصبى يسوعَ إلى صدرها ، وَتَرَى على القُبَّةِ مسيحياً زَنْطِيًّا يَرْفَعُ يده متوعداً ، وترى بجانبه الملكَ حَارِثَها ب واقفاً أمامَ الإله توت .

وَتُبَصِّرُ بقايا معبدٍ هائلٍ بجانب أنقاضِ حِصْنِ نوبى يَرْجِعُ إلى عهدِ مملكة مَرُوى ، وَتُبَصِّرُ بجانب هذا المبد قبوراً إسلامية ، وَنَقَشَ كاهنٌ قبطى على بطنِ من

(١) الرماح : الباب العظيم .

ذلك ، وفي معبد الدرّ ، اسم إبراهيم بين صور الآلهة المصرية معتقداً أن ملكاً  
نوياً كان قد صلبه في ذلك المكان ، وقد تقاتل الكهنة والملوك ، والآلهة والسيد ،  
والقديسون والفلاحون ، حول اسم الرب وصورته فدعاهم إليه وجعلهم رملًا .

وتسير الصحراوان على ارتفاع مختلف على طول النهر ، وتزى في الغرب  
صحراء ليلية الصفراء كالذهب مع جبالٍ سُمرٍ ، وتزى في الشرق صحراء العرب  
الأكثر صخرًا وذات اللون الأسمر الرمادي ، وتمتد الملاحاة بينهما  
كثبان عريضة .

والبواخر بيض قريية القور ، ويأتيها الفحم من بعيد ، يأتيها من نيوكاسل ،  
وتتبقى موانئها غير متعلقة في هذا البلد العاطل من المطر فيُخيل إلى الإنسان مرور  
قطار على النهر ، وتجر سفينة أختها حيث يكون الشود ، ويطلق المسافرين في كل  
منها أن من على الأخرى هم من مسافري الدرجة الثانية ، وتسير الجارية والمجرورة  
على الأمواج رويداً رويداً رمزاً إلى القهر الذي يجتمع بين العريقين ، أجل ، نجد  
الآلة والدماع الموجة عند البيض ، غير أن الأيدي الوقادة شديدة السرة كأيدي  
الزبن<sup>(١)</sup> في الباخرة الأخرى ، وهذه الباخرة الثانية هي التي تنقل محاصيل البلد  
إلى الشمال .

وتتنصب بين هذه التلال وبين الماء أرمة تمثيل ضخمة من الحجارة الصخر على  
بعد ستين كيلو متراً من مجرى النهر التحتاني بعد وادي حلفا ، أي في أبي سنبل ،  
حيث تصل تلال ليلية إلى النيل ، فتزى الرجل بعينه جالساً أربع مرات

(١) الزبن : جمع الزبون ، وهو من يردد في الشراء على بائع واحد ، وليس من الصواب  
جمع الكلمة على زبائن ، والصواب زين لأنه فعول بمعنى الفاعل كصبر وغيره صبور وغيره

أمام جدار معبد ، ترى إلهًا ، ترى مَلِكًا على ما يحتمل ، ترى معبودًا متوجهًا إلى مَطْلَعِ الشمس منذ ثلاثة آلاف سنة حين اسْتُخْرِجَ من اللَّقْع ، أو هذا تمثالُ أبٍ منصور أقامه له ابنه ، أم تمثال بطلٍ مُمَثِّلٍ لِإِلَهِهِ الحافظ ، أم تمثال ابنِ بَاسِلٍ جَلَدَتْهُ بِهِ أُمُّهُ الْمَلِكَةُ ، أم أُمُّ الْمَلِكِ نَذَرَهُ رَعَايَاهُ لِلْإِلَهِةِ بعد موته ؟

كلًا ، وإنما هو تمثالُ رَمْسِيسِ الثَّانِي الذي خَلَدَ نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ ، وقد دام عَهْدُ هذا العاهل سبعةً وستين سنةً ، فكان لديه من الوقت ما يَسْهَرُ بِهِ عَلَى تَجْدِهِ ، فأقام في سبعة أمكنةٍ لِأَلِهَتِهِ وَلِنَفْسِهِ أَضْعَفَ مَا فِي مِصْرَ مِنَ الْعَابِدِ الَّتِي يُعَدُّ هَذَا الْمَعْبُدُ الْقَائِمُ فِي أَبِي سَنْبِلٍ بِالْقَرَبِ مِنَ الْحِدِّ الْجَنُوبِيِّ صَغِيرًا بِجَانِبِهَا ، وَهَكَذَا ضَرَبَ أَعْظَمَ الْأَمْثَالِ عَلَى عِبَادَتِهِ الذَّائِبَةِ فِي الْقُرُونِ الْقَدِيمَةِ ، وَمَا كَانَ لِيَلْقَبَ بِرَمْسِيسٍ الْكَبِيرِ لَوْلَا تِلْكَ الدَّعَايَةُ الْجَامِعَةُ الْقَائِمَةُ عَلَى تَكَرُّارِ اسْمِهِ بِلا انْقِطَاعٍ ، ثُمَّ حَلَّ الْأَبَاطِرَةُ بِعَدْوِ زَمَنٍ زُمَرَةٍ الْكَهَنَةِ الْمَهْرَةِ عَلَى التَّصْرِيحِ بِأَنَّهُمْ « رُسُلُ اللَّهِ » ، أَوْ حَمَلُوا فَرِيقَ الْعُلَمَاءِ عَلَى التَّصْرِيحِ بِأَنَّهُمْ « مَنِيعُ الْحِكْمَةِ » ، وَلَكِنْ مَا هُوَ مَعْنَى هَذَا ، وَمَا هُوَ شَأْنُ خُطْبَاءِ زَمَانِنَا الشَّعْبِيِّينَ بِجَانِبِ مَلِكٍ كَانَ يَحْمِلُ عَلَى نَحْتِ تَمَثَالِهِ الْخَاصُّ فِي جَنْدَلٍ عَلَى أَرْبَعِ نُسُخٍ مُبْتَصِلَةٍ وَعَلَى ارْتِفَاعِ عَشْرِينَ مِترًا لِيَكُونَ جَالِسًا عِنْدَ أَلِهَتِهِ ؟

أَجَلْ ، هُوَ رَمْسِيسُ الطَّوِيلُ الْأَنْفِ طَوْلًا تَارِيخِيًّا وَالْثَدْوَرُ الْوَجْهَ قَلِيلًا مَعَ لِينٍ ، هُوَ رَمْسِيسُ الْحَامِلُ لِتِيْجَانِ مِصْرَ الْعَالِيَا وَمِصْرَ الدُّنْيَا ، هُوَ رَمْسِيسُ الْمَوْكِي وَجْهَهُ هَادِنًا شَطْرَ الشَّرْقِ وَالْوَاضِعُ يَدَيْهِ عَلَى رُكْبَتَيْهِ ، هُوَ الْعِمْلَاقُ الَّذِي لَا يَخْشَى شُعَاعَ الشَّمْسِ وَالَّذِي يُتَّقَى نَظْرَةُ بَعْدَ اسْتِرَاحَةٍ لَيْلِيَةٍ عَلَى وَادِي النَّيْلِ الَّذِي يَصْحُو ، وَهُوَ يَرَى تَحْتَ عَيْنَيْهِ وَتَحْتَ السَّمَاءِ الزَّرْقَاءِ حَقْلَ كَعْبِيرٍ صَغِيرٍ قَرِيبٍ مِنْ سَاقِيَةِ بَاكِيةٍ مِنْذُ عَهْدِهِ ، عَلَى مَا يُلَوِّحُ ، فَيَحَرَّ كُهَا ثَوْرَانِ ذَوَا خُطَا بَعِثِيَّةٍ ، وَتَذْهَبُ امْرَأَةٌ

مُدَّتْهُ بِأَزَارِ أَسْوَدَ وَحَامِلَةٌ جِرَّةً لَمَلَّهَا مِنَ النَّيْلِ الْبَالِغِ الزُّرْقَةُ وَالَّذِي يُحَدِّثُ فِسْمُ الصَّبَاحِ عَلَيْهِ غُصُونًا فِضِيَّةً صَغِيرَةً ، وَيتوجه إلى الشاطئ شِرَاعُ أَيْضُ ، وَيَصْعَدُ غَلَامٌ فِي الصَّارِي لِرَفْعِهِ ، وَيَمْسُ طَرَفُ الصَّحْرَاءِ شَفِيرَ الضَّغَةِ الرَّحْلِ .

ومهما يكن قَدَمُ ذَلِكَ الْمَلِكِ ذِي التَّيْجَانِ الْأَرْبَعَةِ هُنَاكَ ، وَمهما يَكُنْ جَبَرُوتُهُ ، فَإِنَّ النَّيْلَ أَقْدَمُ مِنْهُ وَأَقْوَى أَلْفَ مَرَّةٍ ، وَالْمَلِكُ مَدِينٌ لَتَوُجِ النَّيْلِ بِسُلْطَانِهِ مِنْذُ أَجْيَالٍ وَأَجْيَالٍ ، وَيُكْسَرُ أَحَدُ تَمَائِيلِ الْمَلِكِ الْأَرْبَعَةِ ، وَيَضْجَعُ نَصْفُهُ الْفَوْقَانِي فِي الرَّمْلِ كَمَا لَوْ كَانَ طَافِيَةً مَرْقَةً عَيْدُهُ الثَّائِرُونَ ، وَيَبْدُو بِمَضَى الشَّيْءِ بَيْنَ سَيْقَانِ تِلْكَ التَّمَائِيلِ ، يَبْدُو أَلْ رَمْسِيْس ، يَبْدُو زَوْجُهُ وَأَوْلَادُهُ ، وَيَقْرِضُ تَمَائِيلُ وَالِدَتَهُ الَّتِي كَانَتْ مِنْ قَلْبِهَا لِلطَّبِيعَةِ ظُهُورُهَا بَيْنَ سَاقَيْ وَلَدِهَا الْهَائِلَتَيْنِ ، وَهَنَّاكَ نَقَشَ رَمْسِيْسُ اسْمَهُ بَيْنَ قَدَمَيْهِ كَمَا نَقَشَهُ عَلَى ذِرَاعَيْهِ وَعَلَى قَلَادَتِهِ ، ثُمَّ أَتَى قُوَادُ جَيْشِهِ وَمُرْتَقَةٌ فَرَأَوْا أَنْ يَخْصُدُوا نَصِيْبَهُمْ مِنَ الْمَجْدِ فَسَجَّلُوا مَا تَزَمَّ عَلَى أَعْضَاءِ ذَلِكَ الْمَلِكِ الْقَدِيمِ وَقَاعِدَتِهِ ، فَكَانَتْ الْكَلِمَةُ : « نَحْنُ أَرْخُونُ بْنُ أُمُوْبِيْخُوسَ ، وَبِيلِيْكُوسُ بْنُ أُوْدُومُوسَ ، قَدْ سَجَّلْنَا ذَلِكَ » ، وَغَدَا هَؤُلَاءِ الْقَادَةُ الْفِكْرَاتُ الْهَزَلِيَّةُ (١) ، الَّذِينَ أَنْتَ بِهِمْ الْمَصَادِفَةُ إِلَى هُنَاكَ ، أَشْهَرُ مِنْ ذَلِكَ الْمَلِكِ الْأَكْبَرِ الَّذِي نَقَشُوا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ رَجْلَيْهِ أَسْمَاءَهُمْ ، وَذَلِكَ لِاسْتِطَاعَةِ كَثِيرٍ مِنَ الشَّيَاحِ فِي الشَّرْقِ أَنْ يَقْرَءُوا الْيُونَانِيَّةَ عَلَى حِينٍ لَا يَتَّفَكَ الْخَطُّ الْهَيْرَ وَغُلْفِيَّ غَيْرُ بَضْعَةِ عُلَمَاءَ .

وَأَعْلَنَ رَمْسِيْسُ نَصْفَ أُلُوْهِتِهِ فِي دَاخِلِ الْكَهْفِ بِأَنْ مُثِّلَ بِسُلْسَلَةٍ مِنَ التَّمَائِيلِ الْبَالِغَةِ مِنَ الْارْتِفَاعِ عَشْرَةَ أَمْتَارٍ ، وَيَبْدُو الْإِلَهُ الشَّمْسُ ذُو الرُّأْسِ الصَّقْرِيِّ أَصْفَرَ مِنَ الْمَلِكِ فِي كُلِّ مَكَانٍ ، وَفِي تَصَاوِيرِ الْجُدُرِ يُقَدَّمُ رَمْسِيْسُ إِلَيْهِ قَرَابَانًا مَعَ صُورَتِهِ

(١) الهزلي : جمع الهزلي .



المؤلَّهة ، ونرى رمسيسَ أيضاً يتناول السيفَ من إلهٍ ويقتلُ عدوّه ويَرمي من فوق شُرْفَةٍ خصومه الضارعين والطلالين عفوّه ، ويأمرُ بإحصاء أيدي أعدائه المقطوعة في الحرب أو يَقودُ موكب المخلوبين أمام تمثاله المؤلَّه .

وتصبح عبادته الذاتية هذه من الفنِّ في بعض الأحيان ، فيكون للملك القاتل عدوًّا ، والجاعل خصمه المتهور تحت قدمه ، رَوْعَةٌ نقش يونانيٌّ بارز ، وهو يُصنِّي إلى امرأةٍ تحميك زنده بلطفٍ ، وتُبارك التليكة برفع الذرعان إليهما مُرَيَّنتان بمثل زينة اليوم حاملتان مفتاح الحياة .

وفي الصباح تنفذ أشعة الشمس في ذلك الغار ، ويُثير هذا المزار الذي هو قدسُ الاقداس ، ويمنُّ ضياء الكهربا الكشفُ في الليل بمنظرٍ جامعٍ مفاجئٍ ، ويُنمِّع بظهور مؤثرٍ إلى الغاية ، ولا نبالي ، مع ذلك ، بهذه الأشكال والكتابات الجاوزة الحدِّ كما نبالي بما ينطوي عليه الخط نفسه من صورٍ فنية ، ولا تسترعى أسماء الحثيين والنوبيين واليبين أسماعنًا كما يسترعيها دوى تلك الأمواج من بعيد ، ولا يُوجّه انتباهنا شيءٌ من وثائق الحُتق الملكيِّ لو لم تدلنا هذه الوثائق ، من خلال مناظر ذاتٍ في صيانيِّ ، على الحياة في الزمن الذي وُضعت فيه ، وبها تُبصر جنوداً وعبيداً ، وتُبصر المصريين وأعداء المصريين يعيشون في المُعسكر ويُلففون خيولهم ، وترى في المبد الجاور للدرِّ ، والقرب من رمسيس نفسه ، فُراراً آخذين جرحاً على حين ترمي في الضفة الأخرى أهلهم ينتظرونهم حزاناً مع مواشيهم ، وترى زونجا يُقدِّمون إلى الملك قُروداً وكلاباً سلوقيَّةً ونعاماً وزراريَّ وعاجاً وذهباً ، وترى امرأةً حاملةً طفلاً في سَلٍ مربوطٍ بعصيتيِّ على جبينها ، ويؤتق بجريرٍ إلى قريته حيث تجلس امرأته القرُفُصاء بالقرب من النار ، وحيث تقيف فوق

مِتراسٍ امرأةٍ أخرى حاملةً طفلاً على ذراعَيْها ، ولم تُؤثِّرْ فينا هذه المناظرُ الصغيرةُ أكثرَ مما تؤثِّره الصخرةُ التي تحوَّلت إلى إلهٍ ؟  
أفلا تروُنَ الارتباكَ النفسى الذى توجهه فينا عظمةُ ذلك العاهل فى تلك الصحراء ناشئاً عن النهر المتصبب بجانبه ؟

## ١٨

يسير النيل للقيام بمغامرةٍ رابعة ، ولا يُبْصِرُ النيل خصمه ، ولكنه يشمُّ بنتائجِ اعتدائه فيزيد همُّه ، وهناك ما يَضْفَعُهُ ، وهناك ضفْطٌ أشدُّ قوْلاً من جميع ما حدث من عهد سقوطه الأعظم وسيره فى المناقع أيام شبابه ، وهناك ضَفْطٌ أذعَى إلى الهَلَعِ مما فى الشلالات أيام كهولته ، وما قَبِىَّ مستواه يرتفع من غير أن يَتَلَقَّى ماءَ مطر ، والنهرُ يعلو حتى مَسَافَةِ ٣٥٠ كيلو متر من مجراه القوقائى قبل أسوان ، بيد أن هذا ليس الفيضانَ الأكبر الذى تُسْفِرُ عنه أمطار الصيف النازلة على جبال الحبشة فتَصْبُ في النيل الأزرق ، وَقَفَّ النيلُ قُوًى حافلةً بالأسرار ، ولو كان النيل ذا ذاكرةٍ لقال فى نفسه إنه لم يَحْدِثْ منذ أُلوف السنين من حياته أن عَمَرَ البلاد فى الشتاء خلافاً لما اتَّفَقَ له منذ ثلاثين عاماً ، وأكثرُ من ذلك إلغازاً هو أن مياهه ترتفع وقتَ الحَصَادِ وتَهْبِطُ فى الصيف وقت الفيضان .

والآثارُ الدالةُ على سرعة هذا التحول فى الشتاء كثيرة ، ومنها انتصابُ شِعَافٍ<sup>(١)</sup> النخل فى النهر من غير أن تَنْبُتَ النخيلُ فيه ، ويمسُ حِزُومٌ<sup>(٢)</sup> البخورة

(١) الشعاف : جمع الشعفة ، وشعفة كل شئء أعلاه — (٢) الحيزوم : وسط الصدر ، وما يضم عليه الحزام .

جُدْرًا فَيُخَوِّلُهَا إِلَى عُبَّارٍ كَمَا لَوْ كَانَتْ مَدِينَةُ إِيس<sup>(١)</sup> قَدْ بُلِعَتْ هُنَا ، وَلَكِنْ تَلَكَّ  
الْجُدْرَ لَيْسَتْ سِوَى أَكْوَاحٍ تَرَابِيَةِ أَقَامَهَا فَلَاحُونَ قَتَرَجِيعَ إِلَى الَّذِي جَهَّزَهَا بِالْمَاءِ ،  
تَرَجِيعَ إِلَى أَبِيهَا النَّبْلِ ، وَيَبْرُزُ رَأْسُ النَّاعُورَةِ مِنْ بَيْنِ الْأُمُوجِ ، وَتُكُونُ  
جُزَيْرَاتٌ عِنْدَ مَا تَسْقُطُ النَّخْلُ وَيَتَرَاكُمُ الطِّينُ هُنَاكَ ، وَهِيَ لَيْسَتْ مِنْ نَوْعِ الْجُزُرِ  
الْعَامَّةِ فِي الْمَنَاقِعِ ، وَالْأَمْرُ هُوَ أَنَّ الْجُزُرَ الْقَدِيمَةَ تَبْرُزُ فِي الزَّمَنِ الرَّاهِنِ ، فَيَعُودُ أَهْلُهَا  
إِلَيْهَا بِالزَّوَارِقِ ، وَيَتِمُّلُ الْأَوْلَادُ فِي رُؤُوسِ النَّخِيلِ الْبَارِزَةِ مِنَ الْمَاءِ وَالْمُسْتَوْرَةِ بِالنَّارِ ،  
وَإِنْ ظَلَّتْ شَبْهَ غَارِقَةٍ تَسْمَعُ أَشْهَرَ مِنْ شَهْرِ السَّنَةِ .

وَيَنْتَصِبُ عَلَى التَّلَالِ لِلتَّصَلَةِ بِالصُّفَّافِ الْجَدِيدَةِ بِيوتٍ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ، وَمِنْ  
حَجَرٍ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ ، لظُهُورِ الثَّرَانِيثِ ثَانِيَةً هُنَا ، وَتَبْدُو هَذِهِ الْبِيوتُ ، تَحْتَ  
طِلَاسِهَا الْكَلَسِيِّ الْجَدِيدِ ، مُتَجَهِّمَةً كَالْحَصْبُونِ فِي أَلْوَابِ النِّحَاسِ الْقَدِيمَةِ ، وَلَا تَرَى  
لِهَذِهِ الْبِيوتِ نَوَافِذَ ، وَلَا نُصُبَ الشَّمْسِ وَجُوهَهَا ، وَتُشْعِرُ شُرَفَاتُهَا الْغَرِيبَةَ بِأَنَّهَا  
مَهْجُورَةٌ ، وَتَذَكِّرُنَا بِالنَّمَازِجِ الَّتِي وَضَعَهَا مَهْنَدِسٌ لِتَغْيِيرِ النَّظَرِ .

وَتَنْزِلُ نِسْوَةٌ مِنْ عَلَى لَزْعٍ طَرَفِ حَقْلَيْنِ ، وَيَكُونُ لِلطِّينِ الْمُجَمَّدِ مَظْهَرُ  
رَصِيفٍ عَلَى طُولِ النَّهْرِ ، وَتَمُرُّ مِنْ هُنَاكَ نِسْوَةٌ عَلَى ظُهُورِ حَمِيرِهَا الصَّغَارِ ، وَالنِّسَاءُ  
وَحَدَّهِنَّ مِنَ اللَّاتِي يَسِرْنَ مَا دَامَ الرِّجَالُ كَتَّاسِينَ فِي الْقَاهِرَةِ أَوْ مُنْظَفِي أَطْبَاقٍ فِي  
مَطَاعِمِهَا ، وَهَؤُلَاءِ الرِّجَالُ هُمْ أَكْثَرُ أَمَانَةٍ وَأَقْلُ ذِكَاةٍ مِنْ فَلَاحِي مِصْرَ الدُّنْيَا ،  
وَهَؤُلَاءِ الرِّجَالُ يَهَاجِرُونَ إِلَى السُّودَانِ لِيَكُونُوا خَدَمًا عَسْكَرِيَّينَ لَدَى ضَبَاطِ كَتَشَنَرِ  
وَلَكِنْ لِسَنَةٍ وَاحِدَةٍ فَقَطْ ، ثُمَّ يَرْجِعُونَ إِلَى أَزْوَاجِهِمْ .

وَيَصْعَدُ حَظُّ هَؤُلَاءِ الْفَلَاحِينَ وَيَهْتَطُّ بَيْنَ هَذِهِ الصُّفَّافِ الْوَعِرَةِ الْجَدِيدَةِ ،

(١) إيس : مدينة بريطانية قديمة اجلعتها الأمواج في القرن الرابع أو الخامس بعد الميلاد .

وقد رُفِعَ خَزَانُ أُسْوَانَ مَرَّتَيْنِ ، وَغَمَرَ فِي كُلِّ مَرَّةٍ مَسَاكِنَ أُلُوفِ الْأَسَرِ ، وَقُدِّمَتْ إِلَيْهَا أَرْضٌ فِي مَصْرَ الْخَصِيصَةِ ، وَهِيَ لَمْ تَرُدْ مَغَادِرَةَ تِلْكَ التَّرْبَةِ الْمَرَّتِ (١) ذَاتِ الْوَحْلِ وَالْحَجَرِ وَالَّتِي عَاشَ عَلَيْهَا أَجْدَادُهَا ، وَهِيَ قَدْ أَقَامَتْ أَوْ كَوَانَهَا جَدِيدَةً فِي أَمَاكِنَ أَكْثَرَ ارْتِفَاعًا ، وَظَلَّتِ النَّخْلُ الْخَالِضَةُ مُلْكًا لَهَا ، وَظَلَّتْ تُعَدُّهَا شَجَرَ آبَائِهَا وَتَوَدُّ أَنْ تَأْكُلَ رُطَبَهَا وَإِنْ وَجِبَ أَنْ تَصِلَ إِلَيْهَا رَاكِبَةً سَفِينَةً .

وَتَكَوَّنَتْ أَشْبَاهُ جُزُرٍ فَيَجْرِي النهر من بينها في فيُورْدَاتٍ (٢) صَغِيرَةٍ ، وَتَسْتُرُ شَوَاطِئُهَا قُرَى خَرِيبَةً وَسَيَفُتُّهَا الْمَاءُ فِي الشَّهْرِ الْقَادِمِ ، وَيَتَرَجَّحُ عَرْضُ الْأَرْضِ الْمُنْخَصَرَّةِ فِي شَهْرِ فَبْرَايِرَ بَيْنَ خَمْسِينَ مِثْرًا وَثَلَاثِينَ مِثْرًا ، وَيُضْطَرُّ النُّوْبِيُّونَ بَعْدَ الْحَصَادِ إِلَى نَقْلِ حَبُوبِهِمْ إِلَى مَنَازِلِهِمُ الْجَدِيدَةِ ، لِكَيْ لَا يَجْرُفَهَا الْمَاءُ فِي فَصْلِ الشِّتَاءِ .

وَالدَّرُّ مَدِينَةٌ صَغِيرَةٌ يَجْعَلُهَا ارْتِفَاعُهَا الْقَلِيلُ فِي رَحْمَى مِنَ الْفَيْضَانَاتِ ، وَهِيَ تَقَعُ فِي نَهَايَةِ مُنْعَطَفِ النَّيْلِ ، وَتَقْرُبُ مِنْهَا كُرُوسُكُو حَيْثُ تَقْرُضُ الْجِبَالُ عَلَى النَّيْلِ عُرُوءَةً قَصِيرَةً مَتَجَهَةً نَحْوَ الْجَنُوبِ الشَّرْقِيِّ ، وَتَقَعُ هَذِهِ الْجِبَالُ فِي بُقْعَةٍ خَصِيصَةٍ يُخْرِجُ جُذُرُ النَّخْلَةِ الْوَاحِدَةِ بِهَا عِدَّةَ أَصُولٍ ، وَهَنَالِكَ يَبْدُو النَّاسُ أَجْحَاءَ نَشَاطًا ، وَتَبْدُو السُّوقُ زَاخِرَةً ، وَتَلْقَعُ الْبُيُوتُ مِنْ خِلَالِ شَجَرِ السَّنَطِ الْأَصْفَرِ ، وَهَنَالِكَ كَانَتْ تُحْمَلُ الْجِبَالُ فَتَبْلُغُ أَبِي حَمْدَ عِنْدَ الشَّلَالِ الرَّابِعِ فِي ثَمَانِيَةِ أَيَّامٍ أحيانًا قَاطِعَةً عُرُوءَةَ النَّيْلِ مِنَ الطَّرِيقِ الَّتِي يَتْبَعُهَا الْخَطُّ الْحَدِيدِيُّ فِي الْوَقْتِ الْحَاضِرِ ، وَمِنْ هَنَالِكَ كَانَ حُجَّاجُ مَكَّةَ يَسِيرُونَ نَحْوَ الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ ، وَالْيَوْمَ تَزُرُّ وَتُبَوِّقُ سِيَارَاتُ فُورْدِ الصَّغِيرَةِ فِي الطَّرِيقِ فَتَنْتَظِرُ جَمَالَ كُرْدُفَانَ الْجَمِيلَةِ بِأَسِيرَةٍ (٣) كَأَنَّهَا تَعْرِفُ أَنَّهَا صَارَتْ لَا تَسَاوِي

(١) التربة المَرَّت: الأرض التي لا نبات فيها — (٢) الفُيُورْد (Fiord) : هو الخليج الضيق العميق ، ويكثر وجود هذه الفُيُورْدَات في النرويج — (٣) بِسْر: قطب وجهه ، فهو بأسر .

أكثر من جنهين بعد أن كانت تساوى عشرة جنهيات ، وأن نزول قيمتها جعل منها في القاهرة جَزُوراً<sup>(١)</sup> مع أن غوردون وكثنر جابا الصحراء على مُتُون آبائها فكانت حاملةً أولَ رُسُلٍ للحضارة في سُهوب السودان الموحشة .

والسدُّ يجعل النهر عريضاً مقداراً فقديراً ، ويصبح النيل بحيرةً عند حدود مصر . الحقيقة ، أى في دائرة السرطان ، والنظرُ خياليٌّ أسمرٌ باهرٌ خالٍ من النبات ، ويبدو الحجر والرُّبِّي والجُزُر والصخور الطريفة الأشكال والمصقولة المركومة رُكناً مستديراً غريباً ، وتبدو الجنادلُ مستويةً أو عمداً أو كُتلاً أو أطواداً ، وهكذا يظهر الشلالُ الأولُ ، شلالُ أسوان ، تكراراً للشلال الثاني ، ولكن منع اتساعٍ لاحداً له ، وبدلاً من ضفاف نهرٍ لا يُرى منه غيرُ شواطئٍ بعيدةٍ من الفرايت الأحمر واقعةٍ حَوْلَ شفير تلك البحيرة نصف المتحجرة التي تنتصب خارجها رؤوسُ نخيلٍ كأرواح العرقى في رؤيا ذاتي ، ويتبلغ ذلك السَّماطُ السائل من التأثير في النفس والبعد من الحقيقة وإعشاء الأبصار ما لا يُعجب منه الإنسان إذا ما اشتعل ، ويلوح القطار الأبيض المواجه ، أى الشلال ، أنه تَتَيْنُ مستعدٌّ للوثوب على الملاحين الذين يصلون إلى هنالك .

ومع ذلك تَرَلَّتْ قُلُوعُ الزوارق الأولى التي هي مصريةٌ خالصةٌ فوق تلك البحيرة . كالطيور السَّوانح<sup>(٢)</sup> مع أعلامٍ مختلفةٍ الألوان على السارية أو المُرْتَمَحَةِ<sup>(٣)</sup> ، وهي تَمَسُّ سَعُوفَ<sup>(٤)</sup> النخل المغمورة مساً خفيفاً ، وَيَضَعُ الرُّبَّانُ ذراعَه على السَّكَّانِ<sup>(٥)</sup>

(١) الجزور : ما ينجر من التوق والفم — (٢) السوانح : جمع السانح وهو الذي يأتي من جانب اليمين ، ويقابله البارح ، وهو الذي يأتي من جانب اليسار ، والعرب تقيم بالسانح ، وتتشام بالبارح — (٣) المرتحة : صدر السفينة — (٤) السعوف : جمع السعف ، وهو جريد النخل . (٥) السكَّان : دفة السفينة .





ويشتدّ تجاه ربح الشمال ، ويرتدّ قبضه الأبيض متموّجاً إلى الوراء كالإزار في تمثال فيكتوار<sup>(١)</sup> ، وتبلغ صخور الأساس الحُرّ حتى الخصر ، وتحيط به الصحراء الصفراء التي تُعْمِي من كلِّ جانبٍ على حين يقترب الزورق من تيجان الأعمدة الطريفة .

وتنصب الرُّنْج<sup>(٢)</sup> والقمد رؤوسها خارج البحيرة ، وهي بقايا خيالٍ ساخر في الماضي غير مبالٍ بدساتير الحياة الراهنة ، وهي ظلالُ ذكرياتِ آلهةٍ آفلةٍ ، وهي حلمُ روحٍ روائيةٍ تبكي كلَّ شيءٍ رهين الغناء ، وتستحوذ الأفكار على المسافر الذي يدنو من جزيرة القيل ( بلاق ) فوق زورقٍ ، وذلك في الشتاء حين ارتفاع المياه ، وحين يرى عُصْفيراً يُحرِّكُ ذنبه عند مستوى الماء وعلى إفْرِيزِ أُوْرِس الذي هو عاهلُ غَطْرِيسٍ يُفْسِلُ رجلَيْه في النيل وعلى تاجِ إيزس الذي يَطْهَرُ وحده من بين الأمواج ، ويمسُّ المجدافُ سَفْفَ صَرْحٍ<sup>(٣)</sup> أقلَّ ارتفاعاً ، غير أن الثُّقُوبَ ، غير أن الأجزاء التي تُزَعَت بالازميل ، تدلُّ على أن حَسَدَ القساوسة أدى إلى مضارٍّ أكثر مما أدى إليه السدُّ الذي ما قَبِيَ يَفْتَرُ معبدِ بلاق منذ ثلاثين سنة ، فإذا حلَّ فصل الخريف وفتَحَ الخَزَّان وعاد النيل إلى مستواه العاديَّ بَدَتْ المعابد جافَّةً كما في الماضي ، ولكن مع استتار الجُدُرِ بطبقةٍ من الطين الضارب إلى خُضرة ، ويمكن هذه الأماكن المقدسة أن تَصْلُحَ لسكْنِ الجنِّ .

وكان المصريون والنوبيون يُمَضُّون عقودهم حول السِّلَمِ أمامَ هذه المعابد ، التي هي ضرائحُ لآلهتهم ، أيام كانت غيرَ مغمورةٍ ، ومن المحتمل أن وَضَعَت

(١) فيكتوار: من إلهات اليونان كما جاء في الأساطير — (٢) الرنْج: جميع الرجاج ، وقد

مر تفسيره — (٣) الصرح : القصر ، كل بناء عال .



كليوباترة ذراعها على يد عبد جالس القُرْفَصاء في ذلك المكان الذي يَبْنِي الخطَّاف وَكَرَّه فيه ، وهنا كان السلطان بعدها لآلهة الأولنبا ، بيد أن القيصر هادريان أراد أن ينال حظوة لدى الآلهة المصرية فَعَبَدَ إيزس وهوروس خارج رومة ، وصوّر منبع النيل على جدار ، وذلك بأن جعلَ إله النيل جالساً مع أفعاه عند قاعدة صخرة صاباً الماء من جرتين على حين ينظر إليه عُقابٌ وباز .

وكانت هجرة إيزس إلى هذا الطرف الجنوبي حين تمَّ النصر ليسوع في الدلتا ، ثمَّ وُضِعَ كَهَانٌ تُمَثِّلُ المذراء بين الآلهة المصرية ، ثمَّ جاء أتباع محمدٍ فقلَّبوا تلك الصُّور واستبدلوا آياتٍ قرآنيةً بها ، غير أن المباني الرائعة التي شيدت في القرن الثالث الذي هو عصر الانحطاط كانت قائمة ، وهذه المعابد ، التي هي أصغرُ من الأخرى وأهيفُ ، والتي هي أكثر من الأخرى أناقةً وزُخرفاً ، عاطلةٌ من السَّحْنة الكِلَاسِيَّةِ<sup>(١)</sup> ، وهي لا تزال واقفةً في وَسَطِ النيل ولم تُصْنِبْها العناصرُ بضرر ، وما تتصف به هذه المعابد من قُرْطِ الزينة فيجعل منها منظراً من المِزمار المسحور ، ولم تَزَلْ هذه المعابد في حالٍ حسنةٍ عندما نقَّشَ الفرنسيون أسماءهم على الجُدُر البَطْلَمِيَّةِ ، وقد عُيِّنَ الفرنسيون بجعل أسماءهم على ارتفاعٍ يمكن أن ترى به فوق الرُّنْجِ الشَّرْقِيِّ من الزورق ، وقد سار الفرنسيون على غِرَارِ الفراعنة فأشادوا بذكر معركة الأهرام مع دَرَجِ جميع أسماء الجُرالات ، ثم جاء إنكليزيٌّ فَحَكَ اسمَ نابليون عن حَتَّى ، ثمَّ جَدَّه ابنُ لتاپليون فأعادَه إلى ما كان عليه مع الكلمة : « لا يجوز تدنيسُ صفحةٍ من التاريخ » ، فهذا يَصْلُحُ أن يكون درساً للمتعمِّين في زماننا .

وإذا ما صعدنا فوق رتاجٍ براقٍ من حديد ، ونظرنا إلى الغرب وقت المساء ،  
فإننا نُبْصِرُ تَكَرُّراً ألوان المبد الرائعة في الطبيعة ، نُبْصِرُ بِحِجْرَةِ النِيلِ زُرْقَاءَ كَالْعِظْمِ<sup>(١)</sup> ،  
وَنُبْصِرُ النَخْلَ رَمَادِيَّةً خَضِرَاءَ ، وَنُبْصِرُ الْجِبَالَ المجاورة بِرَقَائِلِ الْاَوْنِ مع ظلالٍ  
زُرْقٍ خُضِرَ ، وَنُبْصِرُ الصَّحْرَاءَ وَرْدِيَّةَ وَالْجِبَالَ البعيدة بنفسجية ، وَيَقْبُضُ الشَّمْسُ  
قَرْمُزِيَّةً فِي السَّمَاءِ الْغَرِيبَةِ الْخَضِرَاءِ الزَّرْقَاءِ ، عَلَى حِينِ تَنْشُرُ السَّمَاءُ الشَّمَالِيَّةُ ، مِنْ  
طَرَفِهَا الْأَرْجَوَانِيَّةِ ، طَرِيقًا بَيْنَ السَّحَابِ الْوَرْدِيِّ وَالسَّحَابِ الْأَخْضَرِ اللَّامِعِ الَّذِي  
يَنْتَهِي فِي الْأَعْلَى ، فِي سَمْتِ الرَّأْسِ ، فِي الْمَهْدِ النَّهْبِيِّ نَظْمًا سَهْبِيًّا ، مُودِّعًا آخِرَ  
هَيَاتِ النَّهَارِ ، ثُمَّ تَمُضِي بَضْعُ دَقَائِقٍ فَيَذْوِي النُّورُ وَتَصِيرُ الْجِبَالُ شَهْبَاءَ<sup>(٢)</sup> دَكْنَاءَ  
وَيَقْطِيسُ النِّيلُ غَيْرُ الْمَحْدُودِ فِي الظَّلَامِ .

وَتَتَدَنَّ سِلْسَلَةٌ مِنَ الْأَنْوَارِ بَقَّةً ، وَتَقْطَعُ الشَّقَقَ بَضْعُ مِثَالٍ مِنَ الشُّهْبِ<sup>(٣)</sup>  
كَالسَّكِينِ ، وَتُظْهِرُ هَذِهِ الشُّهْبُ مَا تَشْتَعِلُ فَوْقَهُ مِنْ بِنَاءٍ هَائِلٍ ، وَتَسْقُطُ شَرَارَةٌ فِي  
هَذَا الْعَالَمِ الَّذِي يَرْجِعُ إِلَى مَا قَبْلَ الطُّوفَانِ ، وَيُنْبَتِرُ جِدَارُهُ مِنْ فُورِهِ وَيَنْهَارُ ، وَهَذِهِ  
هِيَ خَاتِمَةُ الْقَوْضَى ، فَقَدْ فَرَضَتْ عَزِيمَةٌ نَاطِلَةٌ سُلْطَانَهَا ، وَتَلَاشَتْ أَلْوَانُ السَّمَاءِ  
وَالْمَعْبَدِ وَتَوَارَتْ الْفِيلَانُ الْحَجَرِيَّةُ ، وَيَسُدُّ خَزَانُ مِنَ الْحَجَرِ الرَّمَادِيِّ تِلْكَ الْبَحِيرَةَ  
فِي وَجْهِ الشَّمَالِ ، فَلَمْ يَبْرُزْ غَيْرُ رُتَاجٍ لِلْمَعْبَدِ ، وَبَرَى مِنْ نَاحِيَةِ هَذَا السَّدِّ الْأُخْرَى  
سِلْسَلَةٌ مِنَ الْمَسَاقِطِ الْمَصْنُوعَةِ الْمَوْضُوعَةِ وَضْعًا مُنْتَظِمًا ، وَهَذَا الْعَمَلُ هُوَ سَبَبُ كُلِّ  
شَيْءٍ ، وَهَذَا الْعَمَلُ هُوَ الَّذِي يُزْعِجُ نَوِيَّةَ الدُّنْيَا عَلَى طُولِ ٣٥٠ كِيلُومِتْرٍ ، لِحَرَمَانِهِ  
أَلُوفَ الْفَلَاحِينَ بِيُوتِهِمْ وَلَدَحْرِهِ إِيَّاهُمْ إِلَى التَّلَالِ الْجُرْدِ ، وَلِإِعْرَاقِهِ النَخِيلَ وَمَعْبَدَ

(١) الظلم : نبات أزرق يصنع به وهو ما يعرف بالنيل — (٢) الشهباء : مؤنث الأشهب ، وهو ما كان في لونه شبهة أى يابض يحاطه سواد — (٣) الشهب : جمع الصهاب ، وهو كل مضى متولد من النار ، وقيل الكوكب عموماً .

ذلك هو خزان أسوان

بِلاقِ الذى نحن عليه ، والإنسانُ قد قَهَرَ النيلَ بذلك البُنْيَانِ ، وذلك هو اختراعُ  
جَرىءٍ قد عَيَّنَ مصيرَ النهرِ فى مجراه التَّحتَانِيَّ ومجراه القَوَاقِيَّ ، وذلك هو المَكْنَنُ  
الذى يَخْشَرُ النيلُ فيه حَريَّتَهُ .  
وذلك هو خَزَانُ أسوان .

١٩

مُكَافَأَةُ الإنسانِ أوقعتَ النيلَ فى خَطرٍ على طولِ مجراه الأوسطِ من غيرِ أنْ  
تُفَيِّرَهُ فى أىِّ مَكَانٍ كانَ ، ولم يُفَلِّبِ النيلَ فى المنَاقِعِ ولا فى الشَّلالاتِ ، وقاومَ النيلُ  
مُغْوِيَّاتِ السَّهْلِ ، والنَّيْلُ أبلى الجُنَادِلِ ، والنَّيْلُ قد تَفَلَّتْ من يَدِ الإنسانِ ، والنَّيْلُ  
قد أَحْبَطَ جَمِيعَ خِطَطِ إِنْشَاءِ القَنَوَاتِ وَجَمِيعَ المَجهودِ لَجْعَلِهِ صَالِحاً لِلْمِلاحةِ ، والنَّيْلُ  
فى وادى خَلْفًا ، وحينَ خروجه من الشَّلَالِ السَّابِقِ لِلْأخِيرِ ، مَلِكٌ أَقْوَى من  
الفَرَاعنةِ القَطَّارِيسِ ، والنَّيْلُ الصَّامِتُ القَلِيلُ الهَمَّجَانُ قد اقْتَحَمَ الجَلَامِيدَ والمنَاقِعَ  
والصَّحراءَ مَنْصُوراً .

ثم عانى النيلُ هذه المَغامرةَ الأخيرةَ التى هى أدعى المَغامراتِ إلى التَّجَرَّعِ  
لِعَجزِهِ عن الدِّفاعِ ضِدَّ عَدُوِّ خَفِيٍّ ، وقد راعَهُ أنْ رأى تَصاعَدَ مَوجِهِ بلا انْقِطَاعِ  
وامتدادِهِ إلى ما لا حَدَّ لَهُ ، وَلَمَّا غَطَّى بارتفاعِهِ السَّيْمَرُ أَطرافَ الصَّحراءِ كانَ عليه  
أَثَرُ الغَمِّ لا أَثَرُ التَّحَرُّرِ ، وإِنَّه لَكَذَلِكَ إِذْ يُبْصِرُ انْتِصَابَ جِدَارِ هاتِلِ غَلِيظِ أَمَامِهِ ،  
إِذْ يَرى قِيامَ عَدُوٍّ لا يُقَهَّرُ أَمَامَهُ جَامِعٍ للقُوَّةِ والحِيلَةِ ، ومن العَبَثِ أنْ حاولتِ  
الصَّحراءُ والصَّخْرُ وَقِفَ النهرَ وَقَهَرَهُ ، فلم يُرِدِ الإنسانُ البَارِعُ زوالَهُ ، وإِنَّمَا عَبَدَهُ .

من أين يأتي الماء ؟

وتُعدُّ أسوان علامةً ختام المغامرة في حياة النيل وآيةً نهاية القوضى الرائعة فيها ، والنيلُ يُقَمِّعُ ، والنيلُ نافع ، والنيلُ الذي لم تقدر عليه العناصر ينثني بين يدي الإنسان ويخضع لإرادة العقل ، ويَبْلُغُ عمل ذلك السدِّ من القوة ما يُعَيِّنُ معه الربع الأخير من مجرى النيل فضلاً عن أنه يُوَثِّرُ بنتائجه وممكناته في النهر بأشهره حتى خمسة آلاف كيلومتر من مجراه الفوقاني وإعطائه معنى جديداً لجميع ما وصفناه ، وسنتكلم بعد حين عن تأثير هذا العمل الفاوستي<sup>(١)</sup> في مصر ، وقد حلَّ الوقت الذي ندرُس فيه النيل الذي هو الوسيلة الوحيدة ، كمنصرٍ وكماء ، لإدراك السبب في وجوب تعيين مصيره بأسوان .

ومن أين يأتي الماء الذي يُوقَفُ على ذلك الوجه ؟ وفي أي وقت وبأية قوة يصلُ الموج غداً ؟ يجب على المهندس بالقاهرة أن يَعْرِفَ ماذا تَكْشِفُ له الطبيعة التابعة لهاها عن أمر النيل الأعلى لِيُعَيِّنَ مقدارَ الماء الذي تُرْسِلُهُ حواجز أسوان إلى القسم الأدنى من النهر وَيُعَيِّنَ مقدارَ ما يجب حفظه وإلى أي حين ، والمهندس في مكتبه الصغير وبقلمه الرصاصيُّ وخرائطه وما عنده من جدولٍ في الأنساب العديدة يُعَدُّ الدماغَ للدير ، وما يُرَسِّمُ على جهازِ مَوْرسٍ من خطوطٍ بيضٍ في كلِّ صباحٍ فيُعَلِّمُ به ارتفاعَ مياه النيلين حتى الرُّصَيْرِصِ ومَلَا كالٍ وَيُعَيِّنُهُ على تكوين رأيٍ حول ذلك فيُصْدِرُ الأوامرَ وَيُتَرَقِّقُ إلى مهندسٍ أسوانٍ عن مقدار الحواجز التي يجب أن يفتحها في ذلك اليوم .

وإذا كان القياسُ عن المجرى الفوقاني فَلِمَ لَا يُقَهَّرُ النهرُ مُقَدِّماً فيُصْنَعُ سدٌّ في النيل الأعلى والنيل الأوسط ؟ وإذا نُظِرَ إلى الأمر من أسوان فما هو شأن النهر الشاب

(١) الفاوستي : نسبة إلى فاوست الذي هو جُلَّ إحدى روايات غوته المعروفة بهذا الاسم .

وشأن البحيرات والمنابع والشلالات ؟ وما شأن كل من النيلین لدى ذلك السدّ الأعظم الذى یرتقب جمیع أهوائهما ویقیدها ؟

وإذا وقف على السدّ تحت دائرة السرطان ، وإذا رُجعَ البصر إلى الجری الفوقانی وسُئل عما یجب عمله تحت خطّ الاستواء ، غُیّرَت اللمحةُ ووجهُ النظر ، فالسائلُ جدیدة ، ولم یُوجد الخزان إلا منذ ثلاثین سنة ، وكثیرٌ من الملاحظات خاصٌ بالمستقبل .

وتنافس بجیرتان كنماذج للنیل الأبيض مثل تنافس النيلین ، ویوجد لمنطقة بحيرة ألبرت الجبلية ، ولوقوع هذه البحيرة على الطرف الغربی من الوهدة الإفريقية الكبرى ، ولإمدادها بجبال رؤو زوړی العظيمة ، تأثيرٌ كبيرٌ فى حجم النيل الأبيض . ، وإذا ما درسنا مساحة تینك البحیرین معاً ودرسنا نظامهما النهريّ وجَدنا حاصلَ نحوِ مليونِ كيلومتر مربع يُقدى مصرَ ٣٠٠٠٠٠ كيلو متر مربع ، وإذا نُظِرَ إلى الأمر من الناحية العملية رُئِيَ أن نصف الماء الجارى یأتى إلى مصر من تینك البحیرین وأن هذا النصف ليس مديناً بغير جزء منه للأنهار التى تغذيها . والواقعُ هو أن جمیع ما یجرى نحو بحيرة فيكتورية لا یملأ صحنها ، وإذا عدّوت كالجيرا وجدتَ البردى فى أشهرٍ یحوّل دون وصول مياه الروافد إليها ، والمطرُ النازل من السحاب هو الذى یملأ البحيرة ، وهذا يسوغ الأسطورة القديمة القائلة إن النيل یأتى من الجنة ، وتزید مساحةُ بحيرة فيكتورية على مساحة سويسرة بمقدار نصف مساحة هذا البلد ، ونرى تقاصاً بین قیض مساحة البحيرة وما یوجه تبخرُ ماؤها بسرعةٍ من نقصٍ ، وبعْدِل ما ینجم عن المطر والتبخر من كسبٍ وخسرٍ فى بحيرة فيكتورية نحو أربعة أمثال ما ینجم عن الروافد وجريان المياه من

## بحيرة ألبرت أصلح لصنع السد

كُتِبَ وخُسر، ويكفى أن يقام سدٌّ عند مسقط ريبون، وأن يُحفظ الماء على هذا الوجه لسنوات الجفاف، لتحويل هذه البحيرة إلى خَوْضٍ احتياطيٍّ ثابتٍ أُكيد لمصر، ولكن هذا الماء يَمُرُّ من إمتنجة بحيرة كيوغا ومن مناطق أخرى، فيكون الخسرانُ كبيراً نسيئاً كالذى ينشأ عن ترك الماء يجرى طليقاً.

وَيُرى أن بحيرة ألبرت أصلح من بحيرة فيكتورية للسدِّ نظراً إلى صِغَرها وقلة نُفُوعها، ووقوف شواطئها، وظهورها خزاناً طبعياً مثالياً، فيكفى سدٌّ ارتفاعه مترٌ واحدٌ ليجتمع خمسة مليارات ونصف مليار من أمتار الماء المكعبة، أى أكثر مما فى أسوان، ولا تكون البحيرة، ولا التَّبَحُّر، أكبر مما عليه لما عليه الشواطئ من حذرٍ ووَغْرِ، ولكن كيف يُصان صلاح النيل الأعلى للملاحة مع أن منبعه الثانى فى أقصى شمال البحيرة؟ والمسئلةُ هى أن يُعرَف، إذن، أى الأمرين أفضلُ: إقامة السدِّ عند مخرج بحيرة ألبرت فى بَكوناش أم إقامته بعد مئى كيلو متر عند نموله؟

وَيَتَلقى النهر الشابُّ فى مجراه من مخرج بحيرة ألبرت كثيراً من السواعد التى تُضَاعِف ربحه فى موسم الأمطار، غير أن هذا النهر يَبْدُو مغامرًا فيخسر فى أسبوع ما كان قد ربحه فى الأسبوع الماضى، فيترك فى مناطق مُتَفَلِّة ما يَقْرُب من نصف مكاسبه، ويكاد يَحِفُّ لو لم يَحِفَّ بحر الغزال إلى مساعدته، ويَبْلُغ الخسرانُ فى النافع من الكثرة ما يَعْدِل ١٣,٥ مليار متر مكعب من ١٤ مليار متر ماء مكعب، أى ما يكفى لجعل مساحة الأراضى الصالحة للزراعة فى مصر ثلاثة أمثالها، وهكذا لا يُعين بحر الغزال وبحر الجبل بغير المُسر من مجموع النيل.

ولكن بما أن سواعدها عاطلة من الانحدار فى القسم الأسفل من مجراها فإن جميع

ذلك يسير إلى ذلك المستقع ، وترى هنالك بُقعةً يستطيع بقر الماء ، حين يَشُقُّ طريقاً ، أن يُقَوِّضَ فيها ضِفَّةَ نهرٍ فيغير مجراه ، وأريدت معالجة ذلك فَوَرَدَتِ الذهنَ « خِطَّةُ فرعون » ، خطةٌ مِيناً التي طَبَّقَهَا على النيل الأدنى ، وهذا النظامُ هو من سرعة التنفيذ وكثرة التوفير ما يُجْتَنَبُ به ضَيَاعُ الماء في المناقع ، فبه يُحْدِثُ سدٌّ حَجَرِيٌّ على الضِفَّةِ اليسرى من بحر الجبل ، بين رجاف ومَلَا كَال ، بالغ من العرض عشرة أمتار ومن الارتفاع مترين فيُخَصَّرُ بحر النزال بذلك ، وبذلك النظام يُنْشَأُ عن يمين تلك التسوية سدٌّ ثانٍ عازلٌ لنصفِ مناقع بحر الجبل ، فتَقِلُّ مِسَاحَتُهَا بِمَقْدَارِ النصف ، وبذلك النظام يكون بحر الجبل قد رُدَّ إلى جهة بحر الزراف فيرتفع مستواه ، ومع أن الأرض ترتفع بذلك ارتفاعاً خفيفاً نحو الاتجاه الشرقى فإن المناقع الشرقيَّةَ تَزِيدُ هنالك وَتَضِيقُ على طول بحر النزال ، ويُمكن ذِيْنِكَ السَّدَّيْنِ الفرعونيَّينِ الطويلين تسعئة كيلومتر ، والبالغيْنِ من التكاليف مليونَ جنيه ، أن يُقَامَا في ست سنين وأن يُفْصِلَا نصفَ المناقع ، ويُحْرَمُ الماء نصفُ المناقع بذلك فلا يُنْقَذُ غيرُ ربعِ ١٥١ مليار متر مكعبٍ التي تَغِيبُ في تلك البُقعة فيكون لمصر نفعٌ كبيرٌ في سِنِي الجَفَافِ .

والمناقعُ تستنزفُ النيلَ ما لم يُحَقِّقْ ذلك المشروع ، وسيُناطُ مصيرُ مصرَ بِرَوَافِدِ المجرى التحتانيِّ وبالشُّوْبَاطِ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ ، والسُّوْبَاطُ هو الذي يأتي بماء الحَبْشَةِ الجنوبيِّ ، والسُّوْبَاطُ خاضعٌ لنظامِ أمطار الجبال العالية ، فيَجِفُّ شتاءً ويندفع كالسيل صيفاً ، ويكفي قليلٌ تعديلٍ في الجوِّ حتى تَبْلَعُ المناقعُ جميعَ ماء البحيرات و يصبحُ النيلُ نهرًا حَبْشِيًّا خالصاً .



٢٣ — جري النيل الصحافي من أسوان





والنيل كالتاجر الذى يضامر فى كل أمرٍ فيخسر كل شئٍ فى مشروعٍ هير<sup>(١)</sup> ،  
فهو يكاد يحيف لولم يأت السوباتُ لمساعدته فى الدقيقة الأخيرة ، أى فورَ التقاء  
بحر الغزال وبحر الجبل ، أجلٌ ، تُثقلُ السوباتُ فيضاناته فى مجراه الأعلى ،  
فلا يصلُ إلى حدِّه الأقصى إلا فى شهر نوفمبر مع أن ارتفاعه يبدأ فى شهر إبريل ،  
غير أن السوباتُ فى فصل الخريف يكون من القوة ما يسدُّ به مجرى النيل ويدحر به  
مياهه حتى بحيرة نو ، ولا يجوب السودان ، إذن ، سوى قليل من ماء النيل فى  
ثلاثة أشهر .

وماء الحبشة ، أى نهر السوبات مع توابه ، هو الذى يجرى على هينته نحو  
الخرطوم فى مجرى النيل الأبيض .

## ٢٠

النيل يُقلب جميع سنن الطبيعة رأساً على عقب كما يلوح ، والطبيعة تنبُغ غاياتها  
بهذا القلب مع ذلك ، فالنيلُ يجوب الصحارى والمناقع من غير أن يحيف تماماً ،  
والنيلُ فى الصيف ، حين تحيفُ الأنهارُ الأخرى ، هو الذى يُقلب بمياهه المرتفعة  
نظامَ القصول العادى ، والنيلُ يَبقى مع أنه دون الكونفو والدأنوب الأدنى غزارةً  
ومع اتباعه أحوال حياةٍ أشدَّ تعقيداً ، والنيلُ ، مع سيئه من مناطق بلا مطر ،  
يكون من القوة ما يحتمل معه الجفاف ، وقد نالت الطبيعة هذه النتيجة بفضل  
نأخى النيلين .

(١) الهير : الذى يتهور فى الأمور .

ومن الصعب أن يُعرَف أىُّ النهرين أُمُّ من الآخر كما يَضُربُ تعيينُ نصيب كلِّ من العالمين الشريكين في الفضل كسيو كورى ومدام كورى ، أو الأخوين رايت ، اللذين اقترن ما فيهما من علم رياضيٍّ وتصوُّر وإلهام وبحسٍّ وصولاً إلى اكتشافاتهما ، نعم ، إن النيل الأبيض أشدُّ بَطْناً ، غير أن هذا البُطُوء يُنْقِذُ مصرَ ، ويؤخِّرُ عدمُ انفجاره وصولَ مياهه التي تمرُّ من الخرطوم بين الشهرين أغسطس وديسمبر ، مع أن النيل الأزرق ، الذي هو أكثرُ سرعةً ، يُلقَى مياهه بين يوليه وسبتمبر ، ثم إن النيل الأبيض الوحيد لا يَخْرُجُ من مجراه ، وتظلُّ الزراعة مقصورةً على الضفاف المباشرة التي تَسْتَقِمُها النواعير ، ولولاه ، مع ذلك ، لَمَاتِ مصرُ عطشاً في فصل الجفاف حين يَحْمِلُ النيلُ الأزرق ماءً قليلاً تحت سطح الأرض ، ولم تَهَبِ الطبيعةُ النصرَ للأقوى عن حكمةٍ ، فأكبرُ الأخوين ضامنُ حياةٍ وأصغرها صاحبُ عبقرية .

وأرقامُ حساب النيل الأزرق دليلٌ على عُنْفِ مزاجه ، فبما ترى نسبة الارتفاع والنزول في النيل الأبيض ١ : ٥ تَجِدُها في النيل الأزرق ١ : ٥٠٠ ، ويمكن أن يُبَصَّرَ حسابُ النيل في مصرَ بين الشهرين ديسمبر ومايو ، لأن الذي فيه آتِذٍ هو ماء النيل الأزرق ، ولا يُعرَف ، مطلقاً ، ماذا تكون الزيادة في شهر يونيه لأنها مَدِينَةٌ للنيل الأزرق ، أى لجلال الحَبَشَةِ وللرياح الموسمية ، ولا يَلْبَثُ النيلُ الأزرق العنيفُ التابع لهواه أن يَكْفَ عن المساعدة ، ثم يقوم بجميع العمل متى عَنَّ له ، وهو يحتمل ثلثي الحساب في الشهرين أغسطس وسبتمبر ، ولا يحتمل كلٌّ من العطبرة والنيل الأبيض سوى السدس ، وإذا حُكِمَ في الأمر من حيث غزارة الماء قيل إن بحر الجبل هو مصدرُ النيل الأبيض وإن النيل الأزرق هو مصدرُ النيل بأمره ،

وهذا إلى أن النيل الأبيض ليس أبيض كما أن النيل الأزرق ليس أزرق ، ففي الربيع يكون النيل الأبيض أخضر ، ثم يصير ضارباً إلى حمرة ، ولا تكون مياهه شفافة حتى في فصل الشتاء ، ويكون لون النيل الأزرق في موسم الفيضان كلون الشكولاتة مع اسمرار ، ثم يصبح أكثر صفاء .

ومع ذلك لا يدلُّ النيلُ الأزرق على عبوريته بصولة أمواجه ، بل بتركيبها ، فالنيلُ الأزرق ، إذ يخرج من جبال بركانية ويحوّل أجزاء البزلت الحَبَشِيَّ إلى غرين خصب ، يأتي أمراً لا يقدر عليه النيل الأبيض ولا جميع أنهار أوربة ، وتُعرف قيمة الغرين على ضفاف نهر الفنج أيضاً ، ومتى فاض نهر الفنج فأتلف الغلال تبسّم الهندوسى باتزان البرهمي لما يعلمه من قوة خصب التراب في العام القادم ، وكان المصريون منذ خمسة آلاف سنة يعرفون أن الغرين سبب وجود الدلتا ، وأن محاصيلهم مدينة للغرين في كل سنة .

أجل ، يجيء النيل الأبيض ، أيضاً ، بمواد محلوله عالقة به ، وتعديل النسبة المثوية لهذه المواد الممكنة الانحلال ما في النيل الأزرق من غرين ، غير أن تلك المواد من أصل نباتي على الخصوص ، وذلك لأن النافع تقوم بعمل المصفاة العظيمة ، ولأن الانحدار أقلّ ميلاً ، ولأن الجُرَر تقف ما يبقى ، ولأن التراب الخزيّ لا يمكن كثره ، ويحمل السوبات نصف الحَبَشِيَّ غريناً ، ويفقد معظم غرينه في مناقه الخاصة .

وما يحمله النيل الأبيض والشوبات من المواد الصلبة فيرسب في مجاريهما ومناقهما ، ويأتي النيل الأزرق بـ ٨٦ في المئة من مجموع تلك المواد في شهرى فيضانه ، أى في أغسطس وسبتمبر ، وفي الشلالات أيضاً يجزّ النهر ما يقرضه من البزلت

والغرائب والجبر ، وإلى الغرين يُضاف رملُ النهر ، وما في النهر من موادَّ عَفَنَةٍ ،  
و في المئة مما يَحْمِلُ هو من الموادَّ العُضْوِيَّة ، فَيَتَلَفُ في أثناء مروره من الصحراء  
وبفعل الجفاف والهواء ، وهكذا تزيد الصحراءُ عدوَّها الماءَ قوَّةً ، وإذا ما انتهى  
الفيضان وسكَّن أخذت الطيور ، من فورها ، تَقْتَرِسُ السمكَ الميت وأنواعَ الحيف  
المنتثرة على الضفاف .

ويَجْرُ النبلُ الأزرق ، في أثناء جريانه الهائج ، كلَّ شيءٍ في طريقه كَرُسُلٍ من  
بلاده ، وَيَسُدُّ من عله في أميالٍ كثيرٍ من القنَّات والمضائق والمزالق ، وَيَقْطُرُ<sup>(١)</sup>  
الغرين من الحواجز ، وإذا ما تحول النهر إلى سيلٍ جَرَفَ شفيره المتفتت ، وَيَتَصَبَّبُ  
نُثَارُ براكين الحبشة وتراب منحدرات الأودية للتساقطُ ورمالُ الصحراء التي تأتي بها  
الريح ورمادُ حرائق السُهب التي يوقدها هَمَجُ إثيوبية تجديداً لمراعهم أو قريباً من  
وادي الأبَّاي الجنوبي للدفاع ضدَّ جماعات الفيول ، أَى يَتَصَبَّبُ جميعُ هذه الموادَّ  
السود والشمر ، في أشهر ، ومن خلال سُهب بلاد النوبة وصحرائها ، لتُخْرِجَ من  
أرض مصر ، التي لا يَنْزِلُ إليها مطر ، أَسْرَعَ وأَبْرَكَ ما في الدنيا من غَلَّاتٍ في  
الغالب ، وهكذا تُتَاط حسابات الرجال الذين يضاربون على القطن في مَنَشِستَر بأهواء  
نهر نَقُورٍ لم يَتِمَّ أَحَدُ استقلاله من منبعه إلى مَصْبِهِ .

ويشتمل الغرين ، أَى مصدرُ الغنى ، على ذهبٍ يُعَدُّ رمزاً لقيمته ، حتى إنه  
يُصَقَّى على حدود السودان في الحين بعد الحين ، ولكن بمقدارٍ قليلٍ لما يتطلبه  
استغلاله المنتظم من نفقاتٍ كثيرة . وقد حَسَبَ أناسٌ من ذوى الاختصاص ما في  
الغرين من سِمَادٍ فوجدوا أن كلَّ فدانٍ في مصرٍ يحتوي منه ما قيمته جنيهٌ ونصفُ

(١) قطر : سال وجري قطرة قطرة .

جنه ، ويزيد خصبه بالحرارة ، وما فيه من أكسيد الحديد فيزيد قوة امتصاصه .  
تلك هي طبيعة الهبة الكبرى التي تمنحها أمطار الحبشة على مصر فتجعل منها  
بحراً محيطاً ، وإذا كان غرين النيل عنصر التذكير المولد فإن الأرض التي ينشأها  
مستعدة لتحب الحياة ، وما يكون من جفاف بعد الفيضان فيوجب تصدع أرض  
مصر ، ويتخلل الهواء في الفطور<sup>(١)</sup> التي تشابه ما تشقه حديدة للحراث في أماكن  
أخرى ، وغير قليل مقدار المواد اللقحة التي ترسب بين الخصادين ، وينفذ  
الفيضان الآتي نفوذاً عميقاً ويحل المواد الضرورية لنمو النبات ، ويودع الغرين  
ويقلل فعل ملح الطبقات الدنيا من التراب

والنيل قد أوجد الدلتا قبل أن يحول الإنسان الغرين إلى غلال بألوف السنين ،  
والنيل قد شق طريقة في الصحراء قبل ذلك بألوف السنين ، وترجع أولى العلام  
والأرقام الخاصة بالفيضان إلى ما هو أقدم من جميع وثائق الغرب التاريخية ، وهي  
تبلغ من القدم نحو ستة آلاف سنة ، وهي تعدد قرية من الصحة في الوقت الحاضر ،  
والثورة الكبرى التي عاناها النيل هي من عمل الإنسان ، ولا تزيد في القدم  
على قرن .

ونعلم من التصاوير على جذران قبور الفراعنة كيف كانت الحبوب تُبذر في  
الغرين بعد الفيضان وكيف كان يُحصَد بعد شهرين ، ونرى على تلك الجذور أسداً  
تُحيط بمحياض كما في الزمن الحاضر ، ومن الكتابات ما يدلنا على أن الحكومات  
كانت توجه ماء الفيضان من حوض إلى آخر إيصالاً للغرين المولد إلى مكان بعيد ،  
وكان يحتفل منذ أربعين سنة مضت ، أي قبل إنشاء حزان أسوان ، باليوم الذي

(١) الفطور : جمع القطر ، وهو الشق .

تفادر أمواج النيل الأزرق الأولى جبال الحبشة كما كان يُحْتَفَلْ قبل خمسة آلاف سنة ، والأسماء هي التي اختلفت ، فكان الكَهَّانُ يُخْبِرُونَ الشعبَ بأن إيزيس يَسْكُبُ دموعه في النيل حين يبكي أخاه أوزيريس فيرتفع النهر ، واليوم يُبْرِق مهندسُ الرِّصِيرِصِ إلى القاهرة مُخْبِراً بوصول الفيضان ، واليوم يقول النصارى والمسلمون إن قَطْرَةَ رَبَانِيَّةٍ تَنْزِلُ ليلةَ اليوم السابع عشر من شهر يونيه ، ولن يستطيع عالمٌ أن يُطْفِئَ شُعْلَةَ خيال الناس الشَّعْرَى .

ويَقْمَرُ الفيضانُ مصرَ في فصل الصيف ، فيُخَصِّبُ الحقولَ الجافَّةَ بالفرجين ويكون الشتاء لطيفاً غير حارٍ كما في المناطق الاستوائية فينبُت الحب من تلقاء نفسه ، ويأتى الفيضان الحبشيُّ في الوقت المناسب إذن ، ويكون على عكس الفيضان الذي يَقْمَرُ العراقَ إذن ، ونَعْرِفُ مقدار الزمن الذي تدوم فيه رحلة الموجة ، ففي النيل الأزرق الأعلى يبدأ الفيضان في أبريل وَيَبْلُغُ أسوانَ في يونيه ، ويَصِلُ إلى الدلتا في يولييه .

ومُعْظَمُ المياه يَصُبُّ في البحر منذ ألاف السنين من غير أن يُنْتَفِعَ به ، وكان لا بُدَّ من حلول عصرنا حتى يُشَادَّ سَدُّ أسوان وسواه في مصرَ وتُسَقَى الأراضى على طول النيل وإلى ارتفاع ما ، فَتُغَطَّى الأطنانُ محصولين أو ثلاثة محاصيل وتَنْدُو الصحراء من ورائها خصيبةً .

## ٢١

ترى ابن ضيفان كلَّ جَدُولٍ منذ أقدم الأزمنة في غَمٍّ من أعمال ابن الجري الفوقانيَّ وحركاته فيسأل في نفسه عن استفاد هذا الجارِ كثيراً من الماء وعن تحويله

إياه إلى مصلحته ، وتحمي قوانين جميع البلدان ابن الجرى التحتاني من اعتداء ابن الجرى القوقاني إذا كان كلا الفريقين يسكنان بلداً واحداً على الأقل ، وإذا كان منبع جدول خاصاً بملك أرض آخر فإن الانتفاع الصحيح بمجرى الماء يصبح صعباً لما يصير به جميع الدواليب التي يديرها جميع الأموال الخاصة في خطر ، ويبدو الوضع أشد خطراً عند ما يتوقف أمر بلده بأشهره على مجرى ماء عظيم ، لا من أجل مائه الصالح للشرب ، بل من أجل الجيوب التي تُغذي سكانه ، وذلك عند ما يكون منبع مجرى الماء هذا في بلد آخر ، وعلى أصحاب السلطة في المصب أن ينفذوا في نفس أصحاب السلطة في المنبع نفوذاً تاماً حتى يعرفوا مقاصدهم ، وماذا يقع لو تنافر الفريقان فصّر سائر الجرى القوقاني منبع الماء عن وجهته عن خبث غير خائفٍ مقابلةً بالمثل ؟ فالاشتراك الدولي في أمور الرى وهي ككل حق دولي .

وما كان يساور قدماء المصريين من غم فتل ما يساور المصريين المعاصرين ، وذلك تجاه أمة إثيوبية البعيدة النكرة التي وضعت الآلهة منبع النيل الأزرق بين يديها كما وضعت الفيضان الأكبر والغرين المولّد اللذين لا يمكن مصر أن تعيش بدونهما ، وفي الأساطير والكتابات شواهد على تنازع أهل الجرى التحتاني وأهل الجرى القوقاني وتفاوضهما ، وقد أدّى هذا الوضع إلى مخاوف مخالفة للعقل في الغالب .

وفي القصة أن الفيضان لم يقع في سنة ١١٠٦ فضربت الجماعة أطانيها في مصر فأوفد السلطان الأمير النصراني والبطرك القبطي ، ميخائيل ، إلى نجاشي الحبشة النصراني مع كثير من الهدايا ، وقد أثر الذهب في النجاشي ونارت فيه عاطفة الخنّان فخرق السد الصغير الذي يُحوّل الأبّاي الأعلى ، فلم يلبث الفيضان



أن عمَّ السودانَ صاعداً في كل يوم ثلاثةَ قراريط<sup>(١)</sup> ، وفي نهاية الفيضان استقبل ميخائيلُ في الدلتا استقبالَ الظافرين ، لما كان من سياحته بأبطاً من الماء ، وخشيَ السلطانُ أن يُسلمَ النصارى البيضُ مصرَ إلى أيديهم النصرانيِّ القمُصِ ، كما خشيَ هذا القمُصُ النجاشي أن يُغيرَ عليه السلطانُ بفتةً راعياً في الاستئثار بالنيل كله إلى الأبد ، والنهرُ ، إذ يتفَلَّت من المنافع ، يتورَّط في — المنازعات الدينية ، أو في عالمٍ من الأفكار غريبةٍ عنه غُرَبَة الغرِّين البركانيِّ عن مذاهب الأنبياء .

وما رُوِيَ من قصة الاجتماع في القاهرة سنة ١٤٨٨ فيصِف لنا السلطان وهو متكئاً على أريكته في خيمته الذهبية وسفراء جميع ملوك البيض يُقبلون الأرض مرتين أمامه ، ويصلُ رسولُ النجاشي وحده مضطجماً في مِحْفَةٍ<sup>(٢)</sup> كالسلطان فيرفضُ النهوضَ والخروج منها ، ويسأل :

— مولاي ! أتريد السِّلْمَ مع سيدك وسيدى القمُصِ يُوَحِّثًا ؟

— لقد عاش آباؤي في سِلْمٍ مع هذا القيسِ .

— لا تدعُه قيساً ، وإنما ادعُه بـ « سيدى » .

ويكرِّر هذا الأمرَ ثلاث مرات ، فيقول السلطان بتأنٍ : « أريد السِّلْمَ مع سيدى القمُصِ يُوَحِّثًا » .

وهناك سَلَّمَ الحبشيُّ إلى سلطان مصرَ قوساً وستةَ سِهَامٍ من ذهبٍ وقال :

— أصبتَ إذ قلتَ سيدى ، فحياتك وموتك بين يديه ، وأنت تعرف

(١) القراريط : جمع القراط ، وهو في الساحة عرض الأصبع ، والكلمة من الدخيل .

(٢) المِحْفَة : سرر تحمِل عليه السافر ، ويبي تختروان .

السبب ، فالنيلُ يأتي من بلدنا ، ولو أراد سيدي لقطع الماء وأماتكم جميعكم جوعاً .

السلطان : « ذلك حق » .

ويُفسّر المؤرخ حين ذلك الإكراهَ بِجَهْلِ الترك وَجَهْلِ الأقباط وَخِيَلِهِ الأقباش .

وحاول نصرانيّ من الغرب أن يتجمل من تلك الأسطورة حقيقةً ، ففي سنة ١٤٠٠ كان ألفونسو دُوَّالْبُوكِرْك البرتغاليّ ، الذي جعل منه رجلٌ عظيم ، نائباً للملك في الهند ، فأراد أن يتزعج من السلطان طُرُقَه التجارية وإهلاك مصرَ فاعتمد على القميصِ يوحنا وسعى في تحويل النيل الأزرق إلى البحر الأحمر ، فلم يحبط عمله ، كما روى ابنه ، إلا لعدم وجودِ عمالٍ ماهرين ، « وإلا كان يمكنه أن يخرق ثلاً ، فتبوت مصرُ عطشاً » .

والآن أيضاً ، أي بعد أربعين سنة أو تزيد ، وُضِعَ من الكتب الحديثة ما عدّه به تحقيقُ ذلك المشروع أمراً ممكناً ، ومع ذلك يجب على جميع العالم أن يعلم أن أهمّ ما يأتي به النيل الأزرق لا يأتي من مجرى يمكن تحويله ، بل من مئات السيول التي يتعذر ضبطها من بعيد ، وما في النيل الأزرق من مخاطرٍ ومنافعٍ فقد حمل على قياس جريانه وحسابه قبل أن يُصنّع مثل ذلك عن النيل الأبيض ، وقد غيى بالأمر سنة ١٩٣٠ ، وسيُغنى به في المستقبل لا ريب .

ووضعت مشاريعُ سدّ لبحيرة طانة منذ ثلاثين سنة خلت ، ولن تُكره الحبشة على منح إمتيازاتٍ ما دامت مستقلةً وما دام الرّق يُفنيها عن كل قرضٍ من الخارج ، وهذا ما جعل من غارستن ، الذي تتخذ حساباته عن النيل أساساً

رئيساً لجميع مسائل الرِّىِّ ، عاملاً فى اتفاق إنكلترة والنجاشى يُعَاهِد به هذا الأخيرُ على عدم القيام بأعمالٍ فى الأَبَّأى الأعلى وعلى عدم السماح لأحدٍ بصنع ذلك من غير أن توافق عليه إنكلترة ومصرُ مقدِّماً ، وقد اعترفت إيطاليا فى سنة ١٩١٩ وسنة ١٩٢٥ بمرکز إنكلترة الممتاز فى مقابل ضَمَان القسم الغربى من الحبشة عند إنشاء مثل ذلك السَّدِّ ، وقد وَقَّع هذا باسم « مناطق النفوذ » التى هى شكلٌ عَصْرِىٌّ للفتح الاستعمارى ، وما قَتِنَتْ فرنسا تَثِيرِ رَبِّبَ نجاشى الحبشة ، ثم غَيَّرَتْ فرنسا سياستها فى صيف سنة ١٩٣٥ .

وفى سنة ١٩٢٧ عَرَضَتْ إنكلترة على الأحباش ما هو ضرورىٌّ من النقود لإنشاء سِدِّ مُؤَدِّ إلى زيادة رِىِّ زراعة قطنها السودانى ، ويُوَلِّى النجاشى وجهه شَطْرَ الأمريكين ، ويُشِيرُ هذا عن وضع مشروع سِدِّ من قِبَل شركة فى نيويورك ، وتَحْشَى إنكلترة أن يكون للأموال الأمريكية ومصالح ملوك القطن الأمريكين تأثيرٌ فى مجرى النيل فَصَلَّتْ الاتفاق مع منافسها هؤلاء ، ثم حدثت الأزمة العالمية فَوَقَّفَ كلُّ شَيْءٍ .

ويُثِيرُ سَدِّ بحيرة طانة ، وهو سيقام ذات يوم ، حسد الدول العظمى ، ويقاومه أحباش أدبس أيبا لِمَا يوجبه من دخول الأجانب فى البلاد ، ولِمَا يُجْهَلُ به وقتُ خروجهم منها ، ويَزْعُم سكان شواطئ بحيرة طانة ، بَوْحِيٍّ من قُسُوسهم ، أن الأجانب الآتين من أَجْلِ المشاريع يريدون إقامة سِدِّ يبلغ ارتفاعه مئة متر فيؤدى إلى هدم كنانسهم وإلى تحويل الأَبَّأى ، وأن الأجانب كانوا قد سَمَّوْا بحيرة طانة ، والمصريون وحدهم ، وهم الذين أَهَمَّتْهم الحبشة فى عهد السلاطين ، لم يكتروا لذلك ، فهم يَتَلَمَّون فى الوقت الحاضر أن ثلاثةً فى المئة من الفيضان يَصِلُ إلى

لا يريدون أن يكونوا تابعين

مصر من بحيرة طانة ، وأن ذلك السد لا يجزئهم ماء ، ولا غريتنا يقوم عليه عيشهم ، وأن الغريق لا يأتي من هذه البحيرة ، وأن ذلك السد يحفظ ، بالعكس ، ثلاثة مليارات متر مكعب من الماء لمصر والسودان عند الجفاف ، وأنه يحفظ هذا المقدار للسودان وجزيرته وحدهما بعد إنشاء مصر لجميع أسداد النيل الأبيض ، وفي هذه الحال ، وفيما خلا الشتاء وقت الفيضان ، يكون النيل الأزرق سودانياً صرفاً ويكون النيل الأبيض مصرياً خالصاً .

وترى إنكلترة في الوقت الحاضر إنشاء سد على النيل الأزرق حيث يكون الماء خاصاً بها ، وذلك على بُعد ثلاثمائة كيلومتر من فوق الخرطوم ومن ملتقى النيلين : الأزرق والأبيض ، وذلك لما يؤدي إليه من رفع مجرى النهر وسد النهر وسقي حقول القطن بالماء المخزون ، وتتخذ إنكلترة هذا القرار بعد النجاح الذي نيل في أسوان بوقت قصير ، ويحدث مثل هذا النجاح مؤونة<sup>(١)</sup> كما تحدث الكتب والطفاة ، ويبدو القوم جُسرًا مُترين ، ولا يريد أصحاب المصانع في منشستر أن يكونوا تابعين للولايات المتحدة الأمريكية ، ويؤد الإنكليز ، أن يلودوا بالتقاليد القائمة منذ زمن ، ولا يُعد الأمر بدعاً<sup>(٢)</sup> يُلقى النّم في قلوبهم ، والواقع هو أن القطن يُزرع في الجزيرة منذ قرن ، والواقع أن الجزيرة مثلث يبلغ من المساحة خمسة ملايين فدان إنكليزي ، والخرطوم رأس المثلث ، والنيلان ضلعاه ، وتقطع قاعدته الشّهب بين كوستي وسنار ، ويعدل نصف سويسرة ، ويعدل جميع أراضي مصر الصالحة للفلاحة تقريباً .

يبد أن هذا القطن الذي كان يزرعه أهل البلاد هو من الهزال كالقطن شبة

(١) Fashion, Mode (٢) البديع : المحدث الجديد .

البرّي الذي يُزرع الآن في حقول الحَبَشَة ، وهو لا يمكن أن يزاحم القطن الأمريكي ، لما ليس في الجزيرة من أثرٍ للحِذْق والْفَن ، ولقلة ما في الجزيرة من الماء على الخصوص ، ولا تَسْقِي الأمطارُ غيرَ المنتظمة الحَقُولَ في الوقت المناسب ولا بدرجة الكفاية ، وإذا ما أُنِمْ المطرُ شَيْئاً الاستوائيّ بالرّى كان للوايل<sup>(١)</sup> الذي يهطل بين الشهرين ، مايو وسبتمبر ، أحسنُ عِل ، وكانت هذه المنطقة تُنْبِت سِمْبًا ومِطَاطًا ، وكانت المِصْحَاتُ الضَّخْمَةُ تُسْتَعْمَلُ في أوائل هذا القرن فكان يُؤخَذُ أليْبُ محصول ، وأراد كتشنر بآثره أن يكون للأرض رِخاءً وعَظْمَةً فنال من الحكومة ضامنَ قَرْضٍ مُعَدٍّ لتغطية نفقات خزان سنار مكووار ، ووُضِعَت المشاريعُ سنة ١٩١٣ ، وأُجِلَّت الأعمال ، التي كان يجب أن تبدأ في سنة ١٩١٤ ، بسبب الحرب ، ولم يَمِمْ قِيَامُ هذا السدِّ إلا في سنة ١٩٢٥ ، وكان التقدير الأوَّلِيُّ لثلاثة ملايين جنيه قبلت نفقات السدِّ ثلاثة عشر مليونَ جنيه ونصف مليونَ جنيه ، ويجب أن يُسَارَ أكثرُ من نصف ساعة لقطع ما بين طَرَفَي جدار الدَّعَامِ<sup>(٢)</sup> البالغ من الطول ثلاثة كيلومترات ، ولكن من الصَّعَابِ وكثرة النفقات أن تُنَال من نهرٍ تتأخَّرُ لا تُنَال من بحيرة بصعوبة ، ويمكن بحيرة طانة أن تَمْنَحَ بسدِّ طوله مئة مترٍ وعرضه متران من الماء أكثر مما يَمْنَحُهُ حوضُ سنار بسدِّ أطول من ذلك ثلاثين مرةً وأعلى منه ثمانَي مراتٍ ، ومقدارُ مثلُ هذا مما يمكن أن يُبَدَّ لندن بما نحتاج إليه من الماء لمدة سنتين .

ولا يُورَّعُ هذا الماء كما في مصرَ من كُؤَى<sup>(٣)</sup> بمقادير معينة ، وإنما يَمُرُّ وفقَ

(١) الوايل : المطر الشديد — (٢) الدعامة : الدعامة — (٣) الكوى : جمع الكوة ، وهي الحرق في الحائط .

نظام للقنوات بَلَغَ من الكمال ما يُعَدُّ معه فريداً في العالم وما يوزَّع الماء به على ثلث الجزيرة ، وهناك قناة رئيسة طولها مئة كيلومتر موازية للنهر مع اجتناب أضواجه<sup>(١)</sup> ، وإذا نُظِرَ إليها بالطائرة من الجوَّ وَجِدَ خطَّ مستقيم خالص مُضَادَّ لمقاصد الطبيعة الروائية ، وترى القنوات الجانبية ، التي يسهل حفرها في أرض الجزيرة المجردة من الحجارة ، تضيق مقداراً فقداً ، وهي تتبلغ من الضيق ما يُمكن معه عبورُ أصغرها بخطوة ، بيد أن مجموعها يبلغ من الطول ١٥٠٠٠ كيلومتر ، أى ضعف طول النيل الأبيض والنيل الأزرق مجتمعين ، وكان لا يُنتفع بهذا الماء منذ عشر سنين ، وكان يجرى إلى البحر من غير أن يفيد إنساناً .

ويقالُ أبعدُ الجداول وأضيقها في أوقات معينة ، ويفضل نظام التوزيع الرائع ، مقداراً معيناً من الماء على نسبة ما ينزل من المطر في هضاب الحبشة ، وإذا حدث في النصف الثاني من شهر يونيه أن ملأ الفيضان الحوض اشتملت القناة الرئيسة على ماء يوزَّع في تسعة أشهر .

وذلك منظرٌ مثيرٌ ، وما كان التحدي الذي يوحى به الاستثمار المزدهى واستعباده المتواري ، ولا الأسفُ على سعادة أناسٍ أنزلهم النظام الآليُّ إلى مرتبة العمال بدلاً من أن يعيشوا في البطالة الهادئة تحت الشمس ، ليقولَ إجمابنا بتلك الأدمغة التي بلغت من الجبروت ما يَعدِّلُ قدرة العناصر ، وفي الجزيرة كان السودانيُّ ، المسلم منذ مئات السنين ، عبداً للفونج ، عبداً لـ « السلاطين الزرق » ، أى كان مطروداً من الجنة ، وما كان الرجل الأبيض قد بناه له فقد أغناه من عِدَّة وجوه فيذكرُ ذلك حتى الشبان ، وكانت محاصيلُ الذرة عظيمة في السنوات الكثيرة المطر ،

(١) الأضواج : جمع الضوج ، وهو منتطف الرادى .

وكان يقال إن الجزيرة بنبر<sup>(١)</sup> السودان ، غير أن هذا كان يقع مرة واحدة في العشر سنين ، وقد أبصرنا بأنفسنا تلك الحقول المستورة بالغبار في حال يرثى لها ، وكان النساء يعبرن اقتطاف القطن ، ولكن متى أراد الله ، والله لا يريد ذلك في كل وقت .

وكان ابن البلد يُذعر إذا ما فُسر له نظام حياته الجديد ، وقد زادت مخاوفه عندما اتخذت الحكومة سجلاً للأمالك نتيجة لعمل سنين طويلة ، فحسب دخل الغدان الواحد وفق المعدل المتوسط لأربعين عاماً ، وقد قُسمت البلاد في ذلك السجل إلى مربعات يشتمل كل واحد منها على عشرة فدادين ، ويفصل بين كل واحد منها جداول ماء ، فصار الألوف من السودانيين لا يفرقون بين حقولهم ، وغدا غير واحد من الشيب يغلي حقداً على أولئك الذين يزعمون أنهم يحتلبون السعادة إليه .

ثم كانت مفاجأة قد حفز ما في النساء والأولاد من فضول إلى فتح الثقب الذى يجلب الماء إلى جدولهم ، وقد أوجب وصول الماء إلى الحقل المزروع هتافهم سروراً ، ثم أهرعوا إلى الجدول التالى فوجدوه يغمر الحقول أيضاً ، وقد بذروا فى كل مكان ما أتاهم به البيض من أكياس بذور النرة والقطن فأبصروا ازدهاراً فى الموسم الجديد ، أبصروا الثمار خيراً مما فى الماضى ورأوا جورة القطن أنصع مما فى السنوات الخوالى ، وجلست النساء أمام أكواخهن ، وتمكّن تنظيف القطن بأحسن مما كانت تصنع أمهاتهن ووضع الرجال القطن فى أكياس راكين إياها بأرجلهم ، ومضت الجبال محملة أثقالاً عظيمة إلى محطة الخط الحديدى التى بناها

(١) النبر والأنبار : بيت التاجر الذى تتصد فيه الغلال والمناج .

هل هو أسعد من أخيه ؟

الأبيض في مكانه قريب فنُقِلَ القطنُ إلى البحر الأحمر حتى يُرْسَلَ إلى البحر المحيط ، إلى جزيرة أخرى أتى منها سادةُ السدِّ وأعمالُ القنّوات .

والآن يتَمَلَّح ابن لا قطة القطن في للدرسة ما هو السدُّ وما هو الدِّعَام وما هو حَقَرُ القنّوات ، فإذا كان ذكياً ذهب ، على ما يحتمل ، إلى كلية غوردون في مدينة الخرطوم الكبيرة ، وإذا مرَّت بضعة أعوام اختَبَرَ طبيعةَ أرض الجزيرة أو وَضَعَ جداولَ لمستوى النيل أيام الفيضان ، ويَنَالُ مئةَ وخمسين قرشاً راتباً شهرياً ويَسْكُنُ بيتاً حجرياً ويدخُلُ سيارته مساء .

وهل يكون أسعدَ حالاً من أخيه الذي يحافظ على عادات آبائه ؟ وأخوه ، مع كَسَلِهِ ، يبتنع من بناء السدِّ ، وأخوه يَكْسِبُ وقتَ الحَصَادِ ثلاثةَ شلناتٍ في ثلاثة أيام ، أى ما كان أبوه يَكْسِبُهُ في شهر ، وأخوه يستطيع أن يَفْلَحَ مستقياً تحت الشمس أومع النساء في السبعة والعشرين يوماً التي تَفْصِلُهُ عن القمر الآتى ، وكثيرٌ من القبائل مِكْسَالٌ ، والإنكليزُ لا يَفْرِضُونَ العملَ قهراً ، فالضرورة تقضى بجلب عمالٍ من الخارج .

وسيكون أولئك العمال من الحجاج الناهبين إلى مكة ، ويأتى أولئك من الساحل الغربى ويجُوبُونَ إفريقيا ، وسيجاوزون البحرَ الأحمر لزيارة قبر النبيؐ ، وأولئك أمَرَنُ على الأعمال الزراعية من الرُّعيان الذين هم من أنصاف هَمِج السودان ، وأولئك يَنْصِبُونَ خيامهم ويزْرُبُونَ مَعَزَمَ طوعاً على ضِفة النيل لِيُقيموا هنالك ستة أشهر وليَكْسِبُوا من المال ما هو ضرورىٌ لإتمام سفرهم ، ويَحْمِلُونَ الإنكليز ، على الرغم من مُبَشِّرِهِمْ ، قبولَ هؤلاء الحجاج المتعصين الذين هم من العمال الصالحين ، وإذا حدث أن أصبح أولئك ذوى صلاتٍ جنسيةٍ بالنساء الحليات فإن



ذلك يُعدُّ خيراً للعرق الذي يشتدُّ وينتشب بهذا التوالد كما في كلِّ مكان .

وثُلثُ الجزيرة فقط هو الذي يُسقى بذلك الماء في الوقت الحاضر ، ويُنتج هذا الثلثُ ما يُعَدُّ خُسرَ القطن الذي يُحصَد في الدلتا المصرية ، ولكن من أصناف مختلفة فيُصرِّح الخبراء بأن بعضها أجود منه وبأن بعضها الآخر أردأ منه ، وتؤدِّي الحرارة اليابسة والحر المعتدل في بدء النمو والجفاف حين النَّضج والاعتطاف وتهوية الأرض إلى وجود تربةٍ ممتازة صالحة لزراعة القطن أكثر من صلاح الجزيرة الواقعة بين دجلة والفرات الأوسط والتي تُنتج برِّيَّ مصنوع قطعاً يُعرَف باسم الجزيرة أيضاً ، ويَبْلُغ محصول القدان على ضِفَّة النيل الأزرق في الموسم الجيد خمسة رطل إنكليزيٍّ أو أكثر من هذا المقدار .

وكانت السنين التي أتت بعد بناء السدِّ بالغة الجُودة ، وأفسدت النقاة ، التي يَحِقُّ لها أن تأخذ من الدخل أربعين في المئة ، الحكومةَ بجعلها تنال من ذلك خمسةً وثلاثين في المئة ، فكان الأمرُ كما في الزواج الذي تتعود الفتاة فيه على الإنفاق الكثير عندما لا تُحْمَل على الحساب ، ومما كان يَسُرُّ الأسرَ المزارعة البالغ عددها عشرين ألفاً ، والتي كانت صاحبةً لأُملاكٍ فيما مضى ، أن تشتري آلاتِ خياطة وفنُونِ غرافاتٍ بأموالها تتسرب في إنكشاره بعد اشتراكها في استغلالِ جَمِيعِ كما في روسية السوفييتية ، وكان ملوك القطن يأتون إلى هنا ، إلى داخل إفريقيا ، ليتاعوا المحصول في محلِّه ، وكان كلُّ فدانٍ يُعطى ثلاثين جنياً إنكليزيّاً رجماً خالصاً ، وكان المال الاحتياطيُّ يَزِيدُ فَخَصَتْ حكومة السودان للمدارس والطرق والصِّحة بليون جنيه في كلِّ سنة ، وقد بَلَغَ الحرص على الإسراع في إعداد أراضٍ للماء غايته ، وقد بَلَغَ فَقْدُ اليد العاملة من الشدَّة ما صار

معه المضاربون الفِصَاب من كسل الأهالي يَتَمَنُّونَ إِبَادَةَ الحُمَّى المَعْدِيَّةِ العَواشِي حَمَلًا لِبَدْوِيَّينَ عَلَى الزَّرَاعَةِ ، وَإِتْلَافَ ذُبَابٍ نَمِي نَمِي لِقِطَاعِ الدَّنْكَاءِ إِكْرَاهًا لَهُمْ عَلَى إِسْأَالِ أَوْلَادِهِمْ لِقَطْفِ القِطَنِ .

وَلَسُرَّعَانَ مَا أَنْتَ سَنُونُ شِدَادٌ كَمَا فِي التَّوْرَةِ ، فِي سَنَةِ ١٩٢٩ . وَفِيمَا كَانَتْ تَزَادُ مِسَاحَةُ الْأَرْضِ التَّابِعَةِ لِلرَّيِّ ، هَبَطَتِ أَمَانُ القِطَنِ ، وَعَادَ لَا يَشْتَرَى مِنْهُ أَحَدٌ ، وَصَارَ القِدَانُ لَا يَعُودُ بِغَيْرِ سَبْعَةِ جَنِيَهَاتٍ بَدَلًا مِنْ ثَلَاثِينَ ، وَأَخَذَ الطَّرِ الْمَلَاثِمُ فِيمَا مَضَى لَا يَنْزِلُ فِي الْوَقْتِ الْمُنَاسِبِ ، وَغَدَا غَزِيرًا ، وَأَصِيبُ نَبَاتِ القِطَنِ بِالْمَرَضِ وَاسْتَوْلَى الْعُشْبُ الصَّارُّ عَلَى الْحَقُولِ ، وَعَمَّتِ الْبَلَادُ أَوْبَةُ بَعْدَ بِنَاءِ السَّدِّ ، وَكَانَ الْحَجِيجُ الْآتُونَ مِنَ الْغَرْبِ قَدْ تَقَالَوْا الْبِلَهَارِزِيَا ، الَّتِي هِيَ مَرَضٌ فَطِيعٌ صَادِرٌ عَنْ نَوْعٍ مِنَ الدِّيذَانِ ، إِلَى سِنَارٍ قَبْلَ إِنْشَاءِ السَّدِّ فِي مَدِيرَةِ دُفْلَةٍ ، وَانْتَشَرَتْ الْحُمَّى النُّعْبِيَّةُ <sup>(١)</sup> وَالْبُرْدَاءُ <sup>(٢)</sup> وَالْجُدَرِيُّ ، وَتَوَجَّبَ دُغْرًا ، وَيَرَى الْأَهَالِي أَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي صَبَّ غَضَبَهُ بِذَلِكَ عَلَى الْآلَاتِ الْكَثِيرَةِ ، وَبَلَغَ عَدْدُ الَّذِينَ قَصَدُوا الشَّافِيَ فِي سَنَةِ ١٩٣٠ أَلَوْفًا مِنْ أَهْلِ السُّودَانِ ، وَاسْتُخْدِمَ الْعُلَمَاءُ وَالْأَطِبَاءُ فِي مَكَلْفَةِ تِلْكَ الْأَمْرَاضِ الْوَاقِفَةِ ، وَقَامَ جَبَحُفْلٌ مِنَ الْكِيَاوِيَّينَ بِمَكَلْفَةِ الْجَرَادِ ، وَحَقَّرَ الْعَرَبُ وَالشَّرَطُ خُنَادِقَ وَاسْتَمَانُوا بِالشَّمِّ لِإِقْصَاءِ حَشَرَاتِ الْحَصَائِدِ هَذِهِ ، وَتَحَلَّقَ فَوْقَ الْأَهَالِي طَائِرَةٌ آتِيَةٌ بِالْأَدْوِيَةِ مِنْ إِنْكَتَرَةٍ ، فَيَنْظُرُ هَؤُلَاءُ إِلَيْهَا شَرًّا وَيَقُولُونَ إِنَّ الطَّائِرَاتِ هِيَ أَسَاسُ الْبَلَاءِ .

وَهَذَا هُوَ الْإِنْذَارُ الْقَاسِي الَّذِي سَيَرْنُ فِي آخَانِنَا بِمَصْرَةٍ أُخْرَى ، أَجَلٌ ،

(١) الْحُمَّى النُّعْبِيَّةُ : هِيَ الْحُمَّى الدَّوْرِيَّةُ الَّتِي تَأْتِي تَارَةً وَتَقْطَعُ أُخْرَى — (٢) الْبُرْدَاءُ : الْحُمَّى مَعَ الْبُرْدِ ، وَهِيَ الْمَلَارِيَا .

قضت الأزمنة العالمة والمطر والأوبئة على كل حساب لاح صحيحاً وظاهر صالحاً في بدء الأمر ، ولكن لم تُصدَرُ مادةٌ أوليةٌ جديدةٌ من بلدٍ لا يستطيع أن يُنتجها إلا إذا حُرِمَ الحبّ الذي كان يُنتجه منذ قرون والذي كادت الأسداً والقنّات والآلات وعقول المهندسين تُضاعف مقداره ؟

## ٢٢

في الخرطوم ، حيث ملتقى النهرين الأخوين ، نرى الأخ الأصغر لآخر مرة يشتدُّ بجميع سيول الحبشة فينفضُّ على أخيه الأكبر بُعْثُفٍ بالغٍ فيصُدُّه ثلاثة أشهر ، ويُدَّخِرُهُ إلى مسافةٍ ما أيضاً ، كما كان السوابط قد صنعه به ، وهذا الصَّدُّ الطبيعيُّ ضروريٌّ لمصرَ ، وذلك لأنَّ مُعَقِّمَ الماء وقت البركة هنالك يَجْرَى إلى البحر من دون أن يُنْتَفَعَ به ، ولكن النيل الأبيض يَحْفَظُ قواه لفصل الشتاء حين تَعَطَّشُ مصرُ فَيُعِينُهَا عند وَهْنِ أخيه ، فبمثل هذا الرَّمْزِ تَتَجَلَّى سجايا كلا النيلين .

وظاهرةُ الدَّخَرِ تلك أوحى إلى المهندسين بتحويل حوض النيل الأبيض الطبيعيِّ إلى خزانٍ مصنوعٍ كما فُكِّرَ في أمر بحيرة طانة أو بحيرة ألبرت ، وإطالة وقوفِ المياه بسدٍّ وتأخيرِ إرسال الماء المدَّخَرِ إلى مصر حتى فصل الربيع حين تكون مصرُ أُخْرِجَ إلى الماء مما في فصل الشتاء ووقاية البلاد من مثل الفيضانات التي كانت تُحْرِبُهَا في الغالب ، فإذا جُيِّلَ الفيضان ، هكذا ، عنيقاً تارةً وضعيفاً تارةً أخرى يكون قد أُسْرِعَ وتأخَّرَ وفق احتياجات البلاد ، ويُثِيرُ هذا المشروعُ

## خزان جبل الأولياء

البادى البساطة ، والذي هو من وَضَعَ بريطانيين خيبرين ، شعورَ جميع المصريين الوطنيين فيقول هؤلاء موكّدين إن الإنكليز يوكّدون سدّ النيل في السودان ، ويصرّحون بأن ذلك عملٌ شيطانيٌّ يمكن أن يؤدي آلياً إلى إهلاك مصرَ عطشاً ، ويجعل نداه الاستغاثة هذا ملايين المصريين أعداء للإنكليز ، وتدور الانتخابات حول ذلك المشروع ، ويُبتهِمُ العاهلُ ووزراؤه بخيانة الشعب لصالحهم بإنشاء السدّ ، ولوعدهم بدفع نفقات بنائه أيضاً ، وذلك مع الادعاء بأن السدّ سيكون سلاحاً بيد الإنكليز عند تصادم مصرَ الواقعة تحت النفوذ الإنكليزيّ والسودان الخاضع لإنكلترة .

ويوشكُ إنشاء خزان جبل الأولياء أن يبيّن على مسافة خمسين كيلومتراً من الخرطوم في المجرى القواني فتقطع النيل الأبيض دكةٌ كلسية ، وسيكمل بناء الخزان في سنة ١٩٣٧ وسيكون مفيداً لمصرَ لا ريب ، أجل ، يمكن أن يكون سلاحاً بين أيدي الإنكليز ، ولكن لا لإجاعة مصرَ ، أجل ، يذكرك قلقُ مَنْ يرون قوتهم اليوميّ قبضةً الأجنبيّ ، ولكن قليلَ منطق يكفي لتبديد مخاوفهم ، ولنفرض أن حرباً ، أو شبحَ حربٍ ، يحفز إنكلترة التي يؤيدها الرأي العامُ إلى اتخاذ هذا الأسلوب الإرهابيّ المخالف للزواج الإنكليزيّ ، ولنفترض أن مصالح إنكلترة في مصرَ لا تردّعها عن سلوك سبيل الشدة ، لنرى أن تأخير الفيضان الربيعيُّ أو تقليله لا يضرّ مصرَ إلا لوقتٍ قصير ، وذلك لتعذر سدّ النيل سدّاً تاماً ، ولما يؤدي إليه ذلك من إغراق جميع وادي النيل الأعلى ومن تعذر الزراعة وانتشار الأوبئة فيه .

وفي سنة ١٩٣٦ يقطع الوفدُ المصريُّ ، الذي هو حزبُ مصرَ القوميّ ، كلَّ

استعداد لإنشاء خزان جبل الأولياء ، عملاً بما زعمه مستشاروه من كون تلبية خزان أسوان تؤدي إلى النتيجة نفسها وإلى جَمْع ما يحتاج إليه مصرُ من الماء حتى فصل الربيع ، وبما زاد الوفدين سوء ظنِّ ما بدا من شَوْقِ الإنكليز الذين يحلمون قبل كلِّ شيء بالقوائد التي ينالونها من إنشاء الخزَّان الجديد والذين لا يُنكرون نفعه للسودان ، غير أن إنكلترة في جميع اتفاتها ، وفي اتفاق سنة ١٩٢٩ أيضاً ، ألزمت نفسها رسمياً تجاه المصريين بالألا تصنع ما يؤثّر في مقدار جَرى النيل ومستواه ووقت فيضانه في مصر .

وكلا الأمرين يحدث بعد مفاوضات لا حدَّ لها ، فقد زيدَ ارتفاعُ خزان أسوان وعُمِلَ بمشروع خزان جبل الأولياء الذي يمكنه أن يقوم بوظيفته في جميع أيام السنة من غير أن يَفْقرَ الغريّن ما دام النيل الأبيض يترك جميعَ غرينه في النافع وراءه ، ومن نتائج العمل القائم الآن على ساقٍ وقدمٍ أن يساعد على ضمان مستقبل مصر .

وستُحقّق مشروعاتُ أخرى في عشرات السنين الآتية ، وتبلغ نفقاتُ المباحث المائية<sup>(١)</sup> للنيل ، الذي هو أكثرُ أنهار الدنيا موضعاً للدراسات ، مئةَ ألفِ جنيه في كلِّ سنة ، ويُثير هذا النهرُ من المسائل المهمة المقدّمة ما يتساوق مع إحصاء مياهه وزيادة سكان حوضه ومع مقتضيات الصحة والمعرفة في البلاد ، ويُحسب أن أسداد بحيرة طانة وبحيرة ألبرت وجبل الأولياء لا تناسب نشوء مصر والسودان في آن واحد ، ويتطلب تقدمهما أسداداً أخرى في منابع النيل أو بحيرة فيكتورية ، فيجب تنظيم مجرى البارو قبل التفائه بالسوبات كما يجب تنظيم مجرى الغزال وبحر الجبل ،

ومع ذلك لا يُخزَن بذلك سوى ثلاثة أرباع ما يجب من الماء الاحتياطي في السنين السيئة .

واليوم يستلزم النيل ميزانية دولة تَقِلُّ مواردها ويزيد سكانها ، وتُضطرُّ إلى إدخال ما لا غنىَ لها عنه من المواد الأولية ، أى من الماء ، ولا نستطيع بعمل أنبائها ولا بالضرائب أن تُوسَّع نطاق حرثها وزرعها .

## ٢٣

تَمَّ النصرُ للإنسان على النيل في أسوان ، وكان لا بدَّ للإنسان من القيام بعمل جَلَلٍ حتى ينالَ ذلك ، وكلُّ شيء في ذلك الخزان الفريد في بابه فرعونىٌ علوًّا واستملاً وأثراً ، ولو لَقِيَ نابليونُ عدوًّا طويلاً كالنيل لحكنا بهزيمته ، والنيلُ خِمةٌ طبيعته كجميع ذوى السجايا العظيمة ، وينتفع خزان أسوان من ضعف النهر ، أى من عدم انتظام أهوج النيلين .

كان أحد الفراعنة قد شاد سدَّ بحيرة مُوريس في القرن التاسع عشر قبل الميلاد فيلوح أنه كان يجمَع من الماء بمقدار ما يجمَع في أسوان في أواخر القرن التاسع عشر بعد الميلاد ، ويُروى أن الصين والهند قامتا بأعمال مماثلة في القرون القديمة ، تَمَّ ، يزيد ارتفاعُ عددٍ من الأسداد على ارتفاع سدِّ أسوان ، ولكنك إذا عدَّوَت سدَّ غائِثٍ للملاحة في قناة بنَّامَا لم تَرَ في العالم سدَّاً يمسك من الماء ما يمسكه هذا السدُّ ، وللأسداد الرائعة التى أنشأها السُوفيتِ غَرَضٌ آخرٌ ، ولما يَتِمُّ إنشاءُ سدِّ باؤلدير في الولايات المتحدة ، ويُمسك أهمُّ أسداد سويسرة ١٤٠ مليون متر مكعب ، ويُمسك السدُّ

## مكرة سد أسوان قديمة

الإسباني ، الذى هو أعظم أسداد أوربة بعد أسداد الاتحاد السوفيتى ، ١٢٠٠ مليون متر مكعب ، ويُتَمَكِّك سد نُوريس الذى هو أعظم الأسداد بأمرىكة ٣٥٠٠ مليون متر مكعب ، وأما سدُّ أسوان فىمسك خمسة مليارات متر مكعب ، ولذا يُشعر بدحره الماء حتى وادى حلفا ، أى على مسافة ٣٦٠ كيلو متر من الجرى فوقانى .

وأهدافُ سدِّ أسوان خاصةً خصوصَ أبعاده ، ومن الأسداد عددٌ كبير مُعدَّ لتوليد الكهريا ، أو القوة ، وتوزيعها ، ومن الأسداد عددٌ آخرٌ لتنظيم جريان المياه ، وما أتى من الأعمال على النيل فلزيادة مساحة الأرضى الصالحة للزراعة فى بلدٍ كان يُفَلَح من أراضيه ٣٣ فى المئة ثم صار يُفَلَح منها ٥٠ فى المئة ولحماية ١٥ مليون إنسان ضدَّ مجاعةٍ تؤدى إليها زيادةُ عدد السكان ، ويقوم السدُّ بعملٍ فاوُست فى تَقْمِص أطراف الصحراء وتحويلِ خسين ألفَ كيلو مترٍ مربع من الأرضى ، أى ما يزيد على مساحة سويسرة بأشْرِها ، إلى أطيانٍ خَصِيبة ، ولم يمكن ذلك إلا لأن مصرَ عاطلةٌ من الجيران ولأن البقعة الواقعة حول مجرى النهر فوقانى قبل أسوان قليلةُ السكان ولأنه يَسْهُل تعويضُ أهل الضفاف ، وما لا رَيْبَ فيه أن الماء يَفْمُر أرضَ وطنٍ لا تُقَدَّر بشمن ، يَفْمُر معبدَ يِلَاقَ الجميل .

وفكرةُ سدِّ أسوان قديمةٌ إلى الغاية ، غير أنه لم يُقَدِّم اقتراحٌ على لإنشائه فى سوى القرن الأخير ، وليس صاحبُ هذا الاقتراح محترفاً ، ولكنه العبقرى الهاوى بيكر الذى أبصر المستقبل فأوصى فى سنة ١٨٦٧ بإقامته قائلاً بصوتٍ عالٍ : « إن الطبيعة أوجدت دِلَّتات ، ولا تزال تُوجِد ، فإِلم لا يصنع العلم من الدِلَّتات ما يناسب وسائله التى يتصرف فيها بإقامته أسداداً ؟ » ، وفى ذلك الجين كان يوجد

من الأسداد العصرية القليلة ما لا يجمل حلَّ المفضلة أمراً سهلاً ، وتبدأ التجربة بإنشاء سدٍّ على مقياس واسع .

ويصنع المهندس المؤمن اللقدام ويلكوكس مشروعاً حوَّالَى سنة ١٨٩٠ قَرَفِضُهُ الحكومة الإنكليزية ، ويوفَّق ويلكوكس وأصحابه لضمِّ رجلٍ مُهمٍّ مثلهم إليهم ، وكان السير إرنست كاسل جامعاً في شخصه سذاجة الإنكليزي وعناده وبَصَرَ السامي وحسابه ، فظهر في مصرَ كأنه يوسفُ جديدٌ جاء من الخارج ليُعين على نشوئها ، وكان هذا الرجل مُطعماً على قوة المال أكثرَ من اطلاعه على قوة العناصر ، وكان عارفاً برائحة مصفقى<sup>(١)</sup> لندن وضوضائه أكثرَ من وَخْشة شلالات إفريقيا وما ينبعث من المناقع ، فوجد ذات يومَ حاملاً بيده خرائطَ ومشاريعَ أمام دوافع أسوان ، وفيما كان المهندسون يحسبون صَفْطَ الماء وسرعة الجريان واتساع الكوآت كان كاسل يجمعُ نفقاتِ الإنشاء مُضيفاً إليها ، عن نباهةٍ ، خمسين في المئة احتياطاً ، ثم قال : « حَسَنًا ، إلى الأمام » .

يُسَمَّعُ في المكان الذي يَبْلُغُ النيلُ فيه غايته من العرض ضوضاءٌ جديرةٌ بعدد القراعة ، يُسَمَّعُ رجالٌ من شعوب تُمَيِّزُ ألوانها تحت شمس قاسية في تلك السماء العاطلة من المطر فتخرج من هؤلاء الرجال المرأة روائحٍ من كلِّ نوع ويتكلم هؤلاء الرجال بلغاتٍ من كلِّ فرعٍ ، ويقفل هؤلاء الرجال بدقةٍ في إقامة بناء خافٍ عليهم ، وذلك وَفْقَ أوامر ملكٍ غيرِ منظورٍ مُجدِّدٍ مناظرَ بناء الأهرام بعد ثلاثة آلاف سنة ، هؤلاء هم المال المرأة أنفسهم ، وهؤلاء هم المرفقاء الأشداء أنفسهم ، وهذه هي الحجارة العظيمة نفسها ، وهذا هو الفرايت نفسه ، والفرق هو في أن يؤدَّى



العبيد أجوراً بدلاً من القوت ، والفرق هو في أن تحمّل الأثقال الكبيرة آلات<sup>(١)</sup> مُدْرَكَةٌ بدلاً من اكتاف الرجال ، ولا تُطَاعُ أهواء ملك يرى نفسه إلهاً ، ولا يَبْنِي العبيد المعاصرون ضريح مَنْ هو غانٍ مثلهم ، وإنما يَسِيرُ رجلٌ واحد في سبيل الملايين من الأدميين ، وإنما يَتَمَثَّل الرجلُ عملاً يُحْمَلُ به عنصرٌ مسيطرٌ على أمرٍ مُبْتَكِر .

وَيَقْبُ الأهرام القاعة القاعة على ضفاف النيل منذ ألوف السنين ، والتي أراد بها قهر الموت أكثر من عاهلٍ معتزلٍ مُبْجَلٍ ، عملٌ مملوء حياةً وعهوداً مُعَدَّة لاقطاع أراضٍ جديدة من الصحراء وَجَلْنَ محاصيل الأطنان القديمة ثلاثة أمثالها ، ومع ذلك يَبْدُو منظرُ العمل الثاني ذا مظهرٍ فرعونىٍّ في بدء الأمر .

وفي صحراء الحَجَرِ والماء تلك تُسَمَّعُ ذات صباح حركةٌ مجذافِ الزورق الأول الآتى ، كما في اليوم الأول من التكوين ، ليُجِلَّ النظام محلَّ الفوضى ، وكان ذلك في فصل الربيع ، وكان ذلك عند انخفاض المياه إلى أقصى حدٍّ ، وتُدَوَّى من الزورق هتافات غربية ، تُدَوَّى منه الكلمات : « باب الحارون ! الباب الكبير ! الباب الصغير ! » ، وهذه هي أسماء ثلاثة من مساقط الماء الكبيرة الخمسة المهمة على الشلال والمعدودة خِطَرَةً إلى الناية منذ القديم ، ويُحَاطُ بأدناها كما يُحَاطُ بتساسح ، ولكن لا يُقْتَرَبُ منه والحرابُ في اليد ، وإنما يُوَقَّى بِقِطْعِ ضَنْخَةٍ من الحجارة ويقام أولُ سدِّ حوله وَيُسْتَنْفَدُ الماء بالمَصْحَاحَاتِ وَيُسْتَنْزَفُ وَيُمْلَأُ<sup>(٢)</sup> من الرِّحَابِ<sup>(٣)</sup> ما هو ضرورىٌّ لِيُوضَعَ فيه القيل الأعظم الذى يَرْفَعُ بِخَرْطومه أَثْقَلَ

(١) ملط : الحائط : ملاه باللاط ، وهو الطين الذى يعلَى به الحائط — (٢) الرحاب :

جمع الرحبة ، وهى الساحة أو التهجوة بين البيوت .

الحجارة وَيَنْقُلُهَا ، وَيُجَلِّبُ هذا الفيالُ على سفينة ، وَيُنْصَبُ بناء على المكان الجاف ، وَيُرْجَلُ الصخور التي كان ألوف الناس ينقلونها قيراطاً قيراطاً ليلَ نهار ، وذلك في عهد القراعنة الذين كانوا يأمرّون الناس بأن ينحتوا في الفرائيت مِسَلَّاتٍ تمجيداً لهم ، ومن المِسَلَّاتِ واحدة لا تزال ناقصة راقدة على الضفة الأخرى هناك ، ويدير ذلك العملاق الحديدي خُرطومَه اللّزّن إلى كلِّ جهة ، وهو يَرْفَعُه وَيَخْفِضُه وَفَقَّ أوامر مولاه مع صَرِيْفٍ وَصَرَّ سلاسلَ وبسهولة كالتي يَمَحُثُ مثاله بها الأشجارَ عند منبع النيل ليأكل عمارها ، وتتوارد مئات آلات رفع الأثقال بعد هذه الآلة المعدنية الأولى ، وهي تُطِيعُ قِيَّالَهَا<sup>(١)</sup> الحاسب كالو كانت جماعة من أفيال مستعمرة سيلان .

ولم يبق حتى الآن غيرُ سِدِّ موقتٍ مُصَغَّرٍ مُعَدٍّ لقرْلٍ مسقطٍ ماء واحد ، لقرْلٍ مسقطٍ باب الحارون ، وكان لا بُدَّ من عمل شهرين حتى يقوم أول ركنٍ مع جدار تسعة أمتار تُنْصَبُ الخطوط الأولى عليه ، وكان يَعْمَلُ هناك عشرة آلاف من النوبيين والمصريين يُنْقَلُونَ على زوارق سُودٍ وَيَحْمِلُونَ حجارة ثقيلة على ظهورهم الحُذْبِ مع دَرَارِيْعٍ<sup>(٢)</sup> وَجَلَّابِ يَبْ يَبْضٍ طويلة تُزَجِّجهم في كلِّ خُطوة فيفسِلونها بماء النيل مساء ، والنيل الذي أتى هؤلاء الرجالُ لمكافئته يُبْدِي من الكرم ما يُنْعِمُ به عليهم ماء للشرب والطهو والغتسال والرخْض<sup>(٣)</sup> ، وصنع المِلَاطِ وسِرِّ الآلات .

وعلى الضفة اليمنى ، وفي سواء السَّعير ، يَسْتَخْرَجُ من الجبل بضعة آلاف من النوبيين ،

(١) الفيال : مروض الفيال وقائمه — (٢) الدارايح : جمع الدراعة ، وهي جبة مشقوفة القدم — (٣) رضى الثوب : غسله .

العائدين أحياناً بسقفٍ من حصير ، غرايتا سوانياً<sup>(١)</sup> أبيضَ وردياً ، وبالقرب من هؤلاء تُبصر طلائئةً أمرَ منهم يَنْحَتُونَ حجارةً ويُعِدُّونها دعائمَ للجدران ، وفي القرون القديمة كانت مدينة سوانوقاعةً هنالك ، ومن هنالك كانت تُنقلُ حجارةٌ منها لتُصنع منها أعمدة لمعابد القراعة ، ثم يُنقل النوبيون تلك الحجارة بقرّيات إلى سكة حديدية ويأتون بها إلى الضفة وإلى النهر حيث تنتظرها مئات الأيدي لتطرحها في سفن ذات قُلُوعٍ منفوخة قليلاً جالبة إياها إلى أول السد .

وتُبصر صفوفاً من القوارب محجوبة وراء ما أُثبت من الحجارة هنالك ، محاطة برجالٍ عِزَّةٍ بارزين من الماء ، وتُبصر مئات من النوبيين اللابسين جلابيبَ يُخْرِجون من هذه القوارب أكياسَ أسمنتٍ ثقيلة وهم يَنْفُونَ بالحانٍ محزنة ، وتُبصر قوّجاً من المصريين رفعون قضباناً حديدية إلى الأعلى ، وتُبصر زُمرَةً من المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة يأتون ، والعريفُ الحاملُ سوطاً يَرْقُبُهُمْ ، في سِلَالٍ بالقحم الضروري لرافعات الأثقال من الآلات ، يأتون بهذا القحم بعد أن يكون قد نُقِلَ ستّ مراتٍ بعد خروجه من نيوكاسل وقبلَ حطّه في وَسَطِ النهر هنا ، وتُبصر أناساً من السودانيين يَحِيطُونَ ذراعَتَهُمْ لِمَا يَعتريهم من برْدٍ حتى الساعة التاسعة صباحاً ، وتُبصر بجانبهم مهندساً أورياً يَرُوحُ على نفسه لتَصَبُّبِهِ عَرَقاً من الساعة الثامنة ، وتُبصر هذا المهندسَ يُنظِّمُ أجهزةَ قياس الزوايا ، وتُبصر الصبيَّ الأسمَرَ المُسَيِّكَ له محفظةٌ يُفَكِّرُ في الأحذية الجليلة التي يمكن أن تُصنع من جلدها ، وتُبصر مِصْنَعَةً مِثْنَةً تَبْتَشِقُ رَمْلَ النهر بلا انقطاع على حين ترى رجالاً حُدْبَ الظُّهُور يأتون بأكياسِ الرمل الضروري لصنع الأسمنت ، وتُبصر رجالاً

(١) نسبة إلى مدينة سوانو ، وكانت أسوان تسمى بهذا الاسم .

آخِرِينَ يَنْقُبُونَ الصَّخُورَ الْمَرْجَمَةَ الْمَغْمُورَةَ بِالْمَاءِ لَسْتَفِهَا غَيْرَ نَاطِرِينَ حَتَّى إِخْوَانَهُمْ  
الَّذِينَ يَجِيشُونَ بِالْحِجَارَةِ الْمُنْحَوْتَةِ ، وَلَوْ لَمْ يُقَلِّمْ أَنْ عَزِيمَةً مَبْدَعَةً هِيَ الَّتِي تُشْرِفُ عَلَى  
هَذَا الْاِخْتِلَاطِ وَالْاِخْتِبَاطِ لِحُكْمِ بَأْنِ ذَلِكَ يَجْمَعُ مَجَانِينَ

وَحَلْفَ صَمْتِ جِبَالِ الْقَمَرِ الْبَعِيدَةِ الْعَمِيقِ ، وَبِالْقَرَبِ مِنْ بِلَاقٍ وَمِنْ الْمَكَانِ  
الَّذِي يَجْزُ الْمَاءُ فِيهِ بِلُطْفٍ حَوْلَ قِطْعٍ مِنَ الْحِجَارَةِ ، وَحَيْثُ يُبْنَى السَّدُّ ، يَتَأَلَّفُ  
مِنْ صَلَافَةِ الْحَدِيدِ فَوْقَ الْجِدَارِ الْجَدِيدِ ، وَمِنْ حَرَكَةِ الْخَرَّامَةِ الْعَامِلَةِ بِالْمُهْوَاءِ الْمَضْغُوطِ ،  
وَمِنْ صَرِيرِ الْمُنَاشِيرِ ، وَمِنْ الْأَنْفِجَارَاتِ لِلتَّعَاقِبَةِ ، وَمِنْ صَوْتِ الْمَذَاقِ وَصَدَى  
الْمَطَارِقِ الَّتِي تَرْتَفِعُ وَتَقَعُ ، وَمِنْ خَشْخَشَةِ الْحُصَا الَّتِي تَزَلُّقُ عَلَى مُنْخَدِرٍ قَبْلَ أَنْ  
تَعُودَ إِلَى الْمَاءِ ، وَمِنْ نَمَاءِ <sup>(١)</sup> الْأَلَاتِ ، ضَجِيجٍ ، أَوْ تَنَافُرٍ أَلْخَانِ ، مُؤَكِّدٍ إِلَى  
الدُّوَارِ ، وَيَسْتَفِثُ الطَّائِرَ الْمَرْفُوفَ بِأَبْيِ مِنْجَلٍ وَيَفِرُّ إِلَى تَيْجَانِ أَعْمَدَةِ الْعَابِدِ ،  
وَيُسْمَعُ نِدَاؤُهُ وَتَصْفِيقُهُ بِأَجْنَحَتِهِ مِنْ خِلَالِ ذَلِكَ اللَّفْظِ نَتِيجَةً لِمَدَمِ انْتِظَامِهِمَا كَجَمِيعِ  
أَصْوَاتِ الطَّبِيعَةِ .

وَلَا يُبْدِي الْجَمِيعُ عَجَلَةً وَلَا هَيْجَانًا ، وَيُوجِي الْجَوْ بِالْمَرَّحِ ، وَيُحِيلُ إِلَى النَّاطِرِ  
مَنْ هَمِيدٍ أَنَّهُ يَرَى عِيدًا مِنْ عَهْدِ الْفَرَاغَةِ ، وَبَطْلُ هَذَا الْعِيدِ ، أَوْ مَلِكُهُ ، هُوَ  
الْمُهَنْدِسُ اللَّابِسُ ثِيَابًا بَيْضًا ، وَخُوْدَةً مِنَ الْقَلْبَيْنِ <sup>(٢)</sup> ، وَالْكُتَّانِ ، وَحُرْسُ هَذَا  
الْمُهَنْدِسِ هُوَ إِضْبَارَتُهُ <sup>(٣)</sup> ، وَسَيْفُ هَذَا الْمُهَنْدِسِ هُوَ فَرْجَارُهُ ، وَيَبْدُو هَذَا الْمُهَنْدِسُ  
أَمِيرًا إِقْطَاعِيًّا لِتِلْكَ الْمَنْطَقَةِ ، وَذَلِكَ لِصِمَتِهِ وَعَدَمِ تَلَوُّنِهِ وَإِصْدَارِهِ أَوَامِرَهُ بِالْإِصْبَعِ  
لَا بِالْكَلَامِ ، وَيَفْصِلُهُ اتِّزَانُهُ عَنْ ذَلِكَ الْجُمْهُورِ ذِي الْمَشَاعِرِ الصِّيَانِيَةِ ، وَيَنْتَظِرُهُ

(١) نَمَا السُّنُورُ يَنْمُو نَمَاءً : صَات — (٢) Cork — (٣) الْإِضْبَارَةُ : الْحَزْمَةُ  
مِنْ الْمَصْف .

زورقه الآلى<sup>(١)</sup> بالقرب من الصخرة الواقف عليها ، وهو يَبْتَحث عن وجود صُدُوعٍ أو تَنُوعٍ<sup>(٢)</sup> أو عن سَدِّ الينبوع بالأسمنت أو عن إمكان قَرَضِ القَطْرَةِ ، التى تَخْرُجُ مع كلِّ ما عَمِلَ ، لقاعدة الرُّكن الذى لا بُدَّ من إقامته هنا .

وذلك المهندسُ يشابه الجراحىَّ الذى يَمَسَحُ بِرَفَادَةٍ<sup>(٣)</sup> من القطن ما لا يَزَالُ يَنْزِفُ من الدَّمِ مستوحياً حَذَرَهُ وتَجَرِبَتَهُ قبل أن يَخِيطَ الجِرْحَ ، وعلى المهندس أن يكون سَيفِظًا ما تَوَقَّعت الحياة ، أو ما خلقه الله أو أبدعه الإنسان من النظام ، على قراره ، وما وَجَبَ ألا يَنْتَمِ المنبعُ الواقع تحت الأرض لنفسه ، وذلك لأن الركن إذا ما أَرْتَجَّ ترجرج جميعُ البناء ، وهو يظلُّ صامتاَ هنالك بين ما يَصْدُرُ عن مكتبه من حركة يوجبها ولا يَسْمَعُها كما يثبت ذلك تحديقُهُ إلى الأرض ، وهو يَضَعُ فى جيبه بَرقِيَّةً يُوَقِّى بها إليه ، وهو لا ينظر إلى غير هذا الشَّقِّ الذى يجب أن يَكْشِفَ له عما فى الصخر .

ولا يرى هذا المهندسُ قَوْسَ قَرَحٍ الذى يَرْبِطُ أمامه ذلك الاختلاط بإنشاء السدِّ ، ويريد مهندسُ مساقط الماء هذا أن يَسْتُرَ بنوره السحريَّ جميع نتائج حسابه ، وفرعونُ الأيضا هذا لا يُبْصِرُ بعينه شيئاً ، وإنما يَثْبُبُ إلى قاربه الآلىَّ ويُشِيرُ إلى الشرق بإصبعه ، وهو يكون بعد عشر دقائق فى مكتبه الصغير الذى تَسْتُرُ جُدْرَهُ الْمُجَصَّصَةَ مئاتُ الرسوم الدالة على علاقات كلِّ صخرةٍ بالصخور المجاورة ، وهو يَحْسُبُ طاقة الركن ويُرَرَّرُ أن يفحص قاعدته غَوَّاصاً ، وذلك لأن تَصَدُّعَهُ بضغطِ الماء يؤدى إلى انهيار جميع ما بُنِيَ على ما يحتل .

ولا ينبغى تبديدُ الوقت ، ولا بُدَّ من أن تكون ثمانية أركانٍ فى مكانها قبل

(١) تنوع الماء من العين تنوعاً : خرج قليلاً قليلاً - (٢) الرفادة : خرقه تجعل على الجرح .

الفيضان القادم ، وذلك وَفْقَ حساباتٍ مُحْكَمَةٍ ، إْحْكَامَ ما عند الفراعنة ، صادرة عن نَفَرٍ مجتمعين في ذلك المكتب .

ولِسَنَ النهر ، لا لِسَنَ النور ، يَخْضَعُ ذلك العملُ الممدُّ لقهر النيل ، وبعد غِيَابِ الشمس ، وبعد دخول عشرة آلاف رجل من مختلفِ الألوان في خيامهم على الشاطئ ، واستلقائهم على حُصْرَم ، يَنْهَضُ عشرة آلاف رجل غيرهم في الليل اللامع وَيَكْدُون قَسَمَ السَّدِّ الناقص مستعينين بَبِكْرَاتِ اتصالِ راكبين زوارقٍ وَثَقَالَاتٍ مداومين على عيد العمل ذلك ليلاً .

وَتُنْصَبُ القُيُولُ الفولاذية الكبيرة على الجدار النى يُبْنَى ، وذلك على نور مصابيح مُحَدَّبة ، وترفع مع الحَدَرِ خراطيمها التي لا تَعْرِفُ التنبُّ أكياسَ الحجارة المُكْسَّرَةِ وَتَصْغُرُها في زوارقٍ بَطِينَةٍ مُقَيَّدَةٍ بِمُضْها بعض ، فيتألف منها أسطولٌ صغير يَجْرُهُ مَرْكَبٌ بخاريٌّ في الليل البهيم ، وتَسْمَعُ عند أسفل ذلك الجدار السائر لثلاث عرض النهر غولاً يُخْرِجُ صغيرَ غَضَبٍ ، وَيَنْفُثُ هذا التَّنْثِنَ وميضاً عن لَهْثٍ ، وَيَبْسُطُ ذراعَيْهِ لحماية صِفَارِهِ ، وهذه الجِبَالَةُ التي لا تَشْبَعُ تَبْلَعُ أكياساً وصناديقَ مملوءةً مِلاً ، ويساعد الماء على صُنْعِ البِتُونِ <sup>(١)</sup> الذي يمتزج جيداً عند طراوة الليل والذي يُمَدُّ للسيطرة على النهر .

وفوق ذلك ، وفي الظلام ، تنتصب أركانٌ غيرُ تامةٍ كَأَعْمَدَةٍ مكسورة ، كشهود على ماضٍ مجيد ، وذلك على ألواحٍ ماثلة موضوعة في كُوْشَى واسعةٍ يكاد صُغُها يَبِثُّ ، ويلوح رجالٌ قائمون بتنظيف الحجارة فوق رؤوسهم كما لو كان عاهلٌ يَصِلُ غداً على سفينة فاخرة ، ويَكْسُونُ الأجزاء الناقصة وحدها بالقار <sup>(٢)</sup> ، وذلك لضرورة جفافِ

(١) Béton — (٢) القار : مادة سوداء تملأ بها السفن ، وقيل هو الزيت .

كل ركن في أربعة أشهر ، والوقت يُبلحُ  
وفي الأسفل يصرُخ رجالٌ حين يجرون قطعة حجرٍ من مجرى النهر الجاف في  
هذا المكان بعد أن أُحيطت بجبالٍ ضخمةٍ ، وذلك كما لو كان يُوقى ببقرة ماء  
مذبوح لتقطيعه .

وترى فوق رؤوسهم ، وفوق مستوى الجدار ، وبجانب خرطوم القيل ، وفي قصصٍ  
مُهتَزَةٍ ، قَتَى يُدِيرُ مُحَلًّا<sup>(١)</sup> عند كلِّ حركةٍ للخرطوم ، مع تسليّةٍ بالنظر إلى المصباح  
المُحَدَّبِ المجاور ، وترى رجلاً أقربَ من سواه إلى النور غير تابعٍ لناموس الثقل ،  
سيداً للسدِّ والليل ، وهذا الرجل هو فرعونُ العيد الصاحب .

## ٢٤

دامت عَرَبْدَةُ العمل تلك ثلاثَ سنين في سواء النيل ، واستمرت أكثرَ  
من ألفِ نهارٍ وألفِ ليلةٍ لم يَقْطَعْ اتصالها قطعاً جزئياً غيرُ الفيضانات ، وفيما  
تَتَحَوَّلُ مهالكُ الضخَرِ إلى سَدٍّ مستقيم بين ضوضاء العناصر والآلات والرجال كان  
مديرو هذا العمل يُقيمون بأكواخٍ لطيفةٍ جديدةٍ بجانب شغلهم ، وتُفَرَسُ بواسطة  
خَدَمِهِم السود بساتين رائعةٍ حيث أَتَوْا بالغَرَبَيْنِ قبل أن يَفْغُرَ أَقْلٌ حَقْلٍ مِصْرِيٍّ ،  
وتَتَحَوَّلُ الصحراءُ بِأَمْرِهِ نِسْوَتَهُمْ إلى غابٍ من غارٍ أبيضٍ وورديٍّ ، وذلك  
بِمِثْلِ السرعة التي يَظْهَرُ بها السدُّ المَجْرَى .

وكان مبدعو الطراز الجديد إذا ما انتقلوا من نور الظَّهيرة الذي يُعْشَى الأبصارَ

(١) المخل : عند المولدين آلة مستطيلة من حديد ونحوه ترفع بها الحجارة .

إلى طراوة مساكنهم ذوات الظل أبصروا مجدّد مسرّح فينوس<sup>(١)</sup> ومازس<sup>(٢)</sup> على الطريقة الإنكليزية مع الشاي والسندويش الضروريين حتّى في مدار السرطان ، وما في تلك الواحة من مأس فصدّره الجوّ وتوتر الأعصاب والعزلة وما واجهه نحو مئة رجل من حياة خطرة بين العناصر والعيد ، وكان الإفلاس نصيب الملتزمين الذين قوّض إليهم أن يقوموا بقسم من العمل ، وذلك لما أدّى إليه سقوط بعض الصخور من قلب حساباتهم رأساً على عقب ، وبما حدث أن اقترف مهندس مشهور من الخطأ عند ارتفاع السدّ ما ذهب معه قانطاً إلى الإسكندرية فانطلق في زورق وأغرق نفسه في مصبّ النهر التي هو سبب هلاكه ، لا سبب مجده .

ولم يكن الجزّان عند تلمه مرتفعاً بدرجة الكفاية ، وتظهر مصر بأشرفها محتاجة إلى الماء في فصل الربيع ، ويبدو الخوض المارد قصيراً ، ويرى رفع جدار الدّعم في سنة ١٩١٢ ، ثم في سنة ١٩٣٣ ، إلى ٥٥ متراً ، مع أنه كان مرتفعاً ٤٠ متراً في بدء الأمر ، ويحسب ويلكوكس أن النفقات تكون مليوني جنيه بدلاً من ٣٠٠.٠٠٠ و لو قامت الحكومة نفسها بذلك ، مقيماً اليئنة ضدّ الادعاء بأن المال الخاص يعقل ، دوماً ، وفق حساب أوفق من حساب الدولة .

وينال السدّ روعة بتلك التعلية ، وتدمج السعائم في الجدار المتصل الأكثر تحيّنًا ويوسّع الجسر فوقه ويكتسب شكلاً جانبيّاً جيّلاً بذلك ، ويستعمل الفرائيت الورديّ الأقلّ مقاومة حيث رُئي ضغط الماء والهواء أقلّ شدة ، أي

(١) فينوس : إلهة الجمال كما جاء في أساطير اليونان — (٢) مازس : إله الحرب كما جاء في أساطير اليونان .



## الكوى

فى الناحية الشمالية ، ويُبصره الغربُ ، الذى يأتى من أسوان ، ساطعاً من بعيد ، وتسمُ الفروقُ غيرُ المرتبة ذلك الانتظامَ القسريَّ فى تلك الكتلة بشىء من المفاجأة ، فتُفتَح من الـ ١٨٠ كوةً مجموعاتٌ رباعيةٌ فتُحاً غيرَ منتظمٍ ويتدفق الماء المزد كاربعة حُصْنٍ مقرونة نازرة مُنْقَضَةٌ بعد وَقْع الحوافر على الأرض وراء الرّجاج ، والمهندسُ الجالسُ فى الحُجيرة البيضاء بأقصى الغرب من السدِّ هو الذى يَعْرِف عددَ الكوى ، وأى الكوى ، التى يجبُ أن تُفتَح وسبب فتح هذه الكوى دون سواها . وإذا ما أُغلق السدُّ بين نوفمبر ويناير لكى يمتلئ بعد الفيضان وجب أن يُسَهَر على إرسال مقدارٍ من الماء إلى مصر ، ويُفَرَّغ الماءُ فيما بين أبريل ويونيه ويجرى إلى مصرَ فى هذه الأشهر الثلاثة أكثرُ من ستة ملياراتٍ من الأمتار المكعبة ، ويَبْلُغ العرض والطلب من التوازن ما يُفَيِّرُ معه عدداً الكوى المفتوحة وارتفاعُ ما يُفتَح اثنتى عشرة مرةً فى اليوم الواحد ، ومن حسن الحظُّ أن الأبواب تُجَرَّك بدواليب موضوعةٍ على السدِّ سهلة الإدارة فيستطيع صبُّ أن يُطابق الماء المضطرب أو أن يسيطر عليه ، وتظلُّ البحيرة ساكنةً خلف السدِّ مع ذلك ، وتحويلُ مستواها وحده هو الذى يُوحى إلى الزرع بما يقع فى الجهة الأخرى ، وكلما ارتفع الماء غاصَ معبدُ بلّاق .

وعندما يأتى الفيضان فى شهر يوليه يفتح المهندس الكوى الـ ١٨٠ بأشْرِها ، ويَبْطِط مستوى البحيرة ، وتَبْرُزُ أعمدةُ معبدِ بلّاق من حَمَامِها مع قواعدِها الوحلة ، وترى مصرَ فى كل سنةٍ مدينةً لهذا الرّىِّ للنظم بمحصولين وبناتلثة محاصيل فى سبعة ملايينِ فدانٍ على حين يداوم ١٢٠٠٠٠٠ فدانٍ على إعطاء محصولٍ واحدٍ وَفَقَ نظام الرىِّ القديم .



٧٤ — خزان أسوان



والمهندسُ بِمصرَ، حينَ ينهكُ في أرقامه وجداوله ورسومه وحساباته، يَبْدُو ككديرِ صُنْدُوقِ تَوْفِيرٍ يَأْتِيهِ خَزَنَتُهُ في كُلِّ صباحٍ بِقَائِمَةٍ عن الدخْل والخَرْجِ ، وهو يستعين بالبرقيات التسع ، التي يأخذها في أولِ كُلِّ نهارٍ عن جزيانِ النيلِ الأبيضِ حتى ملاكالٍ وجريانِ النيلِ الأزرقِ حتى الرُّصَيرِصِ ، في حسابِ مقدارِ الماءِ الذي يَدْخُلُ الحَوْضَ في كُلِّ أربعٍ وعشرينَ ساعةً وفي حسابِ الارتفاعِ الذي يَبْلُغُه هذا الماءُ ، وذلكَ لأنَّهُ يَعْلَمُ أن وصولَ موجِ النيلِ من ملاكالٍ إلى أسوانِ يَتِمُّ في أربعةَ وأربعينَ يوماً وأن أصحابَ المصالحِ يطالبونَ ، دَوَّماً ، مقابلَ رأسِ المالِ الذي قَدَّموه كضرائبٍ لإقامةِ السدِّ .

وترى ذلكَ المهندسُ ، ككديرِ صُنْدُوقِ التوفيرِ ، تابِعاً للقوى القاهرةِ التي يمكنُ أن تَقْلِبَ خِطَطَه رَأْساً على عَقِبٍ ، فتجدُ بين سنة ١٩١٣ وسنة ١٩١٨ ، وفي الأشهرِ بعينها ، فَرْقَ ستينَ في المائةِ بين أعلى مستوىٍ للماءِ وأدنى مستوىٍ له ، والنيلُ الأبيضُ ، الذي هو أثبتُ الأخوينِ ، هو المسؤولُ عن ذلكِ ، وما يَأْتِي به أشْرُسُهُما مَرَّةً بِدَا في شهرِ يولييه فيُوضَعُ على رُكْبِ الآلهةِ .

ولا يزالُ عاملُ الانتقامِ في النصرِ المتهورِ كاجناً تحتِ النيلِ ، ولا ينبغي لليدِ التي سيطرت على النهرِ الحافلِ بالأسرارِ أن ترتجفَ ، فلا يُعْتَمَ النيلُ أن يَبْدُو عَنيفاً ، فإذا ما أغلقَ المهندسُ كُوَى السدِّ بسرعةٍ بعدَ الفيضانِ ، أو إذا ما أغلقَ كثيراً منها دفعةً واحدةً ، انهارتِ أرصفةُ النهرِ وتَدَاعَى ما على هذه الأرصفةِ من بيوتِ ، وإذا ما كانَ ماءُ الأحواضِ كَثِيرَ المِلْحِ اضْطَرَّ الفلاحُ إلى استعمالِ التَّسَادِ كجميعِ فَلَاحِيِ العالمِ الذينَ ينتظرونَ ماءَ السماءِ من غيرِ أن ينالوا غَرِينَكاً من الأرضِ ، وإذا ما مضى الفيضانُ وَزَرَ عَ نوبِيِ المجرى الأعلى حَقْلَهُ بالقربِ من الصُّفَّةِ وجب أن يَنْبُوَ ما بَدَّرَ

بسرعة ، أى قبل أن يعود الماء فيذهب .

ولو أقیم حَزَّانُ أسوان في القرون القديمة لعدَّ من عجائب الدنيا ، وهو من عجائب العالم في هذا الزمن أيضاً ، ولم يَكْذُ بضعُ عشراتٍ من السنين يَمُضِي على نُبوَّةٍ يكر حتى أخذت هذه النبوءة تتحقق ، « فسيأتي زمنٌ يُعْجَب فيه العالمُ بقدرة مصرَ حيث يَتَمَوَّج القمح على مَدَى البصر في هذه الصحارى الرملية البائسة ، وحيث تَرى الجبل وحده يكافح الطبيعة المنهكة في الوقت الحاضر ، وسيُنْجَم الناسُ من بعض المراكز التي تَرُفَع ، نظراً في شَبْكَةٍ من القنَّوات والأحواض فيتسَاءلون مدهوشين عن كيفية بقاء قوة هذا النهر مجهولةً طويلَ زمنٍ كما يَبْقَى منبعُهُ أمراً مكتوماً » .

وقد يُبلِغ ذلك الارتفاعُ في الوقت الحاضر ، ففي كل يوم يُبْصِر بالطائرة منظرًا ، تُبْصِر بين صحراوين قطعةً أرضٍ خضراء ضيقة تتألف مصرُ منها ، والسَّاحِل حين يطير فوق السدِّ يشاهد زورقاً قديماً يَمُرُّ على قناةٍ طويلة في الطرف الغربي خاصةً بالملاحه ، فيذكر الرسالة التي بُلِّغَتْ إلى فاوُست .

« زورقٌ كبير على القناة » ، ولا يراه فاوُستُ الأعمى ، وأما نحن فإننا نَعْجَب ، ما ترك لنا الإلهُ قلوباً تَحْقُقُ وعبوناً تَرى ، بالنيل القديم وبمغامراته وبقهره وترويضه ، وبتهديته كـفيلسوفٍ شائبٍ ، وجعلهُ نصيراً لمساعدٍ للذين يزدهون على ضفافه مُحَقِّقاً بِقُوَّاه التي تُدَارَى بحكمةٍ أكثر مما يُحَقِّقُ في أثناء فتاكه المُتَجَبَّر ، ونرى الشَّرَاعَ المثلثَ الزوايا الذي كان يُتَخَذُ في عهد الفراعنة ، وهنا تتلاحق أساطيرُ ستة آلاف سنة وأعمالها وأفانيسُها وأفكارُها ، وهنا ، في هذا القسم الأخير من مجراه ، يكتسب النهرُ العجيب السائر إلى البحر ألوانَ جميع الأدوار التي جاوزها وصَدَى جميع الحضارات التي أوجدتها فأبصر ازدهارها وموتها .

## الجزء الرابع النهر المجهور

« والآن يزهو بأعظم مجد ، فالشعبُ يرفع  
الأميرَ إلى ذروة العظمة ، والأميرُ في موكب  
نصره يُعين البقاع فتقومُ مدُن على أثر خطاه »  
( غوه )



« اعلم يا أمير المؤمنين أن مصرَ تربة غبراء ، وشجرة خضراء ، طولها شهرٌ وعرضها عشرٌ ، يكتنفها جبلٌ أغبر ، ورملٌ أغفر ، يحطُّ وسطها نهرٌ مبارك الغدوات ميمونُ الروحات ، يجري بالزيادة والتقصان كجري الشمس والقمر له أوانٌ ، يدرُّ حلابه ، ويكثرُ سمجابه ، وتَعظُم أمواجه ، ففيض على الجانبين ، فلا يمكن التخلص من القرى بعضها إلى بعض إلا في صِلار المراكب ، وخفاف القوارب ، وزوارق كأنهم المَخَاليل <sup>(١)</sup> ، أو وُرُق <sup>(٢)</sup> الأصائل ، فإذا تكامل في زيادته نكص على عقبه كأول ما بدأ في جريته وطما <sup>(٣)</sup> في درته ، فعند ذلك تخرج مِلَّةٌ محقورة يجرئون بطون الأرض ، ويبدؤون بها الحب ، يَرْجُونَ بذلك النماء من الرب ، لقيهم ما سَعَوْا من كدِّهم ، ففله عنهم أناسٌ بغير جدِّهم ، فإذا أشرق الزرع وأشرف سقاء الندى ، وغداه من تحته الثرى ، فبينما مصرُ يا أمير المؤمنين لؤلؤة بيضاء فإذا هي عنبرة سوداء ، فإذا هي زُمُرْدَة خضراء ، فإذا هي دِيابجة رقشاء ، فتبارك الله الخالق لما يشاء . »

وليس الذى وصَفَ وادى النيل الأدنى بهذا الوصف الرائع شاعراً أو جِغرافياً أو متفتناً أو سائحاً ، وإنما هو القائدُ العربيُّ عمرو بنُ العاص الذى فَتَحَ مصرَ فى القرن السابع لمولاه الخليفةِ عمرَ ، وهكذا يَصِفُ رجلُ العمل والعزم ذلك البلدَ

(١) المَخَاليل من السحب : اللبنة بالمطر — (٢) الورق : جمع الورقاء ، أى التى لونها لون الرماد — (٣) طما للاء : ارتفع وملا التهر ، وطما البحر امتلا .



## لا تبصر ضباباً ولا ملاماً

الذى فيه سيرٌ مجده كما لو كان ذلك حُلماً جليلاً ، ومن الشعراء كثيرٌ يصِفُون أحدَ البلاد كأنهم فاتحوه ، والنيلُ والشمسُ هما الإلهان اللذان أوجدا مصرَ ويحفظانها اليوم كما فى الماضى ، والنيلُ والشمسُ هما اللذان ولّدا وأخصبا أخضرَ واحاتِ العالم طرّاً ، ولكن الإله الشمس هو الذى أبدع النيل ، كقول إخناتون : « أنت الذى خلَقَ النيل فى أعماق الأرض ، وأنت الذى قاده حول الأرض لإطعام الناس حيث تشاء » ، ولا ترى بلداً أضائه الشمسُ بمثل تلك القوة ، وتمتصُّ الصحراء كلَّ رطوبة فلا تُبْصِرُ هنالك ضباباً ولا ملاماً<sup>(١)</sup> ، وكلُّ من العناصر الأولى ، الأرض والماء والشمس ، منفصلٌ عن الآخرَيْن انفصلاً جليلاً ، فلا تغيَّر ولا انتقال ، والهواء صافٍ خالٍ من الجراثيم ، والليلُ الذى يجيئ بالطرَّاء إلى دائرتي الانقلاب يأتى به من الصحراء الواسعة إلى هنا ، إلى هذه الواحة التى تُشتَر بالندى وقت الصبح وفى بعض الأحيان .

ولا تُطبَّق الأحوالُ الجويةُ فى البلدان الأخرى على هذه البقعة الضيقة القاطعة للصحراء والعاطلة من المطر ومن الشجر والغاب والظل ، وعندما تجبُّد فى قبور الملوك ، وبالقرب من الجمجم ذواتِ الجُبْن المائلة إلى البواء التى ترجع إلى ما قبل التاريخ ، عظماً لبقر الماء وللذئب تتَمَثَّل لنا غاباتٌ نخيل ويتروع<sup>(٢)</sup> حيث كان الإنسان العارى يصطاد الجاموس والأسد والضَّبَع ، ثم تحوَّلت هذه الغاباتُ الأبيكار إلى سَبَسَب<sup>(٣)</sup> فإلى مُهْبَب ثم إلى صحراء ، وصار الإنسان بدوياً أو فلاحاً .

يَبْدُ أن تلك المراحل قُطِعَت بأسرع مما فى الأماكن الأخرى ، فلم يكن هنالك

(١) الطل : المطر الضعيف — (٢) اليتوع : كل نبات له لبن — (٣) السبب : الأرض البعيدة المتخوية .

### النيل الأصل

دورٌ جليدٌ كما في أوربة ، وقد نَكُونُ سَهْلًا ، أو صحراءٍ ليلية التي يَقْطَعُهَا النيل الأول كما تَدُلُّ عليه آثارُ الأنهار التي توارت ، وذلك بدلاً من الخليج الكبير الذي كان يُوغِلُ حتى أسوان فحكي عنه هيرودوتس ، ثم تَوَجَّهَتِ الصحراءُ إلى الشرق ، إلى جهةِ الأخدود الطويل الذي كان البحرُ يَفُوصُ فيه ، وكانت أرضُ شمال إفريقيا ، حين ظهور الإنسان ، ترتفع مقداراً فقداً كما يُظَنُّ ، فكان النيل يجري من خلال الخليج القديم ، واكْتَشَفَتِ رسومُ الإنسان الأول وأدواته الحجرية على الرصيف الترابي الثاني الذي هو نتيجةُ تَأْكُلِ متعاقب ، ولم يصبح شمالُ إفريقيا صحراءً إلا بعد ذلك .

وعادت الغابة بعد ذلك غيرَ موجودةٍ لَتَلْقَى الرُّعْبُ في قلوب الناس ، وعاد الناس لا يصطادون ، وقد اجتذبهم النهر العجيب وجمعَ منهم عدداً كبيراً بأكثر وأبكر مما في أيِّ مكانٍ آخرَ غيرِ الواحةِ الأخرى بين دجلة والفرات ، ومن المحتمل أن وُلِدَتِ جميع الحضارات في واحاتٍ من هذا النوع ، وعانى ما بين النهرين ، أر هذه الواحةُ التي هي أوسعُ من تلك ، تحولاتٍ كثيرةً قادت بها أُمُّ سَكَنَتِ الشُّهُوبَ والجبالَ المجاورة ، وتَقَعُ مصرُ بين بحرينِ وثلاثِ قاراتٍ من دون أن يكون لها جازٌ سوى الصحراء والبحر ، وظَهَرَتِ حضارتُها من صميم الأزل ذى الصفاء والجمال الكلاسيكي<sup>(١)</sup> ، ومنَّ الْجَوْءُ عليها بالصفاة والثراء والسعادة .

وإذا كان أنبياء ما بعد الطبيعة الثلاثة ظهروا في صحراء بلاد العرب بعد حينٍ فإن غريزَ النيل الرزين أسفَرَ عن دينٍ عينيٍّ مقتبسٍ من الحياة راجعٍ إلى الموت بشريٍّ خالص ، وتَبَدُّو عادات المصريين الأولى واضحةً صافيةً صفاء هواء بلدهم ،

## جفاف الصحراء

وَلَعَيْنَ شَيْمُهُمْ مِنْذُ ثَلَاثَةِ آلَافِ سَنَةٍ قَبْلَ الْمِيلَادِ بِضَيْقِ الْمَكَانِ الَّتِي يَحْمِلُهُمْ عَلَى الْحَيَاةِ مَزْدَحِينٍ تَابِعًا بِمَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ غَيْرِ قَادِرِينَ عَلَى الْعَيْشِ مُنْفَرِدِينَ .

وداوم بيض الشمال البعيد وراء البحر وسُودُ الجنوب البعيد عند منبع النهر ، في أُلُوفِ السنين ، وفي غاباتهم الكثيرة المطر ، على العيش كالتَهَمُّجِ وَعَلَى التَذَابُجِ والقوضى القاتِلَةِ بِقَانُونِ الْأَقْوَى ، ومع ذلك أَكْرَهَ النهر في هذه الواحة شعباً كثيراً العدد على العيش معاً وعلى الانقسام إلى فلاحين وصيادين ومُحْتَرِفِينَ وكَاتِبِينَ ، وَالْإِقْلِيمُ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي عَلَّمَ الْأَعْتَابَ مَاذَا كَانَ أَوَّلُكَ يَعْلَمُونَ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْقُبُورَ وَالْبَرْدِيَّ الَّذِينَ أَدَامَا تَارِيخَ مِصْرَ قَاوَمَا الْقُرُونِ بِفَضْلِ جَفَافِ الصَّحْرَاءِ ، وَنَحْنُ إِذَا مَا أَمْسَكْنَا جَمْعَةً رَمْسِيَسَ الثَّالِثِ السَّيْمَةِ بِأَيْدِينَا عَلَيْنَا بِهَا مَاذَا كَانَ صَاحِبُهَا يَفْعَلُ وَفِيمَ كَانَ يُفَكِّرُ .

## ٢

يَتَقَدَّمُ رَجُلٌ عَلَى نُورِ الصَّحْرَاءِ وَحْدَهُ ، وَهَذَا الرَّجُلُ طَوِيلٌ أَسْمَرٌ كَأَحَدِ الْأَلْهَةِ ، وَهُوَ رَهِينٌ مَوْتٍ دَرَاجِيٍّ <sup>(١)</sup> مَا لَمْ يَسْلُكْ طَرِيقَ الْوَاحَةِ فِي الْوَقْتِ لِلْعَيْنِ بِسُرْعَةِ الْجُلِّ ، وَهُوَ يَهْلِكُ ، حَتَّى فِي وَادِي النَّيْلِ ، مَا لَمْ يَتَشَارَكَهُ هُوَ وَالْأُفُفُ الْأَدَمِيَّةُ ، وَمَا يَنْفُرُ بِهِ مِنْ عَنَفِ هَذَا النَّهْرِ ، مِنْذُ أُلُوفِ السنين حَتَّى قِيَامِ السَّدِّ الْإِنْكَلِيرِيِّ الْأَخِيرِ ، ذَلِكَ الْبَلَدَ وَمَا يُغَطِّي بِهِ الْحَقُولَ مِنْ غُرَبَيْنِ ، فَيُظَلُّ عَقِيًّا أَوْ يُفَرِّي الْإِنْسَانَ بِالْإِنْسَانِ لَوْ لَمْ يَتَضَافَرِ الْجَمِيعُ عَلَى حَسَابِ ارْتِفَاعِ الْقِيضَانِ تَوْزِيْعًا لِمَائِهِ وَإِنْشَاءً لِأَسْدَادِهِ الصَّغِيرَةِ وَلَوْ لَمْ



٢٠ — فلاح على خفة النيل



## أوجد النيل أموراً

يتألف من الجميع شُرَكَاتٌ وجميعاتٌ تنطوى على القيادة والطاعة للسيطرة على هذا الفيضان الخصب والارتفاع بهذا القادم من جبال الحبشة البعيدة ومن جبال القمر المجهولة مجاوزاً الصحراء .

ولم يكن النيل ، الذى يستولى على الواحة فى كل سنة بصَوْلَةٍ جالبةٍ للبلايا ، ليصبح مُحْسِنًا إلا بفضل ذكاء الإنسان وحذقه ، ولا بدُّ لأمةٍ لا تميش بغير ماء يأتياها من بعيد ، لا بدُّ لهذه الأمة التى تَرْتَقِبُ قَلْعَةً ورودَ ذلك الفيضان ، كقبائل الأَشْكِيمو التى تنتظر السفينة التى تأتياها بالقوتِ الضرورى فى كل صيفٍ ، من أن تكون قد انتهت إلى إقامة دولةٍ من نفسها قبل الدور الميروغلىنى ، وفى وقتٍ لا أثر فيه لكلمة الدولة .

وقسم أناسى ما قبل التاريخ جميع البلد إلى أحواض ذات حواجز قائمة الزوايا فيدُلُّ المربع على مديرية كما فى الخط الميروغلىنى ، وفى النيل أسفرت الضرورة عن أول معانى السلطة المركزية والطاعة ، والنيل ، أيضاً ، هو الذى دفع الكهنة إلى رصد النجوم لحساب وقت الفيضان ، والنيل هو الذى أوحى إليهم بفكرة قياس الملو لمعرفة ارتفاع الفيضان ومسح القسائم للاهتمام إلى حدود الحقول التى يمحوها الماء فى كل عام ولحماية نظام التملك والقصل فى خصومات الحدود ، والنيل هو الذى أوجد علم الفلك والرياضيات والحق والقانون والتدبُّ والشُرطة مع عدم وجود هذه الأمور لدى أية جماعة بشرية كانت ، وهل وُجدَ شعبٌ آخرٌ صاحب تقويم منذ أربعة آلاف سنة قبل الميلاد وعارفٌ بدائرة البروج قبل الميلاد بثلاثة آلاف سنة ؟ النيل هو الذى علم المصريين جميع هذه العلوم ، ولا حظ ناپليون ذلك فقال : « تَعْدُو سهول بوس وبرى <sup>(١)</sup> خصيةً بانتظام ماء السماء ، ولا عمل للإدارة فى ذلك ، والنيل يُكسِبُ من

(١) بوس وبرى : من مديريات فرنسا .

## ريح السموم

الصحراء بفضل إدارة رشيدة ، والصحراء تَكْسِب من النيل بفعل إدارة رديئة ، وفي مصر يبدو النيل أو رسول الخير والصحراء أو رسول الشر ماثلين على الدوام . ذلك هو المثل الكلاسيكي لبلد عاطل من المطر ، ومن الجوار تقريباً ، وذلك هو المثل الكلاسيكي لبلد تَقْرُض الأرض فيه سلطانها ولا وجود لسنة النسب فيه ، وذلك لأن الأرض وماءها المُلَفِز هما اللذان يُحوِّلان الأمم التي تستقر بذلك الوادي ويجعلان من هذه الأمم مصريين مهما كانت ، حتى إن الثيران التي تُدْخَل من بعيدٍ تتحول هنا في بضعة أجيال وتنال مثل حذابة بقر هذا البلد .

ولا يُطَبَّق ذلك على غير الواحة المجردة من المطر حتى عَرَض القاهرة ، حتى مَنفِسَ فيما مضى ، أى حتى رأس الدلتا ، ولا يَهْدَد الجفاف الصبحى هنا في سوى الربيع حين تهبُّ ريح الجنوب الشرقى الحارة ، حين تهبُّ الخماسين ، ويكفهر الجو فجأةً ويأتى بظلمات جوائح مصر التي تمتد حتى فلسطين زمناً بعد زمن فيحتمل أنها كانت تَنْفِث يوم موت يسوع ، ويسمىها العرب ريح السموم ، ويرتفع ميزان الحرارة إلى الدرجة الثامنة والأربعين ، وتَبْلُغ درجة حرارة النيل ستاً وعشرين ، ويمتصُّ الهواء كلَّ بخارٍ بعد الفيضان ، ويَجِفُّ ما يُفَسِّل من الثياب في عشرين دقيقةً ، وتَجِفُّ رثائنا وأنوفنا وأفواهنا وشفاهاها كما تَجِفُّ الأشجار التي تُحِيط بنا .

ويَدُلُّنا مقدار الأمطار السنوية على الفروق بين بلاد النيل الأربعة ، ففي منبع النيل الأزرق بجمبال الحبشة يَنْزِل ١٣٠٠ مليمتراً ، وفي منبع النيل الأبيض يَنْزِل ١٢٠٠ مليمتراً ، وفي السودان الأوسط يَنْزِل ٥٠٠ مليمتراً ، وفي الخرطوم يَنْزِل ١٠٠ مليمتراً ، ولا يَنْزِل شىء في مصر العليا ، ويَنْزِل في القاهرة ٣٠ مليمتراً ، وفي الإسكندرية يَنْزِل ١٥٠ مليمتراً .

ويا لفرابة شعب تكوّن حيث لا ينزل من السماء ماء في كل سنة وحيث يكون السكان أكثر مما في أي مكان في النصف الغربي من الكرة الأرضية ، وإذا كانت مساحة مصر البالغة مليون كيلومتر مربع تزيد على مساحة إيطاليا وفرنسة مجتمعيتين فإن معظم هذه المساحة صحراء خالية تقريباً ، فترى سكانها البالغ عددهم أربعة عشر مليوناً مركومين في وادي النيل على أرض أقل اتساعاً من سويسرة ، وتبلغ كثافة سكان مصر ضعف كثافة سكان بلجيكة ، فيشغل الكيلومتر المربع في بعض مديرياتها على سبعة من الأهليين ، وكثافة مثل هذه أحرزت منذ ألوف السنين في ذلك البلد مما يؤدي إلى إيجاد شعب اجتماعي أو غير اجتماعي ، ومن عمل النيل أن جعل من المصريين ذوي أنس .

إذن ، إنما شعب ، تكوّن شعب بفضل إلهي إقليمي ، فترى هذا الشعب مدينا للشمس بالقناعة وروح الحياة ، وتراه مديناً للنيل بروح النظام والطاعة ، وهنا قامت دولة فجعلت من فرعون إلهاً ، وجعلت من العمل ضرورة ، ومن الرّئي فناً ، ومن العقلي والجلي مبدأ ، وعلى ما كان من قلة عدد الأغنياء ما فتئ هؤلاء يفرضون على ألوف الفقراء حمل العمل اليدوي الذي هو أقصى مما في الأماكن الأخرى على ما يحتمل ، ولا سيما ما هو ضروري من أعمال الرّئي ، وتنبصر هؤلاء الفقراء طيبي الزاج مع ذلك ، فلم يحدث قط أن ناروا على الأغنياء تقريباً ، وفي هذا البلد يظهر أن الشمس جففت إرادة التمرد كالنيل بما فرضته من حساب قصّص على المعنى الفلسفي ، ومع ما كان من اختراع هذا الشعب أموراً كبيرة قبل الشعوب الأخرى بألوف السنين ، حاشا ما تم في وادي القرات ، ومع ما كان من عظمة هذا الشعب لعلمه وآثاره التي تنطوي على حسابات يادية حتى في أقدم التماثيل ، كان



هذا الشعبُ العَبْلِيُّ القَدَامُ عاجزاً عن إيجاده لنفسه عالماً عُلُوبِيّاً ، فلم يكن العالمُ المَنُوعُ الذي تصوّروه عما بعد الموت غيرَ صورةٍ عن حياتهم في هذه الدنيا ، فقد جعلهم خوفُهم من العنصر ، من النيل ، أُنقياء اجتماعيين محافظين ، وما كان من اختراع هؤلاء القوم للخطِّ حَوَالَى سنة ٣٣٠٠ قبل الميلاد فلم يُنعم عليهم بأفكارٍ وأغانٍ مشابهة لِمَا يُوجِي به تَوَقُّدُ اليهود وعُمقُ اليونان وتَصَوُّفُ الهندوس ، والمصريون كتبوا للحساب أكثرَ مما للطَّرب ، وللمصريون كتبوا لتنظيم التقارير أكثرَ مما للخيال والتصوير ، ولا تَجِدُ للمصريين أساطيرَ وأقاصيصَ عن آلهةٍ متعالية ، بل تَجِدُ أخلاطَ قِصَصٍ موجبةٍ لفكرةٍ واحدة مفروضةٍ على جميع أبناء الشمس هؤلاء ، وهذه الفكرةُ هي مكافئة الموت .

تلك هي قوّةُ شمس مصر ، وذلك هو صفاءُ هواء الصحراء ، وذلك هو سَخَاءُ النهرِ المُوَزَّع للحياة ، والناسُ هَبَاتُ الحياة على ضِفاف النيل مع ما يُثْقِل كواهلهم من أعباء ، وذلك هو الذي يحرّكنا حقاً ، والفنّاناتُ قصيدةُ هؤلاء الناس ، والأسدادُ رواياتُهم ، والأهرامُ فلسفتهم .

### ٣

كان أقدمُ إنسانٍ حَمَظَته هواء مصرَ الجافَ مطموراً في رمل الصحراء بالقرب من حلوان ، ولا أحدٌ يَعْرِفُ زمنَ ما قبل التاريخ الذي ظَهَرَ فيه ، ووُجِدَ محاطاً بقواريرَ وبيقاليا حيواناتٍ وبسكاكينَ وأسودَ من برونزٍ ونُحاسٍ ، ووُجِدَ مُنْتَنِياً كالجثتين موضوعاً على الشكل الذي كان عليه في بطن أمه ، وكان يلوح ،

بنوع من السَّحَر ، أنه يُشير من خلال ألف السنين إلى الأُمِّ الأولى أو الأب الأول ، فسكانه مُصَدِّقُ لقاصي العرب الذين يَزْجِعُونَ ، عن جُرْأَةِ ، شجرة كلِّ خليفة وكلِّ حَكيم إلى آدم ، ومن أين أتى أولئك الناسُ الذين انتهت أسماؤهم إلينا فنَجِدُ أفيالاً وأغماراً وأبقارَ ماء وزرائفَ وأفاعي ودلائل<sup>(١)</sup> محفورة على خناجرهم فتعود إلى دورٍ كان النحاس والمُلاجُ فيه مجهولين حتى في شواطئ الفرات ؟ أجاؤا من الشمال أم من الجنُوب ؟

تلك المسئلةُ موضعُ جدلٍ لدى العلماء ، فلا يَجِدُونَ لها حلاً ، ولا شيء ، أكبرُ عُقماً من إثارة مسألة العروق في مصر حيث تُحوِّلُ الطيعةُ والجورُ المُتَجَبِّرُ كلَّ من يَدْنُو من النيل ، ويُنْبِت سِيفَهُ أن السِّلَين كانوا أولَ الغزاة ، ويرُدُّ قَوْلُهُ ذلك بأن أولئك من الزنوج ، ويرى فينكلمن أنهم من الصينيين ، ويَجِدُهم جونس من البولنديين ، ويَجْهَلُ يَنْتري جميع هؤلاء ويقول مُوكِّداً إن أولئك من الأحباش ، ويسخر رُوحَهُ من تلك الآراء كلها ويُقرر أن أولئك من البابليين .

ولم يَتَجَلَّ عدمُ أهمية العرق وتأثيرُ الأرض القاطعُ في مكانٍ مثل تجليهما هنا ، ففي هذه الواحة العجيبة غدا جميعُ العروق والأجناس من إنسان وحيوان مصرياً ، ومن المَوْصَة<sup>(٢)</sup> بين العلماء في الوقت الحاضر أن يُصِرُّوا على الرأي القائل إن المصريين الأولين كانوا من الحاميين المصاهرين للأفلا والصوماليين والمختلطين بالساميين المهاجرين إلى الدلتا الشرقية ، وليس في هذا ما يُنير الأمر ، وأفضلُ من ذلك كله أن يُقَابَل بين أقدم الأجسام المُحَنَطة ووجوه فتيان الفلاحين ، فهناك يَبْدُو طولُ الأعناق والأنوف

(١) الدلائل : جمع الدلائل ، وهو حيوان على ظهره شوكة طويلة ، وهو معروف بالفنذ —

Mode, Fashion (٢)

الآسيوية مع أنوف الزنوج القُطُس وشفاهِهم الغليظة ، أى تَبْدُو تتأججُ توالدِ دَامَ ستة آلاف سنةٍ فأسفر عن مَنَح أولئك صحةً ونشاطاً إن لم يَمْنَحْهم عِرْقاً خالصاً . ولنا أبسطُ الأمثلة من الطبيعة والنهر ، أى من الشمس والنيل ، فالنيلُ يأتى من الجنوب ، والزوارقُ تَجْرِى فيه نازلةً نحو مجراه التحتانى منذ أقدم الأزمان وعلى الرغم من الشلالات ، وما لا رَيْب فيه أن قَلَّ الشعوبُ والرعاةُ ثمرةَ تجاريهم ، ثم وَصَلَ الساميون من الشرق مجاوزين الصحراء والبحر الأحمر تجاراً وجنوداً أَلَا حَى<sup>(١)</sup> فلم يَنْفَكْ الفراعنةُ على قبورهم يَضْرِبُونَهُمْ أو يَقْطَعُونَ رءوسهم ، وَمَنْ نَزَلَ من البحر إلى الشمال ، إلى الدلتا المستفدرة ، فن الإيجيِّين والفينقيين والقرس والأقريطشين الذين أتوا بعد الفراعنة التاريخيين ، ومن الطبيعى أن وَجِدَتْ فى النيل الأعلى هياكلُ عَظْمِيَّةٍ لزنوج وأن وَجِدَتْ فى النيل الأدنى هياكلُ عَظْمِيَّةٍ لآسيويين ، وإذا كان قد وَجِدَ فى أقدم القبور قَمَحٌ مُفَحَّمٌ وقِضبانٌ كَرَمٌ فإن من المَوَكَّد أن تكون هذه القِضبان ، ومن المحتمل أن تكون الحبوب ، قد جاءت من شواطئ القرات ، وإذا كان ذو الرأس الكَبْشَى آمونُ قد وَجِدَ مرسوماً فى الصخور الإفريقية فَلِمَ لَمْ يَنْ لَلْأَمِّ المجاورة الكثيرة أن تَمَزُجَ الحيوانَ بِالْإِلَهِ ، وَلِمَ لَمْ يُفَكِّرْ الفلاحُ الأول على النيل فى رسم خطٍ بالعَصَا على الأرض ذاتِ الغِرْبَيْنِ الناعم فيمتدحُ المحراثَ على هذا الوجه ؟

أَجَلْ ، عَرَفَ المصريون أن يَشِيدُوا مبانى وأن يَنْحِتُوا حجارةً من غير أن يُعَلِّمَهُمْ ذاكُ أجنبيٍّ ، ولكن الذى لا ريب فيه هو أن أولَ صنمٍ مصرى كان إلهةً لها جسمٌ بقر الماء .

(١) الألاخى : جمع الألى ، وهو الطويل العجى .

والنيل لدى أولئك القوم مقياس كل شيء في كل زمن ، سواء أكان ذلك منذ ستة آلاف سنة أم في الوقت الحاضر ، وعند أحد القراعة أن التجدد من عناصر حياة الخلود فصرّخ قائلاً : « يمكن الناس أن يقولوا عني ذات يوم إنه كان نبلاً ! » ، وعلى من يمثل بين يدى أوريس وقضاة الموت أن يُبرّئ نفسه مع اليمن من الكبائر الأربع والأربعين فيقول عن إحداها : « إننى لم ألوث ماء النيل ولم أحبس عن الجريان في موسمه ولم أسد قناة » ، وقد بلغ أولئك القوم من تقديس النهر بما كان أهل ضفافه يحنّطون معه من يفرّق فيه ويدفنونه مضوراً بالأزهار كما لو عاد غير بدن بشرى ، وقد بلغ النيل من تعيينه الجنسية ما كان معه الإله آمون يصرّح بلسان كهنته قائلاً : « إن البلد الذى يقيض فيه النيل هو مصر ، فكل من يشرب من النيل في مجراه التحتانى بعد يلاق <sup>(١)</sup> فهو مصرى » .

وحق ذلك بما هو أعمق عن روح شعرية ، ويستعمل أوميروس ضمير المذكر للنيل وضمير المؤنث لمصر ، ويرمز هذا الفرق النحوى إلى مصر ، ولم تكن التماثيل التى جعل النحاتون بها من النيل رجلاً منتفخاً بطيناً ذا ندى ، ولم تكن الأناسيد المصرية ، ولم تكن الصور الرائعة التى رسمها من ظهر من المصورين في تاريخ متأخر ، لتعبّر عن الأسطورة بمثل الكلمة التى صدرت عن ذلك الإغريق الأجنبى المذرك لِمَا في النهر من قوة مؤلدة قبل هيرودوتس بأربعة قرون .

وقد حدّد نيل النوبة ، ويختلف عن نيل مصر بشلالاته الست المكوّنة من الغرايت والحجر الرملى الصوّانى ، أمور الرى والزراعة تحديداً لم تكن الفلاحة معه لتمتدّ في ١٢٠٠ كيلومتر على غير كيلومترين أو ثلاثة كيلومترات من العرض ،

وَيُسَيِّرُ الْكَلْسُ الصَّدْقُ تَحْتَ أُسْوَانٍ حَيْثُ تَبْدَأُ مَصْرُ جِيُولُوجِيًا ، فَيَخْفِرُ النِيلُ بِجَرَاهِ الْعَرِيضِ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ اللَّيْنَةِ وَيَسْتَطِيعُ فِي نَهَايَةِ الْأَمْرِ أَنْ يَخْزُنَ هُنَا مَا يَجْزُهُ مِنْ غُرَيْنِ فِي أَلُوفِ الْكِيلُومِتْرَاتِ ، وَهَكَذَا يَتَكَوَّنُ بِلَادُ خَصِيبٍ أَوْسَعِ مَا فِي السُّودَانِ خَمْسَ عَشْرَةَ مَرَّةً ، وَالْآنَ تَرَى الْوَادِيَّ الْبَالِغَ الضِّيقِ وَغَيْرَ الْمَوْجُودِ فِي الْغَالِبِ بَيْنَ وَادِي حَلْفَا وَأُسْوَانٍ يَمْتَدُّ مَعَ اتْسَاعِ يَسْتُرٍ مَا بَيْنَ عَشْرَةِ كِيلُومِتْرَاتٍ وَخَمْسَةِ وَعَشْرِينَ كِيلُومِتْرًا ، وَلَوْ كَانَ طَوْلُهُ مُنَاسِبًا لِعَرْضِهِ بَدَلًا مِنْ أَنْ يَبْلُغَ أَلْفَ كِيلُومِتْرٍ لَظَهَرَتْ وَاحِدَةٌ كَبِيرَةٌ فِي الصَّحْرَاءِ .

وَمَعَ ذَلِكَ تَفْصِيلُ خُطْوَةٍ وَاحِدَةٍ مَا بَيْنَ الْحَقْلِ الْأَخْضَرِ وَالصَّحْرَاءِ ذَاتِ اللَّوْنِ الْأَصْفَرِ ، وَمَنْ يَشَاهِدُ هَذَا الْمَنْظَرَ مِنَ الطَّائِرَةِ الْمُنْتَجِمَةِ إِلَى الشِّمَالِ لَا يَكَادُ يُصَدِّقُ أَنَّهُ مِنَ الْحَقَائِقِ ، وَإِنَّمَا يُحْيِلُ إِلَيْهِ وَجُودُ خَرِيطَةٍ تَحْتَ قَدَمَيْهِ دَالَّةٌ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَتَغَلَّبُ بِهِ الْمَاءُ عَلَى الرَّمْلِ وَالذِّكَاةِ عَلَى الْمَاءِ ، وَعَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَنْتَصِرَانِ بِهِ عَلَى الشَّمْسِ .

#### ٤

إِنْ مَا يَنْجِزُهُ النِيلُ قَبْلَ أَنْ يُوْغَلَ فِي مَصْرَ خَاصَّةً بِعَالَمِ الْأَسَاطِيرِ عَلَى مَا يَظْهَرُ ، وَالنَّيْلُ ، إِذْ يَخْرُجُ مِنْ بَحِيرَةٍ عَظِيمَةٍ ، فَيَسْكُنُ<sup>(١)</sup> بَيْنَ مَنَقَعٍ وَمَنَقَعٍ وَيُورِضُ أَغْزَلَ لِّلشَّهْبِ وَالصَّحْرَاءِ وَيُصَدِّدُ بِمَتَارِسِ الصَّوَّانِ ، يُذَكِّرُنَا بِأُولَئِكَ الْأَبْطَالِ الَّذِينَ يَسْلُمُونَ مِنْ جَمِيعِ الْغَامَرَاتِ وَيَنْجُونَ مِنْ جَمِيعِ الْمَصَائِبِ لِمَا قَدَّرَ عَلَيْهِمُ

(١) سَكَنَ : مَعَى عَلَى غَيْرِ هِدَايَةٍ .

أن يقوموا بعملٍ يُتمونه في مَشْيِهِمْ ، وما عَانَوْه من ابتلاءٍ قد بلغ من شِدِّ نفوسهم ما تُحَلُّ العقدةُ معه بوصولهم ، وهذا هو أمرُ النيل الذي إذا ما مَضَى في مصرَ أَدَّى حضوره إلى ولادةٍ بِلَدِهِ من غيرِ نزاعٍ بما فيه من قدرةٍ على التكوين .

والنيلُ في كلِّ عامٍ يُثَبِّت نشاطه وإبداعه ، وذلك بقلبه نظامَ المواسمِ رأساً على عَقِبٍ ، والنيلُ في الصيف ، حين تَجِفُّ مياهُ الأنهار الأخرى أو تَنْقُصُ إلى أدنى درجةٍ ، يَبْلُغُ الغايةَ من الزيادة ، والنيلُ فيما بين يونيه وسبتمبر يَبْلُغُ مستواه من الارتفاع في مصرَ العليا ١٣ ذراعاً أو ١٤ ذراعاً وَيَبْلُغُ من الارتفاع في الدلتا سبعَ أذرعٍ أو ثمانى أذرعٍ ، والنيلُ في أثناء هذه الأيام الثلاثة يَقْبِضُ على هذه الأرض التي تنتظره ، ثم يرتدُّ النيلُ كإلهٍ غيرِ تاركٍ وراءه سوى كَهَانٍ يقومون مقامه وَيَحْرُسُونَ معبده ، ولا يزال الناس ، والقاصيون أيضاً ، يَتَبَدُونَهُ على ضِفَافِهِ مثلَ إلهٍ .

وَيَنْظُرُ المصريون إلى الفيضان الذي هو مُقَسِّمُ الأرزاقِ نَظَرَ الخائفِ الرَّاجِي ، وترى المصريين ، كالأمم التي تُسَأَلُ نفسها في أشهرِ الحَملِ التسعِ عن وَضْعِهَا ذِكْراً أو أنثى ، يَرْجِعُونَ إلى القَالِ والجَبَرِ والسَكَنَةِ والمهندسين ليَعْرِفُوا مقدارَ ارتفاعِ الفيضانِ القادم ، وكان رهبانُ الأقباط يَمْرُضُونَ لطرءِ الليلِ قطعةً من فَخَّارٍ على أن يَزِنُوهَا في الصباح وفي المساء ويستخرجوا من قَرْنِ الوزنِ قُوَّةَ الفيضان ، وكان النُجُومُونَ يَحْسُبُونَ اقترانَ السياراتِ وصولاً إلى ذلك ، وكان العرب في القرون الوسطى يَرَوْنَ أن اصطباحَ النهر باللون الأخضر دليلٌ على الفيضان الضعيف ، وذلك لأنَّ عدمَ كفايةِ الأمطارِ يؤدي إلى جَرِّ النيلِ جميعَ أعشابِ البحيرات التي يَأْتِي منها .

واليوم تُعَلِّمُ أمواجُ الكهرباء في كلِّ ساعةٍ فريقَ المهندسين في القاهرة وأسوان مقدارَ ارتفاع النيل ، وقد بَلَغَ فنُّ الرِّىِّ في كثيرٍ من الأماكن بِمَصَرٍ درجةً من السَّكَّالِ تَقْضِي بِالتَّجَبِّ ، فترى من القوائم ما يَسْتَهْلُ معه في كلِّ يومٍ حسابُ مقدارِ الماء الذي يَصِلُ وَجْهَهُ توزيمه وما كان يجهله الفراعنة والرومان والعرب مع ما لديهم من مقاييس النيل ، ولكننا إذا ما سألنا أَقْدَرَ مهندسي الرِّىِّ عن مقدار الفيضان القادم وَجَدْنَاهُمْ مِنَ الْعَجْزِ عن الجواب مالا يفوقون معه أَقْدَمَ السَّكَّانِ الذين كانوا منذ أَلُوفِ السنين يُنْشِثُونَ على ضِفَافِ النهرِ أَوَّلَ الأَسْدَادِ والذين كانوا أَوَّلَ مَنْ جَرَّ لِحِجْرَاتٍ ورفَعَ الماءَ بالسَّاقِيَةِ الأُولَى .

وكان القدماء مع جهلهم يُبَصِّرُونَ الفيضانَ قبل وقوعه كما يُبَصِّرُ وَإِنْ كُنَّا نَعْرِفُ مَصْدَرَهُ ، وتقولُ نظريةٌ يونانيةٌ إن رِيحَ الشَّمالِ تَذْخِرُ النيلَ وتَحُولُ دون انصبابه في البحر ، وتقولُ نظريةٌ أخرى إن البحرَ يُحِيطُ بِقُرْصِ الأَرْضِ وإن النيلَ يَأْتِي مِنَ البحرِ ، وتقولُ نظريةٌ ثالثةٌ إن النيلَ يَأْتِي مِنَ ثُلُوجِ الجبالِ العاليةِ البعيدةِ ، وَهَئِذَا هِيرُودُوتُسُ بِجَمِيعِ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَجِيءَ بِمَا هُوَ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ ، فَنُقولُهُ : « تُنْفِزُ الطَّيْبَةُ فِي وَضَحِ النَّهَارِ مِنْ دُونَ أَنْ تَدْعَ أَحَدًا يَهْتِكُ حِجَابَهَا » ، واليوم ، أَيْضًا ، يَطْلُؤُ مِرَّةً الرِّيحُ الموسمية خَفِيًّا مَعَ أَنَّهُ يَتَكَسَّرُ عَلَى جِبَالِ الحَبَشَةِ ، وَلَا أَحَدٌ يَعْرِفُ قُوَّةَ هَذِهِ الرِّيحِ ، وَلَا أَحَدٌ يَقْدِرُ مَقْدَمًا عَلَى حَسَابِ مَا تَحْمِلُهُ مِنْ سَحَابٍ ، وَلَا عَلَى حَسَابِ مَقْدَارِ الأمطارِ الَّتِي تَنْزِلُ عَلَى إثيوبيةٍ ، وَلَا عَلَى حَسَابِ قُوَّةِ الفيضانِ الَّتِي يَسْتَوْرِ النِّيلَ الأزرقَ والعطبرة .

ومع ذلك نستطيع أن نَقْيِسَ الفيضانَ ونُوزِّعَهُ عِنْدَ وُصُولِهِ ، وَهَذَا مَا كَانَ الْفِرَاعَانَةُ يَصْنَعُونَهُ فِيمَا مَضَى ، وَكَانَ يُقَاسُ ارْتِفَاعُ الْفِيضَانِ وَكَانَتِ الْآلهَةُ تُسْأَلُ أَنْ

يَبْلُغُ التَّيْضَانُ سِتَّ عَشْرَةَ ذِرَاعاً قَبْلَ هِيرُودُوتُسَ بَزْمَنِ طَوِيلٍ ، هِيرُودُوتُسَ  
الَّذِي جَابَ مِصْرَ قَبْلَ الْمِيلَادِ بِخَمْسَةِ قُرُونٍ .

وَلِذَا أُحِيطَ تَمَثُّلُ النَّيْلِ الْأَلْتَمَنِيِّ الشَّهِيرُ الْمَوْجُودُ فِي الْفَاتِيكَانِ بِسِتَّةَ عَشْرَ وَلِذَا ،  
وَيُلَخِّصُ بِلِينِي ذَلِكَ بِمَا عُرِفَ عَنِ الرُّومَانِ مِنْ إِيجَازٍ فَيَقُولُ : « تَكُونُ الْمَجَاعَةُ  
بِائْتِي عَشْرَةَ ذِرَاعاً ، وَتَكُونُ الْكَفَايَةُ بِثَلَاثَ عَشْرَةَ ذِرَاعاً ، وَتَكُونُ الْمَسْرَعَةُ  
بِأَرْبَعَ عَشْرَةَ ذِرَاعاً ، وَتَكُونُ السَّلَامَةُ بِخَمْسَ عَشْرَةَ ذِرَاعاً ، وَتَكُونُ السَّعَةُ  
بِسِتَّ عَشْرَةَ ذِرَاعاً » ، وَتَتَجَلَّى رُوحُهُ الدِّينِيَّةُ الْعَمِيقَةُ حِينَ يُضَيِّفُ إِلَى ذَلِكَ قَوْلَهُ  
إِنْ انْخِفَاضَ مِيَاهُ النَّيْلِ فِي عَامِ فِرْسَالُوسَ <sup>(١)</sup> يُثَبِّتُ أَنَّ هَذَا النَّهْرَ أَرَادَ إِظْهَارَ  
مَا سَاوَرَهُ مِنْ نَفَورٍ بِسَبَبِ قَتْلِ يُونْيُوسِي ! وَمَاذَا يَحْدُثُ لَوْ أَنَّ الْأَنْهَارَ فِي الْمِصْرِ  
الْحَاضِرِ تَدَخَّلَتْ فِي سِيَاسَةِ أَوْرُبَةِ ؟

وَتَرْجِعُ الْحِسَابَاتُ إِلَى أَقْدَمِ الْأَزْمَنَةِ كَمَا يَظْهَرُ ، وَمَا وَجِدَ بَيْنَ أُسْوَانَ وَالْقَاهِرَةِ  
مِنْ مَقَاسٍ عَشْرِينَ لِلنَّيْلِ قَدْ كَانَ لَهُ عَلَى رِوَايَةِ الْحَدِيثِ الْعَرَبِيِّ الْمُتَقَرِّبِيِّ ، شَكْلُ  
بَيْتٍ رُخَامِيٍّ قَائِمٍ عَلَى فُوهَتِهَا نَسْرَانِ مِنْ نُحَاسٍ أَحَدُهُمَا ذَكَرٌ وَالْآخَرُ أُنْثَى ، فَكَانَ  
الْجُمْهُورُ فِي الْيَوْمِ الْأَوَّلِ مِنَ الْفَيْضَانِ يَرْصُدُ أَوَّلَ صَفِيرِ النَّسْرِ عِنْدَ فَتْحِ فَرْعُونَ  
وَالْكَاهِنِ الْبَيْتِ ، فَإِذَا خَرَجَ الصَّفِيرُ الْأَوَّلُ مِنْ ذَكَرِ النَّسْرِ هُدَّ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى  
غَزَاةِ الْفَيْضَانِ وَزَادَ الْمَلِكُ كُتْمَنَ الْحَبِّ الَّذِي لَمْ يُبَيِّذَرَ ، فَيَا لَاتِحَادٍ وَجَدِ التَّرَاعَتِ  
الدِّينِيَّةُ وَرُوحِهِمُ الْعَمَلِيَّةُ !

وَيَجِدُ الْجُغَرَاْفِيُونَ قِيَاسَ النَّيْلِ أَمْرًا طَبِيعِيًّا بَعْدَ زَمَنِ وَفِي عَهْدِ الطُّغَنَةِ ،  
وَيُصَرِّحُ إِسْتِرَابُونُ فِي زَمَنِ قِيصَرَ بِأَنَّهُ لَا شَيْءَ أَفِيدُ مِنْ مَقَاسِ النَّيْلِ الْفَلَاحِ الَّذِي

فِرْسَالُوسَ : مِنْ بِلَادِ الْيُونَانِ ، وَفِيهَا انْهَضَ قِيصَرٌ عَلَى يُونْيُوسِي سَنَةَ ٤٨ بَعْدَ الْمِيلَادِ .



يَعْلَمُ بِهَا مَقْدَارَ مَا يَعْتَمِدُ عَلَيْهِ مِنَ الْمَاءِ وَمَا يَجِبُ أَنْ يَدَّخِرَهُ لِلْقَنَوَاتِ وَالْأَسْدَادِ ، وَبِأَنَّهُ لَا شَيْءَ أَفِيدَ مِنْ مَقَائِيسِ النَّيْلِ لِلْحُكُومَةِ الَّتِي تَعْتَمِدُ عَلَيْهَا فِي فِرَاضِ الضَّرَائِبِ قَتَرِيذُهَا بِزِيَادَةِ الْفَيْضَانِ ، وَبِرَآهَا جِيرَارُ وَهُوَ وَاقِفٌ عَلَى ضِفَافِ النَّيْلِ مَعَ الْجَنَرَالِ بُونَاپَارْتِ بَعْدَ أَلْفِي سَنَةٍ قَبْدُوعُهَا بِمَا أَثَرٌ عَنْ عَصَرِهِ مِنْ تَهَكُّمِ بَرِيءٍ بِ« الذَّخَائِرِ الْمُقَدَّسَةِ لِمَا كَانَتْ الْحُكُومَةُ تَقْدَرُ عَلَيْهِ مِنْ رَفْعِ عِلَامَةِ مَسْتَوَى الْفَيْضَانِ وَضُولاً إِلَى ضَرَائِبِ عَالِيَةٍ » .

وَنَعْلَمُ تَوَارِيخَ ارْتِفَاعِ فَيْضَانَاتِ النَّيْلِ مِنْذُ ثَلَاثَةِ عَشَرَ قَرْنًا قَرِيبًا وَنِصْفَ قَرْنٍ قَرِيبٍ ، بِأَوْثَقِ مِمَّا فِي تَوَارِيخِ أُورُبَةِ مِنْ أَنْبَاءٍ ، وَلَمْ يَقُلْ لَنَا عِلْمُهُ الْعَرَبِ فِي الْقَرْنِ الرَّابِعِ عَشَرَ مِنَ الْمِيلَادِ كَيْفَ اِهْتَدَوْا إِلَى أَرْقَامِ الْقُرُونِ السَّتَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ ، وَلَمْ يَذْكُرُوا لَنَا مَصَادِرَهُمْ ، يَدُّ أَنْ مَا نَرَاهُ مِنْ بَسَاطَةِ جَدَاوِلِ هَؤُلَاءِ الْعُلَمَاءِ الْكَثِيرِينَ وَمَا نَأْتِيهِ مِنْ مُقَابَلَةٍ بِأَرْقَامِ الْقُرُونِ الْقَادِمَةِ يُجَبِّزُنَا أَنْ نَعْتَقِدَ صِحَّةَ تِلْكَ الْأَرْقَامِ الثَّامَةِ عَلَى الْإِطْلَاقِ . وَمِنْذُ هِجْرَةِ النَّبِيِّ فِي سَنَةِ ٦٢٢ لَمْ نَعْمُوزِنَا الْأَرْقَامَ حَتَّى سَنَةِ ١٩٣٥ ، وَعَنْ جَمِيعِ تِلْكَ الْقُرُونِ ، إِلَّا لِمُدَّةِ ١٩٢ سَنَةٍ ، وَنَحْنُ نَعْرِفُ ارْتِفَاعَ الْفَيْضَانَاتِ لِمُدَّةِ ١١٣٢ سَنَةٍ . وَتَعْلُنُ الْقَوَائِمُ بِأَرْقَامِهَا كُلًّا يَتَرَنَّمُ الْكَهَنَةُ فِي صَلَوَاتِهِمْ ، وَيَقْرَعُ رَنِينَ ذَلِكَ آذَانُنَا وَيُذَكِّلُ عَلَى الْمُعْدَّلِ الْمُتَوَسِّطِ لِلْمَسْتَوَى الْأَدْنَى بِالْقُرُونِ هَكَذَا : فِي الْقَرْنِ الْأَوَّلِ ١١٥١ وَخَرَاءَ ، فِي الْقَرْنِ التَّاسِعِ ١٢٥٢ ، وَفِي الْقَرْنِ الثَّالِثِ عَشَرَ ١٣٩٠ ، وَيُذَكِّلُ عَلَى الْمُعْدَّلِ الْمُتَوَسِّطِ لِلْمَسْتَوَى الْأَعْلَى بِالْقُرُونِ هَكَذَا : فِي الْقَرْنِ الْأَوَّلِ ١٧٥٠ ، وَفِي الْقَرْنِ التَّاسِعِ ١٨٢١ ، وَفِي الْقَرْنِ الثَّالِثِ عَشَرَ ١٩٣١ ، وَخَلْفَ هَذِهِ الْأَرْقَامِ الْبِزْنَطِيَّةِ وَالْإِسْكَانْدَرِيَّةِ وَالْيَهُودِيَّةِ وَالصَّلِيبِيَّةِ وَالْعَرَبِيَّةِ وَالْفَرَنْجِيَّةِ بِمَرِّ انْخِلَافِ الْقَوَادِ وَالْأَبَاطِرَةِ وَالْكَرَادِلَةِ وَالْأَثَرِيُونَ وَالْفُنْدُقِيُّونَ عَلَى طُولِ النَّيْلِ حَتَّى وَصُولِ الْإِنْكِلِيزِ الَّذِينَ

قَهَرُوا النهرَ بالأسداد وعَبَّدُوهُ لِنَسْتَقِلَّ مَصَانِعُ جَزِيرِهِم البعيدة فلا يَرُدُّ القطن الذي يُنْتَعَمَلُ فِي مَنْشِئَتِهِ مِنْ تَكْسَلٍ بَعْدَئِذٍ .

ومن خلال رَقْصِ الحوادثِ ذلك تَبَيَّنُوْا إِحْدَى الحقائق من أَعْمَاقِ التاريخ ، وإِذْ كَانَ يُتَمَبَّدُ عَلَى طَوْلِ النِيلِ مَعَ الْقُرُونِ فَإِنَّهُ يُسْتَخْرَجُ مِنْ جَدَاوِلِ جِغَرَاْفِيِ الْعَرَبِ وَقَاصِيِهِمْ تِلْكَ أَمْرٌ فَرِيدٌ فِي تَارِيخِ مَعَارِفِنَا ، فَمَا أَنَّهُ أَمْكَنُ أَنْ يَقَابِلَ بَيْنَ أَعْلَى الْمِيَاهِ وَأَدْنَاهَا فِي أَلْفٍ وَثَلَاثَةِ سَنَةٍ أَمْكَنُ أَيْضًا أَنْ يُقَاسَ مَا يَأْتِيهِ النِيلُ فِي كُلِّ سَنَةٍ مِنْ غَرْنَيْنِ فِي أَرْبَعَةٍ أَمَا كُنْ واقعةً بَيْنَ أُسْوَانَ وَالْقَاهِرَةِ ، فَالْأَرْضُ قَدْ ارْتَفَعَتْ بَيْنَ الْقَرْنِ الثَّانِي وَالْقَرْنِ الثَّانِي عَشَرَ مِتْرًا وَثَلَاثِينَ سِتْمِتْرًا كَمَا ارْتَفَعَتْ بَعْدَ ذَلِكَ ، أَيْ فِي ٧٧٠ سَنَةٍ ، مِتْرًا وَاحِدًا ، وَفِي حِسَابَاتٍ أُخْرَى رُئِيَ أَنَّ ارْتِفَاعَ هَذَا الْمِتْرِ وَقَعَ فِي السَّنَوَاتِ الـ ٥٧٠ الْآخِرَةِ .

وَحِينَمَا تُحَدَّثُ عَنْ أُلُوفِ السِّنِينَ الَّتِي لَا بُدَّ مِنْ انْقِصَالِهَا قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَيْنَا نُورُ الشَّمْسِ الْبَعِيدَةِ نَتَبَّهٌ فِي بَحْرِ مِنَ الْأَرْقَامِ كَمَا نَتَبَّهٌ عِنْدَمَا يَتَبَحَّثُ عُلَمَاءُ الْمُسْتَحْثَاتِ<sup>(١)</sup> فِي قَدَمِ الْأَرْضِ وَيَخْضُونَ فِي مِثَالِ أُلُوفِ السِّنِينَ ، فَالنُّورُ الطَّيِّبُ وَالْأَنْسَابُ الْمَدَدِيَّةُ وَالْمَرَاقِبُ وَالْجَاهِجُ أُمُورٌ تُثِيرُ مِنَ الْمَدَدِ مَا لَا يَخْطُرُ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ .

وَلَكِنْ مَدَّةَ ٧٧٠ سَنَةٍ مِمَّا يَتَصَوَّرُهُ الذَّهْنُ ، وَمِنْذَ ٧٧٠ سَنَةٍ خَلَّتْ دَخَلَ الْإِمْبَرَاطُورُ بَارْبَارُوسُ مِيلَانَ مَصَالِحًا الْبَابَا بَعْدَ خَرَبٍ مُحَاطًا بِأَمْرَاءِ مِنَ الْأَلْمَانِ وَقِسَاسَةٍ مِنَ الطُّلِّيَّانِ وَأَبْوَلَادِهِ وَخَدَّتِهِ وَحَاوَلَ أَنْ يَحْقُقَ مِشَارِيقَهُ الْوَاسِعَةَ ، ثُمَّ مَاتَ غَرَقًا فِي نَهْرِ بَاسِيَةِ الصَّغْرَى ، وَبِجْءِ دَوْرٍ عَظْمَةٍ إِيطَالِيَّةٍ بَعْدَ الْقُرُونِ الْوَسْطَى ، وَبِتَخَاصُمِ الْمَلِكِ مِنَ الْمُلُوكِ وَالْأَمْرَاءِ ، وَتَنَازُعِ مُدُنٍ وَبِلَدَانٍ ، وَتَجَمُّعِ أُمَمٍ وَمُحَاوَلِ بَعْضُهَا إِبَادَةَ بَعْضٍ ،

وَيَظْهَرُ سَان لُويس ثم آلُ نابليون ، وَيَظْهَرُ فِرْدِرِيكُ الثَّانِي ثم الجُمهُورِيَّةُ الأَلْمَانِيَّةُ ، وَيَظْهَرُ دَانْتِي ثم نِيْتَشْ ، وَيَظْهَرُ جِيُوتُو<sup>(١)</sup> ثم رُودان<sup>(٢)</sup> ، وَيَظْهَرُ حِصَانُ الْفَارِسِ ثم الدَّبَّابَةُ ، وَيَتَعَارَكُ النَّاسُ بِأُورِيَّةٍ فِي سَبِيلِ آرَائِهِمْ مَدَّةَ سَبْعَةِ قُرُونٍ ، وَيَتَقَاتِلُ الْخُلُقَاءُ وَزَعَمَاءُ الشَّعْبِ بِمِصْرَ ، وَفِي مَا كَانَتْ الشَّجَبُ الثَّقَالُ تَصْدِمُ جِبَالِ الْحَبَشَةِ سَبْعِمِئَةً مَرَّةً كَانَ النَّيْلُ الْأَزْرَقُ يَجْرُ الْمِيلَارَاتِ مِنْ ثَنَارِ الْبِرَاكِينِ سَبْعِمِئَةً مَرَّةً لِيَضَعَهَا عَلَى ضِفَافِ النَّهْرِ رَفْعًا لِمَسْتَوَى هَذِهِ الْوَاخَةِ الْعَاطِلَةِ مِنَ الْمَاءِ مِثْرًا وَاحِدًا ، وَهَذَا أَمْرٌ نُدْرِكُهُ ، وَهَذَا أَمْرٌ نَلْمِسُهُ .

وَمَا الَّذِي ظَلَّ ثَابِتًا غَيْرَ مُتَغَيِّرٍ فِي وَادِي النَّيْلِ فِي هَذِهِ الْقُرُونِ السَّبْعَةِ ؟ إِطَاعَةُ الْعَبْدِ لِسَيِّدِهِ وَمَوْتَ مُلَايِينِ النَّاسِ الصَّامِتِ فِي سَبِيلِ مَجْدٍ ، أَوْ خِزْيٍ ، أَوْلَئِكَ الَّذِينَ حَفِظَ التَّارِيخُ أَسْمَاءَهُمْ ، وَمَا بَذَلَهُ الْمَفْكَرُونَ مِنْ جُودٍ ، أَوْ مَا قَامَ بِهِ الْأَقْوِيَاءُ وَالْأَغْنِيَاءُ مِنْ مُضَارِبَاتٍ ، لَمْ يَمْنَعْ الْفَلَّاحَ فِي نَهَايَةِ الْقُرُونِ السَّبْعَةِ مِنَ الْعَيْشِ بَأْسًا كَمَا كَانَ عَلَيْهِ أَجْدَادُهُ فِي عَهْدِ الْفَرَاغَةِ الْأَوَّلِينَ ، وَلَكِنْ الْفَلَّاحُ كَانَ يَمِيشُ مِنْذُ خَمْسَةِ آلَافِ سَنَةٍ عَلَى أَرْضٍ أَسْفَلَ مِنَ الْأَرْضِ الْحَاضِرَةِ سَبْعَةَ أَمْتَارٍ .

وَالنَّيْلُ كَفَاحٍ مُوَهَّوبٍ لَمْ يَفْتَأْ يَزِيدُ وَيَزُكُّ كَنُورَ النَّهْنِ ، وَالنَّيْلُ ، مِنْذُ الْبُدَاءَةِ ، يَجْتَمِعُ الْمَوَادُّ الْخَصِيصَةَ الْضَّرُورِيَّةَ لِسَيِّبَتِهِ وَيُوسِّعُ عَالَمَهُ بِلا انْقِطَاعٍ ، وَإِذَا كَانَتْ الْأَرْضُ الَّتِي يَجْرُهَا الْفَلَّاحُ غَرِيْنًا عَمَقَ اثْنَا عَشَرَ مِثْرًا فَفَكَرُوا فِيمَا يُوْدَى إِلَيْهِ هَذَا مِنْ سُرْعَةِ الْمَحْصُولِ وَكَثْرَتِهِ .

(١) جِيُوتُو : مِصْرُ فُلُورَنْسِي وَصَدِيقُ لِدَانِي ( ١٢٦٦ — ١٣٣٦ ) — ( ٢ ) رُودَان :

نَحَاتُ فِرْلِسِي ( ١٨٤٠ — ١٩١٢ ) .

ولذلك السبب ترى ضفاف النيل نفسها أعلى من الأراضي البعيدة التي لا تأخذ من النهرين غير القسم الذي تكافه الأراضي القريبة ، ويتوقف الخصب ، أيضاً ، على عرض النهر وانحداره ، وكما كان هذا الانحدار كثيراً قلَّ النهرين المخزون ، ويكاد الانحدار يكون متراً واحداً في كل عشرة كيلومترات بين أسوان والقاهرة ، ويقلُّ مُعدلُ ارتفاع الأرض التدريجيُّ في مصر العليا ومصر الدنيا على حاله في غضون القرون .

والطبيعة هنا ، كما في كل محل ، تُوزَّع عطاياها بإحكام ، والطبيعة تُخَصِّبُ بفرين الحبشة أرض هذه الواحة العاطلة من المطر ، والطبيعة تدعُ الشمس والنهرين الجديد يتفدان في كل مكان ، والحقل إذا ما تجمَّله الفيضان القادم أعطى محصولاً بلا محراث ، أوجب حصاداً لا ينفك يطيب ، وذلك لأن النهرين يحملان المواد اللائقة ويساعد على نمو النبات ، حتى إن حوادث التاريخ تُعين على عمل الطبيعة هذا بأن تتحول إلى سماء أطلال المدن والقرى والبيوت المتبنية بذلك التراب .

ومع ذلك تَكْسِبُ صحراء ليبيا في الغرب أرضاً وتترع من الإنسان أطيافاً كان أجداده بزوعها ، وهكذا تُبَصِّرُ تنازع التراب والماء يحمل الإنسان المستقر بصفاف النيل على التأمل ، وهكذا تَجِدُ الطبيعة حافرة للإنسان إلى التفكير في أمر الرى .

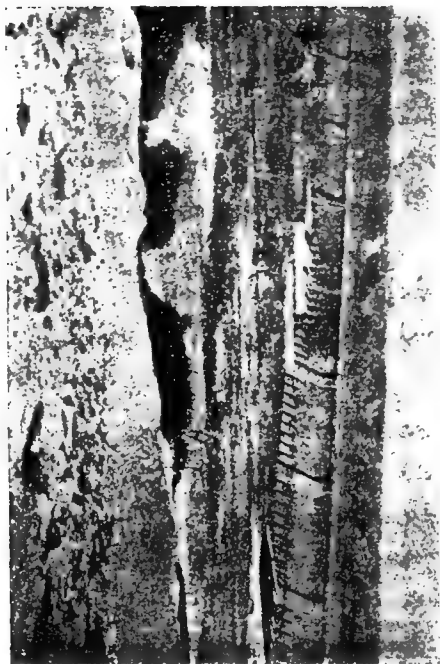
أجل ، يرجع الرى إلى أوائل الزراعة في وادي النيل ، غير أن أول تقنية تعود إلى عهد سيزوستريس الذي جعل ، حوالي سنة ٦٠٠ قبل الميلاد ، أمرى الحرب على حفر الترغ ، وقد توجَّع هيرودوتس من مصر لأنها بلد لا يطاف فيه برية أو على حصان .

والطَّوافُ ممكنٌ فى الوقت الحاضر ، فقد غدت الأسدادُ دُرُوبَ هذا البلد الذى تسير فيه السيارات بسهولةٍ فلا يَشْكُ السَّامِعُ فى أن الأسدادَ الملائمةَ للرِّىِّ هى طُرُقُ هذا الوادى الضيق الثمين .

ولا يزال أسلوبُ القراعة ، أى الرِّىُّ بواسطة الأحواض ، مستعملاً فى مجرى النهر الفوقانىِّ قبل أسبوط ، فإذا جاوزتَ الدرجة السابعة والعشرين من العرض الشمالى ، أى إذا بلغتَ بدءَ منطقة زراعة القطن ، أبصرتَ احتياجاً إلى رِىٍّ دائمٍ تَضُمُّهُ الأسداد ، وبما لا ريب فيه أن فنَّ الأسداد وحَفَرِ القنَّاتِ بلغَ درجة من السَّكَّالِ فى عهد القراعة والخلقاء ، وذلك لأنَّ المدن والقرى كانت تَبْرُزُ كجُزُرٍ فى وَسَطِ مَصَرٍ التى لم تَظْهَرْ غيرَ بحيرةٍ كبيرةٍ فى الصيف ، واليوم تَرى عدد تلك الجزيرَاتِ قليلاً إلى النِّهاية ، واليوم تَخْزُنُ الأحواضُ الماءَ الغِرَينىَّ وتَحْفَظُهُ أربعين يوماً ثم يجرى هذا الماءُ إلى أحواضٍ تَنَحَدِرُ مقداراً فقداً فتتألف منها سلسلة . وتَبْلُغُ الحواجزُ التى تَفْصِلُ بعضَ هذه الأحواضِ عن بعضٍ من العُلُوِّ ما بين مترين وثلاثة أمتار فتَمْسِكُ الماءَ فى حقولٍ يترجى عَمَقُها بين خمسين سنتمراً ومترين وَفَقَّ وَضِعَ الأرض ، ويبقى الماءُ فى تلك الأحواضِ بين منتصف شهر أغسطس وآخر شهر سبتمبر ، ويكون الجنود من التَّيْقُظَةِ ما يمنعون به الفلاحَ الحافى من خَرْقِ الحواجزِ برجله أو هدمها بها ، وذلك كما تُرَقِّبُ مياه المَرَّازِ<sup>(١)</sup> حَوْلَ ميلان أو كما تُخَرِّسُ خزانين المصارف<sup>(٢)</sup> الكبرى فى المدن ، وهناك محكمة خاصة للحكم على لصوص الماء ، بيد أن الفلاح يكون من الانقباه بفضل الله أكثر من الجندى فى الغالب .

(١) المراز : جمع الموزة ، وهو منبت الأرز — (٢) المصارف : البنوك .

۴۱ - غزل اسیر





وجميعُ الناسِ يَسْعَوْنَ في الاستقرارِ بالقربِ من الماءِ ما قَدَرُوا على ذلكِ ، وهم في ذلكِ كالآلآن الذين يتهاقون على بِرْمِيلِ الْجِلَّةِ حيناً يُثَقَّبُ لِيُسْتَقَى منه مَرُغِيّاً ، وذلكَ لأنَّ الذي يكونُ بعيداً من النيلِ قريباً من حدودِ الصحراءِ ، يُعْرَمُ « الماءُ الأحمر » ، على حينِ يستطيع من يَبْذُرُ بالقربِ من الضَّفَّةِ أن يَسْقَى حقله بالساقية وينالَ محصولين .

واللحُ سببُ ألمٍ أيضاً ، وفي غاباتِ بحيرةِ أَلْبَرْت ، وعند منبعِ النيلِ ، وفي اليومِ بعد اليومِ ، تَجْرُفُ الزَّيْتِيَّاتُ اللَّحاحَ من فوقِ الأرضِ بأيديهنَّ لِأَخْذِهِ الْأَقْزَامَ ثَمناً لطرائدِ وحِرابٍ حَادَّةٍ ، ولكن ما يُؤَوِّزُ النيلَ في شَبَابِهِ يُزْجِجُهُ في مَشْيَبِهِ ، فإِ تحتِ الأرضِ من سَمَطِ ماءٍ فَيَدْخُلُ اللَّحاحُ إلى ماءِ القَنَوَاتِ الصافي وَيُهْلِكُ ، حديثاً ، أشجارَ الْجُبَيْرِ وَاللَّشِيشِ ، وَتُنْسِكُ أَسْدَادُ النيلِ ملعاً كذلكِ ، ومع ذلكِ تَرى سِمَاطَ النيلِ الواقعَ تحتِ الأرضِ يُعِينُ الْأَطْيَانَ على الحياةِ حينَ المَرَمِ قِيمِدُ نَحْوِ أَلْفِ بَرَارٍ تَوَازِيهِ وَأَكْثَرُ من خمسين ألفَ ناعورةٍ .

وإنَّ بلدًا يَصْنَعُ رِزْقَهُ على ذلكِ الوجهِ الغريبِ يُثِيرُ أُسَاطِيرَ لَا رَيْبَ ، فإِ يُضَدِّدُهُ من بُرٍّ كثيرٍ فيَجْعَلُ منه نَبْرَ قَيْضٍ وَوَقْرٍ ، وهل يكونُ بلدٌ هذا أمرُهُ مع صفاءِ سماءٍ غيرِ سعيدٍ ؟ وَيَنْصَحُ أَحَدُ عُلَمَاءِ الْجِغْرَافِيَةِ في القرنِ الثامنَ عَشَرَ أَنَّ يُخْلَطَ تَرَابُ مِصْرَ بِالرَّمْلِ لِكَيْلَا يَكُونَ كَثِيرَ الْخِصْبِ ، وبما قاله هذا الْجِغْرَافِيُّ أَنَّ الْإِنْسَانَ في مِصْرَهم من قُوَّةِ النسلِ ما تَلِدُ الْأَنْعَامُ معه مرتينِ في العامِ وما تَلِدُ الْمَرَأَةُ معه تَوَاقُماً في كُلِّ مَرَّةٍ تَقْرِيئاً

ويُلَوِّحُ أَنَّ هِيرُودُوتُسَ لاحظَ مِثْلَ هذا الْبِشَرِ عندَ الْكَهَنَةِ في القرنِ الخامسِ قَبْلَ الْبِلَادِ ، وَمِنَ الْمُحْتَمَلِ أَنَّ كَانَ هَؤُلَاءِ الْكَهَنَةِ يَتَسَمَّوْنَ حيناً قَالُوا لَهُ : « بَمَا أَنَّ



بلاد اليونان عاطلةٌ من نهر يَرْدِيهَا صار من الممكن أن تموتوا جوعاً إذا لم يُنْزِلْ إِلَيْكُمْ مطراً عليكم ، ، واسمع جوابه : « وأنتم ، أيها الماكرون ، تتالون ثمرات الأرض في الوقت الحاضر بأسهل مما يناله به سواكم من الناس ، أى من غير أن تستعملوا حتى المِخْرَاث ، ولكن إذا دام ما أثبتوه لى من ارتفاع أرض الدلتا كما أخذ يقع في القرون التسعة الأخيرة أفلا يُصَابُ أبنائكم بالجاعة يوم ينقطع النيلُ عن الخروج من مجراه فائضاً ؟ » .

وهذا وَقَعَ في حادثةٍ معبدٍ مُنْفِيسٍ حين تحدث كَهَنَةُ آمون وضيْفُهُم العالم الذى كان يؤمن بزوس<sup>(١)</sup> فيزايدم عن غرور قومى وزهو دينى .

## ٥

اليوم ترى العنصر مقهوراً ، وسيُحَدِّثُنا النهر عن معنى ذلك ، وفي السنين الثلاثين الأخيرة يُحوَّلُ سُدُّ أسوانَ ويُنْحوَّلُ أسدَادُ أربعة أخرى في مجرى النهر للتحتاتى نظام الرى الألفى المصرى للمرة الأولى ، ويوجب تحويلُ مِنطَقة حبوبٍ إلى مِنطَقة قطنٍ نظامَ قَنَوَاتٍ يوزَّعُ به الماء في العام كله توزيعاً يُسْتَقَى به البلد على اللوام ، ويُسَقَى مع ذلك في إخصاب أراضٍ بعيدة واقعة عند حدود الصحراء . وهكذا يُنْصَرَفُ الفَنُّ المصرى عن أمرين مختلفين أشدَّ الاختلاف ، وأولُ الأمرين هو تبييد إحدى قوى الطبيعة ، وذلك بأن يُجْبَسَ في أحواض فيضانٍ مَاقِيٌّ منذ أقدم الأزمنة ينتشر مُصَاوِلاً في كلِّ صيف حتى يَنْزَوِى ، ويَجْمَلُ من

(١) زوس : هو أبو الآلهة وسيدها لدى الإغريق كاجاء في الأساطير ، وهو يسمى جوبيتر أيضاً .

مغامر كائنًا رزينا مقتصدًا ، ومُحَرِّم العالم منظرًا مؤثرًا يُعْطَى بضعة ملايين من أطنان القطن زيادةً على ما كان يُعْطَى ، وكان مقدار القطن يكفي الجميع كما هو الأمر قبل ذلك ، وليس ما وَقَعَ غيرَ شعوزةٍ ينتقل بها المحصول من يدٍ إلى أخرى ، غيرَ خُدعةٍ يَمُرُّ بها القطن من أيدي الأمريكيين إلى يد الانقلو مصريين .

والأمر الثاني ، وهو رهن التحقيق ، جُهِدَ فَاوَسِيٌّ لَمْ تَسْمَعْ بِمِثْلِهِ أُذُنٌ ، أى دَحْرَ لحدود الصحراء سنةً بعد سنة ، وليست زراعة القطن هي التي تَمُنُّ على هذه الأسناد بالمعنى الفلسفيِّ ، وإنما ينشأ ذلك عن ادْهِيمام<sup>(١)</sup> ما يَزِيدُ على ثلاثة آلاف كيلومتر مربع من الأرض الصحراوية ، أى ما يَزِيدُ على مساحة تَيْبَسَانَ<sup>(٢)</sup> .

وانظرُ إلى الأرقام تَحِدُ أن المزروع في الوقت الحاضر هو ٢٢٠٠٠ كيلومتر مربع من ٣٠٠٠٠ كيلومتر مربع ، وأن ٨٠٠٠ كيلومتر مربع سيُزْرَع قريبًا ، وأن ٣٠٠٠ كيلومتر مربع هي من مِنطَقَةِ الرِّبِّيِّ الجديدي في مصر العليا ، فإذا ما انقضى ثلاثون عامًا بُلِغَ الحدُّ من الأراضي الصالحة للزراعة بمصر ، ولكن مصر تكون قد بَلَغَتْ من السكان في ذلك الحين ما بين الـ ١٨ والـ ٢٠ من الملايين ، والآن يُعْطَى سبعون في المئة من الأراضي التي تُزْرَع بمصر محصولين أو ثلاثة محاصيل سنويًا ، ويُطَبَّقُ نظامُ الرِّبِّيِّ وَفْقَ مقتضى الأحواض في مجرى النهر الفوقانيِّ قبل أسبوط كما في الماضي ، أى في النصف الأول من مجرى النيل بمصر ، أى على الرِّبْع من مجموع الأراضي الصالحة للفلاحة فقط ، وذلك بعد النظر إلى ضيقِ الوادى .

ولتَذَكُّرٍ من أين يأتي الماء ، ففي الصيف ، بين فبراير وأغسطس ، يكون النيلُ

(١) ادْهِيمام ادْهِيمام فهو مدْهِيمام ومى مدْهِيمامة : اخضر اخضرارا يضرب إلى السواد من

شدة الحفرة — (٢) تَيْبَسَانَ : من كتوبات سويسرة .

الأبيض بالغ القوة ، فيأتي بثمانين في المئة من الماء محتيلاً العِبءَ ، ويهبط ما يجيء به النيلُ الأزرق إلى خمسة في المئة من الماء في بعض السنين ، فإذا حُلَّ زمن الفيضان قُلِّبَت النسبة تقريباً ، والأرقامُ تقريبيةٌ مع ذلك فتُصَنَّفُ سنواتُ انخفاضِ الماء عادةً هكذا : ( ١٧٨١ — ١٧٩٧ ، ١٨٩٩ — ١٩١٥ ) ، ويترجح مقدارُ الماء الذي يَمُرُّ من خَزَانِ أسوان بين ٤١ مليار متر مكعب و ١٣٨ مليار متر مكعب ، ولولا خَزَانُ أسوان لأسفرت سنةٌ سيئةٌ كسنة ١٩١٣ عن مجاعةٍ في مصرَ ، ومحصولُ القطن وحده هو الذي أصابه الضرُّ في تلك السنة .

ولا تُبَصِّرُ في أيام السَّلم على الأقل سداً يُرى إنشاؤه في النيل الأعلى مُهدداً لمصرَ ، وقد أثبتنا في جزء آخر أن من الأساطير أن تُزَعَمَ قدرةُ إنكلترة على إغلاق الكوئى وإمانته مصرَ جوعاً ، ومع ذلك نجد أن الفيضاناتِ هي من التَّغْيِيرِ ما يُمكنُ الأسَدَادَ في حال الحرب أن تكون به أداةُ ضغطٍ بيد الإنكليز ، ومن السهل أن يُرَفَعَ مستوى المياه التي يَحْدِسُهَا سدُّ بحيرة ألْبِرْتِ الأعلى متراً واحداً ، فتُمْسِكُ بذلك خمسةً ملياراتِ مترٍ مكعب ، وبما أن معدَّلَ ضياعِ الماء في الناقع ثمانية عشرَ مليارَ مترٍ مكعب وَجَبَ إنشاءُ القناة التي تكلمنا عنها آنفاً ، ففي هذه الحال يَصِلُ الماءُ من بحيرة ألْبِرْتِ إلى أسوان في خمسةٍ وخمسين يوماً .

ويقال إن من شأنِ خَزَانِ جبل الأولياء الذي يُقام في مجرى النهر القوقازيِّ قَبِيلَ الخِطْطوم أن يَبْقَى مصرَ حَظَرَ الطوفان ، ومن شأنِ السِّدِّ الذي رُسمَ مشروعُ إنشائه منذ خمسَ عشرةَ سنةً في بحيرة طانة أن يُمَسِّكَ من الماء أكثرَ مما تُمَسِّكُ بحيرة ألْبِرْتِ ، أى يُمَسِّكُ سبعةً ملياراتِ مترٍ مكعب فتَسْقِي ثلاثةً ملياراتٍ منها قطنَ الجزيرة على حين يَبْقَى أربعةً ملياراتٍ احتياطاً لما لا يُنْتَظَرُ من الماء في

السنين ذوت الكوارث ، فهناك يُفَرِّغُ الحوضُ من غير أن تُخَسَّرَ مصرُ قَطْرَةَ ماء ، وذلك لأن مياه النيل الأزرق التي تَنْصَبُ في النيل الأبيض بالخرطوم تَتَجَمَّع في المجرى التحتانيُّ بعد بحيرة طانة بِمَسَافَةٍ بعيدة وعند الحدِّ بين الحبشة والسودان . وَيَتَطَّاقُ الفيضانُ والصيف من بين مواسمِ مصرِ الثلاثة ، الفيضان والشتاء والصيف ، وذلك لأن الفيضان ، وإن كان يبدأ في يونيه ، يَبْلُغُ غايته في أول سبتمبر حين تكون أحواضُ مصرِ العليا مملوءةً وحين تَصُبُّ الْقَنَوَاتُ ماءً كافياً في الأرض التي جَفَّها الصيف ، ثم يَفْدُو بعض الأرض مُدَّةً لِلذِّارِ فيُعْطَى غَلَّةٌ شَتويةٌ هزيلة ، وتَسْتَقِي الناعورةُ من القنجر ما بار من الأرض في أبريل عند ما يَحِلُّ وقت الحَصَادِ وَيُوْخَذُ آخِرُ شِمَالِهِ<sup>(١)</sup> ، وهكذا تَرَى أرضَ مصرَ مزروعةً في المئة .

والنيلُ هو الذي يُعَيِّنُ الزراعة ، والنيلُ هو الإله ذو الأهواء ، والشمسُ فوق النيل هي الإله المُقَسَّمُ الأرزاق ، والأرُّزُّ قليلٌ ، والأرُّزُّ يحتاج إلى ماء كثير ، والأرُّزُّ يُوْتِي أَكْثَرَهُ في ستة أشهر ، وَيُرْفَعُ الماءُ بِالْمِصْخَاتِ لَسْتَقِي قصب السكر الذي يحتاج إلى ثمانى عشرة رِوًى<sup>(٢)</sup> ، ومع أن القطن لا يتطلب غيرَ عشرِ شَرَبَاتٍ يُعَدُّ العَجَلُ الذهبيُّ الذي يُصْحَى بكلِّ شيء في سبيله .

ولا يَزْرَعُ الفلاحُ غيرَ ما يستطيع سقيهِ بنفسه ، وهو يَزْرَعُ من البزيم لماشيته ما يَسْقِيهِ ثمانى مراتٍ وما يَحْشُهُ ستَ مراتٍ في السنة ، وهو يَزْرَعُ بصلاً وفولاً وذرةً وخُضراً ، وُبراً يَبْذُرُهُ في الفَريْنِ في شهر أكتوبر وَيَسْقِيهِ ثلاثَ

(١) الشمال : كل قبضة من الزرع يقبض عليها الحامد (٢) الروى : هو الرى ، وهو الشرب حتى الشبع كما هو معلوم .

## ارتفاع قيمة الأرض

مراتٍ فقط ليعطيه في شهر أبريل ما يحتاج إليه من الخُبز هو وأولاده .  
وُنِبِتَ النيلُ ، في تلك الأرض الضيقة الواقعة على المجرى القوقانيِّ قبل أسبوط ،  
مثلَ الحبوب التي كانت في عهد الفراعنة بفضل الأحواض والنواعير بعينها ،  
ويُخصَّصُ ثلثُ ما بين أسبوط والقاهرة من أراضٍ للقطن ، ويتوقَّف كلُّ شيءٍ على  
الأسداد ، وينبُت أقلُّ بصل للفلاح بإشراف مهندسي أسوان .

ومن نتائج إنشاء خزان أسوان أن أسفرت زراعة القطن في مصر العليا عن  
ارتفاع قيمة الأرض بنحو ١٨٠٠ جنيه لكلِّ كيلومتر مربع ، وأن اشتدَّت كثافةُ  
السكان فصار كلُّ كيلومتر مربعٍ يشتمل على مئةٍ من الناس زيادةً على ما في أيِّ  
مكان آخر ، وأن كانت هذه الزيادة على حَسَبِ خواصِّ الأرض ، ويؤدي ارتفاع  
كَمِّ كلِّ قطعةٍ أرضٍ جنبيين إلى تأسيس أسرة إضافية ، وهكذا يَبْدُو أثرُ خزان  
أسوان على مسافةٍ أربعمئة كيلومتر من المجرى التحتانيِّ .

ومن أطرف نتائج إقامة الأسداد هو الخوفُ من غزارة الفيضانات ، وبما يحدث  
منذ عهد الفراعنة حتى هذه الأيام ، وفي بعض الأحيان ، أن تُجاوِز الفيضانات  
الحدَّ ، ولكن هذا هو من التُدْرَةِ ما لا ينفكُّ الناسُ معه يدْعُونَ الآلهة أن تجعل  
الفيضان قوياً جداً ، واليوم يُخَشَى أن يؤدي الفيضان إلى خراب السدِّ ،  
ومن كَمِّ ترى الجبل الذي قهرَّ المنصر يخاف انهدام ما بَنَى ، فهو في هذا كاطلاغية  
التي يخاف الثورة .

وكما أن النِّعَى يزيد الإنسانُ بَخْلًا وتعطشًا إلى الذهب تَرَى كِبَارَ المالكين  
يتوجعون دوماً من قلةٍ في الماء كان أجدادهم يمانونها أشهراً بأشرها ، وترى الباشا  
في القاهرة يُوكِّد ضرورة إنشاء سدِّ الخرطوم وبحيرة طانة ، وسدِّ بحيرة ألبرت

على ما يحتمل ، وصولاً إلى ازدهار قُطنه في ديروط ، والفقير ، من ناحيته ، تابعٌ للفتى ومائه ، ولا شيء يُلوح كافيًا منذ ثورة الرُّى التي نشأت عن شِدِّ سَدِّ أسوان في سنة ١٩٠٠ .

ومع ذلك تبصر أنواعاً من صغار الفاريت يَتَلَهَّون بِبَذْرِ الفوضى في العمل العظيم الذى أَرْتَمَ ، وذلك أن لدى الزارع ، الذى أَسْتَهَمَ بضرائبه في إقامة الأسداد والذى يَحْمِلُ بِأَثْمَانِ فَكَيْكِيَةِ قُطنه ، أسباباً كثيرة للشكوى ، فإلا المبحوز خالٍ من الغَرَمِ لوروده من النيل الأبيض حتى فصل الصيف ، وهو يَبْقَى في حقله مُدَّةً أَقَلَّ من التى يَبْقَى بها ماء الأحواض ، وهو يترك قليلَ ذخيرةٍ وَيُعْطَى قليلَ محصول ، ومع ذلك كيف يُتَخَلَّصُ من زيادة هذا الماء الذى يَرِدُ في جميع السنة ؟ وتُكَلِّفُ الصِّخَاتُ ثَمَنًا غَالِيًا ولا يُؤْمَنُ جانبها ، وأما الفلاحُ ، وأما هذا المزارعُ المَيَاوِمُ <sup>(١)</sup> عند ذلك الزارع ، قد استحوذ عليه الغمُّ ، وذلك لأن الملح الذى تأتى به مياه النيل الأبيض المدينية ، تُكْرَهُ على استعمال السَّادِ للمرة الأولى منذ أَلُوفِ السنين .

ثم ماذا ؟ يُضْطَرُّ نَبْرُ الدنيا القديم إلى استيراد الحبوب من الخارج بعد أن صار يُصْدِرُ القطنَ إليه ، ويفتنى بذلك على حساب استقلاله ، أَجَلْ ، له أهدافٌ واسعة ، غير أنه عاد لا يمتنع بالهدوء الداخلى ، وكان غوته قد أبصر مثل هذا الفرق بين العمل والفكر فقال : « الفكرُ يُوَسِّعُ ، ولكنه يَمْطُلُ ، والعملُ يُلْهِمُ ، ولكنه يُحَدِّدُ » ، وإذا كان القدان في المجرى الفوقانى قبل أسبوط يأتى بثمانية عشرَ جنيهاً فإن فدان القطن في المجرى التحتانى بعد أسبوط يُوَدِّى حتى ثمانية وعشرينَ جنيهاً ، ويزيد

(١) يَومو : عامه بالأيام .

ماللزارع في الدّقة الكبير ، ويَزخر السكان ، ولا تَكثُر مَسَرَّةُ الحياة ، ويُسْتَرُ البلد بالحشرات التي يُوَدَّى إليها اتصالُ الماء بعد أن كان حَيِّياً مع الجفاف ، وتَظهر أمراضٌ جديدة فتَعُدُّ البِلْهَارِزِيَا التي تَرافق النِّيلَ المُوسَّعَ من جَوانحِ مصرَ ، ويقول الناسُ بصوتٍ عالٍ : « لا زيادة أسداد ! لا زيادة ماء ! » .

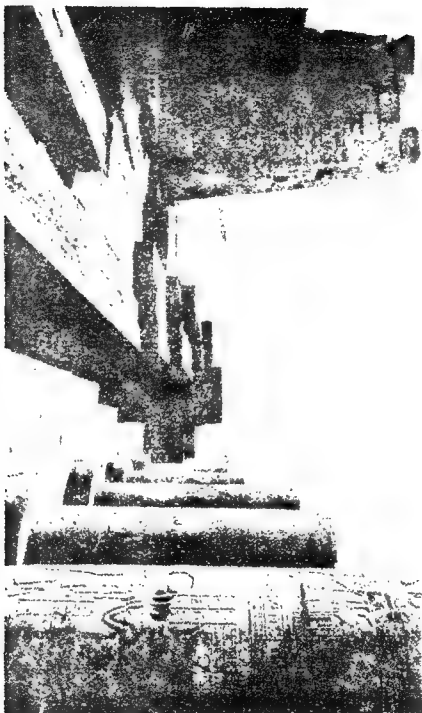
ويعود الفلاح ، مُتَزِنَ الخَطَا ، إلى الساقية التي انتقلت إليه من أجداده ، والتي لم يَسْطِيع مهندسٌ أن يستبدل بها غيرَ المِصْحَحات التي تنتشر رويداً رويداً ، ويدوم دُولابُ القراعة الخشبيُّ على الدوران بالقرب من الأسداد البِيتُونِيَّةِ مُتَتَدِّلاً بسيطاً كالخِصان الذي يَجُولُ بجانب السيارة .

ويَدُورُ الدُولَابُ وَيَصِرُ<sup>(١)</sup> ، وَيَسُودُ مِصرَ صَوْتَانِ : الصَّراخ والمويل ، أَى رسولا آلهةِ مِصرَ اللذان أوجدتهما الشمس والنيل كما في الماضي ، وتَرى فوق النهر وفوقِ وشاحه الأخضر ، هُورُوسَ ، ترى الصَقْرَ ، يُحَلِّقُ وَيَهْبِطُ وَيَقِفُ لِيَحَلِّقَ ثانيةً وَلِيَقِفَ<sup>(٢)</sup> ، وهو إذا ما وَقَعَ على ساحة معبد إذ فُوجِهَلْ أَنْ هُورُوسَ الحِجْرِيَّ الذي يَحْمُومُ حَوْلَهُ هو جَدُّهُ الإلهيُّ ، وَيَرِنُ نِداؤُهُ عالياً من خلال السماء الزرقاء ، أَقِيمَبَرُ بهذا الأسلوب عن الحُبِّ أَمْ عن الجوع أَمْ عن الفرح ؟

له الجوابُ بنواحِ الساقية التي يدور دولاؤها حول محورٍ خشبيٍّ ، وَيَعْرِفُ النِيلُ هذا الصريفَ من بلاد النوبة وما بعدها ، وَيَزِيدُ هذا الصريفُ زِيَادَةً لَا حَدَّ لَهَا فوق تلك الأرضِ الزاخرة بالسكان ، وتتنساق خمسون ساقيةً أو مئةُ ساقيةٍ ، ومن يُنْصِرُّهَا تَحْوُضٌ من بعيدٍ يَتَمَثَّلُ له فريقٌ من الأَثَرِيِّينَ يَبْحَثُ في الأرضِ مُبَارِيَا . وفي هذه الواحة الضيقة يَخْشَى الناسُ كُلُّ ارتفاعٍ في الأرض ولو متراً واحداً ،

(١) صر : صوت — (٢) غق الصقر : صوت .

۲۷ — کم آبر







وذلك لما يجب عليهم من رفع الماء إليها في هذا البلد الذي لا يُنزل الله عليه من السماء ماء ولا يُصعد الماء فيه إلى الأعلى ، ولا ترى جُثًا<sup>(١)</sup> تزيد على ثلاثة أمتار أو أربعة أمتار ارتفاعاً ، وهي تُهدّد الحياة اليومية والنجاة اليومى مع ذلك ، ولا يستطيع سداً أن يقهرها ، ويبدأ الرّق بالساقية ، ويدلنا البردى منذ أقدم الأزمنة على كثرة من حاولوا النجاة من هذا العذاب .

ولا يُستعمل الدولا ب في كل مكان ، فترى في المحل الواحد رجلين عارين واقفين في الوحل يستخرجان الماء بوعاء من ليف ويقذفان به إلى ما فوقهما ، وهما ينتفعان في بعض الأحيان بخشبة طويلة متحركة يُربط الوعاء أو الدلو بها فيُصب الماء منه فوقهما ، وهما يتخذان ميزان الثقل من طين النيل المُجفف ، وهذه هي الميزنة<sup>(٢)</sup> ، فإذا ما نُصبت ثلاث منازل فوق بعضها بعضاً أمكن رفع الماء من النيل إلى المحل المرتفع ثلاثة أمتار في دقائق قليلة ، وتظل الساقية ، أو الناعورة ، مع الجواميس الدوّارة ومع الصبي المُحرّك لها تحت الجُميزة ، وسيلة الرّى الكلاسيّة في مصر كما في بلاد النوبة ، وهذه هي مجموعة الألحان التي تَرن في جميع مصر .

وبمازج هذا الصريف النَّواح ، في بعض الأحيان ، غِناء الصبي الأغن<sup>(٣)</sup> الذي يُحرّك الجاموسين بقوله : « تعال يا جاموسى ، واملا كيسى » ، وتعلم الصبي ، مع ذلك ، أنه لا يملأ كيسه بدوّرانه عشر ساعات ، بل يملأ كيس سيده ، ويضم هذا الأخير لحنه الشخصى إلى لحن الساقية ، ويقرع الدولا بإنالا من صقيح في كل دورة ، فبذلك تعلم العلم ، وهو في بيته ، عدم انقطاع الدولا ب عن الدوران .

(١) الجثا : جمع الجثوة ، وهي كومة التراب — (٢) المترفة : ما يستخرج به الماء ، وهي ما يعرف في مصر بالشادوف — (٣) الأغن : ذو الفنة ، وهي صوت من الهباء والأق .

وهكذا تمتزج في ألوف الأمكنة ثلاثة ألحان ، وهي : نشيدُ الأمل الأزلِّي الذي يُنغمُّ به العبدُ المُتَبَلِّدُ السائرُ وراءَ جاموسيه أو الجالسُ القَرَفُصاءُ على المَجَرِّ ، وقرعُ الصَفِيحِ الضامِنِ للمعلمِ عملِ الإنسانِ والحيوانِ ، وصَرِيْفُ خَشَبِ الجَمِينِ القديمِ الذي كان قد أنبتَه دُولابُ خَشَبِيٍّ على ضِفَةِ النبلِ لِيُحوِّلَه بعدئذٍ إلى دُولابِ يُسْتَخْرَجُ به الماءُ لاسْقَاءِ أشجارٍ جديدةٍ وحَفْدِ محاصيلٍ جديدةٍ .

## ٦

نَعْلَمُ أن جميع النباتات التي يَهَبُ الماءُ لها الحياة كانت موجودة في عهد الفراعنة ، وذلك لأن مصرَ هي بلدُ الدنيا الوحيدُ الذي تَعْرِفُ نباتَه منذ ستة آلاف سنة ، ولا تَرى في العالمِ مكاناً رَينَتَ التقاليدُ فيه القبورَ كما رَينَتَ هنا ، ولا ترى في العالمِ مكاناً حَفِظَ الجَنَافُ فيه ذلك كما حَفِظَ هنا ، وفي القبورِ وَجِدْتَ مثناً نوعِ النباتِ ، ولا سيما عند بَسْطِ عَصَائِبِ الموميا ، وتُبْصِرُ على رؤوس الأجسامِ المَحْنَطَةِ غاراً أو ضرباً من السُّدْرِ<sup>(١)</sup> ، وتُبْصِرُ في أيديها غصناً من الآسِ<sup>(٢)</sup> أو الأثل<sup>(٣)</sup> ، وتُبْصِرُ حول أجيادها قلائدَ من النَّعْنَعِ أو الياسمينِ ، وكان يُنَثَرُ الصَّبِيْثُرَانِ<sup>(٤)</sup> والوردُ والفاغِيَّةُ<sup>(٥)</sup> والبرُّ والنَّصَفُ<sup>(٦)</sup> على فراشِ الموتِ ، وكان التِّلْجَجُ يستعمل للصَّبغِ ، وكانت الحِنَاءُ تَسْتَعْمَلُ للضَّجَعِ<sup>(٧)</sup> المرغى المعدُّ لَشُقْرَةِ الشَّعْرِ .

(١) السدر : شجر النبق — (٢) الآس : شجر يعرف بالريحان — (٣) الأثل : شجر يشبه الطرفاء إلا أنه أعظم منها — (٤) الميثران : نبات طيب الرائحة — (٥) الفاغية : غصن الحناء يفرس مقلوباً فيخرج زهراً أبيض من الحناء — (٦) النصف : الصخر البري — (٧) الضجع : غاسول للثياب .

وإلى ذلك أضف ما يُترك للأموات من أقوات وما على القبور من صور ،  
وأضف النقوش البازرة كذلك الشور بالكركك حيث عُرضت الحيوانات  
والنباتات عرضاً رائعاً ، وحيث يظهر السدر ذو الأكام والبردى مع زهره ذى  
الأسنان التسع ، وبين ذلك ترى ارتياد المدهاد<sup>(١)</sup> والسلوى<sup>(٢)</sup> ، ويقعدو  
الطيوطى تحت شقائق النعمان ، ويبدو الإيسى المقدس بجانب الزنبق ،  
ويتهر نور الشمس جميع أولئك ، وذلك لأن المتقن غطس أولئك فى معبد ذى  
ظلام دامس فوجب مرور ٣٥٠٠ سنة لتخرجها يد عالم أئمر بصير إلى النور  
الذى كانت قد جاءت منه كهاذجا الحية .

والبردى هو أكرم تلك النباتات ، وكان عيد الفراعنة يقلّمونه حرماً ،  
وينزعون ورقه ، ويصنعون منه جبالاً ونملاً ويحتمون سوقه ويصلون منها أطواقاً  
ويصنعون عليها سقفاً فى القالب ، وكانت تؤكل جنوره ، وكما أن الإنسان الحسن  
التكوين يمكنه أن يعمل ويفكر معاً كان يمكن البردى ، بعد أن يكسو الإنسان  
وينقله ويضعه ، أن يحتفظ بخواص تقضى بالمعجب ، فبعد أن كانت سوقه تُقطع  
عصائب دقيقة متداخلة كانت هذه العصائب تطرق وتذبذب وتلف منتظرة  
تجهيزها بالمعارف لتسلم إلى أمواج الزمان كالزوارق التى تسير مع النيل مشحونة  
بالمسافرين ، وماذا كنا نعرف عن مصر وعن القرون القديمة لولا هذا النبات ؟  
وكانت تُصدّر لغائف البردى من القرن الحادى عشر قبل الميلاد إلى سورية ثم  
إلى أثينة فألى رومة ، وكانت الأساطير والتاريخ والفلسفة والقوانين التى تُسجل فيها  
تحمل أبناء الأم البعيدة من خلال العالم فتعود ثانية إلى مصر .

(١) المدهاد : جمع المدهد ، وهو طائر معروف — (٢) السلوى : طائر يعرف بالسباني .

والآن ، فى واحة مصر الضيقة هذه ، ترى مكانًا للعروج والغابِ أضيّقَ بما فى الماضى ، والمدُنُ وحدها هى التى تنتحل حقَّ غرسِ الشجر ، وبما تشاهد فى الريف أحيانًا جُمُيزَةً منفردة أو طرفًا ذاتُ حَفِيفٍ خَفِيفٍ ، أو قليلٌ من أشجار الثُوتِ ذواتِ الورقِ الواسع ، أو قليلٌ من أشجار السَّنَطِ المتجففة بعضَ الشيء ، أى تشاهد من الشجر ما لا يحتاج إلى غير ماء قليل ، والنَّخْلُ وحدها هى من الفائدة ما تستحقُّ معه أن تُستَقَى ، ويُنتَفَعِ بخُوصِ النَّخْلِ وخشبها فى بناء المنازل وفى صنع الأثاث والحُضْرُ كما فى النيل الأعلى ، وتُعين ثمارُها الصُّفْرُ والحُمْرُ والشَّمْرُ على تَغْذِية الشعب ، ويتمُّ نَضِيجُها فى البيوت وقت الشتاء ، كالتفاح والكمثرى فى أوربة ، وينتشر شجرُ الدَّومِ من السودان حتى أسبوط ، ويؤكلُ من فاكهته وتُشْرَبُ حتى عصارةُ ثَمَرِهِ .

وَتُعَدُّ مصرُ شديدةَ الرياحِ تجاهَ شجرِ المَوْزِ ، وفى الصيفِ يأكلُ الفلاح المصرى الصُّبَّارَ مع أزهاره الصُّفْرَ الجميلة أو من دونها ، ويأكلُ الجَمَلُ من الصُّبَّارِ ما هو على أطرافِ الحقولِ ما دامت ثمارُ هذا الشجرِ النابتِ بلاماء تَصْلُحُ لحيوان الصحراء ذلك ، وهل بينهما صهارةٌ مصدرُها الجِرْمان والقرُّ وتشابهُ الطالع ، أى الأمورُ التى تُولَّدُ للحقد لدى الإنسان فى الغالب ؟

ويُزْهِرُ السَّدْرُ الأزرق فى قنوات النيل ، كما فى الزمن الذى كانت تُرَبِّى به النَوَاقِ ، وَيَنْبُتُ السَّدْرُ الهندى الأبيض ، الذى تَتَفَتَّحُ أكامُهُ فوق الورق الأخضر ، فى الأحواض المنعزلة بين الأفاض ، وقد توارى السَّدْرُ المقدس عن مصر .

وتَحْوَلُ عالمُ الحيوان أكثرَ من تحوُّلِ عالمِ النبات والإنسان ، وبَدَتْ هذه الأرض الضيقة ، التى لا مكان فيها للغاب ولا الصيد ، وديمةً هادئةً كالنهر وقبل

النهر ، وكانت الطيور وأنواع الحيوان تكثر في المنابع في أزمنة ما قبل التاريخ ، حين كان مجرى النيل يترشح من البحر في كل صيف ، وكانت تلك الحيوانات تنعش النهر في عهد القراعنة الذين تزيّن القنائص وألواح الصيد قبورهم ، وتجميل النهر خطراً كالقسم الجنوبي من بلاد النوبة في الوقت الحاضر ، ولكن الأسد عاد لا يشرب من النيل المصري أبداً ، وصار بقر الماء لا يتقلب هناك أبداً ، وأصبح التمساح لا يتمطى هناك أبداً ، ومن الطرافة أن يجاوز تمساح أسوان ، وبما وقع في سنة ١٨٢١ أن أضى آخر بقر ماء في أسوان فحدث من الهلع كما لو كان الأمر قد جرى على ضفاف نهر الرين أو نهر التايمس .

ولم يحدث في مكان من الدنيا أن قدس للحيوان كما قدس له في مصر ، ويرى لنا هيرودوتس أن القوم هناك يمدّون جميع الحيوانات مقدسة ، وهيرودوتس ، حين يخزّر<sup>(١)</sup> ، يذكر أنه لا يبين أسباب ذلك ، وتدلّ مئات الصور التي لا ريب في أصلها الشعبي على مزاج الفلاح الفرعوني وحب هذا الفلاح للحيوان ، وإليك ذنباً ، في أحد النقوش البارزة ، يلعب غزالاً لقبّة الداما ، وإليك تمراً ، في نقش بارز آخر ، يمر وهو يحرس غزالاً وإوزاً حامللاً صغارها بين ذراعيه ، ويقاوم الضبع إوزة ألفت نفسها في فمه ، ويعود الأسد والتعلب بقر ماء مريض ، ويؤلف القرد والمار والأسد والتمساح فرقة موسيقية ، وتمسك فارة صغيرة زهرة وتجلس على كرسي وتبدو أمتها وراءها منتظرة هدايا هرة ، وتبصر أسد سنوراً يركب من غير أن تبدي حراكاً ، ويرتفع طير نحو بقر ماء قاعد على شجرة ، فهل لنا بهذه المناظر

(١) خزر : نظر بمؤخر عينه وتدهى .

أن تتمثل شعباً جسماً حقوداً في بلد لا يحب الحيوان فيه ؟

وكان لكل حيوان حارسه الخاص ، وكان الرجل التقي يخلق رأس ابنه ويبيع شعره ويسلم الثمن إلى الحارس حتى يطعم حيوانه للقدس ، وإذا مات هرة خلقت الأسرة حواجيبها ، وإذا مات كلب خلقت الأشرة جميع بدنها ، وأقيم لكل منهما قبر ، وكان للأييس مقابر خاصة ، ووُجدت تماثيل وأفاعي مُحَنطة ، ويلوح أن الحية التي حوّلها الله إلى عصا أمام موسى كانت من نوع الصل<sup>(١)</sup> ، وتظهر مُزينة تاجاً لفرعون .

وكانت مصر الجافة مُعدة لتكون جنة الأفاعي والخفافيش والمقارب والبعوض ، وتقعد الحراري فوق الشجر مع ألسنها الطويلة وهيئاتها المائلة التي تذكّرنا بمحترفي السياسة للتطرفين ، ويمتد الضب الجبار الأسمر على الأرض تحتها ، ويخرج أعضواناً هزلية ويهز رأسه كابن الطبقة الوسطى الذي يكتم خوفه من أناس يتوعدونه ، وفي زمن الفيضان تُطرّد هذه الجملان<sup>(٢)</sup> والضبان من أجحارها ، ويحاول الفلاح الذي تغزو بيته أن يُبيدها على غير جدوى ، وتأتي الكارثة بنتاً في بعض الأحيان ، وهي ثالثة بلالاً مصر ، وذلك أن أرجال<sup>(٣)</sup> الجراد تمجّب السماء وتُهلك كل شيء وتزيد كثيراً على الرغم من القار<sup>(٤)</sup> والبتول اللذين يسمي الفلاح بهما أن يقضي على قصصهما<sup>(٥)</sup> ، وتمنح الحكومة جوائز على ذلك . وكان بليبي قد أوصى بتوزيع مثل هذه الجوائز منذ ثمانية عشر قرناً .

وحافظ النيل على أسماكه ، ومنها القيصانة<sup>(٦)</sup> الغريبة التي تُصاد اليوم بالشبكة

(١) Cobra — (٢) الجملان : جمع الجمل وهو ضرب من الخنافس — (٣) أرجال :

جمع رجل ، وهي القطعة العظيمة من الجراد — (٤) القار : الزفت — (٥) القصم : ييض الجراد .

(٦) القيصانة : سمكة كبيرة روحية الجسم قطباء الأف .

والتي هي منحدرَةٌ مما كان العبيد يُنظِّفُونَهُ وَيَجْفِّفُونَهُ عَلَى زُرُقِ الْمَلِكِ مِثْرًا عَلَى حِينِ  
كَانَ هَذَا الْمَلِكُ يَمِيلُ إِلَى الْخَلْفِ وَيَشْرَبُ وَيَتَمَتَّعُ بِالْحَيَاةِ وَإِنْ جَلَسَ فِي قَارِبِهِ الْمَائِيَّةُ  
لِلصُّورِ عَلَى قَبْرِهِ ، وَتَنْفَخُ هَذِهِ الْقَيْصَانَةُ كَالْمُنْطَادِ وَتَعُودُ عَلَى ظَهْرِهَا مُعْطَاةً بِالْأَشْوَاكِ  
وَتَعُومُ عَلَى النَّيْلِ نَاشِرَةً ذِعْرًا حَوْلَهَا ، وَهِيَ لَا تَنْفَخُ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ إِلَّا لِأَنَّهَا مُجَهَّزَةٌ  
بِجِهَازٍ غُضْرُوفِيٍّ لَوَلِيٍّ وَصِيَامٍ خَفِيِّ كَالطَّفَاةِ ، وَهِيَ لَا صَوْتَ لَهَا إِلَّا إِذَا زَالَ  
اتِّفَاقُهَا ، فَيَجْتَذِبُ هَذَا الْمَنْظَرُ النَّاسَ إِلَى الشَّاطِئِ .

وَالرَّعَادُ سَمَكٌ غَرِيبٌ آخَرٌ ، وَلِلرَّعَادِ طَوْلُ الْحَيَةِ وَأَوْضَاعُهَا ، وَهِيَ فِي قِيَّتِهِ (١)  
مِنْ الْخُرُوقِ الْمِثَابَةِ لِقَتَحَاتٍ قِيحٍ الْخُوتِ مَا يُقَلِّقِي بِهِ الْمَاءَ ، وَهِيَ مِثَابَاتُ ذَوَاتِ  
الْقَوَائِمِ الْأَرْبَعِ ، وَالرَّعَادُ هُوَ السَّمَكُ الْكَهْرَبِيُّ الَّذِي يَرَى الْعَرَبُ أَنَّ الْإِنْسَانَ  
إِذَا مَسَّهُ ارْتَعَشَ وَتَشَنَّجَ وَأَنَّ نَفْسَهُ يَكْفِي لِكَهْرَبَةِ السَّبَّاحِ .

وَإِذَا كَانَتْ مِيَاهُ النَّيْلِ مُنْخَفِضَةً وَقَعَتْ الْجَوَامِيسُ عَلَيْهَا كَالْبَقَرَاتِ السَّعِجِ السَّانِ  
وَالْبَقَرَاتِ السَّعِجِ الْجَوَامِيسُ (٢) الَّتِي رَأَاهَا فِرْعَوْنُ فِي مَنَامِهِ ، وَلَكِنْ يَجِبُ أَنْ يُقَيَّدَ  
الذِّكْرُ مِنْهَا خَشْيَةً فِرَارِهَا بَيْنَ الْمَاءِ ، وَيَبْذُؤُ السَّلُوقِيَّ فِي الْبَارِزِ مِنْ نَقُوشِ الْقُبُورِ  
وَفِي الْقَدِيمِ مِنَ الْأَقَاصِيصِ ، وَالسَّلُوقِيَّ جَمِيلٌ مَعَ قَذَارَتِهِ وَتَوَحُّشِهِ ، وَالسَّلُوقِيَّ يَطَارِدُ  
ابْنُ آوَى عَلَى حُدُودِ الصَّحْرَاءِ ، أَجَلٌ ، تَعَبَتْ الْمَوَاعِزُ الشُّقْرُ الْخَطْلُ (٣) وَصِفَارُ  
الْخَنَازِيرِ عَلَى طَوْلِ الضَّفَافِ ، غَيْرَ أَنَّ السَّنُورَ هُوَ الْحَيَوَانُ الْمَفْضَلُ فِي الْوَقْتِ الْحَاضِرِ  
كَأَيِّ الْمَاضِي ، وَأَوَّلُ تَأْنِيْسٍ لِلْسَّنُورِ حَدَّثَ هُنَا ، وَالسَّنُورُ هُنَا تَرَى مَقْبَرَةَ قَرْيَةٍ  
مِنْ الْمَسْجِدِ كَمَا كَانَ لَهُ بِالْقَرْبِ مِنَ الْمَعْبَدِ فِيمَا مَضَى ، وَيُشَاهِدُ الْمَصْرِيُّ الْقُرْنِيَّ السَّنُورَ

(١) التَّفْعُ : الْعَظْمُ الَّذِي فَوْقَ الدِّمَاغِ — (٢) الْجَوَامِيسُ : الْمَازِيلُ الْبَالِغَاتُ فِي هَزَانِ التَّهَابَةِ ،  
مُفْرَدُهَا عَجْفَاءُ — (٣) الْخَطْلُ : جَمْعُ الْأَخْطَلِ ، وَهُوَ الطَّوِيلُ الْأَذْنَيْنِ الْمُسْتَرْخِيَيْنِ .



ومحافظته ، ولكن واحة القرنسى<sup>(١)</sup> أوسع مدى

وترى حيواناً قصيراً أجوجاً<sup>(٢)</sup> يُكْرَدَح<sup>(٣)</sup> على السدّ المستوى الطويل بما هو  
أسلس وأظرف<sup>(٤)</sup> من حَبَب<sup>(٥)</sup> الخليل وأسرع من ذَمِيل<sup>(٦)</sup> الجَمَل الذى لا يُحِبُّ السير  
على الطُرُق المُعَبَّدة ، والحمار هو الحيوانُ السَّرِجُ الإفریقی الأصل ، وآسية هى  
مصدر لخليل والجمال ، وقد تأخر وصولهما إلى إفريقية ، وقد عدا الحمار من جنوب  
هذه القارة إلى الشمال فندا مَطيَّةَ المصريين الحقيق<sup>(٧)</sup> ، ومن لم يَرَكَب الحمار المصرى  
لا يَعْرِف ما هو الحمار ، وحمار الشمال حُرُونٌ بليدٌ كسولٌ يُعَدُّ اسمه وحده سُبَّةً ،  
وحمار مصر نارىٌّ نشيطٌ جميل ، والحق أن الحمار فى إسبانية واليونان يُحِبُّ ،  
والحق أنك إذا عَدَوْتَ حِميرَ الحجاز لم تَحِدْ حماراً يشابه حمار مصر ، وسببُ هذا  
ما يتفق له هنا من بُعْدٍ فى صِغَرِهِ ومن عِلْفٍ يَجْمَع<sup>(٨)</sup> وحسنِ معاملة ، وترجع  
ملاحظته إلى ظَرْفِ صاحبه ، وهو إذا كَبُرَ لم يُمَيِّز من البغل بغير أذنيه ضخامة ،  
وهو أغلَى ثَمناً من حصان متوسط ، وهو يظل تحت الشمس ناظراً بموخر عينيه نظراً  
خفيفاً ، وهو يظهر قوياً رشيقاتاً مرناً أملس تحت شفره الرمادى فحقرت له يده  
ماهرة رسوماً رائعة ، وهو يبدو زاهياً بسرجه الجميل مستعداً ليمتاز من سواه ، وهو  
يُحْمِل على ظهره ضرباً من المالقة ، وهو يُسْرِع فى القَيْظ على طول السدّ مع عَرَقٍ  
أقلّ من عَرَقِ راحته .

وحمار الفلاح أرخص ثمناً من غير أن يكون أقلّ صلاحاً بدرجات ، وحمار الفلاح  
مُحْدَفُ ظُنُونٍ قليلُ العِناد ، والحمار خيرُ الأُمات ، وقد رُبِّيت الحمارة وهى تُلقَى

(١) الأجوج : المثلث — (٢) كَرَدَح : عدا عدو القصر كأنه يتدحرج — (٣) خب

الفرس خبيثاً : راوح بين يديه ورجليه ، أى قام على إحداها مرة وعلى الأخرى مرة — (٤) الذميل :  
السير اللين للبعير — (٥) نجح : نافع للبدن .

نفسها في اضطبلٍ محترقٍ إنقاذاً لولدها ، والحمارُ يهتدى إلى طريقه الذى سلكه مرتين أو ثلاث مراتٍ ، وهو يأبى أن يتقدم ، أو هو يشبُّ<sup>(١)</sup> ، إذا ما لاح له أن راكبه ضلَّ سبيله ، وما هو القوتُ الذى يطلبه ؟ لا شيءٌ في النهار ، ويكتفى في الليل بالبرسيم وبكلِّ ما يَرْفِضُه الحصان والبقر ، وبالحَسَك<sup>(٢)</sup> والشوك أيضاً ، ويمدِّلُ الجملَ من هذه الناحية تقريباً ، وللماء الصالح هو الذى يَوَدُّه دوماً .  
ومن ثمَّ يُرى كيف يعيش نحوَ خمسين سنةً ، أى إلى أن يضطجع ليوت .

## ٧

يَنْفَتَحُ شِرَاعُ أَيْبُضٍ انفتاحاً خفيفاً على ساريةٍ تنحى أمام خُضْرَةِ الواحة ، وينفصل في الأفقَ حَطُّ جبال الصحراء غيرُ المنتظم أصفرَ على أزرق ، ولا يَبْدُو لهذه الألوان الثلاثة في مكانٍ من العنق والصفاء أعظمَ مما هو هنا حيث تراها مدينةٌ للنور الباهر الخالى من أى غيم وللرمل البرى من كلِّ عيب والحقول الرطبية على السوام والمكسوة بالنبات ، والأحمر وحده هو المفقودُ هنا ، وذلك منذ أن ترك العلم التركي مكانه العلم المصرى الذى اختير له لونُ الأرض الأخضرُ فعاد لونُ الدم لا يكدر نضارة انسجام الألوان المصرية الأربعة ولا رَوْعَتَهَا ، وللأبيض نفسه تأثيرُ اللون بألوف الأشريعة على النهر والبيوت على الضفاف وبمباينته الدامعة للألوان الثلاثة الأساسية ، وفي المساء يَحْسِرُ الأبيض منزلته ، وفي أسوان يصيرُ النهرُ أزرقَ نيلجياً ، ويصيرُ لون النخيل والسَّنَط أخضرَ رمادياً ، ويصير لون

(١) شبا : وقف على رجله — (٢) الحسك : نبات شائك .

## الذهبية

الجمال القريبة أحمرَ برتقالياً مع ظلالٍ زرقٍ ، ويصير لونُ الصحراء وردياً ،  
ويصير لونُ الجبال البعيدة بنفسجياً ، ويلجأ جميعُ الزوارق إلى الخلجان الصغيرة ،  
ويَبْدُو النيلُ في الليل بلا أنوار ، وإذا ما غابت الشمس أبصرت ستاراً من  
السحاب يفامر ماراً كالسهم من الغرب إلى الشرق ، ويظهر جزء السماء الشألي  
في الأفق بنفسجياً ، وينمسه بعض السحب الوردية ذات لحظة ، ثم يتحول  
إلى أخضر جلي حتى يتجمع عند السمّت آخر نور النهار وردياً ذهبياً ماراً بسرعة ،  
ويدخل القمر الشاحب منطقة العالم الذهبي كرسولٍ يُنذِر بالرحيل ، وتلوح  
جبالُ الصحراء شهباء ويعود النيل رمادياً مفكراً في مشيه .

وفي صباح الغد ، وعلى نورٍ يجمى من الجهة الأخرى ، ينتفع الشراع الأبيض  
من جديد على طول السازية المنحنية البادية أطول من أية شجرة بمصر والمنصوعة  
من ساقى شجرتين ، أو أكبر ، موصولة إحداهما بالأخرى ، والمستندقة الطرف  
كالسوط ، ويمثل هذا الشراع أحد الخططين اللذين يتجلى بهما جمال الذهبية ،  
وأما الآخر فهو خط صدر المركب المستدير الذي ينتصب عليه رجلٌ مستندة  
ذراعاً على الشكان<sup>(١)</sup> متموجٌ قيصه بالريح ، وهكذا يجرى المركبُ الشراعى  
حاملًا حجارة كاسية ثقيلة وأكياس سكر وبرٍ أو أقراص دجاج ، وعلى ظهر  
المركب تجلس أسرة القرفصاء وتاكل وتدخن ، وعلى ظهر المركب تنقر هذه  
الطيور حباً في أثناء الرحلة ، ويفتدى الإنسان والحيوان بما يُنتج النيل ، والحمار  
الأغبُر وحده هو الذى لا يستطيع أن يأكل من العلف الذى يحمله ، ولكنه  
يسمه ويكدف<sup>(٢)</sup> .

(١) السكان : دفة السفينة — (٢) أكدف البابة : سمع لحواقرها صوت .

وكان لجدُّ هذا الفلاح فى القرون القديمة مثلُ الوضعِ الحاضر عند ما كان ينزل مع النهر ، وكان شِراعُه ، وهو على مُقدِّمِ المركب ، يَحْتَنِبُ الكُثْبَانَ كما هى الحال الراهنة ، حتى إن الزوارقَ الخفيفةَ التى تجرى فى النيل هنا وهناك كانت موجودةً فى ذلك الحين مع سُرْعَةٍ عَظِيمَةٍ لأنها مصنوعةٌ من البرديِّ ، ولو حَدَثَ فى ذلك الزمن ، مع ذلك ، أن جاء فرعونٌ ساحرٌ بزورقٍ بخارىٍ لقتله على ما يحتمل ، ولا عَجَبٌ ، فقد حارَ كلَّ الخيرة من الفكرة القائلة بإمكان جَرِّ الأنهار إلى جهةٍ غير الشمال ، ومما وَقَعَ أن أوغَلَ ثُوْتُمُوزِيسُ الأوَّلُ فى آسية ، فدَعَرَ من الاتجاه نحو منبع نهر القرات فى الشمال فدَعَا الخليجَ الفارسىَّ لذلك بـ « بحر النهر الذى يجرى على العكس » .

وفى مصرَ بأسْرِها تَدُلُّ عَشْرَاتُ السَّوَارِي فى كلِّ مَرَّتَيَّ على مكان أبى البلد ، على مكان منبع الحياة : النيل ، ومنَ يسافر نهراً بين ذلك الوادى الأخضر ويرى الصحراءَ المتوَعَّدة من جميع الجهات يَدْعُو نفسه سعيداً بين الجِياع ، أَجَلٌ ، هنالك أجوافٌ مخفورةٌ فى التلال الغريبة مشتملةٌ على قبور القراعنة ، غير أن ملايين الفلاحين صاروا فى الصحراء أَعْفَاءاً ، وذلك لأن الأحياء ما كانوا لِيَقْتَدُوا على ضِفافِ النهر لو لم يَدَحَرُوا الأموات إلى الرمال .

ويَصْدِمُ الزورقُ الكُثْبَانَ فى الغالب ، وذلك لعدم وجود مُصَوِّرٍ لَصَحاحِصَ تغير فى كلِّ فيضان ، واليوم ، أيضاً ، لا يكون النيلُ صالحاً لِلإِلاحة ما لم يُنظَّمْ مجراه بنفسه ، وهو يَحْفَرُ مجراه ضمنَ الحدِّ الذى يَحْمِلُهُ عليه مُعدَّلُ فيضانه المتَّحَوِّل ، ويتوقف اتساعُ جُزُرِهِ على شدة الفيضان وعلى انعطاف جُزَيَّاتِ القَرِيْنِ التى يَحْطُها فى كلِّ مكان .

وفي أسوان يفادر إلى الأبد ذلك الغرائب الذي أعطى الفراعنة مسلاتهم والذي أعطى الإنكليز حجارة سدِّهم المنحوتة (لصموية جلبيه من شواطئ البحر الأحمر) ، وما انفكَّ الماء وصخرُ الشلال الأول يكونان خطًّا دفاعاً تجاه الجنوب ، وبعد الجبْرَى بين الصخور من وادي حلفا ، وبعد مأساة النخيل العارقة ، وفيما يفرُّ الناسُ نحو المرتفعات والمعابد المغمورة ومع الجبْرِى التحتانيُّ المباشر لاختلاط الدوافع والمساقط الهائلة الناشئة عن كَوْبَى خَزَّانِ أسوان يَتَفَتَّحُ وادي النيل عميقاً ضيقاً ، ولكن مع خُضْرَةٍ وبيوتٍ بيضٍ كثيرة يسكنها برابرة ، وتعدُّ أسوانُ ، الحصنُ والسوقُ معاً ، حدَّ مصرَ الحقيقيَّ منذ عهد الفراعنة ، وتتحطَّمُ القائدُ والحضارةُ على ذلك الشلال المنيع الذي لم يدْرِ الفاتحون من الشمال والجنوب حَوْلَهُ إلا نادراً . وإليك جزيرة صغيرة ملائمة للأحلام ، حيث تزهرُ حديقةٌ مفقودةٌ تحت ظِلِّ دَوْحِ الأثل والنخل مع أن على هذا التراب الخصب أن يُنْبِتَ البُرَّ والخُضَرَ ، وهذا من حَمَلِ قَائِدٍ ، لا من حَمَلِ شاعر ، وهذا من صُنْعِ اللورد كِشنر الذي تَنَبَّأ ، بعد طَوَّافِهِ في الصحراء وانتصاراته ، أن يسير مع ذوقه الروائيُّ ، والذي قَطَعَ لُغْمُ ألمانيٍّ نشيده الختامى ، وكان أسلافه في عهد الفراعنة قد مرُّوا بالقرب من هنالك ، مرُّوا من يِلَاق حين غَرَّوهم بلادُ النوبة ، وكانت الجزيرة تُسَمَّى آنْثِيْبِ أُوِيْبُو ، أى جزيرة القِيْلَةِ ، وذلك لِما كان من يَنْبِعِ النوبيين عاجاً فيها ، أولِماً كان من نزول ذلك الحيوان العظيم إليها ذاتَ مرةٍ على ما يحتمل ، وكانت مياهُ النيل من الانخفاض في تلك الأيام ما استطاع معه القيل أن يجاوزَها ، ولا رَيْبَ في أن الإله خنوم أعانهُ على ذلك ، والإلهُ خنوم هو الذي كان يَسْكُنُ يِلَاقَ فصَنَعَ الإنسان بدْولَابٍ من فخَّار .

وفي ذلك المكان ، حيث يتسع وادى النيل من جديد ، يدنو أبناء الصحراء من النهر للمرة الأخيرة ، وهم كانوا يأتون إلى هنالك حاملين اسم البليبي ، وهم ، ككثير من الشعوب القائمة على الحدود ، كانوا ، دوماً ، جزءاً من الحزب الأقوى فيدافعون عن آلهة طيبة تجاه آلهة رومة ويدافعون عن إيزيس تجاه يسوع ويبحثون عن يهوه الخفي الذي كان يعبدُه هنا مستعمرون من اليهود ، ومن المحتمل أن حادثهم جوفينال<sup>(١)</sup> ، وذلك لأن أول التيارات<sup>(٢)</sup> كان يُبعد من يقولون الحقيقة .

وهم يخرجون من خيامهم مساءً كما في زمن هيرودوتس ، وهم يدعون بالبشاريين في الوقت الحاضر ، ولكن نفورهم من الفلاح لا يزال ثابتاً لا يتبدل ، وما كان البدويون والقلاحون ليتفاهوا أبداً ، وما كان تماس الفريقين ليتبدؤا أجدى من تماس رمزيهما ، الرمل والماء ، أى الصحراء والنيل ، ويعيش الفلاح في أكثر أقاليم الدنيا تعادلاً ، وتَهَيَّطُ درجة الحرارة في الصحراء إلى الصفر ليلاً ، ويكون البدوي كاللآلئ المحترق عارياً أو مُدْتَرِئاً بِعَبَاة .

وكيف يدرك هؤلاء الرُّحْلُ من الأزل ، والذين تَعَوَّدوا الحياة في السَّوَادِ الواسعة مع بُعْدِ بعضهم من بعض ، وجودَ زُمَرٍ من الآدميين لا يفادرون حقولهم الصغيرة أبداً ؟ وهؤلاء الرُّحْلُ دائمو الحركة كالنجوم التي يؤمنون بها ، وهم يجوبون الصحراء ، وهم ذوو احتياجات محدودة ، وهم بلداء فائقون بُلُح<sup>(٣)</sup> صامتون ، وذلك فيما عدا قِطْعِ بعض الأعياد لسكوته عن خِيَلَاء ، وماذا يتعلمون من الفلاح ذى الجِلْبَابِ الطويل الذى يَزُرِي بِعُرْيِهِمْ ؟ وماذا يتعلمون من الفلاح الذى يقضى

(١) جوفينال : شاعر لاتيني (٤٢ - ١٢٥) — (٢) التيار : جمع نيران ، وهو اسم للامبراطور الروماني الذي اشتهر بمظله وجبروته ، وقد دام عهده من سنة ٥٤ إلى سنة ٦٨ .  
(٣) البلح : جمع الأبلح ، وهو المتكبد .

نهاره في سقي قطعة الأرض المُنعمَة بالعيش والذي يُحرّم بذلك أطيب نعيم الله :  
 أى الحرية والكسل ؟ ويزدري جوابُ الآفاق النيل ، دوماً ، ابن الطبقة  
 الوسطى المرتبط في بيته ولا يحسده ولو كان غنياً ، وإنما ينهبه ، وفي أسوان ،  
 عند ما يبيع البدوي جله ويشترى منه خُصراً ويضاً ، يكون كلٌّ من الرجلين  
 غريباً عن الآخر مع أنها يتكلمان لغةً واحدةً ويتفاهمان أحسن من تفاهم اثنين من  
 الأوربيين ، وتُفصلُ بينهما روحُ النيل ، وتعارضُ ضفافه المُختصرة والنزاعُ في  
 سبيل الفرين بمقاتلة الضواري في الصحراء والغاب ، ويُمدُّ البدوي أسعد من الفلاح  
 على قعره ومخاطره اليومية وزُهدَه ، وهما إذا ما تقابلا على ذلك الوجه وبدّوا بأعين  
 وسانوا كسباً لبضعة دوانق وكانا أكثر احتياجاً من سوانهما ظهر أحدهما سيداً  
 وظاهر الآخر عبداً ، وهذه هي سنن الحرية والارتباط في الأرض .

وفيم يفكر البدوي الفخور حيناً يتعتمّر منسِمُ جله بقطعة صخرٍ طويلة غير  
 مُشدّبة في الحاجر المجاورة لأسوان ولم يسطع مجاوزتها ، أى عند ما يصدم فِدرة<sup>(١)</sup>  
 جُلُودٍ صفراء ذات بُقعٍ حمرٍ كأنها أثرُ فني ، وقد ظلّ هذا الحجر في المكان الذي  
 استخرجه منه مئاتُ العبيد منذ أربعة آلاف سنة ، ولا تزال الآثار التي ترَكها  
 نَحّاتوه بالمطارق باديةً ولا يزال الحلُّ الذي كانوا يقلعون فيه الصوّان بالسِّين<sup>(٢)</sup>  
 المبلّل ظاهراً ، ولا بدّ من أن يكون ذلك مُعدداً ليكون مسلةً ، وهذه الكتلة العاطلة  
 من الكتابة ، والتي هيئت لتكون أداةً مجدّ لفرعون ، قد ظلت حيث سقطت من  
 غير أن تنقل آخر أمرٍ بحمله ، وتمثّلُ شبه مسلة أسوان ذلك المصير الذي كان  
 يصيبُ جميع القراعة لو لم يأت فرنسيٌ عبقرى بعد قرونٍ فيفكّ كتابتهم .

(١) الفدرة : القطعة — (٢) السفين : حديدة أو خشبة تُسمل لفتح الحطب وغيره ، والكلمة  
 من الدخيل .

جاء في القرآن : « وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ » ، ولكن الله عارض الماء بالتلال والصحراء لكي تمارس العناصر ، كالناس ، بعض قواها ضد بعض ، ولذا يُضَيِّقُ لليرة الأخيرة مجرى نهره المفضل ويخضعه لآخر تجربة ، والنيل ، بين أسوان وأدفو ، وعلى مئة كيلومتر مستقيم ، يجاوز سداً من حجر رملي كان يُمسِك ماء بيرة كبيرة على ما يحتمل ، والنيل نفسه أقل ضنكاً وضيقاً من واديه ، وتزدحم تلال الصحراويين على ضفافه ، وهي قد بلغت من الاقتراب من الضفة الشرقية ما وجب معه خرق نفق لمرور الخط الحديدي ، وهذا النفق قصير جداً ، وهذا النفق وحيد على جميع الخط ، ولا ريب في جملة المهندسين السويسري الذي أنشأه يرى أنه نُقِلَ إلى لِيلِيُوت<sup>(١)</sup> بقوة السحر .

والنيل بعد أسوان ، وفي أربعين كيلومتراً ، يجري على ذلك الوجه ، والنيل تنتظره مغامرة جديدة هناك ، والنيل قد قهر وعوق سيره ، والنيل قد ضُغِطَ في قصائب<sup>(٢)</sup> تنظيماً للرؤى ، لا نبلاً لقوة أو كهرباً ، ويُخَيَّلُ إلى النيل عند خروجه من الكوى أنه يسترد حرارته ، ولن يَفْقَهُ سداً لطويل زمن ، بيد أن أربعة أنابيب عظيمة وُضِعَتْ في مجراه فتتزع منه بعض قوته ، وبالقرب من هنالك تصعد مدخنة كبيرة سوداء في السماء الزرقاء ، وتُبَصِّرُ بجانبها قاعة دكناء ،

(١) ليليوت : بلد خيالي لا يزيد طول الرجل فيه على ست أصابع — (٢) القصائب : جمع الفصية وهي الأبوبة .



## كوم أمبو

وتُبَصِّرُ بجانب القاعة معبداً ساطعاً ، وتُبَصِّرُ تخيلاً بين الاثنين ، وتُبَصِّرُ سهلاً أخضر  
خلف النخيل على مدى البصر .

ولا ريب في أن النهر القديم يَعْرِفُ أن جميع هذا يَرْجِعُ إلى تاريخ حديث ،  
وكان سهلُ كوم أمبو الواسعُ أَصْفَرَ قبل ابتغائه ماءه ، وهو مَدِينٌ بِاتِّسَاعِهِ  
الْمَقَرَّطِ (١) للواديِّين النافذين إليه من جبال العرب واللذين يأتیان بالصحراء الشرقية  
إلى النهر ، ومما لا مِرَاءَ فِيهِ أَنْ كَانَ مَهْدِسُو القراعة يُنْعِمُونَ النظر فيه مع سُخْطٍ  
عن عَجْزٍ ، وذلك لِأَنَّهُ يَعْلَمُ مستوى الفيضاناتِ خَمْسَةَ عَشَرَ مِترًا ، وذلك لِأَنَّهُ يَبْلُغُ  
من الارتفاع ما لم يستطيعوا معه غَيْرَ سَقْيِ شاطئِ النيل المباشر ، وكانت مدينة أمبوس  
الصغيرةُ قَائِمَةً هُنَاكَ قَبْلِي مِنْهَا بَضْعَةُ أَعْدَةِ بِجَوَارِ المِدْحَةِ .

ولم تَسِمِ تلك المعجزة بفضل خَزَّانِ أُسْوَانِ ، ولكن هذا الْخَزَّانُ دَلَّ مِصرَ مَاذَا  
يُمْكِنُ النيلُ أَنْ يَنْفَعُ بِهِ مِصرَ ، وكان الباشوات يَهْزُونُ أَكْتَافَهُمْ مِنْذُ خَمْسِينَ سَنَةً  
حِينَ اقْتَرَحَ الْفَرَنْسِيُّونَ عَلَيْهِمْ إِنْشَاءَ سَدٍّ لَسَقْيِ ذَلِكَ السَّهْلِ الْوَاسِعِ ، وكانت الصُّبَاعُ  
وَبَنَاتُ آوَى تَعْتَرِكُ هُنَاكَ فِي سَنَةِ ١٩٠٣ .

وتلك لِلنَّظْطَةِ زَاهِرَةٌ فِي الْوَقْتِ الْحَاضِرِ ، وَهِيَ أَوْسَعُ مِنْ بَقِيَةِ مِصرَ الْعَالِيَا ، وَهِيَ  
تَكْتَنِفُ أَرْبَعِينَ قَرْيَةً ، وَيَطُوفُ أَرْبَعُونَ أَلْفَ شَخْصٍ بَيْنَ شَجَرِ الْمَوْزِ وَقَصَبِ  
السَّكَّرِ ، وَبَيْنَ الْبُرِّ وَالْخَضَرِ ، وَفِي وَسْطِ هَذِهِ الصَّحْرَاءِ الْقَدِيمَةِ تَقُومُ مَدِينَةٌ صَغِيرَةٌ  
حَيْثُ يَسْنَى الْخُدَمُ ، وَحَيْثُ يُتَلَفَّنُ (٢) السَّكَّتَبَةُ ، وَحَيْثُ يَزُوهُ مُعَلِّمُ الْمَدْرَسَةِ بَيْنَ  
الطَّلَبَةِ وَمَدِيرِ الْبَنْكِ بَيْنَ زُبْنِهِ ، وَفِي الْمَسْكَانِ الَّتِي كَانَتْ تَعْرِى الذَّنَابَ فِيهِ تُبَصِّرُ  
الْمَوْذَنَ وَاقِفًا عَلَى شُرْفَتِهِ الْمُسْتَدِيرَةِ دَاعِيًا إِلَى اللَّهِ خَمْسَ مَرَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ ، وَالْآنَ

(١) المقرط : الریش - (٢) Téléphoner

يُخَصَّرُ ثَلَاثُونَ أَلْفَ فِدَانٍ كَانَ مِنَ النَّادِرِ أَنْ تَسِيرَ مِنْهَا الْبُحْرَانُ <sup>(١)</sup> فَتَبْدُو نَاضِرَةً فِي الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ صَفَرَاءَ جَدْبَاءَ مِنْذُ وَجُودِ جِبَالِ الْعَرَبِ الْمَجَاوِرَةِ ، فَبِذَلِكَ يَكُونُ حُلْمٌ قَاوِمٌ قَدْ تَحَقَّقَ .

وَتُبَصِّرُ رَجُلَيْنِ حَافِيَيْنِ رَزِينَيْنِ صَامِتَيْنِ أَسْمَرَيْنِ لَا بَسِينَ جِلْبَابَيْنِ يَجُوبَانِ الْقَاعَةَ ذَاتَ الْآلَاتِ الَّتِي لَا تَنْقَطِعُ أُسَاطِينُهَا عَنِ الصُّوْدِ وَالنَّزُولِ ، وَدَوَالِيهَا عَنِ الْقُورَانِ ، وَجِبَالُهَا الْمَصْنُوعَةُ مِنَ الْقِنَبِ عَنِ الصَّرِيرِ ، وَالْمَانُومِرَاتِ <sup>(٢)</sup> عَنِ الْارْتِجَافِ فِي مُحَاسِبِهَا الزَّجَاجِيَّةِ ، وَيُفَتِّحُ بَدَنُهَا ذَلِكَ كُلَّهُ ، وَذَلِكَ إِذْ يَلْمَعُ يُوحِي بِاحْتِرَامِ قَدْسِيَّةٍ ، وَذَلِكَ يَنْفَعُ فِي جَلْبِ مَاءِ النَّيْلِ إِلَى الْأَنْبُوبِ الْقَدِيمِ النَّاضِحِ <sup>(٣)</sup> فَوْقَ الْقَاعَةِ ، وَقَدْ أَدَّى هَذَا الْمَاءُ إِلَى جَعْلِ السَّهْلِ الصَّحْرَاوِيِّ خَصِييًّا ، وَقَدْ جَلَّبَ إِلَى هَذَا السَّهْلِ حَتَّى الْفِرْيَقَيْنِ ، وَيَكُونُ النَّيْلُ وَقْتُ الْفَيْضَانِ عَلَى مَسْتَوًى تِسْعَةِ أَمْتَارَ ، وَتَصِيرُ الْمَصَحَّاتُ غَيْرَ مُفِيدَةٍ ، وَيُسْتَفِرُّ ضَغْطُ الْمَاءِ عَنْ صَعُودِهِ ، وَهَذَا هُوَ فِعْلُ الْآلَاتِ الَّتِي جُلِبَتْ مِنَ جِبَالِ سُوَيْسَةَ مِنْذُ ثَلَاثِينَ سَنَةً ، وَصَدِئَتْ إِحْدَى قِطْعِ التَّنْفِيرِ بِسُرْعَةٍ فِي تِلْكَ الرُّطُوبَةِ الْمَصْنُوعَةِ فَكَانَ يُمْكِنُ اتِّخَاذُهَا حِطْمَةً <sup>(٤)</sup> مِسَلَّةً ، وَعَادَ اسْمُ بَيْتِ شُولُزِرِ التَّجَارِيِّ لَا يَكُونُ هُنَاكَ أَكْثَرَ مِنْ حَالِ الْكِتَابَاتِ الْهَيْرَوَغْلِيَّةِ الَّتِي لَا تَكَادُ تُحْمَلُ ، وَلَنْفَحَصَ سَيْرًا <sup>(٥)</sup> مُوقِّعًا ، وَتَأْتِي قِدَّةُ الْمُؤْمِنِاءِ الْمَصْرِيَّةِ هَذِهِ مِنْ شَافَهَاوَزِينَ .

وَلَكِنْ سَيْرَ الْآلَةِ الْأَسْوَدَةِ هُوَ مِنْ وَبَرِ الْجَلْلِ ، وَلَا احتِجَاجَ إِلَى الْقَحْمِ لِصَنْعِ ثَلَاثِينَ أَلْفَ طَنْ سُكَّرٍ بِكُومِ أُمْبُو فِي كُلِّ سَنَةٍ ، وَذَلِكَ لِاسْتِحْمالِ وَرَقِ قَصَبِ السَّكَّرِ

(١) البُرَانُ : جَمْعُ الْبَعْرِ — (٢) الْمَانُومِرَاتُ : مَقْيَاسُ ضَغْطِ الْمَوَائِلِ وَالْفُغَازَاتِ وَالْأَنْجُرَةِ .  
(٣) نَضَحَ : رَشَحَ — (٤) الْحِطْمَةُ : مَا تَكَسَّرَ مِنَ الْعِصَى الْيَسَى — (٥) السَّيْرُ : قِدَّةٌ مِنَ الْجُلْدِ مَسْطُوبَةٌ .

وقوداً ، وَيَنْصِلُ الصبيان لهذا الغرض ما هو ذابلٌ جافٌ من تلك الأوراق ، وما كان أخضرَ منها فيَصْلُحُ طعاماً للجواميس ، ويُحْمَلُ ما هو أصفرٌ أو ضاربٌ إلى حمرة من قصب السكر على عَرَبَاتٍ أو سياراتٍ أو حيوانات .

والجمالُ هي التي تراها مُرْتَبِجَةً ، وهي تُنْقَلُ من الحمل ما لا تكاد أعناقها وقوائمها تُرَى معه ، وتُكَدَّسُ جبالٌ من قصب السكر أمام قاعة القدور ، ويُعَدُّ الحُزَمُ بالمجارف اثنا عشر رجلاً ، ويُعَبَّى أربعة رجالٍ آخرون هذه القدورَ النهميةَ الفاغرة أفواهها كالقُيُول ، وعلى ما تراه من تغذية النيل نفسه بنفسه تجدد الإنسان مستعبداً له ، وماء النيل يُنْبِتُ قصب السكر في الصحراء ، والآلُ يُسَخِّنُ قصبُ السكر هذا الماءَ حَمَلًا لِلصِّخَّاتِ على العمل .

وَتَبْعُدُ الأساطين من المدخنة بضعَ خطوات ، وتعدُّ معابدُ كوم أمبو التي تعودُ إلى عهد البطالمة معاصرةً لمعابدِ بلّاق ، وهي تنتصب على شاطئ النيل ، ولها من روعة النظر ما لمعود سُونِيُوم<sup>(١)</sup> ، ولها من الجمال ما هو أعلى من جمال معابد الكرنك القديمة المشوَّشة ، وقد نشأ عن الفيضانات الكبرى التي وقعت في القرون الأخيرة انتزاعُ قطعٍ منها وزيادتها رُوءاءً ، وينتقل نظرنّا ، مع ذلك ، من أعمدة الرّجاج العشرة الرائثة ، التي تعلوها تيجانٌ مُزَيَّنَةٌ بالأغصان ، إلى تلك المدخنة الشَّعَاء كقولكُن<sup>(٢)</sup> نفسه ، ولكن مع إخراجها من الأرض نخلاً وموزاً .

ونُبَصِّرُ «ديونيزيوس»<sup>(٣)</sup> الجديد في الساعة الثالثة ، نُبَصِّرُ الإلهَ المَلِكَ الذي شاد هذا العبدَ تمجيداً لنفسه مُوصِياً الإلهَ القمرَ ذا الرأسِ الصَّعْرِيِّ بأن يكتب

(١) سونيوم : رأس يلاذ اليونان واقع في الجنوب الشرقى من أثينا ، ويصرف اليوم برأس كولون — (٢) قولكُن : إله النار والمدن كما جاء في أساطير الرومان — (٣) ديونيزوس : إله الخمر كما جاء في أساطير اليونان .

اسمه على سَمَقَة<sup>(١)</sup> ، ولا ريب في أنه كان يُنشئ تلك الدخنة وكان يُزَيِّنُهَا بِمِفْتَاح الحياة لو اخترع مهندسوه المِصْحَقَة وَوَسَّعُوا رُقْعَةً مَمْلُكته الصالحة للزراعة .

وعاد ذلك المنظر الفاوَسِيّ لا يُجَدِّد ، وعاد بعض الجبال لا يَدُونُ من بعض ، ولا يزيد عرض للنيل على ثمانين متراً في السلسلة ، وعلى بعد عشرين كيلو متراً من هنالك ، ويُلَوِّح أن بحيرة ساكنة تكونت في ذلك المكان في أزمنة ما قبل التاريخ ، وقد قَرَضَت الصخر مع القرون مقداراً فقذاراً وفَرَّتْ بدوافع بلغت من الحَصَرِ ما اعتَمَدَ به أن تلك النقطة هي منبعُ النهر فأقيمت شعائر دينية فيها على أنها كذلك ، وتَقْدُو الصُّخُورُ صُفْراً ، وَيَفْسَحُ حجرُ النوبة الرملُ في الجبال لجير جبال الصحراء التي تُسْتَخْرَجُ حجارةُ المعابد منها ، وهذه البقعة هي من التَقَرُّوْا وَالاِتِّبَاضِ ما لا يُمكن معه أن يُزْرَعَ في هذا المِرْتَاج<sup>(٢)</sup> ، في هذا المِرْزَاج<sup>(٣)</sup> ، سوى سُبْحِ الضَّفَّةِ الغربية ، وهذا هو آخِرُ مَضِيْقِ النِّيلِ ، ثم تَبْدُو الضَّفَّةُ الغربيةُ أَعْرَضَ مما هي عليه ، تَبْدُو سهلاً صغيراً يقوم عليه معبدُ أدفو الذي هو أروعُ معابد مصر ، ولو لم يكن هذا المعبدُ من حجرِ رملٍ لَأَمْكَنَ أن يقابلَ بمعبدِ سِيَحْسِت<sup>(٤)</sup> ، وما كان لبعض مختاراتِ من سافو<sup>(٥)</sup> وهيرود<sup>(٦)</sup> ، أو أطلالٍ من أساطين طيبة ، غيرُ تأثيرِ ناقص ، ونحن لا نستطيع أن نَتَمَثَّلَ حالها الأصلية بسوى خيالنا ، وتَبَرُّزُ المباني شِبْهُ الخَرِبَةِ بقباحة الأجسام المنحطة تحت ذلك

(١) السفنة : جريدة النخل — (٢) المرتاج : ما يخلق به الباب — (٣) المزلاج : ما يستعمل لإغلاق الباب — (٤) يشير المؤلف إلى معبد سيريس الذي لا تزال أطلاله قائمة في إحدى مدن صقلية القديمة سيحست ، وقد خربها طاغية سيراكوزة ، أفا توكل ، قبل الميلاد بثلاثة قرون تقريباً .  
(٥) سافو : من شوارع قدماء اليونان ظهرت بين القرن السابع والقرن السادس قبل الميلاد .  
(٦) هيرود : من شعراء اليونان ظهر في القرن التاسع أو القرن الثامن قبل الميلاد .

الضياءَ الوَهاجَ ومن خلال منظر مصرَ الأزرق والأصفر، وما في الأهرام من وقعر  
في النفوس فَمَدِينٌ لبقائها سالمةً، وَيَشَادُ معبدُ أدفو بعد طيبة بألف سنةٍ بأيدي  
إغريقية وعلى طرازٍ شَبِهَ إغريقى، ومن غير أن يَمُتَّ إلى الطراز الكلاسى<sup>(١)</sup>  
المصرى بصلته، فيظلُّ أَجَلَ معابد مصرَ بفضل بقاءه سالماً منفرداً، أى بفضل  
هذين العاملين اللذين اتَّفَقَ بهما لِيَسْتَوِيَ<sup>(٢)</sup> ومعابد البليوتيز<sup>(٣)</sup> مجدُّ خالدٌ،  
وَيَتَمَذَّرُ تجريدُ المباني والآدميين من المنظر والنور اللذين نراها بهما.

وَيَتِمُّ بناء معبد أدفو في القرن الثانى قبل الميلاد، ويلوح لنا أن هذا المبد محفوظٌ  
أَكْثَرَ من جميع المعابد اليونانية خلا معبد تيزوسَ القائمُ بأثنية في موضعٍ عادى،  
ويسير مهندسو البطالمة في اقتباس ما يُرى من النهر عن بُعْدٍ من الرَّجَجِ<sup>(٤)</sup> وَفَقَّ رَسَمِ  
المعابد القديمة التى كان يُعْبَدُ هُورُوسُ فيها، ويقال إنه قَتَلَ هنا، أو بَعْدَ هنا بِسَافَةِ  
قصيرة من مجرى النهر التحتانى، أخاه وَقَاتَلَ أَيْهَ أَوْزِيرِسَ، وَيُعَدُّ الجَعْلُ الذى  
يُجَاوِزُ النيلَ مع حِمْلِهِ حَتَّى المبدِ مِصْرِيًّا، وَتُعَدُّ السَاقِيَةُ التى تُخْرِجُ لَحْنَهَا بِجَانِبِهِ مِصْرِيَّةً  
أَيْضًا، وَيَزَعَقُ هُورُوسُ بِصَوْتِهِ الحَادِّ فَوْقَهُمَا نَافِذًا زُرْقَةَ السَّمَاءِ.

وكان قداما المصريين يَحْمِلُونَ آلهَتَهُم من النور إلى الظلام، وكان المؤمن الذى  
يَمُرُّ تَحْتَ بَرَجَيْنِ كَبِيرَيْنِ يَدْخُلُ سَاحَةً مَمْلُوءَةً ضِيَاءً، ثُمَّ كَانَ يَجَاوِزُ رِجَالًا مُنَارًا،  
أَيْضًا، إِلَى إِمْلَاسٍ<sup>(٥)</sup> أَوَّلِ قَاعَةِ ذَاتِ أَعْمَدَةٍ، وَإِلَى قَاعَةِ قُدْسِ الأَقْدَاسِ أَوْ إِلَى  
بَابِ تِلْكَ المَشْكَاةِ<sup>(٦)</sup> التى كَانَ يَنْتَصِبُ فِيهَا تِمثالُ الإلهِ المصنوع من الفرائيت

(١) classique — (٢) يستوم : من مدن لمطالية القديمة وهى تبعد أربعين كيلو متراً من  
نايل وهى الآن من الأطلال — (٣) البليوتيز : هى شبه جزيرة المورة الحاضرة الواقعة في جنوب  
بلاد اليونان — (٤) الرجج : جمع الرجاج ، وهو الباب العظيم — (٥) الإملاس : اختلاط الظلام .  
(٦) المشكاة : السكوة غير النافذة .

الأسود ، وكان الإنسان التقي يتعد عن الشمس ليصل إلى رمز الشمس هذا ، وهو في ذلك كالمثمن الذي يتمثل صور الحياة الناطقة أو الصاحبة ليحوّلها إلى أثر فني بين صمتٍ مُحترَفه .

وإن تصعد<sup>(١)</sup> الظلام من الخارج إلى الداخل بفتحات وكوّات تصغر قبيلتها معها النور مقداراً فقذاراً ، وإن تدانئ الأعمدة في قاعات ذات فضاء مؤثّرٍ مُمدٍّ لإزعاج من تعمّد نوراً ساطعاً ولقرض الطاعة عليه في الطراء والطرفسة<sup>(٢)</sup> ، مما لا تراه في مكان كما تراه في أدفو حيث تُبصّر كل شيء من الجدر الخارجية للقاعة ، حتى حجر القربان العظيم ، كما كان عليه في الماضي ، وحيث تُبصّر مقاومته المنصر الذي يكتبه ، أي الشمس لبضعة آلاف من السنين .

وفرعون الأخير وحده هو المذنب ، فقد أراد أن يُقلّد أسلافه في خُزّوايّتهم ، وقد أراد أن يجاوز بقر الماء صورة ، غير أن العرب ، والنصارى على ما يحتمل ، وَجَدُوا ملجأ بين هؤلاء الوثنيين فنقروا خروفاً عظيمةً في جسمه ليقيموا بدهاليز الإله هوروس ذات الطراء لما كان من جهلهم أمره ، والسقف أسود ، وسبب ذلك أن العلم والرواية طردا حفدة البناء من المبدفتركوا فيه أثر ميزانهم ، وما في الجدر من تجاويف صغيرة يجادل علماء الآثار في أمرها لحديثه أيضاً ، وهي صادرة عن عَيْن الصدر الذي هو علّة الخروق المنحوتة في حجارة الجسور الجديدة ، وذلك أن الأولاد يسئون عليها الدّوم لتُصنّع منه بَرامِج<sup>(٣)</sup> .

وإذا بلغ سقف المبد العظيم الذي يقرّبه النور الباهر للهِزّ لاحت الآلهة والأفاعي

(١) Crescendo — (٢) من طرف الليل إذا أظلم — (٣) البرامع : جمع البرمغ ، وهو الحذروف أو الدوامه .

والقراعة في الأسفل من الهزال كاللهيب للريح الذي يرشيد الزائر فيؤدى إلى معتبره في الدرج ، وتتجلى أهمية هذا المعبد الرمزية بأكثر مما تقدم إذا ما رُئي في الحد بين وادي النيل والصحراء .

وينتصب الصقر هوروس المصنوع من الفرانيت الأزرق في مدخل الباحة عظيماً متجبراً شبيهاً بالبشر أكثر مما بالطير جامعاً بين الوفاة وحذر الكواكب التي لها ما لأبناء الآلهة من سلطان ، ويظهر أنه يستريح أمام معبده واضعاً تاجين على رأسه ، وهل يستمع صرصره<sup>(١)</sup> الصقر الحى ؟ وهل يرى امتداد ظله وهو يطير على طول جذر القاعة ناشراً جناحيه الأسودين اللامعين على حين يبدو بدنه أزرق نيراً كصورته الإلهية ؟ والصقر يزحف ويؤدى إلى النيل حيث يبحث عن شيء كما يلوح .

## ٩

ينتصب رتاجان في الحضرة بين النخل ، ويحتل أنها قديمان ، ويحتل صدورهما عن معبد ، أو عن نموذج معبد ما دالما صغيرين ، ويصغرآن كالدونونا ، ونقيين في نهاية الأمر أبراج حزام غريبة شبه أسطوانية قائمة على بيت فلاح ، وترانا في قرية ما بمصر العليا محاطة بحضرة ، وذلك على حدود الصحراء التي أخضبت قسيمة منها ، والقسيمة هي وطن الفلاح ومنزله المفضل في القرية . وإن ما عليه من سرعة عطي هذه البيوت البيض والسممر المبنية من طين

(١) صرصر الصقر : صوت .

النيل نفسه ، وإن ما عليه هذه البيوتُ من تَكَثُّلٍ ، وإن ما يَسُودُ ذلك الدَّيَّ الضَّيِّقَ من ضَوْضاء ، وإن ما يَصْدُرُ عن الإنسان والحيوان من ضجيجٍ حادٍّ بعيدٍ من صَرِيفِ الآلة ، وإن ما ينبعث من خِيٍّ<sup>(١)</sup> البقر الجافِّ المحترق من رائحةٍ عَذِيْبِيَّةٍ ، أمورٌ تَدُلُّ السَّامِعَ على حياة عضوية حيوانية غريزية ، ويُشعِّرُ بالقرية المصرية وتُسَمِّعُ وتُذَاقُ حتى قبل أن تُدْخَلَ .

وترى في الطريق الضيقة جُهوراً منذ الفجر ، ويَلْبِطُ الحمار النطاط الذي ينتظر عند باب النَحَّاس ، ويحاول صاحبه أن يبيع النسيج الملقوف فوق ظهره ، ولا يَرِفُضُ النَحَّاسُ ذلك لأنه غيرُ مقتصدٍ ، ويحتاج إلى وقتٍ طويلٍ لِيُقَرَّرَ ، ومن المحتمل قبل ذلك أن يُوَلَّى وجهه شطرَ الحَلَّاقِ الذي صَنَعَ له طُسْتَ الحِلَاقَةِ والذي يَجُوبُ الطريقَ مُعَوِزاً باحثاً عن الرُّبْنِ ، وليس عليه أن يَصِيحَ ، وذلك لِمَا ليس لديه سوى مشتركين يؤدون إليه أجرةَ عمله مرةً في السنة مع سَلَّةٍ فُولٍ أو عَدَسٍ ، وأسمدُ حالاً من ذلك هم الأولاد والدَّجاجُ الذين يَلْعَبُونَ على جُثَّةٍ جافَّةٍ من وَحَلٍ النيل ، وكذلك الشائبُ الجالسُ على الأرض مديراً بحَبَّاتِ سُبْحَتِهِ من غير أن يُعرَفَ من بعيد هل يدْعُو اللهَ أو عيسى ، وكذلك السائلُ الذي يَنْزِلُ من فوق حماره طالِباً صدقةً والذي ينصرف وهو يَهْمُهُمْ<sup>(٢)</sup> بعد أن يقوم بحساباته .

ويُنْعِشُ القريةَ أنواعُ الحيوان ، ويَلُوحُ أن للدَّجاجِ من كلِّ جنسٍ صفةً الضابط الذي يَعتَدُّ أنه لا مَعْدِلَ لأحدٍ عنه ما دامت مصرُ تُصْدِرُ مِئتي مليون بَيْضَةٍ في كلِّ سنة ، ويَمُدُّ الكلب نجساً فلا تُحَسِّنُ معاملته وينشأ خبيثاً ويعود إلى الحال التي يكون عليها ابنُ آوى ، وليس من خطيئته أن يَقْدُوَ خَطِراً ، وترقبه المِرَّةُ

(١) الخي : ما يرميه البقر من ببلته — (٢) همهم : تكلم كلاماً خفياً .



الضاربة إلى حمرة والمؤنسة المعتني بها والمليدة بزواية خائفة مزدرية معا ،  
والخنازير خاصة بالنصارى ، ولكن من يعلم أن السلم لا يخالف تعاليم النبي الصحية  
بين أربعة جذر فلا يستبدل لدى القبط قطعة خنزير بقطعة ضأن !

والخيزر تنهق مسرورة ، وتتنازع النساء ويتشتمن حول البئر حيث يصد  
الدولاب ذو الصريف ماء من السماط الواقع تحت الأرض ، وهن ينسأدن هل  
تكون الجارة عتيما ، وذلك لأن عدوا لها حملتها على ابتلاع حب من السمسم عند  
وضعها ولدها الأخير ، وهن يدرن نحو بائع البصل الذي سمعن صراخه ويساو من  
بصوت عال ، وهن إذا ما خفن أصواتهن كان ذلك عند الكلام عن ثروة الرجل  
المتواضع الذي يدخن برجيلته جالسا القرفصاء أمام باب المقهى المفتوح ، وما كان  
ليقف نظره أحدا لم يبصر تحت كمي عباءته السراء ما على ثوبه الحريري ،  
الجدير بأحد الخلفاء ، من خطوط خضري وصفر ، وتثبت عمامته الخطراء أنه كان  
في مكة فحق له أن يلبسها لهذا السبب على ما يحتمل ، وهو إذا ما وجهه نصره  
المثير إلى النساء قومن براقهن وسترن شعورهن لعددها أكثر من وجوههن تهيبجا .  
وتخرج أصوات حادة ، فقد قلب حمار يحمل ما يعدل حجم بدنه ست  
مرات دلوا امرأة تحلب فيه لبنها على قارة الطريق لما يساور المشتري من خوف  
إضاقتها ماء إليه ، ويتجمع الناس والبهائم ، ويأتي حيوان غريب من الخلف  
ويبقى ظله عليهم ، ولا يعرف هذا البعير رازحا تحت حمله من البر ، ويمط هذا  
الجل عنته الطويل المزيل الذي هو أهل لعجوز إنكليزية هزيلة مزينة بالجواهر  
جالسة في دار التمثيل ، ويبصر صبارا على طرف الطريق ويلوكه هادئا بين  
الصخب الذي يسود النداء الثاني الصادر عن المؤذن من شرفة المسجد العالية .

وتباهت الناس نحو الطرف الآخر من الطريق ، فقد وصل الراف من المصير  
راكباً حمراً ، ويزدحم النساء حوله ويمسسن تمامه الفضة وقطعه وجمالنه<sup>(١)</sup>  
وصور العذراء وإيرس التي لديه والخاصة بجميع الأديان ويضعنها في الوحل ويثن  
فوقها ويقبلن ثوبه ، ومن يك عندها ما تؤدّي إليه فإنها تنال من حب الفحل<sup>(٢)</sup>  
ما تتخذه للشرب ، وهو تزيان<sup>(٣)</sup> ضد مكابد الحراسد اللاتي يرذن أن يحلن  
دون وضعها أولاداً آخرين .

ومن المحتمل أن كان المنزل الذي تهبي المرأة فيه الطعام من بناء بعلها ، وتحيط  
النخل بهذا المنزل ، وتحف به مقاعد جميلة ظليلة من تبن ، وذلك لأنه يعمل  
ويستراح خارج البيت ، وعلى هذا البيت صور رجل تصويراً ساذجاً مؤثراً ، وعلى  
ذلك البيت صور خط حديدي ، لا القطار السريع الأبيض الممتد على شاطئ  
النيل ، وإنما القطار التالذ الطريف الذي سافر به رب الأسرة من جدة إلى  
مكة ، وقد أدخلت إلى التمرادين<sup>(٤)</sup> القائمين فوق البيت صناع من خرف  
أزرق يحبها الحمام ، وفي المنزل يربى بقر ليخنيه الثمين ، والخني يصلح وقوداً .

ولانقي غرفة المنزل الوحيدة الرطبة الممتعة ساكنيها من الشمس ، بل من  
الليل ، وتجاورها فرش مصنوعة من حصير وجلود وبضعة مراجل وأوعية خشبية وجرار  
من فخار ، ويتلصق دحان الخني المحروق مخرجاً من خلال سقف خفيف مصنوع  
من تبن الذرة ، ويمتذب الخني الكلاب والهررة والدجاج ، وإذا لم يكن الأولاد  
في المدرسة تمرغوا مع الحيوانات في هذا الجو الخانق .

(١) الجملان : جمع الجمل ، وهو ضرب من الخنازير — (٢) الفحل : ذكر النخل — (٣) التزيان :

دواء يدفع السموم — (٤) التمراد : برج صغير الحمام ، ويجمع على تمراد .

والفلاحة في فتاتها رائحة النظر لما تكون عليه من صحة ونشاطٍ ومرحٍ وعرضٍ كثيفٍ واستقامة صدرٍ مع حُسن اختِصابٍ ومشطٍ ، وهي تَعْدُو زَوْجًا في الثالثة عشرة من سِنِهَا ، وهي تزوج قبل بلوغها السنَّ القانونية غالبًا ، لها رُمُها<sup>(١)</sup> أمام القاضي ، وهي لا تَلْبَثُ أن تصبح أُمًّا ، وهي تنجذب بجميع أفكارها إلى الحياة الجنسية ما حَمَلَتْهَا الشمسُ وخِصْبُ البلد على ذلك ، وما كانت كثرة الولد لتحول دون الفِئرة وهوى النفس ، فلا يُجْجَمُ عن القتل والسِّمِّ في سبيل رجلٍ تَرْغَب فيه امرأةٌ ولا تَرْغَب عنه امرأةٌ أخرى ، ولا يقول المسلمون ، على العموم ، بتعدد الزوجات لأسباب مالية فقط ، ولا يُجادل الطبيب والقرافُ وحدهما في المسائل الجنسية ، بل يُجادل الفتيات فيها أيضًا ، ولكن عن سذاجةٍ ، وتزى المستوى الأدبيُّ أعلى مما في غرب أوربة فيُفرض النكاح أو الفِرَاقُ عند وجود فضيحةٍ فتعالج الحاكمُ هذه الأمور ، وليس الزواجُ ، ولا الفِرَاقُ ، من الأمور المؤبَّدة ، فيمكن العودُ إلى الأمر ثلاث مراتٍ قبل أن يُكْرِهَهم القرآن على التوقف ، حتى إنه يحلُّ الزواجُ بالمرأة للمرة الرابعة إذا ما تزوجت بآخر قبل ذلك .

وأبناء مصرَ خرافيون منذ القديم ، فإذا ما أراد رجلٌ أن يتزوج أرملة أخيه ، من أجل قطعة أرضٍ على ما يحتمل ، اتخذ جميع الوسائل وسَحَرَ امرأته لتفقه ، وهو يَذْفِن في قَبْرِ بَيْضَةٍ وُضِعَتْ يوم الأربعاء بعد أن يُكْتَبَ عليها اسم إحدى الأرواح الشريرة ، والمصريُّ ، نصرانيًّا كان أو مسلمًا ، يعتقد جميع ما ينطوى عليه الساحر من رثاء وتَصْنَع ، والمَقَمُّ لا يزال أحسن وسيلة للخلاص من المرأة ، ولا رَيْبَ في أن المِلْتُونِسيَّة<sup>(٢)</sup> في مصرَ أندرُ مما في أيِّ مكان آخر .

(١) تهازم الرجل : أرى أنه هرم وليس به — (٢) نسبة إلى الاقتصادى الإنكليزى ملنوس الذى اشتهر بنظريته المعروفة عن السكان (١٧٦٦ — ١٨٣٤) .

وتُسْفِر تلك الحال النفسية عن نتيجتين ، تُستفَر عن شِدَّة نحو البنات واحترام  
عميق نحو الأم ، وللأمَّ المقام الأعلى عند الابن ، ولو كان شَرُّ زَوْجِه رَمَادِيًا ،  
وليس للحفيدات أن يَخْرُجْنَ من دون أمهن ، حتى إن الأَيْمَ تَقْدَحُ حقوقها ،  
ولا يَحِثُّ لها أن تكون وحدها مع رجاله في غرفة واحدة ، ومما يقع في أيامنا ، أيضاً ،  
أن تأتي الأمُّ بابتها الحُبلى إلى الصحرَاء لتذبحها أو أن يَقْتَلَ الأخُ أخته لسوء  
سلوكها ، وتُعدُّ الولادة ، ولا سيما الأولى ، حادثاً ذاكراً ، وتُملَقُ المرأةُ في الجِدار  
صُوراً مُلوَّنة لرجالٍ حتى تُنعمَ النظرَ فيها ، وهى ، قُبَيْلَ الوضع ، تُجَرَّرُ نفسها إلى  
شاطئ النيل بِحَنَاءٍ عن قطعة غِرَينِ تَبْلَعُها في أثناء الطَّلَق ، وتُسْتَرُّ جِدها وذراعيها  
بتعاويدٍ لكى تَصْعَ صبيّاً أو ولدّاً حسنَ الهيئة ، والمرأةُ إذا ما وَضَعَتْ أنثى عَدَّها  
زَوْجِها مُدْنَسَةً مُدَّةَ ثلاثين يوماً ، والمرأةُ إذا ما وضعت ذكراً عَدَّها زَوْجِها مُدْنَسَةً  
مدةً أرْبَعين يوماً ، وهل هذا بسبب أهمية الذكر ، أو لأن الذكْرَ أكثرُ دَنَسًا ؟

وتُرَضِّع المرأةُ ولدها عامين تقريباً ككثير من فلاحات التَّوَجِيج ، وتُرَى  
المرأةُ جالسةً أمام بابها عارية الصدرِ مُمَسَّكةً الولدَ الذى يَرْضَعُ بيدها اليسرى  
وَمُمَسَّكةً أنبوبَ التَّرجيلةِ التى تَدْخُنُ بيدها اليمنى ، وتُسَمَّى الرضعة الأخيرة بِالْقِطَامِ  
كما تُسَمَّى سَمِيَّةُ الْبُرِّ الأخيرةُ به أيضاً ، والمرأةُ إذا ما حَمَلَتْ ثَانِيَةً عَلَّقَتْ على جِدهِ  
ولدها الأكبرَ عُوْدَةً<sup>(١)</sup> لكيلا يَحْسُدَ أخاه الأصغر ، ويَحْمِلُ الأولاد على أعناقهم  
مصاحفَ صغيرةً دقيقةً محفوظةً في أكياس من نسيج قطنى ، وإذا كان الولد  
نَحِيفًا سَمَّى السُّوْأَتِ به إلى شاطئ النيل في أول الفيضان وحَمِلَ على قَدْفِهِ فيه

(١) المودة : اسم بمعنى الرقية ، وهى التى تكتب وتطلق على الإنسان لطفه في زعمهم من

الجنون والبله .

خَلَوَى وَتَمَرَأَ مَعَ الْقَوْلِ بِصَوْتٍ عَالٍ فِي كُلِّ مَرَّةٍ : « دَعْنِي ، أَيُّهَا النَّيْل ، أَزِيد قُوَّةَ كَهْمُكَ » .

وَفِي النَّهَارِ يَكُونُ الزَّوْجُ فِي الْحَقْلِ بِجَانِبِ النَّاعُورَةِ زَارِعاً أَوْ حَاصِداً ، وَالْفَلَّاحُ مشهورٌ بِصَحَّتِهِ وَنَشَاطِهِ وَاعْتِدَالِ قَامَتِهِ مِنْذُ الْقَدِيمِ ، هُوَ رُبْعَةٌ <sup>(١)</sup> ، هُوَ مَفْتُولُ السَّوَادِ ، هُوَ يُشَابِهُ تَمَائِيلَ عَهْدِ الْفَرَاعَةِ إِذَا مَا وَقَفَ عَارِياً بِجَانِبِ الْمِزْقَةِ وَنَاولَ رَفِيقَهُ وَعَاءَ الْمَاءِ .

وَالْفَلَّاحُ الْخَافِي فِي الْحَقُولِ ، بِقَمِيصِهِ الْأَزْرَقِ ، وَسِرْزَوَالِهِ الْوَاسِعِ ، أَوْ بِمَبَاءَتِهِ السَّمَرَاءِ الَّتِي تَسْجَتُهَا لَهُ زَوْجَتُهُ مِنْ شَعْرِ الْعَنْزِ ، مَعَ لُبَادَةٍ كَثِيفَةٍ عَلَى رَأْسِهِ ، هَيْئَةُ الْمَزَارِعِ الرَّزِينِ الصَّوْتِ الَّذِي يَزْرَعُ أَرْضَ آبَائِهِ فِي غُصُونِ الْقُرُونِ ، وَيُذَكِّرُنَا رَأْسُ الْفَلَّاحِ بِرَأْسِ حَيَوَانَاتِهِ الْأَهْلِيَّةِ ، وَلَا يَمُتُ الْفَلَّاحُ إِلَى الرَّثْمِ بِصَلَةِ ، وَذَلِكَ بِمُجْتَمَعَتِهِ الْفَلِيطَةِ الْبَيْضِيَّةِ الْخُلُوقِ الْقَائِمَةِ عَلَى رَقَبَةٍ قَوِيَّةٍ وَبَجِينَةِ الْعَرِيضِ الْمَائِلِ إِلَى الْوَرَاءِ قَلِيلاً وَبَافَنِهِ السَّرْجِيَّ وَعَيْنِيهِ السُّودَاوَيْنِ اللَّامِعَتَيْنِ تَحْتَ حَاجِيَتَيْهِ الْكَاشِفَتَيْنِ ، وَبِفَمِهِ الْكَبِيرِ وَأَسْنَانِهِ الْجَمِيلَةِ وَذَقْنِهِ الْمُقَرَّنِ وَالْأَجْرَدِ أحياناً ، وَلَيْسَ الْقَسَمُ الْأَسْفَلُ مِنْ وَجْهِ الْفَلَّاحِ نَاتِئاً كَمَا عِنْدَ الْعُرُوقِ الْإِفْرِيقِيَّةِ الْأُخْرَى ، وَجَسْمُ الْفَلَّاحِ مِمَّا يَقَاوُمُ الْآلَةَ ، وَلَا بُدَّ مِنْ انْقِضَاءِ قُرُونٍ حَتَّى تَوَافِقَ رَوْحُهُ عَلَى تَغْيِيرِ عَادَةٍ ، وَالْفَلَّاحُ قَلِيلٌ مِنْذُ عَهْدِ الْفَرَاعَةِ ، وَالْفَلَّاحُ الْمِصْرِيُّ كَالْفَلَّاحِ الرُّوسِيِّ الْقَدِيمِ مَا بَلَغَ عَدْدُ الْفَلَّاحِينَ بِمِصْرَ اثْنَيْ عَشَرَ مِليوناً مِنْ أَرْبَعَةِ عَشَرَ مِليوناً ، وَلَمْ يَظَلَّ الْمِصْرِيُّ قَلِيلاً ؟ هُوَ غَيْرُ كَسُولٍ ، هُوَ غَيْرُ غَبِيٍّ ، هُوَ ذَكِيٌّ شَغَالٌ مَا دَامَ شَابِئاً عَلَى الْأَقْلِ ، هُوَ قَدْ أَتَسَيَّكَ فِي بَحْرِ مِنَ الْجَهْلِ ، هُوَ لَمْ يُبْدَأْ بِالْعَنَاءِ بِتَرْيُّتِهِ إِلَّا فِي وَقْتٍ حَدِيثٍ جَدًّا ، هُوَ قَدْ يَكُونُ حَسُودًا خَرَافِيًّا ،

(١) الرِّبْعَةُ : الْوَسِيطُ الْقَائِمَةُ .

ولكن مع طيبة قلبه ، ولم يجعل ضيق منزله منه رجلاً عريداً ، وقد حافظ مع القرون على حسن معشره ، ويبدو عنيماً من غير حقد ، فإذا قتل جاراً له لاختلاسه منه بضم بصلات بكاه مخلصاً .

وفي بلد لا يجدي فيه المحراثُ نعماً تقريباً لا يُترك الفلاح فيما عليه إخوانه بالنيل الأعلى ، أو أبناء دينه ببلاد الشرق الأخرى ، من بطالة مباركة ، فعليه أن يدير الناعورة وعليه أن يحمل الدلو على كتفه ، فلا يمن النيل عليه بالخضب بلا عمل ، ويكون الفلاح عند منزلقته على ضفة النهر من وقت الفجر ، وتسمعه الشمس عند كل صباح منشدًا :

« اليفُ المفتول ذراعٌ تحمل دلوًا ، لقد اخترعوا الشادوف منذ ألاف السنين لا مراء ، هم قد فعلوا ذلك لأن الماء كان لا ينزل من السماء ، وماذا كان اسم هذا الرجل الذي تشكر له ؟ وى صالح زبادى ! ياليف أنت قوى ، ويقدر الحرُّ أن يجرفى ، إذا انقزرت قلبى لم أجِد من ييكينى ، وى صالح زبادى ! <sup>(١)</sup> »

حتى إن الحراثة عند ضرورتها تطالب الإنسان ببذل جميع قوته ، وإن وجب ألا يكون التلم <sup>(٢)</sup> عميقاً ، ولكن المحراث لا يزال مؤلفاً من قطعة حطابٍ منحنية ذات حديدة حادة فيجره ثوران مقرونان بمجرٍ طويل ، ويكسر التدر <sup>(٣)</sup> بالأيدى فيبذر ، وما يقع في بعض الأحيان أن تُرعى الأرض بأرجل النعم ، وتكون الحقول صغيرة ، وتبصر عند كل ست أقدام حداً ، ولا تجد غير مربعات دقيقة مع انحدرات قليلة يُصنع فيها ثقب أيام الفيضان ، أو يُفتح فيها ذلك بالرجل .

(١) لم يمر المؤلف إلى المصدر الذى نقل عنه هذا النشيد البلدى ، وقد حاولنا الوصول إلى أصله فلم نوفق ، فترجمناه — (٢) التلم : ما تشقه سكة الفلاح من الأرض — (٣) للمر : الطين الملوك الذى لا يخالطه رمل .

وهل الحصاد هنالك أسهل مما في الأماكن الأخرى ؟ وفي الشتاء يَنْضَج القمح والبقول والعدس والبرسيم ، وفي الصيف تَنْضَج الذرة والأرز والقطن وقصب السكر ، وفي أثناء الفيضان يَنْضَج الدخن والأرز والخضر ، وهذه المحاصيل الثلاثة تطابق الـبِدَار ( وفي أول نوفمبر يُبْدَرُ في الغرين ) فتجد في كثير من بقاع مصر سبعة محاصيل في ثلاثة عشر شهراً ، غير أن عمل السقي يعدل محاسن الشمس ، فظلت الآلات كما في زمن التراعة ، ويُقَطَّ القمح بالمناجل في كل مكان تقريباً ، ويُجمَع هذا القمح أكداً فيخيلها الجمل إلى البيدر حيث يذرسه البقر ، ثم يذرى البر ويحفظ من الريح بأوراق النخل ، ولا بد من انقضاء وقت حتى تحمل الحيرة أكياسه إلى الهرزي المخروطي .

وكان اثنا عشر مليون فلاح يعمل من أجل مليوني غني منذ سنوات قليلة خلت ، ولم يطالب الفلاحون لأنفسهم بغير نصف الأراضي حتى بعد اضطرابات سنة ١٩١٨ ، ويبرز البدويون ، الذين لا يقرءون صحفاً ولا يسمعون في واحاتهم خطباً ، من قورم على ضفاف النيل مع الهتاف : « قَسِّمْ واعدل ! » ولا يعدو هذا تلخيصاً لنظريات أبناء المدن من قبل أناسٍ ملاحٍ عِراةٍ صُحليٍّ<sup>(١)</sup> على طرف الصحراء ، واليوم تتحرك الجموع على مهل ، فن ناحية يزداد عدد أصحاب الأملاك الصغيرة في هذا البلد الخصب فيقومون هم وأولادهم بأمور الزراعة ، ومن ناحية أخرى يكثر عدد المزارعين على أن يكون مُخساً المحصول لهم .

ويُدْفَع أقل مالٍ ثلاثة جنيهات أو أربعة جنيهات ضريبة عن كل فدان ، غير أن السكان يعدون أكثر كثافةً مقداراً فقداً ، وقد تضاعف عددهم في

(١) الصجل : جمع الأسجل وهو من بع سوته وخشن .

السنين الثلاثين الأخيرة تقريباً ، وهم ما انفك أكثرهم يكون مَيَّاماً<sup>(١)</sup> ، أَجَلٌ ، يُسْتَعْدَم عددٌ غير قليل منهم في اللطاحن والمَصْنَعَات البخارية كما هو الأمر عندنا ، غير أن مُعْظَمهم يَعْمَل مثل آبائهم ، فينالون أجورهم عَيْنًا وَيَنْقُل الأولاد والنساء أجرة الزوج على رؤوسهم .

وبالاضواء حَوْل المحكمة عند ما يَتَوَجَّه الفلاحُ إلى المِصْر اجتناباً للحجز ! ولا حَجَز من عهدِ كَتَشَرَمَلِمَا هو أَقَلُّ من خمسة فدادين ، فإذا عَدَوَتْ هذا أخذ الجُبَاءُ كُلُّ ما سواه ، حتى أصغرَ قطعةٍ فِضِيَّةٍ مُزَيَّنَةٍ لبرقع زوجته ، وذلك عند عدم تأديته ما عليه من الضرائب ، وذلك سواء أ كان الفيضانُ جيداً أم رديئاً ، وها هو ذا يُرَى تحت ظِلِّ السَّنْظِرِ أمام بناء حجريٍّ ذى منظر كُثِيبٍ كافٍ بقية العالم ، وَيَدْنُو من كاتبِ عرائضٍ ليدافع عن حقوقه على حين يَشْرَحُ عشرة فلاحين أُخَرُ حالهم لكَتَبَةِ عشرة آخرين ، ويُتَبَصَّر في دار القضاء تلك مثل ما في القرية من ازدحامٍ وعدمِ انتظامٍ ، وما يُحَرِّك به كاتبُ العرائض من بَطْء قلبه في الدَّوَاةِ فَيَدُلُّ على قلةِ اكترائه وَيَمِثُّ على ما يساوره من مَكْرِ حَوْلَ تَفْكِيرِهِ في زَبُونٍ أَكْثَرَ نَرَاءً ، وإن الأمر لكذلك إذ يَنْهَضُ جميعُ الجالسِينَ القُرُفُصَاءُ في القاعة ذاتِ الظلِّ ، وذلك عند دخول القاضى ، وإليه يُهْرَعُ ، فلهه يكون أولُ الْمُتَقاضِينَ .

ويبدو القاضى لابساً حُلَّةً سوداءَ ووشاحاً أحمرَ قبل أن يَسْتَوِيَ أمامَ مُنْصَدَتِهِ العالية ، وَيَضْحَكُ المحامون في الصفِّ الأولِ وَيَتَرْتَّبُونَ بمثل ما يَظْهَرُ من وقاحةٍ وَتَحِيٍّ على ضِفافِ اللُّوَارِ<sup>(٢)</sup> والتاييس<sup>(٣)</sup> والإلْبَةِ<sup>(٤)</sup> والأَرْنُو<sup>(٥)</sup> ، ولكن الكلام

(١) يامو : عامله بالأيام — (٢) اللوار : نهر في فرنسا — (٣) التاييس : نهر في إنكلترة .

(٤) الإلبة : نهر في ألمانيا — (٥) الأرنو : نهر في إيطاليا .



يخرج على ضفاف النيل من محامين مفاً ، ومن زبُونَيْهِمَا مفاً ، ويُحْمِلُ العابر أن الأمر واضحٌ عند ما تَصْدُرُ زَعَقَاتُ أَرْبَعٍ وَهَزُّ أَيْدِي ثَمَانٍ أمام القاضي ، ويتدافع الحضور إلى الأمام ، ويحاول حاجب المحكمة دفعهم على غير جَدْوَى ، ويُعْلِن الرجل اللابسِ وشاحاً بصوتٍ تَمْطِي قَائِلاً : « إن القضية أُجِلَّتْ لثلاثة أشهر » .

والفلاحُ يَرْجِعُ تَبِعاً إلى الغاية من الحَصَادِ والناعورة والمحكمة ، وما تُقَدِّمُهُ رُوحُهُ إِلَيْهِ مِنْ خُبْرٍ فَيَحْدِثُهُ جَيِّدًا ، فهو مصنوعٌ من البرِّ والذِّرَّة ، وهو صالحٌ لبقاء حُسْنِ الأسنان كما يلوح ، والفلاحُ يَفِيضُهُ فِي حَسَاءِ البصل والسمن مع الخِيَارِ والقول ، وهذا هو طعامه العاديُّ الْمُفَضَّلُ ، ويتصف الفلاحُ بحُبِّ الخير فَيَقْدِمُ مِنْ طَعَامِهِ هَذَا كُوبًا إِلَى أَقْرَبِ مَنْ يَمُدُّ يَدَهُ إِلَيْهِ ، وذلك لأنه يأكل على عَتَبَةِ البيت ، وينتظر السُّتُورُ نصيبَهُ أيضًا . ، وَيُحِبُّ الفلاح البصلَ الفِجَّ<sup>(١)</sup> والبصلَ الناضج والعدسَ قبل كلِّ شَيْءٍ ، والخُضْرَ إِذَا أَمَكْنَ ذَلِكَ ، وَيُؤَثِّرُ الفلاحُ ماءَ النيلِ غَيْرَ الْمُصَفَّى مع جميع أوساخه لكي يكون مُطْعِمًا ، وَيُؤْمِنُ الفلاح بالنيل .

ومن الأمور الشاقَّةُ أَنْ يُخْرِجَ الفلاح من القذارة التي نشأ عليها أجدادهُ جيلًا بعد جيل مع حيواناتهم منتعنين بأقلِّ سِرْجِينِ<sup>(٢)</sup> للَحَمَامِ وزبِلٍ<sup>(٣)</sup> للأَنْمَامِ ، وذلك من غير أن يَنْزِلَ مِنَ السَّمَاءِ مَا يَقْسِلُ الْإِنْسَانَ وَالْحَيَوَانَ وَالْمَنْزِلَ وَالْأَنِيَةَ مِنْذُ سِتَّةِ آلَافِ سَنَةٍ ، وقد يمضي جيلٌ أو جيلان قبل أن يَثْبُقَ الفلاح بِالْمَشْفَى الحديثِ أَكْثَرَ مِنْ ثِقَتِهِ بِالْمُجَبَّرَةِ الَّتِي تَضَعُ سُنْبُلَةً ذُرَّةً عَلَى السَّاقِ الْمَرِيضَةِ مَعَ تِلَاوَةِ آيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ ، وَالتِّي تَدَاوِي الْحَتَرَ<sup>(٤)</sup> بِذَلِكَ الْجَفْنِ بِقِطْعَةٍ سَكْرٍ أَوْ بِقَطْرَةٍ بَعْضَارَةٍ بِصَلٍ مَعَ مِلْحٍ ، وَالتِّي تَكْشِطُ الْجِلْدَ بِصَدْفٍ أَوْ حَجَارَةٍ سَحَرِيَّةٍ .

(١) الفج من القواكة وغيرها : الذي لم ينضج — (٢) السرجين : الزبل — (٣) حثوث

العين : غفلت أبقائها من رمد .



٢٨ — هوروس (المتر) في أدفو



وتزول العقائد وَيَبْقَى السّاحر ، ويحتمل أن تكون الظلمات التي يَدَّثِرُهَا ضرباً من ردود الفعل لنور الشمس الساطع الخالد ، ويعيش الفلاح خائفاً خوفاً أزلياً من اللّامة<sup>(١)</sup> مخاطباً بمئات التّامم اللامعة على جِندِ النساء ورقاب الخمر والجمال ، ويترنح الفلاح بأفاصيص القاصّين الذين يُكرّرون وقت المساء بمحركاتٍ مسرحيةٍ ما قصّه عليهم آباؤهم ما ذين أذرعهم واضعين أيديهم على آذانهم أحياناً كما لو كانوا يستوحون ، وإذا غابت الشمس وتصادد دُخان السفائر ظهرت في جوّ المقاهي العذّبيّة طائفةٌ من الأحاديث الوهمية الغائمة التي تَحْشَى نورَ النهار والتي تَرَجِعُ إلى الوف السنين ، وما جاء في كتاب الإله توت السّحريّ\* أن ابناً لأحد الفراعنة حلّ بردياً مقدساً في الماء وشربه فأشرب كلّ حكمة ، وما حدث في سنة ١٩٣٦ أن قاضياً نوياً كتب كلمةً من القرآن وحلّ جبرها في الماء وحلّ المشتكى والمتم على شربها لكي يقولوا الصدق ، ولكن الخرافات تحيط بالحبّ والموت على الخصوص وتصلّ العروسُ راكبةً جملاً ، أو سيارةً فورديّ ، أحياناً ، مهما كانت فقيرة ، ثم يُفرط في الطعام ، ويضعُ القيس ، ولو كان قساً نصرانياً ، نسيجاً مُخْمِلياً على كتِفِ المريسِ اليُمْنى وتحت عاتقه الأيسر ، ويَتَلَوُ أدعيته ويَجْمَعُ جُمْلَه<sup>(٢)</sup> ، ثم يرفع ذلك النسيج ، ويرقّب لبس كلٍّ من العروسين خاتمه . ويعلمن رواجهما بذلك . وفيما يرقص ليلاً تَدْنُو جماعة من الصّباغ على رائحة اللحم المشويّ ، وتطرّد الصّباغ ، وتُجَلِّجُلُ من بعيدٍ وتوغّوع بناتُ آوى ، وفي صباح الفد وحده يذهب الزوج إلى زوجته ، ويمسّها بمصاً من جذع النخل ، وتعود هذه العادة إلى ستة آلاف سنة .

(١) اللامة : البن المصنوعة بسوء — (٢) الجمل : أجر العامل

وإذا مات أحدهم مات شَبَحَهُ في الوقت نفسه ، وذلك لأن القَرِينَةَ تولد مع الإنسان ولها شكلُ الإنسان وطبيعته . وهي تكافح قرينةَ خصمه ، وقد تكون قرينةَ سَوءٍ في بعض الأحيان فتزعمُ صاحبها فيهرع في الصباح إلى الشيخ ليسأله الوفاية منها ، وقد تكون المرأةُ شَرِيرَةً فيؤلم شبحها الولدَ حتى السنة السابعة من عمره ، ثم لا يبقى ما يُخشى منه بعد ذلك ، وتقول الفتاةُ العاشقة للفتى بلطفٍ : « إن قرينتي طَيِّبَةٌ نحوى » .

وإذا مات ولدٌ اضطرب المنزلُ بأمره ، وشعرَ بخطَرٍ يحيقُ بالجنس وقوة التناسل ، ويُسرِعُ لاجتنابِ بلايا أخرى ، وتخرجُ روحُه من فيه ككلٍّ ميت ، ولكن لا ينبغي أن يُكفَّنَ بشدةٍ خشيةً أن تُصاب أمُّه بالعقم ، ثم تُذبح شاةٌ ، ويؤتى بجوز ، ويأتى رَجُلُ الدِّينِ ، ولو كان قَسًا نصرانيًا ، بعد ثلاثة أيام من الموت ، ويُذهب روحُ الولد الميت مع عُثان<sup>(١)</sup> اللبَّان ، ولا تمجدُ لذلك ذكرًا في القرآن ولا في التوراة . فهذه الطقوسُ مصريةُ الأصل .

وهكذا تنقضى حياةُ الفلاح المراقفة لصريف الساقية ، والتي تكون على شيء من السعادة ، وذلك مع صفاء صادر عن إلهي أرضه اللذين جَعَلَا بِلَدَهُ مشرأ وجعلا منزله منتجعًا ، والفلاحُ ينام على صوت قَصَمِ حماره لقلوله ، والفلاحُ يَضْحَكُ على سَخَجِ حمامه .

## ١٠

من المحتمل أن يزور الفلاح مع ابنه ضريحًا ملكيًا ، ويكون الدليلُ صديقًا له فيأخذُه في الدخول ، ويرى على نور المصابيح الكهربية ما كان يُضاهِ بالمشاعل

(١) الثنان : الدخان .

## ضريح ملكي

إضاءة خفيفة فيما مضى ، أى يُرى على الجُدر تصاويرٌ ممثلةٌ لجميع حياة الرجل الذى شاد ذلك الضريح ولحروبه وعيشه المنزلى وقصصه وقصائده وزوجه وأولاده وموظفيه وعبيده وبذوره وحصائده وصيده وألبابه ، وإذا ما كان الضريح مفتوحاً حديثاً أبصرت الأدوات والأثاث فى مكانها ، ويقفُ الفلاح بجانب السيّاح صامتاً حاملاً ابنه بيده ، ولا يفهم الفلاح ماذا يقولون ، ولكنه يدرك بأحسن مما يدركون جميع ما يشاهده هناك ، وبطلٌ مشدوهاً ، ومن الصحيح ، إذن ، ما يقصّه عليه الشيخ والساحر وما يدكره القاص فى القهوة ! والحياة هى ، ويرفع ابنه ضاحكاً ويوضح له بصوت خافت ما هو مصوّر هنا من تاريخ عجيب يرجع إلى ما قبل هجرة النبيّ بألوف السنين ، وماذا يجدُ الفلاح فى ذلك الضريح القرعوى ؟ يجدُ نفسه فى كل ناحية منه .

وإليك الشادوف الذى يملؤ وينزل لتنع<sup>(١)</sup> الماء من غير صريف ولا أنين ، وإليك الحقول الطويلة التى تفصل الجداول بعضها عن بعض ، وإليك الحُرث الذى هو لوح ذو قبضتين مربوط بجبلٍ مع عطلٍ من أنفٍ حديدية ، وإليك الجبال والحير والولد الذى يسوق الضأن بمصاه حَمَلًا لها على دؤس الحب فى الأرض على حين يجتذب صبيّ آخر الضائن من الرأس مع البرّ ، وماذا يصنعون هناك ؟ إنهم يزبطون الحب الجيد بالدق لى يكون المحصول حسناً فى العام القادم ، ويُعطى الكاهن بواكير الثمرات كما فى الزمن الحاضر ، ويُصنّون بثور تكريماً لبناء جديد كما تصنع تكريماً لمسخة تجارية ، والمعبّد هو المعبّد الذى تنزع الحجارة منه عند ما لا يرانا الحارس .

(١) منع الماء : نزعها .

وَيَقْرُصُ الْفَلَّاحُ الْمَرْحُ وَلَدَهُ إِثَارَةً لِاتِّبَاهِهِ ، وَتُبْصِرُ مِنَ النَّاحِيَةِ الْآخَرَى ،  
 وَفِي الصُّورَةِ الْجِدَارِيَةِ نَفْسَهَا ، الْأُمُّ وَهِيَ تَحْبُكُ سَلَّةً مِنْ خُوصِ النَّخْلِ  
 كَمَا يُحْبِكُ عَلَى الصَّفَّةِ عِنْدَنَا ، وَيُبْصِرُ أَمْسَاطَهَا الْخَشْيِيَّةَ وَبُرْقُفَهَا ، وَالْمَرَأَةُ هُنَاكَ  
 تُحْطِطُ حَاجِبِيهَا ، وَالْمَرْيَمُ هُنَاكَ ، أَوْ أَحَدُ نَفْسِهِ هُنَاكَ ، هُوَ الَّذِي يَخْلُقُ الرَّأْسَ ،  
 وَتَنْوُحُ النِّسَاءُ لِمَوْتِ أَزْوَاجِهِنَّ مَعَ حَلٍّ شَعُورٍ وَشَقٍّ ثِيَابٍ وَحَرْقٍ لُبَّانٍ ، وَيُبْصِرُ  
 مِنَ النَّاحِيَةِ الْآخَرَى ، وَفِي الصُّورَةِ الْجِدَارِيَةِ نَفْسَهَا ، فَرَعُونَ الْحَزِينَ يُوَدِّعُ ابْنَهُ  
 الْمَيْتَ ، وَيُبْصِرُ قَرِينَتَهُ هَذَا الْبَابِ ، وَيُحَرِّكُ ذَلِكَ النَّظْرُ سَاكِنَ الْفَلَّاحِ قَيْصَمُ ابْنَهُ إِلَى  
 صَدْرِهِ مِنْ قَوْرِهِ ، ثُمَّ يَضْحَكُ الْفَلَّاحُ عِنْدَ مَا يَرَى كَاتِبًا يَسِمُ الثَّيْرَانَ كَمَا تُوسَمُ  
 فِي الْوَقْتِ الْحَاضِرِ ، وَذَلِكَ بِجَانِبِ كَاتِبٍ آخَرَ يُسَجِّلُ عِدْدَ أَكْيَاسِ الْقَمْحِ الَّتِي  
 يُسَلِّمُهَا إِلَى الرُّزْغَانِ ، وَذَلِكَ بِجَانِبِ أَنْاسٍ يَصُبُّونَ الْحَبَّ مِنْ عَلٍ فِي هُرْمِيٍّ مَخْرُوطِيٍّ  
 كَهْرْمِيٍّ الْقَرِيَّةِ فِي الزَّمَنِ الْحَالِيِّ \* .

وَيَا لَكثَرَةَ مَا كَانَ يَمْلِكُ صَاحِبُ الضَّرِيحِ الْغَفِيُّ ! وَيَشْرَحُ الدَّلِيلُ الْكِتَابَةَ  
 لِلشُّبَّاحِ ، وَيَتَرَجَّمُ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ بِسُرْعَةٍ كَيْ يَعْلَمَ الْفَلَّاحُ ذَلِكَ ، وَفِي الْكِتَابَةِ :  
 « لَدَيْكَ ٨٣٥ رَأْسٌ مِنَ الْبَقَرِ ذِي قُرُونٍ طَوِيلَةٍ ، وَ ٢٢٠ رَأْسٌ مِنَ الْبَقَرِ بِلَا قُرُونٍ ،  
 وَ ٧٦٠ حِمَارٍ ، وَ ٩٧٤ شَاةٍ ، وَ ٢٢٣٤ عِزَّةٍ » ، وَيَتَحَسَّرُ الْفَلَّاحُ صَاحِبًا ، وَذَلِكَ  
 لِأَنَّهُ يَتَمَثَّلُ كُلِّ عِئَاءٍ وَكُلِّ عَرَقٍ يَسِيلُ عَلَى ظُهُورِ آبَائِهِ فِي سَبِيلِ تَرْبِيَةِ هَذِهِ الْحَيَوَانَاتِ  
 وَتَفْذِيئَتِهَا ، وَيَتَلَبَّيْنَ مِنَ الصُّورَةِ الْجِدَارِيَةِ الثَّلَاثَةِ سَبَبَ هُزَالِ الْبَقَّارِ الَّذِي يُرْعَى  
 ثَلَاثَ بَقَرَاتٍ عَلَى حِينٍ تُسَمَّنُ بَقَرَاتٌ أُخَرُ بِالْعَجِينِ .

وَيُعْجَبُ الْفَلَّاحُ بِطُولِ سَنَابِلِ الْقَمْحِ عَلَى صُورَةِ جِدَارِيَةٍ أُخْرَى ، وَيُبْدِي  
 الْفَلَّاحُ ارْتِيَاخَهُ مِنْ قَطْعِهَا بِالْمِنْجَلِ عَلَى ارْتِفَاعِ الرِّكْبَةِ ، وَلَكِنْ مُوسِيقِيًّا كَانَ يُطْرِبُ

## طيون نعام الحيوانات

الحُصَادُ عَلَى أَنْعَامِ الزِّمَارِ ، ثُمَّ تُوَخَذُ جُرُزَةٌ<sup>(١)</sup> مِنَ الطَّرْفَيْنِ وَتُرَبَّطُ مِنَ الْوَسَطِ ،  
يَبْدُو أَنَّ الْحِمْلَ لَمْ تَرِدْ أَنْ تُحْمَلَ أَكْثَرَ مِمَّا فِي الْوَقْتِ الْحَاضِرِ .

وَيَضْحَكُ الصَّبِيُّ ، فَذَلِكَ مِمَّا يَقَعُ كُلَّ يَوْمٍ فِي الْقَرْيَةِ ، وَيَجْرُو رَجُلُ الْحَارِ مِنْ  
أُذُنِهِ وَآخَرُ مِنْ قَائِمَتِهِ ، وَلَا تَخْتَلِفُ الْأَكْيَاسُ وَالسَّلَالُ الَّتِي تَوْضَعُ عَلَى ظَهْرِهِ  
عَمَّا يَشَاهِدُ فِي أَيَّامِنَا ، وَالْآنَ يُضْرَبُ الْحَارُ وَيُدْفَعُ عَلَى حَيْنِ يَحْمُولُ فَلَاحٌ ثَالِثٌ دُونَ  
سَقُوطِ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ عَلَى الْأَرْضِ ، وَهَذَا هُوَ ذَا الْكَاتِبُ يَزِنُ وَيَكِيلُ كُلَّ شَيْءٍ ،  
وَهُوَ فِي ذَلِكَ ككَاتِبِ بَاشَا الْقَاهِرَةِ فِي الْقَرْيَةِ .

وَكَانَ أُولَئِكَ الْقَدَمَاءُ طَبِيبِينَ نِجَاهِ الْحَيَوَانَاتِ ، وَيَجِبُ أَنْ يُعْتَرَفَ بِذَلِكَ ، وَذَلِكَ  
لَأَنَّكَ تَرَى بَيْنَ الْمَوَاشِي الْمُسَمَّنَةِ إِوْزًا يَكَادُ يَأْكُلُ ، وَلَأَنَّكَ تَرَى فِي زَاوِيَةٍ كَرْكِيًّا يَكَادُ  
يَشْرَبُ ، وَلَكِنْ أَى الْحَيَوَانَاتِ كَانَ يَصْطَادُ سَيِّدُ ذَلِكَ الْبَلَدِ ؟ كَانَ يَصْطَادُ الْأَسَدَ  
وَالنَّعَامَ وَالزَّرَافَةَ وَبَقَرِ الْمَاءِ . أَفَلَا تَرَى مِنَ الْمَنَاطِرِ الْمَصْرِيَةِ أَنْ يَنْزِلَ الْأَكْبَرُ النَّبِيلَ  
وَيَسْتَلْقُونَ عَلَى جُلُودِ الْحَيَوَانَاتِ فِي زَوَارِقِهِمُ الشَّرَاعِيَةَ الْمُجَهَّزَةَ بِمَخَادَعٍ وَرِيَاشٍ وَأَنْ  
يَعْرِفَ فَتَيَاتٌ وَرَقَصْنَ هُنَاكَ ؟

وَأَى الْحَيَوَانَاتِ الْغَرِيبَةِ يَتَسَلَّقُ أَشْجَارَ التِّينِ هُنَاكَ ؟ يَضْحَكُ الصَّبِيُّ لِأَنَّهُ  
أَدْرَكَ ذَلِكَ بِأَسْرَعٍ مِمَّا أَدْرَكَ أَبُوهُ ، فَتِلْكَ الْحَيَوَانَاتُ هِيَ قِرْدَةٌ أَلْفَةً تَصْنَعُ فِي  
فُرُوعِ أَشْجَارِ التِّينِ الَّتِي يَتَعَذَّرُ الِارْتِقَاءُ إِلَيْهَا لِتَرْمِيَ بِشَرَاتِهَا ، وَيَا لَيْتَ مَا فِي  
الصُّورَةِ حَقِيقَةٌ !

وَالْآنَ يَنْتَهَى الْحُلْمُ ، فَيَصْعَدُ الزَّائِرُونَ فِي السَّلْمِ الْمُنْحَنِي نَحْوَ السَّمَاءِ الزَّرْقَاءِ ، نَحْوَ  
الشَّمْسِ الْمُشْشِيَةِ ، وَيَعْتَرِي الْقَلَاحَ دَوَّارٌ لِمَا أَبْصَرَ مِنْ مَنَاطِرٍ لَا تَكَادُ تُصَدِّقُ ، لِمَا

(١) الجرزة : الحزمة .



أَبْصَرَ مِنْ مَصِيرٍ يَرْجِعُ إِلَى أُلُوفِ السِّنِينَ ، وَيَسْأَلُ الْفَلَّاحُ فِي نَفْسِهِ : هَلْ أَبْصَرَ  
ضَرِيحَ فِرْعَوْنَ أَوْ ضَرِيحَ أَحَدِ تَجَارِ الدَّلَّتَا ، وَيَفْكُ الْفَلَّاحُ حِمَارَهُ الَّذِي يَشْخِرُ  
وَيَوَدُّ أَنْ يَمُودَ إِلَى مَنْزِلِهِ ، وَيَحْمِلُ الْحِمَارُ صَاحِبَهُ الشَّمْسِيكَ ابْنَهُ أَمَامَهُ وَيَعْدُو عَلَى  
طَرَفِ الطَّرِيقِ مِنْ خِلَالِ الصَّحْرَاءِ وَيَشْدُو صَاحِبُهُ الْعِنَانَ حِمْلًا لَهُ عَلَى التَّمَهْلُ وَحِظًا  
لِلصَّبِيِّ مِنَ السَّقُوطِ ، وَيَفْكُرُ الْفَلَّاحُ فِي كُلِّ مَا رَأَى فِي أَوَّلِ تِلْكَ الْأَغْنِيَاءِ الَّذِينَ  
مَا قَتَلُوا يَسْتَخْلِمُونَ الْفَلَاحِينَ وَيَنْزِلُونَ النَّيْلَ فِي زَوَارِقِهِمُ لِلزَّخْرِفَةِ حَيْدًا

وَإِذَا مَا ذَهَبَ الْفَلَّاحُ إِلَى قُبُورِ الْأَقْصَرِ أَبْصَرَ بَيْنَ قُصْبِ الْكُرَى تِمْنَاتَيْنِ عَظِيمَيْنِ  
يَدْعُوهُمَا الشَّيْخُ بِعَمُودَيَّ تَمْنُونِ وَإِنْ كَانَ يُسَمِّيهِمَا عَادَةً بِالْبَقْرَةِ وَالثَّوْرِ ، وَذَاكَ  
الْتِمْنَالَانِ الْمُضْحَكَانِ هُمَا لِأَحَدِ الْفَرَاعَةِ الَّذِي كَانَ يَجْلِسُ عَلَى الْعَرْشِ أَمَامَ مَعْبَدِهِ مَعَ  
حِسَانٍ بَيْنَ قَدَمَيْهِ ، مَعَ نِسَائِهِ وَأُمِّهِ عَلَى مَا يَحْتَمِلُ ، كَمَا هُوَ شَأْنُ رَمْسِيْسَ عَلَى حُلُودِ  
النُّوبَةِ ، وَيَعْرِفُ الْفَلَّاحُ وَيُبْصِرُ مِنْ لَوْنِ التِمْنَالِ أَنَّ فِرْعَوْنَ كَانَ ، لَا رَيْبَ ،  
يَقْعُدُ فِي النَّيْلِ حَتَّى الْبَطْنِ وَقْتُ الْقِيْضَانِ .

وَمِمَّا قَصَّ عَلَى الْفَلَّاحِ ، أَيْضًا ، أَنَّ تِلْكَ التِمْنَاتِيْلَ كَانَتْ ذَاتَ رَنْينِ . وَمِمَّا يَنْبُدُو  
أَنَّ الْفَلَّاحَ يَشْكُ مَعَ اسْتِرَابُونِ<sup>(١)</sup> الَّذِي كَانَ يَرَى أَنَّ ذَلِكَ الرَنْينَ يَصْدُرُ عَنْ أَنَاسٍ  
يَحِيطُونَ بِالتِمْنَالِ ، وَمِمَّا لَا يَضَعُ بِإِدْرَاكِهِ ، كَمَا يَقُولُ الْفَلَّاحُ فِي نَفْسِهِ حِينَ يَنْظُرُ إِلَى  
السَّاقِيَةِ الَّتِي تَكَادُ تَدْوُرُ بِجَانِبِ شَجَرَةِ السَّنْطِ الْكَبِيرَةِ ، أَلَّا يَكُونَ الطَّنِينُ آتِيًا مِنْ  
أَيْنُوفِيْسِ الَّذِي نُسِيَ خُلُودُهُ وَاسْمُهُ ، أَوْ مِنْ شِبْهِ الْإِلَهِ الَّذِي قَتَلَهُ أَشِيلُ<sup>(٢)</sup> قَتِيْنُ  
عِنْدَ ظُهُورِ إِيُوسَ<sup>(٣)</sup> ، فَأَنْبَنُ تِمْنَالٍ تَمْنُونُ الْكَبِيرِ يَحْيَى مِنْ السَّاقِيَةِ الْقَدِيمَةِ الَّتِي تَدْوُرُ  
وَرَاءَهُ كَمَا تَدْوُرُ وَرَاءَ جَمِيعِ تِمْنَاتِيْلِ الْفَرَاعَةِ وَجَمِيعِ مَعَابِدِهِمْ .

(١) اسْتِرَابُونُ : مِنْ عُلَمَاءِ الْجُغُرَافِيَةِ لَدَى الْيُونَانِ — (٢) أَشِيلُ : أَشْهُرُ الْأَجْلَالِ الَّذِينَ  
ذَكَرُوا فِي الْإِلَادَةِ — (٣) إِيُوسَ : إِلَاهَةُ الْفَجْرِ كَمَا جَاءَ فِي أَسْلَافِ الْيُونَانِ .

في صمت ساعات الصباح بالأقصر يُسَنِّعُ ، مع فواصل قصيرة ، صدّي  
لصليل ذى إصرارٍ وجريئٍ<sup>(١)</sup> ، وعلى تلك الضَّفَّة البالغة الفنى ، حيث كلُّ شيء  
رطيبٌ مُدْهَمٌ ، وحيث تَصِلُ رائحةُ التَّيْنِ اليك على الطريق المُعَبَّدة ، وفي ذلك  
الجوَّ الفضى المَهْتَزُّ ، وبذلك النبات الزاخر ، تَجِدُجَتَهُ عَدَنٌ ، وعلى شواطئ النيل  
يَتَمَتَّعُ بحلاوة الحياة أكثر مما في أى مكان آخر ، وتُلْقِي تقاليدُ طيبة أشعتها على  
الماء وتوزِّعُ هَبَاتِ الحياة في قصورها وحدائقها الوارفة بشخاهِ فرعونىٍّ ، ويَصْعُقُ  
الأجنبيُّ هنالك أسطعَ دَوْرٍ أبصره النيل ولولم تَقَمْ هنالك أضخمُ التماثيل وأعلى  
الرمماج ، ولولم تَتَقَابَلْ هنالك تماثيلُ أبى الهول على صَفِّ متصل .

ولمرة الثانية يرى النهرُ أنه لا يَصْلُحُ ، فقط ، لإنتاج القمح والخضَر والسكر  
والقطن ، وَيَتَحَوَّلُ ماؤه وغَرْبَتُهُ إلى حدائقٍ نخيلٍ كما فى الخرطوم البعيدة ،  
ولا يعود النهر لوقت قصير عاملَ حياةٍ لدى ملايين الآدميين ، بل عنصرُ رَفَاهٍ ،  
وهو فى ذلك كالأستاذ الكبير الذى يَسِيرُ ذات حينٍ مع رؤىٍ شرعيةٍ .

ومصدرُ الصليل الضئيل هو جَزَاةُ العشب التى يديرها الفلاح اللابسُ جلباباً  
أبيضَ يديه السمراوين ، ومن شأن التَّيْنِ القابل النفوذ والتى يُفَرِّشُ حول  
القنادق ، ومن شأن المِصْخَاتِ واللواب الدائمة العمل ، وجودُ ذلك النبات الزاخر  
وديمومته وإحداثُ غابةٍ خضراء على مقياس صغير ، والنيلُ وحده هو المُوجِدُ من

---

(١) الجريئ : القصص .

إِلَهِيْ مِصْرَ ، وَالشَّمْسُ هِيَ مُبِيرَةٌ<sup>(١)</sup> مِسْجَارُ<sup>(٢)</sup> ، وَالْأَزْهَارُ الْبَاهِرَةُ الْكَثِيرَةُ الْأَلْوَانِ لَا تَمِيشُ إِلَّا تَحْتَ ظِلِّ النَّخْلِ ، وَالْحَدَائِقُ تُحَاطُ بِالْأَسْوَارِ كَمَا تُحَاطُ التَّصَاوِيرُ الْفَارِسِيَّةُ الطَّرِيفَةُ بِالْأَطْرَافِ الثَّمِينَةِ ، وَتِلْكَ الْأَسْوَارُ هِيَ سَيَّاحَاتُ غَلِيظَةٍ مِنَ الطِّينِ يَدَافَعُ عَنْهَا بِالزَّجَاجِ الْمَكْسُورِ وَالصُّبَّارِ .

وَيَسْرِي الْأَجَانِبُ تَتَمَتُّعُهُمْ بِهَذِهِ النَّفَاسِ فَيَجْتَنِبُونَ بِهَا أَوَارَ<sup>(٣)</sup> الشَّمْسِ ، وَذَلِكَ كَمَا يُفْرَعُ إِلَى الْكَنِيْسَةِ أَتَقَاءَ لِنُورِ الرُّؤَايَا الَّذِي يُعْنَى الْأَبْصَارِ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْفَارِ الْوَرْدِيَّ وَالْجَهَنْمِيَّ الْأَرْجَوَانِيَّ وَالْيَاسَمِينَ وَالذَّقْلِيَّ<sup>(٤)</sup> نَبَاتَاتٌ تَرُدُّ النُّورَ إِلَى الْجُزُرِ الصَّغِيرَةِ الظَّلِيلَةِ تَحْتَ النَّخِيلِ ، وَهَنَالِكَ يَضْرِبُ كُلُّ لَوْنٍ إِلَى اذْهَبَائِهِمْ مَعَ التَّمَاعِ .

وَالْأَخْضَرُ هُوَ شِعَارُ النَّبِيِّ ، وَالْأَخْضَرُ هُوَ غَايَةُ كُلِّ مَنْ يَجُوبُ الْبَادِيَةَ ، وَالْأَخْضَرُ هُوَ مُحْتَلَمُ الْبَدْوِيِّ الَّذِي يَطْلُبُ الطَّرَاءَ وَبُغْيَةَ الْحَاجِّ الَّذِي يَتَمَثَّلُ بِهَا هَدْوً دَارَهُ وَمَسْرَةً سَرِيرَهُ ، وَتَهْدِلُ الْيَمَامَةُ الَّتِي تَقَعَّى بِهَا شِعْرَاهُ الْعَرَبِ عَلَى غُصْنِ الْمَنْجَةِ ، وَيَقْفِزُ الْمُهْدُودُ بَيْنَ حَمِيفِ سُوفِ النَّخْلِ ، وَتَتَقَلَّى ذُعْرَتَانِ مَعَ اهْتِرَازٍ عَلَى الْحَصْبَاءِ . وَيُخْرِجُ هُورُوسُ<sup>(٥)</sup> أَصْوَاتَ الْفَرَحِ لِيَا تَبْدُو الْأَرْضُ تَحْتَهُ بَسْتَانًا صَغِيرًا وَالسَّمَاءُ حُلْمًا ، وَيُقْنَى فَلَاحٌ وَهُوَ يُدِيرُ سَيْرَ الْمِنْزَقَةِ فِي الْخَارِجِ وَبِالْقَرَبِ مِنَ الْجِدَارِ الطِّينِيِّ ، وَيَجْرُكُ الْمِصْحَقَةَ ثَلَاثَةَ فَلَاحِينَ أُخْرَى وَيُفَيِّرُونَ مَوَاضِعَ اللُّوَالِبِ ، وَيَسْقِي فَلَاحٌ خَامِسُ أَحْوَاضِ الزَّهْرِ ، وَيَتَصِلُ جَمِيعُ هَوْلَاءِ فِي النَّهَارِ كُلَّهُ بِأَغْنِيَاءِ هَذَا الْعَالَمِ وَيُفَيِّرُونَهُمْ وَيَسْمَعُونَهُمْ وَيَسْهَرُونَ بِهِمْ ، وَهُمْ يَرَوْنَ حِسَانًا مِنَ السَّادَةِ وَالسَّيِّدَاتِ ، وَخَدَمًا سُودًا وَرَاءَهُمْ ، يَنْزِلُونَ مِنْ قِطَارٍ أَيْضَ ذِي خَوَادِعَ<sup>(٦)</sup> غَيْرِ

(١) البير : المهلك — (٢) المسار : ما تشغل به النار — (٣) الأوار : الحر .

(٤) الذقل : نبت زهره كالورد الأحمر وحله كالخرنوب — (٥) قصد المؤلف الباز من

كلمة هوروس — (٦) الخوَادِعُ : جمع الخادعة ، وهي الباب الصغير في الباب الكبير .



٢٩ — فلاحون في عهد الفرعنة



شَفَافَةً وَذِي مِضْرَاعَيْنِ مِضَاعَيْنِ وَذِي أُنْثَى رُبْدَى الْوَلَوْنِ ، وَهُمْ يَرَوْنَهُمْ يَرَكُونُ  
الْخَيْرَ ضَاحِكِينَ لِيَزُورُوا الْمَعَادَةَ ، وَهُمْ يَرَوْنَ السِّدَاتِ مِنْهُنَّ سَافِرَاتٍ لِبَاسَاتٍ  
سِرَافِيلَ ، وَهُمْ يُنْسِكُونَ الْخِشْيَ الضِّيقَ بِأَيْدِيهِمْ الشَّعْرَ حِينَ مَرُورِهِمْ عَلَيْهِ  
مِنْ أَدْنَى دَرَجَةٍ إِلَى نَاحِيَةِ الْمَرْكَبِ ، ثُمَّ يَشَاهِدُونَهُمْ يَتَنَاوَلْنَ الْقَهْوَةَ عَلَى الشَّاطِئِ  
وَهُمْ يَقْرُضْنَ غِلَامًا بَلَدِيًّا جَمِيلًا أَوْ يَمْسُكُنَّهُ بِأُذُنِهِ الْعَارِيَةَ شَعُورًا بِحِرَارَتِهِ الْبَدْنِيَّةِ ،  
وَهُمْ يَشَاهِدُونَهُمْ مَسَاءً عَلَى كُرَاسٍ مَرْكَبِيَّةٍ بِجَانِبِ سَيِّدٍ فَاتِرٍ الْمَزَاجِ ظَاهِرًا مُتَأَمِّلٍ فِي  
سَمَاءٍ يَجْهَلُهَا أَهْلُ الشَّمَالِ ، وَلَكِنْ مَعَ وَقْفِ بُرُوجِ السَّمَاءِ لِأَنْظَارِهِمْ ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ  
مَصْرٌ عِنْدَهُمْ لَيْسَتْ غَيْرَ مَرَحَلَةٍ تَنَاسَخَ تَأَمَّلُ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ فِيهَا أَنْ تَكُونَ  
كَلِيوًا بِاتَرَةٍ وَأَنْ تَحْدِثَ فِي طَلَبِ قَيْصَرَ الْإِنْكِلِيزِيِّ .

وَأَمَّا الْفَلَّاحُ الْخَلَّاسُ الَّذِي يَسْقِي أَحْوَاضَ الْأَزْهَارِ مِنَ الْمُحْتَمَلِ أَنْ يَكُونَ أَخَا  
لِلَّذِي زَارَ الضَّرِيحَ الْمَسْكِيَّ فِي هَذَا النَّهَارِ ، وَمِنَ الْمُحْتَمَلِ أَنْ تَكُونَ نَظَرُهُ  
امْرَأَةً بِيضَاءً ، مَرَّتْ رَاكِبَةً فِيهَا مَضَى ، قَدْ أَصْفَرَتْ عَنْ عَيْنَيْهِ فِي هَذِهِ الْحَدِيقَةِ  
النَّاصِرَةِ ، وَمِنَ الْمُحْتَمَلِ أَنَّهُ مِنْ حَقْدَةِ ذَلِكَ الَّذِي كَانَ يَسْقِي مِنْذُ خَمْسَةِ وَثَلَاثِينَ قَرْنًا  
فِي الْمَكَانِ نَفْسِهِ حَدِيقَةً وَزِيرٍ نَالَ السُّلْطَانَ وَالْثَرَاءَ بِفَضْلِ امْرَأَةٍ أَوْ عَنْ حَظٍّ سَعِيدٍ ،  
وَمَاذَا رَأَى ؟ وَكَيْفَ بَدَتْ الدَّوْلَةُ الطَّبِيعِيَّةُ لِهَذَا الْفَلَّاحِ الَّذِي خَدَمَهَا فِي زَهْرِهَا ؟  
وَكَانَ فَلَاحُ الْقِرَاعَةِ يَعِيشُ فِي الْحُلِّ عَيْنَهُ وَتَحْتَ ظِلِّ أَجْدَادِ هَذِهِ النَّخْلَةِ فَيَسْمَعُ  
ضَجِيجَ الْمَدِينَةِ الْكَبْرَى الَّذِي يَصِلُ إِلَى سُورِ حَدِيقَتِهِ ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ طَبِيعٌ بَدَتْ  
لَاوَمِيرُسَ ، أَيْضًا ، أَسْطُورَةً مَجِيدَةً ، « قُصُورُهَا مَمْلُوءَةٌ بِضُرُوبِ النَّفْيِ ،  
وَأَبْوَابُهَا الْمُنْتَهَى لِيَخْرُجَ مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا مِثْلًا مُقَاتِلًا مَعَ حُصْنِهِمْ وَعُدَّتِهِمْ » .  
وَالْحَقُّ أَنْ أُوْمِيرُسَ كَانَ يَعِيشُ بَعْدَ دَوْرٍ عَظِيمَةٍ طَبِيعَةٍ بِمِثْلَاتِ السَّنِينَ ، فَلَمَّا مَضَتْ

أربعة قرون لم يَجِدْ هِيرُودُونُس في مكان طيبة غيرَ « طَيْفِ ضَخَم » .

وكان الصَّخَبُ كبيراً على ضِفَةِ النيل تلك حين إسقاء فلاح الفراغة بالأحواض تلك ، وكانت أعظمُ مدن القرون القديمة قائمةً هنالك ، وكان الفلاح يميزُ نشيدَيْن من خلال الضوضاء ، وهنالك ، حيث كان يَضَعُ مئاثٍ من إخوانه يُحْمَلُونَ سفنَ الفراغة الشراعيةَ أكياسَ القمح ، كانوا يُنْشِدُونَ قائلين :

« نَجْرُ حَتَّى اللَّيْلِ سَنَابِلَ الْبُرِّ وَأَكْيَاسَ الْحَبِّ ، وَتَنْطَفِعُ الْأَهْرَاءُ حَتَّى الدَّرَجِ ، وَتُكَثِّرُ الْكَدَّرُ <sup>(١)</sup> أَلْفَ مَرَّةٍ ، وَتَنْطَفِسُ السُّفُنُ الْوَاسِعَةُ وَيَمْلَأُ الْقَمَحُ الصُّفَافُ ، وَلَتَنْحِيلَ بِلَا رَاحَةٍ ، أَفَرِيدُونَ شُرْبَ دِمَائِنَا ؟ » .

وعند ما تَقِفُ ضَجَّةُ تِلْكَ الْجَوَافَةِ يَسْمَعُ الْفَلَّاحُ عَنْ كَثِيبٍ ، وَتَحْتَ الْجُبُيزِ ، حيث تستريح سِيدَتُهُ عَلَى بُسْطٍ ، غِنَاءُ هَذِهِ السَيِّدَةِ وَعَبْدِهَا :

« اشْرَبْ حَتَّى التَّمَلُّ ، وَتَمَتَّعْ بِهَذَا الْيَوْمِ الْجَمِيلِ ، تُبْرِزُ الْجَارَةُ فِي الْغَيْصَةِ ، فَاسْتَعْدِ مِنْ زَمْنِكَ ، أَجَلٌ ، حَتَّى الدَّجَرِ <sup>(٢)</sup> صُبَّ ثَمَانِي عَشْرَةَ مَرَّةً فِي كُوْبِي الذَّهَبِيِّ ، ثُمَّ <sup>(٣)</sup> هَذَا الْجَفَافَ الَّذِي لَا يُسَمِّيهِ لِسَانٌ فَأُضْنَانِي » .

يَسْمَعُ الْفَلَّاحُ وَيَضْمَتُ ، وَهُوَ يُفَكِّرُ أَكْثَرَ مِمَّا يَظُنُّ سَادَتَهُ ، وَتَمَلُّ هَذَا مِنَ الْبَرْدِيِّ الْخَفِيِّ ، وَفِيهَا هُوَ يَهْمُ بِإِطْعَامِ الطَّيُورِ الْمَائِيَةِ فِي الْبَرَكَةِ إِذْ يَأْتِي خَدَمُ آخَرُونَ بِمَوَائِدَ صَغِيرَةٍ فَيَقُومُونَ بِخِدْمَةِ سَادَتِهِمْ وَضُيُوفِ سَادَتِهِمْ ، وَيَقْفِزُ الْأَوْلَادُ فِي دَاخِلِ الْمَنْزِلِ حَوْلَ وَالِدَيْهِمْ مَعَ أَقْرَابِهِمْ وَبَحَائِنِهِمْ ، وَيُعِدُّ الْعَبِيدُ الْكِلَابَ وَالْقِرْدَةَ لِتَكْمُلَ الْوَلِيَّةُ ، وَيَجِدُ أَوْلَئِكَ كُلَّ شَيْءٍ فِي الشَّرَاقِ وَقْتَ الْمَسَاءِ ، وَيَتَنَاقَشُونَ بَيْنَ الْبَيْتِ وَالْحَدِيقَةِ الْقَصْفِ وَالضَّحِكِ وَالْخُرِّ وَالْجَعَةِ وَالْحَبِّ .

(١) السكدر : جمع السكرة ، وهي القبضة من الزرع المحسود — (٢) الدجر : السكر .

(٣) ثراه : نداء وبه .

وخرُّ الدلتا نادرة ، غير أن الحِجَّة هي مُسْكِرُ المصريين اليوم<sup>(١)</sup> ، وكانت الحِجَّة تُصْنَعُ من القمح المطحون بِمَدَاقٍ حَجَرِيَّةٍ على أن يُبَلَّلَ بعدئذٍ وَيُسْحَقَ في دَنٍ وَيُجَنَّبَ في مُنْخَلٍ ثُمَّ يَمَصَّلُ<sup>(٢)</sup> ، وكانت هذه الحِجَّة تُحَفَظُ في قُلَلٍ<sup>(٣)</sup> وَتَمَصُّ<sup>(٤)</sup> بِالزَّرِينِ ، وكانت تُوضَعُ بِطَاقَاتٍ على جِرَارِ الحِرِّ للدلالة على قَدَمِها ، فَيُكْتَبَ على تلك البطاقات : « جيدة ، جيدة مرتين ، جيدة ثمانِ مرات » ، وكانت جميعُ الجِرَارِ تُزَخَرَفُ بالسُّدُرِ كما تُزَيَّنُ به المائدةُ وشعورُ النساءِ ، وكان النساءُ يَأْذَنُ للرجالِ في شَمِّ شَذَاهُ عليهنَّ ، وكان النساءُ يَتَّقِنُ الحِرَّ في بعض الأحيان ، ومن المحتمل أن كان أرسطو يُفَسِّكِرُ في أفاصيصٍ مصريةٍ عند ما قال إن سُكَّارِي الحِرِّ كانوا يَرْتَمُونَ إلى الأمام ، وسُكَّارِي الحِجَّة كانوا يَرْتَمُونَ إلى الوراء .

وهكذا كانوا يَجْلِسُونَ في ناحيةٍ من الحديقة على حُصْرٍ مُلَوَّنَةٍ مصنوعةٍ من البَرْدِيِّ غيرَ بعيدٍ من كَوَّائِنِ القمح التي كان الطُّهَّاءُ يَشَوُّونَ عليها السبَكُ السُّفْدَ<sup>(٥)</sup> وَالْإِوْزَ ، أى أطعمةَ المصريين المُفَضَّلَةَ ، كما كانوا يَشَوُّونَ عليها لحمَ البقرِ ، وكان النِّلْمَانُ العُرَّاءُ والراقصاتُ غيرُ المستوراتِ تقريباً يأخذونَ من الأوضاعِ ما هو تصويريٌّ في ليل ذلك العَرَضِ الذي يُرْسِلُ سُدُولَهُ فَبْجَاءَةً ، أو كانوا يَرْتَقِصُونَ على نورِ مصابيحِ زيتٍ صغيرةٍ فيُوزَّعُونَ عِطْراً سِدْرِيّاً على أولئك السادة والسيدات بين ما لا حَدَّ له من ألحانِ العُودِ والقِيثَارِ ذى الأوتارِ السبعةِ واللِّزْمارِ للزدوجِ ، وكان النساءُ يَضْطَجِعْنَ هنالك لابسَاتٍ ثياباً خفيفةً لَا تُمَسِّكُهَا شُرْطُ الكَتِفِ إلا للحين الذي يُرِذْنَهُ ، وقد كُنَّ يَبْذُلْنَ من العناية بشعورهن ما يَفْضِيْن

(١) ممله : وضعه في خرقٍ ونحوها ليطر ماؤه — (٢) القل : جمع القلة ، وهي الجرّة .

(٣) صه : سده — (٤) سفد اللحم : نظفه في السفود للاشتواء ، والسفود حديثة يشوى عليها اللحم .



معه ساعاتٍ في تمشيطها وتمويجها ومنع رياضها بدِّهانٍ غريب مصنوع من دُهْنٍ بقر الماء وتمهِّدُها بجرهم من أسنان الأتان مسحوق مع العسل ، وقد كُنَّ يَعْرِفُنَّ ، أو يُخَيِّلُ إليهن ، أن الشعرَ مَقْرُ إِرُوس<sup>(١)</sup> كما كُنَّ لهذا السبب يَدُهْنُ أَجْطَانِهِنَّ باللون الأخضر وحواجِبهن باللون الأسود مع الإطالة زيادةً في التماع لحاظهن وجمالِ عيونهن .

وكان ذلك يَقَعُ بين سنة ٢٠٠٠ سنة ١٠٠٠ قبل الميلاد ، أى بين إِرْهِيمَ وأُمِيرِس ، وذلك حين كان العالمُ بأسره مأهولاً بالبرابرة فيما عدا السهل الواقع بين النهرين : الفرات ودجلة .

## ١٢

بلغ قدماء المصريين الغايةَ بفضل تدوُّقهم الحياةَ ونشاطهم الذى يَزِيدُ بتمثلهم المتصل المتجدد للموت ، وبفضل صحَّتْهم وسنَاءِ شمسهم وما يُسْفِرُ عنه فيضانُ النيل من رَخَاءٍ ، غير أن هذه الأحوال خَطَّتْ حدود إحساسهم ومعرفتهم ، ويضاف هذا الإحساس إلى أشدِّ مرح في الحياة ، ولا يكون هذا الإحساس حيث تُؤَدَّى ظلالُ الشَّفَقِ إلى حكمةٍ أعمق من تلك ، وتمتدُّ الصحراء بجانب الخُضرة ، بجانب قُدرةِ علمهم على الإبداع ، والدمعُ يبدأ عندهم حيث يبدأ عالم ما بعد الطبيعة لدى الشعوب الأكثرِ جِرْماناً من الشمس ، ونشأ عن حرارة عبادتهم للحياة ما في عبادتهم للموت من مخالفةٍ للصواب ، ولا فلسفةٍ لشعب لا ظِلَّ عنده .

وذلك يُوضِّح لنا إبداعَ الشعبِ البالغِ من الأساس ، وكونه اختراعَ الكتابةِ التى

(١) إروس : اسم يوناني لإله الحب .

توجب دوام الدولة بالعلم ، لا بالحرب ، وعدم تحليقه في سماء ما بعد الطبيعة فلم يترك أنشودة مؤثرة ولا قصيدة حماسية ولا ديانة حقيقية ، وإتنا بعد تخطيط هذه الحدود ومعرفة سنن الطبيعة التي فرضتها لم نر غير الإعجاب بمصر في فجر الحضارة .

وأخذت حيوية ذلك الشعب تبهرنا بعد حلّ الوثائق ، وإذا كانت أقلية من الأغنياء وحدها هي التي تمتعت بتلك الحياة فإنه لا ينبغي لنا أن ننسى أن مبدأ المساواة لم يكن موجوداً منذ خمسة آلاف سنة أو ستة آلاف سنة وأن الرق كان أمراً طبيعياً في مصر أكثر مما لدى الأغارقة ، ولدى النصارى الذين انتهكوا أدبه ، بعد ذلك بزمن طويل .

ويالتحدي أولئك القوم للموت ! فلما بلغ رمسيس الثاني من العمر ثمانين سنة احتفل برجوعه إلى الشباب في عيد ست ، وقد داوم على القيام بمثل ذلك الاحتفال حتى السنة التسعين من عمره ، وكانت كل مسألة تُنصب تذكاراً لتلك الاحتفال تشتمل على إنباء الآلهة بذلك الرجوع إلى الشباب ، وكانت تُزخرف بمزيج من الذهب والفضة فتعكس عليه أشعة الشمس وتُملأ مصر بذلك نوراً ، ومما حدث أن هاتف الغيب أنبأ بأن أحد قدماء القראה ميسيرينوس لا يعيش أكثر من ست سنين فقضى هذا العاهل ألفي اليوم للذين بقياً له في العُجور وكذب الآلهة بأن عاش ست سنوات أخر على هذا الطراز .

ودرس أطباء المصريين منذ أقدم الأزمان جسم الإنسان الذي يجب أن يبقى بأى ثمن كان ، ووضع هؤلاء الأطباء أسس علم التشريح وعلم الأمراض ، فكان عند المصريين متخصصون في حال كل عضو أصلي ، ومن المحتمل أن شيئاً في مصر لم يؤثر في هيرودوتس تأثيراً عميقاً أكثر من مشاهدته فيها رجالاً لا يسألون غير

للبيدين صحةً ، ويُعدُّ هيرودوتسُ المتخصصين والنسيلات وكلَّ مرضٍ ينشأ عن تغذية ، ويعزو هيرودوتسُ هذه الصحة العامة إلى تساوى الإقليم فيصُرُخ قائلاً : « يَمُوجُ البلد بالأطباء ! » .

وإذا ما فاخر پيپيس ورميس ببلوغ أحدهما الخامسة والتسعين . وبلوغ الآخر المئة من العمر ، وإذا ما زعم أحد الفراغة أنه جلس على العرش خمساً وتسعين سنة ، أى أطولَ عهدٍ ذُكر في تاريخ العالم ، لم تكن هذه الأرقامُ قريّةً من الصدق فقط كالأرقام التي جاءت في التوراة ما دامت تنمُّ على فراغةٍ حافظوا على قُوَّتهم حتى النهاية ، وكان لرميس الأكبر من الذكور ١١١ ولد ومن الإناث ٥٩ ولداً ، أى من الأبناء ما يُعدُّ دون الحقيقة عند ما يُنمُّ النظر في أهمية دائرة حريمه ، وكان الفراغة يُحيطون حتى محاولات القتل بين المكاييد التي لا حصرَ لها وبين البنين والحبّة وبين ذوات الحقد من النساء والبنات اللاتي ينتظرن موتهم ، فإذا عدّوت الثورى الكبير لم يجد من قتلته حاشيته إلا نادراً .

وكانوا من اللقادم الذين لا يرهبون الردى ، فكانوا يشتركون شخصياً في الحروب التي يؤقّدون نارها ، وقد ثبت عندنا ذلك بما نعرفه من الكتابات والتصاوير الجدارية وحدها ، وبما كان من استمرار الملوك مدة ألف سنة بعد آخر الفراغة على دعوة أعدائهم إلى المبارزة وفق العادة .

حتى إن الخطر كان يلوح في القينة بعد القينة حينما كانوا يصطادون الصوّارى التي توارت عن مجرى النيل الأدنى فيتعقبون بقر الماء بالحِراب ، فما كان مئة عبدٍ نوبى ليقدروا على إنقاذ فرعون عند ما يهاجم هذا الحيوان الضخم قاربه ، وكانت التماسيح تُخادع بقطع من الخنزير قتلاً لها بخطاف<sup>(١)</sup> ، فتقدّر ،

(١) الخطاف : حديدة يخطف بها .

حتى حين التزع ، على تَلَقُّفٍ<sup>(١)</sup> ذراعٍ أو ساقٍ ، وإذا ما افتخر أحدُ القرائنة في كتابةٍ على ضريحه بأنه صرَّعَ من الأسود ١٠٨ لم يَكُ هذا غيرَ قصةٍ صائده ، وكان العبيدُ ، بعد الصيد ، يَبْقَرُونَ بطونَ الحيوانات المذبوحة ويَحْرِجُونَ ما تحويه كُرُوشُها ، وفي القصة أن رجلاً ابتاعَ تمساحاً ميتاً فَأَثَرَى بما وَجَّده من خُلِيٍّ ذهبية لم يَهْضُمُها مع ضحاياه ، وفي تراجم أولياء الأمور المنقوشة على قبورهم تمجيدٌ للأبطال الذين قَضَوْا على جبابرةٍ وأُسودٍ كما في روايات القروسية ، وكانوا يُشِيدُونَ بذكر أسلافهم في كلِّ مكانٍ فتَجِدُ ، حتى بين زخارف موانئهم الفضية ، تصويراً لحيوانات النيل والصحراء النادرة .

وهم ، إذ يقيمون الدليلَ على بسالتهم وخُبثِهم على ذلك الوجه ، كانوا يَجْلِسُونَ أمام أقداح خمرهم وِجَمَهم ، وَيَتَلَهَّوْنَ بمشاهدةِ حركاتِ راقصاتهم البهلوانية الرائعة ، وَيُزِيلُونَ إلى حَوْضٍ حديقَتهم قارباً « مع عشرين امرأةً من ذوات الصدور والظهور الكاملة التكوين ، وَيُطْلُونَ كلَّ واحدةٍ منهن مِجْدَافاً مصنوعاً من الأبنوس المرصَّع بالذهب ، ومشتتلاً على مِقْبَضٍ مُصَفَّرٍ بالذهب والفضة ، ثم يُلقُونَ عشرين شَرَكاً عليهن » ، وَيُطَافُ في الوقت نفسه بتابوتٍ مشتتِلٍ على مومياء من خشب ، فيُنشِدُ عبدٌ شاعرٌ مُعَنِّياً لهم :

« اليوم تموت الأبدان كما في الماضي ، وبعضها يحيا وبعضها يصبح غابراً ، وهي تَرْقُدُ مُحَوَّلَةً في الأهرام ، فإين من تَبْكِيهم الآن ؟ لم يَدُ من الغرب واحدٌ منهم قطُّ لِيُلبِيقَ السكينةَ في نفوسنا عما وراء ذلك ، كُنْ شجاعاً ، فلا تَقْصُ في منزلك ، واحتفلْ بهذا اليوم كأنه خيرُ الأيام ، وَصَبَّ المرءُ الصافي على شَعْرِكَ واسترَ جِسْمَكَ

(١) تَلَقُّفُ الشيء : بلعه .

بكتان خفيف ، والظلام آتٍ لا ريب فيه ، ولا أحد يزجج إلى نهار غادره .  
ولم تك روحية قط بهجة الحياة التي تتجلى على ذلك الوجه في جميع تلك  
الصُور الجدارية ، وفي جميع الأفايصص المكتوبة ، ولعبة الترد هي أكل مظاهرهم  
الروحية ، وما أتمه كهاتهم العلماء من أمور كبيرة فقد أتوه في سبيل غاية ، في سبيل  
الدولة ، فكان محل إعجاب لهذا السبب ، والبناء والمهندس ، لا المفكر والشاعر ،  
هما اللذان بنالان الثراء والصيت ، وكان هدف الحياة لدى المصري أن يقدو كثير  
النساء والولد ، فأحد القراعة يتقبل ٣١٧ امرأة غريبة هدية في دائرة حريمه ،  
وفرعون آخر يأذن لابنة حاجبه أن تحبل الثعبان المقدس ، أى التاج ، ما دامت  
تشاطره فراشه ، وقد نقش رمسيس الثالث على ضريحه نفسه مع أفراد دائرة حريمه  
فبدا عارياً وبدت نساؤه لابسات قلاند ونعماً فقط ، وهؤلاء النسوة العاريات  
هن اللاتي اثترن بحياته بعد حين .

ولم تكن الملكات ، حتى القادرات منهن ، ليستطعن أن يكن صاحبات  
دوائر الحریم ، وكان من عوامل تسليتهن أن يتخذن جميع أساليب الحب ،  
ولو كانت مضادة للطبيعة على رواية بندار<sup>(١)</sup> ، وكُن يعرفن ، على الخصوص ،  
أنهن يجازفن بحياتهن في كل حين ، وكان الأدب الرأى في ذلك الزمن يؤدى إلى  
مجازاتهم على انهما كهن في ملاذ تقرضها العادة على أزواجهن تقريباً ، وما كان بين  
الأخ والأخت من غرام وزواج تقليداً لزواجات القراعة الحكومية الإلهية فنقرض  
به ، أيضاً ، وجود شيء من الفساد الجنسي ، وفي كثير من الأفايصص خبر عن  
قتل المرأة الخائنة ، ورعى جثتها للكلاب ، ومن ذلك أن زوج الساحر الأكبر

(١) بندار : أمير الشعراء الفنايين لدى الأغارقة (٥٢١ — ٤٤١ ق . م . ) .

أوبانير كانت من الفعلة ما استخفت معه بما لبغليها هذا من قوة جنسية وقدرة على العرافة فمزق العاشق تمساح أهلي<sup>(١)</sup> واكتفى الزوج بمعاينة زوجته بعقاب عادي ، أي بحرقها ، ومن ثم ترى أن الأزواج الذين يُختانون<sup>(٢)</sup> كانوا ، منذ عهد خوفو البعيد ، يشعرون بحقدٍ على أزواجهم أقل مما على عشايقهن .

وكان من شأن حياة البلاط وما فيه من ترفٍ عظيم أن زاد المؤثر النسوي وكثرت مكاييد النساء ، وكان الزواج يُفرض إبعاداً للأعداء ، وكان الثلالة<sup>(٣)</sup> يُفضلون على أولاد الفراش<sup>(٤)</sup> ، وكانت ذكرى ليلة غرام تُقرر أمر الميراث ومصير المملكة في بعض الأحيان ، وكان النساء والكهّان على اتفاقٍ في الغالب ، فكان البريق الذي يخرج من تمثال الرب في أثناء أحد الاحتفالات يُعين النخيل الذي يقدو ذات يوم من القراعنة بتزويجه ابنة فرعون .

ويُنفي زمن فيجل بمصر ضرب من القرن الثامن عشر فتشعر الفتاة البالغة عاشقها وتقول له :

« تعال معي إلى الحمام ، فيلأم فيمعي الكتان في الملك رغبتيك وأحاسيسك ، أذعوك إلى طرف البركة ، فجئ لترى إحاطة الأزهار بدثاري ، وهناك أصطاد السمك حين أستبح ، فتبلغ أنت يدي بفتة ، كن رفيق في الماء ، غادر الأرض ! » .  
ويؤد الفتى البالغ أن يقوم مقام العبد الذي يُعزى سيده ، ويتمثل المخاطر الخيالية ويقول :

« ولم تسكن أختي بعيدة في الناحية الأخرى من النيل ؟ تجد بين ضفتي

(١) اختانه : خانه — (٢) الثلالة : جمع النخيل ، ولد الزنا — (٣) القرائش : الزوج ، فإن كل واحد من الزوجين يسمى فراشاً للآخر .

## طية

وَضِيفَتْهَا تَمْسَاحًا كَثِيرًا لَا يُرَاعَى أَحَدًا ، وَأُلْقِيَ نَفْسِي فِي الْمَاءِ مَعَ ذَلِكَ بَادِنًا بِرَأْسِي ،  
وَيَكْفَحُ جَسْمِي الْمَوْجَ حَتَّى تَصِيرَ الْأَرْضُ تَحْتَ رِجْلِي ، حَتَّى يَتَّصِلَ بَدْنِي بِبِلْدِنِهَا  
الْعَذْبِ ، فَإِذَا مَا أَدْنَيْتِ شَفَتَيْكَ مَنِ سَكِرْتُ بِبَلَا جَعَةٍ ١ .

## ١٣

كَانَ السُّلْطَانُ أَعْظَمَ بَاعِثٍ لِبُهْجَةِ الْحَيَاةِ عِنْدَهُمْ ، وَكَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ فِي مَهْرَمِ  
الدَّوْلَةِ ، الَّذِي يَرْتَفِعُ مِنْ أَصْفَرِ جَابٍ إِلَى فِرْعَوْنَ الْمَوَلَّةِ ، يَطْلُعُ بِبَصَرِهِ إِلَى أَرْقَى  
مَكَانٍ مُمْكِنٍ وَإِلَى نَيْلِ السَّعَادَةِ بِالثَّرَاءِ وَوَلَاءِ الْجُمْهُورِ ، أَيْ بِمَنْصَرِفِي الْجَاهِ ،  
وَكَانَتْ طِيَّةٌ ، قَبْلَ تَأْسِيسِ رُومَةِ بَأَلْفِ سَنَةٍ ، جَامِعَةٌ لِكُلِّ مَا عِنْدَ الشُّعُوبِ  
الْمُخَاضَةِ وَلِكُلِّ مَا يَأْتِي بِهِ التِّجَارُ مِنْ شَوَاطِئِ الْبَحْرِ الْمُتَوَسِّطِ وَشَرْقِ افْرِيقِيَّةِ ، فَلَمَّا  
بَسَطَ أَصْحَابُ مِصْرَ الْعُلِيَا سُلْطَانَهُمْ عَلَى جَمِيعِ الْبِلَادِ قَبْلَ الْمِيلَادِ بِأَلْفِي سَنَةٍ أَقَامَتِ الْأَسْرُ  
الْمَالِكَةُ فِي الدَّوْلَةِ الْوَسْطَى وَالدَّوْلَةُ الْجَدِيدَةُ هُنَاكَ مِثَالُ الْمَعَابِدِ وَالْقُصُورِ فَتَجَمَّعَتْ  
حَوْلَهَا الْمُخَازِنُ وَالْمَصَانِعُ وَالْمَخَابِيُ وَمَا لَا يَمْتَدُّ إِلَيْهِ الْبَصَرُ مِنْ أَحْيَاءِ الْمَغَانِي<sup>(١)</sup> وَأَكْوَاحِ  
الْفُقَرَاءِ فَرُؤِي أَنَّ سَكَانَ تِلْكَ الْمَدِينَةِ بُلُغُوا مِنَ الْعَدَدِ مِليُونًا ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْ جَمِيعِ  
هَذَا بَيْتٍ وَلَا قَصْرٍ لِيَا كَانَ مِنْ بِنَاءِ كُلِّ فِرْعَوْنٍ لِنَفْسِهِ مَنَازِلَ خَفِيفَةً قَطُّ ،  
وَلَمْ يَبْقَ هُنَاكَ غَيْرُ الْقُبُورِ وَأَعْمَدَةِ الْمَعَابِدِ ، وَقَدْ زَالَ كُلُّ أَثَرٍ آخَرَ مِنَ آثَارِ  
الْإِنْسَانِ هُنَاكَ .

وَكَانَ يَصِلُ بِطَرِيقِ النَّيْلِ كُلُّ مَا تَعِيشُ بِهِ أَوَّلَى الْعَوَاصِمِ الْكُبْرَى تِلْكَ ،

(١) الْمَغَانِي : جَمْعُ الْمَغْنَى ، وَهُوَ الْمَنْزِلُ .

يُطعم جميع من هم تحت إمرته

فكانت المراكب الشراعية الكبرى تأتيها من الجنوب بالأعمدة والمسلات وبما هو ضروري لإنشاء الجسور والمابدوتيجان الأعمدة من الفرائيت والحجر الكلسي، وكانت المراكب الخفيفة تأتيها بالبَرْدِيَّ والطيور والسماك وأُخْطَصِر، وكانت تصل إليها من الشمال، أي من الدلتا ومنفيس، أساطيل حقيقة مشحونة بالبُرِّ، وكانت هذه الحركة التجارية تدوم العام كله، كانت تدوم من يولييه إلى يولييه، لما لا يكاد ينبت حَوْلَ طيبة ما يكفي لتموين قرية واحدة، ومما كان يحدث أحياناً أن تمر السلع النادرة من الدلتا آتية من جُزُر البحر المتوسط ومن سواحل البلدان المعادية أو الصديقة، ومن قبرس وإقريطش وبابل وسورية وبلاد العرب، وكانت تلك السلع مؤلفة من الحرير والمعادن والقواكه والخر على حين يَرِدُ من الجنوب خشب النوبة والحجارة الثمينة والألأزورد واليَضْبُ والمييد والذهب، وما كان الذهب، الذي هو مصدر كل سلطان، يجيء من إثيوبية وحدها، بل كان يجيء من الدلتا وسيناء وسورية وتبريز.

وكانت ألوف العرّاة من الآدميين بتلك الصفة تعاني في ألف سنة تفرغ جميع ما يجلبه النهر، وكان السيلان والقيضان في مجرى النهر القواني يَحْمِلَان السفن التي لا يُزْعِجها سوى الأمواج وكُثْبَان الرمل، وكانت الثيران والبُغْزَان والسُبْدَان تجذبها في مجرى النهر التحتاني فيكون للهلك بذلك ما يتقضى به جميع أوطاره. ولا تقل رغبته الشخصية وحدها، فهو لكي يدافع عن حياته ويحافظ على سلطانه كان زاماً عليه أن يُطعم جميع من هم تحت إمرته من الفلاحين الذين يحتملون كل شيء ومن ألوف أسارى الحرب الذين هم من المدّنيين والكتمانيين والليبيين والنوبيين ومن إليهم من السيد الغُرباء الذين يتعذر التفوذ في نفوسهم، ثم من جَحْفَل



الكتبة والحاسين والموظفين والمديرين والشرطين الحارسين للملك مع استنزاف خزائنه ، وبما لا يحصىه عدّ من قطاع المواشى التى تساوى الملايين ، ومن أوف الثيران الموقوفة على الإله ، ومن تمّ على فرعون .

وذلك لأن فرعون نفسه كان إلهاً ، وهذا ينطوى على سرّ فراغة مصر ، ولم يظهر على ضفاف الفرات ملكٌ فى ذلك الحين كان من الجرّة ما يجهر معه بأنه إلهٌ كفرعون على ضفاف النيل ، ويتقاضى دّور القبائل المتساوية حقّواً ، ويلوح أن حكومة من الأعيان اختارت أقدر رجالها أو أوسعهم حيلةً رئيساً لها ، ويشيد هذا الرئيس لنفسه معبداً ويُعلن الكهانُ ، عن خوفٍ أو عن طمع ، أنه الكاهنُ الأعظم ، ويُلقبُ منصبُ الوسيط النّصف بين الرّبّ والشعب ، ويُفرض لمعرفة مشيئة الآلهة أن يخاطب ، فيما بعد ، ذلك الذى يقبض على زمام السلطة فى البلد والذى يتحل ، بحكم الطبيعة ، قدرةً خارقة للمادة والذى يصرّح بأنه وارث لأوزيرس وابن له ، ويقعُ هذا منذ عهد الدولة القديمة ، أى قبل إقامة منفيس ، وينادى الملك الأول الذى وحد شمال مصر وجنوبها ، ميناء بنفسه وارثاً لأوزيرس ومليكاً للأرض الخصيبة ، وكان هذا قبل الميلاد بثلاثة آلاف سنة .

وكان باني الهرم الأعظم خُوفو قد حمل لقب ابن أوزيرس ، « ابن رع » ، مؤحداً السماء والأرض بذلك ، وإذ أن فرعون ابنُ الله وكاهنٌ وحاكمٌ وقائدٌ جيوشٍ وساحرٌ فإن له كلّ شيء ، فإن له النباتات والحيوان والإنسان ، وعادت الأرض فى هذا البلد ، حيث كان الحكم لأشجع الناس وحيث كان هذا الشخص يُقدّم حساباً عن نفقاته لأمثاله فى كلِّ عام مرتين ، مُلكٌ إلهٌ لا رقيب عليه ، ولهذا الإله أن يُقرّر كلّ نظام للمجتمع حتى فى مملكة الأموات ، وقد أصبح

كل شيء لابن أوزيريس ، وقد صار كل شيء ممكنًا لابن أوزيريس ، أفلم يقرأ في سايس على قاعدة أمه إيزيس : « إنني كل شيء كان ويكون وسيكون ، وما استطاع إنسان أن يرفع النقاب الذي يسترني ؟ » ويعني هذا عند فرعون « أن كل شيء يرؤفني عادل وأن كل شيء يكدرني جائر » .

وكان القوم يسجدون أمامه كما يسجدون أمام صنم ، وكان من الخطوة أن تقبل رجله بدلاً من تنيل الأرض التي أمامه ، ولم يكن لينطق باسمه في البلاط ، وكان يقال : الطاعة في القصر ، الإله ، أمر به ، فكيف يحافظ وارث أو حديث نصية على توازنه تجاه هذا ؟ وإذا سأل مستشارو فرعون رأيه حول بئر تحفر في حد الصحراء أخذ الوزير يقول : « أنت شبيه برع في كل شيء ، وكل شيء يؤد فؤادك كائن ، وإذا رغبت في شيء ليلاً حقق فجراً ، وإذا قلت للماء اعل الجبل هاج البحر المحيط وماج » .

وكان فرعون ، الذي لا يستطيع النوم مع هذا الخطاب ، يأخذ من أتراء حلفاء بأسية مثل الكتاب الآتي : « أرسل إلى ذهاباً ، فقد كان أبوك يُرسل إلى ذهاباً » ، وعجب سموه الأمير البعيد بيبايل من عدم أخذه ذهاباً فقال : « تستقبل رُسلي بناتي المتزوجات ملوكاً فيقدمن إلى ذهاباً معهن » ، واسمع جواب توتنوزيس عن ذلك : « أجل ، إن جوارك من اللوك أقوياء جداً ، ولكن ماذا تملك ابنتك التي هي بجانبني ؟ فلو حدث أن أرسلتها إلى مع شيء قليل منك لأرسلت الآن هدية ثمينة إليك ، وذلك لأنك مُزوَّج بناتك لتنال فوائد من وراء ذلك » .

وكان لحكومتهم الإلهية نظام عجيب ، ولكن مع عدم صلة بالآلهة الحقيقي ، فكان هذا النظام يتنمو ويترول كالنابة البكر ، وكان ما يدور حول الآلهة التي كان

فرعونُ ابناً لها من عقائدٍ وأساطيرٍ وأسماءٍ وخصائصٍ يَتَغَيَّرُ في غضون القرون ويتبدَّل بحسب الأماكن في الوقت نفسه ، ويُعدُّ آمون رَع الإله الأعلى على العموم .  
وتَصْعُقُ امرأةٌ أحدَ القراعنة قبل الميلاد بثلاثة آلاف سنة ، ولكن بفضل « الروح القدس » .

ولم يَصْلُحْ هذا الأصلُ المزعومُ أنه إلهيٌّ لغير تلقين الجماعات ، ولم يَظَلَّ ضرباً من الطُّفوس فقط ، وكان الرجال الذين ما انصكُّوا يؤثِّفون أُسْراً مالكةً جديدةً ، ويَبْدُون رؤساءً للجيش أو الأقاليم ، يعتقدون صحة ما لم يكن لدى آبائهم الساذجين الساكرين سوى وسيلةٍ للسيطرة ، وكانت تُعْزِمُ روحُ النقد والنكتة والحكمة ، وكانوا يعتقدون أنهم من الآلهة حقاً ، وبلغت الآلهة والأجداد والآباء من النزول عن المرتبة ما عادت معه لا تكون سوى خيالٍ للقراعنة ، ولم يُعَمِّمِ الكهَّان أن وَضَعُوا جميع ما تقدم في صيغٍ دينية .

ويظهر أن أَمُونيس الثالث كان أولَ مَنْ أنشأ معابدَ لنفسه فَيُعْبَدُ فيها مثاله في أثناء حياته ، وكان أَمُونُ يَشْكُرُ هناك « لابنه ومثاله الحي » وَيَهْتِفُ هناك قائلاً : « أَتَيْتُ بالمعجزات من أجل جلالتك ، وأَوَّلُ وجهي شَطْرَ الجَنُوبِ حتى يَخْفَضَ أَكابر بلاد النوبة لك » .

وظَلَّت عبادة النفس قائمةً على مرَّ القرون مجردةً من أيِّ تبجيل للآباء ، حتى إن من القراعنة الأتقياء ، كرمسيس الثاني ، مَنْ طَمَسَ في المعابد اسمَ أجداده الحقيقيين حتى يَسْتَبْدِلَ اسمه بها ، وبلغت تماثيلُ الآلهة المنحوتة من مشابهة القراعنة ما كان يُقال معه إن أَمُونَ شبيهٌ بفرعون الحالى ، بدلاً من أن يُقال إن فرعون الحالى شبيهٌ بأَمُون .

كان لا بدّ من تخدير مسرحيٍّ خفلاً للشعب على دوام الإيمان بطبيعة فرعون الإلهية ، وكان لا بدّ من حروبٍ تيمُّ بنصرٍ عزيز ، أو كان لا بدّ من إقامة أعيادٍ كثيرة في أثناء السنة يُعِينُ عليها الكهّان حتى يَبْدُو فرعونٌ مُغْرِياً ، وكان ملوكُ الدولة القديمة يطوفون فرساناً مزيّنين بأذنانٍ أسدٍ بهراً للناس .

وكان الجمهور المبهوتُ يُبْصِرُ في طيبة ، وعلى طول شارع تماثيل أبي الهول ، مرورَ موكِبٍ من الأسرى والكهنة والشعّوذيين وأنواع الحيوان ، ثم يَظْهَرُ مَحْمِلٌ على أكتاف اثني عشر جندياً ، ويَحْمِلُ من حَوْلِ هؤلاء الجنود حَمَلَةً مَذَابٍ<sup>(١)</sup> وَيَتَقَدَّمُ المَحْمِلُ عُدَاةً<sup>(٢)</sup> يَدَّخِرُونَ الحضورَ بالعصى فيزيدون بذلك حُبَّ الاطلاع فيهم ! ويجلس فرعونُ في المَحْمِلِ صاحباً لحيةً حاذّةً مستعارةً ، وواضماً على رأسه ناجاً مزيّناً بصِلٍ<sup>(٣)</sup> ذهبيٍّ منتصب أمام أعدائه ، وَيَقْلُو الصِّلَ نَاجٌ مزدوجٌ رمزاً إلى مصر العليا ومصر الدنيا ، وَيَحْمِلُ بيده صَوْلجاناً وسوطاً فيقوم هذان الرمزان في الوقت نفسه مقام المذبة عند هذا المصريِّ العمليِّ ، ثم تأتي كَحَامِلُ النساء والأُميرات وعربائهن وتأتي بِطانته كما في الناي السحريِّ<sup>(٤)</sup>

وكانت السفينة الملكية الكبرى تسير على النيل مع شراعها العظيم الذي يُمَسِّكُهُ بالسارية الكبرى جبلٌ متينٌ فيستقرُّ فرعونٌ تحته أمام حُجَيْرَتِهِ ، وَيَنْسَحُ

(١) المذاب : جمع للذبة ، وهي ما يدفع به الذباب (٢) العداة : جمع العادي ، وهو الرাকس .

(٣) الصل : الحية الحبشة جداً — (٤) الناي السحري : اسم رواية غنائية لموزار .

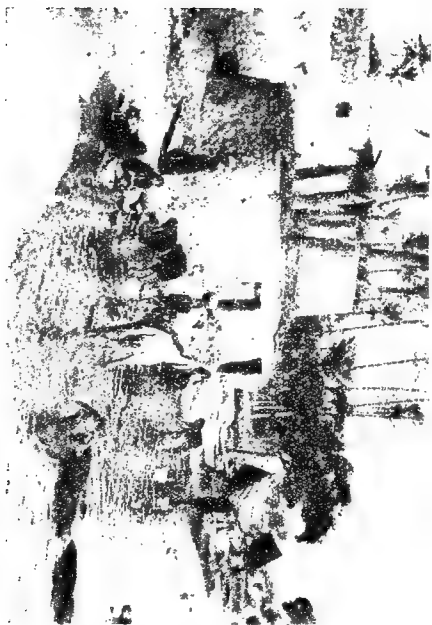
الجُدَّافُ في المجال للحُجَبَرَات والحاشية والمأشبة فيصطَفُون حَوْلَ حَيْزُومِ السَّيْفَةِ<sup>(١)</sup>.  
وكان الومُّ يُجَدَّدُ في كلِّ عيد ، وكانت تُنصَّب على جُدْر جميع المعابد صُورٌ  
عظيمة لفرعون وهو يَسْحَقُ أعداءه ، وإذا ما مَلَكَت القومَ مِلِكَةٌ بَجَلَّتْ نفسها  
بمثل صورة الإله في جميع الأمور الرَّبَّانِيَّة .

وهل كان كثيرٌ من المصريين يعتقدون ألوهية من يَمْلِكُونهم ؟ كان القومُ  
البُسْطَه بعضَ البَسَاطة في الدولة القديمة يُمَجِّدُون ، مثلَ إلهٍ ، فرعونَ الجَوَّالِ  
بينهم ، الظاهرَ لجميعهم ، الموزَّع للأجر والعقاب بينهم ، وَيَنْهَضُ مَبْكَراً فيطوفُ راكِباً  
حصاناً ويזור المقالع ويأمرُ بِحُمْرِ القَنَوَات ، ويأكلُ وينام كسائر الناس ويخاطر  
بحياته في المعارك ، ويُعَدُّ خالداً مع ذلك لأنه هُورُوسُ وإن كان يَمُتُّدُ الإلهُ  
هُورُوسَ ، ويكرُّ الزَّمنُ ، وَيَبْلُغُ النِّظامُ المدنيُّ والدينيُّ من التعقيد ، وَيَقْدُو المعنى  
الاجتماعيُّ من التَّمَوُّ لى الشعب ، ما يَرى فرعونُ بلا انقطاع أن يُوَكِّدَ معه  
أكثرَائه ورحمته وتَبِعَتَهُ نِجَاهَ الشعب وإخلاصه نحو الدولة ، وعاد فرعونُ لا يَفْرِضُ  
نفسه على الجميع مثلَ إلهٍ لا يَصِلُ إليه سلطانُ النقد ، بل أخذَ يَبْدُو مثلَ مَلِكٍ  
كريمٍ يومَ فيضان النيل ، في العام الجديد ، فيوزَّعُ العَرَبَاتِ القِصِيَّةَ ويوزَّعُ  
تمثالَه العاجيَّ وتماثيلَ لأبى الهول على صورته وعُدَدَ أسلحةٍ وجِباباً<sup>(٢)</sup> وسيفاً ومَرَّاباً  
من المعادن الثمينة ، ومن النادر أن كان يُوقَدُ نارَ الحرب .

وليس التاريخُ من عَمَلِ الحرب في تلك الواحة ، وما كان ذلك الوادى العجيبُ  
الواقعُ بين صحراويِّين والماطلُ من المطر والجارِ لِيَحْضُ على الفتوح أو لِيَتِيَلَّى الفاتحين ،  
وكان لا مناصَ من البحث عن الذهب ، أَجَلْ ، كان كثيرٌ من الأدوات يَرِدُ إلى

(١) حيزوم السيفنة : مقدمها — (٢) الجباب : جمع الجبة ، ومى كثافة النشاب .

٢٠ — قرية على حائل النيل





الدلتا بواسطة شعوب سورية، ولكن التجارة في قرون كثيرة ظلت وسيلة صلات بين مصر وآسية الصغرى وشرق إفريقية، ولم تقان مصر سلطان الأجنبي غير ثلاثمئة سنة من ٢٧٠٠ سنة، ولم يحتل الآثيويون والليبيون مصر إلا جزئياً ولوقت قصير، ولم يبق من الهكسوس<sup>(١)</sup>، الذين مكثوا بمصر قرناً فكان أمر عرقهم موضع جدل بين العلماء، غير رأيهم في قرن الخليل بالمرات الحرية وغير أخذ وتبهم المسئلة القائلة إن أحد ملوكهم الساكن في الدلتا طلب من أمير طيبة أن يذبح ما كان في النيل من بقر الماء لعدم نومه بسبب خواره.

ولم يبق أثر للعروق الثلاثة أو الأربعة التي غزت البلاد، ولم تنل مصر فائدة من الفتوح التي قامت بها، ولم يأت المحاربون العظماء تؤمؤزيس الثالث وأمنوفيس الثاني وسيتوس الأول بشيء في سبيل تجديد مصر، ولا يعرف المؤرخ غير خبر مآثرهم، أي أنهم بلغوا القرات والنيل الأبيض، بيد أن العالم ينظر بعين الإحجاب إلى أعمدة معابد رمسيس الثاني الذي لم يقم في عهده، أي في سبع وستين سنة، بأي فتح، والذي ترك شمال سورية للحيثيين كسباً لصدقاتهم، وما كانت الواحات لتسفر عن محاربتين، وكان أحسن الجنود لدى أصحاب هذه الواحات من النوبيين وأسرى الآسيويين الذين يذهبون إلى الحرب غير آسفين على النيل غير مفكرين فيه.

ويعبر أستاذ<sup>(٢)</sup>، في تاريخ شعبي، في ضرب من الشعر المدرسي، عن الرأي السائر حول الجندي كما يأتي: «أَوْ تَقْنُ أَنْ نَصِيبَهُ أَفْضَلُ مِنْ نَصِيبِ الْكَاتِبِ؟

(١) الملوك الرعاة — (٢) هو الأستاذ موريه في كتاب Le Nil et la Civilisation Egyptienne (النيل والحضارة المصرية)



## أسطورة سيكت

هو يؤخذ في صباه ويحتبس في سُكَنَةٍ ، ويُضرب على بطنه وعلى حاجبه فيبدو كأنه كسيرُ الرأس ، ثم يُخْبَط كما يُخْبَط البرديُّ ، وهل أقصرُّ عليك نبأ زحفه إلى سورية ؟ هو يحملُ خبزاً وماءً كالخمار فيظهرُ أحذبَ الظاهر ، ثم لا يكون عنده غيرُ ماءٍ نَنٍ ، ثم يُلَوِّحُ العدوُّ فيقع أسيراً كالعضفور لتصلب أعضائه ، وإذا ما قُبِضَ له أن يعود إلى بلده كان كالخشب النخِر ، وأُعيدَ على حمار ، وقد سُرِقَتْ ثيابه منذ زمنٍ طويلٍ لرحيل خادمه ، فقَيَّرَ رأيك أيها الكاتب إنَّينه وقلْ إذن : إن نصيبَ الكاتب خيرٌ من نصيب الجنديِّ » .

وفي أسطورة إلهة الحرب التي لها رأسُ اللبوءة<sup>(١)</sup> سيكتت تعبيرٌ عن كآبة فظاعة الحرب ، فلما شاب رَع أرسلها إلى الأرض لاستئصال أعدائه الناس ، فانطلقت وعَظَرَتْ إحدى المدن بحمائمٍ من الدماء ، فلما أبصر رَع ذلك وقتَ الصباح قال مذعوراً لخدمته : « أَفْضَلُ حَيَاةِ البشر ... فلتَنَمِرْ جميعَ الحقولِ بالمُسْكَرِ من السائلِ الأحمر » ، وتعوذُ الإلهة وتنظرُ إلى خيالها في اللامع وتشرَب منه وتسكرُ فلا تعرفُ الناس بعدئذٍ وتدعُهم آمنين .

## ١٥

النيلُ ، لا الحربُ ، هو الذي عَيَّنَ مصيرَ ذلك الشعب ، وما أسفر عنه النيلُ من اكتسابِ البلد شكلاً ملتوياً كالحية قد حال دون نيلٍ وليدٍ ووجهةٍ نظيرَ بَرَقْبِهِ بها ، ويمكن طَرَفَهُ أن يُفصلَ عنه كالثعبان من غير أن يُؤثر ذلك في أعضائه

(١) اللبوءة : أُنثى الأسد .

المركية ، وكان فرعون<sup>١</sup> ، لى يَصْعَ حَدًّا لصراع الرؤساء المتصل ضده ، يَفْعَل على إلقاء الرغب في قلوبهم بماله من أصل إلهي ، وكان يَرْقُبُهُمْ بما لديه من سلسلة مراتب وما يوجب من إعجابهم به ، وما بين الآلهة من صلة دينية ، وما في النظام القرطاسي<sup>٢</sup> من علاقة واقعية ، فتقوم عليهما طُرُق فرعون في الحكم .

وعلى ما لىد الناس والأراضى هذا من سلطان كان يُعَرِّضُ لَصِبَاعِ كُلِّ شَيْءٍ عند كل فيضان للنيل إذا لم يهين على هذا الفيضان ، إذا لم يوزع الماء بَقَنَوَاتِهِ ، إذا لم يزد الأرزاق والجَرَائِثِ<sup>(١)</sup> ، وما كان حتى اليوم من استعمال أمراء البرابرة لقواهم في مغازى قَطْعِ الطرق وفي محاربة ضِغاف الجيران أو أغنيائهم فكانت حكومة الفراعنة تَتَّخِذُهُ في إصلاح نظامها ، والنيل ، منذ تلك الأزمنة القديمة ، حَلَّ الفراعنة على تأليف أمة من الفلاحين ، لا من المحاربين ، والنيل ، بدلاً من الجَبَرُوت ، حَلَّ الفراعنة على إقامة دولة إقطاعية اِكْتَشَفَ فيها العلم والفن قَهْرُ النهر وارتقت فيها إطاعة العبيد إلى مرتبة الأُلَمَّة ودرجة التعاون ، وفي سبيل دراسة النيل يُفَرَّقُ بين البرُوج في عالم النجوم ، وفي سبيل توزيع النيل تُقَسَّمُ الأرض إلى قسائم تُصَفَّرُ مقداراً فقذاراً ، والنيل من ناحيته يُقَوَّى قابليات هذه الأمة وميلها إلى التعاون داخلاً وخارجاً .

وكان إيمان فلاح أدفو بحكمة الحكومة يزيد كلما أبصر الرسول الحامل علامات مقياس النيل من جزيرة الفيل يصلُ لِيَقْدَمَ أرقامه في قوائم ملكية ويقابل فيما بينها ، وكان زعم فرعون أنه ابن لهوروس<sup>٣</sup> يُؤَيِّدُ بِحِذْقِهِ في حساب المحصول سلفاً ، وكان فرعون حليف العناصر ، وكان الفلاح يسأل في نفسه ، مستظلاً ، عن مدى

(١) الجراية : ما يناله الجندي كل يوم .

## ابتهال الكاهن

خضوع هذه العناصر لفرعون ، وكان يُقال للفلاح في المبد : « إن فرعون يأمر النيل بالارتفاع ، فيطيعه النيل في أخرج ساعة ، أى حين يُوشِكُ أن يتواری في الهاوية » .

وإن الأمر لكذلك إذ يَسْمَعُ الفَلَّاحُ ابتهالَ الكاهن إلى النيل بنشيدٍ بالغِ القِدَمِ منقولٍ على جُدْر طيبة ، وإليكه :

« السلام عليك أيها النيل الذى يَخْرُجُ من الأرض لِيُغْذِيَ مصرَ ، والذى يَخْرُجُ من الظُّلُمَاتِ إلى النور لِيُشَادَ بوروده ، أنت تَسْقِي الحقول ، وقد خَلَقْتَ رَعَ لَتُطْعِمَ القِطَاعَ ، أنت تَرْوِي حَتَّى الصَّحراءَ البعيدةَ من كلِّ ماء ، ما دام الطَّلُّ هو الذى يَنْزِلُ من السماء ، وإذا ما كان النيلُ مِكْشالاً سُدَّتْ الأنوفُ وهَزَلِ الناسُ وزالتِ القرايين وماتت الملايين ، وإذا ما ارتفع النيل كانت الأرضُ في سرورٍ وكانت المِلْعَةُ في حُبُورٍ ، وضَحِكَتِ الظُّهورُ وابتسَمَتِ الثُّغُورُ .

« والنيلُ هو الذى يُنْبِتُ الشجرَ ويُنتِجُ الشُّفْنُ لَتَعْدُرَ صنعِها من الحجارة ، ومن ذا الذى يَجْرُؤُ أن يُشَبِّهَكَ بالبحر الذى لا يَخْرُجُ حَبًّا أيها النيلُ الكريم الذى يَرْوِي المروجَ ويَهَبُ القوةَ إلى الناسِ ؟

« وإذا ما جاء فيضانُكَ قَدَمْنَا الضَّحَايا إليك ، وَذَبَحْنَا بَقْرًا وَسَمْنَا إِبْرًا وَاحْتَبَلْنَا<sup>(١)</sup> وَغُولًا في الصحراءَ لَتَرَدَّ إِلَيْكَ الْخَيْرَ الذى تُنْعِمُ به علينا ، وَلَتَنْتَوَسَّلْ إلى الآلهةِ التسعةِ إِذْنُ ، وَلَتَخْشَى الْقُدْرَةُ التى يُبْذِيها سيدُ الدنيا ، أنت الذى يَجْعَلُ الضَّفافَ خُضْرًا ، أنت الذى يَقْوَتُ الناسَ بِفضلِ قِطَاعِهِ ، أنت الذى يَقْوَتُ القِطَاعُ بِفضلِ المَرْعى ، أيها النيل ، أنت تُخَضِّرُ ! أيها النيل ، أنت تُخَضِّرُ ! » .

(١) اجبل الصيد : أخذه بالجباله .

وهكذا يمتزج بعض رموز الآلهة وأعمالها ببعض امتزاجاً جيلاً ، وكان المصريون يجهلون سلسلة المراتب بين الآلهة ليجزمن عن تنظيم ما يتعذر إدراكه ، والمصريون ، على العكس من ذلك ، كان لهم بما هو مادي من فن الإنسان وقُدرة الدولة ما يصلح لإقامة الهرم العجيب ، والنيل ، عُصمراً ، قوة غامضة هائلة ، والنيل في الدولة أمرٌ منظمٌ ، وكلُّ حوضٍ يحدث ولايةً زراعية ، ويتوقف أمرُ كلِّ منطة على المناطق المجاورة ، ويُديرُ الماء كلُّ مديرٍ ناظرًا إلى حساب الجار ، ويُعبرُ اللديرون عن رغبتهم للسلطة المركزية فتقرّر هذه السلطة ما ترى ، وهكذا يؤدى النيل إلى نظام الحكم المطلق ، ولم يقد فرعون ابناً حقيقياً لإله إلا بعد أن انتحل لقب ابن هيس ، فصار يحشى ، من بين جميع الآلهة ، هيس ، النيل ، على الخصوص . ويشتمل « عمود سني الجماعة السبع » ، على كتابة من أقدم كتابات مصر ، ويحتمل أن هذه الكتابة أقدم من الأهرام ، وبين أحد الفراعنة على هذا العمود بما يأتي : « لم يرتفع النيل منذ سبع سنين ، ويعوزنا الحب ، وقد جفت الحقول ، وعاد الرجل لا يدفن جاره ، وصار الجميع يقرُّ على ألا يرجع ، ويبكي الولد ، ويدوي الشاب ، ويدبل الشاب ، وتزول قوة سوقيهم ، ويخلصون القرصاء على الأرض متكتفين » ، ويكون النيل مؤذياً إذا زادت قوته كثيراً ، ويمضي ألفا سنة على ذلك فيقول أحد فراعنة الأسرة الثالثة والعشرين متحسراً : « أصبح الوادي بحراً بأسره ، ومثلت المعابد بالماء ، فيلوح أن الناس تحوّلوا إلى طيور مائية » . ومع ذلك يندّر أن تضع نكبة كتلك بُنيان تلك السلسلة المُحكّم ، ذلك النظام الذي هو أعجب ما في القرون القديمة والذي لم يفقه شيء عصره قط ، ويشتمل هذا النظام على « جميع ما أسسه فتاح وكتبه في السماء ، وتبصر الشمس

والقمر والعناصر الأخرى في الأعلى ، ثم يَأْتِي الْعَالَمُ بِأَجْمَعِهِ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ الْعُلْوِيَّةِ وَالْأَلَمَةِ وَالْإِلَهَاتِ وَالْمَلِكِ وَالْمَلِكَةِ وَوَزِيرُ الْمَلِكِ إِلَى مَوْظِعِي طَبِيعَةِ الْوَلَايَةِ وَالْوَادِي مَعَ كُلِّ مَا يَخُصُّ الْمَعْبَدَ وَالْقَانُونَ وَالْمَالِيَّةَ وَالْجَيْشَ فَإِلَى كَتَبَةِ الْمَلِكِ وَصُنَائِعِهِ وَنَحَاتِيهِ وَتِجَارِيهِ وَحَذَائِيهِ » ، وَتَقِفُ الْقَائِمَةُ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ .

وإِنْ نِظَامًا كَنْظَامُ بَقَاءِ الدُّوَلَةِ هَذَا يَسِيرُ مِنَ الشَّمْسِ حَتَّى الْحَذَاءِ لِإِظْهَارِ فِرْعَوْنَ قَرِيبًا مِنَ الشَّمْسِ وَيَهْمِنُ عَلَى شَعْبٍ مُؤَلَّفٍ مِنْ ثَمَانِيَةِ مِلْيَيْنِ نَفْسٍ مِمَّا لَمْ يَعْرِفْهُ التَّارِيخُ قَبْلَ ذَلِكَ قَطُّ ، وَسَيَنْهَرُ هَذَا النِّظَامُ جَمِيعُ طُغَاةِ الْمُسْتَقْبَلِ الْمَطْطُورِينَ ، وَكَانَ هُنَاكَ شَعْبٌ يَرْثُهُ مَلُوكُهُ ، وَلَمْ تَكُنِ الْمَصَادِفَةُ هِيَ الَّتِي سَاقَتْ قَيْصَرَ وَنَآبِلْيُونَ إِلَى أَبِي الْهَوَلِ ، وَسَاوَرَتِ الْأَعَارِقَةُ الْأَوَّلِينَ الَّذِينَ دَنَوْا مِنَ النَّيْلِ رَوَى رِوَايَةً ، وَمَآ قَتَّى النَّيْلَ بَعْدَهُمْ يُشْبِعُ جَمِيعَ مَنْ دَخَلُوا مِصْرَ مِنَ الرُّوحِ الْفِرْعَوْنِيَّةِ ، وَكَانَ الْإِنْكِلَابُ آخِرَهُمْ .

وَيَأْتِي السَّكْنَةُ عَلَى دُرُوتِ الْهَرَمِ وَبُعَيْدِ الْمَلِكِ ، أَجَلٌ ، إِنْ فِرْعَوْنٌ يَعْلُومُ إِلَهًا ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يَقْفُلُونَ عَنْهُ طَرَفَةً عَيْنٍ ، وَالسَّكْنَةُ يُتَدَاوَلُونَ السُّلْطَانَ مَدَّةً أَقْدَمَ مِنْ مَدَّةِ أَسْرِ الْمُلُوكِ الْمُتَبَدِّلَةِ ، وَالسَّكْنَةُ أَسْقَطُوا أَكْثَرَ مِنْ فِرْعَوْنٍ وَاحِدٍ ، وَإِذَا مَا تَوَجَّهَ فِرْعَوْنٌ ، عَنْ نَعْمَةٍ ، إِلَى تَمَثَالِ أَبِيهِ الرَّبِّ أَمْسَكَ كَاهِنَانِ يَدَيْهِ ، وَإِذَا مَا رَفَعَ فِرْعَوْنٌ عَيْنَيْهِ وَضَعَ كَاهِنَانِ قِنَاعَ الْبَازِ وَقِنَاعَ إِيْسَ لَتَمَثِيلِ هُورُوسِ وَتَوَتَ ، وَإِذَا مَا رَكَعَ فِرْعَوْنٌ وَتَعَابَقَ هُوَ وَالسَّكْنَةُ تَلَاوَةُ الْأَدْعِيَةِ عَنِ تَقْزِيمِهِمْ <sup>(١)</sup> عَلَى الدَّوَامِ ، وَلَمَّا حَاولَ أَكْثَرُ الْفِرَاعِنَةِ إِمْتَاعًا أَنْ يَثْبُورَ عَلَى السَّكْنَةِ ذَاتَ مَرَّةٍ خَرَجَ مِنْ ذَلِكَ خَاسِرًا .

(١) عَزَمَ الرَّاقِي : قَرَأَ الْعَزَائِمَ ، وَمِ جَمْعِ الْعَزْمَةِ ، أَيْ الرِّقَةِ .

## ثروة الكهنة

وكان همُّ الكهنة مصروفًا إلى تنيل الذهب والمواشي والأراضي ، وأن يتتبعوا ، هكذا ، بأطياب الحياة وملاذَّ السلطان ، وما يُقدَّمُ إلى المعبود وما هو خاصُّ بالمعبد فيُعدُّ مالا لهم ، وتُدلُّ سجلاتُ قبور الفراعنة على أن الكهنة كانوا ينبلكون في طيبة وحدها ٨٠٠٠٠ عبد و ٤٢٠٠٠٠ رأس غنم و ٢٤٠٠ كيلومتر مربع من الأراضي الصالحة للزراعة و ٨٣ سفينة و ٤٦ مَرَسَى و ٥٦ قرية ، و ٥٠ كيلوغراماً من الذهب و ١٠٠٠ كيلوغرام من الفضة و ٢٤٠٠ كيلوغرام من النحاس و ٢٥٠٠٠ قُلَّةً مِسْطَارٍ (١) وخرير ، و ٣٠٠ كيس من البُرِّ و ٢٩٠ من الطير ، وقد أدَّى الفلاحون هذه الكنوز إلى الكهنة ثمنًا للعَبِّ ، ولا يزال يوجد عندنا من وثائق الإيصال ما يثبت ذلك ، وقد قال غوته ذات مرة : « من المحتمل أن كان كهَّان مصرَ يَعْرِفون مهنتهم كافي كلِّ مكان ، فلم يكن ينبغيهم حَوْلَ الأموات إلا ليسيروا على الأحياء » .

وإذا كان الكهَّان حَمَلَةَ جميع المعارف وكانوا ساحرين وعلماء حقيقيين فإنهم كانوا يتخذون سلطانهم الديني للتهديد وكانوا يتخذون صِلاتهم بالآلهة وسيلةً للسلب ، ويُمُّ الخَطُّ الدارجُ بين الناس نتيجةً لإصلاح ، ويوقُّ الكهَّان لفظ كلِّ ما كان خفيًا ، وما قَبِيَ الكهَّان في قرون كثيرةٍ يُؤثِّرون في الجمهور بشمالٍ سائس المُنْفَع مع أن القِنَاع لم يَسْتَرْسُوى سهمين متعارضين ، وزِدَّ على ذلك أن الكهنة كانوا يَرْقُبون الناسَ بمدارسِ طبِّهم وبمفاسلهم وبيع كلِّ ما هو ضروريُّ للتحنيط واللَّحْد والإقبال على التماثيل المصقوفة ما خُصَّ الكَرَكْكَت معهُ بمخمسةٍ من إلهات الحروب ذواتِ الرؤوس الأُسدية ، وبالعناية بالحيوانات المقدسة كالهِرَّة والبقرة والسلك والتاسيح والإجعلان التي تتطلب جيشًا من الحُرَّس المحافظة عليها .

(١) للسطار : أول عصير الحمر قبل طبخه .

وإلى ذلك أضيفوا الأعياد التي أَسْبَغَ عليها ملوك الدولة الجديدة المطلقون مظهراً ديمقراطياً عن لباقية ، فكان القوم يَحْضُرُونَهَا ويأكلون وَيَشْرَبُونَ مَجَّاناً فيها ، ويُعَدُّ الجُمُهورُ نفسه سعيداً يوماً وليلةً عند ما يشاهد في أهم الأعياد ، في مهرِجانِ زيادة النيل ، مَوْكَبَ الكهنة الحاملين زورقَ أمون رعِ القدس ، وقَدَّمَ تماثيلَ قدماء الملوك هذا المَوْكَبَ ، وعَقَبَ فرعونَ هذا المَوْكَبَ ، وأعياداً جديدةً بألفِ ليلةٍ وليلةٍ مُضَاعَةً بألوف المصاييح ، وصَدَرَ فرعونَ في يَلاقٍ إلى حَتَّامِ الرمزية بماء النيل ، وليس اللحمُ ، ولا المِزْرُ<sup>(١)</sup> ، هما اللذان كانا يَملَآن نفوسهم المُبَدَّدة آمالاً ، وإنما النيلُ وحده ، وإنما النيلُ بفيضانه الذي اِبْتَهَلَ إليه كثيراً ، وإنما النيلُ الذي تَبَلُّ أُمُوجُهُ عَمَدَ معبدِ أَيْدُوس كأنها تَبَحُّثُ عن قاربِ الربِّ .

وإذا ما وَصَلَ اللُوجُ من طيبة إلى منفيس وفتحت الأسدَادُ بَدَأَ العيدُ الشعبيُّ عيدَ غرامٍ أيضاً ، فكان يُحتفلُ بالنيل غاصباً معشوقته مَالِكاً للأرض ، وكانت ليالي الحبِّ والقرانِ تَحْيَا تحت رعايته ، وكان العاشقُ يُقَنِّي :

« أَعْبِرُ النهرَ ! وَجُدَّ في الفيضان ، وَتَزِينِ الأزهارُ عَمَرَتِي<sup>(٢)</sup> ، وَأَهْرَعِ مع الجُمُورِ إلى الآلهة ، إلى فتاحِ الأَكْبَرِ ! أَنْعِمِ عَلَيَّ بِمِنْ أَحِبُّ ، وَلِيَذْهَبِ الْخُمْرُ والزَّهرُ ، سَأَكُونُ بِجَانِبِهَا في هذه الليلة ، هي ذاتُ بصري مملوءةً وَجُوداً ، ولكن ابقِسانها في الصباح يكون مزدوجاً جالاً ، أَيْ مَنْفِيسِ ! آيَتِهَا الزَاخِرَةُ شَدًّا<sup>(٣)</sup> وَضَجِيجًا ! احتنى بنا فستوارى جيداً ! » .

واستمع جوابها :

« أَرَكِبُ الزورقَ هنالك حيثُ خَرِيرُ الماءِ المقدس ، وَأَكُونُ تحت السُّرَادِقِ

(١) المِزْرُ : نبيذ الشعير أو الخنطة — (٢) العمرة : كل شيء يجعل على الرأس .

(٣) الشدا : قوة زكاء الرائحة .

— ٣١ — صفور عالية على الضفة الشرقية





فَأَسْمَعُهُمْ يَفْتَحُونَ الْقَنْوَاتِ ، وَهَلْ أَلَاقِيهِ ، يَارُوحِي ؟ وَهَلْ تَبَادُلُ الْأَزْهَارَ عِنْدَ أَبْوَابِ  
الْجُدَاوِلِ ؟ أَدُنُوْنَهُ بِاسْمَةِ مَسْدُولَةِ الشَّعْرِ إِسْكَارًا لَهُ ، عِنْدَ مَا أكونُ بِجَانِبِهِ أَشْعُرُ بِأَنِّي  
كَبْنَاتِ فِرْعَوْنَ ، وَلِيَّ أَمْرِ نَافِي كَلْتَا الْمَلِكَيْنِ ! » .

وَفِي الْمِهْرَجَانِ يَصَارُ إِلَى زَوَاجِ النِّهْرِ الذِّكْرُ زَوَاجًا رَمَزيًّا بَعْدَ رَأْيِ تَحْرِيطِ أَهْلِهِ عَلَى  
إِخْصَابِ الْأَرْضِ ، وَكَثِيرٌ عَدَدُ الْأَسَاطِيرِ الَّتِي تُدَكَّرُنَا بِقُدْرَةِ النَّيْلِ الْخَفِيَّةِ الْإِبْتِدَائِيَّةِ ،  
وَأَقْدَمُ الْأَثَارِ يَعْرِضُ النَّيْلَ جَامِعًا لِلذُّكُورَةِ وَالْأُنْثَى ، وَارْجِعِ الْبَصَرَ إِلَى ذِكُورَتِهِ  
تَجِدُ صُورَتَهَا الْغَرِيبَةَ ذَاتَ ثَدَيْنِ كَبِيرَيْنِ وَبَطْنٍ رَاقٍ أَيْضًا دَلِيلًا عَلَى الْخِصْبِ  
وَكَانَ فِرْعَوْنُ ، قَبِيلُ الْفِيضَانِ ، يَرْكَبُ النَّيْلَ ، أحيانًا ، مُتَوَجِّهًا إِلَى جِوَارِ  
الْعُوقَانِي فَيَبْلُغُ السَّلْسَلَةَ وَيَغِيبُ فِي مَضِيغِهِ الضَّيْقِ وَمَحَاوِلِ اسْتِعْطَافِهِ بِالْهَدَايَا ، فَيُقَدِّمُ  
إِلَيْهِ نُورًا أَوْقِي (١) ، وَيَقْذِفُ فِي أَمْوَاجِهِ مَلَقًا مِنَ الْبَرْدِ شَتْلًا عَلَى كَلَامِهِ  
سِحْرِيٍّ ، وَذَلِكَ لِيَحْمِلَهُ عَلَى الْخُرُوجِ مِنَ الْأَرْضِ .

وَكَانَتْ هَذِهِ الْأَعْيَادُ تُؤَدِّي إِلَى زِيَادَةِ سُلْطَانِ الْكَهْنَةِ السِّيَاسِيِّ وَالْاجْتِمَاعِيِّ ،  
وَكَانَ الْمُوظَّفُونَ يَبْدُونُ بِجَانِبِ الْكُهَّانِ رَاجِينَ أَنْ يَنَالُوا قِسْطًا مِنَ الْأَصْلِ الرَّبَّانِيِّ  
الَّذِي يَعْدِلُ السِّيَادَةَ الْعَالِيَا ، وَسِرٌّ مِنْ فِرْعَوْنَ إِلَى مَدِيرِ الْمَكُوسِ تَجِدُ الْجَمِيعَ  
يَتَمَسَّكُ يَوْمَ الْمَوْكَبِ بِالتَّقَالِيدِ نَيْلًا لِقِطْعَةٍ مَعِينَةٍ مِنْ كُلِّ ثَوْرٍ أَوْ لُقْلُقَةٍ جَمْعَةٍ ،  
وَأَوْجِبَ وَجُودَ أُلُوفٍ مِنَ الْمُوظَّفِينَ بِأَعْمَلٍ تَعْيِينَ « مَدِيرِ حَقِيقَةِ الْوُظَافَةِ »  
وَتَعْيِينَ « قَاضِي حَقِيقَةِ » بِجَانِبِ مَدِيرِ الْوُظَافَةِ ، وَذَلِكَ عَلَى حِينِ كَانَ مُوظَّفُو  
الْبَلَاطِ يَحْمِلُونَ مِثْلَ الْأَلْقَابِ : « رَئِيسَ مَدِيرِيَّةِ النَّيْلِ » وَ « مَفْتَشَ الْقُرُونِ وَالْحَوَافِرِ  
وَالرَّيْشِ » وَ « مُرَيِّسَ فِرْعَوْنَ وَحَقَّافَهُ » وَ « مُسْتَشَارَ التَّاجِ الْخَاصِّ » وَ « رَئِيسَ

(١) الْأَوْقُ : الرَّمَادِي .

أسرار الصباح » و « رئيس مفتشى قاعة حَمَام المَلِكَة الكُبْرَى » و « مديرُ جميع النُزَهِ الجَلِيلَة » ، وأضحى من ذلك كُلُّهُ لقبُ « قائد الصحراء » .

وكان الكاتبُ دُولابُ ذلك النظام الرئيس ، ووُجِدَ في أحد القبور تصويرُ جداريٍّ لمكتبٍ يُنظَّمُ الكُتَبَةُ فيه محاضرَ وَيَحْسُبُونَ وَيُقَيِّدُونَ وَيُزِيلُونَ بإشراف رئيسِ كاتبٍ بلا عمل ، فذلك هى صورةُ إدارةِ أساءت استعمالَ خطِّ اختراع حديثاً . وكان سِيرُوسْتَرِيس<sup>(١)</sup> ، حوَّالى سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد ، قد قَسَمَ الأراضى إلى مربعات صغيرة بين جميع المصريين ، وكان على الذى يُزِيلُ النِيلُ قطعةً له أن يَمَثُلَ بين يَدَى فرعون شاكياً ، وَيَمْضَى الزمان ، وتزدهر طيبة ، فتشتمل على رُمرٍ من المهندسين والجَبَّارِ ومهندسى المياه وعلى جمعياتٍ للعناية بالمعابد والجداول وصيَّادى السمك والخطَّابين والمقابر ، حتى إن العفاريثَ الذين يَجْرُونَ سفينةَ الشمس إلى المجمعيم لِيَلَّا كانت لهم نقابة ، ويلوح أن ما لا حدَّ له من القوائم لم يُوضَعْ إِلَّا لَشَغْلِ الكاتب ، وَمَمْلَأُ خَزَائِنِ الوثائق وَمَقَاتِرِ البرْدَى يَبُوتَا بِأَسْرِها ، وفى كلام الناس تشبيهٌ للكاتب بالحمار الذى يَسُوقُ الموظفين المُثْقَلِينَ كَالْيَهُوى .

وَبَلَغَ أمرُ إحصاء السكان من التقدم ما غدا الكاتبُ معه أقوى فى المِصْرِ والولاية ، وبلغ الأريبُ أَمَارِيسُ ، الذى هو من أواخر القراعنة المحليين ، من التُلُوءِ فى النظام القُرطاسى والاشتراكية الحكومية ما كان يجب معه على كلِّ مصرىٍّ فى كلِّ سنة أن يُصرِّحَ لشرطَةِ مديريته بوسائلِ عَيْشِهِ ، فكان يُحْكَمُ بالموث على من لم يكن لديه من وسائلِ العيش ما يمكن تحقيقه ، وكان سُوْلُون قد أدخل إلى أثينة قانوناً مماثلاً مُقْتَبَساً من مصرَ على ما يحتمل .

(١) هو رمسيس الثانى .

ورقابة حكومية مثل تلك يُرادُ إعادتها في أيامنا هي مما يُحتمل بين أناسٍ من الأحرار، وسلطان مثل ذلك في دولة مؤلفة من عبيدٍ أو آدميين مُعبدِّين لا يمكن قيامه إلا بالارهاب .

## ١٦

وماذا كان على فرعون أن يخشى ؟ كان عليه أن يخاف المرض قبل كل شيء ، لأنه قد يقضى على حياته أو على سلطانه على الأقل ، ومما نعرف أن الكهنة بمرور الواقعة على النيل الأوسط كانوا يقتلونه ليحلوا رُوحه في بدنٍ خلف أقوى شَكِيمة ، ولا تزال هذه العادة موجودة لدى الشُّك في النيل الأعلى ، وفرعون كان يجازف بتاجه بعد حربٍ خاسرة أو محصولٍ ردى ، وفي التوراة نصٌّ على مسؤوليته عن السنوات السبع الشَّدَاد في زمن يوسف . وعن جواهر مصر في زمن موسى ، وأشدُّ ما يَحِقُّ بالفراعنة من خطرٍ هو ما كان يَصُدُّر عن شعبهم ونَجْمُ أيِّ الفراعنة حَقْرٌ أو مُقْت ، وذلك لأن التاريخ ، الذي يُعرض بكتاباتٍ وتصاويرٍ على جُدُر المعابد والقبور وعلى المسَلَّات ، صادرٌ عن العقيدة القائلة بالنسبِ الإلهي وعن عواملٍ حكومية .

وقبض على زمام الحكم بمصر ثلاثون أسرة في ثلاثة آلاف سنة فيكون المعدل المتوسط لكل أسرة قرناً واحداً ، وما كان من نسبٍ إلهيٍّ ولؤلؤٍ شعبيٍّ ليصُون فرعون من حذرٍ عميقٍ تجاه أولئك الذين جرَّدهم من كل حقٍّ ، فهو إذا ما كان على شُرْفَةِ قصره ساورته الرِّيب ، لا ريبَ ، حَوْل ما يَأْتِي به النهرُ إلى

العاصمة وَحَوْلَ مَا يَحْمِلُهُ الْفلاحونَ أو الْعَمال على ظهورهم من حجارة استخرجها هؤلاء الْعبيد من المقالع ومن محصولِ قَطْعُوهُ وَدَرَسُوهُ بأنفسهم ، وَأَبْصَرَ الْقَرَقَ يَتَصَبَّب على سِيقَانِهِمْ عند ما يَصْطَفُّونَ على سَدِّ النِّيل ، فيقول في نفسه إن أُمُون رَعَ وهَيْس لم يَكُونَا من غيرِ الْبَلَاءِ على هؤلاء التُّعَسَاءِ المحكومِ عليهم بِنَزْفِ الْمَاءِ وَحَمْلِهِ مَدَى حَيَاتِهِمْ .

وما كان الْفلاح لِيَتَازَمَ الْبَهَائِمَ بِغَيْرِ الْغِذَاءِ والفكر ، وكان غِذَاءُ الْفلاح أَرْدًا من غِذَاءِ الْبَهَائِمِ فِي الْغَالِبِ ، وذلك لِأَنَّ النَّاسَ كَثِيرٌ ، وَيَسْهُلُ اسْتِبْدَالُ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ ، ولم يكن لَدَى الْفلاح ، مِمَّا كَانَ حُرًّا ، سوى فِكْرِ الْفِرَاعَةِ ، وكان لِأَسْرَى الْحَرْبِ مِثْلُ نَصِيبِ الْأَهْلِينَ تَقْرِيًّا ، وما كان من عَمَلِهِمْ على ضِعَافِ النِّيلِ وفي الْحَقُولِ وفي الْمَقَالِعِ وَالتَّبُورِ فَيُؤَدَّى إلى مِثْلِ ضَنْئِ أُولَئِكَ ، وكانت الْحَرِيَّةُ حَرَامًا على كَلَا الْفَرِيقَيْنِ وإن لم يَحْمِلِ الْفلاحُ اسْمَ الرَّقِيقِ ، وكان الْجَمِيعُ من الْفَدَّادِينَ خِلا طَبَقَةٍ مُتَوَسِّطَةٍ قَلِيلَةٍ الْعِدَدِ من التَّجَارِ وَالشُّنَّاعِ ، وَلِلْجَمِيعِ مِثْلُ نَصِيبِ آبَائِهِمْ فَيَنْتَدِرُ أَنْ يَرْتَقِيَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ إلى ما هُوَ فَوْقَ حَالِهِ ، وفي الْأَمْثَالِ : « لَا يُؤَلِّدُ الْوَلَدُ إِلَّا لِيَنْزِعَ مِنْ ذِرَاعِي أُمِّهِ ، فَإِذَا صَارَ رَجُلًا كُثِرَتْ عِظَامُهُ » ، وهم يُوسَمُونَ فِي ذُرْعَانِهِمْ كَالْمَوَاشِي .

وليسَتِ الْمِنْزَقَةُ أَشَقَّ أَعْمَالِهِمْ ، وَيَجِبُ عَلَيْهِمْ فِي الْمَقَالِعِ ، حَيْثُ تُسْتَخْرَجُ التَّمَائِيلُ الضَّخْمَةُ مِنْ غَيْرِ اسْتِعَانَةٍ بِأَلَّةٍ ، أَنْ يَنْقُرُوا خُرُوقًا فِي الصَّخَرِ ، وكانَ الثَّلَاثُ مِنْ النَّاسِ يَمْعَلُونَ عَمَلَهُمْ فِي نَقْلِ جَنْدَلٍ يَبْلُغُ مِنَ الطُّولِ خَمْسَةَ أَمْتَارٍ وَمِنْ الْوِزْنِ أَلْفَ قَنْطَارٍ إِلَى كَفَرِينَ ، وكانَ قِيَاسُ كُلِّ مَنْ حَجَرِي سَقْفٍ مَعْدٍ بِالْقِيَوْمِ ثَمَانِيَةَ أَمْتَارٍ ، وكانَ طُولُ كَثِيرٍ مِنَ الْمِسْلَاتِ يَزِيدُ عَلَى ٣٣ مِتْرًا ، وكانَ يُؤْتَى بِفِرَانِيَتِ التَّمَائِيلِ

والنواويس الأسود من خلال الصحراء على مراكب خشبية بلا عجل ، ويرى في أحد القوش البارزة عريف واقف على ركبتيه تمثال صخره مئاة المبد إلى أحد القبور فيصرخ لكي يروى الطريق مئاة من الناس فيحولوا بذلك دون التهاب الخشب .

وكان الفلاح لا يعرف بالضبط مدى تملكه لحقله ، وهل كان الحاكم أو للتمز أو فرعون نفسه ولي عليه وصاحب أرضه ؟ وإذا كان الفلاح في بدء الأمر يفعل هو وأهله فيقيم قرية مهم فإنه كان يبدو حراً إذا ما قيس بأسير الحرب ، والتهايد ، لا القوانين ، هي التي كانت تبيع بيعة ، ويتجلى لنا مصير ألوف الفلاحين عند ما تقرأ على البردي وصف حياة الفلاحين المؤثر الآتي :

« قرضت الحشرات نصف الحبوب ، والتمهم بقر الماء نصفها الآخر ، وتبدو القتران كثيرة في الحقول ، ويأتي الجراد ، وتطمع الماشية ، وتقر الصافير ، ويأخذ اللصوص ما بقي في الجرن<sup>(١)</sup> ، وهلك الأنعام من الحرث ودرس البر ، وهناك يأتي الكاتب على زورقه جملاً للغة ، وويل للفلاح ! ولدى الموظفين عصى ، ولدى الزوج جذوع<sup>(٢)</sup> ، ويقولون صارخين : سلم حبك ! وإذا لم يكن عنده من الحب شيء ضرره وقيدوه وقذفوه في القناة حتى يفرق ، وتوثق زوجته وأولاده أماته ، ويفر الجيران إنقاذاً لقمهم » .

وفيم يفكر الطوباء عند ما يحفر النحات كتابة مائية لحاكم مموت أساء استعمال الحياة كما يأتي : « لم أسي قط معاملة بنت من بنات الشعب ، ولم أنف قط على أيم ، ولم أسجن قط راعياً ولم آخذ قط عمال مستصنع » ؟ وفيم يفكر

(١) الجرن : البدر — (٢) الجنوع : جم الجذع ، وهو ساق الخلة .

الفلاح عند ما ينزل الكاتب من القارب إلى قريته <sup>(١)</sup> وَيُنْزِي الْجُمْهُورَ الْمَهْرُولَ  
 بِرُورٍ فَرْعُونََ عَمَّا قَلِيلٍ وَبِضَرُورَةٍ إِعْدَادٍ مَا يَأْتِي عَلَى الصَّفَةِ : « ١٥٠٠٠ رَغِيفٍ جِيدٍ  
 مِنْ خَمْسَةِ أَنْوَاعٍ ، وَ ١٤٢٠٠ رَغِيفٍ آخَرَ ، وَ ٢٠٠٠ كَهْكَةً ، وَ ٧٠ جَرَّةً وَ ٢٠٠٠  
 وَعَاءً آخَرَ ، وَ ١٠٠٠ سَلَّةَ لَحْمٍ مُجَفَّفٍ ، وَ ٦٠ قُلَّةَ لَبَنٍ ، وَ ٩٠ قُلَّةَ زُبْدَةٍ ، وَ كَثِيرٌ  
 مِنَ الْحَطَبِ الْضَرُورِيِّ لِلطَّغْيِ ، وَ كَثِيرٌ مِنْ سِلَالِ التِّينِ وَالْعِنَبِ ، وَ كَثِيرٌ مِنْ طَاقَاتِ  
 الزَّهْرِ لِتَزْيِينِ الْمَوَائِدِ » ؟

وَفِي الْحَيْنِ نَفْسِهِ يُضْرِبُ الْعَمَالُ الَّذِينَ يُنْشِثُونَ مَدِينَةَ رَمْسِيَسِ الْمَائِعِيَّةَ لِيُعْطُوا  
 أَرْزَاقًا ، وَ مَا انْتَهَى إِلَيْنَا مِنْ وَثَائِقٍ سِتَّةِ أَشْهُرٍ فَيُظْهِرُهُمْ وَقُوفًا فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ نَمِ  
 يُبْدِيهِمْ سَاطِرِينَ ضَارِعِينَ قَائِلِينَ : « لَمْ يَكُنْ عِنْدَنَا مَا نَأْكُلُهُ مِنْ سَمَكٍ وَخُبْزٍ وَخَضَرٍ  
 مِنْذُ ثَمَانِيَةِ عَشْرِ يَوْمًا ، فَالْحَقُّ أَنَّهُ يُسَلَّكَ مَسَلَّكَ خَيْثٌ فِي هَذَا الْمَكَانِ مِنَ الْمَمْلَكَةِ ،  
 فَبِهِنَّ الْوَسِيلَةَ يَنَالُونَ مِنَ الْكَتَبَةِ وَالشَّرْطَةِ خَمْسِينَ كَيْسًا مِنَ الْحَبِّ فِي كُلِّ شَهْرٍ  
 مَعَ أَنَّ هَذِهِ الْإِدَارَةَ تُسَلَّمُ إِلَى كَهْنَةٍ طَبِيعَةٍ وَحَدِّمِ ١٠٠٠٠ كَيْسٍ مِنَ الْحَبِّ فِي  
 كُلِّ سَنَةٍ .

وَمَا يُكْرِّرُهُ أَوْلَئِكَ كَوْنُ فَرْعُونََ قَدْ أُعْطِيَ إِحْدَى نِسَائِهِ ضَرَائِبَ مَحْصُولِ  
 مَدِيرِيَّةٍ بِأَسْرِهَا لَتَدْفَعَ ثَمَنَ أَحْذِيَّتِهَا ، وَ كَوْنُ دَخَلِ خَمْرِ أَنْتِيلِيسَ بِالْأُلْتَا خُصَّصَ  
 لِدَفْعِ ثَمَنِ مَشَادٍ <sup>(٢)</sup> امْرَأَةٍ أُخْرَى وَنَطَقَهَا ، عَلَى حَيْنٍ يُضْرِمُونَ النَّارَ لِإِذَابَةِ مَا تَقْتَضِيهِ  
 مَصَارِيْعُ أَبْوَابِ مَعْبَدِ طَبِيعَةِ الْعَظِيمَةِ مِنْ بُرُونَزٍ ، أَوْ عَلَى حَيْنٍ يَجْعَلُونَ مِنْ بِلَاقِ  
 قِطْعَةٍ حَجَرٍ وَاحِدَةٍ بَالِغَةً مِنَ الْوِزْنِ سِتَّةَ آلَافِ قَنْطَارِ أَيْ مَا تَطْلُبُ عَمَلُ أَلْفِي رَجُلٍ  
 فِي ثَلَاثِ سَنِينَ .

(١) هَرُول : أَسْرَعَ فِي مَشْيِهِ — (٢) اللِّشَاد : جَمْعُ الْمَشْد ، وَهُوَ ثَوْبٌ تَشْدُ بِهِ الرَّأْيَ خَصَرَهَا .

وما يَقَعُ أحياناً أن تدورَ بين الشعب أهاجى شديدة فينسَخها كاتبٌ لِيُسَلَّى سَيِّدُهُ بها :

« رأيتُ عاملَ المعادن حينَ عمله ، فأبصرتُ أصابتهُ كالتساح ، وهو يلاقى من التنب في الليلِ أكثرَ مما تختمله ذُرْعَانُهُ ، وإذا ما أنجزَ النَّحَاتُ عمله وَقَعَ منهوكاً على حجر ، وَيَبْتَثُ الحَلَّاقُ عن زُبْنٍ له حتى ساعةٍ متأخرةٍ من الليل فيكادُ يَقْطَعُ أذْرَعَهُ لِيَتِمَّلاً جَوْفَهُ ، ويعملُ المَلَّاحُ الذي يَنْقُلُ سِلْعَهُ حتى الدلتا أكثرَ مما تستطيع سواعدهُ وَيَقْتُلُهُ البَعُوضُ ، وَيَجْلِسُ الحائِكُ القُرْفُصَاءُ في مَصْنَعِهِ على ما هو أسوأ من حالِ امرأَةٍ فلا يكادُ يَنْفَسُ ، ويذهبُ الرسولُ إلى البلادِ الأجنبية فيُوصِي بِأمواله لزوجهِ وأولاده خوفاً من الأساد والآسيويين ، وَيَحْتَفِ السَّكَّافُ دَوْماً ويأْكُلُ جلدهُ ، وَيَفْسِلُ النَّسَّالُ الثَّيَابَ على الرَّصِيفِ ويكونُ جاراً للتماسيح ، وَيَزِيدُ صيادُ السمكِ عليه سوءاً لأنه أقربُ إلى التماسيح منه » .  
وتدوم تلك الحالُ عِدَّةَ قرون .

ومع كل ذلك ثارَ فَلَاحُ مصرَ وَعُمَّالُهَا واشتاتوا<sup>(١)</sup> على ساداتهم ذاتَ مرة ، فَأُسْفِرَتِ القِئْنةُ عن كَسْرِ شَوْكَةِ الأغنياء والكهنة ، وتدوم الثورةُ مَدَّةً طويلةً ، تدوم في أواخرِ الدولة القديمة من سنة ٢٣٥٠ إلى سنة ٢١٥٠ قبل الميلاد ، أى قبلَ يُوسُفَ بَعْدَ كبيرةٍ ، ويحتملُ أن تكون قد بَدَأَتْ بمصبيانٍ ضِدَّ عاهلٍ ظالمٍ اسمه كِيفِي أو نشأت عن زواجِ أحدِ القراعنة بإحدى بناتِ الشعب كما يَرَى بعضُ العلماء ، ومهما يكن الأمرُ فقد صدرت مسؤوليةُ فرعون تجاه الأمة عن ذلك ، وقد نَقَلَ الكهنةُ هذه المسؤوليةَ ، منذ الأُمُرة الخامسة ، من السماء إلى الأرض على نَمتِ البروتستان .

(١) اشتات عليه : التهب غيظاً .



وهذه هي الثورة الوحيدة التي اشتعلت في تاريخ ذلك العالم فلم تَلْتَهُ إلينا وثائق عنها غير التي جاءت من المغلوب ، وليس عندنا خبرٌ عنها من الغالبين مادام الخطُّ الهيروغليفي وحده هو الذي كان موجوداً ، ولم يكن الكهَّان من الشجاعة ما يَدَّكُرُون الوقائع معه ، وما وَصَلَ إلينا من أنباء عن العويل والأنين فيهممٌ مُحَوَّلٌ إلى رموزٍ وأمثالٍ على نحو الأحاديث الإسرائيلية والقِصص العريية المنسجعة ، وهو ممتنعٌ برؤيته ، طريفٌ بسهولة نقله من لهجة المغلوبين الصغرى إلى لهجة الغالب الكبرى ، وقد قال أحد كهَّان هليو بوليس :

« ضاع البلد ، وعادت الشمس لا تضيء ، وغدا النيلُ فارغاً ، فيمكنك أن تَعْبِرَه ماشياً ، وتَشْرَبُ صواري الصحراء من نهر مصر ، وينهض أعداءُ في الشرق فيروُن هذا البلد في مآثم وألم ، وكلُّ واحدٍ يَقْتُلُ الآخرَ ، ويسود الحقد بين أهل المُدُن ، ويُحْمَلُ الغمُّ التكلم على السكوت ، وينقلب كلامُ الآخرين إلى نار في القواد » .

وإليك كيف يَصِفُ موظفُ سلطان الفقراء :

« الفقراء ينتصرون ، ولتَقْهَرِ الأقوياء ، ويُغْلَبُ أولئك الذين يَلْبَسُونَ النُّسُجَ الناعمة ، وَيَبْرُزُ مَنْ لَمْ يَرَ الثَّورَ قَطُّ ، وينال المناصبَ ، وعلى من يُرَدُّ أن يعمل أن يَتَسَلَّحَ ، والنيلُ يَفِيضُ ، ولكنه لا يَعْمَلُ شيء بعد ، فكلُّ يقول : لا نَعْرِفُ ماذا يَحْدُثُ في البلد ، وَتَقْصُلُ الْقِطَاعَ بلا راعٍ ، ويهلك الحرث ، وتُؤْمَرُنا الثياب والتوابل والزيت ، وَهَدَمَ الخازن وَيَقْتُلُ حَرَسُهَا ، ويؤكل من الكلا ويَشْرَب من الماء ، ولا تَلِدُ النساءُ ، ولم يَحْلَ (١) بي أبي ؟ ويُفَرُّ من المُدُن ، وتَنْصَبُ الخيام مُجَدِّدًا ، فقد حُرِّقَت الأبواب والأعمدة والجدران .

(١) نجل به أبوه : ولده .

« وأصبح صاحب سرير من كان غير ذى حائط ينام عليه ، وأصبح ينام تحت الشجر من كان غير ذى قى<sup>(١)</sup> ، وأصبح غُرَضَةً للرياح والزوابع من كان ذا ظِلٍّ وأصبح مالكا هُرياً من كان لا يجد خبزاً ، وأصبح حائراً قِيَّارَةً من كان يطلب كِنَّارَةً<sup>(٢)</sup> ، وصارت ذات جرار زبوت عطرية من كانت غير ذات خِضَاب ، وصارت صاحبة مرآة من كانت ترى خيالها فى النيل فقط .

« يَبْدُ أَنْ الْكِبَارَ جِيَاعٌ يَكُون ، وما كانت الأهرام تُحْبِسُهُ قَدْ غَدَا فارغاً وكُشِفَ الْقِنَاعَ عما هو خَفِيٌّ ، ولم يَمُدَّ لفرعون عوائد مع أن الحب والسك والطيور والبرونز والزيت وجميع الأشياء الطيبة مال له ، وعَطَّلَ الوزير من خادمٍ لِمَا لَمْ يَبْقَ من خَدَم ، ومن كانوا يَحْمِلُونَ الآخِرِينَ عَلَى بِنَاءِ قُبُورِهِمْ صَارُوا يَفْعَلُونَ بِأَيْدِهِمْ ، وأين نجد الراتينج لتطهير النوى والزيت لتخيطها ؟ وَمَنْ يَذْهَبُ لِلْبَحْثِ عَنْهَا فَيَبْئُلُوسُ<sup>(٣)</sup> ؟ وَيُرْمَى الْمَوْتَى فِي النهر ، وَيُضْحَى النيل مدينة الأموات ، وتُخَادَعُ الآلهة فى المعابد فيُقدَّمُ إِلَيْهَا الإوزُ بدلاً من البقر ، ومن للمحدين من يقول : لو كنتُ أعرف أين الرَّبُّ لَقَدَّمْتُ إِلَيْهِ قُرْبَانِي ، وَتَوَارَى الضحك ، وصار أمراً غير معروف ، واهأ واهأ ، ياليت هذا آخرُ العالم ، إِذَنْ لَكَانَ هَذَا آخِرَ الشَّعْبِ والاضطراب ! » .

وستظلُّ تلك الثورة الوحيدة التى قام بها الفلاح المصرى فى عُصُونِ خَمْسِينَ مِنَ الْقُرُونِ غَامِضَةً إِلَى الأبد كما تشهد بذلك قبورُ الفقراء القليلةُ المصنوعة من الآجرِّ والمُدْرَجَةِ بَيْنَ قُبُورِ الْعِظَمَاءِ الْهَيْفِ الَّتِي أُنْشِئَتْ فِي ذَلِكَ الْعصرِ ، وَكُلُّ مَا صُنِعَ

(١) القى : الظل — (٢) الكنارة : واحدة الكناير ، وهى الميدان أو الدفوف أو الطبول ، وهى هنا ترجمة لكلمة Lyre كما اصطُلِحَ عَلَيْهِ بجمع فؤاد الأول لقنة العريية .  
(٣) بيلوس : من بلاد فنيقية سابقاً ، وتسمى جبيل فى الوقت الحاضر .

أن اطلع ، بعد الحل ، على شكاوى الأعيان المغلوبين الفريدة بما تخويه من سوداء ، ولنا بالتحويلات التي أوجبها ملوك طيبة في الدولة الوسطى ، حوالى سنة ٢٠٠ قبل الميلاد ، وأيام الأسرتين السالكتين الحادية عشرة والثانية عشرة ، فكرت عن نتائج تلك الثورة ، فلما اعتبر الأمراء والكهّان بالكارثة التي أصابت آباءهم منعخوا الشعب بعض الحقوق ، فسّمحوا له بالاشتراك في الطقوس الدينية وأخذوا يعرضون حياته وطبائعه على القبور ، وصاروا يصرون بأن الخلود يكتب لمن يخلص للعادات ، وذلك لأن الشعب غدا مطلقاً على أسرار معبد أوزيريس بانتهابه ، وتسكن هذه الدعابة السكّية الجمهور المتوعد ، وهكذا يفرج الغم ، قبل القديس بولس بالنسبة سنة ، عن المضطهدين والمكروبين ببعث مَرَجٍ في الله حيث يكون الجمع متساوين ، ويسلك سبيل الوضوح فيؤذن للموظفين ، وللصناع أيضاً ، في إنشاء قبور لأنفسهم وفي الاشتراك في الخلود على هذا الوجه .

تأني الثورة من عل ولمرة واحدة في تاريخ مصر ، وهي من عمل إخناتون ، فرعون الوحيد الذي يستحق أن يكتب تاريخ حياته ، وإخناتون هذا هو أمينوفيس الرابع الذي تحرر كنا صورته حتى في هذه الأيام ، ويجعل فرعون هذا من الشمس سيد العالم فيكتب التشيد الآتي في سبيلها :

« أنت ترتقي جيلاً إلى أفق السماء ، يا أتون ، يامن هو مطلع على أسرار الحياة ، وأنت حينما تستدير في الأفق تملأ الأرض من جلالك ، وأنت تبدو منيراً فوق الأرض ، فتشأها بأنوارك كما تفسى كل شيء خلقته ، وإذا ما ركنت إلى الراحة في الأفق الغربي أظلمت الأرض كأنها ميتة ونام الناس في غرهم وأمكنت سرقة كل ما يضعونه تحت رؤوسهم من غير أن يروا ذلك .

« ولكنك إذا ما بددت في الأفق بددت الظلام ، وعم الأرضين سرور ،  
ويثب الناس على أرجلهم ، ويفتسلون ويلبسون ثيابهم ويرفعون أكفهم إليك  
عند طلوعك عابدين ، وتعمل الأرض بأسرها ، وترضى الحيوانات بأقواتها ،  
وتذو الأشجار والنباتات وتقفز الحُمَلاَن ، وتطير الطيور من وكُناتِها<sup>(١)</sup> ،  
وتسبح لك بأجنحتها ، ويتضح كل طريق بنور أشعتك ، وتمخر السفن في النهر  
طلوعاً وزولاً ، وتطير<sup>(٢)</sup> الأسماك نحوك لنفوذ أنوارك عميقة في البحر ، وتنبئ  
الأولاد في بطون أمهاتهم ، وتهذبهم فيها لكيلا يبيكوا ، ثم تهب إليهم صفة النفس ،  
وإذا ما وُضِع الوليد فتحت فمه وقمت باحتياجه ، وإذا ما كان القرخ في القيض<sup>(٣)</sup>  
منحتَه رُوحاً وقوة لنقف<sup>(٤)</sup> البيض . وها هو ذا يسير ويرتاد .

« وكل شيء خلقته عظيم ، وبما خلقت نذكر الناس والحيوانات والكبار  
والصغار وجميع ما يدوس تراب الأرض وجميع ما يطير في الهواء وبلاد سورية  
والنوبة وقطر مصر ، وقضع كل إنسان في مكانه وتنعم عليه بما يحتاج إليه ، وقد  
قسمت الناس إلى شعوب مختلفة اللغات والأشكال والألوان .

« وأنت خلقت النيل في العالم الأدنى فأنتيت به إلى حيث تؤد إطعام الناس  
يارب الجميع ، وقد وضعت النيل في السماء أيضاً ، لكي ينزل نوحهم فيلطم الجبال  
بأمواجه كبحر ويسقي حقولهم بما فيه الكفاية ، وفي السماء نيل واحد للبلاد الجبلية  
ولجميع الحيوانات التي تذهب إلى سفوحها ، وقد وهبت نيل العالم الأدنى لمصر .  
« وأنت خلقت السماء البعيدة لتضمد إليها ، ولتبصر من عل كل ما أبدعت

(١) الوكة : عش الطائر — (٢) طفر : وثب — (٣) القيض : قفزة البيضة اليابسة .

(٤) قف القرخ البيضة : هبها وخرج منها .

وحدك ، والجَمِيعُ يَرْفَعُ بَصَرَهُ إِلَيْكَ ، أَنْتَ أَيُّهَا الشَّمْسُ ، وَمَكَانُكَ فِي قَلْبِي ،  
وَلَا أَحَدٌ يَذَرُكَ أَمْرَكَ غَيْرِي ، أَنَا ابْنُكَ إِخْنَاتُون ، وَقَدْ أَطْلَعْتَهُ عَلَى خِطِّطِكَ ،  
أَنْتَ يَا حَيَاتِنَا وَيَا مَنْ نَعِيشُ بِهِ ، وَقَدْ نَشَأْتُ ، مِنْذُ خَلَقْتَ الْأَرْضَ ، جَمِيعَ النَّاسِ  
فِي سَبِيلِ ابْنِكَ الَّذِي خَرَجَ مِنْ صُلْبِكَ وَفِي سَبِيلِ مَنْ يُحِبُّ ، فِي سَبِيلِ الْمَلِكَةِ الَّتِي  
نَعِيشُ وَنَسْتَعْدُ سَعَادَةً أَبَدِيَةً .

## ١٧

نشأ الخطُ المصريُّ عن عاملين : النيل الذي هو سببُ الإدارة ، ورجاء البقاء  
الذي أسفرَ عن إيجاد المحاضر ، ومن ثَمَّ كَانَ أعظمُ الاكتشافات البالغُ القِدَمَ  
والذي يَرْجِعُ إِلَى الْأَمْرِ الْمَالِكَةِ الثَّلَاثِ الْأُولَى ، وَمَا عَلَى الْأَعْمَدَةِ وَالْجُسُورِ  
وَالْتَمَاثِيلِ مِنْ كِتَابَاتٍ قَدِيمَةٍ عَلَى خُلُقِ الْمِصْرِيِّ وَصِرَاحَتِهِ وَقِنَاعَتِهِ وَمِزَاجِهِ الْعَمَلِيِّ  
وَاسْتِمْدَادِهِ لِلنِّظَامِ ، وَالْكِتَابَةُ الْمِصْرِيَّةُ أَجْمَلُ مِنْ كِتَابَةِ السُّومَرِيِّينَ الَّذِينَ كَانُوا  
يَنْقَرُونُ فِي الْحَجَرِ ، وَمِنْ كِتَابَةِ الْأَشُورِيِّينَ الَّذِينَ كَانُوا يَطْبَعُونَ حُرُوفَهُمُ الْمِصْرِيَّةَ  
عَلَى الْأَجْرِ ، وَبِمَا أَنَّ غُرَيْنَ النَّيْلِ كَانَ يَتَفَقَّتُ بَيْنَ أَصَابِعِ الْمِصْرِيِّينَ كَانَ هُؤُلَاءِ  
يَتَخَذُونَ قَصَبًا حَادًّا الْأَطْرَافَ عَلَى شَكْلِ مِطْطَآتٍ <sup>(١)</sup> أَوْ قَرَاجِينَ <sup>(٢)</sup> وَكَانُوا يَتَخَذُونَ  
أَوْعِيَةً صَغِيرَةً حُمْرًا وَسُودًا لِلْكِتَابَةِ عَلَى أَلْوَحٍ خَشَبِيَّةٍ أَوْ عَلَى الْبَرَدِيِّ .

أَجَلْ ، كَانَتِ الْكِتَابَاتُ تُتَأَلَّفُ مِنْ مَدَائِحَ عَلَى الْخُصُوصِ ، وَلَكِنْ هَلْ تَرَكَ  
لَنَا مَعْظَمُ قَدَمَاءِ الْمُؤَرِّخِينَ أَمُورًا أُخْرَى ؟ لَقَدْ عَرِضَ الْكَاتِبُ الْمُقَدَّسُ وَإِلَهُ الْكِتَابَةِ

(١) اللطلة : خشبة مستديرة يرى بها الصبيان في لعبة لهم — (٢) القراجين : جمع القرجون . وهو الحصة .

توت على شكل قِرْد ذى شعورٍ بيض ، وكان عَرَضُهُ على هذه الصورة وَفَّقَ الخيال الشعبيَّ ككلِّ دُعَابَةٍ في مصرَ ، والدُّعَابَةُ بما لا تَجِدُ له أثرًا عند القراعنة ، وبما أدت إليه الكتابةُ نفسها وجودَ طبقاتٍ بين القراعنة والشعب ، وغدا الكاتبُ موظفًا قويًا محترمًا مثلَ الأمراء في الدولة القديمة ، وكان يوجد اختلافٌ بين الكاتب والجندى كما في كلِّ مكان ، وذلك مع رُجحانِ كَفَّةِ الكاتب ، وذلك لأن المصريين ظلُّوا قومًا غيرَ محاربين حتى النهاية .

وفي مصرَ كانت تلك الكتابةُ ، والعِلْمُ معها ، من الأمور الواقعية التي تَهْدِفُ إلى غايةٍ مادية ، ولذا لا تَجِدُ واحدةً من تلك الأقاصيصِ التي كَتَبَ الخلودُ بها للفلسفة أولَ معنى القنَى عند الأمم الأخرى ، وقد حَكَمَ النيلُ على المصريين بأن يكونوا من الحاسبين ، وقد وَجَّهَ المصريون ذكاءهم إلى حلِّ ما فَرَضَهُ النيلُ عليهم من عملٍ حلاً علبًا .

وفي أيِّ القرون التي لا حَدَّ لها رَصَدَ الفلكُ أبناء الصحراء أولئك ليكتشفوا التقويمَ قبل القراعنة الأولين بألف سنة ؟ لقد أثبتَ أنهم استعملوا التقويمَ قبل الميلاد ٤٢٣٦ سنة ، وقد كانوا يُقسِّمُونَ السنةَ إلى ثلاثة أقسام : الفيضان والبذر والحصاد ، وذلك مع علمهم منذ أقدم الأزمان كونَ السنةَ مؤلفةً من ٣٦٥ يوم ونصف يوم ، وذلك مع جَمَلِهِم السنةَ اثني عشرَ شهرًا وجَمَلِهِم الشهرَ الواحدَ ثلاثين يومًا مُصَيِّفِينَ إلى هذه الشهور خمسةَ أيام ، وهكذا كان يُؤَخَّرُ ستُ ساعاتٍ في كلِّ سنة ، فإذا ما مضى خمسةُ سنينَ قَلِبَ نظامُ الفصول قلبًا تائمًا ، ثم وجب في نهاية سنة ١٤٦٠ وَضَعُ سنة ١٤٦١ كسنةَ كَبِيدَةٍ رَدًّا للسنين إلى محلِّها .

وَوَقَعَ ذلك للمرة الأولى في سنة ٢٧٧٦ قبل الميلاد ، أى في عهد أحد القراعنة

زُوزِرَى الذى بنى الهرم ذا الدرجات ، ووقع ذلك للمرة الثانية فى عهد خلفٍ لإخناتون فى سنة ١٣١٦ قبل الميلاد ، وأما فى المرة الثالثة ، أى فى سنة ١٤٤ بعد الميلاد ، فقد كان القراعنة الحقيقون قد غابوا ، وكان الملكُ قبضةً بطليموس الذى هو أعظمُ رياضى عصره ، وأما المرة الرابعة فقد كانت فى عصر المماليك ، ولم يَفْزُ الجنرال بوناپارتُ مصرَ إلا بعدها بقرنين ، فهذه هى أدوارُ أمةٍ اكتشفت التقويم منذ ستة آلاف سنة ، وهى تُثير فى الذهن رؤيا قصرٍ عجيب يُسمع تحته صوتُ نهرٍ حافلٍ بالأسرار .

وإذا كانت الساقيةُ تَرْفَعُ مقداراً مُعَيَّناً من الماء فى زمنٍ مُعَيَّنٍ فإن النيلَ أعان على تقسيم الزمان أيضاً ، وقد اخترع المصريون الزَّوْلَةَ<sup>(١)</sup> للنهار والساعة للمائة الليل ، وهذه الساعةُ هى حَوْضٌ حَجَرِيٌّ نُقِشَ فى داخله مدرَجٌ يُشيرُ إلى الساعات ، ويَجْرِى الماءُ منه بِمَجْرُوقٍ ذاتِ اتساعاتٍ مختلفة باختلاف الفصول وطول الليالى ، وكان المصريون ينتفعون بالنجوم أيضاً ، وكان يستوى كاهنان متواجهان على سَقَفِ المعبد ، فيَنْظُرُ أحدهما إلى الشمال وَيَنْظُرُ الآخرُ إلى الجنوب ، وَيُمَسِّكَانِ يَدَيْهِمَا لِبُرُوجِ كُلِّ لَيْلَةٍ وَيُمَسِّكَانِ يَدَيْهِمَا أُخْرَى جِهَازاً صَالِحاً لِلرَّصْدِ ، فيمكن تعيينُ الساعة بحسب وضعِ النجم ، وبعد النظرِ إلى اللَّرْفَقِ الأيمن والأُذُنِ المواجهة اليسرى .

وإذا كان المصريون يَحْسُبُونَ حركاتِ النجوم والقمر من أبراجٍ معابدهم على ذلك الوجه فإن واقعيتهم لم تُؤَدِّ إلى استنباط أية نتيجة من وضعِ الكواكب ، وهم فى ذلك على عكس البابليين ، وهم كانوا يَجِدُونَ فى زيادةِ معارفهم تنظيمًا لأعمالهم ، وهم إذا ما

(١) : الزولة : كلمة وضوحها للدلالة على الساعة الشمسية التى يبين فيها الظهور الحقيق بظل الشاخص الذى يرفع عليها .

دَلُّوا المِيتَ في القبرِ إلى حركات النجوم كان ذلك للأسبوعين الآتين فقط مُقَدَّرِينَ أن المِيتَ يستطيع صُنْعَ مثل ذلك في المستقبل لِمَا يكون لديه من الوقت ما يَكْفِي للحِساب ، وهم في زمن الدولة الجديدة قد وَصَّوْا اثنتي عشرة علامةً لمنطقة الزوج واكتشفوا خمساً من السيارات وجعلوا لها أسماء ، فوجب انقضاء ثلاثة آلاف سنةٍ لاكتشاف سيارتين أُخريتين ، وهم ، لَكِي يَقْطَعُوا الحَقُولَ بجداولٍ على طولِ النيل ، قد اخترعوا القَدَمَ والنِراعَ ، كما اخترعوا النظامَ المُشْرِىءَ الذى غابت رَوْعَتُهُ عن الإنكليز حتى الوقتِ الحاضر .

وإذ كانت روحُ المصريين إنشائيةً أكثر من أن تكون فيةً فإن تلك الاكتشافاتِ تُكثِرُ إعجابنا أكثر مما تُبْهِرُهُ مبادئهم مع أن شَيْدَ هذه المباني ينطوى على فنيٍّ يَصْغُبُ إدراكه ولو نُظِرَ إلى ملايين السيد الذين قاموا بها .

وقد سَهَّلَ النيلُ جميعَ الأعمال الذهنية والجماعية ، وقد حال النيلُ دون إقامة مَبَانِيٍّ حيث يكون الحجر ، وتَجِدُ المعبَدَ منتشرةً في كلِّ مكانٍ من وادى النيل خلا هنالك ، وتُضَافُ هذه الظاهرةُ السيئةُ إلى ظاهرةٍ أُخرى تَجْعَلُ تلك المعبَدَ أدنى قيمةً من آثار الأغرقة ، فبينما يَبْدُو حجرُ الكَرْنَكِ الْكَلْسَى غيرَ جميلٍ إلا إذا كان تحت أشعة القمر تَرى البارَتِنُونَ يَعرِضُ رُحَامَهُ لشُعاعِ شمسِ الخليجِ فيؤدَّى مرَّةً القرون إلى زيادة زنجاره<sup>(١)</sup> الأصفر والوردى ، ويتركُ النيلُ خَلْفَهُ ، وعلى أثر دخوله مصرَ ، على أثر دخوله أسوان ، تلك الصخور الرائعة ، ذلك الغرائبُ النوبى الذى يَحْكِي الذهبَ ، ويُقَلِّلُ السَهْلَ ، من ناحيةٍ أُخرى ، تأثيرُ ما يُقامُ عليه من قصورٍ ومعابدٍ ما دُمْنَا قد تَعَمَدْنَا وَضَعَ الرَّبِّ وَالْمَلِكِ على التلالِ فوقنا .

(١) الزنجار : صدأ النحاس .



وتعجلى جيويةً الصرى\* وتمطشهُ إلى الخلود فى المِسلَّاتِ المنفصلة عن الصخور  
الابتدائية والى يلوخ أن تَمُودَجَها مقبَسٌ من الطبيعة ، وقد أَحَسَّنَ العالمُ  
الجيولوجى ، غُونِه ، الذى كان يَدْرُسُ الكَوْنَ بـبَصِيرَةِ إلهٍ ، تقديرَ ذلك فقال :  
« إننى حين درستُ أشكالَ الغرائبِ المختلفةِ عن كَشْبِ أبصرتُ مطابقةً عامةً  
تقريباً ، أبصرتُ الأجرامَ التوازِيَّةَ السطوحِ التى تتألفُ منه مُتَقَطَّعةً تقطيعاً منحرفاً  
فا كنتسبتُ بذلك شكلَ مِسْلتَيْنِ ، وُيَرَجَّحُ أن كان هذا الحادثُ كثيرَ الظهورِ فى  
صَوَّانِ جبالِ مصرَ العليا ، وكما أنه يُنْصَبُ حجرٌ كبيرٌ للدلالة على محلِّ ذى بالٍ  
نَرَى أنه بُحِثَ فى ذلك البلدِ عن حجارةٍ حادةٍ كبيرة ، نادرةٍ على ما يَحْتَمِلُ ،  
لِتُصْنَعَ منها آثارٌ عامة » .

ويا لَكثَرَةِ ما واجه تلك الأعمدة من مغامرات ! فمن المِسلَّاتِ الأربعِ التى  
نَقَشَ عليها أحدُ القراعةِ الأموياءِ تُوْثَمُوْزِيسُ الثالثُ مآثرَه نَقَلَ الإمبراطورُ  
قسطنطينَ واحدةً إلى بَرَنْطَة ، وُقِلَّتْ أخرى إلى رومة فأقيمت فى الميدانِ العامِّ ،  
ثم ظَلَّتْ مُلقاةً هنالك عِدَّةَ قرونٍ إلى أن نَصَبَها أحدُ البابواتِ أمامَ اللاترانِ حَوالَى  
سنة ١٦٠٠ ، وَبَقِيَتِ المِسلَّةُ الثالثةُ مُلقاةً ألفَ سنة ، ثم أُخِذَتْ إلى إنكلترة  
سنة ١٨٠٠ ونُصِبَتْ على رصيفِ التاميسِ ، وتسمى المِسلَّةُ الرابعةُ فى الحديقة المركزية  
بنيويورك ، وتَبَهَّرُنا آثارُ فرعونَ ذلك بعد ألوف السنين إذا وُجِدَ من يَقْرُوها ،  
وَيَقْرَأُ أحدُ كهنةِ آمون على ابنِ أخٍ للإمبراطورِ طيبريُّوسِ تلكَ الكتابةَ التى  
يُشَادُّ فيها بالانتصاراتِ على مَادَى وفارسَ وفتحَ لِيذِيَّةٍ وسورية ، والى يُذَكَّرُ  
فيها عددُ العَرَبَاتِ الحربيةِ ومقاديرُ ما أُخِذَ من الذهبِ والعاجِ فيُصَرَّحُ بأن  
صاحبَ هذه المفاخرِ هو رَمِيسِيسُ الأكبر ، واليومَ لا يزالُ ترجانُ الشَّيَاحِ الدليلُ

يَغْزُو جَمِيعَ هذه الأمورِ المصرية الرائعة إلى رَمْسِيسَ الأكبرِ .

وتَدَوَّرُ السياراتُ حَوْلَ تلكَ المِسلَّاتِ في أَجَلِ ميادينِ باريسَ ورومة ولندن ونيويورك، وتُبَصِّرُها في أثناءِ النهارِ محاطَةً بِمِيونَ ماء كان فرعونُ يُنْفِقُ نصفَ كنوزِه على منظرِها لو عَلِمَ أمرُها، أَجَلٌ، لا أَحَدَ يَفْقَهُ معنى ما تُخَوِّيه من كتابَةٍ، غيرَ أَنها نُصَّاه في الليلِ بِنُورِ سحريٍّ يَأْتِي من تحتها، فَكأنَّ أوزيريسَ لا يزالُ يُنِيرُ حَجْدَ ابنه من العالمِ الأدنى .

ويُلَوِّحُ أن فنَّ النحتِ المصريِّ مُقتبسٌ من فنِّ البناءِ من بعضِ الوجوه، ويتَّغَلَّبُ توازنُ الأَجْرامِ على الخَطوطِ عندَ المصريين، وَيَصْدُرُ عن فنِّ البناءِ أَكْثَرُ ما عن فنِّ النحتِ المكسبِ<sup>(١)</sup> الذي يُخْرِجُ منه رأسٌ صغيرٌ ورأسٌ كبيرٌ تَمَثِيلًا لِمَوْظَفِ بلاطٍ مُمَسِّكٍ أُميرةً، وتَقْرِضُ جَمِيعُ هذه التماثيلِ أَشْخاصًا هادئين وقاعدين القُرْفَصاءِ وجالسين ومتقدمين مع سكونٍ وعَطَلٍ من الخُصومة والرغبة، وَجَمِيعُ هؤلاءِ الأَشْخاصِ ضُلُوعٌ<sup>(٢)</sup> مُتَوَانُونٌ في أَفْكارِهِمْ ومُشاعِرِهِمْ مُحْتَمِلُونَ من غيرِهِم واثقون بأنفسِهِمْ، والرؤوسُ وحدها هي التي تُكْمَلُ عادةً، وأما استداراتُ الأَجْسامِ فهي مرسومةٌ رَسْمًا خَفِيفًا بَسِيطًا كما لو أُرِيدَ أن يُدَلَّ بها على حياةٍ لُحْصَتِ بِحِوَالِ مَكْتُوبَةٍ في أسفلِها .

وللآثارِ التي انتهت إلينا من الدولة القديمة تأثيرٌ كَثِيرٌ الاختلافِ تابعٌ لانتساعِها وموادِّها ما دام الأثرُ الهندسيُّ الماثِلُ لا يكون تامًّا التأثيرِ إلَّا بالحجر وفي الباني، وانظُرْ إلى الزُمرة الصغيرة المشهورة المصنوعة من الحجرِ اليكلسيِّ والمؤلفة من الزوج

(١) تجدد هذا التمثال ييرلين في الوقت الحاضر — (٢) الضلع : جمع الضليغ ، وهو الشدبد الأضلاع ، القوى .

والزوجة القاعدتين المتكثفتين تبدُّ لك الزوجةُ من ملامحها ربةً منزلٍ ويبدُّ لك الزوج من ملامحه مطوّاعاً ، ويبدُّ لك كلٌّ منهما مضحكاً كما تبدُّ الزمتر الأخرى في مُتَحَفِ القاهرة ، ويظهرُ ملوك الدولة الوسطى المرأةُ برسومهم المكعبة كالأنفاز الرياضية ، وعكسُ ذلك أمرُ رَافِرِ ذى الحجم الطيسى ، فهو لا يزال ذا سنّاه مع مرور أربعة آلاف سنة على رأسه ، وهو يظهرُ صِنديداً معتدلاً مشابهاً لِسَبَاحَةِ معاصرة ، وهو يظهرُ مثالَ الرجل الهادىء الثابت العزم بُقْنَتِهِ المكشوف وشفره السُكُورِ كالمُفَرِّ وعينه الثابتين مع حُسْنِ تقويمٍ ، وفو ذى الشفتين الداليتين على الشهوة دلالةً خفيفةً ، وذى الرّوَعة الذى ليس كبيراً فلا يكاد يزيّدُ على أنه القوى عَرَضاً ، وارْجِعِ البَصَرَ إلى تمثالٍ في تَحِيّده مماثلاً لذلك ، ولكن مع زيادةٍ على ما فى الطبيعة ، ولكن مع فَمٍ وأنفٍ أَكْثَرَ اتساعاً وشهوةً أَشَدَّ بروزاً وقليلٍ أثرٍ للذُّغْرِ ، ثم ارْجِعِ البَصَرَ إلى رأسٍ بِرْهِرٍ نَفَرَتْ ذى النظرة الأعظمُ بُنْهاً وهَلْماً وذى القم الخفيف التميلِ تَحِيّده صاحبُ شخصيةٍ كالتمثال الخشبى الصغير الرائع المجهول الاسم (مُتَحَفِ القاهرة ٢٦٠٦) ، مع نظرتيه الحائرة التى تَنِمُّ على الفتاء ، وارْجِعِ البَصَرَ إلى تلك التصاوير أيضاً ، إلى تمثالِ زُوَيْرِى النصفى الذى هو أقدمُ ما لدينا على ما يحتمل تَحِيّده ذا أذنين بَلَقَتَا من التعبير القوى ما تتمثل معه الأنف والعينين العاطلِ منهما ، ويعدُّ جَدُّ الأَلْهَةِ وخالقُ الأَلْهَةِ والأشياء فَتَاحُ إلهِ الفنِّ أيضاً ، وكان المصريون يقولون إن إبداع الأُمَرِ الفنِّ يَفْنِي مَنَعَه الحياة .

وَيُعَلِّمُهُمُ النِيلُ السَّكَنَةَ فيتعلمون التلوين ، وتُحَرِّى على أقدم التماثيل رَوَاعَةَ الألوان ، وتُخْرِجُ هذه التماثيلُ ، بفضل الجَوِّ ، وفى الغالب ، سليمةً من الفُرفِ المَأْتَمَةِ ، فتدلُّ على الحياة كما كانت عند أولئك الذين عَرِضُوا على ذلك الوجه ،

ونُبصر زوجين من الأسرة الرابعة ، نُبصر راحوتب وزوجه نُفريت ، جالسين على عرشين أبيضين ، وتظهر الزوجة على أحدث طراز ، تظهر طالحة صمّة مستديرة ضمن مغطّها ، ملونةً بالأبيض والأصفر مع قليل بُقع من الأخضر والأحمر في جيدها ، وتُصنع عيناها من الحجارة الملونة ، وتبدو شعورها والخطوط المبروغليفية سوداً ، ويبدو الزوج متزوّجاً أحمر داجناً فيلوح أنه ملاكم ساذج غبي فيخزر من ملاحظهما تاريخ نُهرهما ولياليهما وأولادهما وخصوصاً بهما وسعادتهما .

وما لئن تصوير أولئك القوم من قيمة هزيلة فيدلّ على أنهم لم يُبالوا بغير ثلاثة أبعادٍ فقط ، وقد كانوا يَعْرِفون تلوين تماثيل ، ومن النادر أن كانوا يَعْرِفون نقش جسم بشريّ ، ولا يدلّ أحسن ما لدينا من التصاوير الجدارية الكثيرة على غير قليلٍ من الحِذْق الفنى ، ومع ذلك تَرى فى مُصَلِّياتٍ معبدٍ سيتوس بأبيدوس قليلاً من النقوش البارزة الملونة التى هى على جانب كبير من الجمال فترجع إلى القرن الثالث عشر ، ويؤدّى الملك واجب الاحترام إلى إيزيس ، إلى هذه الإلهة الصفراء اللون مع حُرّة خفيفة على غطاء الرأس ، ويظهر الملك أحمر أو ضارباً إلى حُرّة مع شعرٍ وتاجٍ أصفرين ، وهكذا يمتاز الرجال فى وضّح النهار من كُبَرَيَات السيدات المتخصّصات .

ولم يصنع المصريون ، على العموم ، أشياء عظيمة من غير الحجر الذى هو مصرى ، ولم يكن لدى المصريين خشبٌ ، وكان المصريون يأتون بالنحاس من الخارج أيضاً ، وقد نما حسّ الطراز الحجرى لديهم فى ثلاثة آلاف سنة من غير أن يُنارَ أو يُحتجّ على فنّ البناء هذا .

يَبْدُ أن الأسرة المالكة الأولى أنشأت ، حوالى سنة ٣٠٠٠ ، فى داخل المعابد

## الحل

المظلمة ، مُصَلِّياتٍ صغيرة كانت سُوقُ البردي تَدَعِمُ فيها مِظْلَةً خفيفة كَأَزَيْتٍ على هذا النَّمَطِ ضَخْمُ التَّمائِيلِ بأروعِ الأَسْوَرَةِ والقلائد ، بَيِّدَ أَنْ طَرِيقَةَ المَصْرِينِ فِي صَقْلِ التَّيْرُوزِ فِي مَطْلٍ حُلِيِّهِمُ الْمُخَرَّمَةُ الدَّقِيقَةُ ظَلَّتْ خَافِيَةً عَلَيْنَا كَالْوَسَائِلِ الَّتِي كَانُوا يَرْفَعُونَ بِهَا حِجَارَةَ الأَهْرَامِ الكُبْرَى .

## ١٨

كَادَ جَمِيعُ ذَلِكَ لِلْمَاضِي التَّرَجُّعُ بَيْنَ خَمْسَةِ وَثَلَاثِينَ قَرْنًا وَأَرْبَعِينَ قَرْنًا يَظْلُ جَهُولًا لَدَيْنَا تَقْرِيًّا ، وَكُنَّا نَعْتَمِدُ مَعَ الْحَذَرِ عَلَى الْقِصَصِ النَاقِصَةِ الْمُتَعَتِّعَةِ الْحَيَّةِ الَّتِي جَاءَ بِهَا هِيرُودُوتُسُ وَسْتْرَابُونُ وَدِيودُورُسُ ، فَقَدْ عَادَ الْخَطُّ الْهِيروغْلِفِيُّ لَا يُسْتَعْمَلُ مِنْذُ قُرُونِ التَّارِيخِ النَّصْرَانِيِّ الْأَوَّلَى ، وَمَا حَدَثَ فِي الْقَرْنِ الثَّلَاثِ مِنَ الْمِيلَادِ أَنْ ظَهَرَ كَاهِنٌ مِصْرِيٌّ كَبِيرٌ اسْمُهُ مَا يَنْتُونُ عَالَمٌ بِاللُّغَتَيْنِ الْيُونَانِيَّةِ وَالْأَهْلِيَّةِ فَوَضَعَ جَدُولًا مَهْمًا لِلْأَسْرِ الْمَالِكَةِ وَالْمُلُوكِ قَائِمًا عَلَى تَقْسِيمِ خَمْسَةِ قُرُونٍ ، فَلَمَّا أَغْلَقَتْ مَعَابِدُ إِيْزِسَ غَابَتْ لُغَةُ الْكُهْنَةِ وَغَابَتْ مَعَهَا مَعْرِفَةُ الْخَطِّ الْهِيروغْلِفِيِّ ، وَأَخَذَ رَهْبَانُ الْأَقْبَاطِ ، الَّذِينَ كَانُوا يَسْتَعْمِلُونَ تِلْكَ اللُّغَةَ فِي بَدْءِ الْأَمْرِ ، يَنْتَحِلُونَ الْيُونَانِيَّةَ كَجَمِيعِ الْعَالَمِ ، وَصَارَتِ الْقِبْطِيَّةُ لَا تُتِمَّارَسُ فِي سِوَى الصَّلَوَاتِ الْمِصْرِيَّةِ النَّصْرَانِيَّةِ .

وَلَكِنْ كَلَّمَائِ سِتْرَ صَدَا الْقُرُونِ تِلْكَ الْكِتَابَةِ اسْتَوْلَى عَلَيْهَا الْخِيَالُ ، وَمَنْ كَانَ فِي الْقُرُونِ الْوَسْطَى يُرِيدُ أَنْ يَدْتَرِبَ بِالْأَمْرَارِ مِنَ الصَّلِيبِ الْوَرْدِيِّ وَالبَنَاتَيْنِ الْأَحْرَارِ وَضُرُوبِ التَّصَوُّفِ لَمْ يَرَبْذًا مِنَ الرَّجُوعِ إِلَى الْعَالَمِ الْمِصْرِيِّ الْكَثِيرِ الْإِلْفَازِ مَا ظَلَّ

حقلاً طليقاً للوهم ، وعند الشِّبَاح أن « الشَّقَقُ المقدس » أولفة تماثيل أبي الهول  
السحرية تلاثم سحجة النيل العجيبة ، ولم يَمَنَّ لأحدٍ كونُ التماعِ الجَوِّ يتضمن  
وضوحَ الطبائع والأفكار .

ويدوم ذلك الجملُ قروناً ، يدوم حتى وصولِ بوناپارت ، أَجَلٌ ، لم يُحَقِّقْ  
بوناپارت أيةَ خِطَّةٍ من التي كانت تساوره ، غير أن إحدى فِكَره جعلت من تلك  
الحملة الضارّة حادناً ذا شأن في تاريخ العالم ، فقد بحثَ عن التَّجْدِ على ضِفاف النيل ،  
بحث عن تَجْدِ الفاتح مُرَجِّحاً ، عن تَجْدِ العالمِ الأثريِّ في جميع الأحوال ، ولولم يأت  
بوناپارت معه بكتيبةٍ من العلاء لكسّر جنوده ما يلاقونه من نُحْبٍ على ما يحتمل .  
وما أهمية حَجَرٍ مستورٍ بإشارات غير مقروءة يُخْرِجه من الأرض جنوده عند  
حزهم خندقاً بالقرب من رشيدٍ في شرق الدلتا ؟ ويأمر الضابطُ بِجَمَلٍ الحجر إلى  
القاهرة ، ويُرى أن مرسوماً أصدره بطليموس الخامس سنة ١٩٦ قبل الميلاد نُقِشَ  
على ذلك الحجر مع عنوان : « بالخطِّ المقدس والخطِّ الدارج والخطِّ اليوناني » .

ويأبتهجة العلاء وَجَدَلُم ! ويقرءون النصَّ الإغريقيَّ ، ولكن أَيْجِدُونَ عينَ  
النصِّ في الأسفل بالخطِّ الهيروغليفي والخطِّ الدارج ؟ ولعلهم يَهْتَفُونَ طائعين كما هَتَفَ  
فاؤستُ غوته في الدَّوَرِ نفسه :

« الزِّمُّ البابَ ، فلا بُدَّ من أن يكون المفتاحُ لديكم ، غير أن سِنَّ مِفْتَاحِكُم هو  
من شِدَّةِ البَضْعِ ما لا يَمُكِّكُ لسانَ القفلِ معه » .

ويُحَاوِلُ حلَّ اللِّغزِ بِنناد ، ويُدير المفتاحَ في القفلِ الصِّدِّيِّ أَقْدَرُ التَّقَالِينِ ،  
ويعودون فَيُديرُونَهُ ، ويظلُّ البابُ مُثَلِّقاً مع ما بُدِّلَ من جهود وما سُمِعَ من  
قَلَقَةٍ ، أَوْ يُمَثِّلُ الهيروغليفيُّ أَفكاراً أم أصواتاً ، وهل الهيروغليفيُّ خِطٌّ تصويريٌّ

أو خطٌ صوتيٌّ ! وأين تكون أسماء الأعلام التي يُستعان بها على ذلك ؟ ويمضي خمسَ عشرة سنةً في نقاش تمازجه مسائلُ قومية ، ويحتلُّ الإنكليز مصر فيسلبون ذلك الحجرَ الشهيرَ ويُرسِلونه إلى المتحف البريطانيِّ حيث لا يزال موجوداً ، ويكون لدى الفرنسيين نسخٌ صالحةٌ عنه فلا يألون جهداً في كشف معنى ذلك الشيء الذي كان أعداؤهم قد اغتصبوه منهم ، ويُضاف إلى عالمِ الطموح والمنافسة ما تأصلَ بالتدريج من وجود قطرٍ مصريٍّ حافلٍ بالأسرار ، وتَدورُ الحميّا في رؤوس الباحثين فيجدون في كشف السِّرِّ ، وفي ذلك الدور يدُرُس العالمُ الطبيعيُّ الإنكليزيُّ المعروف توماس يانغ حنجرَةَ الإنسان لتعيين درَج الأصوات فيه ، وفي ذلك الدَّور يبحث ذلك العالمُ في جميع الأَبْجِدِيَّات القديمة والحديثة ليَصِلَ إلى تلك الغاية فيجدُ نفسه أمام ذلك الحجر المَعْمَى ، وفي ذلك الدَّور يَفُوص ذلك العالم في هذه المُفْضِلة بما أُوتِيَ من وَلَمٍ وهَوَى فيُطَّلِع على صَوْتِيَّة الميروغليف ، غير أن ذلك العالم هو من الروح العلمية والرياضية ومن الانهماك في حساباته ما لا يُبْلَغُ الهدفَ معه .

ويستحوذ شيطانُ البحث على أحد القِتيان في الناحية الأخرى من اللانث ، فقد كان شَبُوليون ( ١٧٩٠ — ١٨٣٢ ) منذ صباه موسوماً بالقدر ، وما تَذَرَع به شَبُوليون من حماسة وإصرار فقد أوجب انتصاره .

بلغ شَبُوليون الخامسة من سنه ، وما قَتِيَ يلازم دكانَ أبيه الكَتَبِيِّ بالقرب من غرينوبل فيقطعُ حروفاً في كتاب صلواتٍ لأمه ويؤلِّف منها كلماتٍ ، وما كان عليه من وجهٍ يضيء ومن حَدَقَتَيْن سوداوين محاطتين بأجزاء صُغُرٍ فيُعْطيه ملامحٌ شرقيةٌ ويجعله عُرضَةً لكثيرٍ من الملاحكات التي لم تنقطع إلا حين رفض بوناپارت

أن يجلب إلى مصر أخاه الشاب العالم الذى يزيد عليه فى العمر اثني عشر عاماً ،  
 ويقْدُو بلادُ رمسيس من القديس ما لا يَجْرُو أحدُ معه أن يتكلم عنه ، ويمرُّ ست  
 سنين ( وكان شَنِوْلِيون فى السنة الرابعة عشرة من عمره ) فَيَمَيَّنْ مديراً جديداً  
 للإيزر ، يُعَيِّنْ فوراً المساعدُ العلمى الفضالُ للحملة المصرية نتيجةً لسقوطِ حُفْوَةٍ  
 لدى الإمبراطور ، وتصبح مصرُ موضوعَ بحثٍ ثانيةً ، ويتكلم جميعُ العالمِ عن زيج  
 دنردة الذى اكتُشِفَ حديثاً ، فيُعْنَى به العالمُ الفريِنُوْلِيُّ الناشئُ أكثرَ من عنايةِ  
 نابليون ، ويَحْمَلُ شَنِوْلِيون برميسسَ ، ويلاحظ فوراً هذا الغلامَ المتمردَ على نظامِ  
 الكلية العسكرية ، والذى يتعلم الصينية والتبطينية والعربية ، والذى يخفى معاجه تحت  
 وسادته للدراسة على نورِ أحدِ المصاييح ، ويُعَيِّنْ الغلامَ ، عند خروجه من الكلية ،  
 عضواً فى أكاديمية غرينوِيلِ لما كان من عَرَضِهِ عليها مذكرةً عن جغرافية مصر ،  
 ويَبْلُغُ السابعةَ عشرةَ من سنه ويبدأ بتَصَيِّدُ الكتاباتِ الهيروغليفية ، ويصيرُ طالباً  
 يباريس ويتَّصِلُ بالأقباط من الطلاب ، ويتَغَيَّرُ رنينُ صوته بفعل تكلمه اللغةَ  
 العربية ، ويَحْمِلُ أستاذَ العربية فيلقَّبُه الطلابُ الأكبرُ منه سناً بالبطرك ، ويرى  
 أن يتعرَّنَ فيستنسخ نصوصاً قبطيةً بالخطِّ الدارج ، ويُوْشِكُ أن يَكْشِفَ مِرّاً اخطأ  
 الهيروغلفيُّ وإن لم يَسْطِيعْ أن يَفْكِّهَ ، ويعْرِفُ قبلَ يأنغ بأربع سنين أن تلك  
 إشاراتٌ صوتيةٌ فيقول فى إحدى رسائله : « تَبْلُغُ شعورُنا المستعارةُ درجةَ الهذيانِ  
 حينما تزعم أنها تُسَلُّ فكرةً ، وأجادل حتى فى تمثيلها كلمةً واحدة » .

وتساوره الظنون ويحركه عدم الصبر فيوَلَّى وجهه شَطْرَ البابِ المُغْلَقِ الذى  
 ينتصب وراءه رمسيسُ المستولى على أُخْيَلَتِهِ .

وהל يذهب إلى مصر ؟ لم يَحْطُرْ ذلك على قلبِ فرنسى فى سنة ١٨١٢ ،



وما كانت نفقة السَّفر لتُدفع إلى الطالب لو أراد ذلك ، ومن حسن الحظ أن كان أخوه يعتقد نبوغه وأن كان موضع سيره ورجائه ، وهو لمليه وفضله يُعينُ مادةً ذلك الأخ الأصغر النحيل ويساعده على أعماله ، ولكن الذى كان يميز الأخ الأصغر من الأخ الأكبر ومن جميع العلماء الثقورين بالمسئلة المصرية هو ما كان يحثه من اقتران العمل والنظر واقتران الوجهة والمنهج ، هو اقتران الإيمان القوي<sup>(١)</sup> وروح البحث .

ويُعَدُّ اليوم الثامن من شهر مارس سنة ١٨١٥ تاريخاً جديراً بالذكر عنده ، فقد مثَّل فيه بين يدى نابليون الذى ناهضه هو وأقرباؤه سراً ، وكان ذلك بعد العود من جزيرة إلبه بنائية أيام ، ويحُدُّ الإمبراطور وقتاً لاستقبال جامعة غرينوبل ، ويتحدث فى أكثر من ساعة هو والأخوان شنبوليون ، ويطلع على آثار الأخ الأصغر حول اللغة القبطية ، ويحلم فى جعلها لغة مصر الرسمية ، ويتكلم عن النيل وعن ألوف الترع التى لا بدَّ منها ضمناً لمستقبل واديه ، وهو إذ يبدو واقفاً لابساً معطفه الرمادى القديم ويواجه جميع العالم للمرة الثانية ويحتمل نتائج ذلك يلتقى نظرة على الماضى ويفكر فى مستقبل مصر ! ويحلم الشاب الهزيل الخجل ، الذى يُطلِّمه على أعماله ، بماضٍ يريد أن يفكِّه ، ومع ذلك يشعر كلُّ من الرجلين ، اللذين يأخذ أحدهما العروش ويدعى الآخر منهما قدرته على البحث ، بأنه أدرك أمرَ صاحبه .

وما كان أحدٌ بين العلماء ليعرف قيمة أعمال شنبوليون ، وقد اكتشف بأنغ أن كتابته فى حلقة تعفى ملكاً ، ويعرف فيها بعد أن الكلمة المحاطة بإطار فى حجر

(١) نسبة إلى شاعر ألمانية الأكبر غوته .

رشيد تدلُّ على اسم بطليموس، ويرى الباحث الإنكليزيُّ والباحث الفرنسيُّ أولَ  
وهلةً أن مما يخالف الصواب أن تُعتدَّ الحقائق الخفية التي تحفظها إشاراتُ لغزية  
من فصول الجمهور، وأن عليهما أن يعالجا كتابةً واضحةً مناسبةً مؤلفةً من  
إشاراتٍ أكثرها صوتيًّا وأقلُّها تصويريًّا، بيد أن رمسيس يقفُ دومًا خلف  
الباب المُقفَل :

وتمرُّ أعوامٌ، أعوامٌ كفاحٍ ضدَّ الزملاء الذين يقاومونه نتيجةً لتشجيع أخيه،  
أعوامٌ سَقمٍ وقرَّر تحول دون سفره إلى لندن لدراسة أوراق البرديِّ، ويعيش  
شنپوليون بياريس في مُحترَفٍ مصوِّرٍ لأصدقائه ويصوِّر على المِرْفاة حلقًا ملكيةً  
وإشاراتٍ غريبةً، ويعرِف كتابةَ الاعمين كليوباترة و بطليموس بالخطِّ الهيروغليفيِّ،  
ولكن مع هجز عن إثبات عدم زلَّه، ويبلغُ السنةَ الحادية والثلاثين من عمره،  
ويَسْلُك الدَّرَبَ الصالحَ، ولكنه لا يُقنع أحدًا، وقد قال : « هذه هي دار  
الصَّناعة التي أُطْرِقَ الحديدَ وأعدُّ أسلحتي فيها »، وعنده المفاتيحُ مع أسنانها  
الغريبة، والمفاتيحُ أقلُّ قفلةً، ولكنها لا تفتح شيئًا.

ويَجْلِب الرحالةُ كايونماذج قطنٍ إلى مصر في تلك الأثناء ويمُود من بلاق  
بطليم حجريَّةٍ لِسِلَّةٍ مستورة بإشارات، ومن هذه الإشارات واحدةٌ محاطةٌ بدائرة،  
ويُفترضُ شنپوليون، بعلامةٍ يونانية، أن الأمرَ خاص بكليوباترة، ويُحقِّقُ  
ويُعيد تأليف اسمها تأليفًا مضبوطًا على هذا الوجه، وكان قدماء المصريين يكتبون  
كما قرَّض الشابُّ الفرنسيُّ، ويُمسُّ الحلُّ، ويكاد البابُ يذعن، ولا يزال  
القفلُ يقاوم.

ويمضي زمنٌ قَرَّتْ سُلُ إلى شنپوليون نُسَخُ من النقوش البارزة في العابد،

تُرسل إليه الورقة الأولى من أبي سنبل ، ويميز في الدائرة للملكية حرف ( س ) مضاعفاً ، ويُقرَّب أحدهما من إشارة أخرى وتُسَمَّى المُقابِلَة بالقبطيَّ عن حلِّ مُقطع ( مِس ) ، وتُرى فوقه الدائرة الشمسية ، التي تُمَثِّل ( رَع ) ، أى الإله الشمس ، فيقرأ ( رَع ، مِس ) ، رعميس ، ويُعيد النظر في الورقة فيجد وجوهاً كثيرة لهذا الاسم الذى يُبحث عنه منذ عشرين عاماً ، ويكسر القفل ويسقط الغطاء ، ولم يكُ هنالك أمرٌ سرِّيٌّ ، فقد كان ذلك الخطُّ أثرٌ وضوح ونتيجة عقل ، ويحيى ما هو مُصدَّقٌ لافتراضات ذلك الفرنسيِّ الواقىِّ العقليِّ وتثبت صحة نظريته ، ويستطيع فيما بعد أن يقرأ الكتابات وأوراق البردى وأن يُظهر تاريخ أقدم أمر الأرض وحضارتها ، وقد قام بهذا الاكتشاف على بُعد ألف ميلٍ من مصر ، في غرفة صغيرة مستعينة بأوراقٍ وصُورٍ قليلة ، ومن غير انتفاع بمدىِّ العالم الأخرى ومطرقة .

وهُزِعَ إلى أخيه حاملاً أوراقه وبَضَعها على المنضدة ويقول بصوتٍ غال : « لقد أمسكت الأمر » ، ثم يَقَع على الأرض ، وتمضي خمسة أيام قبل أن يُشْفَى ، ويلزم السرير ستة أيام مع خوفه أن يرى إفلات شرفٍ اكتشفه منه ، ويميل على أخيه مجموعة كاملة من الخطِّ المهرغليبيِّ ، وتمضي خمسة عشر يوماً ، ويعرض الأمر على جُمع من العلماء جامع ليا نغ وهنبولد ، ويُقَمِّل ، مع ذلك ، برأى أخيه العارف بأمور الحياة فيكمُ فجأةً اكتشافه ويُقدِّمه نتيجة لأعمال متصلة وفق الواقع من الأساس ! ويضدو شنبوليون مشهوراً على الرغم من سمات الحسد التى قام بها المتخصصون بالأثار المصرية من الفرنسيين ، ومن الألمان على الخصوص ، بيد أنه ينتظر ست سنين قبل أن يوجَّه بنفسه بعثة إلى مصر ، ويُحسب من فضائل النيل الطريقة أن يقصد مصرَ فاتح بلا فرسان ولا مدافع قابض على مفتاح سحرى .

فتكلمه القبورُ والمسلاتُ وجُدُرُ المعابدِ ومُحَدَّثُهُ عن تاريخ بلدها ، وقد أرخى لحيته  
وبدا عريئاً بملامحه وليسَ ثوباً عريئاً ، وصار الجمهورُ يُحيي هذا الأجنبيَّ الذي يقرأ  
كتابة الحجارة ، ويدعوه الباشا في ختام هذه الرحلة ويطلب منه أن يقصَّ عليه  
حوادث بلده في الماضي ، فظهر كلُّ من وليُّ الأمر والساحر مواجهاً للآخر بذلك ،  
وكان أحدهما يعترف ماذا يُنظَّم في القد كنايليون في غرينوبل ، وكان الآخر  
يعترف الماضي ، ولكنه كان أسنَّ منه ثلاثَ عشرة سنة ، وكانت أيامه معدودات .  
ويعود « المصري » ، ويحمل هذا القلب منذ زمن طويل ، ويُرَدُّ جاره<sup>(١)</sup>  
القديم فوزيه الذي كان راغباً أن يعترف ماذا صنَّع هذا التلميذ الذي فاقه ، ويُنصت  
له بدقة ، ويموت في القد ، ويدنو التلميذ نفسه منهوكاً أيضاً ، وقد أغنى عليه في  
صريح رمسيس الرابع ، ويحمل بعد علمين ، أى قبل أن يموت في المنزل ، على  
إيصاله إلى النرفة « حيث نبتَ علمه ، ولم نصنع غيرَ واحد ، وليكن كتابُ  
نحوى وبطاقة زيارتي للأعقاب » .

## ١٩

تظهر واحات في صحراء التاريخ القديم ، ويربط ما بين هذه الواحات طُرُقٌ غيرُ  
سالكة لم يعترفها غيرُ قليل من الرُّواد المدوِّنين للتاريخ ، ومن كان من الشعوب  
ذا صلة بمصر التي هي أعظم هذه الواحات فقد دَخَلَ حظيرة التاريخ ، ولولا مصرُ  
لازل الشومريُّون والكنعانيون والمِكسوس والإثيوبيون الذين ظهروا قبل الميلاد بألفي

(١) الجار : الجير .

لم يصل اليهود الى مصر قاتمين

سنة أو ثلاثة آلاف سنة مجهولي الأمر ، وإذا ما أُغْضِيَ عما بين النهرين ، دجلة والفرات ، وَجَدْنَا شعباً واحداً اتصل بالمصريين وساوام أو قاتهم صينياً ، وهذا الشعب هو أول من وَجَّهَ أنظارَ الناس إلى مصرَ مع عدم قضائه طويلَ زمنٍ هناك ومع عَظَمته من السلطان في ذلك البلد ، والتوراةُ قد أدخلت مصرَ إلى أدب العالم ، ولا تزال الملايين من الآدميين ترى أن فرعونَ هو اسمُ ملكٍ مُعَيَّنَ لِعَرْضِهِ على هذا الوجه في سِفْرِ الخروج .

ولم يصل اليهودُ إلى مصرَ قاتمين ، وفي البداءة استقرت أُسرةٌ يهودية واحدة بمصرَ ، وزاد عددُ اليهود بمصرَ ، وهم كلما زادَ عددهم في مصرَ صار وضعهم غيرَ ثابتٍ فَهَجَرُوا هذا البلدَ الذي كان يُبَدِّمُ في نهاية الأمر ، وهم ، مع ذلك ، قد عَمِلُوا على ذُبُوعِ صِيَتِ مصرَ أَكْثَرَ مما عَمِلَتْ جميع الأمم التي غَزَاهَا وَمَلَكَتْهَا ، وقد أَذَتْ بضعَ صَفَحَاتٍ من كتابِ دَوْنِهِ الأعداء بلسانٍ معروفٍ قليلاً إلى تخليد الشعب الذي مَثَلَ هنالك دَوْرَ الباغي ، وقد أثار رجلاً أعزلاً خيالَ جميع العالم بفضل ذكائهما ، ومن المحتمل ، أيضاً ، أن أحاطت أغاني شاعرٍ ذُنُوكَ الرجلين بنسجٍ ساطعٍ من الأساطير ، ومن الأجيال ألوفٌ ومن الأمم مئاتٌ تَجْهَلُ رَمَيسَ وأَمِينُوفِسَ وتُعرفُ تاريخَ يوسفَ وموسى ، ولا ريب في أنهما عاشا هنالك ، ثم أَسْفَرَتْ دِراسةُ الكتاباتِ الميروغليفية عن إقناع العلماء في ذلك ، وَأَثْبَتَ أ . س . يهودا ، بما قام به من مباحثٍ ممتازةٍ ، دِقَّةَ التوراةِ التاريخية فجعل يوسفَ في مصرَ حَوَالَى سنة ١٨٥٠ قبل الميلاد وجَعَلَ خروجَ العبريين مع موسى منها سنة ١٤٥٠ قبل الميلاد .

ومن الواضح عَظَمَتُنَا من أية وثيقة كانت ، ما لم نَعُدَّ من الوثائق ما وُجِدَ في

الدلتا من الخنافس مع خطوط من الهيروغليف دالة على يعقوب ، ومهما يكن من أمر فإن المقابلة بين النصوص التوراتية والعادات المصورة على القبور وأوراق البردي تظهر من الأدلة ما لا يمكن دحضه ، وإن لم تكن الأسماء بعينها هنالك ، وذلك إلى أننا نستطيع بما عندنا من علم بأحوال الدولة الجديدة أن نعين التاريخ الذي سبق قيام يوسف باقلابه في طيبة ، وذلك إلى قرب قلعة زارو التي سجن يوسف فيها من حدود آسية ، وإلى كون رؤيا البقرات السبع تطابق بقرات هاتور السبع المقدسة في المديرية السبع ، وإلى العدائين الذين يتقدمون عربة الوزير كما صنع ذلك في زمن اللورد كرومر ، وإلى حمل الوزير قلادة حول العنق وسوق يوسف إلى فرعون وحلق لحيته الآسيوية الكثيفة ، ويسكن يوسف إخوته أرض جاسان ، وتقع هذه الواحة في شرق الدلتا بين النيل والطرف الشمالي من البحر الأحمر ، وقد امتدح خصبها كاتب في عهد رمسيس الثاني .

وكل شيء في يوسف يبدو غريباً في مصر ، ويوسف هو اليهودي الخيالي للملوك لطفاً ووقاراً ، ويوسف هو الفتى الذي يفتر النساء ، وذلك لأنه ، على حسب رواية التوراة ، ذو قوام جميل ووجه وسم مع حسن سلوكه ، ويوسف في الوقت نفسه ، هو رجل الأعمال النبيه الذي أغنى مليكه من غير أن يحرم أحداً حقّه ، وهو الدبلي الماهر في كتم مشاعره ، وهو الصابر الذي يدع خطه تنضج رويداً رويداً ، وهو البالغ الشرف الكاتم للسرّ الإنساني مع البصر بالأمور ، وإذا عدّدت هواه أباً وأخاً لم تجد الشهوة سبيلاً إلى اعتداله وأتزانه ذكاه وخيالاً وشموه بقيمته الشخصية ، أي إلى الأمور التي يجذبها مواهب حياته طبيعية ، وما كان من اقتران ذكائه وقلبه وزخو مشاعره العميقة وأفكاره الحكيمة قد

جعلت منه يهودياً عظيماً كديسرايلى<sup>(١)</sup> بعد زمنٍ طويل .

وذلك الخلق وحده هو الذى أمكن به نجاحه ، وذلك النجاح وحيدٌ فى التاريخ ، وذلك الفوزُ قد ناله أجنبيٌّ لا جاره له ولا سلاحَ عنده ولا معارفَ خاصةً لديه ، وهو ، مع هوى العناصر وعدمِ المطرِ فى إثيوبية وقيضانِ النيل مدةَ سبعِ سنين ، قد جعلَ من الملكِ سيدَ جميعِ البلادحينَ وجبَ عليه أن يَهَابَ الثورةَ ، ويَرْهَبَ الرَّدَى ، ويَجْمَعُ الحَبَّ فى سِنِي الخيرِ السبعِ « فلم يُكْتَل منه لكثرتِه » ، ويَحْسُبُ سلطانه الاستبدادى مقدَّماً تقديراً للمجاعة الآتية وللزمنِ الذى يُصْبِحُ فرعونُ فيه بائعَ الحَبِّ الوحيدِ ، وهكذا يَقْصِدُونَ فرعونَ لِيَعْرِضُوا عليه أنعامَهم وأبدانَهم وأطيانَهم إذا ما أنتم عليهم بالعلم ، « وهكذا يَحْمِلُ يوسفُ بذكائه وبصره دون موت المصريين جوعاً ويَضْمَنُ الملكُ جميعَ أملاكِ البلدِ بمضاربةٍ لم تَسْمَعْ بمثُلها أُذُنٌ » .

وَيُلْغِصُ غوته بتلك الكلماتِ عبقريةَ رجلِ الدولة والمملِ يوسفَ ، وَيُظْفِرُ يوسفُ بثلاثِ سلطاتٍ دُهْةٍ واحدةٍ ، فَيُجَبِّلُ الفلاحونَ ذلك الذى أَقْدَمَ من الزعماءِ المحليينَ الوسطاءِ بينهم وبين فرعونَ مُرَجِّحينَ أن يكونوا تابعينَ لفرعونَ رأساً لِمَا يَرَوْنَ فيه رَبّاً منقذاً ، ويكونَ لدى فرعونَ من الأسبابِ الكثيرةِ ما يُثْنِي معه عليه ، وَيَخْضَعُ له النيلُ ، ويوسفُ هو الرجلُ الوحيدُ الذى سيطرَ على النيلِ حتى ذلك الحين .

تَمَّ النصرُ لذلك الذى بلغَ الثلاثينَ من عمره ، وذلك لأنه كان قادراً على استخراجِ درسٍ من أحلامه وتفسيرِها تفسيراً عملياً ، وذلك لأن هذا الواقعىَّ

(١) ديسرايلى : هو القبطُ السياسى الإنكليزى المشهور بالورد يكونسفيلد (١٨٠٤ — ١٨٨١) .

اهتدى بخياله وانتقل من أنعام الطنبور إلى ميدان العمل وَيَسْمُ ذلك العملُ القُدُّ في السياسة الاجتماعية على إنسانيته وُثْبَلِه ومساواته فيهما لفرعون الذى وَثِقَ به واعتمد عليه ، وهذا الغريبُ هو من كَرَمِ الْحَتِّدِ ما يُنْسَى معه أنه بدأ عمله عند موظفٍ في البلاط ، ولا مِرَاءٍ في أن هذه هي المرة الأولى التى يَخْلَعُ فرعونُ فيها ثياباً كَتَائِيَّةً ناعمةً على أسيرٍ لا يُعْرَفُ مأتاه وَيَصْعُ بين عَشِيَّةٍ وضحاها قِلَادَةً من ذهبٍ حَوْلَ عُنُقِهِ وَيُلْبِسُهُ خَاتَمَهُ وَيُسَمِّيهِ «مُفَيْتَ اللبولة» قبل أن يَجْتَبِرَهُ ، وبعد أن اصْنَى نَظِيطَةً نَشَأَتْ عن رؤيا !

إِذَنْ ، لا تَجِبْ في انحناء فرعون أمام رجلٍ للمرة الأولى ، أَجَلْ ، إن أبابوسف ، يعقوب ، كان في السنة الثلاثين بعد المئة من عُمره كما رُوِيَ ، وإن هذا السبب كان يَكْفِي لاحترامه ، غير أن يعقوبَ الأجنبيَّ نَهَضَ في نهاية اجتماعه بفرعونَ وبارك له وَفَقَّ العادة الأجنبية ، وَيَحْنِي مثالُ الرَّبِّ في الأرض ، ابنُ رَع ، رأسه أمام حفيدِ رئيسٍ يُقْبَلُ بعيدة وينالُ البركةَ من إلهٍ لا تُوجَدُ حتى صورةٌ له .

سيطر يوسفُ على النيل ، واجتنب نتائج أهوائه ، وعَدَّ موسى ابناً للنيل ، وكاد موسى يُقْتَلُ مع جميع الأولاد الذكور من العبريين الذين كَثُرَ عددهم في مصر ، ووجدت ابنة فرعون موسى في سَقَطٍ<sup>(١)</sup> وَيُسَمَّى مُوشِيَه ، ونجىء كَلَّةُ (مو) بمعنى الابن وكَلَّةُ (شه) بمعنى الحَرَضُ أو النيل .

ويبدو وجه النبيِّ المَبْهُوسُ المُقَرَّنُ وراء وجه الأمير القاتن اللطيف السعيد ، وَيَظْهَرُ بعد ذلك الذى أبعد جوائح مصرَ هذا الذى جَلَبَّها إليها ، ولم يَكْ موسى محبوباً من زمنه ولا من الأعقاب ، وكانت شخصيته أَقْلَ ظهوراً ، وذلك لأنه واسِطَةٌ بين الرَّبِّ

(١) السقط : وعاء كالقفة ، ويصار للتايوت الصغير .



والناس قبل كل شيء . ولأن رسالته الروائية هي من شدة الرمزية ما لا تصح معه على ذلك الوجه ، وما كانت القصة التي تتوَّج كل أسطورة فتضمن صحتها الأولى لتدوم إلا من أجل ولادته ، ويلوح أن القتل الذي اقترفه يُدْكَرُ بأمر معروف ، وكان العبري موسى ، الذي قتل مصرياً لإيذائه عبرياً ، رجلاً عنيداً مستقلاً مدافعاً بفرسته عن شرف عرقه الذي منه لثيم بسوء ، ويمتاز موسى من الأنبياء الذين بدؤوا بعده مُنفَّذين أذلاء لأوامر الرب

ولا ريب في أن موسى لم يكن أمام الشعب الذي واجهه يوسف ، وكان على موسى أن يعالج أمر أناسٍ عُسراء لم يتحولوا إلى أمة إلا بفضل ، وكان الراعي المجهول ، الذي خدَّم أجنبيّاً فبدا زعيماً قومياً لجمع ناقص التكوين ، يُبشِّرُ حوله من الخصومة أكثر مما أنار يوسف الذي سخاه فرعون فعَمِلَ له ، وهذا إلى أن موسى كان يخاطب شعباً مضطهداً فتزَيَّده العبودية والحقد قوة ، ولم يكن العبريون أول من خدم المصريين في طرف الدلتا ، فقد مرَّ أناسٌ من تروادة وبابل ليعبّدوا هنالك ، ومن المحتمل أن كان فرعون الذي أراد إبادة العبريين مع رَفْضِهِ السماح لهم بالذهاب هو أمينوفيس الثاني ، وفي سفر الملوك ما يُجيز هذا الافتراض ، وهو في جميع الأحوال فاسقٌ ظالم تجدُّ له مثيلاً بين طُغاة زماننا ، ويُرسَلُ اليهود إلى معتقلاتٍ مركزية ويُنزَعُ منهم التَّيْنُ الضروري لصنع الآجر مع مطالبتهم بمقدارٍ من الآجر كافي الماشي ، ويكرِّه فرعون على تركهم يرتحلون في نهاية الأمر ، ويُردِّد فرعون صدى الطاغية الذي يَقْدُو عاجزاً حين يقول : « وباركوني أيضاً ! » .

ويدلُّ عمل موسى في مصر على أنه ابن ظافر لأجدادٍ أشداء ، ولم يبق أثر فيه لتربيته في البلاط أو بإشراف البلاط ولا للحضارة المصرية ولا لصلته بالقبيلة التي



٢٧ — طية والأهر



تَزَوَّجَ امرأةً أصيلةً منها ، ولم يَطْلُبْهُ اسمُهُ ، ابنُ النيل ، وصِباكَ بطايبهما قَطُّ ، فهو ابنُ الصحراءِ المعتزِلُ دَوْمًا المَحوِرُ رَبَّةَ النُهوِكُ عن احتِظارِ المِفاخرِ الجديرةِ بقوةِ ذِراعِيهِ ، وما كان في سِنينَ كثيرةٍ لِيَعْرِفَ شَيْئًا عن قومهِ خلا ما تأتيهِ به القوافِلُ من أخبارٍ ، ويَمْلِكُ نَفْسَهُ ، وتُوْحى حَيَاةُ الباديةِ إلى هذا المُتَهَوِّسِ برغبةٍ في إعادةِ أولئك القومِ الذين لم يَتَّصِلْ بهم إلى بلادِ أجدادِهِم .

يَبْدُو أن هذا الرجلَ الصُّبوسَ البسيطَ التُفكيرِ لم يَتَرَدَّدْ في اعتقادهِ مخادعةً طاغيةً كَفَرَعُونَ يُبْعِنُ في إبادةِ العِبريينَ بالأعمالِ الشاقةِ وسوءِ المعاملةِ وَيَذْبَحُ أبناءَهُم ويَحُولُ دونَ رَحيلٍ هذا الشعبَ الذي يَزْعُمُ حَقْدَهُ عليه والذي يريدُ الفِرارَ ، وَيَسْخَرُ من موسى وهرونَ وَيَدَّعِي أن هؤلاءَ التُّرَبَاءَ تَعْلَمُوا حَرْثَ الأرضِ وصاروا صُنَاعًا في بلادهِ ، ويَهْدِفُ إلى استئصالِهِم خوفًا من مخالفتِهِم أعداءَهُ ، والآنَ يَمْنَعُهُم من الرحيلِ بعدَ أن حرَّمَهُم كلَّ حَقٍّ ، والآنَ يقولُ عن حماقَةٍ كَكُلِّ طاغيةٍ : « لقد كَثُرَ عَدَدُ هؤلاءِ القومِ في البلادِ في الوقتِ الحاضرِ ، وأنهم يريدونَ قَطْعَ ما اتَّصَلَ من سُخْرِيَتِهِم » .

ولم يُبَالِ فرعونُ بِإِلَهِ العِبريينَ ، ولا بِموسى الذي يَقابِلُ المَكْرَ بِالْمَكْرِ ، وما كان من قَتْلِ موسى في شبابهِ مصريًا عن حُبِّ اللاتِّعَامِ فيَحْقِرُهُ إلى ذَبْحِ أبناءِ المصريين الذين كانوا يَقتُلونَ أبناءَ قومِهِ ، ومن الراجِحِ أن وَجَدَ اليهودُ ما يُشجِعُهُم على النضالِ في ذِكْرِ جَدِّهِم يوسُفَ الذي أَثَقَدَ المصريينَ من الجُوعِ فيما مضى .

ومن المحتملِ أن مَرُّوا من بينَ البحيراتِ الكبيرةِ المَرَّةِ والبحرِ الأحمرِ ، ومن المحتملِ أن مَرُّوا من طريقِ غَزَّةَ حتى سِيناءَ على طولِ البحرِ ، ثم من خلالِ بلادِ اللَّذِينَينَ والمُؤَايِينَ حتى الأُرْدُنِ ، ومن المحتملِ أن جابوا الباديةَ .

ويرى غوته أن من المستحيل أن يخيل رجلٌ فقال حازمٌ نشيط كوسى قوماً كثيراً العدد على التّيه أو بعين عالماً بلا سبب وصولاً إلى غايةٍ رائعة يودُّ بلوغها ، حتى إن غوته هزأ بعالم فرنسيّ حاول أن يوضح ذلك الإبطاء جغرافياً ، قال : « إن هذا يعنى رقصَ بولونيةٍ لقافلة » .

ويفترض غوته نفسه أن ساقّة المبرين كانت مؤلّفةً من أناس قسّت قلوبهم بذبح الأبناء المولودين حديثاً فكان المجال ملائماً لأسلوبهم فى القتال لا ريب ، ومهما يكن الأمر فإن البحر الأحمر قد ابتلع عربات فرعون الحربية البالغة ستمئة .

## ٢٠

تغيب فى الأفق رويداً رويداً أعمدة الكرنك التى هى شهودُ الفراغة . وما يحيط بالنيل فى مجراه التحتانى من طيبة هو أقدمُ ، أو أحدثُ ، من الدولة الطيبية ، ويُرجّح فى جوار القاهرة إلى ما قبل الميلاد بأربعة آلاف سنة أو ثلاثة آلاف سنة ، وتبلغ مصر أمُّ البحر المتوسط بعد طويل زمنٍ ، ويتّجمع سلطانها بالقرب من الساحل وعند بدء الدلتا ، أى فى المكان الذى يدور الآن كلُّ شيء فيه حَوْلَ القطن وتحول التجارة العالمية ، ويبلغ النيلُ فى سهل الأقصر ذروة مجده ، ويؤسس النيلُ فى الجرى التحتانى عاصمةً أخرى للعالم ، ويُقيم الإسكندرية التى لم تكن غير ذاتِ مجدٍ موقتٍ كطيبة ، وتسيطر جبال صحراء العرب على ٤٠٠ كيلومتر من الجرى فوقانى قبل القاهرة ، وتتّجه هذه الجبال نحو الغرب فتقرض على النيل قوساً يكاد يكون تاماً فتمدُّ قنّاً والواسطى طريقه ، وتتقدم هذه السلسلة حتى النهر

فيكون قسم الوادى العريض الخصب على الضفة اليسرى كما في مصر العليا ،  
ويعين ذلك وضع القنوات .

ولا يمر آخر مسير للنهر الشائب من غير حوادث ، فالنهر يعاني ضغطين ،  
فن ناحية تفرض عليه جبال الشرق ، وجبال الغرب أيضاً ، مقداراً من التلايف  
والتعاريج والأضواج فيحمله ذلك على تكوين عددٍ من الجزر كما لو كانت آخر  
نداء لرجل يجرُّ كرهاً ، ومن ناحية أخرى تقيده يد الإنسان بما ينشئه من جداول  
وأسداد ، ويظهر النيل كملاقٍ غصوبٍ مكبل<sup>(١)</sup> فيقاوم ويشعر الإنسان بقوته .  
وتمسك الأسداد ، التي تفرز سد أسوان بين أسوان والقاهرة ، من الفرين  
الكثير ( نحو ٥٨ في المئة ) ما يجب معه جرف النيل دوماً ، وإن كانت الجزر  
تظهر وتزول بلا انقطاع ، وكان يحاط بجزيرة جرجا من الشرق في بدء الأمر من  
الغرب ، والآن تبلى هذه الجزيرة من الاتساع ما تبلى معه من الضفة الشرقية  
مشياً على الأقدام .

ولا يمكن أن يصنع كما في أنهار أوربة فيحول النيل بالقرب من الأسداد ،  
ولذا يجب في بعض الأماكن أن يفرغ كثير من السفن الشراعية حجارة من مسافة  
خمين كيلومتراً أو مما هو أبعد من ذلك رفعا لمستوى النهر ما بين مترٍ ومترين ،  
وهكذا يدوم اضطراع الإنسان والنيل مع تفاوتٍ ، وذلك مع وجود ما يرضاه النهر  
من إكراهه الإنسان على الحذر في كل وقت ، ويزيد السكان كثافةً وتنظم  
الحركة مقداراً فقداراً ، ويرى النيل حين مروره ازدهار الحياة التي أوجبها ،  
وتحسب الأسداد طرقاً يلتقي المسافرون عليها .

(١) كبله : قيده .

وإليك رجلاً طويلاً نحيفاً ، من قبيل دون كيشوت ، مُسلحاً بقَصَبَةٍ سكر كبيرة ، وتجاوزة سيارة فورڤ قديمة مُشتملة على ستة من العرب اللابسين عمامة بيضاء وجِباباً متموجة بفعل الريح ، ومن الوقار عند هؤلاء أن يلبسوا ثياباً كثيرة في أثناء السفر ، وتتقدم ، مع حملٍ ثَقِيلٍ وهدَفٍ إلى النقل ، أربعة جمالٍ وحماران وجمع من الأولاد رجلاً وزوجته ، ويتجاذب هذه القافلة الصغيرة التي أرادت ذلك أو حِلَّتْ على ذلك علماً الخوف والرجاء ، ويتماضر برُقماتين لابستين جلبابين أسودين ، ويَجْلُبُ غلامٌ كبيراً إلى الحوض ، ويُصَلِّي ثلاثة شبابٍ تحت بُجَيِزَةٍ محرَّكين أبدانهم ورافعين أيديهم إلى آذانهم ، وترنم<sup>(١)</sup> خيلٌ بجانبهم ، وتبدو ظلالُ سُمُرٍ بين زعفران الصحراء الأصفر والفيروز السماوي الأزرق ، وتُبَصِّرُ بين حجارة الجبل الرملية الصفراء رجلاً طويلاً أبيض الثياب ذاهباً إلى القلَع كما لو كان موسى حين نزوله من جبل حوريب ، وانظر إلى هذا الجَمْعِ المؤلف من رجالٍ حاملين سِلَاحاً على أكتافهم فتبَدُّ أشباحهم واضحة في الأفق مُحمَّدة مع حياة منفصلة عن جدار أحد المعابد ، ويرى هيكلٌ عظيمٌ للجبل على ضفة مرتفعة فإذا هو يتحول إلى هيكلٍ قاربٍ تُرك حيث أنشئ فيرفعه القيسان في الصيف القادم ، فالنيلُ آتٍ للبحث عن سقنهِ ، والنيلُ قد أزال التراب عن أسفل شجرة أثلي قديمة قبدت جذورها ، والنيلُ إذا ما كانت كهوفُ الجبال قريبة منه ألقى الصيادون أشراكهم فيه ، ومن النادر أن تَرى في هذا النهر زورقٌ تجذيفٍ بلا شراع .

وفي وسط أحد الحقول تبصر ثلاث منازل ترتفع الماء من سماطٍ تحت الأرض ، فتتكون بئر هناك مادامت الأرض أعق من الأحواض متراً ونصف متر ، ويقوم

(١) ارتعت البهية : تناولت الميدان بمها .

### يهتز النهر قريباً من القاهرة

بهذا العمل في أربعين يوماً ستة رجال قائم بعضهم فوق بعض ، ومن كان من هؤلاء في الأسفل فأحسن مكاناً في الصيف ، ولكنه في هذا الزمن ، في يناير ، يعمل في الظلام والبرد فيقتنى دالاً على حياته ، ويترك قطع من القنز ويمدو الغلام الذي يحركه بما أوتي من قوة ليذكره ، ويعبر النيل في زورق كبير فريق من الرجال والحيوانات فيسير في الوحل على الضفة غير المتأسكة وتلحقهم امرأة مُحجَّبة بالأسود على حمار ذي قوائم دقيقة ، ويسلك هؤلاء سبيل السهل الضيق الخصب وصولاً إلى الصحراء ، فالواحة هي هدف سفرهم لا ريب .

ويتموج قصب السكر على جزيرة طويلة فينزل عشرون رجلاً من الساقية نحو الضفة ، ويرى على بُعد بضعة أمتار أربع عربات كبيرة فوق سفن تجرها باخرة صغيرة ، ويرى بضعة عشرات من الفلاحين المرأة يحطون الأثقال عن الجمال ، ويرى فلاحون آخرون ينقلون قصب السكر إلى تلك السفن التي يمنع نقص الماء من ربطها بقلوس<sup>(١)</sup> ، وتجري تلك الباخرة ذلك الأسطول الصغير إلى رصيف في المجرى التحتاني حيث تُعاد العربات إلى خط حديدي وإلى مصنع سكر قريب وقد انتفع بمجارة معبد خرب لبطليموس في إنشاء معبد إله السكر هذا .

ويهتز النهر قريباً من القاهرة ، ويصلي للملاح مساء فيقعد منحرفاً في قاربه الضيق ، فهو يعرف أين تكون مكة على الرغم من جميع التعاريج ، ويدير الجارية<sup>(٢)</sup> جريان النهر قليلاً ويُغيّر الرجل مكانه من قوره ويظل متوجهاً إلى جهة نبيه ، وترى في جزيرة بعيدة من الشاطئ بعض البعد امرأة وأولاداً قعوداً بجانب حمير تترتم ويصطاد الزوج سمكاً بصنارة ساجحاً في رؤياه ، ولا يرى منزلهم ، فيشعر

(١) القلوس : جمع القلس ، وهو جبل ضمن السفينة — (٢) الجارية : السفينة .



بأنهم أبطالُ أسطورةٍ يحاطون بنور شَفَقِيٍّ في سواءِ النيل ، وتَصِلُ باخرةٌ مُتَمَهلة وتَقِفُ فارغةً تقريباً ، ويرْفَعُ رجلٌ دُرَّاعَتَهُ <sup>(١)</sup> وَيَبْلُغُ المركبَ وَيَفْرِزُ في الأرضِ مِسْماراً طوله متر ، ويُدْخِلُ رجالٌ آخرون أوتاداً إلى الأرضِ بمطارقٍ طويلةٍ من خشبٍ كما في غابر الأزمان ، ويُمدُّ نسيجٌ حول السفينة ، وينتظر المسافر الليلة في خُلَيْجٍ . وتَوَلَّفُ تلالُ الشرقِ رضيعاً ثلاثياً قريباً من الضَّفَّةِ ، وتُبْصِرُ في الأسفل قاعدةً ذاتَ درجتين متوازيتين تماماً ، ثم تُبْصِرُ بُقعةً مركزيةً رمليةً حَفَرَتَهَا الريحُ ، ثم تُبْصِرُ هَضْبَةً صخريةً وخطوطاً عموديةً هابطةً نحو القاعدة التي يَلُوحُ أن أقدامَ أفيالٍ نَقَشَتْ آثارها فيها ، وتُلْقِي هَضْبَةً عاليةً مُوحَّدةً في النفسِ أثراً فنياً صادراً عنها ، فَيُظَنُّ أنها قطعةٌ موسيقيةٌ لِباخٍ <sup>(٢)</sup> .

وتدنو جبالُ العربِ من النيل في منفلوط والقوصية ، وتندو المناظرُ الجيولوجية ذاتَ وقعٍ في النفسِ مقداراً فقداراً ، ويكون للطبقاتِ الرسوبيةِ الكلسيةِ المتفتتة بفعلِ الماءِ والريحِ ما للشَّحْبِ من تَفَيُّرِ الأشكالِ ، وتَبْدُو هَضْبَةٌ صخرَويةٌ جديدةٌ فوق الحَضْرَةِ على ارتفاعِ مترين ، وتَبْدُو قاعدةٌ سَوْدَها غِرْيَنُ النيلِ وقَرَضَتْها الريحُ ، فكأنها وجهٌ مُتَكَرِّشٌ لِشائبٍ ، وتَبْدُو هنالك مُهَوَّبٌ <sup>(٣)</sup> كظهور الفيُولِ وأعمدةٍ مُعْطَبةٍ ، وتبدو في وسطِ ذلك كُلِّه قطعةٌ أرضٍ لا يكاد طولها يَبْلُغُ منه خُطوةً وعرضها عشرين خُطوةً حيث يَسْتَقِي قولُه فلاحٌ لا بسٌ جِلْبَاباً أَزْرَقَ وَمُحْمِكٌ دَلَوٌ بيده فيَصْعَدُ النُّحْدَرُ وَيَنْزِلُ منه متواضعاً باحثاً عن الماءِ ، وعن الماءِ على النوام .

(١) الدراعة : حبة مثقوبة للقدم — (٢) باخ : موسيقى ألمانى مشهور (١٦٨٥ — ١٧٥٠) .

(٣) المهوب : جمع الهب ، وهو التربة والهواة بين الجبلين أو الصدع في الجبل

في قنّاء ، وبعد المجرى التحتاني من طيبة بقليل ، وحيث آخر أضواج<sup>(١)</sup> النيل الكبرى ، لا يبتعد النيل غير مئة كيلومتر من البحر الأحمر ، ويُعتقد كثير من علماء الأرض أن النيل كان في البداية يصب في البحر الأحمر بعد أن يجري من وهدّة جبال العرب ، ولو صحّ الأمر وحافظ النيل على هذا الاتجاه لكان غير ما هو عليه جميع التاريخ القديم الذي لم يك ، إذ ذاك ، تاريخاً للبحر المتوسط ، ولا ريب في وجود حصّة مدرّجة في ذلك الانخفاض ، وفي القرون القديمة كان يذهب من هنالك إلى البحر بحثاً عن اللّبان ، وكان نحاتو تماثيل القراعة يجدون حجارتهن القاسية السود هنالك ، وكان يحتلّ تلك البقعة كتاب مصري ، وكان يُعبد فيها إله المسافرين في الصحراء ميين ، ولا تزال ترى فيها طريقاً مؤدياً إلى البحر الأحمر وإلى مكة .

واليوم يُصنّع هنالك ملايين الجرار ليرفع الماء بها ، وإذا كان النيل إله ذلك البلد فإن هذه الجرار كهنّته الذين يوزعون بين الناس روح هذا الإله ، وكان القراعة يعرفون صلاح تلك الأرض للفقّار فيدعونها قنّاء ، أي الأرض السوداء ، معارضين بذلك صُفرة رمل الصحراء ، ويرى بعضهم اشتقاق كلمة الكيمياء من تلك الكلمة ، وللناس الذين يسيرون ذولاب الفقّار ، أباً عن جدّ ، ومنذ قرون ، صرّب من القدرة السحرية ، ولولاهم ما دارت الناعورة ولفظ قسم من مصر جديداً

(١) الأضواج : جم الضوج ، وهو منطفئ الوادي .

ويعيد نساء قنّاء المعجين الزيتي تحت ظل النخل بدوسيه مع قليل ماء وتبين مجزاً ، غير أن العمل الإبداعي ، غير أن صنع الفخار ، يظل خاصاً بالرجل ، ويجلس الرجل في خلوة مصنوعة من آجر ومغطاة بموص<sup>(١)</sup> ومفتوحة من الأمام ، ويدبرها برجليه كما لو كان يجب ألا يعوق الدولاب شيء ، ويضع قليلاً من الطين على الدولاب المبلل ، وينزع قليلاً منه ، ولكن لا بالمقدار نفسه ، ومن بين ال ٣٠٠٠٠٠٠ قلة ، التي تُصنع في كل عام فيستخرج بها الماء أو يصب للشرب ، لا تيجد واحدة مطابقة للأخرى مطابقة تامّة ، ويطفو الإيهام البديع من عدم الانتظام عليها كما في جزار ، وإناء ، القبور وقوشها البارزة ، ومن الممكن جداً أن يكون الرجل الذي يصنعها اليوم من ذرية الرجل الذي كان يصنعها منذ ثلاثة آلاف سنة فيمثل أقدم أسر العالم على هذا الوجه ، وهو لا يحاط بأطلال ، وتسد خروق الجدر بكسر ، وينتلم الإبريق الذي يشرب منه .

وتجفف تلك القل تحت الشمس في أربعة أيام صيفاً وفي ثمانية أيام شتاء ، ثم تُنقل إلى الوادي المجاور في سلال خفيفة ، وتوضع في الأتون<sup>(٢)</sup> مدة أربع وعشرين ساعة ، وتكسد في زورق بالمئات بعد أن تحاط بموص مفتول فتلاً فنياً ، وتسير مع النيل وتهتز كما لو كانت على ظهر جمل مثقل بحمل ، ويُنْتَمَع بها قواديس للنواير فيرفع بها الماء .

ويرجع استعمال المَرَاخِم<sup>(٣)</sup> إلى ذلك التّقدم في سوهاج بعد قليل من مجرى النهر التحتاني ، ويُلوح أنه أتى بها إلى مصر من الصين مارةً من العراق ،

(١) الموص : اللبن - (٢) الأتون : الموقد - (٣) من رخت الحمامة البيض : حشته ، وتسمى أيضاً بالرهاء ، وهي من الطير القاعدة على البيض .



۲۳ — قوش لارزه



### تزيد أمواجه للقهورة

وَيُجَبِّ السَّيَّاحُ بِهَا فِي كُلِّ زَمَنٍ ، وَهِيَ خَاصَّةٌ ، مِنْذُ الْقَدِيمِ ، بِبَضْعٍ قُرْبَى يَذْهَبُ سَكَّانُهَا بِانْتِظَامٍ إِلَى الدَّلْتَا لِيُغْنَوْا بِالْأَفْرَانِ الَّتِي هِيَ مِنْ هَذَا النُّوعِ وَالَّتِي تَبْلُغُ ٢٥ مِثْرًا مِنَ الطُّوْلِ وَ ٨ أَمْتَارٍ مِنَ الْعَرْضِ وَالَّتِي تُدْفَأُ سَاعَةً وَاحِدَةً فِي الصَّبَاحِ وَالْمَاءُ ، وَيُوضَعُ فِيهَا أَرْبَعَةُ آلَافِ بَيْضَةٍ دَفْعَةً وَاحِدَةً فَيَنْتِجُ ٩٨ فِي الْمِثَّةِ مِنْهَا. فِرَاحًا فِي ثَلَاثَةِ أَسَابِيعَ ، فَتُقَسَّمُ مَنَاصِفَةٌ بَيْنَ الْمُكْتَرِيِّ وَمَالِكِ الرَّقَاءِ الَّذِي يُكْرَرُ الْعَمَلُ عِنْدَهُ عَشْرَ مَرَاتٍ فِي الْعَامِ .

وَفِي سِوَاءِ عَالَمِ الْفَلَاحِينَ ، هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَبِيشُونَ مَعَ فِرَاحِهِمْ وَخَرْقِهِمْ كَمَا فِي زَمَنِ الْفِرَاعَةِ ، أُنْشِئَتْ ثَلَاثَةُ أَسْدَادٍ فِي السَّنِينَ الثَّلَاثِينَ الْآخِرَةِ عَلَى مَسَافَةِ مِثْنِي كِيلُومِترٍ بِإِسْنَانٍ وَتَجْمَعُ حِمَادَى وَأَسْيُوطُ فَتُضْمِنُ الْمَاءَ فِي جَمِيعِ الْعَامِ ثَلَاثَ مَدِيرِيَّاتٍ مِنْ أَجْلِ إِتْجَاعِ الْقُطْنِ ، وَلَيْسَ لِسَدِّ أَسْيُوطَ ، الَّذِي يَشْتَمِلُ عَلَى ١١١ خَوْخَةٍ (١) ، غَيْرُ مَا يَبْدُلُ نِصْفَ طُولِ سَدِّ أَسْوَانَ وَثَلَاثَ ارْتِقَاعِهِ ، وَقَدْ جُلِبَ الْفِرَانِيَّةُ الَّذِي اسْتُعْمِلَ فِي بَنَائِهِ مِنْ مَسَافَةِ ثَلَاثَةِ كِيلُومِترٍ عَلَى مَجْرَى النِّهْرِ الْفَوْقَانِيِّ ، وَتَسْتَقِي هَذِهِ الْأَسْدَادُ الْأَرْبَعَةُ فِي مَرْكَزِ وَادِي مِصْرَ ، حَيْثُ يَمُدُّ ٢١ كِيلُومِترًا مَزْرُوعًا عَلَى عَرْضِ ٢٥ كِيلُومِترًا ، نَبَاتَ الْقُطْنِ فِي أَشَدِّ شُهُورِ السَّنَةِ جَمَاعًا بَيْنَ أِبْرَيْلِ وَسِبْتَمْبَرِ ، فَتُغْنِي ذَلِكَ الْقَطْرَ بِذَلِكَ ، وَتَنْظُلُّ الْأَسْدَادُ مَفَاتِيحَ حَيَاةِ مِصْرَ وَمُسْتَقْبَلِهَا كَمَا مَنَحَ شَنْيُولِيُونُ مِفْتَاحَ مَاضِيهَا ، وَلَوْ كَانَتْ هُنَاكَ زِيَادَةٌ فِي إِتْجَاعِ الْقُطْنِ ، أَوْ لَوَادَى عَمَلِ الْقُطْنِ الصَّنَاعِيِّ إِلَى تَرْكِ زِرَاعَتِهِ .

وَيَسْتَعْرِ النِّهْرَ بِذَلِكَ ، وَتَزِيدُ أَمْوَاجُهُ الْقَهْوَرَةَ وَتَقْصِفُ مُنْكَسَّرَةً عَلَى أَبْوَابِ الْكُؤَى الَّتِي فَتِحتْ لِلْمِلَاحَةِ عَلَى طَرَفِ كُلِّ سَدٍّ ، وَإِذَا مَا أَدَارَ الرِّجَالُ فِي اللَّيْلِ

(١) الخوخة : الكوة .

الْحَلَقَ الْعَظِيمَةَ الَّتِي تُحَرِّكُ الْأَبْوَابَ الْحَدِيدِيَّةَ عَلَى مَدَارِهَا أَخَذُوا يُقْنُونُ ، وَهُمْ كَمَا زَادَ عَمَلُهُمْ مَرَّةً أُسْرَعُوا فِي الْفَنَاءِ ، وَمَنْ الْمُحْتَمِلُ أَنْ كَانَ هَذَا إِحْيَاءُ لِلْفَنَاءِ الَّذِي كَانَ أَجْدَادُهُمْ يَحَاوِلُونَ بِهِ تَسْكِينَ النَّيْلِ ، وَهُمْ ، حِينَ يَقْنُونُ فَوْقَ السَّدِّ الْحَجَرِيِّ وَيَنْتَصِبُونَ كَأَكْثَرِهِ نَحْوَ السَّمَاءِ ذَاتِ الْكَوَاكِبِ ، يَقْتَادُونَ السَّفِينَةَ الْمُرْبُوطَةَ بِقُلُوبِ ذَاتِ كَلَالِيْبَ نَائِجَةٍ فِي الْجِدَارِ وَيَكُونُونَ مِنَ التَّيَقُّظَةِ مَا يَحَاوِلُونَ بِهِ دُونَ كُلِّ تَحَاكُّ ، وَتُفْلَقُ الْأَبْوَابُ الْعَلِيَا بِصَرِيرِ كَرْثِيرِ الضَّارِي ، وَتُقَادُ بِأَيْدِي حَقَظَةِ السَّدِّ الشُّمْرُ الْمَادَّةِ عَلَى حِينَ تُتَمَسِّكُ أَرْجُلُهُمُ الْمُجَرَّدَةِ بِمِرْقَاةِ الْجِدَارِ الْحَدِيدِيَّةِ ، وَتُمَلَأُ الْغُرْفَةُ بِالمَاءِ فِي بَضْعِ دَقَائِقٍ ، وَتَصِيرُ الْأَبْوَابُ السُّفْلَى ، وَتُفْتَحُ وَتَمُرُّ السَّفِينَةُ ، وَيَمُودُ الصَّرِيرُ ، وَيَحُولُ الْمَاءُ الزَّمِيدُ دُونَ انْفِلَاقِ الْبَابَيْنِ انْفِلَاقًا تَامًا . آيَةً عَلَى آخِرِ مَقَاوِمَةِ تَصُدُّرِ عَنِ الْعَنْصَرِ الْغُلُوبِ ، وَيَفْتَحُ وَقَادُ الْبَاخِرَةِ مَوْقِدَهَا وَيَنْدَلِعُ اللَّهَبُ مِنْ بَطْنِهَا وَيُنِيرُ الْجَدْرَ الرَّمَادِيَّةَ الَّتِي غَادَرَهَا فَدَّتْ وَرَاءَهُ ، وَهَكَذَا يَنْتَلِهُي كُلُّ مَنْ لِلْمَاءِ وَالنَّارِ بِجَانِبِ الْآخِرِ ، وَلَكِنْ يَبْدُو الْإِنْسَانُ ، وَيُظَلُّ كُلُّ مَنْ صَفِيرُهَا وَنُورُهَا مَتَوَعِّدًا ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يُفْتَمِدَ عَلَيْهِمَا أَبَدًا .

وَيَقْدُو النَّيْلُ ، بُعِيدَ آخِرِ هَذِهِ الْأَسْدَادِ ، مِنْ تَقَدُّمِ السَّنِّ مَا لَا يَقُومُ مَعَهُ بِمَغَامِرَاتٍ أُخْرَى ، وَيُنْقَادُ النَّيْلُ بُعِيدَهَا لَهْوَى غَرِيبٍ ، وَيَمُودُ النَّيْلُ بَعْدَ الْعَطْبَةِ غَيْرِ ذِي رَوَاقِدٍ ، وَيَصْنَعُ النَّيْلُ مِنْ نَفْسِهِ نَيْلًا آخَرَ يَبْعُدُ مِنْهُ نَحْوَ اثْنَيْ عَشَرَ كِيلُومِتْرًا وَيُرَاقِقُهُ أَكْثَرُ مِنْ ٢٥٠ كِيلُومِتْرًا ، وَيُكُونُ النَّيْلُ عِدَدًا مِنَ الْأَصْوَاجِ غَيْرِ الْمَفِيدَةِ الَّتِي لَمْ تَنْشَأْ عَنْ جِبَالٍ أَوْ عَنْ عِلَلٍ أُخْرَى فَتُسْفَرُ عَنْ زِيَادَةِ ثَمَانِينَ كِيلُومِتْرًا فِي طَوْلِهِ ، وَهَذَا هُوَ بَحْرُ يُوسُفَ الَّذِي يَظْهَرُ فِي دِيْرُوطٍ فَعِيدٌ ضَرْبًا مِنْ ظِلِّ النَّيْلِ ، وَهُوَ يُسَمَّى قَنَاةَ يُوسُفَ أَيْضًا ، وَتَرْبِطُهُ الْقِصَّةُ بِيُوسُفَ ، وَإِنْ كَانَ مَجْرَاهُ الْمَوْجُ يُنَاقِضُهَا .

### ينتصونه أمام فرعون

والآن لا يزال الفلاحون يَقْضُونَ أسطورةَ البطرك يوسف ، فيَذْكُرُونَ أن رجال البلاط سَمَّوْا منه كما يَسْأَلُونَ من كلِّ وزيرٍ يحفظ بالسلطان زمنًا طويلاً فَوَدُّوا أن يتخلصوا منه فأخذوا ينتصونه أمام فرعون ويقولون له : « يا فرعونُ العظيم ، لقد شاب يوسفُ كثيراً ، وقلَّ ذكاؤه وزال جلاله وضمف رأيه » ، غير أن فرعون ، الذي لم يَنْسَ ما تَمَّ على يد يوسف من عملٍ معْلَمٍ ، أراد أن يُبرِّهَمَ ما لا يزال عند يوسف من قدرةٍ سحريةٍ عظيمةٍ فقال لهم :

« والآن ، أثبتوا لى ذلك ، والآن اسأله أن يقوم بعملٍ عظيمٍ لا يَقْدِرُ على إنجازه » ، فقال خصومُ يوسف :

« مرُّهُ أن يستنزف ماء النيل من الأراضى المستفدرة تحت البحيرة وأن يُجفِّفَ هذه الأراضى وأن يَتَقَيَّها فيكون لك بذلك ولايةٌ جديدة ودخلٌ جديد » .  
ويُظْهِرُ فرعونُ إشارةَ القبول ، ويدْعُو يوسفَ ويقول له : « يوسفُ الى ابنةٍ مُفَضَّلَةٍ أريد أن أحسِّنَ جهازها ، ولكن ليس عندنا أراضٍ ، أفَتَدِرُ أن تُحوِّلَ البَقْعَةَ المستفدرة هنالك إلى ولايةٍ ؟ هى حسنةُ الموقع ، وهى غيرُ بعيدةٍ من عاصمتى ، وهى فى وَسَطِ الصحارى ، وستكون ابنتى مستقلةً فيها » .

وهناك يسأل يوسفُ : « ومتى تريد ذلك يا فرعونُ العظيم ؟ فسيكون ذلك بعَوْنِ الله » .

وهناك يُجيبُ فرعونُ قائلاً ككلِّ صاحب سلطان : « بما يُمكن من السرعة » .

وهناك يأمر الله يوسفَ بأن يُنْشِئَ ثلاثَ قَنَوَاتٍ ، فتكون إحداها من مصرَ العليا ، وتكون الثانية من الشرق ، والثالثة من الغرب ، فتُسْتَنْزَفُ الأرضُ بهذه



القنّوات ، وَيَقْرَسُ يُوسُفُ فِيهَا أَشْجَاراً وَأَلْغَاً مِنَ الْأَثَلِ ، ويدخل النيلُ في وقت الفيضان إحدى القنّوات وَيَسْقِي الْبَلَدَ الْخَجْفَ وَيَخْرُجُ مِنَ الْقَنَاةِ الْآخَرَى ، وَيَسِمُ كُلُّ شَيْءٍ فِي سَبْعِينَ يَوْماً ، ويقول فرعونُ لرجاله بَلَّاطَه حينئذ : « هذا هو الذى عمّله يوسفُ الشائب الضعيف الرأى ، وهذا ما لا تقدرون على صنعه فى ألف يوم ! » ، وما فتى ذلك البلدُ يُسَمَّى بِلَدِ أَلْفِ يَوْمٍ أَوْ الْقِيَوْمِ !

وقناةُ إبراهيمِ هى أطولُ قناةٍ بمصرَ فى الوقت الحاضر ؟ وهى تمتدُّ على شاطئِ النيلِ الأيسرِ موازيةً للخطِّ الحديدىُّ بعدُ سَدِّ أُسَيْوْطَ ، ولذا ترى بعدَ ديروطِ ثلاثةَ أنيَالٍ يُرَوَّى اثْنانِ منها وَاحِدَةُ الْقِيَوْمِ ، وليست هذه القنّواتُ كاملةً ، صغيرةٌ كانت أو كبيرةً ، وَيُسْتَعْدُّ فى كُلِّ وَقْتٍ لإصلاحها وتجديدها وتوسيعها ، وَيُعْمَلُ فيها داخلاً وخارجاً كما فى الكنائسِ القوطيةِ الزاخرة بصيقلاتِ<sup>(١)</sup> البناءِ دَوْماً ، وَيَسْجُ مَا يَحِجُّ وما يُصْنَعُ مِنْ هَذِهِ الْقَنْوَاتِ بِالمئاتِ مِنْ ناقلِ الترابِ كما فى زمنِ الفراعنة ، وَيَسِمُ كُلُّ عَمَلٍ يَبْدُ الْإِنْسَانُ ، وَيُشِيرُ الْعَرِيفُ إِلَى هَذَا الْجُمْهُورِ ويقول : « ستة ملايين متر مكعب » ، وَيَتَصَرَّفُ كُلُّ نَاقِلِ تَرَابٍ فى ثلاثةِ أَشْخَاصٍ أَحَدُتَ مِنْهُ سِنًا ، وَيَشْتَغِلُ مَعَهُمِ اثْنَتَى عَشْرَةَ سَاعَةً أَوْ أَرْبَعَ عَشْرَةَ سَاعَةً مِنْ كُلِّ يَوْمٍ ، وَيَعُدُّ عَمَلُهُ أَقْسَى مِنَ الْعَمَلِ فى السَّاقِيَةِ ، وَيَتَأَلَّفُ طَعَامُهُ مِنَ الخبزِ الْأَسْوَدِ والبصلِ والفُجَلِ قَطْ ، وَيَخْتَارُ عَمَالُ كُلِّ زِمْرَةٍ ، فى كُلِّ يَوْمَيْنِ ، مِنْ يُمْسِكُ السَّوْطَ ، وَيَنْتَقِلُ كُلُّ حِمَالٍ فى اليومِ الْوَاحِدِ ١٢٥ قُنَّةً مُشْتَمِلَةً كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا عَلَى اثْنَيْنِ وَعِشْرِينَ كِيلُوغَرَاماً ، أَى مَا يَعْدِلُ ثَلَاثَةَ أَمْتَارِ مَكْبَةِ وَنِصْفَ مِتْرِ مَكْبِ فى كُلِّ يَوْمٍ ، وَمِنْ تَمَّ تَسَاوَى سِتَّةِ الْمَلَايِينِ مِنَ الْأَمْتَارِ الْمَكْبَةِ نَحْوِ

Echafaudage, Scaffolding (١)

٢١٤٢٨٥٠٠٠ قضة تراب ، وأجرة الرجل شلن إنكليزي واحد في كل يوم ، ولا يُحسب ما يسيل من العرق ، ويُعهد إلى عمال بالنقابة أمر المنحدرات والدراجات ، ويُرِيدُ ما ينالونه من أجرة يومية نصف شلن على ما يناله أولئك ، ويعرفون القياس والكتابة ويعلمون أين يجب أن تُبنى المنحدرات مُقدِّرين قرض الزواج للصفة .

وإذا ما غدت تلك القنات فارغة في الشتاء أُكْرِيت أقساماً صغيرة كأنها حقول حَبِّ ، ويرى الفلاح أن قليل انخفاض في الأرض يُسرِع عن كثير غرين ، فيختار هذه القطعة ويَحْصُدُ زرعها في شهر مايو .

ويشابه النيلُ المِسنُ ثورياً هداً عن مَشِيبِ قساوره فَوَرَاتُ تَهَوُّرٍ ، فيُزِجُ الجُرُزَ سنة بعد سنة ، ويُزِغُ مجراه بقوة نحو الغرب في بعض الأماكن كما في منفلوط ، غير أن الرجل أكثر مكرأ منه ، فسرُّ النهر يُكشَفُ بلونه الذي يَعْرِفُ به الفلاح أنه لا يستطيع المرور حيث مرَّ في العام الماضي بمترو ٢٥ سنتماً من دخول المركب في الماء ، وتعارضُ أعمالُ الدفاع على طول الضفافِ سُنَنَ النهر نفسها لما يُبْنَى من رَصَفَاتٍ من حجارة حادة للهينة على الغرين وإقناذِ الأسداد ، ومن الطبيعي أن يُثِيرَ شكلُ الحجارة مناقشات بين المهندسين ، فإذا أراد الإنكليز أن تكون مثلثة القاعدة وأن يكون طرفها متجهاً إلى الأسفل اكتسب الجدالُ حَوْلَ المسئلة صفة سياسية ، وينتقم النهرُ لنفسه ، وعلى أسلوبه ، من كَيْدِ الإنسان هذا ، فإذا ما قُسمَت جزيرة لتقنيته تَجَمَّعَ الغرين في وَسَطِ مجراه ، وساخت الباخرة فيه ، فوجب لتعميمها قضاء ساعاتٍ عملٍ مُضْنٍ مقرون بدعوة الربِّ وصبِّ اللَّعَنَاتِ .  
والعملُ في الصحراء المجاورة أشدَّ من ذلك وأقسى ، ففي الصحراء تُبْصِرُ صَخَر

العصر الجليدي\* ممزوجاً بالكس فيُنسَف هذا الحجر بالديناميت ، وفي المساء يرى القلاحون على نور النار ، حين يجلسون القرفصاء قريباً منها ، عيون بنات آوى والضباع اللامعة ويستمعون غواها .

وقد أحدثت قناة يوسف أخصب الواحات وأقربها بين تلك التي تخطّ صحراء مصر على طول النيل ، وتفصل الصحراء والجلل الفيوم عن النيل ، ولم تترك تلال ليبية ، التي تمخّذ واديها من الغرب بجوار بني سويف ، غير معبر ضيق صالح لمرور تلك القناة الطبيعية ، ولولا ذلك المنفذ الذي يجاوزه القطار في بضع دقائق ما وجدت تلك المديرية التي هي أخصب مديريات مصر على ما يحتمل ، ومن شأن طول هذه القناة وعدم الانحدار أن يمسك الماء حتى بعد الفيضان .

وكانت بحيرة فارون ، وهي بحيرة موريس فيما مضى ، ضرورة في الفيوم<sup>(١)</sup> لتنظيم قناة يوسف ، وكان يُظن في القرون القديمة أنها مصنوعة حيناً كان يُحدّث عن قناة وعن حوض ، لا عن نهر وعن بحيرة ، ويلوح أن الطبيعة والرّي أقصا أبعاد هذه البحيرة التي كانت تتخذ منذ أيام استرابون ، خزّاناً في زمن الفيضان ، فترد ما يزيد من مائها إلى النيل في الفصل الجاف ، وكانت الطبيعة تساعد بكوى بعلوها الماء ، وكان ذلك العالم الجغرافي الإغريقي يُسمّي هذه الظاهرة « ترويض الطبيعة » ، وطيرت آثار حضارة ترجع في القدم إلى ثمانية آلاف سنة في هذه البحيرة ، وما وُجد من سكانين وحجارة مصقولة وبقايا أدوات مستعملة قديم على وجود أناس كانوا قبل الميلاد بستة آلاف سنة يعيشون من الصيد ، ومن الزراعة أيضاً ، هنالك حيث لا تجد الآن غير صيادين .

(١) نحي كلمة الفيوم بمعنى البحيرة في المصرية والرية ( المؤلف ) .

ولا تَجِدُ في جميع وادى النيل مكاناً أحسنَ من هذا المكان يَتَوَقَّفُ فيه الرِّىُّ فيه على حكمة الطبيعة وعلى أهوائها على ما يحتمل ، وقد ضاقت تلك البحيرة فى ألوف السنين على حين كانت القناة تَنسَعُ ، وقد حَوَّلَ البطالمةُ تلك المناقِعَ إلى حقول حَبِّ ، وَغَيَّرُوا الزراعة فى الدلتا من هذه الناحية ، وَبَلَّغُوا من تغييرهم إياها ما نستطيع أن نَتَتَبَعَ به جميع المراحل حتى أعمالِ الرِّىِّ العظيمة فى أيامنا .  
وتلك البحيرة مألوفة غامرة غير مُقَرَّاة ضاربة إلى خُضْرَة فينْقَلَتِ الأوزُ البريُّ فيها من الصائد ، وما كانت عين الإنسان الجزوع لتَقَرَّ إلا بمنظرٍ ما على طرف الواحة الجنوبيَّة من خُضْرَة وَخُضْب ، والبحيرة هى دون مستوى البحر بأربعين متراً ، وبما تؤدي إليه أنقاضُ المعابد والمدن الواقعة على شواطئها أن تَرىَ يدها كآبةً ، وإذا ما قرأنا أن الشابَّ إخناتون عاش هنا مع حاشية أمه لم يَبْلُغْ ذلك دائرة المايئة ولم يَعُدْ ذلك حَدَّ الفكر .

وليس تلك الواحة الخصبية ، التى فَتَنَتْ هيرودوتس والى رآها استرابون مستورةً بشجر الزيتون والعنب ، جميلةً فى غير جنوب البحيرة ، وَتَبْدُو اليوم ضَرْباً من المراعى الخصبية التى يَحْلُمُ بها الفلاح بما فيها من مئات الجداول الصادرة عن القناة نفسها وبما هى مَكْسُوءة به من البرِّ والأرزُّ والزيتون والخُضْر ، ولكنها عادت غير ملكٍ للفلاح ككلِّ بُقْعَةٍ بالغةِ الفنى بمصر .

يَدْنُو النيل من أكبر مدينة في مجراه وقارصته مُتَّسِدًا هادئًا ، ويصل النيلُ إلى حيث يَفْقِدُ وَحْدَتَهُ ، إلى حيث يُقَسَّمُ إلى عِدَدٍ من الشَّعَبِ حين يُحِيطُ بِجُزُرٍ عظيمةٍ وتَحْفُفُ به بُقْعَةٌ واسعةٌ مُحَضَّرَةٌ من ناحية الغرب وتُمسِكُهُ جبالٌ من ناحية الشرق ، ولكن النيلَ يُبَصِّرُ على القسم الشمالي من عَرْضِ القيوم ، يُبَصِّرُ عن الشمال ، بناءً غريباً من الحجر ، يُبَصِّرُ هَرَمَ مِيدُومَ ، ثم سلسلةَ أَهرامٍ أخرى في الكيلومترات الثمانين التي تَسْبِقُ القاهرة ، ولا ترى أَقْلَ من ستِّ مجموعات من الأهرام في مكان منفيس ، وهي تَبْدُرُ في وَضَحِ الجَوِّ وأمامَ التلالِ الغربيةِ العاليةِ مقداراً فقداً ، وَيَقَعُ آخرُ الأهرام على عَرْضِ القاهرةِ قَرِيباً ، ويُجَانِبُهَا <sup>(١)</sup> النيلُ قبل أن يَصِلَ إلى مَآذِنِ العاصمةِ وَقِبَابِهَا وقصورها ، وأهرامُ الجيزةِ الثلاثةُ هي أقدمُ مباني البشر الحجرية ، أو أقدمُ ما ظَلَّ قائماً من هذه المباني .

ولا تُذهِشُنَا رَوْعَةُ هذه الآثارِ بِمقدارِ ما اقتضاء النيلُ والإقليمُ من الصفاتِ الأساسيةِ كروحِ الناسِ الواضحةِ الخاسيةِ وميلهم الجامعِ إلى قهرِ الموتِ بما لم يُسَمَّعْ به من العُدَدِ المؤديةِ إلى برودةِ الخطوطِ المحترقةِ بالشمسِ وتَوَثُّرِها فَسُخَّرَتِ الرِّياضياتُ لأهدافٍ مضحكةٍ وَسُخِّرَ الوضوحُ المعجبُ لغاياتٍ غيرِ مُجَدِّيةٍ ، وما كان من الاختراعاتِ العظيمةِ للظَّفَرِ بنصرِ بِلَاحِ الأساسِ ، أي رفعِ الماءِ وتوزيعه ، أي جميع ما أدركوه وعَرَفُوهُ قبلَ غيرهم ، أدى إلى هذه النتيجةِ الطائشةِ ، إلى أن هذه

(١) جانبه : سار إلى جنبه .

الأماكن لم تُقَمَّ تمجيداً للإله أو تبجيلاً لسلطان ملك أو بلوغاً لمرسة عاهل أو تنمناً بمعاشر سرية ، وإنما نُصِبَت هذه الجُدُر التي تناطح السماء نتيجة خُزْوَانة ملك ممسوس أو نتيجة خوفِ عاهلٍ مفتون .

وتبدو مجموعتها الرمادية فوق صحراء صفراء مع ظلال واضحة تمتد بعد الظهر ، وتزيد الوجوه المائلة تلك الأشكال الهندسية توتراً ، وعلى ما هو واقع من تأثير الجميع بتلك الآثار البالغة البساطة لا يستطيع الإنسان أن يمنع نفسه من إنعام النظر في عدم فائدتها ، وقد يكون للعقم روعته ، والعقم هنا منطقي قطع ، وقضى قُضْدَانُ كلِّ تصويرٍ فنيٍّ على الخيال تحت هذا النور الشديد ، ولم يَبْقَ غيرُ المفاجأة التي تُسِفِر عنها تلك الخطوط المستقيمة بين تَمَوْجِ تلال الصحراء .

ولا تُعْرِف عن الملوك الثلاثة ، الذين بنَوْا تلك المباني المكدودة أعظم المزارات ، عملاً أو فكراً أو رأياً غير ما يَهْدَف إلى حمل شعبٍ على نقل حجارة في مئة سنة لستَرِ نَوَاويسهم بأبنية مضاعفة لم يُبْلَغ لها ارتفاع ولا ثِقَلٌ ، وكلُّ ما نَمَلَّه عن خُوفُو هو أن النَمَّ كان يستحوذ عليه دوماً فيأتي من منفيس بساحرٍ ليلسكه بفصصٍ وأحاديثٍ ، فيعرض هذا الساحرُ عليه أن يُلْزِقَ رأساً مقطوعاً بيدنه الذي فُصِّل عنه .

فرعونُ صائحاً : « إيتُونِي بِمَحْكُومٍ عَلَيْهِ ! » .

الساحرُ : « كلاً ، لا رجل ، بل حيوانٌ من زِرَابِك »<sup>(١)</sup> ، ويَذْبَحُ إِوزَةً وَيَقْطَعُ رَأْسَهَا وَيُعِيدُهَا إِلَى حَيْثُ كَانَ ، وينطلق هذا الطيرُ خافقُ الجناحين .

وتطابق أسطورة ابنته خُزْغَبَلَاتِ تلك الحياة ، فهو يُكْرِهها على البقاء وعلى

(١) الزراب : جم الزرية ، وهي حليمة المواشى .

مطالبة كل واحد من عشاقها بحجر لغير أيها ، وكان هذا القبر يتطلب مليونين ونصف مليون من الأمطار اللسكية ، فلو افترضنا أن تلك البنت كانت لها قوة الحديد وأنها اتخذت ذلك العمل جرقة لها مدة مئة سنة ما استطاعت بذلك أن تساعد على أكثر من حجارة ذروة الهرم .

وعن الخفرع الذى شاد الهرم الثانى فكر ، فهو لما كان أمام تمثاله ، أمام ذلك الوجه العريض البسيط ( إذا كان الرجل العارى الذى يحمل اسمه يمثل حقا ) ، لم يلاحظ فى بدء الأمر أن هوروس ، الصقر ، يستروءاه ، وأن جناحيه للبسوطيين يحتفظان رأسه وعنقه ، وكان منكروغ ثالث الثلاثة ، ورؤي أنه أحسن من سلفيه فعد ملكا صالحا ، وقد اكتفى بهرم أقل ارتفاعا من ذلك بمقدار النصف ، وقد بدأ عاشقا لابنته بدلا من أن يبيعها فشقت نفسها غما ، وقد دفنها أبوها فى جبل من ذهب فكان هذا الجبل موجودا فى زمن هيرودوتس ، وقد أوصت قبيل موتها بأن ترى الشمس مرة واحدة فى كل سنة فصار يسار بالجبل مرة فى كل عام .

وتطبق تلك الأساطير البربرية على أناس كان همهم مصروفا إلى بناء ضرائحهم ، ولم يرتفع غير صوت بشرى واحد بين تلك الأقاصيص الكريهة ، غير صوت فتاة تريد أن ترى شمس مصر دقيقة واحدة .

وما تبقى لا يفوق طاقة البشر ، بل ينافي الإنسانية ، ويطلق أقدم الروايات ما حُقق فى الوقت الحاضر ، فقد وجب مرور أكثر من مئة سنة على أولئك الفراعنة الثلاثة ( على اثنين منهم على ما يمحتمل ) لبناء ضرائحهم ، وهم قد حشدوا ، إذن ، ثلاثمئة ألف رجل أو أربعمئة ألف رجل فى أشهر فيضان النيل الأربعة للجب

وملأ بقى ؟

الحجارة من جبال العرب حتى النهر ونقلها من ضِفَّةٍ إلى أخرى ثم نقلها من طريق جديدة إلى الرِّشَّة<sup>(١)</sup> حيث نُسَوَّى وتُصَلَّح ثم توضعُ في محلها بالآلاتِ لا تَحْطَرُ على قلب أحد ، وهكذا كانت مصرُ بأُسْرِها قَيْدَ العبودية فأغْلَقَت المابِدُ مدةَ قرن ، وإلى ذلك أضيفوا المابِدَ التى تُقَامُ والتمائيل التى تُنْصَبُ حَوْلَ ذلك للقضاء على العُرْلة التى تحيط فى الوقت الحاضر بتلك الكُتْلِ المائلة ، ويقال إن خُفِرَ وَضِعَ سبعةً وعشرين تمثالاً ضَخَمًا حَوْلَ هَرَمِهِ .

وماذا بَقِيََ من جميع ذلك ؟

بَقِيََ اسمُ خُوفُو مقرونًا بذلك البناء الذى ظلَّ أعظَمُ ما فى العالم ، أَجَلٌ ، نَمِىَ الاسمان الآخِران فى الوقت الحاضر ، غير أن الجميع شُنِعَ عليهم فى ألوف السنين من قِبَلِ الشعب الذى أَكْرَهَ على التضحية بأربعة أجيالٍ منه فى سبيل ذلك الهوى الجبرىِّ المَلَكى ، وما بَقِيََ الناس فى زمن هيرودوس يَمْدُون هؤلاء الملوك من العفاريث والسَحَرَةِ ، وكان الناسُ يَجْتَنِبُونَ النُّطْقَ بِأَسْمائِهِم اللعينة قَيْدُ عَوْنِ المِكان الذى وُجِدَتِ الأهرامُ فيه بِفِيلِيتيس ، أى باسمِ الراعى الذى كان يَرْعَى قِطَاعَهُ هنالِكَ .

ومع ذلك عاد داخلُ الأهرام الذى أفرط فى الدفاع عنه لا يشتمل على شىء ، قد فَرَّغَ النَّهَّابُونَ ، الذين هم أَمْرُ من البَنَّائِينَ ، النواويسَ وَكَمَرُوها فلم يَبْقَ أىُّ اسم ، لم يَبْقَ غيرُ ما وُجِدَ على قُبَّةٍ من سِمَةٍ حمراء ، غيرُ لافِتَةٍ تُشِيرُ إلى عمل نَحَّاتٍ ، وبما بَقِيََ على جدارٍ منذ زمنٍ طويلِ ككتابةٌ قَائِلَةٌ إن الصَّالِ كانوا قد أَكَلُوا ما قِيمَتُهُ سِتَّةُ ملايينِ فرنكٍ ذَهَبٍ من البصل والفُجَلِ والثُّومِ .

(١) Chantier



ومن ثمّ ترى ثلاثة من الفراعنة قد طلبوا الخلود بأعظم ما فى العالم من كتلٍ حجرية ، قَبِىَ اسمُ رابعٍ وسمّةٌ عاملٍ وحسابٌ بَصَلٍ ، ومن ثمّ ترى الفلاح قد قهر سادته الفراعنة فى نهاية الأمر .

وهذه جغرافيو القرون القديمة الثلاثة واستحوذ عليهم الوجدُ تجاه الأهرام كما حذى عجائب الدنيا ، ويعدّلهم خيرةً أمام أوابد مهندسى مصر القدماء كلٌّ من يَعْرِفُ حدود الفنِّ القديم ، وبما كان يُعزى إليهم ما فى الأعداد من السرِّ المكنون ، ولم ينقطع هذا القَبَبُ حيناً أَمَاط شَفُوبُلْيُون اللّثام عن تمثال سايس <sup>(١)</sup> .

بيد أن أحداً من أولئك المؤلفين الثلاثة لم يتكلم عن أبى الهول الرابض أمام الهرم الثانى ، وهو إذ كان شيعةً مطبوعاً فى الرمل فإن من المحتمل أن يكون فى زمن هيرودوتس واسترابون غير ظاهري تقريباً ، وكان ثوثموزيس الرابع قد أبرزه قبل هيرودوتس بألف سنة ، وبما يقصُّ أن ثوثموزيس هذا كان فى أثناء الصيد قد نام ذات يوم عند قدَمِ أبى الهول فقال له أبو الهول : « سأجعلك من الفراعنة إذا ما أخرجتنى من الرمل » .

وما كان أبو الهول ليتبدو حافلاً بالأسرار لدى المصريين ما دام قد نُحِتَ رمزاً لغفرع ، وكان لا بدّ من ظهور الأغارقة حتى يُخَيِّفَهُم أبو الهول ، وقد أبدع ، إذن ، أثرٌ فنيٌّ لا يقاس بشيء فى العالم فى سهل الأهرام الثلاثة حيث كلُّ شيء فكرٌ وحساب ، وذلك لأنه لا يزال قريباً من الطبيعة على ما يحتمل .

وكما نظرنا إلى أبى الهول عند غروب الشمس غيرَ هذا اللّيلِ الأسدُ منظره ، ويبدو وجهه الصامت المشوّهُ ناطقاً ذا معنى ، ولا نشعر بما توحى به التماثيلُ

« لا نستطيع أن ندرك »

النصفية البتورة من الشفقة عندما نراه ، فاعليه وَضَعُهُ من سَاءَ فلا يجعلنا نَرِي  
لطالعه الديبوى .

وإذا رأتى مواجهةً ، ومن غير نظير إلى تاجه الفرعوني ، وَجِدَ رأسُ شابٍ  
طويل العنق ، ضَيَّو الجبين ، بارز الأذنين ، واسع الأنف مع تظلمن كأنف  
الفلاح ، ذى تَحْنٍ في شَفَتِهِ السفلى مع نُسْكٍ عن قَرَضٍ ، ذى وجهٍ أَمَمٍ مملوء  
صبراً ، ولكن مع إيماءٍ محجرين عظيمين بين جَفَنَيْنِ كبيرين مفتوحين بحنين  
إلى الوطن يَفْجِرُ القلمُ عن وصفه ، وعلى الرغم من جميع هذه القوة والمهدوء .

« فلقد قُتَّتْ بعظمتك جميع أولئك الذين كانوا قبلك ، وذلك لأن عظمتهم  
هبطت إليك ، أنت الأقوى لأنك جوهرٌ غير منقسم ، أنت تَزْهَدُ في مظاهر  
السلطان والجمال لأنك تُخْتِمِي قُوَّتَكَ في جسم حيوان ، أنت تتأصل بيدك في  
الأرض التي ندوسها والتي تجلس عليها الفُرُصَاءُ لسؤالك ، أنت قوى القول  
فتصطك رُكْبُنَا بريح كلامك العظيم ، أنت ذو صوتٍ يَدْوِي في الصحراء  
الواسعة مع سكوتك ، أنت تَبْرُزُ من الرمال التي جَمَعَهَا القرونُ في عُرْلَةِ البرِّيَّةِ ،  
أنت تحيا حياة ذات أسرار بين الرمل والسماء والقرب من قبور ملوك مجهولين .

« أنت رجلٌ ، ويُؤَيِّدُ ذلك غَضَنُ جينك وقوةُ صُدْغَيْكَ وضُورُ خَدَيْكَ ،  
أنت مصرىٌ ذو وَجْهَتَيْنِ بارزَتَيْنِ وفمٍ كبير ، أنت نَشَأَتَ بين الرمل والصحراء  
وغيرَيْنِ النيل ، أنت لستَ إِلَهًا ، لأن نظرك الحيواني يرتفع إلى الشفق ، نحو  
النجوم ، من حَجَرِي عَيْنِكَ ، وبما أنك تَرْتَوِي إلى البروج ببصرك فإننا نَدْنِعُ ذلك ،  
ولا نستطيع أن ندرك ذلك النظام الذى قد تحيط به فى صموتك وراء حاجبتك  
فلا نُظْلِمُنَا عليه . »



## الجزء الخامس

### القمم الذهبية

« يَحْمِلُ الْأَطْلَسُ يُونَا مِنْ الْأَرْضِ عَلَى كَيْفِيهِ  
الْعَظِيمَتَيْنِ ، وَيَتَّقِي عَلَى رَأْسِهِ أَلْفَ عِلْمٍ شَاهِدٍ  
عَلَى سُلْطَانِهِ ، وَهَكَذَا يَهْدُرُ سُرُوراً وَيَحْمِلُ إِخْوَتَهُ  
وَأَوْلَادَهُ وَخَزَائِنَهُ فِي صَدْرِ الْأَبِ الْمُنْتَظَرِ » .

( غوته )





٣٤ - أحد الفراعنة



تَمْتَدُّ الظلال ، ويُقْبِلُ الليل ، وَيَدْنُو النهر العظيم المَهْتَرُّ من آخر مجراه ، غير أن  
المجانب التي أوجدتها الطبيعة هي نتيجة استعداد كثير وجهد كبير فلا تُضْحَى  
الطبيعة بها مع عدم اكتراث كاللنى تُضْحَى معه بالملايين من الموجودات الأخرى ،  
« ولها ، كما قال غوته ، مَفْضُلُهَا الذين تُعْطِيهِمْ بسخاء ، وهي تَحْمِي ما هو عظيم » ،  
وتنتفع الطبيعة بفُسُوق الإسكندر لَهْكَ قُوَاهُ ، وكان لا بُدَّ من اثني عشر قاتلاً  
لَطَمَنٍ قِصَرَ بالفناجر ، وكان لا بُدَّ لها من قبائل الشمال لَهْذَمِ دولة الرومان ، وكان  
لا بُدَّ من البراكين لإهلاك بساتين البرتقال في مَسِينَةِ ، وكان لا بُدَّ من جزيرة  
قَفَرٍ لَهْذَمِ نابليون ، وما كانت الطبيعة لتترك أدعى الأنهار إلى العجب لطالعه من دون  
أن يَجِدَ شكلاً جديداً غير مُرْتَقَبٍ ، من دون أن يَجِدَ حلاً جديراً به .

وَيَسِيرُ موج النيل من خطِّ الاستواء إلى القاهرة في مئة وخمسين يوماً ، وَيَقْطَعُ  
أَكْثَر من خمسة آلاف كيلومتر مجاوزاً ما يزيد على ثلاثين درجة من العرض ،  
وهل يَصُبُّ في البحر كَمَوَجِ ألوف الأنهار التي تَصِلُ اليابسة بالمحيط ؟ وتعيد  
الطبيعة إلى النيل قدرته على الإبداع مرة أخرى ، وينقسم النيل قبل مَصَبِّه ،  
ويستفيد قاهرُ النهر الإنسانُ من هَوَى الطبيعة هذا ويُحْدِثُ أرضاً جديدة زاهرةً  
بالقَلَّاتِ ، وإذا ما هَبَطَ أحدُ الموجودات منهوكاً بَدَتْ للعنصر صَوْلَةُ عظيمة ،  
فالنهر في الكيلومترات الـ ١٥٠ الأخيرة من مجراه يُكَوِّنُ أخصبَ أقسام العالم  
المعمور ، ويُعَمِّمُ معنى كلمة الدَّلْثا وتدلُّ على كل مَصَبٍّ من ذلك النوع ، وبما أن



سَنَنَ الطبيعة مُنْقَسِرَ أَسْرَارِ النِيل ومغامراتِهِ الغريبةَ فَإِنَّ العلماءَ بَحْثُوا فِي أَمْرِ هَذَا  
الْمَثَلِ الْأَرْضِيِّ الْمَائِيِّ الْحَيِّ ، وَقَالُوا مُؤَكِّدِينَ إِنَّ الدَّلْتَا بَلَّغَتْ مِنَ السَّنِ  
١٣٨٩٠ سَنَةً وَأَثْبَتُوا ذَلِكَ كَمَا يَأْتِي :

كَانَ النِيلُ الْمَقْسُومَ إِلَى فُرُوعٍ كَثِيرَةٍ يَتَوَارَى فِي الدَّوَرِ الْإِبْتِدَائِيِّ فِي مَنَاقِعَ كَبِيرَةٍ  
مُسْتَوْرَةٍ بِغَايَةِ بَكْرِيَّةٍ بِهَا جَمْعٌ لَا يُخَصِّصُهُ عَدَدٌ مِنَ الطُّيُورِ وَذَوَاتِ الْقَوَائِمِ الْأَرْبَعِ ،  
وَحُفِرَتِ قَنَوَاتٌ وَأُنْشِئَتْ أَسْدَادٌ لِتُخَفِّضَ تِلْكَ الْمَنَاقِعَ وَتُعْوِيْلَهَا إِلَى أَرْضٍ خَصِيصَةٍ  
قَبْلَ الْفَرَاغَةِ بِطَوِيلِ زَمَنٍ ، وَمِنَ الْحِينِ الَّذِي أَعْمَلَ الْإِنْسَانُ ذِكَاكَهُ وَحَذَقَهُ هُنَاكَ ،  
وَالطَّبِيعَةُ تُطْبِيعُ ، وَتَتَحَوَّلُ تِلْكَ الْبَقَاعُ الْبَازِئَةُ مَقْدَارًا فَقْدَارًا ، وَتَتَغَيَّرُ صُورَةُ الدَّلْتَا  
الْجَانِبِيَّةُ وَتُبْسَطُ فِي الْأَزْمَنَةِ التَّارِيخِيَّةِ فِي نِهَايَةِ الْأَمْرِ .

وَيَقَالُ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ إِنَّ الدَّلْتَا هِيَ أَكْبَرُ جُزْرِ النِيلِ ، وَكَانَتِ الشَّعْبَتَانِ  
الَّتَانِ تَحِيطَانِ بِهَا ، وَهُمَا كَانُوتَ وَيِلُوزَه ، أَعْرَضَ مِنَ الشَّعْبَتَيْنِ الْحَاضِرَتَيْنِ : رَشِيدٌ  
وَدِمِيَاطُ ، وَقَدْ عُرِفَ لِلنَّيْلِ ثَلَاثُ شُعَبٍ فِي بَدْءِ الْأَمْرِ ، وَتَكَلَّمَ هِيرُودُوتُسُ عَنْ  
خَمْسِ شُعَبٍ لَهُ ، وَرَأَى اسْتِرَابُونُ وَبِلِينِي وَغَيْرُهُمَا سَبْعَ شُعَبٍ لَهُ ، وَعَدَّ الْإِدْرِيسِيُّ ،  
الَّذِي هُوَ أَكْبَرُ جِغْرَافِيي الْعَرَبِ ، سِتَّ شُعَبٍ لَهُ ، وَوَضَعَ الْإِدْرِيسِيُّ رَأْسَ الدَّلْتَا  
شِمَالًا مَا هُوَ عَلَيْهِ فِي الْوَقْتِ الْحَاضِرِ ، وَلَمْ يَصِفْهُ فِي الْمَكَانِ الَّذِي وُضِعَ فِيهِ سَابِقًا ، وَكَانَ  
أَرْسُطُو يَسْتَقْدُ أَنَّ الشَّعْبَةَ الْغَرِبِيَّةَ هِيَ الشَّعْبَةُ الطَّبِيعِيَّةُ وَأَنَّ الشَّعْبَةَ الْأُخْرَى كَانَتِ  
قَنَوَاتٍ مُصْنُوعَةً ، وَمِنْ يَنْظَرُ إِلَى الْخَرَائِطِ الْقَدِيمَةِ يُبَيِّنُ أَنَّ بَعْضَ الْقَنَوَاتِ غَيَّرَ  
مَكَانَهُ خَمْسَ مَرَّاتٍ ، وَمَا وَقَعَ مِنْ تَبْدِيلٍ فِي الْقُرُونِ الـ ١٥ الْأَخِيرَةِ قَدْ ضَيَّقَ الدَّلْتَا ،  
وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا فِي الْغَرْبِ غَيْرُ اسْمِ الشَّعْبَةِ السَّابِعَةِ الْجَمِيلِ ، غَيْرُ الْاسْمِ الرَّعَايِيِّ الَّذِي  
كَانَتْ تُدْعَى بِهِ قَبِيلَةٌ مِنَ الرُّعَاةِ نَازِلَةٌ مَعَ قِطَاعِهَا هُنَاكَ .

وكيف يُنال ما فيه الكفاية من الماء في هذه الأراضى التى انتزعتها الإنسان من المستنقع مع أن هذه التربة الغريزية لا ترتفع كثرة مصر العليا ؟ تَقَمُّ من أقدم المقياس ، التى دَلَّ عليها قياس النيل بالروضة القريبة من القاهرة ، ومن أحدث المقياس ، أن ارتفاع الدلتا المتوسط هو ثمانية عشر متراً ، وهو ما يُعْبَرُ عنه بكلمة « سَجَل ١٨ متراً » ، وبما أن نظام المياه بمصر حتى القاهرة لم يَتَغَيَّرْ في غضون القرون ، وبما أن وادى النيل الطويل الضيق بلاد واقع كان ذا عرض واحد في كل مكان تقريباً ، فإن ارتفاع الأرض ظل كما هو مع تعاقب الزمن ، والواقع هو أن فرق المستوى بين أسوان والقاهرة ٧٢ متراً ، أى ما يدل على أن الانحدار هو تسعة سنتيمترات في كل كيلومتر على مسافة ٨٣٠ كيلومتر ، ويكون الانحدار في الدلتا اثني عشر سنتيمتراً ، ويجب أن يكون الارتفاع في السنة الواحدة وفي القرن الواحد أدنى مما في أقسام مصر الأخرى إذن ، والارتفاع واحد مع ذلك .

ومع ما عليه جريان شعب الدلتا من سرعة أعظم من سرعة النيل قبل أن يُقَسَّمْ نرى أن ارتفاع التربة ناشئ عن رواسب الغرين التى تتوقف على سرعة النهر وطوله ، ويدلُّنا قياس النيل بالروضة على مقدار ذلك الارتفاع في غضون القرون ، ويساعدنا قياس النيل هذا على اكتشاف حيل الطبيعة ، فارجع البصر إلى ما سَجَلَهُ ذوو البصائر من الناس في ألف سنة من قياسات ثم انظر إلى ما انتهى إليه أحدث طرق البحث تحرّ التراب بالدلتا يرتفع متراً واحداً في كل ٧٧٠ سنة ، وبما أن مستوى الدلتا الحاضر ثمانية عشر متراً على ستة سطوح يتألف كل واحد منها من نحو ثلاثة أمتار ، وبما أن كل سطح يتم في ٢٣١٠ سنة ، فإن تكوين الدلتا يكون قد تم في ١٣٨٦٠ سنة على الأقل . ولا تُشْعِزُ بالأرقام ، فهلك الحسابات تقوم على أقدم مباحث العرب ، وترجع

الباحث الأولى في مصر الدنيا إلى ما قبل الميلاد بخمسة آلاف سنة ، ويمكن خيالنا أن يتّمثل الدلتا أيام بناء الهرم الأعظم ، ويدلّنا على الأدوار القريبة ما في قبور الدولة القديمة من تصاوير جدارية ، فهذه التصاوير تُبصّر مراعى هادئة ورعاة يحتمون من المطر بحضرماء عادت الدلتا غير صحراء في ذلك الحين ، وما دام البحر يقرض سُنته وما دام الماء ينزل من السماء ، وبهذه التصاوير الجدارية ترى الراعى ينأى بجانب المنافع ويزى كلباً حادّ الأذنين يحرسه عند قدميه ، ويزى الماشية تغبرّ الماء ويزى رجالاً عراة يرفعون ذراعهم ضارعين إلى التماسح المتوعد .

ويروى سياح الأغارقة أن هؤلاء الرعاة تحوّلوا إلى لصوص يسكنون جزراً وشباه جزر منيعة تقريباً فيخرجون منها في قواربهم المنقورة في سوق الشجر . وكان هؤلاء رجالاً جِلاداً<sup>(١)</sup> طوالاً صغاراً الأرجل مسلحين برماح حادة فيركبون خيلاً غير مسروجة ويسوّون بالبياسيين في الوثائق الهيروغليفية ، أى الآسيويين والأجانب الذين يحتمل أنهم من بقايا الهكسوس ، وقد حاول ملوك مصر ، على غير جدوى ، أن يذلّوا هؤلاء الناس الذين حتمهم الطبيعة بتحصنهم خلف منافعهم والذين كانوا يخرجون مبالغتين لانتهاج بضع مدّن في زمن ماركوس أوريليوس كما في زمن الخلفاء الأولين ، وكان وغيرهم<sup>(٢)</sup> يخيف جنود بوناپارت .

والآن ، وعلى بعد نصف ساعة من القاهرة بالطائرة ، تنقلت هذه القبائل من كل رقابة في جزر مقصاة وفي الطرف الشرقى من الدلتا ، وتركّب هذه القبائل زوارق ذات شُرْعٍ مثلثة الزوايا ، وتشرّب الماء بمثل منقار البجع وحوصلته ، ويمدّ هؤلاء الآدميون في المرتبة دون البدوين الذين يقيسونهم بهم ، وذلك لأنهم

(١) الجِلاد : جمع الجليد ، وهو ذو القوة والصبر — (٢) الوغى : صيحة الحرب .

كما في زمن هيرودوس

لا ينتفعون ، كالبديين ، بطول ظلهم لمعرفة الساعة ، وهم لا يعرفون غير الصباح والظهر والمساء تقسيماً للوقت ، وهم لا يزالون يملحون السمك كما كانوا يصنعون في زمن هيرودوس .

## ٢

لا يعرف التاريخ من ألاف السنين الأربعة عشر التي نستطيع بها أن نتتبع تحول الدلتا غير ثلاثة آلاف ، وليس لدينا سوى علم افتراضي عما حدث في عهد الدولة القديمة ، ولو لم تكن الأهرام هنالك لكنت أعمال الحفر في منفيس القديمة أقل إثارة بإحراج حول ذلك الماضي مما تثيره أعمال الحفر عن الدولة الطيبة في مجرى النهر الفوقاني ، أجل ، إن الأسر المالكة التي ظهرت بعد ذلك أقامت بمنفيس مجدداً حوالي ألف سنة قبل الميلاد ، غير أن هذه الأسر لم تظل باقية إلا إلى سنة ٣٠٠ قبل الميلاد .

وهلكت طيبة بعد أن ظلت عاصمة العالم نحو ألف عام ، وذهبت طيبة ضخمة تبديل السادة باستمرار ، وبدأ تماس الأم ، وتكثر صلات بعضها ببعض ، ويصل الآسيويون من الشرق ، ويصل الإفريقيون من الجنوب ، ويأتي أحد الفريقين بالسِّلح ويأتي الفريق الآخر بعربات الحرب ، وتتابع أسر مالكة مصرية في سبعة قرون ، ويتصل قتالها الأمراء المحليين على حين كانت أسلحة الأجانب الفاتحين القريبى الأطوار من بيض وسود تلمع وعلى حين كان هؤلاء يقتلون في النيل أمام معابده الالامعة ، وتختلط أنواع الثياب والعادات واللغات والديانات في

تلك الواحة الضيقة ، وتختلط بأكثر من ذلك في الدلتا الواسعة التي لم تُعَمَّ أن  
اشتركت في يَقْظَلَة البحر المتوسط .

وكانت الأم تَسِيرُ على طول النيل في ستمئة سنة إلى أن وقع الغزو الفارسي ،  
ومما يَقِفُ نظرنا أمام النقوش البارزة الفرعونية اختلافُ أسماء هذه الأم الأسطورية  
أو التَّوْرَانِيَّة وأسلحتها وأزيائها الغريبة ، ومن هذه الأم نَذَكُرُ الفلسطينيين  
ذوي الدُّرُوعِ النُّحاسية والسيوف الطويلة والثُّرُوس المَدُورَة والخُود المُرِيَّشَة ،  
ونذكر الآكيين والسَّرْدِينِيَّين الذين أبصروا مِينُوتُور في أَقْرِيطَش ، والسَّكَّالَ  
وغيرهم من القرصان الذين يَتَعَدَّرُ النطقُ بأسمائهم والذين يُعَدُّونَ نورمانَ القرون  
القديمة لِمَا كان من نزولهم إلى الدلتا، وَيَجُوبُ الملكُ سليمان الصحراء ليصالح فرعونَ  
الذي غَزَا أرضَ كنعانَ وليتزوج ابنته وليستردَّ المَدَنَ التي أُخِذَتْ منه كجهازٍ  
للعروس ، ولم يَسْطِيعْ سليمانُ البالغُ الحكمةَ والراغبُ في المَلَادُ أن يَضْمَنَ السلطانَ  
لنهرته، فقد سَلَبَ أحدُ ملوكِ لِبِيَّةِ الهَمَجِ خزانته وخزائنَ رَبَّةِ الذي لا تُدْرِكُهُ الأبصار .  
وَيَبْدُو الملكُ الزنجيُّ يانكي أقوى منه ، ويمشِي هذا الملكُ بِخَيْلِهِ الرَّائِعَةِ آتِيًا  
من بلاد النوبة، ويمثِّلُ الإلهَ أُمُونَ في نِبَاتَةِ وَيَوْدُ أن يُجِجَلَ إِلَهَهُ في وطنه طيبة ،  
ويَسْخَطُ فرعونُ من ذلك ، ويَحْلُمُ بالمستعمرات النوبية كأجداده قبل ألف سنة ،  
ويحاصره الإثيوبيُّ ويقتل من رجاله عددًا كثيرًا ، ويُذَعِرُ المِصْرِيَّ من الطاعون  
ورائحة الجَشَثِ وَيَغْلُو الشَّوْرَ وَيُقَدِّمُ إلى الغالب حصانًا جميلًا كدليل على الصلح ،  
وتمتدُّ مصرُ إلى إثيوبية من جديدٍ بِمَرَأَى من الزنجيِّ الظافر ، وتُغْلَبُ الأوضاعُ  
بتبادل المستعمرة وأمِّ الوطن مقاميهما ، فالجنوبُ هو الذي يَمْلِكُ الشمال .  
ثم يأتي الآشوريون من الشرق غُزاةً ويفتحون البلاد ، ويفرُّ الإثيوبيُّ أمامهم ،

وَيَزَخَفُ الغالب حتى طيبة ، وَيُخَرِّبُ عاصمةَ العالمِ هذه سنة ٦٦١ قبل الميلاد ، ولم يكن الغالب هجياً في المطالبة بما يَهْوَى من الخيل ، وكان الغالب عارفاً بعضَ المعرفة بالأدوات الذهبية على الخصوص ، فكان أولَ من عَلَّمَ قاتحي المستقبل كنباليون والإنكليز كيف يأخذون خمسةً وخمسين مثلاً ومِسلَةً فكانت سبيكتها الفضية والذهبية وحدها تَعْدِلُ ٢٥٠٠ وزنة .

وفما كانت تتنازع أمرَ مصرَ فازَّتان إذ ظهر للمرة الأخيرة سَيِّدٌ من الأمراء الحليين المتقاتلين ، وكان بسميتك قد نُفِيَ من سايس إلى شاطئ الدلتا عن وَخِي من الآلهة ، وَيَنْزِلُ من البحر إلى هنالك قرصانٌ مسلحون من اليونان والكارثيين ، وَيَقْدُونَ مرتزقةً عنده ، وَيُهْزَمُ الأمراء المصريون من قِبَلِ هؤلاء المحاربين الرَّعَّائِينَ<sup>(١)</sup> المَدْرَعِينَ<sup>(٢)</sup> ، وَيَتْرَكُ أولئك الأمراء تاجَ القراعنة لبسميتك ، ولدينا تمثالٌ لهذا ، ومنه نَعْلَمُ أنه كان مُتَقَبِّضَ الوجه أَذْلَفَ<sup>(٣)</sup> الأنفِ كَثيرَ الأذنين قَبِيحَ القمَرِ ، وَيُقَطِّعُ مرتزقته أطياناً في الدلتا فاصلاً بينها بِشْعَبِ النيل لكيلا يتنابحوا ، ويستخدمهم في حمايته من رَعِيَّتِهِ ، وهكذا يَفْتَحُ أبوابَ مصرَ للأغارقة الذين يَمْخَرُونَ فيما بين جُزُرِ الأرخيل فَيُعِدُّ فِتْحَ بلده من قِبَلِ المِلَادِ<sup>(٤)</sup> .

ويُخَلِّدُ التاريخُ أحدَ القراعنة ، نِيخاو ، لِمَا كان يساوره من روح التمدين قبل المسيح بستمئة سنة ، وقد حاول أن يَخْرِقَ قناةَ السويس التي لم يَسِمَ أمرُها إلا في زماننا .

يبد أنه لم يُصَفْ إلى العبقرية الإنشائية وإلى الذهب ، وإلى عَرَقِ العيد الذي

(١) الرعاب : القى يخيف الناس — (٢) للمروح : لابس الدرع — (٣) أَذْلَفُ الأُف : ذو الأنف الصغير القى استوت أرنيته — (٤) المِلَاد : اليونانيون .

رَوْضُ القَرَاعَةِ نَهْرُ النِيلِ بِفَضْلِهِ ، رَغْبَةُ الْخُرُوجِ مِنَ الْوَاحَةِ وَرِبَطُ النِيلِ بِالْبَحْرِ ،  
أَي رِبَطِ عُنْصُرِ حَيَاتِهِمْ بِعُنْصُرِ جِوَارِهِمْ مِنَ الْأُمِّ الْبَحْرِيَّةِ ، فَالْأَدْمَةُ وَالْأَيْدَى الَّتِي  
أَقَامَتِ الْأَهْرَامَ وَالْمِسَلَاتِ وَالْمَعَابِدَ وَالْأَحْوَاضَ وَالتَّرْعَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَحْفَرِ تِلْكَ الْقَنَاةَ  
أَيْضًا لَوْ بَدَتْ لَهَا رُؤْيَا اتِّحَادِ الصَّحْرَاءِ وَالْبَحْرِ .

وَكَانَ لَا بُدَّ مِنْ ظَهْوَرِ ذَلِكَ الْمَلِكِ بَعْدَ حَيْنَ ، وَكَانَ لَا بُدَّ مِنْ ظَهْوَرِ نَخَاوِ الَّذِي  
أَبْصَرَ فَاتَحَى الْأَجَانِبَ يَقْزُونَ بِلَادَ آبَائِهِ ، وَالَّذِي وَسَّعَ نِطَاقَ الدِّفَاعِ حَتَّى سُورِيَّةَ ،  
لِتُدْرِكَ رُوحُ الْبَحْرِ وَرُوحُ التَّجَارَةِ ، وَيَبْنِيَ أَسْطُولًا ، وَيَبْلُغَ مِنْ كَثْرَةِ الدَّيَاةِ  
لَهُ مَا لَيْسَتْ سَيِّدَاتُ الْبَلَاطِ مَعَهُ دَبَائِيسَ صَدَّرَ عَلَى شَكْلِ سَفْنٍ صَغِيرَةٍ ، وَيُقَفِّرُ  
عَلَى هَذِهِ الْحُلِيِّ بَعْدَ مَرُورِ ٢٥٠٠ سَنَةٍ وَيَضَعُ فِي الْوَقْتِ نَفْسَهُ مَشْرُوعَ قَنَاةٍ تَكُونُ  
مِنَ الْعَرْضِ مَا يُمْكِنُ سَفِينَتَيْنِ أَنْ تَلْتَقِيَا فِيهَا .

وَكَانَتِ الْقَنَاةُ الَّتِي يُبْنِيهَا النِيلُ بِمَانِهِ تَقْطَعُ بُقْعَةً خَصِيَّةً حَتَّى أَيَّامَنَا فَتَدَعُ  
السُّفْنَ الْزَاهِبَةَ مِنَ الشَّعْبَةِ الشَّرْقِيَّةِ فِي الدَّلْتَا بِالْقَرْبِ مِنْ بُوْبَسْتَيْسَ<sup>(١)</sup> تَصِلُ  
فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ إِلَى الْمَكَانِ الْقَائِمَةِ عَلَيْهِ الْإِسْمَاعِيلِيَّةُ فِي الْوَقْتِ الْحَاضِرِ ، وَكَانَ عَلَى تِلْكَ  
الْقَنَاةِ أَنْ تَحْزِفَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى الْجَنُوبِ فَتَبْلُغَ الْبَحْرَ الْأَحْمَرَ ، أَجَلٌ ، لَمْ يُحْفَرِ  
الْبَرْزَخُ ، غَيْرَ أَنَّهُ كَانَ يُمَكِّنُ الدَّلْتَا أَنْ تَصِلَ الْبَحْرَ الْمُتَوَسِّطَ بِالْبَحْرِ الْأَحْمَرِ ، وَهَكَذَا  
كَانَ النِيلُ فِي آخِرِ مَجْرَاهُ وَاسِطَةً صَالِحَةً بَيْنَ مَرَاكِزِ حَضَارَةِ ذَلِكَ الزَّمَنِ ، وَهَكَذَا كَانَ  
الْفَنِيْقِيُونَ وَالْأَغَارِقَةُ يَجْلِبُونَ ، رَأْسًا ، حَرِيرَ الصِّينِ وَحِجَارَةَ الْهِنْدِ الْكَرِيمَةِ إِلَى  
مَنْفِيَسَ وَإِلَى أَقْرِيطَشَ ، وَهَكَذَا لَمْ يَكُنْ عَلَى صَاحِبِ السَّفِينَةِ أَنْ يَنْقُلَ مِنْ مَرْكَبِهِ  
إِلَى آخِرِ رَجَالِهِ وَرِجَالِهِ .

(١) بُوْبَسْتَيْسَ : مَوْضِعُهَا تَلْ بَسْطَةَ بِجَوَارِ مَدِينَةِ الزَّفَازِيْقِ مِنَ الْجَنَةِ الشَّرْقِيَّةِ الْقَبْلِيَّةِ .



٢٥ — حفرة





وَيَحْبِطُ الْمَشْرُوعَ مَرَّةً أُخْرَىٰ مَعَ ذَلِكَ ، وَوَحَى الْآلَهِ ، لَا تَرَأَيْكُمْ الرَّمَالُ ، وَلَا مَوْتَ ١٢٠٠٠٠ عِبْدٌ قِيلَ إِنَّهُمْ هَلَكُوا فِي أَثْنَاءِ الْإِنشَاءِ ، هُوَ الَّذِي يَقِفُ مَشْرُوعَ فِرْعَوْنَ ، وَكَانَتِ الْقَنَاءُ قَدْ تَمَّ نَصْفُهَا عِنْدَ مَا أَبْنَاءُ الْكَهْنَةِ بِأَنَّهُ يَقُومُ بِذَلِكَ الْعَمَلِ فِي سَبِيلِ بَرَبِّهِ ، وَتَحُولُ عَوَامِلُ سِيَاسِيَّةٍ خَالِصَةٌ يُنْطِقُ بِهَا الْكَهْنَةُ عَلَى لِسَانِ الْآلَهِ دُونَ إِكْمَالِ ذَلِكَ الْعَمَلِ ، وَذَلِكَ كَمَا وَقَعَ فِي الْوَقْتُ الْحَاضِرِ فِي أَمْرِ التَّنْقِيقِ الَّذِي يَصِلُ بَيْنَ كَائِلِيهِ وَدُوْفَرٍ فَوْقَ عَنْ تَخَوُّفِ كُلِّ مِنَ الْجَارَيْنِ الْخَفِيِّ مِنْ أَنْ يُسْتَخْدَمَ لِمَقَاصِدِ الْآخِرِ الْبَرْبَرَةِ .

وَيَمُضِي قَرْنٌ فَيُظْهِرُ الْبَرْبَرِيَّةُ ، فَيَقْتَتِحُ دَارَا الْفَارْسِيَّةُ مِصْرَ ، وَيَدَاوِمُ عَلَى عَمَلِ الْقَنَاءَةِ وَيَكْمُلُهَا عَلَى مَا يَحْتَمِلُ وَيُمْكِنُ الْكِتَابَةَ الَّتِي رُسِمَتْ بِخَمْسِ لُغَاتٍ عَلَى عُمُودٍ كَثِيرَةٍ تَمْجِيداً لِآثَارِهِ أَنْ تُقَسَّرَ عَلَى وَجْهِهِ مُخْتَلَفَةٌ ، وَعِنْدَ دِيودُورُسَ أَنْ دَارَا كَانَ يُفَكِّرُ فِي حَفْرِ الْبَرْزَخِ أَيْضاً ، وَأَنَّهُ لَمْ يَقْلَعْ عَنْ هَذَا الشَّرْعِ إِلَّا خَوْفاً مِنْ إِغْرَاقِ مِصْرَ الْوَاقِعَةِ عَلَى طَبَقَةٍ مَائِلَةٍ إِلَى الْأَسْفَلِ كَمَا كَانَ يُعْتَقَدُ وَمِنْ تَحْوِيلِهَا إِلَى مُسْتَنْقَعٍ .

وَمَارِئِي فِي قَرْنِي الْفَاتَحِينَ مِنَ الْأَجَانِبِ أَوْ قُرُونِهِمُ الثَّلَاثَةَ وَجُودُ فَوَائِدَ حَرِيَّةٍ وَتِجَارِيَّةٍ فِي قَنَاءَةِ السُّوَيْسِ ، وَهَمْ لَمْ يُقَدِّمُوا عَنْ عَمَلِ ذَلِكَ غَيْرُ خَوْفِهِمْ مِنْ أَنْ يَنْتَفِعَ بِهِ بَرْبَرِيَّةٌ مِنَ الصُّفَّةِ الْأُخْرَى كُنْزَاحِهِمْ وَفَاتِحِ ، غَيْرَ أَنْ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ كَانَ يَوَدُّ أَنْ تَسَاعَدَ الْقَنَاءَةُ عَلَى إِعْلَاءِ جَاهِهِ فَكَانَتْ تُسَمَّى « نَهْرَ بَطْلِيمُوسَ » وَنَهْرَ تَرَايَانَ ، وَنَهْرَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ » ، وَمَا كَانَ مِنْ هَذَا التَّنَافُسِ أَدَّى إِلَى تَصْيِيرِ أَسْجَانِهَا عَلَى مَا يَحْتَمِلُ ، وَزَيْعُ حَاجٍ إِيرْلَنْدِيٍّ فِي الْقَرْنِ الثَّامِنِ أَنَّهُ سَافِرٌ عَلَى سَفِينَةٍ مِنَ النَّيْلِ إِلَى خَلِيجِ السُّوَيْسِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْتَقِلَ مِنْ مَرْكَبٍ إِلَى آخَرٍ .

ومهما يكن الامرُ فإن السياسة العليا حالت ذات مرة دون تقارب الجارين

الطبيعي ، فقد أدت فتنةٌ اشتملت في مكةَ إلى أمر الخليفة بسدِّ القناة تجوياً للقتلة ، ثم يقصدُ الدينُ للأمر ، فقد امتنع هارونُ الرشيد عن إعادة القناة خشيةً اتخاذها ممراً لقرصانٍ من النصارى يحتفظون حُجَّاجَ المسلمين في البحر الأحمر .

واليوم ، أى بعد أحد عشر قرناً من ظهور ذلك الخليفة الذى ترانا مدينين لئاليه بأروع القصص ، لا تزال تلك السياسةُ عمية ، فهي تهدف إلى سدِّ قناة السويس بعد إكمالها بسبعين عاماً ، وذلك منعاً للدول الاستعمارية من أن يهدد بعضها بعضاً ، فكان القلب يقوعد الرأس بقطع الشريان .

٣

نرى بين القراصة الأخيرين الذين ملكوا الدلتا واحداً جديراً بالذكر ، وكان أمازيسُ من أصلٍ وضعي ، ولم يكن ليخشى أن يُذكر حتى في كتابات المعابد أنه كاتبُ خزينةٍ سابقٌ ، وأن يُصرَّح فيها لرعاياه بأنه لم يملك إلا إلى وقت الظهر ، وذلك لأنه يجبُ حلُّ القوس بعد أن تُستعمل ، ويُعزل القضاة الذين برءوه في فتائهم ، وذلك لأهم صدقوا صرَّحاته ببراءته مُبتأ جملهم ، ويكافئ من حكَّموا عليه في شبابه ، وذلك لما أبدوه من فطنة ، ويأمرُ بصهر طستٍ من ذهبٍ كان يُفسل فيه رجلته وبأن يُضنَّ منه تمثالٌ للرب ، ويُبجِّلُ التَّدْماء هذا التمثال ويخبرهم أمازيس بأنه صنَّعه من الطست الذى كان يصبُّق فيه .

وينتقل أمرُ مصرَ إلى القوس في عهد خَلْقِهِ الضعيف ، ويصلُ سادةُ العالم الجُدُدُ هؤلاء إلى ضفاف النيل لابسين معاطفَ واسعةَ مزخرفةً ذاتَ حواشٍ من

فِرَاه وقلانسَ دَقِيقَةً طَوِيلَةً ذاتَ أطرافٍ عريضةٍ وأُحْذِيَّةً مُدْرَبَةً وسيوفاً طَوِيلَةً ،  
وَيَدَّيْرُ مَلِكاهُم ، قَمِيْزُ ودارا ، بِمَاطَفٍ قَصِيْرَةٍ كَمَاطِفِ جُنُودِ المِيْكِيلِ  
وَيَضَعُوْنَ عَلَى رُؤُوسِهِمْ عَمَائِمَ بِيضاً كَهَامِ المَالِيْكِ ، وَتَتَبِعُهُمْ نَبَّالَةٌ حَامِلُونَ جِمَاباً<sup>(١)</sup> ،  
عَلَى ظُهُورِهِمْ وَيَتَّبِعُهُمْ آخَرُونَ حَامِلُونَ رِمَاحاً طَوِيلَةً ، وَيَبْدُوْ جَمِيْعُهُمْ مِنَ الْأَلْحَى<sup>(٢)</sup> ،  
وَتَزِيْدُهُمْ شَعُورُهُمُ الطَوِيلَةَ مَهَابَةً وَيَتَّبِقُونَ فِي وَادِي النِّيلِ مَتًى عَامٌ ، يَتَّبِقُونَ إِلَى  
حِينَ وَصُولِ الإسْكَندَرِ .

ومع ذلك نأر المصريون عليهم عدّة مراتٍ ، ومما كان يحدث أحياناً أن يَنْزِعَ  
أَمِيرٌ مَحَلِّيٌّ مِنْهُمْ فُتَاتاً مِنَ السُّلْطَةِ ، وَكَانَ آخِرُ أُولَئِكَ الْأُمَرَاءِ يَخْرُجُ مِنَ النَّاقِعِ الْوَاقِعَةِ  
فِي شَمَالِ الدَّلْتَا الشَّرْقِيِّ ، مِنْ تِلْكَ الْبُقْعَةِ الْمُنِيْعَةِ الْخَاصَةِ بِالرُّعَاةِ وَالصَّائِدِيْنَ ، مِنْ تِلْكَ  
الْجُزُرِ الْعَامَّةِ الَّتِي لَا يَجِدُهَا أَحَدٌ ، مِنْ تِلْكَ الْفِيَاضِ ذاتِ الْأَعْشَابِ الْعَالِيَةِ  
وَالْأَجَامِ ذاتِ الْأَشْجَارِ الْكَبِيْرَةِ ، مِنْ تِلْكَ الْخَابِيَةِ وَالْجَدَاوِلِ الَّتِي يَلْجَأُ إِلَيْهَا الْفَرَارُ  
مِنْدَ أَنْجَبِ إِيْرَسُ الطَّرِيْدُ بِابْنِهِ ، وَهَنَالِكَ رُؤْسَاءُ عِصَابَةٍ مِنْ ذَوِي الْبَأْسِ كَانُوا  
يَحَالِفُونَ مَرْتَزَقَةً مِنَ الْأَغَارِقَةِ ، وَمِنْ أَغَارِقَةِ اسْبَارُطَةِ ، الَّذِينَ يَخْدُمُونَ مِنْ يَدْفَعُ إِلَيْهِمْ  
رَوَاتِبَ ، وَالَّذِينَ يَنْتَسِرُونَ فِي مِصْرَ مِنَ الْقَرْنِ الرَّابِعِ قَبْلَ الْمِيلَادِ مَقْدَاراً فَقْدَاراً .

وَتَضَعُوْ حَيَوِيَةَ الْفِرَاعَةِ فِي مَوْسَمِ آخِرِ أَسْرَمِ الثَّلَاثِيْنَ ، وَيُقِيمُ هَذَا الْبَانِي  
مَعَابِدَ بِالْكَرْنِكِ وَيَلَاقِ وَحُصُوناً فِي الدَّلْتَا وَيَسْتَدْرِجُ أُسْطُولَ قَرْتَبَازِ الْكَبِيْرِ  
وَيُطَبِّقُ عَلَيْهِ فِي شَعْبَةِ النِّيلِ الَّتِي كَانَتْ لَا تَخْرُجُ لَهَا ، وَيَتَقَدَّمُ الْقَرْسُ إِلَى مَنْفِيْسَ  
مَعَ ذَلِكَ ، يَبْدُو أَنْ عَدُوّاً غَيْرَ مُنْتَظَرٍ يَتَقَفُّهُمْ ، يَبْدُو أَنْ فَيضَاناً عَنِيفاً يَرُدُّهُمْ إِلَى الدَّلْتَا

(١) الجباب : جمع الجببة ، وهي كنانة الشباب — (٢) الألاحى : جمع الألخى ، وهو  
الظلم الجببة .

فيعودون إلى البحر في نهاية الأمر، وهكذا يُنقذ النيلُ مصرَ مرةً أخرى .  
وتعفى عشرون سنةً ، ويَصِلُ الفرس إلى الدلتا مُجدِّداً بجيشٍ عظيمٍ ويُكتب  
لم النصر، ويفرُّ آخرُ فراعة مصرَ ويَرْكَبُ النيلَ ويتوجَّه نحو مجراه الأعلى  
مع خزائنه ويلجأ إلى إثيوبية ، فكانت هذه خاتمةَ آخرِ الفراعنة ، وهكذا تدفقه  
آسية البالغةُ القوةَ إلى سُودِ الشلالات كما لو وَدَّتْ أن تَحْمِلَهُ على طَيِّ تاريخِ النهر  
إلى الخلف .

وتنهيار دولة الفرس بعد عشرين سنة ، ولم يَبْقَ في مصرَ من الفرس غيرُ شجرةٍ  
الدَّرَّاقِ التي أتى بها قبيزُ من إثيوبية كما يظهر ، وتَسْقُطُ تلك الدولةُ الآسيويةُ  
العظيمةُ تحت ضَرَبَاتِ قسمٍ من أوربة الحديثة سارَ حاملاً مبدأ النصر .  
وَضَمِينُ الأَغَارِقَةِ فَتَحُ قِسمٍ من العالمِ للمادى والعالمِ الروحيُّ بذلك المبدأ الذي  
يُعرفُ بـ ( كالون كاثاتون ) ، ويمكنُ أن يُفسَّرَ ذلك للولد باجتماع الذكاء  
والجمال للموجب للخير ، ومن للمتعمِّد أن تجدَ من التباين بين أمتين ككتابين الفلاح  
والإغريق ، ويَظَلُّ كلُّ من الفلاح والإغريقُ غريباً عن الآخر ، ويسلِّي مَغْنَمُ  
الأغارقة الأَتْنِيَّ الصغيرَ بالشَّخَرِ من المصرى العابد للبقر بدلاً من أكله والمؤلِّه  
للسَّور بدلاً من سَلَخِهِ ، ولو تواجه فلاحو النيل وفلاحو الإغريق لتضاموا من فورهما ،  
ولكن الجنودَ والتجارَ هم الذين يُمِيشون من ساموس وقبرس وأقريطش وأثينة ،  
ويُدْخِلُونَ إلى البلاد شجرَ الزيتون والعنب كما يَدْخِلُونَ إليها عاداتهم وأهنتهم ،  
ويؤسسون مدناً في الدلتا ، ويقيم رجالُ إيجين معابدَ لجوبيتر ، ويقيم رجالُ  
ساموس معابدَ لجوئون ، وذلك مع إنشائهم مرافئ حرةً لكيلا يدفعوا مَكُوساً ،  
ويتسامل المصريون حاثرين عما يَينُّ لأولئك الآدميين من فرضِ عاداتهم الأجنبية

على شعبٍ يوجد خَلْفَهُ تاريخُ أربعةِ آلافِ سنةٍ ، وما كان أولئك الغرباء ليدركوا أن هؤلاء الفلاحين يعيشون مختلطين بأنعامهم على حين يَقْبِضُ كَهَنَانُهُمْ على ناصية الحكمة العليا .

ونتعارض الأمتان : الديمقراطية والملكية ، ولا يُدْرِكُ شعبُ الجزيرة أمرَ شعب الواحة ، ويشعر كلٌّ منهما بأنه ليس من البرابرة ، والفارقُ بينهما هو أن يظلَّ شأنُ المصريين الذين يستعملون جميعَ الوسائل السكياوية حفظًا للجبْتِ خافيًا على الأغارقة الذين يَحْرُقُونَ موتاهم ، ويُعَارِضُ الوضوحَ والظَرْفُ بتصوفٍ تُعَوِّزُهُ وسائلُ التعبير ، وتعارضُ حرية الفكر والنشاطُ والشكُّ بضغط التقاليد والنقل والإيمان ، ويُعَارِضُ الجمالَ والمرونة بجمود الجمهور ، ويُعَارِضُ بلدُ الجبال والينابيع والجداول بالصحراء ، ويُعَارِضُ البحرُ بالنهر .

#### ٤

كان الإسكندر الأكبر في الرابعة والعشرين من سِنِيهِ عندما بَلَغَ الدَّلْتَا ، ولا نَدْرِي هل تشابه صُورُهُ النصفيةُ كثيراً ، وإنما الذي نَعْرِفُهُ هو أنه لم يَدَارِ بها ، غير أن لنا بتاريخ روحه وَجْهَهُ صورةٌ له ، ولكلِّ واحدٍ منا أن يَتَمَثَّلَ الإسكندرَ من خِلالِ نقوده وصُورِهِ النُصْفِيَّةِ وتماثيله ، وما كان جمالُ الرجلِ لِيُؤَثِّرَ في حياته تأثيراً قاطعاً ، وما انتهى إلينا من أحاديث معاصريه فيؤكِّدُ أمرَ هذه المَوْهِيَةِ التي تَمَيِّزُهُ من جميعِ الفاتحين ، ولم يَحْدُثْ أن فاق نقوذه الشخصى ما عند إنسانٍ آخرَ من نقود ، ولم يكن المَجْدُ والجمالُ لدينه من خصائص الغالب ، وإنما سِرُّ ذلك في

القوى التى تدفعه من قورها إلى فتح العالم ، مادامت الآلهة لم تُنعم عليه بنير حياة قصيرة .

وهو قد مُجِلَّ على ذلك برغمه أنه سليلُ الآلهة وأنه من عنصرِ أشيل ، وأنه ابنُ لَيْتَيْس ، وكان مُحاط بالشعراء ، ويَحْمَدُ أشيلَ لما كان من تَفَنَّى أوميرس به ، فإذا ما جَنَّ (١) الليلُ وَضَعَ أوميرسَ بجانب سيفه فى عُلبَةٍ فارسية مُطَوَّقَةٍ بِالْفِضَّةِ كانت تشتمل على عُلُور .

وتراه مديناً برأسه الأسدى لشعره الم فروق فى ذروة هامته والسُدَّتَى من الجانبين ولشدة حركة عينيه للذكورة فى كلِّ مكان والى يشوبها شىء من الأنوثة فيغزى نظره إلى أفروديت ، وله ، بالعكس ، فَمَّ شابٍ ، وهذا القمِّ لَحِمٌّ من غير أن يكون كبيراً ، وما عليه شفته من إحساس مُقَلَّص فتخففه نظرةٌ متحوِّلةٌ إلى اليمين وإلى الساء كثيراً ويحفظه مِثْلُ المُتَّقِ قليلاً إلى الكِتِفِ الشمالية ، وكان ذا جبينٍ غير منساي مع تنوء ضئيل فى الأسفل ككثير من المصارعين ، وكان ذَقْنُهُ يدلُّ على العزم وعلى البُشد من الفنِّ وعلى البراعة فى الرِّمَاية ، لا فى هَزِّ أوتارِ المِزْهَر (٢) .

وتظهره جميعُ صُورِهِ بعد انتصاراته ، حتى إن لِيَزِيبَ (٣) جَعَلَ له وضعا عَصْرِيًّا تامًّا الجِدَّة ، وفُسَيْفِسْلَه بُونِييى وتمثالُ هِرِّ كُولَانُوم وحدهما يُبْدِيَانِهِ فى حَوْمة القتال ، فيبدو فى أحدهما فاقدُ الخُوذة طائرَ الشعر مدافعا عن نفسه فوق حصانه الشابي (٤) ، ويَبْدُو فى الآخر مهاجماً العدوَّ بَبِيضَى الوجه مُفَتِّحَ العينين ، وكان قد خاض أُنسى

(١) جن الليل : أظلم — (٢) المزهر : المود ، وهو آلة الطرب المبهودة .

(٣) ليزيب : صانع تماثيل يونانى ظهر فى القرن الرابع قبل الميلاد .

(٤) شبا القرس : قام على رجله .

معاركه عند ما وصل إلى مصر ، وكان قد انتصر في إثوس واستولى على صور وغزة ، وكاد يُقتل في غزة ، وغدت دولة الفرس غير موجودة ، وصار ما بين البحر الأسود ومصب النيل قبضة هذا الشاب ، ولم يكن للولاية الفارسية ، مصر ، غير أمل قليل في مقاومته .

دخل الإسكندر مصر هادئاً ، وتم دور مهم في حياته بعد الفتح بست سنوات ، ومن المحتمل قليلاً أن كان يساوره شعور يدنو أجله .

وجدت عليه الحياة بكل ما يرضيه ، وكانت سعادتُه في دخوله ميدان الوثقى بنفسه ، وما قِيَّ يَتَّقُ بصديقه وإن حُدِّرَ منه ، وكان يعتقد أن من الممكن أن يسالم عدوه وفق قانون المِزْرَاق الذي يرى أنه مدين به لجدّه آشيل ، ولم يعمل بنصيحة أرسطو فيعامل البرابرة المغلوبين كما تعامل الحيوانات والنباتات ، بل عزم على تقرير الأمر بنفسه مهتدياً بقول معلمه : « لا تُقاسُ العبرية بشيء ، وهي إله بين البشر ، ومن المضحك أن تُفرض قوانينُ عليها » ، ويُنظَّم الإسكندر حياته بحسب هذا الكلام ، ولا يكون لرغائبه ، ولا لأعماله ، حدٌ ، وتستقبل مصرُ إلهاً ، ومصرُ ، إذ استغلها ملوكُ من الأجانب مدة ثلاثة قرون ، اعتقدت ، مرة أخرى ، أن السيد الجديد هو خيرُ السادة ، ويلوح كل شيء أسطورياً في هذه المرة ، ولم يحتج الإسكندر إلى غير ثمانية أيام حتى يصل من غزة إلى يبلوزة ، ويسيرُ وشعبة النيل الشرقية ويتبلغ منفيس من غير أن يطلق نبأ سهماً ، ويبرز للجُمهور وارتاً لآخر الفراغة ، لا فاتحاً ، ويُقدّم قرايين إلى الإله فتاح وإلى الثور المقدس ، ويُكرّم الكهنة الذين استذلّهم الفرس ، ويأتى من بلاد اليونان بمئات المصارعين ليشتروا في الألعاب التي يُنظّمها ، فتُحسُّ مصرُ بذلك أنها آمنة تحت حمايته ،



## كتاب لجمعية أمم

وتنضم مصر إلى أعظم دولة عرفت التاريخ حتى ذلك الحين فلا تعاني أثراً لمثل ما كان يقع من الحروب بين الفرس والأغارقة ، ويستولى الأغارقة على جميع شواطئ البحر المتوسط ، ويعود الاتصال بأسية إلى ما كان عليه مع ذلك ، وما تركه الفاتح من حاميات قوية فيلتي في الرّوع أنها كتائب لجمعية أمم ، ويخضع المرزبان<sup>(١)</sup> الفارسي في الحال ، وتصبح سياسة برقلس القائلة « إن مصر هي لأثينة » سياسة السلم العالمية ، ويقيم ذلك سنة ٣٣٢ قبل الميلاد .

ويذهب الإسكندر من شعبة النيل الغربية ، من ناحية الثلث الأخرى ، ليعبر في طريقه مدينة الأغارقة ، ويتبلغ البحر بجوار رشيد ، ويدهش الناس حين وصوله إلى اللسان الذي يفصل البحر عن بحيرة مريوط ، وماذا يصنع في الغرب حين تدعوه رسالته إلى الشرق ؟ يتبين من قوّته وجود رفأ لا تكدره الرياح في ذلك الخليج المنعزل صالح لوصول مصر بالبحر فلا يملأه غرير النيل ، ويرى وجوب إقامة دولة مدنية هنالك ، ويرى تشجيع رؤاد الأغارقة على ضمان ما يشرى من محاصيل مصر ، ويرى إثارة خيال العالم بإنشاء مدينة مناسبة لمجد مجاهد سيد العالم ، ويرسم الإسكندر خريطة هذه المدينة كما لو كان من أمريكني الزمن الحاضر ، ويقيم الإسكندر أماكن للباني العامة كما يقيم مكان الطريقين الرئيسيين المتلاقين على زوايا مستقيمة للمرة الأولى دالاً عليها بحروف الأبجدية ، وما وضعه أيضاً رسم رصيف يربط البرّ بجزيرة فاروس حيث يشاد معبد يُقدّس فيه لايزس ورؤس معاً توحيداً للشعوب بأن يسمّى فوق الأمم ، وفيما تتكون أورة إذ يجلّ بناء الإسكندرية تلك الحركة التي حملت الفراعنة من

(١) المرزبان : الرئيس عند الفرس .

طبية إلى منفيس فجعلت من مصر دولة من دول البحر المتوسط وجذبت النيل إلى منطقة النفوذ الإغريق<sup>(١)</sup>.

وتقول القصة إن الإسكندر بسط الدقيق على مائدة كبيرة في العراء رسماً لاجزاء الطرق وأماكن الميادين فانقضت جماعة من الطير على الدقيق وأكلته ، وهناك يصرخ عراف قائلاً : « إن هذا دليل على غنى المدينة ورخاؤها » ، ويتحقق ما أنبأ به .

وفما يسير الإسكندر على هذا الوجه إذ يندو ألحوبة قوى خفية ، ويتترك الأشغال الأولى في مدينته الجديدة ويتوجه إلى الغرب مبتعداً عن هدفه مقداراً فقداراً ووصولاً إلى أقصى طرف من طوافه نحو الغرب ، ويسير اثني عشر يوماً على طول الساحل مع حرس صغير ، ويوغل في الصحراء ، ويبلغ واحة حيث لا يجد ما يفتحه غير الكلام ، وهو يذهب إلى الآلهة ، إلى وحشها ، بدلاً من أن يدعوها ، ولا ريب في مساورة كثير من الأفكار الميعة إياه في أثناء هذا السفر ، في أثناء ركو به سنام جليل ، قاطعاً الصحراء ليسأل إلها مجهولاً ، ولا غرو ، فقد كانت أمه عرافة تجول بين الجبال حاملة دُبوساً<sup>(٢)</sup> بيدها فقصت عليه أنها رأت في المنام برقاً ينقذ صدرها فؤله بعد ذلك بزمان قليل ، وما كان من تسريح فيليب هذه الأم ومن جميع الآلام التي هزت صباه فأقصاه من أبيه المقدوني الذي عدّه ديموستين<sup>(٣)</sup> من البرابرة ، ولم يكن بعيداً ذلك الزمن الذي كان الشعراء الهجائون في أثينة يستخرون فيه من طبائع المقدونيين وعاداتهم المستكرهة في بلاد اليونان ،

(١) الديوس : عما من خشب أو حديد في رأسها شيء كالسكرة . — (٢) ديموسين :

أشهر خطباء أثينة ( ٤٨٤ — ٣٢٢ ق . م ) .

فصار الخوف يَمْلِكُهُمْ عَلَى السَّكُوتِ ، وَكَانَ الْأَغَارِقَةُ قَدْ نَصَبُوا هَيْكَلًا لِلِيزَانْدَرِ<sup>(١)</sup> واقترحوا إقامة معبدٍ لِأَجِينِيلَاسِ<sup>(٢)</sup> ، فَيُمْكِنُ ، إِذَنْ ، أَنْ يُؤَلَّهَ الْإِسْكَندَرُ الَّذِي لَمْ يُبْجَلْ تَبْجِيلًا إِلَهِيًّا بَعْدَ مَا أَتَّفَقَ لَهُ مِنَ الْمَفاخرِ مَا لَمْ يَتَّفَقْ لِأُولَئِكَ النَّاسِ .

وَيَذْهَبُ الْإِسْكَندَرُ لِلْبَحْثِ فِي أَقْدَمِ الْبِلْدَانِ عَمَّا ضَنَّ بِهِ عَلَيْهِ رُوسُ<sup>(٣)</sup> دُودُونِ<sup>(٤)</sup> وَأَبُولُونِ<sup>(٥)</sup> دِلَفِ<sup>(٦)</sup> ، يَذْهَبُ إِلَى مَعْبَدِ حَافِلِ بِالْأَسْرَارِ خَفِيٍّ فِي الصَّحْرَاءِ ، يَذْهَبُ إِلَى إِلَهٍ أجنبيٍّ كَانَ يَنْدَارُ<sup>(٧)</sup> قَدْ أَشَادَ بِذِكْرِ وَحْيِهِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَلَمْ يَرْضَ الْإِسْكَندَرُ أَنْ يُتَوَجَّعَ فِي مَنْفِيسٍ كَعَرْعُونَ وَأَنْ يَهْبِطَ فِي أَعْيُنِ أُولَئِكَ الْقَوْمِ الَّذِينَ أَخَضَعَهُمْ ، وَإِنَّمَا كَانَ يَوَدُّ أَنْ يَقْلِبَ الْخِيَالُ بِأَنْ يَبَارَكَهُ كَهَنَانُ أَقْدَمِ أَدْيَانِ الدُّنْيَا ، فِي حَضْرَةِ شُهَدَاءٍ قَلِيلِينَ ، فِي صحراءٍ لَمْ يَدْخُلْهَا إِغْرِيْقِيٌّ قطً .

وَكَانَ هِرَّكُولُ<sup>(٨)</sup> قَدْ سَأَلَ الْإِلَهَةَ قَبْلَ أَنْ يَقَارِلَ أَنتِيَهَ<sup>(٩)</sup> وَپَرْسَهَ<sup>(١٠)</sup> وَقَبْلَ أَنْ يَقْتُلَ الْعَوْلَ ، وَكَانَ هَؤُلَاءِ مِنْ أَنْصَافِ الْإِلَهَةِ ، وَقَدْ جَرَوْهُ هِرَّكُولُ عَلَى مَقَاتِلَةِ آلِهَةِ الْخَالِدِينَ وَغَيْرِ الْخَالِدِينَ مِنَ الْآدَمِيِّينَ ، وَكَانَتْ تِلْكَ الْأَفْكَارُ وَالْحِكْمُ وَالْقِصَصُ وَالِدِينِيَّاتُ وَالدُّنْيَوِيَّاتُ ، وَكَانَتْ ذِكْرِيَّاتُ الْأَبِّ وَالْأُمِّ ، تَزِيدُ الْإِسْكَندَرَ عَدَمَ صَبْرِهَ ، لَا رَيْبَ ، فِي أَثْنَاءِ تِلْكَ الرِّحْلَةِ نَحْوَ وَاحِدَةِ أَمْوَنَ .

وَمَا لِمَا مَرَّاهُ فِيهِ أَنْ الْإِسْكَندَرَ كَانَ يَعْرِفُ تَعْرِيفَ أَرْسَطُو لِلْإِلَهِ الْيُونَانِيِّ حَيْثُ قَالَ : « إِنَّهُ الْكَائُنُ الْمُحَرَّكُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتَحَرَّكَ ، إِنَّهُ الْكَائُنُ الْقَيُّومُ<sup>(١١)</sup> » ، فَيَجِدُ

(١) ليزاندر : هو القائد الإِسْبارطى الذى قهر أثينة — (٢) أجينيلاس : هو ملك إسبارطة الذى قهر الفرس — (٣) زوس : من آلهة اليونان — (٤) دودون : من بلاد اليونان — (٥) أبولون : من آلهة اليونان — (٦) دلف : من بلاد اليونان — (٧) بندار : أمير الفرس الغنائى اليونانى ( ٥٢١ — ٤٤١ ق . م ) — (٨) هر كول : أشهر أبطال الأساطير اليونانية . (٩) أنته : غول خنقه هر كول بن ذراعيه — (١٠) پرسه : من أبطال الأساطير اليونانية . (١١) القیوم : القائم بذاته .

أن ذلك يطابق بعضَ صيغِ كهَّانِ أمون حتى في التفصيل ، وأن هؤلاء مستعدون لاستقباله وإن لم يُفِيضِهِمْ رسولٌ بقدمِ العاهل الجديد .

وأخيراً تبدو النخل في الأفق ، ويزوَّى التورخ الوصاف الذى جاء مع الإسكندر أن سكون ذلك المكان ، المحاط بالنخيل والزيتون والينابيع للملحة واللباء المقدنية ، استهوى الإسكندر ، ويدخل الإسكندرُ في المبد وحده قبل أن يخرج موكبُ الكهنة المقدسُ إلى لقائه ، ويحييه الكاهن الأكبر ويسير به إلى قدس الأقداس ، ويقول ذلك القاصُّ إنه خرجَ من هناك بعد بضعة دقائق طليق الوجه ويصرح بأن جواب الإله ملائمٌ لرغبته ، ثم يحضر الموكب ، ويسارُ بالركب المقدس في أثناء ذلك ويوزع الهدايا ويعود إلى منفيس رأساً .

ولا نجدُ واحدةً من الأساطير التى نُسِجت في ذلك الحين حولَ ذلك النظر ، ولا واحداً من الأسئلة التى عُزيت إليه ، ولا سيادة العالم التى وُعِدَ بها ، ولا الوجه الذى حيَّاه به الكاهن الأكبر داعياً إياه ابناً للآلهة ، يعدل ذلك الأمر الذى أوجبه هذان السطران لما كُتِبَتْ الحقيقة به من خلال جفافهما الفاتر: زيارة قصيرة ووجه طليق وتصريح باسم من العاهل ، وكلُّ شيء على ما يُرام ، وبرى دُئوه من الكاهن المذعور ، ويُعَرِّب له عن رغائبه بأستلٍ صغيرة ، ويفادر المبد بعد أن حمل على توكيد كونه ابن أمون ما دام فرعون مصر مُضْحِياً في هذا السيل بشهر من حياته القصيرة ، ويسأله أصدقاؤه في السنوات القادمة عن وحي الآلهة ذلك فلم يقل شيئاً ولم يُنكر شيئاً .

وفادر ابن زوس أمون ، الإسكندر ، مصرَ على ألا يراها ، ويُنظِّم الأمور في البلاد استعداداً لإدارتها من غير ملكٍ لزمٍ طويل ، فيسلم السلطة إلى ثلاثة قواد

من الأغارقة ويسلم الشؤون الداخلية إلى مصريين ، ويتخذ من التدابير ما يضمن حماية الكهنة ، ويبدؤ قرناً آمون بين خصل شعره في النقود الذهبية المشتملة على صورته ، وهو ، لو لم يكن الإسكندر الأكبر بسبب مآثره ، لكان عندنا كما عند العرب الذين يسمونه الإسكندر ذا القرنين .

وما أخذه من مصر هو وحى الصحراء الذى ألله به ، ويقول قرنه<sup>(١)</sup> الوحيد نابليون فى أواخر حياته : « زادت شهرة الإسكندر بتأسيسه الإسكندرية ، وتفكيره فى جعلها مقراً إمبراطورية أكثر مما بانتصاراته الباهرة ، فكان يجب أن تكون تلك المدينة عاصمة الدنيا » .

## ٥

لم تلبث الإسكندرية أن أصبحت عاصمة عظيمة ، وصارت فى القرن الثالث قبل الميلاد ، وبعد إنشائها بمئة عام ، تشتمل على مليون من السكان ، فأضحت ، كطيبة فيما مضى ، أكثر بلاد الدنيا أهلاً ، وهى لم تلبث ، بفضل موقعها الذى هو أقوى من موقع طيبة ، أن زادت وادى النيل أهمية بربطه بالبحر المتوسط ، بربطه بمركز العالم القديم ، والحق أن إنشاء تلك المدينة أهم حدث فى تاريخ مصر ، والحق أن العرب والإنكليز لم يستطيعوا أن يمتنحوا مصر مرفأً آخر .

وتنعت الإسكندرية بأنها المصر الوحيد الذى لا يعرف أحد معنى البطالة فيه ، ويقول الإمبراطور هادريان : « هنالك نجد رجلاً يصنع زجاجاً بالنفخ ،

(١) القرن : الظير .

كل شيء كان استعماريًا

وَتَجَدُّ رَجُلًا آخَرَ يُمِدُّ أَوْرَاقَ الْبَرْدِيِّ ، وَتَجَدُّ رَجُلًا ثَالِثًا يَنْسِجُ الْكُتَّانَ ، وَلِكُلِّ صِنْعَةٍ فِيهَا ، أَوْ يُلَوِّحُ أَنَّهُ ذُو صِنْعَةٍ فِيهَا ، وَلِلْعَاجِزِينَ عَمَلٌ ، وَلِلْعِمِيَانِ شُغْلٌ ، وَلَا تَرَى مُبْتَلَى بَدَأَ الْمَفَاصِلَ عَاطِلًا ، فَالْجَمِيعُ يُعْبِدُ إِلَهًا وَاحِدًا ، يُعْبَدُ الْمَالُ ، وَكَانَ التِّجَارُ يَصْرُخُونَ فِي الْأَسْوَاقِ لَفَتًا لِلْأَنْظَارِ إِلَى زَيْتِهِمْ وَمِلْحِهِمْ وَخَشَبِهِمْ الْأَجْنَبِيِّ كَمَا فِي الْوَقْتِ الْحَاضِرِ ، وَكَانَتِ السِّدَاتُ فِي الْحَمَامَاتِ الْعَامَةِ الْبَارِدَةِ وَالْحَارَةِ يَتَرَضْنَ فُتُوتَهُنَّ ، فَتُقْتَصَبُ الْمَوَائِدُ عَلَى الْمَاءِ ، وَلَمَّا طُرِدَ جَمِيعُ الْمَصْرِِيِّينَ مِنَ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ قَضَتْ الضَّرُورَةُ بِاسْتِثْنَاءِ وَقَادَى الْحَمَامَاتِ مِنْهُمْ ، فَكُلُّ شَيْءٍ كَانَ إِغْرِييًّا ، وَكُلُّ شَيْءٍ كَانَ اسْتِعْمَارِيًّا .

وَكَانَ الْمَكَانُ غَيْرَ وَاسِعٍ ، وَكَانَ الْمَكَانُ يُبْلَغُ مِنَ الطُّولِ سِتَّةَ كِيلُومِتْرَاتٍ وَمِنَ الْعَرْضِ كِيلُومِتْرًا وَنِصْفَ كِيلُومِتْرٍ ، فَيُشَبَّهُ بِرِوَاءِ قَدِيمِ ذِي حَوَاشٍ مِنْ ضَحَاحٍ تَصُبُّ فِي بَحِيرَةٍ مَرْبُوطَةٍ ، وَيُوصَلُ لِلْمَرْفَأِ الْبَحْرِيِّ بِالْمَرْفَأِ الْدَاخِلِيِّ ، وَتَقَامُ مَخَازِنُ لِلسَّلْعِ عَلَى طُولِ الْمَرْفَأِ التِّجَارِيِّ مِنَ الْجِهَةِ الشَّرْقِيَّةِ ، فِي مَكَانٍ زَالٍ الْآنَ كُلُّ أَثَرٍ لِلتِّجَارَةِ فِيهِ ، وَيُوسَّعُ مِنَ الْجِهَةِ نَفْسَهَا الْقَصْرُ الْمَلِكِيُّ الَّذِي لَمْ يَلْبَثْ أَنْ أُحِيطَ بِمَكْتَبَةٍ وَمُتَحَفٍ وَمَسْرَحٍ وَمِيدَانٍ وَمَلْعَبٍ وَمَحَاكِمٍ وَمُسْتَوْدَعَاتٍ لِلوَثَائِقِ ، وَكَانَتْ تُحْفَظُ هُنَاكَ طَوَامِيرُ<sup>(١)</sup> الْبَرْدِيِّ حَيْثُ تَحْمِلُ رَافَعَاتُ الْأَقْتَالِ رِزْمَ الْقَطَنِ فِي الْوَقْتِ الْحَاضِرِ إِلَى الشُّفْنِ ، ثُمَّ يُوضَعُ مُصْبَاحٌ عَظِيمٌ فِي بُرْجٍ بِأَفْصَى جَزِيرَةِ فَارُوسٍ فَيَنْشُرُ نُورًا سَاطِعًا مَعْكَسًا عَلَى مِرَاةٍ مُقَعَّرَةٍ لِلْمَرَّةِ الْأُولَى ، وَيَرَى مَلَاَحُو الْبِلَادِ الْبَعِيدَةِ أَنَّ اسْمَ هَذِهِ الْجَزِيرَةِ الَّتِي اخْتَارَهَا الْإِسْكَانْدَرُ مِرْدَافًا لِكَلِمَةِ الْحَيَاةِ وَالسَّلَامَةِ .

(١) الطوامير: جمع الطامور والطومار ، وهو الصحيفة ، فيقال: «كتب في الطومار أو الطوامير» .

وَيَصِيرُ بطليموس ، الذى كان من قُواد الإسكندر وكان من أشراف مقدونية الأصاغِرِ وكان أكبر من مولاه سنًا ، ملكاً لمصرَ ، وَيَقَعُ هذا عند موت الإسكندر وبعد إنشاء الإسكندرية بتسع سنين ، ويختلف بطليموسُ عن الإسكندر بعض الاختلاف فيظهر أنه خُلِقَ ليكون حامياً للآداب والفنون أكثر من أن يكون ملكاً ، ومع ذلك كان من النشاط ما يُحَفِّظُ به مَنْصِبَهُ الْمَلَكِيَّ ، ويدوم سلطانُ هذه الأسرة المالكة التى هى من الدرجة الثانية ثلاثمئة سنة ، وتنطفيئُ أسرة الإسكندر معه ، فالمصرية ليست أمراً وراثياً .

وكان هُمُ بطليموس الأول مصروفًا إلى حيازة جُثمان الإسكندر ، وقد مات الإسكندر وغدا غير قادرٍ على الدفاع عن نفسه ، وينتقل من يدٍ إلى يدٍ ، ويُسْرِقُ فى بدء الأمر طمعًا فى تابوته المصنوع من ذهب ، ثم يُغْمِلُهُ جَحْفَلٌ فِيلِيٌّ ، ثم يُجَرِّدُ من تابوته الذهبى ، ومن كان يُحَوِّزُهُ ، ومن كان يُحَوِّزُ إِلَهُ تلك الإمبراطورية وتلك المدينة ، يَشْعُرُ بأنه موضعُ لَعُونِ رُوحِهِ ، غير أن آل بطليموس الذين حازوه قرونًا لم يَرِثُوا سوى طالعهِ .

أَجَلٌ ، كانت حسنة الطالع تلك الأسرة التى هى إغريقية بأفكارها وكلامها وحكومتها ، والتى لم تكن مصرية ولا مقدونية ، فَصَّتْ جميع الأوطار وتمتعت بضروب تَرَفٍ الحياة وذائق طَعْمِ الزَّهْوِ واللذة والانتقام والحضارة من غير أن تُسأل عن الوسائل التى تُؤدِّى بها ما يقتضيه ذلك من النفقات ، وكان لأولئك الملوك بِلَاطُ عَرَانِسَ وأخذان وفلاسة ونجرمين ، وشاد أولئك الملوك أَجَلِ معابد مصرَ وبَدَوْا أكثر الناس قتلاً لِأَسْرِمَ ، وكان حبُّ الحياة يُثِيرُ الجنونَ فيدْفَعُ أولئك إلى تأليه خيلاتهم وجعلهم إلهات ، وكانوا يستخدمون نُفَلَاءَهُمْ فى حَوَاكِي الدسائس

حَوْلَ وِرَاثَةِ الْعَرْشِ وَحَوْلَ الْمَخَالَفَاتِ الْخَارِجِيَّةِ ، وَمَا كَانُوا يُرَوِّرُونَهُ مِنْ وَصَايَا  
فَيُسَوِّغُ قَبْضَهُمْ عَلَى زِمَامِ السُّلْطَةِ ، وَمَا كَانَ يَحْدُثُ أَنْ تَقْتُلَ الْمَلِكَةُ بَعْلَهَا لِتَنْزِجِ  
أَخَاهُ الْأَصْفَرَ ، وَمَا كَانَ يُرَى أَنْ يُتَخَذَ الْغَنَمُ الَّذِي يُجْمَعُ عَلَى تَحْمِلِ ضَمَانًا ضَدَّ  
الْقِتْنِ وَالْحُرُوبِ ، وَمَا كَانَ يُشَاهَدُ ، مَعَ ذَلِكَ ، تَجَمُّعُ نَوَابِغِ الزَّمَنِ حَوْلَ أَوْلَئِكَ  
فَيُتَبَرِّكُونَ حَسَدَ أَثْنَيْنِ فِي دَوْرٍ زَوَالِهَا وَحَسَدَ رُومَةٍ فِي دَوْرٍ نَهْضِهَا ، وَمَا يُدْهَشُ لَهُ  
أَنْ يُفَيَّيَ أَوْلَئِكَ النَّاسُ حَيَاتَهُمْ وَيَسْتَوْثُوا اسْتِمَالَهَا إِلَى سِنَةٍ مُتَقَدِّمَةٍ نَسِيًّا ، وَهُمْ ،  
لِنُدُورِ انْتِظَارِهِمْ مَوْتَ سَلَفِهِمْ مَوْتًا طَبِيعِيًّا ، كَانُوا يَقْبِضُونَ عَلَى زِمَامِ السُّلْطَةِ صَيِّبَانًا  
وَشُبَّانًا ، وَتَجِدُ غَيْرَ وَاحِدٍ مِنْهُمْ دَامَ سُلْطَانُهُ مَدَّةً تَتَرَجَّحُ بَيْنَ الثَّلَاثِينَ وَالْأَرْبَعِينَ  
مِنَ السِّنِينَ .

وَمِنَ الْمُحْتَمَلِ أَنَّ النِّسَاءَ فِي جَمِيعِ تَارِيخِ الْغَرْبِ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ مِنَ السُّلْطَانِ الْكَبِيرِ  
مِثْلَ مَا كَانَ لَهُنَّ هُنَاكَ ، وَلَا تَجِدُ فِي غَيْرِ ذَلِكَ الْمَكَانِ نِسَاءً لَا حَقَّ لَهُنَّ فِي الْمُلْكِ  
يُصَنَّفْنَ كَالْمُلُوكِ فَيَرْتَضِينَ مَا لِلخِلَالَاتِ الْمَشْهُورَاتِ مِنْ اسْمٍ ، وَكَانَ يُسْفِرُ طَمَعُهُنَّ الْبَالِغُ  
عَنْ جَمْعِ جَمِيعِ الْأَدَوَاتِ الثَّمِينَةِ الَّتِي تُنْهَبُ مِنَ الْبِلَادِ الْبَعِيدَةِ ، وَكَانَ وَلِيُّ الْأَمْرِ  
الْمَاشِقُ لَهُنَّ يَضْحَكُ إِذَا مَا وَزَعْنَ بَيْنَ النَّاسِ تَمَاثِيلَهُنَّ الصَّغِيرَةَ ذَاتَ الْوُجُوهِ  
الْحُمْرَةِ وَالْقَمِصَانَ الْقَصِيرَةَ ، وَلَكِنَّهُ يُرَوَّى أَنَّ الْمُلْكَ كَانَ يَحْسُدُ الْفَلَاحَ الْجَالِسَ  
تَحْتَ نَافِذَتِهِ لِيَأْ كُلَّ خَيْرٍ وَبَصَلًا .

وَمَعَ ذَلِكَ ظَهَرَ مِنْ أَوْلَئِكَ الْمُلُوكِ مَنْ كَانَ لَدَيْهِ مِنَ الْوَقْتِ وَالْإِقْدَامِ مَا يَسِيرُ  
بِهِ عَلَى غِرَارِ الْإِسْكَانْدَرِ فِي الْفَتْحِ ، قَدْ بَلَغَ بَطْلِيمُوسُ الثَّلَاثَ نَهَرَ الْفَرَاتِ وَقَهَرَ  
السَّالُوقِينَ مُسْتَعِينًا بِقَائِدٍ قَدِيرٍ وَظَلَّ أَقْوَى مُلُوكِ عَصْرِهِ بَضْعَ سِنِينَ ، وَقَدْ كَانَ أَوَّلَ  
مَنْ صَرَبَ قُوْدًا تَلَوَّ رَأْسَهُ الْكَبِيرَ الرَّخْوَ فِيهَا مِذْرَافًا ذَاتُ ثَلَاثِ شُعَبٍ رَمَزًا



إلى سلطانه على البحار ، وقد وَضَعَ تلجّ الفراغة المضاعف على رأسِ بَرَزِيكَ الثانيةِ الجليلِ المُرْفَقِ الشَّعْر ، وقد كان هذا المغامرُ صديقاً للعلماء في الوقت نفسه ، وقد بَهَرَهُ ما كان من ملاحظةِ تلميذٍ لأَقْلِيدِس<sup>(١)</sup> أَطْلَعَهُ بها على وجودِ شُدُوذٍ في التقويمِ المصريِّ في آخرِ الآلافِ الأربعةِ من السنين وعلى ضرورةِ إضافةِ يومٍ لتلافي ذلك ، وكان خَلْفَهُ بطليموسُ الرابع تلميذاً لارَاتُوسْتِن<sup>(٢)</sup> فلم يقتبس من العلمِ غيرَ ما لَدَّ وطاب ، وكان عابداً لديُونِيْزُوس<sup>(٣)</sup> فسار نحو مجرى النيلِ القوقانيِّ رَاكِباً ذهبيةً رائمةً مع خليلته ونديمه ، وبُهَيْتَ إِذْ وَجَدَ في طيبةِ أمراءَ محليين معدودين ظلالاً لقدماءِ الفراغةِ يقومون شؤونَ الحكمِ مستقلين منذ سنوات قليلة ، وتَسْبِقُ زَوْجَهُ وأخته اللتان قَتِلَتَا أخاه الذي مات غَرَقاً في حَمَامِهِ وأُمَّهُ التي ماتت مسمومة . وأخذ البطالةُ يُزِيلُونِ حبوباً من مصرَ إلى رومةِ حَوَاكِي ذلك الدور ، أَى بمد خرابِ قرطاجة ، وبدأ البطالةُ يَقَعُونَ تحتِ نِيرِ رومةِ شيئاً فشيئاً ، وذلك مع الإسراع في الانحطاط داخلَ البلاد .

وكانت نتيجةُ اضطراعِ رومةِ والإسكندريةِ أمراً مشكوراً فيه حتى قبل بدئه ، وكانت معاطفُ البطالةِ من الطُولِ والجَمَالِ ، وكانت وجوهُ البطالةِ من اللَّحْمِ<sup>(٤)</sup> وأفواهُم من الصَّيْبِ ومقابضُ سيوفهم من النفاسةِ ما لا يستطيعون معه أن يدافعوا عن أنفسهم تجاهِ سلاحِ مَنْ يطالبون مصرَ بِجَزَايَةٍ كأنها بلدٌ تَمَّ لِمَ فتحه وضدَّ رؤوسِ هؤلاءِ القاسيةِ وشفاهم الرقيقة ، ويُذَكَّرُ أواخرِ البطالةِ في ذلك الحين ويتنحلون اسمَ الإسكندر الأولِ واسمَ الإسكندر الثاني فيبدو الأولُ راقصاً بارعاً

(١) أقليس : عالم يوناني في الهندسة ( ٣٠٦ — ٢٨٣ ق. م ) — (٢) لاراتوستن : من فلاسفة مدرسة الإسكندرية ، ولد سنة ٢٧٦ قبل الميلاد ، وأُمانتَ قومه جوعاً في الأربعمِ من عمره — (٣) ديونيزوس : اسم يوناني لإلهِ الحجرِ بلخوس — (٤) اللحم : كثرة اللحم .

عارضاً مواهبه على الجمهور ، ويريدُ أن يسرق تابوت الإسكندر فيشور جنوده ضده في أثناء فِراره ، ويتزوجُ الآخرُ حَمَاتَه ثم يقتلها ، ويقتله الشعبُ الثائر في الملعب ، وكان أعداؤهم الرومانُ يُتَيِّثُونَ فَتَحَ البحر المتوسط في ذلك الحين ، وكانت أُورُشليمُ <sup>(١)</sup> وقبرس قبضتهم ، وهَرَبَ الزَّمَّارَ بطليموس أوليت إلى رومة حينما طردته ابنته فَوُفِّفَ في رودس التي كان كاثُونُ مديراً لها ، ولم يَنْهَضْ هذا حتى لقبوله ، وإنما اقتصر على دعوته إلى الجلوس بجانبه .

## ٦

ومهما يكن من أمرٍ فإن الإسكندرية ، لا رومة ، هي التي كانت عاصمة العالم في القرون الثلاثة الأخيرة قبل الميلاد ، وكان ذهبُ الملوك هو الذي يجذب إليها رجالَ العلم والأدب ، وَيَبْلُغُ سِحْرُ النساءِ غايته ، وتُشِيرُ شهرتهُ حبُّ الاطلاع في الإنسان ، ويفدو الميناءُ خَطًّا وصل بين القارَّات الثلاث .

وكان لاختلاط العروق عملٌ واسع خصب كما في كلِّ مكان ، وكان الملوك فراعنة لدى المصريين في أمور الدين على الخصوص ، وكان الملوك الذين هذه هي حالهم يَتَتَوَّوْنَ أن يَبْدُوا إِخْوَانًا للأغارقة الذي يُدِيرُونَ شؤون البلد ، والواقع أن كلاً من الفريقين لم يَكُ مخدوعاً ، فكهُانُ مصر يزددون هؤلاء المتواجين الحديثي النعمة الذين لا تُرَى وراءهم حضارة أربعة آلاف سنة ، والأغارقة يَعُدُّون الكهنة كالمقدونيين الذين هم من شِبَاه البرابرة ، وكان اليهودُ أغنياء أقوياء في الإسكندرية فيروْنَ أنفسهم فوق الجميع كشعبٍ مختار ، وأما البطالمة فيجدون

(١) أُورُشليم : القدس .

## الولائم والأعياد

أنهم ورثة الإسكندر وأن من الواجب أن يكونوا سادة العالم ويؤكدون أصلهم العادي بلتبسهم أحذية طويلة وقلائس عريضة من ليد<sup>(١)</sup> مع التكلم بلهجة مقدونية، وقد رأوا تقليد عادات الإسكندر في أواخر حياته فأدخلوا طرق الترابزة إلى موآندم.

حقاً أن الولائم والأعياد كانت أهم ما يشغل بلاط الإسكندرية، وكان بعض الملوك يحتفلون بعيد ميلادهم في كل شهر فيجربون الشوارع راكبين عربات مزينة بالعنب موزعين خمرًا بين الجمهور، وإذا ما تصاعدت رائحة الجمهور إلى عربة الملك القضيبة ارتجت أرسينويه الثانية الحسنة إلى الورا متميزة من الفيظ<sup>(٢)</sup>، وترى السفينة العظيمة راسية في الميناء محلاً لإعجاب العالم بأجته بالغة من الطول ١٥٠ متر صالحة لركوب ثلاثة آلاف شخص.

ولما أنشأ بطليموس المكتبة جمع فيها مئة ألف طومار من البردي، ولما حُرقت هذه المكتبة كانت أهم مكتبة في القرون القديمة، وبلغ البطالة من الزهو بها ما رأوا معه أن يحولوا دون منافسة فرغاس<sup>(٣)</sup> لها فحفظوا إصدار ورق البردي، ويتفق لهم كما يتفق لكل من هو حديث عهد بالملك، وذلك أنهم كانوا يُفرون بالذهب فيجذبون الأدباء والعلماء من أكثر المدن ثقافة، فيلبني الرياضيون والجغرافيون والأطباء والفلاسفة الصعيون دعوتهم، ويبقى من هؤلاء كثير في الإسكندرية، ويتذوق ايقور، الذي هو أكثرهم حكمة، ملاذ الحياة هناك، فيكتب رسالته الأخيرة الخالدة.

(١) اللبد : كل شعر أو صوف مثلب — (٢) يتميز من الفيظ : يتقطع من الفيظ.

(٣) فرغاس (Pergame) : عاصمة مملكة قديمة بأسية الصغرى عرفت بهذا الاسم، وكانت تقع شمال مملكة لوديه (Lydie) التي هي ولاية إزمير الآن وقد اشتهرت بمكتبتها.

وما ابتدعه بطليموس<sup>١</sup> الثاني بتلك المكتبة فقد كان أمراً جديداً وحيداً في القرون القديمة ، وقد كانت أول مؤسسة أقيمت على غير تأريخٍ نفعيٍّ من وراء الباحث العلمية فكان يُنفَق عليها بسخاء ، أجل ، كان لا يُتمتّع هناك بحرية فكرية مطلقة كما في النظم الجمهوريّة الحاضرة ، غير أن الأول والثاني من البطالة كانا لا يَحْمِلَانِ أحداً على تغيير عقائده بالذهب ، وكان الأساتذة والطلبة يَرِدُونَ إلى هنالك من جميع البلدان . وكان المصريون واليهود ، قبل وصول الرومان ، يقاومون مُغريات الثقافة اليونانية بعناد ، وإن سلكت الأكرية سبيل الاندماج كما في كل مكان .

واثنان من أحياء الإسكندرية الخمسة كانا خاصين باليهود ، وكان اليهود أقل من الأغارقة وجاهة ، ولكنهم كانوا أحسن من المصريين مقاماً ، فينتوى هذا على جورٍ مضاعف وعلى سببٍ مزدوجٍ لاضطهادٍ يقع في المستقبل ، وكان ذلك فاتحة هزيمتهم ، فاتحة ذلك المصير الذي يَحْمِلُهُمْ على ملازمة أي شئ يعيشون بينه مع عدم أجانب مع ذلك ، وعلى تركهم قسماً كبيراً أحياناً ، صغيراً أحياناً ، من تراث آبائهم ، وعلى تأليفهم دولةً روحيةً ضمن الدولة مع عطلٍ من القوة المادية ، ويَبْدُونَ بين الأغارقة أغارقةً باللغة والطباع ، وَيَتَمَتَّعُونَ بجميع نِعَمِ الحياة ، وينال أناسٌ كثيرٌ منهم حقّ المدينة ، ويُدِيرُونَ شؤونَ أنفسهم بأنفسهم ، ويُقيمون زمناً طويلاً من غير أن يؤدّوا ، ويضبطون من الإغريقية ما يريد أحد كبار كهّانهم معه أن يجعل أورشليم إغريقيةً ، وكان لدى كليوباترة قواد من اليهود

وكان عدد قواد المصريين ومديريهم أقل من عدد قواد اليهود ومديريهم على الراجح ، ويلوح أن الأغارقة عدّوا مصر القديمة ضريحاً لمجموعة عظام من الحيوان والإنسان يُنمُّ السائحُ نظره فيه صامتاً من غير أن يبالي بالحرس ، وهم ، إذ

يَفْرِضُونَ لِنَفْسِهِمْ وَيَبْذُلُونَ سَادَةَ الْبِلَادِ ، يَواقُونَ عَلَى أَنْ أَفْلَاطُونُ كَانَ تَلْمِيزاً لِكَهْنَةِ  
المصريين ، ولكن مع خُطَرِهِم تَزَاجِرُ العَرَقِينَ ، وَكَانُوا يَتَكَلَّمُونَ عَنْ رُؤُوسِ أُمُومٍ ،  
وَكَانُوا فِي الْيَوْمِ يَقْدَمُونَ قَرَابِينَ إِلَى نِيمِيزِس<sup>(١)</sup> وَإِلَازِسَ مَعاً ، وَكَانُوا يُعْتَمَنُ فِي  
الإِسْكَندَرِيَّةِ بِثَوَرٍ مُقَدَّسٍ مَعَ عَدَمِ ذَلِكَ أَمراً مُضْحِكاً ، وَكَانُوا يَتْرَكُونَ لِلْكَهْنَةِ  
دَخَلَ قَرَضٍ هَذَا الثَّوْرَ عَلَى الْجُمْهُورِ ، وَكَانُوا يُوَدُّونَ عِنْدَ مَوْتِهِ نَفَقَةَ تَكْفِينِهِ الْغَالِيَةَ ،  
وَلَكِنْ مَعَ إِزَامِ كَهْنَةِ الْمِصْرِيِّينَ بِتَعَلُّمِ الْيُونَانِيَّةِ عَلَى نَفَقَتِهِمْ ، وَيَرْفَعُ مَسْتَوَى الدِّيَانَةِ  
الْمِصْرِيَّةِ الرُّوحِيَّةِ بِتَأْثِيرِ الدِّيَانَةِ الْإِغْرِيْقِيَّةِ ، وَتَطْلُ مُسْئَلَةُ الْحَيَاةِ بِمَدِّ الْمَوْتِ ، الَّتِي هِيَ  
أَصْغَبُ مَا فِي الدِّيَانَةِ الْمِصْرِيَّةِ ، أَمراً غَلَضاً مَعَ ذَلِكَ الْاِخْتِلَاطِ .

وَقَامَ الشَّعْبُ الْمِصْرِيُّ الْمَهَادِيَّ جَمِيعَ الْمَرُوقِ وَجَمِيعَ اللُّغَاتِ الَّتِي غَرَبَتْ الدَّلَّتَا ،  
وَتَتَابَعَ السَّادَةُ الْجُدُدُ مَعَ عَادَاتِهِ وَلَهْجَاتِهِ مُخْتَلِفَةً ، فَكَانَ حَفَدَةُ الْفَرَسِ  
وَالْأَشُورِيِّينَ يُقِيمُونَ بِالنَّيْلِ الْأَعْلَى ، وَكَانَ السُّورِيُّونَ يُوْغِلُونَ فِي الْيَوْمِ ، وَكَانَ  
الْيَهُودُ يُوْغِلُونَ فِي الدَّلَّتَا ، وَكَانَ التَّرَاكِكِيُّونَ وَالسِّلِيزِيُّونَ وَاللِّيَبِيُّونَ وَالْفَلَاطِيُّونَ  
يَتَجَمَّعُونَ فِي هَذِهِ الْبُقْعَةِ الَّتِي هِيَ أَخْصَبُ مَا فِي الْأَرْضِ ، غَيْرَ أَنَّ الْأَغَارِقَةَ هُمُ الَّذِينَ  
كَانُوا يُصْدِرُونَ حُبُوبَهُمْ إِلَى الشَّاطِئِ الْآخَرِ مِنَ الْبَحْرِ الْمُتَوَسِّطِ ، فَإِذَا مَا عَادَتْ  
مَرَاجِبُهُمْ كَانَتْ مَشْحُونَةً بِطَاقَةِ مِنَ الْأَدَوَاتِ الْتَافِهَةِ الَّتِي يَذْكُرُ الْإِسْكَندَرِيُّ  
بِهَا بِلَادَ أَجْدَادِهِ ، وَالَّتِي تَقْرُسُ عَلَى الْفَلَّاحِ الْمُسْتَطَلِّ كَأَنَّهَا عِجَابٌ آتِيَةٌ مِنْ بِلَادٍ بَعِيدَةٍ ،  
وَيُعْنَى مَلَاَحُو الْإِغْرِيْقِ مَا يَأْتِي فِي ذَلِكَ الْمِنَاءِ الْكَبِيرِ الَّذِي يَلْتَقِي فِيهِ الْبَحْرُ وَالنَّيْلُ :  
« أَيُّهَا الْمَلَاَحُونَ الَّذِينَ يَمْرُؤُونَ عَلَى الْأَمْوَاجِ الْمَالِحَةِ ، أَيُّهَا الْمَلَاَحُونَ الَّذِينَ  
يَقْتَحِمُونَ الْأَخْطَارَ بَيْنَ الْأَمْوَاجِ الثَّرِيدَةِ ، انْظُرُوا إِلَى هَؤُلَاءِ النَّوَائِي الَّذِينَ يُوجِلُونَ

(١) نِيمِيزِس : إلهة الانتقام كما جاء في أساطير اليونان .

في النيل ، أعندهم لآلى ٩٢ هم يَدْخُلونه هادئين ، وأما أنا فأعيش كالكلب ! » .  
 وكان للفلاح الخالد أن يَتَقَتَّ الإغريقَ الذى يفتنى من غير كَيْدٍ والذى لم يكن عليه  
 إلا أن يستأجر مركباً وأن يذهب إلى الجُزُرِ وأن يقوم ببعض الأُشْريَّة وأن يَشْحَنَ  
 المركبَ بها وأن يبيع سِلَقَه من سيداتٍ غنياتٍ بعشرة أضعاف ما تساويه من ثمن .  
 أَجَلْ ، يُجِيدُ الحائِكُ المصرىَّ العملَ ، أَجَلْ ، يقوم الحائِكُ المصرىُّ بعمله  
 متأنياً فلا يستطيع أن يُنْجِزَ ما تُقَفِّى به جميعُ تلك الحاجات ، غير أن الصانع  
 وصانع الشعاع<sup>(١)</sup> والآنية يتخذان الآن نماذجَ إغريقيةً لتزيين موائد البَلَاطِ  
 وموائد الأغنياء ، وتُدَوِّى الدواليبُ والمصانع فى جميع المدينة ، وتولِّفُ نقاباتٍ  
 لوجود ألوفٍ من العمال بجانب العيد ، وتواجه جميعاتٍ رأسماليةً تقول برفع الأسعار  
 وخفض الأجر ، وتقعُ إضراباتٌ وتشتعلُ فِتَنٌ .

يَبْدُ أن أساس جميع تلك الحركة التجارية وجميع الحياة فى الدُّلَّا هو العَبْ  
 الذى يُبْذَره الفلاح ويَحْصِده على طول النيل كما كان عليه الأمر منذ أربعة آلاف  
 سنة . والفلاحُ لى يَشْرِى منه ذلك ، والفلاحُ لى يستطيع العيشَ مع أسرته ،  
 يجب عليه أن يَدْفَع ضريبةً عن كلِّ ساقية وعن كلِّ شِئْرٍ من الأرض ، وإذا ما  
 أنشأ ولى الأمر أسداً وقنواتٍ مقابلةً وجب إتيان ذلك ، ويَبْدُو البطالةُ  
 أبرعَ من القراعة فى أمور المال فيحتكرون الزيت والتمر ويَفْرِضون رسوماً على  
 كلِّ من يريد أن يعيش ، فتؤخذ ضريبةٌ عن الجِمة وعن المثلين والأخذان ،  
 وعن السطح الذى يُنَام عليه فى ليالى الصيف بعد عملٍ مُضِنٍ فى النهار ، فالحقُّ أن  
 البطالة هم الذين اخترعوا ضريبةَ الهواء الذى يُنَفِّس به .

(١) الشعاع : جم شمدان ، وهو النارة يركز عليها الشمع ، وكلمة دان فارسية .

من الراجح أن كليوباترة أصغرُ سنًا من جميع النساء المشهورات ، ولكنك لا تجدُ من تمتعَ بالحياة مثلها بينهم حتى موتها في التاسعة والثلاثين من سِنِها ، فعلى قد قبضت على زمام الملك عشرين عامًا ودام دَوْرُ غرامها ثمانية وعشرين عامًا على الأقل ، وكانت الفتنُ هَزُّ بلادها وفؤادها في أثناء تلك المدة ، ولكنها لم تُقَلِّبْ قَطُّ ، ويحتمل أنه لم يُصِبهَا خِزْيٌ غَيْرُ مَرَّةٍ قَطُّ ، وما نالته من نَصْرِ هو من الانتصارات السنوية ، ولم يحدث أن بدت على أعمالها الجريئة وأفعالها الجارمة سِمةً الرُّجولة ، وعنها قال هوراس : « إنها امرأة متعطسة » ، وهذا الحكم ناقصٌ ، وذلك لأنها قصت حياتها بدهاء أكثر مما اتفق لأية مَلِكَةٍ أُخْرَى ، وما كانت لتخشى أن تكون ذاتَ ولدٍ في أثناء ثَمَلِ حياةٍ حُفَّتْ بالمخاطر ، وكانت تُذعن لاندفاعات غريزتها مع أنها لم تكن أكثر قسوةً من أسلافها ، ومع أنها كانت تُظهرُ مَرُوءَةً تِجَاهَ ما خَفَّ من الشتاء ، ومع أنها كانت تَظَلُّمًا إلى الانتقام تِجَاهَ ما عَظُمَ منها ، ومع أنها كانت تَعْرِفُ عِدَّةَ لغاتٍ وكانت كثيرةَ الثقافة ، وهى مدينةٌ لِقُوتونها بكلِّ شيء ، وهى قد وَضَعَتْ حدًا لحياةٍ أضحت لامعنى لها عندما أبصرت رجلاً يقاوم سحرها ذلك .

وقد تكون أقلُّ جلالًا مما جاء فى القصة ، أَجَلْ ، يَبْدُو إقدامها أظهرَ من حُسْنها فى الأوسمة النادرة الموثوق بها ، غير أن العَدِنَ لا يَقْدِرُ على إظهار سحرها ، ولم تكن الصورةُ ، ولا الأسطورةُ ، لتُظهر صوتها وحديثها وعذوبةَ لَحْنِها وسحرَ

نظرها ، والحق أنه كان يُعَوِّزُها شاعرٌ كبيرٌ لِيَتَقَنَّى بها ، وما نالته من انتصاراتٍ على ثلاثة من أعظم الرومان قيسمٌ على ذلك السَّحَرُ ، ويُقدِّمُ هؤلاء الأكابر شعراء لفتونها .

ومن يُرِيدُ أن يَتَبَّعَ أساسَ خُلُقِها واقتِرانَ التَّجَانَةِ<sup>(١)</sup> بِمَهْمَلِ الخير والشرِّ فليَدْرُكْ أنها وليدةٌ عِدَّةِ عروق ، وهى المَشْرِيقِيَّةُ التى تَمِلَتْ بِسُومِ مصرَ ، وهى حفيدةٌ خَلِيلَةٍ مشهورة وابنةٌ تُفِيلِ بُحَيْرِمَ ، وهى فتاةُ الإسْكَندريةِ التى بَلَّغَتْ من العُمرِ ثلاثِمِئةَ سنةٍ فأخَذَ تَجْمُها يَأْفِلُ بِمَدِّ موتِها ، ولو سَأَلْتَ عن هذه المدينةِ التى نَشَأَتْ فيها تلكَ الفتاةُ لَعَلِمْتَ أنها تقعُ بينَ قِسْمَيِ العالَمِ الخاضِعَيْنِ لرومةِ وأنها مجاورةٌ لجزُرِ أورْبَةِ وحدودِ آسيةِ وأنها إفريقيةٌ مع ذلك ، وأنها على شاطئِ البحرِ ، وأنها قريبةٌ من النيلِ ، وما كان من انتِظارِ نهايةِ العالَمِ ومن صليلِ السلاحِ فى الشوارعِ وفى قَصْرِها ومن نزولِ المرتزقةِ المِختلِفِ الأجناسِ إلى الدُّلتا فقد أثارَ شَوْقَها إلى المَلادِّ ، وقد انتزعت من القَدَرِ ، مع ذلك ، بَضْعَ سنينٍ من الغرامِ تُعدُّ قَصيدةً رِعايِيَّةً تقريباً ، ومن المصادفاتِ المباركةِ التى لا يَفِغُ منها غيرُ واحدةٍ فى عشرةِ قرونٍ انْجذابُ أقوى رؤساءِ الدولِ إلى بلادِها ، ويأتى هؤلاء للبحثِ عن حُبوبِ فيجِدُونَ فاتنةً .

ويُعوْدُ أبوها الذى كان يَحْمِلُ اسماً مَاجِناً ، يَحْمِلُ اسمَ نِيوسِ دِيُونِيْزُوسِ فَلَقَبَهُ الشعبُ بِالزَّمَّارِ ، من رومةِ التى لجأَ إليها قَتَلَ فيها مئةً من أهلِ الإسْكَندريةِ أَتَوْا لِيُسَوِّغُوا عَصيانَهُمْ ضِدَّهُ ، ويكتفى فى عاصمتهِ بِقتلِ زوجةِ وزُوساءِ الحزبِ المعارضِ الموالينِ لها وَيُزَوِّجُ ابنتهَ الكَبرى ، كليوباترةَ ، البالغةَ من العُمرِ أربعَ عشرةَ سنةً ، بأخيها البالغِ من العُمرِ تسعَ سنينٍ لِيَرِثَا عرشه ، ثم يموتُ مَغموراً بِالإزدراءِ ، وكان بُونِيْ

(١) المجانة : كثرةُ قلةِ الحياءِ .



## زواج كليوباترة الأول

هو الرجل الذى نَصَبَهُ مجلسُ الشيوخ الرومانى وصياً على هذين الزوجين الصغيرين ، وكان يُؤنَّبى هذا موضعَ نقاشٍ عَنيفٍ فى مجلس الشيوخ ذلك ومحلَّ شَفَيعٍ دام فى القُوروم<sup>(١)</sup> ، وكان مثلُ هذه المصادمات يَقعُ فى ميدان الإسكندرية فى ذلك الحين . وكانت كليوباترة فى العشرين من عمرها عند ما أبصرت اقتتالَ يُونِيبى وقيصِر ، وقد راقها يُونِيبى ، لا رَيبَ ، ما دامت قد أمدَّته بخمسين سفينة لم يُكْتَب لها الرجوع قَطُّ ، وكانت كليوباترة السابعة ، وهذا هو لقبها فى ذلك الحين ، قد بلغت من مَتِّ العاصمة لها ما طَرَدَها معه حزبُ أخيها وزوجها ، وتَجَمَّع كتائب على الحدود العربية حيث تتكلم بلغة قبائلها ، وإنها لَتَرَحَّف ضدَّ أخيها إذ تشاهد رومانياً آخرَ يَصِلُ إلى الدلتا بعد قتله يُونِيبى .

أصبح قيصرُ سيدَ رومة وسيدَ العالم بعد انتصاره فى معركة قرَسَالُوس ، وما كان يُعَوِّزُه سوى شيء واحد ، سوى المال ، ويخفى مصرَ للبحث عن المال ، ولم يكن من القُصُول أن يَرى تلك الملكة المترجِّلة التى كانت قد أيدت خصمه ، ويسبق كليوباترة ويدخل المدينة ، ويدخل القصرَ ، منصوراً خلفَ حَمَلَةِ القُوروس من ضباط الرومان وعلى مرأى من الجُمهور الساخط ، بيد أن الملكة تَرَكَب السفينة من يِلُورَة مُتَسَكِّرة وتَبْلُغ الإسكندرية وتَلْفُ وتُحْمَل إلى القصر حيث قيصرُ وأخوها وزوجها ، ويُنَشَرُ البِساط أمام قيصر الذى اعتقد أنه هدية فتَخْرُج منه كليوباترة .

ويرى أخوها التاج على أقدامها مُعَاَصِياً ، وعلى قيصر أن يختار بين صبيّ مَنِيظِر وامرأة فاتنة ، ويحاول من النافذة أن يُسَكِّنَ المجنونَ المتَوَعَّد ، ويُعْمَل

(١) القوروم : هو الميدان الذى كان الشعب يجتمع فيه برومة .

بوصية بطليموس الزَّمار ويُعيدُ كلاً الزوجين إلى العرش ، غير أن رئيساً لمرتزقة الأغارقة يطالب بمكافأة لإيقاظه الملك ، ويثور الجُمهور ، ويُشعلُ قيصرُ السفنَ المصرية التي كانت في الميناء والتي كان عددها اثنتين وسبعين ، فيمتدُّ الألهبُ إلى المكتبة بفعل الرياح ويحرقُها فيتحول بذلك أربعمئة ألف طومارٍ من ورق البردي إلى رماد ، ويُعلنُ في الميدان الواسع نصبُ خَصِيٍّ قائداً للكتائب وبطلٍ قيصرُ وكليوباترة وحدهما في القصرِ المُحصَر ، وكان في السنة الثانية والخمسين من عمره وكانت في السنة الثانية والعشرين من عمرها ، ونُصَّاه ليالى غرامها الأولى باحترق حكمة العالم كلها .

ويقيم قيصرُ بمصرَ نحوَ عامٍ أى ضيقى إقامة الإسكندر بها ، وفيما كان أنصارُ يوناني يجتمعون قوامهم في إسبانية وإفريقية كان الكهلُ الأصلعُ قيصرُ يرافقُ قاصرةً تابعة لهاوها فيتوجهان إلى مجرى النهر القوقاني راكبين سفينة فاخرة ، وفيما كان عالمٌ جديدٌ يثور ضدَّ الفاتح الكبير كان هذا الفاتح يدرسُ أعمدةَ عالمٍ قديم وكتاباتِهِ كما يدرسُ سحرُ آخرِ فرعونية ، ويغدو الزوجُ شاباً مزيجاً مُتطلباً فيفترق في النيل في إحدى المعارك ، ويذهب قيصرُ في نهاية الأمر ، ويهزمُ فرانس ويرسل إلى مجلس الشيوخ كَلِمَةُ المشهورة : « جئتُ فأُبصرتُ ففَلَبْتُ » ، التي ليست ، على ما يحتمل ، سوى كلمة غرام ظافرٍ سَرَّت على لسان كليوباترة المنصورة ، ويترك لها ثلاثَ كتائبٍ وأملَ ولادةٍ ولد ، فنسميه قيصرور .

ويمضى عام ، فتذهب إلى رومة ، وستنضمُ نصفَ إلهٍ بين ذراعَيْها ، وهذا اللقبُ هو الذى كان يُقرأ على قاعدة تمثاله في الكابيتول على الأقل ، وتجلس على المنصة حينما كان قيصرُ يبصرُ أعداءه للتهورين مُقرَّنين في الأصفاذ بالقوروم ، وتُبصرُ بينهم

أختها أَرْسِينُويَه التي كانت تَمَقُّنُها كثيراً ، ومما كانت تُفَكِّرُ فيه ، لا رَيبَ ، أن ذلك يكون مصيرها لو لم تَمَقِّنْ عدوها القويَّ وقتَ الحِصارِ ووقتَ الحريقِ ، وتَتَحَقَّقَ أحلامُ زَهورِها في رومة ، ولو لم تَتَحَقَّقَ أحلامُ غرامِها ، واستطاعت أن تُظهِرَ سعادتها مع الافتخار في عامين ، ولا عَجَبَ ، فقد كانت خَلِيلَةَ سَيِّدِ العالَمِ ، وكانت أغنى منه ، ويحافظُ قيصرُ على شرفِ امرأته ، فهو يَجِدُ زوجاً صبيحاً للمصرية و يُظهِرُها أمامَ الجُمُهورِ معاً ، ويَحْمِلُهما على العِشِ معاً ، ويدعوها قيصرُ إلى منزلِ جَميلٍ عَبرَ نَهرِ التَّيْبِرِ ، وَيَقِظُ سِرُّها الفَرعونيَّ قَدَماءَ الجُمُهورِ بين الذين هم من طِرازِ شِيشِرُون ، ويُزَعِّمُ أنها تُحَرِّضُ قيصرَ على لبسِ التاجِ :

يبد أن قيصرَ يُحِبُّ كليوباترة ، وهو إذا ما زارها أبصرَ صورته في ابنه البالغ سَنتين من العمر لتشابههما تشابهاً غريباً ، ومن المحتمل أن كانت تَجِدُ ترويحاً لها بعودة ربيبه أكتافيوسِ الصاخبة ، فتمتدُّ خَصَمَ الفَد هذا فاتناً ، ويَرَفُضُ قيصرُ التاجَ الذي عَرَضَهُ أنطونيوس عليه في مجلسِ الشيوخ ، ولكن قيصرَ يَنْصِبُ في ذلك الحين تمثالاً ذهبيّاً لخليلته في معبد فينيوس ، ولكن قيصرَ يُعَدُّ قانوناً يُحِلُّ له أن يكون ذا أزواج شرعيَّاتٍ كثيرات ، فكان كلُّ شيءٍ يُلَوِّحُ مُهَيَّأً لجللِ ابنةِ النِّعيلِ المصريِّ كليوباترةِ إمبراطورةَ حينما قُتِلَ قيصر .

وهي لم تغفل من الاضطرابات التي عَقَبَتْ ذلك إلا بمعجزة ، حتى إنها لم تَهْرُبْ ، حتى إنها لم تَعُدْ إلى الإسكندرية إلا بعد بضعة أسابيع ، ويتوارى أخوها وزوجها الثاني في تلك الساعة النفسية ، ويَتَقَعَّبُها سادةُ رومة ، كما لو كانت هذه الساحرة تجتذبهم إلى مصر ، ويكتفي أنطونيوس بتقليد قيصرَ فلا يَأْثُرُ جُهداً في نَيْلِ حُظْوَةِ لَدَى عَشيقته الشهيرة تلك ، ولولا ذلك ما جَدَّ به شيءٌ إلى مصر ، وهو لكيلا يستحوذ

عليه ظلمٌ قيصَرٌ يجب عليه أن يُجَرَّدَ من كلِّ قِنَاعٍ تلك التي شَفَقَتْ قلبه حباً منذ سنتين في ولأثم قيصَر .

وكان أنطونيوسُ ، الشعبيُّ الجندِيُّ ابنُ الجندىِّ الفاجرِ المَعْرُضِ لِفِتْرَةِ امرأته ، دون قيصَرٍ من كلِّ ناحية ، ولكنه كان يفوقه فتناً ، وكان شريكاً في تراثِ إمبراطورية العالم ، ولكنه كان طالبَ لَدَنَةٍ ومعاقرَ خَمَزَةٍ قبل كلِّ شيء ، وكان يُحْيِلُ إليه ، على ما يحتمل ، وجودَ شَبَةٍ بينه وبين الإسكندر على هذا الوجه فيَقْضَلُ أن يكون باخوسَ في أفسُس<sup>(١)</sup> على أن يكون إمبراطوراً في رومة .

ويدعو كليوباترة إلى أفسُس كَهَمَةٍ ، فلا تَلْبِيْ دَعْوَتِهِ ، ويكون في طَرَسُوس ، وإنه لَيَقْصِدُ إقامة العدل في ميدانها العام إذ يُدَبِّتُ بوجود سفينة فاخرة ذاتِ شراعٍ أُرْجَوَانِيٍّ ومجاديف فضية تَسِيرُ في المجرى الفوقانيِّ من نهر البردان<sup>(٢)</sup> ، ولا يَتَزَنُ ، فيذهب إلى الضِفَّة ويساعد الملكة حين نزولها إلى التبرِّ ، بين العِطَرِ والزَّهْرِ وصوت المِزْهَر ، على وَضْعِ رجلها الصغيرة فوق الأرض ، وكانت كليوباترة في السابعة والعشرين من عُمرها حينما واجهت هذا الرومانيِّ الثالث ، ولم يكن أنطونيوسُ في الأربعين من عُمره كما أنه لم يكن أصْلَحَ ، وكان أنطونيوسُ دون قيصَر طُمُوحاً وحكمةً ، وكان أقربَ إلى الشرقِ بمزاجه وذوقه ، وكان له بذلك اللقاء بقرير لمصيره ، مع أن كليوباترة لم تكن غيرَ حادثٍ عَرَضِيٍّ في حياة قيصَر .

وتَبَدَّأ الملكة فصلاً جديداً في حياتها في الإسكندرية نفسها ، وفي القصرِ نفسه ، وعلى رأى من رجال البلاط أنفسهم ، وضمن الحُدِّ الذي لم تتخلص منه ، وينطوي ذلك الفصل على الغامرة الكبرى ، ويدوم عشرَ سنين .

(١) أفسُس : مدينة قديمة قرب لزمير ، وسكانها الآن آيا صولوق — (٢) البردان : نهر قرب طرسوس ، واسمه بالتركية « قره صو » وباليونانية « كودنوس » .

ولم تَتَجَلَّ عظمةُ قيصرَ في خَلْفِهِ ، ولما أعطاهَا هذا الخَلْفُ الرومانيُّ مِثْقَى ألفِ طُومارٍ من وَرَقِ التَّبَرْدِيِّ لتَجْدِيدِ المَكْتَبَةِ لم يَعدِلْ في عَيْنِهَا ذَلِكَ الَّذِي حَرَّقَ ضِيقُ ذَلِكَ لِيُشْعِلَ لَيْلَةَ غَرَامِهَا الْأُولَى ، ويلوح أنها خَافَتْهُ أَقْلٌ مما خَافَتْ قَيْصَرَ ، ومع ذلك كَانَ لَهَا مِنْ الْوَقْتِ مَا تَقَابِلُ فِيهِ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ وَالْحُكُومَتَيْنِ وَتَقَرَّرُ فِيهِ مَا كَانَتْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَصْنَعَهُ إِلَى حَدٍّ مَا مِنْ اتِّخَاذِ رُومَةٍ أَوْ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ عَاصِمَةٍ لِلْعَالَمِ ، وَلَا يَتَوَقَّفُ هَذَا الْقَرَارُ عَلَيْهَا وَحْدَهَا ، وَذَلِكَ أَنَّ عَاشِقَهَا الْجَدِيدَ تَوَارَى بَعْدَ أَوَّلِ شَتَاءٍ لِيَتَزَوَّجَ أُكْتَاثِيَّةُ أُخْتِ مَنْافَسِهِ أُكْتَاثِيُوسَ ، فَلَا تَعْرِفُ كَلِيُوبَاتِرَةَ هَلْ يَمُودُ أَوْ لَا ، مَا دَامَ الْأَمْرُ زَوَاجًا سِيَاسِيًّا ، فَصَارَ عَلَيْهَا أَنْ تَرْسُمَ خِطَّةَ جَدِيدَةٍ لَتَرْجِعَهُ إِلَى حَفْلَتِهَا .

وَيَسْتَوْلِي السَّأْمُ عَلَى أَنْطُونِيُوسَ فِي شَهْرِ عَسَلِهِ مَعَ زَوْجِهِ الرُّومَانِيَّةِ الْعِذْرَاءِ ، وَتَضَعُ كَلِيُوبَاتِرَةَ تَوَامًا ، « تَضَعُ الْمَلِكَ الشَّمْسَ وَالْمَلِكَةَ الْقَمَرَ » وَفَقَى تَصْيِيرَهَا ، وَتَرْفُ إِِلَيْهِ هَذِهِ الْبَشْرَى ، وَتُخْبِرُهُ بِنُبُوءَةِ مُنْجِمٍ قَائِلَةٍ إِنْ مَجَرَى النُّجُومِ لَا يَمُنُّ عَلَيْهِ بِنَصْرِ فِي غَيْرِ الشَّرْقِ ، أَوَّلَيْسَتْ سَاحِرَةٌ ؟ وَلَمْ تَلَازِمَهُ أُكْتَاثِيَّةُ الْفَاضِلَةُ مَعَ أَنَّهَا الْمُسْتَقِيمُ وَأَسَارِيرُهَا الْجَافِيَّةُ ؟ وَيَتَبَرَّكُهَا فِي أَثْنَةِ ، حَيْثُ كَانَتْ فَوَلَّقِيهِ قَدْ مَاتَتْ غَيْرَةً ، مَتَذَرَعًا بِأَنَّهُ يَوَدُّ أَنْ يُجَنَّبَهَا بِذَلِكَ عَنَاءَ حَرْبٍ ضِدَّ الْقَرطَانِيِّينَ ، ثُمَّ يَدْعُو كَلِيُوبَاتِرَةَ إِلَى اللَّحَاقِ بِهِ فِي مَتَنَصِفِ الطَّرِيقِ ، وَهُوَ ، يَمْتَنَحُهَا بَعْضَ الْجُزْرِ وَجِزَاءً مِنْ فَنِيَّةِ لَعْمِ اسْتَطَاعَتِهِ أَنْ يُعْطِيَهَا أُورَسَلِيمَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُجَرِّدَ صَدِيقَهُ هِيرُودُسَ .

غَيْرَ أَنَّ سُوءَ الْخَطِّ يُلِمُّ بِهِ ، فَيَهْزِمُهُ الْقَرطَانِيُّونَ عَلَى حَيْنِ يَنْالُ أُكْتَاثِيُوسَ نَصْرًا بَعْدَ نَصْرٍ ، وَلَنْ يُرْسِلَ هَذَا الْمَنَافِسُ إِلَيْهِ مَدَدًا مَا لَمْ يَتْرَكَ تِلْكَ الْمِصْرِيَّةَ ،

## مزعة أكسيوم

ومن حسن الطالع أن كانت الإمبراطورية الرومانية من الاتساع ما تسترّد معه سُمَمَها بأن تتّوجه ضدّ شعبٍ آخر ، ويُقلب الأُرمُن ، ويُرجعُ إلى الإسكندرية حيث يُعرّض مؤكّبُ النصر أمام كليوباترة التي صارت زوجة أنطونيوس الشرعية أيضاً ، ويبدؤ القائد الروماني والملكة المصرية على دَكَّةٍ فضية واحدة ويجلس أحدهما بجانب الآخر على عرش من الذهب ، وتظهر ابنة الخامسة والثلاثين من عمرها على زِيٍّ إيزس وتنحلّ أشعرَها ، ويظهر على زِيٍّ ديونيزوس ، ويظهر التوأمان فيلادلفيا وسيلينه أمامهما في السنة السادسة من عمرهما ، ويظهر بجانبهما صبيٌ جميلٌ في العاشرة من عمره ، يظهر قيصرُون الذي يُدَكَّرُ بتلك السياحة الزاهية فوق النيل مع قيصر ، ويلبس الأولاد أحذيةً مقدونية ، وذلك لأن الإسكندر ترك هنالك أحد البرابرة منذ ثلاثمئة سنة ، ترك جدَّ عريقهم ، ويُعرض أسرى البرابرة مُقيّدين بسلاسل ذهبية ، وتتأدّى كليوباترة ، على ما يحتمل ، حيناً يُحَيِّونها بوجهٍ عبوسٍ من غير أن يركعوا أمامها ، ويُنصب الأولاد الثلاثة ملوكاً لولايات رومانية .

ويُفني ذلك قطع العلاقات برومة ، ويُمدّد ذلك دليل القتال ، ويتحدّى أكتافوس أنطونيوس ويُقلبُه في أكسيوم أمام كليوباترة ، لا عن خطأٍ اقترفته . كما زُعم ، ولو تمّ النصر لأنطونيوس لصارت مصرُ مركزَ العالم وصارت الإسكندرية عاصمتها ولقد النيل ملك الأنهار ونهر الملوك ، ويعود المغلوبون إلى مصر هادئين ، ويحاول أنطونيوس أن يفاوض قاهره علناً ، ويُرسِل إليه ابنه مع هدايا ، وتُرسل كليوباترة أشيرةً للملكة المصرية إلى أكتافوس سراً ، وترى أن تقوم بلعبها مرةً أخرى .

والواقع أن هذا الروماني الرابع هو روماني أكثر من أسلافه ، فهو لا يريد أن يتلهم ، وهو لا يرى من الكرامة أن يحوز خليفة قيصر ، وإنما كان يفكر في أخذها مقيدةً بسلاسل ضمن موكب نصره برومة ، وذلك عن مقت لقيصرون ، الابن الحقيقي لقيصر ، وذلك لما يبصره من إمكان منازعته إمبراطورية العالم ، وكان يُنورُه الذهبُ والحَبُّ فيجىء مصرَ للبحث عنهما ، ويرفض الذهاب إلى مجرى النيل القوقازي ، ويرفض أن يكون فريسة الواحة المسحورة وفريسة حرّ شمسها وفريسة أساليب نساها السحرية .

وتلقى سُنُّ أكتافيوسُ مراسيها ، وتُنزل الكتابَ الرومانية إلى البر ، ويدكر أنطونيوس أنه روماني ، ويقع على سيفه ، ويؤتى به مُحْتَصراً إلى كليوباترة ، وتختبئ في ضريحها هي وابنتها وماشطها ، ويموت أنطونيوس ، ويحمل سيفه الدامي إلى أكتافيوس ، ويروى أن أكتافيوس سكب دموعاً عند هذا المنظر كما صنع قيصرُ أمام رأس بُونِي ، ويدخل أكتافيوس الإسكندرية ويعفو عن الشعب ، « احتراماً للإسكندر الأكبر وإرضاءً لصديقه الفيلسوف أريُّوس » ، وكان أولَ عملٍ قام به أن جلبَ إليه قيصرون ووعدَه بأن يكون صديقه .

ويزور كليوباترة المريضة المستلقية على سريرها في قصرها بعد بضعة أيام ، فتزني على قدميه عند دخوله وتسلم إليه قائمةً بكنوزها ، ويتهبها أحدُ موظفي البلاط المطلع على الحقيقة بأنها أخفت قسماً منها ، ويضحك أكتافيوس ويبدو مهذباً ويسرُّ من حسن صحتها لاستطاعته أن يأتي بها أسيرةً إلى رومة ، بيد أن هذا الرجل سيقع في شرك خداعها ، وتجرب حظها للمرة الأخيرة ما دامت تنحاز

إلى الغالب في كل وقت ، ويحبط ما سعت إليه ، ولكن مع تمكنها من عدم المراقبة ، وفيما هو يجوب القصر صاعداً نازلاً متمثلاً نصره الآتي إذ تقتل أسيرته نفسها تحت سقف واحد بلذعة حية على ما يحتمل ، فتتوت موتة خليقة بملكة وبخيلة قيصر ، ويمثل قيصرون أمام أكتافوس خاضعاً فيقتله أكتافوس ، وهكذا يقضى في دقيقة واحدة على عرق الإسكندر ودم قيصر .

## ٨

ينال النيل في العهد الروماني أعظم تبجيل في تاريخه ، وتحتظر رومة على جميع الشيوخ والفرسان أن يطلوا أرض مصر ، ويبلغ هذا البلد من عظم الإغراء ما كان يجب معه أن يحرم دخوله على كبار موظفي الإمبراطورية ، وكان العامل في ذلك الحظر الفريد في بابه هو أن الروماني يشعر بأنه سيد العالم إذا ما بدا سيد ذلك النهر الكبير ، وفي ذلك الحين يقف ديودرس أكاليل الثناء على المصريين فيقول إنهم أكثر شعوب العالم عرفاناً بالجيل .

وتصبح مصر ولاية رومانية بعد موت كليوباترة ، وتظل كذلك سبعمئة سنة ، ويكافح الرومان كل شيء يوناني هنالك كما يفعلون في كل مكان ، وتقرب صفاتهم من صفات القراعة فيما يصدر عنهم من الأوامر على الأقل ، ويتصفون كالقراعة بروح النظام والتنظيم والإدارة والبناء .

وكان الرومان يذرون أمر النيل ، أمر هذا النهر الذي يمكن أن يلاحظ ويقاس على البوام ، ومن العناصر عنصر تتوقف فائدته على ذكاء سكان الضفاف وبراعتهم



فيزيد من الخلال ما يذني المصريين من أمريكي الوقت الحاضر ، ومما كان يلائمهم أن تُخفّر قنوات وتنشأ أسداذ وتوضع علامات لوصول الفيضان وأن تُنظّم تقارير وحسابات ، وكان الأباطرة يحملون رجال الكتائب على قياس ارتفاع النهر فيكتب أحدهم إلى عامله بمصر : « بَلَغَ النيل في اليوم العشرين من سبتمبر خمس عشرة ذراعاً وفق تقرير القائد ، وكُنْ سعيداً بأن تُعرف ذلك مني عندما لا تعرفه من أحد » ، ويبيّن هذا الكتاب الذي أرسل من رومة إلى الإسكندرية على دِقَّة الروماني وغلظته المزوجتين بالزهر الإمبراطوري ، ويظهر من هذا الكتاب ما بين الإدارة المدنية والإدارة العسكرية من تمارض يتجلى في هذا الوقت .

وإلى ذلك الزمن يرجع تمثال النيل الذي يُصوّر لنا رجلاً لحيّاًياً مع ستة عشر ولداً رمزاً إلى أذرع الفيضان الـ ١٦ ، كما يدلّ على الروح العملية لدى أولئك الواقعيين أمام ذلك النهر العجيب .

ويقدّو ذلك النهر نهر ذهب ، فينتج نصف ما تحتاج إليه إيطاليا من الحبوب ، فإذا ما وصل الأسطول المصري إليها في شهر يونيه أقيم مهرجان شعبي فيها ، وكان الرومان يمتنون بحماية ذلك البلد عن غيرة ، وكانوا يسكنون « بَنّائين » هنالك ليرقبوا الجداول الصغيرة ويرفعوا الغرين ويصلوا ما بين القنوات ليتمكن المرور من بعض شعب النيل السبع إلى بعض ، وقد عبّدوا طرقاً في الصحراء لعدم قدرتهم على قضاء شهوة إنشاء الطرق كاملة بمصر ، ويوسع تراجان قناة يخلو السويسة فيجعلها صالحة لسيّر السفن التجارية الكبيرة ، ويحدّد مسع الحقل





دوماً ، ويُستعى في زيادة إنتاجها ، ويلجأ كلٌ مديرٍ إلى الزراعة القسرية إرضاءً لإمبراطوره ، وذلك لأن تلك الولاية عُدَّت مُلكاً خاصاً به مقداراً فقذاراً فصار يُنظر إليها ولايةً نموذجية .

وكانت مصر في الوقت نفسه تُعدُّ صندوقاً يستعين به الإمبراطور لمكافأة ذوى الحُظوة لديه ، وكانت حيازة مصر تُقرَّر وراثته التاج غير مرة ، ومع ذلك لم يَزُرْ ضِفاف النيل غير قليلٍ من الأباطرة ، والأباطرة كانوا يعتمدون على خِصْبها من غير أن يتساءلوا عن الشعب الذي يقضى ضروبَ المَشاقِّ في سبيلهم .

ولكن الرومان عادوا لا يَدْفِنون الثَّورَ المقدس كما كان الإسكندر والبطلمة يصنعون ، ولكن الرومان عادوا لا يأذنون للمصريين في الحلف بألقمتهم ، ولكن الرومان أخذوا يَرْتَقِبُونَ الكهَّانَ فصاروا يأخذون نصفَ دخلهم ، فإذا ما سَمَحُوا لهؤلاء بإنشاء معابدٍ على الطراز المصري عُرِضُوا فيها على أنهم خلفاء القراعنة ، وكانوا يعتقدون أنهم يستطيعون أن يحكموا في أقدم الشعوب كما يحْكُمُونَ في الدَّرويد ببريطانية ، وكان الشَّيَاح من الرومان يُنْشِدُونَ أغاني رومة الشعبية في أبواب المعابد القديمة وَيَسْخَرُونَ في هذه المعابد بما هو مقدسٌ من الهريرة والإيس ، وتَشْمَلُ المَوْضِعَ<sup>(١)</sup> آلهة مصر فيبتدعُ هوروسُ قيصراً ، يُبْتَدَعُ محاربٌ رومانيٌّ ذورأسٌ صقريٌّ وتاجٌ شوكيٌّ ، وتنتمى الآلهة المصرية لنفسها ذات يوم بسبب عدم الاحترام ذلك ، فلما مدَّ الأميرُ جِرْمَانِيكُوسُ قطعةً من الحلوى إلى الثَّورِ إيس اثني هذا الحيوان المقدس ووقَفَ هذا الرومانيُّ حيث كان ، ويُسِفِرُ هذا الحادثُ الطفيفُ عن هَيْجَانٍ كبيرٍ في مصرَ فيدلُّ ذلك على درجة ما كان يساورها من توترٍ .

ولم يختلف الأباطرة القليون الذين زاروا مصرَ عن هادريان الذى نَسَتِ المصريين بالحنفَةِ والشرِّ والكسل والثَّلب ، وَيَسْفِكُ كَرًّا كَلًّا الدماء انتقامًا تَجَاهُ أغاني الإسكندريين المِهينة ، وَيَدْعُو المصريين بالأجلاف الغِلَافَ ، وكان ذلك البلدُ يُعَدُّم بالحَبِّ وَيَبْقُرُ الماءَ والتَّماسيح التى كان الجُمهور المُتَجَمِّعُ فى الميدان يَتَلَهَّى باصطراعها ، وَمَرْكُوسُ أَوْرِيُوسُ وحده هو الذى ذهب إلى مصرَ ليتعلم فجلس فى مَجْمَعِ الإسكندرية العلمى عند أقدام أكابر العلماء وناقش لوسيان الذى كان موظفًا بمصرَ ، وَتَجَدَّ النيل بقوله الشرى :

« تلك أرضٌ راضيةٌ عن خَيْرَاتِها ، تلك أرضٌ راضيةٌ عن غيرِ سِلَاحِها ، هى غيرُ مفتقرةٍ إلى جُوبِيتِرٍ ما دام النيلُ محلُّ ثقتها » .

وجعل الرومانُ من ذلك المَجْمَعِ الذى كان أمُّ ما فى ذلك العصر مدرسةً فنيةً عاليةً ، فاخترع هارون فيها أولَ آلَةٍ بَيَّاعَةٍ تُخْرِجُ لك هديةً إذا ما أدخلتَ إليها قطعةً من النقود ، وأنشأ آخرون فيها أولَ عَرَبَةٍ تَسِيرُ بنفسها ، وأولَ آلَةٍ بَخَّارية ، وأولَ مِذْفَعٍ ، وابتَدَعَ الاختزالَ الذى هو سيارَةُ الكاتبِ عالمٌ موهوبٌ فيها ، ويظهر العالمُ الجغرافى بطليموس الذى هو آخرُ من نَبَغَ فى الإسكندرية فعدَّ مكتشفًا لِسِرِّ منابعِ النيل ، والذى هو بقيةُ أكابرِ الباحثين الذين عاشوا هناك ، ما كان ذلك البلدُ وتلك المدينة قبضةَ الأغارقة .

وَعَلَّ الأغارقة سادةً مدةً ثلاثة قرونٍ فى تلك العاصمة الجامعة بين العقل والعاطفة فصاروا يَأْسُقُون على البطلة وعلى أَبْهَرَتهم وإِسْرَافهم وعلى جرائمهم الطريفة ، وكان الأغارقة يُقَطِّبُون تجاه النظام العسكرىَّ وتجاه ما يَرَوْنَه من فُتُورٍ وعدمِ خيالٍ لدى الحسكام الرومان الذين يُبَيِّزُونَ جميعَ المنازلِ بأرقامٍ فيحملونها على نظافةٍ

### سيل ذهب من الدلتا الى رومة

لا تُطاق والذين لا يرغبون في غير أمرٍ واحد ، في غير فَرْزٍ ثروةٍ كافيةٍ يَتَمَكَّنون بها من استنشاق هواء رومةً مُجَدِّدًا ، وتُفَرِّضُ على الأغارقة في تلك الأثناء وظائفٌ خفيةٌ فيحتملون نفاقها ويفتخرون من أجلها ، وما كان قِيَّيْنِ القرون القديمة هؤلاء لِيُطِيقُوا الهواءَ البروسيَّ ، وكان أصحابُ ذلك البلد الحقيقيون محترِّين هنالك مع ذلك ، ويأنُّ ذلك أن المصريين لم يَعدُّوا البطالمة من الفاتحين قطُّ ، وأن هؤلاء البطالمة من ناحيتهم كانوا يَشْتَبُونَ بالمصريين ، وأن الرومان كانوا يَحْسُبُونُ المصريين من الأعداء المغلوبين ، فلما تابعت القرونُ تحولت مشاعرُ المغلوب من حقدٍ إلى بَقْصَاءٍ ، وإذا نظرتُ إلى كثيرٍ من الرسائل والتقارير وجدتُها تُنصُّ على « أن المصريَّ ليس إنسانًا » ، وإذا كان الرومان قد حَظَرُوا على موظفيهم لطويلِ زمنٍ كلَّ زواجٍ باليونانيات فإن حقَّ الوطنيِّ ، وحقَّ الانسحاب إلى الجيش الرومانيِّ أيضًا ، كانا مُحَرَّمَيْنِ على المصريِّ حتى في القرن الثالث ، وكان يحقُّ للرومان وللأغارقة أن يَجْمَعُوا الأولاد الذين تتركهم أمهاتهم على الرُّدُوم وأن يُرَبِّوهم عبيدًا لهم ، وكان يعاقبُ المصريُّ الذي يَجْرُو على إنقاذ ولده رومانيٍّ من الموت جوعًا !

ويجرى سيلُ ذهبٍ من الدلتا إلى رومة في قرون ، وتحوَّلَ أمورُ التجارة هنالك منذ صارت الإسكندرية ، التي هي أكبرُ ميناءٍ تجاريٍّ في العالمِ والتي هي محلُّ مبادلةٍ سلعِ الشرق بأجمعها ، جزءًا من الإمبراطورية الرومانية ، فصار تجارُ الرومان يَحْسُبُون غير ما كان تجارُ اليونان يَحْسُبُون ، فتَجَلَّبُ سفنُهم الأباذير والحجارة الثمينة من الهند وتَجَلَّبُ النساءُ الحريرية من الصين ، وتُدْخِلُ إلى مصرَ خَرَ سوريَّة وخيلها وثيابًا للرومان وجنودهم وتُصدِّرُ منها زجاجًا وبرديًا ونُسجًا ، وحَبًّا على الخصوص ، وتأتي بذلك حتى الرين ، ومن المحتمل أن يكون أغسطسُ

قد قاوم قيام دولة عربية ليحول دون انحطاط الإسكندرية .

وتبلغ الودائع والسفائح<sup>(١)</sup> من التضخم ما لا يرمى مثله قبل وصول الإنكليز ، وترجع فوائد النقود بين ١٦ و ٢٤ فى المئة ، ويأتى للمرة الأولى سيّاح من الرومان للإعجاب بآثار مصر ، وتجهز سفن للسياحة فى شعب النيل ، وتنظم نزهة ليلية مغالاة فى الأجور .

وأكثر الناس بؤساً هو الذى لولاه لظلت الأفراء فارغة ، هو الفلاح ، ويمثل الفلاح على الإغريقية مدة ثلاثة قرون من غير أن يتعلم كلمة يونانية ، والآن يجب عليه أن يصبح لاتينياً ، ويقاوم ذلك بما فطر عليه من غريزة بالغر القوة ، وكانت أمور الجباية الإمبراطورية تسير كما فى عهد القراصة فلم يتفقت منها أحد ، وكان طيبريوس يقرّر مقدار الضريبة التى يجب على مصر أن تدفعها فى العام القادم ، وكان الحكام والمديرون يكلفون بتحصيل ذلك فيأخذون معلوماً فى المئة لأنفسهم ، وتعلم من مذكرات الطلب أن الفلاح كان يدفع تسعة فى المئة فائدة عن ديونه بدلاً من عشرة فى المئة كما فى العهد الفرعونى ، وأن جنود الرومان كانوا يخرجون جملة وحماره ، وثياب أمه المعجوز أيضاً ، وكان يؤخذ رسم عن كل مؤميا ، وكانت تؤخذ ضريبة إضافية عن كل كرمة باسم باخوس ، وكان حديثو النعمة فى ذلك الدور أساتذة فى فن ابتداع الأسماء الجميلة اعتصاراً للشعب .

ومن مقتضيات النظام القرطاسى الرومانى المشهور إكراه الفلاح على التصريح لمدة القرية بعدد المجول التى يؤد أن يأتى بها إلى السوق ، وكان الفلاح يحمل على حفر مقدار معين من الأرض لإنشاء جداول جديدة وحفظ القديم منها فى حال

(١) السفائح : جمع السفجة ، وهى الحوالة اللالية .

جيدة ، فالكاتبُ موجودٌ هناك على الدوام ، وأما الغنيُّ المصريُّ فكان يبتاع من السلطة الرومانية وظيفةً كاهنٍ أو يَكْتَرِي قريةً لِيَجُورَ على الفلاح كما يشاء ، وَيَبْلُغُ سكانُ مصر في العهد الإمبراطوريُّ سبعةَ ملايين ، وما نفعُ الفلاح من جميع ذلك ؟ وَيُؤَلَّفُ الفلاحون تسعين في المئة من الأهليين ، ومع ذلك لم يكن لدى هؤلاء الفلاحين المحكوم عليهم بالعمل والهلاك ما يُحْتَمَلُ به ارتقاؤُهُم إلى حالٍ أعلى مما هم عليه في الوقت الحاضر .

ولم يُسْتَنْ من الضرائب غير أمرٍ واحد : حَقُّ الفلاح في نقلِ مواته إلى ضِفَّةِ النيل اليسرى لِيَدْفِنَهُم في الغرب ، فقد تَرَكَ الرومانُ له حَقَّ الموت !

## ٩

مَلَكَ الفرس والأغارقة والرومان مصرَ سبعةَ قرون بقوة السلاح ، ثم يَتَوَجَّه نحو مجرى النيل الفوقانيُّ ، للمرة الأولى ، أناسٌ عَزَلُ من السيوف والدروع والسِّهَامِ والأقواس ، وذلك على شكلِ زُمَرٍ ومن غير رغبةٍ في بيع الفلاح شيئاً من السِّلَع ، وهم لا يسألونه أجراً على ما يَجْلِبُون إليه ، أجراً على الدين الجديد ، أو المذهب الجديد تقريباً على الأقل ، وكانت الشعوب الأخرى تَبْحَث في مصرَ عن الحبوب وتَدْعُ الآلهة ، فلما جاء أولئك الناس تركوا الحبوب في مصر وأَتَوْها بآله جديد ، وما قَتَلَتْ مصرُ تكون ملجأً للنصارى منذ القرن الثاني .

وكانت الصحراء تجذبهم ، وكانوا يَرِدُون بلداً تكني حُطُوةً فيه للانتقال من ضوء الحياة إلى العزلة ، ومن الشمس والرمل إلى تلك العزلة الكبرى التي لا تشابه سوى عزلة الصحراء والبحر وحقل الجليد ، وإذا عَدَوْتَ العزلة في فُنْدُقٍ



عصرى لم تجد في مكان ما هو أسهل من عيش الناسك في صحارى مصر ، وما كان على يسوع والقدس يوحنا أن يبحثا عنه خارج فلسطين وجده النصرى الحقيقى الأولون على طرف الطريق هنا ، وهم لولا هجرتهم إلى واحات لكانوا قريين دوماً من واحة النيل الكبرى للبحث فيها عن أدنى حدٍ ضرورى للحياة ، وهذا إلى أنك لا ترى زاهداً ظلّ في الدلتا ، وجميع الزهاد توجّهوا إلى الجنوب الغربى ، إلى النيل الأعلى على الخصوص ، وهذا إلى أنك ترى الكثيرين قد رغبوا في استنشاق هواء البلد الذى عاش فيه موسى وعيسى ولیدین .

ويتصرّف الرجل التعب من تقلبات الزمن في جزء من برية يلجأ إليها ، ولا يبقى أولئك الأطهار منزلين في هجرتهم زمناً طويلاً ، وهم يتجمعون في البداة اثنين اثنين ثم يتجمعون زمراً ، ويصبح الناسك راهباً ، ويقوم الدير مقام الكهف ، فلا يمكن بعد ذلك أن يدع الرجل أمره إلى الله وأن يتحدّ به تماماً .

ويذكرنا القديس أنطون في القرن الثالث على أن الذى يتبحث عن الله محكوم عليه ، خلافاً لمقاصده ، بتأليف زمرة وبالتدخل نهائياً في منازعات هذا العالم الذى كان يؤدّ الفرار منه ، وكان ذلك القديس ابناً لفتى في جوارطية ، فلما بلغ العشرين من عمره ترك جميع ماله طالباً نجاهة روحه ، فانزوى في الصحراء خفياً لشهواته في المكان الذى كان الفراعنة يصطادون الأسود والظباء فيه منذ بضعة آلاف سنة ، فإذا ما حلّ وقت المساء بهرتهم ثياب نسائهم الشفافة ، ويبلغ الخامسة والثلاثين من سنه فيشعر بأنه قهر نفسه ويقم بحصن خرب في إحدى الواحات حيث يتمتع بمزلة كاملة في عشرين سنة كما يظهر ، وفي ذلك الحين يصير عليه رجال ضياف من مجي الخير ، ومن الباحثين عن قدوة لهم ، بأن يكون

مُتَلَمِّهِمْ ، فينشئ هذا الزاهد الذي أصبح في السبعين من عمره والذي عاش خمسين عاماً وحيداً مع الرب ، أولَ دَيْر ، فكان أولَ راهب في التاريخ .

إِذَنْ ، يصير أباً للصحراء ناصراً للإيمان والنبى ، ويسافر إلى الإسكندرية في دور من الاضطهاد تَغْيِيباً لقلوب النصارى ، ثم يقول لأصحابه : « تَمُوتُ الأسماء إذا ما أُخْرِجَتْ من الماء ، وَيَقْدِرُ الرهبان كلُّ نشاطٍ إذا ما صاروا في المِصْرِ ، فَلْتَرْجِعْ إلى جبالنا بسرعة » ، وهكذا يعترف هذا الشائبُ الشيط بأن التَّسَكُّ في الصحراء أسهلُّ مما في العاصمة ، وما قيمة ما يمكن الإمبراطورَ قسطنطين أن يَعْزِضَهُ عليه من طَلَبٍ وضِعِّعَ لِيُصَلَّى بعد الآن من أَجْلِ بِرْزَنَةِ ، من أَجْلِ رومة الجديدة ، لامن أَجْلِ رومة القديمة ؟! ومن أروع مظاهر سجيته أن كان يَسْمُو فوق هذه المطالب ، وكان جيلاً طَيِّبَ المزاج عند ما مات في ديره مجاوزاً المئة من العمر .

ومن المحتمل أن كان سَلَفُهُ بُولُسُ المِصْرِيُّ أَكْثَرَ أَقْيَاداً لنداء ضميره ، فهو ، بعد أن عاش تسعين عاماً بجانب يَنْبُوعٍ في الصحراء ، لم يَتْرُكْ حين وفاته غيرَ قيصه الذي أوصى به للقديس أنطون ، وما كان هذا الأخيرُ لِيَلْبَسَهُ في سوى الأعياد الكبرى ، وهو في هذا كفرسان الرومان الذين كانوا يَلْبَسُونَ دُرُوعَهُمَ المُنْتَقَلَةَ إليهم إِرْتِئاً .

والحق أن ذينك الشخصين كانا يُمَثِّلَانِ مبدئين للحياة يَفْصِلَانِ بينهما كما كان يُفْصَلُ فرعونُ عن الفلاح ، وإذا كان القديس أنطون قد وُقِّقَ للتوفيق بينهما فإن ذلك لم يكن ممكناً لدى ألوف الرهبان الذين كانوا في القرن الرابع والقرن الخامس قد تَجَمَّعُوا في أديار مُحَصَّنَةٍ على طول النيل للدفاع عن أنفسهم تجاه الأشرار ، حتى إنهم

يؤلفون مؤمراً سنوياً

أقاموا مُدناً حَقِيقَةً ، حتَّى إنَّه كان يوجَد بالقرب من مكان السويس الحاضر جَمْعُ دَبَرٍ مؤلَّفٍ من عشرة آلاف راهبٍ يَحْرُثُ الأرضَ وَيَكْسِبُ المَالَ وَيُرْتَلِّ في المساء أناشيدَ سَحمِ الرَّبِّ ، وكانت المَثَلاتُ والخليلات يأتين من الإسكندرية ليشاهدنَ ذلك المنظر اللانِسَوِيَّ ، وكان يجتمع في القرن الخامس خمسون ألفَ راهبٍ فيؤلِّفون مؤمراً سنوياً .

والواقع أن الألوْفَ من أولئك كانوا من الفلاحين ، وليس من المحتمل أن ينتحل الرهبانية ملايين الفلاحين مع استمرارهم على زرع حقول أجدادهم ، وقد عانى الفلاحون طائفةً من المَكارِه مُدَّةَ ثلاثة آلاف سنة من عهد الفرعنة ، ومُدَّةَ سبعمئة سنة من السلطان الأجنبيِّ ، وللمرة الأولى يقول أناسٌ من أقوى الأيمان للعبيد المضطَّهدين على ضفاف النيل ما ليس لديهم عنه غيرُ فِكْرِ مُبْهَمٍ ، يقولون لم إن الإنسان في الحياة الآخرة يحاكم على مقياس آخر فتتوقف سلامته على طهارة قلبه ، لا على أجهة ضريحه .

وتُقلَن هذه البُشرى السارةُ بلفظِ الفلاح لأول مرة ، وكان الفلاح كارهاً لا غريبيَّة أنصار الأفلاطونية الجديدة وللأثينية عُبَادٍ جويتر كاييتو لينوس ، أو إن هؤلاء وأولئك كانوا يَبْذُون له ، على الأقلِّ ، غرباء مثل كُهانٍ مصرَ القديمة بلفظهم المُقدَّسة ، وكان الفقريَّة المهاجرين والقديسين من النصرانيِّ الأولين ، وكانوا ، كالنلاح ، يفتنون بِمُخَنَّةٍ من القول والبصل ، وقد عَرَفُوا لَفْظَ الفلاح فصاروا يَرسُمونها بالحروف اليونانية ، وقد استقروا بعيدين من المدن ، وما كان الأغارقة والرومان ليُوغَلُوا كثيراً في تلك المِنطقة الطَّيْبِيَّةِ حيث يُعَلِّم أناسٌ من ذوى الخامسة فريقَ السكرويين أن يَصْبِرُوا على مصيرٍ ليس غيرَ موقَّتٍ بالحقيقة ، ويكتسح

29-17





المذهب الجديد وادى النيل بأسرع مما وى أى مكان آخر من العالم .  
ويظهر كهنه إيزيس عزلاً ، ويمكن الفقراء أن يشعلوا ثورة كالتى وقعت منذ  
ثلاثة آلاف سنة ، ويتصرفون فى الأمر ببراعة فيوجهون الجموع ضد الأجنبي ،  
ويعد الأغاقرق والرومان من عبدة الأصنام للمرة الأولى ، لا من قبل النصارى ، بل  
من قبل أتباع الدور القديم بمصر .

وظاهرة ما بعد ذلك الحين هى اختلاط الأديان ، لا اختلاط الشعوب واللغات  
وحده ، واذهب إلى جزيرة بلاق الصغيرة ، التى يطاق حولها فى نصف ساعة ،  
تر أنه كان يُقام فى وقت واحد من كل يوم بشعائر يسوع وإيزيس ، وينقلب  
معبد الملكة حاتشيسنت المائى إلى مصح يونانى ثم إلى دَيْرٍ نصرانى ، واذهب  
إلى شواطئ بحيرة مريوط تر زمرة يهودية كانت تحتفل فى كل خمسين يوماً بعيد  
مُشتَق من أسطورة الإسكندر حولتها البُدْية ( البوذية ) ، واذهب إلى معبد  
الكرنك تر أنه استعمل كنيّة ، ويجعل النصارى الجدد بأدفو القديس أبولون  
من خليفة هوروس ، وتظهر على الجدر ، التى تحذف إختائون أسلافه منها ، فجاء  
الإسكندر ليخذه منها ، وجوه أناس من ذوى الهوسُ مُجدّوا بأسلوب جديد فقام  
التاج مقام مفتاح الحياة فوق رؤوسهم .

ويستمع الفلاح إلى هؤلاء الرهبان الذين كانوا يسألون الربّ الجديد أن يرفع  
ماء النيل ، ويستمع الفلاح هؤلاء الرهبان الذين كانوا يقولون إن يسوع الإله ذا  
الماله ليس غير أوزيريس المَحَوَّل ، وإنه ليس عليه أن ينزع عنه التيمّة التى  
يَحْمِنُهَا على عنقه ، ومما كتب رَمِيسُ الثانى على الجدر : « سيظل هذا بيت  
الربّ إلى الأبد » ، فكان ذلك ، ولا قيمة للام فى ذلك .

وَيَقْتَبِ الحامسة الأولى تنظيمٌ، وَيَتَحَوَّلُ التمعصون إلى مُبْشِّرِينَ، وَيَبْدُو فوق  
الربان أساقفةً قَتِفَتْ رومة في وجههم، ولا عَجَبٌ، فهؤلاء الناس يَجْرُؤُونَ على  
القول بأن جميع الشعوب متساوية أمام الله فَيَرْفِضُ أُلُوفُ الناس حَمْلَ السلاح في سبيل  
رومة، حتى إن أحد الأديار المُحَصَّنة يُقَدِّمُ على طَرْدِ رسول الإمبراطور خارج أبوابه،  
ويكثرُ الإمبراطورُ من قُوَرِهِ للتورهاين الذي كان محلَّ احتقاره فيما مضى، ويأمرُ  
بتقديم القرايين إلى أكله مصر، وذلك لِمَا يُساوره من غمٍّ بسبب ذلك اليهوديَّ  
الشاذَّ الأطوار الذي قيل إنه صُلِبَ أمام راية الرومان، ومن جهةٍ أخرى يبدأ الرومان،  
بعد أن هَدَمُوا معابد اليهود، بمقت هؤلاء اليهود الذين ما قَتَلُوا يُقَدِّرُونَ صِدْقَهُمْ.  
ومع ذلك يَشُدُّ الاضطهادُ عزائمَ جموع النصارى، ويتنزل أغنياءه من الأغارقة  
عن أموالهم للكنيسة التي قامت بأعمالٍ إصدارٍ كبيرة فأرسلت إلى ما وراء البحر  
ثلاثة عشر مركباً خاصاً بها، ولم يلبث بطرك الإسكندرية أن صار غنياً كالباطلة في  
الماضي، ولم ينفك الناس يَرَوْنَ ظهورَ متهوسين، ومن هؤلاء أفروزينُ الباهرةُ الجلال  
التي هَجَرَتْ زوجها، عن اقتضايح في العاصمة، لتميش في حُجَيْرَةٍ فَتَقْضِي ثمانية وثلاثين  
عاماً في الصلاة، ومن هؤلاء شريفٌ رومانيٌّ شابٌ صديقٌ لمرْكُس أوريليوس  
وحاملٌ لاسم تِيطُس فلافيُّوس قد اعتنق النصرانية وانتحل اسم كليمان فصار يَحْمِلُ على  
لبس الثياب القصيرة التي تَبْدُو منها الرُكْب كما يَحْمِلُ على الذُّيُولِ السابغة<sup>(١)</sup> التي تَكُنُسُ  
الأرض وعلى النسائج الشفافة والجوارب الرقيقة فيفقدو محلَّ حديثِ عُرف الاستقبال.  
ويُعْتَرَفُ بالنصرانية في القرن الرابع فيفوق نصارى مصرَ مضطهديهم عنفاً،  
ويُظْهَرُ من هؤلاء النصارى أناسٌ بَلَّغُوا من التعصب ما يَهْدِمُونَ به المعابدَ

(١) الذيول السابغة : الذيول الوافية الطويلة .

والكتاباتِ والتماثيلِ والصُّورَ الجدارية التي لم يَمَسَّهَا أَىُّ شعبٍ أجنبيٍّ في ألوف السنين ، ويُقتلُ مَنْ يُزَعَمُ أنهم وثنيون بالثلاث ، وتُقطعُ تلميذةُ أفلاطونَ الحسناء ومُعَلِّمَةُ علم الفلك في الجامعة ، هَيْبَاتِيَّة ، إِرَبَا إِرَبَا وتُحَرَّقُ كصنِيعَةِ الشيطان ، ولَمَّا نُهِبَ معبدُ السُّرانيوم من غير أن تنزلَ صاعقةٌ على التَهْدَامِين كان ذلك خاتمةً لأحد وجوه العالم القديم .

وَيَنْبَغُ أَحَدُ حُكَّاءِ الإسكندرية المتأخرين : أَشْكِلِينْيُوسُ بما يأتي :

« يقترب الوقتُ الذي لا يَعْرِفُ فيه أَحَدٌ دِيَانَةَ للصريين ، وسيُهَجَرُ بلدُنَا ؛ وستكون القبور والموتى ، فقط ، شهوداً عليه ، فيا مصرُ ! لن يَبْقَ من مذهبِكَ سوى أساطير لا يُؤْمِنُ بها أَحَدٌ من الأعقاب ، ولن يَبْقَ غيرُ الكلام المنقوش على الحجر والذي يُحَدِّثُ عن قداماء الآلهة . »

## ١٠

يُحَطِّمُ القراعنة على الجُذْرَانِ ، ويعتقن الفلاحون الدينَ الجديدَ فَرَحِين ، والآن يَبْدُو الرَّبُّ أَقْرَبَ إِلَيْهِمْ مما إلى آبائهم ، وذلك لأنه يتكلم المصرية ، وهم سُدَدَاه منذ أَخَذَ الرهبان يَتْلَوْنَ عليهم الإنجيلَ بلهجتهم التي لم تَقْصِرْ عليها لغة الكُهَّان الهيروغليفيَّة الجليلة ، وما كان لِيَزْعِمَهم أن يَرَوْا كتابةً لغتهم بالحروف اليونانية ما داموا يجهلون القراءة ، وقد أَنَاهَم ندلا من بَعِيدٍ فَهَرَّ فَوَادِمُ .

والواقعُ أن رومة عادت لا تَمْلِكُ من القوة ما تعارض به النصرانية ، وكان النصرانيُّ شُبَّانًا والرومانُ شَيْبًا ، ويقترف الرومانُ أعظمَ خطيئَةٍ باعترافهم دينَ



أعدائهم لما ينطوى عليه ذلك من الحكم بهلاك أنفسهم ، لما يؤدي إليه من ترزع سلاحهم وتسليم سيوفهم إلى أولئك الذين قاتلهم ، سيّد أن من المألوف ، حتى في زماننا ، أن ينتحل الورثة ما كلفوه زماناً طويلاً من سياسة ووسائل عمل ، ويصبح الإمبراطورُ أُنْفُفَ رومة المُسَلَّح .

ويسير البرابرة إلى فتح العالم بين ذينك المبدأين ، ويقادر هؤلاء البرابرة ، الذين هم قبائلٌ وحشيةٌ من لابسى جلود الحيوان ، غابات البلوط ، ويرتدى هؤلاء الجرمان ثياب مرتزقة الرومان مع بحثٍ عن مقامراتٍ لحسابهم الخاص فيقرضون أنفسهم على صيفاف النيل بالحديد والنار ، وتجدّ في كتابة مائمية بأذفوقولاً عن الهياطة<sup>(١)</sup> ، الذين « اعتنقوا النصرانية فصاروا دُخْلَاء في كل مكان » ، كما ذهب إليه حديثاً أحد علماء الألمان ، ويهودُ القيوم وبلاق وحدهم هم الذين لم يتعرّض إليهم هؤلاء ، وما حدّث أن امرأة حسنة من صيفاف الرّين ، وقد كانت أمةً فيما مضى ، راققت هؤلاء الويندال وتنبّأت لمصرَ بمستقبل زاهر تحت سلطان الجرمان ! وتتداعى الأسداد والقنّوات تحت أحذية هذه العشاير التي صارت ككنايبُ الرومان المهوبة عاجزة عن وقفيها ، وعادت الناعورة لا تدور ، وأخذ الذهب يقلُّ مقداراً فقذاراً ، وصار عددُ العبيد يزيد ، وبدأ الحبُّ ينقص بين عام وعام ، وأصبح قلّه إلى أوسنيا<sup>(٢)</sup> يتطلب ربع ما كان يجب من السفن ، ويتصرف بضغ أسير كبيرة في الدلتا الخصبة وفي السهول الخضيرة الواقعة عند حدّ الصحراء فتتقف مراكب حَب منافسيها وتسد قنّوات أعدائها ، ويفرّ ألوف من الفلاحين تخلفاً من الضرائب الجائرة المطلقة التي تفرّضها ، ويقطّع هؤلاء الفلاحون السابلة ،

(١) Les Huns — (٢) أوسنيا : ميناء قديم واقع عند مصب نهر التير بإيطالية .

ويؤثِّقون عِصَابَاتٍ مستعِينين بِمِرْزَقَةِ الجِرْمَانِ لِنَهَبِ الأديار وقصور الأغارقة وسلب ما فيها من مالٍ وأنعام .

وتؤدِّي تلك القوضى إلى انهيار مصر ، وتحتاج مصرُ إلى النظام أكثر من أيِّ بلدٍ كان ، ولم يَسْطِمْ جوستينيانُ أن يَسْتَلِ النبل بعده ، ولم يَأُلْ جوستينيانُ جُهداً في نصر النصرانية فَحَمَلَ البدويين والبيلى ، وزنوج جوار دُنُقَلَة أيضاً ، على العِمَاد<sup>(١)</sup> ، وكان هذا قَبْلَ ولادة محمد بزمنٍ قليل ، وما كان من نزاعٍ بين المذاهب وَضَعَفٍ في الحكومة البزنطية فقد اجتذب القُرُوسَ مرةً ثانية فدام احتلالهم العاصمة عشرَ سنين ، ولكن القضاء على تلك القوضى كان يتطلب أمةً ألفت مثل ذلك الإقليم وتعوَّدت شِدَّةَ الحرارة مع عدم عبادة إلهٍ بِلَاعْتَاد ، مع عبادة إلهٍ قويمٍ قائل بالقوة ، ولكن القضاء على تلك القوضى كان يتطلب أمةً جديدةً لم يَقْدِر على استعبادها الآشوريون والفرس والمصريون والبطلة والرومان .

كان أولئك الناس يَحْمِلُونَ عن شِمَالِهِمْ سِوفاً طويلةً ، وكانوا يَحْمِلُونَ عن يَمِينِهِمْ سِوفاً قصيرةً مُحَدَّبةً النَّصْلَ داخلَةً في مَنَاطِقٍ ، وكانوا يَحْمِلُونَ تروساً مُدَوَّرَةً . وكان النَّبَالَةُ منهم يَلْبَسُونَ جواربَ وأحذيةً مستوية ، وكان الفرسانُ منهم يَلْبَسُونَ جِرامِيْقَ وَصُدْرَاتٍ قصيرةً وثلاثةَ أَوْشِحَةٍ مُلَوْنَةٍ ملفوفةٍ حَوْلَ الحِصْرِ والصَّدْرِ والرأس ، ويدْخُلُ العربُ في سنة ٦٤٠ ، أي بعد وفاة محمد بسنين ثمانٍ ، حظيرة التاريخ والذلَّة عن انْطِلَاقٍ دينيٍّ حربيٍّ ، يدخلها أبناء البحر والصحراء هؤلاء ، يَدْخُلُها سكانُ شِبْهِ الجزيرة المجاورة هؤلاء .

(١) العِمَاد : الاسم من عمد الولد : أي غله بما المعصودية ، ومي غسل الصبي وغيره بماه باسم الآب والابن والروح القدس .

ويستولى عمرو بن العاص ، وكان قائداً لجيش الخليفة الثاني عمر ، على ميناء يبلوزة وهليوبوليس ومدن أخرى في الدلتا ، ويقوم عمرو بن العاص ، ويعدّ نشيدهً تَجْدًا لمصر ، بذلك العمل خلافاً لأمر مولاه عمر الذي قدّر عدم كفاية أربعة آلاف فارس لذلك الفتح ، ومن النادر أن تُسفر مثل تلك المخافة عن مثل تلك الفائدة ، ويدوم سلطان العرب هنالك تسعة سنة بفضل تلك اليد القوية .

ويُخيلُ إلى بطرك الإسكندرية وقواد بزنة أنهم لا يواجهون غير أخلاط من الأعراب المتحجج الذين جابوا الصحراء على حين كان العرب الحقيقيون يَفعلُون في سورية وفلسطين ، ويدلّون بذلك على جهلهم عواطف الأقباط ، عواطف فلاحي النصارى ، الذين عدّوا الفاتح الجديد منقذاً فساروا على غرار آبائهم الذين هتفوا لقيصر منذ تسعة سنة وللإسكندر منذ تسعة سنة .

ويُلقي الفاتح حيرة في قلوب البيزنطيين إذ يُخَيِّرُهُم بين اعتناق المصريين دين الإسلام فيغدون إخواناً للمسلمين وبين إعطائهم الجزية ، ويُناقش في الأمر ولا يُوصَل إلى حلٍّ ، ويقترح قيصر بزنة أن يؤخذ بأحد الأمرين الفريين الاثنين هما : أن يعتنق القائد العربي دين النصارى ويتزوج ابنة القيصر أو أن تدوم الحرب ، ويترفض القائد العربي ذلك ، ويعتمد على الشعب فيزحف إلى الإسكندرية ويحاصرها نحو عام ، ويسلم البطرك هذه المدينة التي لم تُعانِ مجاعة ولم تُصبُ بهزيمة ، ويترضى البطرك إعطاء جزية في مقابل حرية شعائر دينه ، وهل سلّم الإسكندرية اجتناباً للملحمة ؟ لم تكن لدى العدو سفن ، وكان يمكنه أن يَفكَّ الحصار عن الإسكندرية مستعيناً بأسطول القسطنطينية ، وهل كان ماكرًا

أو جيانا ، أو متديناً فقط ، فضحى بالإسكندرية إخاذاً الإيمان ؟ ويرزى أنه مات  
بعد زمنٍ قليل مُعَذَّب الضمير شاهداً على صرامة الفاتحين . ويتوجّه الأسطول  
إلى بزنطة مقهوراً ، وتلوح عودته خاتمة قصّة محزنة أكثر من أن تلوح خاتمة  
احتلال قرنين . وتقوم بزنطة بآخر محاولة لاسترداد الإسكندرية فتجد جميع مصر  
مكاشفة لها بجانب سادتها الجدد ، وتهدم أسوار الإسكندرية بعد أن ظلت عاصمة  
الدنيا ثلاثة قرون ثم عاصمة مصر وأهم مرفأ البحر المتوسط ستة قرون ، ويبذو  
جميع نصارى مصر أنصاراً شديدي الحمية للعرب الفاتحين الذين طردوا السادة من  
الأجانب فتركوا للأقباط الابن الذى هو من جوهر الآب ، ولم يكره هوم على عبادة  
إله واحد ليس ذلك الابن من جوهره .

وُبنى حصنٌ جديد ، بُنى السطاط بالقرب من منفىس وعلى رأس الدلتا ،  
ويُنقل نحو الشمال نقلاً خفيفاً فى غضون القرون الآتية ، ويندو عاصمة مصر ،  
ويطلق العرب عليه اسم إحدى السيارات مارس التى مرّت فى ساعات إنشائه  
الأولى من دائرة نصف نهاره فيدعونه « القاهرة » .

## ١١

يُنزلُ غبارٌ كثيفٌ من الشمال الشرقى إلى القاهرة ، وهذه هى طريق الصحراء  
الكبرى ، وهى تسوق إلى العاصمة كل من يصل من سورية ، سواء من ناحية  
دمياط أو على طول القناة القديمة الآتية من البحر الأحمر ، ويتجمعُ الجمهور أمام  
أسوار المدينة سائراً بسرعة من جميع القرى المجاورة ، فسيحتفل غداً بوفاء النيل ،

وترانا في ١٥ من أغسطس سنة ١٣٩٥ ، والوقتُ بعدَ الظهر ، ويَحْسَبُ الفارسُ السنةَ وَفَقَّ التاريخَ المِجَرِّيَّ ، فيقول إنها سنة ٧٧٣ .

وذلك الفارسُ غريبُ عنا ، وذلك الفارسُ تركيُّ حارب تحت إمرةَ بَرْقُوقَ من غير أن ينال مرتبةً أو أن يَحُوزَ صِيتاً ، ولكن بمثلِ شجاعة من ساعدهم الخطُّ فَنَدُّوا من عِظاء التاريخ ، ومن المحتمل أن سَلَبَ مُغُولِيَّ من قَتَلَى جيشَ تيمورلنك في معركةٍ دارت رَحَاها في تلك السنوات ، ولَمَّا يَمَضِ كَبِيرُ زَمَنٍ على عَوْدَةِ القائد الذي يَدْفَعُ إليه أَجْرَهُ ، على عَوْدَةِ بَرْقُوقَ إلى القاهرة منصوراً ، و بَرْقُوقُ هذا كان مملوكاً شريكياً قَبَضَ على زمام السلطة مرتين عن جسارةٍ وحيلةٍ ومَثَلِ دَوْرَ سلطانٍ مصريٍّ في سَوْرَةٍ من الجُهد والإجرام ، وَيَتَبَعَ ذلك الفارسُ بَرْقُوقَ في مخاطره ومغامراته طمعاً في مشاهدة تلك المدينة المشهورة الزاهرة منذ قرونٍ كثيرة ، وَيَعْرِضُ مِضْيَافَ شَرِيفٍ على ذلك الفارسِ التركيُّ أن يكون نزيله ، وقد يقضى شهراً هنا ، وقد يقضى جميعَ حياته هنا إذا أراد الله ذلك .

وليس السفر شاقاً ، فطريقُ الصحراءِ مُوسَّاةٌ بسلسلةٍ من الفنادق العامة التي يَجِدُ فيها الصُّجَّاجُ والبُرْدُ والمهاجرون والمسافرون ما يحتاجون إليه هم وجمالهم من الماء والطعام ، وذلك لأن الفاطميين وخلفاءهم أنشأوا لِسَعَاتِهِمْ وكتائبهم طريقاً بين مصرَ والشامِ بَلَّغَتْ من الجُودَةِ ، ومرابطٌ بَلَّغَتْ من حسن النظام ، ما كان البريد يَتَقَطَّعُ معه ما بين القاهرةَ ودمشقَ في أربعة أيام .

وَيَشُقُّ ذلك الفارسُ طريقاً لنفسه بين الفُبارِ والحرِّ وبين أصوات الإنسان والحيوان فيزيده إسراره تعباً ، ويرافقه عبدٌ واحدٌ فقط ، يرافقه سائسُ فرسه ، ولا يستطيع الناظر من بعيد أن يُمَيِّزَ أحدَ الرجلين الأعفرين من الآخر ، ويُصِيرُ

الناظر من قريب أن أحدهما راكبٌ جواداً أصيلاً حاملٌ سلاحاً أحسنَ مما لدى الآخر .

والآن يُبصرُ الفارس من خلال الهواء المهتزِّ حرارةً سوراً أصفرَ عالياً مع عِدَّةِ أبراجٍ بارزة بين زُرْقَةِ السماء ، ولكن أين القلعة ؟ ولكن أين القباب والمآذن ؟ ولكن أين النيلُ الذي حَدَّثَ عنه كثيراً ولم يَرَ غيرَ شُعْبٍ هزيلة وتُرُجٍ ضيقة له ؟ هو لم يشاهد حتى الآن ما يختلف عما رآه في آسية .

وتَدْنُو الدهماء من باب النصر ذى الأبراج المربعة المدورة قليلاً نحو الخارج فتبدو هذه الأبراج أقربَ إلى الوعيد مما إلى الترحيب ، ويَصْرُخُ الصرافون والكَاسون ورجالُ الشرطة بين الغبار وتدافع الناس ، وتَلَمَّحُ تحت الأقواس العريية ، وفي الكوآت ، سيوفٌ وحِرابٌ ، فما حَدَّثَ غيرَ مرةً أن أسفر الهجومُ المفاجئ على أحد تلك الأبواب عن تقريرٍ مصيرِ أسرةٍ مالكةٍ بأشرها ، ويسرُّ الشياح ، فهناك ظلُّ ! والشياح يَفْرَحون بتلك الدقائق القليلة التي يَقْضُونها في حِمَى من النور بين تلك الحجارة العظيمة الحامية ، بين الآتين والمتنظرين ، بين نَنِّ العرق والنسيم المحرق ، بين دَنَسِ الإبل ، والشياحُ يَشْعُرُونَ بمثل بهجة كلِّ مَنْ يَجُوبُ الصحراء ، وذلك لما يَرَوْنَ أَنْفُسَهُمْ مُحاطِينَ بِجُدُرٍ تَقِيهِمُ تلك الشمسَ اللعينة .

ويَلُوحُ كلُّ شيءٍ تحت قُبَّةٍ ، وتَبْدُو الطريقُ المؤدِّيَّةُ إلى الباب ضيقةً بكجميع طُرُقِ الشرق ، وتُسْتَقَفُ الشُرَفَاتُ نَيْلاً لظِلِّه كاملٍ ، وتَمُدُّ البُسْطُ والنَّسُجُ بين صَفِّهِ وَصَفِّهِ من المنازل فلا يَرَى القادمُ غيرَ الظلِّ بين الجُدُرِ ان العالية ، غيرَ ضياءٍ بخاريٍّ قائمٍ مُتَمَيِّزٌ به السُّطُور ، وفي الغالب يَتَقَبَّحُ القادمُ ما يراه بما يَصْدُقُ من صوتٍ وما يَلْبِثُ من رائحةٍ

وَيَبْلُغُ الفارس غايةَ رِخلته ، وَيَشْعُرُ بنشاطٍ مُجَدَّد ، وَيَوَدُّ أَنْ يُنَلِّقَ نَفْطَةً على المدينة من فَوْزِهِ مع تَطَلُّعِ مملوكه إلى المنزل الذي يَكْسُلُ فيه كما يريد ، ويحاول غلامٌ أَنْ يَجْتَذِبَهُ بصوته العالي إلى أحد الفنادق ، وما زال مجهولاً أَمْرُ القهوة والتَّبْع الذين هما من أعظم النِّعم لدى الشرقي في الوقت الحاضر ، والحرُّ من المحرِّمات ، وَيَحْلِسُ الفارس على وِسَادَةٍ أمام الباب وينتظر صابراً ، ثم يَأْتِيهِ غلامٌ ناعسٌ بشرابٍ من عسل أو بقصبٍ سكرٍ أو بِشَّامٍ أو بِتَمَرٍ ، ثم يَحْضُرُ ثلاثة سقَّانين حاملين على أكتافهم قِرْباً جلدية تَرَشِّحُ ماءً على ثيابهم البالية فيَعْرِضُونَ عليه أَنْ يقوموا بواجب خدمته ، وَيَذْنُبُونَهُ أناسٌ مختلفو العمر ، فَيَمْدُ أَحَدُهُمْ إِلَيْهِ ذِرَاعَهُ المقطوعة اليد ( لاحتمال كونه سارقاً أُقِيمَ عليه الحدُّ ) ، وَيُريهِ أَعْرَجُ ساقَهُ البترَاء وعَقَلَهُ من الرَّجُل ، وَيُرْسِلُ الجميع بصوتٍ أَغْنَى : « حَدا لمن ألقى الرحمة في قلوب العباد ، تَصَدِّقْ علينا بما يُنْصِبُكَ رَمَقَنَا » ، وَيَطْرُدُّهم رقيقُ القندُق إلى الشارع صارخاً : « يا أولاد الكلب ! يا أولاد المرأة ! » ، وفيما يَقْزِلُ<sup>(١)</sup> الأعرجُ إِذْ يلتقط كِسْرَةَ خَبْزٍ يابسةً ، وَيَضَعُها على جبينه قبل أَنْ يَأْكُلَهَا ، ثم يفتتح وضعَ وَلِيٍّ .

وتتقدم طبولٌ ومزاميرٌ مَوْكِباً نازلاً من الطريق الضيقة ، ويتظاهر المجهور بالسير مع الموسيقين ، وَيَتَمَتَّعُ أمامهم صبيانٌ للتَّسَوُّلِ أو لوقف النظر ، وَيُخْرِجُ الناس من حوائثهم المُعْرِضَةَ لكلِّ رِيحٍ كما يخرجون من كلِّ قاعةٍ ليشاهدوا مَوْكِبَ العُرْسِ ، حتى النساءُ يَنْظُرْنَ إِلَيْهِ من وراء شبائيكهن الخشبية ، والنساء ، مع أنهن يَلْفَنَ ذكري زوجهن في الغالب أكثر من أن يباركنها ، يَهْزُهُنَّ ذَلِكَ لِلْمَوْكِبِ ،

(١) قول: مشى مشية الأعرج .

## الأزهر

لَمَّا بَثِرَ مَنْظَرُ العروس من صورةٍ ضَحِيَّةٍ ومن خيالٍ حافلٍ بالأمرار ، وإليك  
 جَمْعاً يَشُقُّ طَرِيقَهُ بَيْنَ تِلْكَ الْجُلُوءَةِ والعروس ، إليك أَناساً مع حِصَانٍ مُسْتَأْجَرٍ  
 لِيَقُودَ وَلَدَيْنِ إِلَى الْخِلْتَانِ ، وَيَقْطُرَ الْوِلْدَانِ عَلَى الْحِصَانِ فَيُمْسِكُ أَحَدُهُمَا السَّرِجَ  
 وَيَتَشَبَّثُ الْآخَرُ بِأَيْهِ حَشِيَّةٍ أَنْ يَذْهَبَا غِمَّةً أَيْضاً ، وَيَلْبَسَانِ ثِيَابَ بَنَاتٍ ذَفْعاً  
 لِلْعَيْنِ الشَّرِيرةِ ، وَإِنْ كَانَ هَذَا التَّنَكُّرُ مِنَ الْأُمُورِ الْمَعْرُوفَةِ الَّتِي تَتِمُّ عَلَى حَقِيقَةِ  
 الْجِنْسِ ، وَيَتِمُّ مَسَاعِدُ الْخِلَاقِ أَمَامَ الْحِصَانِ الْحَاطِ بِجَمْعٍ مِنَ الْأَقْرَبَاءِ وَالْأَصْدِقَاءِ ،  
 وَيَلْبَسُ مَسَاعِدُ الْخِلَاقِ هَذَا ثَوْباً مُلَوَّناً وَيُمْسِكُ بِيَدِهِ صُنْدُوقاً صَغِيراً مَحْفُوراً مُزَيَّناً  
 بِمَرَايَا ، وَيَهْزُ الْخِلَاقُ اللَّابِسُ ثَوْباً أَيْضاً سَكِينَةً سَاخِراً كَأَنَّهُ يُحَوِّلُ مِهْنَتَهُ إِلَى  
 مَهْزَاةٍ ، ثُمَّ يَسْتَمِرُّ مَوْكِبُ الْعُرْسِ عَلَى سَبِيلِهِ ، وَتَشَعُّرُ الْعُرُوسُ فِي هَوْدَجِهَا الْمَحْمُولِ  
 عَلَى جَهْلِيٍّ بَنَمٍّ كَالَّذِي يَشَعُرُ بِهِ ذَانِكَ الصَّبِيَّانِ ، وَمَعَ ذَلِكَ تَلْقَى الْعُرُوسُ تَشْجِيعاً  
 مِنْ صَدِيقَاتِهَا ، وَمَعَ ذَلِكَ يَهْتَفِ لَهَا الْحُضُورُ ، فَيَكْتَسِبُ هَذَا الْمَنْظَرُ صُورَةَ مَأْسَاةٍ  
 مَمْزُوجَةٍ بِهِزَلٍ .

وَيَخْلُو الطَّرِيقَ ، وَيَتَبُّ الْفَارِسَ عَلَى حِصَانٍ بَعْدَ رَاحَةٍ ، وَيَرَى مِنْ خِلَالِ بَاحَةِ  
 بُرْجَيْنِ عَالِيَيْنِ ، وَيَسْأَلُ فَيَقَالُ لَهُ : إِنَّ ذَلِكَ هُوَ « الْأَزْهَرُ » ، وَيَكْثُرُ لِلْأَمْرِ كَثِيراً  
 وَيَقِفُ أَمَامَ أَقْدَمِ جَامِعَةِ إِسْلَامِيَّةٍ سَمِيعَ جَمِيعِ الشَّرْقِ حَدِيثاً عَنْهَا ، وَلَا يَدُلُّ مَظْهَرُهَا  
 عَلَى أَنَّهَا بِالْعَمَلِ مِنَ الْعُمَرَاءِ بِعَامَّةٍ عَامٍ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ بِنَاءَهَا جُدِّدَ مِنْذُ مِائَةِ سَنَةٍ نَتِيجَةً  
 لِلْحَرِيقِ الْكَبِيرِ ، وَيُعْجَبُ الْفَارِسُ بَارْتِفَاعِ الْمَآذِنِ وَيَخْلَعُ نَمَلَتِيهِ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ الْجَمَاعَ  
 الْأَزْهَرِ ، وَذَلِكَ فِي الرُّوَاقِ الَّتِي يَجْلِسُ فِيهِ بَعْضُ الطُّلَبَةِ عَلَى كُرَاسٍ قَصِيرَةٍ مُنْتَظِرِينَ  
 نَوَابَةَ خَلْقِ رُؤُوسِهِمْ ، وَيُوسِّمُ كُلُّ مَا يُعَلِّمُ فِي الْأَزْهَرِ ، مِنَ الْفَقْهِ وَالْبَيَانِ وَالْقِيَّامِ  
 وَالْجَبْرِ وَالْعُرُوضِ ، بِسَيِّمَةِ الدِّينِ كَمَا فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الَّتِي يَشْتَغِلُ أَمُّ قَسَمٍ مِنَ التَّعْلِيمِ .



ومن الفقراء أولئك الذين يسبغون في الزواق الكبير حول الحوض ، وأولئك الذين يجلسون القرفصاء ويضطجعون ، وأولئك الذين يذرمسون ويثرون وينامون ، وأولئك الذين يمنون بالأمور الدنية فلا يزالون يعيش ولا بمستقبل ، وتبصر عشرين أو أكثر منهم جالسين على حصير حول أستاذهم مستندين إلى عمود ، ويُفسر الأستاذ بصوتٍ تغطي آية من القرآن التي يُقضى بدراسته أكثر من العناية بالتوراة والإنجيل وكل كتاب آخر في العالم لما ينطوى عليه من مبادئ الحياة في الدنيا والآخرة ، وتبلغ الغاية في تلك الدراسة الخاصة بالقرآن وحده والتي تدوم عشر سنين في بعض الأحيان ، ومن يحفظ القرآن بأجمعه على ظهر القلب ويُقدِر على تفسيره يؤذن له في تعليمه ، أجل ، يُقضى التلاميذ أياماً في البطالة ، ولكنهم من الحاضرين ، والسلطان يُطعم الأساتيد والتلاميذ ، ولا يُضبط أحد منهم . ويُسمع ضجيج كبير في زاوية مظلمة من الزواق ، ويسمع الفارس شتائم وأصوات مضاربة بالعصى ويهرع الفارس إلى مكان الضوضاء فيرى رجالاً يقاتلون الهواء كالحجائن ، يرى تلاميذ من الثمانيان ، والعميان لا يُبصرون النور الخارجي ولا يرون غير ما هو فيهم ، والعميان أسرع انفعالاً وأكثر تشاجراً من رفقائهم البُصرين لهذا السبب ، ويسمعون صوت منادٍ ، فالشيخ يمر ويقف تنازعهم ، ويتوجهون إلى الزواق مُتلتسين ، ويمرّجون على غير هدى كالحفايش ، ويؤتى بهم إلى أستاذهم في نهاية الأمر ، ويمسكون يده ويُقبلونها مرتجفين .

يمشى الفارس فى الأسواق المجاورة للأزهر ، وسوق المكتبات هى أول ما يدخل ، وينشأ جوٌّ ثَقِيلٌ أعْفَرُ نَسِيْتُ عن تزامم الإنسان والحيوان والسَّلْع فى هذه الطرق الضيقة ، وتتحاتكُ الجمالُ الراشحةُ عَرَقًا والحيرُ الناهقة ، ويظَهَرُ أن الناس والأشياء يعيشان منذ قرونٍ فى عالمٍ واحدٍ من الجود والقدارة ، والحريقُ وحده هو الذى تَنَفَّسَ كلُّ شَيْءٍ بهدمه كلُّ شَيْءٍ ، وذلك التاجرُ ينام على ماله كَتَيْنِ الأسطورة ، وما يَصْدُرُ عن وعاء نحاسيٍّ أو نسيج حريريٍّ من لَعَنَةٍ فَأَقْوَى من نَفْثَةِ حُرَّاسِهَا الشَّيْب ، ولا يكثرُ الفارس للمصاحف القديمة المكتوبة بالخط الكوفي ، وتجذبهُ الأسلحة ، ويتوسَّلُ إليه الباعةُ فيجلسُ على وسادة أمام حانوتٍ ضيق ، ويروِّزُ قوسًا مرصعة بزجاج<sup>(١)</sup> كبيرة ، ويُفَكِّرُ فى قَتْلِ المَؤُولِ أو الراقصات الجليات على ما يحتمل ، ولا يرى أن يشتري ، ويسيرُ ماشيًا تاركًا مملوكه يُمسكُ الحصان بيده ، ويُقدِّمُ تاجرٌ إليه عمامةً وقيسها ليُريه أنها أطولُ من رأسه سبع مراتٍ وأنها تصلحُ كفناً له ذات يوم إذا ما أراد الله ، وَيَقِفُ طَبَقٌ كبيرٌ من عقيقٍ نظرَ الفارس الغريب أكثرَ مما تقدَّم ، ويبدو هذا الطَّبَقُ أثرًا فنيًا ذا تسعة عشرَ وجهًا فتلمعُ بجانبه مصاييحٌ من بلورٍ ومقايضُ أبوابٍ من برونز ، وفيما هو أبعدُ من ذلك تُرى صُدرَاتٌ مُحَطَّطَةٌ من حريرٍ ومعاطفٌ ذاتُ خيوطٍ من ذهبٍ يُخرِجُها البائعُ التَّعَبُ من رَزَمِها كما يُخرِجُ اللهُ الطائرَ للمسحور الذى ذكرته القصة .

(١) الزبازج : جم الزبرجد ، وهو حجر كريم يشبه الزمرد ، أشهره الأخضر .

وَيُسْمَعُ بَشَّةٌ صَوْتُ مِنْ أَصْفَرِ الْحَوَانِيَتِ ، وَتَسْلُطُ مِنْ هَذَا الْحَوَانُوتِ الصَّغِيرِ  
 الرَّائِحَةُ عِطْرٌ فَلَا يَسْمَعُ الْفَارِسَ سَوَى دُخُولِهِ ، وَيَرْفَعُ سَاحِرُ الْعَطُورِ زَجَاجَةً وَأُخْرَى  
 مِنْ رُفُوفٍ صَغِيرَةٍ شَابَتْ بَيْنَهَا ، وَيُمَسِّكُهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَلْتَفِتَ ، وَيَجْتَذِبُ إِلَيْهِ يَدَ  
 الْغَرِيبِ الْغَلِيظَةَ ، وَيَضَعُ صِمَامَةً عَلَى رَاحَتِهِ وَيَدْعُهُ بِسْمٍ ، وَهَذَا هُوَ شَذَا  
 الْيَاسْمِينِ ، فَشَذَا الْعَنْبَرِ وَالطَّيِّبِ ، قَرِيًّا<sup>(١)</sup> الْقَرَنُفُلُ ، ثُمَّ يُرِيهِ الْمَسَاحِقَ وَالْمَتَبَكَّرَاتِ  
 مِنْ مِسْكِ وَمُرٍّ<sup>(٢)</sup> وَلُبَّانٍ ، وَيَنْضِلُ الْفَارِسُ بِخِيَالِهِ إِلَى أَمَةٍ تَنْتَظِرُهُ فِي مَنْزِلِهِ فَيَزِيدُهَا  
 عِطْرًا مِنْ مَصْرِ الْبَهْدَةِ فُتُونًا ، وَيُبْصِرُ الشَّائِبُ مَا يَدُورُ فِي خَلْدِ هَذَا الْحَارِبِ  
 وَمَا يَتَنَوَّرُهُ هَذَا السَّلْمُ الْحَقِيقِيُّ مِنْ مَاضٍ بَعِيدٍ حَوْلَ لَيَالٍ عِلِمٍ فِيهَا أَنْ الْعَطُورِ  
 تُولَدُ الْحُبُّ .

وَيَدَاوِمُ الْفَارِسُ عَلَى سَيْرِهِ فَيُبْصِرُ أَذْرَعًا مُتَمَرِّدًا تَرْفَعُ آتِيَةً نُحَاسِيَّةً لَامِعَةً مِنْ  
 صُنْعِ بَلْغَارِيَّةٍ ، وَيُبْصِرُ حَرِيرًا مِنْ صُنْعِ أَرْمِينِيَّةٍ يُنْشَرِّينَ يَدَيَّ شَائِبٍ تَعِبٍ ،  
 وَيُبْصِرُ نَسِيجًا مِنْ فَلَانْدِرٍ يُنْشَخِشُ بَيْنَ أَصَابِعِ غَلَامٍ أَيْضًا اللَّوْنُ جُلِبَ فِي  
 السَّكِينَةِ نَفْسَهَا عَلَى مَا يَحْتَمِلُ ، وَيُبْصِرُ خَلْفَ الزَّجَاجِ اللَّامِعِ الْوَاردِ مِنْ قَبْرِسِ امْرَأَةٍ  
 مُبَرِّقَةٍ تَتَّبَعُهُ بَعِينِيهَا .

وَيَصِلُ الْفَارِسُ إِلَى الشَّارِعِ الرَّئِيسِ فِي نَهَايَةِ الْأَمْرِ ، وَيَقَالُ بِصَوْتٍ عَالٍ :  
 مَنْ يُرِيدُ مَاءً ؟ وَفِي كُلِّ مَكَانٍ أَنْشِثَتْ عَيُونٌ عَنْ تَقْوَى وَتَوْبَةٍ ، وَذَلِكَ أَنَّ مُحَمَّدًا  
 سُئِلَ عَنْ خَيْرِ الْأَعْمَالِ فَقَالَ ابْنُ الصَّحْرَاءِ هَذَا بِتَوْزِيعِ الْمَاءِ بَيْنَ النَّاسِ .

وَتَكْثُرُ الْمَسَاجِدُ وَالْمَدَارِسُ فِي هَذَا الْحَيِّ ، وَتُقِيمُ بَرْقُوقُ ، الَّذِي صَارَ سُلْطَانًا

(١) الرِّبَا : الرَّائِحَةُ الطَّيِّبَةُ — (٢) الْمُرُّ : الْمَرُّ : مَائِعٌ يَسِيلُ مِنْ شَجَرَةٍ فَيَجْمَدُ ، وَهُوَ طَلِبُ الرَّائِحَةِ

في ذلك الحين ، بناءً فيجعله ضريحاً له ، ويُفَضَّلُ بَرَقُوقُ أَنْ يُمَيِّتَ الآخَرِينَ فِي  
الزمن الراهن ، وترى في بناء آخر ، أقامه السلطان قلاوون منذ قرن ، رَتاجاً<sup>(١)</sup>  
مصنوعاً من رُحَامٍ أَسْوَدَ وَأَبْيَضَ فَيُؤَدَّى هَذَا الرَتَاجُ إِلَى قَبْرِ تَعْلُوهُ قَبَةُ ذَاتُ  
كِتَابَاتٍ صَدْفِيَّةٍ فَتُلَمَعُ هَذِهِ الْكِتَابَاتُ فِي الظِّلِّ كَمَا تَلَمَعُ أَعْمَدَةُ الْمِغْرَابِ الشَّمَاوِيَّةِ .  
وتنتصب جُدُرُ القلعة فوق الفارس الغربي في نهاية الأمر ، ويحاول الفارس أن  
يُفِذَ فِي السَّيْرِ فَلَمْ يَسْتَطِعْ مِنْ شِدَّةِ الرُّحَامِ ، وَيَقِفُهُ بِنَاءُ مَهْمٌ مَرَّةً أُخْرَى ، وَلَمْ يَحْدُثْ  
أَنْ رَأَى حِجَارَةً مَنقُوشَةً صَخْمَةً كَالَّتِي وَجَدَهَا فِيهِ ، وَهَذَا هُوَ مَسْجِدُ السُّلْطَانِ حَسَنِ  
الَّذِي نَشَأَ عَنْ قَتْلِهِ جُلُوسُ السُّلْطَانِ الْحَاضِرِ عَلَى الْعَرْشِ ، وَيَبْرُزُ الْجِدَارُ فِي السَّمَاءِ  
الزُرْقَاءَ مَقْسُوماً إِلَى خَمْسِ عَصَائِبَ صُفْرِ ضَارِبَةٍ إِلَى لَوْنٍ بَنَفْسَجِيٍّ ، وَتَظْهَرُ أَبْوَابُ  
وَأَقْوَاسُ مِضَاعِفَةٍ وَطَاقَاتُ ثَلَاثِيَّةٍ مُزَخْرَفَةٍ مَصْنُوعَةٍ مِنْ مِلَاطٍ وَاقِعَةٍ بَيْنَ وَرْدَةٍ  
جَمِيلَةٍ ، وَيَتَعَبُ الْبَصَرُ بِالْمُتَدَلِّياتِ فِي الْخَارِجِ ، وَيَقْرَأُ الْبَصَرُ بِهَا فِي الْدَاخِلِ ، وَذَلِكَ  
لَأَنَّكَ تَرَى فِي وَسْطِ سَاحَةِ وَاسِعَةٍ مَرْبُوعَةٍ مُبْلَطَةٍ بِالرُّحَامِ بَرْكَهَ كَبِيرَةٍ يَفْسِلُ  
أَنَاسٌ كَثِيرُونَ أَرْجُلَهُمْ فِيهَا ، وَمَا عَلَيْهِ الْمُصَلِّيَّاتُ الْجَانِبِيَّةُ مِنْ تَنَاسُقٍ وَمَا عَلَيْهِ  
الْبِنَاءُ مِنْ أَصَادٍ وَاسِعَةٍ فَيُلْقِي السَّكِينَةَ فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ ، وَمَا عَلَى الْجُدُرِ مِنْ شَرْفٍ  
فَيَطْمِئِنُّ لَهُ الْجُنْدِيُّ ، وَإِذَا مَا رَقَعَ الْفَارِسُ بَصَرَهُ وَأَبْصَرَ الْجِدَارَ عُمُودِيًّا رَأَى أَعْلَى  
أَبْرَاجِ الْقَاهِرَةِ ، وَإِذَا مَا خَفَضَ الْفَارِسُ بَصَرَهُ أَبْصَرَ عَلَى طُولِ الْأَقْوَاسِ الْعَرِيَةِ  
سُلَاسِلَ حَدِيدِيَّةٍ تُتَمَلَّقُ الْمَصَائِيحُ بِهَا لَتَضُوءاً لَيْلاً فِي أَوَّلِ الْعِيدِ ، وَيَدُلُّ الْكُرْسِيُّ  
الثَّابِتُ مِنَ الْمِنْبَرِ إِلَى الْوَرَاءِ عَلَى الرُّوحِ الَّتِي تُوجِّهُ جَمِيعَ ذَلِكَ ، كَمَا تَدُلُّ عَلَيْهَا الْآيَةُ  
الْقُرْآنِيَّةُ الْبَارِزَةُ بِحُرُوفِهَا الْبَيْضِ حَوْلَ أَعْلَى جِدَارِ السَّاحَةِ الْأَسْمَرِ ، وَيَتَظَارَدُ

(١) الرتاج : الباب العظيم .

الْحَمَامُ تَحْتَ سَمَاءِ اللَّهِ حَتَّى يَظْهَرَ هُورُوسَ ، حَتَّى يَظْهَرَ الصَّقَرُ الْأَكْبَرُ ، فَيَطْرُدُ  
الْحَمَامَ جَمِيعًا .

وَيَرْكَبُ الْفَارَسَ حِصَانَهُ وَيَبْلُغُ بَابَ الْقَلْعَةِ الْمَائِلِ وَيَدْخُلُ مِنْهُ ، وَتَسْتَنْدُ قُدْرَةُ  
الْإِسْلَامِ مِنْذُ قُرُونٍ إِلَى هَذِهِ الْأَسْوَارِ وَالْأَبْرَاجِ الَّتِي مَا فَتَى يُبَدِّلُهَا وَيُقَوِّمُهَا بَيْنَ جَيْلٍ  
وَجَيْلٍ كَمَا تَقْدَمُ فَنُ الْحِصَارِ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ تَلَالَ جَبَلِ الْمُقَطَّمِ تُشْرِفُ عَلَى الْقَلْعَةِ  
وَتَهْدِّدُهَا ، وَتُكَذِّفُ<sup>(١)</sup> الْخَيْلَ فِي السَّاحَةِ وَتَضِلُّ ، وَيُمْسِكُ الصَّيْدَ بِرُكْبِ الْأَمْوَاءِ  
لِلتَّكْبِيرِ مِنَ اللَّابِسِينَ مَعَاظِفَ مَلَوْنَةً ، وَيَضْرِبُهُمْ هَوْلَاءُ الْأَمْوَاءِ عَلَى ظُهُورِهِم بِالسَّيَاطِ  
إِذَا لَمْ يُبَدُّوا نَشَاطًا كَافِيًا .

وَيَهْرَجُ مِثَّةٌ مِنَ الرِّجَالِ لِحَظِّ سُلْعَةٍ غَرِيبَةٍ عَنِ الْجِبَالِ تَسِيلُ قَطْرَةً قَطْرَةً مِنْ  
مِنْ رِزْمٍ كَثِيفَةٍ ، وَمِنْذُ عَهْدِ الْفَاطِمِيِّينَ تَجْلِبُ قَافِلَةٌ فِي كُلِّ يَوْمٍ رِزْمًا مُشْتَمَلَةً عَلَى  
تَلْجٍ مِنْ لُبْنَانٍ لِكَيْ يَرْتَشِفَ السُّلْطَانُ وَرِجَالُ بِلَاطِهِ أَشْرِبَةً بَارِدَةً فِي فَصْلِ  
الصَّيْفِ بِمَصْرَ ، وَتَدُومُ رَحْلَةُ الْقَافِلَةِ فِي الصَّحْرَاءِ بَضْعَةَ أَسَابِيعَ وَيُرَدُّ اللَّهُ الْحَيَوَانَ  
وَالْإِنْسَانَ فِي أَثْنَاءِ هَذَا الْحَجِّ الْعَجِيبِ ، وَيَذْهَبُ صَرَائِحُ الْخَزَنَةِ فِي وَجْهِ السَّاقَتَيْنِ  
أَدْرَاجَ الرِّيحِ ، وَلَا يَحُولُ ذَلِكَ دُونَ دَوَابِّ نِصْفِ الْأَحْمَالِ .

وَيَقِفُ بِجَانِبِ خَيْلٍ أَوْلَتْكَ وَجْهًا ، الَّتِي يَحِيطُ بِهَا جُنُودٌ عَابِسُونَ وَشُرَطٌ  
رَاصِدُونَ ، بُرْدٌ مِنْ كُوشٍ وَنُوبِيَّةٍ ، وَمِنْ غَزَّةٍ وَالْإِسْكَندَرِيَّةِ ، وَمِنْ بَعْلَبَكٍ  
وَبَيْرُوتَ وَصَيْدَا ، حَامِلُونَ رَسَائِلَ مِنْ وَلَدٍ وَأَصْدِقَاءٍ وَشِبَاهِ أَعْدَاءٍ ، وَيَمْرُسُ  
فِي سَاحَةِ مَجَاوِرَةِ أَرْبَعَةِ مُسْلِمِينَ خِيَمَةً لِلْأَمِيرِ قَائِمَةً عَلَى مِزْرَاقَيْنِ ، وَتَبْدُو الْقَاهِرَةُ  
لِلْأَمِيرِ مِنْ قُرْبَانَةٍ فِي الْجِدَارِ الْخَلْقِيِّ .

(١) أَكْفَتِ الْخَيْلَ : سَمِعَ لِحَوَارِهَا صَوْتَ .





## منظر الأهرام

وأخيراً يشاهد الفارسُ الغريبُ هذا المنظرَ الذي امتدحه له كثيرٌ من الحارين والحجاج والقاصين ، وتسيطر الأبراج والقياب على العاصمة على مدى البصر ، فن الأسفل يترتفع نحو الفارس طنينٌ لا ينفطع ، ترتفع إليه أصواتٌ وصرخاتٌ مختلطة من كلِّ نوع ، وفي الشرق وراءه تبعُ الصحراء وصخرها ، وفي الغرب ، وعلى ضوء الشمس ، يظهر له وادٍ أخضرٌ على ضفاف النهر العريض الذي يجرى إلى الشمال فتحيط أضواجه<sup>(١)</sup> بجزيرتين طويلتين ضيقتين ، ويُطلُّ النهرَ مئاتٌ من الزوارق تنتفخ أشيرعتها بنسيم قويٍّ بعض القوة ، ويرى الفارسُ النيلَ برصيه الكامل لليرة الأولى ، ويُقلُّ إلى السماء ذات اللون البنفسجيَّ عددٌ من الخيام الحجرية العظيمة على حدِّ الأراضى المزروعة ، تملأ أهرامُ الجيزة ، وتقلُّ أهرامُ سقارة من بعيد ، فتعدُّ هذه الأهرامُ صوًى<sup>(٢)</sup> للتاريخ يتعذر زوالها .

ويجب على الفارس أن يمرَّ من حيِّ زاخِر بالسكان حتى يجدَ منزل صاحبه ، وذلك لأنَّ بعض الأغنياء والفقراء يسكن قرياً من بعض في تلك العاصمة ، ويرى الفارس أكواخاً مبنية من الحجر المصنَّف في الهواء أكثر من أن يرى بيوتاً ، ويرى الفارسُ أمام بابِ امرأةٍ سافرةٍ لابسة ثوباً أزرق جالسة القُرُصاء ، وترتفع البرقع على وجهها بحركةٍ مثليةٍ رمزيةٍ عند ما ينظرُ الفارسُ إليها ، ويُهيئ لأولادها طعامَ المساء المؤلف من بيضٍ وجبنٍ ولبنٍ وأرزٍ ، ويسمُّ الرجلُ رائحة البصل المقلي على موقدٍ يشغل طولَ الرفقة الوحيدة ، والرجلُ في فصل

(١) الأضواء : جمع الضج : وهو منطلق الوادي .

(٢) الصوى : جمع الصوة ، وهي حجر يكون دليلاً في الطريق .



الشتاء ينام في منزله هو وزوجُه على اللَوْد الساخن بحثي<sup>(١)</sup> البقر ، مع أن أولادها ينامون على حصير فوق الأرض .

ثم يَبْلُغُ منزلَ صاحبه ، ومنزلُ صاحبه هذا مُزَلَّجٌ<sup>(٢)</sup> كجميع بيوت الأغنياء ، كبيوت وطنه دمشق وكيوت العالم الإسلامي ، وهل هذا هو لحفظ سلامته ؟ لا يستطيع المالك أن يَدْفَعَ هجوماً عن نفسه ، ويكفي قُلَّ مُحْكَمٌ للوقاية من اللصوص ، وليوت المسلمين هيئةُ الحصون بسبب النساء اللاتي لا يَخْرُجْنَ إلا نادراً ، والنساء يُسَيِّطِرْنَ على الحياة بأشرها مع عَظَمَنٍّ من الحقوق ، ويحيط الرجلُ منزله بسيجار من الخدَر ، فتُحْبَبُ أفواهُ النساءِ وآثانُهُنَّ ، وهن لا يتصلن بالعالم إلا بعيونهنَّ ، ومن المحتمل أن تكون هذه الماداة قد عاقت تقدم الإسلام الذي هو أكثرُ الأديان رُجُولَةً ، ومن المحتمل أن يكون هوانُ المرأة قد أَقْعَدَ العالمَ بعد أن كان قبضته .

ويُوقِفُ وقوفُ انليل قَبْأَةُ بَوَّابِ المنزل النائم على الأرض ، ويرتجف البواب ، ويُسْمَعُ صوتٌ ، ويَصِيرُ الباب ، ويظهر حارسٌ آخرُ حاملٌ رَحْماً ، وَيَبْتَثُ ويَحْذَرُ ، ويَهْرَجُ وَيُغْنَى بالخليل ، وَيَنْزِلُ الخائل<sup>(٣)</sup> من التَرْجِ وقوراً ويسلم على الغريب ماساً الأرض بيده وقزاده وجبينه ، وتَصِيرُ النوافذ ، وتُسْمَعُ النساءُ وجودَ غريبٍ هنالك ، ومن النساء امرأتان كاتتا جالستين في الساحة بالقرب من البركة فَصَمَتَانِ من بابٍ سِرْمِيٍّ إلى دائرة الحريم التي تكون في الطبقة الأولى ، ولا تُسْرِعُ النساءُ ما دامَ بِحَازٍ<sup>(٤)</sup> البيت ملتوياً فلا يستطيع أحدٌ أن يَرى

(١) خن البقر : ما يرميه من جلته — (٢) المزج : التناق بالزلاج ، وهو ما يطلقه الباب .

(٣) الخائل : راعي المال ومصلحه — (٤) الحجاز : الطريق والملك .

## رب المنزل

ما في الساحة من الباب ، ولا يحق للنساء أن يُبصرن ، ولا يجوز أن يُبصرن ، حتى إن المؤذن الذي يدعو المؤمنين إلى الصلاة خمس مرات في كل يوم يكون من الثمانيان على قدر الإمكان ، وذلك لكيلا يرى من فوق المئذنة امرأة في ساحة بيت مسلم غنى .

ويدخل نور ضئيل من نوافذ شبكية إلى رداء الرجال في الأسفل ، وهذه النوافذ مقسومة إلى مئات من الرَبَّعات المُستَفيضة أو الخشبية المنفورة على العموم ما دامت مُعرَّضة للحر ، ونصف الرِّدْهة مرتفع ، ومحيط بها من الداخل مُتَكَاتٌ مُغطاةٌ بفُرُشٍ ووسائدٍ ونسائجٍ ثينة ، ويُسَوِّشُ كُلُّ شَيْءٍ ، وذلك لنهوض الرجال حتى يُحييوا القادم ، ويتقدم ربُّ المنزل بوَدٍّ وبوقارٍ لا يرى مثله في غير الشرق .

ويبدو ربُّ المنزل لابساً قيصاً أبيض مُتَدَلِّياً على سِرْواله ولا بساً صُدْرَةً بلا كُمٍ وجلباباً حريريّاً مُخَطَّطاً ذا كُمَيْنِ ساترين لليد ، وحذاءً حادَّ الطَّرْفِ مصنوعاً من جلده مراكشيٍّ أحمر ، وعمرة قصيرة على الرأس ، ويقفُ أمام صديقه الفارس ليحيائياً ضاحكاً على حين يخلع الخدم ثقلِيَّ المسافر ويُسفونونه بالماء ، ولن يسأله عن مآثاه ومآبه مهما كلفه ذلك ، وكلُّ ما في الأمر أنه يُريه هديةً كان الآخر قد أتاه بها ، ويبلغ احترام حرية الفرد وحياة الغريب درجة لا يحاول شخصٌ أن يسأل معها صديقاً له عن أصله وفصله وماضيه وأهدافه ، ومع ذلك يرقب كلُّ منهما الآخر عند تذوق شرابٍ فيلاحظ كلُّ حركةٍ وأقلَّ نظرةٍ إلى الرقيق وإلى الباب ، ويدرس كلُّ منهما وضع الآخر وثروته وسلامته من غير أن ينيس بكلمة خلا ما هو خاصٌ بعيد القد .

وَيَسُودُ كَهْمُسُهُ وَثَرْتُهُ فِي الطَّبَقَةِ الْعُلْوِيَّةِ ، فَالنِّسَاءُ يَعِشْنَ وَيَأْكُلْنَ مَعًا ، وَيَتَمَنَّوْنَ فِي الرَّذَّةِ الْكُبْرَى عَادَةً ، شَأْنُ بَنَاتِ بِلَادِنَا فِي الْمَدَارِسِ الدَّاخِلِيَّةِ سَابِقًا ، وَالنِّسَاءُ هُنَاكَ سَجَازِيْعُ مَبَاطِينُ مَعَايِيرٍ مَتَاكِدُ ، وَالنِّسَاءُ هُنَاكَ شَبَقَاتُ كَثِيرَاتُ الاسْتِطْلَاعِ ، وَلَا يَزِيدُ عِدَدُهُنَّ هُنَاكَ عَلَى أَرْبَعٍ وَفَقًا لِأَحْكَامِ الْقُرْآنِ ، وَلَيْسَتْ الْإِمَاءُ مِنْ هَذَا الْعِدَدِ ، وَلِلْإِمَاءِ مِثْلُ نَفُوذِ رَبَّاتِ الْبَيْتِ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ ، وَتَنْشَابُهُ النِّسَاءُ فِي دَوَائِرِ الْحَرِيمِ ، فَهِنَّ ذَوَاتُ وَجُوٍّ مِمْتَلِئَةٍ بِحَاطَةِ بُحْصَلٍ قَصِيرَةٍ ، وَهِنَّ ذَوَاتُ بَشَرَةٍ يَبْضَاءُ عَنْ بُعْدٍ مِنَ الشَّمْسِ ، وَهِنَّ ذَوَاتُ حَوَاجِبٍ مُطَوَّلَةٍ عَمْدًا ، وَيَلْبَسْنَ سَرَائِلَ حَرِيرِيَّةً وَاسِعَةً مُسْتَقِرَّةً تَحْتَ الرُّكْبَةِ ، وَتُظَهِّرُ صُدُورَهُنَّ شَيْئًا عَارِيَّةً ، وَيُبْدِينَ عَنَافَةَ كَبِيرَةً بِأُظْفَارِهِنَّ وَأَصَابِعِهِنَّ ، وَيُتَخَذْنَ مِنْذُ قُرُونٍ لَعِبًا مُعَدَّةً لِلْغَرَامِ ، وَيَسْرُهُنَّ حَوْلُكَ الْمَكَائِدِ كَجَمِيعِ الْأَسَارَى ، وَيُوهِنُهُنَّ الْأَصْطِفَاءُ ، فَإِذَا بَلَغْنَ الْعَشْرِينَ مِنْ عُمْرِهِنَّ أَخَذْنَ فِي الذُّبُولِ كَمَا يَرَى الْعَارِفُونَ .

وَلَا دَوَامٌ لِلاتِّخَادِ فِي تِلْكَ الْبَيْتَةِ ، وَلَوْ اقْتَصَرَ الرَّجُلُ عَلَى زَوْجَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَإِذَا أُنْجِيَتْ الْمَرْأَةُ لَاتْتَمَحَى فِي الْعَشْرِينَ مِنْ عُمْرِهَا فَإِنَّ الْحَقْدَ وَالْإِنْتِقَامَ وَالْإِزْدِرَاءَ وَالْوَعِيدَ أُمُورٌ تُنَلِّمُ بِتِلْكَ الْبُيُوتِ الْمُتَمَلِّقَةِ ، وَالْوَاقِعُ أَنَّ هَذِهِ الْبُيُوتَ لَيْسَتْ مَنَازِلَ مَسْرَّةٍ ، وَفِي هَذِهِ الْمَنَازِلِ يُوَلَّدُ الْأَوْلَادُ وَيُرَبَّوْنَ ، وَفِي هَذِهِ الْمَنَازِلِ لَا حَدَّ لِسُلْطَانِ الزَّوْجِ ، فَإِذَا مَا قَالَ لَزَوْجَتِهِ « أَنْتِ طَالِقٌ » ، وَأَعَادَهَا ثُلُثَ مَهْرِهَا كَانَ عَامِلًا بِأَحْكَامِ الْقُرْآنِ كَكُلِّ مُسْلِمٍ تَقِيٍّ ، وَمِمَّا يَكُنْ مِنْ أَمْرِ فَإِنَّهُ يَحْرُمُ عَلَيْهِ أَنْ يَقْذِفَ زَوْجَتَهُ ، وَهُوَ إِذَا مَا اتَّهَمَ امْرَأَةً بِرِيْثَةٍ بِالزَّنا ، وَلَوْ كَانَتْ زَوْجَتَهُ ، عُدَّ مُقْتَرَفًا لِاحْدَى الْكَبَائِرِ السَّتِّ الَّتِي لَيْسَ الْبَيْغَاءُ مِنْهَا .

وَهَكَذَا تُقْزَلُ خِيُوطُ الشَّرَفِ وَالْوَفَاءِ هُنَاكَ ، وَتَرَى حَيَازَةَ الْبَدَنِ هِيَ الَّتِي

يُهْدَفُ إِلَيْهَا فِي تِلْكَ الْبُيُوتِ الْمُرْتَبَجَةِ (١) جِيداً حَيْثُ يَنْفُكُ الْفَرَامُ الْحِسِّيَّ جَمِيعَ  
الْفَرَائِزِ مِنْ عِقَالِهَا ، وَحَيْثُ يُخْطَلَمُ بِضُرُوبِ الْغَامِرَاتِ ، وَحَيْثُ تَبْثُثُ النِّسَاءُ  
بِلا انْقِطَاعٍ فِي الْجُرْئِيَّاتِ الْجَنَائِمِ عَنْ خُبْثٍ سَادَجٍ ، أَيْ فِي ذَلِكَ الْعَالَمِ الْمُقْتَلِ حَيْثُ  
يَزِيدُ مَا يَسُودُهُ مِنْ نَعِيمٍ عَلَى مَا يَسُودُ الدُّورَ الْعَامَّةَ ، فَيُحَافَظُ عَلَى تِلْكَ الْحَيَازَةِ  
الْبَدَنِيَّةِ وَيُدَافَعُ عَنْهَا بِالْإِيمَانِ ، وَبِالْحَسَنَامِ .

### ١٣

نُضَاهُ جَزِيرَةِ الرُّوضَةِ وَالضَّفَافُ وَالنَّهْرُ فِي اللَّيْلَةِ الْقَادِمَةِ فَيَحْتَفِلُ جَمِيعُ النَّاسِ  
بَوَفَاءِ النَّيْلِ ، وَيَأْمُرُ السُّلْطَانُ النَّيْلَ فِي الْغَدِ بِمَجَاوِزَةِ السَّدِّ الْأَخِيرِ ، وَاحْتِفَالِ  
بـ « لَيْلَةِ النُّقْطَةِ » فِي ١٧ مِنْ يُونِيهِ ، أَيْ قَبْلَ شَهْرَيْنِ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ دُمُوعَ إِيزِسَ ،  
حِينَ تَبْكِي زَوْجَهَا ، تَجْعَلُ النَّهَرَ زَاخِراً ، وَذَلِكَ هُوَ الْيَوْمُ الَّذِي يَرْفَعُ الْمَطْرُ فِيهِ  
مَسْتَوَى النَّيْلِ الْأَزْرَقِ عَلَى بُعْدِ مِائَةِ الْأَمْيَالِ كَمَا تَدُلُّ عَلَيْهِ مَبَاحِثُ عُلَمَاءِ الْجُغْرَافِيَّةِ  
قَدِيمًا وَحَدِيثًا ، وَفِي كُلِّ أَسْبُوعٍ مِنْ زَمَنِ الْقَبِيضَانِ يُبَشِّرُ مَنَادِي النَّيْلِ ، مَعَ جَوْقَةٍ مِنْ  
الصَّبَّيَّانِ ، سَكَانَ الْعَاصِمَةِ بِارْتِفَاعِ النَّهْرِ ، وَفِي هَذَا الصَّبَاحِ يُنْذِرُ الْمَنَادَى بِأَنَّ الْارْتِفَاعَ  
كَبَلَغَ سِتِّ عَشْرَةَ ذِرَاعًا ، وَهَلْ هَذَا صَحِيحٌ ؟ وَهَلْ هَذِهِ ذَرِيعَةٌ أَمِيرِيَّةٌ تَلْجَأُ  
إِلَيْهَا الْحُكُومَةُ لِتَزِيدَ الضَّرَائِبَ ؟ وَلَا ضَيْرَ ، مَا دَامَ الْجَمِيعُ رَاضِيًا حِينَ يَسْمَعُهُ يُنْشِدُ  
هُوَ وَجَوْقَتُهُ قَائِلًا : « اللَّهُ أَكْبَرُ ، اللَّهُ بَثَّ النَّيْلَ مِنَ الْمَوْتِ إِلَى الْحَيَاةِ ، اللَّهُ لَطِفٌ  
بِأَطْيَانِنَا ، فَخَاضَتِ الْقَنَوَاتُ ، حَمْدًا لِمَنْ أَنْعَمَ عَلَى مِصْرَ بِالنَّهْرِ الْجَارِي ، أَفْرَحُوا يَا مُؤْمِنِينَ !

(١) أَرْتَجِ الْبَابَ : أَغْلَقْهُ إِغْلَاقًا وَثِيقًا .

ست عشرة ذراعاً ! الله يستقي الأطنان العالية !<sup>(١)</sup> .

وَيُحْتَفَلُ بِوفاة النيل منذ ألاف السنين ، ويخضع جميع القاطنين لهذه العادة الفرعونية ، ولكن هذا الاحتفال لم يكن مُضِجاً في زمن كما في عهد العرب .  
ويؤلف باعة البطيخ صفاً طويلاً فيشتمون لأنفسهم طريقاً بين الجمهور ، ويحملون على رؤوسهم هذه الفاكهة القذرة المستورة بالذباب ، ولا يكتفون بالذائق الذي يُدْفَع إليهم على العموم ، وإذا مادفع إليهم أكثر من ذلك قالوا بصوت عالٍ إن النقود زائفة ، ويتجمع الناس وتكاثف التهم ، ويكثر اللفظ ثم ينتهي الأمر بالصضجك ، ويعتمد أحد الحضور عن الجمهور أخرج ، فهو الذي قد رُمى ، وإليك منظر آخر منظر ، إليك صبياناً ينزعون عمامة شيخ سائر على حماره ، فيقول الجمهور ضاحكاً : « القُطُوبُ تاج الإسلام ! » ، ويتهلل وجه النبي المسين ذات حين ، فاليوم يوم الاحتفال بوفاء النيل ، وعلى الإنسان أن يتدبر فيه بالصبر .

ويحيط جمهور فرحٍ بمارين متارزين بمصوين كبيرتين ، وذلك لأن الناس في مثل ذلك اليوم يودون أن يروا عاداتهم موضع هزوه ، بيد أن الضحك لم يدُم ، فلم يلبث الناس أن سمعوا صوتاً حاداً ، فحدقوا إلى درويش غير هازل ، فقد بقّر هذا الدرويش بطنه بسكين وأخرج منه أمعاء ثم أعادها إليه كما يعيد الملاح إلى قمر الزورق حبلاً مطويّاً ، ويثير النظر فضول الحضور ودعهم قيرمون إليه نقوداً نحاسية ، ويكون أحد الحضور من الوقاحة ما يحاول معه إزلاق دائق في البطن المفتوح .

(١) لم نوفق للاطلاع على النشيد البلدي الأصلي ، ولم يذكر المؤلف المصدر فقرجناه .

والآن يأتي دَوْرُ جمع ذى بال ، ولا يَجَزَعُ هذا الجمعُ من رائحة الجُمُهور مرةً واحدة في العام ، ويتقدم الجمعُ فرسانٌ لابسون مغافرَ ، ثم يأتي خَصِيٌّ لابسٌ مِغْطاً أحمرَ واسعاً وواضحاً على رأسه عِمامةٌ بالغةٌ من كِبَرِ الحِجَمِ ما لا تلائمُ معه وجهه المُتَوَرِّمُ ، ثم يأتي نِسْوَةٌ مبرقعاتٌ مستطلماتٌ راكباتٌ حصناً ذاتَ سروجٍ مستورةٍ بأغطيةٍ مخشَّوةٍ فيظهَرْنَ كأنهنَّ جالساتٌ على مُتَكَأٍ ، ثم يأتي خَلْفَهُنَّ عبيدٌ يحملون الأولاد على أكتافهم ، ويَبْدُو بجانِبهنَّ أزواجهنَّ مُمتطين حَياداً مع إبعادٍ سيقانٍ وركبٍ إظهاراً لَزَهْوِهم ، وتُحْجَبُ صَدِيقَةٌ ظريفةٌ نصفُ عاريةٍ وجهها القَدِرُ بطرفٍ ثوبٍ اقتداءً بِحَسَنِ النساءِ ، ويتوسَّلُ إليهنَّ على غيرِ جدوى مُتَسَوِّلون صِفارٌ لابسون أسعلاً ، ويستنشق هؤلاء السائلون رائحةَهنَّ فيقلب إلى مِرْزاةٍ سوءِ استعمالهنَّ السكَّ والزَّباد ، ويتبعُهم فريقٌ من الفقراء العُمى محيَّطٌ بلمرٍّ أحمرٍ يَخْمِلُهُ أحدهم طالباً للصدقة بأصواتٍ غِنٍ .

وتسلك الشارعَ صُعْداً فرقةٌ موسيقيةٌ راكبةٌ حميراً بِطَرَةٍ فيكون لَزَمِها صوتٌ كبيرٌ ، وتتقدم هذه الفرقةُ الحرسَ ، وذلك لأن المالك في ذلك اليوم أيضاً يقومون بصلهم جادين فيوجبُ وَقْعُ حوافر خيلهم قليلَ ارتعاشٍ لدى أولئك الطَّرين ، ويمدُّون نحو السدِّ ما بين المئة والمئتين من الفرسان ، ويلبَسُ هؤلاء الفرسان برانسَ مقتبسةً من الصليبيين ، وتصلُ سراويلُهم للتفتحة إلى أخصرتهم تقريباً ، وتُزَيَّنُ ثلاثةُ خناجرٍ مختلفة زُناجِرُ كلٍّ واحدٍ منهم ، ويكنسُ سيفٌ كبيرٌ خاصرة كلِّ واحدةٍ من مطاياهم .

وكان بضعُ مئاتٍ من السيد قد أنشأوا في شهر يونيه في المكان الذي يَقْلَعُ فيه القناة الكبرى ، « أي الخليج » ، جسرَ حجريٍّ على بعد مئة مترٍ من مَنفذِها

إلى النيل ، وبالقرب من الجزيرة الكبرى ، سدّاً ترايئاً أضيقَ في أعلاه مما في أدناه مسيطراً بسةِ أمتارٍ على المياه الدنيا وسيطراً بأربعة أمتارٍ أو خمسة أمتارٍ على مستوى القناة ، واليومَ تَبْلُغُ الزيادةُ مستوى السدِّ ، واليومَ هو يومُ تَقْبِهِ ، وكان قد رُفِعَ بين السدِّ والبحرِ رُكَامٌ من ترابٍ على شكلِ مخروطٍ ، وهذا هو عروسُ النيل ، وهذا يُدْكَرُنا بالعذراء التي كان يُصَحَّى بها في القرون القديمة ، وقد جَرَّهَ الفيضان منذ نحو عشرة أيام .

ويقترب القَجَرُ ، ويأمرُ أميرُ حرسِ الممالك بإعدادِ مَنَفَذِ السدِّ ، وتكتمل الدَهْمَاءُ ، وتجري مع النهرِ مئاتُ الزوارقِ المضاءَةِ بمصابيحَ رُجَاجِيَةٍ مُلَوَّنَةٍ ، وذلك بين الهتافاتِ والأناشيدِ والمعانقاتِ الغرامية ، وذلك لأنَّ صَوْلَةَ النيل على الأراضي التي يُخَصِّصُهَا يُشِيرُ لدى الرجال والنساء خيالَ الأعراس فيَجْعَلُ هؤلاء من تلك الليلة ليلةَ أعراس

ويُجَلِّبُ حَفَّارُونَ لثَقَبِ السدِّ ولكي يمارسَ النهرُ حقوقَ السيدِ رَمَزاً ، ويساعدُهم على ذلك مئاتُ الرجال ، ويرَفَعُ هؤلاء الترابَ وينقلونه بِقُفَفٍ لِيُفَرِّغُوهُ على الضَّفَّةِ ، ويتساءلُ أُلُوفُ الناسِ في الليلةِ الحارةِ الفائرةِ ويتمازحون ويتحاضنون بين ضِفَّةٍ وضِفَّةٍ وجزيرةٍ وجزيرةٍ ، ومن هؤلاء من يَتَذَفُّون بأنفسهم في النيل كالجانين ليَخْرُجُوا منه مغتسلين ، ومن هؤلاء من يَرْمُونَ في النيل قِطْعَ نَعْوَدٍ ، فيحاول صبيانُ من البلَّةِ أن يلتقطوها بصنائيرَ ، وتَهْتَرُّ الزوارقُ وتقلبُ وَيَقْلُو الصُّرَاخُ قِطْعَتُهُ على صوتِ الموسيقى في المراكبِ حيث تقوم راقصاتُ برقصَةٍ البطن ، ويشاهدُهنَّ رجالٌ جالسونَ القُرُفُصَاءَ في القواربِ فيَهْجُونَ شيئاً فشيئاً ، وترتفع صواريخُ إلى السماء ، وتمتدح ساحراتُ نصفَ عارياتٍ خواصَّ أشربتهنَّ

٢١ — عروسة قاطع







المقوية للبناء ، وتختلف كلابُ قطع لحم موضوعة على أوتان<sup>(١)</sup> ثم تموى تحت السياط ، ويمسك لصوص ويضربون ، وتمر مواكب من درايش مجذوبين ويرقص هؤلاء ويدخلون أظافر إلى صدورهم ويصمون ناراً تحت آباطهم أو قطعاً من زجاج تحت ألسنتهم ، ويوضع مشعرون في أكياس ويقذفون في النهر كما لو كانوا يودون أن يفرقوا فيه ، ويرقع هؤلاء الناس المرتجعون ويعرقون حتى يلوح في السماء من ناحية الشرق ، خلف أبراج القلعة ، ضياء ضئيل ضارب إلى خضرة ، ولا يلبث هذا اللون أن يتحول إلى صفرة فإلى زرقة شاحبة .

وفما ترتفع الشمس في الأفق إذ تبصر أوف الناس يهرعون نحو السد حيث يدعو الله مئة راقص متفتح الثوب عن دوران ، ويردد الجمهور دعاء هؤلاء ويضرع إلى الله العلي الذي أنعم عليه بالليل والنهار والذي رفع الماء وخلق النيل الذي هو أصل كل سعادة .

وكان قد نصب سرافق فخماً مصنوعاً من حرير ، ويشق المالك بمزاريقهم طريقاً واسعة توصل إليه ، فقد وصل السلطان بنفسه .

يأتي السلطان وحاشيته من مسجد جزيرة الروضة حيث احتفى بمقياس النيل ، حيث احتفى بذلك العمود الرخامي المتمكن الزوايا والذي ما فتئ منذ عهد الفراعنة يُخبر بما في زيادة المياه من خير أو شر ، ويقوض مدير النيل والجداول في الماء على الرغم من ثيابه الحريرية الثمينة ، ويمسح ذلك العمود المقدس بيده اليسرى بمنجيم من الزعفران والطيب المحلول بماء الورد يصبه على يده تلك من إبريق فضة ، وذلك مع بقاءه على وجه الماء خوفاً من الترقق ، ويشاهد السلطان ، وبطافته من

(١) الأوتان : جمع الوضم ، وهو خشبة الجزار التي يقطع عليها اللحم .

حَوْلِهِ ، ذلك المنظر من عُلَى ، وَيَرْقُبُ السُّلْطَانُ اقْتِرَابَ أَنَاسٍ مَوْفُقِ بِهِمْ مِنْ ذَلِكَ الْمَقْيَاسِ لِيُحَقِّقُوا ارْتِفَاعَ النَّيْلِ تَحْقِيقًا صَحِيحًا .

وَيَصِلُ الْمَوْكِبُ الرَّسْمِيُّ إِلَى الشَّرَاقِ ، وَيُلَاقِي الشَّمْسَ الْجَدِيدَةَ سَيْلٌ مِنَ الْأَلْوَانِ ، وَيَسْطَعُ مِنْ مِثَّةِ ثَوْبٍ ثَمِينٍ وَمِنْ مِقَابِضِ سَيْوْفٍ مُرَصَّعَةٍ كَمَعَانٍ مَا فِي الْقَصْرِ السُّلْطَانِيِّ مِنْ سَنَاءٍ يُعْرَضُ فِي الْأَوَاقَاتِ الْأُخْرَى تَحْتَ ظِلِّ الْقُصُورِ الْمُغْلَقَةِ ، وَيُتَرَفُّ السُّلْطَانُ بِجَوَادِهِ الْمُطَهَّمِ الَّذِي لَا يَنْتَبِغِي لِأَمِيرٍ أَنْ يُبَارِيَهُ بِمِثْلِهِ كَمَا يُعْرَفُ بِوُقُوفِهِ فِي الرَّسْطِ لِابْسَاحَةِ النَّبِيِّ الْخَضْرَاءِ ، وَيُؤْمِنُ السُّلْطَانُ ، وَيَسْكُتُ الْجُمْهُورُ ، وَيَتَلَوُّ الْوَزِيرُ مَنْشُورًا يَحْمَدُ السُّلْطَانُ فِيهِ اللَّهَ عَلَى آلَانِهِ ، وَيَشْكُرُ فِيهِ لِلنَّيْلِ فِيضَانَهُ ، وَيَتَهَلَّلُ فِيهِ إِلَى اللَّهِ أَنْ يَمُنَّ عَلَى مَصْرَ بِالْبَرَكَةِ ، وَيَرْفَعُ مِثَاتُ الْعَبِيدِ الَّذِينَ أَنْشَأُوا السَّدَّ فَهَدَمُوهُ مَعَ الْحَقَّارِينَ أَيْدِيَهُمْ نَحْوَ مَعْبُودِهِمُ السُّلْطَانِ نَاطِرِينَ إِلَيْهِ .

وَيُقَدِّمُ إِلَيْهِ بِجَرَفَةٍ ، وَيَقْدِفُ بِهَا فِي فُرْجَةِ السَّدِّ ، وَيَصِلُ قَارِبٌ ، بَعْدَ انْتِظَارٍ بِجَانِبِ الْقَنَاةِ ، إِلَى وَسْطِ السَّدِّ الَّذِي لَا يَزَالُ قَائِمًا فِي الظَّاهِرِ ، مَا دَامَ الْمَاءُ قَدْ وَجَدَ طَرِيقَهُ مِنْذُ زَمَنِ ، وَتَعْمَلُ الْمَجَادِفُ فِي ذَلِكَ الْقِسْمِ الضَّيِّقِ مِنَ السَّدِّ وَتَشُقُّ لِلْقَارِبِ سَبِيلًا مِنْهُ عَلَى حِينٍ يَهْدُدُ شَلَالٌ صَغِيرٌ بِإِغْرَاقِ الْقَارِبِ فَيُسْرِعُ إِلَى الصُّفَّةِ الْجَدِيدَةِ إِنْفَاقًا لِنَفْسِهِ .

وَتَخْرُجُ مِثَاتُ الْأَلُوفِ مِنْ أَصْوَاتِ الْفَرْحِ إِظْهَارًا لِاقْتِحَامِ الْمَخْرَجِ ، وَتَشْتَغِلُ حُزْمٌ مِنَ الصَّوَارِيخِ فِي السَّمَاءِ الزَّرْقَاءِ ، وَتُصَيِّمُ الْأَصْوَاتُ وَلَا تَبْهَرُ أَحَدًا ، وَتَنْتَهِي اللَّيْلَةُ الطَّائِئَةُ مَعَ الْفَجْرِ وَتَشْحَبُ وَجُوهُ النِّسَاءِ عِنْدَ الصَّبَاحِ ، وَيَعُودُ الرِّجَالُ غَيْرَ مَكْتَرِثِينَ لَهَا ، وَيُعِيدُ جَذْلُ رُجُولَةٍ نَشَاطِهِمْ إِلَيْهِمْ ، فَتَقْذُ الْبَلَدُ وَأَبُو الْحُبِّ النَّيْلُ هُنَاكَ ! وَيَرْمِي السُّلْطَانُ إِلَى الْعَبِيدِ ، مِنْ عُلَى ، كَيْسًا مَمْلُوءًا ذَهَبًا . . . وَتَدُورُ

رَحَى معركة هائلة بينهم لَطَمَ كلٌّ واحدٍ منهم أن يأخذ دينارَ جاره ، فالسماه لا تُمَطَّرُ ذهباً سوى مرة واحدة في السنة ، وتتوارد الزوارقُ إلى القناة لتُمرَّ من القُرْجَة وتحت الجسر الحجري ، ويقابل السلطانُ بالتحية في كلِّ مكان ، ويُهْتَفُّ له - إن في كلِّ مكان .

ويَقِفُ السلطان فوق الصُّفَّة ، وَيَقِفُ وزيرُه بجانبه ، ويساورهما فكرٌ واحد ، فأمرُ الضرائب مضمونٌ ، قد أنبأنا القومَ بـ ١٦ ذراعاً ، ولا أحدَ من القوم يَظُنُّ أنه لم يكن هنالك غيرُ ١٤ ذراعاً .

## ١٤

قَبَضَ على زمام الحكم بمصرَ مدةَ خمسةِ قرونٍ أولياهُ أمرُ مسلمون مستقلون ليسوا عرباً ولا أمراء تابعين لخلفاء بغداد ، فكانوا يُقَلِّنونُ أنهم خصومٌ للخليفة وكانوا يَروُنَ أنهم أصدقُ إيماناً وحديثاً من هؤلاء العرب الذين فَتَحُوا مصرَ حوالى سنة ٦٤٠ ، وكان هؤلاء الفاطميون الذين استولوا على مصرَ ودام ملكُهم فيها مئتي عام يدَّعونَ أنهم من أبناء فاطمة بنتِ النبيِّ ، أى من صُلْبِ النبيِّ ، وكان الفاطميون مقاتلين لا يعتمدون على غيرِ القوة ، وبما حَدَثَ ذاتَ يومٍ أن سئلَ الرئيسُ ، الذى جاء هو وعصابته من طرابلس الغربِ فأنشأ القاهرةَ عن أصله ، لما كان من إنكارٍ كثيرٍ من الناسِ أنه من ذُرِّيَّةِ فاطمة ، فاستلَّ سيفه وقال : « هذا نسبي ا » ، ثم نثرَ ثوداً من ذهبٍ على الجُهور وقال : « هذا حسبي ا » .

وكان أولئك الغزاة الذين هم من شمال إفريقيا قد استولوا على صقلية وسورية منذ زمن حينما كان عليهم أن يحاربوا الصليبيين ، ولما نزل العزُّ إلى مصر كان عازماً قبل كل شيء على الإقامة بأقوى دولة في قارته ، وذلك لأنه كان قد أتى بعظام أبيه ليذِّقها على شاطئ النيل ، ومما لا ريب فيه أن كان ابنه ملكاً حقيقياً ، وقد كتب يقول : « مما تقرأ به عيني أن تكون رعيّتي مدينةً لعمل بكل ما فيه سعادتها من ذهب وفضة وجواهر وخيل وثياب وأراضٍ وبيوت »<sup>(١)</sup> .

وكان حفيده الحاكم هُلُوعاً يُلقب في الروع هولاً ، وكان الحاكم هذا مجنوناً يتسكّع في المدينة ليلاً ، وكان الحاكم هذا ابناً لنصرانية فتحبها أولاً ، ثم ينقلب إلى عدوٍّ ضدّ النصارى ويُعمّن في حرق الكنائس إلى أن غاب في جبل المقطم غيباً غامضاً ، ولم يوجد جسمه قط .

وتعقّب الفاطميون أسراً مالكة أخرى ، ويكون رجالها من أهل الحرب ، ولكنها لم تلبث أن انحطت ، ولم ينقطع صلاح الدين الشهير عن الحرب ، فلم يعيش في عاصمته غير سنين قليلة ، وما كان لصلاح الدين من سلطان بعيد المدى فقد أدّى إلى حوكم كثير من الأقاليم عنه على ما يحتمل ، وقد بقي صلاح الدين القلعة ضدّ رعيّته أكثر مما ضدّ أعدائه ، وقد كان الرجل الذي عهد إليه في بناء القلعة حصياً ، لا جندياً ، فهدم هذا الخصى أهراماً صغيرة في الجيزة لينتفع بحجارتها في بناء القلعة ، ولم يجنّد صلاح الدين قومه لشيد ضريحه ، بل أمر بأن يأتي كلُّ زورقٍ يجرى مع النيل بمددٍ معين من الحجارة فيحبل أسرى من القرنج على شفتيها ، ولما دخل السلطان عاصمته ظلّ يتأمل القلعة التي يُنشئها ساعات .

(١) لم نجد نصاً أصلياً حرفياً لهذه الكلمة فترجمناها .

كثيرة فَمِتَلَمَى أَحْيَاءًا بِأَنْ يَحْمِلَ حَجْرًا بِنَفْسِهِ .

وَيَتَجَلَّى الفرقُ بين القراعة والمسلمين في أن القراعة أَفَنُوا أحيالاً بأجسامها في نقل حجارة إلى ضِفَةِ النيل اليُسْرَى نَيْلًا لِلجَأْرِ يمشون فيه إلى الأبد ، وفي أن المسلمين ، في المكانِ نَحْوَ قَرِيْبًا ، ولكن على الضِفَةِ اليُمْنَى ، أَتَوْا بِحجارة لإقامة قلمة لم تَرَّ مصرُ مثلها قبل ذلك الحين ، وبذلك تَبَدُّوْكَ مُقَابِلَةً بَيْنَ ضَمَانِ نَجَاهِ الموت وَضَمَانِ في سبيل الأحياء ، وفي كلتا الحالين يُحْرَمُ تَنْصَبُ حريته نَتِيجَةً حُلْمُ مَلِكٍ بِالسُّلْطَانِ ، ويبقى الفلاحُ عبدًا ويدوم على حمل حجارة على ظهره .

ومع ذلك يَقَعُ في مصرَ أُمْرٌ لَا مِثْلَ لَهُ سَابِقًا ، فظلمة الأولى يَقْبِضُ العبدُ ، لَا الفلاحُ ، على زمامِ أمورِ مصر ، وَيُظَلِّقُ ابنُ البلدِ التَّعَسُّ تَابِعًا مَصْرِيًّا ، وَيَصِلُ المَالِيكُ ، أَى الْعَبِيدُ الْبَيْضُ ، من أَسَىة التي يَجْلِبُ تِجَارَ الرِّقِيقِ مِنْهَا رِجَالًا أَحْيَاءَ مِلَاحًا ، ولم يَحْدُثْ أَنْ رَأَى النيلُ في جَرِيهِ الطويلِ مِثْلَ ذلكِ المنظرِ ، وَكَثِيرٌ من المَالِيكِ الَّذِينَ مَلَكَوْا مِصْرَ نَحْوَ ثَلَاثِمِئَةِ سَنَةٍ ( ١٢٥٤ — ١٥١٧ ) وَلِدُوا عِبِيدًا ، وَجَمِيعُ هَؤُلَاءِ المَالِيكِ مِنْ أَصْلٍ نَذَلٍ لَمْ يَحَاوِلُوا كِتْمَانَهُ فَتَحَارَ بِذلكِ النَفُوسِ .

وَقَشَّ جَمِيعُ فَاحِي بِلَدِ الْمُلُوكِ الْمُوَلَّيْنِ هَذَا صُورَهم في الجُدُرِ على صورةِ القراعة في أَكْثَرِ مِنْ أَلْفِ سَنَةٍ ، وَالْآنَ يَصْنَعُ في دَرَجِ الْعَرْشِ أَنَاسٌ مِنْ أَصْلِهِ وَضِيعٍ في المِجْتَمَعِ ، أَنَاسٌ عُدُوًّا سَلَامًا كَسَلَّةٍ تَيْنٍ أَوْ كُتُوبٍ مِنْ حَرِيرٍ ، وَكَانَ أَوَائِلُ السُّلَاطِينِ يَحَافِظُونَ رِسْمِيًّا عَلَى قَسَبِ الْبَحْرِيَّةِ ، نِسْبَةً إِلَى الْبَحْرِ ، نِسْبَةً إِلَى النيلِ ، حَيْثُ كَانَ آبَاؤُهُمْ يَسْلُوْنَ غُرَافَةً عَلَى ضِفَتِهِ في حُصُونِ جَزِيرَةِ الرِّوَضَةِ . وَمِنْ أَوَّلِكَ مَنْ كَانُوا يُضَيِّفُونَ إِلَى اسْمِهِمُ الرِّسْمِيَّ اسْمَ تَاجِرِ الرِّقِيقِ الْأَوَّلِ الَّذِي بَاعَهُمْ كَانَهُمْ

يودُّون تخليد الرجل الذي يروُّن أنهم مدِّينون له بسعادتهم ، ومن أولئك من كانوا يستمدون على قُوَّتهم ، كالسلطان الفاطمي الذي تكلمنا عنه آنفاً ، فيحفظُرون وراثته العرش .

وبما أن السلاطين يحتاجون ، دوماً ، إلى جنود ، كانت الضرورة تقضي عليهم بجلب ألوف من العبيد ، وتبلغ ما اشتراه قلاوون أربعة وعشرين ألفَ عبدٍ ، وكان الوزراء والأمرء والأغنياء يتعاونون عبيداً أيضاً ، وذلك لأن العبيد يحافظون عليهم ويذكرونهم ويصانفونهم ، وكان العبيد من ناحيتهم يلاطفون بمعلمهم قوامين على غلمان حسان مشهورين يطول قُدُودهم ومواهبهم الفنية ، وكان التجار يعرفون لماذا يبحثون في بلاد القفقاس عن الغلمان والجواري بين الكُرُحيات والشركسيات اللاتي هنَّ أجملُ من في العالم ، ويسهل على المرء أن يقدِّو ضرورياً بالملاحة ومعرفة حسن السلوك ، ويمكن الشخص أن يُختار غلاماً بنظرة وجهه وبنظرة سلطان أحياناً ، وإذا ما أُضيف الهَيْفُ إلى الدهاء استطاع صاحبهما أن يصبح من الحرس وحرَّو على الصبوم ، وإذا كان هذا الصاحب من ذوى الحظِّ ولم يقبُ عن نظر مولاه صار حامل سيف وحافظ مدَّاد وعَيْن منذ صباه « أمير عشرة » ، أى نُصِبَ صاحباً لأدنى الراتب بين مَنْ يَقْبِضُونَ على زِمَامِ قيادةٍ ، ثمَّ يُكَلِّ دَوْرَه في دسائس القلعة وينحاز إلى أمير الإصطبل أو إلى الساقى الأكبر الذي هو خصمُ أمير الإصطبل هذا ، ثم يشترك في العام القادم في مؤامرة فيُصبح كلُّ شيء ممكنًا له .

ويا للحرص على الحياة ! ويا للشوق إلى الارتقاء ! ويُفكِّرُ الملوك منذ دُوَّ سفينة التاجر من الإسكندرية ، ويُفكِّرُ الملوك منذ مشاهدته شاطئ إفريقيا

المستوى للمرة الأولى ، في إخوانه الذين كانوا قد نزلوا إلى البرّ مثله فصاروا وزراء وسلاطين ، فثيّرهُ رغبةً واحدةً ، تُثيّرهُ شِدَّةٌ ميلٍ إلى نيلِ حريته ، وذلك لما يَعلَمُهُ من جميع المخاطر المباركة التي وقعت في عشرات السنين الأخيرة ، ويَقِفُ برقوقُ الجليلُ نظرَ تاجرٍ في قريةٍ من شواطئ البحر الأسود فيشتريه من أبويه بنحو عشرين ديناراً ، وينقله إلى الإسكندرية على سفينةٍ شرعيةٍ ويبيعه من أميرٍ في القاهرة بخمسين ديناراً ، وتمضي عشرون سنةً فينادى برقوقُ سلطاناً لمصر ، ثم ينادى بالمرئيد سلطاناً لمصرَ بعد أن اشتراه برقوقُ برُبعِ قرن ، وينال قايتباي ، الذي صار سلطاناً كبيراً بعدئذ ، حُظوةً عند أميرٍ إقطاعيٍّ كبيرٍ لِمَا اتصف به من حِدَقٍ في السُياسة والرّماية فيعتق ، ويُرْهُو قايتباي بأصله فيختار من أبنائه ابنَ أمةٍ له ليخلفه .

ولم يكن هؤلاء الملوك المجهولو النسب ذوى صلاتٍ بملوكٍ من أصلٍ مماثلٍ لأصلهم فقط ، بل كانوا ، أيضاً ، ذوى صِلاتٍ بأعراء بلغوا الذُرّةَ من علوِّ النسب ، فيضطر هؤلاء إلى معاملتهم معاملةً النَّد للند ، ومن ذلك أن تفاوض السلطان قلاوون ورؤدولف الهاينبرغ ، ومن ذلك أن أتمَّ بيبرس ما لم يَسْطِعه صلاحُ الدين أن يُتِمّه فطرَدَ الصليبيين ، ومع ذلك كان هؤلاء المالك يُعتَوْن بحفظِ سليلِ حقيقٍ للخلفاء بجانبهم إبقاءً للخلافة في القاهرة ، وكان هؤلاء المالك يُطلُّون في أثناء الاضطرابات والفتن ملوكاً للبلاد المقدسة فيُرسلون كِنُوبة الكعبة للصنوعة من حريٍّ إلى مكة .

ويستمدّون قُوَّتهم من الإسلام ، ومع أن النصرانية لم تُقْبَلْ بحماسةٍ كما قُبِلَتْ به في وادي النيل دَخَلَ نصارى مصرَ في الإسلام أفواجاً أفواجاً قبلَ الإسلام من قوة



الاستقرار بمصرَ في هذه القرون الثلاثة عشرَ ما يَتَعَدَّرُ معه على النصارى أن يُتَصَرَّوْها مرةً أخرى ، وفيهِ تَجِدُ سِرَّ ذلك النجاح ؟ تَجِدُهُ في النطق الذي صَنَعَ للإسلامَ ، دون الأديان الخاضرة الأخرى ، تلك الوحدة بين القوة والإيمان ، بين الدولة والمسجد ، وذلك لأن مؤنسه جاهد بسيفه في سبيلِ إلهٍ قادرٍ على كلِّ شيءٍ ، وتَجِدُ ذلك ، أيضاً ، في عدم وجود تناقضٍ دائمٍ يُضَعِّفُ الإسلامَ ويَرَبِّكُهُ ، كما يُؤَدِّي إلى دينِ الدولة النصراني ، قال النبي : « السيفُ مُفْتاحُ الْجَنَّةِ » (١) .

وإذا كان الإسلام قد صَدَرَ بِمَضَى الصدورِ عن اليهودية ، التي تناولَ أربعةً من أنبيائها الستة كما تناولَ صورتها الأولى ومبادئها الأساسية ذات الرُّجُولَةِ ، فإن مذهبه الأصلي الذي ما انفك يحافظ عليه قد لَانَ عن تسامح ، فالمسلمُ ، وإن عَدَّ نفسه مؤمناً حقيقياً ، لا يَحْسُبُ نفسه صَفِيَّ الله ، ويقول القرآنُ بتعدد الزوجات ، ويوصي القرآنُ بِطَيْبِ الْعَيْشِ ، ولا يَأْمُرُ بِالزُّهْدِ ، وَيَجْعَلُ القرآنُ من الزكاة ركنًا من أركان الإسلام الأربعة فيأْمُرُ بالتصدق على الفقراء ، وَيُنصُّ القرآنُ على أن الْجَنَّةَ لِمَنْ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ وَيَتَّقُونَ عَفْوَ الله ، ولا يَرَى القرآنُ أن الْجَنَّةَ معمورةٌ بِمَلَائِكَةٍ متفاوتين مرتبةً ناظرين إلى ما كليل الرب ، وللمؤمن هنالك سُرَادِقٌ من لُؤْلُؤٍ وياقوتٍ وزُمُرُودٍ .

والمسلمُ ، على ما يتناولوه دينُهُ من أمورٍ دنيوية ، يقول بأعظم الفضائل ، يقول بالقضاء والقدرِ فيَسْلِمُ أمرَهُ إلى الله ، والله كَتَبَ عليه ما يُصِيبُهُ ، ولو كان شرًّا ، وسيكون له كَفَنٌ من العِمامة التي يَضَعُها فوق رأسه ، فإذا ما حَضَرَتْه الوفاةُ في الصحراء أمكنه أن يَنْتَسِلَ مُتَتِمِّمًا بِالرَّمْلِ عند عدم وجود الماء ، وأن يَنْجِفَ لنفسه

(١) لعل المؤلف أراد قول النبي (ص) : « الجنة تحت ظلال السيوف » .

حُفْرَةً ، وَأَنْ يَتَلَفَّ بِعَاجِمَتِهِ الَّتِي تَسْتُرُهُ حَتَّى كَفِّهِ ، وَأَنْ يَنْتَظِرَ الْمَوْتَ ، وَهَنَالِكَ يُرْسِلُ اللَّهُ ، مُنْعِمًا ، رِيحَ الصَّحْرَاءِ فَتَسْتَفِي عَلَيْهِ رَمْلًا يُوَارِيهِ .

## ١٥

عاش السلاطين على شواطئ النيل مسلمين للنصارى قروناً كثيرة ، وَيَقَعُ الصَّرَاعُ ذَاتَ حِينٍ ، وَتَضَعُ مَعْرِفَةُ الْمَسْئُولِ عَنْ ذَلِكَ ، وَلَا عَجَبَ ، مَا دَمْنَا لَا نَعْرِفُ الْمَسْئُولَ عَنِ الْحَوَادِثِ الْعَصْرِيَّةِ فِي الْغَالِبِ ، وَمَعَ ذَلِكَ يَلُوحُ أَنَّ التَّيْمَةَ تَقَعُ عَلَى النَّصَارَى لِمَا كَانَ مِنْ رَغْبَتِهِمْ فِي حَمْلِ النَّاسِ عَلَى دِينِهِمْ ، وَهَلْ أَتَاهُكَ الْمُسْلِمُونَ حَرَمَةَ الْقَبْرِ الْمُقَدَّسِ ؟ كَانَ الْمَسِيحُ خَامِسَ الْأَنْبِيَاءِ مَرْتَبَةً لَدَى الْمُسْلِمِينَ ، وَكَانَ مُحَدَّثُ قَدِّ صَرَاحٍ بِصَحَّةِ دِينِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى الْأَوَّلِينَ ، وَأَنْ كَتَبَهُمُ الْمُقَدَّسَةُ هِيَ الَّتِي حُرِّقَتْ ، وَلَمْ يَسْتَوِلِ الْعَرَبُ وَخُلَفَاؤُهُمْ عَلَى مِصْرَ حَمَلًا عَلَى الْإِسْلَامِ ، وَمَا كَانَ مِنْ بَدَنِهِمْ بِالْمُجْبَرَةِ إِلَيْهَا قَبْلَ مُحَمَّدٍ دَفَعَهُمْ إِلَى تِلْكَ الْأَرْضِ الْخَلِصِيَّةِ طَلَبًا لِلْحَبِّ وَالْجَزْيَةِ ، لَا حُبًّا لِحَمْلِ النَّاسِ عَلَى دِينِهِمْ ، وَإِذَا كَانَ الْعَرَبُ يَجْهَلُونَ لَفَةَ مِصْرَ مَعَ عَدَمِ تَعَاقُفٍ فَإِنَّهُمْ تَرَكُوا إِدَارَةَ مِصْرَ لِلْأَقْبَاطِ الَّذِي كَانُوا أَقْدَرَ مِنْهُمْ عَلَى الْحِسَابِ ، وَيَقُومُ الْأَقْبَاطُ بِنَفْسٍ مُنْعَمًا لَزِيَادَةِ الضَّرَائِبِ فِي الدُّلَا فَيُنْذِي الْعَرَبُ شِدَّةً ، وَتُصْبِحُ اللَّفَةُ الْعَرَبِيَّةُ لَفَةً مِصْرَ الرَّسْمِيَّةَ بِمَدْقَرَيْنِ فَتَحُلُّ بِذَلِكَ مَحَلَّ اللَّفَةِ الْقِبْطِيَّةِ ، وَيَكُونُ الْأَقْبَاطُ أَوَّلَ مَنْ يَتَعَلَّمُ الْعَرَبِيَّةَ .

وَكَانَ النَّصَارَى مُعْتَدِينَ عِنْدَ مَا حَفَزَهُمْ مَقْصِدُ نَيْلِ الْإِسْتِيلَاءِ عَلَى الْقَبْرِ الْمُقَدَّسِ ، وَلَكِنَّ الْقِبْطِينَ لَمْ تَطُلْ نَصْرَانِيَّةُ غَيْرَ ١١٣ سَنَةً مِنْ ثَلَاثَةِ عَشْرِ قَرْنًا ،

ثم غَدَتْ قبضة المسلمين نهائياً ، ويلوح ، إذن ، أن الصِّراع انتهى بعد أن وقع في الأرض وفي السحاب كما في روايات أوميرس .

ولما صار المسلمون يَضْطَهُدون النصارى في أثناء الحروب الصليبية كان ذلك عن انتقام لأنفسهم ، ثم حَظَرَ السلاطين على الأقباط ركوب الخيل وحيازة عبيد من المسلمين وحكمهم على لبس عمام زُرْقٍ ، وعلى لبس جلابل حَوْلَ أعناقهم عند الذهاب إلى الحمامات ، وعلى وشم أيديهم بِسَمَةِ الأسد معاقبين من يخالف بقطع يده ، ولم يَصْدُرْ هذا الاضطهاد ، قط ، عن مثل ذلك التعصب الذي دفع النصارى ، في عهد ديوكليسيان ، على التقتيل وعلى هدم معابد مصر القديمة .

وعما يروى أنه كان يوجد حوالي سنة ١٣٠٠ سلطان من أصل نصراني ، وإذا ما صدقت الروايات وجدنا أن أصل لاشين من شواطئ البحر البلطى وأنه من كتبية فرسان الألمان غارب الصقالية في يده الأمر ثم اشترك في آخر الحروب الصليبية واعتنق دين أعدائه ونودي به سلطاناً في القاهرة حينما نسي جميع الناس أصله ، ويقال رداً على مغامرته إن إنشاء إسلامياً عجيباً خُطف من خزائن الماليك في إحدى القرصانات<sup>(١)</sup> الجرمانية فأتى به إلى بروسيه فتجده اليوم في قصر مارينبرغ . ولم يسلم ألوف النصارى عن إكراه أو اقتناع ، بل أسلموا فراراً من الضرائب الثقيلة ، وبلغ عدد من أسلموا من الكثرة ذات حين ما نزل معه دخل بيت المال من ثلاثة ملايين جنيه إلى مليوني جنيه وما دُعِرَ معه أمين بيت المال فطلب إلى السلطان أن يمنع مؤقتاً كل اعتناق جديد للإسلام ، وذلك درهماً لما قد يحقق بماليته وسلطته من خطر .

وَيَقْبُ ذلك دورٌ كبير من السِّلْمِ الدينيِّ في مصرَ ، ويُعَيِّن في أثناء ذلك نصرانيٌّ وزيراً للملك الناصر كما كان يوسفُ قد عيَّن وزيراً لأحد الفراعنة ، فأخذ الأقباط في أعيادهم يستعمرون الشَّعَادَ والبُسْطَ من المساجد المجاورة ، وصارت جميعُ الأديانِ تَتَّحِدُ عند عدم ارتفاع مياه النيل فتتولَّف مَوَكِّباً رسمياً على طول النهر فيتقدم السلطانُ المَوَكِّبَ لابساً ثوباً من صوفٍ أبيضَ ، ويكون الخليفةُ بجانبه ، ثم يأتي قاضي القضاة والشيخ الأكبر ، ثم يأتي أخبار اليهود وقُسُوس القبط ، ثم تأتي الكتبُ الثلاثة ، القرآن والتوراة والإنجيل ، التي أُمِّتْ إلى نشوب حروب كثيرة ، بجانب بعضها بعضاً ، ثم يُضَرَّع إلى الله باللغات الثلاث ، وباسم الأنبياء الثلاثة الغرباء ، أن يُنْزِلَ غَيْثَهُ على النهر ويسْتَرْ البلدَ بالخَصَرِ ، وكان ذلك يَقَعُ في القرون الوسطى ، في عصرِ التعصب والجهل ، في بلد التسامح مصرَ التي قد يُكَرَّرُ فيها ذلك غداً

وكان سلوكُ الخليفةِ عمرَ أكثرَ رُوحانيةً عندما يتأخر فيضان النيل ، فلما رَفَضَ فاتحُ مصرَ ، عمرو بن العاص ، تقديم عروسٍ لتكون قرباناً للنيل لاح هذا النهرُ حاقداً ، فأبدى عمرو ما يساوره من غَمٍّ لمولاه عمرَ الذي كان بدمشقَ سائلاً إياه عما يفعل فأرسل عمرُ إليه الكتابَ الآتي آمراً إياه بأن يَقْذِفَهُ في النيل ، وإليك :

« من عبد الله عمرَ أميرِ المؤمنين إلى نيلِ مصرَ ، أما بعد فإن كنتَ تَجْرِي من قِبَلِكَ فلا تَجْرِي ، وإن كان الله الواحدُ القهارُ هو الذي يُجْزِيكَ فَنَسْأَلُ الله الواحدَ القهارَ أن يُجْزِيكَ » ، ولم يَسْمَعْ النيلَ نِجَاهَ هذا الوعيدِ المَلِكِيِّ المُشْتَمِلِ على طابعِ السُّمُوِّ والخشوعِ معاً إلا انخضوعُ قضاة مياهُه في الند ، وهذا ما رواه القرينى

على الأقل ، وذلك لأنه كان يؤذَن للجِغرافيين أن يكونوا من الشعراء .

حتى إن السلاطين اتصفوا بقناة السويس القديمة مجدداً ، فكانوا ينقلون بها الحبوب إلى جزيرة العرب ، فلما اشتعلت القِتَن في بلاد العرب أمر الخليفة بإغلاقها كما صنع ذلك ملوكُ الفرس فيما مضى .

وفي أربعين يوماً حفر سلطان آخر قناة واسعة بين القاهرة والإسكندرية فوسَّع بذلك نطاق جنوب الدلتا الغربي وُبَيَّ ثلاثون جسراً حجرياً فساعد ذلك على نمو التجارة في تلك البقعة ، وشيدت هناك قصور رائعة ، وأنشئت هناك مئة قرية ، وأُتِيَ بأشجار مشجرة من سورية فسُتِر بها ما عُدَّ حتى الآن من الصحارى .

وأنشأ السلاطين طرقاً تجارية كبيرة وغرسوا في منطقة النيل الأعلى من غاب السَّطَب ما يكون لهم به خشب يُفَشَّشون منه سفناً لهم ، وكان يُمكن صنع جميع ذلك مع ما يحدث من تبدل مستمر بين أولياء الأمور ، وبفضل ما كان من سلسلة مراتب وثيقة بين الجنود تتلأ بالسلح ما يَفْضِلُ السلطان عن رعيته من هوة ، وذلك مع وقوفها دون تأليف نظام إقطاعي ، وذلك لعدم القيام بفتوح ولعدم وجود منزل لضابط ، ومن ناحية أخرى كان لأقل أمير من أمراء الممالك جنوده ، أى كان له عشرة عبيد على الأقل كما كان لأمير الطبول من العبيد ما بين الأربعين والثمانين وكان للأمير القائد من العبيد مئة وعشرون ، وكان على كل أمير أن يُجهز رجاله ويُطعمهم بما يُخصَّص له من أرزاق ووظائف ، فكان ما ينطوى عليه نظامُ الممالك هذا من سلطة مركزية قوية ضامنة لسلامة القلعة والعاصمة والبلد .

وقد يُقاس الممالك بالفرقة الأجنبية ، لما تشتمل عليه من أناس منتسبين إلى

عروق مختلفة ، والماليكُ هم من الترك والشرس والألبان والروم والصرب ، ومن فرنسي الجنوب ومن الجنوبيين أيضاً ، فكان في كل سنة ينزل الألوف من هؤلاء إلى الإسكندرية مع حَظَرِ الملوك وحرَمِ البوابات ، والفارق الوحيد هو أن هؤلاء عبيدٌ عابرون ينتقلون كالتحليل بين راكبٍ وراكبٍ وتُطَمَسُ أسماؤهم وأصولهم فلا يُحفظون إلا باسم تاجرهم وسيدهم ، وقد ظهر منهم وزراء أقوياء مع ذلك ، وقد نَقَلَ أبرعهم سلطانهم إلى أبنائهم مع ذلك ، فساروا في ذلك على غرارِ نظائر القصر في العهد القرنيحي ، وذلك بدلاً من أن يجلسوا بأنفسهم على العرش ، وهل يمكن سلطة قائمة على مثل تلك الوسائل أن تظل مقبولة لدى الشعب زمناً طويلاً ؟

وكان الماليك يُمارسون صناعات البلد المكتسبة أو ما وَرِثُوهُ عن آبائهم ، فازدهرت حِرَفُ القُرُص في القاهرة بعض الزمن ، وبلغَ حُسْنُ ما كان يُحبَّبُ في تَنِيْس ودمياط من نسايج الحرير درجةً يتتاع أمراء الأجانب معها كل ثوب بمئة جنيه ، وبخمسة جنيه إذا كان مُنِيرًا<sup>(١)</sup> بذهب ، ومن هنالك جُلِبَ مِصْطَفُ رُوجِر الصَّغْلِي .

ولم يكن إنشاء المباني ليمتد بسرعة كما يَهْوَى الماليك الفاقدون الصير ، فإذا لم يَكْفِ العبيد للعمل سُحَّرَ ألوفُ الناس له بالسِّياط ، وهكذا حَوَّلَ مَقْلَعُ واقع في القلعة إلى حَظيرة غَنَمٍ يعمل متصل دام خمسة أسابيع ، وهكذا كانت الدولة تأخذ فائدة عمل أرباب الحِرَف ، والقَلَّاح ، البعيد من رِقَابِهَا وحده ، هو الذي كان يظل بجانب ساقيته ، فيصعد الماء .

(١) نير الثوب : جل له نيراً ، والنير هو القصب والحيوط إذا اجتمعت ، والنير هذب الثوب ولحمته أيضاً .

## حكومات الماليك

والدولة هي السلطان ، وَيَحِقُّ الْخَطَرُ بِذَلِكَ النِّظَامُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ يَغِيرُ فِيهَا السُّلْطَانُ أَوْ يَمُوتُ أَوْ يُقْتَلُ ، وَيَقَعُ هَذَا فِي كُلِّ خَمْسِ سِنِينَ ، وَيَتَعَاقَبُ ثَلَاثُ وَخَمْسُونَ حُكُومَةً مِنَ الْمَالِيكَ تَنْسَبُ إِلَى اثْنَتَيْنِ وَعِشْرِينَ أُسْرَةً فِي ٢١٠ سَنَةٍ ، وَقَدْ مَاتَ ثَلَاثَةَ عَشَرَ سُلْطَانًا عَلَى فِرَاشِهِمْ ، وَقَدْ خُلِعَ الْآخَرُونَ أَوْ قُتِلُوا ، وَكَيْفَ يُمْكِنُ الذِّكَاؤُ أَوْ الْمَالُ أَنْ يُسْتَقَرَّ عَنْ عَمَلٍ كَبِيرٍ فِي حَالٍ خَالٍ مِنَ الْأَمْنِ كَمَا رَأَيْتَ ؟ حَتَّى إِنْ إِدَارَةُ النَّيْلِ لَمْ تَقَلَّ بِأَيَّةٍ إِلَّا لِأَنَّ الْفِرَاعَةَ ابْتَدَعُوهَا مِنْذُ أَرْبَعَةِ آلَافِ سَنَةٍ .

وَيَدَاوِمُ النَّيْلُ عَلَى الْجَبَرِيَّانِ ، وَلَكِنْ مَا أَبْعَدَ الْأَمَدَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْفِرَاعَةِ ! وَيَقْبُ أَمَلُ الْفِرَاعَةِ فِي الْخُلُودِ ذِكَاؤُ الْأَغَارِقَةِ وَظَرْفُهُمْ وَرُوحُ الرُّومَانِ الْعَمَلِيَّةُ الْفَاتِرَةُ وَتَمَقُّبُ النَّصَارَى ذَوِي الْأَبْصَارِ الْمَرْتَفِعَةِ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ حُبُّ الْقِتَالِ الْغَرِيزِيُّ لَدَى الْأَسْيُوبِيِّينَ ، ثُمَّ بُعْثُ مَصْرَ قَبْضَةً قَسَاةٍ مَغَاظِرِينَ يَعِيشُونَ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ وَيَتَهَادَمُونَ ذَوْمًا بِمَا يَحْكُو كُونُهُ مِنْ مَوَاقِرٍ مُسْتَمِرَّةٍ .

وَمَنْ يَمْلِكُ : أَلْسُلْطَانُ أَمْ وَزِيرُهُ أَمْ حَرِيمُهُ أَمْ أَمْرَاؤُهُ ؟ فَهَذَا هُوَ السُّؤَالُ الَّذِي كَانَ يَحْرُكُ الْعَاصِمَةَ فَتَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ سَعَادَةُ مَنْ يَتَصَرَّفُونَ فِي شُؤُونِ مَصْرَ وَتَعَسُّهُمُ ، وَلَا تَجِدُ فِي تَارِيخِهِ مُؤَلِّفٌ مِنْ تَسْمِئَةِ صَفْحَةٍ لِمَصْرَ فِي الْعَهْدِ الْعَبَّاسِيِّ غَيْرَ وَصْفٍ لِنَظْمِ الْأَسْتِيَاءِ الْعَامِّ تَقْرِيْبًا ، وَالسَّيِّئَةِ الْحَامِلِ لِقَرْبَتِهِ وَالْفَلَاحِ بِجَانِبِ سَاقِيَتِهِ وَحَدَّهَا هُمَا اللَّذَانِ كَانَا يَأْمُلَانِ أَنْ يُبْصِرَا شَمْسَ اللَّهِ فِي الْفَنَاءِ إِذَا مَا دَاوَمَتْ قُلُوبُهُمَا عَلَى الْخَفَقَانِ ، وَكَانَ الْاقْتِرَابُ مِنْ شَمْسِ السُّلْطَانِ ، أَوْ نَيْلُ الْخُطْوَةِ لَدَى بَطَانَتِهِ عَلَى الْأَقْلِ ، غَايَةً كُلُّ رَجُلٍ وَكُلُّ امْرَأَةٍ ، وَكُلُّ دُنَا الْإِنْسَانِ مِنْ ذَلِكَ زَادَ رَقْلَهُ ، وَيَسْتَقْطُ مَعْظَمُ النَّاسِ قَبْلَ بُلُوغِ الْقَرَضِ .

وَصِغَارُ النَّاسِ وَحَدَمُ هُمُ الَّذِينَ كَانُوا يَكْتَفُونَ بِكَسْبِ عَيْشِهِمْ ، وَأَمَّا الْآخَرُونَ

يسنونهم ثم يذبحونهم

فكانوا يطلّبون الذهب ، وإذ كانت القلعة هي التي تُورّع الذهب والشكوك فإن ذلك أسفر عن درجة من الحماية لم تصل إليها أوربة في القرن الثامن عشر ، ولم تبلفها سان بطرسبرغ قط ، فلم تحزل بقاياها من القاهرة حتى الآن .

وكان من عادة السلاطين في ذلك الزمن أن يسمنوا ذوى الحظوة لديهم ، فإذا ما اكتظوا بذبحهم وهبوا خزائنها لمن يخلقهم في الحظوة ، وكان من الخزنة من ينهبون الأوقاف الخيرية عدّة سنوات ويبتزون أموال الأمراء من غير أن يمنعم أحد ، حتى السلطان ، من إدخال قسم من هذا الذهب إلى جيوبهم ، ويمضي زمن فيقدّر السلطان ، الذي لم يكف عن رقابة هؤلاء الخزنة ، أن أحدهم بلغ من الثراء ما يعدّه معه غنيمة كبيرة ، فيسجنه ويعرّيه ويُقيد يديه ويركبه حماراً ويأمر بأن يمرّ من الشوارع على هذا الوجه ، ويكشف الجلازة<sup>(١)</sup> ما عنده من أكبادس الحجارة الكريمة والثياب الثمينة ، فيعذبون أمّه وإخوته وأصدقاءه نبشاً للكثير من الخائب فيقتضى السلطان بذلك يوماً سعيداً ، وكان السلطان الناصر يسأل رُسُلَه عن الحلوان الذي يأخذونه من الأمراء ، وكان الوزير نخميد يقترض بضعة دوانق من أصدقاء له تظاهراً بال فقر .

(١) الجلازة : جم الجلاز ، وهو العرطل الذي يغرق القهاب والمجرم بين يدي الأمير .



يدأومُ ذهبُ بلادِ النوبة على الانصباب من النيل الأوسط في خزائنِ سادةِ مصرَ ، ويُعْمَلُ في المناجم ليلاً لكي يَسْتَطَعَ التَّيْبُ<sup>(١)</sup> على نورِ المصباح ، وَيَظَلُّ بعض الرجال نَفْسًا حتى الصباح ، ثم يملأون أكياساً من التَّيْب فتَحْمَلُ على الجمال حتى الآبار ، وهناك يُخْلَطُ التَّيْبُ بالزُّبْق ويَذَاب ، فيُجَلَّب في زوارق مسلحةٍ لِيُضْرَبَ نقوداً في القاهرة .

والطمعُ آفةُ السلاطين ، ويفاجئُ الله هؤلاء الطُّمَعَاءُ بأمرٍ في بعض الأحيان ، ومن ذلك أن جاء الطاعون من بلاد الصين حوالي سنة ١٣٥٠ قمرًا من مصرَ قبل أن يحتاج أوربة ، فبلغ عددُ مَنْ يموتون به في القاهرة في اليوم الواحد عشرين ألفَ شخصٍ أحياناً ، ويُفَزَّرُ السكُّ فيعموم فوق النيل ، وتُكسى أجسامُ المواشي بالدِّمَامِيل ، ويُفْسِدُ الدُّوْدُ ثَمَارَ النخيل ، ويصادر السلطانُ جميعَ الموارث التي يَتَعَذَّرُ تنظيمُ أمرِها في أثناء تلك القوضى السائدة لكلِّ مكان ، والواقع أن الطاعونَ أنقذ سلاطينَ مصرَ من الإفلاس مرتين .

والسلاطينُ كرماء مع ذلك ، وإذا كان الشعبُ قد جعل من القِرَى أساساً للعلاقات ، وإذا كان أفقرُ مسلمٍ سلطاناً في سبيل ضيفه الذي يُؤوِّيه تحت سقته ، فما أعظم ما يُنْثَبُ السلطانُ به أنه مُسْلِمٌ ! وإن السلاطينَ ليرْمون إلى الفقراء ذلك الذهب الذي يَصْفُطُ ضَمِيرَهُمْ كما يَصْفُطُ ضَمِيرَ كثيرٍ من الأغنياء ، فيتقاتل أولئك الفقراء لينالوه ، ويُنْشَى السلاطينُ سَحَامَاتٍ ومساجدَ ، ويُجَزِّلُونُ العطاءَ

(١) التبر : ما كان من الذهب في تراب معدنه .

للشعراء والعلماء بلا روية كما يَنْثُرُونَ النقودَ في الشارع ، وَيَرُدُّونَ الضرائب إلى قرية ما من غير سببٍ خاصٍ ، وَيُقَدِّمُونَ سلاحاً وَبُرْاةً إلى أمراء مُراضين ، وَيُقَدِّمُونَ إلى الرجل الذي يريدون إكرامه أَجَلَ هدية يَغْرِفُهَا عربيٌ ، يُقَدِّمُونَ إليه جواداً أصيلاً ، ومما يَرَوِي أن السلطان الظاهر دفع مبلغ ١٥٠٠٠ جنيه ثمناً لحِصان ، وقال سلطان آخر لوزيره الذي كان طبيباً كبيراً فطَرَحَ على قدميه كتابَ طبٍّ : « أريد أن أكَفِّكَ بأحسن مما كَفَّاهُ الإسكندرُ أَساتذته » ، فأقطعهُ أطيافاً عظيمةً في الدلتا ، وَيَغْرِزُوا هذا السلطانُ في زمنٍ آخر ما انتابه من انحرافٍ إلى مُسهِّلِ قَوِيٍّ رَكِبَهُ له ذلك الوزير الطيب فأمر بقتله في الغد مع بلوغه الثمانين من سِنِيهِ .

والقسوة هي صفتهم الثانية ، ومن ذلك أن ناظرَ بيت مال الناصر محمد النصراني الأصل لم يَمُدَّ كافياً ما قام به من تعذيب أحد الأغنياء سَحْلًا له على الاعتراف فلفَّ يديه بنسيجٍ مُبْتَلٍ بقطرانٍ وأشعل هذا النسيجَ ، ومن ذلك أن آخرين كانوا يُفَطِّسُونَ في ماء مُملَحٍ وَيُغَسِّلُونَ بِكَلْسٍ ثم يُرْمَوْنَ على صفاخٍ حجريّةٍ باردةٍ ، ولم يكن الجَلَّادون وحدهم هم الذين يَجْلِدُونَ وَيُغَمُّونَ وَيَنْزِعُونَ اللسانَ وَيَنْعَلُونَ الإنسانَ كالْحِصانِ وَيُسَرُّونَ الناسَ على السُّرُجِ ، بل كان السلطانُ يَثْبُ من فوق عرشه لِيَقْرِبَ صاحبَ مَنْصِبٍ كبيرٍ حتى يُذَمِّيه ، ومن ذلك أن سلطاناً آخرَ التهبَّ غيظاً من عدم كفاية الجبَاية فأمر بإحضار اثنتي عشرة سَحامةً وقطع رِقابها وقال : « هكذا سأذبحكم جميعاً » ، ومن ذلك أنه لم يُقْتَصِرْ على السَّيْرِ في الشوارع برأسٍ مغرورٍ على حَرَبَةٍ لعدوٍ مقهورٍ ، بل طَرِحَتْ جُثَّةُ هذا العدوِّ في بالوعةٍ إِيذاناً للشعب بأن السلطان حقَّ الحياة والموت على أكابر الرجال في دولته ، ومن

ذلك أن السلطان الناصر سَجَنَ أَحَدَ الْمُقَرَّبِينَ لديه وَحَكَمَ عليه بالموت جُوعاً فَأرسل إليه في اليوم الثامن ثلاثة أطباقٍ مُغَطَّاةٍ ، فخُيِّلَ إلى هذا المُخْتَصَر أن السلطان عَفَا عنه فَكشَفَ عن الأطباقِ شَرَهَا ، فَوَجَدَ الطبق الأولَ يشتمل على ذهبٍ ، وَوَجَدَ الطبق الثاني يشتمل على فِضَّةٍ ، وَوَجَدَ الطبق الثالث يشتمل على حجارة كريمة ، فلما انقضى اثنا عشر يوماً مات الرجل وَوُجِدَتْ في فهِ إصبعٌ انتزعها من يده التي قَرَضَ راحتها .

وقد يتواضعون من قَوَرَمٍ ، فيأمرّون الشيخَ بِالْأَيْنِ بِاسْمِهِمْ إلا بعد أن يَنْزِلَ درجةً من المنبر ، وَيُصَلُّونَ ساجدين على أرضٍ مُجَرَّدَةٍ من بَسَاطٍ ، وقد يُؤْتَى إليهم بعدوٌّ مقهورٌ معتقِدٌ دُنُوَّ أَجَلِهِ فَيَرْتَفِمُونَهُ وَيَعَانِقُونَهُ ، ولكن هذا ليس سوى انحرافٍ عن قسوتهم .

والإسرافُ صفتُهُم الثالثة ، وأولُ ما يَتَجَلَّى هذا الإسرافُ في دوائر الحريم كما في زماننا ، فإذا ما عُنَّتْ جاريةٌ على أنعامِ عُوْدٍ أُعْطِيَتْ ستين ثوباً حريراً ، وأربعة حجارة كريمة وستٌ لآلئٍ ، وأَقْطِيعَ مولاهُ أطيافاً ، وَيُهْدَى فريقٌ من الأمراء إلى السلطان ٣١١ شِمْعَةٍ مستورةٍ برسومٍ ، وَيَبْلُغُ وزنُ كلِّ واحدةٍ منها فَنُطْاراً ، فيقابل المَهْدِينَ ببطايا يَعْدِلُ ثَمَنُهَا ثلاثة أمثال تلك الهدية ، وَيُزَوِّجُ أَحَدُ السلاطين ابنته فيأمر بنصب خيام مَذْهَبَةٍ وبإحضار ١١٠٠٠ قرصٍ سَكَّرٍ محشورٍ بالمُرَبِّبَاتِ ، وَيَرْوِي المؤرخون أن السلطان صَنَعَ مثلَ ذلك في زواجِ بناته الإحدى عشرة فقال ناظر بيت المال مُتَحَسِّراً : « أَفَئِنِّي حَيَاتِي فِي جَمْعِ مَالٍ لَهُ ثُمَّ يُبَدِّدُهُ » ، وَيَذْهَبُ مُحَمَّدُ النَّاصِرُ إلى مكةَ حاجاً ، وتَتَقَدَّمُهُ أربعُ سفنٍ في البحر الأحمر ، وتشتمل قافلته على ستمئة جملٍ مُحَمَّلٍ ألفَ إِبْرَةِ وثلاثة آلافِ قَرُوجَةٍ وعلى قُدُورٍ

مملوءة خُصراً طازجةً وعلى صناديق مملوءة أزهاراً ، ويجوب الصحراء مع هذه القافلة ، حتى يَرَكَّعَ أمام قبر النبي خاشعاً .

ومع ذلك يساور الخوف أولئك السلاطين دوماً ، فكانوا يَحْشَوْنَ وجودَ خنجرٍ قاتلٍ وراء كلِّ ستار ، ويكشف استياء المالك الذين لم يَقْبِضُوا روابيهم عن وجود مؤامرةٍ يُحَوِّكُهَا أَحَدُ المقرَّين لِيُظْفَرِ بِهِمْ وَيَقْتَلَهُمْ ، ولم يتفق للسلاطين قطُّ مثلاً ما كان للفراعنة من صفاء عيشٍ فيتمتعوا بأطياب الحياة على حساب عييدهم وَيُتَعُوا أَسْرَهُمْ بها ، وما كان من رِيهِمْ حَوْلَ كلِّ مَنْ يُحِيطُ بِهِمْ ، وما كان من مكابدة الخِصْيَانِ الذين ينتمون من رجالٍ أَصْحَاءَ جَنَوْا عليهم ، وما كان من دسائسٍ لاحِدةٍ لها في دوائر الحريم ، أمورٌ كان يُحِيلُ إلى السلطان معها ائتمارُ كلِّ شيءٍ به فيضاعف عددَ حرسه الليليِّ من فوره ، أمورٌ كانت تُخَفِّزُ السلطانَ إلى إغلاق دكاكينِ بَأْنِي السِّلَاحِ ، أمورٌ كانت تُحْمِلُ السلطانَ على حَفَرِ الرِّمَايةِ على الشبان وعلى طَرْدِ جميع سكان العاصمة من منازلهم ، والسلطانُ إذا ما سافرَ تَحَوَّلَ في الليل من خِيَمَةٍ إلى خِيَمَةٍ غيرَ مَرَّةٍ .

وما كان السلاطينُ لَيَنْجُوا من قَدْرِ الله ، فما يحدثُ أن يُحَاطَ بِهِمْ ذات يوم ، وقليلٌ منهم مَنْ كان يُوقِّعُ للقرار ، ومن ذلك أن أَتَقَدَّ السلطان يوسفُ بفضل مُرَضِيْعِهِ المعجوزِ التي سَنَجَتْ<sup>(١)</sup> وجهه بالسُّخَامِ وَحَوَّلَتْهُ إلى غَسَّالٍ مُصُونٍ قَرّاً ، وهو يُحْمِلُ طبقاً بيده ، من الباب الذي كان يمتنع خلفه قبل يوم .

ويسأل المؤرخُ المُوَزَّعُ للعدل في نفسه عن وجوبِ حَوِّ ذِكْرِ أولئك الرجال الذين هَلَكُوا كما أَهْلَكُوا أعداءهم .

(١) سنجه : لعلّخه بلون غير لونه .

وَيُمَثِّلُ الكِفَاحُ وَالْخِدَاعُ وَالْجَمَالُ فِي الْإِسْلَامِ دَوْرًا أَكْبَرَ مِنْ مَا فِي جَمِيعِ الْأَدْيَانِ الْأُخْرَى ، وَمِنْ هُنَا تَجِدُ مَا عِنْدَ أَتْبَاعِهِ مِنْ طِرَازِ حَيَاةٍ تَخَالِطُهَا رُوحُ الْمَغَامِرَةِ مَعَ إِيْمَانٍ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ ، وَمِنْ هُنَا تَجِدُ قُودَانَ رُوحِ الْمَوَاطِنَةِ ، وَلَا تُبْثِرُ تِلْكَ الْقُرُونُ التَّسْعَةُ فِي النَّفْسِ سِوَى خِيَالِ سَيْفٍ لَامِعٍ ، وَصَوْتِ مُؤَمِّرٍ مُقَدَّبٍ ، وَصُورَةٍ جَارِيَةٍ فَتَاةٍ كُتِبَ لَهَا الْفَوْزُ بِفَضْلِ فُتُونِهَا .

## ١٧

وَأَقْلُ مِنْ ذَلِكَ مَا تَرَكَ الْتُرْكُ ، الَّذِينَ جَاءُوا بَعْدُنَا ، مِنْ آثَارٍ ، وَسَارَ التُّرْكُ عَلَى غِرَارِ الرُّومَانِ فَلَمْ يَعِيشُوا بِمَصْرَ ، وَإِنَّمَا ابْتَلَعُوها جَاعِلِينَ مِنْهَا إِحْدَى وَلَايَاتِ دَوْلَتِهِمْ مَعَ عَدَمِ إِدْخَالِ لِنِظَامِ الرُّومَانِ ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْ هَذَا الْعَهْدِ الَّذِي دَامَ نَحْوَ ثَلَاثَةِ قُرُونٍ ( ١٥١٧ — ١٧٩٨ ) غَيْرُ ذِكْرِيَاتٍ أَقْلٍ مِمَّا بَقِيَ مِنَ الْأُمَمِ السَّبْتِ الْفَاتِحَةِ الَّتِي أَتَتْ قَبْلَهُمْ ، وَيُقَالُ ، مَعَ ذَلِكَ ، إِنَّ الْخُلَفَاءَ أَذَاعُوا صِيَتَ مِصْرَ عَلَى شَوَاطِئِ الْبَحْرِ الْمَتَوَسِّطِ الْأُخْرَى بِتَقْلِهِمْ أَعْمَدَةً رَاقِمَةً مِنْ كُلِّ دُورٍ إِلَى ضِيْفَانِ الْبُسْفُورِ ، وَذَلِكَ لِيَدْعَمُوا سَقْفَ السَّرَايِ ، وَذَلِكَ مَعَ صَبْغِ نَسَائِهِمْ أَظْلَافَ رَهْنٍ بِمَسْحُوقٍ غَيْرِ مَعْرُوفٍ بِأَسِيَةِ ، وَكَانَتِ الْعَقَاقِيرُ وَالْمَطُورُ الَّتِي تُرْسَلُ إِلَى دَائِرَةِ الْحَرِيمِ تُؤَلَّفُ جِزَاءً مِنَ الضَّرَائِبِ الْعَيْنِيَّةِ الَّتِي يَجِبُ عَلَى الْوَلَايَاتِ الْبَعِيدَةِ أَنْ تُعَدَّهَا لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ .

وَإِذَا نُظِرَ إِلَى التُّرْكِ مِنَ النَاحِيَةِ التَّارِيخِيَّةِ وَجِدُوا وَارِثِينَ لِأَوَاخِرِ الْعَبَاسِيِّينَ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمَالِيكَ الَّذِينَ كَانُوا قَابِضِينَ عَلَى زِمَامِ الْأُمُورِ مِنَ الْأَمِيرِ إِلَى السُّلْطَانِ مِنْذُ زَمَنِ طَوِيلٍ مِنْ الْمَوَالِي التُّرْكِ ، وَيَنْطَلِقُ شَعْبُ التُّرْكِ الْمُقَاتِلُ مِنَ الْأَنْاضُولِ

فَتَقِيمُ دَوْلَةً عَظِيمَةً كَدَوْلَةِ الرُّومَانِ ، وَيَقُومُ جُنُودُ التُّرْكِ بِمَجْرَآتٍ عَنِيْفَةٍ فَيَخْضَعُ  
لِلتُّرْكِ أَمْرَاهُ الْبَلْقَانُ وَمُلُوكُ الْجَزَائِرِ وَتُونِسَ وَخَانَاتُ الْقِرْمِ وَأَمْرَاهُ الْمَوْصِلِ وَالْبَصْرَةِ ،  
وَيَصْبَحُ مَا بَيْنَ الْخَلِيجِ الْفَارْسِيِّ وَالْبَحْرِ الْأَسْوَدِ حَتَّى مُلْدَأَفِيَّةٍ مُلْكًا لَهُمْ ، وَتَهَارُ  
تِلْكَ الْإِمْبَرَاطُورِيَّةُ فِي الْحَرْبِ الْعَالَمِيَّةِ الْكُبْرَى فَلَمْ يَتْرُكِ التُّرْكُ أَيْ ثُرَاتٍ تَقَافِيَةٍ ،  
حَتَّى إِنْ نَفُوذَ الْخِلَافَةِ الَّتِي نَزَعَهُ فَاتِحُ مِصْرَ مِنْ صَاحِبِهِ الشَّرْعِيِّ الْأَخِيرِ لَمْ يَكُنْ  
مِنَ الْقُوَّةِ مَا تُجْمَعُ الْبِلَادُ الْمَفْتُوحَةُ بِهِ حَوْلَ مَثَلٍ عَالٍ مُبْدِعٍ لِحَضَارَةٍ .

وَيَدْخُلُ السُّلْطَانُ الْمَسْجِدَ الْكَبِيرَ فِي سَنَةِ ١٥١٧ ، أَيْ بَعْدَ اسْتِيلَاءِ السُّلْطَانِ  
عَلَى مِصْرَ ، وَيُتَلَّقُ رَاهِبٌ غَامِضُ الْأَمْرِ عَلَى بَابِ كَنِيسَةٍ بِأَحْدَى الْقُرَى الْأَلْمَانِيَّةِ  
شَهَرِ حَرْبِ رُوحِيَّةٍ عَلَى الْبَابَا بِرُومَةِ ، وَفِيهَا كَانَ السُّلْطَانُ يَفْرِضُ بِالسَّيْفِ نِظَامًا  
اسْتِبْدَادِيًّا يَشْمَلُ بِلَادًا بِأَسْرَافِ عِدَّةٍ قُرُونٍ كَانَ الْآخِرُ يُؤَسِّسُ بِخِيَالِهِ وَإِيْمَانِهِ جَمْعِيَّةً  
ذَهْنِيَّةً جَدِيدَةً ، وَمَاذَا بَقِيَ مِنْ عَمَلِ السُّلْطَانِ سَلِيمٍ إِذَا مَا قِيسَ بِعَمَلِ لُؤْثَرٍ ؟  
فَالرَّاهِبُ ، لَا السُّلْطَانُ ، هُوَ الَّذِي يَبْدُو بِالْغَالِثِ فِي حَيَاةِ الْأُمَمِ مِنْذُ خَمْسَةِ قُرُونٍ ،  
وَلَمْ يَكُنْ لُؤْثَرُ مُفَكِّرًا ، وَيُعَدُّ لُؤْثَرُ مَقَاتِلًا عَظِيمًا فِي كُلِّ زَمَنٍ ، وَمَعَ ذَلِكَ يَقُولُ لُؤْثَرُ :  
« أَجَلٌ ، إِنْ الرُّوحَ وَالسَّيْفَ هَا اللَّذَانِ يَسِيطِرَانِ عَلَى الْعَالَمِ ، وَلَكِنْ النَّصْرُ يَكُونُ  
حَلِيفَ الرُّوحِ فِي نِهَايَةِ الْأَمْرِ » .

وَلَا شَيْءَ يَرْبِطُ أُولَئِكَ الْفَاتِحِينَ بِالْبِلَادِ الْمَقْهُورَةِ ، وَكُلُّ مَا يَكْتَرِثُ لَهُ أُولَئِكَ  
الْفَاتِحُونَ هُوَ أَنْ يَنَالُوا مِنْهَا أَقْصَى مَا يُمْكِنُ نَتِيلُهُ مِنَ الْمَالِ ، شَأْنُ أَرْبَابِ الْمَالِ الَّذِينَ  
يَمْلِكُونَ أَسْهَمَ مَصَانِعَ لَمْ يَرَوْهَا قَطُّ ، وَلَمْ يَأْتِ خَلْفَاءُ السُّلْطَانِ إِلَى مِصْرَ حَتَّى  
لَزِيَارَتِهَا ، وَلَمْ يَسِرِ الْوَلَاةُ الَّذِينَ كَانُوا يُرْسِلُونَهُمْ إِلَيْهَا نَحْوَ مَجْرَى النِّيلِ الْقَوَاتِي ،  
وَكَانَ هَؤُلَاءِ الْوَلَاةُ يَجْهَلُونَ الْفَلَاحِينَ كَمَا يَجْهَلُونَ الْمَاعِدَةَ الَّتِي تَجْتَذِبُ نَثَاتِ السِّيَاحِ

منذ هذا الدور ، وكان باشوات القرن السادس عشر والقرن السابع عشر من القوة ما يَفْرِضُون معه مشيئة مولاہم البعید ، وكان المالِكُ أنصاراً للحكومة كما في الماضي ، فينتظرون بعد قتلِ باشام إرسالِ باشا آخرٍ محترمين مثل هذه القواصل في الحكم ، وكان بَلَطُ القلعة مملوءاً بأروع الخيول وأبهى العبيد ، وكان البكواتُ والأمراء يتنافسون في حيازة أئمن الثياب وأحسن الشُرُوج وفي الألباس والبنادق والسِّياط الساطعة فيَبْدُون أجملَ من عَرَفْنَهُم تلك القلعة ، فكأن الله لم يأذن في نسيانِ المئاتِ ممن سبقوهم في ذلك البَلَطِ وخَنَقِها ، والحقُّ أنهم مصدرُ الجمال والهُولِ في تلك العاصمة .

ويَقِفُ الذهب عن الجريان في الوقت نفسه ، ويَجْتَمِعُ الخيالُ والذكاء قبل استيلاء الترك على مصرَ بيضع سنين ، وبعد عهد أقوى المالِكِ بعامين ، فيَكْسِران قَيْدَ بَلَدَيِ العالم القديم القويين بلا قتال ، فقد نشأ عن مجاوزة فاشكو دُوغاماً رأسَ الرجاء الصالح وإلقائه مَرَّاسِي سَفِينَةِ البرتغالية الثلاث على ساحل الهند الجنوبيُّ خرابُ البندقية ومصرَ ، وقد أوجب ذلك مرورَ منسوجاتِ الصين الحريرية ومنسوجاتِ الهند القطنية والفُقلِ والسكر وجَوَزِ العُليْبِ وعُودِ النَّدِّ واللآلئ والحجارة الكريمة من الطريق الجديدة لمدة ثلاثمئة سنة ، وذلك بعد أن دام مرورُ هذه الأشياء من دلتا النيل إلى الغرب مدة ألف سنة ، وقد أوجب ذلك تحويلُ الهولنديين والإنكليز سُوقِ العالم إلى أمستردام ولندن .

وهكذا يُصِيبُ الضَّرُّ ممالكَ مصرَ فيَنهَبُونَ الفلاحَ الذي يَتَلَقَّى الصدمة دوماً ، سواء أَوَقَفَ النيلُ عن الزيادة والفيضان أم اكتشف بعضُ الأجانب طريقاً بحرية جديدة على بُعْدِ ألف ميل ، وإليك ما ورد في تقريرِ وَضَعِهِ قناصلُ فرنسيون :

« لَا يَقِفُ جَسَعُ الْمَالِكِ عِنْدَ حَدِّ مَا لَمْ يَعْتَزِ الْفلاحونَ عَنِ الدَّفْعِ ، وَلَا يَعْرِفُ هَؤُلَاءِ الْبَاسُونَ سَبِيلًا إِلَى الْخِلَاصِ غَيْرَ الْفِرَارِ ، وَالْفَلَّاحُ ، إِذَا مَا غَدَا غَيْرَ قَادِرٍ عَلَى تَسْكِينِ شَرِّهِ سَادَتِهِ ، غَادَرَ حَقُولَهُ وَمَنْزِلَهُ ، وَبَحَثَ مَعَ زَوْجِهِ وَأَوْلَادِهِ عَنْ أَرْضٍ يَزْرَعُهَا فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى وَعَنْ سَادَةٍ أَقْلَ طِمَعًا مِنْ أَوْلَئِكَ ، وَيَعَامِلُ الْفلاحونَ ، وَيُعَذِّبونَ مِنَ الْفَدَّادِينَ ، كَأَحْقَرِ مَنْ يُقِيمُونَ بِتِلْكَ السُّلْطَنَةِ ، لَا كَحَفْدَةِ شَعْبٍ فَاحِمٍ مِصْرِيٍّ ، وَهَمْ ، لِمَا لَيْسَ عِنْدَهُمْ مِنْ شِجَاعَةٍ وَبَاسٍ ، تَجِدُ مَا يَسَاوِرُ رُوحَهُمْ مِنْ وَجَلٍ وَخَمُولٍ يَحْمِلُ دُونَ اشْتِرَاكِهِمْ فِي أَصْفَرِ الْفَتَنِ الَّتِي تُحَرِّكُ مِصْرَ فِي الْغَالِبِ ، وَيَنْظُرُ سَادَتُهُمْ إِلَيْهِمْ كَمَا يَنْظُرُونَ إِلَى جَيَوَانَاتِ الزَّرْعَةِ فَلَا يَزْأَفُونَ بِهِمْ ، وَلَا يَشْمَلُونَهُمْ بِأَيَّةِ رِعَايَةٍ تَقْتَضِيهَا الْإِنْسَانِيَّةُ ، وَيَتَصَرَّفُ سَادَتُهُمْ فِي أُمُومِهِمْ وَحَيَاتِهِمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَكْفِيحَ الْحُكُومَةُ هَذَا الطُّغْيَانَ ، وَتُحَرِّضَ الْحُكُومَةُ ، بِسُلُوكِهَا ، عَلَى ذَلِكَ الْجَوْرَ بَدَلًا مِنْ مَعَالَجَتِهِ ، وَمَا أَكْثَرَ مَا أَبَاحَتْ اتِّهَابَ قُرْمِي بِأَسْرِيهَا وَاسْتِنْصَالَ أَهْلِهَا مَتَذَرَعَةً بِشَكَاوَى غَيْرِ صَحِيحَةٍ .. »

« وَيُذَبِّحُ الْإِنْسَانُ فِي الْقَاهِرَةِ كَمَا يُذَبِّحُ الْحَيَوَانُ ، وَيَقُومُ الضُّبَابُ الَّذِينَ يَطُوفُونَ لَيْلَ نَهَارٍ بِشُؤْنِ الْقَضَاءِ عَلَى قَارِعَةِ الطَّرِيقِ فَيَتَحَكَّمُونَ وَيَشْتَقُونَ النَّاسَ حَالًا ، وَمَنْ يُشَبِّهَ فِيهِ بِأَنَّهُ يَحْمُوزُ مَالًا وَفَقَّ وَشَايَةً عَدُوٌّ يَدْعَى لِيَتَشَلَّ بَيْنَ يَدَيِ الْبِكِّ ، فَإِذَا رَفَضَ الدَّعْوَةَ أَوْ أَنْكَرَ وَجُودَ مَالٍ لَدَيْهِ طُرِحَ عَلَى الْأَرْضِ وَجُلِدَ بِالسَّوْطِ مَتَى جُلِدَ أَوْ قُتِلَ مِنْ قَوْرِهِ . »

وَيَقِيلُ سُلْطَانُ بَاشَوَاتِ الْقَاهِرَةِ فِي الْقَرْنِ الثَّامِنِ عَشَرَ مَقْدَارًا فَقْدَارًا ، فَتَصْبِحُ السُّلْطَةُ قَبْضَةً جَمَاعَاتٍ مُؤَلَّفَةٍ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا مِنْ أَعْيَانٍ يَتَرَجَّعُ عَدُّهُمْ بَيْنَ الْأَرْبَعَةِ وَالْعَشْرِينَ ، وَمَا كَانَ يَحْدُثُ أَحْيَانًا أَنْ تَتَقَاتَلَ حُكُومَاتُ ثَلَاثِيَّةٍ ، وَمَا



كان يَحْدُثُ أحياناً أن يُوَفَّقَ طاغيةُ للحكم عشرَ سنين من غير أن يُقْتَلَ ، ويرتش الباشوات على وسائدهم الحرية ويحاولون إنقاذ حياتهم على حين كان الجَبَّارُ إبراهيمُ يُرْهَبُ القاهرة ، ويقايل المالكُ بكواتهم ، ويقايل البكواتُ فريقَ الكاشفية ، ويكافحُ الشيوخُ والعلماءُ فريقَ الأمراء ، ويفتتِ حَفْدَةُ العيد هؤلاء بسرعة فيملكون بيوتاً جميلةً ونساء ذوات ثياب ثمينة ويؤلف حرسهم من أنكشارية يذفون رواتبهم من مالهم الخاص إغاطةً لخصومهم ويهزأ لسيون الناس ، وأما الجوارى البيضُ اللآلئ يجمعونهن فلسن من الجمال ما يعدل حسن بنات العرب فيما مضى ، فيكفتن بكونهن من السان « مع وجه كالقمر وأوراك كالوسائد » .

وكان لدى الأقباط عيدٌ أيضاً ، وكان الغنى منهم يحور ثمانين جارية من البيض والشود والحبسيات ممّا على ألا يرثه أولاده الثغلاء ، وإذا مات القبطى أعلنت السلطات إفلاسه وصادرت أمواله ، ولذا كان القبطى فى أثناء حياته يظهر اعتداله ويخفى غناه ، وكان محظوراً على النصرانى فى القرن الثامن عشر أن يسير راكباً فرساً فى شوارع القاهرة التى هى من أكثر المدين سكاناً فى ذلك الزمن ، وإذا ما كان النصرانى راكباً حماره وجب عليه أن يترجل عند مرور أحد البكوات أو مرور شائب من خصيان السراى راكباً جواداً أصيلاً ، وهكذا ترى القبطى يأسف على أنه لا يستطيع أن يقتنى حصاناً مطمهماً ، وهكذا ترى الخصى يأسف على أنه لا يستطيع أن يقتنى نساء حساناً .

وإذا كان القبطى المزدرى كثيراً قد صار لا بد منه فى المعاملات والإدارة كاليهودى فإن نفوذ الترجان أخذ يعظم شيئاً فشيئاً ، فكان الترجان واسطة لازمة فى جميع الخصومات بين الترك والأوربيين ، ولا يزال الترجان يُشير فى

الذهن صورة طبيب أُسْرِقَ بِعَرَفِ أَسْرَارِ زَوَاجِهِ فَيَحَاوِلُ شِفَاءَ أَمْرَاضِهِ مَثِيراً حَذَرَ  
الزَّوْجَيْنِ مَعَ اكْتِسَابِ ثِقَّةِ كُلِّ مِنْهُمَا .

ولم يكن للإنكليز قنصلٌ مقيمون بالقاهرة حتى في القرن السابع عشر ،  
والإنكليزُ قد نالوا أهمَّ النتائجِ الجوهريَّةِ بفضلِ غريبٍ منهم هنالك ، فلما عاد  
برُوسُ في سنة ١٧٧٣ إلى القاهرة مكتشفاً النيلَ الأزرقَ بعد مغامراتٍ كثيرةٍ كان  
من رُتُونَةِ الثَّيَابِ ما أُرْسِلَ الْوَالِيُ الْتُرْكِيُّ إِلَيْهِ بِدَرَّةٍ <sup>(١)</sup> ذهبٍ في سَلَّةٍ بِرَتْقَالٍ ،  
وَيَرْفُضُ بَرُوسُ الْبَدْرَةَ ، فَيَسْأَلُهُ الْوَالِيُ عَمَّا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَصْنَعَ لَهُ فَيُجِيبُهُ بَرُوسُ  
قَائِلاً : « اَمْنَحُوا أَبْنَاءَ وَطَنِي حَقَّ جَلْبٍ سَلَمَهُمُ الْهِنْدِيَّةُ بِالسُّنَنِ إِلَى السُّوَيْسِ بَدَلاً  
مَنْ إِكْرَاهَهُمْ عَلَى إِتْرَافِهَا إِلَى جُدَّةٍ » ، وَيُعْطِيْهِ لَمْ هَذَا الْاِمْتِيَازُ ، وَلَمْ تَلَبَّثْ أَهْمِيَّتُهُ  
أَنْ بَدَتْ وَأَنْ أَدْرَكَهَا التَّاجِرُ الْقَدِيرُ فِي الشَّرْقِ الْأَدْنَى ، بُلْدُونِ ، الَّذِي عَرَّضَ  
مُشَارِيحَهُ عَلَى الْحُكُومَةِ الْإِنْكَلِيزِيَّةِ فِي تَقَارِيرٍ كَثِيرَةٍ جَاءَ فِيهَا : « وَهَكَذَا تَجَمُّعُ  
بَيْنَ الْفَنَنِجِ وَالنَّيْلِ وَالتَّامِيسِ فَتَشْرَبُ عَلَى ذُرْوَةِ الْهَرَمِ نَحْبَ إِنْكَلِتْرَةَ » ، وَكَانَ لَا بُدَّ  
مِنْ انْقِضَاءِ عَشْرِ سَنِينَ حَتَّى تُذْرِكَ تِلْكَ الْحُكُومَةُ فَائِدَةَ السُّوَيْسِ كَرَفْلاً مُرَوِّرٍ  
وَدَرَجَةً اخْتِصَارِ الطَّرِيقِ الْبَرِيَّةِ حَتَّى مَوَاقِي الدَّلَتَا الشَّرْقِيَّةِ .

وذلك هو الزمنُ الَّذِي بَدَأَ فِيهِ تَنَافُسُ فَرَنْسَةَ وَإِنْكَلِتْرَةَ عَلَى ضِفَافِ النَّيْلِ ، وَكَانَ  
الْفَرَنْسِيُّونَ أَكْثَرَ حُظُوءَةً ، وَيَنْزِلُ قَنْصَلٌ جَدِيدٌ مَعَ النَّيْلِ مِنْ بُلَاقٍ إِلَى رَشِيدٍ  
بِأَهْلِيَّةٍ عَظِيمَةٍ ، وَذَلِكَ فِي ذَهَبِيَّةِ مَنَارَةٍ كَانَتْ كَلِيوِيَّاتِرَةَ تَفَارُ مِنْ زَوْعَتِهَا لَوْ رَأَتْهَا ،  
وَيَذْنُونُ عَهْدَ آلِ الْبُورْبُونِ مِنْ نَهَائِهِ ، وَيُعْنَى كُلُّ مُوَظَّفٍ بِتَزْيِينِ نَفْسِهِ بِالزُّنْبُقِ  
قَبْلَ فَوَاتِ الْأَوَانِ ، وَلَمَّا غَيَّرَتِ الثَّوَرَةُ الْفَرَنْسِيَّةُ حَيَاةَ عِظَمَاءِ الْعَالَمِ انْتَفَعَ بِهَا

(١) البدره : الكيس الموضوعة فيه الثود .

## تبدأ لينينتز

بكواتُ الترك أنفسهم في القاهرة ، وقد ساروا على طريق أغنياء أوربة في الزمن  
الراهن فصرّحوا بأن حقوق الإنسان التي أعلنت حديثاً جعلتهم مُعسرين فامتنعوا  
عن دفع الخراج إلى الخليفة .

وسوف يروّون نزول الثورة الفرنسية إلى مصب النيل على شكل غير منتظر  
عما قليل .

## ١٨

تبدأ غزوة بوناپارت لمصر بِلِينِتَز وتُختم بِجِفْرَوَا سَنَب هِيلر ، وكان أحدُ  
هذين الفكرين العظيمين موحياً بهذه الحملة الخائبة ، وكان الآخر ظافراً فيها .

إليك فيلسوفاً في السادسة والعشرين من سِنِيهِ ، إليك هذا الكاتب في وزارة  
إمارة ألمانية صغيرة ، قد تَمَثَّل وسيلة لإبعاد الفرنسيين من حدود ألمانية ، وكان  
هذا في سنة ١٧٧١ ، وكان هذا حين بلوغ لويس الرابع عشر أوج مجده ، وما  
كان من اتحاد الجيوش الألمانية والجيوش الفرنسية ضدَّ السلطان الذي لم تنهز  
سلطته مع هزّها ألقى في رُوعه فكرة إمكان فصل قسم من ولاياته من غير  
أن يثيره ذلك إثارة خاصة ، وكانت هذه الفكرة من الفكر الدارجة في ذلك الحين ،  
ولكن من دون أن يُحدِّدها أحدٌ كما صَنَعَ لِينِتَز في رسالته : المُجمَع المصري ،  
ويَسْعَى في شق طريقه إلى الملك الشمس ، ولا بدُّ له من تعيين وقت المقابلة ،  
ويُجهِّزهُ الأميرُ بكتاب يُقدِّمه فيه إلى ذلك الملك ، أو ليست هذه الثالثة العملية  
من شيم الألمان الحقيقي ؟ ويروِّد لِينِتَز أن يُسلم إلى ملك فرنسا مذكرة ينصحه

فيها بأن يَفْتَحَ بلدًا تركيًا . وينتظر في باريس أربع سنين على غير جدوى ، وكان ذلك الماهرُ النهمكُ في حروبه ونسائه يرى أن الملك يكون أذكى من أى فيلسوفٍ كان .

ويغيب الملك ويتوارى الفيلسوف ، ومع ذلك تداوم الفكرة على سيرها رويداً رويداً ، ومن المخامين من كانوا يحطّون من قيمة الفكرة أحياناً ناظرين إلى عيب مدصرٍ قبل كل شيء ، ويمضي قرنٌ فيعود إلى الفكرة قطبٌ سياسيٌ كبير ، يعود إليها دوك شوازول في منفاه الرائع بشان تلّوب فيفهمها شاباً كتماساً مجهول الأمر ، يفهمها تاليران الذى أبصر دهاءه السياسى قبل كل شخصٍ آخر ، ويعرض تاليران تحت تماثيل اللوفر الداعمة ، بعد عشرة أعوام ، أى في سنة ١٧٩٧ ، « ما يُجتنى من المستمرات الجديدة من فوائد في الأحوال الحاضرة » ، وما قاله هنالك عن الشرق ماثلاً في جميع الذكريات ، فلما تَمَرَّ ثلاثون سنةً على الزمن الذى طرّد الإنكليز فيه الفرنسيين من الهند ، وكل ما هو حديث في ذلك القول هو ما انطوى عليه من برهنة مظهر لأهمية مفتاح الغرب : مصر ، ونال تاليران نجاحاً يائياً بذلك ، وكان تاليران هنالك أقل فتوراً من عادته ، وكان تاليران في أمريكا الفتاة قد عرّف كيف يُقدّر فتون الحياة الاستعمارية ، ويندو تاليران وزيراً للخارجية بعد خمسة عشر يوماً .

ولما قرأ الجنرال بونابارت في مؤنبلو ، بعد انتصاراته الأولى بإيطالية ، خطبة الوزير الجديد تلك تأثرتُ مُجدداً من الشاعر والأفكار السابقة ، فيصحو الرياضى والخيالى فيه ، وينظر إلى الماضى والمستقبل ، وتمتزع ذكرى الإسكندر وقصر وما ناله في مصر من مجدٍ بأمله في إيذاء إنكلترة ، وكان اللامزمُ القنّى بونابارت قد

كافح سَأَمَ حياة الحامية بقراته كتابين عن الهند ومصر مشهورين في ذلك الزمن ،  
 فزار مؤلف أحدهما وسَجَّلَ في يوميته قوله : « يَأْتِي كُلُّ مَجْدٍ مِنَ الشَّرْقِ كَمَا تَأْتِي  
 الشَّمْسُ مِنْهُ » ، وفي الشرق سيَأْفُلُ مَجْدُهُ بعد حين ، وبما أن بونا بارت كان مستعداً  
 دوماً للانتفاع بِالْمَذْفَعِ دَرَجاً لنظرياته الفلسفية أو تَخْلُصاً منها فقد كتب ، بعد أن قرأ  
 مذكرة تاليران ، يقول للحكومة الديركتوار إن قهر إنكلترة لا يكون في غير البحر  
 المتوسط ، وهو لم يُعَمِّمْ أَنْ وَضَعَ خِطْطاً عَظِيمَةً حَوْلَ الْبَحْرِ الْمُتَوَسِّطِ قَائِلاً : « وَلَمْ  
 لَا نَسْتَوِلِ عَلَى نَجْرِيَةِ مَالِطَةِ ؟ وَإِذَا مَا وَجَبَ عَلَيْنَا أَنْ نَنْزِلَ عَنْ رَأْسِ الرَّجَاءِ  
 الصَّالِحِ نَتَجِعَ لِمَصَالِحَتِنَا إِنْكَلْتَرَةَ أَصْبَحَ اسْتِيلَاؤُنَا عَلَى مِصْرَ ضَرْبَةً لَا زَبَّ ، وَيُمْكِنُ  
 السَّفَرُ مِنْ هُنَا بِجَيْشٍ مُؤَلَّفٍ مِنْ خَمْسَةِ وَعَشْرِينَ أَلْفَ رَجُلٍ تَحْرُسُهُمْ ثَمَانِيَةٌ ،  
 أَوْ عَشْرَةٌ ، مَرَاكِبَ حَرِييَّةٍ ، مَوْفَتْحُ مِصْرَ بِهَوْلَاءِ الْجُنُودِ ، فَصَرُ لَيْسَتْ مُلْكُ  
 السُّلْطَانِ » ، وبما ذَكَرَهُ ابْنُ الْجَزِيرَةِ هَذَا بعد حينٍ مُوَكِّدًا أَنَّ الْبَحْرَ الْمُتَوَسِّطَ كَانَ  
 هَدَفَ سِيَاسَتِهِ الْأَسَاسِيَّةِ ، وَيَجِدُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ ، كَمَا يَجِدُ كُلُّ جُنْدِيٍّ يَرَى  
 تَسْوِيفَ فَتُوْحِهِ ، مِنَ الْأَسْبَابِ الْأَدْبِيَّةِ مَا يُبْرِرُ خِطْطَهُ ، وَمِنْ ذَلِكَ وَجُوبُ إِتْقَانِ  
 أُولَئِكَ الْمَصْرِيينَ الْبَانِسِينَ مِنْ جَوْرِ السُّلْطَانِ ، وَمِنْ حَسَنِ حَظِّهِ أَنْ اسْتَطَاعَ الْإِنْتِفَاعَ  
 بِتَقْرِيرِ قَنْصَلٍ يَتَوَجَّعُ فِيهِ مِنْ اعْتِدَاءَاتِ الْحُكُومَةِ التُّرْكِيَّةِ .

وَبَعْدُ بِعِدَّةٍ خَمْسَةِ أَشْهُرٍ سَجَلَهُ لَمْ تَجْرُؤْ دَوْلَةُ أَوْرِيَّةٍ عَلَى مُحَاوَلَتِهَا ، وَمَا يَحِيطُهَا بِهِ  
 مِنْ غَمُوضٍ قِيْدَقِهِ إِلَى الْإِسْرَاعِ ، وَهَذَا هُوَ بَدِئُ سِيَاقِهِ الْأَعْظَمِ الَّذِي دَامَ  
 سَبْعَ عَشْرَةِ سَنَةً فَانْسَاقَ فِيهِ هُوَ وَزَمَلَاؤُهُ وَفَرَنسَةُ وَالْعَالَمُ بِأَجْمَعِهِ ، « فَلَا يَنْبَغِي أَنْ  
 يُفْرَطَ فِي دَقِيقَةٍ وَاحِدَةٍ » ، وَيَهَيَّئُ تِلْكَ الْحَمَلَةَ فِي سِتَّةِ وَسَبْعِينَ يَوْمًا ، وَيَبْلُغُ الدَّلْتَا  
 بَعْدَ سَفَرٍ مُثِيرٍ ، وَيَسْهَلُ عَلَيْهِ بُلُوغُ الدَّلْتَا كَمَا سَهَّلَ عَلَى الْإِسْكَانْدَرِ وَقِصْرَ مَنْ قَبْلَ ،

## أسباب خيبة الحملة

ولم يكن لأى من هؤلاء الفاتحين أن يخوض غمار معركة بحرية .

يبد أن أول سبب في خيوط عمل بوناپارت هو أنه أول من جاء من الغرب لفتح مصر ، وإذا كانت الإمبراطورية الرومانية صاحبة السيادة في بلاد الفول عندما استولت على مصر فإن مركز ثقلها كان في الشرق ، ولم يكن ليفضل مصر عن جزر البحر المتوسط التابعة لرومة غير وثبة واحدة في ذلك الحين ، ولم تزل مدة السفر بين طولون والإسكندرية ثمانية أسابيع من دون رسو في ميناء ومع مرور ألفي عام على ذلك الزمان ، ومع ضرورة الإفلات من أسطول العدو ، وكان من المتعذر أن تُفهر إنكلترة في مصر سنة ١٧٩٨ كما تمذّر قهرها سنة ١٩١٥ ، وكان استقرار الإنكليز بالدلتا نتيجة وحيدة لحملة بوناپارت .

والسبب الثاني في خيوط عمل بوناپارت هو جهله الحرب البحرية ، فمع أن جنوده غلبوا للماليك على الرغم من شدة الحر في شهر يولييه ، ومن غير أن يقتل منهم أكثر من خمسين رجلاً ، غلبوا في البحر بعد عشرة أيام من قبل نيلسن .

والسبب الثالث في ذلك الخيوط هو أنه كان على بوناپارت أن يقاتل بحداث تأتى من الخارج مع أنه لم يكن على قمير ، ولا على الإسكندر ، ولا على قيصر ، أن يخشوا تدخل أجنييا من ناحية البحر .

والسبب الرابع ، وهو أعمق الأسباب ، هو أن الفرنسي ، أو نصف الفرنسي بوناپارت ، كان يتبنى الرجوع إلى الغرب بأى ثمن كان ، وإن لم يثبت وضعه بمصر بعد ، وكان أكثراته ليباريس أكثر من أكثراته لجميع سور القرآن ، ولم يكن المجد الذى يقطعه على ضفاف النيل ، على ضفاف هذا النهر المنى ، لئذ كره بجانب ما يتجنيه على ضفاف نهر السين ، ويفر بوناپارت من مصر عندما أدرك

ببصيرته أن السلطان بفرنسة صائرٌ إليه ، وكان الرجلُ الذي جاءه بأحدث الأنباء ، وقد مضى عليها شهران ، وبالجرائد المشتعلة على أخبار انكسارات فرنسة ، إنكليزيًا ، ولولا وُدُّ هذا الإنكليزيِّ ما غادر بوناپارتُ مركزه ، وما تركَ ضباطه وجنوده مُستخفيًا خلفًا لكلِّ نظام عسكريٍّ ، وما قام بانقلابه بعد بضعة أسابيع من عودته مستفيدًا من توتر النفوس ، وبوناپارتُ قرَّر كلَّ شيء في ليلة واحدة بالقاهرة قضاها في مطالعة تلك الصحف .

وكان النيلُ يرتفع يومَ معركة الأهرام ، وكان النيلُ بالغًا حدَّه الأقصى من الزيادة حينما تسلَّى بوناپارتُ هرمَ خوفو في يومٍ من شهر سبتمبر ، ولم ينطق بوناپارتُ بكلامٍ فخمٍ في حضرة أبي الهول ، بل أخذ يداعب ، وهو لم ينفك يناكد برتيه ، وذلك لأنه « لا يجد موضعَ أفكاره في الأعلى هنالك » .

وأراد بعض رفاقه أن يثكص على عقيبته ، لما لا يعرف أحدٌ بباريس ذلك ، فحملهم بوناپارتُ على بلوغ الغاية من الهرم ، والذي يقيفُ نظرنا من نبأ هذا الجولان هو أن بوناپارتَ حلَّ الآخرين على سبقه ، فمن المحتمل أن يكون قد أراد اغتنام بضع دقائق ليواجه أبا الهول وحده كما صنع الإسكندرُ وقصرُ فيما مضى ، وتدلُّنا صورةُ رسمها فيثان<sup>(١)</sup> دئون فيما بعد على اتخاذ العلماء وضعا مضحكا لما بدا فيها من وقوفهم على رأس أبي الهول حتى يقيسوا ارتفاعه بفادن<sup>(٢)</sup> .

وأدرك بوناپارتُ أمرَ النيل كما أدركه الرومان ، وذلك كما يُفهم من قوله الرائع : « ترى النيلَ بمصرَ ، أو رسولَ الخليل ، وترى الصحراءَ بمصرَ ، أو رسولَ الشَّوْءِ ،

(١) فيثان دئون : نحات فرسلي ( ١٧٤٧ — ١٨٢٥ ) — (٢) الفادن : في اصطلاح البنائين آلة تتجهن بها استقامة البناء وصحته .

حاضرين على الدوام » ، ويُضيف بوناپارتُ إلى ذلك قوله بإمكان اكتساب مملكة كاملة في الصحراء إذا ما أنشئت مئاتُ الأسداد والقنوات ، ودَرَس بوناپارتُ أمرَ القنوات فرسمَ ، حتى في جزيرة القديسة هيلانة ، مشاريعَ للتقنية والزراعة ، وسَحَرَت قناةُ السويس القائدَ العظيمَ بوناپارتَ الذي كان لديه مزاجُ مهندسٍ قبل كلِّ شيء ، وإذا كان بوناپارتَ في منفاه لم يَنفَكْ يَشْغُلْ باله بتقنيات النيل فإنه كان ، حين قيامه بِمَنصِبِ ملازم ، يقتطف عباراتٍ من مؤلَّفٍ عن قناة السويس في القرون القديمة فيرى في رسالةٍ تحقيقٍ كتبها أن « حَفَرَ الْبَرْزَخَ » عَمَلٌ يَقَعُ على عاتقه ، وذهب بوناپارتُ إلى السويس مخاطراً بحياته ، وذلك أن حَرَسَه عَمَلٌ خَلَفَهُ وأنه وَجَدَ مع دليلين بقايا القناة القديمة فتَلَبَّهَها مَسَافَةً خَمْسَةَ أَمْيَالٍ خَاسِراً حِصَانَيْنِ وأَحَدَ الدَّلِيلَيْنِ ، وقام بوناپارتُ بتلك الرُّحْلَةَ بِلَا مَتَاعٍ فَمَلَأَ ، فَيَزِيْ أَهْلُ تِلْكَ الناحية بعد زمنٍ أن كلَّ جندىٍ كان يَحْمِلُ رَغِيْفاً مَغْرُوراً بِمَجْرَبَتِهِ وَأَنَّ كُلَّ جندىٍ كان يُعَلِّقُ قَرَبَهُ بَعْنَقه ، وَبَيَّنَ بوناپارتُ بإمكان حَفْرِ الْبَرْزَخِ وَوَصَلَ الْبَحْرَيْنِ بِقَنَاةٍ مُّجَهَّزَةٍ بِأَسْدَادٍ .

وكتب نابليون في جزيرة القديسة هيلانة قوله : « تُحَفَّرُ على طول القناة قَنَاوَاتُ رِيٍّ لِتَوْسِيعِ مَدَى الزَّرْعَةِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشَّمَالِ عِدَّةَ أَمْيَالٍ ... وإذا ما كان من الأسداد ألفُ غُلْبٍ الْبَيْضَانِ وَوُزَّعَ ، وَتَقَسَّمَ فِي جَمِيعِ أُنْحَاءِ الْبِلَادِ مِلْيَارَاتُ أَقْدَامِ الْمِيَاهِ الْمَكْبَةِ الَّتِي تُضَيِّعُ كُلَّ سَنَةٍ فِي الْبَحْرَيْنِ أَقْسَامَ الصَّحْرَاءِ لِلتَّخْفِضَةِ حَتَّى الْوَاحَاتِ وَإِلَى مَا هُوَ أَبْعَدُ مِنْ ذَلِكَ فِي جِهَةِ الْغَرْبِ ... وَيُوجِبُ عِدَدٌ كَبِيرٌ مِنَ الْمِصْخَّاتِ النَّارِيَةِ وَالْمَطَاحِنِ الْمَوَاتِيَةِ رَفْعَ الْمِيَاهِ إِلَى الْمَقَاسِمِ حَيْثُ تُؤْخَذُ السَّقَى ... وَتُسْتَنْشَرُ الْحَضَارَةُ دَاخِلَ إفريقيا بعد حيازة خمسين سنةً » .



ولا تَقَلُّ حَمَاسَةُ غُوْتِهِ عَنْ حَمَاسَةِ نَآپِلْيُونِ فِي الْمَوْضُوعِ ، وَهَذَا يَكْفِي لَجُلِّ الْأُمُورِ عِلًّا بِحِثِّ مِثَالِهِ لِلْأَعْيُنِ ، وَتَمَضَى سَبْعُونَ سَنَةً فَتَقَوَّمَ الْإِمْبَرَاطُورَةُ أُوجِيْنِي الَّتِي هِيَ زَوْجٌ لِنَآپِلْيُونٍ آخَرَ بِالْإِشَارَةِ الرَّمْزِيَّةِ فَتَجَمَّعَ الْبَحْرَيْنِ .

وَيُؤَثِّرُ الْفَرَنْسِيُّ فِي الْفَلَّاحِ عِنْدَ أَوَّلِ تَمَاسٍّ كَثَاثِيرٍ جَمِيعِ الْفَاتَحِينَ السَّابِقِينَ ، فَتَهْتَفُ لَهُ ، وَذَلِكَ لِقَرَارِ ظَالِمِيهِ مِنْ خِلَالِ الصَّحْرَاءِ وَلِأَنَّهُ عَدَّ مَا وَقَعَ فِجْرَ عَهْدِ سَعِيدٍ ، وَمَا أَبْصَرَ الْفَلَّاحُ بَعْدَ مَعْرَكَةِ الْأَهْرَامِ حَنُوَ الْفَرَنْجِ حِرَابَهُمْ ثَانِيَةً لَتَصِيدُ الْمَالِيكَ الْفَرَنْقِيَّ وَتَجْرِيدِهِمْ مِنْ ذَهَبِهِمْ ، وَمَا أَكْثَرَ مَنْ اغْتَنَى مِنْ جُنُودِهِمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ ! وَيُبْصِرُ الْفَلَّاحُ سَيِّدًا آخَرَ يَحْتَفِلُ بِوَفَاءِ النَّيْلِ ، وَيَعْلَمُ الْفَلَّاحُ أَنَّ هَذَا السَّيِّدَ أَسَّسَ دِيْوَانًا جَدِيدًا بِرَأْسِهِ فِي الْحَيْنِ بَعْدَ الْحَيْنِ ، مَعَ جُلُوسِهِ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْأُورِيَّةِ وَمَعَ ظُهُورِهِ بِهَذَا ، أَيْضًا ، أَعْلَى مِنَ التَّرْكِ الْقَاعِدِينَ الْقَرُفُصَاءِ ، وَيَرَى الْفَلَّاحُ حَاطِرًا أَنَّ النَّصَارَى يَجُوبُونَ الشُّوَارِعَ كَالْإِقْطَاعِيِّينَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُكْرَهُوا عَلَى التَّزْوِلِ مِنْ فَوْقِ حَيْرِهِمْ كَمَا كَانَ فِي الْمَاضِي ، وَيَخْجِبُ ظَنُّ أَهْلِ الْقَاهِرَةِ بِمَا رَأَوْا مِنْ بَسَاطَةِ بَاشَاكِ الْجَدِيدِ ، وَالْأَذْكِيَاءِ وَحَدَمِهِمُ الَّذِينَ أَدْرَكُوا الْوَضْعَ فَقَالَ أَحَدُهُمْ : « إِنِّي تَاجِرٌ بَسِيطٌ ، وَلَدَيَّْ أَحَدُ عَشَرَ خَادِمًا مَعَ ذَلِكَ ، وَلَيْسَ عِنْدَ الْقَائِدِ ثَلَاثَةٌ مِنْ الْخَلْدَمِ ، فَلَا تَحْبَبُ مِنْ قَهْرِهِ الْبُكَ لِنَدِّكَ » ، وَيُبْذَلُ جُهْدٌ لِمُعَامَلَةِ الْفَلَّاحِ بِالْعَدْلِ كَالَّذِي أَبْدَاهُ دِيْرُهُ فِي أَثْنَاءِ حَمَلَتِهِ بِمَصْرِ الْعِلْيَا عَلَى الْخُصُوصِ ، وَمَاذَا يَدُورُ فِي خَلْدِ الْفَلَّاحِ إِذَا أُطْلِعَ عَلَى مَا يُبْذِيهِ الْبَاشَا الْجَدِيدُ نَحْوَ مُوسَى وَعَمَّادٍ مِنْ عِجَابٍ وَعَلَى جَعْلِهِمَا فَوْقَ عَيْسَى مَرْتَبَةً وَعَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَسْخَرُ بِهِ مِنَ الْبَصِلِيِّينَ الَّذِينَ يُصَلُّونَ بَدَلًا مِنْ أَنْ يَسِيرُوا ؟

وَإِذَا رَجَعَتِ الْبَصَرُ إِلَى جَمِيعِ حُرُوبِ نَآپِلْيُونِ لَمْ تَجِدْ لَوَاحِدَةٍ مِنْهَا ، حَتَّى لِلْحَرْبِ



٤٠ — زوجان ملكيان من البطالة



روسية ، مثل تلك الصفة غير الحقيقية ، مثل تلك الصفة الوهمية ، وتُشير تلك الحملة في النفس فكرة قِطْمَةٍ ناقصةٍ من الأدب كتبها شاعرٌ في شبابه ، وكلُّ ما يقوم بقوة السلاح يزول حالاً ، وما كان من تسليم فرنسا التامُّ أمام إنكلترا فيعدُّ نتيجةً لتلك المغامرة ، حتى إن بوناپارت أبصر ذلك قبل عودته ، فأباحه للقائد الذي خَلَقَهُ إذا ما اضطرَّ إليه .

ومع ذلك امتد دوى هذه الحملة إلى التاريخ الحديث ، وقد طلب بوناپارت ارتياد وادى النيل رياداً تاماً لإنشاء مستعمرة فرنسية فيه ، وقد أراد بوناپارت أكثر مما هو ضروريٌّ نافع قضاء لمطالب الروح ، فترك سلطان فرنسا العابر في مصر آثاراً بعيدة القور مع أن النظام التركيَّ المُسلمَ به والذي دام ثلاثمئة عام لم يترك أثراً ، فالذي يلوح هو أن ذلك القائد الشاب الذي احتفل في القاهرة ببلوغه الثلاثين من عمره ودَّ لو يَضُنَّ نفسه ضدَّ النسيان ، وقد أعان العلماء على ذلك ، فأخبروا ذكرى ذلك القائد الذي لم يعرف غير قليلٍ نصر في ذلك البلد .

والواقع أنه عن لبوناپارت أن يأتي بمعهد للعلوم والفنون حتى يحارب معه ، والواقع أنه عن لبوناپارت هذا الأمر الذي لم يأت بمثله أحد من القائمين السابقين ، وما كان من ذُبُوعِ صيته ومن تأثير المبادئ العامة في ذلك الزمن حَقَرَ أ كابر العلماء من ذوى الشعور الشمر إلى الإبحار من طولون وإلى الاشتراك في حملة لا يعرفون هدفها ، فقال أحدهم ، وكان من علماء الأرض : « أذهب إلى ذلك البلد المجهول ما وُجِدَ فيه حجر » ، فلما نَزَلَ هؤلاء العلماء والمتفنون ال ١٤٣ ، الذين عُني باختيارهم من كلِّ نوع والذين قُسِمُوا إلى خمسة فروع ، إلى سفيتهم الشراعية أخذ القائد العام يقيم ، في كلِّ مساء ، في غرفته بالركب ، حفلة نقاش

## أسئلة في الاجتماع الأول

بعد أن يكون قد بلغهم الموضوع وقت الصباح ليستعدوا ، وبعد قليل يُقيمون بقصر رائن في القاهرة جدير برواية ألف ليلة وليلة ، ذي روضة غناء يتفلسفون فيها على طريقة المشائين ، فيرون درجة تقدير القائد لهم ، ويترك هذا القائد في اجتماعاتهم غير حامل حُسامه ، ويُسمى ضباطه هذا المهدب « خليفة القائد المُفضلة » ، ويُذكر العلماء أن هذا الرجل الذي يوشك أن يغلو الجميع ليس سائفاً عادياً ولا جباراً أمياً ، وإنما هو عبقرى راعب في الاطلاع بلا انقطاع فيحضر كل اجتماع يفقدونه .

وتمضي ثلاثة أسابيع على فتح القاهرة فيطرح الأسئلة الآتية في اجتماعهم الأول وهي : ١ - كيف يجب أن يُبنى الأفران ؟ ٢ - أو يجب أن تكون الطاحن هوائية أم مائية في هذا البلد ؟ ٣ - أي نوع من حشيشة الدينار يجب أن يستعمل في الحصة المحلّية ؟ ٤ - تصفية ماء النيل ٥ - أو يوجد هنا من المواد ما يصلح لصنع البارود ؟ ٦ - أو يمكن إصلاح العدل والثروة في هذا البلد وفق رغائب السكان ؟

وبما حدث ، لمرة واحدة فقط ، أن وافق على قراءة صحيفة له بنفسه ، وهو الذي سجّل نفسه بين الرياضيين مع حفظ مكان له بين الشعراء ، فبين له مُونج مُحدراً ، بلباقة ، أنه لا ينبغي له أن يُنتج ما هو متوسط ، ويُعدّل بوناپارت عن الكلام بنفسه ، ويُجمل من شخصه مثلاً على الامتناع لم يتبعه الطغاة الأصغر في الزمن الحاضر

ويُدّرس العلماء والمتفنون في ثلاث سنوات جميع ما هو موجود في وادي النيل فيبحثون في نباتاته وحيواناته وطبقات سكانه وتاريخ أهله وفي معابده وقبورهِ وتماثيله

وكتاباتاته ، ويَصْعُ بوناپارتُ قائمةً عن فتواته لم يَسْبِقْهُ أحدٌ إلى مثلها ، ويُشارُ في هذه القائمة إلى درجة الانتفاع بالقنوات وتوسيعها وإلى مِساحة الأراضي الصالحة للفلاحة ، وهذا عملٌ عظيمُ الشأن ، وهذا عملٌ استفاد منه العدو ، استفاد منه الإنكليز ، وقد أُخْرِجَ حجرُ رشيدٍ من الأرض قُبَيْلَ رجوع بوناپارت ، فاعترف أعضاء العهد بأهميته من قوَرِم وإن صَرَّحُوا بعدم معرفة ثاقب الخطوط الثلاثة .

وكادت تلك الوثائق المهمة تَضِيْعُ ، فلما فتح الإنكليز مصرَ وركب العلماء سُنَنُ الإنكليز في سنة ١٨٠١ وفق مهادنة الاستسلام أمرهم أميرُ البحر الإنكليزيُّ بأن يَسْلُمُوا مجموعاتهم مُقَدِّمًا ، ويَخْرِجَ شَرَرُكًا في كلِّ مرةٍ يتصادم فيها السيفُ والرُّوح ، ويَخْرِجُ الشَّرَرُ من الرُّوح ، لا من السيف ، في هذه المرة ، وذلك أن جُوفَرَوَاسْتَنَت هِيلير قال بشدةٍ للإنكليزيِّ الذي خَصَرَ للمفاوضة : « فَضِّلْ حَرَقَ كَنوزنا بأيدينا على تسليمها إليكم ، والصيتُ هو ما تَهْدِفُونَ إليه ، فَكُرُوا في صحائف التاريخ ، ذلك يَغْنِي حَرَقًا ثانيًا لمكتبة الإسكندرية » ، ويُنفِذ هذا الاحتجاجُ البليغ ما بَقِيَ من تلك الحملة من أمرٍ وحيد ، ويَتِمُّ النصر للروح على الإنكليزيِّ في المكان الذي انتصرت فيه قنابلُ الإنكليز على الفرنسيين .

فتح بوناپارتُ مصرَ في ثلاثةٍ وعشرين يومًا من تاريخ وصول أول مركب ، ونُشِرَتْ مجلداتُ العهد المصريِّ التسعة في ثلاثٍ وعشرين سنةً ، وتَمَّ صدورُ آخرِ المجلدات في عهد آل البوربون ، ونُزِعَ العلماء من علمهم فَوَجَدُوا أنفسهم أمامَ ملكٍ حينما كانوا منهمكين في تكديس وثائقهم ، فكانهم أناسٌ قَضَوْا ليلةً في قَصْفٍ ولَهُوٍ فأَبْصَرُوا الفجرَ وعادوا إلى منازلهم مُحَمَّاةً عُشْيًا بنور النهار .

وهكذا خُتِمَت الحملة المصرية ، كما بُدِئَتْ ، بإشارةٍ من عالم ، وكلُّ ما آتَى

به بوناپارت لنفسه من تلك الحملة هو مملوكٌ طويلٌ ينام أمام بابه وجعلُ نزع من إصبع أحد القراعة .

## ١٩

يرجع بحث النيل إلى جنديين ، وكما أن اكتشاف منابه في القرن التاسع عشر كان من عمل صيادين ، لا من عمل عالمين ، كان قهرُ مصبه من عمل مستبدين ، لا من عمل مهندسين ، وما فطّر عليه قوادُ التاريخ المظالمُ الخمسةُ أو الستةُ من مزاجِ جبارٍ قد حملهم على مكالفة العناصر وعلى المدول عن الحروب المخربة الدامية وعلى إيقاد حروبٍ مؤلدةٍ كائناتٍ جديدةٍ نضرةً ، وإذا كان حُبُ الإنسانية لم يدقهم إلى العذل فإن للناس فوائدٌ من أفعالهم على الأقل ، وهكذا أخضع ناپليونٌ ومحمدٌ علىُ نهرَ النيل على وجهٍ جديدٍ قاطع .

ولم يفرّ بوناپارتُ من إفريقية ليصير إمبراطوراً في أوربة لحقّ على ضفاف النيل أحلامُ فتاته كما تغلب بإرادته على القوضى فيما بعد ، والواقعُ أن بوناپارتَ لم يحلم ببلاده كما حلمَ بمصر فكانت تمثل له دوماً كما تمثل الفتاة الشاعر ، ومنتحل خلقه في مصر أفكاره ، ويبدو النيلُ خطاً وصل بين رجلين يُعدّان أعظم من في عصرهما من السادة .

وليس ذلك مصادفةً صرفةً ، فهناك تجانسٌ عميقٌ بين محمد على وناپليون ، بين التركي والفرنسي ، وإن شئت قلّ بين الألباني والقورسقي ، فكلاهما عمِل في سبيل عظمة وطنه الثاني ، وكلاهما ولد سنة ١٧٦٩ ، وكلاهما خرج من طبقة

لم يكن وراءه أى ماض كان

متوسطة ، وكلاهما قَدَّ أباه فى صباه فنشأ بين إخوة وأخوات كثيرين ، وكلاهما اضطرَّ إلى احتمال تَبِعَةِ أعماله قبل الأوان فأدرك باكراً أهمية وسيلتي السلطان : المال والسلاح ، ولم يَسْمَعْ كلٌّ من الرجلين ، ابن تاجر القهوة الشاب فى قوله وابن المحامى فى أجا كَسْبُو ، فى بيئته حديثاً عن غير الأراضى والسفن والمال وطُرُق جَمْع ذلك كله بفضل حِرْبه ، ويشترك ابنا البحر المتوسط ذانك منذ البُدْاءة فى المنازعات المحلية بوطنيهما الصغيرين ، ويؤدَّى الاضطرابُ الاجتماعى إلى تَمَيِّزِها وسِرِّها قَدْماً ، ويَمُنُّ وطنهما المنكورُ عليهما بالدهاء ، وتُوَحِّى صروفُ الدهر إليهما بالأحلام الجريئة التى يغامر من أجلها بكلِّ شئء والثى يُمكن بها كلُّ شئء ، وتُسَوِّرُ هذه العناصرُ الكثيرةُ الاختلاف عن واقعية يُثيرُها الخيالُ وعن تحويلِ الرجلِ نفسه إلى دِيبَلْمَى وإلى جنْدى .

ومع ذلك كان بوناپارتُ الشابُ وارثاً لثقافة أَلْفِيَّةٍ حيناً تَمَثِّلُ كنوزَ الماضى ، ومع ذلك لم يكن وراء محمد على أى ماضٍ فكان مِلْكَاً حيناً تَعَلَّمَ القراءة فى الأربعين من عمره ، وقد قامت رسالتهُ الأولى على وَضْعِ حَدِّ للثورة الفرنسية التى ما فتئت تشتمل منذ عشرينين ، وقد حرَّكَ الآخرُ جُهوراً فائراً وأيقظ شعباً ناعساً ، وذلك إلى وجودِ فَرْقٍ جوهريٍّ ، وهو أن نابليون أنجزَ عمله وأبصرَ انهياره فى خمسةَ عشرَ عاماً مضطرباً . وأن محمداً علياً قضى خمسين عاماً فى إتمامِ صُنْهِه ، قضى ما بين الثلاثين والثمانين من عمره فى إنشاء مصرَ على الرغم من الحروب ، ولما أراد نابليون أن يقوم بعملٍ جليلٍ سَيَّرَته ظلالُ انتصاراتٍ شابهة إلى بقاعٍ بعيدة ، ولما أصبح محمد على شائباً تركَّ كلُّ ميلٍ إلى الفتح مُتَفَرِّغاً لإدارة بلده .

وتجدد سِرُّ الخاتمتين فى اختلاف طموح الرجلين ، ولا مِرَاءَ فى أن طموح محمد على



يَعْدِلُ طُمُوحُ نَافِيلِيُون ، فَيَصْبِحُ تَاجِرُ التَّنْبَغِ السَّابِقُ وَالضَّابِطُ الْمَجْهُولُ الْأَمْرُ هَذَا  
مَلِكًا ابْنًا لِّلسَّادَةِ وَالثَّلَاثِينَ ، أَيْ فِي السَّنِ الْغَدَا نَافِيلِيُونُ فِيهَا إِمْبَرَاطُورًا ،  
وَلَكِنْ نَافِيلِيُونُ يُتَنَاوَلُ التَّاجُ مِنْ يَدَيِ الْبَابَا لِيَضَعَهُ بِنَفْسِهِ عَلَى رَأْسِهِ ، وَلَكِنْ عَمْدًا عَلِيًّا  
يُنَالُ الْوَلَايَةَ مِنَ الْخَلِيفَةِ ، هُوَ جَاكُمُ مَطْلُوقٌ مَعَ بَقَائِهِ تَابَعًا ، هُوَ لَمْ يَأْتِ حَرَكَةً بِصِيرُ  
بِهَا مُسْتَقْلًا ، هُوَ يَمُوتُ بِأَسَا أَوْ عَزِيرَ مِصْرَ .

وَمَعَ ذَلِكَ كَانَتْ تَسَاوُرُ الْفَاصِينَ مُسْئَلَةٌ وَاحِدَةٌ ، تَسَاوُرُهَا وَرِاثَةُ الْعَرْشِ الْمُبَاشَرَةُ ،  
وَكَانَ الْمُسْلِمُ أَوْفَرَ حَظًّا مِنَ النَّصْرَانِيِّ فِي هَذَا الْأَمْرِ ، وَكَانَ قُوَادُ الْإِمْبَرَاطُورِ يَفِيضُ  
حَنَانًا أَشْرِيًّا ، وَلَكِنْ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُرْزَقَ وَلَدًا حَتَّى الْأَرْبَعِينَ مِنْ عَمْرِهِ ، وَكَانَ  
عَمْدُ عَلِيٍّ فِي التَّاسِعَةِ عَشْرَةٍ مِنْ سِنِيهِ حِينَمَا رُزِقَ ابْنُهُ الْأَوَّلُ ، فَبَلَغَ عَدْدُ أَوْلَادِهِ مِنَ  
الذَّكَورِ وَالْإِنَاثِ خَمْسَةً وَتَسْعِينَ ، وَمَا كَانَ لِيَحْتَاجَ إِلَى إِخْوَتِهِ وَأَخَوَاتِهِ إِلَّا قَلِيلًا ،  
وَفِيمَا كَانَ عَمْدُ عَلِيٍّ مَقِيمًا بِالقَاهِرَةِ جَادًّا فِي الْمَفَاوِضَاتِ كَانَ ابْنُهُ الْأَكْبَرُ ، كَانَ ابْنُهُ  
الرَّجُلُ الْمَتَازُ ، يُنَالُ اتِّصَارَاتِهِ ، وَلَا يَقَاسُ عَمْدُ عَلِيٍّ بِنَافِيلِيُونِ قَائِدًا عَسْكَرِيًّا ،  
وَلَا رَيْبَ فِي أَنَّهُ يَعْدِلُ نَافِيلِيُونُ رَجُلًا دِبْلُمِيًّا لِكُونِهِ شَرْقِيًّا ، أَجَلٌ ، إِنَّهُ قَهَرُ  
الْتُرْكِ وَالْعَرَبِ وَالزُّنُوجِ ، وَلَكِنْهُ لَمْ يَقَابِلْ بِجِيُوشِ أَوْرُيَّةِ ، فَكَانَ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ  
يَسْتَمِيلَ بِالْإِقْنَاعِ مَا غَلَبَهُ نَافِيلِيُونُ مِنَ الدُّوَلِ ، وَمِنْ دَوَاعِي الْعَجَبِ أَنَّهُ كَانَ يَمْثَلُ  
لِنَاثِ هَذِهِ الدُّوَلِ فَيَقْرَأُ عَلَى وَجْهِ الْمَفَاوِضِينَ تَبْلِيغَ تَرْجَمَانِهِ إِلَيْهِ حَقِيقَةَ الْأَمْرِ ،  
وَمَا عَلَيْهِ هَذَا الرَّجُلُ الْقَصِيرُ وَذُو الْبَصَرِ الْمُنِيرِ مِنْ قُتُونٍ فَكَانَ يَسْحَرُ جَمِيعَ الزَّائِرِينَ  
وَجَمِيعَ الدَّبْلُمِيِّينَ .

وَأَكْبَرُ حَظٍّ لِحَمْدِ عَلِيٍّ هُوَ تَوَطُّيدُهُ سُلْطَانَتَهُ بَيْنَ سَنَةِ ١٨٠٣ وَسَنَةِ ١٨١٣ حِينَمَا كَانَ  
نَافِيلِيُونُ آخِذًا أَوْرُيَّةَ بَحْنَأَقِيهَا وَفِي اجْتِنَابِ الشَّمْسِ الْكُبْرَى لِسَيَّارَاتِ نِصْفِ الْكَرَّةِ

الغربي ، ولولا ناپليون ما وُطِئَ محمد علي أرض مصرَ برجله على يمتثل ، وما استولى عليها وما احتفظ بها لا ريب ، ولذا لا عَجَبَ إذا ما أخذ ناپليونُ بمجامع قلبه

## ٢٠

يقال إن الألبان من سلالة المقدونيين ، ولما سار أحدُهم على غرار الإسكندر كان له حقٌّ مضاعفٌ في الادعاء بهذا ، وإن لم يكن ابناً لقليپ ، وإن كان ابناً لتاجرِ قهوةٍ في قَوْلَه ، وما قِيئَ الألبان ، والمصريون أيضاً ، يكونون مُزُجاً إلى زمن قريب ، وما كان الألبانيُّ ليستطيع فتح مصرَ لهذا السبب ، وكان يمكن الألبانيُّ أن يَمْلِكَ مصرَ باسم السلطان فقط لهذا السبب ، أجل ، بدأ الحكم التركيُّ في سنة ١٥١٧ ، ودام حتى سنة ١٩١٤ ، ولكن كما أن ملك مصرَ الأولُ قُواداً كان ابناً لحفيدِ العصاميِّ المقدونيِّ محمد علي غدا هذا العصاميُّ المقدونيُّ مؤسسَ الأسرة المالكة الحاضرة في مصر فسلكَ سبيل بطليموس الذي بدأ أمره قائداً للإسكندر فنقل إلى آله مُلكَ مصرَ مدة ثلاثة قرون ، ويظلُّ صاحبُ العبقريّة عاطلاً من اللقب ، ويَرِيثُهُ مَنْ هم دونَه من قُوادٍ أو صَيَارِفة فينالون تاجاً أو يَرْتَدُّون شرفاً .

ويَسُدُّ محمد علي ستاراً على دَوْرِ فَتائِه ، ويدافع جهراً عن صحفِ أولِ زواجِه لزوجته الأولى وصولاً إلى شرعية بنوة ابنه الأكبر ، ويَزُورُ بلدَه بعد غيابِ خمسين سنة فلم يَمَرُضْ رايةً ولم يلاطف فرقةً ولم يَضْرِبْ وساماً تذكاريّاً ، وكلُّ ما صَنَعَ هو أنه أسس مدرسةً كانت تُعَوِّزُه في صباه ، وكان هذا الضابطُ الألبانيُّ قد ذهب

إلى مصر مع الكتائب التركية ابناً للتاسعة والعشرين من سنه، وكانت هذه الكتائب مُوجَّهة ضدَّ بوناپارت فحال بوناپارتُ دون نزولها إلى البر، ولم يَفْعَ بصِرُ كُلِّ من الرجلين على الآخر قطُّ، وذلك لأنَّ محمداً عليّاً سَقَطَ في البحر نتيجةً للارتباك الذي أسفر عن معركة أبي قير الثانية، فنشَّله من البحر مرَّ كَبِّ إنكليزيٍّ لم يَدْرِ في خَلَدِهِ رُبَّانَهُ أَيْ رجلٍ شديدٍ الشكيمة يُنْقِذُ حياته، وتمضى بضعة أشهرٍ من سنة ١٧٩٩ تلك فيصبح بوناپارتُ القنصلَ الأولَ بباريسَ ويصبح محمد عليّ قائدَ حامية القاهرة.

وكان كلا الرجلين يعتمد على السلطات القائمة فبُسَلُطَ بعضُ الأحزاب على بعضٍ اصطِباداً في الماء العكِر، وكان محمد عليّ يُحَرِّضُ المماليكَ على الإنكليز الذين يحترسون من الباب العالي ومن القائد الألباني الجديد، ويَقْبِضُ هذا الأخيرُ على زِمَامِ الموقف في أثناء تمرُّد، ولكنه يَجْعَلُ عَدُوًّا أَرْقَى من الباشا المطرود الذي لا ينفكُ يَحُوكُ الدسائسَ ضِدَّهُ بالآستانة في سنين كثيرة، وقيم الألبانيُّ بالقلعة ويصبح باشا بفضل مولاه العاجز.

ويَجْعَلُ من المماليك آلةً لتهر الإنكليز الذين عادوا بعد أربعة أعوام، ولكنه يُبْذِي من المهارة في هذه المرة ما لا يعتمد معه على عدوٍّ مغلوب، وكان الألبانيُّ ابناً للثامنة والثلاثين حين تدخله في السياسة الكبرى على ضِفاف النيل، وهو لكي يُفْلِحَ في عمله الإنشائيّ ينتفع بكلِّ ما لدى «الفرنج» من فوائدٍ ويُلْغِي جميعَ الحمازى التي كان التصاري عُرْضةً لها.

وكان السلطان يخشاه فيحترمه، وما كانت الدول المتقاتلة لتنظر في أمره فلم يَلْبَثْ أن صار محبوباً لدى الجمهور بمصر، وكان يُعَوَّلُ على فريق الساختين منذ البدأة،



٤١ — باب بيت في القاهرة



أى على الشعب المصرى الذى يَشْرُ بأنه مُعْتَصِر ، وقد أعلن أنه « مختارُ الشعب » فصدقه جميع العالم لما كان يعلم من قيادة الجماهير . ولم يَبْقَ عليه غيرُ كَثر المماليك الذين لا يزالون مسلحين فى القاهرة فتخلص منهم بأن قتلهم فى يوم واحد .

والتاريخ حتى اليوم ، حتى بعد انتضاء أكثر من مئة عام ، يُحَدِّث بإسهاب عن ذلك اليوم أكثر من حديثه عن جميع أعمال محمد على الأخرى ، وثرانا نَزْهُو على نابليون خُلُقياً لما كان من قتله دُوك دُنْجان رُمياً بالرصاص ولما كان من قتله فرائس الطاعون يافا ، ويُبْدَى من الشدَّة تجاه مَنْ يَقْتَفُونَ مثْلَ ذلك الذبح أكثر مما يُبْدَى تجاه من يستأصلون أمماً بأمرها ، وذلك لأنه يُرى فى هذه الحال أن مجدَّ السلاح يتطلب ضحايا التقليديين ، ويجمع نابليون ومحمد على لحروهما أُلوفَ الشُّبان قسراً فيَقْضُونَ نَحْبَهُمْ لأسباب لا يَهْتَمُّهُمْ أمرُها أو لأسباب يعارضونها مع أنه لم يَهْلِكْ بالقاهرة فى ذلك اليوم من مارس أكثر من ٣٥٠ رجل كانوا يَتَمَتَّعُونَ بضروب السلطان أو اللادُّ على حساب سعادة نصف أمة ، حتى إن هذا العدد لو زاد على ألف ما عَرَفَ التاريخ مملوكاً واحداً يَأْسَفُ عليه .

ومن تقاليد الترك ، ومن تقاليد المصريين ، أن يُصَارَ إلى إزال تلك الضربات ، وكان محمد على قد قَهَرَ المماليك فى مصر العليا منذ سنة ، ومما ادعاه وجودُ كِبَنَاتٍ جديدة على ائتمارهم به ، وهذا الادعاء قريبٌ من الصدق ، ويدْعُوهم إلى القلعة لتنظيم حَمَلَةٍ ، ويستقبلهم مختلفاً فى الرُّوَق الكبير ويرفع الجِسرَ المنقل ، فلما وَقَعُوا فى الفخ أمرَ محمد على رجاله من الألبان بإطلاق النار عليهم من فوق الأسوار عند خروجهم من القاعة ، ولم يَتَقَلَّتْ منهم سوى واحدٍ وثَبَّ بِحِصَانِهِ من الجدار ، ووَصَلَ مملوكٌ آخرٌ متأخراً جِداً فوجد البابَ مُغْلَقاً فَرَجَعَ فلم يَقِفْ حتى بَلَغَ

يُعلم القيادة إلى ابنه إبراهيم

سورية ، ويمثّل طبيبُ محمد عليّ الجنويّ بين يدي نائب السلطان هذا ويخبره بنجاح العملية ، ويسكّت محمد عليّ ، ويؤمّر بإحضار ما يشربه .

وكان ذلك الاثقال الذي تمّ على الطريقة الشرقية أمراً ضرورياً لإنجاز مشاريع الباشا الجديد ، ولكنه ليس من شيمه ، فهو لم يمدّ إلى مثله ، وهو لم يلجأ إليه في أحوالٍ خاصة ولا في السودان ، والواقع أن تلك المذبحة خيرٌ للبلد الذي يَبْنِي منذ قرونٍ تحت نير المالك فكانت تهدف إلى غير هدفٍ المذابح السابقة ، وهذا ما أثبتّه محمد عليّ فيما بعد .

ويُسمّى محمد عليّ قيادة جنوده في جزيرة العرب إلى ابنه الأكبر إبراهيم فيُدْهَش العالم إذ يُبصر ظهورَ قائد عظيم ، وكان يمكن محمداً عليّاً أن يقطع صلته بالسلطان مستعيناً بابنه ذلك فيبْدُو سيّداً لجميع جزيرة العرب ويَحْمِلَ من مصرَ مركزَ إمبراطوريةٍ جديدةٍ كما صنّع ابنُ وطنه الإسكندر المقدونيّ ، ولم لم يفعل ذلك ؟

هو لم يفعل ذلك ، مع ما ناله من انتصاراتٍ سريعة ، لما لم يكن عنده من الجرأة البالغة ، وهو قد كان ، كعُض التماثيل الموضوعة أمام جُدُر الكنائس القديمة ، محتاجاً إلى الشعور بوجود جدارٍ ابتلافة الكبير وبراءه ، وهو لم يفتأ يُدِير ظهره إلى السلطان مع دوام خوفه من انهيار ذلك الجدار وسقوط الإمبراطورية التركية في زمانه ، وما تمّ لابنه من انتصاراتٍ قد هيأ له سبيلَ الانفصال مرتين فكان يمكنه أن يَنْسُط حايته على الأماكن المقدسة بما اتفق له من سلطةٍ ونفوذٍ قويٍّ بين ملايين المسلمين ، فينادي بنفسه خليفةً أو سلطاناً كما صنّع صلاح الدين النيرّ في وادي النيل منذ سبعة قرون ، وهو لم يفعل هذا ، بل أعلن أنه لم يستولِ على

سورية وجزيرة العرب إلا تابعاً للسلطان عاملاً على زيادة شوْخته .  
وَتَقَطَّعَ الصَّلَاةُ بالسلطان مع ذلك ، وتتوالى انتصارات إبراهيم فيهِدَّدُ البُسُفُورُ ،  
وَتَتَدَخَّلُ روسية ، ثم الدولُ العُثمانيَّةُ العظمى ، فَتُقْبِذُ السلطان ، وذلك لأن هذه  
الدول لم تكن لتَخْشَى شيئاً كظهور هذا الألبانيِّ المرهوب أميراً للإسلام ، وذلك  
لأن هذه الدول لم تكن لترَغِبَ في شيء أكثر من تجديدِ عهد المالك الضعيف  
القائم على الشهوة والطمع .

والإنكليزُ على الخصوص هم الذين أفرعهم هذا الباشا الذي كان سلطانه يمتدُّ إلى  
جبال أرمينية وإلى الخليج الفارسيِّ ، ولكن الإنكليز لم يَقْعُرُوا نابليون الشرقيَّ  
هذا في عكا ، التي ارتد عنها يونانبارت منذ أربعين سنة ، إلا بمساعدة مراكب  
الدول الأخرى .

وكان محمد عليٌّ في السنة الثالثة والسبعين من عمره حينما خسر الفصل الأخير ،  
وَيُلْزَمُ بتسليم سورية وبدفع جزيةٍ إلى السلطان وبترك الأماكن المقدسة له  
وبالتنزل عن قسم من استقلاله الماليِّ ، والشئ الوحيد الذي ناله بتلك المعاهدة هو  
الشئ الذي كان يتمناه في صميم فؤاده ، هو الاعترافُ بكون الحكم في مملكة  
مصر التابعة أمراً وراثياً في آله .

وهو إذ لم يَقْبِضْ على التاج المصري بنفسه كما صنع نابليون فإنه لم يَسْطِيعْ أن  
يَضْمَنَ استقلاله ، وهو إذ كان له حَصْدَةٌ وتَقَدَّمَ في السِّنِّ فإنه ضَمِنَ لم وراثته العرش  
خلاقاً لنابليون ، وهنا يُسْأَلُ : أيُّ الرجلين أوفرُ حظاً لدى القدر ؟



وما هو نصيب الفلاح في عهد هذا السيد الجديد ؟

انقضى زمنُ استبداد المالك ، وانقضى معه دورُ الجماعة ودور أسوأ المزعجات ، وصار الفلاح قليلَ الخوف من نهَاب الأعراب ، وغدا من النادر أن تُسرق قطاعه ، ولو سار كلُّ شيء كما يريد السيدُ الجديد لمدَّ القاضى عن جلد الفلاح جَوْرًا ، بيد أن الباشا كان يقوم بعدَّة جَوَلَاتٍ في البلاد فلا يُبدى نصيبًا ، بل يُظهرُ في الغالب نصيرًا كريمًا ، ومع ذلك كان الباشا مستبدًا فيقولُ إنه لا يمكن حلُّ هؤلاء القوم النعس إلا بالقوة والسُّوط ، وكان بطرسُ الأكبر قدوةً له في ذلك .

وعلى ما يمانيه الفلاح من قهرٍ بالغ كان يسرُّه أن يعرف أن الغرباء عن الأرض لا يُجِيعونه كأجداده ليعيشوا مترفين أو ليقْتلوا أعداءهم ، وكان يشمرُ بوجود رجل في القلعة يعمل في سبيل مصرَ على الأقل ، أجل ، كان يُكَبِّلُ ليُجَرَّ إلى السِّكْن ، وكان يُفرض عليه نظامٌ شديد ، وكان يُرسل إلى بلاد النوبة أو الأناضول ، ولكن أولاده كانوا يوضعون في المدارس ويُعلَّمون ويُطمعون على حساب الباشا وتُدفعُ إليهم نقودٌ في بعض الأحيان ، وأخذ الفلاحُ يشعرُ في عهد محمد على بوجود أمرٍ كان مجهولاً لديه ، وهو الكرامة الشخصية .

والحقُّ أنه كان يتمنر عليهم أن يذركوا الغاية التي يسعى إليها محمد على ، وقليلٌ من من كان يعلم أمره في ذلك الحين ، وكان يلوح أنه يسلك سبيل السُّلْب على حين يقوم بأول تجربةٍ لاشتراكية حكومية ، ولا ريب في أن هذا السلم العاجز

عن فَلَكَ حُرُوفِ الْقُرْآنِ وَجَدَ مَنْ يَتْلُو عَلَيْهِ قِصَّةَ يَوْسُفَ الَّذِي كَانَ وَزيراً لِقُرْعُونَ  
فَصَادِرُ مُعْظَمِ الْأَرْضِ الزَّرَاعِيَةِ بَنَزَعَ مَلَكيَّةَ الْمَالِيكِ وَتَعْوِيضَ الْمَزَارِعِينَ ، وَهَكَذَا  
صَارَ أَكْبَرُ مَالِكٍ عَقَارِيٍّ بِمَصْرَ فَصَارَ تَاجِرَهَا الْأَوْحَدَ وَأَنْشَأَ مَصَانِعَ أَضْعَى بِهَا  
مُنْتَجَجَ السِّلَعِ الْأَوْحَدَ ، وَقَدْ أَخْضَعَ جَمِيعَ وَادِي النَّيْلِ لِنِظَامِهِ الْاِقْتِصَادِيَّ مُلْزِماً بِمَا  
يَرَاهُ ضَرْوَرِيّاً مِنْ ضُرُوبِ الزَّرَاعَةِ ، مُوَجِّهاً لَهُذِهِ الزَّرَاعَاتِ طَارِداً ذَوِي الْبِطَالَةِ  
مُكْرِهاً الْفَلَاحَ عَلَى بَيْعِ حَبُوبِهِ مِنَ الْإِدَارَةِ بِشَمْنٍ مُعَيَّنٍ عَلَى أَنْ يَقْبُضَ بَعْضُ  
الْثَمَنِ قَنُوداً<sup>(١)</sup> مِنْ مَعَامِلِ سُكْرِهِ ، وَمَنْ ثَمَّ تَرَى أَنَّ وَادِي النَّيْلِ لَمْ يَكُنْ قَبْلَ  
سِتَائِينَ بَشْمَةً مِنْهُ سِوَى مَزْرَعَةٍ حُكُومِيَّةٍ وَاحِدَةٍ يُدِيرُهَا نَائِبُ السُّلْطَانِ .

وَالْأَغْنِيَاءُ الَّذِينَ انْتَزَعُوا أَمْلاكَهُمْ يُذْعَرُونَ ، وَالْفَلَاحُونَ يَرْتَجِفُونَ ، وَالْوَسْطَاءُ  
يَنْتَمِنُونَ ، وَلَكِنْ الْبَلَدُ يَزْدَهَرُ ، وَيَمْتَصِي عَلَى النِّظَامِ الْاِسْتِبْدَادِيِّ وَالصَّلَاحِ الْإِدَارِيِّ  
ثَلَاثُونَ سَنَةً فَيَنْتَزِعُ تَاجِرُ الْقَهْوَةِ بِقَوْلِهِ عَلَى النَّيْلِ فَيَحِقُّ لَهُ أَنْ يَلْعَبَ لِحَيْتِهِ الْأَبُويَّةِ  
فَيَقُولُ فِي نَفْسِهِ إِنْ مِصْرَ لَمْ تَنْلُ مِنَ الرَّخَاءِ مَا نَالَتْهُ فِي أَيَّامِهِ مِنْذُ قُرُونٍ ، وَفِي عَهْدِ  
أَيِّ سُلْطَانٍ ، وَفِي وِلَايَةِ أَيِّ بَاشَا ، أَجَلٌ ، إِنْ عَمِدُوا عَلِيّاً أَخْذَ مِنَ الْفَلَاحِ قَنُودَهُ  
وَسَلَبَهُ حَرِيَّتَهُ كَمَا صَنَعَ الْمَالِيكِ . أَجَلٌ ، إِنْهُ أَكْرَهَ الْفَلَاحَ عَلَى حَقْرِ الْقَنُوتِ  
وَشَيْدِ الْمَبَانِي وَجَمَعَ مِنْهُ جُنُوداً لِحُرُوبِهِ ، أَجَلٌ ، إِنْهُ جَلَدَهُ بِالسِّيَاطِ حَمَلاً لَهُ عَلَى  
دَفْعِ الضَّرَائِبِ ، أَجَلٌ ، إِنْهُ وَضَعَ لِلْمُحِبِّبِ أَثْمَاناً لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يُؤَدِّيَهَا ،  
وَلَكِنَّهُ قَفَلَ جَمِيعَ هَذَا فِي سَبِيلِ بَلَدِهِ ، وَأَمَّا هُوَ فَكَانَ يَكْتَفِي بِكَرَّزٍ يَأْتِيهِ مِنْ كَرِيدٍ  
وَبَاحْسَنِ أَنْوَاعِ الْقَهْوَةِ وَالتَّبَعِ وَبَقْصَرٍ جَمِيلٍ حَسَنِ الْأَثَانِ صَالِحٍ لَاسْتِقْبَالِ ضَيْفِهِ  
مِنَ الْأَجَانِبِ فِيهِ اسْتِشْلَافٌ بَاهِراً ، وَقَدْ قَالَ لِأَلْمَانِيِّ ذَاتَ يَوْمٍ : « نَحْتَاجُونَ فِي بِلَدِكُمْ

(١) الْقَنُودُ : جَمْعُ الْقَنْدِ ، وَهُوَ عَسَلٌ قُصِبَ السُّكَّرُ إِذَا جَدَ .

إلى أيدي كثيرة وأما أنا فأدير الآلة وحدي ، ويجب أن أكون سيد رعيتي ، ويجب أن أكون سيداً شديداً ، فأنا طبيبُ الفلاح العاجز عن معرفة أمراضه ، وما قام به محمد على من عمل فُيُثِّبَتْ درجة ما كان لصنع الجبار من إنتاج في الشرق منذ مئة سنة .

ومن أوردية اقتبس كل ما يُمكن أن ينتفع به ، ولكنه كان لا يستدين من غير البيوت التجارية فينبُغ ما يدفعه من القروض سلماً سبعين في المئة ، وكان يُفَضِّل الفرنسيين على غيرهم ، ولا شك في أن إعجابه بنابليون كان يُوجي إليه بنفور زائد من إنكثارة ، ومما حَدَّثَ أن حال دون استمرار ضابط سابق من ضباط نابليون على السفر إلى بلاد فارس ليَتَخَذَ فيها مَوْضِعاً إليه تنظيم جيشه ، ويعتق الكولونيل سيف الكاثوليكي دين الإسلام فيُدْعَى للمسلم سليمان باشا ، وترى جيشاً مصرياً للمرة الأولى منذ عهد الفراعنة ، ويُحْسِنُ الفلاح القتال في جميع الجهات .

ولم يكن لدى محمد على أشرعة لسفنه ، فحمل على زراعة القنب الذي لم يُتَّخَذْ حتى الآن لغير إسكار المصريين ، كما حمل على إنشاء مصانع لنسج الأشرعة منه ، ويُفَرَسُ السُّنْطُ في جميع المديريات نيلاً خشب السفن ، وكان يوجد على طرفي الدرب اللؤدى إلى قصره مئات من الأبراج الصغيرة المَدَّةِ لحماية الشجيرات ، وغرس في اليوم ثلاثون ألف شجرة زيتون لصنع الصابون ، وغرس في أماكن أخرى مليون شجرة توت لإنتاج الحرير ، وينتشر الطاعون البقري فلا يطأب حماية الآلهة كما كان الفراعنة والساطين يصنعون ، بل يُرْسَلُ إلى الحقول ألفاً من أحسن خيله ويُقَرَّنُها بالجمال ويُكْرَهُ الفلاح على الاندفاع معها .

ولم يكن محمد على محباً للفلاح ، ولكن يلوح أنه كان يُحِبُّ مصرَ على طريقته ،

وَيَصِفُ لَهُ شَنْبُولِيُون ، الذِي حَلَّ الْخَطَّ الْمِيروغْلِيَّ ، بِؤْمَسَ مَنْ رَأَى عَيْشَهُمْ  
مِنَ الْفَلَاحِينَ فِي أَثْنَاءِ مَبَاحَثِهِ فَيَتَعَدَّ عَنْ كُلِّ جَوَابٍ سَائِلًا إِيَّاهُ عَنْ عَمَلِهِ ، فَرَعُونَ  
الْجَدِيدُ كَانَ يَوْذُ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ أَنْ يُبَيِّنَ لَهُ شَنْبُولِيُونُ مَاذَا كَانَ أَمْرُ قَدَمَاءِ  
الْفَرَاعَنَةِ ، وَكَانَ أَسَدُهُ الْمَرْوُضُ رَاضِيًا بِجَانِبِهِ ، كَسِيرُوسْتَرِسَ ، عَنْ وَلَعِهِ  
بِالْأَوْضَاعِ الْمَسْرُحِيَةِ أَمَامَ الْأَجَانِبِ ، غَيْرَ أَنَّ الْفَرَنْسِيَّ لَمْ يُبْدِ وَجَلًا وَلَا إِعْجَابًا مُدْرِكًا  
مَا فِي الْحَالِ مِنْ غَرَابَةٍ وَهَزَلٍ ، شَأْنُ مُحَمَّدٍ عَلَى الذِي كَانَ ذَا دُعَابَةٍ .

وَيَبْتَغِي عَنْ الذَّهَبِ فِي النَّيْلِ الْأَعْلَى ، وَكَانَ يَقْصِدُ مِنْ حِلْمَتِهِ النَّوْبِيَّةُ أَنْ يَنَالِ  
ذَهَبًا وَبَعِيدًا كَمَا قَلْنَا ذَلِكَ فِي جِزْءِ آخِرٍ ، وَهُوَ ، وَإِنْ لَمْ يَجِدْ ذَهَبًا قَطُّ ، كَانَ يَأْمُرُ  
بِفَتْشِ كُلِّ مَرْكَبٍ نَبْلِيٍّ فِي مَرْفَأِ الْقَاهِرَةِ ، فَيَأْخُذُ مِنْهُ كُلَّ دَرَمٍ غَضَبًا مُؤَدِّيًّا  
فِي مُقَابِلِ ذَلِكَ سَلَمًا مِنْ مَصَانِعِهِ ، وَيَأْمُرُ مُحَمَّدٌ عَلَى بِتَرْجَةِ قَانُونِ نَابِلِيُون  
لِيَدْخُلَ إِلَى بَلَدِهِ بَعْضَ الْإِصْلَاحَاتِ ، وَكَانَ مُحَمَّدٌ عَلَى أَوَّلِ وَلِيِّ أَمْرِ مِنْذُ عَهْدِ  
الْفَرَاعَنَةِ ضَمِنَ فِي مِصْرَ خَرِيَّةَ الْأَدْيَانِ وَسَلَامَةَ جَمِيعِ طَبَقَاتِ الْمُجْتَمَعِ وَأُمُومَالِهَا ، وَمُحَمَّدٌ  
عَلَى هُوَ الذِي أَمَرَ بِفَرْزِ الْقَنَوَاتِ ذَاتِ صَيْفٍ حِينَمَا تَمَرَّدَ أَنَاسٌ مِنَ الْأَلْبَانِ فَأَغْرَقَ  
قِسْمًا مِنْ الْقَاهِرَةِ وَقَفَّى بِذَلِكَ عَلَى الْعَصِيَّانِ ، وَهَكَذَا يُنْتَفَعُ بِالنَّيْلِ مَعَ الْقُرُونِ فِي  
إِنْقَاضِ جَبَّارِ ذَاتِ مَرَّةٍ .

وَيَضَعُ مُحَمَّدٌ عَلَى ، مِنْ نَاحِيَتِهِ ، أَشْيَاءَ كَثِيرَةً فِي سَبِيلِ النَّيْلِ ، فَتَشُقُّ النَّهْرَ سِتَّةَ  
آلَافِ سَفِينَةٍ جَدِيدَةٍ ، وَتَقَامُ عَلَى ضِفَافِهِ أَرْبَعُونَ أَلْفَ سَاقِيَةٍ جَدِيدَةٍ ، وَيُنْشِئُ  
إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدٍ عَلَى أَوَّلَى الْمَضَخَاتِ الْبَخَّارِيَةِ مُسْتَعْمَلًا فَحْمًا إِنْكَلِيزِيًّا ، وَيَضْمِنُ  
جَمِيعَ ذَلِكَ مَعْنَى الشُّحْرِ كَمَا فِي زَمَنِ الْمَالِيكِ ، وَيَرَى نَائِبُ السُّلْطَانِ مُحَمَّدٌ عَلَى فِي  
أَثْنَاءِ سَفَرِهِ إِلَى الْإِسْكَانْدَرِيَةِ وَجُوبَ حَفَرٍ قَنَاقَةٍ فِي مَكَانٍ مَا ، وَيَطْلُبُ الْمُهَنْدِسُ الذِي

يطلع على ما كتبه نابليون عن النيل

دُعِيَ لَئِكَ الغرض مدةَ سنةٍ لإِتِمَامِ القَنَاةِ ، فإِمرُ محمدٍ عَلَيَّ بضربه على رجله مثنى مرةً وَيَتَوَعَّدُهُ بثلاثمئة جليدةٍ أُخَرى إِذَا لم يَكُنْ إِنشاءَ القَنَاةِ قد تَمَّ حينَ عودته بعد أربعة أشهر .

وَيُرَوَى أَن عشرين ألفَ رجلٍ قَدُوا حياتَهُمْ في سبيلِ إِنشاءِ القَنَاةِ الَّتِي تَصِلُ الإسْكَندريةَ بالنيل ، غيرَ أَن القَنَاةَ لم تَكُنْ تَمَّ حَتَّى أَصْبَحَ المَرْفَأُ الَّذِي دَخَلَ دَوْرَ الاضططاط منذ قرونٍ كثيرةٍ يَكُونُ منفذاً لَوادِي النيل ، وَذلكَ على حينِ يَسُدُّ رملُ البحرِ وَغَرِيْنُ النهرِ مَرْفَأَ دُمياطَ ورشيدَ بلا انقطاع ، وَيَدْعُو محمدُ عَلَيَّ تلكَ القَنَاةَ بِاسْمِ متبوعه وعدوِّه السلطانِ محمود ، وَأَعْظَمُ مشروعٍ قامَ بِهِ هو السَّدُّ الَّذِي بناه قبلَ أَسدَادِ الإنكليزِ بِخَمْسِينَ عامًا ، وهذا هو بَدْءُ دَوْرٍ جَدِيدٍ في حياةِ النيل ، ولم يُنْجِئْ بِهِ أَحَدٌ قَبْلَ نابليون ، ولم يُنْصِرْهُ أَحَدٌ أَحْسَنَ مِنْ نابليون ، والواقعُ أَن نابليون أَجْبَرَ بِإِقَامَةِ أَسدَادٍ على رَأْسِ الدَّلَّتَيْنِ ذاتَيَ يَوْمٍ فَتَوَجَّهَ بِهَا المِياهُ مُناوَبَةً بَيْنَ شِعْبَيِ النيلِ فَضَاعَفَ بِذلكَ أَهمِيَةَ الفَيْضَانِ ، والواقعُ أَن محمدًا عَلِيًّا جَعَلَ بَعْضَهُمْ يَقرأُ لَهُ جَمِيعَ ما كَتَبَهُ نابليون في جَزِيرَةِ القُدَيْسَةِ هِيلَانَةَ عَن مَوْضُوعِ النيلِ ، وَمَنْ الواقعُ مَعْرِفَةُ محمدٍ عَلَيَّ كُلِّ ما هو خَاصٌّ بالإِمبراطور ، وَمَنْ المَحْتَمَلُ أَن يَكُونُ هذا الجُنْدِيُّ الشَّمِطُ قد أَبْصَرَ مَكَلَفَةَ نابليونَ لَذا العَنْصَرِ كما يَقاتِلُ عَدُوًّا لَهُ في مِيدانِ الوَعْيِ ، مُوجَّهًا جَمِيعَ قُوَّاهُ نَحْوَ نَقْطَةِ واحِدَةٍ لِيَتَغَمَّرَ البَلَدُ بِالماءِ كما يَنْغَمُرُ الخَصْمُ بِجُنُودِهِ .

وعنَّ لِمحمدٍ عَلَيَّ فَكْرُ جَائِزٍ في بَدْءِ الأَمْرِ ، عَنَّ لَهُ سَدُّ شُعْبَةِ النِّيلِ سَدًّا نَهايَيا لِكَيْلَا يَجْرِيَ إِلى غيرِ دُمياط ، وَقَدْ أَثْبَتَ لَهُ القَرْنِيُّ لِيَنانُ تَقَدَّرَ ذلكَ وَأَبانَ لَهُ أَن الإسْكَندريةَ تُحْرَمُ المِاءَ العَذْبَ بِذلكَ ، وَهناكَ قَرَّرَ أَن يَقيمَ أَسدَادًا على

شعبي النيل مستعينا بججارة الأهرام الكبُرَى ، وهو لم يترك هذا المشروع عن شعور ففى ما سخر من علماء الآثار ، وإنما عدل عنه لما يوجه النقل من نفقات كثيرة ، ويطول إنشاء « سد النيل » ، لا لما يتطلبه من تقوى كثيرة ، ما دام يؤخذ ما يحتاج إليه من المال قسراً ، بل لما انتشر من طاعون ، ثم لما كان من قتال السلطان ، ثم لما كان من انتقاد الهندس الجديد للمشروع الأول وعدم وضعه ما هو أحسن منه ، ويتم بناء السد فى تاريخ متأخر إذن ، وظل السد أهم الأسداد وأزمتها من بعض الوجوه مع قدم طرازه .

والأسداد على النيل تعنى القطن على النيل ، ويعلم محمد على من فرنسيين قدرة مصر على إنتاج السكر والقطن وإمكان ربحها منهما أكثر مما تربح من الحبوب ، وهذه هى فكرة رائعة مملوءة بالخاطر ، فإذا كان الجوى ملائماً لتحقيقها فإن نظام الرى بمصر يحول دون تطبيقها ، وبيان ذلك أن نبات القطن لا يطيق الفرق وأنه يتطلب رى منتظماً فى الصيف حين انخفاض المياه كما يتطلب فصلاً غير جاف فى الشتاء ، والسد وحده هو الذى يوجد ما هو ضرورى من الأحوال ، ولكن مع وجود نظام كامل للمضخات والدوايب والمصّات ، ولكن مع تعميق القنوات واستخدام سبعة وعشرين رجلاً فى مئة يوم من العام لتنظيفها ، ويقتضى ذلك إنفاق بضعة ملايين ، ولا يفتقر تاجر القهوة من ذلك المبلغ ما دام عمل السد لا يكلف شيئاً ، وماذا يحدث عند رداءة المحاصيل وفى زمن الأزمات المالية ووقت وقف إدخال ما تحتاج إليه مصر من الحبوب فيما بعد ؟

ويلوح عدم تأثير هذه المصاعب فى محمد على ، ومحمد على لم يَصْغَ أول حجر للسد وفق مشروعه الثانى أو الثالث إلا فى سنة ١٨٤٧ ، أى فى أواخر حياته ،

أى حين غمّه ونُوزاتِ غَصَبِهِ عن قَهَرِ إنكلترة إياه ، وعاد لا يُسمّى إنكلترة بغير اسم « ذلك البلد » ، وحُطِرَ عليه كلُّ توسّع في الخارج فحصر نشاطه في داخل مملكته وأنجز من الإصلاحات العظيمة ما صار معه أباً حقيقياً للشعب ، ويُنبِئُ مثاتِ المدارس في كلِّ مكان ، ويُرسِلُ أساتذةً من الأزهر إلى باريس ولندن ليرَوِّا وجودَ كتبٍ أخرى في العالم غير القرآن ، ويُؤسِّس مدرسةً مصريةً بباريس ، ويُعمرُها بمئةٍ وعشرين طالباً ، ويُدْخِلُ إليها بعضَ الأمراء من آله غير مفكرٍ فيما يكون لهذه الترية الباريسية من أثرٍ في حفيده إسماعيل ، ويوزّعُ كتباً مُمتعةً مطبوعة في القاهرة .

إذن ، يُوحى النيل إليه بمشاريعٍ جسّاماً ، وقد بدا له قبل خِطَط الإنكليز الأولى في أسوان بخمسين سنةً أن يأخذ ماءً من تلك البُقعة وأن يقيم فيها مصانعٍ بحاريةً وأن ينشئ في كلِّ ضِفَّةٍ مدناً طويلاً كَصَرَ وأن يعزِّق<sup>(١)</sup> جميع الأنشواج ، فيكون خيالُ فاوست قد حَقَّقَ من قِبَل أمير ، من قِبَل تاجر قهوة ، ونذْكَرُ من عناصر الرِّخاء الأخرى التي أبصرها في مشيبه ما رآه من تحوُّل عدد السكان من مليونين ونصف مليون إلى أربعة ملايين ونصف مليون على الرغم من الأوبئة .

ويقوم محمد عليّ بِحَجِّ قبل موته ، ولكن لا إلى البلد المُقدَّس ما دام غير متدين ، وما ساوره من غَيْظٍ نتيجةً لما أصيب به من غَلَبٍ فيضِرُّهُ عن التفكير ثانيةً في مكة ، ويذهب لتقديم ولائه إلى مولاه السلطان وليضعَ حَدّاً لتخاصمهما المثير للضغائن ، ويعود إلى الإسكندرية عَوْدَ الظافرين حاملاً على صدره صورةَ السلطان الحاطة

(١) عزق الأرض : شققها ، أخرج الماء منها ، والأنشواج جمع شوج ، وهو منطفئ الوادى كما مر تفسيره .

باطارٍ مُرَّصَعٍ بِالْأَلَماسِ ، وَهَكَذَا يُظْهِرُ وِفَاءَ التَّائِبِ عَنْ زَهْوٍ كَالنَّيِّبِ أَظْهَرَهُ بِسِمَارِكُ  
حِينَ انْحَنَى أَمَامَ وَلِيِّهِ الثَّانِي الشَّابَّ بَعْدَ أَرْبَعِينَ سَنَةً .

وَيُصَابُ مُحَمَّدٌ عَلَى بَضْعٍ فِي قُوَاهُ الْعَقْلِيَّةِ ابْنًا لِلتَّائِبِينَ مِنْ عَمَلِهِ ، وَيَحْتَمِلُ أَنَّهُ لَمْ  
يُذَرِكْ وَفَاةَ ابْنِهِ إِبْرَاهِيمَ ابْنًا لِلتَّائِبِينَ مِنْ سِنِيهِ سَابِقًا إِيَّاهُ إِلَى الْقَبْرِ قَبْلَ قَلِيلٍ زَمَنٍ ،  
وَمَا بَيْنَ الْآبَاءِ وَالْأَبْنَاءِ مِنْ رَوَايَةٍ مُحْزَنَةٍ مُثَلَّتْ بَيْنَ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ ، وَمَا بَيْنَ الْمَلِكِ  
وَوَلِيِّ الْعَهْدِ مِنْ تَنَافُسٍ تَجَلَّى عَلَى الطَّرِيقَةِ الشَّرْقِيَّةِ ، وَلَا يُسْمَعُ حَدِيثٌ فِي سِنِينَ أَرْبَعِينَ  
عَنْ وَرِاثَةِ طَافِيَةٍ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُقَرَّضَ زَاجِرُهُ ، وَقَدْ أَكْرَهَ إِبْرَاهِيمُ عَلَى دَوَسٍ مَا فِيهِ  
مِنْ اسْتِعْدَادٍ فَكَانَ مَا تَرَكَ مِنْ رَسَائِلَ هَائِلَةٍ ، وَمِنْ الْمُتَعَذِّرِ تَقْدِيرُ مَا خَسِرْتَهُ مِصْرُ  
بِمَوْتِ إِبْرَاهِيمَ قَبْلَ الْأَوَانِ ، وَلَوْ بَلَغَ مِنَ الْعُمُرِ مَا بَلَغَ أَبُوهُ لَاحْتِمَالِ أَنْ يَفُوقَهُ بِمِقْدَارِ  
مَا فَاقَ الْإِسْكَندَرُ ، هَذَا الْقُدُونِيُّ الْآخَرُ ، أَبَاهُ قَلِيبٌ ، وَعَادَ إِبْرَاهِيمُ الْقُوَى لَا يَكُونُ  
تَرْكِيًا وَلَا أَلْبَانِيًا ، بَلْ صَارَ مِصْرِيًّا خَالصًا ، وَلَيْسَ ابْنُهُ وَوَارِثُهُ غَيْرُ نِصْفِ بَارِيسِيٍّ .

وَحِينَئِذٍ كَانَ مُحَمَّدٌ عَلَى مَالِكَا قُوَاهُ الْعَقْلِيَّةِ زَاهِدًا رَجُلٌ عَيْنَتُهُ التَّارِيخُ لِيَكُونَ حَكَمًا  
فِي أَمْرِهِ كَمَا يَلُوحُ ، فَقَدْ أُرْسِلَ الْكُوتُ فَا لِفِسْكَ ، الَّذِي كَانَ ابْنًا لِلنَّابِلْيُونِ مِنْ  
بُولُونِيَّةٍ حَسَنَاءَ وَالَّذِي صَارَ وَزِيرًا لِلخَارِجِيَّةِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ ، إِلَى الْقَاهِرَةِ سَنَةَ ١٨٤٠  
لِيَقُومَ بِرِسَالَةٍ خَاصَّةٍ فِيهَا ، فَاسْمَعْ مَا قَالَهُ عَنْهُ :

« قَدْ تَكُونُ الْأَثَرِيَّةُ ، أَوْ الْخِيَلَاءُ ، هِيَ الَّتِي أَمَلْتُ عَلَى مُحَمَّدٍ عَلَى مَشَاعِرِهِ الْأُولَى ،  
غَيْرَ أَنَّ قَرَارَاتِهِ كَانَتْ نَتِيجَةَ تَفَكُّيرٍ طَوِيلٍ عَلَى الدَّوَامِ ، وَمَا فَطَّرَ عَلَيْهِ مِنْ عِبْقَرِيَّةٍ  
أَعْظَمُ فِي حَقْلِ الْحَضَارَةِ نَمَا فِي حَقْلِ التَّنْظِيمِ ، وَهُوَ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ عَيْنُ النَّسْرِ فَيَرَى  
النَّاسَ وَالْأَشْيَاءَ مِنْ عُلَى ، وَهُوَ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ مِنَ الذِّكَاةِ الْعَالِي مَا يَتَّخِذُ الرَّجُلُ بِهِ  
قَرَارَاتٍ تَذْهِشُ النَّاسَ أَوَّلَ وَهَلَةٍ ، وَلَكِنَّهُ كَانَ يَتَّصِفُ بِذِكَاةِ نَاقِبٍ وَثَبَاتٍ قَاطِعٍ



وعزم قوى وحذق باهر ، ولو وُلِدَ فرنسيًا لكان مثلَ مِتْرَنِيخ أو تاليران أكثرَ من أن يكون مثلَ نابليون .

وكان جسوراً عبقريةً بفطرته ، وكان للتجربة شأنٌ كبير في حياته ، ولم يكن للتعليم أثرٌ عمل فيه ما دام لم يقرأ كتاباً من الكتب التي تُنمّي شمائل الأمير كما يقال ، وقد أثبت ذلك بنفسه على وجهٍ مُسلٍّ ، فلما سمع حديثاً عن مكيافلي ودَّ أن يعرف كيف يُصبح الناسُ بالكتب ما اتفق له بلا كتب ، فأمر وزير خارجيته بأن يترجم إلى التركية فصولاً من كتاب الأمير وصار الوزير يُحضِر إليه عشرَ صفحاتٍ في كلِّ يوم ، وإليك ما قاله محمد علي في اليوم الرابع :

« لم أجد في الصفحات البشر الأولى ما هو جديدٌ ولا ما هو جديرٌ بالذكور فصبرتُ ، ولم تكن الصفحاتُ العشرُ الثانية خيراً من الأولى ، وأما صفحاتُ أمس فإدويةٌ تملأ ، فلا أستطيع أن أتعلم شيئاً من هذا الرجل ، وأعترف من المكاييد أكثر مما أعترف ، والآن كف ولا تداوم على الترجمة . »

## ٢٢

من شأن انحطاط أبناء ذوى البقرية من الملوك والمنفتحين ، من شأن ضنى الطبيعة هذا بعد جهدٍ كبير ، أن تقع أسرهم الجديدة في خطر ، وذلك مع اتزان الأسرة القديمة بعد أن تجاوز ظافرة دور المخاطر الأولى ، أجل ، صمّ محمد علي في خمسين عاماً كفاحٍ ميثاقٍ ملكه ، غير أن القدر حرّمه حمّةً إذ أخذ أحسنَ بنيه مع بلوغ

عددهم خمسة وتسعين ، فلما غاب أبنته الأكبر خَلَفَ تاجر القهوة المقدوني على عرش القراعنة رجالٌ صِفَارٌ ، فيسارع حفيده وابن له في السنين الأربع عشرة إلى تغيير الوضع تجاه إنكلترة في ميدان السياسة الخارجية ، كما يسارعان في الداخل إلى المدول عن الاشتراكية الحكومية ، وهكذا يُضْعِفَان ما يخالط العالم من احترام نحو مصر التي كانت تُهْبُ من نومها ، وهكذا يُعَوِّدَان الدول العظمى على الاعتقاد بأن ما وقع على ضفاف النيل ليس إلا مغامرة نابليونية يُمكن صَقْلُ نتائجها سريعاً بمبدأ الملك الشرعي .

وَتُمَكِّنُ مقابلة عهد إسماعيل ( ١٨٦٣ - ١٨٧٩ ) بعهد ولهم الثاني ، فهما ، إذ كانا حفيدين لاثنتين من بُنَاةِ الإمبراطوريات الصَّوَارِمِ ، لم يكن لديهما رَشْدٌ كافٍ حينما جلس كلُّ منهما ، ابناً للثلاثين ، على عرشٍ لم يكن بعدُ من القوة ما يقاوم معه مُتَاجِي الحركات وتَزِقِ الاشارات ، كلاهما موهوبٌ ، كلاهما أُنِسٌ ، كلاهما بَدَدَ تَرَاثِ أبيه لا عَنَ معائب كرهية ، ولا عن حروب طموح ، بل كانا ضحيتي دُؤَارٍ صادرٍ عما نالاه بفتة من سلطان لا رقيب عليه تقريباً ، فعرّفه بسمارك مُتَلَهِّياً بقوله : « إن الإمبراطور يَوَدُّ لو يُحْتَفَلُ بعيد ميلاده كل يوم » ، والواقع أن رجلين من ذوى الجِدِّ والوقار شبَّا في دورٍ ثَوْرِيٍّ فشقَّ طريقاً لهما على مَهْلٍ مع مقاومة الدول المُسَيَّنة لحفاظها حتى المَشِيبِ على بساطة العيش ، ثم خَلَفَ كلُّ واحدٍ منهما حفيدٌ غَنِيٌّ كاتمٌ لتردده تحت سِتَارٍ من غمامة المظهر محاولٌ انتزاع احترام العالم له بما ينتحله من كبرياء ، والواقع أن إسماعيل ولهم الثاني ، القيمين ما لا مثيل له من الأعياد والحفلات ، قَصَصَا ثلاثين عاماً في تبديد تَرَاثِ عظيم عَهْدِ إليهما في المحافظة عليه فحُلِمَا بقرارٍ من الأعداء الذين رأوا أنهما ألحقا

ضرراً بهم ، وقد أمضى الرجلان بقية حياتهما في منفىٍ ذهبيٍّ بعيدٍ من الجدل والحكمة ملائمة لسجيتهما .

ويظهر أن إسماعيل الذي نال قسماً كبيراً من تربيته في باريس والذي وجد ما يُفسده ببعض سياسيه في عواصم أوربة اتخذ أقلّ ملوك أوربة رصانة في ذلك الدور مثلاً له ، اتخذ نابليون الثالث قدوةً له ، ويرى أن يجمل من القاهرة ، التي كانت واحة الفنى حين ارتقائه إلى العرش ، باريس ثانيةً ، فلا يكون فيها ما هو إفريقيّ ، ونُسكُره الإنارة بالغاز والخطوط الحديدية والميادين العامة والشوارع ذات الأشجار والتساحل الحريية والزخارف ، ولا سيما استقبالات البلاط الباهرة ، ونُسكُره ما في دمه من روح تجارية ورثها من محمد علي فأنبت وجودها في البداة بإدارة أملاكه على الطرق العصرية .

ويبدو كلُّ شيء باسمًا له عند ما قبض على زمام الحكم ، فلما أدّت حرب الانفصال إلى عدم إصدار القطن الأمريكي اغتنت مصر ، للنتيجة الجديدة للقطن ، من قورها ، وما كان العالم المضطرب إلى الاكتشاء ليُبالي بما يدفعه من الأثمان ، وما كان من ارتفاع الأسعار بما لم تسمع بمثله أذن قد أثار أسطورة الثراء الخيالي ، ويذهب مهندسون إلى مصر طلباً للرزق على ضفاف النيل ، وتتنازع فرنسا وإنكلترا حفظاً لمركزهما ، وتجتذب قناة السويس التي كانت تُنشأ ، أبصار الناس إلى مصر ، ولا تعجب إذا ما استمدت أعظم مصارف أوربة لوضع رؤوس أموالها تحت تصرف الملك السعيد ، وهل في قبول ذلك جريمة لا تُغتفر ؟ ويُقرض إسماعيل من أوربة تسعة وتسعين مليون جنيه في ست عشرة سنة .

هو لم يُبذّر كلُّ شيء ، فقد حفر في عهده من القنوات ما طوله أربعة عشر

ألف كيلومتر ، وقد حفر قناة إبراهيم بالقرب من أسبوط ، وقد أحيا من الأراضي الصالحة للزراعة ما يعادل ألف ألف فدان على ما يروى مع التوكيد ، والبلاد مدينة له بكثير من المرافق والناور وبزيادة في إنتاج القطن ما صار يُصدّره بأربعة عشر مليون جنيه بعد أن كان يُصدّره ما قيمته أربعة ملايين من الجنيهات ، والبلاد مدينة له برفع عدد مدارسها من مئتي مدرسة إلى خمسة آلاف مدرسة مع تعيين ثمانين ألف جنيه لها في كل عام ، ويُعدّ المتحف الكبير الذي أقامه في القاهرة أعجوبة على حسب ذوق الزمن كما يُعدّ جسر الجزيرة الذي أقامه بجانبه .

ومع ذلك كان إسماعيل ضخمة الأحوال ، كان ضخمة زهره ، كان ضخمة الدولاب المسنن الذي وضع نفسه عليه فيسرع في الدوران مقداراً مقداراً ، فيصبح في مثل وضع الفلاح الفقير تماماً ، ومما حدث أن سنّ قانون شائن جعل إسماعيل به جميع الأجانب في متجى من سلطان القضاء المصري ومكن به أرباب رؤوس الأموال الشرقيين من استعباد الفلاحين بأن يُقرضهم على حساب محاصيلهم ما هو ضروري من المال لدفع الضرائب للفروضة عليهم ، وذلك برّياً فاحشاً يترجّع بين الأربعين والخمسين في المئة ، ومثل هذا ما كان من أكبر صيافة أوربة الذين استغلوا احتياج إسماعيل إلى النقود وعدم اكتراثه لها ، فقد بلفوا من غره وغشه برّاهم ونمستهم ولجائهم ودفعاتهم الوهمية ، وقد بلغت مصافق باريس ولندن من ابتكار الحيل ، ما يساق الرجل العادي معه إلى غياهب<sup>(١)</sup> الشجون ، وقد وصف إنكليزي<sup>(٢)</sup> أولئك الصيافة الكبار بقروش<sup>(٣)</sup> أوربة لعدم تسليمهم

(١) الفياهب : جمع التيهب ، وهو الظلمة — (٢) القروش : جمع القروش ، وهو نوع من السمك يعرف بـ كلب البحر يقطع الحيوان في الماء بأسنانه كما يقطع السيف ، والقروش هنا بمعنى الأراذل .

إلى الملك البطر غير ستين في المئة من حسابه ، وإذا وُجِدَ رجلٌ جديرٌ بالاحترار في هذا الأمر فالدائن ، لا المدين ، هو ذلك الرجل ، ولا يَشْعُرُ المؤرخُ بمطْفٍ نحو أولئك الذين بدّد ذلك اللبّذرُ أموالهم على ضيفان الليل .

ولم تكن الأمورُ قد بَلَغَتْ تلك المرحلةَ حينما احتفل إسماعيلُ بأبهى يوم في حياته ، حينما احتفل بافتتاح قناة السويس .

ومن الفرنسيين رجلٌ أضيفُ ذو ذكاء نادر كان أيام شبابه قد أعطى سَلَفَ إسماعيلَ الم محبوبَ سعيداً دروساً في القُرومية ، فقال هذا الفرنسيُّ بمصادقته سعيداً وثيقةً ثمينةً امتنع محمد عليٌّ ومن خلفه عن مواقة أحدٍ عليها حتى الآن ، وبهذه الوثيقة المؤلفة من سطرين يُؤدّن في إنشاء قناة بين السويس ، الواقعة على البحر الأحمر ، وخليج يِلوزة صالحة لَسِيرِ سَفُنِ البحار ، وكان طَيْفُ كلٍّ من نابليون وغوته يُحلّقان فوق هذا المشروع ، وفيما كان العالمُ بأشربه ، ولا سيما عالمُ التجارة الإنكليزية ، يذرك من قوّره أهمية المشروع ، وفيما كان السانسيونيون في فرنسا يَبْدُون على رأس الحركة ، كان اللورد بِليرسْتون ، الذي هو من أشهر أقطاب السياسة في عصره ، يَجْمَلُ من نفسه مهزأةً حين يكتب في سنة ١٨٥٥ ما يأتي :

« تفصيل هذه القناة مصرّ من تركية ، وتَمُوقُ هذه القناة سَيْرَ كتاب السلطان ، وهي تَجْمَلُ مصالح إنكلترة بمصر والهند تابعة لمشينة فرنسة » .

وكان خوفه من فرنسة يَصْفُو على بصره بأمر الإمبراطورية البريطانية ، ويرى المتزمتون من البريطان أن يَحُولُوا دون حفر برزخ السويس بما اكتشفوه بشتة من إمكان تسخير الفلاح وجبله تحت الرحمة ، وَيَسْتَبْدِلُ أنصارُ حفر البرزخ



٤٢ — نسوة يملأن ماء من البئر



الفرنسيون بعض الآلات بالفلاح استبدالاً جزئياً ، ويُسمع صوتُ جِرافاتٍ بخاريةٍ في البحر الأحمر للمرة الأولى .

وقصةُ قناة السويس خاصةٌ بالتاريخ البشري ، لا بتاريخ النيل ، والقناة تُنافسُ النيلَ من بعض الوجوه لأنها تَجْرُ مصرَ إلى البحر ، وكان لدى إسماعيل شعورٌ بما سيأتي حيناً صَرَخَ في حفلة الافتتاح بأن تلك القناة تُفصلُ مصرَ عن إفريقيا وتزيطُها بأوربة . وإن غابت الناحيةُ الفاجعةُ عن مزاجه الطيب لا ريب ، والحقُّ أن الماء الذي يصلُ تلك الدولة الإفريقية بخط الاستواء أنفعُ لإسماعيلَ من الماء الذي قد يُفَرِّجُها ، والحقُّ أن مما يَرى في الساعة الراهنة ارتباطُ مصير مصرَ في النيل ، لا في البحر المتوسط ، والحقُّ أن العالمَ بأجمعه استفاد من فتحِ البرزخ وأن مصرَ وحدها هي التي خَسِرَت به ، وكان إسماعيلُ راغباً في إنشاء القناة من أجلِ مصرَ ، لا أن تكون مصرُ خادمةً للقناة ، ويحبطُ مشروعه هذا بسبب سجيته ، وهو يَلْبَثُ أن خَسِرَ جميعَ أسهمه وما يَجِبُ أن ينال من فوائد .

ويَبْدُو سعيلاً يوم الافتتاح من شهر نوفمبر سنة ١٨٦٩ ، ويكون إمبراطورُ الفرنسيين وكثيرٌ من الأمراء ضيوفاً عنده ، ويُدِيرُ فِرْدِي<sup>(١)</sup> الكبيرُ في أوروبا القاهرة الجديدة أولَ تمثيلٍ لروايته المصرية ، ولن يَرى ذلك للسرفُ الأنيس مثلَ تلك الفرصة لصبِّ الذهب ، ومع ذلك كان يَظْهَرُ ذاك النَجْلانَ لطيفةً متوسطةً غامضةً الأمر على شواطئ البحر المتوسط ، ومع ذلك كان يَظْهَرُ ذاك العاهلان اللذان تَدُلُّ سِما أحدهما على أنه معلِّمٌ مدرسة ويَدُلُّ رأسُ الآخر منهما على أنه صيرفيٌّ ، مضحكين لو لم تُقَطعَ الإمبراطورةُ الفاتنة أوجيبي التي هي وَخِي حَتَّى

(١) فردى : ملحن وكاتب روائى إيطالى (١٨١٣ — ١٩٠١) .



يدفع الملايين لينال لقب خديو

لرواية جنبها الخالدة ذلك الشريط الرمزي .

وكان إسماعيل قد دفع للملايين للسلطان كتيلاً للقب خديو وتنظيماً لوراثة العرش بأوثق مما في الماضي ، ويعزّم إسماعيل أيام افتتاح القناة على التخلص من متبوعه الضيف بأن يعلن في خطبة مدوية استقلال مصر وينادي بنفسه ملكاً ، ويمنى هذا المشروع بالإخفاق في الدقيقة الأخيرة لما كان من اعتراض دولة أجنبية<sup>(١)</sup> .

ويسير كل شيء من سيئ إلى ما هو أسوأ منه بعد ذلك الحين ، فيخلع الإمبراطور نابليون بعد سنة وتبعد الإمبراطورة ، ثم يأتي دور إسماعيل بعد عشرين سنة ، وتصبح قناة السويس ذات أهمية عالمية ، ويرتفع عدد السفن التي تجاوزها من خمسة إلى ستة آلاف في خمسين سنة ، ويرتفع عدد من يعبرها من الشياح من ٢٧٠٠٠ إلى ٢٥٠٠٠٠ ، ويزيد الدخل على ما كان عليه مئة مرة ، ومما حدث أن اضطر الخديو المتلاف ، عن إفلاس قريب الوقوع ، إلى بيع أسهمه في قناة السويس بأربعة ملايين جنيه ، وفي هذه المرة يبدي الفرنسيون غباوة رفض ما عرضه إسماعيل عليهم ، ويحتمل ديسرائيلي سراً مسؤولية ذلك الشراء بواسطة زوتشيلد ، وترد هزيمة الفرنسيين في إفريقية إلى تلك الخطيئة في سنة ١٨٧٥ .

ويدعو إسماعيل خاسراً ، ولا يكون خطته في صمّان حيازة فرنسا وإنكسار مصر وفي مداراة السلطان بأكداس الذهب قيمة إذا لم يبق متوّلاً ، والواقع أن المدعوين إلى الباخرة البالغة الزخرفة التي تم استقبال الإمبراطورة فيها كانوا ضيوف أنفسهم من بعض الوجوه مادام إسماعيل قد اضطر ، لإقامة ذلك المهرجان ،

---

(١) ذلك ما بلغه الملك فؤاد إلى المؤلف ، ويظهر أن الوثائق الخاصة بهذه المسألة موجودة في خزانة السجلات الإيطالية .

إلى عقد قرضٍ ماليٍّ في باريس ، وما حَدَثَ من سقوط أمان القطن ونقص فيضان النيل مرتين وما أسفر عنه هذا النقص من رداة المحاصيل كَجَلَّ حدوث الكارثة ، وبلغَ مُمَوَّلُو الخديو منذ عشر سنوات من الفساد ما لا حَدَّ له ، فإذا ما طُلِبَ منهم مِدْفَعٌ للتجربة أرسلوا اثني عشر مِدْفَعاً ، ويُقَدَّمُ خِيَّاطٌ باريسى في أثناء الارتباك العام قَائِمةً إلى الخديو ببلغ ١٥٠٠٠٠ فرنك ثمنًا لثياب أميرة واحدة ، وبطالِبِ المزيّنون والجمّالَة والحمارَة بما يَحِبُّ أن يَدْفَعَ إليهم .

وأخيراً تتدخل الدول ، فترسل إلى القاهرة لجنةٌ لِتَضَعَ يَدَها على دَخَل الدولة ، وَيَسْتَقْبِلُ إسماعيلُ دانيه تحت سُرَادِقٍ من حريرٍ منصوبٍ عند سَنَح الأهرام ، وَيُقِيمُ مَهْرَجاناً عالمياً خفياً لِمَنْ فَوُضَ إليهم أن يبعثوا في ماله و يَتَصَدَّوا لها ، وذلك ليشاهد أوف الفلاحين حُسْنَ صلاته بالدول العظى .

وتشابه لجنة الديون تلك إحدى المهازى . فَيَقْرُبُ إنكليزى الدخْل . وَيَرْقُبُ فرنسى الخَرْج ، وتجدُّ تلك اللجنة في نيل بعض الشيء للدائنين المأججين في مصافق أوربة ، وعلى الفلاح أن يَدْفَعَ الآن ، كما كان يَدْفَعُ ، نفقات ما يُقِيمُهُ الخديو من مَهْرَجات ، وكان أحد أصحاب للناسب العالية من الإنكليز ، شيرول ، قد ذكر منذ بضع سنين في تقرير له قوله :

« كان الفلاحون يُجْرُون من حقولهم لِيَعْمَلُوا في الأراضى الواسعة التى كان الخديو قد اغتصبها منهم ، وَيُهْدُون بالسيّاط دَوماً لِيَعْمَلُوا مُسَخَّرِينَ كالعبيد في حفظ القنوّات نفعا لغيرهم ، وفيما يَطْلُبُ جمعٌ جائعٌ من النساء والأولاد سنبلة ذرة تَرى إسماعيل جالسا على العرش بين حاشيته وتَرى مُسْتَفْلِيه من المصريين والأوربيين يشتون على حسابه » .

وَيُلْقَفُ كُلُّ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ دَائِي بَارِيْسَ وَلَنْدَنَ وَبَرْلِينَ الَّذِينَ طَعِمُوا  
أَنْ يُتْرَكُوا بِلَا تَعَبٍ ، فَلَا يَبْقَى مَا يُؤَدِّي إِلَى مَوْطِنِ الْمَصْرِيِّينَ بِاتِّظَامٍ ، وَالْحَامُونَ لَدَى  
الْحَاكِمِ الْمُخْتَلِطَةِ هُمُ الَّذِينَ كَانُوا يَفْتَنُونَ ، وَعَادَ الْفَلَّاحُ غَيْرَ ذِي عِمَامَةٍ ، وَصَارَ الْفَلَّاحُ  
يَقْتَصِرُ عَلَى جِلْبَابٍ أَزْرَقٍ ، وَإِذَا مَا كَانَ لَدَى الْفَلَّاحِ ثِيَابٌ أُخْرَى أَخْفَاهَا ،  
وَلَيْسَ مِنَ الْقَلِيلِ أَنْ كُنْتَ تَرَى شَيْوَحًا يُضْطَرُّونَ إِلَى هَدْرِ كِرَامَتِهِمْ  
فَيَخْرُجُونَ بِلَا جُبِّبٍ .

وَتُبْصِرُ لَجْنَةَ الرِّقَابَةِ ذَاتَ سَنَةٍ وَجُودَ نَقْصٍ ١,٥٠٠,٠٠٠ جَنِيهِ فِي  
الْ٨٠٠,٠٠٠ جَنِيهِ الْمُخَصَّصَةِ لِلْفَوَائِدِ ، وَهَنَالِكَ يُرْسَلُ إِلَى جَمِيعِ أُنْحَاءِ الْبِلَادِ  
اِثْنَانِ مِنَ الْبَاشَوَاتِ وَسِتَّةٌ مِنَ الرَّاْيِينَ لِحَتْلِ الْفَلَّاحِ عَلَى أَنْ يَبِيعَ الْمَحَاصِيلَ مِنْهُمْ  
مَقْدَمًا بِنَصْفِ الثَّمَنِ وَإِنْ لَمْ يَجِدْ وَقْتُ حَصَادِ الْعَبِّ بَعْدَ ، وَذَلِكَ عَلَى أَنْ يُؤَدِّيَ  
ذَلِكَ الثَّمَنُ بَعْدَ شَهْرٍ لَعَدِمِ إِدْرَاكِ الْعَبِّ ، وَذَلِكَ إِلَى اسْتِيفَاءِ الضَّرِيَّةِ مِمَّا يَمْلِكُ  
الْفَلَّاحُ وَلَوْ كَانَ قِطْعًا ذَهَبِيَّةً نَخِيضَةً فِي بَرَاقِعِ نِسَائِهِ ، وَهَكَذَا تُسَلَّمُ الْحُكُومَةُ الْمُبْلَغَ  
النَّاقِصَ قَبْلَ الْوَقْتِ الْمَعِينِ بِيَضْعِ سَاعَاتٍ ، وَمِمَّا حَدَّثَ أَنَّ الْقَنْصَلَ الْإِنْكِلِيزِيَّ جَرَوْا  
فِي تَقَارِيرِهِ عَلَى الدِّفَاعِ عَنِ الْفَلَاحِينَ فَأَوْجَبَ الدَّائِنُونَ الْجِيَاعَ إِخْرَاجَهُ مِنْ مَنَصِبِهِ .

وَكَانَ الْفَلَّاحُ يَجْهَلُ مُؤْتَمَرَ بَرْلِينَ جَهْلَهُ مَصَارِفَ بَارِيْسَ ، وَمَعَ ذَلِكَ قَرَّرَ  
بِسَارِكُ مَصِيرَ مَصْرَ فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ الْمُؤْتَمَرِ ، وَبِسَارِكُ كَانَ ، مِنْذَ عَامَيْنِ ، قَدْ نَصَحَ  
الْإِنْكِلِيزَ بِأَنْ يَسْتَوْلُوا عَلَى مَصْرَ رَاجِعًا أَنْ يَتَحَوَّلَ هَذَا الْإِحْتِلَالُ دُونَ نُشُوبِ حَرْبٍ  
فِي الشَّرْقِ الْأَدْنَى ، وَبِسَارِكُ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ يَقْتَرِحُ عَزْلَ الْخَلْدِيوِ ، وَلَكِنْ الرَّجُلَ الْمُسِينُ  
الرَّمِيضَ ، وَلَكِنْ السُّلْطَانَ يَظْهَرُ بَشْتَةً كَمَا يَتَحَدَّثُ فِي خَاتِمَةِ الرِّوَايَةِ الْهَزْلِيَّةِ ، فَبَعْدَ  
إِنْ تَرَكَ السُّلْطَانُ نَائِبَهُ يَقُومُ بِشُؤُونِ الْحُكْمِ عَلَى ضِفَافِ النَّيْلِ كَمَا يَشَاءُ مَدَّةَ خَمْسِينَ

سنة رأى أن ينتحل وَضْعَ الطاغية فيَحُولَ بذلك دون تَدَخُّلِ الدول الغربية ، فأرسل إلى إسماعيلَ بَريَّةً عنوانها : « إلى خديو مصر السابق بالقاهرة » .

وَيَتَّخِذُ إسماعيلُ من الوَضْعِ ما هو كاملٌ ، وَيَرَوِي شَاهِدُ عِيَانٍ أَنَّهُ دُهِشَ ، ثم فَتَحَ البَريَّةَ هَادِئاً وَقَرَأَ ما يَأْتِي : « أَطيعُوا صَاحِبَ الْجَلَالَةِ السُّلْطَانَ فَتَلَمَّعُوا الخديويةَ إلى خديو مصرَ مُحَمَّدَ تَوْفِيقَ » ، ثم طَوَى الورقةَ بِنَائيةٍ وَقَالَ : « أُرْسِلُوا مَنْ يَبْحَثُ عن صَاحِبِ السُّمُوِّ تَوْفِيقَ بِاشًا في الحَالِ » ، فَلَمَّا لَاحَ ابْنُهُ أَسْرَعَ إِلَيْهِ مَجَاوِزاً القَاعَةَ مَعَ طُولِهَا وَوَضَعَ يَدَ ابْنِهِ عَلَى فَمِهِ قَائِلاً : « أَهْلاً بِمَوْلَايَ » ، ثُمَّ طَبَعَ قُبْلَةً عَلَى خَدَيْهِ وَهَنَاءً وَتَمَنَّى لَهُ حُسْنَ التَّوْفِيقِ ، وَلَمْ يَنْطِقْ بِغَيْرِ ذَلِكَ ذَاهِباً إِلَى دَائِرَةِ حَرِيمِهِ تَارِكاً الأَمِيرَ الشَّابَّ حَائِراً مَرْقُباً ، تَارِكاً ابْنَهُ الَّذِي صَارَ مِلْكَاً بَيْنَ سَاعَةٍ وَأُخْرَى ، فَلَمَّا كَانَ الْعَدُوُّ قَصَدَ الْقَصْرَ فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ قَيَّدَ اسْمَهُ فِي دَفْتَرِهِنَّي وَلَى الأَمْرَ الْجَدِيدَ ، ثُمَّ وَضَعَ أَمْتَعَتَهُ فِي حَقَائِبِهِ وَأَخَذَ بَعْضَ نَسَائِهِ وَأَصْدِقَانِهِ وَبَمِلْغَ ثَلَاثَةِ مِلايينَ فِرَنْكٍ وَتَوَجَّهَ إِلَى إِيْطَالِيَةِ بَحْرًا .

وَقَدْ قَضَى إِسْمَاعِيلُ لَيْلَتَهُ الأَخِيرَةَ فِي مِصْرَ مَعَ ابْنِهِ فَقَطَ .

## ٢٣

وَيَصْنَعُوا الْفَلَاحُ فِي أَسْوَأِ سَاعَاتِ اسْتِمْبَادِهِ ، وَلَمْ يَنْهَضِ الْفَلَاحُ وَحْدَهُ كَمَا صَنَعَ أَجْدَادُهُ مِنْذُ ٤٥٠٠ سَنَةٍ ، بَلِ اتَّبَعَ مَنْ يَقُودُهُ مِنَ الزَّعَمَاءِ لِلْمَرَّةِ الأُولَى ، وَقَدْ صَدَّرَتِ الْقُوْمِيَّةُ الْمِصْرِيَّةُ مِنَ الأَدْنَى لِأَوَّلِ مَرَّةٍ بَعْدَ أَنْ أَتَى مُحَمَّدٌ عَلِيٌّ ، هَذَا الْغَرِيبُ ، بِهَا مِنَ الأَعْلَى ، وَتَقَوَّضُ الزُّوْبَةُ ذَلِكَ الشَّرَادِقَ الْحَرِيرِيَّ الَّذِي أَوَّلَمَ الْخَدِيوُ فِيهِ

لدائتيه فأبصره الفلاح يصنع ذلك ، ويَطُوفُ بعض رجال في القرية بعد الأخرى  
مُلقين خُطباً نارية ضدَّ الأجنبيِّ ، ويُدْرِكُ الفلاح أن تلك الأقوالَ تَهْدِفُ ،  
أيضاً ، إلى الباشوات الذين كانوا يفتنون بفضل الأجنبيِّ ، وهكذا يتقوَّى العصيان  
السياسيُّ بالحقْد الاجتماعيِّ ، ومن القاهرة أناسٌ ساخطون كانوا يتكلمون عن  
جُمهوريةٍ على غرار الديمقراطية السويسرية ، فترتبط فيها سورية والحجاز ، وقد  
قال أحدهم : « أرجو ألا أموتَ قبل أن أرى الجُمهورية المصرية ، فجميعنا نودُّ  
رجوعَ العصر الذهبي » .

وكان زعماء تلك الحركة من علماء الأزهر المترضين على الأوراد القرآنية القديمة ،  
ومن الضباط الساخطين على محابة الترك في الجيش ومن رجال ذوى آراء مختلفة ،  
ولكن مع كَوْن الجميع من اللصين الأصليين الذين هم من الطبقة الوسطى والذين  
كان محمد عليّ قد دَعاهم إلى تمثيل دورٍ في انجتماع فخرهم خَلَقَهُ حقوقهم ، وكان محمد  
عليّ أولَ من جَعَلَ من الفلاحين ضباطاً ، ولم يستأصل محمد عليّ المماليكَ تماماً مع  
ذلك ، فقتلَ اثنان منهم خليفته ، وكان نائبو السلطان يَلْعَبُونَ مع السلطان لُعبةَ  
المرء والفأر ، وكانوا يُحاطون بِتُرْكٍ في الغالب ، وَيَتَرُزُّ ضابط من بين العُصاة الذين  
يريدون أن تكون « مصرٌ للمصريين » .

كان عرابي فلاحاً ابناً لشيخ قرية في الدلتا ، ووُلِدَ في عهد محمد عليّ ونَشَأَ في  
إحدى المدارس الأولى التي شادها محمد عليّ ، ودرَسَ في الأزهر القرآن والسياسة  
الجديدة معاً ، وصار جندياً ثم ضابطاً ثم مراقباً لنائب السلطان ، سعيد ، في أثناء  
حجِّه ، ويُرْوَى أن سَوْرَةَ غضبٍ اعترت سعيداً في ذلك الحين فرمى من خيمته  
كتاباً عن « حياة نابليون » فجَمَعَهُ عرابي فألَّهه هذا الكتابُ حماسةً ، والواقعُ

أن مطالعة سيرة نابليون تؤدى إلى نتائج خطيرة في الغالب

وكان عرابى قائد مثة عند موت حاميه ، ولما صار إسماعيل يملك مستعينا بالأغنياء والقرباء على الفلاحين والمصريين كان عرابى في الخامسة والعشرين من سنيه فانحاز إلى النشاط من الرجال الذين أخذوا يفكرون في خلع إسماعيل منذ ذلك الحين ، ويلقى خطبة نارية تحت نوافذ القصر فيجرحه مجلس حربى من رتبته ، ويخلد بالسقوط على الأرجح ، ويصيبه مثل ذلك في أثناء حرب الحبشة ، وتجرح كرامته ضابطاً مصرياً فلاحاً ، ويبلغ من النضج ما يصير معه زعيماً شعبياً ، ويكفيه أن يكون قادراً على الكلام .

وكان عرابى طويل القامة ، بطيء الحركة مشابهاً للفلاح أكثر مما للجندى متوانياً صموتا له نظر الحالم ، ولم يكن عرابى موقفاً ضابطاً ولا سياسياً ، ولم يكن عرابى ذا تأثير في غير مخاطبة الجمهور ، ويرى الفلاح فيه طرافة لم يسمع بمثلا ، ويعده الفلاح ابنه الذى يحذنه عن آلامه بلهفته فيشعر الفلاح بتحقيق حلم كما يشعر بصدر سائل من الحاسة عن هذا الرصين الصادق الذى يستشهد بالقرآن فيدل على حسن إسلامه وصلاح مصريته ، ويظهر عرابى من جميع الوجوه على النقيض من ذلك الزعيم الذى أعلن في السودان أنه المهدي المنتظر فرأينا في جزء آخر من هذا الكتاب ما كان يتصف به من خداع وخبث ورياء ..

وكان منظر الشارع يوحى إلى عرابى في كل يوم بما يجب أن يخاطب به الشعب إيقاظاً له ، فيتكلم عن إسراف إسماعيل ، عن تبذير هذا التركي ، هذا الأجنبي ، كما يتكلم عن امتيازات الترك وبؤس الفلاح مضيعاً إلى ذلك إخلاصه للخليفة وقسمه بالقرآن وبسيفه ، مفاخرأ في كل مكان بامضائه : عرابى المصرى ، ولم يبق

له أن يَعمَل كثيراً حتى يصبح شعبياً خطيراً ، فلم يَلْبَث أن صار « الوحيد » ، وصار المُدخِنون والناحون يَفْشُون مَنزِلَه ، ولما هاجم الحكومة وطلاب بتأليف جيش وطني كبير لم يَذْرِك الشعب غير أمر واحد ، غير عزمه على طرد المرابي الأجنبي ، غير طرد اليوناني ، فَيَهْتِف له ، وما قال مُجَلِّلاً<sup>(١)</sup> ذات يوم : « نَذْكُر ، نحن الجنود ، أن الخليفة عمر في مشيبه قال للناس ذات مرة : من رأى منكم في أعوجاجاً فليَقُوْهُ ، فسمع من يقول له : والله لو وَجَدْنَا فيك أعوجاجاً لقَوَّمنَاه بسيفنا » .

ويحاول توفيق ، هذا الخديو الجديد ، هذا الوارثُ لديون أبيه وما أدى إليه أبوه من كره الأجانب ، أن يُدَارِي ذلك الزعيم الشعبي الخطير فيعيثَه زعيماً<sup>(٢)</sup> في الجيش ، يَبْد أن عرابي يَرْفُض إرسال رجاله للعمل في قنوات أملاك الخديو الخاصة ، فيُوقَف ويُطلَقه جنوده ، ويصير بعد الآن زعيم مصرَ الثائر على الطاغية التركي والبطلَ الوطني .

ولكنه لم يكن غير نصف بطل ، وإن الخديو ، وإن لم يكن بطلاً ، كان يُمكنه ، على الأقل ، أن يستمد مناوَبَةً على السلطان وعلى الدول العظمى ، أى على ناحيتين تَعْدَان كل ذلك ضَرْباً من تَمَرُّد الجنود ، ويَرْخَف عرابي ذات عصر من شهر سبتمبر سنة ١٨٨١ إلى القصر مع ٢٥٠٠ رجل ، وينتظر الخديو ، ويتوقف كل شيء على جُرْأَة كل من الخُصَمين ، وإذا ما صدَّقنا المرافق الإنكليزي الذي كان مع الخديو وجدنا وَضَعَ الخديو مثيراً للضحك ، وإذا ما صدَّقنا قولَ عرابي نفسه ظهرَ عرابي لنا ناحياً لا جاسماً .

(١) جلجل الرجل : صوت شديداً — (٢) Colonel



۴۲ - زن تاج





## لسنا عبيداً

وكان الخديو أصغرَ سنّاً من عرابي باثنتي عشرة سنةً ، وكان خلوّاً من الروح العسكرية ، فسأل الإنكليزيّ مُحافِظاً عما يجب أن يفعل ، فبَسِرَ إليه الإنكليزيّ بأن يأمر الزعيم<sup>(١)</sup> أن يترجل وأن يَفْعِد سيفه ، ويُطِيعُ عرابي ، يَدَّ أن الخديو لم يكن من الشجاعة ما يَعْمَلُ معه بنصيحة مرافقه فَيَطْلُبُ من عرابي أن يُسَلِّمَ إليه سيفه ، وذلك لِمَا كان يَدُّو من روح التهديد على حُسين ضابطاً متجمعين عند باب القصر ، وَيَعْرِضُ عرابي عليه مطالبه السياسية ، ويشدُّ الخديو بالإنكليزيّ فيقول : « إنني سيدُّ هذا البلد ، وساصنعُ ما يروؤني » . ويُجِيبُ عرابي عن ذلك بقوله : « لسنا عبيداً ، ولن يُتَصَرَّفَ فينا بعد الآن بحقِّ الوراثة » ، وهنا يَدْخُلُ الخديو قصره ويرتدُّ الجنود .

وذلك المنظر الذي رُئِيَ ما هو أعظمُ منه أمام قصور العواصم الأخرى هو وحيدٌ في تاريخ مصرَ منذ ستة آلاف سنة ، وهو نصفُ قهرٍ للملك شبيهٌ بما تمَّ ببرلين في شهر مارس سنة ١٨٤٨ ، ولكن الثوريين نالوا في القاهرة أكثرَ مما نالوا في بروسيه ، وذلك لأن الخديو في ذلك اليوم أجاب زعيم الفتنة إلى جميع ما كان يَطْلُبُهُ حزبه تقريباً ، أى عزل الوزارة وتقوية الجيش ودعوة مجلسٍ للنواب ووعدٍ بسنِّ دستورٍ ، ويُعيِّنُ عرابي وريثاً للحرية ، والأمرُ الوحيدُ الذي مَنَعَهُ منه مولاه هو عَرَضُ الجنود في الشوارع في ذلك المساء مع عَرَفِ المُوسِيقَى .

ومن الطبيعيّ أن يَحْذَرَ كلُّ من الرجلين صاحبه ، فيقول الخديو لعرابي إن قلبه كان مع الثائرين ويقول للثائرين إنه سيقضى على الفتنة ، وكان السلطانُ يَلْعَبُ مع الخديو وعرابي عينَ اللَّعِبِ .

ومع ذلك كانت الآلهة القوية ، أي حكومتا إنكلترة وفرنسة ، تقاثل في الشُّحْب فوق هؤلاء المصريين وهؤلاء الترك كما وقع أمام تروادة فيما مضى وكما كان القَدْرُ الثابت على العرش يجلس فوق تلك الآلهة ، فترمي لَجَنَةُ الدائنين رَعْدًا وصواعق بين الآلهة والناس لإيقاظ حسين في اللثة على الأقل من ديون إسماعيل خلافاً لإرادة الشعب للتزايدة ، ونحسُ فرنسة ما يكون من غلبتها في مصر فتخفف إلى احتلال ولاية تونس التركية ، وتتفق هي ومنافستها إنكلترة فتعرب للخديو عن حمايته تجاه كل حركة ثورية ، ويراد استدراج زعماء الفتنة فيطلب عزل عرابي ، ولا يوفق لغير إضرار الشعب سُخْطاً ضدَّ الأجانب ، ويهيم ألف الناس خوفاً من الفتك بالتصاري ويعزم السلطان على إرسال سفينة في نهاية الأمر ، ولا تنزل من السفينة إلى البر مدافع ، بل يُنزل صندوق ضيق مشتمل على ٢٥٠ وسام مع تخصيص عرابي ، مع تخصيص الثوري التي الذي ما بقي يمتدح بسيادة الخليفة ، بأهمها ، وهذا ما كان يُحِيلُ للبلاط القديم أن يَفِثَ الثورات به ! ومع ذلك يتدخل الدائنون ، يتدخل ممثلو الأسلوب الماكس بشدة ، لدى حكومتهم فيحملونها على إرسال أسطول إلى الإسكندرية ، فتلقي مراكب بحرية أجنبية مراسيتها في مَصَبِ النيل ، ويذهب الفرنسيون من فورهم ، ويحقق العلم البريطاني وحده في الهواء .

وهكذا يُحْمَلُ عرابي على أعمال يتطلب القيام بها رجلاً أشدَّ بأساً منه ، وينحاز الخديو إلى الأجنبي في الحال فيعزل عرابي كائن لبلده ، ويقابل عرابي الخديو بمثل ذلك ، ويتعذر الحكم بانصاف في الأمر ، وذلك لأنه لا يُجَاب عن السؤال « ما هي الحياة العظمى ؟ » بغير قول شيلر :

« إذا ما تَجَحَّ صُفِّحَ عَنْهُ » .

ولما اعتَمِدَ أن يضعَ طَلَقَاتِ مِدْفَعٍ تَكُنِي لِإِعَادَةِ النِّظَامِ إِلَى نِصَابِهِ وَجِدَتْ كُلُّ ذَرِيعَةٍ صَالِحَةٍ ، وَتَضَارِبٍ مَالِطٍ وَحَمَّارٍ فِي شَارِعِ الإسكندرية من أَجْلِ أَجْرَةٍ ، وَيَبْلُغُ هَيَاجُ الْجُمْهُورِ غَايَتَهُ بَعْدَ سَاعَةٍ ، وَيُقْتَلُ مِثْنًا شَخْصٌ ، وَيُجْرَحُ الْقَنْصَلُ الْإِنْكِلِيزِيُّ ، وَتُنْهَبُ أُمُالُ الْأَوْفِ ، وَتَنْشَأُ هَذِهِ الْحَوَادِثُ عَنْ وَجُودِ مُرَاكِبِ حُرِّيَةِ الْإِنْكِلِيزِيَّةِ أَغْضَبَ وَصُولُهَا الْمَصْرِيِّينَ مِنْ كُلِّ طَبَقَةٍ ، وَيَضْبِطُ عِرَابِي نَفْسَهُ فِي ذَلِكَ الْحَبْنِ فَيُنْذِرُ الْإِنْكِلِيزَ بِقَوْلِهِ إِنْ أَوَّلَ قَذِيقَةٍ مِدْفَعٍ يُطْلِقُونَهَا تَوْدِي إِلَى خَلَاصِ الشَّعْبِ الْمَصْرِيِّ مِنْ دَيْنِهِ ، وَيَسْأَلُ فِي نَفْسِهِ عَنْ انْضِمَامِ سُلْطَانِ السُّلْطَانِ الْحَرِيَّةِ إِلَى الْأَسْطُولِ الْإِنْكِلِيزِيِّ وَيُجَهِّزُ حُصُونَهُ بِالسَّلَاحِ عَلَى عَجَلٍ ، وَيَحَافِظُ عَلَى اعْتِدَالِ دَمِهِ مَعَ ذَلِكَ ، وَيَأْمُلُ فَيَتَنَادَرُ هُوَ وَصُحْبُهُ وَيَتَبَادَلُونَ الْأَهَاجِيَّ لَيْلَةً بِأَسْرَهاً ، وَلَكِنْ مَعَ عَطَالٍ مِنْ خِطَّةٍ قَتَالَ مُتَرَّةً ، وَبَيَّرَ مِنَ الْأَجَانِبِ مَنْ يَسْتَطِيعُ الْفِرَارَ ، وَيَسْتَعِدُّ التُّرُكُ لِلرَّحِيلِ ، وَكَانَ أَرْبَعَةَ عَشَرَ أَلْفًا مِنَ النَّصَارَى قَدْ غَادَرُوا الْبِلَادَ ، وَكَانَ ثَلَاثُونَ أَلْفًا مِنْهُمْ قَدْ هَرَبُوا إِلَى أَقْصَامِ مِصْرَ الْآخَرَى .

وَكَانَ عِرَابِي فَاقِدَ الْحِزْمِ فِي السَّاعَةِ الْحَاسِمَةِ كَمَا يُلَوِّحُ ، وَهَلْ كَانَ لِلدِّفْعِ أَوْ الْإِيمَانِ هُوَ الَّذِي يُغَوِّزُهُ ؟ وَهَلْ كَانَ يَنْذُرُ حَرْقَ مُوسْكُو ، كَمَا يَزْعُمُ الْإِنْكِلِيزُ ، فَأَضْرَمَ النَّارَ فِي الْمَدِينَةِ ، أَوْ إِنْ الْحَرِيقَ كَانَ نَتِيجَةَ انْفِجَارِ غَيْظِ الْأَهَالِي ؟ إِنْ الَّذِي لَا رَيْبَ فِيهِ هُوَ أَنَّ الْإِنْكِلِيزَ ضَرَبُوا الإسكندرية بِالْمَدَافِعِ وَدَخَلُوهَا حِينَ كَانَتْ تَأْكُلُهَا الْقَوْصَى ، وَإِنْ الَّذِي لَا رَيْبَ فِيهِ هُوَ أَنَّ الْمَصْرِيِّينَ قَاوَمُوا ذَلِكَ الْغَزْوَ الْأَجْنَبِيَّ فِي أُسَابِيعَ بِحِمِيَّةٍ لَمْ يَبْدُؤُوا مِثْلَهَا فِي أَوَّلِ السَّنِينَ كَمَا أَنَّهُمْ أَظْهَرُوا مِنَ الْعِزْمِ وَالشُّعُورِ الْقَوْمِيِّ مَا لَمْ يُظْهِرُوا مِثْلَهُ تَجَاهَ أَىِّ غَزْوٍ أَجْنَبِيٍّ وَقَعَ فِي جَمِيعِ تَارِيخِهِمُ الطَّوِيلِ .

وَتَنَزِلُ كَتَابُ إِنْكِلِيزِيَّةُ إِلَى الْبَرِّ لِحَايَةِ قَنَاةِ السُّوَيْسِ ، وَبِاسْتِزْدِ الْفَرَنْسِيِّينَ  
مَرَاكِبَهُمْ ، وَالْحَقُّ أَنَّ الْفَرَنْسِيِّينَ تَرَكَوْا الْبَرْزَخَ الَّذِى صَارَ طَرِيقًا عَالِيَةً بَعْدَ أَنْ  
أَفْلَقَتْ أَسْهُمُهُمْ إِسْمَاعِيلَ مِنْهُمْ ، وَالْحَقُّ أَنَّ الدَّوْلَةَ الثَّلَاثَ الَّتِى يَهْمُهَا الْأَمْرُ لَمْ تَكُنْ  
لَتُبْصِرَ مَقْدَارَ الْمَسَائِلِ الْخَطِيرَةِ الَّتِى فُصِّلَتْ فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ الْقَلِيلَةِ .

وَكَانَ عَرَابِىُّ مَقَاتِلًا ، لَا قَائِدًا ، وَيَخْوَضُ غِيَارَ أَوَّلِ مَرَكَبَةٍ ، وَيَسِيرُ وَفْقَ طَلِبِ  
فِرْدِينَانْدُ دُولِشَيْسٍ وَأَنَاسٍ آخَرِينَ لَمْ يَكُونُوا لِيَبَالُوا بِمَجْرِيَةِ مَصْرَ مَبَالَاثِهِمْ بِقَنَاةِ  
السُّوَيْسِ فَلَمْ يُخَاصِرْ هَذِهِ الْقَنَاةَ مَعَ أَنَّهُ كَانَ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَسُدَّ الطَّرِيقَ فِي وَجْهِ  
السُّفُنِ الْإِنْكِلِيزِيَّةِ ، وَمَعَ ذَلِكَ يَقِفُ جَيْشُهُ لِلزُّوْلَفِ مِنْ فَلَاحِينَ رَخَفَ الْجَيْشُ  
الْإِنْكِلِيزِيَّ الْعَصْرِيَّ مَدَّةَ شَهْرَيْنِ ، وَلَكِنْ مَا حَدَّثَ مِنْ خِيَانَةِ ضَبَّاطٍ تَبَرَّطُوا  
أَدَى إِلَى هَزِيمَةِ عَرَابِىٍّ وَرَجَالِهِ وَهَرَوْبِهِمْ إِلَى الْقَاهِرَةِ ، وَيُقْبِضُ عَلَيْهِ وَيُحْكَمُ بِإِعْدَامِهِ  
وَيُقْفَى عَنْهُ وَيُنْفَى إِلَى سِيلَانِ .

وَكَانَ عَرَابِىُّ فِي الثَّانِيَةِ وَالْأَرْبَعِينَ مِنْ عَمْرِهِ فِي ذَلِكَ الْحِينِ ، وَيَعُودُ إِلَى بَلَدِهِ ابْنًا  
لِلسُّتَيْنِ مِنْ سِنِيهِ ، فَيَمُوتُ فِي الْقَاهِرَةِ سَنَةَ ١٩١١ فَلَاحًا مَنَسِيًّا مُهْمَلًا ، فَقَدِيرًا كَمَا  
كَانَ دَوْمًا ، وَيَرَى الْإِنْكِلِيزِيُّ الَّذِينَ قَاوَمَ نَزُولَهُمْ إِلَى مَصْرَ يَسْطَرُونَ عَلَيْهَا بِأَسْرِهِا ،  
وَيَمَارِسُونَ فِيهَا مِنَ السُّلْطَةِ مَا لَمْ يَتَّفِقْ مِثْلُهُ لِلْإِسْلَامِ قَبْلَ ذَلِكَ قَطُّ ، وَمَا أَسْوَأُ  
مَا بَدَأَ بِهِ الْإِنْكِلِيزُ ، وَيَقُولُ ضَبَّاطُ إِنْكِلِيزِيَّ بَعْدَ حِينٍ : « إِنْ بُدِئَتْ سَيِّئَةٌ عَلَى  
أَرْضٍ صَالِحَةٍ خَيْرٌ مِنْ بُدِئَةِ حَسَنَةٍ عَلَى أَرْضٍ سَيِّئَةٍ » ، وَمَا كَانَ لِلْإِنْكِلِيزِ أَنْ  
يَعْمَلُوا عَرَابِيًّا كَمَا يَعْمَلُونَ الْعُصَاةَ ، فَهُوَ لَمْ يَكُنْ عَاصِيًا مَا كَانَ الْخَلْدِيُّو قَدْ سَلَّمُوا إِلَيْهِ جَيْشَهُ ،  
أَوْ كَانَ يَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يُعْلِنُوا حِمَايَتَهُمْ مِنْ قَوَرَمِ كَمَا صَنَعُوا ذَلِكَ فِي بِلَادٍ أُخْرَى ،  
وَمَا اتَّخَذَهُ غُلَامِيْنَيْنِ ، هَذَا الْقَاتِلُ بَعْدَ التَّوَسُّعِ الْاسْتِمَارِيِّ ، جَبَلُ الْمَصْرِيِّينَ

يَرَوْنَ ، بِحُكْمِ الضرورة ، أن كلَّ ما تَكَثَّرَتْ لَهُ إنكثارة هو قناة السويس  
ورقابة ما تحتاج إليه مصانعُ لَنَكْشِيرَ من القطن .

وَفِيمَ كان عرابي الشائبُ يُفَكِّرُ وحيداً بفرفته الحفيظة بمصرَ القديمة حينما  
يَسْمَعُ صوتَ عَرْضِ الكتائب الإنكليزية في شوارع القاهرة وَيُبْصِرُ ما تَمَّ على  
يد الإنكليز من تقدمٍ بعد عشرين سنةً من توطيدهم السَّلمَ والنظامَ اللذين صرَّحوا  
بأنهم أَتَوْا من أجلهما ؟ وهل كان في سبيل سعادة مصرَ أو شقاها ما أعطاه « عرابي  
المصري » من ذريعةٍ للإنكليز حتى يُسَوِّغُوا نزولهم إلى وطنه ذلك ؟ أفلم يكن  
وَجَدِيّاً أكثرَ من أن يكون جندياً ؟ أو لم يكن عليه أن يُخاطَبَ الإسكندرية سيداً  
لمصرَ ما أصبحت مصرُ قبضته ؟ أو لم يكن عليه أن يُفْلِقَ قناةَ السويس ممناً  
لوصول تَجَدَّاتٍ بريطانية ؟ وما صرَّحَ به لموظفٍ إنكليزيٍّ ذاتَ يومٍ فن قوة  
الإخلاص كدفاعه بعد القبض عليه ، غير أنه كان من شِدَّةِ الشرف وكثرةِ الجهل  
بالعالم ما لم يَنْطِعْ معه أن يَحُولَ دون أَشْرَاكِ البنوك الأوربية ، وإذا كان عرابي  
أولَ فلاحٍ قام بشؤون الحُكْمِ بمصرَ فإنه لم يكن فلاحاً بدرجة الكفاية ،  
وكانت الساعاتُ الطويلة التي يَقْضِيها في أثناء حربه أليقَ بالطالب الأزهرى  
ما بالجندي .

ولم يتكلم عنه أحدٌ بأحسنَ مما تَكَلَّمَ عنه الاسكتلنديُّ التزیهُ الجنرال  
غوردون في أثناء تلك المعارك وقبل استيلاء كتائب الإنكليز على القاهرة ، قال  
غوردون : « ومها يُصَبِّ به عرابي فإنه سيعيشُ قروناً في ذاكرة الشعب الذي لن  
يقول ثانية : خادمكم الخاضع » .

إِذْنًا ، استقرَّ الإنكليز بواي النيل ، واستلموا الرومان أكثر من استلهمهم اليونان ؛ وذلك مع كونهم أحسنَ تسلُّحاً من أسلافهم الذين كانوا قد استولوا على الدلتا خُطوةً خُطوةً بالحديد والنار ، أجل ، إنهم بدؤوا أقلَّ اطلاعاً ، فلا يَزْعُمُونَ أنهم سادة وادي النيل ولا يَزْعُمُونَ العلمَ البريطانيَّ ، ولكنهم يُوَكِّدُونَ ، ولا يزالون يُوَكِّدُونَ ، أنهم لم يأتوا إلى مصرَ إلا ليعيدُوا النظامَ إلى نصابه ، ثم ينصرفون ، وهم قد أقرضوا الخديو المبدِّرَ ، لا الشعبَ المصريَّ ، ملاينهم بمحضِ إرادتهم ، وهم قد صنعوا ذلك طمعاً في رِبَا فاحشٍ لا ينالونه في الغرب ، وهم إذا ما جاءوا الآن فلكى ينقذوا نفوذهم ما دام المصريون الصَّحاةُ غيرَ مستعدين لأن يُؤدُّوا مقابلَ ما بدَّده مسيطرٌ أجنبيٌّ عن صفه ، ولذا يتعذر عليهم أن يَرْفَعُوا راياتهم باسم يسوع أو باسم الحرية .

وكان الإسكندرُ وقصرُ قد بلغا تلك الشواطئَ بلا عُدْرِ مُعَلِّنين عزمهما على حسنِ معاملة الشعب المصريِّ إذا ما ضمنَ سلامة طُرُقِ الاتصالِ بآسية ، ويمضى ألفا عامٍ فلا يريد غلادِسْتُن ، المُطَّلِعُ على تاريخ الرومان والمترجمُ لكُتُبٍ من لغة اليونان ، غيرَ القطن . وغير طُرُقِ الاتصالِ بآسية ، ولكنه ظهرَ قبل الأوان وبعده فلا يستطيعُ أن يَضَعَ مطالبته في قالبٍ دُعيَ بالبسيط قبل زمانه وبالذُّمِّي (١) بعد إبَّانه .

وكان محمد علي قد أحسَّ ذلك فقال : « كِبَارُ السَّكِّ تَأْكُلُ مَنَافِرَهَا ، فإذا ما أفلست الدولة العثمانية استولت إنكلترة على مصر » ، وكان سياسيو الإنكليز يَعرِفون الحقيقة ، ولكن من دون أن يعترفوا بها لغير أنفسهم ، ويَبْلُغُ اللورد بَليرِستن في سنة ١٨٥٩ من القِصَّة ما يَكْتُبُ معه إلى سفيره بباريس قوله : « لا حاجة لنا بمصر ، ونحن إذا رَغَبْنَا في امتلاكها فَلَا تَنَا كَذَلِكَ الرجل السليم الذَّوقُ الَّذِي لَهُ عَقَارٌ في شمال إنكلترة ومنزلٌ في جنوبها فلا يُريدُ أن يَمْلِكَ الفنادق القائمة على طرفي الطريق بينهما ، وإنما يطلب أن تكون هذه الفنادق دوماً ، مُفَتَّحَةً الأبواب حسنة التنظيم مشتملة على أضلاع غَنَمٍ وعلى خيول » .

ويُمرُّ زمنٌ ، فَيَأْتِي أذكي الإنكليز الذين يَعْمَلُونَ في مصر ، أو الذين يُدِيرُونَهَا من لندن ، من ذلك السلوك ذى الوجهين ، ومن ذلك أن تَوَجَّعَ مَالِت ، سنة ١٨٨٣ ، من تصريح وزير الحرية بدوام الاحتلال ستة أشهر ، فقال : « لا رَيْبَ في بقائنا هنا زمناً طويلاً إذا لم تُردَّ أن نُضَيِّعَ جميع منافع النصر » ، ومن ذلك قولُ المستشرقِ ومستشارِ وزير الدولة في المسئلة الشرقية ، رُولِنْسُن : « لا يمكننا الجَلَاءَ عن مصر ما دام الفرنسيون في تونس » ، ومن ذلك قولُ سِيدِي لُو ، « نحن لا نَحْكُمُ في مصر ، وإنما نُدِيرُ حُكَّامَ مصر » ، ومن ذلك قولُ مِلْنِر « كان علينا أن نُفَنِّدَ في الحال نوعَ السلطة التي نريد أن نمارسها هنا ، بدلاً من أن نكون في وَضْعٍ شاذٍ » ، ومن ذلك قولُ مترجم غلادِسْتِن ، زِتْلَنْد : « كانت وزارة غلادِسْتِن ، في سنة ١٨٨٢ ، تَرْتَقِبُ كلَّ شيءٍ خلا الطريق التي تتقدم فيها ، وتُبَاغَتْ بِاللَّدِّ وَتُقَادُ إلى احتلالٍ عسكريٍّ ، وتقوم باحتلال مصر عابسةً ، فلما تَمَّ لها ذلك دُهِشَتْ وأظهرت أنه كان على غير إرادتها » ، ومن ذلك



قولُ اللورد لُويْد : « وَتُتَزَعُ صَوَارِي الحُكُومَةِ فَيَقُولُ إِنَّهَا لَا تَقُومُ بِأَعْمَالٍ كَبِيرَةٍ وَلَا تَبْقَى فِي مِصْرَ زَمَنًا طَوِيلًا . . . وَقَدْ أَرَدْنَا فِي أَيَّامِ اللورد كِرُومِر أَنْ نَعْدِلَ عَنِ الِاجْتِهَالِ ، وَقَدْ وَكَّدَ أَمْرُ الْبِرَنامِجِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْجِزَ ، وَقَدْ كُنَّا مُسْتَقْرِنِينَ بِمِصْرَ ، فِي سَنَةِ ١٩٠٠ ، طَوْعًا أَوْ كَرْهًا »

وَإِذَا مَا وَجَّهَ سِتَّةُ رِجَالٍ مِنْ ذَوِي الْبَصَائِرِ كَأُولَئِكَ اسْتِقَادًا مِمَّا ثَلَا كَذَلِكَ إِلَى بِلَدِهِمْ فِي خَمْسِينَ سَنَةً وَجَبَ أَنْ يُعْتَرَفَ بِأَنَّ الشُّعُورَ الْوِطَنِيَّ ، لَا الْأَحْوَالَ ، هُوَ الَّذِي أَوْجَبَ اتِّخَاذَ قَرَارٍ عَظِيمٍ الشَّانِ بِمِيزِ الْمَدَى حَوْلَ مِصْرَ ، وَمِمَّا نَرَاهُ أَنَّ مَا عَلَيْهِ الْحُكُومَةُ الْإِنْكِلِيزِيَّةُ مِنْ فِطْنَةٍ أَشْهَبَ فِي امْتِدَاحِهَا كَمَا أَشْهَبَ فِي امْتِدَاحِ فِطْنَةِ الْقَاتِيكَا نَ ( لِمَا يُقَالُ مِنْ تَفْكِيرِهَا فِي أُمُورٍ خَاصَّةٍ بِقَادِمِ الْقُرُونِ ) يَقُومُ عَلَى غَرِيزَةٍ صَادِقَةٍ تُتِمَّلِي عَلَيْهَا صَالِحُ الْأَعْمَالِ فِي الْوَقْتِ لِلنَّاسِبِ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُفَكَّرَ فِي نَتَائِجِ أَعْمَالِهَا ، وَيُذَكِّرُنَا هَذَا بِجَوَابِ غُوتِهَ ، وَذَلِكَ أَنَّ غُوتِهَ ، فِي أَوَّلِ حَدِيثٍ لَهُ مَعَ شِيلِرْ كَانَ حَاسِمًا فِي تَقْرِيرِ صَدَاقَتِهِمَا ، عَرَّضَ رَأْيَهُ فِي النَّبَاتِ الْإِبْتِدَائِيِّ عَلَى أَنَّهُ نَتِيجَةُ تَجْرِبَةٍ فَقَالَ شِيلِرْ مُعْتَرِضًا بِشِدَّةٍ : لَيْسَ ذَلِكَ نَتِيجَةُ تَجْرِبَةٍ وَلَا يَمْدُ ذَلِكَ حَدَّ الْفِكْرِ ، فَأُجَابَهُ غُوتِهَ بِقَوْلِهِ : « لَا ضَيْرَ ، فَلَدِيَّ مِنَ الْأَفْكَارِ مَا لَمْ أَعْرِفْهُ أَوْ أَرِدْهُ » .

وَإِذَا كَانَ الْإِنْكِلِيزُ ، مَعَ كُلِّ ذَلِكَ ، لَمْ يَكْفُوا عَنْ التَّصْرِيحِ بِأَنَّهُمْ لَا يَبْقَوْنَ فِي مِصْرَ مَا لَمْ يَكُنْ وَجُودُهُمْ فِيهَا نَافِعًا لِهَذَا الْبِلَدِ ( وَقَدْ مُجِيعَ ٤٩ تَصْرِيحًا مِنْ هَذَا النَّوْعِ بَيْنَ سَنَةِ ١٨٨٢ وَسَنَةِ ١٩٠٢ ) فَإِنَّهُمْ كَانُوا مُخْلِصِينَ فِي ذَلِكَ إِخْلَاصَ الزَّوْجِ الَّذِي لَا يَفَارِقُ زَوْجَتَهُ الْحَسَنَاءَ خُطْوَةً وَاحِدَةً مُدْعِيًا أَنَّهَا تَسْلُكُ سَبِيلَ السُّوءِ إِذَا تَرَكَهَا وَحْدَهَا ثَانِيَةً ، وَالْحَقُّ أَنَّ ذَلِكَ الْبِلَدَ الْعَجِيبَ ، الَّذِي ظَلَّ نِظَامُهُ مُتَقَلِّبًا فِي الْعَهْدِ التُّرْكِيِّ قُرُونًا ، قَدْ اجْتَذَبَ إِلَيْهِ الدَّوْلَةَ الْقَوِيَّةَ فِي الْبَحْرِ الْمَتَوَسِّطِ عَلَى الْبَوَامِ ،

وقد زادت قيمته بقتل السويس فنداً جهاداً في سبيل الحرية امرأ صغياً ، وذلك إلى أن بريطانية العظمى قبضت على ناصية مصرَ بغيريتها عاملةً بنظرية ناپليون الأولِ القائلة إنه لا يُمكنُ أمةٌ أن تملك الهندَ باستمرارٍ من غير أن تملك مصرَ ، وذلك إلى أنه ليس لها أن تأسفَ عليها مع ما تلاقيه من المصائب التي لا حدَّ لها ، وماذا يحدث للإمبراطورية البريطانية إذا ما اضطرت إنكلترة إلى الجلاء عن مصر ، ولم تستد من الحرب العظمى فتقطع لبضعة أيام تلك الرابطة التي تربط ذلك البلدَ بتركية ، أي أن تأتي عملاً خافه محمد علي ولم يُقدم عليه إسماعيل ولم تجزؤ عليه دولة عظيمة لمقاومته من قبل الدول العظمى الأخرى على الدوام ؟

وما بين الغالب والمغلوب من وضعٍ قد يكون فاجعاً ، ولكنه مسرّحٌ محزنٌ على كلِّ حال ، ومن يوقظُ جمعاً ناعساً من مختلفي الألوان فإنه يُطرَدُ من قبل مَنْ أُمِنَ في إيفاظهم ، شأنُ غلاته<sup>(١)</sup> التي دبت الحياة فيها فقرت من مولاها ، ويبدو في ذلك الوادي الذي لم يكن عامراً بزواج جاهلين ، بل بمفدّة أقدم شعوب العالم حضارة ، ذلك الصراعُ طريفاً نظراً إلى وضع كلٍّ من الفريقين ، ويظلُّ قائماً أديباً كما في كلِّ مشهدٍ جيد ، ويعرف أذكي ممثلي تلك الرواية ما تستحقه إنكلترة من شكران وما يجب أن تُراعى به مصرَ ما زادت نَرْوَزَةُ<sup>(٢)</sup> فريق السكان المتعلم يوماً بعد يوم .

وكان ذلك الأزواجُ خصبياً ، ولم يكن سعيداً تماماً ، وذلك لأن الإنكليز لا يحبُّون المصريين ، والقيادة من دأب الإنكليز ، ومن عادة الإنكليز أن يكونوا متسامحين تجاه الهنّج تسامحهم تجاه الحيوانات الأهلية ، ويُدرِكُ الهمجى ذلك ،

(١) غلاته : من إلهات الماء كما جاء في الأساطير — (٢) Nervosité

وَيُنْذِرُ شُكْرَهُ لِنَاكَ ، وَكَأَنَّ بَعْضَ مَبْغِضِي الْبَشَرِ يُجِئُونَ كَلَابَهُمْ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ .  
يَكُونُ الْمُسْتَبِدُّونَ عَلَى وَثَائِهِمْ مَعَ خَدَمِهِمْ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يَكُونُوا عَلَى اتِّفَاقٍ مَعَ مُسَاعِلِيهِمْ  
مَا لَمْ يُنْزِلُوا هَؤُلَاءِ الْمُسَاعِدِينَ إِلَى مَرْتَبَةِ الْخَدَمِ ، غَيْرَ أَنَّ الْإِنْكِلِيزَ فِي الْقَاهِرَةِ يَوجَهُونَ  
أَنَاسًا عَلَى جَانِبٍ عَظِيمٍ مِنَ الثَّقَافَةِ فِي الْغَالِبِ فَلَا يَسْتَطِيعُ أُولَئِكَ السَّادَةُ الْإِلَاسُونُ  
بِذَلَاتٍ بَيِّضًا وَأَرْصُوصَاتٍ<sup>(١)</sup> أَنْ يُؤَيَّسُوا عَلَيْهِمْ ، وَلَا يُزِيدُونَهُمْ إِلَّا اغْتِرَابًا  
بِفُتُورِهِمْ الْفَنَى عَلَيْهِمْ .

وَالْمَصْرِيُّ فِي الْوَقْتِ نَفْسَهُ يَشْعُرُ بِأَنَّهُ مَعَ قُرْبَانِهِ أَشَدُّ تَمَسُّكًا بِالْإِسْلَامِ مِنْ تَمَسُّكِ  
أَكْثَرِ الْإِنْكِلِيزِ تَمَسُّبًا بِالنَّصْرَانِيَّةِ ، وَيَتَحَوَّلُ مَا لَا أَمِيَّةَ كَبِيرَةً لَهُ فِي السُّودَانِ مِنْ  
تَنَاقُضِ الْأَدْيَانِ إِلَى تَنَافُسٍ رُوحِيٍّ فِي مَدِينَةِ الْأَزْهَرِ ، وَكُلُّ شَيْءٍ هُوَ مِنَ الْقَدَمِ هُنَا ،  
وَالْحَضَارَةُ هِيَ مِنَ الْجَلَالِ هُنَا ، وَالْحَوَالِيَّاتُ هِيَ مِنَ الطُّولِ هُنَا ، مَا يَنْظُرُ بِهِ وَرَثَةُ  
جَمِيعِ ذَلِكَ إِلَى هَذَا الشَّعْبِ الْغَازِي الْآتَى مِنْ جَزِيرَةٍ فِي الشَّمَالِ مَعَ عَادَاتِهِ وَعَقَائِدِهِ  
الْفَرِيقَةِ بَيْنِ فِلَسْفِيَّةِ نَقَادَةِ يُرْصَدُ بِهَا آخِرُ نَجْمٍ مَأْلُوفٍ مِنْ قَبْلِ حَكِيمٍ مُحْتَرَمٍ .

وَيَتَطَلَّبُ التَّطَوُّرُ بَيْنَ أُولَئِكَ الشَّيْبِ وَأَبْنَائِهِمُ الرَّاعِيْنَ فِي الْإِسْتِقْلَالِ كَثِيرًا مِنْ  
الْبَلَّاقَةِ ، أَيْ وَجُودَ شَخْصٍ قَادِرٍ عَلَى حِفْظِ التَّوَازُنِ فِي وَضْعِهِ لَا تَرَى لَهُ أَسَاسًا شَرْعِيًّا  
وَلَا أَسْمًا صَحِيحًا ، فَيَتَصَدَّرُ فِيهِ كُلُّ احْتِكَامٍ ، وَمِنْ حُسْنِ حِفْظٍ إِنْكَالَتُهُ أَنْ وَجَدَتْ  
ذَلِكَ الرَّجُلَ .

(١) الْأَرْصُوصَةُ : الْفُلْسُوفَةُ كَالْبَطِيخَةِ .

إذا ما خاطر البطل القومي المنفى الفقير، عرابي، بنفسه فذهب إلى شوارع  
الأحياء الجديدة الأنيقة بالقاهرة ليقىَ عربةً فخمةً يجرها حصانان مطهَّمان راشحان  
عرقا ومزخرفان بالذهب ويركبها رجلٌ من لداته<sup>(١)</sup> يعرفه الجميع ويمشونه ،  
وكان هذا الرجل الذي لم يكلمه في سنوات حياته الست الأخيرة بالقاهرة عدواً  
خلفاً له ، وكان هذا الرجل يجتمع منذ عشرين عاماً، منذ حبوط عمل الثورة المصرية ،  
كل سلطة قبضَ عليها عرابي في بضعة أشهر ، وكان هذا الرجل مثل الدولة الأجنبية  
التي جاهد عرابي في سبيل إقصائها عن وطنه مجازفاً بحياته ، وكان هذا الرجل للسيطر  
على مصر يُسمى اللورد كرومر .

وما أكثر ما بين الرجلين من تباين ! فالرجل الشاب المتورد الحاد الخيال  
المضطرب الثرثار يقف على الرصيف فيبصرُ مفتعاً مروء رجل جالس في عربته  
الجيلة وضاح الجبين أزرق العينين أشقر أشمط ، وكان هذا الرجل ابناً لأناس من  
أغنياء التجار ، هو فريزي<sup>(٢)</sup> الأصل ، هو إنكليزي منذ قرنين ، هو سبط  
الجسم<sup>(٣)</sup> عريض الكتفين ، هو ثقة فطين رصين في أقواله وأفعاله ، وينال  
اللورد كرومر بالتدريج ما يطمح إليه وضعه الواسع وبصره الثاقب من قوة وسلطان ،  
ولا ترى غير أمر واحد يتشابه الرجلان به ، وهو أنهما بدءاً عملهما في الجيش  
فصارا ملازمين في سين واحدة ، وذلك مع بقائه ضابطاً في حماية كورفو زمناً

(١) اللدة : الترب ، وهو من ولد ملك — (٢) نسبة إلى فريز ، وهي ولاية واقعة على  
البحر الهلالي مقسومة بين هولندية وألمانية — (٣) سبط الجسم : معتدل القوام حسن القد .

طويلاً فلم تَدُلَّ حاله على مستقبل زاهر ينتظره كما كان ينتظر محمي الخديو ومهما يكن من أمر فقد كانت الإمبراطورية البريطانية وتقاليدها وزراء الورد كرومر ، ويمتاز الورد كرومر في البرلمان وفي الإدارة الاستعمارية ، ويُعدُّ سكرتيراً خاصاً لنائب الملك في الهند عن قرابة ، فتدُلُّ مواهبه عليه في أثناء الثورة المصرية ، ويُوظَّفُ في لجنة الدين المصري لوقتٍ قصير ويُعيَّن في وزارة الحرية وينتقل صاحب منصب من البرلمان إلى جاكينا في الولايات المتحدة ، ويقضى حياة موظف في الإمبراطورية البريطانية ، ويدعى إلى مصر بُعيد احتلال القاهرة ويُعهد إليه في القيام بعملٍ صعب ، يُعهد إليه في تمدين بلادٍ أجنبية من غير أن يسيطر عليه ، وذلك بما فيه نفع وطنه ونفع ذلك البلد معاً ، ويقوم بشؤون هذا المنصب في أربع وعشرين سنة ممارسة سلطة كانت تزداد يوماً بعد يوم ، فلما انقضت بضعة أعوام أصبح فرعون مصر السري فعلاً .

وإذا نظرت إلى معاصريه لم تر غير كوزن وسيسيل رودس من نال مثل ذلك النجاح الذي تجده مديناً به لثلاث صفات صار بها فوق أمر رجال الأعمال ، وهى : الروح العملية والنزاهة والعطل من الزهو ، ومن ذلك أنه لما بلغ الثالثة والخمسين من سنه رَفَضَ أعظم مقام كرم في الإمبراطورية البريطانية ، رَفَضَ منصب نائب الملك في الهند ، مُقَدِّراً أن عمله في وادى النيل أهم نفعاً وأن مسائل الري « أمتع من رواية » .

وما ينطوى عليه عمله من شعور رمزي ، لا يكون الرجل بغيره عظيماً ، وجدَّ فيه سنداً تجاه جميع المخاطر ، فبعد أن أجاب بالأرقام عن مئات الأسئلة وصَفَ ما أوجبه عمله الإبداعي فيه من مسار في قصيدة طويلة جاء فيها :

« أنيس من الفوز أن تُردَّ كرامة الإنسان إلى العبد الذى يئنُّ مُحطَّاً تحت  
 نير الطغاة من المهد إلى اللحد ؟ أليس من الفوز ، أليس من العمل الصالح ، أن  
 يُوضَعَ حَدٌّ لظلم الباشا وأن يُترك ما هو قبضته لامرأة الفلاح وابنها المكلوع ؟ » .  
 ويتجلى إخلاصُ اللورد كرومر ، وعناؤه ورشدُه وثباتُ فؤاده وعزمُه على  
 تحقيق ما يُقرِّره ، فى زواجه بامرأة كان عاشقاً لها فى الحادية والعشرين من عمره  
 فخالها فى الخامسة والثلاثين من سِنِّه ، وتمضى عشرون سنةً قَسِيْرَها القَدْرُ منه ،  
 ويفادر سِرِّر موتها إلى مكتبه ويدبِّج يرَّاعُه برقيةً مطولة إلى لندن حَوْلَ مناوَر  
 البحر الأحمر .

وما صنَّعه وأداره ، وينطوى على أعظم تحوُّلٍ عاتية مصرُ فى ألف سنة ، ثمَّ على  
 عينِ فرنسة التى كانت تأكلها القِيْرَة وعلى الرغم من اعتراض الدائنين والسيَّارة  
 الأوربيين الدائم ، وذلك لأن فلاح الدلتا ، لاصحاب الأسهم الباريسى ، هو  
 الذى كان محلَّ عنايته ، ومن سياسته وجوبُ تقوية سلطان بريطانيا العظمى على  
 أن يلائم ذلك المصريين ، لا أن يكون ضاراً بهم ، وقد وجب عليه ، مع ذلك ،  
 أن يجادل ست ، أو سبع ، وزاراتٍ متعاقبة كانت ترسُمُ له خططاً متناقضة .

ولم يكن غيرَ قنصلٍ عامٍّ فى سلسلة المراتب البريطانية ، ولكن مع وجوب دعوته  
 بالقنصل الأول ، وكان موظفو القاهرة يُسمُّونه « فرعون » ، وكان الفلاحون يُسمُّونه  
 « اللورد » ، ويضطرُّ كقنصلٍ فى أواخر القرن التاسع عشر ، أى فى وضعه الفامض  
 الذى لم يُعيِّن بغير المبادئ الأدبية ، إلى احتمال مسؤولية جيشٍ مؤلَّف من خمسة  
 وعشرين ألف رجلٍ حين حملة السودان ، وإليك أمراً يكتفى لإثبات مقدار ما بلَّغه  
 من النفوذ ، وذلك أن اللورد سالسبرى كان مُجَازاً فأخذ برقية رَقِيْعَةً من كرومر

• اصنع ما تريد •

من غير أن يكون مفتاحُ الشُّفرة<sup>(١)</sup> عنده ، فلم يَسْطِيعْ أن يَفْكِّهَا ويقرأها فأبرق إلى كرومر يقول له : « اصنع ما تريد » .

ويفوز باحترام خصومه السياسيين من المضرين ، وذلك لأنه لم يطلب لنفسه شيئاً ، ولو من غير مباشرة ، وذلك أيام كانت الرشوة شائعةً بين جميع الناس في القاهرة ، وما قَتَلَتْ أسطوره تَعْلُمُ بين الفلاحين ، فلما انتشرت الهَيْضَةُ<sup>(٢)</sup> في البلاد حاول ضابطٌ إنكليزى أن يَحْمِلَ فلاحاً على ثقل بالوعة منزله ، فصرخت قائلةً له : « سأذهب إلى القاهرة عند الراحل ، عند كرومر ، فهو يحميني منك » .

ومع ذلك لم يكن أُرَيْجِيَا خالصاً ، فلم يَحْقُقْ كثيرٌ من مشاريعه ، وقد حُلَّ كثيرٌ من المسائل وفق مصالح الأوربيين وخلافاً لمصالح الفلاح الذي كان يرغب أن يرهأه ، وبسبب الصعوبة في رسالته هو ما ينطوى عليه الاستمرار من تناقضات ، وذلك أن ما يَتَّخِذُ من أمرٍ فيه صلاح المجتمع لا يُمكن تجريدُه تجريداً تاماً من مصالح مَنْ يُرْسِلُونَكُمْ وإن جعلتم محبة الآخرين دليلاً لكم ، وكان كرومر يؤدِّ تجديد الشعب المصري ، وكان كرومر في سنة ١٨٨٣ من القائلين بِجَلَاءِ الكُتَّابِ البريطانية ، ثم أخذ كرومر يعارض ذلك بعد سنة ١٨٨٦ ، والواقع أنه لم يقع حادثٌ ذوبالٍ في تلك الفترة من الزمن ، والواقع أنه شعر بذلك التناقض مع نزوعه إلى الحرية في جميع حياته ، فكتب في سنة ١٨٨٤ يقول لصديق له :

« حقاً أن القَدَرَ الذي يسوقني جائزٌ ، وإني على ما يساورني من مقتٍ لكلِّ تَوْشِعٍ ولقبول مسؤولياتٍ جديدة ، وإني على ما ليس عندي من غُلُوٍّ وطنيٍّ ، أراني مضطراً إلى اقتراح تدابير تدلُّ على تفرغٍ قوميٍّ أولٍ وَهَلْهَلٍ على الأقل ...

(١) Chiffre — (٢) الهيفة : الكوليرا .

وَأَجِدُ فِي هَذِهِ الْبَيْتَةِ الْعَاطِلَةَ مِنْ كُلِّ انْسِجَامٍ سِيَاسِيٍّ مَا يَحْمِلُنِي دَوْنًا عَلَى أَنْ أَفْعَلَ  
وَأَقُولَ خِلَافَ مَا أَوَدُّ .

وَإِذَا مَا فُكِّرْتُ فِي ذَلِكَ النِّضَالِ الْبَاطِنِيَّ فِي كُلِّ مَا عَلَيْهِ أَنْ يَأْتِيَهُ مِنْ كِفَاحٍ  
خَارِجِيٍّ رَأَيْتُ أَنْ كَرُومَرُ رَجُلٌ يَعْرِفُ أَنْ يَشُقَّ بِسَاعِدَيْهِ الْقَوِينَ طَرِيقًا فِي الْغَابَةِ  
الْبَيْكِرِ ، وَذَلِكَ مَعَ حَذَرٍ مِنْ أَنْ يُلَاحِظَهُ ثَعْبَانٌ فِي عَقِبِهِ ، وَذَلِكَ لِأَنْ مَا وَجَدَهُ الْوَرْدُ  
كَرُومَرُ كَانَ فِي بَدَنِ الْأَمْرِ أَقْوَى مِنَ الَّذِي أَتَى بِهِ .

وَوَجَدَ نَفْسَهُ أَمَامَ سُلْطَاتٍ مِصْرِيَّةٍ وَتُرْكِيَّةٍ وَأُورُوبِيَّةٍ مُتَطَاخِنَةٍ مَعَ مَقَاوِمِهَا إِيَّاهُ ،  
وَكَانَ مِنَ التُّرُكِ وَزَرَاءَهُ قَوْمًا قَتَارَهُمْ مَذْأَنُزِلُ الْبَرِيطَانِ جُنُودَهُمْ ، فَلَمَّا اشْتَدَّ سَاعِدُهُمْ  
زَادَ حَقْدَهُمْ ، وَكَانَ مِنَ الْبَاشَوَاتِ مَنْ يُؤَدُّونَ ، كَأَمْهَاءِ الرُّوسِ ، نَفَقَاتِ زِينَةٍ  
خَلِيلَاتِهِمْ يَبَارِيسَ نَتِيجَةً لَاسْتِغْلَالٍ فَلَاحِظِهِمْ ، وَمِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ كَانَ عِيشُهُمْ يَقُومُ  
عَلَى اخْتِلَاسِ رَنْجِ الْأَوْقَافِ الْخَيْرِيَّةِ ، وَكَانَ الْجَمِيعُ ، وَمِنْهُ الْخَلْدِيُّ ، يَخَافُ أَنْ  
يَسْتَنْزِفَ الْقَادِمُ الْجَدِيدَ مَعِينٍ دَخَلَهُمْ ، وَمَا كَانَ أَوْلَئِكَ كُلُّهُمْ لِيَشْعُرُوا فِي بَدَنِ الْأَمْرِ  
بِالْوَاجِبِ الْاجْتِمَاعِيِّ الَّذِي يُسَيِّرُهُمْ ، وَإِنَّمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ، فَقَطْ ، خُرُوجَ الذَّهَبِ  
مِنْ جُيُوبِ الْمِصْرِيِّينَ وَتَسَرُّبَهُ فِي جُيُوبِ الْإِنْكِلِيزِ ، وَإِنَّمَا بَلَّغُوا الْغَايَةَ مِنَ الْفَيْضِ  
حِينَمَا وَجَدَ الْفَلَاحُونَ مَنْ يَحْمِيهِمْ مِنْ مَظَالِمِهِمْ .

وَلَمْ يَكُنْ سَكَانُ الْمَدِينِ مُتَقَفِّينَ ، وَلَكِنْ مَعَ عَدَمِ الْجَهْلِ الْمُطْبِقِ ، وَلَمْ يَجِدِ الْوَرْدُ  
كَرُومَرَ مَهْجَبًا فِي الْأَرْيَافِ ، بَلْ وَجَدَ أَبْجِدِيَّاتٍ ، وَكَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَذْكُرَ أَمْرَ ذَلِكَ  
الْعَالَمِ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَمُرَّ أَنَّهُ يَعْلَمُ حَالَهُ ، وَكَانَ الْأَكْثَرُ ذِكَاةً يَقُولُونَ مُرُوءًا بِمَا يَجِبُ  
أَنْ يُفْعَلَ ، وَلَكِنْ لَا تَنْظُرُوا إِلَى الْأَسْلُوبِ الَّذِي يُفْعَلُ بِهِ ، وَفِي الْأَسَاسِ كَانَ  
الْمِصْرِيُّونَ يَشَابَهُونَ أَصْحَابَ الْفَنَاقِ الَّذِينَ لَا يَرِيدُونَ سِوَى اجْتِنَاءِ الْمَرَايِمِ مِنْ رُبُّهُمْ ،



ثم أخذوا يترَوَّن بالتدرج أنهم ضيوف في بلدهم الخاص فيجب عليهم أن يذفوا مقابل ما يأتهم به الأجنبي من أمن وراحة .

وكان سلطان كرومر المطلق يظهر في الجزئيات أكثر مما في الكليات ، وما كان يتصرف في غير بضع عشرات من الموظفين ، وما كان أحد في هذه الحكومة العاطلة من التقاليد ليسغل ذهنه في اتخاذ قرار ، لِرَدِّ كل شيء إلى فرعون الجديد هذا ، فإذا ما بُحِث في مَوْكِبِ كَنْسِي حَبْشِي ، أو في تسريح حُودِي<sup>(١)</sup> إنكليزي لدى الخديو ، أو في نبش قبر ولي مصري ، أو في ارتباك منزلي نشأ عن عدم استطاعة سيدة في البلاط أن تضرب رأس زوجها بحفها ، وَجَبَ الرجوع إليه ، كما وجب عليه أن يوضح لعالم أثري إنكليزي كون حيازة فرنسة لدرج<sup>(٢)</sup> مَلِك لا يُعدُّ سبباً لشهر الحرب عليها ، وأن يوضح لعالم نباتي كون البحث عن نوع من الذرق<sup>(٣)</sup> على ضفاف بحر الغزال لا يستلزم غزو بلاد النوبة ، وهو من ناحية أخرى ، وهو كإنكليزي ، وهو كمحب للإنسانية ، كان غير قادر على حل مشاكل النيل والتعليم والجيش ، وذلك لما لا يجب من الإسراع في هذه الأمور مع وجود القوضى التي تُسَوِّغ الاحتلال الإنكليزي .

وينظر اللورد كرومر في أمر القلاح كثيراً . ويُغيِّر الباشا ، الذي يمتصر القلاح منذ زمن طويل ، مظهره ، ويعود للرابون من السوريين واليونان الذين تَوَاوَا بعد ثورة عرابي في سبيل تحرير أخيه القلاح ، وذلك لعدم قدرة الإنكليزي على إلغاء إقراض القلاح قرضاً قانونياً ، ويسأل مثيرو القطن عن السبب في دفعهم نفقات

(١) الحودي : سائق المركبة — (٢) الدرج : ما يكتب فيه — (٣) القرق نات صرف بالندقوق :

تجديد شوارع الإسكندرية التي خربها الإنكليز القادمون لاغتصاب الحرية .  
 وتيسر بدع ثلاث جوهرية عيش الفلاح ، فيلتقى السوط ، ويحول كل  
 وجبل ينشأ عن وصول الجاني بفتة ، أى يعرف مقدماً متى يجب أن تدفع الضريبة .  
 وماذا يجب أن يدفع منها ، أى يعرف ما كان مجهل على الدوام ، وكان على الفلاح  
 فى الماضى أن يؤدى ضرائب عن حقل أتلفه الفيضان منذ زمن طويل ، فصار يُغنى  
 من ذلك إذا ما أثبت أن قسماً من حقله أصيب بالفيضان ، وإذا ما حبس الماء  
 مزارعو الباشا ووجهوه إلى أراضيه وحدها أمكن القرية أن ترفع شكواها إلى  
 الإنكليز ، لئلا لا يحقق للفقير ماءه ، وكان الفلاحون فى شبابه  
 يسخرُونَ بالسياسة للعمل الشاق فى القنوات فيقضون نهارهم فى الوحل ويقضون  
 ليالهم فى الكيس ، فصاروا اليوم يأخذون أجوراً ، وهم لا يحمِلُونَ على مديدهم  
 إلا عند خراب الأسداد ، والحق أن اللورد كرومر وفق لإلغاء جيش العيد إلغاء  
 تاماً تقريباً .

ومن المحتمل أن كان اللورد كرومر مجهل عدم إطاعة أوامره بمصر العليا ، وإعادة  
 المديرين لسابق سلطانهم فى بعض الأماكن هنا وهناك ، وكان الفلاح من ناحيته  
 مجهل جهاد اللورد القدير فى القاهرة فى سبيل تنفس الفلاح فى الدلتا ، ولما أراد  
 أن يستبدل الجراف بالشجرة رقت لجنة الديون إجازة مبالغ الـ ٥٠٠٠٠٠ جنيه  
 الضرورى لللك ، ولما ظهر ما ينطوى عليه هذا الرفض من فضيحة لم توافق  
 الدول على إلغاء ذلك الرق إلا إذا أُعفي الأجانب مجزئاً من الضرائب بمصر .  
 ولم يعلم الفلاح وجود سادة قليلين من الأجانب فى القاهرة جالسين حول  
 مائدة خضراء كبيرة كان يحق لهم وحدهم أن يحولوا دون إنشاء أسداد جديدة وأن

يَرْفِضُوا حَقَّ قَنَاةٍ وَاحِدَةٍ ، وَأَنْ هَؤُلَاءِ السَّادَةِ هُمْ يُمَثِّلُونَ قَدَمَاءَ الدَّائِنِينَ وَيُدِيرُونَ شُؤْنَ الْمَالِيَةِ ، وَهَؤُلَاءِ مَعَ عَشْرَةِ آخَرِينَ فِي الْقَاهِرَةِ هُمُ الَّذِينَ كَانُوا يُذَرِّ كُونَ حَقِيقَةَ هَذَا الْأَمْرِ كَمَا صَرَّحَ مِلْنَر ، وَلَمْ يَزَلْ طَئِيفُ الْخَلْدِيوِ الْمُتَلَافِ وَخِيَالُ خِيَمَتِهِ الْحَرِيرِيَّةِ أَمَامَ الْأَهْرَامِ مَائِلِينَ حَتَّى الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ فَيُمْكِنُ أَنْ الْأَجْنَبِيِّ مِنْ ابْتِزَازِ أَمْوَالِ الْبِلَادِ ، وَمَا قَتَّى السُّلْطَانُ يَأْخُذُ نَحْوَ مِلْيُونٍ جَنِيَّةٍ لِفَتْحِ أَجْدَادِهِ مِصْرَ مِنْذُ أَرْبَعَةِ قُرُونٍ مِنْ دُونِ أَنْ يَصْنَعُوا شَيْئًا فِي سَبِيلِهَا ، وَلَمْ يَحِدِّ الْإِنْكِلِيزُ حَلًّا غَيْرَ حِرْمَانِ الْفَلَاحِ غَلْيُوتَهُ لَوْجُوبِ فَرَضِ ضَرِيَّةٍ عَلَى التَّبْعِ جَمْعًا لِمَالِ تِلْكَ الْجَزِيَّةِ ، وَتَحْلُ سَنَةِ ١٩١٠ ، فَتُبَاكَ بِالْمَزَايِدَةِ الْعَلْنِيَّةِ ، حَتَّى فِي هَذِهِ السَّنَةِ ، أَطْيَانُ وَبِيوتُ لَأَرْبَعَمِئَةِ أَلْفِ فَلَاحٍ دَقَقًا لَدِيُونَ لَا تَزِيدُ قِيمَةَ الْوَاحِدِ مِنْهَا عَلَى خَمْسِينَ جَنِيَّةً .

وَيَقَعُ حَادِثٌ عَظِيمٌ فِي حَيَاةِ الْفَلَاحِ فِي سَنَةِ ١٩١١ ، وَذَلِكَ أَنَّ اللُّوردَ كَنْتَشَرَ ، الَّذِي حَلَّ مَحَلَّ اللُّوردِ كُرومر وَفَقَّ رَغْبَةَ اللُّوردِ كُرومر ، نَشَرَ قَانُونًا يُحَرِّمُ حَبْزَ بَيْتِ الْفَلَاحِ وَآلَاتِ عَمَلِهِ وَاثْنَتَيْنِ مِنْ بَقَرَاتِهِ الْحَلُوبِ وَخَمْسَةَ أَفْدَنَةٍ مِنْ أَرْضِيهِ كَمَا هُوَ الْأَمْرُ فِي فَرَنْسَةِ وَفِي الْبَنَجَابِ ، وَإِذَا أَنَّ الْفَلَاحِينَ شَاكِرُونَ بِطَبِيعَتِهِمْ فَإِنَّهُمْ لَمْ يَنْسُوا مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهِمْ ، فَكَانُوا ، بَعْدَ زَمَنِ ، يَنْهَضُونَ وَيَضَعُونَ أَيْدِيَهُمْ عَلَى جِيَاهِهِمْ إِذَا مَا ذُكِرَ اسْمُ اللُّوردِ كَنْتَشَرَ .

وَمِنْ الْإِنْصَافِ أَنْ يُعْتَرَفَ بِأَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْإِصْلَاحَاتِ كَانَ مُتَعَذِّرًا ، وَكَانَ اللُّوردُ كُرومر مُضْطَرًّا إِلَى احْتِرَامِ التَّطَلُّقِ الْمَوْجُودَةِ ، فَإِذَا وُضِعَ نَظَامٌ جَدِيدٌ لِلرَّيِّ تَرَكَّ النِّظَامُ الْقَدِيمُ يَسِيرُ عَلَى مَحْوَرِهِ ، وَإِذَا جُدِّدَ جَدُولُ صُنْعِ ذَلِكَ قَبْلَ سَدِّ الْجَدُولِ الْقَدِيمِ ، وَإِنْ شِئْتَ قُلْ كَانَ مِنَ الْوَاجِبِ أَنْ يُعْمَلَ وَفَقَّ الْقَلْبِ الَّذِي لَا يَزَالُ يَدُقُّ .

وكانت التقاليد تناصبه العداوة أيضاً ، ومن ذلك أن كان الفلاح يرى استثناء الأغنياء من الخدمة العسكرية في مقابل أربعين جنياً قبل رمي القرعة وفي مقابل مئة جنية بعد رميها ، مع أنه كان يجب على الفلاح أن يصير أعور ينترات الفضة حتى يعلن عدم صلاحه لها .

وكان يُبصر ما عليه ضباط الإنكليز في أثناء الهيضة من الشجاعة وروح التضحية ، ويُعد ما أبداه الأطباء ورجال الصحة البريطانيون بمصر في أثناء ذلك الزبء من أعظم الأعمال الإنسانية ، فلولاً هؤلاء الذين خففوا بذلك وطأة اثنتين من الخطايا لدينت إنكلترا أدياً .

وأولى تينك الخطيئتين هي المحافظة على الامتيازات الأجنبية ، وكانت هذه الامتيازات تجرح شعور مصر القومي أكثر مما يجرحه وجود الكتابات الأجنبية ، وبما يزيد الحقد على الأجنبي بحكم الضرورة عدم حق الشرطي في القبض على لص أجنبي أو قواد أجنبي أو تاجر أفيون أجنبي لأنه ليس مصرياً .

والخطيئة الثانية هي التي اقترفها اللورد كرومر في أمر المدارس ، فما يُسأل : لماذا لم يهدّد هذا الرجل البالغ القوة باعتزال الخدمة عند ما أبت عليه لجنة الديون فتح اعتماد مالي ضروري لإنشاء مدارس جديدة ؟ هو ليس من طغاة هذا الزمن الجهلاء المعاصرين الذين يرون الأسلحة أهم من الكتب ، وذلك لمرفقهم الأولى وجهلهم الثانية ، ومسئلة المدارس هذه هي أصل كل صدام بين الإنكليز والمصريين في الوقت الحاضر ، ويبرى المصريون أنهم أصيبوا بضرر عظيم من النظام التعليمي الذي طبّق عليهم أربعين عاماً ، ولا يُفسّر ذلك الخطأ إلا برغبة السياسة الإنكليزية السرية في العناية بصحة الشعب المصري والسيطرة عليه بالعدل مع إبقائه جاهلاً ،

## وإليك الأرقام

ولا نجدُ لمعارضة المصريين سبباً آخرَ غيرَ حرصهم على تعليم أولادهم وغيرَ تَعَدُّ ذلك على الأوف منهم لقلّة المدارس والمعلمين ، أَجَلٌ ، يُزَعَمُ أن اللورد كرومر كان خصماً للثقافة العالية وأنه كان نصيراً للتعليم الابتدائي ، أَجَلٌ ، يُزَعَمُ الإنكليزُ أن الأزهر هو مصدرُ المعارضة ، غير أن البحث في الوثائق يُسِفِرُ عن نتيجةٍ أخرى ، ولا يَكُنَى عدمُ المال لإيضاح كلِّ شيء .

وإليك الأرقام : كان محمد علي وإسماعيل يميلان التعليمَ سَجَانًا وَيُعْطِيَانِ الطُّلَّابَ بلا حِوَصٍ ، فَكَانَتِ الْأَجُورُ لَا تُؤْخَذُ فِي سَنَةِ ١٨٧٩ مِنْ غَيْرِ خَمْسَةِ فِي الْمِئَةِ مِنَ الطُّلَّابِ ، وَتَحِيلُ سَنَةِ ١٨٩٨ ، وَيَكُونُ الْمَهُدُ إِنْكِلِيزِيًّا فَيُظْهَرُ أَنَّ مَنْ لَمْ يَعْرِفِ الْقِرَاءَةَ وَالْكِتَابَةَ فِي مِصْرَ ٩١ فِي الْمِئَةِ مِنَ الرِّجَالِ وَ ٩٩ فِي الْمِئَةِ مِنَ النِّسَاءِ ، وَيَذْهَبُ اثْنَانِ فِي الْمِئَةِ مِنْ أَبْنَاءِ الْمِصْرِيِّينَ إِلَى الْمَدَارِسِ فِي عَهْدِ إِسْمَاعِيلَ ، وَتَمُتُّ ثَلَاثُونَ سَنَةً فَلَا يَذْهَبُ إِلَى الْمَدَارِسِ فِي سَنَةِ ١٩٠٨ غَيْرُ ١٥٥ فِي الْمِئَةِ مِنْ أَبْنَاءِ الْمِصْرِيِّينَ ، وَيَأْتِي زَمَانُنَا ، يَأْتِي دَوْرُ التَّعْلِيمِ فِي الْعَالَمِ بِأَجْمَعِهِ ، فَلَا يَنْقُصُ عَدْدُ الْأُمَمِينَ بِمِصْرَ وَلَا يَزِيدُ عَدْدُهُمْ نَسِيبًا فِيهَا ، وَلَا يَتَعَلَّمُ الْفَلَاحُ مَا يَجِبُ أَنْ يَتَعَلَّمَ ، قَدْ جَاءَ فِي الْإِحْصَاءِ الْإِنْكِلِيزِيُّ الَّذِي تَمَّ سَنَةَ ١٩٠٦ أَنَّ ٩٠.٠٠٠ طَالِبٍ لَا يَعْرِفُونَ الْكِتَابَةَ وَ ٩٠.٠٠٠ طَالِبٍ لَا يَعْرِفُونَ الْحِسَابَ وَ ٧٠.٠٠٠ طَالِبٍ لَا يَعْرِفُونَ الْقِرَاءَةَ وَذَلِكَ مِنْ ٢٥٠.٠٠٠ طَالِبٍ ، وَهَذَا تَتَجَلَّى مُسْؤُولِيَّةُ سُلْطَانِ الْبَيْضِ .

وَيُخَصَّصُ الْإِنْكِلِيزِيُّ فِي سِنَوَاتِ الْإِحْتِلَالِ الْعَشْرِينَ الْأُولَى وَاحِدًا فِي الْمِئَةِ مِنْ نَفَقَاتِهِمُ لِلتَّعْلِيمِ ( بَدَلًا مِنْ عَشْرِينَ فِي الْمِئَةِ ) ، وَالْإِنْكِلِيزِيُّ هُمُ الَّذِينَ جَعَلُوا لَهُمْ مُسْتَشَارِينَ أَقْوِيَاءَ فِي كُلِّ مَكَانٍ مَعَ تَرْكِ زَرَارَةِ الْمَعَارِفِ لِأَنَاسٍ مِنَ الْأَرْمَنِ وَالْأَنَاسِ آخَرِينَ مِنَ الْأَجْنَابِ ، وَكَانَتِ السِّيَاسَةُ الْحَزِينَةُ تَزِيدُهُ هَذِهِ الدَّارَ إِظْلَامًا فَيَتَنَاوَبُهَا تِسْعَةُ

وعشرون وزيراً في تسع وعشرين سنة ، وآخرُ من اختاره اللورد كرومر منهم كان رجلاً ، كان زغولاً .

ويستحقُّ القتلُ الذي أتمه اللورد كرومر في مصرَ بلا حربٍ إعجابنا مع ذلك ، ومع وجود دينٍ عظيم ، ومع معارضة الجمعية الأهلية العليا ، فهذا اللورد هو أول من جعلَ الفلاحَ يشعرُ بأنه مساوٍ للباشا أمام الله والقانون ، ومن الواضح أن يُصَوَّب هذا الشعور ، بعد أن ينتبه ، إلى السلطة الحامية نفسها ، ويَقَعُ حادثُ أليمٍ فيفسد آخرَ سنةٍ من إقامة كرومر بمصرَ ، قد أطلق ضَبَّاطٌ من الإنكليز نارا على حكام فلاح فادى ذلك إلى قتلِ إنكليزيٍّ وإلى إعدام ستة فلاحين ، فختم بهذا الحكم الاستعماريَّ عملُ صديقِ الشعب الحرِّ ذلك

## ٣٦

يُعَيِّنُ النضالُ في سبيلِ الذهبِ وفي سبيلِ الحريةِ مصيرَ مصرَ منذ صارت قبضةً بريطانية العظمى ، وكلا الأمرين يُرَدُّ إلى مبادئ الإنسان .، وإن لم يكونا قديمين قَدَمَ النيل ، ولم يجاهد قدماء المصريين في سبيلِ الحرية قطُّ ، ولم يَعْرِفُوا الثوراتِ ، والانقلاباتُ الكبيرةُ في المراتب الاجتماعية ، لا الطبقاتُ العليا ، هي التي تدفعُ الشعبَ إلى نيلِ الحرية ، وبما يزيد المسئلة المصرية تعقيداً هو أن الكفاح في سبيلِ الحرية مرتبطٌ ارتباطاً وثيقاً في الكفاح دفاعاً عن القطن ، فالمصريون من كلِّ طبقة ، وإن كانوا يريدون الخلاصَ من الإنكليز ( لِمَا ليس لغير الأملين فائدة من وجودهم ) تَرَى من يَفُومون بخدمة القطن منهم يبالغون بالشوق العالمية

أَكْثَرُ مِنْ مَبَالِهِمْ بِمَصِيرِ الْفَلَّاحِ .

وَيَتَوَقَّفُ أَمْرُ زَارِعِ الْقَطْنِ فِي الدَّلَّتَا وَالتَّاجِرِ فِي الإِسْكَندَرِيَّةِ وَالْحَامِي وَالْمُتَوَكِّلِ  
وَالْمُضْدِرِّ وَالْمُسْتَوْدِ ، وَيَبْلُغُ عِدْدُهُمْ مِليونينَ ، عَلَى الْقَطْنِ ، فَيَسْتَقِلُّ الْقَطْنُ بِالْهَمِّ صَبَاحَ  
مَسَاءَ ، وَلَا تَجِدُ لِمَشَارِيعِ هَؤُلَاءِ وَبَصَرِهِمْ بِالْأُمُورِ أَيْةً صَلَاحِيَّةً بِصَحَّةِ الْفَلَّاحِ وَرَفَاهِيَّتِهِ وَإِنْ  
كَانَ الْفَلَّاحُ ضَرُورِيًّا لِلْقَطْنِ كَالنَّيْلِ ، وَتَرَى هَؤُلَاءِ النَّاسَ ، حَتَّى فِي مَنَامِهِمْ ، يَسْتَقْلُونَ  
أَذْهَانَهُمْ ، دَوْمًا ، بِالْبَرَصَةِ<sup>(١)</sup> وَبِتَحَوُّلِ الْأَثْمَانِ فِي السُّوقِ الْعَالَمِيَّةِ لِمَاعِلَةِ ذَلِكَ بِسَعَادَتِهِمْ ،  
وَكُلِّ مَا يَرْجُوهُ الْأُولَى مِنْ أَهْلِ ضِيْفَانِ النَّيْلِ هُوَ أَنْ يُصِيبَ اللَّهُ ، بِفَضْلٍ مِنْ لَدُنْهُ ،  
نَبَاتَ قَطْنِ الْكَافِرِينَ فِي فُلُورِيْدَةِ الْبَلْدَةِ ، وَأَنْ تَقْضَى حَرْبٌ فِي آسِيَةِ  
الْوَسْطَى عَلَى مَنَافِسَ ، وَأَنْ يُذْعِنَ الْحَاكِمَةُ الْمَضْرُوبُونَ فِي لَنْكَشِيرَ مِنْ غَيْرِ  
أَنْ تُرْفَعَ أَجُورُهُمْ رَفْعًا مُوجِبًا لِنُزُولِ الْأَسْجَارِ ، وَأَنْ يَكُونَ فِيضَانُ النَّيْلِ مَعْتَدِلًا  
فَلَا يُعْرِضُ السَّدُّ الْقَدِيمَ لِلْخَطَرِ ، وَلَوْ فَرَضَ أَنْ حَيَاتِهِمْ تَقُومُ عَلَى السَّكْرِ أَوْ التَّبَغِّ  
أَوْ الْبُسْطِ أَوْ الْبِنَاءِ لَمْ يَنْ دَخَلْهُمْ شَيْءٌ قَطْنِ السَّكَلَارِيْدِسَ فِي الْبَرَصَةِ التَّجَارِيَّةِ ،  
وَتَعُدُّ الْعُنَاصِرَ وَالْأَزْمَاتُ الَّتِي مِنْ شَأْنِهَا الْخَفْضُ أَشْبَاهًا تُرْهِبُ الرَّاصِدِينَ فِي الظَّلَامِ ،  
وَتَسْتَطِيعُ أَنْ تَهْزِجَ شَعْبًا كَمَا يُوْدَى إِلَيْهِ خُسْرَانُ مَعْرَكَةٍ عَلَى شَاطِئِ بَعِيدِ .

تِلْكَ هِيَ قُوَّةُ النَّيْلِ عِنْدَ نَهَايَتِهِ ، وَيَتَوَقَّفُ مَحْصُولُ الْقَطْنِ عَلَى أَهْوَاءِ الْمَطَرِ فِي  
الْحَبَشَةِ وَعَلَى جُحُودِ الْمُهَنْدِسِينَ مِنَ الْإِنْكِلِيزِ الَّذِينَ لَوْلَاهُمْ لَمْ يُمَكِّنِ الْإِنْتِفَاعُ بِأَزْمَاتِ  
الْمُهَنْدِ الْحَادَّةِ كَثِيرًا ، يَبْدُو أَنَّ سَكَانَ الْمَدْنِ الْكُبْرَى لَا يَبَالُونَ بِذَلِكَ كَمَا أَنَّ الرِّجَالَ  
لِلنَّهْمِكِينَ فِي أَعْمَالِهِمْ لَا يَتَبَاوَنُ بِمَلَأْمِ الْمَرَضِ الْكَامِنِ لَهُمُ وَالَّذِي قَدْ يَقْضَى عَلَيْهِمْ ،  
وَالْفَلَّاحُ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي يَعِيشُ مَعَ النَّيْلِ وَيُقَدِّسُ فِيهِ الْعِبُودَ الْقَدِيمَ هَاجِي الَّذِي يَرْفَعُهُ

أَوْ يَهْلِكُهُ ، والفلاحُ مع نسائه وأولاده هو الذى يَسْتَقِي الشَّجَرَةَ الثَّمِينَةَ وَيَتَمَهَّدُهَا وَيُشَدِّدُهَا وَيَنْجِي ثَمَرَهَا وَيُسَلِّهُ ، ولا يكاد الفلاح يَسْمَعُ حديثاً عن تلك الآلهة الأجنبية ، عن « السوق العالمية » ، غير أن على الفلاح أن يَغْفَى عُبُوسَهَا لتأثير انكسارها فى أجرته .

إِذَنْ ، يتبع الأغنياء والفقراء غاياتٍ مختلفةً فى النضال من أجل الحرية ، ويُرِيدُ الفلاحُ ، الذى لم يُغَيِّرِ القطنُ حياته ولم يُحَسِّنْهَا ، حريةَ بلده فقط ، وَيَبْدُو الفلاح ، بذلك ، مستقلاً فى آماله مع أنه أُمِينٌ فى استعباده ، وَيَحُولُ مُحَامَةً وروحُ المصردون سقوطه مرةً أخرى تحت سَوْطِ الباشا الذى أُلْغاه الإنكليز ، ولا يَحْمِرُهُ ذهابُ الإنكليز شيئاً ما سَمِنَ النبلُ عيشَهُ حتى عند ما يُوْدَى ارتباكٌ فى السوق العالمية ، أو تَفَيَّرُ بين الدولِ الْمُغْلَمَى ، إلى تهديدِ ثمنِ القطنِ الذى يَتَوَقَّفُ عليه رَخاءُ الأغنياء الظاهرُ ، وَيَبْقَى الفلاحُ فقيراً منذ بدأ محمد على جهوده ، قبل قرنٍ ، فى تحويل بلد الحبوب هذا إلى بلدٍ قطنٍ فزادت الثروة العامة بذلك ، وما جاءت به المصالحُ الإنكليزية مصرَ وما أخذته منها فلم يُغَيِّرْ شيئاً من البيت المصنوع من طينٍ يُجَفَّفُ وَالْمَطْلِيُّ بِعِلَاطٍ كَلَسِيٍّ ، ولا من حَسَاءِ البصل والحلِيبِ الأزرق ، أى من الأمور الثلاثة التى كانت تُحَدِّدُ رَغَائِبَ آبَاءِ الفلاح فى عهد القراعنة .

والفائدةُ الوحيدة التى نالها الفلاح هى الأبجدية ، وما وَزَّعَهُ منها آخرُ جَدِيدٍ وأول ملك أكثرُ مما وَزَّعَ الإنكليز ، وهى تَعْدُ مِفْتَاحاً خَطِيراً لِفَتْحِ أبوابِ المعرفة ، وهى تَعْدُ رمزاً حَقِيقِيّاً كَرَعِيصَى الاستقلالِ الأولين عرابى وزغولِ الذين وُلِدُوا فلاحين فى قريتين من الدلتا ورُبِيّاً فى مدارسٍ جديدةٍ تَعَلَّمُوا فيها حَلَّ الخطِّ الأجنبيِّ وسببَ استعبادِها .



ولما كانت دعوة الجمعية التشريعية الأولى في سنة ١٩١٣ أول نتيجة لتعليم الشعب المصري ساد الارتباك هذه الجمعية لنقص الحرية ، وكان يُمكن قُض هذه الجمعية بصفق من الأجنبي وعدم دعوتها في سنوات أو حملها على أعمال خارجة عن دائرة اختصاصها ، وما تم من انتخابات قد أسفر عن أكثريات قومية ساحقة مطالبة بجلاء الإنكليز ، ويتلغ الحقد على الأجنبي منذ خمسين عامًا ، ومنذ عشرين سنة على الخصوص ، درجة من القوة لا يجزؤ أحد على مقاومته معها ، وتقترح الحكومة تمديد إجارة قناة السويس إلى سنة ٢٠٠٨ فيرفض مشروعها بالإجماع خلا صوت واحد ، فيهز ذلك التصويت مصر بأسرها ، ويثير كئشنة ، الذي داري الفلاح بقوانينه ، استياء فريق الشعب المنور بما اتخذ من وضع مقيم إنكليزي لدى بلاط أمير هندوسى تابع ، ولا يطبق هذا الفريق المصري حكمه الأبوي لتذكيره بحلم أبناء جنسه تجاه القبائل الوحشية .

ويتزيد ذلك النفور ، الذي يحدث مثله في كل نظام للحياة ، بسوء ما بدأ به الإنكليز في مصر وبما يتصف به الإنكليز من طبع ، فما يجدد دوماً من وعد بالجلاء عن وادى النيل يوجب مع الزمن صرباً من سرعة الغضب مشابهاً لما يشعُر به رجل العمل من انزعاج بنظر سيدة زائرة لابس مغطفها وقبعها إلى سوار ساعتها بلا انقطاع قائلة إنها مستعجلة وإنها لن تمكث أكثر من دقيقة واحدة فتبقى عدة ساعات من غير أن يستطيع مخاطبها أن يحلها على الذهاب ، ولا تجد مصرياً في الوقت الحاضر يعتقد رحيل الإنكليز طوعاً .

ولا تُقاس روح التنافي لدى الإنكليز في القاهرة بروح التألف لدى الفرنسيين الذين يدعون إلى مائتهم رفيقاً من لون آخر ، أى من أبناء المستعمرات ، أو يجملون

منه وزيراً يباريس ، وماذا تكون مشاعر موظفٍ أهليٍّ إذا ما اقتطع الأجنبيُّ عنه  
 نهائياً بعد مغادرة المكتب الذى يَعمَلان فيه معاً كلَّ يوم ؟ ويُعنى الشابُّ  
 الإنكليزى من كلِّ ضريبة فى القاهرة ، ولا يُمكن أن يُفزل ، ولا يستطيع  
 الشرطى المصرى أن يقيض عليه ، ويقعُ هذا على مَسْمَعٍ ومرأى من المصريين  
 الذين هم أكثر منه تجربةً ومعرفةً بأمور البلد ، ويلقب الإنكليزى لُقبَةَ التَّنِيسِ  
 ولُقبَةَ الكُرَةِ والصَّوْلَجان مع أبناء جلدته وحدهم تقريباً ، فيحظر على السيد  
 الوارث لحضارة العرب العظيمة دخول نادى الجزيرة كما لو كان سائماً عند إنكليزى .  
 ولا يجوز عدُّ نظام الحریم مسؤولاً عن ذلك الوَضْع لخصمِ النادى الإنكليزى فى  
 الرجال فقط ، وتُستقبل ، مع ذلك ، فتياتٌ من الطبقة الراقية المصرية فى بَلّاطاتِ  
 أوربة ، لافى دار المندوب السامى البريطانى بالقاهرة ، ويُمكن أباهن أن يشتركا  
 فى سِبَاقِ خيلٍ من أصابهم ، فإذا ما خرج حصانهم فائزاً فى السَّبَاق تقدَّر إعطاؤه  
 قطعة سكرٍ لعدم دخولهم نطاق الوَازين ، وهكذا تُفسد النتائج الطيبة التى تصل  
 إليها الإدارة البريطانية بذلك الوَضْع الذى ينطوى على ازدراء المصريين ، وذلك  
 إلى أنه يسهلُ على المجتمع الراقى أن يلائم العكس .

ويظلُّ النيل أعظمَ عاملٍ لسوء الظنِّ مع ذلك ، وإذا ما حُسيبَ النيلُ نهراً  
 مصرياً يقع منبعه فى أسوان رُجعتِ المشاريعُ الخاصة به إلى إسماعيل ، غير أن هذه  
 المشاريع حُقِّقت على أوسع مقياس فى العهد الإنكليزى ، وقد طبَّقت ستةُ أسدانٍ  
 طابعِ المجد البريطانى على أكبر أنهار العالم وأكثرها غرابةً ، وبِئْسَ بضعُ مئاتٍ  
 من الكُوَّاتِ تفتَحُ تباعاً للفصول على نشاط البريطان وعنادهم ، وإذا كانت هذه  
 الكُوَّاتُ مدينةً بوجودها للفكر الذى يسيطر على الأنهار الأخرى فى الوقت الحاضر

فإن نتائج عملها لا تبدو عظيمة مؤثرة في غير النيل وواديه .

وإذا كان العلم البريطاني والعلم المصري يتفقان معاً في البقاع البعيدة التي يأتي النيل منها فإن العلم الإنكليزي حاضر غائب في النيل الأدنى على الدوام ، ويُستفّر الحكم الثنائي ، يُستفّر طراز الحكومة الغريب هذا ، عن سيادة كلتا الدولتين الشرعية على السودان فيشعر المصريون ، وهم الفريق الأضعف ، بإضرار الفريق الأقوى ، بريطانيا العظمى ، إياهم في كلا البلدين ، ويُسيكهم القدر مجرى النيل الأدنى ، وتتوقف حياة أربعة عشر مليوناً من السكان على فيضان وافر فيخذر المصريون ، بحكم الضرورة ، ذلك الحامي المرهق المهين على النيل الأعلى والتصرف فيه كما يشاء ، فالأجنبي ، وإن لم يُلقَ سماً في ذلك الماء ، يمكنه أن يجنيه بأسداد جديدة .

وقد بينّا استحالة هذا الافتراض فنيّاً في جزء آخر من هذا الكتاب ، ولكن خطر الإضرار لم يُبعد ، فهناك ألف وجه لمنع جريان المياه طليقة من غير أن تُحبس بسدٍ حبساً تاماً ، فيمكن إنكثارة ، والحالة هذه ، أن تلاعب مصر كأمراة تتمنع وتوافق قاصدة أن ترُوق وتسيطر معاً ، وإليك ما قاله اللورد ملتر قبل سنة ١٩٠٠ :

« من المؤلم أن تكون كل مصلحة للياه منتظمة ضرورية لحياة مصر مُعرّضة دوماً لبعض الأخطار مادام مجرى النهر الأعلى غير تابع لذلك البلد ، غير خاضع لرقابته ، ومن يدري أن إحدى الدول العظيمة ، أو إحدى الحكومات التي تساعدنا أمة متمدنة ، لا تقوم ذات يوم بأعمال كبيرة على النيل فتحوّل ، لسقَى أراضيها ، هذا الماء الضروري لمصر عن مصر ، أجل ، إن هذا أمرٌ بيد جداً أو أمرٌ غير

محتمل، ولكننا، قبل أن نهزأ به، يجب علينا أن نتمثل مشاعر بلدي آخر، كبلدنا مثلاً، فنُبصِّر وجود احتمال بعيد حول قدرة دولة أخرى على حبس المطر السنوي عنا .  
ويدل هذا التصريح الرسمي، الذي صدر كثير من البيانات مثله في إنكلترا، على اتزان كبير، ويكشف هذا التصريح عن حال المصريين النفسية وعن مخاوفهم ويضيف الإنكليز إلى احتجاجهم باسم الأخلاق كونهم محتاجين إلى قطن الدلتا الممتاز الذي تقتطعه مصانع الغزل في لكشِير إذا ما أوجبت أسداؤهم في مجرى النهر الفوقاني قبل الخربوط نقص الفيضان أو تأخره في الدلتا، ومع ذلك يُمكن العمل الذي عزاه اللورد ملير إلى دولة أخرى أن يُصبح أداة تهديد نافعة في يد الإنكليز عند الاختلاف، ومن ذلك ما وقع بُعيد قتل السرّدار بالقاهرة في سنة ١٩٢٤ حين طالب الإنكليز كغرامة عدم تخديد مساحة الأرض التي تُسقى في الجزيرة الواقعة بين النيل الأزرق والنيل الأبيض بدلاً من الأرض المُحدّدة في معاهدة سابقة، وتمضى أيام قليلة فَيَقْلِعُ الإنكليز عن هذا الطلب المُضادّ للأخلاق، يبدّ أن هذا يكفي لإثبات نوع الوسائل التي يُمكنُ العدوُّ الساخت أن يتمسك بها. وزعيمُ المصريين المعاصر الذي فتح باب مكالمته الخصب على مصراعيه، كعراي، هو أصغرُ سنّاً من عراي بعشر سنين فقط، والفرق بينهما هو كونُ عراي بدأ كفاحه في الأربعين من عمره وكونُ زغلول بدأ كفاحه في السبعين من سنيه (١)، ومن هنا كان نصفُ القرن الذي يفصل بين نفْيِ بطلي الحرية المنتسبين إلى جيل واحدٍ من الأدميين

وزغلول من قلاحي الدلتا كعراي، وهو يُرى بجانب هذا كما يُرى التفقاسي بجانب العربي، ويتصف زغلول بطول قامته وبُنحوه وبُروُز وَجْهِهِ كالمغولي

ووجهه الطليق وعينه الزرقاوين واستقامة بصره وبأنسه ، فسكنى هذه الأوصاف  
لهدم نظرية المروق التي تكاد تصبح العوبة الملتصقة في قسم من أوربة ، وعلى  
ما بين الرجلين من اختلاف بين في المثال كانا مصريين حقيقيين مؤلّذين من  
امتزاجات يجهلها ذلك البلد الذي هو ملتقى كثير من الأمم ، وإن شئت فقل إنهما  
كانا وليدى الأرض لا الدم ، أى كانا ابنين للنيل ، لهذا النهر الذى أوحى إلى  
زغول بأكثر خطبه تأثيراً .

وُنشأ زغول فى الأزهر ، ويوفقُ لزواج ذى غنى ، ويتعلم من أصله يؤس  
الفلاحين ، ويطلع بمهنة الحمامة التى مارسها طويلاً على خُبث الباشوات وخداعهم ،  
ولم يكن فى بدء أمره مع ذلك ، ولم يكن حتى بلوغه الخمسين من سنه مع ذلك ، غير  
مصرى معتدل عاطل من النفوذ ، ويُعيّنه اللورد كرومر وزيراً للمعارف العامة فى  
سنة ١٩٠٥ حتى يُجرب فى شخصه وطنياً رصيناً ، ويقول اللورد كرومر : « يتصف  
زغول بجميع الصفات اللازمة لخدمة بلاده ، فهو صادق مستقيم كفى مقتدر  
شجاع ، وهذه صفات يجب أن يتقدم صاحبها كثيراً » .

ولو بقي كرومر حياً فى القاهرة لراه قد تقدّم أكثر مما كان يريد .  
وتنحاز تركيا إلى ألمانيا والنمسة منذ أوائل الحرب العظمى ، ويُظهر الخديو عطفه  
لهذه الدول ، وتبدؤ درجة احتياج مصر الشديد إلى الفلال الأجنبية ، ويمكن  
وصف هذا الوضع بالفاجع نتيجة للطمع فى الذهب وما أوجبه هذا من استبدال  
القطن بالحب .

ويحيق خطر المجاعة عند الحصار بفريق السكان الذى يمتد الإنكليز أكثر  
من ممته الترك ما دام النصارى يقبضون على زمام الحكم أكثر من المسلمين

السيطرين نظرياً ، ولا يُعلم ماذا تُصنع إنكلترة بحَزَّان أُسْوان ، وكانت بريطانية العظمى منذ سبعين سنةً مَضَتْ قد مَنَعَتْ مصرَ محمدٍ عليٍّ من الانفصال عن تركيا ، والآن تتخذ هذا الساهل شاهداً للوصول إلى هذا الانفصال ، والآن تَدْفَعُ المصريين إلى محاربة أبناء دينهم مع أن السلطان أعلن الجهاد المقدس .

ولم تَحِدْ إنكلترة وسيلةً صالحة لإظهار قوتها بَمَدٍّ ، وفي سنة ١٩١٤ كان يمكنها أن تَضُمَّ مصرَ إليها أو أن تجعلها من الممتلكات أو أن تُعْلِنَ استقلالها مطالبةً إياها بأن تكون حليفةً لها ، غير أن إنكلترة لم تنتحل سيادةً تركيةً لنفسها ، ولم تُنمَحِ الاستقلالَ الذي وَعَدَتْ به منذ زمن طويل ، غير أن إنكلترة صنعت العكس فَخَلَّتْ الخديو ونصبت في مكانه رجلاً آخرَ مع لقب سلطان ، وأَجَلَّتِ الجمعية التشريعية إلى وقتٍ غيرِ مُعَيَّنٍ ، وأنبأت الشعبَ بأنها لا تَحْمِلُهُ على الحرب .

وما قام به الترك من هجومٍ على قناة السويس قد حَمَلَ الإنكليز ، مع ذلك ، على جَمْعِ الفلاحين باسم « العمال للتطوعين » متخذين أساليب المالك في القهر آخذين آخرَ جَمَلٍ ليهبهم بثمانٍ تاركيين إياهم بلا حيوان حَلُوبٍ سائقين إياهم من خلال الصحراء لإنشاء خطوط حديدية ، وكان ذلك آخرَ سُخْرَةٍ في تاريخ مصر ، وأشدُّ من ذلك ما كان بعد ذلك من سَوَقِ مئة ألف حرٍّ مصريٍّ إلى سورية وثمانية آلاف حرٍّ مصريٍّ إلى العراق وعشرة آلافٍ حرٍّ مصريٍّ إلى فرنسا ومن جَمَعَ إعناتٍ من المسلمين للصليب الآخر .

ولا شيء بعد النصر أشدُّ إِيذاءً لِسُمَّةِ بريطانية العظمى من إنكار أية مساعدةٍ قامت بها مصرُ ، ويطالب زغلول في شهر نوفمبر سنة ١٩١٨ باستقلال بلاده مكافأةً على ذلك ، فيُمنَع من السفر إلى لندن ، ويكون ذلك نذيرَ الفتنة ، ويَصْرُخُ مديرو

الفتنة قاتلين : ألا تدركون الآن أن إنكلترة خدعتكم ؟ أذلك ما تكافأون به على إنشائكم خمسة كيلو متراتٍ من الخطوط الحديدية يومياً من خلال الصحراء المشتعلة مقاتلين إخوانكم في سبيل كلاب النصارى ؟ ولم لَمْ تَنْزُ ولم تَنْصَمْ إلى الترك الآتين من سورية لطرده الإنكليز ؟ نحن ساعدنا على تَيْل النصر ! لقد أقام كلٌّ من جارينا الحسين وفصيل دولة جديدة وفق برنامج الرئيس الأمريكي ! وأما نحن فقد بقينا عبيداً وحدنا ، هم لا يَلْبَثُونَ أن يَحْرِمونا الماء بأسدادهم الجديدة في الخرطوم فيميتونا جوعاً .

وَيَتَمَيَّزُ زغول من القَيْظ أيضاً ، ويُظهِر ما هو خلافُ العادة فيتحول هذا السياسي المعتدل في شبابه إلى متطرف في مشيبه ويُلقَى حُطْباً نارياً ، وَيَقْبِضُ الإنكليز عليه ويُبعدونه إلى مالطة ثم إلى سيشل كما صنعوا بعرابي منذ خمسين سنة ، وتشتدُّ الفتنة ويُقتل ضباطٌ من الإنكليز وتُخَرَّبُ أسداً وتشتعل نيران ، ويُؤَلَّفُ حربٌ قوميٌّ عظيم ، يُؤَلَّفُ الوفد ، ويتحد المسلمون والأقباط لمكافحة إنكلترة معاً ، وَيَبْدُو انعكاس ضباط الإنكليز مرةً على وزارة الخارجية بلندن عند ما يَحْرُسُون البريدة على ظهور البغال من خلال الصحراء حيث خُرَّبَ الخطُّ الحديديُّ .

ورئى من الوجوب أن يُوافَقَ على استقلال مصرَ بعد ثلاثة أعوامٍ طَيْشٍ وقتلٍ ثم عقوبة ، وبعد جعل شهيدٍ من زعيم الحزب القوميِّ ، غير أن الدولة الحامية احتفظت بكثيرٍ من الامتيازات مؤخَّرةً بذلك زمن التناهم .

ويعود زغول إلى بلده ، ويُصْبِحُ بطلاً قومياً ، وَيَزِيدُ مع الثمر تشدداً ، فلما سأله مكدونلد عن المكان الذى يَودُّ أن تُرَدَّ إليه كتائبُ الإنكليز أجابه عن ذلك قائلاً : « إلى إنكلترة ، يا سيدى الوزير » ، وَيُحْيِيَّ مكدونلدُ أمله ، وَيُبْصِرُ

زغلول أن إنكثارة لن تتأخر خطوةً ، ويُقتل سرّدارُ السودان في القاهرة ،  
ويأتى اللورد ألنبي مع حرسٍ عسكريٍّ مهيبٍ ويسلمُ إنذاراً إلى رئيس الوزراء  
زغلول ، وينظرُ زغلول من النافذة ويسألُ قائدَ الحرسِ الإنكليزيِّ بقوله :  
« ما الأمر ؟ أتريد إنكثارة شهرَ الحرب على مصر ؟ » ، وما هذا الكلامُ الذى  
وُجّهَ فى تلك الدقيقة إلى ذلك الشخص إلا دليلٌ على اعتدالِ دَمٍ وإباءِ نادرين  
فى التاريخ الحديث .

ويُتوفى زغلول بعد زمن قليل (١٩٢٧) ولم يحدث أن شيعَ مصرىٌّ إلى مقبره  
الأخير بمثل ما شيعَ به زغلول ، فكانت جنازته جنازةً فرعونٍ وصديقٍ للشعب  
معاً ، وتسيرُ أمةٌ بأسرها مع تابوته المشتمل على فلاحٍ مولودٍ فى كوخٍ مظلمٍ  
مَصْنُوعٍ من طينٍ مُجفَّفٍ بين الدجاجِ والحمامِ والجلِ ومُجهَّزٍ بطلسمٍ ساحرةٍ  
يَعْدِلُ مالا ، وما أكثر ما تفلو أبراجُ صاحب حياةٍ كذلك كيوبس (خوفو)  
وهرمه العظيم !

وكذلك الملكُ ، الذى عاد إلى القاهرة من رحلة رسمية بُعيدَ موتِ زغلول ، بنال  
حُظوةً لدى الشعب ، وتزيد هذه الحظوة فى عشر سنين نتيجة لما بدا له من آراء  
جميلة كتقسيمِ أراضي الدولة بين الفلاحين على أن يُدفعَ الثمنُ بأقساطٍ سنوية ،  
وكإنشاء مدارسٍ ومشافيٍ وكتوجيهِ نظرِ أوروبة إلى ما أقامه من مشاريعٍ عليية .  
ولكنه لم يَسْطِيعْ أن يُنزلَ العلمَ البريطانىَّ من فوق القلعة ، وإذا مرَّ مصرىٌّ  
أمامَ السُّكنةِ الإنكليزية الكبرى بالقرب من جسر الجزيرة الكبير وَقَفَ وشاهدَ  
بمرارةٍ المغلوبِ تدريبَ الجنود ، ويُتَقَقَّ فى شهر يولييه سنة ١٩٣٦ على نقل الجنود  
إلى القناة ، والقناة أرضٌ مصرية .



وَيُوصَلُ الْآنَ ، فِي صَيْفِ ١٩٣٦ ، إِلَى اتِّفَاقٍ لَا تُحَقَّقُ بِهِ جَمِيعُ آمَالِ الْمَصْرِيِّينَ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْإِنْكَابِيزِ سَيَقْصُودُونَ سَنِينَ طَوِيلَةً لِإِنْشَاءِ بَضْعٍ تُسَكِّنُ ، وَلِأَنَّ الْجَلَاءَ عَنِ الْقَاهِرَةِ لَا يُوْدَى إِلَى الْجَلَاءِ عَنِ قَنَاةِ السُّيُوسِ ، وَمَعَ ذَلِكَ تَسِيرُ مِصْرُ لَتَسْتَقِلَّ هِيَ وَالسُّودَانُ ، وَتَتَوَقَّفُ كُلُّ شَيْءٍ فِي السَّنَوَاتِ الْآتِيَةِ الْقَلِيلَةِ عَلَى أَحَدِ الْبَلَدَيْنِ الَّتِي يَظْهَرُ فِيهِ الْقُطْبُ السِّيَاسِيُّ الْأَعْظَمُ اقْتِدَارًا ، فَسَيَعْرِفُ هَذَا السِّيَاسِيُّ كَيْفَ يَنْتَفِعُ بِالْحَرْبِ الْقَادِمَةِ لِحُلِّ تِلْكَ الْمَسْئَلَةِ .

## ٢٧

لَا يَكَادُ النَّيْلُ فِي شَهْرِ يُونِيهِ يُسْمَعُ مِنْ فَوْقِ جَسْرِ الْجَزِيرَةِ الَّتِي هُوَ جِسْرُ الْقَاهِرَةِ الضَّخْمِ وَالَّتِي لَا يَبْدُلُ غَيْرَ ثَلَاثِ جَسَرٍ الْخُرُطُومِ طَوْلًا ، وَيُسَمَّى النَّيْلُ فِي الْعَاصِمَةِ آخَرَ جَوْلَانٍ لَهُ فَيَظْهَرُ جَلِيلًا وَقَوْرًا وَتَقَطُّعُهُ جَزِيرَتَانِ ، وَلَا يُنْعِمُ عَلَى عَاصِمَتِهِ الْأَلْفِيَّةِ ، الْقَاهِرَةِ ، بِمَظْهَرِ قُدْرَتِهِ ، وَتَبْدُو الْجُسُورُ الثَّمَانِيَةُ الَّتِي تَرْتَبِطُ ضِيفَانَهُ بِالْجَزِيرَتَيْنِ قَصِيرَةً ، وَمَا تَقْضِي بِهِ الْضَّرُورَةُ مِنْ رَفْعِهَا مَنَاوِبَةً لِتَتِمَّكَنَ السَّفِينُ مِنَ الْمُرُورِ وَمَا يَصِيرُ عُبُورُ النَّيْلِ بِهِ مُتَعَذِّرًا يَدَّ كَرْمُنَا بِعَظَمَتِهِ .

وَفِي شَهْرِ أَغْصَاطِ ، وَعَلَى الْعَكْسِ ، يُسْمَعُ هَدِيرٌ هَائِلٌ مِنَ الْجَسْرِ ، لِبُلُوغِ قَيْضِ الْمَاءِ غَايَتِهِ ، وَفِي شَهْرِ مَآيٍ يَسْتَطِيعُ سَابِحٌ مَاهِرٌ أَنْ يَمَارِضَ الْجُرْيَانَ ، وَفِي شَهْرِ يُونِيهِ يَصْغُبُ عَلَيْهِ ذَلِكَ ، ثُمَّ لَا يَجْرُؤُ أَحَدٌ عَلَى ذَلِكَ ، وَيَتَّبِعُ أَهْلُ الْقَاهِرَةِ زِيَادَةَ النِّهَرِ مَعَ هِلَاجِ قَوْمِ مَحْصُورِينَ ، وَمَا هِيَ قُوَّةُ الْعَدُوِّ ؟ وَمَا هُوَ الْحِصْنُ الَّذِي يَهَاجِمُهُ غَدًا ؟ وَمَتَى يُفَكُّ الْحِصَارُ عَنَّا ؟ وَيَنْظُرُ كُلُّ عَابِرٍ مِنْ فَوْقِ الْجَسْرِ ،

٤٤ — سفن مراكبية على النيل





في شهر أغسطس ، ليعلم هل هذه هي الزيادة أو أن ذلك ليس غير مظهر ، وإذا ما انقضت بضعة أيام فأبدى العنصرُ جميع قُوَّته تساءل أولئك الناس عن غمِّ : هل يزيد الفيضان على الناية ؟ وهم لا يهدأ لهم رَوْع نهائيًّا إلا في أوائل أكتوبر وبعد عِدَّة أيام نقص منتظم في الفيضان ، ويجاهد الناس حَوْلَ النيل جهادهم حول امرأةٍ مُشتهاةٍ ، ولن يطمئن قاهره إلى أنه قد يُصبح نحيبته في نهاية الأمر ، ويتحرك كلُّ شيء في أثناء الفيضان ، ويقوم حارسٌ في كلِّ خسين مترًا من القناة ، ويُشدُّ مئة رجلٍ في الأماكن الخطيرة ، أحيانًا ، لحماية الأسداد ولعروضِ ينانٍ عن الوضع ، وإذا ما طاف هؤلاء في السهل الواسع حاملين مصابيحهم بدت قطارب<sup>(١)</sup> لامة في الليلة المحرقة ، وترى في كلِّ مكانٍ انتظارَ الزوارق الآلية والسيارات رؤساء المفتشين الذين يكون لهم في شهر سبتمبر من الأحوال النفسية ما يكون للقائد في أثناء المعركة ، والذين يأتون أو يُزَيِّحون قواربَ مشحونةً بمحاربةٍ وأكياسِ رملٍ . والذين يُكَدِّسون مَوْصَ<sup>(٢)</sup> الذرَّة وسوقَ القطن لسدِّ أقلِّ ثغرة ، ويتوقف كلُّ شيء على ذكاء نحو عشرة رجالٍ لا ينبغي لهم أن يناموا ويجب عليهم أن يكونوا مستعدين للتدخل في أيِّ مكانٍ كان ، ولا يزال الناس في النيل الأوسط ، في مديرية جرجا التي يُثيرُ ريُّها العجب ، يَرَوُون أن مفتشًا إنكليزيًّا وَقَفَ الفيضانَ المحرَّبَ ذات يوم من سنة ١٨٨٦ بأن أنشأ سدًّا مستعينًا بجميع القرية ، ويبعدُ الخطر ، ويدعى هذا النصراني إلى المسجد لحضور دعاة شكرٍ يقام فيه ، ولنا في هذا الأمر الذي لم تَسْمَعْ بمثله أُذُنٌ ما تُبَصِّرُ للشاعر الدينية به لدى شعبٍ سَلَّمَ أمره إلى أحد العناصر .

(١) القطارب : جمع القطرب ، وهو دوية لا تستريح من الحركة أو هي التي تضيء في الليل كأنها شعلة — (٢) الموص : التبن .

ويُنَمِّلُ الفيضان في سنة ١٨٨٧ سَدًّا حافظًا لقرية واقعة في شمال المنصورة ، وفيما كان الرجال والنساء والأولاد يأتون بأبوابهم ونوافذهم وأثاثهم لسَدِّ الثَّغْرِ إذ يُبْصِرُ الإنكليزيُّ الذي يدير الأشغال يياضَ شعر الرجل الأكثر نشاطًا فيناقض مشيَّته بهِمَّتَه العظيمة ، ويسأل فيَتَلَمَّ أن هذا الرجل ، الذي كان رقيقاً في الدَّلْتا سنة ١٨٧٨ ، لم يَسْتَطِعْ أن يحول دون وقوع تصدُّعٍ في السَّدِّ فأثار هذا الأمرُ غيظَ الخديو إسماعيلَ فأمر إسماعيلُ بالقائه في النيل فايبضَّ شعر هذا التَّيس في ليلة انتظاره للموت ، ثم عُرِفَتْ براءته فُبْنِيَ عنه ، ويكافح تصدعاً جديداً في السَّدِّ ، ويُشْرِفُ رأسُه الأبيض على الآخرين .

ويَتَوَقَّفُ جميع إنتاج الدلتا ، أى معظم القطن المصريَّ على السَّدِّ الواقع في الكيلومتر الخامس والعشرين من مجرى النهر التحتانيَّ من القاهرة ، أى في المكان الذي يُقَسَّمُ فيه النهر إلى شعبتين ، وهذا هو آخر برج قاهر للعنصر ، وهو يَبْلُغُ من التأثير ما يُحوِّلُهُ معه نائبُ السلطان ، سعيدٌ ، إلى قلعةٍ صالحةٍ لإغراق جميع الدَّلْتا إذا ما غزا العدوُّ البلاد ، وما كان من أمر هذا التَّدْكار ، ومن معرفة ما في أحد الأسداد من إمكاناتٍ تخريبٍ ، قد حَفَزَ المصريين إلى الحَذَرِ من مشاريع الإنكليز المائية الكبرى ، وللقلة مع أبراجها وأروقها وجسورها المتنقلة وملاجئها أثرٌ في النفس كما في النقوش القديمة .

وترانا في المكان الذي ينقسم النيل فيه ، وكان أفلاطونُ أولَ من رأى تشبيهِه بشجرة ذات فروع ، وتَبْلُغُ الدلتا من الطول ٢٥٠ كيلومتر ومن العرض ٢٢٠ كيلومتر ، وهي ليست متساوية الأضلاع ، كدلالة اسمها عليها ، وقد كانت ، إلى ما قبل قرنٍ ، تُسَقَّى وَفَوْقَ نظام الأحواض كجميع مصرَ في ذلك الزمن ، وقد أراد

محمد على أن يبنى فيها أول سدٍ ليضنّ سقيها في جميع السنة ، أجل ، إن هذا عملٌ صعب ، ولكنه مُجدٍ ، وذلك لأن الأراضي الصالحة للزراعة في وادى النيل ممتدةٌ كامتداد المارشن في هولندا .

وإذا ما حُبط المشروع لم يكن ذلك من خطايا الفرنسيين ، وإذا كانت الجُدُرُ القائمة على أرضٍ مُتَنَقِّلَةٍ لا تُمسِكُ سوى نصفِ مترٍ من الماء بدلاً من أربعة أمتار ونصف متر كما يُنتظر فإن ذلك يُمَدُّ دليلاً على عجز الأوربي الذي لا يُصدِرُ في الشرق غير النصائح ، ولا يُحسن المهندسون المصريون تنفيذَ تصاميم المهندسين الفرنسيين عند إنشاء السد ، ويمضى أربعمائة عاماً فينفذ المهندسون البريطانيون مشاريعهم في بناء السدِّ كما يودّون ، واليوم ، فيما يَرُدُّ الإنكليزُ بالسدِّ خمسةَ عشرَ متراً و ٥٠ سنتيمتراً إلى الراء ، يُصرّح خبراءُهم بأنهم إذا ما غادروا مصرَ طَجَرَ المصريون عن الانتفاع بذلك . ويختلف كلٌّ من السدين الحاضرين طولاً ، ولكلٍّ من السدين إحدى وستون قطرةً وكوتان ، ويَزيِنُهُما نقشٌ بارزٌ وجِدٌ في طيبة وصورٍ به رمسيس الثاني جامعاً لِقِسْمَي مصرَ في الماضي وممثلاً لشعبي النيل في الوقت الحاضر تمثيلاً مجيئاً . ويُعدُّ لسان الأرض الواقع بين السدين أخصبَ جَنَّةٍ بمصرَ لسقيه أحسن من سواء لا ريب ، وتُمدُّ الدلتا أرضَ مصرَ المُفضَّلة ، شأنُ أولاد الخبير الصحي الذين يُطوِّنون أكثر الأغذية ملائمةً للصحة .

ويوجد سدٌّ آخرٌ دائمٌ واقعٌ على المجرى التحتاني من زِفْتَي وعلى شعبة النيل الشرقية ، ويُنشأ في كلِّ سنة جاجزٌ من ترابٍ على كلِّ شعبة من النيل قبل مَصَبِّها ، وذلك لوقفِ الماء الراشح من السدِّ ، ويُصنَّع ذلك ، عادةً ، في اليوم التاسعَ عشرَ من مارس ، وذلك أن الموج الوارد على الخرطوم في اليوم العاشر من فبراير وعلى

أسوانَ في اليوم الأول من مارس يتطلب ثلاثة أسابيع حتى يَصِلَ إلى زِفْتَى، فما كان لطاغيةٍ أو لصاحبِ ملياراتٍ أن يَتَفَقَّ له من العناية الطبية ما يتفق للنيل من تعهدِ شؤونه والانتباه لأمره .

ويتعقد ذلك النظام ، كجسم الإنسان ، بالمِصْخَات والدواليب والمِصَّات ورافعاتِ الماء إلى أعلى الأطنان ، إلى ما يَبْلُغُ ارتفاعه متراً واحداً ، وبما أن القطن يتطلب عنايةً فائقة فقد أُنْشِئت شبكةُ قنواتٍ لتصريفِ المياه وحُسِبَ توزيعُ المياه حساباً دقيقاً ، فيُعْطَى الماء في خمسة أيام من الصيف ، ثم يُعْطَى أَقْلٌ من ذلك أولاً يُعْطَى في الأيام العشرة التالية ، وإذا كان مقدار الماء كافياً كان دَوْرُ القطن من الماء خمسة عشر يوماً ودَوْرُ الأُرْزُ منه ثمانية أيام أو عشرة أيام .

ويُظْهِرُ النهر المَقْهُور قوته حتى قُبَيْلَ نهايته فيَدَّ كَرَّ الإنسانَ بقوةِ العنصر ، ويُعِدُّ الغَرِيْنَ ، الذي لا حياةَ لمصرَ بغيره ، خَطِراً في الدلتا ، فيَقْضَى أربعمائة يوماً من كلِّ سنة في نَزْعِهِ من جميع القنوات ، ويكون ذلك في شهر يناير على الخصوص ، وذلك حين تُغْلَقُ وتُنْظَفُ وتُصَاح ، و يَتَطَلَّبُ الرِّىُّ الدائمُ غَرِيْناً أَقْلٌ مما في الماضي ، فيكفي مصرَ ثمانية وعشرون مليونَ طُنٍّ منه في الوقت الحاضر ، وأما ما يزيد على ذلك ، وهو ما بين الـ ٤٠ مليوناً والـ ١٢٠ مليونَ وَفْقَ هَوَى أمطار الحَبَشَةِ ، فقد تَرِكَ للفلاح على العموم ، ما لم يكن هنالك احتياجٌ إلى تَعْلِيَةِ الأسداد ، وإذا كان الفلاح راغباً عن ذلك وجب على الإدارة أن تَدْفَعَ نفقاتِ رَفْعِ ذلك ، ويوضع السؤال الآتي في بعض الأحيان وهو : هل يَنْتَفِعُ الفلاحُ بِهَبَةِ النيل تلك في إحصاب حَقْلِهِ أو يَكْسِبُ أكثرَ من ذلك بِنَزْعِهَا ؟ هذه هي مسألة عويصة تَشْغَلُ بال الألوف من الناس فيَقْرَرُ حلُّها وَفْقَ هذا المعنى أو ذاك مصيرَ ثورةٍ بعينها .

والمِلْحُ هو العنصرُ الثَّانِي الَّذِي نَحِبُ مَكَالِفَتَهُ هُنَا ، وَذَلِكَ لِأَن مَاءَ الْبَحْرِ يَنْسَرِبُ فِي النَّهْرِ ، وَذَلِكَ لِأَن مَاءَ الْبَحْرِ مُمَلَّحٌ بِمِشْرَةِ أَمْثَالِ مَا تَأْبَاهُ الزَّرَاعَةُ وَبِأَمْثَالِ عَشْرِينَ مِمَّا تَأْبَاهُ شَفَّةُ الشَّارِبِ ، وَيُنْتَفَعُ بِالسَّيْنِ الْتَرَايِينَ الَّذِينَ يُجَدِّدَانِ كُلَّ عَامٍ فِي دَفْعِ الْمِلْحِ أَيْضًا ، وَيُوصَلُ إِلَى ذَلِكَ بِمَرَاقٍ خَشَبِيَّةٍ مُوصُولَةٍ بِقَوَارِبَ وَأَكْيَاسٍ يَتَأَلَّفُ مِنْهَا إِطَارٌ دَائِمٌ ، فَإِذَا مَا تَقَدَّمَ الْعَمَلُ تَقَدَّمَ كَافِيًا وَلَمْ يَبْقَ غَيْرُ ثُغْرَةٍ عَشْرِينَ مِثْرًا دُحِرَ الْمَاءُ الْمُلَّحُ بِمَاءِ النَّيْلِ الْقَادِمِ بِنَتَّةٍ ، وَيَكُونُ عَلَى الصَّفَّةِ كَيَاوِيٌّ فَيُحَقِّقُ نِسْبَةَ الْمِلْحِ وَيَطْلُبُ هَاتِفِيًّا مِنَ الْخَرَائِنِ مَا هُوَ ضَرُورِيٌّ مِنَ الْمَاءِ الْفَرَاتِ لِذَلِكَ الْغَرَضِ ، وَهَذِهِ هِيَ آخِرُ مَرَّةٍ يَسِيطِرُ الْإِنْسَانُ فِيهَا عَلَى النَّيْلِ .

وَلَا يُدْفَعُ هُنَا ، وَلَا فِي أَيِّ قِسْمٍ آخَرَ مِنْ وَادِي النَّيْلِ ، ثَمَنٌ لِّجَمِيعِ ذَلِكَ الْمَاءِ الَّذِي تُكَلِّفُ مَصَالِحُهُ الْإِدَارِيَّةُ وَحَدَّهَا نِصْفَ مِلْيُونِ جَنِيهِ سَنَوِيًّا ، وَالْأَرْضُ الَّتِي تُسْقَى هِيَ الَّتِي تَوْذِي الضَّرَائِبَ ، وَلَكِنْ مَا أَتَقَهُ تِلْكَ الْمِبَالِغُ عِنْدَ قِيَاسِهَا بِمَا تُكَلِّفُهُ أَعْمَالُ الْإِنْسَانِ الْمُخْرَبَةِ ! فَقَدْ بَلَّغَتْ نَفَقَاتُ الْأَسْدَادِ السِّتَةِ الَّتِي أُنْشِئَتْ بِمِصْرَ فِي غُضُونِ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ اثْنِي عَشَرَ مِلْيُونِ جَنِيهِ ، أَيُّ أَقَلِّ مِنْ نَفَقَاتِ أُسْبُوعٍ وَاحِدٍ فِي اثْنَاءِ الْحَرْبِ الْعِظَمَى ، وَلَا تَنْفَعُ تِلْكَ الْأَسْدَادُ لِإِنتَاجِ الْقُوَّةِ وَالنُّورِ كَمَا فِي الْبُلْدَانِ الْآخَرَى ، وَمَا عَلَيْهِ النَّهْرُ مِنْ تَقْلِبٍ فَلَمْ يَصْلُحْ لِعَمَلٍ قَلِيلٍ مِنَ الْمَصَانِعِ الْكَهْرَبِيَّةِ فِي جِهَاتٍ قَلِيلَةٍ ، وَيَطْلُؤُ النَّيْلُ ، مِنْ هَذِهِ النَّاحِيَةِ ، سَجُوحًا تَقْرِيبًا ، وَمِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى لَا يَكُونُ النَّيْلُ صَالِحًا لِلْعِلَاحَةِ فِي الدَّلَاةِ إِلَّا فِي أَشْهُرِ الْبَيْضَانِ الثَّلَاثَةِ ، وَالْأَقْسَامُ الْمُنْخَفِضَةُ مِنْ شُعْبَةِ رَشِيدٍ وَحَدَّهَا هِيَ الَّتِي تَبْقَى صَالِحَةً لِسِيرِ السَّفَنِ فِي جَمِيعِ الْقُصُولِ .

وَلَمْ يُسَنَّ لِنَاكَ قَانُونٌ قَبْلَ وَصُولِ الْإِنْكِلِيزِ ، وَكَانَ النَّاسُ يَنْضَمُونَ بِالنَّيْلِ مِنْذُ



أولف. السنين عند ما وُضِعَتْ موادُّ مرسومِ النيلِ الثلاثِ والأربعون ، وَيَقُولُ سَوْه استعمال ذوى السلطان بما يُثِيرُ التَّجَبُّعَ بعد أن وُضِعَتْ للماءِ سلسلةُ المراتبِ تلكَ ، وفى أهواءِ النيلِ ما يساعد على اعتدائهم ، وذلك لأن النيلَ يَنْبُلُغُ من تحويلِ أرضِ مصرَ فى الغالب ما يقابلُ بالنِّدى يطرأ على الأراضى الواقعة على سفح بُرْكان ، واليوم يعلمُ الفلاحُ أن النهر إذا ما ابتعد عن ساقيته وأحدث جزيرةً جديدةً حَقَّ له أن يَحْفِرَ قناةً فَيَجْلِبُ الماءَ إلى دولابه بلا بدَل ، واليوم يَعْلَمُ الفلاحُ أن الباشا يُعاقَبُ إذا ما حَبَسَ الماءَ عن جاره الفقير بوضع حجارةٍ ، أو إذا سَدَّ كَوَّةً من فَوْرِهِ ، أو إذا حَفَرَ خَرْقًا فى الضَّفَّةِ ، أو إذا أزال حاجزاً ، واليوم يَعْلَمُ الفلاح ، أيضاً ، أن المفتش فى شهر أبريل يَمْنَحُهُ ماءً إضافياً إذا كان أَرْرُ الصيفِ يتطلب ماءً أكثرَ من الذى قُدِّرَ له .

وما ألقاه النيل على الإنسان من أقدم الدروس ، أى العملِ المشترك ، أى هذه التجربةِ البالغة من القِدَمِ ستةَ آلافِ سنة ، قد تَحَوَّلَ إلى عِلْمٍ مُصْلِحٍ لكلِّ ما عِلِمَهُ الإنسان من التقاليد ، إلى عِلْمٍ أكثرَ اقتصاداً فى مجموعهِ وأعظَمَ إنصافاً فى جزئياته ، وذلك لأن فرعونَ أو نائبَ الملكِ عاد لا يكون صاحبَ الأرضِ كما فى زمن يوسفَ ومحمد على ، وما تراه من دقةٍ توزيعٍ فى الأسدادِ ومن تحويلِ أرضِ حبوبٍ إلى أرضِ قطنٍ ومن إلغاءِ سُخْرةِ بلا أجرٍ ومن نقصٍ فى عددِ التجارِ من الأجانبِ ومن إنشاءِ مدارسَ ومن تحرُّيمِ الحِجْرِ على قطعةِ الأرضِ الضروريةِ للعيشِ ، وما تراه من هذه الاشتراكيةِ الحكوميةِ ، أمورٌ عُدَّتْ عاملَ اتحادٍ جديدٍ ، وعلى ما تبصره من حلِ الفلاح على ما يجب أن يَبْتَدُرَ وعلى الزمانِ والمكانِ اللذين يجب أن يَبْتَدُرَ فيهما تجددُ انتباهاً فى شعوره بالكرامةِ بعد أن ظلَّ حتى الآنَ عبداً للماءِ والإنسانِ معاً .

الدلتا خضراء كوادى النيل ، ولكن بما أنها ليست أرضاً ضيقةً ، ولا واحةً ، ولكن بما أنها سهلٌ يمتد على مَدَى البصر ، فإن لَوْنَ الصحراء الأصفرَ لا يَبْدُو في غير أطرافها البعيدة ، وإذا كانت مصرُ العليا تَنِمُّ على انسجامٍ بين الأخضر والأصفر والأزرق فإن الدلتا الواقعة تحت سماء شاحبة تَنِمُّ بما فيها من منازلٍ وأشُرعة سفنٍ وثيابٍ نساء على انسجامٍ بين الأخضر والأبيض والأسود ، ولو رُئِيتَ هناك أشجارٌ بقاعنا بدلاً من النخل لظهر لنا منظرٌ هولنديٌّ ، فاللأه موجودٌ في كلِّ مكانٍ وصِفَارُ الجداول تَقَطِّعُ كِبَارَها .

يبد أن المظهر العام يَدْكُرُ ببلد الكُثْبَان ، وكلُّ شَيْءٍ هناك مصريٌّ ، وكلُّ متحركٍ هناك مصريٌّ ، بلينِ المنظر وكثافته ، وكتب أحدهم يقول في زمن لويس الرابع عشر ، حين كان القناصلُ شعراءَ أيضاً : « تكون مصرُ فضيةً في سبتمبر ، وزُرْ مُرْدِيَّةً في نوفمبر ، وذَهَبِيَّةً في أبريل » ، ونحن الآن في شهر أكتوبر .

ويسيرُ بعيرٌ سيراً وثيداً ، ويُبَايِنُ السماء ، ويَحْمِلُ جَبَلًا مُنْهَرًا من عيدان القطن الجافَّة لإحراقها ، ويَمُرُّ رجلٌ راكبٌ حاراً على طول السَّدِّ ، ويَظْهَرُ وراءه دولابُ ناعورةٍ جديدٌ ابتاعه من المدينة ، وتُسْرِعُ سيارةٌ يَجْلِسُ فيها ، وَيَنْشَبُ في أطرافها ، أربعة عشرَ مسافراً ، فيُسْمَعُ صوتُ لحديدها وتنتظير في الهواء ثيابُ راكبيها ، وتُحْمَى سفينتان ذواتا شراعين مضاعفين متفخحين بريح الشمال الغربي فتجويان السهلَ رُوَيْدًا رُوَيْدًا وتَجْلِيان ما هو أبيضٌ مثلهما ، تَجْلِيان جبالاً زُغْبًا من

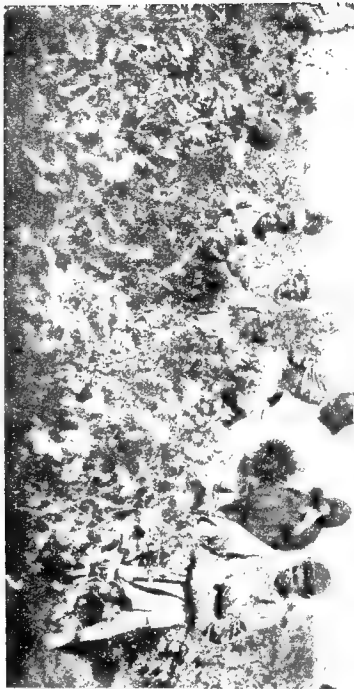
القطن ، وترى امرأتين سوداوين وخمسة أولاد يفررون مؤصّ الذرة الأصفر في الأرض على فواصل متساوية استعداداً لزرع فول في الغد ، وترى رجلين عاريين واقفين في القناة فيخرجان كتل غرين ويصقونها ويأخذونها على عجلة إلى منازلهم البيض ، وترى في وسط الغرين التماع<sup>(١)</sup> حبشية كأنها تذكر لماضٍ بعيد مئسّى تقريباً ، ويحاول تل أن يتكون ، ويبلغ من الارتفاع متراً ونصف متر ، وترسم الريح على ذروته دوائر غريبة مادام أرفع ما في الجوار ، وتنتصب على مثل ذلك الارتفاع رحي هواء تدور بريح الشمال فتبدو وحيدة كجال<sup>(٢)</sup> ، وتبدو أجنبتها مرخاة ، فيلوح أنها تدير ميصخة .

وتبصر على ما هو أبعد من ذلك ثلاث جرافات سود صديئة تقذف الغرين في الحقل ، وتبصر على الضفة ألوف القلل الصفّر اللامعة مكدسة كالقنايل القديمة ، وتجر ثلاثة جمال ذات أذنان طويلة متموجة كالطواويس خوص نخل مربوط بعضه ببعض أكواماً ، وتجر البلاشين وتطير طيراناً قريباً عارفة أنها في مأمن لما بينها وبين البحر من صداقة ، ويظهر حمار فوق القناة بجزأة ، ولا ريب في أن رأكبه خفيّر لحمله بندقية ، ويظهر نحو مئة طير من كدس حبي موضوع أمام البيت الصغير الأبيض العاري ، ويؤدي طريق سنط إلى بيت غني وتنع خلفه قبة مسجد صفراء زرقاء ، ويفرّج<sup>(٣)</sup> رجل حصاناً زائماً يكدف<sup>(٤)</sup> أمام أربعة أبنية من آجر بارزة بين الخضرة ، أمام أربعة أصابل معدة لخليل السباق ، ويسكن الفلاحون أكواخاً بيضاء مصنوعة من طين مجفف وقاعة بجانب تلك ،

(١) لها : جمع الهامة ، وهي البلورة الصغيرة — (٢) الجال : التراب الذي هجر وطنه .

(٣) فرحن الدابة : حسنها بالفرجون أي بالحصة ، والحصة هي آلة تفض التراب عن الدابة .

(٤) أكدف القريس : سمع لحوافره صوته .



٢٥ - اجتماع الصلح



وَيَمُرُّ خَسُونٌ رَجُلًا لَابِسًا جِلْبَابًا أَيْضًا وَحَامِلًا قَفَّةً مُشْتَمَلَةً عَلَى حَجَرَيْنِ مُعَدَّيْنِ  
لِتَجْدِيدِ مَدْخَلِ الْقَنَاةِ ، وَتَجْلِبُ قَوَارِبُ طَوِيلَةٍ تِلْكَ الْحِجَارَةِ إِلَى الْقَاهِرَةِ لِمَا  
لَا يَجِدُ مِنْهَا فِي الدَّلْتَا ، وَيَرَى حَارَانَ مِنْ وَطَانِ بَوْتَدٍ وَاحِدٍ ذَلِكَ الْمَنْظَرَ بِأَطْرَافِ  
عَيْنَيْهِمَا وَيَذَلُّ كُلُّ مِنْهُمَا رَأْسَهُ بِرَأْسِ الْآخَرِ ، وَتَتَوَجَّهُ نَهْرُ الْقَنَاةِ ، مِنْ خِلَالِ  
حَقْلٍ نَقْلٍ<sup>(١)</sup> امْرَأَةً لَابِسَةً ثَوْبًا أَسْوَدَ وَحَامِلَةً جَرَّةً فَارِغَةً مُضَجَّعَةً عَلَى رَأْسِهَا ،  
فَإِذَا مَلَأَتْهَا بِتَوَكُّدٍ رَجَعَتْ مِنْ طَرِيقِهَا بَعْدَ أَنْ تَنْصِبَهَا مُوزُونَةً عَلَى رَأْسِهَا مَعَ  
الْإِنْجَامِ ، وَتَمُرُّ سَفْنٌ شِرَاعِيَّةٌ أُخْرَى ، وَتَنْقُلُ زَوَارِقُ سُودٌ سُلْمَةً خَفِيفَةً ، تَنْقُلُ  
الْقَطْنَ الْأَيْضَ الْكَثِيرَ الَّذِي يُعَدُّ بِضَاعَةً ثَمِينَةً مَلَكَيةً فِي ذَلِكَ الْبَلَدِ ، وَتَجِدُ عَلَى  
طَرَفِ الْقَنَاةِ صَبِيًّا يُدِيرُ تَوَلْبًا خَشِيئًا فَيُوصِلُ السَّاقِيَةَ بِهِ إِلَى النَّاحِيَةِ الْأُخْرَى ،  
وَيَصِيرُ كُلُّ مِنَ التَّوَلْبِ وَالسَّاقِيَةِ ، وَيَدَاوِمُ عَلَى تِلْكَ الْحَرَكَةِ عَشْرَ سَاعَاتٍ مُتَابِعَاتٍ  
فَيُضْعِدُ الْمَاءَ بِلا انْقِطَاعٍ .

## ٢٩

هذه هي المدن ، وهذه هي حركتها ، وهناك معاملٌ ، ولكن مع قليلٍ مغازلٍ  
في بلد القطن ذلك ، ولا تصنعُ تلك المعاملُ غيرَ واحدٍ في المئنة من الإنتاج ، وفي  
البلد قليلٌ من مصانع التبغ مع أنه يُنتجُ أحسنَ تبغٍ في العالم ، وفي بلاد السكر  
ذلك قليلٌ من معامل السكر ، فلا يقوم ما يُنتجُه منه باحتياجات الأهالي ، وترى  
بجانب تلك المصانع جاموسَ الفلاح يُدير دُولَابًا مُحَرَّكَاً رَهَاصًا لِقَصَبِ السَّكَّرِ

(١) النفل : نبت من أحرار البقول زهره أصفر طيب الرائحة تسمن عليه الخيل .

فيؤدى ذلك إلى مَنَحِ الفلاح ضرباً من القند<sup>(١)</sup> يُفَضِّلُهُ على السكر الخالص .  
ويَبْدَأُ العملُ القلاسى<sup>(٢)</sup> مرة أخرى في أقصى الدلتا من جنوب الإسكندرية  
الغربي فتكتسب من الشَّهْبِ رياضٌ وأَرْضُونٌ صالحةٌ لِلْفَلاحةِ ، وتَرى بالقرب  
من البحر عند حدود ليلية أعراباً يَزْعَوْنَ أنعامهم في شَهْبٍ يُرَوِّيه المطرُ في الشتاء  
أحياناً ، وَيَزْعَوْنَ حبوباً قليلةً قبل أن يُحْرِقَ الصيفُ كلَّ شيءٍ ، وذلك كما في  
نوية الوسطى على بُعدِ ثلاثة آلاف كيلومتر من مجرى النهر الفوقاني<sup>(٣)</sup> ، غير أن  
ما هنالك من الخرائب الرومانية والأطلال المصرية يُثَبِّتُ كونَ ذلك البلدِ خصيباً  
فيما مضى ، ويَظْهَرُ من بقايا إحدى المناور أنها تَزْجِعُ إلى زمنِ كليوباترة ،  
وتدلُّ بعضُ النصوص على أنها أرضٌ غَلَّالٌ ، وليست كَسَرٌ بعضُ الفَخَّارِ من غير  
أصل نصرانيٍّ لِمَا تَرى فيها ما يشتمل على صورةٍ قَدِيسٍ بين جملين .  
وأحياناً يونانيٍّ سابقٍ عهدٍ تلك البُقعة التي كان البطالمة يُفَرِّسون فيها الكرمَ ،  
فقد أنشأ فيها مدينةً صغيرةً وطريقاً فُسِّمَتَا باسمه : جناكليس ، وهكذا يَخْلُفُ  
زارعُ التَّبَغِ مِلْكَاً كما يَخْلُفُ تاجرُ القهوة المقدونيَّ فيوقِظُ ذلك البلدَ الناعسَ ،  
ويُعَمِّرُ كفرعونَ ، وقد أنبت تحت ذلك الجوُّ البُخيتَ ، أنْثَبَتْ بفعل نسيمة ومطره  
وقناةٍ مجاورةٍ له ، أشجارَ برتقالٍ وزيتونٍ على كُشْبَانٍ مُرَكَّبَةٍ من رملٍ وغرينَ ،  
ويُخْرِجُ ماله من كرومٍ خمرًا مصريةً جديدةً ، وهكذا يُمكن توسيعُ الدلتا بمقدارِ  
المُخْلَسِ ، وإدخالُ زراعةِ التَّبَغِ لمكافحة أزمة القطن المتزايدة ، فيُعاد إلى الفلاح  
ما نُزِعَ من سروره بما يُجَبِّي من المُكُوسِ عن التَّبَغِ الوارد ، ويُرى أن مُعدَّلَ  
التدخين في مصر أربعَ سِغَائرٍ في كلِّ يومٍ لكلِّ ساكِنٍ من رجالٍ ونساءٍ وولَدَانِ ،  
(١) القند : عسل قصب السكر إذا جُد — (٢) نسبة إلى جُلل إحدى روايات غوته .

وتستورد مصر في كل عام من التبغ ما قيمته عشرون مليون جنيه، أى ما يزيد على مُعدّل ما يستورده أى بلد آخر مع أن زراعته هناك يُنتج من التبغ ما هو أنفس مما فى جميع بلاد العالم بفضل ماء النيل وبفضل هوائه على ما يحتل .

ويطرّد القطن ، وإن شئت قلّ ملك مصر هذا ، كل شئ ، ويجلب الدقيق من أستراليا فى الوقت الحاضر هذا البلد الذى كان يدير<sup>(١)</sup> نصف الإمبراطورية الرومانية بالحبوب ، وإذا كانت الأسداذ تُمدّد هذا البلد بأراضٍ جديدةٍ صالحة للفلاحة فإنه لا يُبذّر فى هذه الأراضى حب ، وكان ١٢٠٠ ٠٠٠ فدان يُزرع حبوباً و ٨٠٠ ٠٠٠ فدان يزرع قطناً فى سنة ١٩٠٠ ، فلما حلت سنة ١٩٢٦ لم يُزرع ما يُزرع من أفدنة الحبوب مع أنه خُصص مليوناً فدان لزراعة القطن ، وقد تضاعف عدد سكان مصر تقريباً ، وذلك من غير أن يتحول مقدار الخبز الذى تُنتجه ، وذلك لأن ثراء البلد يزداد على حساب استقلاله ، وذلك لأن القطن ، لا الحرية ، هو الذى يسيطر ، ويُصدّر فى سنة ١٩٢٥ من القطن وبذرة القطن ما قيمته ٦٢ مليون جنيه ، ولكن مع إدخال ما قيمته اثنا عشر مليون جنيه من الحب والدقيق ، وكان ما يُصدّر من القطن المصرى ، حتى فى سنة ١٩٣٠ ، حتى بعد تدهور القطن ، يَعْدِلُ ٨٧ فى المئة من مجموع ما تُصدّره مصر ، ويعود العقل فى ذلك الحين إلى الرؤوس فيُزرع ١٨٠٠ ٠٠٠ فدان من القطن ويُزرع ١٤٠٠ ٠٠٠ فدان من القمح .

ومع ذلك لا تكون تلك المضاربات مُجديّة فى غير سنى الخير ، ويُعطى فدان القطن فى الدلتا فى كل سنة ثلاثين جنيهاً ، ويُعطى فدان البرسيم فى الدلتا فى كل

(١) ماره : أتاه بالطعام واللونة .



يدور كل شيء حول الملك الأبيض

سنة عشرة جنبها فقط ، ولكنه يُقَصُّ من البرسيم خمسَ مراتٍ في السنة الواحدة ، وذلك إلى أن الأرض تُنْهَكُ بالإكثار من زراعتها ، ومن ذلك أن القطن كان يُزْرَعُ ، قبل الحرب ، مرةً في كلِّ عامين بدلاً من أربعة أعوامٍ ، فنَقَصَ إنتاجه وزالت خواصه ، فالأرض أَضْيَقُ كالمراة التي تَضَعُ ولداً في كلِّ سنة .

وهكذا يدور كلُّ شيء حَوْلَ الْمَلِكِ الْأَبْيَضِ ، حَوْلَ القطن ، وَيُرْسَلُ هذا الملك إلى الخارج ، لأن الأجنبي يُجْزِلُ الثمن بأحسن مما في الداخل ، ولا يُفْزَلُ القطنُ ويَحْكُ حيث يَنْبُتُ ، بل يُصَدَّرُ على سفن كبيرةٍ إلى جُزُرٍ بعيدة حتى لا تَجْلِبَه كُنْكَشِير من الولايات المتحدة ، حتى تبيعهُ كُنْكَشِير من المصريين منسوجاً ، وبهذا تُدْفَعُ الملايين أجرةَ نقل على غير جَدْوَى ، ويُفَرَضُ على الطبيعة المعادية نبات يحتاج إلى ماء السماء في بلادٍ عاقل من المطر ، ثم تُجْتَنَى ثمرات هذا النبات لِيُؤْتَى بها إلى جزيرة ذات ضَبَابٍ فتَعْمِدُها إلى العالم على شكل جديد ، مع أن زُوس<sup>(١)</sup> كان يقوم بَتَقْمِصَّاتِه في مكانه بما هو أسرع وأروع .

ويقال مع التوكيد إن القطن الذي يُفْتَجُّ هنا كثيرُ النعومة على الأهالي ، ولكن من الممكن أن تُعَقَّدَ معاهدات تجارية لمبادلتِه ، ولكن ألا يُوجَدُ مكانٌ للمصانع في الدُّلَّتَا ؟ إذا ما أُنْشِئَ مصنعٌ في قريةٍ انتَفَعَ بألوف الأفدنة فكان كالكتاب الصغير الموضوع على منضدتنا والمشتغل على عالمٍ من الأفكار والأحلام ، وإذا لم يُرَدِّ صنعُ شيء ، أو كان هنالك من الوسائل ما يُحَال به دون فعله ، وُجِدَ من الأسباب الفنية ما يُفَسِّر به الامتناع عنه .

وهل أدى القطن إلى جعل الفلاح أكثرَ سعادة على الأقل ؟

(١) هو الاسم الإغريقي لسيد الآلهة جوبيتر كما جاء في الأساطير .

لقد أثّرت الباشوات في أثناء حرب الانفصال حينما افتقد قطن تكساس ، غير أن وطأة ذلك أُلقيت على عاتق الفلاح قشاً عن تحرير العبيد في الولايات المتحدة ظهور عبيد جدد في مصر ، ولما وضعت الحرب العظمى أوزارها وتعدّل كيان مصر الاجتماعي اغتنى بعض الفلاحين لبلوغ ثمن قطار القطن أربعين جنيهًا وبلغ ثمن الأرض الجيدة ألف جنيه ، ويظهر أنه يوجد بين فلاحي الدلتا من يستطيع أن يتناح ألف نخلة فيزيد دخله السنوي على ألف جنيه ، وليس بمجهول اسم أغنام الذي اشترى أرض شركة مغلّسة بأربعين ألف جنيه فوصل يوم إمضاء عقد البيع مع جماعة من المبرح حاملية أكياساً من الذهب ، ويسخر سماسرة الإنكليز من غباوة هذا الفلاح الذي ترك ذهبه ينام في بيته المصنوع من الطين من غير أن « يؤقّله » ، وذلك من غير أن يتلم هؤلاء الإنكليز أنهم كانوا يحسرون هذا الذهب ، لا ريب ، بعد بضع سنين في شركة فحمة ذات مكاتب فاخرة وأوراق مالية باهرة.

والفلاح زاهد مقتصد ، والفلاح يتناح بيتاً أكثر جالاً ، وحماراً أعظم عضلاً ، كما يتناح لامرأته قلادة ذهبية ، ولكن الفلاح يؤمن بالأرض التي يروّيها النيل فيشربها لنفسه ولأولاده ، ولا يذهب الفلاح المكتنى ليبتذر ماله في القاهرة أو باريس حيث يقضى المضاربون حياة القراعة بضعة أشهر ، ومن النادر أن يُمنّل الفلاح المكتنى دور السيد الإقطاعي أمام أمثاله الذين ظلّوا قراء ، ولا أحد من الفلاحين يجهل القصة العربية القائلة إن فلاحاً غنياً أتى بفلاح فقير أمام قبر أبيه الرائع فقال الفلاح الفقير صائحاً : « سيكون أبي في الجنة قبل أن يقدر أبوك ، بزمن طويل ، على رفع هذا الحجر الرخامي الثقيل » .

ويبقى الفلاحون ، وفلاحو الدلتا على الخصوص ، مُنكرًا مناقضًا لمزاجهم المريح لأسباب خفية لا يمكن تفسيرها ، وذلك أن المخدرات غير منتشرة في مكانٍ على شواطئ البحر المتوسط انتشارها بين الفقراء من أهل مصر ، والمخدرات مما يستعمله الأغنياء في العالم بأجمعه ، فترى معامل في أوروپة الشرقية ، وفي بلدان تدعو إلى مكارم الأخلاق فتضرب نقوداً عن حبٍ للإنسانية وعن ديموقراطية ، تسم أولئك الأهليين سمًا منتظمًا ، وترى الألوف من التجار والمهريين والوكلاء يعيشون من هذه التجارة المحرمة ، ومع ذلك يُسأل : هل صنع الهروين ، الذي يمن على الإنسان أحلام مُسكرة وبحسَّ سعادة ، أنفي للأخلاق من الغازات السامة التي تقتله ؟ ألا إن بعض الحكومات تصنع هذه الغازات لتحقيق مطامعها ومحرّم الهروين خشية نقص حرارة القتال لدى أبنائها .

وإذا ما ابتاع فلاح الدلتا أقراصاً ممنوعة أو أعشاباً محظورة مخفية في التبغ والشكولاتة والفلفل راجياً أن يقوى بها باهه وجد ما يحيب به ظنه على الدوام ، وإذا ما اغتم فلاح وأبلس<sup>(١)</sup> وضع قليلاً من الحشيش في ترجيلته ودخن حتى بسقط الأنبوب من يده ويسبح في الرؤى ، ويؤدي تدبّع المخدرات في السنوات الأخيرة إلى تضيق نطاق استعمالها ، وتتفكّلت مقادير كبيرة من كل بحثٍ عنها مع ذلك ، ويتدع التجار ما هو عجيب طريف من أنواع التهريب بعد أن اكتشف إدخالها إلى البلاد داخل خفاف ، فانتهوا إلى دسها تحت ما يُبضع ويحاط من جلود الجمال حتى تُخرج في مكان أمين ، وتظهر المدالة عرجاء مرة أخرى ، فبينما يُحكّم على متعاطي المخدرات بالسجن سنوات لا يقضى بحس تاجر

(١) أبلس : انكسر وحزن ويش .

## أهمية البرسيم

المُخَدَّرَات التركيّة غير بضعة أشهر ، وذلك إلى أنه لا ينبغي للدولة تدعُ ألوف الآميين يَقُوصُونَ في بحرٍ من الفقر والجهل أن تجازيَ أولئك إذا ما اشتروا ببضعة قروش نصيباً لذيذاً ، إذا ما شربوا حُلماً وشلواناً .

ويجدرُ بأمرء القطن المدينين للفلاح بسلاطنتهم ووزرائهم أن يحمّوه من الأمراض التي تأتي بها أسداهم إلى البلد ، وذلك لأن الإنسان يؤدي دوماً ما ناله من الطبيعة عن براعة ، ومع ذلك ليس المنتفع هو الذي يدفع على الدوام ، وكان المصريون يعتقدون أنهم من السعداء ، وكانوا سعداء فعلاً ، وذلك لأنهم كانوا في مأمن من البُرْداء<sup>(١)</sup> مع ما في بلدٍ من مثلات المستنقعات القذّنة ومع ما روى هيرودوتس وقصر وجوده عندهم من كَلَل<sup>(٢)</sup> البعوض ، ومما يُفلم أن الطبيعة انتقمت لنفسها في بابلَ عند ما حاول الإسكندر الأكبر أن يُخسّيَ بالقرق<sup>(٣)</sup> أرضَ الناقع المحيطة بهذه المدينة فذهب ضحية البُرْداء على ما يحتمل ، والبرسيم هو الذي كان يُؤزّره ، والبرسيم هو الذي يحفظ وادي النيل والدلتا من البُرْداء على الرغم من البرك ذوات المياه الراكدة ، والخطَر في الماء الطاهر ، والغريّن هو الذي يخرّس مصر ، فلما عدلَ في البنغال عن الرّيّ بماء الغريّن إلى ماء المطر ظهرت البُرْداء ، ولما قصّد مصرَ ألوفُ المصايين المهاجرين من فلسطين في أثناء الحرب العظمى لم يجلبوا ذلك المرضَ إليها .

والواقع أن مرضاً أدخل إلى مصر منذ إقامة الأسدا ، ولم يصدرُ هذا المرض عن النيل ، بل عن الإنسان الذي قهرَ النيل ، ومما حدّث أن صمّين المستشارون

(١) Malaria — (٢) الكلال : جمع الكلة ، وهي غشاء رقيق يغط كالبيت يتوق به من البعوض ويعرف بـ «الناموسية» — (٣) عزق الأرض : شقها وأخرج منها الماء .

الكثيرون الذين بحث الورد كرومر معهم عدم وجود خطرٍ من إنشاء الأسداد ،  
وما حَدَّثَ أن خَصَّصَ أحدُ المهندسين الكيِّين ، وَلِكُوْكْسَ وَمُرْدُخَ  
مَكْدُنْلَدَ الَّذِينَ أَقَامَا الْأَسْدَادَ وَحَقَّقَا حُلْمَ فَأَوَسْتَ ، دَوْرَ شَيْئَتِهِ لَتَلَفَى الصَّرَرِ  
الَّذِي نَجَمَ عَنْ عَمَلِهِ ، وَلِكُوْكْسَ هَذَا كَانَ مُحِبًّا لِلْإِنْسَانِيَةِ فَازْعَجَ بِإِنذَارَاتِهِ مِلُوكَ  
الْقَطَنَ وَالْوَزَرَءَ مِنَ الْإِنْكِلِيزِ وَالْمَصْرِيِّينَ الَّذِينَ كَانُوا يُفَضِّلُونَ كَتَمَ الْخَطَرَ عَلَى إِبَاعِهِ ،  
وَيُبَيِّنُ وَلِكُوْكْسَ أَنَّ قَلَمَاءَ الْمَصْرِيِّينَ جَلَبُوا الْبِرْشِمَ مِنَ النَّيْلِ الْأَوْسَطِ فَكَانُوا  
يَجْزُوْنَهُ فِي الْغَالِبِ لِيُزْهِرَ ثَانِيَةً وَلِيُطْرَدَ الذِّيَابُ وَالْبَعُوضُ بِإِزْهَارِهِ ، وَذَلِكَ مَعَ الْعِلْمِ  
بِأَنَّ الْفِرَاعَةَ كَانُوا يَمْتَنِعُونَ الْفَلَاحَ الْمَوْظَفَ فِي الْمَصَالِحِ الْعَامَةِ وَفِي السَّجُونِ مِنْ أَكْلِ  
الْخَضِرِ بِلا طَبَخٍ .

يَبْدُو أَنَّ الْأَسْدَادَ وَنِظَامَ الْمِيَاءِ الْجَدِيدَ رَفَعَا مَسْتَوَى سِمَاطِ الْمَاءِ فِي كُلِّ مَكَانٍ ،  
وَتَصَبَّحَ الْبَلَالِيْعُ مَقْرَأًا لِلدَّيْدَانِ الْمَرْوُفَةِ بِمَقْسُومَةِ الْبَطْنِ <sup>(١)</sup> ، وَالتَّى لَا تَقْتُلُ الْإِنْسَانَ ،  
بَلْ تَصِيْبُهُ بِالْحَمَى وَيَبْكُورُ ، وَتَوْرِثُهُ مِنَ الْآلَامِ مَا لَا يُحْتَمَلُ أَحْيَانًا ، وَتُضْعِفُ قُوَّتَهُ  
وَتُعِدُّهُ لَأَمْرَاضٍ أُخْرَى ، وَتُظْهَرُ مَقْسُومَةُ الْبَطْنِ ، فِي الْوَقْتِ الْحَاضِرِ ، فِي كُلِّ مَكَانٍ  
يَسُودُهُ نِظَامُ الرَّيِّ الدَّائِمِ ، تَظْهَرُ فِي مِصْرَ الْعِلْيَا حَيْثُ لَا تُجَفَّفُ الْقَنَوَاتُ لِاشْتِمَالِهَا  
عَلَى مَاءِ الشُّرْبِ ، وَتَظْهَرُ فِي شِمَالِ الدَّلْتَا وَشَرْقِهَا حَيْثُ تَكْثُرُ الْمَنَاقِعُ وَالْقَنَوَاتُ  
ذَوَاتُ الْمِيَاءِ الْوَحِيدَةِ الْقَدِرَةِ ، وَمِنْ الْمَبْتِ أَنْ يُحَاوَلَ إِنْكَارُ مَا يَشْهَدُ بِهِ جَمِيعُ الْأَطْبَاءِ  
الْمُسْتَقْلُونَ الَّذِينَ يَقُولُونَ إِنَّ ٦٥ فِي الْمِائَةِ مِنَ الْفَلَاحِينَ مِصَابُونَ بِذَلِكَ الْمَرَضِ فِي حَقُولِ  
قَصَبِ السَّكْرِ بِكُومِ أُمِيو حَيْثُ الرَّيُّ دَائِمٌ ، فَإِذَا مَا ابْتَعَدْتَ عَنْ ذَلِكَ بَعْضَةً  
كِيْلُو مَرَاتٍ وَغَدَوْتَ فِي الْأَرْضِ ذَوَاتِ الْأَحْوَاضِ بِأَدْفُولٍ تَحْدُ غَيْرَ قَلِيلٍ مِنْ

المصابين بذلك للرض ، وإذا ما كنتَ في مديرية جرجا ، التي افردت بحسن الرى بأحواضها ، لم تجد مصابا بذلك ، وترى مَرَضًا آخرَ من ذلك النوع في الدلتا حيث يَصْغُبُ تَفْرِغُ المياه ، ترى معقوفة التَمَّ (١) التي تَكْثُرُ في الأماء الرقيقة فيصَابُ بها ٩٥ في المئة من الفلاحين كما يُصَابُ ٦٥ في المئة منهم بمقسومة البطن .

وكما زادت الأسدادُ ارتفع ماتحت الأرض من سِمَاطٍ ، ويكاد هذا السِمَاطُ يَفُتِرُ البيوتَ في الدلتا ، ومع ذلك ترى هناك ما يُكَلِّجُ به هذا الذي يُعَدُّ من جوائح مصر ، وذلك بأن تُسْتَعْمَلُ هذه الأدوية وبأن يُدْفَعُ نَمُها ، وذلك بأن تُنْشَأُ مراحِضُ عامَّةٌ وأن تُسَوَّى التَّلَاعُ (٢) وأن تُجَمَّعُ (٣) المغايضُ (٤) البلدية بالقراب وأن تُعَمَّقَ القنَوَاتُ ، وأن يُجْعَلَ ذلك السِمَاطُ نافذاً إلى النيل نفعاً للأرض والقنَوَاتُ وأن تُعْلَقَ القنَوَاتُ في الشتاء بدلاً من استعمالها واسطة اتصالٍ وأن يُخَفَّضَ مستوى ذلك السِمَاطُ على هذا الوجه ، وأن يَسْبِقَ التجفيفُ السقى دوماً ، يَبْدُ أن هذه وسائلٌ طويلةٌ تقتضى وقفاً كبيراً .

وهناك وسيلةٌ أخرى إذا ما اتَّخَذْتَ بسرعة ، وعلى مقياسٍ واسع ، أَقْذَرْتَ أولئك الآدميين ، وهى أن الديدان تهاجم هؤلاء الناس عند عملهم واقفين في الماء ، فبما أن اثنين من كلِّ ثلاثة يَعْمَلُ في مصرَ واقفاً في الماء وَجِبَ حَفْظُ سيقان الجميع كما تُحَفَظُ سيقانُ الشُّرْطَةِ بِجِرامِيْقٍ من المَطَّاطِ دَقِيقَةً عَالِيَةً ، ولا سِيا في الأماكن التي يَنْبُتُ فيها البَرْدِيُّ ، وإذا كانت الشُّرْطَةُ والمهندسون اللابسون جِرامِيْقَ

(١) أنكلوستوما — (٢) التلاع : جمع التلعة ، وهى ما علا من الأرض .

(٣) جمع المكيال : ملاء لى رأسه — (٤) المغايض : جمع المغيض ، وهو مجتمع الماء ومدخله في الأرض .

من المطاط لا تنفذها الموائع يسلمون من كلّ عدوى أمكن إحدى شركات القطن أن تأخذ من ميزانيتها ما يبتاع به ١٢٥٠٠٠ جرموق من المطاط بـ ٢٥٠٠٠٠ جنيه على أن يستعمل هذه الجراموق إعارّة نصف مليون من الأشخاص ، ولا يكلفها هذا العملُ الموافق لتعاليم المسيح ثمنًا أغلَى مما يكلفه من ترسلهم من مبشرى القطن إلى الغابة البكر ، وإذا كانت تلك الشركة لا تود أن تقلع عن ذلك الصراع المثير ضيّد الخطيئة فاعليها إلا أن تُضيف ذلك المبلغ إلى الربح والخسارة فينقص الكسب في سنة اثنين في المئة ، فبذلك يكون مليون إنسان في مأمن من الأمراض الثقيلة ، وذلك المبلغ الذى هو اثنان في المئة من الربح هو ثمن جراموق من المطاط تُنفذ مليون فلاح من المرض الذى يتهك قواهم الحيوية فيعدّ فدية الملك القطن .

### ٣٠

يجلس القرفصاء على أرض الدلتا نساء وأولاد في الخريف ، وعلى مدى البصر ، فيقتطفون القطن ، وثياب هؤلاء اتخذم سود ، والملك أبيض ، ويعوم عليه غمام خفيف ، ويلوح كل شيء فيه خفيفاً وغير حقيقى ، ويفكر في لعب طائر وحلم صبي .

ولذلك النبات طبعه تابع لهواه ، ويقاوم ذلك النبات في شبابه ، ويظهر أنه يريد متاع الحياة ، ويظهر في دور خفته أنه معدّ لعيش ناعم ، وهو يجمل ما ينتظره من محن ، وهو ذو مصير أقسى من مصير النباتات الأخرى ، وليست

عَصَارَتُهُ هِيَ الَّتِي تُحَوَّلُ ، وَإِنَّمَا أَلْيَافُهُ هِيَ أَكْثَرُ مَا فِيهِ إِحْسَاسًا .

وَفِي شَهْرِ مَارِسَ يَحْفَظُ النِّسَاءُ هُنَاكَ أَوَّلَ الْقُرُوحِ مِنَ الرِّيحِ وَرَاءَ الْأَخَادِيدِ الصَّغِيرَةِ ، ثُمَّ يُلَهِّئْنَ الْأَرْضَ مِنَ الْعُشْبِ وَيَحْلِلْنَهَا وَيَرْفَعْنَ الشُّوقَ إِلَى طَرْفِ الْأَخْدُودِ حَتَّى تَنْمُوَ طَلِيقَةً بَعْدَ مَجَاوِزَتِهِ ، وَفِي مِائَاتِ السَّاعَاتِ ، وَفِي الصَّيْفِ بِأَسْرِهِ ، تُعْمَى أَيْدِي أَوْلَئِكَ النِّسَاءِ الشُّمْرَ بِتِلْكَ الْأَوْرَاقِ فَيَزِلْنَ الدِّيدَانَ الصَّغِيرَةَ ، فَكَأَنَّ ذَلِكَ مَدْرَسَةً قَائِمَةً عَلَى الصَّبْرِ وَالْحَبَّةِ كَالَّتِي يُرَبَّى فِيهَا الْأَوْلَادُ ، وَيَتَسَامَلُ الرِّجَالُ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ الصَّيْفِ عَنْ سَقْيِ ذَلِكَ النَّبَاتِ الْقَصِيفِ ذِي الْأَزْهَارِ الضَّعِيفِ بِأَحْسَنِ الْوَسَائِلِ .

وَأَخِيرًا تَنْتَفِخُ الْبُذُورُ فِي جَوَرَةِ الْقَطْنِ ، وَلَا تَفْعُلُ الْعَيُونَ عَنْ تِلْكَ الْحَقُولِ الْوَاسِعَةِ ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ جَنَى الثَّمَرِ فِي الْوَقْتِ الْمُنَاسِبِ إِذَا مَا أُريدَ بُلُوغُ الْقَطْنِ غَايَةَ النُّعْمَةِ ، وَيَقَعُ ذَلِكَ حِينَ تَشَقُّ الْحُقُوقُ الْأَسْمَرَ مِنَ النَّبَاتَاتِ ، شَأْنُ الْهَلِيلِيِّينَ ، وَلَا يَقَعُ ذَلِكَ فِي كُلِّ مَكَانٍ مَعًا ، وَبِمَا أَنَّ مَحْصُولَ الصَّنَاعَةِ الْعَظِيمَةِ هَذَا لِنَظَرِ الْبَلَدِ بِأَجْمَعِهِ يُبَاعُ فِي زَمَنِ وَاحِدٍ فَإِنْ رُوحَ الْبَتِّ لَدَى رُؤَسَاءِ الْمَشْرُوعِ مُتَمَثِّلٌ دَوْرًا مَهْمًا لِمَا يَتَطَلَّبُهُ ذَلِكَ مِنْ صَبْرٍ وَتَجَرِبَةٍ أَكْثَرَ مِمَّا يَتَطَلَّبُهُ أَمْرُ الشَّايِ وَالْقَهْوَةِ ، وَإِذَا كَانَ لَوْنُ الْقَطْنِ الْخَامِ قَشْدِيًّا سُرَّ الْفَلَّاحُ ، لِأَنَّ هَذَا هُوَ أَحْسَنُ الْأَلْوَانِ ، وَلَوْ كَانَ الْفَلَّاحُ قَادِرًا عَلَى رُؤْيَا ذَلِكَ بِالْمُجْهَرِ لَأُطْلِعَ عَلَى مَتَاتِهِ مِنْ بَرَمَتِهِ الدَّقِيقَةِ ، كَمَا يَطَّلِعُ ، بَعْدَ الْقَمْحِ الْكِبَادِيِّ ، عَلَى نَوْعِ السِّيْلُولُوزِ<sup>(١)</sup> مِنَ الْإِنْتِفَاحَاتِ الْبِرْمِيلِيَّةِ الشَّكْلِ .

وَيَعْرِفُ الْفَلَّاحُ أَنَّ اللَّيْفَ الطَّوِيلَ هُوَ الَّذِي يَعِيشُ مِنْهُ ، وَيَنْتَلِقُ الْفَلَّاحُ بِكَلِمَةِ

(١) السيلولوز : المادة التي تتكون منها الخلايا النباتية .



« سكلاريديس » مع الاحترام كما كان أجداده يَدْعُونَ إِيَّاهُ ثُمَّ دِيمِيتِر<sup>(١)</sup> بعد زمن ، وَيُجْهَلُ فِي الْبُرْصَةِ كَوْنُ أَحْسَنِ الْقُطْنِ الْمِصْرِيِّ يُحْمِلُ اسْمَ هَذَا الزَّارِعِ الْيُونَانِيِّ الَّذِي أَتَتْهُ فِي سَنَةِ ١٩٠٦ ، وَلَمَّا لَاقَاهُ سَمَّاسَةٌ مِنَ الْأَمْرِيكِيِّينَ فِي الْإِسْكَندَرِيَّةِ ارْتَجَفُوا كَمَا لَوْ كَانَ إِلَهًا هَابِطًا إِلَى الْأَرْضِ ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ وَجَدُوا أَنفُسَهُمْ أَمَامَ الْإِلَهِ الَّذِي قُرِنَ بِاسْمِهِ أَثْمَنُ قُطْنٍ فِي الْعَالَمِ ، أَجَلٌ ، لِأَنَّهُ لَا شَيْءَ يَفُوقُ اللَّيْفَ الطَّوِيلَ غَيْرُ مَا يُنْتَجَجُ فِي جَنُوبِ فُلُورِيْدَةٍ وَفِي أَرِيْزُونَةِ ، بَيِّدَ أَنْ ذَلِكَ لَا يُنَالُ هُنَاكَ إِلَّا قَلِيلًا ، وَلَا تَسْتَطِيعُ مِصْرُ أَنْ تَنَافِسَ الْبُلْدَانِ الْكُبْرَى الَّتِي تُنْتَجَجُ الْقُطْنُ إِلَّا بِفَضْلِ ذَلِكَ الْإِيْفِ مَا دَامَتْ مِصْرُ لَا تُنْتَجَجُ سِوَى سَبْعَةِ فِي الْمِئَةِ مِنَ الْمَحْصُولِ الْعَالِيِّ ، وَمَا يَبْدِيهِ الْقُطْنُ الْمِصْرِيُّ مِنْ مَقَاوِمَةٍ بَيْنَ الْهِنْدِ وَالْوَالِيَّاتِ الْمُتَّحِدَةِ فَلَأَنَّ كِيْزِيُوسَ سَكْلَارِيْدِسَ حَلَمَ بِلَيْفِ الْأَرْبَعِينَ مِليْمِتْرًا وَبِقِصَاصِ النِّسَاءِ الْحَرِيرِيَّةِ قَبْلَ أَنْ يَكْتَشِفَهُمَا .

وَإِذَا عَدَوْتَ الْوَاقِدَاتِ الْمُخْرَبَةِ كَالَّتِي وَقَعَتْ سَنَةَ ١٩٢٢ وَجَدْتَ الْمُضَارَبَةَ عَلَى الْقُطْنِ ( وَهَذَا هُوَ التَّعْبِيرُ الَّذِي يَجِبُ اسْتِعْمَالُهُ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ الْبَلَدِ الصَّغِيرِ الَّذِي يَعِيشُ مِنَ الْقُطْنِ ) هِيَ الَّتِي تُعَيِّنُ مَصِيرَ الْمِصْرِيِّينَ ، وَتَجْعَلُهُمْ يَرْجُونَ بِأَنْفُسِهِمْ فِي الْأَزْمَاتِ الْعَالَمِيَّةِ الَّتِي لَا تَجِدُ لَمْ أَقُلْ تَأْثِيرٌ فِيهَا مَا دَامُوا مَنْزِلِينَ فِي وَاحْتِمِ الْإِفْرِيقِيَّةِ عُرْلاً مِنَ السِّلَاحِ مُهَدِّدِينَ بِمَزَاحَةِ النَّيْلِ الْأَعْلَى تَابِعِينَ لِلْوَلَةِ كَبِيرَةٍ ، وَمِنْ الْوَاضِحِ أَنَّ الْاسْتِنْفَادَ يَزِيدُ فِي الْعَالَمِ ، وَأَنْ طَمَعَ صَانِعِي النَّسَاجِ يُوجِي إِلَى النَّاسِ بِاحْتِيَاجَاتِهِ جَدِيدَةٍ قَبْلَ أَنْ يَنْتَهِكُوا الْعَالَمَ خَمْسَةَ عَشَرَ مِليُونِ رِزْمَةٍ فِي سَنَةِ ١٩٠٤ بَعْدَ أَنْ كَانَ سَبْعَةَ مِلايِينَ رِزْمَةٍ سَنَةَ ١٨٨٤ ، وَالْآنَ يَأْمُلُ أَصْحَابُ الْمِلايِينَ أَوْلَئِكَ أَنْ يَقْصُوا

(١) ديميتير : آلهة يونانية تتجسم بها الأرض كما جاء في الأساطير .

باسم الآداب العامة على عُرَى الزوج الصارخ لأنه لا يلبس من القمصان سوى اثنين في المئة منهم .

ويجهل الفلاح الشائب تلك الحوادث ، غير أن ابنه يقرأ في الصحف كون القوم قد طَمَرُوا بالمحارث البخارية محاصيل القطن في ملايين الأفدنة من تكساس ، وكونه افتتَحَ أكبر سَدٍّ في العالم على نهر السُّنْد ليزيد محصول القطن ٢٣ في المئة على حين يصَدُر مرسومٌ في الولايات المتحدة قائلٌ بتقليل محصول القطن ٢٥ في المئة ، وإذا كان الفلاح لا يُدْرِكُ سببَ هذا التناقض فإنه ليس أكثر غباوةً من المسؤولين عنه ، ولكن الفلاح يشعر بأنه ضحية ، وإذا ما أدت آلهةٌ بعيدةٌ إلى خَفْضِ ثَمَنِ القطن في عامين من ثمانية عشر بُنْطاً إلى سبعة بنطات في كل رطل منه ، وإذا حَدَثَ أن زَرَعَت سلطاتُ أَسِيَةِ الحُمْرِ التي حَدَرَتْهُ جريدتهُ منها أنواعاً جديدةً من القطن تُفْطِي من جِوَز القطن مِثْلين بدلاً من ثلاثين فإن الفلاح يُدْرِكُ أن ذلك يَقْضِي على أمله في أن يَمُوتَ من حماره ، وفي دفع الأجرة المدرسية عن ابنه ، وفي تأدية ثمن غراماتِ حشيشه القليلة .

وَيَنْدُو الفلاح دَرِباً في فنِّ البيعِ حفظاً لنفسه ، وَيَفْصِلُ النساءُ بأصابعهن الدقيقة وبصبرهن الذي لَا يَنْقُذُ القطنَ الأبيض عن الأجزاء الشَّوْرَ الرديئة ، وَيُبْعِدُ النساءُ الأوراقَ الجافة من القطن الأبيض وَيَنْظِفْنَ قَبْضَةً بعد قَبْضَةٍ ، وَيَجْلَنُ منه كُدْساً بعد كُدْسٍ ، وذلك على حين يَجْمَعُ الأولادُ نَفَائِثَهُ في سِلَالٍ ، ثم يَأْتِي الرجال بالحصول على ظهور الحمار إلى ساحتهم حيث يُنْظَفُ مرةً أخرى بما هو أتمُّ من ذلك وحيث يكون في مأمنٍ من الريح التي تثير الأوراقَ الجافة فتُعِيدُها إلى الخلف ، وَتَبْدُو الدُّلُتَا مصورةً بَزْمٍ من النساء اللابسات ثياباً سوداً والمُرْضِعَاتِ

أطناً أحياناً والمنحنيات تحت الشمس وبين التلال البيض ، فكانهن الإلهات هُيُنَ لَيْتَنْفُضْنَ أَغْطِيَةَ سَعْدَاءِ هَذَا الْعَالَمِ ، وَتُبْصِرُ هِيَ كُلَّ غَرِيبةٍ سَوْدَاءَ مُنْتَصِبَةٍ بَيْنَ تِلْكَ النِّسَاءِ ، تُبْصِرُ مَنَاحِلَ يَدُقُّ عَلَيْهَا الْقُطْنُ ثُمَّ تُغْطِي لِكَيْلَا تَسْقُطَ الْأَوْرَاقُ الْيَابِسَةُ عَلَيْهَا بِقُوَّةِ الرِّيحِ ، ثُمَّ يَغْدُو كُلُّ شَيْءٍ نَظِيفاً ، وَتَبْدُو الْمَلِكَةُ بِيضَاءَ فِي نَهَايَةِ الْأَمْرِ .

وَالْيَوْمَ يَوْمَ الْفَلَاحِ ، قَدْ وَصَلَ تَاجِرُ الْإِسْكَانْدَرِيَةِ بِسَارَتِهِ لِيَدُقُّ فِي الْبُضَاعَةِ وَيَتَاعَهَا ، وَالْفَلَاحُ كَانَ يُقْبَنُ دَوْنَهَا ، وَالْآنَ تُنْشَرُ أَسْعَارُ الْقُطْنِ فِي الْقَرْيَةِ يَوْمِيًّا ، وَمَعَ ذَلِكَ يَخْتَلِفُ الثَّمَنُ تَبَعًا لِلنَّوْعِ ، وَإِذَا نَ الْتَقَطَّةُ الْأُولَى هِيَ خَيْرُ التَّقَطَّاتِ فَإِنَّهَا تَكُونُ فِي الْكَدْسِ الْآخِرِ ، وَيَشْتَقُّ التَّاجِرُ طَرِيقًا لَهُ بَيْنَ الْأَكْدَاسِ بِصُعُوبَةٍ عَلَى حِينٍ يَمِيسُ الْبَائِعُ بِيَدَيْهِ السِّمَارَاتِ فِيهَا فَيَرْفَعُ سَبَاحًا<sup>(١)</sup> يَبْضًا تَطِيرُ فِي الْهَوَاءِ وَتَهْبِطُ ، وَيَمْتَدِّحُ نَوْعَهَا عَلَى أَنَّهَا أَرْوَعُ مَا فِي الْعَالَمِ ، أَوْ فِي الدُّنْيَا عَلَى الْأَقْلِ ، وَيُجْعَلُ اللَّهُ شَاهِدًا وَتَنْسَبُ الْقَهْوَةُ غَيْرَ مَرَّةٍ فِي الْفَنَاجِينِ<sup>(٢)</sup> ، وَذَلِكَ لِأَنَّ كُلَّ صَفْقَةٍ تَنْطَوِي عَلَى خَطَرٍ ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ يَتَمَذَّرُ تَحْقِيقُ حَالِ الْمَحْصُولِ بِأَمْرِهِ ، وَيَعْرِفُ الْمَشْتَرِي أَنَّ الْبَائِعَ يُخْفِي السَّبَاحَ الَّتِي هِيَ مِنَ النَّوْعِ الرَّدِيءِ فَلَا يَفْتَأُ يُظْهِرُ احْتِرَازَهُ ، وَيَحِيطُ بِهِمَا نَحْوُ أَرْبَعِينَ مِنَ الْجِيرَانِ ، وَكُلُّمَا طَالَ الْجِدَالُ طَابَ الْبَيْعُ ، وَيَلْبَسُ جَمِيعُ هَؤُلَاءِ جَلَابِيبَ زُرْقًا وَطَرَايِشَ حُمْرًا ، فَيَبْدُو التَّاجِرُ بِقُبْعَتِهِ الْمَصْنُوعَةِ مِنَ الْمَوْصَرِ وَزِيَّةِ الْأُورْبِيِّ مِثْلَ وَحْشٍ يَحْفُ مَمْسُوكُهُ مِنْ حَوْلِهِ ، وَيَعْرِضُ ثَلَاثِينَ مَرَّةً أَوْ أَرْبَعِينَ مَرَّةً فَيُضْرَبُ بِذَلِكَ عُرْضُ الْحَاطِطِ مَعَ السُّخْرِيَةِ ، وَيُقْبَلُ

(١) السَّبَاحُ : جَمْعُ السَّبِيخَةِ ، وَهِيَ الْقِطْعَةُ مِنَ السَّبِيخِ ، وَهُوَ مَا تَأْتَرُ أَوْ تَنْفَشُ مِنَ الْقُطْنِ وَغَيْرِهِ ، هَوَلُ « طَارَتْ سَبَاحُ الْقُطْنِ » — (٢) الْفَنَاجِينُ : إِنَاءٌ صَنِيعٌ مِنَ الْحَرَفِ وَغَيْرِهِ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ ، وَالْكَلِمَةُ مِنَ الدَّخِيلِ .

ذلك بفتة ويَهْتَفُ الحُضُورُ كما في دار التمثيل .

وَتَحِلُّ ساعة الكاتب ، ولا يزال الكاتب يشابه تمثال القاهرة القديم المسمى « شيخ البلد » ، وذلك لأن الفلاحين الذين أخرجوه من الأرض قالوا بصوت عالٍ إنه يشابه مُعَدَّتَهُمْ ، وَيَكْتُبُ القَدَّ على ورق مُسْتَوٍ فوق يده اليسرى وبقلَمٍ من قَصَبٍ في الغالب ، وَيَبَيِّنُ الثَمَنَ مَقَابِلًا لعددٍ معين من القناطير فيكون ثُلُثُ المبلغ بدلًا من القطن الخالص وثلاثة بدلًا من زيت القطن وَعَلِيْقُ البِذْرِ ، وَيُقَبِّضُ الثَمَنَ أَوْ رَاقًا نقديةً في الحال ، وعلى المشتري أن يضع توقيعه على الكبير من هذه الأوراق ما دام الفلاح لا يَشْتَقُ بِإمضاء محافظ البنك الأهلي .

وَمَثَلُ الأَكْيَاسِ منذ زمن ، وَيَصِلُ المَقْبَنُ مع مساعديه ، ويأتي هؤلاء الثلاثة راكبين حميرًا ، ويحیی رابعٌ حَامِلًا مَنَصَبًا<sup>(١)</sup> ، ويرِدُ خامسٌ حَامِلًا القَبَّ<sup>(٢)</sup> ، وَيُقْبَلُ سادسٌ حَامِلًا التَوَابِعَ وَالْمِیَارَاتِ ، وَيَطُوفُ النِّصَبُ فِي الدَّلَّتَا كَالْمَنْكَبُوتِ الْكَبِيرِ بِحَثَا عَنْ أَكْيَاسِ لوزنها ، وأخيرًا يكون الوزنُ قد تَمَّ بعد تناول مقدار من السفاير والقهوة ، وَتُحْمَلُ الحِجْرُ وَالْجَمَالُ أَكْيَاسَ القطن وتُؤَخَذُ إلى حيث تُنْحَلَجُ ، وتبتمد الحيواناتُ على السَّدِّ ، وَيَنْظُرُ الفلاح وزوجهُ وأولاده صامتين ، عن غَمٍّ على ما يحدث ، إلى الملك الأبيض الذى يتوارى بعد أن قَضَوْا ساعاتٍ طويلةً عاملين في سبيله تحت الشمس ، وَيَشُدُّ الفلاح يده السمراء على الأوراق النقدية ، ولكن على أن ينتقل معظمها إلى دائتيه ، ولكن على ألا يبقى له غيرُ أقصى ما يحتاج إليه منها ، ولا تَحْدُ سوى القليل منهم من يَعُدُّ نفسه سعيدًا .

## كبس الرزم

وَيَجْلِسُ أَمَامَ آلَاتِ الْحَلِجِ بَنَاتٌ وَصِيَّانٌ فِي الثَّانِيَةِ عَشْرَةَ مِنَ الْعَمْرِ صُغُرُ سَعَلَةٍ تَعْشَاهُمْ طَبَقَةٌ مِنَ الزَّعْبِ فَتَمَلُّ أَيْدِيهِمُ الرِّشْقَةُ تِلْكَ الْآلَاتُ بِالْقَطْنِ مَعَ اجْتِنَابِ الدَّوَالِبِ وَالْمَنَاخِلِ ، وَلَا تُصَلِّحُ إِلَّا بِيْطَهُ مَعَامِلُ الدُّنَا الْقَدِيمَةُ الَّتِي تَضْمَعِلُ فِيهَا الرِّثَائَاتُ لَعْدَمِ التَّهْوِيَةِ<sup>(١)</sup> وَبِسَبَبِ غُبَارِ الْقَطْنِ ، مَعَ ذَلِكَ تَجِدُ مِنْهُ الْعَبِيدَ هَذِهِ أَقْلٌ قَسْوَةٌ مِنْ مِنْةِ الْكَبْسِ فِي الْإِسْكَندَرِيَّةِ ، وَيَجِبُ ، قَبْلَ أَنْ يُرْسَلَ الْقَطْنُ الْمُنْقَى إِلَى تِلْكَ الْجَزِيرَةِ الشَّمَالِيَّةِ لِيُحَوَّلَ إِلَى نَسَاجٍ فِيهَا ، أَنْ تُقَلَّلَ أَجْرَةُ النِّقْلِ بِحَرًّا فَتُسَدُّ الرِّزْمُ وَيُنْقَصَ وَزْنُ الرِّزْمَةِ مِنْ سَبْعَةِ قَنَاطِيرَ إِلَى خُمْسَةِ قَنَاطِيرَ ، وَلَا تَقُومُ آلَةُ الْبَخَّارِيَّةِ بِذَلِكَ وَحْدَهَا ، فَلَا بُدَّ مِنَ الْإِسْتِعَانَةِ بِذُرْعَانِ الْإِنْسَانِ وَسَيِّقَانِهِ .

وَذَلِكَ مَنْظَرٌ بِأَخْوَصِ<sup>(٢)</sup> ، فَبَيْنَ ضَبْجِجِ الْآلَاتِ فِي مَخَازِنَ مَصْنُوعَةٍ مِنْ حَدِيدٍ مُصَلَّعٍ ، وَذَاتِ أَبْوَابٍ زَلَّاقَةٍ وَمَشْتَمَلَةٍ عَلَى أَسْلَافٍ وَمُصَفِّحَاتٍ وَأَلْوَابٍ مَعْدِنِيَّةٍ ، يَصْرُخُ مِثَالُ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَيُفْنُونَ وَيُحَرِّكُونَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ فِي الْهَوَاءِ وَيُمُوجُونَ وَيَشْتَدُونَ وَيَتَحَرَّكُونَ كَمَا يَرِيدُ أَنْ يَبَارِيَ الْآلَةُ مَعَ اغْتِطَاءِ شُعُورِهِمْ وَقَصَانِهِمْ وَذُرْعَانِهِمْ وَسَيِّقَانِهِمْ بِغَمَامٍ مِنَ زَعْبٍ أَيْضًا ، وَيَطْرَحُ النِّسَاءُ آخَرَ أَثَرٍ لِلْأَوْرَاقِ بِحَرَكَةٍ سَرِيعَةٍ ، وَيَقِفُ رِجَالٌ أَمَامَ الْمُنْخُلِ فَتَجْرُ السَّبَاحُ بِسَيْرٍ<sup>(٣)</sup> نَحْوَ فَتْحَةٍ عَظِيمَةٍ مَرْبَعَةٍ وَتُذَخَّرُ فِيهَا قَبْلَ أَنْ تَضْفَلَ الْآلَةُ ، وَتَبْدُو عَصَائِبُ عَلَى جِبَاهِ الرِّجَالِ اللَّابِسِينَ قُمُصًا زُرْقًا ، وَيَخْطِطُونَ نِعَالَهُمْ مُنْشِدِينَ يَتَيْنَ مِنَ الشَّعْرِ دُونَ سَوَاهِمَا عَلَى نَفْسِهِمْ عَرِيفَهُمْ مُحَافِظِينَ بِذَلِكَ عَلَى انْسِجَابِهِمْ حَتَّى وَقْتُ اسْتِرَاحَتِهِمْ ،

(١) Aération — (٢) لَسَبَةٌ إِلَى اللَّهِ الْحَرِّ بِأَخْوَصٍ كَمَا جَاءَ فِي الْأَسَاطِيرِ — (٣) السَّيْرُ :

قُدَّةٌ مِنَ الْجِلْدِ مُسْتَطَلَّةٌ .



٤٦ — تنقية القطن



يَنْظُرُونَ لِابْنِ مَعْلُوفٍ يَضًا

وقد أريد توزيع أقمعة مجرزة بقطن طيب رطيب فرقصوا ذلك مُصَلِّين عليه الفناء .  
وم إذا ما وثبوا في الكتلة الزغيبية من ذلك الصندوق المصنوع بالحديد، وإن شئت  
فقل في زوبعة من تلجج، شعروا بالسباح تحت أخص قدمهم القابضة، ويدوسون  
السباح لاهئين منشدين، ويفوضون راقصين في الزغب الحوام الدوام الذي ينقذ  
في كل مكان، ويسئلون ويتجاوزون<sup>(١)</sup> ويمسحون أعينهم منشدين على الدوام،  
وم يبدون، بالمصائب الكهنوتية التي على جباههم، كقرايين نازلين إلى القبر  
ضحي بهم في سبيل إله خفي جبار مجهول لدى الفلاح مالك لما ورام البحار،  
والآن ينتهي التكريم فيخرج الرجال الثمانية من الخاية الحديدية ويثبون على أطرافها  
ويدامون على حبط ناعلم وعلى الفناء ثم يعودون إلى سابق سيرتهم، كأنهم من  
أنصاف العبيد وأنصاف الكهان، وينزلون عشر مرات في الساعة ومئة مرة في  
اليوم إلى ذلك القبر المحاط بريد أبيض .

وينظر المشترون في قاعة كبيرة مجاورة لحال الكبس تلك لابسين معاطف بيضا  
حفظا لبذلاتهم الأنيقة، ويدققون في نماذج القطن المضغوطة ويمسسونها  
ويعطون خيطانها ويعطرحونها، وهم يعرفون جميع أنواعها لما هم عليه من خبرة،  
ولكنهم يجهلون كيف بُدِر القطن وعُني به وجُي، ولكنهم لا يعرفون، أو قد  
نسوا، أن كل رزمة تنطوي على عمل أشد مشدود، والآن عاد النبات لا يكون  
موجودا، والآن تبدوا الأنواع وحدها للأعين .

ويُلوح أن أسماء آلهة تدوي من خلال القاعة كأسماء أبطال الأساطير التي تعوم  
على مجرى الزمن فتدكرنا بأعمالهم، فيقال : « ساكل (سكلاريدس ا)

(١) تخازر : ضيق جفته ليجدد النظر .



أصولي ! أشموني ! كازولي ! بليُون ! زاجوره ! » .

وتُسمع أحكامٌ في وَسْطِ الضوضاءِ يُخَيِّلُ إلى الإنسان أنها صادرةٌ عن قُصَّةِ جهنم أكثرَ من صدورِها عن تجارٍ ، فيقال : « لونٌ جميل ، لونٌ خُصِيبٌ ، عِرْقٌ حَسَنٌ ، عِرْقٌ قَوِيٌّ ، عِرْقٌ حَرِيٌّ ! » .

وهنا يُنخَمُ الدور الأول من تاريخ الملك الأبيض ، وهنا ، في البُرْصَةِ ، تُمتَحَى حياةُ هذا النباتِ وأهميةُ أنواعه من ذَاكرةِ الناسِ .

وتُبَصِّرُ تحت القُبَّةِ جَمْعًا مَوْثِقًا من مئة شخص أو مئتي شخص صارخٍ على مكانٍ مستديرٍ تحيط به قِضبانٌ من حديدٍ مشتملةٌ على مِصْطَبَةٍ يَفُ عليها رجلان صامتان يلاحظان سَيْلَ الناسِ مع اعتدالِ دمٍ واستخفافٍ ، والرجلان من السابرةِ المُخَلَّقَيْنِ ، وهما يشاهدان هذا المنظرَ كُلَّ يومٍ ، وهما يَسْتَمعان هذه الماصفةَ الهائجةَ منذ عشرات السنين فيلوح أنهما صارا أَصْمَيْنِ بسببها ، والحقُّ أنها الوحيدان اللذان يُدْرِكُان شيئًا من أمرها ، والحقُّ أنهما يكتبان بالطباشيرِ ، ومع اتزانٍ ، أرقامًا وكُسُورَ أرقامٍ على لَوْحٍ أسودٍ كبيرٍ ، والحقُّ أن سُوقَ الإسكندرية التي يُعْنَى فيها بعلاماتِ القطن من دون أثمانه قد دَجَرَتْ لبصوَصِ نهارِ الله هنا .

وَيُمَسِّكُ بعضهم ببعضٍ من أزرار الثياب ويتجاوزون من الشَّعْرِ في بعض الأحيان ، وتنفرد أسارى وجوههم من تصاعد الأرقام ، ويحاولون إمساك ذراع أحد الرجلين الواقفين على المِصْطَبَةِ على حين تَصُدُّ عن هذا حركة يده نحو الخارج معناها « لكم » ، أى « اشتريتم » ، أو يُعِيدُ يده إليه فيُعْنِي هذا « منكم » أى « بِنْتُمْ » ، ومن ثَمَّ ترى في مَصَبِّ النيلِ تمثيلَ مسكينٍ لدور رمسيس من الساعة الحادية عشرة إلى الساعة الواحدة .

ولا تَحِيدُ من هؤلاء الأشخاص مَنْ أَبْصَرَ الزَّهَرَ الْأَصْفَرَ لنبات القطن ولا المُنْخُلَ  
 الْمُنْطَى بنسج أسودَ ، ولا السَّاحَةَ الْمُشْتَمَلَةَ على أَكْداَسِ القطن الأبيض ،  
 ولا الْقَبَّانَ على مَنْصَبِهِ ، ولا الْجَمَالَ ذواتِ الْأَحْمَالِ الرَّادِمَةِ ، ولا يُبَايِلِي هؤلاء  
 الأشخاصَ مَنْ يَفْرَقُونَ في كَبَسِ القطن ، ولا بِالْأَنْوَاعِ الَّتِي لَهَا مِنَ الْأَسْمَاءِ مَا تُدْعَى  
 بِهِ الْآلَهُةُ ، فهؤلاء من المقارنين الذين يَرْجُونَ وقت الإغلاق ارتفاعَ الْأَسْعارِ  
 إذا ما أَرَادُوا البيعَ وهبوطَهَا إذا ما أَرَادُوا الشراءَ ، وَلَمَّا تَنْبُتَ البِضَاعَةُ الَّتِي بِضَارِيُونِ  
 عَلَيْهَا ، وَلَمَّا يُلْقَ في الْأَرْضِ بذَرُّهَا ، وهذه المصافقُ ، مع ذلك ، هي الَّتِي تُؤَثِّرُ  
 في حياة طبقاتٍ بِأَسْرَها وشعوبٍ بِاجْمَعِها .

وتتوارى النباتات والقنوات خَلْفَ مساوفٍ بَصِيدَةٍ ، ولا ترى أَسْدَاداً ولا كُومِي  
 لزراعة القطن ، وتُتَكَرَّرُ مَصْرُ بالكهرباء ، والعالمُ شَبَكَةٌ أَسْلَافٌ بَيْنَ لِيْفِرْهُول  
 وَبَسِي تَنْقُلُ في كُلِّ صَبَاحٍ ، من خِلَالِ الْبَحَارِ ، سَيَرُ الْأَسْعارِ في الْبُرْصَةِ ، وعاد  
 التَّيْلُ لا يَكُونُ غَيْرَ أَسْطُورَةٍ ، فلا عروقَ ، ولا أُمَ ، ولا طبقاتٍ ، ولا قَطْنِيَّاتِ ،  
 ولا مَنْسُوجَاتِ ، ولا لَنَاتِ .

## ٣١

تمرُّ جَمَاعَةٌ مِنَ النُّحَامِ<sup>(١)</sup> فَوْقَ قُبَّةِ الْبُرْصَةِ آتِيَةً مِنْ رَشِيدٍ ، وَتَنْجَحِي طَائِرَةً مَعَ  
 أَزْوَاجٍ نَحْوِ الْجَنُوبِ الْغَرْبِيِّ ، وَذَلِكَ لِأَنَّهَا تَجِدُ عَلَى شَوَاطِئِ بَحِيرَةٍ مَرْبُوطَ وَفِي

(١) النحام : طائر طويل العنق والرجلين ، أعفف النصارى أسود الجنانين وسائرهم أحرى وردى ،  
 وهو أنواع كثيرة ، واحده « نَحَامَةٌ » .

مناقع مصب النيل ألوفاً من إخوانها ، هي وردية كالشقق ، هي تُخفي عَنْهَا الرائحة تحت أجنحتها ، هي تَقِفُ على أرجلها السود ، هي تنظر من الشاطئ إلى الكراكي التي تعود من الحقول المحسودة إلى الماء وتذنُّوم انحناه رائع ، ويُصير دجاج الماء الأسود ، عن غير رضا ، إلى القاق<sup>(١)</sup> ، إلى هذا الأفاق ، فيلوح أنه يُفَضَّلُ عليه حَطَّاف البحر وزمار الرمل اللذين يَفْلَّانِ ضَمْنَ نظامهما الوثيق دوماً ، وتقوم زَمَامِيحُ<sup>(٢)</sup> الماء البيض فوقه بِطَيْرَانٍ عجيب مع تخليق ، وتجد فوق الجميع عُقَابَ البحر راصداً ساكناً ، ثم يَنْقُضُ بفتة كدُبوس ويرتفع ثانية إلى ما لا نهاية له مع سَمَكَةٍ مهتزة بين برائته .

وترى تحت شجر الجُمَيْرِ بلاشينَ رمليةً كبيرةً وحيدةً مُفْتَمَّةً ، وترى على أغصان السَّنَطِ العارية تقريباً بلاشينَ بيضاءً لطيفةً واضحةً رؤوسها تحت أجنحتها فتبدو كأنها أزهارٌ كبيرةٌ بيضاء ، وإن الأمر كذلك إذ تَسْمَعُ أجمل صوتٍ من خلال الصَّمتِ وفوق حجارةٍ ثمينة ، إذ تَسْمَعُ تغريدَ الخَصِيرِيِّ ، إذ ترى الخَصِيرِيَّ الجميلَ الجَنَاحَ والطويلَ المنقارَ يطير فوق الماء رويداً رويداً .

وهناك الخطاطيفُ ذواتُ الانعكاسِ القَوْلَاذِيَّ ، وهي قد أتت من الشمال بعد أن جاوزت البحرَ فارةً من البرد وبعد أن قَصَّتْ فصلَ الصيف على شواطئ إنكلترا على ما يحتمل ، وهي تحوم بين مكانٍ ومكانٍ هُلُوعاً ، وهي لن تَبْقَى هنا ، فالجنوب يجتنبها ، واليوم تحاول أن تقومَ بالقسمِ الثاني من رحلتها الكبرى ، وتفرّد على مهلٍ ، وتذهب مُتَّبِعَةً الطَّرْفَ الأخضر من الوادي حتى يعود تكوينُ

(١) القاق : طائر مائي — (٢) زمج الماء : طائر مائي يسمى أيضاً النورس ، وهو أبيض

في حجم الحمام ، ولا يأكل غير السمك .

النهر وَيَهْدِيهَا إِلَى الطَّرِيقِ بِمَرْصِئِهِ الْمُهَيْبِ .

وَتَخَافُ الْخَطَاطِيفُ مَقَرَّ<sup>(١)</sup> الْبَادِيَةِ لِأَنَّهَا نَذِيرُ الْجُوعِ ، وَتَسِيرُ نَحْوَ مَجْرَى النِّيلِ الْعُوقَانِيَّ فُتَطِيرُ فَوْقَ الْعَاصِمَةِ وَجُسُورِهَا وَقُصُورِهَا وَقَلْعَتِهَا وَتُبْصِرُ رُؤُوسَ الشُّكْرِ عَلَى حُدُودِ الصَّحْرَاءِ كَمَا تُبْصِرُ أَبَا الْهَوَلِ رَابِضًا حَارِسًا أَمَامَ أَعْلَاهَا ، وَتَنْتَصِبُ الْأَعْمَدَةُ وَالْتِمَائِيلُ وَالْمِسَلَّاتُ فِي الْوَادِي الْأَخْضَرِ ، وَتَمُرُّ سَفْنٌ مَعَ أَشْرَعَتِهَا الْبَيْضِ حَامِلَةً قُلُلًا صَفْرًا مُكَدَّسَةً ، وَتَمُشِي الْجَلَالُ عَلَى الضَّغَافِ قُطْرًا قُطْرًا ، وَتَسِيرُ حَيْرٌ سُمُرٌ أَمَامَهَا هَذُوًا ، وَيَضْحَكُ الْأَوْلَادُ الْمُرَاةُ قَهْقَهَةً ، وَتَبْكِي السَّوَاقُ فِي جَمِيعِ الْوَادِي ، وَتَذِيرُ الدَّوَالِبُ أَوْفَ الْأُرُوجِ مِنَ الثَّيْرَانِ ، وَيَرَاقِفُهَا الرِّجَالُ مُنْشِدِينَ ، وَتَهْتِكُ صَرَصَرَةً الصَّقَرُ حِجَابَ السَّمَاءِ وَتُخَيِّفُ خَطَاطِيفَ الشَّمَالِ .

وَالنِّيلُ يَهْدِيرُ تَحْتَ تِلْكَ الْجَمَاعَاتِ الْفَارَّةِ إِلَى الْجَنُوبِ ، وَالشَّلَالَاتُ الْأُولَى تُقَطِّي بِالزَّبَدِ ، قَدْ فُتِحَتْ جَمِيعُ الْكُؤَى وَاسْتَرَدَّتِ الطَّبِيعَةُ حَقَّهَا ، وَتَدَاوِمُ الْخَطَاطِيفُ عَلَى اتِّجَاهِهَا نَحْوَ الْجَنُوبِ مِنْ خِلَالِ السَّهْلِ الْخَالِي حَيْثُ تُطْفَرُ نَخْلٌ وَقَرْمَى ، وَتَبْلُغُ الْخَطَاطِيفُ صَخُورًا سُودًا رَاشِحَةً كَمَا تَبْلُغُ أَوْفَ جُزَيْرَاتِ الشَّلَالِ الثَّانِي ، وَهِيَ تَتَبَعُ مَسَاقِطَ الْمَاءِ الْمُتَعَابِقَةِ فِي الْعَقْفَةِ الْكُبْرَى ، ثُمَّ تَتَبَعُ الْعَقْفَةَ الصَّحْرَاوِيَّةَ الصَّفْرَاءَ الْعَظِيمَةَ الَّتِي هِيَ عَلَى شَكْلِ S ، وَذَلِكَ لِأَنَّهَا تَجِدُ عَلَى طُولِ النِّيلِ قَبْطًا مَاتِحًا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي طَيْرَانِهَا إِلَى مَدَى بَعِيدٍ مِنَ الْجَنُوبِ ، وَتَجِدُ الْخَطَاطِيفُ الْمَهَاجِرَةَ فِي الْخَرْطُومِ ، حَيْثُ يَأْتِي أَكْثَرُ الْأَخْوَيْنِ نَفْرَةً وَرُجُوعَةً بِأُمُوجِ الصَّاخَةِ مِنَ الْجَنُوبِ الشَّرْقِيِّ ، جَنَّةِ الطَّيُورِ الثَّانِيَّةِ الَّتِي تَعْقُبُ جَنَّةَ الدَّلْتَا . وَيُظَلُّ مُعْظَمُ الْخَطَاطِيفِ هُنَا حَيْثُ يَنْبُتُ جَمِيعُ مَا حَلَمَ بِهِ فِي الشَّمَالِ ، وَيَسْتَأْنَفُ

(١) المَر : العَيْنُ الْأَحْمَرُ يَصْبَغُ بِهِ .

النهر يظهر نفسه بهدير

بعضُ الجِوَالَةِ منها طريقَه يوماً بعد يوم إلى ما وراء السَّهْبِ الأصفر ، وهناك  
تُبَصِّرُ على الصَّخَرِ الشَّمْسُ تَمْسِيحُ سَاكِنَةً تحت شمس الجنوب ، وَيُبْصِرُ خُرُوجُ  
الأسدِ بساء من الأَجَمَةِ متوجهاً إلى النهر ، وهناك تَبْدَأُ الناقعُ وَيَفِيضُ الماءُ  
وَتَكْثُرُ القَنَوَاتُ وَيَبْدُو منظرٌ منقطعُ النظير لتلك المهاجرة من الشمال ، يَبْدُو  
القليلُ مع أَشْأهِ وصِفَايِهِ ذاتَ صَبَاحٍ ذاهباً بَطَّالاً نحو النيل ، وتُدْعَرُ جماعةُ  
السِّيَاحِ تلكَ فتطير إلى الجنوب .

وتلوحُ بحيراتٌ كبيرة في هذه المرة ، وَيَبْرُزُ بلدٌ غنيٌ رطيبٌ دائمُ الخضرة ،  
ويتحولُ السهلُ العريضُ إلى جنة واسعة كما في الدلتا ، وَيُنْبِئُ السماءَ الماطرُ وَيُزْهِزُ  
ما لا حدَّ له من النباتِ فتَجِدُ الخطاطيفُ مرعىً أميناً دائماً وتَحُمُّ ذاتَ صَبَاحٍ  
مُفَرَّدَةً فوق مساقطِ ماءٍ كبيرة ، وَيَظْهَرُ فَمٌ وُردِيٌّ عَظِيمٌ مفتوحٌ وَيَخْرُجُ ماءُ  
صُفْدٍ من مَنَعَرٍ بقرِ ماءٍ مثائبٍ مِكْسَالٍ مع رأسٍ مرفوعٍ فوق الماءِ ذى خَوَارٍ  
وصُفَارٍ ، وَيَدِبُ القَزَعُ في الخطاطيفِ فتَلْجَأُ إلى غَيْضَةٍ ، وهى تَسْمَعُ وترْقُبُ  
مرتجفةً ، فمَندَ أرجلها يَرْدُ النيل .  
والنهرُ يُظْهِرُ نَفْسَهُ بهدير .



٤٧ — المؤلف في أبي سنبل



## فهرس الصور

٣١	جَبَّار في السَّهْب	٣١٩	زَوْبَعَةُ رَمِلٍ فوق الخَرطوم
٤٥	مَسَاقِطُ رِيَّوْنٍ ، مَنبِعُ النِّيل	٣٢٩	سَفَرٌ من خِلال السَّهْب
٥٧	تَمَسَّاحٌ في النِّيل	٣٦٣	الشَّلَالُ الثَّانِي
٧٥	كَيُوعًا وَالنِّيلُوفَر	٣٧٣	النِّيلُ بِالْقَرَبِ من يَلِاقِ
٨٥	جَبَلُ رُونَزُورِي	٣٩١	أَبُو سَنِبِل
١٠٣	غَايَةُ اسْتَوَائِيَّة	٤٠١	مَجْرَى النِّيلِ التَّحْتَانِي من أُسْوان
١١٣	وَادِي بَحْرِ أَلْجَبِل	٤٣٥	خَزَانُ أُسْوان
١٤٧	الْبَرْزْدِي	٤٤٥	فَلَاخٌ عَلى ضِيقَةِ النِّيل
١٥٧	ذَهَابٌ إِلَى الصِّيد	٤٦٣	خَزَانُ أُسْوان
١٧٥	حَسَنَاءُ	٤٧٣	كُومِ أَمْبُو
١٨٥	من الشَّلْكَ	٥٠٧	هُورُوسٌ في أَدْفُو
٢١٩	بُقْعَةٌ ذَاتُ مَنَاقِع	٥١٧	فَلَاخُونَ في عَهْدِ الْفِرَاعِنَةِ
٢٢٩	غِرْزَانٌ في السَّهْب	٥٣٥	قَرْيَةٌ عَلى شَاطِئِ النِّيل
٢٤٧	سَيَّاحٌ	٥٤٥	صَخُورٌ عَالِيَةٌ عَلى الضُّفَّةِ الشَّرْقِيَّةِ
٢٥٧	جَمَاعَةٌ مِنَ الْأَفْيَالِ	٥٧٩	طَبِيعَةُ وَالْأَقْصَرِ
٢٩١	التَّقَاءُ النِّيلِيْنِ	٥٨٩	نَقُوشٌ بَارِزَةٌ
٣٠١	طِبَاءٌ في الصَّحْرَاءِ	٦٠٧	أَحَدُ الْفِرَاعِنَةِ



٦١٧	حفرة قناة	٧٥١	نِسْوَةٌ يَجْلَأُ مَاءً مِنَ النِّيلِ
٦٥١	خَزَانُ أَسِيوط	٧٦١	بَيْنَ قَنَاثَيْنِ
٦٦١	هَرَم	٧٩٥	سُفُنٌ شِرَاعِيَّةٌ عَلَى النِّيلِ
٦٧٩	المَسَاءُ عَلَى ضِفَافِ النِّيلِ	٨٠٥	اِقْتِطَافُ الْقَطَنِ
٦٨٩	عَوْدَةٌ قَطِيع	٨٢٣	تَنْقِيَّةُ الْقَطَنِ
٧٢٣	زَوْجَانِ مَلَكِيَّانِ مِنَ الْبَطَالَةِ	٨٣١	الْمَوْلَفُ فِي أَبِي سَنْبَلٍ
٧٣٣	بَابُ بَيْتٍ فِي الْقَاهِرَةِ	...	...

## الفهرس

صفحة

١١	مقدمة المترجم
١٣	مقدمة المؤلف
٢١	الجزء الأول : الحرية والمغامرة
١٥٥	الجزء الثاني : أَوْحَسُّ الْأَحْوَيْنِ
٢٣٧	الجزء الثالث : مكافحة الإنسان
٤٣٩	الجزء الرابع : النهر المقهور
٦٠٥	الجزء الخامس : القَمُّ الذهبيُّ
٨٣٣	فهرس الصور

رقم الإيداع : ٥٥٦٥ / ٢٠٠٠

الترقيم الدولي : 7 - 6653 - 01 - 977

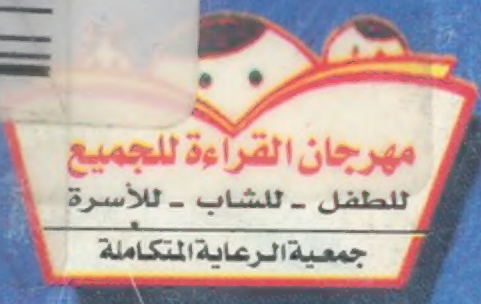
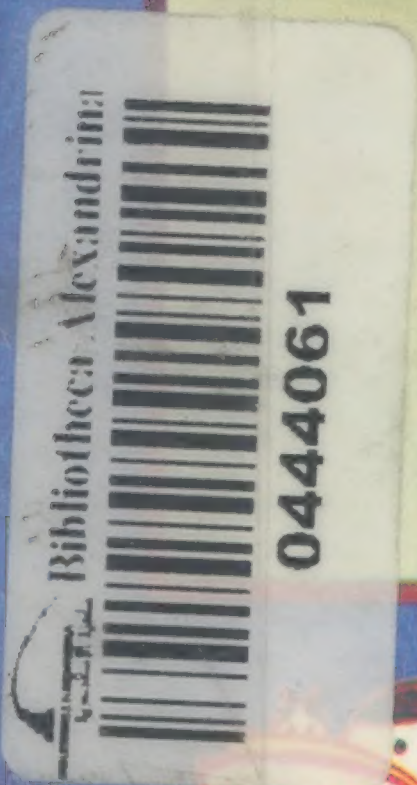






المعرفة حق لكل مواطن وليس للمعرفة سقف  
ولا حدود ولا موعد تبدأ عنده أو تنتهى إليه.. هكذا  
تواصل مكتبة الأسرة عامها السادس وتستمر فى تقديم  
أزهار المعرفة للجميع. للطفل. للشباب. للأسرة كلها. تجربة  
مصرية خالصة يعم فيضها ويشع نورها عبر الدنيا  
ويشهد لها العالم بالخصوصية ومازال الحلم يخطو  
ويكبر ويتعاضم ومازالت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة  
لكل أسرة... وأنى لأرى ثمار هذه التجربة يانعة مزدهرة  
تشهد بأن مصر كانت ومازالت وستظل وطن الفكر المتحرر  
والفن المبدع والحضارة المتجددة.

سوزان مبارك



٥٠٠ قرش

مكتبة الأسرة  
مهرجان القراءة للجميع 2000